

فِي ظِلَالِ الْقُرْآنِ

بقلم

سَيِّدُ قَطْبٍ

المجلدُ الرَّابِعُ

الأجزاء : ١٢-١٨

طبعة جديدة مشروعة

تتضمن إضافات وتنقيحات تركها المؤلف
وتُنشر للمرة الأولى

مع المراجعة الشاملة والتصويب الدقيق
لما كان في الطبعة الأصلية - التي صوّرت عنها الطبعات غير المشروعة -
من أخطاء في الآيات القرآنية والتفسير

دار الشروق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فِي ظِلَالِ الْقُرْآنِ

الطبعة الشرعية الأولى

١٩٧٢

الطبعة الشرعية الثانية والثلاثون

١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

أسسها محمد المعتم عام ١٩٦٨

القاهرة: ٨ شارع سيديبويه المصروف - رابعة العدوية - ص.ب: ٣٣ البانوراما

مدينة نصر - هكتاف: ٤٠٢٣٢٩٩ (٠٢) فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)

البريد الإلكتروني: email: dar@shorouk.com

بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ - هكتاف: ٣٦٥٨٥٩ - ٨٧٢١٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ هُودٍ
وَقِسْمٍ مِنْ
سُورَةِ يُوسُفَ

الجزء الثاني عشر



(١١) سُورَةُ هُودٍ مَكِّيَّةٌ وَأَيَّاتُهَا ثَلَاثٌ وَعِشْرُونَ وَمِائَةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذه السورة مكية بجملتها . خلافاً لما ورد في المصحف الأميري من أن الآيات (١٢ ، ١٧ ، ١١٤) فيها مدنية . ذلك أن مراجعة هذه الآيات في سياق السورة تلمهم أنها تنجيء في موضعها من السياق ، بحيث لا يكاد يتصور خلو السياق منها بادئ ذي بدء . فضلاً على أن موضوعاتها التي تقررها هي من صميم الموضوعات المكية المتعلقة بالعقيدة ، وموقف مشركي قريش منها ، وآثار هذا الموقف في نفس رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - والقلة المسلمة معه ، والعلاج القرآني الرباني لهذه الآثار ..

فالآية ١٢ مثلاً هذا نصها : « فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا : لولا أنزل عليه كتز أو جاء معه ملك ! إنما أنت نذير ، والله على كل شيء وكيل » . . وواضح أن هذا التحدي وهذا العناد من قريش إلى الحد الذي يضيق به صدر رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بحيث يحتاج إلى التورية عنه ، والتثبيت على ما يوحى إليه ؛ إنما كان في مكة ؛ وبالذات في الفترة التي تلت وفاة أبي طالب وخديجة ، وحادث الإسراء ، وجرأة المشركين على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وتوقف حركة الدعوة تقريباً ؛ وهي من أفسى الفترات التي مرت بها الدعوة في مكة ..

والآية ١٧ هذا نصها : « أفن كان على بينة من ربه ، ويتلوه شاهد منه ، ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة ؟ أولئك يؤمنون به ، ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده ، فلا تك في مرية منه ، إنه الحق من ربك ، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون » . . وواضح كذلك أنها من نوع القرآن المكي واتجاهه في مواجهة مشركي قريش بشهادة القرآن للنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - بأنه إنما يوحى إليه من ربه ؛ وبشهادة الكتب السابقة وبخاصة كتاب موسى ؛ وبتصديق بعض أهل الكتاب به - وهذا ما كان في مكة من أفراد من أهل الكتاب - واتخاذ هذا قاعدة للتنديد بموقف المشركين . وتهديد الأحزاب منهم بالنار . مع تثبيت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - على الحق الذي هو معه ، في وجه توقف الدعوة ، وعناد الأكثرية الغالبة في مكة وما حولها من القبائل .. وليس ذكر كتاب موسى بشبهة على مدنية الآية . فهي ليست خطاباً لبني إسرائيل ولا تحدياً لهم - كما هو العهد في القرآن المدني - ولكنها استشهاد بموقف تصديق من بعضهم ؛ وبتصديق كتاب موسى - عليه السلام - لما جاء به محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - وهذا أشبه بالموقف في مكة في هذه الفترة الحرجة ، ومقتضياتها الواضحة .

والآية ١١٤ واردة في سياق تسرية عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - بما كان من الاختلاف على موسى من قبل . وتوجيهه للاستقامة كما أمر هو ومن تاب معه ، وعدم الركون إلى الذين ظلموا (أي أشركوا) والاستعانة بالصلاة والصبر على مواجهة تلك الفترة العصيبة . . وتتوارد الآيات هكذا : « ولقد آتينا موسى الكتاب فاتخلف فيه ، ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم ، وإنهم لفي شك منه مريب (١١٠) وإن كلاً لما ليوفينهم ربك أعمالهم ، إنه بما يعملون خبير (١١١) فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا ، إنه بما تعملون بصير (١١٢) ولا تركزوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ، وما لكم من دون الله من أولياء ، ثم لا تتصرون (١١٣) وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل ، إن الحسنات يذهبن السيئات ، ذلك ذكرى للذاكرين (١١٤) واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين (١١٥) » . . وواضح أن الآية قطعة من السياق المكّي ، موضوعاً وجواً وعبارة . .

* * *

لقد نزلت السورة بجملتها بعد يونس . ونزلت يونس بعد الإسراء . وهذا يحدد معالم الفترة التي نزلت فيها ؛ وهي من أخرج الفترات وأشقمها كما قلنا في تاريخ الدعوة بمكة . فقد سبقها موت أبي طالب وخديجة ؛ وجرأة المشركين على ما لم يكونوا ليجرؤوا عليه في حياة أبي طالب - وخاصة بعد حادث الإسراء وغرابه ، واستهزاء المشركين به ، وارتداد بعض من كانوا أسلموا قبله - مع وحشة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من خديجة - رضي الله عنها - في الوقت الذي تجرأت فيه قريش عليه وعلى دعوته ؛ وبلغت الحرب المعلنة عليه وعلى دعوته أقصى مداها ؛ وتجمدت حركة الدعوة حتى ما كاد يدخل في الإسلام أحد من مكة وما حولها . . وذلك قبيل أن يفتح الله على رسوله وعلى القلة المسلمة معه بيعة العقبة الأولى ثم الثانية . .

قال ابن إسحاق : ثم إن خديجة بنت خويلد وأبا طالب هلكا في عام واحد ، فتتابعت على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المصائب بهلك خديجة - وكانت له وزير صدق على الإسلام يشكو إليها - وبهلك عمه أبي طالب - وكان له عضداً وحرزاً في أمره ، ومنعة وناصرراً على قومه - وذلك قبل مهاجرته إلى المدينة بثلاث سنين . فلما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الأذى ما لم تكن تطمع به في حياة أبي طالب ، حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش ، فنثر على رأسه تراباً .

قال ابن إسحاق : فحدثني هشام بن عروة ، عن أبيه عروة بن الزبير ، قال : لما نثر ذلك السفيه على رأس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ذلك التراب ، دخل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بيته والتراب على رأسه ، فقامت إليه إحدى بناته ، فجعلت تغسل عنه التراب وهي تبكي . ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول لها : « لا تبكي يا بنية ، فإن الله مانع أبابك » قال : ويقول بين ذلك : « ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب » .

وقال المقرئ في إمتاع الأسماع : فعظمت المصيبة على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بموتها وسماء « عام الحزن » وقال : « ما نالت قريش مني شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب » لأنه لم يكن في عشيرته وأعمامه حامياً له ولا ذاباً عنه غيره .

ففي هذه الفترة نزلت سورة هود ويونس قبلها ، وقبلهما سورة الإسراء وسورة الفرقان وكلها تحمل

طابع هذه الفترة ؛ وتحدث عن مدى تحدي قريش وتعديها^١ .
 وآثار هذه الفترة وجوها وظلالها واضحة في جو السورة وظلالها وموضوعاتها ! وبخاصة ما يتعلق بتثبيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والذين معه على الحق ؛ والتسرية عنه مما يساور قلبه من الوحشة والضيق والغربة في المجتمع الجاهلي .

وقد برز طابع هذه الفترة ومقتضياتها في السورة في سمات عدة نشير إلى بعض منها :

* فمن ذلك استعراض السورة لحركة العقيدة الإسلامية في التاريخ البشري كله ، من لدن نوح - عليه السلام - إلى عهد محمد - عليه الصلاة والسلام - وتقرير أنها قامت على حقائق أساسية واحدة : هي الدينونة لله وحده بلا شريك ، والعبودية له وحده بلا منازع ؛ والتلقي في هذه الدينونة والعبودية عن رسل الله وحدهم على مدار التاريخ . مع الاعتقاد بأن الحياة الدنيا إنما هي دار ابتلاء لا دار جزاء ؛ وأن الجزاء إنما يكون في الآخرة ؛ وأن حرية الاختيار التي أعطاها الله للإنسان ليختار الهدى أو الضلال هي مناط هذا الابتلاء .

ولقد جاء محمد عليه الصلاة والسلام ومعه « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » .. أما مضمون هذا الكتاب الأساسي فهو : « ألا تعبدوا إلا الله ، إنني لكم نذير وبشير . وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ، ويؤت كل ذي فضل فضله ، وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير . إلى الله مرجعكم وهو على كل شيء قدير » ...

ولكن هذه لم تكن دعوة مبتدعة ولا قولاً غير مسبوق .. لقد قالها من قبل نوح وهود وصالح وشعيب وموسى وغيرهم : « ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه ، إنني لكم نذير مبين . أن لا تعبدوا إلا الله ، إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم » .. « وإلى عاد أخاهم هوداً قال : يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إن أتم إلا مفترون . يا قوم لا أسألكم عليه أجراً إن أجري إلا على الذي فطرني ، أفلا تعقلون ؟ ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه ، يرسل السماء عليكم مدراراً ، ويزدكم قوة إلى قوتكم . . . ولا تتولوا مجرمين » .. « وإلى ثمود أخاهم صالحاً ، قال : يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ، هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها ، فاستغفروه ثم توبوا إليه ، إن ربي قريب مجيب » .. « وإلى مدين أخاهم شعيباً قال . يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، ولا تنقصوا المكيال والميزان ، إنني أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط . ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين . بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ » ..

فكلهم إذن قال هذه الكلمة الواحدة ودعا بهذه الدعوة الثابتة ..

* ومن ذلك عرض مواقف الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - وهم يتلقون الإعراض والتكذيب ، والسخرية والاستهزاء ، والتهديد والإيذاء ، بالصبر والثقة واليقين بما معهم من الحق ، وفي نصر الله الذي لا شك آت ؛ ثم تصديق العواقب في الدنيا - وفي الآخرة كذلك - لظن الرسل الكرام بوليهم القادر العظيم بالتدمير على المكذبين ، وبالنجاة للمؤمنين :

وفي قصة نوح نجد هذا المشهد : « فقال الملأ الذين كفروا من قومه : ما نراك إلا بشراً مثلاً ، وما نراك

(١) يراجع ما جاء عن هذه الفترة في التعريف بسورة يونس ص ١٧٥١ - ص ١٧٥٢ من الجزء الحادي عشر من هذه الطبعة المنقحة .

اتبعتك إلا الذين هم أرادلنا بادي الرأي ، وما نرى لكم علينا من فضل ، بل نظنكم كاذبين .. قال : يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم ، أنزل مكموها وأتم لها كارهون ؟ ويا قوم لا أسألكم عليه مالا ، إن أجري إلا على الله ، وما أنا بطارد الذين آمنوا ، إنهم ملاقو ربه . ولكني أراكم قوماً تجهلون . ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم ؟ أفلا تذكرون ؟ ولا أقول لكم عندي خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا أقول : إني ملك ، ولا أقول للذين تزدري أعينكم : لن يؤتسبهم الله خيرا ، الله أعلم بما في أنفسهم ، إني إذن لمن الظالمين . قالوا : يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا ، فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين . قال : إنما يأتيكم به الله - إن شاء - وما أتم بمعجزين .. ثم يحييهم مشهد الطوفان وهلاك المكذبين ونجاة المؤمنين .

وفي قصة هود نجد هذا المشهد : « قالوا : يا هود ما جئتنا ببينة ، وما نحن بتاركي آهتنا عن قولك ، وما نحن لك بمؤمنين . إن نقول : إلا اعتراك بعض آهتنا بسوء .. قال : إني أشهد الله ، واشهدوا أي بريء مما تشركون من دونه ، فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون . إني توكلت على الله ربي وربكم ، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ، إن ربي على صراط مستقيم ، فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ، ويستخلف ربي قوماً غيركم ، ولا تصرونه شيئاً ، إن ربي على كل شيء حفيظ .. ثم يحييهم العاقبة : « ولما جاء أمرنا نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ . وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله ، واتبعوا أمر كل جبار عنيد . وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ، ألا إن عاداً كفروا ربهم ، ألا بعداً لعاد قوم هود ! » .

وفي قصة صالح نجد هذا المشهد : « قالوا : يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا ، أتنتهنا أن نعبد ما يعبد آباؤنا ؟ وإننا لنفي شك مما تدعوننا إليه مريب . قال : يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة ، فمن ينصرني من الله إن عصيته ؟ فأتريدونني غير تحسير .. ثم يحييهم العاقبة بعد عقر الناقة والتكذيب : « فلما جاء أمرنا نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ ، إن ربك هو القوي العزيز ، وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين . كأن لم يغنوا فيها ، ألا إن ثموداً كفروا ربهم ، ألا بعداً لثمود ! » ..

وفي قصة شعيب نجد هذا المشهد : « قالوا : يا شعيب أصلاتك تأمرك أن تترك ما يعبد آباؤنا أو أن تفعل في أموالنا ما نشاء ؟ إنك لأنت الحليم الرشيد ! قال : يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ورزقي منه رزقاً حسناً ؟ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ، إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ، وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب . ويا قوم لا يجرمنكم شقاقى أن يصببكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح ، وما قوم لوط منكم ببعيد . واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه ، إن ربي رحيم ودود . قالوا : يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول ، وإنا لنراك فينا ضعيفاً ، ولولا رهطك لرجمناك ، وما أنت علينا بعزيز . قال : يا قوم أرهطي أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهرياً ؟ إن ربي بما تعملون محيط . ويا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل ، سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب ، وارتقبوا إني معكم رقيب .. ثم يحييهم الخاتمة : « ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا ، وأخذت الذين ظلموا الصيحة ، فأصبحوا في ديارهم جاثمين . كأن لم يغنوا فيها ، ألا بعداً لمدن كما بعدت ثمود ! » .. * ومن ذلك التعقيب على هذا القصص بتوجيه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى دلالاته : والتسرية

عنه بما أصاب إخوانه الكرام قبله ؛ وبما أولاهم الله من رعايته ونصره ؛ وتوجيهه - صلى الله عليه وسلم - إلى مفاصلة المكذبين من قومه كما فاصل الرسل الكرام أقوامهم على الحق الذي أرسلوا به .. وذلك إلى التنويه بدلالة هذا القصص ذاته على صدق دعواه في الوحي والرسالة .

فبعد نهاية قصة نوح نجد هذا التعقيب : « تلك من أبناء الغيب نوحينا إليك ، ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ، فاصبر ، إن العاقبة للمتقين » .

وفي نهاية القصص الوارد في السورة نجد هذا التعقيب الطويل إلى ختام السورة : « ذلك من أبناء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد . وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم ، فأغنت عنهم آهنتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك ، وما زادوهم غير تنبيي . وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة ، إن أخذه أليم شديد » . . . « ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ؛ ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم ، وإنهم لفي شك منه مريب . وإن كلاً لما ليوفينهم ربك أعمالهم ، إنه بما يعملون خبير . فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ، ولا تطغوا ، إنه بما تعملون بصير . ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ، وما لكم من دون الله من أولياء ، ثم لا تنصرون . وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل ، إن الحسنات يذهبن السيئات ، ذلك ذكرى للذاكرين . واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين » . . . « وكلاً نقص عليك من أبناء الرسل ما ثبتت به فؤادك ، وجاءك في هذه الحق ، وموعظة وذكرى للمؤمنين . وقل للذين لا يؤمنون : اعملوا على مكانتكم إنا عاملون . وانتظروا إنا منتظرون . والله غيب السوات والأرض ، وإليه يرجع الأمر كله ، فاعبهده ، وتوكل عليه ، وما ربك بغافل عما تعملون » . .

وهكذا يتجلى لنا الجانب الحركي في التوجيه القرآني ؟ وهكذا نرى القرآن يواجه واقع الدعوة والحركة في كل مرحلة بالتوجيه المكافئ للموقف ؛ وهكذا نجد القصص في القرآن يواجه مقتضيات الحركة والمعركة مع الجاهلية في مراحلها المختلفة مواجهة حية فاعلة ، شأنه شأن بقية السورة التي يجيء فيها ؛ ونجده في الوقت ذاته متناسقاً مع سياق السورة وجوها وموضوعها ، متوافقاً مع أهدافها ، مصداقاً في عالم الواقع لما تقرره من توجيهات وأحكام وإيحاءات تقريرية .

* * *

ولقد جاء في التعريف بسورة يونس من قبل في الجزء الحادي عشر :

« ولقد كان آخر عهدنا - في هذه الظلال - بالقرآن المكي سورة الأنعام وسورة الأعراف متواليتين في ترتيب المصحف - وإن لم تكونا متواليتين في ترتيب النزول - ثم جاءت الأنفال والتوبة يجوهما وطبيعتهما وموضوعاتهما المدنية الخاصة - فالآن إذ نعود إلى القرآن المكي نجد سورتي يونس وهود متواليتين في ترتيب المصحف وفي ترتيب النزول أيضاً . . . والعجيب أن هناك شبهة كبيرة بين هاتين السورتين وهاتين ، في الموضوع ، وفي طريقة عرض هذا الموضوع كذلك ! فسورة الأنعام تتناول حقيقة العقيدة ذاتها وتواجه الجاهلية بها ؛ وتفند هذه الجاهلية ، عقيدة وشعوراً ، وعبادة وعملاً . بينما سورة الأعراف تتناول حركة هذه العقيدة في الأرض ، وقصتها في مواجهة الجاهلية على مدار التاريخ . وكذلك نحن هنا مع سورتي يونس وهود . . في شبه كبير في الموضوع وفي طريقة العرض أيضاً . . إلا أن سورة الأنعام تفرد عن سورة يونس بارتفاع وضخامة في الإيقاع ، وسرعة وقوة في النبض ، ولألاء شديد في التصوير والحركة . . بينما تمضي سورة يونس

في إيقاع رخي ، ونبض هادئ ، وسلاسة ودیعة !.. فأما هود فهي شديدة الشبه بالأعراف موضوعاً وعرضاً وإيقاعاً ونبضاً .. ثم تبقى لكل سورة شخصيتها الخاصة ، وملامحها المميزة ، بعد كل هذا التشابه والاختلاف ..

فالآن نفضل هذه الإشارة المجملية :

إن سورة يونس تحتوي على جانب من القصص مجمل .. إشارة إلى قصة نوح ، وإشارة إلى الرسل من بعده ، وشيء من التفصيل في قصة موسى . وإشارة مجملية إلى قصة يونس .. ولكن القصص إنمائي في السورة شاهداً ومثالاً لتصديق الحقائق الاعتقادية التي تستهدفها السورة .

أما سورة هود فالقصص فيها هوجم السورة . وهو وإن جاء شاهداً ومثالاً لتصديق الحقائق الاعتقادية التي تستهدفها ؛ إلا أنه يبدو فيه أن استعراض حركة العقيدة الربانية في التاريخ البشري هو الهدف الواضح البارز .

لذلك نجد تركيب السورة يحتوي على ثلاثة قطاعات متميزة :

القطاع الأول يتضمن حقائق العقيدة في مقدمة السورة ويشغل حيزاً محدوداً .

والقطاع الثاني يتضمن حركة هذه الحقيقة في التاريخ ويشغل معظم سياق السورة .

والقطاع الثالث يتضمن التعقيب على هذه الحركة في حيز كذلك محدود ..

وواضح أن قطاعات السورة بجملتها تتعاون وتتناسق في تقرير الحقائق الاعتقادية الأساسية التي تستهدفها سياق السورة كله ؛ وأن كل قطاع منها يقرر هذه الحقائق وفق طبيعته وطريقة تناوله لهذه الحقائق . وهي تختلف بين التقرير والقصص والتوجيه .

وهذه الحقائق الأساسية التي تستهدف السورة تقريرها هي :

* أن ما جاء به النبي - صلى الله عليه وسلم - وما جاء به الرسل من قبله حقيقة واحدة موحى بها من الله - سبحانه - وهي تقوم على الدينونة لله وحده بلا شريك. والتلقي في هذه الدينونة عن رسل الله وحدهم كذلك . والمفاصلة بين الناس على أساس هذه الحقيقة :

ففي مقدمة السورة تجيء هذه الآيات عن حقيقة دعوة رسول الله - صلى الله عليه وسلم :

« أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْ رَبِّكُمْ بِالْحَقِّ وَالْحَقِيقَةِ وَالْحَقِيقَةِ وَالْحَقِيقَةِ .. »

« أم يقولون : افتراه ؟ قل : فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم

صادقين . فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله ، وأن لا إله إلا هو ، فهل أنتم مسلمون ؟ » .

وفي قصص الرسل يرد عن حقيقة دعوتهم ؛ وعن المفاصلة بينهم وبين قومهم وأهلهم على أساس

العقيدة :

« ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه ، إني لكم نذير مبين . ألا تعبدوا إلا الله ، إني أخاف عليكم عذاب يوم

الآليم » .

« قال : يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم ، أنزل مكوها وأنتم

لها كارهون ؟ » ..

« ونادى نوح ربه فقال : رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين . قال : يا نوح

إنه ليس من أهلك ، إنه عمل غير صالح ، فلا تسألن ما ليس لك به علم ، إني أعظك أن تكون من الجاهلين » .
 « وإلى عاد أخاهم هوداً قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون » ..
 « وإلى ثمود أخاهم صالحاً ، قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب » ..
 « قال : يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة ، فمن ينصرني من الله إن عصيته ؟ فما تريدونني غير تحسير » ..

« وإلى مدين أخاهم شعيباً ، قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ... » .
 « قال : يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ورزقي منه رزقاً حسناً ... » .
 وفي التعقيب ترد هذه الآيات عن حقيقة الدعوة وعن المفاصلة بين الناس على أساسها :
 « ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ، ثم لا تتصرون » ..
 « والله غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله ، فاعبده وتوكل عليه ، وما ربك بغافل عما تعملون » .
 وهكذا تلتقي قطاعات السورة الثلاثة على تقرير هذه الحقيقة .

* ولكي يدين الناس لله وحده بالربوبية ، فإن السورة تتولى تعريفهم به سبحانه ، وتقرر كذلك أنهم في قبضته في هذه الدنيا ؛ وأنهم راجعون إليه يوم القيامة ليجزيهم الجزاء الأخير .. وتتوافق مقاطع السورة الثلاثة في تقرير هذه الحقيقة كذلك .
 في المقدمة يجيء :

« ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ، ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون ، إنه علم بذات الصدور . وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ، ويعلم مستقرها ومستودعها ، كل في كتاب مبين ، وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ، وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ، ولئن قلت : إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا : إن هذا إلا سحر مبين . ولئن أخرجنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولن : ما يحبسهم ؟ ألا يوم يأتيهم ليس مصروفاً عنهم ، وحق بهم ما كانوا به يستهزئون » ..

« من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون . أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار ، وحبط ما صنعوا فيها ، وباطل ما كانوا يعملون » ..
 وفي قصص الرسل يجيء أمثال هذه التعريفات :

« إني توكلت على الله ربي وربكم ، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم . فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ، ويستخلف ربي قوماً غيركم ولا تضرونه شيئاً ، إن ربي على كل شيء حفيظ » ..

« وإلى ثمود أخاهم صالحاً . قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره . هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها ، فاستغفروه ثم توبوا إليه ، إن ربي قريب مجيب » ..
 وفي التعقيب يجيء :

« وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة . إن أخذهم شديد » ..

« وإن كلاً لما ليوفينهم ربك أعمالهم ، إنه بما يعملون خير » .

« وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون . ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين . إلا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم ، وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » . . . وهكذا تتوافق قطاعات السورة الثلاثة كذلك على التعريف بحقيقة الألوهية وحقيقة الآخرة في سياقها . وهي لا تستهدف إثبات وجود الله - سبحانه - إنما تستهدف تقرير ربوبية الله وحده في حياة البشر ، كما أنها مقررة في نظام الكون . . فقضية الألوهية لم تكن محل خلاف ؛ إنما قضية الربوبية هي التي كانت تواجهها الرسالات ؛ وهي التي كانت تواجهها الرسالة الأخيرة . إنها قضية الدينونة لله وحده بلا شريك ؛ والخضوع لله وحده بلا منازع . ورد أمر الناس كلهم إلى سلطانه وقضائه وشرعته وأمره . كما هو واضح من هذه المقتطفات من قطاعات السورة جميعاً .

* * *

وفي سبيل إنشاء تلك الحقائق الاعتقادية في الضمائر ، وتثبيتها في النفوس ، وتعميقها في الكيان البشري ، وبث الحياة النابضة الدافعة فيها بحيث تستحيل قوة إيجابية موحية ، مكيفة للمشاعر والتصورات والأعمال والحركات . . في سبيل إنشاء تلك الحقائق على هذا النحو وفي هذا المستوى يحتوي سياق السورة على شتى المؤثرات الموحية والإيقاعات التي تلمس أوتار الكيان البشري كلها في عمق واستجاشة ، وهو يعرض هذه الحقائق ويفصلها . .

* يحتوي الكثير من الترهيب والترهيب . . الترهيب في خير الدنيا والآخرة لمن يستجيب لداعي الدينونة لله وحده بلا شريك ، وما تحمله للبشرية من خير وصلاح ونماء . . والترهيب بالحرمان من خير الدنيا أو الآخرة ؛ وبالعذاب في الدنيا أو في الآخرة لمن يعرضون عن هذا الداعي ، ويسلكون طريق الطواغيت حيث يسلمونهم في الآخرة إلى جهنم ، التي يقودون لها أتباعهم في الآخرة جزاء ما استسلم لقيادتهم هؤلاء الأتباع في الدنيا ؛ ورضوا بالدينونة لهم دون الدينونة لله تعالى . وهذه نماذج من الترهيب والترهيب :

« ... ألا تعبدوا إلا الله ، إنني لكم منه نذير وبشير ، وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ، ويؤت كل ذي فضل فضله . وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير . إلى الله مرجعكم ، وهو على كل شيء قدير » . .

« من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها ، وهم فيها لا يبخسون . أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار ، وحبط ما صنعوا فيها . وباطل ما كانوا يعملون » . .

« أفمن كان على بينة من ربه ، ويتلوه شاهد منه ، ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة ؟ أولئك يؤمنون به ، ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده ، فلا تك في مرية منه إنه الحق من ربك ، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون . ومن أظلم ممن اقترى على الله كذباً ؟ أولئك يعرضون على ربهم ، ويقول الأشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ، ألا لعنة الله على الظالمين . الذين يصدون عن سبيل الله ويغونها عوجاً ، وهم بالآخرة هم كافرون . أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض ، وما كان لهم من دون الله من أولياء ، يضاعف لهم العذاب ، ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون . أولئك الذين خسروا أنفسهم ، وضل عنهم ما كانوا يفترون . لا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى

رهبهم أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون . مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع ، هل يستويان مثلاً ؟ أفلا تذكرون ؟ » .

« ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه ، يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة إلى قوتكم ، ولا تتولوا مجرمين » ... « فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ، ويستخلف ربي قوماً غيركم ، ولا تضرونه شيئاً ، إن ربي على كل شيء حفيظ .. »

« ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين . إلى فرعون وملئه ، فاتبعوا أمر فرعون ، وما أمر فرعون برشيد . يقدم قومه يوم القيامة ، فأوردتهم النار ، وبئس الورد المورود . وأتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود ! » ... الخ ... الخ ..

* ويحتوي السياق ذلك القصص الطويل الذي يصدق ذلك الترغيب والترهيب في حركة العقيدة على مدار التاريخ ؛ من مصارع المكذبين ونجاة المؤمنين - على النحو الذي سبق في بعض المقطعات - ويبرز مشهد الطوفان بصفة خاصة ؛ ويبلغ نبض السورة أعلى مستواه في ثنايا هذا المشهد الكوني الفريد :

« وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ، فلا تبتئس بما كانوا يفعلون . واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ، ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون . ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه ، قال : إن تسخروا منا فإننا نسخر منكم كما تسخرون . فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ، ويحل عليه عذاب مقيم . حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا : احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك - إلا من سبق عليه القول - ومن آمن ، وما آمن معه إلا قليل . وقال : اركبوا فيها باسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم . وهي تجري بهم في موج كالجبال ، ونادى نوح ابنه - وكان في معزل - يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين . قال : سأوي إلى جبل يعصمني من الماء ! قال : لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ، وحال بينهما الموج فكان من المغرقين . وقيل : يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء ألقعي وغيض الماء ، وقضي الأمر واستوت على الجودي ، وقيل : بعداً للقوم الظالمين » ... الخ ... الخ ... الخ ..

* ويحتوي بعض صور النفس البشرية في مواجهة الأحداث الجارية بالنعماء والبأساء ؛ فيرفع للمكذبين المستعجلين بالعذاب ، المتحدين للذئب في استهتار .. يرفع لهم صور أنفسهم وهم في مواجهة ما يستعجلون به حين يحل بهم ؛ وفي الحشرات التي تصيب أنفسهم على تقلب الأحداث بهم ؛ وفوت النعمة وإفلاتها من أيديهم ؛ وفي البطر والغرور والانخداع بكشف الضر وفيض النعمة من جديد :

« ولئن أخرجنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولن : ما يحبسهم ؟ ألا يوم يأتيهم ليس مصروفاً عنهم . وحق بهم ما كانوا به يستهزئون . ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ، ثم نزعناها منه ، إنه ليؤس كفور . ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن : ذهب السيئات عني ، إنه لفرح فخور . إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات ، أولئك لهم مغفرة وأجر كبير » ...

* ويحتوي شيئاً من مشاهد القيامة ؛ وصور المكذبين فيها ؛ ومواجهتهم لربهم الذي كذبوا بوحيه وتولوا عن رسله ؛ وما يجدونه يومئذ من خزي ؛ لا ينصرهم منه أرباب ولا شفعاء :

« ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً ؟ أولئك يعرضون على ربهم ، ويقول الأشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ! ألا لعنة الله على الظالمين ! الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً ، وهم بالآخرة هم كافرون .

أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض ، وما كان لهم من دون الله من أولياء ، يضاعف لهم العذاب ، ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون ، أولئك الذين خسروا أنفسهم ، وضل عنهم ما كانوا يفترون . لا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون .

« إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ، ذلك يوم مجموع له الناس ، وذلك يوم مشهود . وما تؤخره إلا لأجل معدود . يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه ، فمنهم شقي وسعيد . فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق . خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض - إلا ما شاء ربك - إن ربك فعال لما يريد . وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض - إلا ما شاء ربك - عطاء غير مجذوذ .

* ومن المؤثرات التي ترتجف لها القلوب ما يصوره السياق من حضور الله سبحانه واطلاعه على ما يخفي البشر من ذوات الصدور ؛ بينما هم غارون لا يستشعرون حضوره سبحانه ، ولا علمه المحيط ؛ ولا يحسون قهره للخلائق وإحاطته بها جميعاً ، وهم - الذين يكذبون - في قبضته كسائر الخلائق ؛ من حيث لا يشعرون :
« إلى الله مرجعكم ، وهو على كل شيء قدير . ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ! ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون ، إنه علم بذات الصدور . وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ، ويعلم مستقرها ومستودعها ، كل في كتاب مبين » ..

« إني توكلت على الله ربي وربكم ، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ، إن ربي على صراط مستقيم » .
* ومن المؤثرات الموحية في سياق السورة كذلك ، استعراض موكب الإيمان . بقيادة الرسل الكرام ، على مدار الزمان . وكل منهم يواجه الجاهلية الضالة بكلمة الحق الواحدة الحاسمة الجازمة ، في صراحة وفي صرامة ، وفي ثقة وطمأنينة ويقين .. وقد مرجان من هذا الاستعراض في المقتطفات السابقة ، والبقية ستأتي في موضعها في تفسير السورة . ومما لا شك فيه أن وحدة موقف الرسل الكرام ، ووحدة الحقيقة التي يواجهون بها الجاهلية على مدار الزمان ؛ ووحدة العبارات المحكية عنهم التي تتضمن هذه الحقيقة .. يحمل في طياته ما يحمل من قوة وإيقاع وإيحاء ..

وحسبنا في تقديم السورة هذه الإشارات المجملة حتى نلتقي بنصوص السورة مفصلة ..

.. والله المستعان ..

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّ كَتَبْتُ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَلَتْ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَيْرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَإِنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبُّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُغْفِرْ لَكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾

أَلَّا إِنَّهُمْ يَأْتُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَعِثُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٥﴾ * وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَعْبُودُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَيَقُولَنَّ مَا يَجْحِسُ فِي الْأَيَّامِ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨﴾

وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ زَغَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَبْغُوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَّسَتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّغَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾

فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضُ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مَفْتَرِيْتِ وَأَدْعُوا

مِنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦﴾ فَإِنَّهُمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٧﴾

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٨﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَطُلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾

أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْتَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۗ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ ۗ مِنَ الْأَحْزَابِ فَأَلْهَمْنَا فِرْعَوْنَ أَن يَقُولِ كَذِبًا ۚ أَفَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٢٢﴾ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضْعِفُ لَهُمْ الْعَذَابَ ۗ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٣﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ لَاجِرْمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ ﴿٢٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾ * مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ۗ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾

هذا الدرس الأول من السورة يمثل المقدمة - التي يتوسط القصص بينها وبين التعقيب - وهي تتضمن عرض الحقائق الأساسية في العقيدة الإسلامية : توحيد الدينونة لله الواحد بلا منازع ، وعبادة الله وحده بلا شريك ؛ والاعتقاد في البعث والقيامة للحساب والجزاء على ما كان من الناس من عمل وكسب في دار العمل والابتلاء . مع تعريف الناس بربهم الحق ؛ وصفاته المؤثرة في وجودهم وفي وجود الكون من حولهم ؛ وبيان حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية ، ومقتضاها في حياة البشرية . وتوكيد الدينونة لله في الآخرة كالدينونة له سبحانه في الحياة الدنيا .

كذلك تتضمن هذه المقدمة بياناً لطبيعة الرسالة وطبيعة الرسول ؛ كما تتضمن تسليية وترويحاً للرسول - صلى الله عليه وسلم - في وجه العناد والتكذيب ، والتحدي والمكابرة ، التي كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يواجهها في تلك الفترة العصيبة في حياة الدعوة بمكة ، كما أسلفنا في التعريف بالسورة . مع تحدي

المشركين بهذا القرآن الذي يكذبون به ، أن يأتوا بعشر سورٍ مثله مفتريات - كما يزعمون أن هذا القرآن مفترى - وتثبيت الرسول - صلى الله عليه وسلم - والقلة المؤمنة معه بهذا التحدي من الله وبذلك العجز من المشركين !

ومع هذا التحدي تهديد قاصم للمكذبين بما ينتظرهم في الآخرة من العذاب الذي يستعجلون به ويكذبون . وهم الذين لا يطيقون أن تنزع عنهم رحمة الله في الدنيا ، ولا يصبرون على ابتلائه فيها وهو أيسر من عذاب الآخرة !

ثم يحسم هذا التهديد في مشهد من مشاهد القيامة ؛ يتمثل فيه موقف المكذبين بهذا القرآن من أحزاب المشركين ؛ ويتبين فيه عجزهم وعجز أوليائهم عن إنقاذهم من العذاب الأليم ، المصحوب بالخزي والتشهير والتنديد والتأنيب . وفي الصفحة المقابلة من المشهد . . الذين آمنوا وعملوا الصالحات وما ينتظرهم من الثواب والنعم والتكريم . . ومشهد مصور للفريقين - على طريقة القرآن الكريم في التعبير بالتصوير - : « مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع ، هل يستويان مثلاً ؟ أفلا تذكرون ؟ » . .

* * *

« آثر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير . ألا تعبدوا إلا الله ، إنني لكم منه نذير وبشير ، وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه ، يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ، ويؤت كل ذي فضل فضله ، وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير . إلى الله مرجعكم . وهو على كل شيء قدير » . .

إنها جملة الحقائق الاعتقادية الأساسية :

- * إثبات الوحي والرسالة .
- * العبودية لله وحده بلا شريك .
- * جزاء الله في الدنيا والآخرة لمن يهتدون بهداه ويتبعون منهجه للحياة .
- * جزاء الله في الآخرة للمكذبين ، وعودة الجميع إلى الله عصاة وطائعين .
- * قدرته المطلقة وسلطانه غير المحدود .

« ألف . لام . راء » : مبتدأ ، خبره : « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » . . وهذا الكتاب المؤلف من مثل هذه الأحرف هو الذي يكذبون به . وهم عن شيءٍ من مثله عاجزون !
« كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » . .

أحكمت آياته ، فجاءت قوية البناء ، دقيقة الدلالة ، كل كلمة فيها وكل عبارة مقصودة ، وكل معنى فيها وكل توجيه مطلوب ، وكل إيحاء وكل إشارة ذات هدف معلوم . متناسقة لا اختلاف بينها ولا تضارب ، ومنسقة ذات نظام واحد . ثم فصلت . فهي مقسمة وفق أغراضها ، مبوبة وفق موضوعاتها ، وكل منها له حيز بمقدار ما يقتضيه .

أما من أحكمها ، ومن فصلها على هذا النحو الدقيق ؟ فهو الله سبحانه ، وليس هو الرسول :
« من لدن حكيم خبير » . .

يحكم الكتاب عن حكمة ، ويفصله عن خبرة .. هكذا جاءت من لدنه ، على النحو الذي أنزل على الرسول ، لا تغيير فيها ولا تبديل .

وماذا تضمنت ؟

إنه يذكر أمهات العقيدة وأصولها :

« أن لا تعبدوا إلا الله » .. فهو توحيد الدينونة والعبودية والاتباع والطاعة .
 « إني لكم منه نذير وبشير » .. فهي الرسالة ، وما تضمنته من نذارة وبشارة .
 « وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه » .. فهي العودة إلى الله من الشرك والمعصية ، إلى التوحيد والدينونة .
 « يمتعكم متاعاً حسناً إلي أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله » .. فهو الجزاء للتائبين المستغفرين .
 « وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير » .. فهو الوعيد للمتولين .
 « إلى الله مرجعكم » .. فهي الرجعة إلى الله في الدنيا والآخرة .
 « وهو على كل شيء قدير » .. فهي القدرة المطلقة والسلطان الشامل .

هذا هو الكتاب . أو هو آيات الكتاب . فهذه هي القضايا الهامة التي جاء ليقررها ويقم عليها بناءه كله بعد تقريرها .

وما كان لدين أن يقوم في الأرض ، وأن يقم نظاماً للبشر ، قبل أن يقرر هذه القواعد .

فتوحيد الدينونة لله وحده هو مفرق الطريق بين الفوضى والنظام في عالم العقيدة ؛ وبين تحرير البشرية من عقاب الوهم والخرافة والسلطان الزائف ؛ أو استعبادها للأرباب المتفرقة ونزواتهم ، وللوسطاء عند الله من خلقه ! وللملوك والرؤساء والحكام الذين يغتصبون أخص خصائص الألوهية - وهي الربوبية والقوامة والسلطان والحاكمية - فيعبدون الناس لربوبيتهم الزائفة المغتصبة .

وما من نظام اجتماعي أو سياسي أو اقتصادي أو أخلاقي أو دولي ، يمكن أن يقوم على أسس واضحة فاصلة ثابتة ، لا تخضع للهوى والتأويلات المغرضة ، إلا حين تستقر عقيدة التوحيد هكذا بسيطة دقيقة .

وما يمكن أن يتحرر البشر من الذل والخوف والقلق ؛ ويستمتعوا بالكرامة الحقيقية التي أكرمهم بها الله ، إلا حين يتفرد الله سبحانه بالربوبية والقوامة والسلطان والحاكمية ، ويتجرد منها العبيد في كل صورة من الصور .

وما كان الخلاف على مدار التاريخ بين الجاهلية والإسلام ؛ ولا كانت المعركة بين الحق والطاغوت ، على ألوهية الله - سبحانه - للكون ؛ وتصريف أموره في عالم الأسباب والنواميس الكونية ؛ إنما كان الخلاف وكانت المعركة على من يكون هو رب الناس ؛ الذي يحكمهم بشرعه ، ويصرفهم بأمره ، ويدينهم بطاعته ؟

لقد كان الطواغيت المجرمون في الأرض يغتصبون هذا الحق ويزاولونه في حياة الناس ، ويدلونهم بهذا الاغتصاب لسلطان الله ، ويجعلونهم عبيداً لهم من دون الله . وكانت الرسالات والرسول والدعوات الإسلامية تجاهد دائماً لانتزاع هذا السلطان المغتصب من أيدي الطواغيت ورده إلى صاحبه الشرعي .. الله سبحانه ..

والله - سبحانه - غني عن العالمين . لا ينقص في ملكه شيئاً عصيان العصاة وطغيان الطغاة . ولا يزيد في ملكه شيئاً طاعة الطائعين وعبادة العابدين .. ولكن البشر - هم أنفسهم - الذين يدلون ويصغرون ويسفلون حين يدينون لغير الله من عباده ؛ وهم الذين يعززون ويكرمون ويستعلون حين يدينون لله وحده ، ويتحررون

من العبودية للعبيد .. ولما كان الله - سبحانه - يريد لعباده العزة والكرامة والاستعلاء فقد أرسل رسله ليردوا الناس إلى عبادة الله وحده . وليخرجوهم من عبادة العبيد .. لخيرهم هم أنفسهم .. والله غني عن العالمين . إن الحياة البشرية لا تبلغ مستوى الكرامة الذي يريده الله للإنسان إلا بأن يعزم البشر أن يدينوا لله وحده ، وأن يخلصوا من رقابهم نير الدينونة لغير الله . ذلك النير المذل لكرامة الإنسان في أية صورة قد كان ! والدينونة لله وحده تتمثل في ربوبيته للناس وحده . والربوبية تعني القوامة على البشر ، وتصريف حياتهم بشرع وأمر من عند الله ، لا من عند أحد سواه .

وهذا ما يقرر مطلع هذه السورة الكريمة أنه موضوع كتاب الله وفحواه :

« كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير : ألا تعبدوا إلا الله » ..

وهذا هو معنى العبادة كما يعرفه العرب في لغتهم التي نزل بها كتاب الله الكريم .

والإقرار بالرسالة أساس للتصديق بهذه القضايا التي جاءت الرسالة لتقريرها . وكل شك في أن هذا من عند الله ، كفيل بتحطيم احترامها الملزم في عالم الضمير . والذين يظنون أنها من عند محمد - مهما أقروا بعظمة محمد - لا يمكن أن تتال من نفوسهم الاحترام الملزم ، الذي يتحرجون معه أن يتفلسفوا منها في الكبير أو الصغير .. إن الشعور بأن هذه العقيدة من عند الله هو الذي يطارد ضمائر العصاة حتى يثوبوا في النهاية إلى الله ، وهو الذي يمسك بضمائر الطائعين ، فلا تتلجلج ولا تتردد ولا تحيد .

كما أن الإقرار بالرسالة هو الذي يجعل هناك ضابطاً لما يريده الله من البشر . كي يتلقى البشر في كل ما يتعلق بالدينونة لله من مصدر واحد ، هو هذا المصدر . وكلي لا يقوم كل يوم طاغوت مفتر يقول للناس قولاً ، ويشرع للناس شرعاً ، ثم يزعم أنه شرع الله وأمره ! بينما هو يفتره من عند نفسه !

وفي كل جاهلية كان يقوم من يشرع الشرائع ، ومن يقرر القيم والتقاليد والعادات .. ثم يقول : هذا من عند الله !!!

وما يحسم هذه الفوضى وهذا الاحتيال على الناس باسم الله ، إلا أن يكون هناك مصدر واحد - هو الرسول - لقول الله .

والاستغفار من الشرك والمعصية هو دليل حساسية القلب وانتفاضه ، وشعوره بالإثم ورغبته في التوبة . والتوبة بعد ذلك هي الإقلاع الفعلي عن الذنب ، والأخذ في مقابله في أعمال الطاعة . ولا توبة بغير هذين الدليلين ، فهما الترجمة العملية للتوبة ، وبهما يتحقق وجودها الفعلي ، الذي ترجى معه المغفرة والقبول .. فإذا زعم زاعم أنه تاب من الشرك ودخل في الإسلام ، بينما هو لا يدين لله وحده ، ولا يتلقى منه وحده عن طريق نبيه ؛ فلا قيمة لهذا الزعم الذي يكذبه واقع الدينونة لغير الله ..

والبشرى للتائبين والوعيد للمتولين هما قوام الرسالة ، وقوام التبليغ . وهما عنصران الترغيب والترهيب ، اللذان علم الله من طبيعة البشر أنهما الحافز القوي العميق !

والاعتقاد باليوم الآخر ضروري لاكتمال الشعور بأن وراء الحياة حكمة ، وأن الخير الذي تدعو إليه الرسالات هو غاية الحياة ؛ ومن ثم لا بد أن يلقي جزاءه ؛ فإن لم يلقه في هذه الحياة الدنيا فجزاؤه مضمون في العالم الآخر ، الذي تصل فيه الحياة البشرية إلى الكمال المقدر لها . أما الذين يزيغون عن نهج الله وحكمته في الحياة فهؤلاء يرتكسون وينتكسون إلى درك العذاب .. وفي هذا ضمان للفطرة السليمة ألا تنحرف . فإن

غلبتها شهوة أو استبد بها ضعف عادت تائبة ، ولم تلج في العصيان . ومن ثم تصلح هذه الأرض لحياة البشر . وتمضي الحياة على سنتها في طريق الخير . فالاعتقاد باليوم الآخر ليس طريقاً للثواب في الآخرة فحسب - كما يعتقد بعض الناس - إنما هو الحافز على الخير في الحياة الدنيا . والحافز على إصلاحها وإيمانها . على أن يراعى في هذا النماء أنه ليس هدفاً في ذاته ، إنما هو وسيلة لتحقيق حياة لائقة بالإنسان الذي نفخ الله فيه من روحه ، وكرمه على كثير من خلقه ، ورفعته عن درك الحيوان ؛ لتكون أهداف حياته أعلى من ضرورات الحيوان ؛ ولتكون دوافعه وغاياته أرفع من دوافع الحيوان وغاياته .

ومن ثم كان مضمون الرسالة أو مضمون آيات الكتاب المحكمة المفصلة ، بعد توحيد الدينونة لله ، وإثبات الرسالة من عنده .. الدعوة إلى الاستغفار من الشرك والتوبة .. وهما بدء الطريق للعمل الصالح . والعمل الصالح ليس مجرد طيبة في النفس وشعائر مفروضة تقام . إنما هو الإصلاح في الأرض بكل معاني الإصلاح ، من بناء وعمارة ونشاط ونماء وإنتاج . والجزاء المشروط :

« يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ، ويؤت كل ذي فضل فضله » ..

والمتاع الحسن قد يكون بالنوع كما يكون بالكم في هذه الحياة الدنيا . أما في الآخرة فهو بالنوع والكم وبما لم يخطر على قلب بشر . فلننظر في المتاع الحسن في هذه الحياة .

إننا نشاهد كثيراً من الطيبين الصالحين ، المستغفرين التائبين ، العاملين في الحياة .. مضيقاً عليهم في الرزق . فأين إذن هو المتاع الحسن ؟

وهو سؤال نعتقد أنه يتحرك على السنة الكثيرين !

ولا بد لإدراك المعنى الكبير الذي يتضمنه النص القرآني أن ننظر إلى الحياة من زاوية أوسع ، وننظر إليها في محيطها الشامل العام ، ولا تقتصر منها على مظهر عابر .

إنه ما من جماعة يسود فيها نظام صالح ، قائم على الإيمان بالله ، والدينونة له وحده ، وإفراده بالربوبية والقوامة ، وقائم على العمل الطيب المنتج في الحياة .. إلا كان لها التقدم والرخاء والحياة الطيبة بصفة عامة كجماعة ؛ وإلا ساد فيها العدل بين الجهد والجزاء والرضى والطمأنينة بالقياس إلى الأفراد بصفة خاصة . فإذا شاهدنا في جماعة ما أن الطيبين العاملين المنتجين مضيق عليهم في الرزق والمتاع الطيب ، فذلك شاهد على أن هذه الجماعة لا يسودها النظام المستمد من الإيمان بالله ، القائم على العدل بين الجهد والجزاء .

على أن الأفراد الطيبين الصالحين المنتجين في هذه الجماعة يمتعون متاعاً حسناً ، حتى لو ضيق عليهم في الرزق ، وحتى لو كانت الجماعة تطاردهم وتؤذيهم ، كما كان المشركون يؤذون القلة المؤمنة ، وكما تؤذي الجاهليات القلة الداعية إلى الله . وليس هذا خيلاً وليس ادعاء . فطمأنينة القلب إلى العاقبة ، والاتصال بالله ، والرجاء في نصره وفي إحسانه وفضله .. عوض عن كثير ؛ ومتاع حسن للإنسان الذي يرتفع درجة عن الحسن المادي الغليظ .

ولا نقول هذا لندعو المظلومين الذين لا يجدون جزاء عادلاً على جهدهم إلى الرضى بالأوضاع المنافية للعدالة . فالإسلام لا يرضى بهذا ، والإيمان لا يسكت على مثل تلك الأوضاع . والجماعة المؤمنة مطالبة بإزالتها وكذلك الأفراد ، ليتحقق المتاع الحسن للطيبين العاملين المنتجين . إنما نقوله لأنه حق يحس به المؤمنون المتصلون بالله ، المضيق عليهم في الرزق ، وهم مع هذا يعملون ويجاهدون لتحقيق الأوضاع التي تكفل المتاع الحسن لعباد الله المستغفرين التائبين العاملين بهدى الله .

« ويؤت كل ذي فضل فضله » ..

خصصها بعض المفسرين بجزء الآخرة . وأرى أنها عامة في الدنيا والآخرة ، على النحو الذي فسرنا به المتاع الحسن في الدنيا ؛ وهو متحقق في جميع الأحوال . وذو الفضل يلقي جزاءه في اللحظة التي يبذل فيها الفضل . يجده رضى نفسياً وأرتياحاً شعورياً ، واتصالاً بالله وهو يبذل الفضل عملاً أو مالاً متجهاً به إلى الله . أما جزاء الله له بعد ذلك فهو فضل من الله وسماحة فوق الجزاء .

« وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير » ..

هو عذاب يوم القيامة . لا عذاب يوم بدر كما يقول بعض المفسرين . فاليوم الكبير حين يطلق هكذا ينصرف إلى اليوم الموعود . ويقوي هذا ما بعده :

« إلى الله مرجعكم » .

وإن كان المرجع إلى الله في الدنيا والآخرة وفي كل لحظة وفي كل حالة . ولكن جرى التعبير القرآني على أن المرجع هو الرجعة بعد الحياة الدنيا ..

« وهو على كل شيء قدير » ..

وهذه كذلك تقوي هذا المعنى ، لأن التلويح بالقدرة على كل شيء ، مناسب للبعث الذي كانوا يستبعدونه ويستصعبونه !

* * *

وبعد إعلان خلاصة الكتاب الذي أحكت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير .. يمضي السياق يعرض كيف يتلقى فريق منهم تلك الآيات ، عندما يقدمها لهم النذير البشير ، ويصور الوضع الحسي الذي يتخذونه والحركة المادية المصاحبة له وهي إحناء رؤوسهم وثني صدورهم للتخفي . ويكشف عن العبث في تلك المحاولة وعلم الله يتابعهم في أخفى أوضاعهم ؛ وكل دابة في الأرض مثلهم يشملها العلم اللطيف الدقيق :

« ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه . ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون ، إنه علم بذات الصدور . وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ، ويعلم مستقرها ومستودعها . كل في كتاب مبين » ..

والآياتان الكریمتان تستحضران مشهداً فريداً ترجف له القلوب حين تتدبره وتتصوره !

ويا لها من رهبة غامرة ، وروعة باهرة ، حين يتصور القلب البشري حضور الله - سبحانه - وإحاطة علمه وقهره ؛ بينما أولئك العبيد الضعاف يحاولون الاستخفاء منه وهم يواجهون آياته يتلوها رسوله :

« ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه . ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون . إنه علم بذات الصدور » ..

ولعل نص الآية إنما يصور حالة واقعة كانت تصدر من المشركين ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - سماعهم كلام الله ؛ فيثنون صدورهم ويغطون رؤوسهم استخفاء من الله الذي كانوا يحسون في أعماقهم أنه قائل هذا الكلام .. وذلك كما ظهر منهم في بعض الأحيان !

ولا يكمل السياق الآية حتى يبين عبث هذه الحركة ، والله ، الذي أنزل هذه الآيات ، معهم حين يستخفون وحين يبرزون . ويصور هذا المعنى - على الطريقة القرآنية - في صورة مرهوبة ، وهم في وضع خفي دقيق من أوضاعهم . حين يأوون إلى فراشهم ، ويخلون إلى أنفسهم ، والليل لهم ساتر ، وأغطيهم لهم ساتر . ومع

ذلك فالله معهم من وراء هذه الأستار حاضر ناظر قاهر . يعلم في هذه الخلوة ما يسرون وما يعلنون :

« ألا حين يستخشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون » ..

والله يعلم ما هو أخفى . وليست أعظمتهم بسائر دون علمه . ولكن الإنسان يحس عادة في مثل هذه الخلوة أنه وحيد لا يراه أحد . فالتعبير هكذا يلمس وجدانه ويوقظه ، ويهزه هزة عميقة إلى هذه الحقيقة التي قد يسهو عنها ، فيخيل إليه أن ليس هناك من عين تراه !

« إنه عليم بذات الصدور » ..

عليم بالأسرار المصاحبة للصدور ، التي لا تفارقها ، والتي تلزمها كما يلزم الصاحب صاحبه ، أو المالك ملكه .. فهي لشدة خفائها سميت ذات الصدور . ومع ذلك فالله بها عليم .. وإذن فما من شيء يخفى عليه ، وما من حركة لهم أو سكون تذهب أو تضع .

« وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها ؛ كل في كتاب مبين » ..

وهذه صورة أخرى من صور العلم الشامل المرهوب .. هذه الدواب - وكل ما تحرك على الأرض فهو دابة من إنسان وحيوان وزاحفة وهامة . ما من دابة من هذه الدواب التي تملأ وجه البسيطة ، وتكن في باطنها ، وتخفى في دروبها ومسارها . ما من دابة من هذه الدواب التي لا يحيط بها حصر ولا يكاد يلم بها إحصاء .. إلا وعند الله علمها . وعليه رزقها ، وهو يعلم أين تستقر وأين تكن . من أين تجيء وأين تذهب .. وكل منها . كل من أفرادها مقيد في هذا العلم الدقيق .

إنها صورة مفصلة للعلم الإلهي في حالة تعلقه بالمخلوقات ، يرتجف لها كيان الإنسان حين يحاول تصورها بخياله الإنساني فلا يطيق .

ويزيد على مجرد العلم ، تقدير الرزق لكل فرد من أفراد هذا الحشد الذي يعجز عن تصويره الخيال . وهذه درجة أخرى ، الخيال البشري عنها أعجز إلا بإلهام من الله ..

وقد أوجب الله - سبحانه - على نفسه مختاراً أن يرزق هذا الحشد الهائل الذي يدب على هذه الأرض . فأودع هذه الأرض القدرة على تلبية حاجات هذه المخلوقات جميعاً ، وأودع هذه المخلوقات القدرة على الحصول على رزقها من هذا المودع في الأرض في صورة من صورته . ساذجاً خاماً ، أو منتجاً بالزرع ، أو مصنوعاً ، أو مركباً .. إلى آخر الصور المتجددة لإنتاج الرزق وإعداده . حتى إن بعضها ليتناول رزقه دماً حياً مهضوماً مثلاً كالبعوضة والبرغوث ! !

وهذه هي الصورة اللاتقة بحكمة الله ورحمته في خلق الكون على الصورة التي خلقه بها ؛ وخلق هذه المخلوقات بالاستعدادات والمقدرات التي أوتيتها . وبخاصة الإنسان . الذي استخلف في الأرض ، وأوتي القدرة على التحليل والتركيب ، وعلى الإنتاج والإتماء ، وعلى تعديل وجه الأرض ، وعلى تطوير أوضاع الحياة ؛ بينما هو يسعى لتحصيل الرزق ، الذي لا يخلقه هو خلقاً ، وإنما ينشئه مما هو مذخور في هذا الكون من قوى وطاقات أودعها الله ؛ بمساعدة النواميس الكونية الإلهية التي تجعل هذا الكون يعطي مدخراته وأقواته لكافة الأحياء !

وليس المقصود أن هناك رزقاً فريداً مقدرًا لا يأتي بالسعي ، ولا يتأخر بالقعود ، ولا يضع بالسلبية والكسل ، كما يعتقد بعض الناس ! وإلا فأين الأسباب التي أمر الله بالأخذ بها ، وجعلها جزءاً من نواميسه ؟ وأين حكمة

الله في إعطاء المخلوقات هذه المقدرات والطاقات ؟ وكيف تترقى الحياة في مدارج الكمال المقدر لها في علم الله ، وقد استخلف عليها الإنسان ليؤدي دوره في هذا المجال ؟

إن لكل مخلوق رزقاً . هذا حق . وهذا الرزق مذخور في هذا الكون . مقدر من الله في سننه التي ترتب النتائج على الجهد . فلا يقعدن أحد عن السعي وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة . ولكن السماء والأرض تزخران بالأرزاق الكافية لجميع المخلوقات . حين تطلبها هذه المخلوقات حسب سنة الله التي لا تحابي أحداً ، ولا تتخلف أو تحيد .

إنما هو كسب طيب وكسب خبيث ، وكلاهما يحصل من عمل وجهد . إلا أنه يختلف في النوع والوصف . وتختلف عاقبة المتاع بهذا وذاك .

ولا ننسى المقابلة بين ذكر الدواب ورزقها هنا ؛ وبين المتاع الحسن الذي ذكر في التبليغ الأول . والسياق القرآني المحكم المتناسق لا تفوته هذه اللغات الأسلوبية والموضوعية ، التي تشارك في رسم الجو في السياق . وهاتان الآيتان الكريمتان هما بدء تعريف الناس بربهم الحق الذي عليهم أن يدينوا له وحده . أي أن يعبدوه وحده . فهو العالم المحيط علمه بكل خلقه ، وهو الرازق الذي لا يترك أحداً من رزقه . وهذه المعرفة ضرورية لعقد الصلة بين البشر وخالقهم ؛ ولتعبيد البشر للخالق الرازق العليم المحيط .

* * *

ثم يمضي السياق في تعريف البشر بربهم ، وإطلاعهم على آثار قدرته وحكمته . في خلق السماوات والأرض بنظام خاص في أطوار أو آمامد محكمة ؛ لحكمة كذلك خاصة . يبرز منها السياق هنا ما يناسب البعث والحساب والعمل والجزاء :

« وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ، وكان عرشه على الماء ، ليلبوكم أيكم أحسن عملاً . ولئن قلت : إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا : إن هذا إلا سحرمين » ..
وخلق السماوات والأرض في ستة أيام تحدثنا عنه في سورة يونس^١ . . . وهو يساق هنا للربط بين النظام الذي يقوم عليه الكون والنظام الذي تقوم عليه حياة الناس .
« ليلبوكم أيكم أحسن عملاً » .

والجديد هنا في خلق السماوات والأرض هو الجملة المعترضة : « وكان عرشه على الماء » وما تفيده من أنه عند خلق السماوات والأرض أي إبرازهما إلى الوجود في شكلهما الذي انتهيا إليه كان هناك الماء ؛ وكان عرش الله سبحانه على الماء ..

أما كيف كان هذا الماء ، وأين كان ، وفي أية حالة من حالاته كان . وأما كيف كان عرش الله على هذا الماء . . . فزيادات لم يتعرض لها النص ، وليس لمفسر يدرك حدوده أن يزيد شيئاً على مدلول النص ، في هذا الغيب الذي ليس لنا من مصدر العلم إلا هذا النص وفي حدوده .

وليس لنا أن نتلمس للنصوص القرآنية مصداقاً من النظريات التي تسمى « العلمية » - حتى ولو كان ظاهر النص يتفق مع النظرية وينطبق - فالنظريات « العلمية » قابلة دائماً للانقلاب رأساً على عقب ، كلما اهتدى

(١) ص ١٧٦١ - ١٧٦٣ من الجزء الحادي عشر من هذه الطبعة المنقحة .

العلماء إلى فرض جديد ، وامتحنوه فوجدوه أقرب إلى تفسير الظواهر الكونية من الفرض القديم الذي قامت عليه النظرية الأولى . والنص القرآني صادق بذاته ، اهتدى العلم إلى الحقيقة التي يقررها أم لم يهتد . وفرق بين الحقيقة العلمية والنظرية العلمية . فالحقيقة العلمية قابلة للتجربة - وإن كانت دائماً احتمالية وليست قطعية - أما النظرية العلمية فهي قائمة على فرض يفسر ظاهرة كونية أو عدة ظواهر ، وهي قابلة للتغيير والتبديل والانقلاب .. ومن ثم لا يحمل القرآن عليها ولا تحمل هي على القرآن ، فلها طريق غير طريق القرآن . ومجال غير مجال القرآن

وتلمس موافقات من النظريات « العلمية » للنصوص القرآنية هو هزيمة لجدية الإيمان بهذا القرآن واليقين بصحة ما فيه ، وأنه من لدن حكيم خبير . هزيمة ناشئة من الفتنة « بالعلم » وإعطائه أكثر من مجاله الطبيعي الذي لا يصدق ولا يوثق به إلا في دائرته . فلينتبه إلى ديبب الهزيمة في نفسه من يحسب أنه بتطبيق القرآن على « العلم » يخدم القرآن ويخدم العقيدة ، ويثبت الإيمان ! إن الإيمان الذي ينتظر كلمة العلم البشري المتقلبة ليثبت لهو إيمان يحتاج إلى إعادة النظر فيه ! إن القرآن هو الأصل والنظريات العلمية توافقه أو تخالفه سواء . أما الحقائق العلمية التجريبية فجأها غير مجال القرآن . وقد تركها القرآن للعقل البشري يعمل فيها بكامل حريته ، ويصل إلى النتائج التي يصل إليها بتجاربه ، ووكل نفسه بترية هذا العقل على الصحة والاستقامة والسلامة ، وتحريره من الوهم والأسطورة والخرافة . كما عمل على إقامة نظام للحياة يكفل لهذا العقل أن يستقيم ، وأن يتحرر ، وأن يعيش في سلام ونشاط .. ثم تركه بعد ذلك يعمل في دائرته الخاصة . ويصل إلى الحقائق الجزئية الواقعية بتجاربه . ولم يتعرض لذكر شيء من الحقائق العلمية إلا نادراً . مثل أن الماء أصل الحياة والعنصر المشترك في جميع الأحياء . ومثل أن جميع الأحياء أزواج حتى النبات الذي يلقح من نفسه فهو يحتوي على خلايا التذكير والتأنيث ... وأمثال هذه الحقائق . التي صرحت بها النصوص القرآنية^١ .

ونعود من هذا الاستطراد إلى النص القرآني نتملاه في مجاله الأصل . مجال بناء العقيدة وتصريف الحياة :

« وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام - وكان عرشه على الماء - ليلوكم أيكم أحسن عملاً » ..

خلق السماوات والأرض في ستة أيام .. وهنا فقرات كثيرة محذوفة يشير إليها ما بعدها فيغني عنها .. خلقها في هذا الأمد ، لتكون صالحة ومجهزة لحياة هذا الجنس البشري ، وخلقكم وسخر لكم الأرض وما يفيدكم من السماوات .. وهو سبحانه مسيطر على الكون كله .. « ليلوكم أيكم أحسن عملاً » .. والسياق يظهر كأن خلق السماوات والأرض في ستة أيام - مع سيطرة الله سبحانه على مقاليد - كان من أجل ابتلاء الإنسان . ليعظم هذا الابتلاء ويشعر الناس بأهميتهم ويجدية ابتلائهم .

وكما جهز الخالق هذه الأرض وهذه السماوات بما يصلح لحياة هذا الجنس ، جهز هذا الجنس كذلك باستعدادات وطاقات ؛ وبنى فطرته على ذات القاتون الذي يحكم الكون ؛ وترك له جانباً اختيارياً في حياته ، يملك معه أن يتجه إلى الهدى فيعينه الله عليه ويهديه ، أو أن يتجه إلى الضلال فيمد الله له فيه ، وترك الناس يعملون ، ليلوهم أيهم أحسن عملاً . يبلوهم لا للعلم فهو يعلم . ولكن يبلوهم ليظهر المكنون من أفعالهم ، فيتلقوا جزاءهم عليها كما اقتضت إرادة الله وعدله .

(١) يراجع بتوسع عن موضوع القرآن والعلم ما سبق في هذه الظلال . ص ١٨٠ - ١٨٤ من الجزء الثاني من هذه الطبعة المنقحة وص ١١١٣ - ١١٢١ من الجزء السابع .

ومن ثم يبدو التوكذيب بالبعث والحساب والجزاء عجيباً غريباً في هذا الجو . بعدما يذكر أن الابتلاء مرتبط بتكوين السماوات والأرض . أصيل في نظام الكون وسنن الوجود .

ويبدو المكذبون به غير معقولين وغير مدركين للحقائق الكبيرة في تكوين هذا الوجود ، وهم يعجبون لهذه الحقائق وبها يفاجأون :

« ولئن قلت : إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا : إن هذا إلا سحر مبين » ..
فأعجبها قوله ، وما أغربها ، وما أكذبها في ظل هذا البيان الذي تقدمها !

* * *

شأنهم في التوكذيب بالبعث ، وجهلهم بارتباطه بناموس الكون ، هو شأنهم في مسألة العذاب الدنيوي ، فهم يستعجلونه ويتساءلون عن سبب تأخيره ، إذا ما اقتضت الحكمة الأزلية أن يتأخر عنهم فترة من الوقت :
« ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولن : ما يحبسهم ؟ ألا يوم يأتيهم ليس مصروفاً عنهم ، وحق بهم ما كانوا به يستهزئون » .

لقد كانت القرون الأولى تهلك بعذاب من عند الله يستأصلها ، بعد أن يأتيهم رسولهم بالخوارق التي يطلبونها ثم يمضون هم في التوكذيب . ذلك أنها كانت رسالات مؤقتة لأمة من الناس ، ولجيل واحد من هذه الأمة . والمعجزة كذلك لا يشهدها إلا هذا الجيل ، ولا تبقى لتشهدها أجيال أخرى لعلها تؤمن بها أكثر مما آمن الجيل الذي شهدها أول مرة .

فأما الرسالة المحمدية فقد كانت خاتمة الرسالات ، ولجميع الأقوام وجميع الأجيال ، وكانت المعجزة التي صاحبته معجزة غير مادية ، فهي قابلة للبقاء ، قابلة لأن تندبرها أجيال وأجيال ، وتؤمن بها أجيال وأجيال ، ومن ثم اقتضت الحكمة ألا تؤخذ هذه الأمة بعذاب الاستئصال . وأن يقع العذاب على أفراد منها في وقت معلوم .. وكذلك كان الحال في الأمم الكتابية قبلها من اليهود والنصارى ، فلم يعم فيهم عذاب الاستئصال .

ولكن المشركين في جهلهم بنواميس الله الخاصة بخلق الإنسان على هذا النحو من القدرة على الاختيار والاتجاه ؛ وخلق السماوات والأرض على نحو يسمح له بالعمل والنشاط والبلاء ينكرون البعث . وفي جهلهم بسنن الله في الرسالات والمعجزات والعذاب يتساءلون إذا ما أخر عنهم إلى أمة من السنوات أو الأيام - أي مجموعة منها - ما يحبسهم ؟ وما يؤخره ؟ فلا يدركون حكمة الله ولا رحمته . وهو يوم يأتيهم لا يصرف عنهم ، بل يحيط بهم ، جزاء لاستهزائهم الذي يدل عليه سؤلهم واستهتارهم :
« ألا يوم يأتيهم ليس مصروفاً عنهم وحق بهم ما كانوا به يستهزئون » .

إن عذاب الله لا تستعجله نفس مؤمنة ولا نفس جادة . وإذا ما أبطأ فهي حكمة ورحمة . ليؤمن من يتعباً للإيمان .

وفي فترة التأجيل التي صرف الله العذاب فيها عن مشركي قريش ، كم آمن منهم من رجال حسن إسلامهم وأبلوا أحسن البلاء . وكم ولد لكفارهم من ذرية نشأت فيما بعد في الإسلام .. وهذه وتلك بعض الحكم الظاهرة والله يعلم ما بطن . ولكن البشر القاصرين العجول لا يعلمون ..

* * *

وبمناسبة استعجال العذاب يحول السياق جولة في نفس هذا المخلوق الإنساني العجيب ، الذي لا يثبت ولا يستقيم إلا بالإيمان :

« ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤوس كفور ، ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن : ذهب السيئات عني ، إنه لفرح فخور . إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات ، أولئك لهم مغفرة وأجر كبير » ..
إنها صورة صادقة لهذا الإنسان العجول القاصر ، الذي يعيش في لحظته الحاضرة ، ويطغى عليه ما يلابسه ؛ فلا يتذكر ما مضى ولا يفكر فيما يلي . فهو يؤوس من الخير ، كفور بالنعمة بمجرد أن تتزع منه . مع أنها كانت هبة من الله له . وهو فرح بطر بمجرد أن يجاوز الشدة إلى الرخاء . لا يحتمل في الشدة ويصبر ويؤمل في رحمة الله ويرجو فرجه ؛ ولا يقتصد في فرجه وفخره بالنعمة أو يحسب لزوالها حساباً ..
« إلا الذين صبروا » ..

صبروا على النعمة كما صبروا على الشدة ؛ فإن كثيراً من الناس يصبرون على الشدة تجلداً وإباءً أن يظهر عليهم الضعف والخور ، ولكن القلة هي التي تصبر على النعمة فلا تغتر ولا تبطر ..
« وعملوا الصالحات » ..

في الحالين . في الشدة بالاحتمال والصبر ، وفي النعمة بالشكر والبر .
« أولئك لهم مغفرة وأجر كبير » ..
بما صبروا على الضراء وبما شكروا في السراء .

إن الإيمان الجاد المتمثل في العمل الصالح هو الذي يعصم النفس البشرية من اليأس الكافر في الشدة ؛ كما يعصمها من البطر الفاجر في الرخاء . وهو الذي يقيم القلب البشري على سواء في البأساء والنعماء ؛ ويربطه بالله في حاله ، فلا يتهاوى ويتهافت تحت مطارق البأساء . ولا يتنفج ويتعالى عندما تغمره النعماء .. وكلا حالي المؤمن خير . وليس ذلك إلا للمؤمن كما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم .

* * *

أولئك الجاهلون بحكمة الخلق وبسنن الكون - وهم أفراد من هذا الإنسان القاصر الغافل اليؤوس الكفور الفرح الفخور - الذين لا يدركون حكمة إرسال الرسل من البشر فيطلبون أن يكون الرسول ملكاً أو أن يصاحبه ملك ؛ ولا يقدرين قيمة الرسالة فيطلبون أن يكون للرسول كثر ! .. أولئك المكذبون المعاندون الذين يلجون في التكذيب والعناد .. ما تراك صانعاً معهم أيها الرسول ؟

« فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا : لولا أنزل عليه كثر أو جاء معه ملك . إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل » ..

ولعل هنا تحمل معنى الاستفهام . وهو ليس استفهاماً خالصاً ، إنما يتلبس به أن المتوقع من النفس البشرية أن تضيق صدرها بهذا الجهل ، وبهذا التعنت ، وبهذه الاقتراحات السخيفة التي تكشف عن بعد كامل عن إدراك طبيعة الرسالة ووظيفتها . فهل سيضيق صدرك - يا محمد - وهل سيحملك هذا الضيق على أن تترك بعض ما أنزل إليك فلا تبلغه لهم ، كي لا يقابلوه بما اعتادوا أن يقابلوا به نظائره فيما أخبرتهم من قبل ؟

كلا . لن تترك بعض ما يوحى إليك ولن يضيق به صدرك من قولهم هذا :
« إنما أنت نذير » ..

فواجبك كله أن تنذرهم - وأبرز صفة النذير هنا لأن المقام يستوجبها مع أمثال هؤلاء - فأد واجبك :
« والله على كل شيء وكيل » ..

فهو الموكل بهم ، يصرفهم كيف يشاء وفق سنته ، ويحاسبهم بعد ذلك على ما يكسبون . ولست أنت موكلاً بكفرهم أو إيمانهم . إنما أنت نذير .

وهذه الآية تشي بجو تلك الفترة الحرجة في تاريخ الدعوة ؛ وما كان يعتور صدر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الضيق . كما تشي بثقل المواجهة للجاهلية المتمردة المعاندة ، في الوقت الذي هلك فيه العشير والنصير ؛ وغمرت الوحشة قلب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وغشى الكرب على قلوب المؤمنين القلائل في هذه الجاهلية المحيطة ..

ومن بين كلمات الآية نحس جواً مكروباً تنتزل فيه هذه الكلمات الربانية بالبشاشة ، وتسكب فيه الطمأنينة ، وتريح الأعصاب والقلوب !

* * *

وقولة أخرى يقولونها . وقد قالوها مراراً : إن هذا القرآن مفترى . فتحدهم إذن أن يفتروا عشر سور كسوره ، وليستعينوا بمن يشاءون في هذا الاقتراء :

« أم يقولون افتراه ؟ قل : فاتوا بعشر سور مثله مفتريات . وادعوا من استطعم من دون الله إن كنتم صادقين » ..

ولقد سبق أن تحداهم بسورة واحدة في سورة يونس ، فما التحدي بعد ذلك بعشر سور ؟ قال المفسرون القدامى : إن التحدي كان على الترتيب : بالقرآن كله ، ثم بعشر سور ، ثم بسورة واحدة . ولكن هذا الترتيب ليس عليه دليل . بل الظاهر أن سورة يونس سابقة والتحدي فيها بسورة واحدة ، وسورة هود لاحقة والتحدي فيها بعشر سور . وحقيقة إن ترتيب الآيات في النزول ليس من الضروري أن يتبع ترتيب السور . فقد كانت تنزل الآية فتلتحق بسورة سابقة أو لاحقة في النزول . إلا أن هذا يحتاج إلى ما يشبهه . وليس في أسباب النزول ما يثبت أن آية يونس كانت بعد آية هود . والترتيب التحكيمي في مثل هذا لا يجوز . ولقد حاول السيد رشيد رضا في تفسير المنار أن يجد لهذا العدد « عشر سور » علة ، فأجهد نفسه طويلاً - رحمة الله عليه - ليقول : إن المقصود بالتحدي هنا هو القصص القرآني ، وأنه بالاستقراء يظهر أن السور التي كان قد نزل بها قصص مطول إلى وقت نزول سورة هود كانت عشرًا . فتحداهم بعشر .. لأن تحديهم بسورة واحدة فيه يعجزهم أكثر من تحديهم بعشر نظراً لتفرق القصص وتعدد أساليبه ، واحتياج التحدي إلى عشر سور كالتالي ورد فيها ليتمكن من المحاكاة إن كان سيحاكي .. إلخ^١

ونحسب - والله أعلم - أن المسألة أيسر من كل هذا التعقيد . وأن التحدي كان يلاحظ حالة القائلين وظروف القول ، لأن القرآن كان يواجه حالات واقعة محددة مواجهة واقعة محددة . فيقول مرة : اثتوا بمثل هذا القرآن . أو اثتوا بسورة ، أو بعشر سور . دون ترتيب زمني . لأن الغرض كان هو التحدي في ذاته بالنسبة لأي شيء من هذا القرآن . كله أو بعضه أو سورة منه على السواء . فالتحدي كان بنوع هذا القرآن لا بمقداره . والعجز كان عن النوع لا عن المقدار . وعندئذ يستوي الكل والبعض والسورة . ولا يلزم ترتيب ، إنما هو

(١) من صفحة ٣٢ إلى صفحة ٤١ من تفسير المنار الجزء الثاني عشر .

مقتضى الحالة التي يكون عليها المخاطبون ، ونوع ما يقولون عن هذا القرآن في هذه الحالة . فهو الذي يجعل من المناسب أن يقال سورة أو عشر سور أو هذا القرآن . ونحن اليوم لا نملك تحديد الملابس التي لم يذكرها لنا القرآن .

« وادعوا من استطعم من دون الله إن كنتم صادقين » ..

ادعوا شركاءكم وفصحاءكم وبلغاءكم وشعراءكم وجنكم وإنسكم . وأتوا بعشر سور فقط مفتريات ، إن كنتم صادقين في أن هذا القرآن مفترى من دون الله !
« فإن لم يستجيبوا لكم » ..

ولم يقدرُوا على اقتراء عشر سور ، لأنهم عاجزون عن أن يقدموا لكم عوناً في هذه المهمة المتعذرة ! وعجزتم أتم بطبيعة الحال ، لأنكم لم تدعوهم لتستعينوا بهم إلا بعد عجزكم !
« فاعلموا أنما أنزل بعلم الله » ..

فهو وحده القادر على أن ينزله ، وعلم الله وحده هو الكفيل بأن ينزله على هذا النحو الذي نزل به ، متضمناً ما تضمنه من دلائل العلم الشامل بسنن الكون وأحوال البشر ، وماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم ، وما يصلح لهم في نفوسهم وفي معاشهم ...
« وأن لا إله إلا هو » ..

فهذا مستفاد كذلك من عجز آهتكم عن تليبتكم في تأليف عشر سور كالتي أنزلها الله . فلا بد أن يكون هناك إله واحد هو القادر وحده على تنزيل هذا القرآن .
ويعقب على هذا التقرير الذي لا مفر من الإقرار به بسؤال لا يحتمل إلا جواباً واحداً عند غير المكابرين المتعنتين . سؤال :

« فهل أتم مسلمون ؟ » ..

بعد هذا التحدي والعجز ودلالته التي لا سبيل إلى مواجهتها بغير التسليم ؟ .

ولكنهم ظلوا بعدها يكابرون !!!

لقد كان الحق واضحاً ولكنهم كانوا يخافون على ما يتمتعون به في هذه الحياة الدنيا من منافع وسلطان ، وتعبيد للناس كي لا يستجيبوا لداعي الحرية والكرامة والعدل والعزة .. داعي لا إله إلا الله .. لهذا يعقب السياق بما يناسب حالهم ويصور لهم عاقبة أمرهم فيقول :

« من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون . أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار ، وحبط ما صنعوا فيها ، وباطل ما كانوا يعملون » ..

إن للجهد في هذه الأرض ثمرته . سواء تطلع صاحبه إلى أفق أعلى أو توجه به إلى منفعه القريبة وذاته المحدودة . فمن كان يريد الحياة الدنيا وزينتها فعمل لها وحدها ، فإنه يلقي نتيجة عمله في هذه الدنيا ؛ ويتمتع بها كما يريد - في أجل محدود - ولكن ليس له في الآخرة إلا النار ، لأنه لم يقدم للآخرة شيئاً ، ولم يحسب لها حساباً ، فكل عمل الدنيا يلقاه في الدنيا . ولكنه باطل في الآخرة لا يقام له فيها وزن وحابط (من حبطت الناقة إذا انتفخ بطنها من المرض) وهي صورة مناسبة للعمل المنتفخ المتورم في الدنيا وهو مؤد إلى الهلاك !
ونحن نشهد في هذه الأرض أفراداً اليوم وشعوباً وأماً تعمل هذه الدنيا ، وتنال جزاءها فيها . ولديهاها

زينة ، ولدنياها انتفاخ ! فلا يجوز أن نعجب ولا أن نسأل : لماذا؟ لأن هذه هي سنة الله في هذه الأرض : « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون » .

ولكن التسليم بهذه السنة ونتائجها لا يجوز أن ينسبنا أن هؤلاء كان يمكن أن يعملوا نفس ما عملوه - ونفوسهم تتطلع للآخرة وتراقب الله في الكسب والمتاع - فينالوا زينة الحياة الدنيا لا يبخسون منها شيئاً ، وينالوا كذلك متاع الحياة الأخرى .

إن العمل للحياة الأخرى لا يقف في سبيل العمل للحياة الدنيا . بل إنه هو هو مع الاتجاه إلى الله فيه . ومراقبة الله في العمل لا تقلل من مقداره ولا تنقص من آثاره ؛ بل تزيد وتبارك الجهد والثمر ، وتجعل الكسب طيباً والمتاع به طيباً ، ثم تضيف إلى متاع الدنيا متاع الآخرة . إلا أن يكون الغرض من متاع الدنيا هو الشهوات الحرام . وهذه مردية لا في الأخرى فحسب ، بل كذلك في الدنيا ولوبعد حين . وهي ظاهرة في حياة الأمم وفي حياة الأفراد . وعبر التاريخ شاهدة على مصير كل أمة اتبعت الشهوات على مدار القرون .

بعد ذلك يلتفت السياق إلى موقف المشركين من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وما جاءه من الحق ؛ وإلى هذا القرآن الذي يشهد له بأنه على بينة من ربه ، وأنه مرسل من عنده ؛ كما يشهد له كتاب موسى من قبله . يلتفت السياق إلى هذا الحشد من الأدلة المحيطة بالنبي - صلى الله عليه وسلم - وبدعوته ورسالته . ذلك ليثبت بهذه الالتفاتة قلب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والقللة المؤمنة معه . ثم ليوعد الذين يكفرون به من أحزاب المشركين بالنار ؛ وليعرضهم في مشهد من مشاهد العذاب يوم القيامة بجلل الخزي والعار جزاء العتو والاستكبار ؛ وليقرر أن هؤلاء المتبجحين بالباطل ، المعاندين في الحق أعجز من أن يفلتوا من عذاب الله ؛ وأعجز من أن يجدوا لهم من دون الله أولياء .. « لا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون » .. وليعقد بينهم وبين المؤمنين موازنة في صورة حسية مشهودة ؛ تصور الفارق البعيد بين الفريقين في طبيعتهما ، وفي موقفهما وحالهما في الدنيا وفي الآخرة سواء :

« أفن كان على بينة من ربه ، وبتلوه شاهد منه ، ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة ؟ أولئك يؤمنون به ، ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده ، فلا تك في مرية منه ، إنه الحق من ربك ، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون .

« ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً ؛ أولئك يعرضون على ربهم ؛ ويقول الأشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ، ألا لعنة الله على الظالمين . الذين يصدون عن سبيل الله ويغونها عوجاً ، وهم بالآخرة هم كافرون . أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض ، وما كان لهم من دون الله من أولياء ، يضاعف لهم العذاب . ما كانوا يستطيعون السمع ، وما كانوا يبصرون . أولئك الذين خسروا أنفسهم ، وضل عنهم ما كانوا يفترون . لا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون .

« إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون .

« مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع . هل يستويان مثلاً ؟ أفلا تذكرون ؟ » ..

إن طول هذه الجملة ، وتنوع الإشارات والإيحاءات فيها ، وتنوع الفتات والإيقاعات أيضاً .. إن هذا كله يشي بما كانت تواجهه القلة المؤمنة ، في تلك الفترة الحرجة من تاريخ الدعوة ؛ ويصور لنا حاجة الموقف إلى هذه المعركة التقريرية الإيحائية ؛ كما يصور لنا طبيعة هذا القرآن الحركية ؛ وهو يواجه ذلك الواقع ويجاهده جهاداً كبيراً .

إن هذا القرآن لا يتذوقه إلا من يخوض مثل هذه المعركة ؛ ويواجه مثل تلك المواقف التي تنزل فيها ليواجهها ويوجهها . والذين يتلمسون معاني القرآن ودلالاته وهم قاعدون . يدرسونه دراسة بيانية أو فنية لا يملكون أن يجدوا من حقيقته شيئاً في هذه القعدة الباردة الساكنة ؛ بعيداً عن المعركة وبعيداً عن الحركة . . إن حقيقة هذا القرآن لا تتكشف للقاعدين أبداً ، وإن سره لا يتجلى لمن يؤثرون السلامة والراحة مع العبودية لغير الله ، والدينونة للطاغوت من دون الله !

« أفن كان على بيته من ربه ، ويتلوه شاهد منه ، ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة ؟ أولئك يؤمنون به ، ومن يكفره من الأحزاب فالنار موعده ، فلا تك في مرية منه ، إنه الحق من ربك ، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون » . .

وردت روايات شتى فيما هو المقصود بقوله تعالى : « أفن كان على بيته من ربه » . . وفي قوله تعالى : « ويتلوه شاهد منه » . وفي عائد هذه الضمائر في : « ربه » وفي « يتلوه » وفي « منه » . . وأرجحها - كما يبدو لي - هو أن المقصود بقوله تعالى : « أفن كان على بيته من ربه » هو رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وبالتبعية له كل من يؤمن بما جاء به - وأن المقصود بقوله تعالى : « ويتلوه شاهد منه » أي ويتبعه شاهد من ربه على نبوته ورسالته . وهو هذا القرآن الذي يشهد بذاته أنه وحى من الله لا يقدر عليه بشر . « ومن قبله » - أي من قبل هذا الشاهد وهو القرآن ؛ « كتاب موسى » يشهد كذلك بصدق النبي - صلى الله عليه وسلم - سواء بما تضمنه من البشارة به ؛ أو بموافقة أصله لما جاء به محمد من بعده .

والذي يرجح هذا عندي هو وحدة التعبير القرآني في السورة - في تصوير ما بين الرسل الكرام وربهم ، من بيته يجدونها في أنفسهم ، يستيقنون معها أن الله هو الذي يوحى إليهم ، ويجدون بها ربهم في قلوبهم وجوداً مستيقناً واضحاً لا يخالفهم معه شك ولا ريبه . فنوح - عليه السلام - يقول لقومه : « يا قوم أرايتم إن كنت على بيته من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم ، أنزل مكوهها وأتم لها كارهون ؟ » . . وصالح عليه السلام يقول الكلمة ذاتها : « قال : يا قوم أرايتم إن كنت على بيته من ربي وآتاني منه رحمة فمن ينصرني من الله إن عصيته ؟ فما تريدوني غير تخسير » . . وشعيب عليه السلام يقولها كذلك : « قال : يا قوم أرايتم إن كنت على بيته من ربي ، ورزقني منه رزقاً . . » فهو تعبير موحد عن حال واحدة للرسل الكرام مع ربهم ، تصور حقيقة ما يجدونه في أنفسهم من رؤية قلبية مستيقنة لحقيقة الألوهية في نفوسهم ؛ ولصدق اتصال ربهم بهم عن طريق الوحي أيضاً . . وهذا التوحيد في التعبير عن الحال الواحدة مقصود قصداً في سياق السورة - كما أسلفنا في التعريف بها - لإثبات أن شأن النبي - صلى الله عليه وسلم - مع ربه ومع الوحي الذي تنزل عليه شأن سائر الرسل الكرام قبله ؛ مما يبطل دعاوى المشركين المقترة عليه - صلى الله عليه وسلم - وكذلك لتثيته هو والقلة المؤمنة معه على الحق الذي معهم ؛ فهو الحق الواحد الذي جاء به الرسل جميعاً ، والذي أسلم عليه المسلمون من أتباع الرسل جميعاً .

ويكون المعنى الكلي للآية : أفهذا النبي الذي تتصافر الأدلة والشواهد على صدقه وصحة إيمانه ويقينه . . حيث يجد في نفسه بيته واضحة مستيقنة من ربه . وحيث يتبعه - أو يتبع يقينه هذا - شاهد من ربه هو هذا القرآن الدال بخصائصه على مصدره الرباني . وحيث يقوم على تصديقه شاهد آخر قبله ، هو كتاب موسى الذي جاء إماماً لقيادة بني إسرائيل ورحمة من الله تنزلت عليهم . وهو يصدق رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

وسلم - بما تضمنه من التبشير به ، كما يصدقه بما فيه من مطابقة للأصول الاعتقادية التي يقوم عليها دين الله كله . .

يقول : أفن كان هذا شأنه يكون موضعاً للتكذيب والكفر والعناد كما تفعل الأحزاب التي تناوئه من شتى فئات المشركين ؟ إنه لأمر مستنكر إذن في مواجهة هذه الشواهد المتضاربة من شتى الجهات . .

ثم يعرض مواقف الذين يؤمنون بهذا القرآن والذين يكفرون به من الأحزاب ، وما ينتظر هؤلاء من جزاء في الآخرة . ويعرج على تثبيت الرسول - صلى الله عليه وسلم - والذين يؤمنون بما معه من الحق ؛ فلا يقلقهم شأن المكذبين الكافرين ، وهم كثرة الناس في ذلك الحين :

« أولئك يؤمنون به ، ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده ، فلا تك في مرية منه ، إنه الحق من ربك ، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون » . .

وقد وجد بعض المفسرين إشكالاً في قوله تعالى : « أولئك يؤمنون به » إذا كان المقصود بقوله تعالى : « أفن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه » هو شخص رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كما أسلفنا . . فإن « أولئك » تعني جماعة يؤمنون بهذا الوحي وبذلك البينة . . ولا إشكال هناك . فالضمير في قوله تعالى « أولئك يؤمنون به » يعود على « شاهد » وهو القرآن . وكذلك الضمير في قوله تعالى « ومن قبله » فإنه يعود على القرآن كما أسلفنا . . فلا إشكال في أن يقول : « أولئك يؤمنون به » - أي بهذا الشاهد أي بهذا القرآن - والرسول - صلى الله عليه وسلم - هو أول من آمن بما أنزل إليه ، ثم تبعه المؤمنون : « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون . كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله . . . » كما جاء في آية البقرة . . والآية هنا تشير إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وتدمج معه المؤمنين الذين آمنوا بما آمن به هو وبلغهم إياه . . وهو أمر مألوف في التعبير القرآني ، ولا إشكال فيه .

« ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده » . .

وهو موعده لا يخلف ، والله سبحانه هو الذي قدره ودبره !

« فلا تك في مرية منه ، إنه الحق من ربك ، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون » . .

وما شك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيما أوحى إليه ، ولا امتري - وهو على بينة من ربه - ولكن هذا التوجيه الرباني عقب حشد هذه الدلائل والشواهد يشي بما كان يخالج نفس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من ضيق وتعب ووحشة من جراء تجمد الدعوة وكثرة المعاندين ، تحتاج كلها إلى التسرية عنه بهذا التوجيه والتثبيت . وكذلك ما كان يخالج قلوب القلة المسلمة من ضيق وكرب يحتاج إلى برد اليقين يتنزل عليهم من ربهم الرحيم .

وما أحوج طلائع البعث الإسلامي ؛ وهي تواجه مثل تلك الحال في كل مكان ؛ ويتآزر عليها الصد والإعراض ، والسخرية والاستهزاء ، والتعذيب والإيذاء ؛ والمطاردة بكل صورها المادية والمعنوية ؛ وتتصافر عليها كل قوى الجاهلية في الأرض من محلية وعالمية ؛ وتسلب عليها أشع ألوان الحرب وأنكدتها ؛ ثم تدق الطبول وتنصب الرايات لمن يحاربونها هذه الحرب ومن يطاردونها هذه المطاردة . . .

ما أحوج هذه الطلائع إلى تدبر هذه الآية بكل فقرة فيها ، وبكل إشارة ، وبكل لمحة فيها وكل إمحاء !

ما أحوجها إلى اليقين الذي يحمله التوكيد الرباني الحكيم :

« فلا تك في مرية منه ، إنه الحق من ربك ، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون » ..

وما أحوجها إلى أن تجد في نفوسها ظلالاً لما كان يجده الرسل الكرام صلوات الله عليهم وسلامه من بينة من ربهم ، ومن رحمة لا يخطئونها ولا يشكون فيها لحظة ؛ ومن الترام بالمضي في الطريق مهما تكن عقبات الطريق :

« قال : يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة فمن ينصرني من الله إن عصيته ؟ فما تزيدوني غير تخسير » ..

إن هذه الطلائع تتصدى لمثل ما كان يتصدى له ذلك الرهط الكريم من الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً - وتجد من الجاهلية مثلما كانوا يجدون . . لقد استدار الزمان كهيئته يوم جاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى البشرية كلها بهذا الدين ؛ فواجهته بجاهليتها التي صارت إليها بعد الإسلام الذي جاءها به من قبل إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ويوسف وموسى وهارون وداود وسليمان ويحيى وعيسى ، وسائر النبيين !

إنها الجاهلية التي تعترف بوجود الله - سبحانه - أولاً تعترف . ولكنها تقيم للناس أرباباً في الأرض يحكمونهم بغير ما أنزل الله ؛ ويشرعون لهم من القيم والتقاليد والأوضاع ما يجعل دينونتهم لهذه الأرباب لالله . . ثم هي الدعوة الإسلامية للناس كافة أن ينحوا هذه الأرباب الأرضية عن حياتهم وأوضاعهم ومجتمعاتهم وقيمهم وشرائعهم ، وأن يعودوا إلى الله وحده يتخذونه رباً لا أرباب معه ؛ ويدينون له وحده . فلا يتبعون إلا شرعه ونهجه ، ولا يطيعون إلا أمره ونهيه . . ثم هي بعد هذه وتلك المعركة القاسية بين الشرك والتوحيد ، وبين الجاهلية والإسلام . وبين طلائع البعث الإسلامي وهذه الطواغيت في أرجاء الأرض والأصنام !

ومن ثم لا بد لهذه الطلائع من أن تجد نفسها وموقفها كله في هذا القرآن في مثل هذا الأوان . . وهذا بعض ما نعنيه حين نقول : « إن هذا القرآن لا يتذوقه إلا من يخوض مثل هذه المعركة . ويواجه مثل تلك المواقف التي تنزل فيها ليواجهها ويواجهها ، وإن الذين يتلمسون معاني القرآن ودلالاته وهم قاعدون يدرسونه دراسة بيانية أو فنية لا يملكون أن يجدوا من حقيقته شيئاً في هذه القعدة الباردة الساكنة ، بعيداً عن المعركة ، وبعيداً عن الحركة . . . » .

* * *

ثم يمضي السياق يواجه الذين يكفرون به ؛ ويزعمون أنه مفترى من دون الله ، ويكذبون على الله سبحانه وعلى رسوله - صلى الله عليه وسلم - وذلك في مشهد من مشاهد القيامة يعرض فيه الذين يفترون على الله الكذب . سواء بقولهم : إن الله لم ينزل هذا الكتاب ، أو بادعائهم شركاء لله . أو بدعواهم في الربوبية الأرضية وهي من خصائص الألوهية . . يجمل النص هنا الإشارة لتشمل كل ما يوصف بأنه كذب على الله .

هؤلاء يعرضون في مشهد يوم القيامة للتشهير بهم وفضيحتهم على رؤوس الأشهاد . وفي الجانب الآخر المؤمنون المطمئنون إلى ربهم وما ينتظرهم من نعم . ويضرب للفریقین مثلاً : الأعمى والأصم والبصير والسميع :

« ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً ؟ أولئك يعرضون على ربهم ، ويقول الأشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم . ألا لعنة الله على الظالمين . الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً ، وهم بالآخرة هم كافرون . أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض ، وما كان لهم من دون الله من أولياء ، يضاعف لهم العذاب ، ما كانوا

يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون . أولئك الذين خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون ، لا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم ، أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون . مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع . هل يستويان مثلاً؟ أفلا تذكرون ؟ » .
إن افتراء الكذب في ذاته جريمة نكراء ، وظلم للحقيقة ولمن يفتري عليه الكذب . فما بال حين يكون هذا الافتراء على الله ؟

« أولئك يعرضون على ربهم ، ويقول الأشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم » .
إنه التشهير والتشنيع . بالإشارة : « هؤلاء » .. « هؤلاء الذين كذبوا » .. وعلى من ؟ « على ربهم » لا على أحد آخر ! إن جو الفضيحة هو الذي يرسم في هذا المشهد ، تعقبها اللعنة المناسبة لشناعة الجريمة :
« ألا لعنة الله على الظالمين » ..

يقولها الأشهاد كذلك . والأشهاد هم الملائكة والرسل والمؤمنون ، أو هم الناس أجمعون . فهو الخزي والتشهير - إذن - في ساحة العرض الحاشدة ! أو هو قرار الله سبحانه في شأنهم إلى جانب ذلك الخزي والتشهير على رؤوس الأشهاد :
« ألا لعنة الله على الظالمين » ..

والظالمون هم المشركون . وهم الذين يفترون الكذب على ربهم ليصدوا عن سبيل الله .
« ويبغونها عوجاً » ..

فلا يريدون الاستقامة ولا الخطة المستقيمة ، إنما يريدونها عوجاً والتواء وانحرافاً . يريدون الطريق أو يريدون الحياة أو يريدون الأمور .. كلها بمعنى .. « وهم بالآخرة هم كافرون » ويكرر « هم » مرتين للتوكيد وتثبيت الجريمة وإبرازها في مقام التشهير .

والذين يشركون بالله - سبحانه - وهم الظالمون - إنما يريدون الحياة كلها عوجاً حين يعدلون عن استقامة الإسلام . وما تنتج الدينونة لغير الله - سبحانه - إلا العوج في كل جانب من جوانب النفس ، وفي كل جانب من جوانب الحياة .

إن عبودية الناس لغير الله سبحانه تنشئ في نفوسهم الذلة وقد أراد الله أن يقيمها على الكرامة . وتنشئ في الحياة الظلم والبغي وقد أراد الله أن يقيمها على القسط والعدل . وتحول جهود الناس إلى عبث في تأليه الأرباب الأرضية والطبل حولها والزرمر ، والنفخ فيها دائماً لتكبر حتى تملأ مكان الرب الحقيقي . ولما كانت هذه الأرباب في ذاتها صغيرة هزيلة لا يمكن أن تملأ فراغ الرب الحقيقي ، فإن عبادها المساكين يظنون في نصب دائب ، وهم مقعد مقيم ينفخون فيها ليل نهار ، ويسلطون عليها الأضواء والأنظار ، ويضربون حولها بالدقوف والزامير والترانيم والتسايبح ، حتى يستحيل الجهد البشري كله من الإنتاج المثمر للحياة إلى هذا الكد البائس النكد وإلى هذا الهم المقعد المقيم .. فهل وراء ذلك عوج وهل وراء ذلك التواء ؟ !
« أولئك » ..

البعداء المبعدون الملعونون .

« لم يكونوا معجزين في الأرض » ..

فلم يكن أمرهم معجزاً لله ، ولو شاء لأخذهم بالعذاب في الدنيا ..

« وما كان لهم من دون الله من أولياء » ..

ينصرونهم أو يمنعونهم من الله . إنما تركهم لعذاب الآخرة ، ليستوفوا عذاب الدنيا وعذاب الآخرة :
« يضاعف لهم العذاب » ..

فقد عاشوا معطلي المدارك مغلقي البصائر ؛ كأن لم يكن لهم سمع ولا بصر :
« ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون » ..
« أولئك الذين خسروا أنفسهم » ..

وهي أفدح الخسارة ، فالذي يخسر نفسه لا يفيد شيئاً مما كسب غيرها وأولئك خسروا أنفسهم فأضاعوها في الدنيا ، لم يحسوا بكرامتهم الآدمية التي تتمثل في الارتفاع عن الدينونة لغير الله من العبيد . كما تتمثل في الارتفاع عن الحياة الدنيا والتطلع - مع المتاع بها - إلى ما هو أرقى وأسمى . وذلك حين كفروا بالآخرة ، وحين كذبوا على ربهم غير متوقعين لقاءه . وخسروا أنفسهم في الآخرة بهذا الخزي الذي ينالهم ، وبهذا العذاب الذي ينتظرهم ..

« وضل عنهم ما كانوا يفترون » ..

غاب عنهم فلم يهتد إليهم ولم يجتمع عليهم ما كانوا يفترونه من الكذب على الله . فقد تبدد وذهب وضاع .
« لا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون » ..
الذين لا تعدل خسارتهم خسارة . وقد أضاعوا أنفسهم دنيا وأخرى .

وفي الجانب الآخر أهل الإيمان والعمل الصالح ، المطمئنون إلى ربهم الواثقون به الساكنون إليه لا يشكون ولا يقلقون :

« إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات . وأخبتوا إلى ربهم ، أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون » ..
والإحبات الطمأنينة والاستقرار والثقة والتسليم .. وهي تصور حال المؤمن مع ربه ، وركونه إليه واطمئنانه لكل ما يأتي به ، وهدوء نفسه وسكون قلبه ، وأمنه واستقراره ورضاه :
« مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع . هل يستويان مثلاً ؟ » ..

صورة حسية تتجسم فيها حالة الفريقين . والفريق الأول كالأعمى لا يرى وكالأصم لا يسمع - والذي يعطل حواسه وجوارحه عن الغاية الكبرى منها ، وهي أن تكون أدوات موصلة للقلب والعقل ، ليدرك ويتدبر فكأنما هو محروم من تلك الجوارح والحواس - والفريق الثاني كالبصير يرى وكالسميع يسمع ، فيهديه بصره وسمعه .

« هل يستويان مثلاً ؟ » ...

سؤال بعد الصورة المجسمة لا يحتاج إلى إجابة لأنها إجابة مقررة .
« أفلا تذكرون » ..

فالقضية في وضعها هذا لا تحتاج إلى أكثر من التذكر . فهي بديهية لا تقتضي التفكير ..
وتلك وظيفة التصوير الذي يغلب في الأسلوب القرآني في التعبير .. أن ينقل القضايا التي تحتاج لجدل فكري إلى بديهيات مقررة لا تحتاج إلى أكثر من توجيه النظر والتذكير ..

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِتِي لَكَ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٦٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۖ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ
 الْبَيْتِ ﴿٦٦﴾ فَقَالَ الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَزَّلَكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَزَّلَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا
 بِأَدَى الرَّأْيِ وَمَا نَزَّلَكَ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَنْظُرُكَ كَنَذِيرٍ ﴿٦٧﴾ قَالَ يَنْقُومُ آرَاءُ يَوْمٍ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ
 رَبِّي وَءَاتَنِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعَمِيَّتْ عَلَيْكُمْ أَنْزِلُكُمْ هَا وَانْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴿٦٨﴾ وَيَنْقُومُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَأَنْ
 إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الَّذِينَ ءَامَنُوا ۖ إِنَّهُمْ مُلْقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرْتِكُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ ﴿٦٩﴾ وَيَنْقُومُ
 مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتَهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا
 أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ ۗ إِنِّي إِذَا لَمِنَ
 الظَّالِمِينَ ﴿٧١﴾ قَالُوا يَنْوُحُ قَدْ جَدَلْنَا فَاكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَاثْنَانِ بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٢﴾
 قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٧٣﴾ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ
 اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۗ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا
 بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٧٥﴾

وَأُوْحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدَّ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٦﴾ وَأَصْنَعُ الْفُلَكَ
 بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا ۖ إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴿٧٧﴾
 وَيَصْنَعُ الْفُلَكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ۗ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنِّي فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا
 تَسْخَرُونَ ﴿٧٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُجْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٧٩﴾
 حَقِّقْ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنَوُّرُ قُلْنَا أَحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَئِينٍ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ
 وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ ۖ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٨٠﴾

* وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَمْعُهَا وَمُرْسَاهَا ۗ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٨١﴾

وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٨٢﴾

قَالَ سَعَاوَىٰ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِن أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مِن رَّحْمٍ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾

وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَسْبِغِي أَعْيُنِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَىٰ الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِن أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَكَمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَنْفُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِن أَهْلِكَ ۚ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْعَلَنِ مَالَكَ بِهِ ۚ إِنَّي أَخْطَأْتُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَنْفُوحُ أَهْبِطْ بِسَلْمٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَعَكَ ۚ وَأُمٌّ سَمَّتْهُمْ ثُمَّ بَمَسْهُمْ مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾

تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا ۚ فَاصْبِرْ ۚ إِنَّ الْعَذَابَ لَلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾

القصص في هذه السورة هو قوامها ، ولكنه لم يجيء فيها مستقلاً ، إنما جاء مصداقاً للحقائق الكبرى التي جاءت السورة لتقريرها . والتي أجملها السياق في مطلع السورة : « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ، ألا تعبدوا إلا الله إنني لكم منه نذير وبشير ، وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه ، يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ، ويؤت كل ذي فضل فضله ، وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير ، إلى الله مرجعكم . وهو على كل شيء قدير » ..

وقد تضمن مطلع السورة جولات متعددة حول هذه الحقائق . جولات في ملكوت السماوات والأرض ، وفي جنبات النفس ، وفي ساحة الحشر . . ثم أخذ في هذه الجولة الجديدة في جنبات الأرض وأطواء التاريخ مع قصص الماضين .. يستعرض حركة العقيدة الإسلامية في مواجهة الجاهلية على مدار القرون .

والقصص هنا مفصل بعض الشيء - وبخاصة قصة نوح والطوفان - وهو يتضمن الجدل حول حقائق العقيدة التي وردت في مطلع السورة ، والتي يجيء كل رسول لتقريرها ، وكأنما المكذوبون هم المكذوبون ، وكأنما طبيعتهم واحدة ، وعقليتهم واحدة على مدار التاريخ .

ويتبع القصص في هذه السورة خط سير التاريخ ، فيبدأ بنوح ، ثم هود ، ثم صالح ، ويلم بإبراهيم في الطريق إلى لوط ، ثم شعيب ، ثم إشارة إلى موسى . . ويشير إلى الخط التاريخي ، لأنه يذكر التالين بمصير السالفين على التوالي بهذا الترتيب :

ونبدأ بقصة نوح مع قومه . أول هذا القصص في السياق . وأوله في التاريخ :

* * *

« ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه . إني لكم نذير مبين . ألا تعبدوا إلا الله ، إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم » ..
إنها تكاد تكون الألفاظ ذاتها التي أرسل بها محمد - صلى الله عليه وسلم - والتي تضمنها الكتاب الذي أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير . وهذه المقاربة في ألفاظ التعبير عن المعنى الرئيسي الواحد مقصودة في السياق لتقرير وحدة الرسالة ووحدة العقيدة ، حتى لتتوحد ألفاظ التعبير عن معانيها . وذلك مع تقدير أن المحكي هنا هو معنى ما قاله نوح - عليه السلام - لألفاظه . وهو الأرجح . فنحن لا ندرى بأية لغة كان نوح يعبر .

« ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه : إني لكم نذير مبين » ..

ولم يقل قال : إني ... لأن التعبير القرآني يحكي المشهد فكأنما هو واقعة حاضرة لا حكاية ماضية . وكأنما هو يقول لهم الآن ونحن نشهد ونسمع . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أنه يلخص وظيفة الرسالة كلها ويترجمها إلى حقيقة واحدة :

« إني لكم نذير مبين » ..

وهو أقوى في تحديد هدف الرسالة وإبرازه في وجدان السامعين .

ومرة أخرى يبلور مضمون الرسالة في حقيقة جديدة :

« ألا تعبدوا إلا الله » ..

فهذا هو قوام الرسالة ، وقوام الإنذار . ولماذا ؟

« إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم » ..

فيم الإبلاغ ويتم الإنذار ، في هذه الكلمات القصار ..

واليوم ليس أليماً . إنما هو مؤلم . والأليم - اسم مفعول أصله : مألوم ! - إنما هم المألومون في ذلك اليوم . ولكن التعبير يختار هذه الصيغة هنا ، لتصوير اليوم ذاته بأنه محمل بالألم ، شاعر به ، فإبال من فيه ؟

« فقال الملأ الذين كفروا من قومه : ما نراك إلا بشراً مثلاً ، وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي ، وما نرى لكم علينا من فضل ، بل نظنكم كاذبين » ..

ذلك رد العلية المتكبرين .. الملأ .. كبار القوم المتصدرين .. وهويكاد يكون رد الملأ من قريش : ما نراك إلا بشراً مثلاً ، وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا - بادي الرأي - وما نرى لكم علينا من فضل ، بل نظنكم كاذبين .

الشبهات ذاتها ، والاتهامات ذاتها ، والكبرياء ذاتها ، والاستقبال الغبي الجاهل المتعاني !

إنها الشبهة التي وقرت في نفوس جهال البشر : أن الجنس البشري أصغر من حمل رسالة الله ؛ فإن تكن رسالة فليحملها ملك أو مخلوق آخر . وهي شبهة جاهلة ، مصدرها عدم الثقة بهذا المخلوق الذي استخلفه الله في أرضه ، وهي وظيفة خطيرة ضخمة ، لا بد أن يكون الخالق قد أودع في هذا الإنسان ما يكافئها من الاستعداد والطاقة ، وأودع في جنسه القدرة على أن يكون من بينه أفراد مهياؤن لحمل الرسالة ، باختيار الله لهم ، وهو أعلم بما أودع في كيانهم الخاص من خصائص هذا الجنس في عمومه .

وشبهة أخرى جاهلة كذلك . هي أنه إذا كان الله يختار رسولاً ، فلم لا يكون من بين هؤلاء الملائكة الكبراء في قومهم ، المتسلطين العالمين ؟ وهو جهل بالقيم الحقيقية لهذا المخلوق الإنساني ، والتي من أجلها استحق الخلافة في الأرض بعمومه ، واستحق حمل رسالة الله بخصوصيته في المختارين من صفوفه . وهذه القيم لا علاقة لها بمال أو جاه أو استطالة في الأرض ، إنما هي في صميم النفس ، واستعدادها للاتصال بالملائكة الأعلى ، بما فيها من صفاء وتفتح وقدرة على التلقي ، واحتمال للأمانة وصبر على أدائها ومقدرة على إبلاغها . . . إلى آخر صفات النبوة الكريمة . . وهي صفات لا علاقة لها بمال أو جاه أو استعلاء !

ولكن الملائكة من قوم نوح ، كالملائكة من قوم كل نبي تعميهم مكانتهم الدنيوية عن رؤية هذه الخصائص العلوية ، فلا يدركون مبرراً لاختصاص الرسل بالرسالة . وهي في زعمهم لا تكون لبشر . فإن كانت فهي لأمثالهم من الوجهاء العالمين في الأرض !

« ما نراك إلا بشراً مثلاً » . .

هذه واحدة . . أما الأخرى فأدهى :

« وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا ، بادي الرأي » ! !

وهم يسمون الفقراء من الناس « أراذل » . . كما ينظر الكبراء دائماً إلى الآخرين الذين لم يؤتوا المال والسلطان ! وأولئك هم أتباع الرسل السابقون غالباً ؛ لأنهم بفطرتهم أقرب إلى الاستجابة للدعوة التي تحرر الناس من العبودية للكبراء ، وتصل القلوب بإله واحد قاهر عال على الأعلياء . ولأن فطرتهم لم يفسدها البطر والترف ، ولم تعوقها المصالح والمظاهر عن الاستجابة ؛ ولأنهم لا يخافون من العقيدة في الله أن تضيق عليهم مكانة مسروقة لغفلة الجماهير واستعدادها للخرافات الوثنية في شتى صورها . وأول صور الوثنية الدنيوية والعبودية والطاعة والاتباع للأشخاص الزائلة بدلاً من الاتجاه بهذا كله لله وحده دون شريك . فرسالات التوحيد هي حركات التحرير الحقيقية للبشر في كل طور وفي كل أرض . ومن ثم كان يقاومها الطغاة دائماً ، ويصدون عنها الجماهير ؛ ويحاولون تشويهاً واتهام الدعاة إليها بشر التهم للتشويش والتفجير .

« وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي » . .

أي دون ترو ولا تفكير . . وهذه تهمة كذلك توجه دائماً من الملائكة العالمين لجموع المؤمنين . . أنها لا تروى ولا تفكر في اتباع الدعوات . ومن ثم فهي متهمه في اتباعها واندفاعها ، ولا يليق بالكبراء أن ينهجوا نهجها ، ولا أن يسلكوا طريقها . فإذا كان الأراذل يؤمنون ، فما يليق إذن بالكبراء أن يؤمنوا بإيمان الأراذل ؛ ولا أن يدعوا الأراذل يؤمنون !

« وما نرى لكم علينا من فضل » . .

يدجون الداعي بمن تبعوه من الأراذل ! ما نرى لكم علينا من فضل يجعلكم أقرب إلى الهدى ، أو أعرف بالصواب . فلو كان ما معكم خيراً وصواباً لاهتدينا إليه ، ولم تسبقونا أتم إليه ! وهم يقيسون الأمور ذلك القياس الخاطئ الذي تحدثنا عنه . قياس الفضل بالمال ، والفهم بالجاه ، والمعرفة بالسلطان . . فذو المال أفضل . وذو الجاه أفهم . وذو السلطان أعرف ! ! ! هذه المفاهيم وتلك القيم التي تسود دائماً حين تغيب عقيدة التوحيد عن المجتمع ، أو تضعف آثارها ، فترتد البشرية إلى عهود الجاهلية ، وإلى تقاليد الوثنية في صورة

من صورها الكثيرة . وإن بدت في ثوب من الحضارة المادية قشيب^١ . وهي انتكاسة للبشرية من غير شك ، لأنها تصغر من القيم التي بها صار الإنسان إنساناً ، واستحق الخلافة في الأرض ، وتلقى الرسالة من السماء ؛ وترجع به إلى قيم أقرب إلى الحيوانية العضلية الفيزيقية !
« بل نظنكم كاذبين » ...

وهي التهمة الأخيرة يقذفون بها في وجه الرسول وأتباعه . ولكنهم على طريقة طبقتهم .. « الأرستقراطية » .. يلقونها في أسلوب التحفظ اللائق « بالأرستقراط » ! « بل نظنكم ! » لأن اليقين الجازم في القول والاتجاه من طبيعة الجماهير المندفعة - بادي الرأي - التي يترفع عنها السادة المفكرون المتحفظون !
إنه النموذج المتكرر من عهد نوح ، لهذه الطبقة المليئة الجيوب الفارغة القلوب ، المتعاطمة المدعية المنتفخة الأوداج والأمخاخ ! !

ويتلقى نوح - عليه السلام - الاتهام والإعراض والاستكبار ، في سماحة النبي وفي استعلائه وفي ثقته بالحق الذي جاء به ، واطمئنانه إلى ربه الذي أرسله ؛ وفي وضوح طريقه أمامه واستقامة منهجه في شعوره . فلا يشتم كما شتموا ، ولا يتهم كما اتهموا ، ولا يدعي كما ادعوا ، ولا يحاول أن يخلع على نفسه مظهراً غير حقيقته ولا على رسالته شيئاً غير طبيعتها ..

« قال : يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربي ، وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم . أنزل مكوها وأنتم لها كارهون ؟ ويا قوم لا أسألكم عليه مالاً إن أجري إلا على الله ، وما أن بطارد الذين آمنوا ، إنهم ملاقو ربهم ، ولكني أراكم قوماً تجهلون . ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم أفلا تذكرون ؟ ولا أقول لكم : عندي خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا أقول : إني ملك ، ولا أقول للذين ترددي أعينكم : لن يؤتيهم الله خيراً . الله أعلم بما في أنفسهم ، إني إذن لمن الظالمين » ..

« يا قوم » .. في سماحة ومودة بندائهم ونسبتهم إليه ، ونسبة نفسه إليهم . إنكم تعترضون فتقولون : « ما نراك إلا بشراً مثلاً » .. فإيكون رأيكم إن كنت على اتصال بربي ، بين في نفسي مستيقن في شعوري . وهي خاصية لم توهبوا . وإن كان الله آتاني رحمة من عنده باختيار للرسالة ، أو آتاني من الخصائص ما أستحق به حمل الرسالة - وهذه رحمة ولا شك عظيمة - ما رأيكم إن كانت هذه وتلك فخفيت عليكم خفاء عماية ، لأنكم غير متهيئين لإدراكها ، وغير مفتوح البصائر لرؤيتها . « أنزل مكوها ؟ »^٢ إنه ما كان لي وما أنا بمستطيع أن ألزمكم الإذعان لها والإيمان بها « وأنتم لها كارهون » !

وهكذا يتلطف نوح في توجيه أنظارهم ولمس وجدانهم وإثارة حساسيتهم لإدراك القيم الخفية عليهم ، والخصائص التي يغفلون عنها في أمر الرسالة والاختيار لها : ويصرهم بأن الأمر ليس موكولاً إلى الظواهر

(١) في أمريكا اليوم يقاس الرجل بدخله ، ويوزن برصيده في البنك ! ! ! وموجة الجاهلية الوثنية تغطي من أمريكا على العالم حتى في الشرق الذي يزعم أنه مسلم ! ! !

(٢) جاء في كتاب : « التصوير الفني في القرآن » في فصل التناسق الفني أن اللفظ في القرآن قد يرسم بجرسه صورة كاملة . ومن أمثله أنك « تتلو حكاية قول نوح : « أرايتم إن كنت على بينة من ربي ، وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم . أنزل مكوها وأنتم لها كارهون ؟ » فتحس أن كلمة « أنزل مكوها » تصور جو الإكراه بإدماج كل هذه الصائرات في النطق وشدها بعضها إلى بعض ، كما يدمج الكارهون مع ما يكرهون ، ويشدون إليه وهم نافرون ! وهكذا يبدو لون من التناسق أعلى من البلاغة الظاهرية وأرفع من الفصاحة اللفظية ...

السطحية التي يقيسون بها . وفي الوقت ذاته يقرر لهم المبدأ العظيم القويم . مبدأ الاختيار في العقيدة ، والافتناع بالنظر والتدبر ، لا بالقهر والسلطان والاستعلاء !

« ويا قوم لا أسألكم عليه مالا ، إن أجري إلا على الله ، وما أنا بطارد الذين آمنوا ، إنهم ملاقو ربهم ، ولكنني أراكم قوماً تجهلون . »

يا قوم إن الذين تدعونهم أراذل قد دعوتهم فآمنوا ، وليس لي عند الناس إلا أن يؤمنوا . إنني لا أطلب مالا على الدعوة ، حتى أكون حفيماً بالأثرياء غير حفي بالفقراء ؛ فالناس كلهم عندي سواء . . . ومن يستغن عن مال الناس يتساو عنده الفقراء والأغنياء . . .

« إن أجري إلا على الله . . . »

عليه وحده دون سواه .

« وما أنا بطارد الذين آمنوا . . . »

ونفهم من هذا الرد أنهم طلبوا أو لوحوا له بطردهم من حوله ، حتى يفكروا هم في الإيمان به ، لأنهم يستنكفون أن يلتقوا عنده بالأراذل ، أو أن يكونوا وإياهم على طريق واحد ! - لست بطاردهم ، فهذا لا يكون مني . لقد آمنوا وأمرهم بعد ذلك إلى الله لاني :

« إنهم ملاقو ربهم . . . ولكنني أراكم قوماً تجهلون . . . »

تجهلون القيم الحقيقية التي يقدر بها الناس في ميزان الله . وتجهلون أن مرد الناس كلهم إلى الله .

« ويا قوم من ينصرتني من الله إن طردتهم . أفلا تذكرون ؟ » . . .

فهناك الله . رب الفقراء والأغنياء . رب الضعفاء والأقوياء . هناك الله يقوّم الناس بقيم أخرى . ويزنهم بميزان واحد . هو الإيمان . فهؤلاء المؤمنون في حماية الله ورعايته .

« ويا قوم من ينصرتني من الله إن طردتهم ؟ » . . .

من يعصمني من الله إن أنا أخللت بموازينته ، وبغيت على المؤمنين من عباده - وهم أكرم عليه - وأقررت القيم الأرضية الزائفة التي أرسلني الله لأعدّها لا لأتبعها ؟

« أفلا تذكرون ؟ » . . .

وقد أنساكم ما أنتم فيه ميزان الفطرة السليمة القويمة ؟

ثم يقدم لهم شخصه ورسالته مجردين عن كل زخرف وكل طلاء وكل قيمة من تلك القيم العرضية الزائفة . يقدمها لهم في معرض التذكير ، ليقرر لهم القيم الحقيقية ، ويزدري أمامهم القيم الظاهرية ، بتخليه عنها ، وتجرده منها . فن شاء الرسالة كما هي ، بقيمتها ، بدون زخرف ، بدون ادعاء ، فليقدم إليها مجردة خالصة لله :

« ولا أقول لكم عندي خزائن الله . . . »

فأدعي الثراء أو القدرة على الإثراء . . .

« ولا أعلم الغيب . . . »

فأدعي قدرة ليست للبشر أو صلة بالله غير صلة الرسالة . . .

« ولا أقول : إني ملك . . . »

فأدعي صفة أعلى من صفة الإنسانية في ظنكم لأرتفع في أعينكم ، وأفضل نفسي بذاتي عليكم ..

« ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً » ..

إرضاء لكبريائكم ، أو مسابرة لتقديركم الأرضي وقيمكم العرضية .

« الله أعلم بما في أنفسهم » ..

فليس لي إلا ظاهرهم ، وظاهرهم يدعو إلى التكريم ، وإلى الرجاء في أن يؤتيهم الله خيراً ..

« إني إذن لمن الظالمين » ..

إن ادعيت آية دعوى من هذه الدعاوي . الظالمين للحق وقد جئت أبلغه ؛ والظالمين لنفسي فأعرضها لغضب الله ؛ والظالمين للناس فأزلمهم غير ما أنزلم الله .

وهكذا ينفي نوح - عليه السلام - عن نفسه وعن رسالته كل قيمة زائفة وكل هالة مصطنعة يتطلبها الملأ من قومه في الرسول والرسالة . ويتقدم إليهم بها مجردة إلا من حقيقتها العظيمة التي لا تحتاج إلى مزيد من تلك الأعراض السطحية . ويردهم في نصاعة الحق وقوته ، مع سماحة القول ووده إلى الحقيقة المجردة ليواجهوها ، ويتخذوا لأنفسهم خطة على هداها . بلا ملق ولا زيف ولا محاولة استرضاء على حساب الرسالة وحقيقتها البسيطة . فيعطي أصحاب الدعوة في أجيالها جميعاً ، نموذجاً للداعية ، ودرساً في مواجهة أصحاب السلطان بالحق المجرد ، دون استرضاء لتصوراتهم ، ودون ممالأة لهم ، مع المودة التي لا تنخي معها الرؤوس ! وعند هذا الحد كان الملأ من قوم نوح قد يثسوا من مناهضة الحجّة بالحجة ؛ فإذا هم - على عادة طبقتهم - فقد أخذتهم العزة بالإثم ، واستكبروا أن تغلبهم الحجّة ، وأن يذعنوا للبرهان العقلي والفطري . وإذا هم يتركون الجدل إلى التحدي :

« قالوا : يا نوح قد جادلنا ، فأكثرت جدالنا ، فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين » ..

إنه العجز بلبس ثوب القدرة ، والضعف يرتدي رداء القوة ؛ والخوف من غلبة الحق يأخذ شكل الاستهانة والتحدي :

« فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين » ..

وأنزل بنا العذاب الأليم الذي أنذرتنا به فلسنا نصدقك ، ولسنا نبالي وعيدك .

أما نوح فلا يخرج هذا التكذيب والتحدي عن سمّ النبي الكريم ، ولا يقعه عن بيان الحق لهم ، وإرشادهم إلى الحقيقة التي غفلوا عنها وجعلوها في طلبهم منه أن يأتيهم بما أوعدهم ، وردداهم إلى هذه الحقيقة وهي أنه ليس سوى رسول ، وليس عليه إلا البلاغ ، أما العذاب فمن أمر الله ، وهو الذي يدبر الأمر كله ، ويقدر المصلحة في تعجيل العذاب أو تأجيله ، وستته هي التي تنفذ .. وما يملك هو أن يردها أو يحولها .. إنه رسول . وعليه أن يكشف عن الحق حتى اللحظة الأخيرة ، فلا يقعه عن إبلاغه وبيانه أن القوم يكذبونه ويتحدونه : « قال : إنما يأتيكم به الله إن شاء ، وما أنتم بمعجزين . ولا ينفعكم نصحي - إن أردت أن أنصح لكم - إن كان الله يريد أن يغويكم ، هو ربكم وإليه ترجعون » ..

فإذا كانت سنة الله تقتضي أن تهلكوا بغوايتكم ، فإن هذه السنة ستمضي فيكم ، مهما بذلت لكم من النصح . لأن الله سيصدكم عن الانتفاع بهذا النصح ، ولكن لأن تصرفكم بأنفسكم يجعل سنة الله تقتضي أن تضلوا ،

وما أتم بمعجزين لله عن أن ينالكم ما يقدر لكم ، فأنتم دائماً في قبضته ، وهو المدبر والمقدر لأمركم كله ؛ ولا مفر لكم من لقاءه وحسابه وجزائه :
« هو ربكم وإليه ترجعون » ..

* * *

وعند هذا المقطع من قصة نوح ، يلتفت السياق لفتة عجبية ، إلى استقبال مشركي قريش لمثل هذه القصة ، التي تشبه أن تكون قصتهم مع الرسول - صلى الله عليه وسلم - ودعواهم أن محمداً يفتري هذا القصص . فيرد هذا القول قبل أن يمضي في استكمال قصة نوح :

« أم يقولون اقترأه ؟ قل : إن افتريته فعليّ إجرامي ، وأنا بريء مما تجرمون » ..

فلا اقترأ إجرام ، قل لهم : إن كنت فعلته فعليّ تبعته . وأنا أعرف أنه إجرام فستبعد أن ارتكبه ، وأنا بريء مما تجرمون من تهمة الاقترأ إلى جوار غيرها من الشرك والتكذيب .

وهذا الاعتراض لا يخالف سياق القصة في القرآن ، لأنها إنما جاءت لتأدية غرض من هذا في السياق .

* * *

ثم يمضي السياق في قصة نوح ؛ يعرض مشهداً ثانياً . مشهد نوح يتلقى وحي ربه وأمره :

« وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن . فلا تبتئس بما كانوا يفعلون ، واصنع الفلك

بأعيننا ووحينا ، ولا تخاطبني في الذين ظلموا ، إنهم مغرقون » ..

فقد انتهى الإنذار ، وانتهت الدعوة ، وانتهى الجدل !

« وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن » ..

فالقلوب المستعدة للإيمان قد آمنت ، أما البقية فليس فيها استعداد ولا اتجاه . هكذا أوحى الله إلى نوح ، وهو أعلم بعباده ، وأعلم بالممكن والمنتع ، فلم يبق مجال للمضي في دعوة لا تنفيذ . ولا عليك مما كانوا يفعلونه من كفر وتكذيب وتحذ واستهزاء :

« فلا تبتئس بما كانوا يفعلون » ..

أي لا تحس بالبؤس والقلق ، ولا تحفل ولا تهتم بهذا الذي كان منهم ، لا على نفسك فاهم بضاريك بشيء ، ولا عليهم فإنهم لا خير فيهم .

دع أمرهم فقد انتهى ..

« واصنع الفلك بأعيننا ووحينا » ..

برعايتنا وتعليمنا .

« ولا تخاطبني في الذين ظلموا ، إنهم مغرقون » ..

فقد تقرر مصيرهم وانتهى الأمر فيهم . فلا تخاطبني فيهم .. لا دعاء بهدايتهم ، ولا دعاء عليهم - وقد ورد في موضع آخر أنه حين يئس منهم دعا عليهم ، والمفهوم أن اليأس كان بعد هذا الوحي - فتى انتهى القضاء

امتنع الدعاء ..

* * *

والمشهد الثالث من مشاهد القصة : مشهد نوح يصنع الفلك ، وقد اعتزل القوم وترك دعوتهم وجدالهم :
 « ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملاً من قومه سخرُوا منه : قال : إن تسخروا منا فإننا نسخر منكم كما تسخرون .
 فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم » ..

والتعبير بالمضارع . فعل الحاضر . هو الذي يعطي المشهد حيويته وجدته . فنحن نراه مائلاً لخيالنا من وراء
 هذا التعبير . يصنع الفلك . ونرى الجماعات من قومه المتكبرين يمرون به فيسخرون . يسخرون من الرجل
 الذي كان يقول لهم : إنه رسول ويدعوهم ، ويجادهم فيطيل جدالهم ؛ ثم إذا هو ينقلب تجاراً يصنع مركباً .
 إنهم يسخرون لأنهم لا يرون إلا ظاهر الأمر ، ولا يعلمون ما وراءه من وحي وأمر . شأنهم دائماً في إدراك
 الظواهر والعجز عن إدراك ما وراءها من حكمة وتقدير . فأما نوح فهو واثق عارف وهو يخبرهم في اعتزاز
 وثقة وطمأنينة واستعلاء أنه يبادلهم سخرية بسخرية :

« قال إن تسخروا منا فإننا نسخر منكم كما تسخرون » ..

نسخر منكم لأنكم لا تدركون ما وراء هذا العمل من تدبير الله وما ينتظركم من مصير :

« فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم » ..

أنحن أم أنتم . يوم ينكشف المستور ، عن المحذور !

* * *

ثم مشهد التعبئة عندما حلت اللحظة المرتقبة :

« حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور ، قلنا : احمل فيها من كل زوجين اثنين ، وأهلك - إلا من سبق عليه
 القول - ومن آمن ، وما آمن معه إلا قليل . وقال : اركبوا فيها باسم الله مجريها ومرساها ، إن ربي لغفور رحيم » .
 وتتفرق الأقوال حول فوران التنور ، ويذهب الخيال ببعضها بعيداً ، وتبدو رائحة الإسرائيليات فيها وفي
 قصة الطوفان كلها واضحة . أما نحن فلا نضرب في متاهة بغير دليل ، في هذا الغيب الذي لا نعلم منه إلا
 ما يقدمه لنا النص ، وفي حدود مدلوله بلا زيادة .

وأقصى ما نملك أن نقوله : إن فوران التنور - والتنور الموقد - قد يكون بعين فارت فيه ، أو بفوارة
 بركانية . وأن هذا الفوران ربما كان علامة من الله لنوح ، أو كان مصاحباً مجرد مصاحبة لمجيء الأمر ،
 وبدءاً لنفاذ هذا الأمر بفوران الأرض بالماء . وسح الوابل من السماء .

لما حدث هذا « قلنا : احمل فيها من كل زوجين اثنين ... » كأن نظام العملية كان يقتضي أن يؤمر نوح
 بمراحلها واحدة واحدة في حينها . فقد أمر أولاً بصنع الفلك فصنعه ، ولم يذكر لنا السياق الغرض من صنعه ،
 ولم يذكر أنه أطلع نوحاً على هذا الغرض كذلك . « حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور » .. أمر بالمرحلة التالية ..

« قلنا : احمل فيها من كل زوجين اثنين ، وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن » ..

ومرة أخرى تتفرق الأقوال حول « من كل زوجين اثنين » وتشيع في الجو رائحة الإسرائيليات قوية .
 أما نحن فلا ندع الخيال يلعب بنا ويشتط حول النص : « احمل فيها من كل زوجين اثنين » .. مما يملك نوح
 أن يمسك وأن يستصحب من الأحياء . وما وراء ذلك خبط عشواء ..

« وأهلك - إلا من سبق عليه القول - » ..

أي من استحق عذاب الله حسب سنته .

« ومن آمن » ..

من غير أهلك .

« وما آمن معه إلا قليل » ..

« وقال : اركبوا فيها باسم الله مجريها ومرساها » ..

فنفذ الأمر وحشر من حشر وما حشر .

« وقال : اركبوا فيها باسم الله مجريها ومرساها » .. وهذا تعبير عن تسليمها للمشيئة في جريانها ورسوها ،

فهي في رعاية الله وحماه .. وماذا يملك البشر من أمر الفلك في اللجة الطاغية بله الطوفان ؟ !

* * *

ثم يأتي المشهد الهائل المرهوب : مشهد الطوفان :

« وهي تجري بهم في موج كالجبال ، ونادى نوح ابنه - وكان في معزل - يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين ، قال : سأوي إلى جبل يعصمني من الماء . قال : لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم . وحال بينهما الموج فكان من المغرقين » ..

إن الهول هنا هولان . هول في الطبيعة الصامتة ، وهول في النفس البشرية يلتقيان :

« وهي تجري بهم في موج كالجبال » ..

وفي هذه اللحظة الرهيبة الحاسمة يبصر نوح ، فإذا أحد أبنائه في معزل عنهم وليس معهم ، وتستيقظ في كيانه الأبوة الملهوفة ، ويروح يهتف بالولد الشارد :

« يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين » ..

ولكن البنوة العاقلة لا تحفل بالأبوة الملهوفة ، والفتوة المغرورة لا تقدر مدى الهول الشامل :

« قال : سأوي إلى جبل يعصمني من الماء » ..

ثم ها هي ذي الأبوة المدركة لحقيقة الهول وحقيقة الأمر ترسل النداء الأخير :

« قال : لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم » .

لا جبال ولا مخابىء ولا حامٍ ولا واقٍ . إلا من رحم الله .

وفي لحظة تتغير صفحة المشهد . فهذا هو ذا الموج الغامر يبتلع كل شيء :

« وحال بينهما الموج فكان من المغرقين » ..

وإننا بعد آلاف السنين ، لنمسك أنفاسنا - ونحن نتابع السياق - والهول يأخذنا كأننا نشهد المشهد . وهي تجري بهم في موج كالجبال ، ونوح الوالد الملهوف يبعث بالنداء تلو النداء . وابنه الفتى المغرور يأبى إجابة الدعاء ، والموجة الغامرة تحسم الموقف في سرعة خاطفة راجفة وينتهي كل شيء ، وكأن لم يكن دعاء ولا جواب ! وإن الهول هنا ليقاس بمداه في النفس الحية - بين الوالد والمولود - كما يقاس بمداه في الطبيعة ، والموج يطغى على الذرى بعد الوديان . وإنهما لتكافئان ، في الطبيعة الصامتة وفي نفس الإنسان . وتلك سمة بارزة في تصوير القرآن .

* * *

وتهدأ العاصفة ، ويخيم السكون ، ويقضى الأمر ، ويتمشى الاستقرار كذلك في الألفاظ وفي إيقاعها في النفس والأذن :

« وقيل : يا أرض ابلعي ماءك ، ويا سماء أقلعي ، وغيض الماء ، وقضي الأمر ، واستوت على الجودي ، وقيل بعداً للقوم الظالمين » ..

ويوجه الخطاب إلى الأرض وإلى السماء بصيغة العاقل ، فتستجيب كلتاهما للأمر الفاصل فتبلغ الأرنس ، وتكف السماء :

« وقيل : يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي » .

« وغيض الماء » ..

ابتلعت الأرض في جوفها وغار من سطحها .

« وقضي الأمر » ..

ونفذ القضاء

« واستوت على الجودي » ..

ورست رسو استقرار على جبل الجودي ..

« وقيل بعداً للقوم الظالمين » ..

وهي جملة مختصرة حاسمة معبرة عن جوها أعمق تعبير .. « قيل » على صيغة المجهول فلا يذكر من قال ، من قبيل لف موضوعهم ومواراته :

« وقيل بعداً للقوم الظالمين » ..

بعداً لهم من الحياة فقد ذهبوا ، وبعداً لهم من رحمة الله فقد لعنوا ، وبعداً لهم من الذكرة فقد انتهوا .. وما عادوا يستحقون ذكراً ولا ذكرى !

* * *

والآن وقد هدأت العاصفة ، وسكن الهول ، واستوت على الجودي . الآن تستيقظ في نفس نوح لهفة الوالد المفجوع :

« ونادى نوح ربه ، فقال : رب إن ابني من أهلي ، وإن وعدك الحق ، وأنت أحكم الحاكمين » .

رب إن ابني من أهلي ، وقد وعدتني بنجاة أهلي ، وإن وعدك الحق ، وأنت أحكم الحاكمين . فلا تقضي إلا عن حكمة وتديبر ..

قالها يستنجز ربه وعده في نجاة أهله ، ويستنجزه حكمته في الوعد والقضاء ..

وجاء الرد بالحقيقة التي غفل عنها . فالأهل - عند الله وفي دينه وميزانه - ليسوا قرابة الدم ، إنما هم قرابة العقيدة . وهذا الولد لم يكن مؤمناً ، فليس إذن من أهله وهو النبي المؤمن .. جاء الرد هكذا في قوة وتقرير وتوكيد ؛ وفيما يشبه التقرير والتأنيب والتهديد :

« قال : يا نوح إنه ليس من أهلك ، إنه عمل غير صالح ، فلا تسألن ما ليس لك به علم . إني أعظك أن تكون من الجاهلين » ..

إنها الحقيقة الكبيرة في هذا الدين . حقيقة العروة التي ترجع إليها الخيوط جميعاً . عروة العقيدة التي تربط بين الفرد والفرد مالا يربطه النسب والقرابة :

« إنه ليس من أهلك . إنه عمل غير صالح » ..

فهو مُنبتٌ منك وأنت منبت منه ، ولو كان ابنك من صلبك ، فالعروة الأولى مقطوعة ، فلا رابطة بعد ذلك ولا وشيجة .

ولأن نوحاً دعا دعاء من يستنجز وعداً لا يراه قد تحقق .. كان الرد عليه يحمل رائحة التأنيب والتهديد :

« فلا تسألن ما ليس لك به علم . إني أعظك أن تكونن من الجاهلين » ..

إني أعظك خشية أن تكونن من الجاهلين بحقيقة الوشائج والروابط ، أو حقيقة وعد الله وتأويله ، فوعد الله قد أول وتحقق ، ونجا أهلك الذين هم أهلك على التحقيق .

ويرتجف نوح ارتجافة العبد المؤمن يخشى أن يكون قد زل في حق ربه ، فيلجأ إليه ، يعوذ به ، ويطلب غفرانه ورحمته :

« قال : رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم ، وإلا تغفري وترحمني أكن من الخاسرين » .. وأدركت رحمة الله نوحاً ، تطمئن قلبه ، وتباركه هو والصالح من نسله ، فأما الآخرون فيمسهم عذاب ألم :

« قيل ؛ يا نوح اهبط بسلام منا ، وبركات عليك وعلى أمم ممن معك . وأم سنمتهم ثم يمسهم منا عذاب ألم » ..

وكانت خاتمة المطاف : النجاة والبشرى له ولمن يؤمن من ذريته ؛ والوعيد والتهديد لمن يريدون منهم متاع الحياة الدنيا ثم يمسهم العذاب الأليم .. ذات البشرى وذات الوعيد ، اللذان مرا في مقدمة السورة . فجاء القصص ليرجمهما في الواقع المشهود ..

* * *

ومن ثم يجيء التعقيب :

« تلك من أبناء الغيب نوحها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ، فاصبر إن العاقبة للمتقين » . فيحقق هذا التعقيب من أهداف القصص القرآني في هذه السورة :

* حقيقة الوحي التي ينكرها المشركون . فهذا القصص غيب من الغيب ، ما كان يعلمه النبي ، وما كان معلوماً لقومه ، ولا متداولاً في محيطه . إنما هو الوحي من لدن حكيم خبير .

* وحقيقة وحدة العقيدة من لدن نوح أبي البشر الثاني . فهي هي . والتعبير عنها يكاد يكون هو التعبير .

* وحقيقة تكرار الاعتراضات والاتهامات من المكذبين على الرغم من الآيات والعبر والبيانات التي لا تمنع جيلاً أن يرددها وقد بدت باطلة في جيل .

* وحقيقة تحقق البشرى والوعيد ، كما يبشر النبي وينذر ، وهذا شاهد من التاريخ .

* وحقيقة السنن الجارية التي لا تتخلف ولا تحابي ولا تحيد : « والعاقبة للمتقين » .. فهم الناجون وهم المستخلفون .

* وحقيقة الرابطة التي تربط بين فرد وفرد وبين جيل وجيل .. إنها العقيدة الواحدة التي تربط المؤمنين كلهم في إله واحد ورب واحد يلتقون في الدينونة له بلا منازع ولا شريك .

* * *

وبعد .. أكان الطوفان عاماً في الأرض ؟ أم إنه كان في تخوم الأرض التي بعث فيها نوح ؟ وأين كانت هذه الأرض ؟ وأين تخومها في العالم القديم وفي العالم الحديث ؟ أسئلة لا جواب عليها إلا الظن الذي لا يغني من الحق شيئاً ؛ وإلا الإسرائيليات التي لا تستند إلى دليل صحيح .. وليس لها بعد ذلك قيمة في تحقيق أهداف القصاص القرآني في كثير ولا قليل .

ولكن هذا لا يمنع من القول بأن ظاهر النصوص القرآنية يلهم أن قوم نوح كانوا هم مجموع البشرية في ذلك الزمان . وأن الأرض التي يسكنونها كانت هي الأرض المعمورة في ذلك الحين . وأن الطوفان قد عم هذه الرقعة ، وقضى على جميع الخلائق التي تقطنها - فيما عدا ركب السفينة الناجين .

وهذا حسبنا في إدراك طبيعة ذلك الحادث الكوني الذي جاءنا خبره من المصدر الوحيد الوثيق عن ذلك العهد السحيق ، الذي لا يعرف « التاريخ » عنه شيئاً . وإلا فيومها أين كان « التاريخ » ؟ ! إن التاريخ مولود حدث لم يسجل من أحداث البشرية إلا القليل ! وكل ما سجله قابل للخطأ والصواب ، والصدق والكذب ، والتجريح والتعديل ! وما ينبغي قط أن يستفتى ذات يوم في شأن جاءنا به الخبر الصادق . ومجرد استفتائه في مثل هذا الشأن قلب للأوضاع ، وانتكاسة لا تصيب عقلاً قد استقرت فيه حقيقة هذا الدين !

ولقد حفلت أساطير شتى الشعوب وذكرياتها الغامضة بذكر طوفان أصاب أرضها في تاريخ قديم مجهول ، بسبب معصية ذلك الجيل الذي شهد ذلك الحادث الكبير .. وأساطير بني إسرائيل المدونة فيما يسمونه « العهد القديم » تحوي كذلك ذكرى طوفان نوح .. ولكن هذا كله شيء لا ينبغي أن يذكر في معرض الحديث القرآني عن الطوفان ؛ ولا ينبغي أن يخلط الخبر الصادق الوثيق بمثل هذه الروايات الغامضة وهذه الأساطير المجهولة المصدر والأسانيد . وإن كان لوجود هذه الأخبار الغامضة عن الطوفان عند شعوب شتى دلالة في أن الطوفان قد كان في أرض هذه الأقوام ؛ أو على الأقل قد رحلت ذكرياته مع ذراري الناجين حين تفرقوا في الأرض بعد ذلك وعمروا الأرض من جديد ..

وينبغي أن نذكر أن ما يسمى « بالكتاب المقدس » - سواء في ذلك « العهد القديم » المحتوي على كتب اليهود أو « العهد الجديد » المحتوي على أناجيل النصارى - ليس هو الذي نزل من عند الله . فالتوراة التي أنزلها الله على موسى قد حرقت نسخها الأصلية على يد البابليين عند سبي اليهود . ولم تعد كتابتها إلا بعد قرون عديدة - قبيل ميلاد المسيح بنحو خمسة قرون - وقد كتبها عزرا - وقد يكون هو عزير - وجمع فيها بقايا من التوراة . أما سائرهما فهو مجرد تأليف ! وكذلك الأنجيل فهي جميعاً لا تحوي إلا ما حفظته ذاكرة تلامذة المسيح وتلامذتهم بعد نحو قرن من وفاة المسيح - عليه السلام - ثم خلطت به حكايات كثيرة وأساطير ! .. ومن ثم لا يجوز أن يطلب عند تلك الكتب جميعها يقين في أمر من الأمور !

ونخلص من هذه القضية العرضية إلى عبرة هذا الحادث الكوني العظيم .. وهي - في الحقيقة - عبر شتى ، لا عبرة واحدة . وسنحاول أن نلم بشيء منها في الصفحات التالية ، قبل أن تنتقل من قصة نوح إلى قصة هود :

* * *

إن قوم نوح - عليه السلام - هؤلاء الذين شهدنا مدى جاهليتهم ، ومدى إصرارهم على باطلهم ، ومدى استنكارهم لدعوة الإسلام الخالص التي حملها نوح - عليه السلام - إليهم ، وخلاصتها : التوحيد الخالص الذي يفرد الله - سبحانه - بالدينونة والعبودية ؛ ولا يجعل لأحد معه صفة الربوبية ..

إن قوم نوح هؤلاء .. هم ذرية آدم .. وآدم - كما نعلم من قصته في سورة الأعراف من قبل - وفي سورة البقرة كذلك - قد هبط إلى الأرض ليقوم بمهمة الخلافة فيها - وهي المهمة التي خلقه الله لها وزوده بالكفايات والاستعدادات اللازمة لها - بعد أن علمه ربه كيف يتوب من الزلة التي زلها ، وكيف تلقى من ربه كلمات فتاب عليه بها . وكيف أخذ عليه ربه العهد والميثاق - هو وزوجه وبنوه - أن « يتبع » ما يأتيه من هدى الله ، ولا يتبع الشيطان وهو عدوه وعدو بنيه إلى يوم الدين .

وإذن فقد هبط آدم إلى الأرض مسلماً لله متبعاً هداه .. وما من شك أنه علم بنبيه الإسلام جيلاً بعد جيل ؛ وأن الإسلام كان هو أول عقيدة عرفتها البشرية في الأرض ؛ حيث لم تكن معها عقيدة أخرى ! فإذا نحن رأينا قوم نوح - وهم من ذرية آدم بعد أجيال لا يعلم عددها إلا الله - قد صاروا إلى هذه الجاهلية - التي وصفتها القصة في هذه السورة - فلنا أن نجمز أن هذه الجاهلية طارئة على البشرية بوثنيتها وأساطيرها وخرافات وأصنامها وتصوراتها وتقاليدها جميعاً . وأنها انحرفت عن الإسلام إليها بفعل الشيطان المسلط على بني آدم ؛ وبفعل الثغرات الطبيعية في النفس البشرية . تلك الثغرات التي ينفذ منها عدو الله وعدو الناس ، كلما تراخوا عن الاستمسك بهدى الله ، واتباعه وحده ، وعدم اتباع غيره معه في كبيرة ولا صغيرة .. ولقد خلق الله الإنسان ومنحه قدراً من الاختيار - هو مناط الابتلاء - وبهذا القدر يملك أن يستمسك بهدى الله وحده فلا يكون لعدوه من سلطان عليه ، كما يملك أن ينحرف - ولو قيد شعرة - عن هدى الله إلى تعاليم غيره ؛ فيجتاله الشيطان حتى يقذف به - بعد أشواط - إلى مثل تلك الجاهلية الكالحة التي انتهت إليها ذراري آدم - النبي المسلم - بعد تلك الأجيال التي لا يعلمها إلا الله .

وهذه الحقيقة .. حقيقة أن أول عقيدة عرفت في الأرض هي الإسلام القائم على توحيد الدينونة والربوبية والقوامة لله وحده .. تقودنا إلى رفض كل ما يخبط فيه من يسمونهم « علماء الأديان المقارنة » وغيرهم من التطوريين الذين يتحدثون عن التوحيد بوصفه طوراً متأخراً من أطوار العقيدة . سبقته أطوار شتى من التعدد والثنية للآلهة . ومن تأليه القوى الطبيعية وتأليه الأرواح ، وتأليه الشمس والكواكب .. إلى آخر ما تخبط فيه هذه « البحوث » التي تقوم ابتداء على منهج موجه بعوامل تاريخية ونفسية وسياسية معينة ؛ يهدف إلى تحطيم قاعدة الأديان السماوية والوحي الإلهي والرسالات من عند الله وإثبات أن الأديان من صنع البشر ؛ وأنها من ثم تطورت بتطور الفكر البشري على مدار الزمان !

ويتزلق بعض من يكتبون عن الإسلام مدافعين ؛ فيتابعون تلك النظريات التي يقررها الباحثون في تاريخ الأديان - وفق ذلك المنهج الموجه ! - من حيث لا يشعرون ! وبينما هم يدافعون عن الإسلام متحمسين يحطمون أصل الاعتقاد الإسلامي الذي يقرره القرآن الكريم في وضوح حاسم . حين يقرر أن آدم - عليه السلام - هبط إلى الأرض بعقيدة الإسلام . وأن نوحاً - عليه السلام - واجه ذراري آدم الذين اجتاهم الشيطان عن الإسلام إلى الجاهلية الوثنية بذلك الإسلام نفسه .. القائم على التوحيد المطلق .. وأن الدورة تجددت بعد نوح فخرج الناس من الإسلام إلى الجاهلية ؛ وأن الرسل جميعاً أرسلوا بعد ذلك بالإسلام .. القائم على التوحيد المطلق .. وأنه لم يكن قط تطور في العقيدة السماوية في أصل الاعتقاد - إنما كان الترقى والتركيب والتوسع

في الشرائع المصاحبة للعقيدة الواحدة - وأن ملاحظة ذلك التطور في العقائد الجاهلية لا يدل على أن الناس صاروا إلى التوحيد بناء على تطور في أصل العقيدة . إنما يدل على أن عقيدة التوحيد على يد كل رسول كانت ترك رواسب في الأجيال التالية - حتى بعد انحراف الأجيال عنها - ترقى عقائدهم الجاهلية ذاتها ؛ حتى تصير أقرب إلى أصل التوحيد الرباني . أما عقيدة التوحيد في أصلها فهي أقدم في تاريخ البشرية من العقائد الوثنية جميعاً ! وقد وجدت هكذا كاملة منذ وجدت ، لأنها ليست تابعة من أفكار البشر ومعلوماتهم المترقية ؛ إنما هي آتية لهم من عند الله سبحانه . فهي حق منذ اللحظة الأولى ، وهي كاملة منذ اللحظة الأولى ..

هذا ما يقرره القرآن الكريم ؛ ويقوم عليه التصور الإسلامي . فلا مجال - إذن - لباحث مسلم - وبخاصة إذا كان يدافع عن الإسلام ! - أن يعدل عن هذا الذي يقرره القرآن الكريم في وضوح حاسم ، إلى شيء مما تخبط فيه نظريات علم الأديان المقارنة . تلك النظريات التابعة من منهج موجه كما أسلفنا ! ومع أننا هنا - في ظلال القرآن - لا نناقش الأخطاء والمزالق في الكتابات التي تكتب عن الإسلام - إذ أن مجال هذه المناقشة بحث آخر مستقل - .. ولكننا نلم بنموذج واحد ، نعرضه في مواجهة المنهج القرآني والتقارير القرآنية في هذه القضية ..

كتب الأستاذ العقاد في كتابه : « الله » في فصل أصل العقيدة :

.. « ترقى الإنسان في العقائد . كما ترقى في العلوم والصناعات .

« فكانت عقائده الأولى مساوية لحياته الأولى ، وكذلك كانت علومه وصناعاته . فليست أوائل العلم والصناعة بأرقى من أوائل الديانات والعبادات ، وليست عناصر الحقيقة في واحدة منها بأوفر من عناصر الحقيقة في الأخرى .

« وينبغي أن تكون محاولات الإنسان في سبيل الدين أشق وأطول من محاولاته في سبيل العلوم والصناعات . لأن حقيقة الكون الكبرى أشق مطلباً وأطول طريقاً من حقيقة هذه الأشياء المتفرقة التي يعالجها العلم تارة والصناعة تارة أخرى .

« وقد جهل الناس شأن الشمس الساطعة ، وهي أظهر ما تراه العيون وتحسه الأبدان ، ولبثوا إلى زمن قريب يقولون بدورانها حول الأرض ، ويفسرون حركاتها وعوارضها كما تفسر الألغاز والأحلام . ولم يخطر لأحد أن ينكر وجود الشمس لأن العقول كانت في ظلام من أمرها فوق ظلام . ولعلها لا تزال .

« فالرجوع إلى أصول الأديان في عصور الجاهلية الأولى لا يدل على بطلان التدين ، ولا على أنها تبحث عن محال . وكل ما يدل عليه أن الحقيقة الكبرى أكبر من أن تتجلى للناس كاملة شاملة في عصر واحد ؛ وأن الناس يستعدون لعرفانها عصرًا بعد عصر ، وطوراً بعد طور . وأسلوباً بعد أسلوب ، كما يستعدون لعرفان الحقائق الصغرى ، بل على نحو أصعب وأعجب من استعدادهم لعرفان هذه الحقائق التي يحيط بها العقل ويتناولها الحس والعيان .

« وقد أسفر علم المقابلة بين الأديان عن كثير من الضلالات والأساطير التي آمن بها الإنسان الأول ، ولا تزال لها بقية شائعة بين القبائل البدائية ، أو بين أمم الحضارة العريقة . ولم يكن من المنظور أن يسفر هذا العلم عن شيء غير ذلك ، ولا أن تكون الديانات الأولى على غير ما كانت عليه من الضلالة والجهالة . فهذه هي وحدها

النتيجة المعقولة التي لا يترقب العقل نتيجة غيرها . وليس في هذه النتيجة جديد يستغربه العلماء ، أو يبتون عليه جديداً في الحكم على جوهر الدين . فإن العالم الذي يخطر له أن يبحث في الأديان البدائية ليثبت أن الأولين قد عرفوا الحقيقة الكونية الكاملة مترهة عن شوائب السخف والغباء ، إنما يبحث عن محال ... » .
كذلك كتب في فصل : « أطوار العقيدة الإلهية » في الكتاب نفسه :

« يعرف علماء المقابلة بين الأديان ثلاثة أطوار عامة مرت بها الأمم البدائية في اعتقادها بالآله والأرباب :

Polytheism	وهي دور التعدد
Henotheism	ودور التمييز والترجيح
Monotheism	ودور الوجدانية

« ففي دور التعدد كانت القبائل الأولى تتخذ لها أرباباً تعد بالعشرات ، وقد تتجاوز العشرات إلى المئات . ويوشك في هذا الدور أن يكون لكل أسرة كبيرة رب تعبه ، أو تعويذة تنوب عن الرب في الحضور ، وتقبل الصلوات والقرابين .

« وفي الدور الثاني وهو دور التمييز والترجيح تبقى الأرباب على كثرتها ، ويأخذ رب منها في البروز والرجحان على سائرهما . إما لأنه رب القبيلة الكبرى التي تدين لها القبائل الأخرى بالزعامة ، وتعتمد عليها في شؤون الدفاع والمعاش ، وإما لأنه يحقق لعباده جميعاً مطلباً أعظم وألزم من سائر المطالب التي تحققها الأرباب المختلفة ، كأن يكون رب المطر والإقليم في حاجة إليه ، أو رب الزواجر والرياح وهي موضع رجاء أو خشية يعلو على موضع الرجاء والخشية عند الأرباب القائمة على تسيير غيرها من العناصر الطبيعية .

« وفي الدور الثالث تتوحد الأمة ، فتتجمع إلى عبادة واحدة تؤلف بينها مع تعدد الأرباب في كل إقليم من الأقاليم المتفرقة . ويحدث في هذا الدور أن تفرض الأمة عبادتها على غيرها كما تفرض عليها سيادة تاجها وصاحب عرشها ، ويحدث أيضاً أن ترضى من إله الأمة المغلوبة بالخضوع لإلهها ، مع بقاءه وبقاء عبادته كبقاء التابع للمتبع ، والحاشية للملك المطاع .

« ولا تصل الأمة إلى هذه الوجدانية الناقصة إلا بعد أطوار من الحضارة تشيع فيها المعرفة ، ويتعزذ فيها على العقل قبول الخرافات التي كانت سائغة في عقول الهمج وقبائل الجاهلية ، فتصف الله بما هو أقرب إلى الكمال والقداسة من صفات الآلهة المتعددة في أطوارها السابقة ، وتفترن العبادة بالتفكير في أسرار الكون وعلاقتها بإرادة الله وحكمته العالية ، وكثيراً ما يتفرد الإله الأكبر في هذه الأمم بالربوبية الحقة ، وتنزل الأرباب الأخرى إلى مرتبة الملائكة أو الأرباب المطرودين من الحضيرة السماوية ... » الخ .

وواضح سواء من رأي الكاتب نفسه أو مما نقله ملخصاً من آراء علماء الدين المقارن أن البشر هم الذين ينشئون عقائدهم بأنفسهم ؛ ومن ثم تظهر فيها أطوارهم العقلية والعلمية والحضارية والسياسية . وأن التطور من التعدد إلى التثنية إلى التوحيد تطور زمني مطرد على الإجمال ..

وهذا واضح من الجملة الأولى في تقديم المؤلف لكتابه : « موضوع هذا الكتاب نشأة العقيدة الإلهية ، منذ أن اتخذ الإنسان رباً ، إلى أن عرف الله الأحد ، واهتدى إلى نزاهة التوحيد » ..

والذي لا شك فيه أن الله سبحانه يقرر في كتابه الكريم ، تقريراً واضحاً جازماً ، شيئاً آخر غير ما يقرره صاحب كتاب : « الله » متأثراً فيه بمنهج علماء الأديان المقارنة .. وأن الذي يقرره الله - سبحانه - أن آدم

وهو أول البشر عرف حقيقة التوحيد كاملة ، وعرف نزاهة التوحيد غير مشوبة بشائبة من التعدد والتثنية ، وعرف الدينونة لله وحده باتباع ما يتلقى منه وحده . وأنه عرّف بنيه بهذه العقيدة ، فكانت هنالك أجيال في أقدم تاريخ البشرية لا تعرف إلا الإسلام ديناً ، وإلا التوحيد عقيدة .. وأنه لما طال الأمد على الأجيال المتتابعة من ذرية آدم انحرفت عن التوحيد .. ربما إلى التثنية وربما إلى التعدد .. ودانت لشتى الأرباب الزائفة .. حتى جاءها نوح عليه السلام بالتوحيد من جديد . وأن الذين بقوا على الجاهلية أغرقهم الطوفان جميعاً ؛ ولم ينج إلا المسلمون الموحدون الذين يعرفون « نزاهة التوحيد » وينكرون التعدد والتثنية وسائر الأرباب والعبادات الجاهلية ! ولنا أن نجزم أن أجيالاً من ذراري هؤلاء الناجين عاشت كذلك بالإسلام القائم على التوحيد المطلق . قبل أن يطول عليهم الأمد ، ويعودوا إلى الانحراف عن التوحيد من جديد .. وأنه هكذا كان شأن كل رسول : « وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون » ..

والذي لاشك فيه أن هذا شيء ، والذي يقرره علماء الأديان المقارنة ويتابعهم فيه مؤلف كتاب : « الله » شيء آخر . وبينهما تقابل تام في منهج النظر وفي النتائج التي ينتهي إليها .. وآراء الباحثين في تاريخ الأديان ليست سوى نظريات يعارض بعضها بعضاً ، فهي ليست الكلمة النهائية حتى في مباحث البشر الفانين !

وما من شك أنه حين يقرر الله - سبحانه - أمراً يبينه في كتابه الكريم هذا البيان القاطع ، ويقرر غيره أمراً آخر مغايراً له تمام المغايرة ، فإن قول الله يكون أولى بالاتباع . وبخاصة ممن يدافعون عن الإسلام ؛ ويكتبون ما يكتبون بقصد دفع الشبهات عنه وعن أصل الدين جملة .. وأن هذا الدين لا يخدم بنقض قاعدته الاعتقادية في أن الدين جاء وحياً من عند الله ، ولم يبتدعه البشر من عند أنفسهم ؛ وأنه جاء بالتوحيد منذ أقدم العصور ولم يجرى بغير التوحيد في أية فترة من فترات التاريخ ، ولا في أية رسالة . كما أنه لا يخدم بترك تقريراته إلى تقارير علماء الأديان المقارنة وبخاصة حين يعلم أن هؤلاء إنما يعملون وفق منهج موجه لتدمير القاعدة الأساسية لدين الله كله ؛ وهي أنه وحى من الله ، وليس من وحى الفكر البشري المترقي المتطور ! وليس وفقاً على ترقى العقل البشري في العلم المادي والخبرة التجريبية !

ولعل هذه اللمحة المختصرة - التي لا تملك الاستطراد فيها في كتاب الظلال - تكشف لنا عن مدى الخطورة في تلقي مفهوماتنا الإسلامية - في أي جانب من جوانبها - عن مصدر غير إسلامي . كما تكشف لنا عن مدى تغلغل مناهج الفكر الغربية ومقرراتها في أذهان الذين يعيشون على هذه المناهج والمقررات ويستقون منها . حتى وهم يتصدون لرد الاقتراءات عن الإسلام من أعدائه .. « إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم » ..

* * *

ونقف وقفة أخرى مع قصة نوح .. نقف مع نوح وابنه الذي ليس من أهله ! إنها وقفة على معلم واضح بارز في طبيعة هذه العقيدة وفي خطها الحركي أيضاً .. وقفة على مفرق الطريق تكشف معالم الطريق ..

« وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن . فلا تبتئس بما كانوا يفعلون . واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ، ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرورون ... »

« حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا : احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك - إلا من سبق عليه القول - ومن آمن ، وما آمن معه إلا قليل ... »

« وهي تجري بهم في موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان في معزل - : يا بني اركب معنا ، ولا تكن مع الكافرين . قال : سأوي إلى جبل يعصمني من الماء ، قال : لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ، وحال بينهما الموج فكان من المغرقين .. »

« ونادى نوح ربه ، فقال : رب إن ابني من أهلي ، وإن وعدك الحق ، وأنت أحكم الحاكمين . قال : يا نوح إنه ليس من أهلك ، إنه عمل غير صالح ، فلا تسألن ما ليس لك به علم ، إني أعظك أن تكون من الجاهلين . قال : رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم ، وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين .. »

إن الوشيجة التي يتجمع عليها الناس في هذا الدين وشيجة فريدة تتميز بها طبيعة هذا الدين ، وتعلق بأفاق وآماد وأبعاد وأهداف يخصص بها ذلك المنهج الرباني الكريم .

إن هذه الوشيجة ليست وشيجة الدم والنسب ؛ وليست وشيجة الأرض والوطن ، وليست وشيجة القوم والعشيرة ، وليست وشيجة اللون واللغة ، وليست وشيجة الجنس والعنصر ، وليست وشيجة الحرفة والطبقة .. إن هذه الوشائج جميعها قد توجد ثم تنقطع العلاقة بين الفرد والفرد ؛ كما قال الله سبحانه وتعالى لعبده نوح - عليه السلام - وهو يقول : « رب إن ابني من أهلي » .. « يا نوح إنه ليس من أهلك » ثم بين له لماذا يكون ابنه .. ليس من أهله .. « إنه عمل غير صالح » .. إن وشيجة الإيمان قد انقطعت بينكما يا نوح : « فلا تسألن ما ليس لك به علم » فأنت تحسب أنه من أهلك ، ولكن هذا الحسبان خاطئ . أما المعلوم المستيقن فهو أنه ليس من أهلك ، ولو كان هو ابنك من صلبك !

وهذا هو المَعْلَم الواضح البارز على مفرق الطريق بين نظرة هذا الدين إلى الوشائج والروابط ، وبين نظرات الجاهلية المتفرقة .. إن الجاهليات تجعل الرابطة أنا هي الدم والنسب ؛ وأنا هي الأرض والوطن ، وأنا هي القوم والعشيرة ، وأنا هي اللون واللغة ، وأنا هي الجنس والعنصر ، وأنا هي الحرفة والطبقة ! تجعلها أنا هي المصالح المشتركة ، أو التاريخ المشترك . أو المصير المشترك .. وكلها تصورات جاهلية - على تفرقها أو تجمعها - تخالف مخالفة أصيلة عميقة عن أصل التصور الإسلامي !

والمنهج الرباني القويم - ممثلاً في هذا القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم وفي توجيهات الرسول - صلى الله عليه وسلم - وهي من هذا القرآن وعلى نسقه واتجاهه - قد أخذ الأمة المسلمة بالتربية على ذلك الأصل الكبير .. والمَعْلَم الواضح البارز في مفرق الطريق ..

وهذا المثل الذي يضربه في هذه السورة من نوح وابنه فيما يكون بين الوالد والولد ، ضرب أمثاله لشتى الوشائج والروابط الجاهلية الأخرى ، ليقرر من وراء هذه الأمثال حقيقة الوشيجة الوحيدة التي يعتبرها .. * ضرب لها المثل فيما يكون بين الولد والوالد وذلك فيما كان بين إبراهيم - عليه السلام - وأبيه وقومه كذلك :

« واذكر في الكتاب إبراهيم ، إنه كان صديقاً نبياً . إذ قال لأبيه : يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً ؟ يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك ، فاتبعني أهدك صراطاً سوياً . يا أبت لا تعبد الشيطان ، إن الشيطان كان للرحمن عصياً . يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان

ولياً .. قال : أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم ؟ لئن لم تنته لأرجمنك ! واهجرني ملياً . قال : سلام عليك سأستغفر لك ربي ، إنه كان بي حفيظاً ، وأعتزل لكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي ، عسى ألا أكون بدعاء ربي شقيماً . فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبياً ؛ وهبنا لهم من رحمتنا ، وجعلنا لهم لسان صدق علياً » ... (مريم : ٤١ - ٥٠) .

* وضرب لها المثل فيما كان بين إبراهيم وذريته كما علمه الله سبحانه ولقنه ، وهو يعطيه عهده وميثاقه . ويبشره ببقاء ذكره وامتداد الرسالة في عقبه :

« وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات ، فأتمهن ، قال : إني جاعلك للناس إماماً ، قال : ومن ذريتي ؟ قال : لا ينال عهدي الظالمين .. »

« وإذ قال إبراهيم : رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات - من آمن منهم بالله واليوم الآخر . قال : ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم اضطره إلى عذاب النار وبئس المصير » .. (البقرة : ١٢٤ - ١٢٦)

* وضرب لها المثل فيما يكون بين الزوج وزوجه ، وذلك فيما كان بين نوح وامرأته ، ولوط وامرأته . وفي الجانب الآخر ما كان بين امرأة فرعون وفرعون :

« ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط ، كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين ، فخانتاهما ، فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً ، وقيل : ادخلا النار مع الداخلين ... »

« وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون ، إذ قالت : رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ، ونجني من فرعون وعمله ، ونجني من القوم الظالمين » ... (التحريم : ١٠ - ١١)

* وضرب لها المثل فيما يكون بين المؤمنين وأهلهم وقومهم ووطنهم وأرضهم وديارهم وأموالهم ، ومصالحهم وماضيهم ومصيرهم . وذلك فيما كان بين إبراهيم والمؤمنين به مع قومهم . وما كان من الفتية أصحاب الكهف مع أهلهم وقومهم ودورهم وأرضهم ...

« قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه ، إذ قالوا لقومهم : إنا برآء منكم وما تعبدون من دون الله ، كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده ... » .. (الممتحنة : ٤) .

« أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا ؟ إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا : ربنا آتنا من لدنك رحمة وهبنا لنا من أمرنا رشداً ، فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عدداً . ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً . نحن نقص عليك نبأهم بالحق ، إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى ، وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا : ربنا رب السماوات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً لقد قلنا إذا شططاً . هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة . لولا يأتون عليهم بسلطان بين ! فن أظلم ممن افترى على الله كذباً ؟ وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون - إلا الله - فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ، ويهيئ لكم من أمركم مرفقاً » .. (الكهف : ٩ - ١٦) .

وبهذه الأمثلة التي ضربها الله للأمة المسلمة من سيرة الرهط الكريم من الأنبياء والمؤمنين . الذين سبقوها في موكب الإيمان الضارب في شعاب الزمان ، وضحت معالم الطريق لهذه الأمة ؛ وقام هذا المعلم البارز أمامها عن حقيقة الوشيجة التي يجب أن يقوم عليها المجتمع المسلم ، ولا يقوم على سواها . وطالبها ربها بالاستقامة على الطريق في حسم ووضوح يتمثلان في مواقف كثيرة ، وفي توجيهات من القرآن كثيرة .. هذه نماذج منها ..

* « لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله - ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم - أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ، ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، رضي الله عنهم ورضوا عنه ، أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون » ... (المجادلة : ٢٢)

* « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة ، وقد كفروا بما جاءكم من الحق ، يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم ، إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي ، تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ، ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل » ...

(المتحنة : ١)

* « لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم ، يوم القيامة يفصل بينكم ، والله بما تعملون بصير . قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه ... الخ » ..

(المتحنة : ٣-٤)

* « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ، ومن يتولم منكم فأولئك هم الظالمون » ...

(التوبة : ٢٣)

* « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولم منكم فإنه منهم ، إن الله لا يهدي القوم الظالمين » ...

(المائدة : ٥١)

وهكذا تقررت تلك القاعدة الأصلية الحاسمة في علاقات المجتمع الإسلامي ؛ وفي طبيعة بنائه وتكوينه العضوي الذي يتميز به عن سائر المجتمعات الجاهلية قديماً وحديثاً إلى آخر الزمان . ولم يعد هناك مجال للجمع بين « الإسلام » وبين إقامة المجتمع على أية قاعدة أخرى غير القاعدة التي اختارها الله للأمة المختارة . والذين يدعون صفة الإسلام ، ثم يقيمون مجتمعاتهم على قاعدة أو أكثر من تلك العلاقات الجاهلية التي أحل الإسلام محلها قاعدة العقيدة ، إما أنهم لا يعرفون الإسلام ؛ وإما أنهم يرفضونه . والإسلام في كلتا الحالتين لا يعترف لهم بتلك الصفة التي يدعونها لأنفسهم وهم لا يطبقونها ، بل يختارون غيرها من مقومات الجاهلية فعلاً !
وندد هذه القاعدة - وقد صارت واضحة تماماً - لننظر في جوانب من حكمة الله في إقامة المجتمع الإسلامي على هذه القاعدة ..

* إن العقيدة تمثل أعلى خصائص « الإنسان » التي تفرقه من عالم البهيمة ؛ لأنها تتعلق بالعنصر الزائد في تركيبه وكيونته عن تركيب البهيمة وكيونتها - وهو العنصر الروحي الذي به صار هذا المخلوق إنساناً في هذه الصورة - وحتى أشد الملحدن إلحاداً وأكثر الماديين مادية ، قد انتبهوا أخيراً إلى أن العقيدة خاصة من خواص الإنسان تفرقه فراقاً أساسياً عن الحيوان^١ .

ومن ثم ينبغي أن تكون العقيدة - في المجتمع الإنساني الذي يبلغ ذروة الحضارة الإنسانية - هي آصرة التجمع . لأنها العنصر الذي يتعلق بأخص خصائص الإنسان المميزة له عن البهائم . ولا تكون آصرة التجمع عنصراً يتعلق بشيء يشترك فيه الإنسان مع البهائم ! من مثل الأرض والمرعى والمصالح والحدود التي تمثل خواص الحظيرة ، وسياج الحظيرة ! ولا تكون كذلك هي الدم والنسب والعشيرة والقوم والجنس والعنصر

(١) من هؤلاء جوليان هاكسلي من علماء الداروينية الحديثة !

واللون واللغة .. فكلها مما يشترك فيه الإنسان مع البهيمة . وليس هناك إلا شؤون العقل والقلب التي يختص بها الإنسان دون البهيمة !

* كذلك تتعلق العقيدة بعنصر آخر يتميز به الإنسان عن البهائم .. هو عنصر الاختيار والإرادة ، فكل فرد على حدة يملك أن يختار عقيدته بمجرد أن يبلغ سن الرشد ؛ وبذلك يقرر نوع المجتمع الذي يريد أن يعيش فيه مختاراً ؛ ونوع المنهج الاعتقادي والاجتماعي والسياسي والاقتصادي والخلقي الذي يريد - بكامل حريته - أن يتمذهب به ويعيش ..

ولكن هذا الفرد لا يملك أن يقرر دمه ونسبه ولونه وقومه وجنسه . كما لا يملك أن يقرر الأرض التي يحب أن يولد فيها ، ولغة الأم التي يريد أن ينشأ عليها .. إلى آخر تلك المقومات التي تقام عليها مجتمعات الجاهلية ! .. إن هذه الأمور كلها يقضى فيها قبل مجيئه إلى هذه الأرض ، ولا يؤخذ له فيها مشورة ولا رأي ؛ إنما هي تفرض عليه فرضاً سواء أحب أم كره ! فإذا تعلق مصيره في الدنيا والآخرة معاً - أو حتى في الدنيا وحدها - بمثل هذه المقومات التي تفرض عليه فرضاً لم يكن مختاراً ولا مريداً ؛ وبذلك تسلب إنسانيته مقوماً من أخص مقوماتها ؛ وتهدر قاعدة أساسية من قواعد تكريم الإنسان ؛ بل من قواعد تركيبه وتكوينه الإنساني المميز له من سائر الخلائق !

ومن أجل المحافظة على خصائص الإنسان الذاتية ، والمحافظة على الكرامة التي وهبها الله له متمشية مع تلك الخصائص ؛ يجعل الإسلام العقيدة - التي يملك كل فرد اختيارها بشخصه منذ أن يبلغ سن الرشد - هي الآصرة التي يقوم عليها التجمع الإنساني في المجتمع الإسلامي ؛ والتي يتقرر على أساسها مصير كل فرد بإرادته الذاتية . وينفي أن تكون تلك العوامل الاضطرارية ؛ التي لا يد له فيها ، ولا يملك كذلك تغييرها باختياره ، هي آصرة التجمع التي تقرر مصيره طول حياته .

* ومن شأن قيام المجتمع على آصرة العقيدة - وعدم قيامه على العوامل الاضطرارية الأخرى - أن ينشئ مجتمعاً إنسانياً عالمياً مفتوحاً ؛ يجيء إليه الأفراد من شتى الأجناس والألوان واللغات والأقوام والدماء والأنساب والديار والأوطان بكامل حريتهم واختيارهم الذاتي ؛ لا يصدهم عنه صاد ، ولا يقوم في وجوههم حاجز ، ولا تقف دونه حدود مصطنعة ، خارجة عن خصائص الإنسان العليا . وأن تصب في هذا المجتمع كل الطاقات والخواص البشرية ، وتجتمع في صعيد واحد ، لتنشئ « حضارة إنسانية » تنتفع بكل خصائص الأجناس البشرية ؛ ولا تعلق دون كفاية واحدة ، بسبب من اللون أو العنصر أو النسب والأرض ...

« ولقد كان من النتائج الواقعية الباهرة للمنهج الإسلامي في هذه القضية ؛ وإقامة التجمع الإسلامي على آصرة العقيدة وحدها ، دون أواصر الجنس والأرض واللون واللغة والمصالح الأرضية القريبة ، والحدود الإقليمية السخيفة ! وإبراز « خصائص الإنسان » في هذا التجمع وتنميتها وإعلانها ، دون الصفات المشتركة بينه وبين الحيوان .. كان من النتائج الواقعية الباهرة لهذا المنهج أن أصبح المجتمع المسلم مجتمعاً مفتوحاً لجميع الأجناس والألوان واللغات ، بلا عائق من هذه العوائق الحيوانية السخيفة ! وأن صبت في بوتقة المجتمع الإسلامي خصائص الأجناس البشرية وكفائاتها ، وانصهرت في هذه البوتقة وتمازجت ، وأنشأت مركباً عضوياً فائقاً في فترة تعد نسبياً قصيرة . وصنعت هذه الكتلة العجيبة المتجانسة المتناسقة حضارة رائعة ضخمة ، تحوي خلاصة الطاقة البشرية في زمانها مجتمعة ، على بعد المسافات وبطء طرق الاتصال في ذلك الزمان .

« لقد اجتمع في المجتمع الإسلامي المتفوق : العربي والفارسي والشامي والمصري والمغربي والتركي والصيني

والهندي والروماني والإغريقي والأندونيسي والإفريقي . . . إلى آخر الأقوام والأجناس . . . وتجمعت خصائصهم كلها لتعمل متمازجة متعاونة متناسقة في بناء المجتمع الإسلامي والحضارة الإسلامية . ولم تكن هذه الحضارة الضخمة يوماً ما « عربية » إنما كانت دائماً « إسلامية » ولم تكن يوماً ما « قومية » إنما كانت دائماً « عقيدية » .

« ولقد اجتمعوا كلهم على قدم المساواة ، وبآصرة الحب . وبشعور التطلع إلى وجهة واحدة . فبدلوا جميعاً أقصى كفاياتهم ، وأبرزوا أعمق خصائص أجناسهم ، وصبوا خلاصة تجاربهم الشخصية والقومية والتاريخية في بناء هذا المجتمع الواحد الذي ينتسبون إليه جميعاً على قدم المساواة ، وتجمع فيه بينهم آصرة تتعلق بربهم الواحد ، وتبرز فيها إنسانيتهم وحدها بلا عائق . وهذا ما لم يجتمع قط لأي تجمع آخر على مدار التاريخ !

« لقد كان أشهر تجمع بشري في التاريخ القديم هو تجمع الإمبراطورية الرومانية مثلاً . فقد جمعت بالفعل أجناساً متعددة ، ولغات متعددة ، وألواناً متعددة ، وأمزجة متعددة . ولكن هذا كله لم يقم على « آصرة إنسانية » ولم يتمثل في قيمة عليا كالعقيدة . . لقد كان هناك تجمع طبقي على أساس طبقة الأشراف وطبقة العبيد في الإمبراطورية كلها من ناحية ؛ وتجمع عنصري على أساس سيادة الجنس الروماني - بصفة عامة - وعبودية سائر الأجناس الأخرى . ومن ثم لم يرتفع قط إلى أفق التجمع الإسلامي ؛ ولم يؤت الثمار التي آتاها التجمع الإسلامي .

« كذلك قامت في التاريخ الحديث تجمعات أخرى . . تجمع الإمبراطورية البريطانية مثلاً . . ولكنه كان كالتجمع الروماني ، الذي هو وريثه ! تجمعاً قومياً استغلاليًا ، يقوم على أساس سيادة القومية الانجليزية ، واستغلال المستعمرات التي تضمها الإمبراطورية . . ومثله الإمبراطوريات الأوربية كلها . . الإمبراطورية الأسبانية والبرتغالية في وقت ما ، والإمبراطورية الفرنسية . . كلها في ذلك المستوى الهابط البشع المقيت ! وأرادت الشيوعية أن تقيم تجمعاً من نوع آخر ، يتخطى حواجز الجنس والقوم والأرض واللغة واللون . ولكنها لم تقمه على قاعدة « إنسانية » عامة ، إنما أقامته على القاعدة « الطبقة » . فكان هذا التجمع هو الوجه الآخر للتجمع الروماني القديم . . هذا تجمع على قاعدة طبقة « الأشراف » وذلك تجمع على قاعدة طبقة « الصعاليك » (البروليتريا) ؛ والعاطفة التي تسوده هي عاطفة الحقد الأسود على سائر الطبقات الأخرى ! وما كان لمثل هذا التجمع الصغير البغيض أن يثمر إلا أسوأ ما في الكائن الإنساني . . فهو ابتداء قائم على أساس إبراز الصفات الحيوانية وحدها وتنميتها وتمكينها . باعتبار أن « المطالب الأساسية » للإنسان هي « الطعام والمسكن والجنس » - وهي مطالب الحيوان الأولية - وباعتبار أن تاريخ الإنسان هو تاريخ البحث عن الطعام ! !

« لقد تفرد الإسلام بمنهجه الرباني في إبراز أخص خصائص الإنسان وتنميتها وإعلانها في بناء المجتمع الإنساني . . وما يزال متفرداً . . والذين يعدلون عنه إلى أي منهج آخر ، يقوم على أية قاعدة أخرى ، من القوم أو الجنس أو الأرض أو الطبقة . . إلى آخر هذا الثن السخيف ، هم أعداء « الإنسان » حقاً ! هم الذين لا يريدون لهذا الإنسان أن يتفرد في هذا الكون بخصائصه العليا كما فطره الله ؛ ولا يريدون لمجتمعه أن ينتفع بأقصى كفايات أجناسه وخصائصها وتجاربها في امتزاج وتناسق^١ . .

(١) مقتطفات من فصل : « نشأة المجتمع المسلم وخصائصه » من كتاب : « معالم في الطريق » . « دار الشروق » .

* ويحسن أن نذكر أن أعداء هذا الدين ، الذين يعرفون مواضع القوة في طبيعته وحركته ؛ وهم الذين يقول الله تعالى فيهم : « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم » . . لم يفهموا أن يدركوا أن التجمع على أساس العقيدة سر من أسرار قوة هذا الدين ، وقوة المجتمع الإسلامي الذي يقوم على هذا الأساس . . ولما كانوا بصدد هدم ذلك المجتمع أو إضعافه إلى الحد الذي يسهل عليهم السيطرة عليه ؛ وشفاء ما في صدورهم من هذا الدين وأهله ؛ ولاستغلاهم كذلك واستغلال مقدراتهم وديارهم وأمواهم . . لما كانوا بصدد تلك المعركة مع هذا المجتمع لم يفهموا أن يوهنوا من القاعدة التي يقوم عليها ؛ وأن يقيموا لأهله المجتمعيين على إله واحد ، أصناماً تعبد من دون الله ، اسمها تارة « الوطن » واسمها تارة « القوم » واسمها تارة « الجنس » . . وظهرت هذه الأصنام على مراحل التاريخ تارة باسم « الشعبية » وتارة باسم « الجنسية الطورانية » وتارة باسم « القومية العربية » وتارة بأسماء شتى ، تحملها جهات شتى ، تتصارع فيما بينها في داخل المجتمع الإسلامي الواحد القائم على أساس العقيدة ، المنظم بأحكام الشريعة . . إلى أن وهنت القاعدة الأساسية تحت المطارق المتوالية ، وتحت الإيحاءات الخبيثة المسمومة ؛ وإلى أن أصبحت تلك « الأصنام » مقدسات يعتبر المنكر لها خارجاً على دين قومه ! أو خائناً لمصالح بلده !!!

وأخبث المعسكرات التي عملت وما زالت تعمل في تخريب القاعدة الصلبة التي كان يقوم عليها التجمع الإسلامي الفريد في التاريخ . . كان هو المعسكر اليهودي الخبيث ، الذي جرب سلاح « القومية » في تحطيم التجمع المسيحي ، وتحويله إلى قوميات سياسية ذات كنائس قومية . . وبذلك حطموا الحصار المسيحي حول الجنس اليهودي ؛ ثم ثنوا بتحطيم الحصار الإسلامي حول ذلك الجنس الكنود !

وكذلك فعل الصليبيون مع المجتمع الإسلامي - بعد جهد قرون كثيرة في إثارة النزعات الجنسية والقومية والوطنية بين الأجناس الملتحمة في المجتمع الإسلامي . . ومن ثم استطاعوا أن يرضوا أحقادهم الصليبية القديمة على هذا الدين وأهله . كما استطاعوا أن يمزقوهم ويروضهم على الاستعمار الأوربي الصليبي . وما يزالون . . حتى يأذن الله بتحطيم تلك الأصنام الخبيثة الملعونة ؛ ليقوم التجمع الإسلامي من جديد ، على أساسه المتين الفريد . .

* وأخيراً فإن الناس ما كانوا ليخرجوا من الجاهلية الوثنية بكلياتهم حتى تكون العقيدة وحدها هي قاعدة تجمعهم . ذلك أن الدينونة لله وحده لا تتم تمامها إلا بقيام هذه القاعدة في تصورهم وفي تجمعهم . يجب أن تكون هناك قداسة واحدة لمقدس واحد ، وألا تتعدد « المقدسات » ! ويجب أن يكون هناك شعار واحد ، وألا تتعدد « الشعارات » ويجب أن تكون هناك قبلة واحدة يتجه إليها الناس بكلياتهم وألا تتعدد القبلات والمتجهات . .

إن الوثنية ليست صورة واحدة هي وثنية الأصنام الحجرية والآلهة الأسطورية ! إن الوثنية يمكن أن تتمثل في صور شتى ؛ كما أن الأصنام يمكن أن تتخذ صوراً متعددة ؛ وآلهة الأساطير يمكن أن تتمثل مرة أخرى في المقدسات والمعبودات من دون الله أياً كانت أسماؤها . وأياً كانت مراسمها .

وما كان الإسلام ليخلص الناس من الأصنام الحجرية والأرباب الأسطورية ، ثم يرضى لهم بعد ذلك أصنام الجنسيات والقوميات والأوطان . . وما إليها . . يتقاتل الناس تحت راياتها وشعاراتها . وهو يدعوهم إلى الله وحده ، وإلى الدينونة له دون شيء من خلقه !

لذلك قسم الإسلام الناس إلى أمتين اثنتين على مدار التاريخ البشري . . أمة المسلمين من أتباع الرسل -

كل في زمانه حتى يأتي الرسول الأخير إلى الناس كافة - وأمة غير المسلمين من عبدة الطواغيت والأصنام في شتى الصور والأشكال على مدار القرون ..

وعندما أراد الله أن يعرف المسلمين بأمتهم التي تجمعهم على مدار القرون ، عرفها لهم في صورة أتباع الرسل - كل في زمانه - وقال لهم في نهاية استعراض أجيال هذه الأمة : « إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » .. ولم يقل للعرب : إن أمتكم هي الأمة العربية في جاهليتها وإسلامها سواء ! ولا قال لليهود : إن أمتكم هي بنو إسرائيل أو العبرانيون في جاهليتهم وإسلامهم سواء ! ولا قال لسلمان الفارسي : إن أمتك هي فارس ! ولا لصهيب الرومي : إن أمتك هي الرومان ! ولا لبلال الحبشي : إن أمتك هي الحبشة ! إنما قال للمسلمين من العرب والفرس والروم والحشب : إن أمتكم هي المسلمون الذين أسلموا حقاً على أيام موسى وهارون ، وإبراهيم ، ولوط ، ونوح ، وداود وسليمان ، وأيوب ، وإسماعيل وإدريس وذو الكفل وذو النون ، وزكريا ويحيى ، ومريم .. كما جاء في سورة الأنبياء : (آيات : ٤٨ - ٩١) .

هذه هي أمة « المسلمين » في تعريف الله سبحانه .. فمن شاء له طريقاً غير طريق الله فليسلكه . ولكن ليقبل : إنه ليس من المسلمين ! أما نحن الذين أسلمنا لله ، فلا نعرف لنا أمة إلا الأمة التي عرفها لنا الله . والله يقص الحق وهو خير الفاصلين ..

وحسبنا هذا القدر مع إلهامات قصة نوح في هذه القضية الأساسية في هذا الدين .

* * *

ثم نقف الوقفة الأخيرة مع قصة نوح لنرى قيمة الحفنة المسلمة في ميزان الله سبحانه : إن حفنة من المسلمين من أتباع نوح عليه السلام ، تذكر بعض الروايات أنهم اثنا عشر ، هم كانوا حصيلة دعوة نوح في ألف سنة إلا خمسين عاماً كما يقرر المصدر الوحيد المستيقن الصحيح في هذا الشأن .. إن هذه الحفنة - وهي ثمرة ذلك العمر الطويل والجهد الطويل - قد استحقت أن يغير الله لها المألوف من ظواهر هذا الكون ؛ وأن يجري لها ذلك الطوفان الذي يغمر كل شيء وكل حي في المعمور وقتها من الأرض ! وأن يجعل هذه الحفنة وحدها هي وارثة الأرض بعد ذلك ، وبذرة العمران فيها والاستخلاف من جديد .. وهذا أمر خطير ..

إن طلائع البعث الإسلامي التي تواجه الجاهلية الشاملة في الأرض كلها ؛ والتي تعاني الغربة في هذه الجاهلية والوحشة ؛ كما تعاني الأذى والمطاردة والتعذيب والتنكيل .. إن هذه الطلائع ينبغي أن تقف طويلاً أمام هذا الأمر الخطير ، وأمام دلالاته التي تستحق التدبير والتفكير !

إن وجود البذرة المسلمة في الأرض شيء عظيم في ميزان الله تعالى .. شيء يستحق منه سبحانه أن يدمر الجاهلية وأرضها وعمرانها ومنتشاتها وقواها ومدخراتها جميعاً ؛ كما يستحق منه سبحانه أن يكلاً هذه البذرة ويرعاها حتى تسلم وتنجو وترث الأرض وتعمرها من جديد !

لقد كان نوح عليه السلام يصنع الفلك بأعين الله ووحيه ، كما قال تعالى : « واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون » ..

وعندما لجأ نوح إلى ربه والقوم يطاردونه ويزجرونه ويفترون عليه كما قال الله تعالى في سورة القمر : « كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر . فدعا ربه أني مغلوب فانتصر » ..

عندما لجأ نوح إلى ربه يعلن أنه « مغلوب » ويدعو ربه أن « ينتصر » هو وقد غلب رسوله .. عندئذ أطلق الله القوى الكونية الهائلة لتكون في خدمة عبده المغلوب :

« ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر . وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر .. »
 وبينما كانت تلك القوى الهائلة تراول عملها على هذا المستوى الكوني الرائع المرهوب .. كان الله سبحانه - بذاته العلية - مع عبده المغلوب :

« وحملناه على ذات ألواح ودسر . تجري بأعيننا .. جزاء لمن كان كفر .. »
 هذه هي الصورة الهائلة التي يجب أن تقف طلائع البعث الإسلامي في كل مكان وفي كل زمان أمامها حين تطاردها الجاهلية ؛ وحين « تغلبها » الجاهلية !

إنها تستحق أن يسخر الله لها القوى الكونية الهائلة .. وليس من الضروري أن تكون هي الطوفان . فإلى الطوفان إلا صورة من صور تلك القوى ! « وما يعلم جنود ربك إلا هو » ..

وإنه ليس عليها إلا أن تثبت وتستمر في طريقها ؛ وإلا أن تعرف مصدر قوتها وتلجأ إليه ؛ وإلا أن تصبر حتى يأتي الله بأمره ، وإلا أن تثق أن وليها القدير لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء . وأنه لن يترك أوليائه إلى أعدائه ، إلا فترة الإعداد والابتلاء ؛ وأنها متى اجتازت هذه الفترة فإن الله سيصنع لها وسيصنع بها في الأرض ما يشاء .

.. وهذه هي عبرة الحادث الكوني العظيم ..

إنه لا ينبغي لأحد يواجه الجاهلية بالإسلام أن يظن أن الله تاركة للجاهلية وهو يدعو إلى أفراد الله سبحانه بالربوبية . كما أنه لا ينبغي له أن يقيس قوته الذاتية إلى قوى الجاهلية فيظن أن الله تاركة لهذه القوى وهو عبده الذي يستنصر به حين يغلب فيدعوه : « أي مغلوب فانتصر » ..

إن القوى في حقيقتها ليست متكافئة ولا متقاربة .. إن الجاهلية تملك قواها .. ولكن الداعي إلى الله يستند إلى قوة الله . والله يملك أن يسخر له بعض القوى الكونية - حيناً يشاء وكيفما يشاء - وأيسر هذه القوى يدمر على الجاهلية من حيث لا تحتسب !

وقد تطول فترة الابتلاء لأمر يريده الله .. ولقد لبث نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ؛ قبل أن يأتي الأجل الذي قدره الله . ولم تكن حصيلة هذه الفترة الطويلة إلا اثني عشر مسلماً .. ولكن هذه الحفنة من البشر كانت في ميزان الله تساوي تسخير تلك القوى الهائلة ، والتدمير على البشرية الضالة جميعاً ، وتوريث الأرض لتلك الحفنة الطيبة تعمرها من جديد وتستخلف فيها ..

إن عصر الخوارق لم يمض ! فالخوارق تتم في كل لحظة - وفق مشيئة الله الطليقة - ولكن الله يستبدل بأنماط من الخوارق أنماطاً أخرى ، تلائم واقع كل فترة ومقتضياتها . وقد تدب بعض الخوارق على بعض العقول فلا تدركها ؛ ولكن الموصولين بالله يرون يد الله دائماً ، ويلابسون آثارها المبدعة .

والذين يسلكون السبيل إلى الله ليس عليهم إلا أن يؤدوا واجبهم كاملاً ، بكل ما في طاقتهم من جهد ؛ ثم يدعوا الأمور لله في طمأنينة وثقة . وعندما يغلبون عليهم أن يلجأوا إلى الناصر المعين وأن يجأروا إليه كما جأ عبده الصالح نوح : « فدعا ربه أي مغلوب ، فانتصر » .. ثم ينتظروا فرج الله القريب . وانتظار الفرج من الله عبادة ؛ فهم على هذا الانتظار مأجورون .

ومرة أخرى نجد أن هذا القرآن لا يكشف عن أسراره إلا للذين يخوضون به المعركة ويجاهدون به جهاداً كبيراً .. إن هؤلاء وحدهم هم الذين يعيشون في مثل الجو الذي تنزل فيه القرآن ؛ ومن ثم يتذوقونه ويدركونه ؛ لأنهم يجدون أنفسهم مخاطبين خطاباً مباشراً به ، كما خوطبت به الجماعة المسلمة الأولى ، فتذوقته وأدركته وتحركت به ..

.. والحمد لله في الأولى والآخرة ..

وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ إِن أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٥﴾ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِن أَنجِرِي إِلَّا عَلَىٰ الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٨﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ مِّنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ ﴿٦٠﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَىٰ اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِن دَابَّةٍ إِلَّا أَهْوَأُ حِذْبًا يُنَاصِبَتَهَا ۗ إِن رَّبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْعًا إِن رَّبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ ﴿٦٢﴾

وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّبَيْنَهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٦٣﴾ وَتِلْكَ ءَادُ يَحْدُوا بِإِغْيَابِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٦٤﴾ وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا إِن ءَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا أُبَعِدُ الْعَادِ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٥﴾

* وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۗ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوا لَهُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ ۗ إِن رَّبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦٦﴾ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا ۗ أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَنَاقِلُونَ ۗ إِنَّا لَنِي شَيْكٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ﴿٦٧﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَيْتُنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن عَصَيْتُهُ ۗ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٨﴾ وَيَا قَوْمِ هَذِهِ

نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذُرُّوهَا تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿١٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ
 تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعَدُّ غَيْرِ مَكْدُوبٍ ﴿١٥﴾
 فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ
 الْعَزِيزُ ﴿١٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَنِّمِينَ ﴿١٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا آلَ إِيْمُودَآ
 كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بَعْدَ الثُّمُودَ ﴿١٨﴾

مضى قوم نوح في التاريخ ، الأكثرون المكذبون طواهم الطوفان وطواهم التاريخ ، واستبعدوا من الحياة ومن رحمة الله سواء ، والناجون استخلفوا في الأرض تحقيقاً لسنة الله ووعده : « إن العاقبة للمتقين » .
 ولقد كان وعد الله لنوح : « يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم » . فلما دارت عجلة الزمن ومضت خطوات التاريخ جاء وعد الله . وإذا عاد من نسل نوح الذين تفرقوا في البلاد - ومن بعدهم ثمود - ممن حقت عليهم كلمة الله : « وأمم سمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم » .

* * *

لقد عادت الجاهلية مرة أخرى كما عادت من قبل بعد أجيال لا يعلمها إلا الله من المسلمين من ذرية آدم . .
 فلا بد أن أجيالاً من ذرية آدم بعد استخلافه في الأرض قد ولدت مسلمة وعاشت بالإسلام الذي كان عليه أبواهم . حتى اجتالتهم الشياطين عن دينهم ، وانحرفت بهم إلى الجاهلية التي واجهها نوح - عليه السلام -
 ثم جاء نوح فنجا معه من نجا من المسلمين ، وأهلك الباقون ولم يعد على الأرض من الكافرين ديار - كما دعا نوح ربه . ولا بد أن أجيالاً كثيرة من ذرية نوح عاشت بالإسلام بعده . . حتى اجتالتهم الشياطين مرة أخرى فانحرفوا كذلك إلى الجاهلية . وكانت عاد وكانت ثمود بعدها من أمة الجاهلية . .

فأما عاد فكانوا قبيلة تسكن الأحقاف (والحقف كثيب الرمل المائل) في جنوب الجزيرة العربية ، وأما ثمود فكانت قبيلة تسكن مدائن الحجر في شمال الجزيرة بين تبوك والمدينة وبلغت كل منهما في زمانها أقصى القوة والمنعة والرزق والمتاع . . ولكن هؤلاء وهؤلاء كانوا ممن حقت عليهم كلمة الله ، بما عتوا عن أمر الله ، واختاروا الوثنية على التوحيد ، والدينونة للعبيد على الدينونة لله ، وكذبوا الرسل شر تكذيب . وفي قصصهم هنا مصداق ما في مطلع السورة من حقائق وقضايا كقصص نوح .

* * *

« وإلى عاد أخاهم هوداً قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره . إن أنتم إلا مفترون . يا قوم لا أسألكم عليه أجراً . إن أجري إلا على الذي فطرني . أفلا تعقلون ؟ ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه ، يرسل السماء عليكم مدراراً ، ويزدكم قوة إلى قوتكم ، ولا تتولوا مجرمين » . .

وكان هود من عاد . فهو أخوهم . واحد منهم ، تجمعهم - كانت - آصرة القربى العامة بين أفراد القبيلة الواحدة . وتبرز هذه الآصرة هنا في السياق ، لأن من شأنها أن تقوم الثقة والتعاطف والتناصح بين الأخ وإخوته ، وليبدو موقف القوم من أخيهم ونيبهم شاذاً ومستقبحاً ! ثم لتقوم المفاصلة في النهاية بين القوم وأخيهم على أساس افتراق العقيدة . ويبرز بذلك معنى انقطاع الوشائج كلها حين تنقطع وشيجة العقيدة . لتنفرد هذه الوشيجة وتبرز في علاقات المجتمع الإسلامي ، ثم لكي تبين طبيعة هذا الدين وخطه الحركي . فالدعوة به تبدأ والرسول وقومه من أمة واحدة تجمع بينه وبينها أواصر القربى والدم والنسب والعشيرة والأرض . . . ثم تنتهي بالافتراق وتكوين أمتين مختلفتين من القوم الواحد . . . أمة مسلمة وأمة مشركة . . وبينهما فُرقة ومفاصلة . . وعلى أساس هذه المفاصلة يتم وعد الله بنصر المؤمنين وإهلاك المشركين . ولا يجيء وعد الله بهذا ولا يتحقق إلا بعد أن تم المفاصلة ، وتم المفارقة ، وتميز الصفوف ، وينخلع النبي والمؤمنون معه من قومهم ، ومن سابق روابطهم ووشائجهم معهم ، ويخلعوا ولأهم لقومهم ولقيادتهم السابقة ، ويعطوا ولأهم كله لله ربهم ولقيادتهم المسلمة التي دعتهم إلى الله وإلى الدينونة له وحده وخلع الدينونة للعباد . . وعندئذ فقط - لا قبله - ينتزل عليهم نصر الله . .

« وإلى عاد أخاهم هودا » . .

أرسلناه إليهم كما أرسلنا نوحاً إلى قومه في القصة السابقة .

« قال : يا قوم » . .

بهذا التودد ، والتذكير بالأواصر التي تجمعهم ، لعل ذلك يستثير مشاعرهم ويحقق اطمئنانهم إليه فيما يقول . فالرائد لا يكذب أهله ، والناصح لا يغش قومه .

« قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره » . .

القول الواحد التي جاء بها كل رسول وكانوا قد انحرفوا - كما أسلفنا - عن عبادة الله الواحد التي هبط بها المؤمنون مع نوح من السفينة . ولعل أول خطوة في هذا الانحراف كانت هي تعظيم ذكرى الفئة المؤمنة القليلة التي حملت في السفينة مع نوح ! ثم تطور هذا التعظيم جيلاً بعد جيل فإذا أرواحهم المقدسة تتمثل في أشجار وأحجار نافعة ؛ ثم تتطور هذه الأشياء فإذا هي معبودات ، وإذا وراءها كهنة وسدنة يعبدون الناس للعباد منهم باسم هذه المعبودات المدعاة - في صورة من صور الجاهلية الكثيرة . ذلك أن الانحراف خطوة واحدة عن نهج التوحيد المطلق . الذي لا يتجه بشعور التقديس لغير الله وحده ولا يدين بالعبودية إلا لله وحده . . الانحراف خطوة واحدة لا بد أن تتبعه مع الزمن خطوات وانحرافات لا يعلم مداها إلا الله .

على أية حال لقد كان قوم هود مشركين لا يدينون لله وحده بالعبودية ، فإذا هو يدعوهم تلك الدعوة التي جاء بها كل رسول :

« يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره » . . « إن أنتم إلا مفترون » . .

مفترون فيما تعبدونه من دون الله ، وفيما تدعونه من شركاء لله .

ويبادر هود ليوضح لقومه أنها دعوة خالصة ونصيحة محضة ، فليس له من ورائها هدف . وما يطلب على النصح والهداية أجراً . إنما أجره على الله الذي خلقه فهو به كفيل :

« يا قوم لا أسألكم عليه أجراً . إن أجرى إلا على الذي فطرني أفلا تعقلون ؟ » .

مما يشعر أن قوله : « لا أسألكم عليه أجراً » كان بناء على اتهام له أو تلميح بأنه يبتغي أجراً أو كسب مال من وراء الدعوة التي يدعوها . وكان التعقيب : « أفلا تعقلون ؟ » للتعجب من أمرهم وهم يتصورون أن رسولاً من عند الله يطلب رزقاً من البشر ، والله الذي أرسله هو الرزاق الذي يقوت هؤلاء الفقراء ! ثم يوجههم إلى الاستغفار والتوبة . ويكرر السياق التعبير ذاته الذي ورد في أول السورة على لسان خاتم الأنبياء ، ويعدهم هود ويحذرهم ما وعدهم محمد وحذرهم بعد ذلك بآلاف السنين :

« ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه ، يرسل السماء عليكم مدراراً ، ويزدكم قوة إلى قوتكم . ولا تتولوا مجرمين » ..

استغفروا ربكم مما أنتم فيه ، وتوبوا إليه فابدأوا طريقاً جديداً يحقق النية و يترجمها إلى عمل يصدق النية ..

« يرسل السماء عليكم مدراراً » ..

وكانوا في حاجة إلى المطر يسقون به زروعهم ودوابهم في الصحراء ، ويحتفظون به بالخشب الناشئ من هطول الأمطار في تلك البقاع .

« ويزدكم قوة إلى قوتكم » ..

هذه القوة التي عرقت بها ..

« ولا تتولوا مجرمين » ..

مرتكبين لجريمة التولي والتكذيب .

وننظر في هذا الوعد . وهو يتعلق بإدراك المطر ومضاعفة القوة . وهي أمور تجري فيها سنة الله وفق قوانين ثابتة في نظام هذا الوجود ، من صنع الله ومشيئته بطبيعة الحال . فما علاقة الاستغفار بها وما علاقة التوبة ؟ فأما زيادة القوة فالأمر فيها قريب ميسور ، بل واقع مشهود ، فإن نظافة القلب والعمل الصالح في الأرض يزيدان التائبين العاملين قوة . يزيدانهم صحة في الجسم بالاعتدال والاقتصار على الطيبات من الرزق وراحة الضمير وهدوء الأعصاب والاطمئنان إلى الله والثقة برحمته في كل آن ؛ ويزيدانهم صحة في المجتمع بسيادة شريعة الله الصالحة التي تطلق الناس أحراراً كراماً لا يدينون لغير الله على قدم المساواة بينهم أمام قهار واحد تعنوا له الجباه .. كما تطلقان طاقات الناس ليعملوا ويتجوا ويؤدوا تكاليف الخلافة في الأرض ؛ غير مشغولين ولا مسخرين بمراسم التأليه للأرباب الأرضية وإطلاق البخور حولها ودق الطبول ، والنفخ فيها ليل نهار لتملاً فراغ الإله الحق في فطرة البشر !

والملاحظ دائماً أن الأرباب الأرضية تحتاج ويحتاج معها سدنيتها وعبادها أن يخلعوا عليها بعض صفات الألوهية من القدرة والعلم والإحاطة والقهر والرحمة .. أحياناً .. كل ذلك ليدين لها الناس ! فالربوبية تحتاج إلى ألوهية معها تخضع بها العباد ! وهذا كله يحتاج إلى كد ناصب من السدنة والعباد وإلى جهد ينفقه من يدينون لله وحده في عمارة الأرض والنهوض بتكاليف الخلافة فيها ، بدلاً من أن ينفقه عبّاد الأرباب الأرضية في الطبل والزمر والتراتيل والتساييح لهذه الأرباب المفتراة !

ولقد تنوفاً القوة لمن لا يحكمون شريعة الله في قلوبهم ولا في مجتمعهم ، ولكنها قوة إلى حين . حتى تنتهي الأمور إلى نهايتها الطبيعية وفق سنة الله ، وتنحطم هذه القوة التي لم تستند إلى أساس ركين . إنما استندت إلى

جانب واحد من السنن الكونية كالععمل والنظام ووفرة الإنتاج . وهذه وحدها لا تدوم . لأن فساد الحياة الشعورية والاجتماعية يقضي عليها بعد حين .

فأما إرسال المطر . مدراراً . فالظاهر للبشر أنه يجري وفق سنن طبيعية ثابتة في النظام الكوني . ولكن جريان السنن الطبيعية لا يمنع أن يكون المطر محيياً في مكان وزمان ، ومدمراً في مكان وزمان ؛ وأن يكون من قَدَر الله أن تكون الحياة مع المطر لقوم ، وأن يكون الدمار معه لقوم ، وأن ينفذ الله تبشيريه بالخير ووعيده بالشر عن طريق توجيه العوامل الطبيعية ؛ فهو خالق هذه العوامل ، وجاعل الأسباب لتحقيق سنته على كل حال . ثم تبقى وراء ذلك مشيئة الله الطليقة التي تصرف الأسباب والظواهر بغير ما اعتاد الناس من ظواهر النواميس وذلك لتحقيق قدر الله كيفما شاء . حيث شاء . بالحق الذي يحكم كل شيء في السماوات والأرض¹ غير مقيد بما عهدته الناس في الغالب .

تلك كانت دعوة هود - ويبدو أنها لم تكن مصحوبة بمعجزة خارقة . ربما لأن الطوفان كان قريباً منهم ، وكان في ذاكرة القوم وعلى لسانهم ، وقد ذكروهم به في سورة أخرى - فأما قومه فظنوا به الظنون . . . « قالوا . يا هود ما جئتنا ببينة ، وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك ، وما نحن لك بمؤمنين . إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء . . . » .

إلى هذا الحد بلغ الانحراف في نفوسهم ، إلى حد أن يظنوا أن هوداً يهذي ، لأن أحد آلهتهم المفتراة قد مسه بسوء ، فأصيب بالهذيان !
« يا هود ما جئتنا ببينة » . . .

والتوحيد لا يحتاج إلى بينة ، إنما يحتاج إلى التوجيه والتذكير ، وإلى استجاشة منطق الفطرة ، واستنباء الضمير .

« وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك » . .
أي لمجرد أنك تقول بلا بينة ولا دليل !
« وما نحن لك بمؤمنين » . .

أي مستجيبين لك ومصدين . . وما نعلل دعوتك إلا بأنك تهذي وقد أصابك أحد آلهتنا بسوء !
وهنا لم يبق لهود إلا التحدي . وإلا التوجه إلى الله وحده والاعتماد عليه . وإلا الوعيد والإنذار الأخير للمكذبين . وإلا المفاصلة بينه وبين قومه ونقض يده من أمرهم إن أصرروا على التكذيب :

« قال إني أشهد الله ، وأشهدوا أي بريء مما تشركون من دونه ، فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون . إني توكلت على الله ربي وربكم ، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ، إن ربي على صراط مستقيم . فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ، ويستخلف ربي قوماً غيركم ، ولا تضررونه شيئاً ، إن ربي على كل شيء حفيظ » . .
إنها انتفاضة التبرؤ من القوم - وقد كان منهم وكان أخاهم - وانتفاضة الخوف من البقاء فيهم وقد اتخذوا غير طريق الله طريقاً . وانتفاضة المفاصلة بين حزبين لا يلتقيان على وشيجة وقد انبنت بينهما وشيجة العقيدة .

(١) سيأتي تفصيل ذلك في التعقيب على القصة .

وهو يشهد الله ربه على براءته من قومه الضالين وانعزاله عنهم وانفصاله منهم . ويشهدهم هم أنفسهم على هذه البراءة منهم في وجوههم ؛ كي لا تبقى في أنفسهم شبهة من نفوره وخوفه أن يكون منهم !
وذلك كله مع عزة الإيمان واستعلائه . ومع ثقة الإيمان واطمئنانه !

وإن الإنسان ليدهش لرجل فرد يواجه قوماً غلاظاً شداداً حمقى . يبلغ بهم الجهل أن يعتقدوا أن هذه المعبودات الزائفة تمس رجلاً فيهدي ؛ ويروا في الدعوة إلى الله الواحد هذياناً من أثر المس ! يدهش لرجل يواجه هؤلاء القوم الواثقين بألهتهم المفتراة هذه الثقة ، فيسفه عقيدتهم ويقرعهم عليها ويؤنبهم ؛ ثم يهيج ضراوتهم بالتحدي . لا يطلب مهلة ليستعد استعدادهم ، ولا يدعهم يترثون فيفتأ غضبهم .
إن الإنسان ليدهش لرجل فرد يقتحم هذا الاقتحام على قوم غلاظ شداد . ولكن الدهشة تزول عندما يتدبر العوامل والأسباب ..

إنه الإيمان . والثقة . والاطمئنان .. الإيمان بالله ، والثقة بوعده ، والاطمئنان إلى نصره .. الإيمان الذي يخالط القلب فإذا وعد الله بالنصر حقيقة ملموسة في هذا القلب لا يشك فيها لحظة . لأنها ملء يديه ، وملء قلبه الذي بين جنبيه ، وليست وعداً للمستقبل في ضمير الغيب ، إنما هي حاضر واقع تملأه العين والقلب .
« قال : إني أشهد الله واشهدوا أنني بريء مما تشركون من دونه » .

إني أشهد الله على براءتي مما تشركون من دونه . واشهدوا أتم شهادة تبرئني وتكون حجة عليكم : أنني عاليتكم بالبراءة مما تشركون من دون الله . ثم تجمعوا أتم وهذه الآلهة التي تزعمون أن أحدها مسني بسوء . تجمعوا أتم وهي - جميعاً - ثم كيدوني بلا ريث ولا تمهل ، فما بأليكم جميعاً ، ولا أخشاكم شيئاً :
« إني توكلت على الله ربي وربكم » ..

ومهما أنكرتم وكذبتهم . فهذه الحقيقة قائمة . حقيقة ربوبية الله لي ولكم . فالله الواحد هو ربي وربكم ، لأنه رب الجميع بلا تعدد ولا مشاركة ..
« ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها » ..

وهي صورة محسوسة للقهر والقدرة تصور القدرة آخذة بناصية كل دابة على هذه الأرض ، بما فيها الدواب من الناس . والناصية أعلى الجبهة . فهو القهر والغلبة والهيمنة ، في صورة حسية تناسب الموقف ، وتناسب غلظة القوم وشدتهم ، وتناسب صلابة أجسامهم وبنيتهم ، وتناسب غلظ حسهم ومشاعرهم .. وإلى جانبها تقرير استقامة السنة الإلهية في اتجاهها الذي لا يحد :

« إن ربي على صراط مستقيم » ..

فهي القوة والاستقامة والتصميم .

وفي هذه الكلمات القوية الحاسمة ندرك سر ذلك الاستعلاء وسر ذلك التحدي .. إنها ترسم صورة الحقيقة التي يجدها نبي الله هود - عليه السلام - في نفسه من ربه .. إنه يجد هذه الحقيقة واضحة .. إن ربه ورب الخلائق قوي قاهر : « ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها » .. وهؤلاء الغلاظ الأشداء من قومه إن هم إلا دواب من تلك الدواب التي يأخذ ربه بناصيتها ويقهرها بقوته قهراً . فما خوفه من هذه الدواب وما احتفاله بها ؛ وهي لا تسلط عليه - إن سلطت - إلا بإذن ربه ؟ وما بقاءه فيها وقد اختلف طريقها عن طريقه ؟

إن هذه الحقيقة التي يجدها صاحب الدعوة في نفسه ، لا تدع في قلبه مجالاً للشك في عاقبة أمره ؛ ولا مجالاً للتردد عن المضي في طريقه .

إنها حقيقة الألوهية كما تتجلى في قلوب الصفوة المؤمنة أبداً .

وعند هذا الحد من التحدي بقوة الله ، وإبراز هذه القوة في صورتها القاهرة الحاسمة ، يأخذ هود في الإنذار والوعيد :

« فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم » ..

فأديت واجبي لله ، ونفست يدي من أمركم لتواجهوا قوة الله سبحانه :

« ويستخلف ربي قوماً غيركم » ..

يليقون بتلقي دعوته ويستقيمون على هدايته بعد إهلاككم ببغيكم وظلمكم وانحرافكم .

« ولا تضرونه شيئاً » ..

فما لكم به من قوة ، وذهابكم لا يترك في كونه فراغاً ولا نقصاً ..

« إن ربي على كل شيء حفيظ » ..

يحفظ دينه وأوليائه وسننه من الأذى والضياع ، ويقوم عليكم فلا تفلتون ولا تعجزونه هرباً !

وكانت هي الكلمة الفاصلة . وانتهى الجدل والكلام . ليحق الوعيد والإنذار :

« ولما جاء أمرنا نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا . ونجيناهم من عذاب غليظ » .

لما جاء أمرنا بتحقيق الوعيد ، وإهلاك قوم هود ، نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة مباشرة منا ، خلصتهم

من العذاب العام النازل بالقوم ، واستثنيتهم من أن يصيبهم بسوء . وكانت نجاتهم من عذاب غليظ حل

بالمكذبين . ووصف العذاب بأنه غليظ بهذا التصوير المجسم ، يتناسق مع الجو ، ومع القوم الغلاظ العتاة .

والآن وقد هلكت عاد . يشار إلى مصرعها إشارة البعد ، ويسجل عليها ما اقترفت من ذنب ، وتشيع باللعة

والطرد ، في تقرير وتكرار وتوكيد :

« وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد . واتبعوا في هذه الدنيا لعنة

ويوم القيامة . ألا إن عاداً كفروا ربهم . ألا بعداً لعاد قوم هود » ..

« وتلك عاد » .. بهذا البعد . وقد كان ذكرهم منذ لحظة في السياق ، وكان مصرعهم معروضاً على الأنظار ..

ولكنهم انتهوا وبعثوا عن الأنظار والأفكار ..

« وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله » ..

وهم عصوا رسولاً واحداً . ولكن أليست هي رسالة واحدة جاء بها الرسل جميعاً ؟ فمن لم يسلم لرسول بها

فقد عصى الرسل جميعاً . ولا ننسى أن هذا الجمع في الآيات وفي الرسل مقصود من ناحية أسلوبية أخرى

لتضخيم جرميتهم وإبراز شاعتها . فهم جحدوا آيات ، وهم عصوا رسلاً . فما أضخم الذنب وما أشنع الجريمة !

« واتبعوا أمر كل جبار عنيد » ..

أمر كل متسلط عليهم ، معاند لا يسلم بحق ، وهم مسؤولون أن يتحرروا من سلطان المتسلطين ، ويفكروا

بأنفسهم لأنفسهم . ولا يكونوا ذيولاً فيهدروا آدميتهم .

وهكذا يتبين أن القضية بين هود وعاد كانت قضية ربوبية الله وحده لهم والدينونة لله وحده من دون العباد .. كانت هي قضية الحاكمية والاتباع .. كانت هي قضية : من الرب الذي يدينون له ويتبعون أمره ؟ يتجلى هذا في قول الله تعالى :

« وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله ، واتبعوا أمر كل جبار عنيد » ..

فهي المعصية لأمر الرسل والاتباع لأمر الجبارين ! والإسلام هو طاعة امر الرسل - لأنه أمر الله - ومعصية أمر الجبارين . وهذا هو مفرق الطريق بين الجاهلية والإسلام وبين الكفر والإيمان .. في كل رسالة وعلى يد كل رسول .

وهكذا يتبين أن دعوة التوحيد نصر أول ما نصر على التحرر من الدينونة لغير الله ؛ والتبريد على سلطان الأرباب الطغاة ؛ وتعد إلغاء الشخصية والتنازل عن الحرية ، واتباع الجبارين المتكبرين جريمة شرك وكفر يستحق عليها الخانعون الهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة .. لقد خلق الله الناس ليكونوا أحراراً لا يدينون بالعبودية لأحد من خلقه ، ولا يتزلون عن حريتهم هذه لطاغية ولا رئيس ولا زعيم . فهذا مناط تكريمهم . فإن لم يصونوه فلا كرامة لهم عند الله ولا نجاة . وما يمكن لجماعة من البشر أن تدعي الكرامة ، وتدعي الإنسانية ، وهي تدين لغير الله من عباده . والذين يقبلون الدينونة لربوبية العبيد وحاكمتهم ليسوا بمعذورين أن يكونوا على أمرهم مغلوبين . فهم كثرة والمتجرون قلة . ولو أرادوا التحرر لضحوا في سبيله بعض ما يضحونه مرغمين للأرباب المتسلطين من ضرائب الذل في النفس والعرض والمال .

لقد هلكت عاد لأنهم اتبعوا أمر كل جبار عنيد .. هلكوا مشيعين باللعة في الدنيا وفي الآخرة :

« واتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة » ..

ثم لا يتركهم قبل أن يسجل عليهم حالم وسبب ما أصابهم في إعلان عام وتنبه عال :

« ألا إن عاداً كفروا ربهم » ..

ثم يدعو عليهم بالطرد والبعد البعيد :

« ألا بعداً لعاد قوم هود » ..

بهذا التحديد والإيضاح والتوكيد . كأنما يحدد عنوانهم للعنة المرسله عليهم حتى تقصدهم قصداً :

.. « ألا بعداً لعاد قوم هود » !!!

* * *

ونقف وقفات قصيرة أمام ما تلهمه قصة هود مع قومه في سياق هذه السورة ، قبل أن تنتقل منها إلى قصة صالح . ذلك أن استعراض خط سير الدعوة الإسلامية على هذا النحو إنما يجيء في القرآن الكريم لرسم معالم الطريق في خط الحركة بهذه العقيدة على مدار القرون .. ليس فقط في ماضيها التاريخي ، ولكن في مستقبلها إلى آخر الزمان . وليس فقط للجماعة المسلمة الأولى التي تلقت هذا القرآن أول مرة . وتحركت به في وجه الجاهلية يومذاك ؛ ولكن كذلك لكل جماعة مسلمة تواجه به الجاهلية إلى آخر الزمان .. وهذا ما يجعل هذا القرآن كتاب الدعوة الإسلامية الخالد ؛ ودليلها في الحركة في كل حين . ولقد أشرنا إشارات سريعة إلى اللمسات القرآنية التي سنعيد الحديث عنها كلها تقريباً . ولكنها مرت في

مجال تفسير النصوص القرآنية مروراً عابراً لمتابعة السياق . وهي تحتاج إلى وقفات أمامها أطول في حدود الإجمال :

* نَقَفَ أمام الدعوة الواحدة الخالدة على لسان كل رسول وفي كل رسالة .. دعوة توحيد العبادة والعبودية لله ، المتمثلة فيما يحكيه القرآن الكريم عن كل رسول : « قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره » .. ولقد كنا دائماً نفسر « العبادة » لله وحده بأنها « الدينونة الشاملة » لله وحده . في كل شأن من شؤون الدنيا والآخرة . ذلك أن هذا هو المدلول الذي تعطيه اللفظة في أصلها اللغوي .. فإن « عبد » معناها : دان وخضع وذلل . وطريق معبد طريق مدلل ممد . وعبد جعله عبداً أي خاضعاً مدلاً .. ولم يكن العربي الذي خوطب بهذا القرآن أول مرة يحصر مدلول هذا اللفظ وهو يؤمر به في مجرد أداء الشعائر التعبدية . بل إنه يوم خوطب به أول مرة في مكة لم تكن قد فرضت بعد شعائر تعبدية ! إنما كان يفهم منه عندما يخاطب به أن المطلوب منه هو الدينونة لله وحده في أمره كله ؛ وخلع الدينونة لغير الله من عنقه في كل أمره .. ولقد فسر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « العبادة » نصاً بأنها هي « الاتباع » وليست هي الشعائر التعبدية . وهو يقول لعدي ابن حاتم عن اليهود والنصارى واتخاذهم الأبحار والرهبان أرباباً : « بلى . إنهم أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال . فاتبعوهم . فذلك عبادتهم إياهم » .. إنما أطلقت لفظة « العبادة » على « الشعائر التعبدية » باعتبارها صورة من صور الدينونة لله في شأن من الشؤون .. صورة لا تستغرق مدلول « العبادة » بل إنها تجيء بالتبعية لا بالأصالة ! فلما بهت مدلول « الدين » ومدلول « العبادة » في نفوس الناس صاروا يفهمون أن عبادة غير الله التي يخرج بها الناس من الإسلام إلى الجاهلية هي فقط تقديم الشعائر التعبدية لغير الله ، كتقديمها للأصنام والأوثان مثلاً ! وأنه متى تجنب الإنسان هذه الصورة فقد بعد عن الشرك والجاهلية وأصبح « مسلماً » لا يجوز تكفيره ! وتمتع بكل ما يتمتع به المسلم في المجتمع المسلم من صيانة دمه وعرضه وماله ... إلى آخر حقوق المسلم على المسلم !

وهذا وهم باطل ، وانحسار وانكماش ، بل تبديل وتغيير في مدلول لفظ « العبادة » التي يدخل بها المسلم في الإسلام أو يخرج منه - وهذا المدلول هو الدينونة الكاملة لله في كل شأن ورفض الدينونة لغير الله في كل شأن . وهو المدلول الذي تفيده اللفظة في أصل اللغة ؛ والذي نص عليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نصاً وهو يفسر قول الله تعالى : « اتخذوا أبحارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله » .. وليس بعد تفسير رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لمصطلح من المصطلحات قول لقائل^١ .

هذه الحقيقة هي التي قررناها كثيراً في هذه الظلال وفي غيرها في كل ما وفقنا الله لكتابته حول هذا الدين وطبيعته ومنهجه الحركي^٢ .. فالآن نجد في قصة هود كما تعرضها هذه السورة لمحة تحدد موضوع القضية ومحور المعركة التي كانت بين هود وقومه ؛ وبين الإسلام الذي جاء به والجاهلية التي كانوا عليها ؛ وتحدد ما الذي كان يعنيه وهو يقول لهم : « يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره » .. إنه لم يكن يعني : يا قوم لا تتقدموا بالشعائر التعبدية لغير الله ! كما يتصور الذين انحسر مدلول « العبادة »

(١) يراجع البحث القيم الذي كتبه المسلم العظيم الأستاذ السيد أبو الأعلى المودودي أمير الجماعة الإسلامية بباكستان بعنوان : « المصطلحات الأربعة في القرآن » .. الإله . الرب . الدين . العبادة .

(٢) كتاب : « معالم في الطريق » وكتاب : « خصائص التصور الإسلامي ومقوماته » وكتاب : « هذا الدين » وكتاب : « المستقبل لهذا الدين » وكتاب : « الإسلام ومشكلات الحضارة » وكتاب : « العدالة الاجتماعية » وكتاب : « السلام العالمي والإسلام » . نشر « دار الشروق » .

في مفهوماتهم ، وانزوى داخل إطار الشعائر التعبدية ! إنما كان يعني الدينونة لله وحده في منهج الحياة كلها ؛ ونبذ الدينونة والطاعة لأحد من الطواغيت في شؤون الحياة كلها . . والفعلة التي من أجلها استحق قوم هود الهلاك واللعنة في الدنيا والآخرة لم تكن هي مجرد تقديم الشعائر التعبدية لغير الله . . فهذه صورة واحدة من صور الشرك الكثيرة التي جاء هود ليخرجهم منها إلى عبادة الله وحده - أي الدينونة له وحده - إنما كانت الفعلة النكراء التي استحقوا من أجلها ذلك الجزاء هي : جحودهم بآيات ربهم ، وعصيان رسله . واتباع أمر الجبارين من عبيده : « وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم ، وعصوا رسله ، واتبعوا أمر كل جبار عنيد » . كما يقول عنهم أصدق القائلين الله رب العالمين . .

وجحودهم بآيات ربهم إنما يتجلى في عصيان الرسل ، واتباع الجبارين . . فهو أمر واحد لا أمور متعددة . . ومتى عصى قوم أوامر الله الممتثلة في شرائعه المبلغة لهم من رسله بالألا يدينوا لغير الله . ودانوا للطواغيت بدلاً من الدينونة لله ؛ فقد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله ؛ وخرجوا بذلك من الإسلام إلى الشرك - وقد تبين لنا من قبل أن الإسلام هو الأصل الذي بدأت به حياة البشر على الأرض ؛ فهو الذي نزل به آدم من الجنة واستخلف في هذه الأرض ؛ وهو الذي نزل به نوح من السفينة واستخلف في هذه الأرض . إنما كان الناس يخرجون من الإسلام إلى الجاهلية ، حتى تأتي إليهم الدعوة لتردهم من الجاهلية إلى الإسلام . . وهكذا إلى يومنا هذا . .

والواقع أنه لو كانت حقيقة العبادة هي مجرد الشعائر التعبدية ما استحقت كل هذا الموكب الكريم من الرسل والرسالات ؛ وما استحقت كل هذه الجهود المضنية التي بذلها الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - وما استحقت كل هذه العذابات والآلام التي تعرض لها الدعاة والمؤمنون على مدار الزمان ! إنما الذي استحق كل هذا الثمن الباهظ هو إخراج البشر جملة من الدينونة للعباد . وردهم إلى الدينونة لله وحده في كل أمر وفي كل شأن ؛ وفي منهج حياتهم كله للدنيا والآخرة سواء .

إن توحيد الألوهية ، وتوحيد الربوبية ، وتوحيد القوامة ، وتوحيد الحاكمية ، وتوحيد مصدر الشريعة ، وتوحيد منهج الحياة ، وتوحيد الجهة التي يدين لها الناس الدينونة الشاملة . . . إن هذا التوحيد هو الذي يستحق أن يرسل من أجله كل هؤلاء الرسل ، وأن تبذل في سبيله كل هذه الجهود ؛ وأن تحتل لتحقيقه كل هذه العذابات والآلام على مدار الزمان . . لا لأن الله سبحانه في حاجة إليه ، فالله سبحانه غني عن العالمين . ولكن لأن حياة البشر لا تصلح ولا تستقيم ولا ترتفع ولا تصبح حياة لائقة « بالإنسان » إلا بهذا التوحيد الذي لا حد لتأثيره في الحياة البشرية في كل جانب من جوانبها . (وهذا ما نرجو أن نزيده بياناً - إن شاء الله - في نهاية قصص الرسل في ختام السورة) . .

* ونقف أمام الحقيقة التي كشف عنها هود لقومه وهو يقول لهم : « ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة إلى قوتكم ، ولا تتولوا مجرمين » . . وهي ذات الحقيقة التي ذكرت في مقدمة السورة بصدد دعوة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لقومه بمضمون الكتاب الذي أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير . وذلك في قوله تعالى : « وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ، ويؤت كل ذي فضل فضله ، وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير » . .

إنها حقيقة العلاقة بين القيم الإيمانية والقيم الواقعية في الحياة البشرية ، وحقيقة اتصال طبيعة الكون ونواميسه الكلية بالحق الذي يحثوه هذا الدين . . وهي حقيقة في حاجة إلى جلاء وتثبيت ؛ وبخاصة في نفوس الذين

يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا ؛ والذين لم تصقل أرواحهم وتشف حتى ترى هذه العلاقة أو على الأقل تستشعرها ..

إن الحق الذي نزل به هذا الدين غير منفصل عن الحق المتمثل في ألوهية الله - سبحانه - والحق الذي خلقت به السماوات والأرض ، المتجلي في طبيعة هذا الكون ونواميسه الأزلية .. والقرآن الكريم كثيراً ما يربط بين الحق المتمثل في ألوهية الله - سبحانه - والحق الذي قامت به السماوات والأرض ؛ والحق المتمثل في الدينونة لله وحده .. والحق المتمثل في دينونة الناس لله يوم الحساب بصفة خاصة ، والحق في الجزاء على الخير والشر في الدنيا والآخرة .. وذلك في مثل هذه النصوص :

« وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين . لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا .. إن كنا فاعلين .. بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ، ولكم الويل مما تصفون ، وله من في السماوات والأرض ، ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون . يسبحون الليل والنهار لا يفترون . أم اتخذوا آلهة من الأرض هم يُنشرون ؟ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا ، فسبحان الله رب العرش عما يصفون . لا يسأل عما يفعل وهم يسألون . أم اتخذوا من دونه آلهة ؟ قل : هاتوا برهانكم . هذا ذكر من معي وذكر من قبلي ، بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون . وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون » ... (الأنبياء ١٦ - ٢٥) .

« يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ، لنبين لكم ، ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلاً ، ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يتوفى ، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم - من بعد علم - شيئاً ، وترى الأرض هامدة ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج .. ذلك بأن الله هو الحق ، وأنه يحيي الموتى ، وأنه على كل شيء قدير ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور » ... (الحج : ٥ - ٧) .

« وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم ، وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم . ولا يزال الذين كفروا في مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب عقيم . الملك يومئذ ، لله يحكم بينهم ، فالذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات النعيم . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك لهم عذاب مهين . والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقاً حسناً ، وإن الله هو خير الرازقين . ليدخلنهم مدخلاً يرضونه ، وإن الله لعليم حلِيم . ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغى عليه لينصرته الله ، إن الله لعفو غفور . ذلك بأن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ، وأن الله سميع بصير . ذلك بأن الله هو الحق ، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل ، وأن الله هو العلي الكبير . ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة ؟ إن الله لطيف خبير . له ما في السماوات وما في الأرض وإن الله لهو الغني الحميد . ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض والفلك تجري في البحر بأمره ، ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ، إن الله بالناس لرؤوف رحيم . وهو الذي أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ، إن الإنسان لكفور . لكل أمة جعلنا منسكاً هم ناسكوه ، فلا ينازعنك في الأمر ، وادع إلى ربك ، إنك لعلي هدى مستقيم ... » ... (الحج : ٥٤ - ٦٧) .

وهكذا نجد في هذه النصوص وأمثالها في القرآن الكريم العلاقة الواضحة بين كون الله سبحانه هو الحق ، وبين خلقه لهذا الكون وتديره بنواميسه ومشيتته بالحق ، وبين الظواهر الكونية التي تتم بالحق . وبين تنزيل هذا الكتاب بالحق ، وبين الحكم بين الناس في الدنيا والآخرة بالحق .. فكله حق واحد موصول ينشأ عنه جريان قدر الله بما يشاء ، وتسليط القوى الكونية بالخير والشر على من يشاء ؛ وفق ما يكون من الناس من الخير والشر في دار الابتلاء . ومن هنا كان ذلك الربط بين الاستغفار والتوبة ، وبين المتاع الحسن وإرسال السماء مدراراً ... فكل أولئك موصول بمصدر واحد هو الحق المتمثل في ذات الله سبحانه وفي قضائه وقدره ، وفي تديره وتصريفه ، وفي حسابيه وجزائه ، في الخير وفي الشر سواء ..

ومن هذا الارتباط .. جلي أن القيم الإيمانية ليست منفصلة عن القيم العملية في حياة الناس . فكلتاها تؤثر في هذه الحياة . سواء عن طريق قدر الله الغيبي المتعلق بعالم الأسباب من وراء علم البشر وسعيهم . أو عن طريق الآثار العملية المشهودة التي يمكن للبشر رؤيتها وضبطها كذلك . وهي الآثار التي ينشئها في حياتهم الإيمان أو عدم الإيمان ، من النتائج المحسوسة المدركة .

وقد أسلفنا الإشارة إلى بعض هذه الآثار العملية الواقعية حين قلنا مرة : إن سيادة المنهج الإلهي في مجتمع معناه أن يجد كل عامل جزاءه العادل في هذا المجتمع ، وأن يجد كل فرد الأمن والسكينة والاستقرار الاجتماعي-فضلاً على الأمن والسكينة والاستقرار القلبي بالإيمان - ومن شأن هذا كله أن يتمتع الناس متاعاً حسناً في هذه الدنيا قبل أن يلقوا جزاءهم الأخير في الآخرة^١ .. وحين قلنا مرة : إن الدينونة لله وحده في مجتمع من شأنها أن تصون جهود الناس وطاقتهم من أن تنفق في الطبل والزمر والنفخ والتراتيل والتسابيح والترانيم والتهاويل التي تطلق حول الأرباب المزيفة ، لتخلع عليها شيئاً من خصائص الألوهية حتى تخضع لها الرقاب ! ومن شأن هذا أن يوفر هذه الجهود والطاقات للبناء في الأرض والعمارة والنهوض بتكاليف الخلافة فيكون الخير الوفير للناس . فضلاً على الكرامة والحرية والمساواة التي يتمتع بها الناس في ظل الدينونة لله وحده دون العباد^٢ .. وليست هذه إلا نماذج من ثمار الإيمان حين تتحقق حقيقته في حياة الناس^٣ .. (وسيرد عنها بعض التفصيل في نهاية استعراض قصص الرسل في ختام السورة إن شاء الله) .

* ونقف أمام تلك المواجهة الأخيرة من هود لقومه ؛ وأمام تلك المفاصلة التي قذف بها في وجوههم في حسم كامل ، وفي تحد سافر ، وفي استعلاء بالحق الذي معه ، وثقة في ربه الذي يجد حقيقته في نفسه بينة :

« قال : إني أشهد الله ، وأشهدوا أنني بريء مما تشركون من دونه ، فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون . إني توكلت على الله ربي وربكم ، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ، إن ربي على صراط مستقيم . فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ، ويستخلف ربي قوماً غيركم ولا تضرونه شيئاً ، إن ربي على كل شيء حفيظ » ..

إن أصحاب الدعوة إلى الله في كل مكان وفي كل زمان في حاجة إلى أن يقفوا طويلاً أمام هذا المشهد الباهر .. رجل واحد ، لم يؤمن معه إلا قليل ، يواجه أعتى أهل الأرض وأغنى أهل الأرض وأكثر أهل الأرض حضارة مادية في زمانهم ، كما جاء عنهم في قول الله تعالى فيهم حكاية عما واجههم به أخوهم هود في السورة الأخرى :

(١) ص ١٨٧١ - ١٨٧٢ من هذا الجزء . (٢) ص ١٨٩٧ من هذا الجزء .

(٣) يراجع كذلك ما جاء في تقديم هذه الطبعة المنقحة لهذه الطلأل بعنوان : « في ظلال القرآن » الجزء الأول ص ١٦ - ١٨ .

« كذبت عاد المرسلين . إذ قال لهم أخوهم هود : ألا تتقون ؟ إني لكم رسول أمين ، فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرين إلا على رب العالمين . أتنبون بكل ريع آية تعبثون ؟ وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون . وإذا بطشتم بطشتم جبارين . فاتقوا الله وأطيعون . واتقوا الذي أمركم بما تعلمون . أمركم بأنعام وبنيين . وجنات وعيون . إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم . قالوا : سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين . إن هذا إلا خلق الأولين . وما نحن بمعذبين » ! . . (الشعراء : ١٢٣ - ١٣٨)

فهؤلاء العتاة الجبارون الذين يبطشون بلا رحمة ؛ والذين أبطرتهم النعمة ؛ والذين يقيمون المصانع يرجون من ورائها الامتداد والخلود ! .. هؤلاء هم الذين واجههم هود - عليه السلام - هذه المواجهة . في شجاعة المؤمن واستعلائه وثقته واطمئنانه ؛ وفاصلهم هذه المفاصلة الحاسمة الكاملة - وهم قومه - وتحداهم أن يكيدوه بلا إمهال . وأن يفعلوا ما في وسعهم فلا يباليهم بحال !

لقد وقف هود - عليه السلام - هذه الوقفة الباهرة ، بعدما بذل لقومه من النصيح ما يملك ؛ وبعد أن تودد إليهم وهو يدعوهم غاية التودد . . ثم تبين له عنادهم وإصرارهم على محادة الله وعلى الاستهتار بالوعيد والجرأة على الله . .

لقد وقف هود - عليه السلام - هذه الوقفة الباهرة لأنه يجد حقيقة ربه في نفسه ، فيوقن أن أولئك الجبارين العتاة المتمتعين المتبطين إنما هم من الدواب ! وهو مستيقن أنه ما من دابة إلا وره أخذ بناصيتها ؛ فقيم يحفل إذن هؤلاء الدواب ؟ ! وأن ربه هو الذي استخلفهم في الأرض ، وأعطاهم ما أعطاهم من نعمة ومال وقوة وبنيين وقدرة على التصنيع والتعدين ! للابتلاء لا لمطلق العطاء . وأن ربه يملك أن يذهب بهم ويستخلف غيرهم إذا شاء ، ولا يضره شيئاً ، ولا يردون له قضاء . . فقيم إذن يهوله شيء مما هم فيه ، وره هو الذي يعطي ويسلب حين يشاء كيف شاء ؟ . .

إن أصحاب الدعوة إلى الله لا بد أن يجدوا حقيقة ربهم في نفوسهم على هذا النحو حتى يملكوا أن يقفوا بإيمانهم في استعلاء أمام قوى الجاهلية الطاغية من حولهم . . أمام القوة المادية . وقوة الصناعة . وقوة المال . وقوة العلم البشري . وقوة الأنظمة والأجهزة والتجارب والخبرات . . وهم مستيقنون أن ربهم أخذ بناصية كل دابة ؛ وأن الناس - كل الناس - إن هم إلا دواب من الدواب !

وذاذ يوم لا بد أن يقف أصحاب الدعوة من قومهم موقف المفاصلة الكاملة ؛ فإذا القوم الواحد أمتان مختلفتان . . أمة تدين لله وحده وترفض الدينونة لسواه . وأمة تتخذ من دون الله أرباباً ، وتحاد الله !

ويوم تم هذه المفاصلة يتحقق وعد الله بالنصر لأوليائه ، والتدمير على أعدائه - في صورة من الصور التي قد تخطر وقد لا تخطر على البال - ففي تاريخ الدعوة إلى الله على مدار التاريخ ! لم يفصل الله بين أوليائه وأعدائه إلا بعد أن فاصل أولياؤه أعداءه على أساس العقيدة فاختروا الله وحده . . وكانوا هم حزب الله الذين لا يعتمدون على غيره والذين لا يجدون لهم ناصرًا سواه .

* * *

وحسبنا هذه الوقفات مع إلهامات قصة هود وعاد . لتتابع بعدها سياق السورة مع قصة صالح وثمود .

« وإلى ثمود أخاهم صالحاً . قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره . هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها . فاستغفروه ثم توبوا إليه ، إن ربي قريب مجيب » . .

إنها الكلمة التي لا تتغير :

« يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره » ..

وإنه كذلك المنهج الذي لا يتبدل :

« فاستغفروه ثم توبوا إليه » ..

ثم هو التعريف بحقيقة الألوهية كما يجدها في نفسه الرسول :

« إن ربي قريب مجيب » ..

وذكرهم صالح بنشأتهم من الأرض . نشأة جنسهم ، ونشأة أفرادهم من غذاء الأرض أو من عناصرها

التي تتألف منها عناصر تكوينهم الجسدي . ومع أنهم من هذه الأرض . من عناصرها . فقد استخلفهم

الله فيها ليعمروها . استخلفهم بجنسهم واستخلفهم بأشخاصهم بعد الذاهبين من قبلهم .

ثم هم بعد ذلك يشركون معه آلهة أخرى ..

« فاستغفروه ثم توبوا إليه » ..

واطمئنوا إلى استجابته وقبوله :

« إن ربي قريب مجيب » ..

والإضافة في « ربي » ولفظ « قريب » ولفظ « مجيب » واجتماعها وتجاورها .. ترسم صورة لحقيقة الألوهية

كما تتجلى في قلب من قلوب الصفوة المختارة ، وتلخ على الجوارح أنساً واتصلاً ومودة ، تنتقل من قلب النبي

الصالح إلى قلوب مستمعيه لو كانت لهم قلوب !

ولكن قلوب القوم كانت قد بلغت من الفساد والاستغلاق والانطاماس درجة لا تستشعر معها جمال تلك

الصورة ولا جلالها ، ولا تحس بشاشة هذا القول الرفيق ، ولا وضاءة هذا الجوارح الطليق .. وإذا بهم يفاجأون ،

حتى ليظنون بأخيهم صالح الظنون !

« قالوا : يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا ! أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا ؟ وإنما لفي شك مما تدعونا

إليه مريب » ..

لقد كان لنا رجاء فيك . كنت مرجواً فينا لعلمك أو لعقلك أو لصدقك أو لحسن تدبيرك ، أو لهذا جميعه .

ولكن هذا الرجاء قد خاب ..

« أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا » ..

إنها للقاصمة ! فكل شيء يا صالح إلا هذا ! وما كنا لتتوقع أن تقولها ! فيا لخيبة الرجاء فيك ! ثم إننا

لفي شك مما تدعونا إليه . شك يجعلنا نرتاب فيك وفيما تقول :

« وإنما لفي شك مما تدعونا إليه مريب » ..

وهكذا يعجب القوم مما لا عجب فيه ؛ بل يستنكرون ما هو واجب وحق ، ويدهشون لأن يدعوهم أخوهم

صالح إلى عبادة الله وحده . لماذا ؟ لا لحجة ولا لبرهان ولا لتفكير . ولكن لأن آباءهم يعبدون هذه الآلهة !

وهكذا يبلغ التحجر بالناس أن يعجبوا من الحق البين . وأن يعللوا العقائد بفعل الآباء !

وهكذا يتبين مرة وثانية وثالثة أن عقيدة التوحيد هي في صميمها دعوة للتحرر الشامل الكامل الصحيح .

ودعوة إلى إطلاق العقل البشري من عقال التقليد ، ومن أوهاق الوهم والخرافة التي لا تستند إلى دليل .

وتذكرنا قوله ثمود لصالح :

« قد كنت فينا مرجواً قبل هذا » ..

تذكرنا بما كان لقريش من ثقة بصدق محمد - صلى الله عليه وسلم - وأمانته . فلما أن دعاهم إلى ربوبية الله وحده تنكروا له كما تنكر قوم صالح ، وقالوا : ساحر . وقالوا : مفتر . ونسوا شهادتهم له وثقتهم فيه ! إنها طبيعة واحدة ، ورواية واحدة تتكرر على مدى العصور والدهور ..

ويقول صالح كما قال جده نوح :

« قال : يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة ، فمن ينصرني من الله إن عصيته ؟ فما تريدونني غير تحسير » ..

يا قوم : ماذا ترون إن كنت أجد في نفسي حقيقة ربي واضحة بينة ، تجعلني على يقين من أن هذا هو الطريق ؟ وآتاني منه رحمة فاختراني لرسالته وأمدني بالخصائص التي تؤهلني لها . فمن ينصرني من الله إن أنا عصيته فقصرت في إبلاغكم دعوته ، احتفاظاً برجائكم في ؟ أفنافعي هذا الرجاء وناصرني من الله ؟ كلا : « فمن ينصرني من الله إن عصيته ؟ فما تريدونني غير تحسير » ..

ما تريدونني إلا خسارة على خسارة .. غضب الله وحرمانني شرف الرسالة وخزي الدنيا وعذاب الآخرة . وهي خسارة بعد خسارة . ولا شيء إلا التحسير ! والتثقيب والتشديد !

« ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية ، فذروها تأكل في أرض الله ، ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب »

ولا يذكر السياق صفة هذه الناقة التي أشار إليها صالح لتكون آية لهم وعلامة . ولكن في إضافتها لله : « هذه ناقة الله » وفي تخصيصها لهم : « لكم آية » ما يشير إلى أنها كانت ذات صفة خاصة مميزة ، يعلمون بها أنها آية لهم من الله . ونكتفي بهذا دون الخوض في ذلك الخضم من الأساطير والإسرائيليات التي تفرقت بها أقوال المفسرين حول ناقة صالح فيما مضى وفيما سيجيء !

« هذه ناقة الله لكم آية . فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء » ..

وإلا فسيعاجلكم العذاب . يدل على هذه المعالجة فاء الترتيب في العبارة . ولفظ قريب :

« فيأخذكم عذاب قريب » ..

يأخذكم أخذاً . وهي حركة أشد من المس أو الوقوع .

« فعقروها .. فقال : تمتعوا في داركم ثلاثة أيام . ذلك وعد غير مكذوب » ..

ودل عقروهم للناقة ، أي ضربهم لها بالسيف في قوائمها وقتلها على هذا النحو . دل على فساد قلوبهم واستهتارهم . والسياق هنا لا يطيل بين إعطائهم الناقة وعقرهم إياها ، لأنها لم تحدث في نفوسهم تجاه الدعوة تغييراً يذكر . ثم ليتابع السياق عجلة العذاب . فهو يعبر هنا بقاء التعقيب في كل الخطوات :

« فعقروها . فقال : تمتعوا في داركم ثلاثة أيام » ..

فهي آخر ما بقي لكم من متاع هذه الدنيا ومن أيام هذه الحياة :

« ذلك وعد غير مكذوب » ..

فهو وعد صادق لن يحيد ..

وبالفاء التعقيبية يعبر كذلك . فالعذاب لم يتأخر :

« فلما جاء أمرنا نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ ، إن ربك هو القوي العزيز ، وأخذ الذين ظلموا الصيحة ، فأصبحوا في ديارهم جاثمين » ..

فلما جاء موعد تحقيق الأمر - وهو الإنذار أو الإهلاك - نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا .. خاصة ومباشرة .. نجيناه من الموت ومن خزي ذلك اليوم ، فقد كانت ميتة ثمود ميتة مخزية ، وكان مشهدهم جاثمين في دورهم بعد الصاعقة المدوية التي تركتهم موتى على هيبتهم مشهداً مخزياً .

« إن ربك هو القوي العزيز » ..

يأخذ العتاة أخذاً ولا يعز عليه أمر ، ولا يهون من يتولاه ويرعاه .

ثم يعرض السياق مشهدهم ، معجباً منهم ، ومن سرعة زوالهم :

« كأن لم يغنوا فيها » ..

كأن لم يقيموا ويتمتعوا .. وإنه لمشهد مؤثر ، وإنها للمسة مثيرة ، والمشهد معروض ، وما بين الحياة والموت - بعد أن يكون - إلا لمحة كومضة العين ، وإذا الحياة كلها شريط سريع . كأن لم يغنوا فيها ... ثم الخاتمة المعهودة في هذه السورة : تسجيل الذنب ، وتشجيع اللعنة ، وانطواء الصفحة من الواقع ومن الذكرى :

« ألا إن ثمود كفروا بربهم . ألا بعداً لثمود ! » ..

* * *

ومرة أخرى نجدنا أمام حلقة من حلقات الرسالة على مدار التاريخ .. الدعوة فيها هي الدعوة . وحقيقة الإسلام فيها هي حقيقته .. عبادة الله وحده بلا شريك ، والدينونة لله وحده بلا منازع .. ومرة أخرى نجد الجاهلية التي تعقب الإسلام ، ونجد الشرك الذي يعقب التوحيد - فثمود كعادهم من ذراري المسلمين الذين نجوا في السفينة مع نوح - ولكنهم انحرفوا فصاروا إلى الجاهلية ، حتى جاءهم صالح ليردهم إلى الإسلام من جديد ..

ثم نجد أن القوم يواجهون الآية الخارقة التي طلبوها ، لا بالإيمان والتصديق ، ولكن بالجحود وعقر الناقة ! ولقد كان مشركو العرب يطلبون من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خارقة كالخوارق السابقة كي يؤمنوا . فها هم أولاء قوم صالح قد جاءتهم الخارقة التي طلبوا . فما أغنت معهم شيئاً ! إن الإيمان لا يحتاج إلى الخوارق . إنه دعوة بسيطة تدبرها القلوب والعقول . ولكن الجاهلية هي التي تطمس على القلوب والعقول : !! ! ومرة أخرى نجد حقيقة الألوهية كما تتجلى في قلب من قلوب الصفوة المختارة . قلوب الرسل الكرام . نجدها في قولة صالح التي يحكيها عنه القرآن الكريم : « قال : يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ، وآتاني منه رحمة ، فمن ينصرني من الله إن عصيته ؟ فما تريدونني غير تحسير » .. وذلك بعد أن يصف لهم ربه كما يجده في قلبه : « إن ربي قريب مجيب » ..

وما تتجلى حقيقة الألوهية قط في كمالها وجلالها وروائها وجمالها كما تتجلى في قلوب تلك الصفوة المختارة من عباده . فهذه القلوب هي المعرض الصافي الرائق الذي تتجلى فيه هذه الحقيقة على هذا النحو الفريد العجيب !

(١) يراجع فصل « حقيقة الألوهية » في كتاب : « خصائص التصور الإسلامي ومقوماته » القسم الثاني . « دار الشروق » .

ثم نقف من القصة أمام الجاهلية التي ترى في الرشد ضلالاً ؛ وفي الحق عجيبة لا تكاد تتصورها ! فصالح الذي كان مرجواً في قومه ، لصلاحه ولرجاحة عقله وخلقه ، يقف منه قومه موقف اليائس منه ، المفجوع فيه ! لماذا ؟ لأنه دعاهم إلى الدينونة لله وحده . على غير ما ورثوا عن آباؤهم من الدينونة لغيره ! إن القلب البشري حين ينحرف شعرة واحدة عن العقيدة الصحيحة ، لا يقف عند حد في ضلاله وشروده . حتى إن الحق البسيط الفطري المنطقي ليدو عنده عجيبة العجائب التي يعجز عن تصورها ؛ بينما هو يستيغ الانحراف الذي لا يستند إلى منطق فطري أو منطق عقلي على الإطلاق !

إن صالحاً يناديهم : « يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره . . هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها . . » فهو يناديهم بما في نشأتهم ووجودهم في الأرض من دليل فطري منطقي لا يملكون له رداً . . وهم ما كانوا يزعمون أنهم هم أنشأوا أنفسهم ، ولا أنهم هم كفّلوا لأنفسهم البقاء ، ولا أعطوا أنفسهم هذه الأرزاق التي يستمتعون بها في الأرض . .

وظاهر أنهم لم يكونوا يمجّدون أن الله - سبحانه - هو الذي أنشأهم من الأرض ، وهو الذي أقدرهم على عمارتها . ولكنهم ما كانوا يتبعون هذا الاعتراف بالوهية الله - سبحانه - وإنشائه لهم واستخلافهم في الأرض ، بما ينبغي أن يتبعه من الدينونة لله وحده بلا شريك ، واتباع أمره وحده بلا منازع . . وهو ما يدعوهم إليه صالح بقوله : « يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره » . .

لقد كانت القضية هي ذاتها . . قضية الربوبية لا قضية الألوهية . قضية الدينونة والحاكمية قضية الاتباع والطاعة . . إنها القضية الدائمة التي تدور عليها معركة الإسلام مع الجاهلية !

وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلَنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَّمَ ۗ فَلَا تَنْفِرْ ۗ فَمَا كَانَ بِأَيْدِيهِمْ لِاتِّصَالِ إِلَيْهِ نَكَرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۗ قَالُوا لَا تَحْزَنْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ۗ وَأَمْرُهُمْ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ۗ قَالَتْ يَتُوبَلَنِي ۗ إِنَّ الدُّنْيَا مَجْزُورٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا ۗ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجِيبٌ ۗ قَالُوا اتَّعَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۗ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ۗ

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجْدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ۗ إِنَّا إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ۗ يَكْرِهُمُ إِعْرَاضٌ عَنْ هَذَا ۗ إِنَّهُمْ قَدْ جَاءُوا أَمْرًا رِيكًا ۗ وَإِنَّهُمْ لَآتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ۗ

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ۗ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ۗ قَالَ يَنْقَوْمِ هَذَا بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۗ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي

ضَيْفِيَّ ۖ أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَىٰ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾

قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصْلُوا إِلَيْكَ ۗ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدًا إِلَّا أَمْرًا تَكْتُمُهُ لِنفْسِكَ وَالَّذِينَ آمَنُوا بَلَّغْنَا بَاطِنَهُمْ لَكِنَّا نَكْتُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٨١﴾

فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰ سَافِلَيْهَا وَمَطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّنْ سَجَلٍ مُّنْجُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾

يلم السياق في مروره التاريخي بالمستخلفين من عهد نوح ، وبالأمم التي بوركتم والأمم التي كتب عليها العذاب .. يلم بطرف من قصة إبراهيم ، تتحقق فيه البركات ، في الطريق إلى قصة قوم لوط الذين مسهم العذاب الأليم . وفي قصتي إبراهيم ولوط هنا يتحقق وعد الله بطرفيه لنوح : « قيل : يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك . وأمم ستمتعهم ثم لعمرك ما لعمرك من أليم » .. وقد كانت البركات في إبراهيم وعقبه من ولديه : إسحاق وأبنائه أنبياء بني إسرائيل . وإسماعيل ومن نسله خاتم الأنبياء المرسلين .

* * *

« ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى .. »

ولا يفصح السياق عن هذه البشرى إلا في موعدها المناسب بحضور امرأة إبراهيم! والرسل : الملائكة . وهم هنا مجهولون ، فلا ندخل - مع المفسرين - في تعريفهم وتحديد من هم بلا دليل .
« قالوا : سلاماً . قال : سلام .. »

وكان إبراهيم قد هاجر من أرض الكلدانيين مسقط رأسه في العراق ، وعبر الأردن ، وسكن في أرض كنعان في البادية - وعلى عادة البدو في إكرام الأضياف راح إبراهيم يحضر لهم الطعام وقد ظنهم ضيوفاً - :
« فما لبث أن جاء بعجل حنيذ .. »

أي سمين مشوي على حجارة الرضف المحماة .
ولكن الملائكة لا يأكلون طعام أهل الأرض :
« فلما رأى أيديهم لا تصل إليه .. »

أي لا تمتد إليه .

« نكروهم وأوجس منهم خيفة .. »

فالذي لا يأكل الطعام يريب ، ويشعر بأنه ينوي خيانة أو غدرًا بحسب تقاليد أهل البدو .. وأهل الريف

عندنا يتخرجون من خيانة الطعام ، أي من خيانة من أكلوا معه طعاماً ! فإذا امتنعوا عن طعام أحد فعنى هذا أنهم ينوون به شراً ، أو أنهم لا يثقون في نيته لهم .. وعند هذا كشفوا له عن حقيقتهم :

« قالوا : لا تخف ، إنا أرسلنا إلى قوم لوط » ..

وإبراهيم يدرك ما وراء إرسال الملائكة إلى قوم لوط ! ولكن حدث في هذه اللحظة ما غير مجرى الحديث :

« وامرأته قائمة فضحكت » ..

وربما كان ضحكها ابتهاجاً بهلاك القوم الملوئين :

« فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب » ..

وكانت عقياً لم تلد وقد أصبحت عجوزاً . ففاجأتها بشرى بإسحاق . وهي بشرى مضاعفة بأن سيكون لإسحاق عقب من بعده هو يعقوب . والمرأة - وبخاصة العقيم - يهتر كيانها كله لمثل هذه البشري ، والمفاجأة بها تهزها وتربكها :

« قالت : يا ويلتنا ! أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً ؟ إن هذا لشيء عجيب » ..

وهو عجيب حقاً . فالمرأة ينقطع طمثها عادة في سن معينة فلا تحمل . ولكن لا شيء بالقياس إلى قدرة الله عجيب :

« قالوا : أتعجبين من أمر الله ؟ رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت . إنه حميد مجيد » ..

ولا عجب من أمر الله . فالعادة حين تجري بأمر لا يكون معنى هذا أنها سنة لا تتبدل . وعندما يشاء الله لحكمة يريد بها - وهي هنا رحمته بأهل هذا البيت وبركاته الموعودة للمؤمنين فيه - يقع ما يخالف العادة ، مع وقوعه وفق السنة الإلهية التي لا نعلم حدودها ، ولا نحكم عليها بما تجري به العادة في أمد هو على كل حال محدود ، ونحن لا نستقرئ جميع الحوادث في الوجود .

والذين يقيدون مشيئة الله بما يعرفونه هم من نواميسه لا يعرفون حقيقة الألوهية كما يقررها الله سبحانه في كتابه - وقوله الفصل وليس للعقل البشري قول في ذلك القول - وحتى الذين يقيدون مشيئة الله بما يقرر الله - سبحانه - أنه ناموسه ، لا يدركون حقيقة الألوهية كذلك ! فمشيئة الله سبحانه طليقة وراء ما قرره الله سبحانه من نواميس . ولا تنقيد هذه المشيئة بالنواميس .

نعم إن الله سبحانه يجري هذا الكون وفق النواميس التي قدرها له .. ولكن هذا شيء والقول بتقيد إرادته بهذه النواميس بعد وجودها شيء آخر ! إن الناموس يجري وينفذ بقدر من الله في كل مرة ينفذ فيها . فهو لا يجري ولا ينفذ آلياً . فإذا قدر الله في مرة أن يجري الناموس بصورة أخرى غير التي جرى بها في مرات سابقة كان ما قدره الله ولم يقف الناموس في وجه هذا القدر الجديد .. ذلك أن الناموس الذي تدرج تحته كل النواميس هو طلاقة المشيئة بلا قيد على الإطلاق ، وتحقق الناموس في كل مرة يتحقق فيها بقدر خاص طليق ..

وإلى هنا كان إبراهيم - عليه السلام - قد اطمأن إلى رسل ربه ، وسكن قلبه بالبشرى التي حملوها إليه . ولكن هذا لم ينسه لوطاً وقومه - وهو ابن أخيه النازح معه من مسقط رأسه والساكن قريباً منه - وما ينتظرهم من وراء إرسال الملائكة من هلاك واستئصال . وطبيعة إبراهيم الرحيمة الودود لا تجعله يطبق هلاك القوم واستئصالهم جميعاً :

« فلما ذهب عن إبراهيم الروح وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط . إن إبراهيم لحليم أواه منيب » .
والحليم الذي يحتمل أسباب الغضب فيصبر ويتأني ولا يثور . والأواه الذي يتضرع في الدعاء من التقوى .
والمنيب الذي يعود سريعاً إلى ربه . . وهذه الصفات كلها قد دعت إبراهيم أن يجادل الملائكة في مصير قوم
لوط وإن كنا لا نعلم كيف كان هذا الجدل لأن النص القرآني لم يفصله ، فجاءه الرد بأن أمر الله فيهم قد
قضي وأنه لم يعد للجدال مجال :
« يا إبراهيم أعرض عن هذا ، إنه قد جاء أمر ربك ، وإنهم آتيتهم عذاب غير مردود » ..

* * *

ويسكت السياق . وقد سكت - ولا شك - إبراهيم .. ويسدل الستار على مشهد إبراهيم وزوجه ليرفع
هناك على مشهد حافل بالحركة والانفعال مع لوط . وقوم لوط في مدن الأردن : عمورية وسدوم .
« ولما جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعاً ، وقال : هذا يوم عصيب ! » ..

لقد كان يعرف قومه . ويعرف ما أصاب فطرتهم من انحراف وشذوذ عجيبين . إذ يتركون النساء إلى
الرجال ، مخالفين الفطرة التي تهتدي إلى حكمة خلق الأحياء جميعاً أزواجاً ، كي تمتد الحياة بالنسل ما شاء
لها الله . والتي تجد اللذة الحقيقية في تلبية نداء الحكمة الأزلية ، لا عن تفكير وتدبير ، ولكن عن اهتداء واستقامة .
والبشرية تعرف حالات مرضية فردية شاذة ، ولكن ظاهرة قوم لوط عجيبة . وهي تشير إلى أن المرض
النفسي يعدي كالمرض الجسدي . وأنه يمكن أن يروج مرض نفسي كهذا نتيجة لاختلال المقاييس في بيئة
من البيئات ، وانتشار المثل السيئ ، عن طريق إيحاء البيئة المريضة . على الرغم من مصادمته للفطرة ، التي
يحكمها الناموس الذي يحكم الحياة . الناموس الذي يقتضي أن تجد لذتها فيما يليبها حياة لا فيما يصادمها
ويعدمها . والشذوذ الجنسي يصادم الحياة ويعدمها ، لأنه يذهب ببذور الحياة في تربة خبيثة لم تعد لاستقبالها
وإحيائها . بدلاً من الذهاب بها إلى التربة المستعدة لتلقيها وإتمامها . ومن أجل هذا تنفر الفطرة السليمة فوراً
فطرياً - لا أخلاقياً فحسب - من عمل قوم لوط . لأن هذه الفطرة محكومة بقانون الله في الحياة . الذي
يجعل اللذة الطبيعية السليمة فيما يساعد على إنماء الحياة لا فيما يصددها ويعطلها .

ولقد نجد أحياناً لذة في الموت - في سبيل غاية أسمى من الحياة الدنيا - ولكنها ليست لذة حسية إنما هي معنوية
اعتبارية . على أن هذه ليست مصادفة للحياة ، إنما هي إنماء لها وارتفاع بها من طريق آخر . وليست في شيء
من ذلك العمل الشاذ الذي يعدم الحياة وخلاياها ..

سيئ لوط بأضيافه . وهو يعلم ما ينتظرهم من قومه ، ويدرك الفضيحة التي ستناله في أضيافه :
« وقال : هذا يوم عصيب ! »

وبدأ اليوم العصيب !

« وجاءه قومه يهرعون إليه » ..

أي يسرعون في حالة تشبه الحمى .

« ومن قبل كانوا يعملون السيئات » ..

وكان هذا ما ساء الرجل بضيوفه ، وما ضيق بهم ذرعه ، وما دعاه إلى توقع يوم عصيب !

ورأى لوط ما يشبه الحمى في أجساد قومه المنذفين إلى ذارته ، يهددون في ضيفه وكرامته . فحاول أن

يوقظ فيهم الفطرة السليمة ، ويوجههم إلى الجنس الآخر الذي خلقه الله للرجال ، وعنده منه في داره بناته ، فهن حاضرات ، حاضرات اللحظة إذا شاء الرجال المحمومون تم الزواج على الفور ، وسكنت الفورة المحمومة والشهوة المجنونة !

« قال : يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم . فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي . أليس منكم رجل رشيد ؟ » .
« هؤلاء بناتي هن أطهر لكم » ..

أطهر بكل معاني الطهر . النفسي والحسي . فهن يلين الفطرة النظيفة ، ويثرن مشاعر كذلك نظيفة . نظافة فطرية ونظافة أخلاقية ودينية . ثم هن أطهر حسيًا . حيث أعدت القدرة الخالقة للحياة الناشئة ممكنًا كذلك طاهرًا نظيفًا .

« فاتقوا الله » ..

قالها يلمس نفوسهم من هذا الجانب بعد أن لمسها من ناحية الفطرة .

« ولا تخزون في ضيفي » ..

قالها كذلك يلمس نخوتهم وتقاليدهم البدوي في إكرام الضيف إطلاقًا .

« أليس منكم رجل رشيد ؟ » ..

فالقضية قضية رشد وسفه إلى جوار أنها قضية فطرة ودين ومروءة .. ولكن هذا كله لم يلمس الفطرة المنحرفة المريضة ، ولا القلوب الميتة الآسنة ، ولا العقول المريضة المأفونة . وظلت الفورة المريضة الشاذة في اندفاعها المحموم :

« قالوا : لقد علمت مالنا في بناتك من حق . وإنك لتعلم ما نريد ! » ..

لقد علمت لو أردنا بناتك لتزوجناهن . فهذا حقنا .. « وإنك لتعلم ما نريد » .. وهي إشارة خبيثة إلى العمل الخبيث .

وأسقط في يد لوط ، وأحس ضعفه وهو غريب بين القوم ، نازح إليهم من بعيد ، لا عشيرة له تحميه ، وليس له من قوة في هذا اليوم العصيب ؛ وانفجرت شفتاه عن كلمة حزينة أليمة :

« قال : لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد ! » ..

قالها وهو يوجه كلامه إلى هؤلاء الفتية - الذين جاء الملائكة في صورتهم - وهم صغار صباح الوجوه ؛ ولكنهم - في نظره - ليسوا بأهل بأس ولا قوة . فالتفت إليهم يتمنى أن لو كانوا أهل قوة فيجد بهم قوة . أو لو كان له ركن شديد يحتمي به من ذلك التهديد !

وغاب عن لوط في كربته وشدته أنه يأوي إلى ركن شديد . ركن الله الذي لا يتخلى عن أوليائه . كما قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهويتلو هذه الآية : « رحمة الله على لوط لقد كان يأوي إلى ركن شديد ! »
وعندما ضاقت واستحكمت حلقاتها ، وبلغ الكرب أشده .. كشف الرسل للوط عن الركن الشديد الذي يأوي إليه :

« قالوا : يا لوط ، إنا رسل ربك ، لن يصلوا إليك » ..

وأنبأوه نبأهم ، لينجو مع أهل بيته الظاهرين ، إلا امرأته فإنها كانت من القوم الفاسدين :

« فأسر بأهلك بقطع من الليل ، ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك . إنه مصيبها ما أصابهم ، إن موعدهم الصبح . أليس الصبح بقريب ؟ » ..

والسرى : سير الليل ، والقطع من الليل : بعضه ، ولا يلتفت منكم أحد . أي لا يتخلف ولا يعوق . لأن الصبح موعدهم مع الهلاك . فكل من بقي في المدينة فهو هالك مع الهالكين .
« أليس الصبح بقريب ؟ » ..

سؤال لإنعاش نفس لوط بعد ما ذاق . لتقريب الموعد وتأكيده . فهو قريب . مع مطلع الصباح . ثم يفعل الله بالقوم - بقوته - ما لم تكن قوة لوط التي تمنأها فاعلة !
والمشهد الأخير . مشهد الدمار المروع ، اللائق بقوم لوط :

« فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها ، وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود . مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد » ..

فلما جاء موعدهم تنفيذ الأمر « جعلنا عاليها سافلها » .. وهي صورة للتدمير الكامل الذي يقلب كل شيء ويغير المعالم ويمحوها . وهذا القلب وجعل عاليها سافلها أشبه شيء بتلك الفطرة المقلوبة الهابطة المرتكسة من قمة الإنسان إلى درك الحيوان . بل أخط من الحيوان ، فالحيوان واقف ملتزم عند حدود فطرة الحيوان ..
« وأمطرنا عليها حجارة من سجيل » ..

حجارة ملوثة بالطين .. وهي كذلك مناسبة وعلى قدر المقام :
« منضود » .. متراكم بعضه يلاحق بعضاً .

هذه الحجارة .. « مسومة عند ربك » .. كما تسوم الماشية أي تربي وتطلق بكثرة . فكأنما هذه الحجارة مربة ! ومطلقة لتنمو وتتكاثر ! لوقت الحاجة .. وهو تصوير عجيب يلقي ظله في الحس ، ولا يفصح عنه التفسير ، كما يفصح عنه هذا الظل الذي يلقيه ..
« وما هي من الظالمين ببعيد » ..

فهي قريبة وتحت الطلب ، وعند الحاجة تطلق فتصيب^١ !

والصورة التي يرسمها السياق هنا لهذه النازلة التي أصابت قوم لوط هي أشبه شيء ببعض الظواهر البركانية التي تخسف فيها الأرض فتبتلع ما فوقها ويصاحب هذا حمم وحجارة ووحل .. وعند ربك للظالمين كثير ! !
ولا نقول هذا الكلام لنقول : إنه كان بركان من تلك البراكين ، ثار في ذلك الوقت ، فوقع ما وقع . إننا لا ننفي هذا . فقد يكون هو الذي وقع فعلاً . ولكننا لا نجزم به كذلك ولا نقيدهم قدر الله بظاهرة واحدة مألوفة ..

وقوام القول في هذه القضية وأمثالها أنه جائز أن يكون في تقدير الله وقوع انفجار بركاني في موعده في هذا الموعد ليحقق قدر الله في قوم لوط كما قدر في علمه القديم . وهذا التوقيت والتوافق شأن من شؤون ألوهيته سبحانه وربوبيته للكون وتصريفه لكل ما يجري فيه متناسقاً مع قدره بكل شيء وبكل حي فيه .
وجائز كذلك أن تكون هذه الظاهرة وقعت بقدر خاص تعلقت به مشيئة الله سبحانه لإهلاك قوم لوط

(١) من معاني مسومة : معلمة ذات علامة خاصة . والتعبير التصويري يجعل المعنى الذي اخترناه لها أقرب إلى التصوير .

على هذه الصورة التي تم بها في ذلك الحين . وفهم علاقة مشيئة الله بالكون على النحو الذي بيناه قريبا في التعليق على حادثة امرأة إبراهيم ، لا يبقى مجالاً لمشكلة تقوم في التصور الإنساني لمثل هذه الظواهر والأمور . . .

* وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ وَلَا تَتَّبِعُوا الْمِجَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي آتَاكُم بِخَبِيرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَقَوْمِ أَوفُوا بِالْمِيزَانَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۚ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَتْ إِلَهُكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾

قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَابُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَأَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَسْتَأْذِنُكَ لِأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾

قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَكَم عَنْهُ إِن أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَقَوْمِ لَا تَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي ۚ إِنَّ يُصِيبُكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَأَسْتَغْفِرُورَأَيْبِكُمْ ثُمَّ تَوَبُّوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾

قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا ۖ مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرُّكَ فِينَا ضَعِيفًا ۚ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ۚ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾

قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا ۚ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَقَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَدِلٌ ۚ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُجْزِيهِ وَمَن هُوَ كَذِبٌ ۚ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾

(١) مراجع فصل : « التوازن » في كتاب : « خصائص التصور الإسلامي ومقوماته » القسم الأول . « دار الشروق » .

وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيرِهِمْ جَنَّتِيمِينَ ﴿١٤١﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۗ الْأُبْعَدَ الْمَدِينِ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ ﴿١٤٢﴾

وهذا دور من أدوار الرسالة الواحدة بالعقيدة الخالدة ، ينهض به شعيب في قومه أهل مدين .. ومع الدعوة إلى عقيدة التوحيد قضية أخرى ، هي قضية الأمانة والعدالة في التعامل بين الناس ، وهي وثيقة الصلة بالعقيدة في الله ، والدينونة له وحده ، واتباع شرعه وأمره . وإن كان أهل مدين قد تلقوها بدهشة بالغة ، ولم يدركوا العلاقة بين المعاملات المالية والصلاة المعبرة عن الدينونة لله !

وتجري القصة على نسق قصة هود مع عاد ، وقصة صالح مع ثمود ، وإن كانت أقرب في نهايتها وأسلوب عرضها . والتعبير عن خاتمها إلى قصة صالح ، حتى لتتشارك معها في نوع العذاب وفي العبارة عن هذا العذاب .

* * *

« وإلى مدين أخاهم شعيباً . قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره . . . » .

إنها الدينونة لله وحده قاعدة العقيدة الأولى . وقاعدة الحياة الأولى . وقاعدة الشريعة الأولى . وقاعدة المعاملات الأولى .. القاعدة التي لا تقوم بغيرها عقيدة ولا عبادة ولا معاملة ..

« ولا تنقصوا المكيال والميزان ، إني أراكم بخير ، وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط ، ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تعثوا في الأرض مفسدين . بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين . وما أنا عليكم بحفيظ » ..

والقضية هنا هي قضية الأمانة والعدالة - بعد قضية العقيدة والدينونة - أو هي قضية الشريعة والمعاملات التي تنبثق من قاعدة العقيدة والدينونة .. فقد كان أهل مدين - وبلادهم تقع في الطريق من الحجاز إلى الشام - ينقصون المكيال والميزان ، ويبخسون الناس أشياءهم ، أي ينقصونهم قيمة أشياءهم في المعاملات . وهي رذيلة تمس نظافة القلب واليد ، كما تمس المروءة والشرف . كما كانوا يحكم موقع بلادهم يملكون أن يقطعوا الطريق على القوافل الذاهبة الآبية بين شمال الجزيرة وجنوبها . ويتحكموا في طرق القوافل ويفرضوا ما يشاءون من المعاملات الجائرة التي وصفها الله في هذه السورة .

ومن ثم تبدو علاقة عقيدة التوحيد والدينونة لله وحده بالأمانة والنظافة وعدالة المعاملة وشرف الأخذ والعطاء ، ومكافحة السرقة الخفية سواء قام بها الأفراد أم قامت بها الدول . فهي بذلك ضمانات لحياة إنسانية أفضل ، وضمائم للعدل والسلام في الأرض بين الناس . وهي الضمانة الوحيدة التي تستند إلى الخوف من الله وطلب رضاه ، فستند إلى أصل ثابت ، لا يتأرجح مع المصالح والأهواء ..

إن المعاملات والأخلاق لا بد أن تستند إلى أصل ثابت لا يتعلق بعوامل متقلبة .. هذه هي نظرة الإسلام . وهي تختلف من الجنود مع سائر النظريات الاجتماعية والأخلاقية التي تركز على تفكيرات البشر وتصوراتهم وأوضاعهم ومصالحهم الظاهرة لهم !

وهي حين تستند إلى ذلك الأصل الثابت ينعدم تأثرها بالمصالح المادية القريبة ، كما ينعدم تأثرها بالبيئة والعوامل السائدة فيها .

فلا يكون المتحكم في أخلاق الناس وقواعد تعاملهم من الناحية الأخلاقية هو كونهم يعيشون على الزراعة أو يعيشون على الرعي أو يعيشون على الصناعة .. إن هذه العوامل المتغيرة تفقد تأثيرها في التصور الأخلاقي وفي قواعد المعاملات الأخلاقية ، حين يصبح مصدر التشريع للحياة كلها هو شريعة الله ؛ وحين تصبح قاعدة الأخلاق هي إرضاء الله وانتظار ثوابه وتوقي عقابه ، وكل ما يهرف به أصحاب المذاهب الوضعية من تبعية الأخلاق للعلاقات الاقتصادية وللطور الاجتماعي للأمة يصبح لغواً في ظل النظرة الأخلاقية الإسلامية !

« ولا تنقصوا المكيال والميزان . إني أراكم بخير » ..

فقد رزقكم الله رزقاً حسناً ، فلستم في حاجة إلى هذه الدناءة لتزيدوا غنى ، ولن يفقركم أو يضركم أن لا تنقصوا المكيال والميزان .. بل إن هذا الخير ليهدده ما أتم عليه من غش في المعاملة ، أو غضب في الأخذ والعطاء .

« وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط » ..

إما في الآخرة عند الله . وإما في هذه الأرض حين يؤتي هذا الغش والغضب ثمارها المرة في حالة المجتمع وفي حركة التجارة . وحين يذوق الناس بعضهم بأس بعض ، في كل حركة من الحركات اليومية وفي كل تعامل وفي كل احتكاك .

ومرة أخرى يكرر شعيب نصحه في صورة إيجابية بعد صورة النهي السلبية :

« ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط » ..

وإفاء الكيل والميزان أقوى من عدم نقصهما ، لأنه أقرب إلى جانب الزيادة . وللعبارة ظل في الحس . وظل الإفاء غير ظل عدم النقص ، فهو أكثر سماحة ووفاء .

« ولا تبخسوا الناس أشياءهم » ..

وهذه أعم من المكيلات والموزونات . فهو يشمل حسن تقويم أشياء الناس من كل نوع . تقويمها كيلاً أو وزناً أو سعراً أو تقديراً . وتقويمها مادياً أو معنوياً . وقد تدخل في ذلك الأعمال والصفات . لأن كلمة « شيء » تطلق أحياناً ويراد بها غير المحسوسات .

وبخس الناس أشياءهم - فوق أنه ظلم - يشيع في نفوس الناس مشاعر سيئة من الألم أو الحقد ، أو اليأس من العدل والخير وحسن التقدير .. وكلها مشاعر تفسد جو الحياة والتعامل والروابط الاجتماعية والنفوس والضمان ، ولا تبقي على شيء صالح في الحياة .

« ولا تعثوا في الأرض مفسدين » ..

والعثو هو الإفساد ، فلا تفسدوا متعمدين الإفساد ، قاصدين إلى تحقيقه . ثم يوقظ وجدانهم إلى خير أبقى من ذلك الكسب الدنس الذي يحصلون عليه بنقص المكيال والميزان وبخس الناس أشياءهم في التقدير :

« بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين » ..

فما عند الله أبقى وأفضل .. وقد دعاهم في أول حديثه إلى عبادة الله وحده - أي الدينونة له بلا شريك -

(١) يراجع بتوسع كتاب : « نظرية الإسلام الخلقية » للسيد أبي الأعلى المودودي أمير الجماعة الإسلامية باكستان . كما يراجع فصل : « نظام أخلاقي » في كتاب : « نحو مجتمع إسلامي » للمؤلف . نشر « دار الشروق » .

فهو يذكرهم بها هنا ، مع ذكر الخير الباقي لهم عند الله إن آمنوا كما دعاهم ، واتبعوا نصيحته في المعاملات . وهي فرع عن ذلك الإيمان .

« بقية الله خير لكم .. إن كنتم مؤمنين » ..

ثم يخلي بينهم وبين الله الذي دعاهم إليه ، ويبين لهم أنه هو لا يملك لهم شيئاً ، كما أنه ليس موكلاً بحفظهم من الشر والعذاب . وليس موكلاً كذلك بحفظهم من الضلال ولا مسؤولاً عنهم إن هم ضلوا ، إنما عليه البلاغ وقد أداه :

« وما أنا عليكم بحفيظ » ..

ومثل هذا الأسلوب يشعر المخاطبين بخطورة الأمر ، وبثقل التبعة ، ويقفهم وجهاً لوجه أمام العاقبة بلا وسيط ولا حفيظ .

* * *

ولكن القوم كانوا قد عتوا ومردوا على الانحراف والفساد ، وسوء الاستغلال :

« قالوا . يا شعيب أصلاتك تأمرك أن تترك ما يعبد آباؤنا ، أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء ؟ إنك لأنت الحليم الرشيد ! » ..

وهو رد واضح التهكم ، بين السخرية في كل مقطع من مقاطعه . وإن كانت سخرية الجاهل المطموس ، والمعاند بلا معرفة ولا فقه .

« أصلاتك تأمرك أن تترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء ؟ » ..

فهم لا يدركون - أو لا يريدون أن يدركوا - أن الصلاة هي من مقتضيات العقيدة ، ومن صور العبودية والدينونة . وأن العقيدة لا تقوم بغير توحيد الله ، ونبذ ما يعبدونه من دونه هم وآباؤهم ، كما أنها لا تقوم إلا بتنفيذ شرائع الله في التجارة وفي تداول الأموال وفي كل شأن من شئون الحياة والتعامل . فهي لحمة واحدة لا يفرق فيها الاعتقاد عن الصلاة عن شرائع الحياة وعن أوضاع الحياة .

وقبل أن نمضي طويلاً في تسفيه هذا التصور السقيم لارتباط الشعائر بالعقيدة . وارتباطهما معاً بالمعاملات .. قبل أن نمضي طويلاً في تسفيه هذا التصور من أهل مدين قبل ألوف السنين ، يحسن أن نذكر أن الناس اليوم لا يفترقون في تصورهم ولا في إنكارهم لمثل هذه الدعوة عن قوم شعيب . وأن الجاهلية التي نعيش فيها اليوم ليست أفضل ولا أذكى ولا أكثر إدراكاً من الجاهلية الأولى ! وأن الشرك الذي كان يزاوله قوم شعيب هو ذاته الشرك الذي تزاوله اليوم البشرية بجملتها - بما فيها أولئك الذين يقولون : إنهم يهود أو نصارى أو مسلمون - فكلهم يفضل بين العقيدة والشعائر . والشريعة والتعامل . فيجعل العقيدة والشعائر لله ووفق أمره ، ويجعل الشريعة والتعامل لغير الله ، ووفق أمر غيره .. وهذا هو الشرك في حقيقته وأصله ..

وإن كان لا يفوتنا أن اليهود وحدهم اليوم هم الذين يتسكون بأن تكون أوضاعهم ومعاملاتهم وفق ما يزعمنه عقيدتهم وشريعتهم - وذلك بغض النظر عما في هذه العقيدة من انحراف وما في هذه الشريعة من تحريف - فلقد قامت أزمة في « الكنيست » مجلس تشريعهم في إسرائيل بسبب أن باخرة إسرائيلية تقدم لركابها - من غير اليهود - أطعمة غير شرعية . وأرغمت الشركة والسفينة على تقديم الطعام الشرعي وحده - مهما تعرضت للخسارة - فأين من يدعون أنفسهم « مسلمين ! » من هذا الاستمسك بالدين ؟ ! !

إن بيننا اليوم - ممن يقولون : إنهم مسلمون ! - من يستنكر وجود صلة بين العقيدة والأخلاق ، وبخاصة أخلاق المعاملات المادية .

وحاصلون على الشهادات العليا من جامعاتنا وجامعات العالم . يتساءلون أولاً في استنكار : وما للإسلام وسلوكنا الشخصي ؟ ما للإسلام والعري في الشواطئ ؟ ما للإسلام وزى المرأة في الطريق ؟ ما للإسلام وتصريف الطاقة الجنسية بأي سبيل ؟ ما للإسلام وتناول كأس من الخمر لإصلاح المزاج ؟ ما للإسلام وهذا الذي يفعله « المتحضرون » ؟ ! .. فأني فرق بين هذا وبين سؤال أهل مدين : « أصلاتك تأمرك أن تترك ما يعبد آباؤنا؟ » .. وهم يتساءلون ثانياً . بل ينكرون بشدة وعنف . أن يتدخل الدين في الاقتصاد ، وأن تتصل المعاملات بالاعتقاد ، أو حتى بالأخلاق من غير اعتقاد .. فما للدين والمعاملات الربوية ؟ وما للدين والمهارة في الغش والسرقة ما لم يقعا تحت طائلة القانون الوضعي ؟ لا بل إنهم يتبجحون بأن الأخلاق إذا تدخلت في الاقتصاد تفسده . وينكرون حتى على بعض أصحاب النظريات الاقتصادية الغربية - النظرية الأخلاقية مثلاً - ويعدونها تخليطاً من أيام زمان !

فلا يذهبن بنا الترفع كثيراً على أهل مدين في تلك الجاهلية الأولى . ونحن اليوم في جاهلية أشد جهالة ، ولكنها تدعي العلم والمعرفة والحضارة ، وتتهم الذين يربطون بين العقيدة في الله ، والسلوك الشخصي في الحياة ، والمعاملات المادية في السوق .. تتهمهم بالرجعية والتعصب والجمود !!! !

وما تستقيم عقيدة توحيد الله في القلب ، ثم ترك شريعة الله المتعلقة بالسلوك والمعاملة إلى غيرها من قوانين الأرض . فما يمكن أن يجتمع التوحيد والشرك في قلب واحد . والشرك ألوان . منه هذا اللون الذي نعيش به الآن . وهو يمثل أصل الشرك وحقيقته التي يلتقي عليها المشركون في كل زمان وفي كل مكان !
ويسخر أهل مدين من شعيب - كما يتوقع بالسخرية اليوم ناس على دعاة التوحيد الحق - فيقولون :
« إنك لأنت الحليم الرشيد ! » ..

وهم يعنون عكس معناها . فالحلم والرشد عندهم أن يعبدوا ما يعبد آباؤهم بلا تفكير ، وأن يفصلوا بين العبادة والتعامل في السوق ! وكذلك هو عند المثقفين المتحضرين اليوم الذين يعيبون على المتعصبين الرجعيين !!! !

* * *

ويتلطف شعيب تلطف صاحب الدعوة الواثق من الحق الذي معه ؛ ويعرض عن تلك السخرية لا يبالها وهو يشعر بقصورهم وجهلهم .. يتلطف في إشارتهم أنه على بينة من ربه كما يجده في ضميره وقلبه ؛ وأنه على ثقة مما يقول لأنه أوتي من العلم ما لم يؤتوا ، وأنه إذ يدعوهم إلى الأمانة في المعاملة سيتأثر مثلهم بنتائجها لأنه مثلهم ذو مال وذو معاملات ؛ فهو لا يبغى كسباً شخصياً من وراء دعوته لهم ؛ فلن ينهاتهم عن شيء ثم يفعله هو لتخلو له السوق ! إنما هي دعوة الإصلاح العامة لهم وله وللناس . وليس فيما يدعوهم إليه خسارة عليهم كما يتوهمون :

« قال : يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ، ورزقتي منه رزقاً حسناً ؟ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ، إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ، وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب » ..
« يا قوم ... » ..

في تودد وتقرب ، وتذكير بالأواصر القريبة .

« أرايتم إن كنت على بينة من ربي ؟ » ..
أجد حقيقته في نفسي وأستيقن أنه هو يوحى إلي ويأمرني بما أبلغكم إياه . وعن هذه البينة الواضحة في نفسي ، أصدر واثقاً مستيقناً .

« ورزقي منه رزقاً حسناً » ..

ومنه الثروة التي أتعامل مع الناس مثلكم فيها .

« وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه » ..

فأنهاكم ثم أذهب من خلفكم فأفعل ما نهيتكم عنه لأحقق لنفسي نفعاً به !

« إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت » ..

الإصلاح العام للحياة والمجتمع الذي يعود صلاحه بالخير على كل فرد وكل جماعة فيه ؛ وإن خيل إلى بعضهم أن اتباع العقيدة والخلق يفوت بعض الكسب الشخصي ، ويضيع بعض الفرص . فإنما يفوت الكسب الخبيث ويضيع الفرص القدرة ؛ ويعوض عنهما كسباً طيباً ورزقاً حلالاً ، ومجتمعاً متضامناً متعاوناً لا حقد فيه ولا غدر ولا خصام !

« وما توفيقى إلا بالله » ..

فهو القادر على إنجاح مساعي في الإصلاح بما يعلم من نيتي ، وبما يجزي على جهدي .

« عليه توكلت » ..

عليه وحده لا أعتمد على غيره .

« وإليه أنيب » ..

إليه وحده أرجع فبما يحزني من الأمور ، وإليه وحده أتوجه بنيتي وعملي ومساعي .

ثم يأخذ بهم في واد آخر من التذكير ، فيبطل بهم على مصارع قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط :
فقد يفعل هذا في مثل تلك القلوب الجاسية ما لم يفعله التوجيه العقلي اللين الذي يحتاج إلى رشد وتفكير :
« ويا قوم لا يجرمنكم شقائي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح . وما قوم لوط منكم ببعيد » ..

لا يحملنكم الخلاف معي والعناد في مواجهتي على أن تلجوا في التكذيب والمخالفة ، خشية أن يصيبكم ما أصاب الأقوام قبلكم . وهؤلاء قوم لوط قريب منكم في المكان . وقريب كذلك في الزمان . فدين كانت بين الحجاز والشام .

ثم يفتح لهم - وهم في مواجهة العذاب والهلاك - باب المغفرة والتوبة ، ويطمعهم في رحمة الله والقرب منه بأرق الألفاظ وأحناها :

« واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه ، إن ربي رحيم ودود » ..

وهكذا يطوف بهم في مجالات العظة والتذكر والخوف والطمع ، لعل قلوبهم تتفتح وتخشع وتلين .

ولكن القوم كانوا قد بلغوا من فساد القلوب ، ومن سوء تقدير القيم في الحياة ، وسوء التصور لدوافع العمل والسلوك ، ما كشف عنه تبجحهم من قبل بالسخرية والتكذيب :

« قالوا : يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول ، وإنا لنراك فينا ضعيفاً ، ولولا رهطك لرجمناك ، وما أنت علينا بعزيز » ..

فهم ضيقو الصدور بالحق الواضح ، لا يريدون أن يدركوه :
« قالوا يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول » ..

وهم يقيسون القيم في الحياة بمقياس القوة المادية الظاهرة :
« وإنا لنراك فينا ضعيفاً » ..

فلا وزن عندهم للحقيقة القوية التي يحملها ويواجههم بها .
« ولولا رهطك لرجمناك » ..

ففي حسابهم عصبية العشيرة ، لا عصبية الاعتقاد ، وصلة الدم لا صلة القلب . ثم هم يغفلون عن غيرة الله على أوليائه فلا يضعونها في الحساب .
« وما أنت علينا بعزيز » ..

لا عزة التقدير والكرامة ولا عزة الغلب والقهر . ولكننا نحسب حساب الأهل والعشيرة !
وحين تفرغ النفوس من العقيدة القويمة والقيم الرفيعة والمثل العالية ؛ فإنها تقبع على الأرض ومصالحها القرية وقيمها الدنيا ؛ فلا ترى حرمة يومئذ لدعوة كريمة ، ولا لحقيقة كبيرة ؛ ولا تتحرج عن البطش بالداعية إلا أن تكون له عصبه تؤويه ؛ وإلا أن تكون معه قوة مادية تحميه . أما حرمة العقيدة والحق والدعوة فلا وزن لها ولا ظل في تلك النفوس الفارغة الخاوية .

* * *

وعندئذ تأخذ شعبياً الغيرة على جلال ربه ووقاره ؛ فيتصل من الاعتزاز برهطه وقومه ؛ ويجههم بسوء التقدير لحقيقة القوى القائمة في هذا الوجود ، وبسوء الأدب مع الله المحيط بما يعملون . ويلقي كلمته الفاصلة الأخيرة . ويفاصل قومه على أساس العقيدة ، ويخلي بينهم وبين الله ، وينذرهم العذاب الذي ينتظر أمثالهم ، ويدعهم لمصيرهم الذي يختارون :

« قال : يا قوم : أرهطي أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهرياً ؟ إن ربي بما تعملون محيط . ويا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل ، سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارتقبوا إني معكم رقيب » ..

« أرهطي أعز عليكم من الله ؟ » ..

أجماعة من البشر مهما يكونوا من القوة والمنعة فهم ناس ، وهم ضعاف ، وهم عباد من عباد الله .. أهؤلاء أعز عليكم من الله ؟ .. أهؤلاء أشد قوة ورهبة في نفوسكم من الله ؟
« واتخذتموه وراءكم ظهرياً » ..

وهي صورة حسية للترك والإعراض ، تزيد في شناعة فعلتهم ، وهم يتركون الله ويعرضون عنه ، وهم من خلقه ، وهو رازقهم وممتعهم بالخير الذي هم فيه . فهو البطر وجحود النعمة وقلة الحياء إلى جانب الكفر والتكذيب وسوء التقدير .

« إن ربي بما تعملون محيط » ..

والإحاطة أقصى الصور الحسية للعلم بالشيء والقدرة عليه .

إنها غضبة العبد المؤمن لربه أن يستباح جلاله - سبحانه - ووقاره . الغضبة التي لا يقوم إلى جوارها شيء من الاعتزاز بنسبه ورهطه وعشيرته وقومه .. إن شعبياً لم ينتفخ ولم ينتفش أن يجد القوم يرهبون رهطه ، فلا تمتد إليه أيديهم بالبطش الذي يريدونه ! ولم يسترح ولم يطمئن إلى أن يكون رهطه هم الذين يحمونه ويمنعونه من قومه - الذين افترق طريقهم عن طريقه - وهذا هو الإيمان في حقيقته .. أن المؤمن لا يعتر إلا بربه ؛ ولا يرضى أن تكون له عصبه تخشى ولا يُخشى ربه ! فعصبية المسلم ليست لرهطه وقومه ، إنما هي لربه ودينه . وهذا هو مفرق الطريق في الحقيقة بين التصور الإسلامي والتصور الجاهلي في كل أزمانه وبيئاته ! ومن هذه الغضبة لله . والتنصل من الاعتزاز أو الاحتماء بسواه ، ينبعث ذلك التحدي الذي يوجهه شعيب إلى قومه ؛ وتقوم تلك المفاصلة بينه وبينهم - بعد أن كان واحداً منهم - ويفترق الطريقتان فلا يلتقيان :

« ويا قوم اعملوا على مكاتكم » ..

وامضوا في طريقكم وخطتكم ، فقد نفضت يدي منكم .

« إني عامل » ..

على طريقي ومنهجي .

« سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب » ..

أنا أم أتم ؟

« وارتقبوا إني معكم رقيب » ..

للعاقبة التي تنتظري وتنتظرهم .. وفي هذا التهديد ما يوحي بثقته بالمصير . كما يوحي بالمفاصلة وافتراق الطريق ..

* * *

ويسدل الستار هنا . على هذه الكلمة الأخيرة الفاصلة وعلى هذا الافتراق والمفاصلة ، ليرفع هناك على مصرع القوم ، وعلى مشهدهم جاثمين في ديارهم ، أخذتهم الصاعقة التي أخذت قوم صالح ، فكان مصيرهم كمصيرهم ، خلت منهم الدور ، كأن لم يكن لهم فيها دور ، وكأن لم يعمرها حيناً من الدهر . مضوا مثلهم مشيعين باللعنة ، طويت صفحاتهم في الوجود وصفحتهم في القلوب :

« ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا ، وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين ، كأن لم يغنوا فيها . ألا بعداً لمدين ، كما بعدت ثمود ... » .

وطويت صفحة أخرى من الصفحات السود ، حق فيها الوعيد على من كذبوا بالوعيد .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بئسَ الورد المرفود ﴿٩٩﴾

وخاتمة ذلك القصص هذه الإشارة إلى قصة موسى مع فرعون ، لتسجيل نهاية فرعون وملئه ، ونهاية قومه الذين ائتمروا بأمره . وتتضمن هذه الإشارة العابرة إيماءات كثيرة إلى وقائع القصة التي لم تذكر هنا ، كما تضم مشهداً من مشاهد القيامة الحية المتحركة . وهذا وذلك إلى تقرير مبدأ رئيسي من مبادئ الإسلام . مبدأ التبعة الفردية التي لا يسقطها اتباع الرؤساء والكبراء . .

* * *

ويبدأ المشهد المعروض هنا بإرسال موسى بالآيات مزوداً بقوة من الله وسلطان ، إلى فرعون ذي السلطان وكبراء قومه .

« ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين . إلى فرعون وملئه » . .

ويجمل السياق خطوات القصة كلها ليصل إلى نهايتها ، فإذا هم يتبعون أمر فرعون ، ويعصون أمر الله . على ما في أمر فرعون من حماقة وجهل وشطط :

« فاتبعوا أمر فرعون . وما أمر فرعون برشيد » . .

ولما كانوا تبعاً لفرعون في هذا الأمر ، يمشون خلفه ، ويتبعون خطواته الضالة بلا تدبر ولا تفكر ، ودون أن يكون لهم رأي ، مستهينين بأنفسهم ، متخلين عن تكريم الله لهم بالإرادة والعقل وحرية الاتجاه واختيار الطريق . . لما كانوا كذلك فإن السياق يقرر أن فرعون سيقدمهم يوم القيامة ويكونون له تبعاً :

« يقدم قومه يوم القيامة » . .

وبينا نحن نسمع حكاية عن الماضي ووعداً عن المستقبل ، إذا المشهد يتقلب ، وإذا المستقبل ماض قد وقع ، وإذا فرعون قد قاد قومه إلى النار وانتهى :

« فأوردتهم النار » !!

أوردتهم كما يورد الراعي قطع الغنم . ألم يكونوا قطعاً يسير بدون تفكير ؟ ألم يتنازلوا عن أخص خصائص الآدمية وهي حرية الإرادة والاختيار ؟ فأوردتهم النار . وبأبشاه من ورد لا يروي غلة ، ولا يشفي صدى ، إنما يشوي البطون والقلوب :

« وبئس الورد المورود ! » . .

وإذا ذلك كله . قيادة فرعون لهم ، وإيرادهم موردهم . . إذا ذلك كله حكاية تروى ، ويُعلق عليها :

« وأتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة » . .

ويُسخر منها ويُتهكم عليها : « بئس الورد المرفود » . .

فهذه النار هي الرfid والعطاء والمنة التي رfid بها فرعون قومه !!! ألم يعد السحرة عطاء جزيلاً ورفداً مرفوداً .. فما هو ذا رfidه لمن اتبعه .. النار .. وبئس الورد المرفود . وبئس الrfid المرفود !
وذلك من بدائع التعبير والتصوير في هذا الكتاب العجيب ..

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١١٦﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١١٧﴾ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١١٨﴾

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴿١١٦﴾ وَمَا نُؤْتِرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُعَدَّدٍ ﴿١١٧﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُنَّ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ سُقِيَ وَسْعِيدٌ ﴿١١٨﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١١٩﴾ خَلِيدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴿١٢٠﴾ * وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَجْدُودٍ ﴿١٢١﴾

فَلَا تَكُ فِي مَرِيَّةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَتُولَاءٌ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَنُوفِّهُمُ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٢٣﴾ وَإِنْ كُنَّا لَمَّا لِيُوفِّيَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلُهُمْ إِنَّهُمْ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٢٤﴾

فَأَسْتَقِمَّ كَمَا أَمَرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٢٥﴾ وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ ثُمَّ لَأَنْتَصِرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبُ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرٌ لِلذَّاكِرِينَ ﴿١٢٧﴾ وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٨﴾

فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١٢٩﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ۗ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ۗ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾

وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَشِئْتُ بِهِ ۖ فُؤَادَكَ ۗ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَانظُرُوا إِنَّا مُنظِرُونَ ﴿١٢٢﴾

وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهُ ۖ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۗ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

هذه خاتمة السورة . تشتمل على تعليقات وتعقيبات متنوعة ، مبنية على ما سبق في سياق السورة . من المقدمة ومن القصص . وهذه التعليقات والتعقيبات شديدة الانصال بما سبق من سياق السورة ، متكاملة معه في أداء أهدافها كذلك .

والتعقيب الأول في هذا الدرس تعقيب مباشر على القصص : « ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد . وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم ، فما أغنت عنهم آتتهم التي يدعون من دون الله من شيء - لما جاء أمر ربك - وما زادهم غير تنبيي . وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة . إن أخذهم شديد » ..

والتعقيب الثاني يتخذ مما نزل بالقرى من عذاب موحياً بالخوف من عذاب الآخرة الذي يعرض في مشهد شاخص من مشاهد يوم القيامة : « إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة . ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود . وما تؤخره إلا لأجل معدود . يوم يأتي لا تكلم نفس إلا بإذنه ، فمنهم شقي وسعيد . فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق . خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض - إلا ما شاء ربك - إن ربك فعال لما يريد . وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض - إلا ما شاء ربك - عطاء غير مجذوذ » ..

يليه تعقيب آخر مستمد من عاقبة القرى ومن مشهد القيامة لتقرير أن المشركين الذين يواجههم محمد - صلى الله عليه وسلم - شأنهم شأن من قبلهم في الحالين . وإذا كان عذاب الاستئصال لا يقع عليهم في الأرض ، فذلك لكلمة سبقت من ربك إلى أجل كما أجل العذاب لقوم موسى مع اختلافهم فيما جاءهم من كتاب . ولكن هؤلاء وهؤلاء سيوفون أعمالهم على وجه التأكيد . فاستقم أيها الرسول على طريقتك أنت ومن تاب معك ، ولا تركنوا إلى الذين ظلموا وأشركوا ، وأقم الصلاة واصبر ، فإن الله لا يضيع أجر المحسنين : « فلاتك في مرية مما يعبد هؤلاء . ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل . وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص . ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ، ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم وإنهم لفي شك منه مريب وإن كلاً لَمَّا ليوفينهم ربك أعمالهم ، إنه بما يعملون خبير . فاستقم كما أمرت ومن تاب معك : ولا تطغوا ،

إنه بما تعملون بصير . ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون . وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل ، إن الحسنات يذهبن السيئات ، ذلك ذكرى للذاكرين . واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ..

ثم عودة إلى القرون الخالية التي لم يكن فيها إلا قليل من الذين يnehون عن الفساد في الأرض . أما الكثرة فكانت ماضية فيما هي فيه ، فاستحقت الهلاك . وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون : « فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض ! إلا قليلاً ممن أنجينا منهم ، واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين . وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » ..

وكشف عن سنة الله في كون الناس مختلفين في مناهجهم واتجاهاتهم . ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة . ولكن إرادته اقتضت إعطاء البشر قدراً من الاختيار : « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين . إلا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم ، وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » .

وفي النهاية يسجل السياق غرضاً من أغراض هذا القصص هو تثبيت فؤاد النبي صلى الله عليه وسلم ، ويؤمر الرسول أن يلقي للمشركين كلمته الأخيرة ، ويكلهم إلى ما ينتظرهم من غيب الله . وأن يعبد الله ويتوكل عليه ، ويدع له أخذ الناس بما يعملون : « وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ، وجاءك في هذه الحق ، وموعظة وذكرى للمؤمنين . وقل للذين لا يؤمنون : اعملوا على مكانتكم إنا عاملون . وانتظروا إنا منتظرون . والله غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله . فاعبدوه وتوكل عليه ، وما ربك بغافل عما تعملون » ..

* * *

« ذلك من أنباء القرى نقصه عليك . منها قائم وحصيد . وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم ؛ فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك ، وما زادهم غير تنبيب . وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة . إن أخذه أليم شديد » ..

ومصارع القوم معروضة ، ومشاهدتهم ترحم النفس والخيال ؛ منهم الغارقون في لجة الطوفان الغامر ، ومنهم المأخوذون بالعاصفة المدمرة ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفت به وبداره الأرض ، ومنهم من يقدم قومه يوم القيامة فأوردتهم النار . وما حل بهم من قبل في الدنيا يخابيل للأنظار .. في هذا الموضع وقد بلغ السياق من القلوب والمشاعر أعماقها بتلك المصارع والمشاهد .. هنا يأتي هذا التعقيب :

« ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد » ..

« ذلك من أنباء القرى نقصه عليك » .. فما كان لك به من علم ، إنما هو الوحي ينبئك بهذا الغيب المطمور . وذلك بعض أغراض القصص في القرآن^١ .

« منها قائم » .. لا تزال آثاره تشهد بما بلغ أهله من القوة والعمران ، كبقايا عاد في الأحقاف وبقايا ثمود في الحجر . ومنها « حصيد » كالزراع المحصود . اجتث من فوق الأرض وتعرى وجهها منه ، كما حل بقوم نوح أو قوم لوط .

(١) تراجع بتوسع أغراض القصة في فصل القصة في القرآن في كتاب : « التصوير الفني في القرآن » : نشر « دار الشروق » .

وما الأقسام؟ وما العمران؟ .. إن هي إلا حقول من الأناسي كحقول النبات . غرس منها يزكو وغرس منها خبيث ! غرس منها ينمو وغرس منها يموت !
« وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم » ..

فهم قد عطلوا مداركهم ، وتولوا عن الهدى ، وكذبوا بالآيات ، واستهزأوا بالوعيد ، فصاروا إلى ما صاروا إليه ظالمين لأنفسهم لا مظلومين .

« فما أغنت عنهم آهنتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك ، وما زادهم غير تنبيب » .. وهذا غرض آخر من أغراض هذا القصص . فقد افتتحت السورة بإنذار الذين يدينون لغير الله سبحانه ؛ وتكرر الإنذار مع كل رسول ؛ وقيل لهم : إن هذه الأرباب المقترة لا تعصمهم من الله .. فها هي ذي العاقبة تصدق النذر . فلا تغني عنهم آهنتهم شيئاً ، ولا تدفع عنهم العذاب لما جاء أمر ربك ، بل ما زادهم هؤلاء الآلهة إلا خسارة ودماراً . (ولفظ تنبيب أقوى بيناته اللفظي وجرسه المشدد) ذلك أنهم اعتمدوا عليهم ، فزادوا استهتاراً وتكذيباً . فزادهم الله نكالاً وتدميراً . فهذا معنى « ما زادوهم » فهم لا يملكون لهم ضراً كما أنهم لا يملكون لهم نفعاً . ولكن بسببهم كانت الخسارة المضاعفة والتدمير المضاعف والنكال الشديد ..
« وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة » ..

كذلك الذي قصصناه عليك ، وبمثل هذا الدمار والنكال يأخذ ربك القرى حين يأخذها وهي ظالمة .. ظالمة : مشركة حين تدين لغير الله بالربوبية ، وظالمة لنفسها بالشرك والفساد في الأرض والإعراض عن دعوة التوحيد والصلاح . وقد ساد فيها الظلم وسيطر الظالمون .

« إن أخذه أليم شديد » ..

بعد الإمهال والمتاع والابتلاء ، وبعد الإعدار بالرسل والبيئات ، وبعد أن يسود الظلم في الأمة وسيطر الظالمون . ويتبين أن دعاة الحق المصلحين قلة منعزلة لا تأثير لها في حياة الجماعة الظالمة السادرة في الضلال .. ثم .. بعد أن تفاصل العصبية المؤمنة قومها السادرين في الضلال ؛ وتعتبر نفسها أمة وحدها لها دينها ولها ربها ولها قيادتها المؤمنة ولها ولاؤها الخاص فيما بينها . وتعلن الأمة المشركة من قومها بهذا كله ، وتدعها تلاقى مصيرها الذي يقدره الله لها . وفق سنته التي لا تتخلف على مدار الزمان .

* * *

ذلك الأخذ الأليم الشديد في الدنيا علامة على عذاب الآخرة ، يراها من يخافون عذاب الآخرة ، أي الذين تفتحت بصائرهم ليدركوا أن الذي يأخذ القرى بظلمها في هذه الحياة سيأخذها بذنوبها في الآخرة ، فيخافوا هذا العذاب .. وهنا يعبر السياق بالقلب البشري من مشاهد الأرض إلى مشاهد القيامة على طريقة القرآن في وصل الرحلتين بلا فاصل في السياق :

« إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة . ذلك يوم مجموع له الناس ، وذلك يوم مشهود . وما تؤخره إلا لأجل معدود . يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه ، فمنهم شقي وسعيد . فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق . خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض - إلا ما شاء ربك - إن ربك فعال لما يريد . وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض - إلا ما شاء ربك - عطاء غير مجذوذ » ..

« إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة » ..

ففي ذلك الأخذ الأليم الشديد مشابه من عذاب الآخرة ، تذكر بهذا اليوم وتخيف ..
 وإن كان لا يراها إلا الذين يخافون الآخرة فتفتتح بصائرهم بهذه التقوى التي تجلو البصائر والقلوب ..
 والذين لا يخافون الآخرة تظل قلوبهم صماء لا تتفتح للآيات ، ولا تحس بحكمة الخلق والإعادة ، ولا ترى
 إلا واقعها القريب في هذه الدنيا ، وحتى العبر التي تمر في هذه الحياة لا تثير فيها عظة ولا فهماً .
 ثم يأخذ في وصف ذلك اليوم ..

« ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود » ..

وهنا يرتسم مشهد التجميع يشمل الخلق جميعاً ، على غير إرادة منهم ، إنما هو سوق الجميع سوقاً إلى ذلك
 المعرض المشهود ، والكل يحضر والكل ينتظر ما سوف يكون ..
 « يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه » ..

فالصمت الهائل يغشى الجميع ، والرهبنة الشاملة تخيم على المشهد ومن فيه . والكلام بإذن لا يجروء أحد على
 طلبه ، ولكن يؤذن لمن شاء الله فيخرج من صمته بإذنه .. ثم تبدأ عملية الفرز والتوزيع :
 « فمنهم شقي وسعيد » ..

ومن خلال التعبير نشهد : « الذين شقوا » نشهدهم في النار مكروبي الأنفاس « لهم فيها زفير وشهيق »
 من الحر والكتمة والضيق . ونشهد « الذين سعدوا » نشهدهم في الجنة لهم فيها عطاء دائم غير مقطوع ولا ممنوع ..
 هؤلاء وأولئك خالدون حيث هم « ما دامت السماوات والأرض » . وهو تعبير يلقي في الذهن صفة الدوام
 والاستمرار . وللتعبيرات ظلال . وظل هذا التعبير هنا هو المقصود .

وقد علق السياق هذا الاستمرار بمشيئة الله في كلتا الحالتين . وكل قرار وكل سنة معلقة بمشيئة الله في النهاية .
 فمشيئة الله هي التي اقتضت السنة وليست مقيدة بها ولا محصورة فيها . إنما هي طليقة تبدل هذه السنة حين
 يشاء الله :

« إن ربك فعال لما يريد » ..

وزاد السياق في حالة الذين سعدوا ما يطمئنهم إلى أن مشيئة الله اقتضت أن يكون عطاؤه لهم غير مقطوع ،
 حتى على فرض تبديل إقامتهم في الجنة . وهو مطلق فرض يذكر لتقرير حرية المشيئة بعدما يوهم التقييد .

* * *

بعد هذا الاستطراد إلى المصير في الآخرة ، بمناسبة عرض مصائر الأقوام في الدنيا ، والمشابه بين عذاب
 الدنيا وعذاب الآخرة ، وتصوير ما ينتظر المكذبين هنا أو هناك ، أو هنا ثم هناك .. يعود السياق بما يستفاد
 من القصص ومن المشاهد إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - والقللة المؤمنة معه في مكة - تسرية وتثبيتاً ؛
 وإلى المكذبين من قومه بياناً وتحذيراً . فليس هناك شك في أن القوم يعبدون ما كان آباؤهم يعبدون - شأنهم
 شأن أصحاب ذلك القصص وأصحاب تلك المصائر - ونصيبهم الذي يستحقونه سيوفونه . فإن كان قد أضر
 عنهم فقد أضر عذاب الاستئصال عن قوم موسى - بعد اختلافهم في دينهم - لأمر قد شاءه الله في إنظارهم .
 ولكن قوم موسى وقوم محمد على السواء سيوفون ما يستحقون ، بعد الأجل ، وفي الموعد المحدود . ولم
 يؤخر عنهم العذاب لأنهم على الحق . فهم على الباطل الذي كان عليه آباؤهم بكل تأكيد :

« فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء . ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل . وإنا لמוفوهم نصيبهم غير منقوص .

ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه . ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم . وإنهم لفي شك منه مريب . وإن كلاً لما ليوفينهم ربك أعمالهم .. إنه بما يعملون خبير» . .

لا يتسرب إلى نفسك شك في فساد عبادة هؤلاء . والخطاب للرسول - صلى الله عليه وسلم - والتحذير لقومه . وهذا الأسلوب أفعال في النفس أحياناً ، لأنه يوحي بأنها قضية موضوعية يبينها الله لرسوله ، وليست جدالاً مع أحد ، ولا خطاباً للمتلبسين بها ، إهمالاً لهم وقلة انشغال بهم ! وعندئذ يكون لتلك الحقيقة الخالصة المجردة أثرها في اهتمامهم أكثر مما لو خوطبوا بها خطاباً مباشراً ..

« فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء . ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل » ..

ومصيرهم إذن كمصيرهم .. العذاب .. ولكنه يلفه كذلك في التعبير تمثيلاً مع الأسلوب :

« وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص » ..

ومعروف نصيبهم هذا من نصيب القوم قبلهم . وقد رأينا منه نماذج ومشاهد !

وقد لا يصيبهم عذاب الاستئصال - في الدنيا - كما لم يصب قوم موسى :

« ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه » ..

وتفرقت كلمتهم واعتقاداتهم وعباداتهم ، ولكن كلمة سبقت من الله أن يكون حسابهم الكامل يوم القيامة :

« ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم » ..

ولحكمة ما سبقت هذه الكلمة ، ولم يحل عذاب الاستئصال بهم ، لأن لهم كتاباً ، والذين لهم كتاب من أتباع الرسل كلهم مؤجلون إلى يوم القيامة ، لأن الكتاب دليل هداية باق ، تستطيع الأجيال أن تتدبره كالجيل الذي أنزل فيه . والأمر ليس كذلك في الخوارق المادية التي لا يشهدها إلا جيل ، فإما أن يؤمن بها وإما أن لا يؤمن فيأخذ العذاب .. والتوراة والإنجيل كتابان متكاملان يظلان معروضين للأجيال حتى يجيء الكتاب الأخير ، مصدقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل فيصبح هو الكتاب الأخير للناس جميعاً يدعى إليه الناس جميعاً ، ويحاسب على أساسه الناس جميعاً ، بما فيهم أهل التوراة وأهل الإنجيل . « وإنهم » .. أي قوم موسى .. « لفي شك منه مريب » .. من كتاب موسى ، لأنه لم يكتب إلا بعد أجيال ، وتفرقت فيه الروايات واضطربت ، فلا يقين فيه لمتبعيه .

وإذا كان العذاب قد أجل .. فإن الكل سيوفون أعمالهم خيرها وشرها . سيوفهم بها العليم الخبير بها

ولن تضع :

« وإن كلاً لما ليوفينهم ربك أعمالهم . إنه بما يعملون خبير» وفي التعبير توكيدات منوعة حتى لا يشك أحد في الجزاء والوفاء من جراء الإنظار والتأجيل . وحتى لا يشك أحد في أن ما عليه القوم هو الباطل الذي لا شك في بطلانه ، وأنه الشرك الذي زاوله من قبل كل المشركين ..

ولقد كان لهذه التوكيدات ما يقتضيها من واقع الحركة في تلك الفترة . فقد وقف المشركون وقتهم العنيدة منها ومن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والقلة المؤمنة معه ، وتجمدت الدعوة على وجه التقريب . بينا عذاب الله الموعد مؤجل لم يقع بعد . والأذى ينزل بالعصبة المؤمنة ويمضي أعداؤها ناجين ! .. إنها فترة تهتز

فيها بعض القلوب . وحتى القلوب الثابتة تناولها الوحشة ، وتحتاج إلى مثل هذه التسرية وإلى مثل هذا التثبيت . وتثبيت القلوب المؤمنة لا يكون بشيء كما يكون بتوكيد أن أعداءها هم أعداء الله ، وأنهم على الباطل الذي لا شك فيه !

كذلك لا يكون تثبيت القلوب المؤمنة بشيء كما يكون بجلاء حكمة الله في إمهال الظالمين ، وإرجاء الطغاة إلى يوم معلوم ، ينالون فيه جزاءهم ولا يفلتون ! وهكذا نلمح مقتضيات الحركة بهذه العقيدة في النصوص القرآنية ، ونرى كيف يخوض القرآن المعركة بالجماعة المسلمة ، وكيف يكشف لها معالم الطريق !

* * *

ذلك البيان مع هذا التوكيد يلقي في النفس أن سنة الله ماضية على استقامتها في خلقه وفي دينه وفي وعده وفي وعيده . وإذن فليستقم المؤمنون بدين الله والداعون له على طريقتهم - كما أمروا - لا يغلون في الدين ولا يزيدون فيه ، ولا يركنون إلى الظالمين مهما تكن قوتهم ، ولا يدينون لغير الله مهما طال عليهم الطريق . ثم يتزودون بزيادة الطريق ، ويصبرون حتى تتحقق سنة الله عندما يريد .

« فاستقم كما أمرت - ومن تاب معك - ولا تطغوا . إنه بما تعملون بصير . ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ، وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون . وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل ، إن الحسنات يذهبن السيئات ، ذلك ذكرى للذاكرين ، واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين » . . . هذا الأمر للرسول - صلى الله عليه وسلم - ومن تاب معه :

« فاستقم كما أمرت » . . أحس - عليه الصلاة والسلام - برهبة وقوته حتى روي عنه أنه قال مشيراً إليه : « شيبتي هود . . . » . فالاستقامة : الاعتدال والمضي على النهج دون انحراف . وهو في حاجة إلى اليقظة الدائمة ، والتدبر الدائم ، والتحري الدائم لحدود الطريق ، وضبط الانفعالات البشرية التي تميل الاتجاه قليلاً أو كثيراً . . . ومن ثم فهي شغل دائم في كل حركة من حركات الحياة .

وإنه لما يستحق الانتباه هنا أن النهي الذي أعقب الأمر بالاستقامة ، لم يكن نهياً عن القصور والتقصير ، إنما كان نهياً عن الطغيان والمجازاة . . . وذلك أن الأمر بالاستقامة وما يتبعه في الضمير من يقظة وتخرج قد ينتهي إلى الغلو والمبالغة التي تحول هذا الدين من يسر إلى عسر . والله يريد دينه كما أنزله ، ويريد الاستقامة على ما أمر دون إفراط ولا غلو ، فالإفراط والغلو يخرجان هذا الدين عن طبيعته كالتفريط والتقصير . وهي التفاتة ذات قيمة كبيرة ، لإمسك النفوس على الصراط ، بلا انحراف إلى الغلو أو الإهمال على السواء . . « إنه بما تعملون بصير » . .

والبصر - من البصيرة - مناسب في هذا الموضع ، الذي تتحكم فيه البصيرة وحسن الإدراك والتقدير . . . فاستقم - أيها الرسول - كما أمرت . ومن تاب معك . . . « ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار » . .

لا تستندوا ولا تطمئنوا إلى الذين ظلموا . إلى الجبارين الطغاة الظالمين ، أصحاب القوة في الأرض ، الذين يقهرون العباد بقوتهم ويعبدونهم لغير الله من العبيد . . لا تركنوا إليهم فإن ركونكم إليهم يعني إقرارهم على

هذا المنكر الأكبر الذي يزاولونه ، ومشاركتهم إثم ذلك المنكر الكبير .
« فتمسكم النار » ..

جزاء هذا الانحراف .

« وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون » ..

والاستقامة على الطريق في مثل هذه الفترة أمر شاق عسير يحتاج إلى زاد يعين ..

والله - سبحانه - يرشد رسوله - صلى الله عليه وسلم - ومن معه من القلة المؤمنة إلى زاد الطريق :

« وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل » ..

ولقد علم الله أن هذا هو الزاد الذي يبقى حين يفنى كل زاد ، والذي يقيم البنية الروحية ، ويمسك القلوب على الحق الشاق التكاليف . ذلك أنه يصل هذه القلوب بربها الرحيم الودود ، القريب المجيب ، وينسم عليها نسمة الأنس في وحشتها وعزلتها في تلك الجاهلية النكدة الكنود !

والآية هنا تذكر طرفي النهار - وهما أوله وآخره ، وزلفاً من الليل أي قريباً من الليل . وهذه تشمل أوقات الصلاة المفروضة دون تحديد عددها . والعدد محدد بالسنة ومواقيته كذلك .

والنص يعقب على الأمر بإقامة الصلاة - أي أدائها كاملة مستوفاة - بأن الحسنات يذهبن السيئات . وهو نص عام يشمل كل حسنة ، والصلاة من أعظم الحسنات ، فهي داخلة فيه بالألوية . لأن الصلاة هي الحسنات التي تذهب السيئة بهذا التحديد - كما ذهب بعض المفسرين - :

« ذلك ذكرى للذاكرين » ..

فالصلاة ذكر في أساسها ومن ثم ناسبها هذا التعقيب ..

والاستقامة في حاجة إلى الصبر . كما أن انتظار الأجل لتحقيق سنة الله في المكذبين يحتاج إلى الصبر .. ومن ثم كان التعقيب على الأمر بالاستقامة وعلى ما سبقه في السياق هو :

« واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين » ..

والاستقامة إحسان . وإقامة الصلاة في أوقاتها إحسان . والصبر على كيد التكذيب إحسان ... والله لا يضيع أجر المحسنين ...

* * *

ثم يعود السياق إلى تكملة التعليق والتعقيب على مصارع القرى والقرون . فيشير من طرف خفي إلى أنه لو كان في هذه القرون أولو بقية يستبقون لأنفسهم الخير عند الله ، فينهون عن الفساد في الأرض ، ويصدون الظالمين عن الظلم ، ما أخذ تلك القرى بعذاب الاستئصال الذي حل بهم ، فإن الله لا يأخذ القرى بالظلم إذا كان أهلها مصلحين ، أي إذا كان للمصلحين من أهلها قدرة يصدون بها الظلم والفساد ، إنما كان في هذه القرى قلة من المؤمنين لا نفوذ لهم ولا قوة ، فأنجاهم الله . وكان فيها كثرة من المترفين وأتباعهم والخانعين لهم ، فأهلك القرى بأهلها الظالمين :

« فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض ! إلا قليلاً ممن أجبنا منهم ، واتباع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين . وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » ..

وهذه الإشارة تكشف عن سنة من سنن الله في الأمم . فالأمة التي يقع فيها الفساد بتعبيد الناس لغير الله ، في صورة من صورته ، فيجد من ينهض لدفعه هي أمة ناجية ، لا يأخذها الله بالعذاب والتدمير . فأما الأمم التي يظلم فيها الظالمون ، ويفسد فيها المفسدون ، فلا ينهض من يدفع الظلم والفساد ، أو يكون فيها من يستنكر ، ولكنه لا يبلغ أن يؤثر في الواقع الفاسد ، فإن سنة الله تحق عليها ، إما بهلاك الاستئصال . وإما بهلاك الانحلال .. والاختلال !

فأصحاب الدعوة إلى ربوبية الله وحده ، وتطهير الأرض من الفساد الذي يصيبها بالدينونة لغيره ، هم صمام الأمان للأمم والشعوب .. وهذا يبرز قيمة كفاح المكافحين لإقرار ربوبية الله وحده ، الواقفين للظلم والفساد بكل صورته .. إنهم لا يؤدون واجبه لهم ولدينهم فحسب ، إنما هم يحولون بهذا دون أمهم وغضب الله ، واستحقاق النكال والضياع ..

* * *

والتعقيب الأخير عن اختلاف البشر إلى الهدى وإلى الضلال ، وسنة الله المستقيمة في اتجاهات خلقه إلى هذا أو ذاك :

« ولو شاء ربك لجلع الناس أمة واحدة . ولا يزالون مختلفين . - إلا من رحم ربك - ولذلك خلقهم . وتمت كلمة ربك : لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » ..

لو شاء الله لخلق الناس كلهم على نسق واحد ، وباستعداد واحد .. نسخاً مكرورة لا تفاوت بينها ولا تنوع فيها . وهذه ليست طبيعة هذه الحياة المقدره على هذه الأرض . وليست طبيعة هذا المخلوق البشري الذي استخلفه الله في الأرض .

ولقد شاء الله أن تتنوع استعدادات هذا المخلوق واتجاهاته . وأن يوهب القدرة على حرية الاتجاه . وأن يختار هو طريقه ، ويحمل تبعه الاختيار . ويجازي على اختياره للهدى أو للضلال .. هكذا اقتضت سنة الله وجرت مشيئته . فالذي يختار الهدى كالذي يختار الضلال سواء في أنه تصرف حسب سنة الله في خلقه ، ووفق مشيئته في أن يكون لهذا المخلوق أن يختار ، وأن يلقي جزاء منهجه الذي اختار .

شاء الله ألا يكون الناس أمة واحدة . فكان من مقتضى هذا أن يكونوا مختلفين . وأن يبلغ هذا الاختلاف أن يكون في أصول العقيدة - إلا الذين أدركتهم رحمة الله - الذين اهتموا إلى الحق - والحق لا يتعدد - فاتفقوا عليه . وهذا لا ينفي أنهم مختلفون مع أهل الضلال .

ومن المقابل الذي ذكره النص :

« وتمت كلمة ربك : لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » ..

يفهم أن الذين اتقوا على الحق وأدركتهم رحمة الله لهم مصير آخر هو الجنة تمتلئ بهم كما تمتلئ جهنم بالضالين المختلفين مع أهل الحق ، والمختلفين فيما بينهم على صنوف الباطل ومناهجه الكثيرة !

* * *

والخاتمة الأخيرة . خطاب للرسول - صلى الله عليه وسلم - عن حكمة سوق القصص إليه في خاصة نفسه للمؤمنين . فأما الذين لا يؤمنون فليلق إليهم كلمته الأخيرة ، وليفصلهم مفاصلة حاسمة ، وليخل بينهم وبين ما ينتظرهم في غيب الله . ثم ليعبد الله ويتوكل عليه ، ويدع القوم لما يعملون ..

« وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ، وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين .
وقل للذين لا يؤمنون : اعملوا على مكانتكم إنا عاملون ، وانتظروا إنا منتظرون . والله غيب السماوات والأرض
وإليه يرجع الأمر كله ، فاعبده وتوكل عليه ، وما ربك بغافل عما تعملون » ..

ويا لله للرسول - صلى الله عليه وسلم - لقد كان يجد من قومه ، ومن انحرافات النفوس ، ومن أعباء
الدعوة ، ما يحتاج معه إلى التسلية والتسرية والتثبيت من ربه - وهو الصابر الثابت المطمئن إلى ربه - :
« وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك » ..

« وجاءك في هذه الحق » ..
أي في هذه السورة .. الحق من أمر الدعوة ، ومن قصص الرسل ، ومن سنن الله ، ومن تصديق البشرى
والوعيد .

« وموعظة وذكرى للمؤمنين » ..

تعظهم بما سلف في القرون وتذكرهم بسنن الله وأوامره ونواهيه .
فأما الذين لا يؤمنون بعد ذلك فلا موعظة لهم ولا ذكرى . وإنما الكلمة الفاصلة ، والمفاصلة الحاسمة :
« وقل للذين لا يؤمنون : اعملوا على مكانتكم إنا عاملون وانتظروا إنا منتظرون » ..
كما قال أخ لك ممن سبق قصصهم في هذه السورة لقومه ثم تركهم لمصيرهم يلاقونه .. وما ينتظرونه غيب
من غيب الله :

« والله غيب السماوات والأرض » ..

والأمر كله إليه . أمرك وأمر المؤمنين ، وأمر الذين لا يؤمنون ، وأمر هذا الخلق كله ما كان في غيبه وما سيكون .
« فاعبده » ..

فهو الجدير وحده بالعبادة والدينونة .

« وتوكل عليه » ..

فهو الولي وحده والنصير . وهو العليم بما تعملون من خير وشر ، ولن يضيع جزاء أحد :
« وما ربك بغافل عما تعملون » ..

* * *

وهكذا تختم السورة التي بدئت بالتوحيد في العبادة ، والتوبة والإنابة والرجعة إلى الله في النهاية . بمثل
ما بدئت به من عبادة الله وحده والتوجه إليه وحده . والرجعة إليه في نهاية المطاف . وذلك بعد طول التطواف
في آفاق الكون وأغوار النفس وأطواء القرون ..

وهكذا يلتقي جمال التنسيق الفني في البدء والختام ، والتناسق بين القصص والسياق ، بكمال النظرة والفكرة
والاتجاه في هذا القرآن . ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ..

* * *

وبعد . فإن المتبع لسياق هذه السورة كلها - بل المتبع للقرآن المكي كله - يجد أن هنالك خطأ أصيلاً ثابتاً
عريضاً عميقاً ، هو الذي تركز عليه ؛ وهو المحور الذي تدور حوله ؛ وإليه ترجع سائر خطوطها ، وإليه

تشد جميع خيوطها كذلك .. إنه خط العقيدة الذي يرتكز إليه هذا الدين كله .. وإنه محور العقيدة الذي يدور عليه هذا المنهج الرباني لحياة البشرية جملة وتفصيلاً ..

وسنحتاج - في التعقيب الإجمالي على هذه السورة - أن نقف وقفات إجمالية كذلك على ذلك الخط وعلى هذا المحور - كما يتجلى في سياق السورة - وبعضها مما يكون قد سبق لنا الوقوف عنده شيئاً ما . ولكننا في هذا التعقيب الإجمالي سنحتاج إلى الإلمام به ، ربطاً لأجزاء هذا التعقيب الأخير :

* * *

إن الحقيقة الأولى البارزة في سياق السورة كله .. سواء في مقدمتها التي تعرض مضمون الكتاب الذي أرسل به محمد - صلى الله عليه وسلم - أو في القصص الذي يعرض خط الحركة بالعقيدة الإسلامية على مدى التاريخ البشري . أو في التعقيب الختامي الذي يوجه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى مواجهة المشركين بالنتائج النهائية المستخلصة من هذا القصص ومن مضمون الكتاب الذي جاءهم به في النهاية ..

إن الحقيقة الأولى البارزة في سياق السورة كله .. هي التركيز على الأمر بعبادة الله وحده ، والنهي عن عبادة غيره .. وتقرير أن هذا هو الدين كله .. وإقامة الوعد والوعيد ، والحساب والجزاء ، والثواب والعقاب ، على هذه القاعدة الواحدة الشاملة العريضة .. كما أسلفنا في تقديم السورة وفي مواضع متعددة من تفسيرها ..

فيبقى هنا أن نجلي أولاً طريقة المنهج القرآني في تقرير هذه الحقيقة ، وقيمة هذه الطريقة :

إن حقيقة توحيد العبادة لله ترد في صيغتين هكذا :

« يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ... » ..

« ألا تعبدوا إلا الله ، إني لكم منه نذير وبشير ... » ..

وواضح اختلاف الصيغتين بين الأمر والنهي .. فهل مدلولهما واحد؟ . إن مدلول الصيغة الأولى : الأمر بعبادة الله ، وتقرير أن ليس هناك إله يعبد سواه .. ومدلول الصيغة الثانية : النهي عن عبادة غير الله .. والمدلول الثاني هو مقتضى المدلول الأول ومفهومه .. ولكن الأول « منطوق » والآخر « مفهوم » .. ولقد اقتضت حكمة الله - في بيان هذه الحقيقة الكبيرة - عدم الاكتفاء بالمفهوم ، في النهي عن عبادة غير الله . وتقرير هذا النهي عن طريق منطوق مستقل . وإن كان مفهوماً ومتضمناً في الأمر الأول !

إن هذا يعطينا إيحاء عميقاً بقيمة تلك الحقيقة الكبيرة ، ووزنها في ميزان الله سبحانه ، بحيث تستحق ألا توكل إلى المفهوم المتضمن في الأمر بعبادة الله وتقرير أن لا إله يعبد سواه ؛ وأن يرد النهي عن عبادة سواه في منطوق مستقل يتضمن النهي بالنص المباشر لا بالمفهوم المتضمن ! ولا بالمقتضى اللازم !

كذلك تعطينا طريقة المنهج القرآني في تقرير تلك الحقيقة بشطريها .. عبادة الله . وعدم عبادة سواه .. أن النفس البشرية في حاجة إلى النص القاطع على شطري هذه الحقيقة سواء . وعدم الاكتفاء معها بالأمر بعبادة الله وتقرير أن لا إله يعبد سواه ؛ وإضافة النهي الصريح عن عبادة سواه إلى المفهوم الضمني الذي يتضمنه الأمر بعبادته وحده .. ذلك أن الناس يجيء عليهم زمان لا يتحدثون الله ، ولا يتركون عبادته ، ولكنهم - مع هذا - يعبدون معه غيره ؛ فيقعون في الشرك وهم يحسبون أنهم مسلمون !

ومن ثم جاء التعبير القرآني عن حقيقة التوحيد بالأمر والنهي معاً ؛ بحيث يؤكد أحدهما الآخر ، التوكيد الذي لا تبقى معه ثغرة ينفذ منها الشرك في صورة من صورته الكثيرة ..

وقد تكرر مثل هذا في التعبير القرآني في مواضع شتى ؛ هذه نماذج منها من هذه السورة ومن سواها :

* « ألر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير : ألا تعبدوا إلا الله ، إني لكم منه نذير وبشير » ..
(هود : ١ - ٢)

* « ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه : إني لكم نذير مبين : ألا تعبدوا إلا الله ، إني أخاف عليكم عذاب يوم
اليم » ...
(هود : ٢٥ - ٢٦)

* « وإلى عاد أخاهم هوداً ، قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، إن أنتم إلا مفترون » ..
(هود : ٥٠)

* « وقال الله : لا تتخذوا إلهين اثنين . إنما هو إله واحد . فيأي فارهبون » ...
(النحل : ٥١)

* « ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً . ولكن كان حنيفاً مسلماً . وما كان من المشركين » ..
(آل عمران : ٦٧)

* « إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً . وما أنا من المشركين » ...
(الأنعام : ٧٩)

وهو منهج مطرد في التعبير القرآني عن حقيقة التوحيد ، له دلالة من غير شك . سواء في تجلية قيمة هذه الحقيقة وضخامتها التي تستدعي ألا توكل في أي جانب من جوانبها إلى المفهومات الضمنية والمقتضيات اللازمة ، وإنما ينص نصاً منطوقاً على كل جانب فيها . أو في دلالة هذه الطريقة على علم الله - سبحانه - بطبيعة الكائن الإنساني ، وحاجته في تقرير هذه الحقيقة الكبيرة ، وصيانتها في حسه وتصوره من أية شبهة أو غبش ، إلى التعبير الدقيق عنها على ذلك النحو ، الذي يتجلى فيه القصد والعمد . والله الحكمة البالغة . وهو أعلم بمن خلق ، وهو اللطيف الخبير .

* * *

ثم نقف أمام مدلول مصطلح « العبادة » الوارد في السورة - وفي القرآن كله - لنذكر ما وراء ذلك التركيز على الأمر بعبادة الله وحده ، والنهي عن عبادة غيره . وما وراء هذه العناية في التعبير عن شطري هذه الحقيقة في نص منطوق ، وعدم الاكتفاء بالدلالة الضمنية المفهومة .

لقد جلينا من قبل في أثناء التعقيب على قصة هود وقومه - في هذه السورة - ما هو مدلول مصطلح « العبادة » الذي استحق كل هذا التركيز وكل هذه العناية ؛ كما استحق كل ذلك الجهد من رهط الرسل الكرام ، وكل تلك العذابات والآلام التي عاناها الدعاة إلى عبادة الله وحده على ممر الأيام ' .. فالآن نضيف إلى ذلك التعقيب بعض اللمحات :

إن إطلاق مصطلح « العبادات » على الشعائر وعلى ما يكون بين العبد والرب من تعامل ، في مقابل إطلاق

مصطلح : « المعاملات » على ما يكون بين الناس بعضهم وبعض من تعامل .. إن هذا جاء متأخراً عن عصر نزول القرآن الكريم ؛ ولم يكن هذا التقسيم معروفاً في العهد الأول .
ولقد كتبنا من قبل في كتاب « خصائص التصور الإسلامي ومقوماته » شيئاً عن تاريخ هذه المسألة نفتطف منه هذه الفقرات :

« إن تقسيم النشاط الإنساني إلى « عبادات » و« معاملات » مسألة جاءت متأخرة عن التأليف في مادة « الفقه » . ومع أنه كان المقصود به - في أول الأمر - مجرد التقسيم « الفني » الذي هو طابع التأليف العلمي ، إلا أنه - مع الأسف - أنشأ فيها بعد آثاراً سيئة في التصور ، تبعها - بعد فترة - آثار سيئة في الحياة الإسلامية كلها ؛ إذ جعل يترسب في تصورات الناس أن صفة « العبادة » إنما هي خاصة بالنوع الأول من النشاط ، الذي يتناوله « فقه العبادات » . بينما أخذت هذه الصفة تهبت بالقياس إلى النوع الثاني من النشاط ، الذي يتناوله « فقه المعاملات » ! وهو انحراف بالتصور الإسلامي لا شك فيه . فلا جرم يتبعه انحراف في الحياة كلها في المجتمع الإسلامي .

« ليس في التصور الإسلامي نشاط إنساني لا ينطبق عليه معنى « العبادة » أو لا يطلب فيه تحقيق هذا الوصف . والمنهج الإسلامي كله غايته تحقيق معنى العبادة ، أولاً وأخيراً .
« وليس هناك من هدف في المنهج الإسلامي لنظام الحكم ، ونظام الاقتصاد ، والتشريعات الجنائية ، والتشريعات المدنية ، وتشريعات الأسرة . وسائر التشريعات التي يتضمنها هذا المنهج ..
« ليس هناك من هدف إلا تحقيق معنى « العبادة » في حياة الإنسان .. والنشاط الإنساني لا يكون متصفاً بهذا الوصف ، محققاً لهذه الغاية - التي يحدد القرآن أنها هي غاية الوجود الإنساني - إلا حين يتم هذا النشاط وفق المنهج الرباني ؛ فيتم بذلك أفراد الله - سبحانه - بالألوهية ؛ والاعتراف له وحده بالعبودية .. وإلا فهو خروج عن العبادة لأنه خروج عن العبودية . أي خروج عن غاية الوجود الإنساني كما أراده الله . أي خروج عن دين الله !

« وأنواع النشاط التي أطلق عليها الفقهاء اسم « العبادات » وخصوها بهذه الصفة - على غير مفهوم التصور الإسلامي - حين تراجع في مواضعها في القرآن ، تبين حقيقة بارزة لا يمكن إغفالها . وهي أنها لم تجيء مفردة ولا معزولة عن أنواع النشاط الأخرى التي أطلق عليها الفقهاء اسم « المعاملات » .. إنما جاءت هذه وتلك مرتبطة في السياق القرآني ، ومرتبطة في المنهج التوجيهي . باعتبار هذه كذلك شرطاً من منهج « العبادة » التي هي غاية الوجود الإنساني ، وتحقيقاً لمعنى العبودية ، ومعنى أفراد الله - سبحانه - بالألوهية .

« إن ذلك التقسيم - مع مرور الزمن - جعل بعض الناس يفهمون أنهم يملكون أن يكونوا « مسلمين » إذا هم أدوا نشاط « العبادات » - وفق أحكام الإسلام - بينما هم يزاولون كل نشاط « المعاملات » وفق منهج آخر .. لا يتلقونه من الله ولكن من إله آخر .. ! هو الذي يشرع لهم في شؤون الحياة ما لم يأذن به الله !
« وهذا وهم كبير . فالإسلام وحدة لا تنقسم . وكل من يفصمه إلى شطرين - على هذا النحو - فإنما يخرج من هذه الوحدة ، أو بتعبير آخر : يخرج من هذا الدين .

« وهذه هي الحقيقة الكبيرة التي يجب أن يلقي باله إليها كل مسلم يريد أن يحقق إسلامه ؛ ويريد في الوقت ذاته أن يحقق غاية وجوده الإنساني »^١ .

(١) ص ١٢٩ - ص ١٣٠ من كتاب : « خصائص التصور الإسلامي ومقوماته » نشر « دار الشروق »

فالآن نضيف إلى هذه الفقرات ما قلناه من قبل في هذا الجزء من أن العربي الذي خطب بهذا القرآن أول مرة لم يكن يحصر مدلول هذا اللفظ وهو يؤمر به في مجرد أداء الشعائر التعبدية .. بل إنه يوم خطب به أول مرة في مكة لم تكن قد فرضت بعد شعائر تعبدية ! إنما كان يفهم منه عندما يخاطب به أن المطلوب منه هو « الدينونة » لله وحده في أمره كله ، وخلع الدينونة لغير الله من عنقه في أمره كله . ولقد فسر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « العبادة » نصاً بأنها « الاتباع » وليست هي الشعائر التعبدية ، وهو يقول لعدي ابن حاتم عن اليهود والنصارى ، واتخاذهم الأخبار والرهبان أرباباً : « بلى . إنهم أحلوا لهم الحرام ، وحرموا عليهم الحلال ، فاتبعوهم ، فذلك عبادتهم إياهم » .. إنما أطلقت لفظة « العبادة » على « الشعائر التعبدية » باعتبارها صورة من صور الدينونة لله في شأن من الشؤنون . صورة لا تستغرق مدلول العبادة ، بل إنها تجيء بالتبعية لا بالإصالة ! ..

* * *

ولقد قلنا من قبل في هذا الجزء : « إن الواقع أنه لو كانت حقيقة العبادة هي مجرد الشعائر التعبدية ما استحقت كل هذا الموكب الكريم من الرسل والرسالات ؛ وما استحقت كل هذه الجهود المضنية التي بذلها الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - وما استحقت كل هذه العذابات والآلام التي تعرض لها الدعاة والمؤمنون على مدار الزمان ! إنما الذي استحق كل هذا الثمن الباهظ هو إخراج البشر جملة من الدينونة للعباد ، وردهم إلى الدينونة لله وحده في كل أمر وفي كل شأن ، وفي منهج حياتهم كله للدنيا وللآخرة سواء .

« إن توحيد الألوهية ، وتوحيد الربوبية ، وتوحيد القوامة ، وتوحيد الحاكمية ، وتوحيد مصدر الشريعة ، وتوحيد منهج الحياة ، وتوحيد الجهة التي يدين لها الناس الدينونة الشاملة .. إن هذا التوحيد هو الذي يستحق أن يرسل من أجله كل هؤلاء الرسل ، وأن تبذل في سبيله كل هذه الجهود ، وأن تحتمل لتحقيقه كل هذه العذابات والآلام على مدار الزمان .. لا لأن الله سبحانه في حاجة إليه . فالله سبحانه غني عن العالمين . ولكن لأن حياة البشر لا تصلح ولا تستقيم ولا ترتفع ولا تصبح لائقة بالإنسان ، إلا بهذا التوحيد الذي لا حد لتأثيره في الحياة البشرية في كل جوانبها على السواء » ..

وقد وعدنا هناك أن نزيد هذا الأمر بياناً في هذا التعقيب الختامي الأخير .

فالآن نبين إجمالاً قيمة حقيقة التوحيد في الحياة البشرية في كل جوانبها على السواء :

* « نظر ابتداء إلى أثر حقيقة التوحيد - على هذا النحو الشامل - في كيان الكائن الإنساني نفسه من ناحية وجوده الذاتي ، وحاجته الفطرية ، وتركيبه الإنساني .. أثرها في تصوره .. وأثر هذا التصور في كيانه :

« إن هذا التصور إذ يتناول الأمور على هذا النحو الشامل - بكل معاني الشمول - يخاطب الكينونة البشرية بكل جوانبها ، وبكل أشواقها ، وبكل حاجاتها ، وبكل اتجاهاتها ، ويردها إلى جهة واحدة تتعامل معها ، جهة تطلب عندها كل شيء ، وتتوجه إليها بكل شيء . جهة واحدة ترجوها وتحشاها ، وتتقي غضبها وتبتغي رضاها جهة واحدة تملك لها كل شيء ، لأنها خالقة كل شيء ، ومالكة كل شيء ، ومدبرة كل شيء .

« كذلك يرد الكينونة الإنسانية إلى مصدر واحد ، تتلقى منه تصوراتها ومفاهيمها ، وقيمها وموازينها ، وشرائعها وقوانينها . وتجده عنده إجابة عن كل سؤال يجيش فيها وهي تواجه الكون والحياة والإنسان ، بكل ما يثيره كل منها من علامات الاستفهام .

« عندئذ تتجمع هذه الكينونة .. تتجمع شعوراً وسلوكاً ، وتصوراً واستجابة . في شأن العقيدة والمنهج .

وشأن الاستمداد والتلقي . وشأن الحياة والموت . وشأن السعي والحركة . وشأن الصحة والرزق . وشأن الدنيا والآخرة . فلا تفرق مزقاً ؛ ولا تتجه إلى شتى السبل والآفاق ؛ ولا تسلك شتى الطرق على غير اتفاق ! « والكيونة الإنسانية حين تتجمع على هذا النحو ، تصبح في خير حالاتها . لأنها تكون حينئذ في حالة « الوحدة » التي هي طابع الحقيقة في كل مجالاتها . فالوحدة هي حقيقة الخالق - سبحانه - والوحدة هي حقيقة هذا الكون - على تنوع المظاهر والأشكال والأحوال - والوحدة هي حقيقة الحياة والأحياء - على تنوع الأنواع والأجناس - والوحدة هي حقيقة الإنسان - على تنوع الأفراد والاستعدادات - والوحدة هي غاية الوجود الإنساني - وهي العبادة - على تنوع مجالات العبادة وهيئاتها - وهكذا حيثما بحث الإنسان عن الحقيقة في هذا الوجود ..

« وحين تكون الكيونة الإنسانية في الوضع الذي يطابق « الحقيقة » في كل مجالاتها ، تكون في أوج قوتها الذاتية ؛ وفي أوج تناسقها - كذلك - مع « حقيقة » هذا الكون الذي تعيش فيه ، وتعامل معه ؛ ومع « حقيقة » كل شيء في هذا الوجود ، مما تتأثر به وتؤثر فيه .. وهذا التناسق هو الذي يتيح لها أن تنشئ أعظم الآثار ، وأن تؤدي أعظم الأدوار .

« وحينما بلغت هذه الحقيقة أوجها في المجموعة المختارة من المسلمين الأوائل ، صنع الله بها في الأرض أدواراً عميقة الآثار في كيان الوجود الإنساني ، وفي كيان التاريخ الإنساني ..

« وحين توجد هذه الحقيقة مرة أخرى - وهي لا بد كائنة بإذن الله - سيصنع الله بها الكثير ، مهما يكن في طريقها من العراقيل . ذلك أن وجود هذه الحقيقة في ذاته ينشئ قوة لا تقاوم ؛ لأنها من صميم قوة هذا الكون ؛ وفي اتجاه قوة المبدع لهذا الكون أيضاً .

« ... إن هذه الحقيقة ليست أهميتها فقط في تصحيح التصور الإيماني . وإن كان هذا التصحيح في ذاته غاية ضخمة يقوم عليها بناء الحياة كله - بل إن أهميتها كذلك في حسن تذوق الحياة ، وبلوغ هذا التذوق أعلى درجات الكمال والتناسق . فقيمة الحياة الإنسانية ذاتها ترتفع حين تصبح كلها عبادة لله ؛ وحين يصبح كل نشاط فيها - صغر أم كبير - جزءاً من هذه العبادة ؛ أو كل العبادة ؛ متى نظرنا إلى المعنى الكبير الكامن فيه . وهو أفراد الله - سبحانه - بالألوهية والإقرار له وحده بالعبودية .. هذا المقام الذي لا يرتفع الإنسان إلى ما هو أعلى منه ؛ ولا يبلغ كماله الإنساني إلا في تحقيقه . وهو المقام الذي بلغه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في أعلى مقاماته التي ارتقى إليها . مقام تلقي الوحي من الله . ومقام الإبراء أيضاً :

« تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً » ... (الفرقان : ١) .

« سبحانه الذي أسرى عبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله . لثريه من آياتنا ، إنه هو السميع البصير » ... (الإبراء : ١)^١ .

« وننتقل إلى قيمة أخرى من قيم توحيد العبادة بمعنى الدينونة لله وحده وآثارها في الحياة الإنسانية : إن الدينونة لله تحرر البشر من الدينونة لغيره ؛ وتخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده . وبذلك تحقق للإنسان كرامته الحقيقية وحرية الحقيقية ، هذه الحرية وتلك اللتان يستحيل ضمانيهما في ظل أي نظام آخر - غير النظام الإسلامي - يدين فيه الناس بعضهم لبعض بالعبودية . في صورة من صورها الكثيرة ...

(١) عن كتاب : « خصائص التصور الإسلامي ومقوماته » . فصل : « الشمول » ص ١٢٦ - ص ١٣١ منطقتات . نشر « دار الشروق » .

سواء عبودية الاعتقاد ، أو عبودية الشعائر ، أو عبودية الشرائع .. فكلها عبودية ؛ وبعضها مثل بعض ؛ تخضع الرقاب لغير الله ؛ بإخضاعها للتلقي في أي شأن من شؤون الحياة لغير الله .
والناس لا يملكون أن يعيشوا غير مدينين ! لا بد للناس من دينونة . والذين لا يدينون لله وحده يقعون من فورهم في شر ألوان العبودية لغير الله ؛ في كل جانب من جوانب الحياة !
إنهم يقعون فرائس لأهوائهم وشهواتهم بلا حد ولا ضابط . ومن ثم يفقدون خاصتهم الآدمية ويندرجون في عالم البهيمة :

« والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام ، والنار مثوى لهم » . . . (محمد : ١٢)
ولا يخسر الإنسان شيئاً كأن يخسر آدميته ، ويندرج في عالم البهيمة ، وهذا هو الذي يقع حتماً بمجرد التملص من الدينونة لله وحده ، والوقوع في الدينونة للهوى والشهوة .

ثم هم يقعون فرائس لألوان من العبودية للعبيد .. يقعون في شر ألوان العبودية للحكام والرؤساء الذين يصرفونهم وفق شرائع من عند أنفسهم ، لا ضابط لها ولا هدف إلا حماية مصالح المشرعين أنفسهم - سواء تمثل هؤلاء المشرعون في فرد حاكم ، أو في طبقة حاكمة ، أو في جنس حاكم - فالنظرة على المستوى الإنساني الشامل تكشف عن هذه الظاهرة في كل حكم بشري لا يستمد من الله وحده ، ولا يتقيد بشريعة الله لا يتعداها ..

ولكن العبودية للعبيد لا تقف عند حدود العبودية للحكام والرؤساء والمشرعين .. فهذه هي الصورة الصارخة ، ولكنها ليست هي كل شيء ! .. إن العبودية للعباد تتمثل في صور أخرى خفية ؛ ولكنها قد تكون أقوى وأعمق وأقسى من هذه الصورة ! ونضرب مثلاً لهذا تلك العبودية لصانعي المودات والأزياء مثلاً ! أي سلطان هؤلاء على قطيع كبير جداً من البشر ؟ .. كل الذين يسمونهم متحضرين .. ! إن الزبي المفروض من آفة الأزياء - سواء في الملابس أو العربات أو المباني أو المناظر أو الحفلات .. الخ .. ليمثل عبودية صارمة لا سبيل لجاهلي ولا لجاهلية أن يفلت منها ؛ أو يفكر في الخروج عنها ! ولو دان الناس - في هذه الجاهلية « الحضارية ! » لله بعض ما يدينون لصانعي الأزياء لكانوا عباداً متبتلين ! .. فإذا تكون العبودية إن لم تكن هي هذه ؟ وماذا تكون الحاكمة والربوبية إن لم تكن هي حاكمة وربوبية صانعي الأزياء أيضاً ؟ !

وإن الإنسان ليبصر أحياناً بالمرأة المسكينة ، وهي تلبس ما يكشف عن سواها ، وهو في الوقت ذاته لا يناسب شكلها ولا تكوينها ، وتضع من الأصباغ ما يتركها شائهة أو مثاراً للسخرية ! ولكن الألوهية القاهرة لأرباب الأزياء والمودات تقهرها وتذلها لهذه المهانة التي لا تملك لها رداً ، ولا تقوى على رفض الدينونة لها ، لأن المجتمع كله من حولها يدين لها . فكيف تكون الدينونة إن لم تكن هي هذه ؟ وكيف تكون الحاكمة والربوبية إن لم تكن هي تلك ؟ !

وليس هذا إلا مثلاً واحداً للعبودية المذلة حين لا يدين الناس لله وحده ؛ وحين يدينون لغيره من العبید .. وليست حاكمة الرؤساء والحكام وحدها هي الصورة الكريمة المذلة لحاكمة البشر للبشر ، ولعبودية البشر للبشر !

وهذا يقودنا إلى قيمة توحيد العبادة والدينونة في صيانة أرواح الناس وأعراضهم وأموالهم ، التي تصبح كلها ولا عاصم لها عندما يدين العباد للعباد ، في صورة من صور الدينونة .. سواء في صورة حاكمة التشريع ، أو في صورة حاكمة الأعراف والتقاليد ، أو في صورة حاكمة الاعتقاد والتصور ..

إن الدينونة لغير الله في الاعتقاد والتصور معناها الوقوع في برائن الأوهام والأساطير والخرافات التي لا تنتهي ؛ والتي تمثل الجاهليات الوثنية المختلفة صوراً منها ؛ وتمثل أوهام العوام المختلفة صوراً منها ؛ وتقدم فيها الندور والأصاحي من الأموال - وأحياناً من الأولاد ! - تحت وطأة العقيدة الفاسدة والتصور المنحرف ؛ ويعيش الناس معها في رعب من الأرباب الوهمية المختلفة ، ومن السدنة والكهنة المتصلين بهذه الأرباب ! ومن السحرة المتصلين بالجن والعمارة ! ومن المشايخ والقديسين أصحاب الأسرار ! ومن .. ومن .. من الأوهام التي ما يزال الناس منها في رعب وفي خوف وفي تقرب وفي رجاء ، حتى تتقطع أعناقهم وتتوزع جهودهم ، وتتبدد طاقتهم في مثل هذا الهراء !

وقد مثلنا لتكاليف الدينونة لغير الله في الأعراف والتقاليد بأرباب الأزياء والمودات ! فينبغي أن نعلم كم من الأموال والجهود تضيع - إلى جانب الأعراض والأخلاق - في سبيل هذه الأرباب !

إن البيت ذا الدخل المتوسط ينفق على الدهون والعمور والأصبغ ؛ وعلى تصفيف الشعر وكيه ؛ وعلى الأقمشة التي تصنع منها الأزياء المتقلبة عاماً بعد عام ، وما يتبعها من الأحذية المناسبة والحلى المتناسقة مع الزبي والشعر والحذاء ! ... إلى آخر ما تقضي به تلك الأرباب النكدة .. إن البيت ذا الدخل المتوسط ينفق نصف دخله ونصف جهده للملاحقة أهواء تلك الأرباب المتقلبة التي لا تثبت على حال . ومن ورائها اليهود أصحاب رؤوس الأموال الموظفة في الصناعات الخاصة بدنيا تلك الأرباب ! ولا يملك الرجل ولا المرأة وهما في هذا الكد الناصب أن يتوقفا لحظة عن تلبية ما تقتضيه تلك الدينونة النكدة من تضحيات في الجهد والمال والعرض والخلق على السواء !

وأخيراً تحيء تكاليف العبودية لحاكمية التشريع البشرية .. وما من أضحية يقدمها عابد الله الله ، إلا ويقدم الذين يدينون لغير الله أضعافها للأرباب الحاكمة ! من الأموال والأنفس والأعراض .. وتقام أصنام من « الوطن » ومن « القوم » ومن « الجنس » ومن « الطبقة » ومن « الإنتاج » .. ومن غيرها من شتى الأصنام والأرباب ..

وتدق عليها الطبول ؛ وتنصب لها الرايات ؛ ويدعى عباد الأصنام إلى بذل النفوس والأموال لها بغير تردد .. وإلا فالتردد هو الخيانة ، وهو العار .. وحتى حين يتعارض العرض . مع متطلبات هذه الأصنام ، فإن العرض هو الذي يضحي ؛ ويكون هذا هو الشرف الذي يراق على جوانبه الدم ! كما تقول الأبوأق المنصوبة حول الأصنام ، ومن ورائها أولئك الأرباب من الحكام !

إن كل التضحيات التي يقتضيها الجهاد في سبيل الله ؛ ليعبد الله وحده في الأرض ؛ وليتحرر البشر من عبادة الطواغيت والأصنام ، ولترفع الحياة الإنسانية إلى الأفق الكريم الذي أراده الله للإنسان .. إن كل هذه التضحيات التي يقتضيها الجهاد في سبيل الله لينذل مثلها وأكثر من يدينون لغير الله ! والذين يخشون العذاب والألم والاستشهاد وخسارة الأنفس والأولاد والأموال إذا هم جاهدوا في سبيل الله ، عليهم أن يتأملوا ماذا تكلفهم الدينونة لغير الله في الأنفس والأموال والأولاد ، وفوقها الأخلاق والأعراض .. إن تكاليف الجهاد في سبيل الله في وجه طواغيت الأرض كلها لن تكلفهم ما تكلفهم الدينونة لغير الله ؛ وفوق ذلك كله الذل والندس والعار !

* وأخيراً فإن توحيد العبادة والدينونة لله وحده ، ورفض العبادة والدينونة لغيره من خلقه ؛ ذو قيمة

كبيرة في صيانة الجهد البشري من أن ينفق في تأليه الأرباب الزائفة . كي يوجه بجملته إلى عمارة الأرض ، وترقيتها ، وترقية الحياة فيها .

وهناك ظاهرة واضحة متكررة أشرنا إليها فيما سبق في هذا الجزء .. وهي أنه كلما قام عبد من عبيد الله ، ليقم من نفسه طاغوتاً يعبد الناس لشخصه من دون الله .. احتاج هذا الطاغوت كي يعبد (أي يطاع ويتبع) إلى أن يسخر كل القوى والطاقات ؛ أولاً لحماية شخصه . وثانياً لتأليه ذاته . واحتاج إلى حواشٍ وذيول وأجهزة وأبواق تسبح بحمده ، وترتل ذكره ، وتنفض في صورته « العبدية » الهزيلة لتتضخم وتشغل مكان « الألوهية » العظيمة ! وألا تكف لحظة واحدة عن النفخ في تلك الصورة العبدية الهزيلة ! وإطلاق الترانيم والتراتيل حولها . وحشد الجموع - بشتى الوسائل - للتسبيح باسمها ، وإقامة طقوس العبادة لها ... !

وهو جهد ناصب لا يفرغ أبداً . لأن الصورة العبدية الهزيلة ما تني تنكش وتهزل وتتضاءل كلما سكن من حولها النفخ والطبل والزمر والبخور والتسابيح والتراتيل . وما تني تحتاج كرة أخرى إلى ذلك الجهد الناصب من جديد !

وفي هذا الجهد الناصب تصرف طاقات وأموال - وأرواح أحياناً وأعراض ! - لوأنفق بعضها في عمارة الأرض ، والإنتاج المثمر ، لترقية الحياة البشرية وإغنائها ، لعاد على البشرية بالخير الوفير .. ولكن هذه الطاقات والأموال - والأرواح أحياناً والأعراض - لا تنفق في هذا السبيل الخير المثمر ما دام الناس لا يدينون لله وحده ؛ وإنما يدينون للطواغيت من دونه .

ومن هذه اللمحة يتكشف مدى خسارة البشرية في الطاقات والأموال والعمارة والإنتاج من جراء تنكبها عن الدينونة لله وحده ؛ وعبادة غيره من دونه .. وذلك فوق خسارتها في الأرواح والأعراض ، والقيم والأخلاق . وفوق الذل والقهر والدنس والعار !

وليس هذا في نظام أرضي دون نظام ، وإن اختلفت الأوضاع واختلفت ألوان التضحيات .

« ولقد حدث أن الذين فسقوا عن الدينونة لله وحده ، فأتاحوا لفر منهم أن يحكموهم بغير شريعته ، قد وقعوا في النهاية في شقوة العبودية لغيره . العبودية التي تأكل إنسانيتهم وكرامتهم وحریتهم ، مهما اختلفت أشكال الأنظمة التي تحكمهم ، والتي ظنوا في بعضها أنها تكفل لهم الإنسانية والحرية والكرامة .

« لقد هربت أوروبا من الله - في أثناء هروبها من الكنيسة الطاغية الباغية باسم الدين الزائف^١ - وثارَت على الله - سبحانه - في أثناء ثورتها على تلك الكنيسة التي أهدرت كل القيم الإنسانية في عنفوان سطوتها العاشمة ! ثم ظن الناس أنهم يجدون إنسانيتهم وحریتهم وكرامتهم - ومصالحهم كذلك - في ظل الأنظمة الفردية (الديمقراطية) وعلقوا كل آمالهم على الحريات والضمانات التي تكفلها لهم الدساتير الوضعية ، والأوضاع النيابية البرلمانية ، والحريات الصحفية ، والضمانات القضائية والتشريعية ، وحكم الأغلبية المنتخبة ... إلى آخر هذه الهالات التي أحيطت بها تلك الأنظمة .. ثم ماذا كانت العاقبة ؟ كانت العاقبة هي طغيان « الرأسمالية » ذلك الطغيان الذي أحال كل تلك الضمانات ، وكل تلك التشكيلات ، إلى مجرد لافتات ، أو إلى مجرد خيالات ! ووقعت الأكثرية الساحقة في عبودية ذليلة للأقلية الطاغية التي تملك رأس المال ،

(١) راجع فصل : « الفصام النكد » في كتاب : « المستقبل لهذا الدين » . نشر « دار الشروق » .

فتملك معه الأغلبية البرلمانية ! والدساتير الوضعية ! والحريات الصحفية ! وسائر الضمانات التي ظننها الناس هناك كفيلاً بضمان إنسانيتهم وكرامتهم وحريتهم ، في معزل عن الله سبحانه !! !

« ثم هرب فريق من الناس هناك من الأنظمة الفردية التي يطغى فيها « رأس المال » و« الطبقة » إلى الأنظمة الجماعية ! فإذا فعلوا ؟ لقد استبدلوا بالدينونة لطبقة « الرأسماليين » الدينونة لطبقة « الصعاليك » ! أو استبدلوا بالدينونة لأصحاب رؤوس الأموال والشركات الدينونة للدولة التي تملك المال إلى جانب السلطان ! فتصبح أخطر من طبقة الرأسماليين !

« وفي كل حالة ، وفي كل وضع ، وفي كل نظام ، دان البشر فيه للبشر ، دفعوا من أموالهم ومن أرواحهم الضريبة الفادحة . دفعوها للأرباب المتنوعة في كل حال .

« إنه لا بد من عبودية ! فإن لا تكن لله وحده تكن لغير الله .. والعبودية لله وحده تطلق الناس أحراراً كراماً شرفاء أعلیاء .. والعبودية لغير الله تأكل إنسانية الناس وكرامتهم وحریاتهم وفضائلهم . ثم تأكل أموالهم ومصالحهم المادية في النهاية .

« من أجل ذلك كله تنال قضية الألوهية والعبودية كل تلك العناية في رسالات الله - سبحانه - وفي كتبه .. وهذه السورة نموذج من تلك العناية .. فهي قضية لا تتعلق بعبدة الأصنام والأوثان في الجاهليات الساذجة البعيدة . ولكنها تتعلق بالإنسان كله ، في كل زمان وفي كل مكان ؛ وتعلق بالجاهليات كلها .. جاهليات ما قبل التاريخ ، وجاهليات التاريخ . وجاهلية القرن العشرين . وكل جاهلية تقوم على أساس من عبادة العباد للعباد »^١ .

والخلاصة التي ينتهي إليها القول في هذه القضية : أنه يتجلى بوضوح من التقارير القرآنية بمجملتها - وهذه السورة نموذج منها - أن قضية الدينونة والاتباع والحاكمية - التي يعبر عنها في هذه السورة بالعبادة - هي قضية عقيدة وإيمان وإسلام ؛ وليست قضية فقه أو سياسة أو نظام !

إنها قضية عقيدة تقوم أو لا تقوم . وقضية إيمان يوجد أو لا يوجد . وقضية إسلام يتحقق أو لا يتحقق .. ثم هي بعد - بعد ذلك لاقبله - قضية منهج للحياة الواقعية يتمثل في شريعة ونظام وأحكام ؛ وفي أوضاع وتجمعات تتحقق فيها الشريعة والنظام . وتنفذ فيها الأحكام .

وكذلك فإن قضية « العبادة » ليست قضية شعائر ؛ وإنما هي قضية دينونة واتباع ونظام وشريعة وفقه وأحكام وأوضاع في واقع الحياة .. وأنها من أجل أنها كذلك استحققت كل هذه العناية في المنهج الرباني المتمثل في هذا الدين .. واستحققت كل هذه الرسل والرسالات . واستحققت كل هذه العذابات والآلام والتضحيات .

* * *

والآن نجيء إلى تتابع هذا القصص في السورة ؛ ودلالته على الخط الحركي للعقيدة الإسلامية في تاريخ البشرية :

لقد بينا من قبل في التعقيب على قصة نوح^٢ أن الإسلام كان هو أول عقيدة عرفت البشرية على يدي آدم

(١) مقتطفات من الجزء الحادي عشر ص ١٧٥٤ - ١٧٥٥ في التعليق على سورة يونس . وهي بذاتها تصلح هنا للتعقيب على سورة هود !

(٢) ص ١٨٨٢ - ١٨٨٦ من هذا الجزء .

عليه السلام أبي البشر الأول ، ثم على يدي نوح - عليه السلام - أبي البشر الثاني .. ثم بعد ذلك على يدي كل رسول .. وأن الإسلام يعني توحيد الألوهية من ناحية الاعتقاد والتصور والتوجه بالعبادة والشعائر ، وتوحيد الربوبية من ناحية الدينونة والاتباع والطاعة والخضوع : أي توحيد القوامة والحاكمية والتوجيه والتشريع .

ثم بينا كذلك أن الجاهلية - سواء كانت جاهلية الاعتقاد والتصور والعبادة والشعائر ! أو جاهلية الدينونة والاتباع والطاعة والخضوع - أو هما معاً - كانت تطرؤ على البشرية بعد معرفة الإسلام على أيدي الرسل - عليهم صلوات الله وسلامه - وكانت تفسد عقائدهم وتصوراتهم ، كما تفسد حياتهم وأوضاعهم ؛ بالدينونة لغير الله - سبحانه - سواء كانت هذه الدينونة لطوطم أو حجر أو شجر أو نجم أو كوكب ، أو روح أو أرواح شتى ؛ أو كانت هذه الدينونة لبشر من البشر : كاهن أم ساحر أم حاكم .. فكلها سواء في دلالتها على الانحراف عن التوحيد إلى الشرك ، والخروج من الإسلام إلى الجاهلية .

ومن هذا التابع التاريخي - الذي يقصه الله سبحانه في كتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه - يتبين خطأ المنهج الذي يتبعه علماء الدين المقارن ؛ وخطأ النتائج التي يصلون إليها عن طريقه ..

خطأ المنهج لأنه يتبع خط الجاهليات التي عرفتها البشرية ، ويهمل خط التوحيد الذي جاء به الرسل صلوات الله وسلامه عليهم - وهم حتى في تتبعهم لخط الجاهليات لا يرجعون إلا لما حفظته آثار العهود الجاهلية التي يحوم عليها التاريخ - ذلك المولود الحدث الذي لا يعرف من تاريخ البشرية إلا القليل ؛ ولا يعرف هذا القليل إلا عن سبيل الظن والترجيح ! - وحتى حين يصلون إلى أثر من آثار التوحيد الذي جاءت به الرسالات رأساً في إحدى الجاهليات التاريخية في صورة توحيد مشوه كتوحيد أختانوتون مثلاً في الديانة المصرية القديمة ؛ فإنهم يتعمدون إغفال أثر رسالة التوحيد - ولو على سبيل الاحتمال - وقد جاء أختانوتون في مصر بعد عهد يوسف - عليه السلام - وتبشيره بالتوحيد كما جاء في القرآن الكريم - حكاية عن قوله لصاحبي السجن في سورة يوسف - :

« إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله ، وهم بالآخرة هم كافرون . واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون . يا صاحبي السجن أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟ ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتوها أنتم وآبائكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله ، أمر ألا تعبدوا إلا إياه ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » ... (يوسف : ٣٧ - ٤٠)

وهم إنما يفعلون ذلك ، لأن المنهج كله إنما قام ابتداء على أساس العداء والرفض للمنهج الديني ، بسبب ما ثار بين الكنيسة الأوروبية والبحث العلمي في كل صورته في فترة من فترات التاريخ . فبدأ المنهج وفي عزم أصحابه أن يصلوا إلى ما يكذب مزاعم الكنيسة من أساسها ، للوصول إلى تحطيم الكنيسة ذاتها . ومن أجل هذا جاء منهجاً منحرفاً منذ البدء ، لأنه يعتمد الوصول سلفاً إلى نتائج معينة ، قبل البدء في البحث !

وحتى حين هدأت حدة العداء للكنيسة بعد تحطيم سيطرتها العلمية والسياسية والاقتصادية الغاشمة فإن المنهج استمر في طريقه . لأنه لم يستطع أن يتخلص من أساسه الذي قام عليه ، والتقاليد التي تراكمت على هذا الأساس ، حتى صارت من أصول المنهج !

أما خطأ النتائج فهو ضرورة حتمية لخطأ المنهج من أساسه . هذا الخطأ الذي طبع نتائج المنهج كلها بهذا الطابع ..

على أنه أياً كان المنهج وأياً كانت النتائج التي يصل إليها ؛ فإن تقريراته مخالفة مخالفة أساسية للتقريرات الإلهية كما يعرضها القرآن الكريم .. وإذا جاز لغير مسلم أن يأخذ بنتائج تخالف مخالفة صريحة قول الله سبحانه في مسألة من المسائل ؛ فإنه لا يجوز لباحث يقدم بحته للناس على أنه « مسلم » أن يأخذ بتلك النتائج . ذلك أن التقريرات القرآنية في مسألة الإسلام والجاهلية ، وسبق الإسلام للجاهلية في التاريخ البشري ، وسبق التوحيد للتعدد والتنثية .. قاطعة ، وغير قابلة للتأويل . فهي مما يقال عنه : إنه معلوم من الدين بالضرورة . وعلى من يأخذ بنتائج علم الأديان المقارنة في هذا الأمر ، أن يختار بين قول الله سبحانه وقول علماء الأديان . أو بتعبير آخر : أن يختار بين الإسلام وغير الإسلام ! لأن قول الله في هذه القضية منطوق وصریح ، وليس ضمناً ولا مفهوماً !

وعلى أية حال فإن هذا ليس موضوعنا الذي نستهدفه في هذا التعقيب الأخير .. إنما نستهدف هنا رؤية الخط الحركي للعقيدة الإسلامية في التاريخ البشري ؛ والإسلام والجاهلية يتعاوران البشرية ؛ والشيطان يستغل الضعف البشري وطبيعة التكوين لهذا المخلوق المزوج الطبيعة والاتجاه ، ويختال الناس عن الإسلام بعد أن يعرفوه ، إلى الجاهلية ؛ فإذا بلغت هذه الجاهلية مداها بعث الله للناس رسولاً يرددهم إلى الإسلام . ويخرجهم من الجاهلية . وأول ما يخرجهم منه هو الدينونة لغير الله سبحانه من الأرباب المتفرقة .. وأول ما يرددهم إليه هو الدينونة لله وحده في أمرهم كله ، لا في الشعائر التبعدية وحدها ، ولا في الاعتقاد القلبي وحده .

إن هذه الرؤية تفيدنا في تقدير موقف البشرية اليوم ، وفي تحديد طبيعة الدعوة الإسلامية كذلك .. إن البشرية اليوم – بجمليتها – تزاوّل رجعية شاملة إلى الجاهلية التي أخرجها منها آخر رسول – محمد صلى الله عليه وسلم – وهي جاهلية تتمثل في صور شتى :

بعضها يتمثل في إلحاد بالله سبحانه ، وإنكار لوجوده .. فهي جاهلية اعتقاد وتصور ، كجاهلية الشيوعيين . وبعضها يتمثل في اعتراف مشوه بوجود الله سبحانه ، وانحراف في الشعائر التبعدية وفي الدينونة والاتباع والطاعة ، كجاهلية الوثنيين من الهنود وغيرهم .. وكجاهلية اليهود والنصارى كذلك .

وبعضها يتمثل في اعتراف صحيح بوجود الله سبحانه ، وأداء للشعائر التبعدية . مع انحراف خطير في تصور دلالة شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . ومع شرك كامل في الدينونة والاتباع والطاعة . وذلك كجاهلية من يسمون أنفسهم « مسلمين » ويظنون أنهم أسلموا واكتسبوا صفة الإسلام وحقوقه – بمجرد نطقهم بالشهادتين وأدائهم للشعائر التبعدية ؛ مع سوء فهمهم لمعنى الشهادتين ؛ ومع استسلامهم ودينونتهم لغير الله من العبيد !

وكلها جاهلية . وكلها كفر بالله كالأولين . أو شرك بالله كالأخريين^١ ..

إن رؤية واقع البشرية على هذا النحو الواضح ؛ تؤكد لنا أن البشرية اليوم بجمليتها قد ارتدت إلى جاهلية شاملة ، وأنها تعاني رجعية نكدة إلى الجاهلية التي أنقذها منها الإسلام مرات متعددة ، كان آخرها الإسلام

(١) يراجع فصل : « لا إله إلا الله منح حياة » في كتاب : « معالم في الطريق » نشر « دار الشروق »

الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم.. وهذا بدوره يحدد طبيعة الدور الأساسي لطلائع البعث الإسلامي ،
والمهمة الأساسية التي عليها أن تقوم بها للبشرية ؛ ونقطة البدء الحاسمة في هذه المهمة .

إن على هذه الطلائع أن تبدأ في دعوة البشرية من جديد إلى الدخول في الإسلام ككرة أخرى ، والخروج
من هذه الجاهلية النكدية التي ارادت إليها . على أن تحدد للبشرية مدلول الإسلام الأساسي : وهو الاعتقاد
بألوهية الله وحده ، وتقديم الشعائر التعبدية لله وحده والدينونة والاتباع والطاعة والخضوع في أمور الحياة
كلها لله وحده .. وأنه بغير هذه المدلولات كلها لا يتم الدخول في الإسلام ؛ ولا تحتسب للناس صفة المسلمين ؛
ولا تكون لهم تلك الحقوق التي يرتبها الإسلام لهم في أنفسهم وأموالهم كذلك . وأن تخلف أحد هذه المدلولات
كتخلفها جميعاً ، يخرج الناس من الإسلام إلى الجاهلية ، ويصمهم بالكفر أو بالشرك قطعاً ..

إنها دورة جديدة من دورات الجاهلية التي تعقب الإسلام . فيجب أن تواجهها دورة من دورات الإسلام
الذي يواجه الجاهلية ، ليرد الناس إلى الله مرة أخرى ، ويخرجهم من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ..
ولا بد أن يصل الأمر إلى ذلك المستوى من الحسم والوضوح في نفوس العصابة المسلمة التي تعاني مواجهة
الجاهلية الشاملة في هذه الفترة النكدية من حياة البشرية .. فإنه بدون هذا الحسم وهذا الوضوح تعجز طلائع
البعث الإسلامي عن أداء واجبها في هذه الفترة الحرجة من تاريخ البشرية ؛ وتتأرجح أمام المجتمع الجاهلي -
وهي تحسبه مجتمعاً مسلماً - وتفقد تحديد أهدافها الحقيقية ، بفقدانها لتحديد نقطة البدء من حيث تقف
البشرية فعلاً ، لا من حيث تزعم ! والمسافة بعيدة بين الزعم والواقع .. بعيدة جداً ..

* * *

ونقف الوقفة الأخيرة في هذا التعقيب الأخير أمام موقف الرسل الموحد من أقوامهم الذين أرسلوا إليهم .
واختلاف هذا الموقف عند البدء وعند النهاية ؛ كما يعرضه قصص الرسل في هذه السورة :

لقد أرسل كل رسول إلى قومه . وعند بدء الدعوة كان الرسول واحداً من قومه هؤلاء . يدعوهم إلى
الإسلام دعوة الأخ لإخوته ؛ ويريد لهم ما يريد الأخ لإخوته من الخير الذي هداه الله إليه ؛ والذي يجد في
نفسه بينة من ربه عليه .

هذا كان موقف كل رسول من قومه عند نقطة البدء .. ولكن هذا لم يكن موقف أي رسول عند نقطة
الختام !

لقد استجابت للرسول طائفة من قومه فأمنوا بما أرسل به إليهم .. عبدوا الله وحده كما طلب إليهم ،
وخلعوا من أعناقهم ربقة الدينونة لأي من خلقه .. وبذلك صاروا مسلمين .. صاروا «أمة مسلمة» ..
ولم تستجب للرسول طائفة أخرى من قومه . كفروا بما جاءهم به ؛ وظلوا في دينونتهم لغير الله من خلقه ؛
وبقوا في جاهليتهم لم يخرجوا منها إلى الإسلام .. ولذلك صاروا «أمة مشركة» ..

لقد انقسم القوم الواحد تجاه دعوة الرسول إلى أمتين اثنتين : أمة مسلمة وأخرى مشركة ولم يعد القوم
الواحد أمة واحدة كما كانوا قبل الرسالة . مع أنهم قوم واحد من ناحية الجنس والأرومة . إلا أن آصرة
الجنس والأرومة ، وآصرة الأرض والمصالح المشتركة .. لم تعد هي التي تحكم العلاقات بينهم كما كانوا
قبل الرسالة .. لقد ظهرت مع الرسالة آصرة أخرى تجمع القوم الواحد أو تفرقه .. تلك هي آصرة العقيدة
والمنهج والدينونة .. وقد فرقت هذه الآصرة بين القوم الواحد ، فجعلته أمتين مختلفتين لا تلتقيان ، ولا تتعاشان !
ذلك أنه بعد بروز هذه المفارقة بين عقيدة كل من الأمتين ؛ فاصل الرسول والأمة المسلمة التي معه قومهم

على أساس العقيدة والمنهج والدينونة . فاصلوا الأمة المشركة التي كانت قبل الرسالة هي قومهم وهي أمتهم وهي أصلهم .. لقد افترق المنهجان ، فاختلفت الجنسيتان . وأصبحت الأمتان الناشتان من القوم الواحد لا تلتقيان ولا تتعايشان !

وعندما فاصل المسلمون قومهم على العقيدة والمنهج والدينونة فصل الله بينهما ؛ فأهلك الأمة المشركة ، ونجى الأمة المسلمة .. واطردت هذه القاعدة على مدار التاريخ كما رأينا في السورة ..

والأمر الذي ينبغي لطلّاع البعث الإسلامي في كل مكان أن تكون على يقين منه : أن الله سبحانه لم يفصل بين المسلمين وأعدائهم من قومهم ، إلا بعد أن فاصل المسلمون أعداءهم ؛ وأعلنوا مفارقتهم لما هم عليه من الشرك ؛ وعالونهم بأنهم يدينون لله وحده ، ولا يدينون لأربابهم الزائفة ؛ ولا يتبعون الطواغيت المتسلطة ؛ ولا يشاركون في الحياة ولا في المجتمع الذي تحكمه هذه الطواغيت بشرائع لم يأذن بها الله . سواء تعلقت بالاعتقاد ، أو بالشعائر ، أو بالشرائع .

إن يد الله سبحانه لم تتدخل لتدمر على الظالمين ، إلا بعد أن فاصلهم المسلمون .. وما دام ، المسلمون لم يفاصلوا قومهم ، ولم يتبرأوا منهم ، ولم يعالونهم بافتراق دينهم عن دينهم ، ومنهجهم عن منهجهم ، وطريقهم عن طريقهم ، لم تتدخل يد الله سبحانه للفصل بينهم وبينهم ، ولتحقيق وعد الله بنصر المؤمنين والتدمير على الظالمين ..

وهذه القاعدة المطردة هي التي ينبغي لطلّاع البعث الإسلامي أن تدركها ؛ وأن ترتب حركتها على أساسها : إن الخطوة الأولى تبدأ دعوة للناس بالدخول في الإسلام ؛ والدينونة لله وحده بلا شريك ؛ ونبذ الدينونة لأحد من خلقه - في صورة من صور الدينونة - ثم يتقسم القوم الواحد قسمين ، ويقف المؤمنون الموحدون الذين يدينون لله وحده صفاً - أو أمة - ويقف المشركون الذين يدينون لأحد من خلق الله صفاً آخر .. ثم يفاصل المؤمنون المشركين .. ثم يحق وعد الله بنصر المؤمنين والتدمير على المشركين .. كما وقع باطراد على مدار التاريخ البشري .

ولقد تطول فترة الدعوة قبل المفاصلة العملية . ولكن المفاصلة العقيدية الشعورية يجب أن تتم منذ اللحظة الأولى .

ولقد يبطئ الفصل بين الأمتين الناشتين من القوم الواحد ؛ وتكثر التضحيات والعذابات والآلام على جيل من أجيال الدعاة أو أكثر .. ولكن وعد الله بالفصل يجب أن يكون في قلوب العصبة المؤمنة أصدق من الواقع الظاهر في جيل أو أجيال . فهو لا شك آت . ولن يخلف الله وعده الذي جرت به سنته على مدار التاريخ البشري .

ورؤية هذه السنة على هذا النحو من الحسم والوضوح ضرورية كذلك للحركة الإسلامية في مواجهة الجاهلية البشرية الشاملة . فهي سنة جارية غير مقيدة بزمان ولا مكان .. وما دامت طلائع البعث الإسلامي تواجه البشرية اليوم في طور من أطوار الجاهلية المتكررة ؛ وتواجهها بذات العقيدة التي كان الرسل - عليهم صلوات الله وسلامه - يواجهونها بها كلما ارتدت وانتكست إلى مثل هذه الجاهلية . فإن للعصبة المسلمة أن تمضي في طريقها ، مستوضحة نقطة البدء ونقطة الختام ، وما بينهما من فترة الدعوة كذلك . مستيقنة أن سنة الله جارية مجراها ، وأن العاقبة للتقوى .

وأخيراً ، فإنه من خلال هذه الوقفات أمام القصص القرآني في هذه السورة تتبين لنا طبيعة منهج هذا الدين ، كما يتمثل في القرآن الكريم .. إنها طبيعة حركية تواجه الواقع البشري بهذا القرآن مواجهة واقعية عملية ..

لقد كان هذا القصص ينزل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في مكة . والقلة المؤمنة معه محصورة بين شعابها ، والدعوة الإسلامية مجمدة فيها ، والطريق شاق طويل لا يكاد المسلمون يرون له نهاية ! فكان هذا القصص يكشف لهم عن نهاية الطريق ؛ ويربهم معاملة في مراحلهم جميعاً ؛ ويأخذ بأيديهم وينقل خطاهم في هذا الطريق ؛ وقد بات لاحقاً موصولاً بموكب الدعوة الكريم على مدار التاريخ البشري ؛ وبات بهذا الركب الكريم مانوساً مألوفاً لا موحشاً ولا مخوفاً ! .. إنهم زُمرَةٌ من موكب موصول في طريق معروف ؛ وليسوا مجموعة شاردة في تيه مقطوع ! وإنهم ليمضون من نقطة البدء إلى نقطة الختام وفق سنة جارية ؛ ولا يمضون هكذا جزافاً يتبعون الصدفة العابرة !

هكذا كان القرآن يتحرك في الصف المسلم ؛ ويحرك هذا الصف حركة مرسومة مأمونة .. وهكذا يمكن اليوم وغداً أن يتحرك القرآن في طلائع البعث الإسلامي ، ويحركها كذلك في طريق الدعوة المرسوم ..

إن هذه الطلائع في حاجة إلى هذا القرآن تستلهمه وتستوحيه . تستلهمه في منهج الحركة وخطواتها ومراحلها ؛ وتستوحيه في ما يصادف هذه الخطوات والمراحل من استجابات ؛ وما ينتظرها من عاقبة في نهاية الطريق . والقرآن - بهذه الصورة - لا يعود مجرد كلام يتلى للبركة . ولكنه ينتفض حياً ينتزل اللحظة على الجماعة المسلمة المتحركة ، لتتحرك به ، وتتابع توجيهاته ، وتتوقع موعود الله فيه .

وهذا ما نعنيه بأن هذا القرآن لا يتفتح عن أسراره إلا للعصبة المسلمة التي تتحرك به ، لتحقيق مدلوله في عالم الواقع . لا لمن يقرأونه لمجرد التبرك ! ولا لمن يقرأونه لمجرد الدراسة الفنية أو العلمية ، ولا لمن يدرسونه لمجرد تتبع الأداء البياني فيه !

إن هؤلاء جميعاً لن يدركوا من هذا القرآن شيئاً يذكر . فإن هذا القرآن لم ينتزل ليكون مادة دراسة على هذا النحو ؛ إنما تنزل ليكون مادة حركة وتوجيه .

إن الذين يواجهون الجاهلية الطاغية بالإسلام الحنيف ؛ والذين يجاهدون البشرية الضالة لردها إلى الإسلام من جديد ؛ والذين يكافحون الطاغوت في الأرض ليخرجوا الناس من العبودية للعباد إلى العبودية لله وحده .. إن هؤلاء وحدهم هم الذين يفقهون هذا القرآن ؛ لأنهم يعيشون في مثل الجو الذي نزل فيه ؛ ويحاولون المحاولة التي كان يحاولها من تنزل عليهم أول مرة ؛ ويتذوقون في أثناء الحركة والجهاد ما تعنيه نصوصه لأنهم يجدون هذه المعاني ممثلة في أحداث ووقائع .. وهذا وحده جزاء على كل ما يصيبهم من عذابات وآلام . أقول : جزاء ؟ ! كلا . والله . إنه لفضل من الله كبير .. « قل : بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون » ..

والحمد لله العظيم رب الفضل العظيم ..

(١٢) سُورَةُ يُوسُفَ مَكِّيَّةٌ وَآيَاتُهَا إِحْدَى عَشْرَةَ وَمِائَةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذه السورة مكية ، نزلت بعد سورة هود ، في تلك الفترة الحرجة التي تحدثنا عنها في تقديم سورة يونس وفي تقديم سورة هود .. بين عام الحزن بموت أبي طالب وخديجة سندی رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وبين بيعة العقبة الأولى ثم الثانية التي جعل الله فيهما لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - وللعصبة المسلمة معه وللدعوة الإسلامية فرجا ومخرجاً بالهجرة إلى المدينة .. وعلى هذا فالسورة واحدة من السور التي نزلت في تلك الفترة الحرجة في تاريخ الدعوة وفي حياة الرسول - صلى الله عليه وسلم - والعصبة المسلمة معه في مكة .. والسورة مكية بجملةتها ، على خلاف ما ورد في المصحف الأميري من أن الآيات (١ ، ٢ ، ٣ ، ٧) منها مدنية . ذلك أن الآيات الثلاث الأولى هذا نصها :

« الر تلك آيات الكتاب المبين . إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون . نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ، وإن كنت من قبله لمن الغافلين » ..
وهذه الآيات هي مقدمة طبيعية لما جاء بعدها مباشرة من البدء في قصة يوسف عليه السلام .. ونص الآية التالية في السياق هو :

« إذ قال يوسف لأبيه : يا أبت إنني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر . رأيتهم لي ساجدين ... »
ثم تمضي القصة بعد ذلك في طريقها إلى النهاية .
فالتقديم لهذه القصة بقول الله تعالى : « نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين » يبدو هو التقديم الطبيعي المصاحب لنزول القصة ..

وكذلك هذه الأحرف المقطعة (الر) وتقرير أنها آيات الكتاب المبين . ثم تقرير أن الله أنزل هذا الكتاب قرآناً عربياً .. هو كذلك من جو القرآن المكي ، ومواجهة المشركين في مكة بعربية القرآن الذي كانوا يدعون أن أعجمياً يعلمه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ! وتقرير أنه وحى من الله كان النبي صلى الله عليه وسلم من الغافلين عن اتجاهه وموضوعاته .

ثم إن هذا التقديم يتناسق مع التعقيب على القصة في نهايتها ، وهو قول الله تعالى :
« ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ، وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون » ..

فهناك حبكة بين التقدمة للقصة والتعقيب عليها ؛ ظاهر منها نزول التقدمة مع القصة والتعقيب .
 أما الآية السابعة فالسياق لا يستقيم بدونها أصلاً ؛ ولا يتأتى أن تكون السورة قد نزلت في مكة وهي ليست
 من سياقها ثم أضيفت إليها في المدينة ! ذلك أن في الآية الثامنة ضميراً يعود على يوسف وإخوته في هذه الآية
 السابعة ، بحيث لا يستقيم نزول الآية الثامنة دون أن تكون معها الآية السابقة . وهذا نصها :
 « لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين . إذ قالوا : ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة ،
 إن أبانا لفي ضلال مبين » ..

مما يقطع بأن الآيتين نزلتا معاً ، في سياق السورة الموصول .

والسورة كلها لحمة واحدة عليها الطابع المكي واضحاً في موضوعها وفي جوها وفي ظلها وفي إحياءاتها .
 بل إن عليها طابع هذه الفترة الحرجة الموحشة بصفة خاصة .. ففي الوقت الذي كان رسول الله - صلى الله
 عليه وسلم - يعاني من الوحشة والغربة والانقطاع في جاهلية قريش - منذ عام الحزن - وتعاني معه الجماعة
 المسلمة هذه الشدة ، كان الله - سبحانه - يقص على نبيه الكريم قصة أخ له كريم - يوسف بن يعقوب بن
 إسحاق بن إبراهيم - عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين - وهو يعاني صنوفاً من المحن والابتلاءات : محنة
 كيد الإخوة . ومحنة الجب والخوف والترويع فيه . ومحنة الرق وهو ينتقل كالسلعة من يد إلى يد على غير
 إرادة منه ، ولا حماية ولا رعاية من أبويه ولا من أهله . ومحنة كيد امرأة العزيز والنسوة ، وقبلها ابتلاء
 الإغراء والشهوة والفتنة ! ومحنة السجن بعد رغد العيش وطرأته في قصر العزيز . ثم محنة الرخاء والسلطان
 المطلق في يديه ، وهو يتحكم في أقوات الناس وفي رقابهم ، وفي يديه لقمة الخبز التي تقوتهم ! ومحنة المشاعر
 البشرية وهو يلقي بعد ذلك إخوته الذين ألقوه في الجب وكانوا السبب الظاهر لهذه المحن والابتلاءات كلها ..
 هذه المحن والابتلاءات التي صبر عليها يوسف - عليه السلام - وزاول دعوته إلى الإسلام من خلالها ، وخرج
 منها كلها متجرداً خالصاً ؛ آخر توجهاته ، وآخر اهتماماته ، في لحظة الانتصار على المحن جميعاً ؛ وفي لحظة
 لقاء أبويه ولم شمله ؛ وفي لحظة تأويل رؤياه وتحققها كما رآها : « إذ قال يوسف لأبيه : يا أبت إنني رأيت
 أحد عشر كوكباً والشمس والقمر . رأيتهم لي ساجدين » .. آخر توجهاته وآخر اهتماماته في هذه اللحظة هي
 التوجه المخلص المتجرد المنيب إلى ربه ، منخلعاً من هذا كله بكليته كما يصوره القرآن الكريم :

« فلما دخلوا على يوسف أوى إليه أبويه ، وقال : ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين . ورفع أبويه على العرش ،
 وخرؤا له سجداً . وقال : يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً ، وقد أحسن بي إذ أخرجني
 من السجن ، وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي ، إن ربي لطيف لما يشاء ، إنه
 هو العليم الحكيم .. رب قد آتيتني من الملك ، وعلمتني من تأويل الأحاديث ، فاطر السماوات والأرض .
 أنت وليي في الدنيا والآخرة ، توفني مسلماً ، وألحقني بالصالحين » ..

وهكذا كانت طلبته الأخيرة .. بعد ذلك كله وهو في غمرة السلطان والرخاء ولة الشمل .. أن يتوفاه
 ربه مسلماً ، وأن يلحقه بالصالحين .. وذلك بعد الابتلاء والمحنة ، والصبر الطويل والانتصار الكبير ..
 فلا عجب أن تكون هذه السورة . بما احتوتها من قصة ذلك النبي الكريم ، ومن التعقيبات عليها بعد ذلك ،
 مما يتنزل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والجماعة المسلمة معه في مكة ، في هذه الفترة بالذات ،
 تسلية وتسرية ، وتطميناً كذلك وتثبيتاً للمطاردين المغتربين الموحشين !

لا بل إن الخاطر ليذهب في اللحظة إلى الإحساس بالإحياء البعيد بالإخراج من مكة إلى دار أخرى يكون

فيها النصر والتمكين ؛ مهما بدا أن الخروج كان إكراهاً تحت التهديد ! كما أخرج يوسف من حضان أبيه . ليواجه هذه الابتلاءات كلها . ثم لينتهي بعد ذلك إلى النصر والتمكين :
« وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ، ولنعلمه من تأويل الأحاديث ، والله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » ..

ولقد كان ذلك وهو يضع أقدامه في مصر في قصر العزيز .. حتى وهو ما يزال فتى يباع ببيع الرقيق .. ! وما يذهب بي الخاطر إليه اللحظة يجعلني أتذوق مذاقاً خاصاً - أشير إليه ولا أملك التعبير عنه ! - ذلك التعقيب الذي أعقب القصة :

« وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى ، أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون ؟ حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجي من نشاء ، ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين . لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ، ما كان حديثاً يفترى ، ولكن تصديق الذي بين يديه ، وتفصيل كل شيء ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » ..

إنه الإيحاء بمجرد ستة الله عندما يستئس الرسل - كما استيأس يوسف في محنته الطويلة - والتلميح بالمخرج المكروه الذي يليه الفرج المرغوب ! .. الإيحاء والتلميح اللذان تدركهما القلوب المؤمنة ، وهي في مثل هذه الفترة تعيش ، وفي جوها تنفس ، فتذوق وتستشرف وتلمح الإيحاء والتلميح . من بعيد ..

والسورة ذات طابع متفرد في احتوائها على قصة يوسف كاملة . فالقصص القرآني - غير قصة يوسف - يرد حلقات ، تناسب كل حلقة منها أو مجموعة حلقات موضوع السورة واتجاهها وجوها . وحتى القصص الذي ورد كاملاً في سورة واحدة كقصص هود وصالح ولوط وشعيب ورد مختصراً مجملاً . أما قصة يوسف فوردت بتمامها وبطولها في سورة واحدة . وهو طابع متفرد في السور القرآنية جميعاً .

هذا الطابع الخاص يتناسب مع طبيعة القصة ؛ ويؤديها أداء كاملاً .. ذلك أنها تبدأ برؤيا يوسف ، وتنتهي بتأويلها . بحيث لا يناسبها أن تكون حلقة منها أو جملة حلقات في سورة وتكون بقيتها في سورة أخرى . وهذا الطابع كفل لها الأداء الكامل من جميع الوجوه ؛ فوق تحقيقه للهدف الأصيل الذي من أجله سقت القصة ، والتعقيبات التي تلتها .

وسنحتاج أن نقول كلمة مفصلة - بعض الشيء - عن هذا الأداء الكامل ، تكشف عن ذلك المنهج القرآني الفريد .

.. وبالله التوفيق ..

* * *

إن قصة يوسف - كما جاءت في هذه السورة - تمثل النموذج الكامل لمنهج الإسلام في الأداء الفني للقصة ، بقدر ما تمثل النموذج الكامل لهذا المنهج في الأداء النفسي والعقدي والربوبي والحركي أيضاً .. ومع أن المنهج القرآني واحد في موضوعه وفي أدائه ، إلا أن قصة يوسف تبدو وكأنها المعرض المتخصص في عرض هذا المنهج من الناحية الفنية للأداء !

إن القصة تعرض شخصية يوسف - عليه السلام - وهي الشخصية الرئيسية في القصة - عرضاً كاملاً في

كل مجالات حياتها ، بكل جوانب هذه الحياة ، وبكل استجابات هذه الشخصية في هذه الجوانب وفي تلك المجالات . وتعرض أنواع الابتلاءات التي تعرضت لها تلك الشخصية الرئيسية في القصة ؛ وهي ابتلاءات متنوعة في طبيعتها وفي اتجاهاتها .. ابتلاءات الشدة وابتلاءات الرخاء . وابتلاءات الفتنة بالشهوة ، والفتنة بالسلطان . وابتلاءات الفتنة بالانفعالات والمشاعر البشرية تجاه شتى المواقف وشتى الشخصيات .. ويخرج العبد الصالح من هذه الابتلاءات والفتن كلها نقياً خالصاً متجرداً في وقفته الأخيرة ، متجهاً إلى ربه بذلك الدعاء المنيب الخاشع كما أسلفنا في نهاية الفقرة السابقة .

وإلى جانب عرض الشخصية الرئيسية في القصة تعرض الشخصيات المحيطة بدرجات متفاوتة من التركيز . وفي مساحات متناسبة من رقعة العرض ، وعلى أبعاد متفاوتة من مركز الرؤية ، وفي أوضاع خاصة من الأضواء والظلال .. وتتعامل القصة مع النفس البشرية في واقعتها الكاملة . متمثلة في نماذج متنوعة : نموذج يعقوب والوالد المحب الملهوف والنبي المطمئن الموصول .. ونموذج إخوة يوسف وهواتف الغيرة والحسد والحقد والمؤامرة والمناورة ، ومواجهة آثار الجريمة ، والضعف والحيرة أمام هذه المواجهة ، متميزاً فيهم أحدهم بشخصية موحدة السمات في كل مراحل القصة ومواقفها .. ونموذج امرأة العزيز بكل غرائزها ورغائبها واندفاعاتها الأنثوية ، كما تصنعها وتوجهها البيئة المصرية الجاهلية في بلاط الملوك ، إلى جانب طابعها الشخصي الخاص الواضح في تصرفها وضوح انطباعات البيئة .. ونموذج النسوة من طبقة العلية في مصر الجاهلية ! والأضواء التي تلقيها على البيئة ، ومنطقها كما يتجلى في كلام النسوة عن امرأة العزيز وفتاها ، وفي إغرائهن كذلك ليوسف وتهديد امرأة العزيز له في مواجهتهن جميعاً . وما وراء أستار القصور ودسائسها ومناوراتها ، كما يتجلى في سجن يوسف بصفة خاصة .. ونموذج « العزيز » وعليه ظلال طبقة وبيئته في مواجهة جرائم الشرف من خلال مجتمعه ! .. ونموذج « الملك » في خطفة يتوارى بعدها كما توارى العزيز في منطقة الظلال بعيداً عن منطقة الأضواء في مجال العرض المتناسق .. وتبرز الملامح البشرية واضحة صادقة بواقعية كاملة في هذا الحشد من الشخصيات والبيئات ، وهذا الحشد من المواقف والمشاهد ، وهذا الحشد من الحركات والمشاعر ..

ومع استيفاء القصة لكل ملامح « الواقعية » السليمة المتكاملة وخصائصها في كل شخصية وفي كل موقف وفي كل خالجة .. فإنها تمثل النموذج الكامل لمنهج الإسلام في الأداء الفني للقصة ، ذلك الأداء الصادق ، الرائع بصدقه العميق وواقعيته السليمة .. المنهج الذي لا يهمل خلجة بشرية واقعية واحدة ، وفي الوقت ذاته لا ينشئ مستقفاً من الوحل يسميه « الواقعية » كالمستقع الذي أنشأته « الواقعية » الغربية الجاهلية ! وقد أملت القصة بألوان من الضعف البشري ؛ بما فيها لحظة الضعف الجنسي ، ودون أن تزور - أي تزوير - في تصوير النفس البشرية بواقعيته الكاملة في هذه المواقف ، ودون أن تغفل أية لحظة حقيقية من لمحات النفس أو الموقف ، فإنها لم تسف قط لتنشئ ذلك المستقع المقرز للفترة السليمة ، ذلك الذي يسمونه في جاهلية القرن العشرين « الواقعية » أو يسمونه أخيراً « الطبيعية » ! .

وظلت القصة صورة نظيفة للأداء الواقعي الكامل مع تنوع الشخصيات وتنوع المواقف :

* إخوة يوسف .. والأحقاد الصغيرة في قلوبهم تكبر وتتضخم حتى تحجب عن ضمائرهم هول الجريمة وبشاعتها ونكارتها وضخامتها ! ثم تزين لهم « المحلل الشرعي ! » الذي يخرجون به من تلك الجريمة .. ملاحظاً في هذا واقعتهم في بيئتهم الدينية - وهم أولاد نبي الله يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم - عليهم صلوات

الله وسلامه - وانطباعات هذه البيئة في تفكيرهم ومشاعرهم وتقاليدهم ، وحاجتهم النفسية - من ثم - إلى مربر للجريمة ، وإلى طريقة للتحلل من نكارتها وبشاعتها :

« لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين . إذ قالوا : ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا - ونحن عصابة - إن أبانا لفي ضلال مبين ! اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم ، وتكونوا من بعده قوماً صالحين ! قال قائل منهم : لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب ، يلتقطه بعض السيارة - إن كنتم فاعلين ! - قالوا : يا أبانا ، مالك لا تأمنا على يوسف ؛ وإنا له لناصحون . أرسله معنا غداً يرتع ويلعب ، وإنا له لحافظون ! قال : إني ليحزنني أن تذهبوا به ، وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون . قالوا : لئن أكله الذئب ونحن عصابة إنا إذاً لخاسرون . فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب ، وأوحينا إليه لتنبئهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون . وجاءوا أباهم عشاء يبكون ، قالوا : يا أبانا ، إنا ذهبنا نستبق ، وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب ، وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين . وجاءوا على قميصه بدم كذب ، قال : بل سولت لكم أنفسكم أمراً ، فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون » . .

ونحن نجدهم - هم هم - في كل مواقف القصة بعد ذلك - كما نجد موقف أحدهم الخاص من أول القصة إلى آخرها - فما إن يذهبوا بأخي يوسف بعدما طلبه منهم وهم لا يعرفونه يحسبون أنه عزيز مصر الذي قدوماً من بلادهم - كنعان - ليشتروا منه القمح في سنوات الجذب العجاف ، حيث يدبر الله ليوسف أن يأخذ أخاه منهم بحجة أنه وجد صواع الملك في رحله . ما إن يروا هذا التدبير - وهم لا يعلمون ما وراءه - حتى ينفجر حقدهم القديم على يوسف :

« قالوا : إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل ! فأسرّها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم . قال : أنتم شرمكاناً ، والله أعلم بما تصفون » . .

كذلك نجدهم - هم هم - بعد مواجهة أبيهم بالفجيعة الثانية في شيخوخته الحزينة ، فما إن يروا تجدد حزنه على يوسف حتى ينفجر حقدهم القديم ، دون مراعاة لشيخوخة أبيهم ونكته الأليمة :

« وتولى عنهم وقال : يا أسفا على يوسف ! وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم . قالوا : تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين ! » . .

ومثلها عندما أرسل يوسف قميصه إلى أبيه في النهاية - بعدما كشف لهم عن شخصيته - فلما رأوا أباهم يستنشق عبير يوسف ، غاظهم هذا الاتصال الباطني الدال على عمق ما بينه وبين يوسف ، فلم يملكوا أنفسهم أن ييكتوه ويؤنبوه :

« ولما فصلت العير قال أبوهم : إني لأجد ريح يوسف ، لولا أن تفندون ! قالوا : تالله إنك لفي ضلالك القديم ! » . .

* وامرأة العزيز . . في صرَع الشهوة التي تعمي عن كل شيء في اندفاعها الهائج الكاسح ، فلا تحفل حياءً أنثوياً ولا كبرياءً ذاتياً ، كما لا تحفل مركزاً اجتماعياً ولا فضيحة عائلية . . والتي تستخدم - مع ذلك - كل مكر الأنثى وكيدها ، سواء في تبرئة نفسها أو حماية من تهوى من جرائم التهمة التي ألصقتها به ، وتحديد عقوبة لا تؤدي بحياته ! أو رد الكيد للنسوة من ثغرة الضعف الغريزي الشهوي الذي تعرفه فيهن من معرفتها لنفسها ! أو التبجح بشهوانيتها أمام انكشاف ضعف عزيمتها وكبرياتها أمام من تهوى ، ووقوف نسوتها معها على أرض واحدة ، حيث تبدو فيها الأنثى متجردة من كل تجمل المرأة وحياتها ، الأنثى التي لا تحس في

إرواء هواتفها الأثوية أمراً يعاب أصلاً ! ومع صدق التصوير والتعبير عن هذا النموذج البشري الخاص بكل واقعيته ، وعن هذه اللحظة الخاصة بكل طبيعتها ، فإن الأداء القرآني - الذي ينبغي أن يكون هو النموذج الأعلى للأداء الفني الإسلامي - لم يتخل عن طابعه النظيف مرة واحدة - حتى وهو بصور لحظة التعري النفسي والجسدي الكامل بكل اندفاعها وحيوانيتها - لينشئ ذلك المستنقع الكريه الذي يتمرغ في وحله كتاب « القصة الواقعية » وكتاب « القصة الطبيعية » في هذه الجاهلية النكدة بحجة الكمال الفني في الأداء !

« وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته : أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدًا . وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ، ولنعلمه من تأويل الأحاديث ، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون . ولما بلغ أشده آتياه حكماً وعلماً ، وكذلك نجزي المحسنين . وراودته التي هو في بيتها عن نفسه ، وغلقت الأبواب وقالت : هيت لك ! قال : معاذ الله ! إنه ربي أحسن مثواي ، إنه لا يفلح الظالمون . ولقد همت به وهم بها ، لولا أن رأى برهان ربه . كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ، إنه من عبادنا المخلصين . واستبقا الباب ، وقَدَّت قميصه من دُبُر ، وألفيا سيدها لدى الباب ، قالت : ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم ؟ ! قال : هي راودتني عن نفسي ، وشهد شاهد من أهلها : إن كان قميصه قُدَّ من قُبُل فصدقت وهو من الكاذبين . وإن كان قميصه قُدَّ من دُبُر فكذبت وهو من الصادقين . فلما رأى قميصه قُدَّ من دُبُر قال : إنه من كيدكن ، إن كيدكن عظيم ! يوسف أعرض عن هذا ، واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين ! .. وقال نسوة في المدينة : امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه ! قد شغفها حباً ! إنا لنهاها في ضلال مبين ! فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن ، وأعدت لهن متكأ ، وآتت كل واحدة منهن سكيناً ، وقالت : اخرج عليهن ! فلما رأينه أكبرنه ، وقطعن أيديهن ، وقلن : حاش لله ! ما هذا بشراً ، إن هذا إلا ملك كريم . قالت : فذلكن الذي لمتنني فيه ! ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ، ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين . قال : رب ، السجن أحب إلي مما يدعونني إليه ، وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين . فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن ، إنه هو السميع العليم » .. وكذلك حين نلتقي بها مرة أخرى بعدما دخل يوسف السجن بسبب كيدها وكيد النسوة ؛ وبقي هناك حتى رأى الملك رؤياه ، وتذكر الفتى الذي كان سجيناً معه أن يوسف هو وحده الذي يعرف تأويل الرؤيا ، فطلب الملك أن يأتوه به ، فأبى حتى يحقق قضيته ، ويرى ساحتها ، فاستدعاها الملك مع النسوة . وإذا بها ما تزال المرأة المحبة ، مع التغير الطبيعي الواقعي الذي يحدثه الزمن والعمر والأحداث والظروف ؛ ومع تسرب الإيمان الذي تعرفه من يوسف من خلال تلك المشاعر والمؤثرات جميعاً :

« وقال الملك : اثبتوني به . فلما جاءه الرسول قال : ارجع إلى ربك فاسأله : ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ؟ إن ربي بكيدهن عليم . قال : ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه ؟ قلن : حاش لله ! ما علمنا عليه من سوء . قالت امرأة العزيز : الآن حصحص الحق ، أنا راودته عن نفسه ، وإنه لمن الصادقين . ذلك ليعلم أتي لم أخنه بالغيب ، وأن الله لا يهدي كيد الخائنين . وما أبرئ نفسي ، إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي ، إن ربي غفور رحيم » ..

* ويوسف .. العبد الصالح - الإنسان - لم يزور الأداء القرآني في شخصيته الإنسانية لمحة واحدة ؛ وهو يواجه الفتنة بكل بشريته - مع نشأته في بيت النبوة وتربيته ودينه - وبشريته مع نشأته وتربيته ودينه وتمثل بمجموعها واقعيته بكل جوانبها .. لقد ضعف حين همت به حتى هم بها ؛ ولكن الخيط الآخر شدّه وأنقذه

من السقوط فعلاً . ولقد شعر بضعفه إزاء كيد النسوة . ومنطق البيئة ، وجو القصور ، ونسوة القصور أيضاً ! ولكنه تمسك بالعروة الوثقى .. ليست هنالك لحظة واحدة مزوّرة في واقعية الشخصية وطبيعتها ؛ وليس هنالك رائحة من مستنقعات الجاهلية ووحلها الفني ! ذلك أن هذا هو الواقع السليم بكل جوانبه .. * والعزير .. وشخصيته بطبيعتها الخاصة ، وبطبيعة سمت الإمارة ؛ ثم بضعف النخوة ، وغلبة الرياء الاجتماعي وستر الظواهر وإنقاذها ! وفيه تتمثل كل خصائص بيئته :

« فلما رأى قميصه قُذ من دبر ، قال : إنه من كيدكن ، إن كيدكن عظيم . يوسف أعرض عن هذا ، واستغفري لذنبك ، إنك كنت من الخاطئين ! » ..

* والنسوة .. نسوة هذا المجتمع بكل ملامحه .. اللغظ بسيرة امرأة العزير وفتاها الذي راودته عن نفسه ، بعدما شغفها حباً ! والاستنكار الذي تبدو فيه غيرة النسوة من امرأة العزير أكثر مما يبدو فيه استنكار الفعلة ! ثم وهلتهن أمام طلعة يوسف . ثم إقرارهن الأنثوي العميق بموقف المرأة التي كن يلغظن بقصتها ويستنكرن موقفها ؛ وإحساس هذه المرأة بهذا الإقرار الذي يشجعها على الاعتراف الكامل ، وهي آمنة في ظل استسلامهن لأنوثتهن كما تصنعها بيئتهن الخاصة وتوجهها . ثم ميلهن كلهن على يوسف بالإغراء والإغواء ، رغم ما أنطقتهن به الوهلة الأولى من نظافته وطهارته البادية من قولهن : « حاش لله ! ما هذا بشراً ، إن هذا إلا ملك كريم » ..

نأخذ ذلك من قولة يوسف عليه السلام :

« قال : رب السجن أحب إليّ مما يدعونني إليه ، وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين » ..

فلم تعد امرأة العزير وحدها تراوده ؛ ولكن عادت نسوة تلك الطبقة بجملتها تطارده !

* والبيئة .. التي تتجلى سماتها من خلال ذلك كله . ثم من خلال ذلك التصرف في أمر يوسف ، على الرغم مما بدا من براءته . ذلك التصرف المقصود به مواراة الفضيحة ودفن معاملها ؛ ولا يهم أن يذهب بريء كيوسف ضحيتها :

« ثم بدا لهم من بعدما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين » ..

* فإذا تابعنا شخصية يوسف - عليه السلام - فإننا لا نفتقد في موقف واحد من مواقف القصة ملامح هذه الشخصية ، المنبثقة من مقوماتها الذاتية البيئية الواقعية ، المتمثلة في كونه « العبد الصالح - الإنسان - بكل بشريته ، مع نشأته في بيت النبوة وتربيته ودينه » ..

فهو في السجن وظلماته - مع الظلم وظلماته ! - لا يغفل عن الدعوة لدينه ، في كياسة وتلطف - مع الحزم والفصل - وفي إدراك لطبيعة البيئة ومداخل النفوس فيها .. كما أنه لا يغفل عن حسن تمثيله بشخصه وأدبه وسلوكه لدينه هذا الذي يدعوا إليه في سجنه :

« ودخل معه السجن فتيان . قال أحدهما : إني أراني أعصر خمراً ، وقال الآخر : إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه . نبئنا بتأويله ، إنا نراك من المحسنين . قال : لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأكما بتأويله قبل أن يأتيكما ، ذلكما معاملمي ربي ، إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون . واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون . يا صاحبي السجن ، أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟ ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتوها أتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، إن الحكم إلا لله ،

أمر ألا تعبدوا إلا إياه ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون . يا صاحبي السجن ، أما أحدكما فيسقي ربه خمراً ، وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه ، قضى الأمر الذي فيه تستفتيان . . .
وهو - مع هذا كله - بشر ، فيه ضعف البشر . فهو يتطلب الخلاص من سجنه ، بمحاولة إيصال خبره إلى الملك ، لعله يكشف المؤامرة الظالمة التي جاءت به إلى السجن المظلم . وإن كان الله - سبحانه - شاء أن يعلمه أن يقطع الرجاء إلا منه وحده :

« وقال للذي ظن أنه ناج منهما : اذكرني عند ربك . فأنساه الشيطان ذكر ربه . فلبث في السجن بضع سنين . . . » .

ثم تطالعنا ملامح هذه الشخصية كذلك بعد بضع سنين ، وقد رأى الملك رؤياه ، فحار في تأويلها الكهنة والسدنة ؛ حتى تذكر صاحب السجن يوسف - بعدما تمت التربية الربانية للعبد الصالح ، فاطمأن إلى قدر الله به واطمأن إلى مصيره - حتى إذا ما طلب الملك - بعد تأويله لرؤياه - أن يأتيه به ، أجاب في هدوء المطمئن الواصل ؛ وتمنع عن مغادرة سجنه إلا بعد تحقيق تهمته وتبرئة سمعته :

« وقال الملك : إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات . يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي ، إن كنتم للرؤيا تعبرون . قالوا : أضغاث أحلام ، وما نحن بتأويل الأحلام بعلمين . وقال الذي نجا منهما وادّكر بعد أمة : أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون . يوسف أيها الصديق ، أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات ، لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون . قال : ترزعون سبع سنين دأباً ، فما حصدتم فذروه في سنبله ، إلا قليلاً مما تأكلون . ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم هن . إلا قليلاً مما تحصنون . ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون . وقال الملك : ائتوني به . . فلما جاءه الرسول قال : أرجع إلى ربك فاسأله : ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ؟ إن ربي بكيدهن عليم . قال : ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه ؟ قلن : حاش لله ! ما علمنا عليه من سوء . قالت امرأة العزيز : الآن حصحص الحق ، أنا راودته عن نفسه ، وإنه لمن الصادقين . ذلك ليعلم أنني لم أخنه بالغيب ، وأن الله لا يهدي كيد الخائنين . وما أبرئ نفسي ، إن النفس لأماراة بالسوء ، إلا ما رحم ربي ، إن ربي غفور رحيم . . وقال الملك : ائتوني به أستخلصه لنفسي ، فلما كلمه قال : إنك اليوم لدينا مكين أمين . قال : اجعلني على خزائن الأرض ، إني حفيظ عليم . . . » .

ومنذ هذه اللحظة التي تجلت فيها شخصية يوسف مكتملة ناضجة واعية ، مطمئنة ساكنة واثقة ، نجد هذه الشخصية تنفرد على مسرح الأحداث ، وتتوارى تماماً شخصيات الملك والعزيز والنسوة والبيئة . ويمهد السياق القرآني لهذا التحول في القصة وفي الواقع بقوله :

« وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء ، نصيب برحمتنا من نشاء . ولا نضيع أجر المحسنين ، ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون . . . » .

ومنذ هذه اللحظة نجد هذه الشخصية تواجه ألواناً أخرى من الابتلاءات ، تختلف في طبيعتها عن الألوان الأولى ؛ وتواجهها بذلك الاكتمال الناضج الواعي ، وبتلك الطمأنينة الساكنة الواثقة .

* نجد يوسف وهو يواجه - للمرة الأولى - إخوته بعدما فعلوا به تلك الفعلة القديمة ؛ وهو في الموقف الأعلى بالقياس إليهم والأقوى . . . ولكننا نجد سمة الضبط واضحة في انفعالاته وتصرفاته :

« وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون . ولما جهزهم بجهازهم قال : ائتوني بأخ لكم من أبيكم ، ألا ترون أي أوفي الكيل وأنا خير المتزئين ؟ فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون . قالوا : سزاود عنه أباه وإنما لفاعلون . وقال لفتياناه : اجعلوا بضاعتهم في رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون » ..

* ونجده وهو يدبر - بتدبير الله له - كيف يأخذ أخاه . فنلمح الشخصية الناضجة الواعية الحكيمة المطمئنة ، الضابطة الصابرة :

« ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه : قال : إني أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون . فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه ؛ ثم أذن مؤذن : أيها العير إنكم لسارقون . قالوا - وأقبلوا عليهم - ماذا تفقدون ؟ قالوا : نفقد صواع الملك ، ولمن جاء به حمل بعير ، وأنا به زعيم . قالوا : تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض ، وما كنا سارقين . قالوا : فما جزاؤه إن كنتم كاذبين ؟ قالوا : جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه ، كذلك نجزي الظالمين . فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ، ثم استخرجها من وعاء أخيه . . كذلك كدنا ليوسف ، ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك ، إلا أن يشاء الله ، نرفع درجات من نشاء ، وفوق كل ذي علم عليم . قالوا : إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل ! فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم ، قال : أتمم شر مكاناً ، والله أعلم بما تصفون . قالوا : يا أيها العزيز ، إن له أباً شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه ، إنا نراك من المحسنين . قال : معاذ الله أن تأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده ، إنا إذاً لظالمون » ..

* ثم نلتقي به وقد استوفت المحنة يعقوب أجلها ، وقدر الله أن تقضي الابتلاءات التي نزلت به وببيته ، وحن يوسف إلى أبويه وأهله ، ورق لإخوته والضرر باد بهم ، فكشف لهم عن نفسه ، في عتاب رقيق ، وفي عفو كريم ، يجيء في أوانه ، وكل الملابس توحى به ، وتوقعه من هذه الشخصية بسماتها تلك :

« فلما دخلوا عليه قالوا : يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر ، وجئنا ببضاعة مزجاة . فأوف لنا الكيل وتصدق علينا ، إن الله يجزي المتصدقين . قال : هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون ؟ قالوا : أئنتك لأنت يوسف ؟ قال : أنا يوسف ، وهذا أخي ، قد من الله علينا ، إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين . قالوا : تالله لقد آثرك الله علينا ، وإن كنا لخاطئين . قال : لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم ، وهو أرحم الراحمين . اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً ، وأتوني بأهلكم أجمعين » ..

* وفي النهاية يجيء ذلك الموقف الجليل الرائع . . موقف اللقاء الجامع ويوسف في أوج سلطانه وأوج تأويل رؤياه وتحقق أحلامه . . وإذا به ينسلخ من هذا كله ويتحى جانباً ينفرد بربه ، ويناجيه خالصاً له ، وذلك كله مطروح وراءه :

« رب قد آتيتني من الملك ، وعلمتني من تأويل الأحاديث . فاطر السماوات والأرض . أنت وليي في الدنيا والآخرة . توفني مسلماً وأحقني بالصالحين » ..

إنها شخصية موحدة متكاملة ، بكل واقعيته المثلثة لمقوماتها الواقعية في نشأتها وبيئتها .

* ويعقوب . . الوالد المحب الملهوف ، والنبي المطمئن الموصول ، وهو يواجه بالاستبشار والخوف معاً تلك الرؤيا الواعدة التي رآها يوسف ؛ وهو يرى فيها بشائر مستقبل مرموق ، بينما هو يتوجس خيفة من الشيطان وفعله في نفوس بنيه . فتتجلى شخصيته بواقعيته الكاملة في كل جوانبها :

« إذ قال يوسف لأبيه : يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين . قال :

يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً . إن الشيطان للإنسان عدو مبين . وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ، ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق ، إن ربك عليم حكيم .

ثم نجد هذه الشخصية كذلك بكل واقعتها البشرية النبوية ، وبنوه يراودونه عن يوسف ثم وهم يفاجئونه بالفجيجة :

« قالوا : يا أبانا ما لك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون . أرسله معنا غداً يرتع ويلعب ، وإنا له لحافظون . قال : إني ليحزني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأتم عنه غافلون . قالوا : لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذاً لخاصرون . فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب ، وأوحينا إليه لتنبئهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون . وجاءوا أباهم عشاء يبكون ، قالوا : يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب ، وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين . وجاءوا على قميصه بدم كذب ، قال : بل سولت لكم أنفسكم أمراً ؛ فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون » ..

ثم نلتقي بهذه الشخصية - بكل واقعتها تلك - وبنوه يراودونه مرة أخرى على السلوة الباقية له .. أخي يوسف .. وقد طلبه منهم عزيز مصر - يوسف - الذي لا يعرفونه ! في مقابل أن يعطيهم كيلاً يقاتلون به في السنوات العجاف !

« فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا : يا أبانا منع منا الكيل ، فأرسل معنا أخانا نكتل وإنا له لحافظون : قال : هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل ؟ فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين . ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم ، قالوا : يا أبانا ما نبغي ، هذه بضاعتنا ردت إلينا ، ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ، ونزداد كيل بعير ، ذلك كيل يسير . قال : لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله : لتأتني به إلا أن يحاط بكم . فلما آتوه موثقهم قال : الله على ما نقول وكيل .. وقال : يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة ، وما أغني عنكم من الله من شيء ، إن الحكم إلا لله ، عليه توكلت ، وعليه فليتوكل المتوكلون . ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغني عنهم من الله من شيء ، إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها ، وإنه لذو علم لما علمناه ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » ..

ثم نلتقي به في فجيعة الثانية .. والدأ ملهواً ونبياً موصولاً .. ذلك بعد أن دبر الله ليوسف كيف يأخذ أخاه . فيتخلف أحد أبناء يعقوب - صاحب الشخصية الخاصة فيهم ، متوافقاً مع سماته التي صاحبته مواقفه كلها في القصة ، مشفقاً أن يقابل أباه بعد الموثق الذي آتاه إياه . إلا أن يأذن له أبوه أويحكم له الله - :

« فلما استياسوا منه خلصوا نجياً ، قال كبيرهم : ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ، ومن قبل ما فرطتم في يوسف ؟ فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي ، أويحكم الله لي وهو خير الحاكمين . ارجعوا إلى أبيكم فقولوا : يا أبانا إن ابنك سرق ! وما شهدنا إلا بما علمنا ، وما كنا للغيب حافظين . واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها ، وإنا لصادقون . قال : بل سولت لكم أنفسكم أمراً ، فصبر جميل ، عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً إنه هو العليم الحكيم . وتولى عنهم وقال : يا أسفاً على يوسف ! وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم . قالوا : تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين ! قال : إنما أشكو بثي وحزني إلى الله ، وأعلم من الله ما لا تعلمون . يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه : ولا تياسوا من روح الله . إنه لا يياس من روح الله إلا القوم الكافرون » ..

وفي آخر مواقف المحنة الطويلة للشيخ المبلى نجد ذات الملامح وذات الواقعية . وهو يشم ريح يوسف في قميصه ، ويواجه غيظ بنيه وتبكيتهم فلا يشك في صدق ظنه بربه :

« ولما فصلت العير قال أبوهم : إني لأجد ريح يوسف ، لولا أن تفندون . قالوا : تالله إنك لفي ضلالك القديم . فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيراً . قال : ألم أقل لكم : إني أعلم من الله ما لا تعلمون ؟ قالوا : يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين . قال : سوف أستغفر لكم ربي ، إنه هو الغفور الرحيم »
إنها الشخصية الموحدة الخصائص والملامح ، الواقعية المشاعر والتصرفات ، الممثلة لكل واقعية ذاتها وظروفها وبيئتها بلا تزوير ولا نقص ولا تحريف !

* * *

والواقعية الصادقة الأمينة النظيفة السليمة في الوقت نفسه ، لا تقف عند واقعية الشخصيات الإنسانية التي تحفل بها القصة في هذا المجال الواسع ، على هذا المستوى الرائع . ولكنها تتجلى كذلك في واقعية الأحداث والسرود والعرض وصدقها وطبيعتها في مكانها وزمانها ، وفي بيئتها وملابساتها .. فكل حركة وكل خالجة وكل كلمة تجيء في أوانها ؛ وتجيء في الصورة المتوقعة لها ؛ وتجيء في مكانها من مسرح العرض ؛ متراوحة بين منطقة الظل ومنطقة الضوء بحسب أهميتها ودورها وطبيعة جريان الحياة بها .. الأمر الملحوظ في الشخصيات أيضاً كما قررنا من قبل هذا ..

حتى لحظات الجنس في القصة ومواقفه أخذت مساحتها كاملة - في حدود المنهج النظيف اللائق « بالإنسان » في غير تزوير ولا نقص ولا تحريف للواقعية البشرية في شمولها وصدقها وتكاملها - ولكن استيفاء تلك اللحظات لمساحتها المتناسقة مع بقية الأحداث والمواقف لم يكن معناه الوقوف أمامها كما لو كانت هي كل واقعية الكائن البشري ؛ وكما لو كانت هي محور حياته كلها ، وهي كل أهداف حياته التي تستغرقها ! كما تحاول الجاهلية أن تفهمنا أن هذا وحده هو الفن الصادق !

إن الجاهلية إنما تسمح الكائن البشري باسم الصدق الفني ! وهي تقف أمام لحظة الجنس كما لو كانت هي كل وجهة الحياة البشرية بجمليتها ؛ فتنشئ منها مستقفاً واسعاً عميقاً ، مزيناً في الوقت ذاته بالأزهار الشيطانية ! وهي لا تفعل هذا لأن هذا هو الواقع ، ولا لأنها هي مخرصة في تصوير هذا الواقع ! إنما تفعله لأن « بروتوكولات صهيون » تريد هذا ! تريد تجريد « الإنسان » إلا من حيوانيته حتى لا يوصم اليهود وخدمهم بأنهم هم الذين يتجردون من كل القيم غير المادية ! وتريد أن تغرق البشرية كلها في وحل المستنقع كي تنحصر فيه كل اهتماماتها ، وتستغرق فيه كل طاقاتها ؛ فهذه هي أضمن سبيل لتدمير البشرية حتى تجثو على ركبتيها خاضعة لملك صهيون المرتقب الملعون ! ثم تتخذ من الفن وسيلة إلى هذا الشر كله ، إلى جانب ما تتخذ من نشر المذاهب « العلمية » ! المؤدية إلى ذات الهدف . تارة باسم « الداروينية » وتارة باسم « الفرويدية » وتارة باسم « الماركسية » أو « الاشتراكية العلمية » .. وكلها سواء في تحقيق المخططات الصهيونية الرهيبة !

* * *

والقصة بعد ذلك تتجاوز الشخصيات والأحداث لترسم ظلال الفترة التاريخية التي تجري فيها أحداث القصة ، وتحرك فيها شخصياتها الكثيرة ، وتسجل سماتها العامة ، وترسم مسرح الأحداث بأبعاده العالمية في تلك الفترة التاريخية .. ونكتفي ببعض اللمحات والسهام التي ترسم تلك الأبعاد :

* إن مصر في هذه الفترة لم يكن يحكمها الفراعنة من الأسر المصرية ؛ إنما كان يحكمها « الرعاة » الذين عاش إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب قريباً منهم ، فعرفوا شيئاً عن دين الله منهم . نأخذ هذا من ذكر القرآن للملك بلقب « الملك » في حين يسمى الملك الذي جاء على عهد موسى - عليه السلام - من بعد بلقبه المعروف . « فرعون » .. ومن هذا يتحدد زمن وجود يوسف - عليه السلام - في مصر . فهو كان ما بين عهد الأسرة الثالثة عشرة والأسرة السابعة عشرة ؛ وهي أسر « الرعاة » الذين سماهم المصريون « الهكسوس » ! كراهية لهم ؛ إذ يقال : إن معنى الكلمة في اللغة المصرية القديمة : « الخنازير » أو « رعاة الخنازير » ! وهي فترة تستغرق نحو قرن ونصف قرن .

* إن رسالة يوسف عليه السلام كانت في هذه الفترة . وهو كان قد بدأ الدعوة إلى الإسلام .. ديانة التوحيد الخالص .. وهو في السجن ؛ وقرر أنها دين آباءه إبراهيم وإسحاق ويعقوب ؛ وقررها في صورة واضحة كاملة دقيقة شاملة ، فيما حكاه القرآن الكريم من قوله :

« إني تركت قوم لا يؤمنون بالله ، وهم بالآخرة هم كافرون . واتبعت ملة آباي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون . يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟ ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، إن الحكم إلا لله ، أمر ألا تعبدوا إلا إياه ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » ..

وهي صورة للإسلام واضحة كاملة ودقيقة شاملة - كما جاء به رسل الله جميعاً - من ناحية أصول العقيدة . تحتوي ، الإيمان بالله ، والإيمان بالآخرة ، وتوحيد الله وعدم الشرك به أصلاً ، ومعرفة الله سبحانه بصفاته .. الواحد ، القهار .. والحكم بعدم وجود حقيقة ولا سلطان لغيره أصلاً ؛ ومن ثم نفي الأرباب التي تتحكم في رقاب العباد ، وإعلان السلطان والحكم لله وحده ، مادام أن الله أمر ألا يعبد الناس غيره . ومزاولة السلطان والحكم والربوبية هي تعبيد للناس مخالف للأمر بعبادة الله وحده . وتحديد معنى « العبادة » بأنها الخضوع للسلطان والحكم والإذعان للربوبية ، وتعريف الدين القيم بأنه إفراد الله سبحانه بالعبادة - أي إفراده بالحكم - فهما مترادفان أو متلازمان : « إن الحكم إلا لله ، أمر ألا تعبدوا إلا إياه . ذلك الدين القيم » .. وهذه هي أوضح صورة للإسلام وأكملها وأدقها وأشملها ..

وواضح أن يوسف - عليه السلام - عندما سيطر على مقاليد الأمور في مصر ، استمر في دعوته للإسلام على هذا النحو الواضح الكامل الدقيق الشامل .. ولا بد أن الإسلام انتشر في مصر على يديه - وهو يقبض على أقوات الناس وأزوادهم لا على مجرد مقاليد الحكم بينهم - وانتشر كذلك في البقاع المجاورة ممن كانت وفودها تجيء لتقتات مما تم ادخاره بحكمته وتدييره - وقد رأينا إخوة يوسف يجيئون من أرض كنعان المجاورة في الأردن ضمن غيرهم من القوافل ليمتاروا من مصر ويتزودوا ، مما يصور حالة الجذب التي حلت بالمنطقة كلها في هذه الفترة .

والقصة تشير إلى آثار باهتة للعقيدة الإسلامية التي عرف الرعاة شيئاً عنها في أول القصة ، كما تشير إلى انتشار هذه العقيدة ووضوحها بعد دعوة يوسف بها .

والإشارة الأولى وردت في حكاية قول النسوة حين طلع عليهن يوسف :

« فلما رأيته أكبره ، وقطعن أيديهن وقلن : حاش لله ! ما هذا بشراً . إن هذا إلا ملك كريم » ..

ووردت في قول العزيز لامرأته :

« يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك ؛ إنك كنت من الخاطئين » ..
أما الإشارة الثانية الواضحة فقد جاءت على لسان امرأة العزيز التي يتجلى أنها آمنت بعقيدة يوسف وأسلمت في النهاية ، فيما حكاه عنها السياق القرآني :

« قالت امرأة العزيز : الآن جصحص الحق ، أنا راودته عن نفسه ، وإنه لمن الصادقين ، ذلك ليعلم أنني لم أخنه بالغيب ، وأن الله لا يهدي كيد الخائنين . وما أبرئ نفسي . إن النفس لأماراة بالسوء إلا ما رحم ربي ، إن ربي غفور رحيم » ..

وإذا اتضح أن ديانة التوحيد - على هذا المستوى - كانت قد عرفت قبل تولي يوسف مقاليد الحكم في مصر ؛ فلا بد أن تكون قد انتشرت بعد ذلك واستقرت على نطاق واسع في أثناء توليه الحكم ، ثم من بعد ذلك في عهد أسر الرعاة . فلما استرد الفراعنة زمام الأمور في الأسرة الثامنة عشرة أخذوا يقاومون ديانة التوحيد ممثلة في ذرية يعقوب التي تكاثرت في مصر ، لإعادة الوثنية التي تقوم عليها الفرعونية ! ..

وهذا يكشف لنا سبباً أصيلاً من أسباب اضطهاد الفراعنة بعد ذلك لبني إسرائيل - أي يعقوب - إلى جانب السبب السياسي ، وهو أنهم جاءوا واستوطنوا وحكموا واستقروا في عهد ملوك الرعاة الوافدين . فلما طرد المصريون ملوك الرعاة طاردوا حلفاءهم من بني إسرائيل أيضاً .. وإن كان اختلاف العقيدتين ينبغي أن يكون هو التفسير الأقوى لذلك الاضطهاد الفظيع . ذلك أن انتشار عقيدة التوحيد الصحيحة يحطم القاعدة التي يقوم عليها ملك الفراعين ! فهي العدو الأصيل للطواغيت وحكم الطواغيت وربوبية الطواغيت ! ولقد وردت إشارة إلى هذا الذي نقرره في حكاية القرآن الكريم لقول مؤمن آل فرعون في سورة غافر ؛ في دفاعه الإسلامي المجيد عن موسى عليه السلام ، في وجه فرعون وملئه عندما همّ فرعون بقتل موسى ، ليقتل معه الخطر الذي يتهدد ملكه كله من عقيدة التوحيد التي جاء بها موسى :

« وقال فرعون : ذروني أقتل موسى وليدع ربه ، إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد . وقال موسى : إني عدتُ بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب . وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه : أتقتلون رجلاً أن يقول : ربي الله ؟ وقد جاءكم بالبينات من ربكم ، وإن يك كاذباً فعليه كذبه ، وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم ، إن الله لا يهدي من ربهكم ، وما أهدى لكم اليوم سبيل الرشاد . وقال الذي آمن : يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب . مثل داب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم ، وما الله يريد ظلماً للعباد ، ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد . يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم ، ومن يضل الله فما له من هاد .. ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به ، حتى إذا هلك قلتم : لن يبعث الله من بعده رسولاً ، كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب . الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم . كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا ! كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار... الخ » ..

فقد كان الصراع الحقيقي بين عقيدة التوحيد التي تفرد الله سبحانه بالربوبية ، وتفرد به بالعبادة - أي بالدينونة والخضوع والاتباع لحاكميته وحده - وبين الفرعونية التي تقوم على أساس العقيدة الوثنية ، ولا تقوم إلا بها . ولعل التوحيد الناقص المشوه الذي عرف به « أختاتون » لم يكن إلا أثراً من الآثار المضطربة التي بقيت

من التوحيد الذي نشره يوسف عليه السلام في مصر كما أسلفنا ؛ وبخاصة إذا صح ما يقال في التاريخ من أن أم أختاتون كانت آسيوية ولم تكن فرعونية !

وبعد هذا الاستطراد نعود إلى اللمحات الدالة على طبيعة الفترة التاريخية التي وقعت فيها أحداث القصة وتحركت فيها أشخاصها . فنجدها تتجاوز حدود الرقعة المصرية ، وتسجل طابع العصر كله . فواضح تماماً انطباع هذه الفترة الزمنية بالرؤى والتنبؤات التي لا تقتصر على أرض واحدة ، ولا على قوم بأعيانهم . . ونحن نرى هذه الظاهرة واضحة في رؤيا يوسف وتعبيرها وتأويلها في النهاية . وفي رؤيا الفتيتين صاحبي السجن . وفي رؤيا الملك في النهاية . . وكلها تتلقى بالاهتمام سواء من يرونها أو ممن يسمعونها مما يشي بطابع العصر كله ! وعلى وجه الإجمال فإن القصة غنية بالعناصر الفنية . غنية كذلك بالعنصر الإنساني ، حافلة بالانفعال والحركة . وطريقة الأداء تبرز هذه العناصر إبرازاً قوياً . فضلاً على خصائص التعبير القرآنية الموحية المؤثرة ، ذات الإيقاع الموسيقي المناسب لكل جو من الأجواء التي يصورها السياق .

في القصة يتجلى عنصر الحب الأبوي في صور ودرجات متنوعة واضحة الخطوط والظلال : في حب يعقوب ليوسف وأخيه وحبه لبقية أبنائه . وفي استجاباته الشعورية للأحداث حول يوسف من أول القصة إلى آخرها .

وعنصر الغيرة والتحاسد بين الإخوة من أمهات مختلفات ، بحسب ما يرون من تنوع صور الحب الأبوي . وعنصر التفاوت في الاستجابات المختلفة للغيرة والحسد في نفوس الإخوة ؛ فبعضهم يقودهم هذا الشعور إلى إضمار جريمة القتل ، وبعضهم يشير فقط بطرح يوسف في الجب تلتقطه بعض السيارة فوراً من الجريمة . . وعنصر المكر والخداع في صور شتى . من مكر إخوة يوسف به ، إلى مكر امرأة العزيز بيوسف وبزوجها وبالنوسة .

وعنصر الشهوة ونزواتها والاستجابة لها بالاندفاع أو بالإحجام . وبالإعجاب والتمني ، والاعتصام والتأني . وعنصر الندم في بعض ألوانه ، والعفو في أوانه . والفرح بتجمع المتفارقين . .

وذلك إلى بعض صور المجتمع الجاهلي في طبقة العلية من الملأ : في البيت والسجن والسوق والديوان - في مصر يومذاك . والمجتمع العبراني ، وما يسود العصر من الرؤى والتنبؤات .

وتبدأ القصة بالرؤيا يقصها يوسف على أبيه ، فينبئه أبوه بأن سيكون له شأن عظيم ، وينصحه ألا يقصها على إخوته كي لا يثير حسدهم فيغريهم الشيطان به فيكيدون له . . ثم تسير القصة بعد ذلك ، وكأنما هي تأويل للرؤيا ولما توقعه يعقوب من ورائها حتى إذا اكتمل تأويل الرؤيا في النهاية أنهى السياق القصة ، ولم يسر فيها كما سار كتاب « العهد القديم » بعد هذا الختام الفني الدقيق ، الوافي بالغرض الديني كل الوفاء .

وما يسمى بالعقدة الفنية في القصة واضح في قصة يوسف . فهي تبدأ بالرؤيا كما سبق ، ويظل تأويلها مجهولاً ، يتكشف قليلاً قليلاً ، حتى تجيء الخاتمة فتحل العقدة حلاً طبيعياً لا تعمل فيه ولا اصطناعاً !

والقصة مقسمة إلى حلقات . كل حلقة تحتوي جملة مشاهد . والسياق يترك فجوات بين المشهد والمشهد يملؤها تخيل القارئ وتصوره ، ويكمل ما حذف من حركات وأقوال ، مع ما في هذا من تشويق ومتاع . . وحسبنا هذا القدر من التحليل الفني لقصة يوسف ، وتمثيلها للمنهج القرآني الإسلامي في الأداء . وفي هذا القدر ما يكشف عن مدى الإمكانيات التي يعرضها هذا المنهج للمحاولات البشرية في الأدب الإسلامي ،

لتمكينه من الأداء الفني الكامل والواقعية الصادقة السليمة ، دون أن يسف أو يحتاج إلى التخلي عن النظافة اللائقة بفن يقدم لـ « الإنسان » !

* * *

وتبقى وراء ذلك كله عبرة القصة وقيمتها في مجال الحركة الإسلامية ؛ وإيحاءاتها المتوافية مع حاجات الحركة في بعض مراحلها . ومع حاجاتها الثابتة التي لا تتعلق بمرحلة خاصة منها . إلى جانب الحقائق الكبرى التي تنقرر من خلال سياق القصة ، ثم من خلال سياق السورة كلها بعد ذلك . وبخاصة تلك التعقيبات الأخيرة في السورة ..

ونكتفي في هذا التقديم للسورة بلمحات سريعة من هذا كله :

* لقد أشرنا في مطالع هذا التقديم إلى مناسبة قصة يوسف بجملتها للفترة الحرجة التي كانت تمر بها الحركة الإسلامية في مكة عند نزول السورة ، وللشدة التي كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والقللة المؤمنة معه يتعرضون لها . وذلك بما تحمل القصة من عرض لابتلاءات أخ كريم للنبي الكريم ؛ ثم بما تحمله بعد ذلك من استفزاز من الأرض ثم تمكين^٢ .

وهذا الذي سبق أن قررناه يصور لونا من إيحاءات القصة المتوافية مع حاجات الحركة الإسلامية في تلك الفترة ؛ ويقرب معنى « الطبيعة الحركية » لهذا القرآن وهو يزود الدعوة ، ويدفع الحركة ، ويوجه الجماعة المسلمة توجيهاً واقعياً إيجابياً محدد الهدف مرسوم الطريق .

* كذلك أشرنا في ثنايا تحليل القصة إلى الصورة الواضحة الكاملة الدقيقة الشاملة للإسلام ، كما عرضها يوسف عليه السلام . وهي صورة تستحق الوقوف أمامها طويلاً ..

إنها تقرر ابتداء وحدة العقيدة الإسلامية التي جاء بها الرسل جميعاً ؛ واستيفاء مقوماتها الأساسية في كل رسالة ؛ وقيامها على التوحيد الكامل لله سبحانه ، وعلى تقرير ربوبيته للبشر وحده ، ودينونة البشر له وحده .. كما تقرر تضمن تلك العقيدة الواحدة للإيمان بالدار الآخرة بصورة واضحة . وهذا التقرير يقطع الطريق على مزاعم ما يسمونه « علم الأديان المقارن » من أن البشرية لم تعرف التوحيد ولا الآخرة إلا أخيراً جداً ، بعد أن اجتازت عقائد التعدد والتثنية بأشكالها وصورها المختلفة ؛ وأنها ترقى في معرفة العقيدة كما ترقى في معرفة العلوم والصناعات .. هذه المزاعم التي تتجه إلى تقرير أن الأديان من صنع البشر شأنها شأن العلوم والصناعات^٣ .

كذلك هي تقرر طبيعة ديانة التوحيد التي جاء بها الرسل جميعاً .. إنه ليس توحيد الألوهية فحسب . ولكنه كذلك توحيد الربوبية .. وتقرير أن الحكم لله وحده في أمر الناس كله ؛ وأن هذا التقرير ناشئ من أمر الله سبحانه بالألوهية والإياه . والتعبير القرآني الدقيق في هذه القضية يحدد مدلول « العبادة » تحديداً دقيقاً . فهي الحكم من جانب الله والدينونة من جانب البشر .. وهذا وحده هو « الدين القيم » فلا دين إذن لله ما لم تكن دينونة الناس لله وحده ، وما لم يكن الحكم لله وحده . ولا عبادة لله إذن إذا دان الناس لغير الله في

(١) للاستزادة من البحث تراجع كتاب : « منهج الفن الإسلامي » لمحمد قطب . نشر « دار الشروق » .

(٢) ص ١٩٥٠ من هذا الجزء .

(٣) تراجع ماسبق تقريره عن هذه القضية في هذا الجزء ص ١٨٧٨ - ١٨٨٢ .

شأن واحد من شؤون الحياة . فتوحيد الألوهية يقتضي توحيد الربوبية . والربوبية تتمثل في أن يكون الحكم لله .. أو أن تكون العبادة لله .. فهما مترادفان أو متلازمان . والعبادة التي يعتبر بها الناس مسلمين أو غير مسلمين هي الدينونة والخضوع والاتباع لحكم الله دون سواه ..

وهذا التقرير القرآني بصورته هذه الجازمة ينهي كل جدل في اعتبار الناس في أي زمان وفي أي مكان مسلمين أو غير مسلمين ، في الدين القيم أم في غير هذا الدين .. فهذا الاعتبار يعد من المعلوم من الدين بالضرورة .. من دان لغير الله وحكم في أي أمر من أمور حياته غير الله ، فليس من المسلمین وليس في هذا الدين . ومن أفرد الله سبحانه بالحاكمية ورفض الدينونة لغيره من خلائقه فهو من المسلمین وفي هذا الدين .. وكل ما وراء ذلك تمحل لا يحاوله إلا المهزومون أمام الواقع الثقيل في بيئة من البيئات وفي قرن من القرون ! ودين الله واضح . وهذا النص وحده كاف في جعل هذا الحكم من المعلوم من الدين بالضرورة . من جادل فيه فقد جادل في هذا الدين !

* ومن الإيحاءات الواردة في ثنايا القصة صورة الإيمان المتجرد الخالص الموصول كما تتجلى في قلبي
عبدین صالحین من عباد الله المختارين : يعقوب ويوسف :

فأما يوسف فقد أشرنا من قبل إلى موقفه الأخير متجرداً من كل شيء ، نافضاً عنه كل شيء ، متجهاً إلى ربه ، مبتهلاً إليه في انكسار وفي خشوع يناجيه :

« رب قد آتيتني من الملك ، وعلمتني من تأويل الأحاديث ، فاطر السماوات والأرض ، أنت وليي في الدنيا والآخرة ، توفني مسلماً وأحقني بالصالحين » ..

ولكن هذا الموقف الأخير لم يكن هو كل شيء في هذا الجانب ؛ فهو على مدار القصة يقف هذا الموقف ، موصولاً بربه ، يحسه - سبحانه - قريباً منه مستجيباً له :

في موقف الإغراء والفتنة والغواية يهتف :

« معاذ الله ! إنه ربي أحسن مثواي . إنه لا يفلح الظالمون » ..

وفي الموقف الآخر وهو يخشى على نفسه الضعف والميل يهتف كذلك :

« رب ، السجن أحب إلي مما يدعونني إليه ، وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين » ..

وفي موقف تعريف نفسه لإخوته ، يبين فضل الله عليه ويشكر نعمته ويذكرها :

« قالوا : أأنك لأنت يوسف ؟ قال : أنا يوسف وهذا أخي قد منّ الله علينا ، إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين » ..

وكلها مواقف تحمل إيحاءات يتجاوز مداها حاجة الحركة الإسلامية في مكة ، إلى حاجة الحركة الإسلامية في كل فترة .

وأما يعقوب ففي قلبه تتجلى حقيقة ربه باهرة عميقة لطيفة مأنوسة في كل موقف وفي كل مناسبة ؛ وكلما اشتد البلاء شفت تلك الحقيقة في قلبه ورفت بمقدار ما تعمقت وبرزت ..

فئذ البدء ويوسف يقص عليه رؤياه يذكر ربه ويشكر نعمته :

« وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ، ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على

أبيك من قبل إبراهيم وإسحاق ، إن ربك عليم حكيم » ..

وفي مواجهة الصدمة الأولى في يوسف يتجه إلى ربه مستعيناً به :

« قال : بل سولت لكم أنفسكم أمراً ، فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون » ..

وفي مواجهته لعاطفته الأبوية الخائفة على أبنائه ، وهو يوصيهم ألا يدخلوا من باب واحد وأن يدخلوا مصر من أبواب متفرقة ، لا ينسى أن هذا التدبير لا يغي عنهم من الله شيئاً ، وأن الحكم النافذ هو حكم الله وحده ؛ وإنما هي حاجة في النفس لا تغني من الله وقدره :

« وقال : يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة ، وما أغني عنكم من الله من شيء ، إن الحكم إلا لله ، عليه توكلت ، وعليه فليتوكل المتوكلون » ..

وفي مواجهة الصدمة الثانية في كبرته وهرمه وضعفه وحزنه ، لم يتسرب اليأس من رحمة ربه لحظة واحدة إلى قلبه :

« قال : بل سولت لكم أنفسكم أمراً ، فصبر جميل ، عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً ؛ إنه هو العليم الحكيم » .
ثم يبلغ تجلي الحقيقة في قلب يعقوب درجة البهاء والصفاء ، وبنوه يؤنّبونه على حزنه على يوسف وبكائه له حتى تبيض عيناه من الحزن ؛ فيواجههم بأنه يجد حقيقة ربه في قلبه كما لا يجدونها ، ويعلم من شأن ربه ما لا يعلمون ؛ فمن هنا اتجأه إليه وحده وشكواه له وبثه ؛ ورجاؤه في رحمته وروحه :

« وتولى عنهم وقال : يا أسفا على يوسف ! وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم . قالوا : تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين ! قال : إنما أشكو بثي وحزني إلى الله ، وأعلم من الله ما لا تعلمون .. يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ، ولا تياسوا من روح الله ، إنه لا يياس من روح الله إلا القوم الكافرون » ..

ولقد ذكرهم بما يعلمه من شأن ربه وما يجده من حقيقته في قلبه ، وهم يجادلونه في ربح يوسف ، وقد صدّق الله فيه ظنه :

« ولما فصلت العير قال أبوه : إني لأجد ربح يوسف ، لولا أن تفندون . قالوا : تالله إنك لفي ضلالك القديم . فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيراً ، قال : ألم أقل لكم : إني أعلم من الله ما لا تعلمون ؟ » .
إنها الصورة الباهرة لتجلي حقيقة الألوهية في قلب من قلوب الصفوة المختارة . وهي تحمل الإيحاء المناسب لفترة الشدة في حياة الجماعة المسلمة في مكة ؛ كما أنها تحمل الإيحاء الدائم بالحقيقة الإيمانية الكبيرة ، لكل قلب يعمل في حقل الدعوة والحركة بالإسلام على مدار الزمان أيضاً .

* * *

وأخيراً نجيء إلى التعقيبات المتنوعة التي جاءت بعد القصة الطويلة إلى نهاية السورة .

* إن التعقيب الأول والمباشر يواجه تكذيب قريش بالوحي إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بتقرير مأخوذ من هذا القصص الذي لم يكن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حاضراً وقائمه :

« ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ، وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون » ..

وهذا التعقيب يترابط مع التقديم للقصة في الاتجاه ذاته :

« نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ، وإن كنت من قبله لمن الغافلين » ..

والتقديم والتعقيب على هذا النحو يؤلفان مؤثراً موحياً من المؤثرات الكثيرة في سياق السورة ، لتقرير الحقيقة التي يعرضانها ، وتوكيدها في مواجهة الاعتراض والتكذيب .

* ومن ثم يعقب ذلك التسرية عن قلب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وتهوين أمر المكذبين على نفسه . وبيان مدى عنادهم وإصرارهم وعماهم عن الآيات الماثورة في كتاب الكون ، وهي حسب الفطرة السليمة في التنبيه إلى دلائل الإيمان ، والاستماع إلى الدعوة والبرهان . ثم تهديدهم بعذاب الله الذي قد يفاجئهم وهم غافلون :

« وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين . وما تسألهم عليه من أجر ، إن هو إلا ذكر للعالمين . وكأني من آية في السماوات والأرض يعمرون عليها وهم عنها معرضون . وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون . أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون ؟ » ..

وهي إيقاعات مؤثرة بقدر ما تحمل من حقائق عميقة عن طبيعة الناس حين لا يدينون بدين الله الصحيح . وبخاصة في قوله تعالى : « وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون » ..

فهذا هو التصوير العميق لكثير من النفوس التي يختلط فيها الإيمان بالشرك ، لأنها لم تحسم في قضية التوحيد . وهنا يجيء الإيقاع الكبير العميق المؤثر الموحى ، بتوجيه الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى تحديد طريقه وتميزها وإفرادها عن كل طريق ، والمفاصلة على أساسها الواضح الفريد :

« قل : هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني ، وسبحان الله ، وما أنا من المشركين » ..

* ثم تختم السورة بإيقاع آخر يحمل عبرة القصص القرآني كله ، في هذه السورة وفي سواها . يحملها للنبي - صلى الله عليه وسلم - والقللة المؤمنة معه ، ومعها التثبيت والتسرية والبشرى ؛ ويحملها للمشركين المعاندين ، ومعها التذكير والعظة والنذير . كما أن فيها للجميع تقريراً لصدق الوحي وصدق الرسول ؛ وتقريراً لحقيقة الوحي وحقيقة الرسالة ، مع تخلص هذه الحقيقة من الأوهام والأساطير :

« وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى . أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ؟ ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون ؟ حتى إذا استأسس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا ، فننجي من نشاء ، ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين . لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ، ما كان حديثاً يفترى ، ولكن تصديق الذي بين يديه ، وتفصيل كل شيء ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » ..

إنه الإيقاع الأخير . والإيقاع الكبير ..

* * *

وبعد فلعل من المناسب في تقديم السورة التي حوت قصة يوسف ، نموذجاً كاملاً للأداء الفني الصادق الجميل ، أن نلم بشيء من لطائف التناسق في الأداء القرآني في السورة بكاملها وأن نقف عند نماذج من هذه اللطائف تمثل سائرها :

* في هذه السورة - كما في السور القرآنية الأخرى - تتكرر تعبيرات معينة ، تؤلف جزءاً من جو السورة وشخصيتها الخاصة . وهنا يرد ذكر العلم كثيراً ، وما يقابله من الجهل وقلة العلم في مواضع شتى :

« وكذلك يحببك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ، ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب ، كما أمتها »

على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق ، إن ربك عليم حكيم » ..
« وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ، ولنعلمه من تأويل الأحاديث . والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

« ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً . وكذلك نجزي المحسنين » ..
« فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن ؛ إنه هو السميع العليم » ..
« قال : لا يأتيكما طعام ترزقانه ، إلا نياتكما بتأويله قبل أن يأتيكما . ذلكما مما علمني ربي » ..
« إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » ..
« قالوا : أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين » ..
« يوسف أيها الصديق أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر وأخريابسات ، لعلني أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون » ..

« وقال الملك : اتئوني به ، فلما جاءه الرسول قال : أرجع إلى ربك فاسأله : ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ؟ إن ربي بكيدهن عليم » ..

« ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين » ..
« قال : اجعلني على خزائن الأرض ؛ إني حفيظ عليم » ..
« ... وإنه لذو علم لما علمناه ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » ..
« قالوا : تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين » ..
« قال : أنتم شر مكاناً ، والله أعلم بما تصفون » ..
« فلما استيأسوا منه خلصوا نجياً قال كبيرهم : ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله .. » ..
« وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين » ..
« عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً ، إنه هو العليم الحكيم » ..
« قال : إنما أشكو بثي وحزني إلى الله ، وأعلم من الله ما لا تعلمون » ..
« قال : هل علمتم بما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون ؟ » ..
« قال : ألم أقل لكم : إني أعلم من الله ما لا تعلمون ؟ » ..
« رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث ... » ..

وهي ظاهرة-بارزة تلفت النظر إلى بعض أسرار التناسق ولطائفه في هذا الكتاب الكريم .
* وفي السورة تعريف بخصائص الألوهية ، وفي مقدمتها « الحكم » وهو يرد مرة على لسان يوسف - عليه السلام - بمعنى الحاكمية في العباد من ناحية دينوتهم وطاعتهم الإرادية ، ويأتي مرة على لسان يعقوب - عليه السلام - بمعنى الحاكمية في العباد من ناحية دينوتهم لله في صورتها القهرية القدرية ، فيتكامل المعنيان في تقرير مدلول الحكم وحقيقة الألوهية على هذا النحو الذي لا يجيء عفواً ولا مصادفة أبداً :
يقول يوسف في معرض تنفيذ ربوبية الحكام في مصر ومخالفتها لوحداية الألوهية :
« يا صاحبي السجن ، أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟ ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها »

أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان . إن الحكم إلا لله ، أمر ألا تعبدوا إلا إياه ، ذلك الدين القيم » ..
 ويقول يعقوب في معرض تقرير أن قدر الله نافذ وأن قضاءه ماض :
 « يا بني ، لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة ، وما أغني عنكم من الله من شيء ، إن
 الحكم إلا لله ، عليه توكلت ، وعليه فليتوكل المتوكلون » ..
 وهذا التكامل في مدلول الحكم يشير إلى أن الدين لا يستقيم إلا أن تكون الدينونة الإرادية لله في الحكم ،
 كالدينونة القهرية له سبحانه في القدر . فكلاهما من العقيدة ؛ وليست الدينونة في القدر القاهر وحدها هي
 الداخلة في نطاق الاعتقاد ، بل الدينونة الإرادية في الشريعة هي كذلك في نطاق الاعتقاد .
 * ومن لطائف التناسق أن يذكر يوسف الحضيف الكيس اللطيف المدخل ، صفة الله المناسبة .. « اللطيف »
 في الموقف الذي يتجلى فيه لطف الله في التصريف :
 « ورفع أبويه على العرش ، وخرخوا له سجداً . وقال : يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي
 حقاً . وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن ، وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي ..
 إن ربي لطيف لما يشاء .. إنه هو العليم الحكيم » ..
 * ومن لطائف التناسق ما سبق أن أشرنا إليه من التطابق في السورة بين تقديم القصص ، والتعقيب المباشر
 عليه ، والتعقيب الختامي الطويل .. وكل هذه التعقيبات تتجه إلى تقرير قضاياها واحدة ، وتلتاق عليها بين
 البدء والختام ..
 وحسبنا في التعريف بالسورة هذه اللمسات حتى نلتقي بها في السياق .

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّتِّ تَلْكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْءَانَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ ﴿١٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿١٤﴾ قَالَ يَبْنَؤُ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَيَّ إِخْرَجْتَنِي كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٦﴾

* لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَاتٌ لِّلسَّالِفِينَ ﴿١٧﴾ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا أَيْنَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٨﴾ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَالْقَوَاهُ فِي غَيْبَتِ الْخُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٢٠﴾

قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمُرُنَا عَلَىٰ يُونُسَ وَإِنَّا لَهُ لَنَنْصِحُونَ ﴿٢١﴾ أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنِّي لِيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَسِرُونَ ﴿٢٤﴾

فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْخُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ وَجَاءَ وَآبَاهُمْ عِشَاءً يَبُوءُونَ ﴿٢٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْعِنَا فَاكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿٢٧﴾ وَجَاءَ وَعَلَىٰ قَيْصِهِ يَدُورُ كَذِبٌ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا

فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾

وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَبشُرِي هَذَا غُلْمٌ وَأَسْرُوهُ بَضْعَةَ ٤ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا

يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَّوهُ بِئَمْنٍ بَحْرٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾

هذا الدرس هو المقدمة ، ثم الحلقة الأولى من القصة ، وتتألف من ستة مشاهد ، وتبدأ من رؤيا يوسف إلى نهاية مؤامرة إخوته عليه ، ووصوله إلى مصر .. وسنواجه النصوص الواردة فيه مباشرة ، بعد ذلك التقديم السابق للسورة ، وفيه غناء :

* * *

« أُر . تلك آيات الكتاب المبين . إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون . نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين » ..

ألف . لام . را .. « تلك آيات الكتاب المبين » ..

هذه الأحرف وما من جنسها وهي قريبة للناس متداولة بينهم . هي هي بعينها تلك الآيات البعيدة المتسامية على الطاقة البشرية . آيات الكتاب المبين . ولقد نزله الله كتاباً عربياً مؤلفاً من هذه الأحرف العربية المعروفة : « لعلكم تعقلون » ..

وتدركون أن الذي يصنع من الكلمات العادية هذا الكتاب المعجز لا يمكن أن يكون بشراً ، فلا بد عقلاً أن يكون القرآن وحياً . والعقل هنا مدعو لتدبر هذه الظاهرة ودلائلها القاهرة .

ولما كان جسم هذه السورة قصة فقد أبرز ذكر القصص من مادة هذا الكتاب ، على وجه التخصيص : « نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن » ..

فبإيحائنا هذا القرآن إليك قصصنا عليك هذا القصص - وهو أحسن القصص - وهو جزء من القرآن الموحى به .

« وإن كنت من قبله لمن الغافلين » ..

فقد كنت أحد الأميين في قومك ، الذين لا يتوجهون إلى هذا النحو من الموضوعات التي جاء بها القرآن ، ومنها هذا القصص الكامل الدقيق

* * *

هذه المقدمة إشارة البدء إلى القصة ..

ثم يرفع الستار عن المشهد الأول في الحلقة الأولى ، لئرى يوسف الصبي يقص رؤياه على أبيه : « إذ قال يوسف لأبيه : يا أبت ، إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر . رأيتهم لي ساجدين . قال : يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك ، فيكيدوا لك كيداً . إن الشيطان للإنسان عدو مبين . وكذلك

يحبتيك ربك ، ويعلمك من تأويل الأحاديث ، ويتم نعمته عليك ، وعلى آل يعقوب ، كما أمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق ، إن ربك عليم حكيم » ..

كان يوسف صبيّاً أو غلاماً ؛ وهذه الرؤيا كما وصفها لأبيه ليست من رؤى الصبية ولا الغلمان ؛ وأقرب ما يراه غلام - حين تكون رؤياه صبيانية أو صدى لما يحلم به - أن يرى هذه الكواكب والشمس والقمر في حجره أو بين يديه يطولها . ولكن يوسف رآها ساجدة له ، متمثلة في صورة العقلاء الذين يحنون رؤوسهم بالسجود تعظيماً . والسياق يروي عنه في صيغة الإيضاح المؤكدة :

« إذ قال يوسف لأبيه : يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر ..

ثم يعيد لفظ رأى :

« رأيتهم لي ساجدين » .

لهذا أدرك أبوه يعقوب بحسه وبصيرته أن وراء هذه الرؤيا شيئاً عظيماً لهذا الغلام . لم يفصح هو عنه ، ولم يفصح عنه سياق القصة كذلك . ولا تظهر بوادره إلا بعد حلقتي منها . أما تمامه فلا يظهر إلا في نهاية القصة بعد انكشاف الغيب المحجوب . ولهذا نصحه بالأيقظ رؤياه على إخوته ، خشية أن يستشعروا ما وراءها لأخيهم الصغير - غير الشقيق - فيجد الشيطان من هذا ثغرة في نفوسهم ، فتمتلىء نفوسهم بالحق ، فيدبروا له أمراً يسوءه :

« قال : يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً » ..

ثم علّل هذا بقوله :

« إن الشيطان للإنسان عدو مبين » ..

ومن ثم فهو يوغر صدور الناس بعضهم على بعض ، ويزين لهم الخبيثة والشر .

ويعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، وقد أحس من رؤيا ابنه يوسف أن سيكون له شأن ، يتجه خاطره إلى أن هذا الشأن في وادي الدين والصلاح والمعركة ؛ بحكم جو النبوة الذي يعيش فيه ، وما يعلمه من أن جده إبراهيم مبارك من الله هو وأهل بيته المؤمنون . فتوقع أن يكون يوسف هو الذي يختار من أبنائه من نسل إبراهيم لتحل عليه البركة وتمثل فيه السلسلة المباركة في بيت إبراهيم . فقال له :

« وكذلك يحبتيك ربك ، ويعلمك من تأويل الأحاديث ، ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب ، كما أمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق ، إن ربك عليم حكيم » ..

واتجاه فكر يعقوب إلى أن رؤيا يوسف تشير إلى اختيار الله له ، وإتمام نعمته عليه وعلى آل يعقوب كما أمها على أبويه من قبل إبراهيم وإسحاق (والجد يقال له أب) .. هذا طبيعي . ولكن الذي يستوقف النظر قوله : « ويعلمك من تأويل الأحاديث » ..

والتأويل هو معرفة المآل . فما الأحاديث ؟ . أقصد يعقوب أن الله سيختار يوسف ويعلمه ويهبه من صدق الحس ونفاذ البصيرة ما يدرك به من الأحاديث مآلها الذي تنتهي إليه ، منذ أوائلها . وهو إلهام من الله لذوي البصائر المدركة النافذة ، وجاء التعقيب :

« إن ربك عليم حكيم » ..

مناسباً لهذا في جو الحكمة والتعليم ؟ أم قصد بالأحاديث الرؤى والأحلام كما وقع بالفعل في حياة يوسف فيما بعد ؟

كلاهما جائز ، وكلاهما يتمشى مع الجو المحيط بيوسف ويعقوب .

وبهذه المناسبة نذكر كلمة عن الرؤى والأحلام وهي موضوع هذه القصة وهذه السورة .

إننا ملزمون بالاعتقاد بأن بعض الرؤى تحمل نبوءات عن المستقبل القريب أو البعيد . ملزمون بهذا أولاً من ناحية ما ورد في هذه السورة من وقوع مصداق رؤيا يوسف ، ورؤيا صاحبيه في السجن ، ورؤيا الملك في مصر . وثانياً من ناحية ما نراه في حياتنا الشخصية من تحقق رؤى تنبؤية في حالات متكررة بشكل يصعب نفي وجوده .. لأنه موجود بالفعل ! ..

والسبب الأول يكفي .. ولكننا ذكرنا السبب الثاني لأنه حقيقة واقعة لا يمكن إنكارها إلا بتعنت ..

فما هي طبيعة الرؤيا ؟

تقول مدرسة التحليل النفسي : إنها صور من الرغبات المكبوتة تنفس بها الأحلام في غياب الوعي . وهذا يمثل جانباً من الأحلام . ولكنه لا يمثلها كلها . (وفرويد) ذاته - على كل تحكمه غير العلمي وتمحله في نظريته - يقرر أن هناك أحلاماً تنبؤية .

فما طبيعة هذه الأحلام التنبؤية ؟

وقبل كل شيء نقرر أن معرفة طبيعتها أو عدم معرفته لا علاقة له بإثبات وجودها وصدق بعضها . إنما نحن نحاول فقط أن ندرك بعض خصائص هذا المخلوق البشري العجيب ، وبعض سنن الله في هذا الوجود . ونحن نتصور طبيعة هذه الرؤى على هذا النحو .. إن حواجز الزمان والمكان هي التي تحول بين هذا المخلوق البشري وبين رؤية ما نسميه الماضي أو المستقبل ، أو الحاضر المحجوب . وأن ما نسميه ماضياً أو مستقبلاً إنما يحجبه عنا عامل الزمان ، كما يحجب الحاضر البعيد عنا عامل المكان . وأن حاسة ما في الإنسان لا تعرف كنهها تستيقظ أو تقوى في بعض الأحيان ، فتغلب على حاجز الزمان وترى ما وراءه في صورة مبهمه ، ليست علماً ولكنها استشفاف ، كالذي يقع في اليقظة لبعض الناس ، وفي الرؤى لبعضهم ، فيتغلب على حاجز المكان أو حاجز الزمان ، أو هما معاً في بعض الأحيان¹ . وإن كنا في نفس الوقت لا نعلم شيئاً عن حقيقة الزمان . كما أن حقيقة المكان ذاتها - وهي ما يسمى بالمادة - ليست معلومة لنا على وجه التحقيق : « وما أوتيم من العلم إلا قليلاً » !

على أية حال لقد رأى يوسف رؤياه هذه ، وسرى فيما بعد ما يكون تأويل الرؤيا .

* * *

ويسدل السياق الستار على مشهد يوسف ويعقوب هنا ليرفعه على مشهد آخر : مشهد إخوة يوسف يتآمرون ، مع حركة تنبيه لأهمية ما سيكون :

(١) وأستطيع أن أكذب كل شيء قبل أن أكذب حادثاً وقع لي وأنا في أمريكا وأهلي في القاهرة وقد رأيت فيما يرى النائم ابن أخت لي شابا وفي عينه دم يحجبه عن الرؤية . فكتبت إلى أهلي أستفسر عن عينه بالذات ، فجاءني الرد بأن عينه قد أصيبت بتزيف داخلي وأنه يعالج . ويلاحظ أن التزيف الداخلي لا يرى من الخارج ، فقد كان منظر عينه لمن يراها بالعين المجردة منظراً عادياً ، ولكنها كانت محجوبة عن الإبصار بالتزيف الداخلي في قاعها . أما الرؤيا فقد كشفت عن هذا الدم المحجوب في الداخل ! ولا أذكر غير هذه لأنها وحدها تكفي.

« لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين . إذ قالوا : ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة . إن أبانا لفي ضلال مبين . اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين . قال قائل منهم : لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين » ..

لقد كان في قصة يوسف وإخوته آيات وأمارات على حقائق كثيرة لمن ينقب عن الآيات ويسأل ويهتم . وهذا الافتتاح كفيلاً بتحريك الانتباه والاهتمام . لذلك نشبهه بحركة رفع الستار عما يدور وراءه من أحداث وحركات . فنحن نرى وراءه مباشرة مشهد إخوة يوسف يدبرون ليوسف ما يدبرون .

تري حدثهم يوسف عن رؤياه كما يقول كتاب « العهد القديم »؟ إن السياق هنا يفيد أن لا . فهم يتحدثون عن إثارة يعقوب ليوسف وأخيه عليهم . أخيه الشقيق . ولو كانوا قد علموا برؤياه لجاء ذكرها على ألسنتهم ، ولكانت أدعى إلى أن تلهج ألسنتهم بالحقده عليه . فما خافه يعقوب على يوسف لوقص رؤياه على إخوته قد تم عن طريق آخر ، وهو حقدهم عليه لإثارة أبيهم له . ولم يكن بدأً يتم لأنه حلقة في سلسلة الرواية الكبرى المرسومة ، لتصل بيوسف إلى النهاية المرسومة ، والتي تمهد لها ظروف حياته ، وواقع أسرته ، ومجيئه لأبيه على كبرة . وأصغر الأبناء هم أحب الأبناء ، وبخاصة حين يكون الوالد في سن الكبر . كما كان الحال مع يوسف وأخيه ، وإخوته من أمهات .

« إذ قالوا : ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة » ..

أي ونحن مجموعة قوية تدفع وتنفذ ..

« إن أبانا لفي ضلال مبين » ..

إذ يؤثر غلاماً وصبيّاً صغيرين على مجموعة الرجال النافعين الدافعين !

ثم يغلي الحقد ويدخل الشيطان ، فيختل تقديرهم للوقائع ، وتتضخم في حسهم أشياء صغيرة ، وتهون أحداث ضخام . تهون الفعلة الشنعاء المتمثلة في إزهاق روح . روح غلام بريء لا يملك دفعا عن نفسه ، وهو لهم أخ . وهم أبناء نبي - وإن لم يكونوا هم أنبياء - يهون هذا . وتتضخم في أعينهم حكاية إثارة أبيهم له بالحب . حتى توازي القتل . أكبر جرائم الأرض قاطبة بعد الشرك بالله :

« اقتلوا يوسف . أو اطرحوه أرضاً » ..

وهما قريب من قريب . فطرحة في أرض نائية مقطوعة مفض في الغالب إلى الموت .. ولماذا؟

« يخل لكم وجه أبيكم » ..

فلا يحجبه يوسف . وهم يريدون قلبه . كأنه حين لا يراه في وجهه يصبح قلبه خالياً من حبه ، ويتوجه بهذا الحب إلى الآخرين ! والجريمة ؟ الجريمة تتوبون عنها وتصلحون ما أفسدتم بارتكابها :

« وتكونوا من بعده قوماً صالحين » ! ..

هكذا ينزغ الشيطان ، وهكذا يسول للنفس عندما تغضب وتفقد زمامها ، وتفقد صحة تقديرها للأشياء والأحداث . وهكذا لما غلا في صدورهم الحقد برز الشيطان ليقول لهم : اقتلوا .. والتوبة بعد ذلك تصلح ما فات ! وليست التوبة هكذا . إنما تكون التوبة من الخطيئة التي يندفع إليها المرء غافلاً جاهلاً غير ذاكر ؛ حتى إذا تذكر ندم ، وجاشت نفسه بالتوبة . أما التوبة الجاهزة ! التوبة التي تعد سلفاً قبل ارتكاب الجريمة لإزالة معالم الجريمة ، فليست بالتوبة ، إنما هي تبرير لارتكاب الجريمة يزينه الشيطان !

ولكن ضميراً واحداً فيهم ، يرتعش لهول ما هم مقدمون عليه . فيقترح حلاً يريحهم من يوسف ، ويخلي لهم وجه أبيهم ، ولكنه لا يقتل يوسف ، ولا يلقيه في أرض مهجورة يغلب فيها الهلاك . إنما يلقيه في الجب على طريق القوافل ، حيث يرجح أن تعثر عليه إحدى القوافل فتنبذه وتذهب به بعيداً :

« قال قائل منهم : لا تقتلوا يوسف ، وألقوه في غيابة الجب ، يلتقطه بعض السيارة . إن كنتم فاعلين .. »
ونحس من قوله :
« إن كنتم فاعلين .. »

روح التشكيك والتشيط . كأنه يشككهم في أنهم مصررون على إيقاع الأذى بيوسف . وهو أسلوب من أساليب التشيط عن الفعل ، واضح فيه عدم الارتياح للتنفيذ . ولكن هذا كان أقل ما يشفي حقدهم ؛ ولم يكونوا على استعداد للتراجع فيما اعتزموه .. نفهم هذا من المشهد التالي في السياق ..

* * *

فها هم أولاء عند أبيهم ، يراودونه في اصطحاب يوسف معهم مند الغداة . وهامهم أولاء يخادعون أباهم ، ويمكرون به ويوسف . فلنشهد ولنستمع لما يدور :

« قالوا : يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف ؟ وإنا له لناصحون ؛ أرسله معنا غداً يرتع ويلعب ، وإنا له لحافظون . قال : إني ليحزني أن تذهبوا به ، وأخاف أن يأكله الذئب وأتم عنه غافلون . قالوا : لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذن لخاسرون .. »

والتعبير يرسم بكلماته وعباراته كل ما بذلوه ليتدسسوا به إلى قلب الوالد المتعلق بولده الصغير الحبيب ، الذي يتوسم فيه أن يكون الوارث لبركات أبيه إبراهيم ..
« يا أبانا .. »

بهذا اللفظ الموحى المذكر بما بينه وبينهم من آصرة .
« مالك لا تأمنا على يوسف ؟ .. »

سؤال فيه عتب وفيه استنكار خفي ، وفيه استجاشة لنفي مدلوله من أبيهم ، والتسليم لهم بعكسه وهو تسليمهم يوسف . فهو كان يستبقي يوسف معه ولا يرسله مع إخوته إلى المراعي والجهات الخلوية التي يرتادونها لأنه يحبه ويخشى عليه ألا يحتمل الجو والجهد الذي يحتملونه وهم كبار ، لا لأنه لا يأمنهم عليه . فمبادرتهم له بأنه لا يأمنهم على أخيهم وهو أبوهم ، مقصود بها استجاشته لنفي هذا الخاطر ؛ ومن ثم يفقد إصراره على احتجاز يوسف . فهي مبادرة ماكرة منهم خبيثة !

« مالك لا تأمنا على يوسف ؟ وإنا له لناصحون .. »

قلوبنا له صافية لا يخالطها سوء - وكاد المرئيب أن يقول خذوني - فذكر النصح هنا وهو الصفاء والإخلاص يشي بما كانوا يحاولون إخفاءه من الدغل المرئيب ..

« أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإنا له لحافظون .. »

زيادة في التوكيد ، وتصويراً لما ينتظر يوسف من النشاط والمسرة والرياضة ، مما ينشط والده لإرساله معهم كما يريدون .

وردأ على العتاب الاستنكاري الأول جعل يعقوب ينفي - بطريق غير مباشر- أنه لا يأمنهم عليه ، ويعلل احتجازه معه بقلة صبره على فراقه وخوفه عليه من الذئاب :

« قال : إني ليحزني أن تذهبوا به ، وأخاف أن يأكله الذئب وأتم عنه غافلون » ..
« إني ليحزني أن تذهبوا به » ..

إنني لا أطيق فراقه .. ولا بد أن هذه هاجت أحقادهم وضاعفتها . أن يبلغ حبه له درجة الحزن لفراقه ولو لبعض يوم ، وهو ذاهب كما قالوا له للنشاط والمسرة .
« وأخاف أن يأكله الذئب وأتم عنه غافلون » ..

ولا بد أنهم وجدوا فيها عذراً كانوا يبحثون عنه ، أو كان الحقد الهائج أعماهم فلم يفكروا ماذا يقولون لأبيهم بعد فعلتهم المنكرة ، حتى لقنهم أبوهم هذا الجواب !
واختاروا أسلوباً من الأساليب المؤثرة لنفي هذا الخاطر عنه :
« قالوا : لئن أكله الذئب ونحن عصابة ، إنا إذن لخاسرون » ..

لئن غلبنا الذئب عليه ونحن جماعة قوية هكذا فلا خير فينا لأنفسنا وإنما لخاسرون كل شيء ، فلا نصلح لشيء أبداً !

وهكذا استسلم الوالد الحريص لهذا التوكيد ولذلك الإحراج .. ليتحقق قدر الله وتم القصة كما تقتضي مشيئته !

* * *

والآن لقد ذهبوا به ، وها هم أولاء ينفذون المؤامرة النكراء . والله سبحانه يلقي في روع الغلام أنها محنة وتنتهي ، وأنه سيعيش وسيذكر إخوته بموقفهم هذا منه وهم لا يشعرون أنه هو :
« فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب . وأوحينا إليه لتنبئهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون » ..
فقد استقر أمرهم جميعاً على أن يجعلوه في غيابة الجب ، حيث يغيب فيه عنهم . وفي لحظة الضيق والشدة التي كان يواجه فيها هذا الفرع ، والموت منه قريب ، ولا منقذ له ولا مغيث وهو وحده صغير وهم عشرة أشداء . في هذه اللحظة اليائسة يلقي الله في روعه أنه ناج ، وأنه سيعيش حتى يواجه إخوته بهذا الموقف الشنيع ، وهم لا يشعرون بأن الذي يواجههم هو يوسف الذي تركوه في غيابة الجب وهو صغير .

* * *

وندع يوسف في محنته في غيابة الجب ، يؤنسه ولا شك ما ألقى الله في روعه ويطمئنه ، حتى يأذن الله بالفرج . ندعه لنشهد إخوته بعد الجريمة يواجهون الوالد المفجوع :

« وجاءوا أباهم عشاء يبكون ، قالوا : يا أبانا إنا ذهبنا نستبي ، وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب . وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين . وجاءوا على قميصه بدم كذب . قال : بل سولت لكم أنفسكم أمراً ، فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون » ..

لقد ألهام الحقد الفائر عن سبب الكذبة ، فلو كانوا أهدأ أعصاباً ما فعلوها منذ المرة الأولى التي يأذن لهم فيها يعقوب باصطحاب يوسف معهم ! ولكنهم كانوا معجلين لا يصبرون ، يخشون ألا تواتيهم الفرصة مرة أخرى . كذلك كان التقاطهم لحكاية الذئب المكشوفة دليلاً على التسرع ، وقد كان أبوهم يحذرهم منها أمس ،

وهم ينفونها ، ويكادون يتهمون بها . فلم يكن من المستساغ أن يذهبوا في الصباح ليتركوا يوسف للذئب الذي حذرهم أبوهم منه أمس ! وبمثل هذا التسرع جاءوا على قميصه بدم كذب لطحوه به في غير إتقان ، فكان ظاهر الكذب حتى ليوصف بأنه كذب ..
فعلوا هذا .

« وجاءوا أباهم عشاء يبكون قالوا : يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب » ..
ويحسون أنها مكشوفة ، ويكاد المريب أن يقول خذوني ، فيقولون :
« وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين » ..

أي وما أنت بمطمئن لما نقوله ، ولو كان هو الصدق ، لأنك تشك فينا ولا تطمئن لما نقول .

وأدرك يعقوب من دلائل الحال ، ومن نداء قلبه ، أن يوسف لم يأكله الذئب ، وأنهم دبروا له مكيدة ما .
وأنهم يلفقون له قصة لم تقع ، ويصفون له حالاً لم تكن ، فواجههم بأن نفوسهم قد حسنت لهم أمراً منكراً
وذلكته ويسرت لهم ارتكابه ، وأنه سيصبر متحملاً متجملاً لا يجزع ولا يفزع ولا يشكو ، مستعيناً بالله على
ما يلفقونه من حيل وأكاذيب :

« قال : بل سئلت لكم أنفسكم أمراً . فصبر جميل . والله المستعان على ما تصفون » .

* * *

ثم لتعد سريعاً إلى يوسف في الجب ، لترى المشهد الأخير في هذه الحلقة الأولى من حلقات القصة :
« وجاءت سيارة ، فأرسلوا واردهم ، فأدلى دلوه قال : يا بشرى . هذا غلام . وأسروه بضاعة ، والله
عليم بما يعملون . وشروه بثمن بخس دراهم معدودة ، وكانوا فيه من الزاهدين » ..
لقد كان الجب على طريق القوافل ، التي تبحث عن الماء في مظانه ، في الآبار وفي مثل هذا الجب الذي
ينزل فيه ماء المطر ويبقى فترة ، ويكون في بعض الأحيان جافاً كذلك :

« وجاءت سيارة » ..

أي قافلة سميت سيارة من السير الطويل كالكشفة والجوالة والقناسة ...

« فأرسلوا واردهم » ..

أي من يرد لهم الماء ويكون خبيراً بمواقعه ..

« فأدلى دلوه » ..

لينظر الماء أو ليملاً الدلو - ويحذف السياق حركة يوسف في التعلق بالدلو احتفاظاً بالمفاجأة القصصية
للقارئ والسامع - :

« قال : يا بشرى ! هذا غلام ! » ..

ومرة أخرى يحذف السياق كل ما حدث بعد هذا وما قيل ، وحال يوسف ، وكيف ابتهج للنجاة ، ليتحدث
عن مصيره مع القافلة :

« وأسروه بضاعة » ..

أي اعتبروه بضاعة سرية وعزموا على بيعه رقيقاً . ولما لم يكن رقيقاً فقد أسروه ليخفوه عن الأنظار . ثم باعوه بثمن قليل :

« وشروه بثمن بخس دراهم معدودة » .. وكانوا يتعاملون في القليل من الدراهم بالعد ، وفي الكثير منها بالوزن ..

« وكانوا فيه من الزاهدين » ..

لأنهم يريدون التخلص من تهمة استرقاقه وبيعه ..

وكانت هذه نهاية المحنة الأولى في حياة النبي الكريم .

وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَتْهُ مِنْ مِصْرَ لَأَمْرًا أَنَّهُ أَكْرَمِي مَثْوَهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنِي أَوْ يَخْذُهُ وَوَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَأً لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾
وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾

وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٨﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَأً بُرْهَنَ رَبِّهِ ؕ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٣٩﴾ وَأَسْبَقَ الْأَبَابَ وَقَدَّتْ قَيْصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْأَبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ هِيَ رَوَدَّتْ عَن نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَبِيصُهُ قُدِّمَ مِن قَبْلِ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤١﴾ وَإِنْ كَانَ قَبِيصُهُ قُدِّمَ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٤٢﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ قَبِيصَهُ قُدِّمَ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ أَنْ كِيدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٤٣﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَن هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٤٤﴾

* وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَوِّدُ فَتْنَهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرْنَهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكِفًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ أَخْرِجِي عَيْنَ فَلَمَّا رَأَيْتَهُنَّ أَكْبَرْتَهُنَّ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَوَدَتْهُ عَنِ نَفْسِهِ فَأَسْتَعْصِمُ وَلَئِن لَّرِيفَعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ

وَلْيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٤﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾

الحلقة الثانية من حلقات القصة ، وقد وصل يوسف إلى مصر ، وبيع ببيع الرقيق ؛ ولكن الذي اشتراه توسم فيه الخير - والخير يتوسم في الوجوه الصباح ، وبخاصة حين تصاحبها السجيا الملاح - فإذا هو يوصي به امرأته خيراً ، وهنا يبدأ أول خيط في تحقيق الرؤيا .

ولكن محنة أخرى من نوع آخر كانت تنتظر يوسف حين يبلغ أشده ، وقد أوتي حكماً وعلماً يستقبل بهما هذه المحنة الخارفة التي لا يقف لها إلا من رحم الله . إنها محنة التعرض للغواية في جو القصور ، وفي جو ما يسمونه « الطبقة الراقية » وما يغشاها من استهتار وفجور .. ويخرج يوسف منها سليماً معافى في خلقه وفي دينه ، ولكن بعد أن يخاطب المحنة ويصلاها ..

* * *

« وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته : أكرمي مثواه ، عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدأ . وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ، ولنعلمه من تأويل الأحاديث ، والله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .. إن السياق لا يكشف لنا حتى الآن عن اشتراه ، وسنعلم بعد شوط في القصة أنه عزيز مصر (قيل : إنه كبير وزرائها) ولكننا نعلم منذ اللحظة أن يوسف قد وصل إلى مكان آمن ، وأن المحنة قد انتهت بسلام ، وأنه مقبل بعد هذا على خير :
« أكرمي مثواه » ..

والثوى مكان الثويّ والمبيت والإقامة ، والمقصود بإكرام مثواه إكرامه ، ولكن التعبير أعمق ، لأنه يجعل الإكرام لا لشخصه فحسب ، ولكن لمكان إقامته .. وهي مبالغة في الإكرام . في مقابل مثواه في الجب وما حوله من مخاوف وآلام !

ويكشف الرجل لامرأته عما يتوسمه في الغلام من خير ، وما يتطلع إليه فيه من أمل :
« عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدأ » ..

ولعلمها لم يكن لهما أولاد كما تذكر بعض الروايات . ومن ثم تطلع الرجل أن يتخذه ولدأ إذا صدقت فراسته ، وتحققت مخايل نجابته وطيبته مع وسامته .

وهنا يقف السياق لينبه إلى أن هذا التدبير من الله ، وبه وبمثله قدر ليوسف التمكين في الأرض - وها قد بدأت بشارته بتمكين يوسف في قلب الرجل وبيته - ويشير إلى أنه ماض في الطريق ليعلمه الله من تأويل الأحاديث - على الوجهين اللذين ذكرناهما من قبل - ويعقب السياق على هذا الابتداء في تمكين يوسف بما يدل عليه من أن قدرة الله غالبية ، لا تقف في طريقها قوة ، وأنه مالك أمره ومسيطر عليه فلا يخيب ولا يتوقف ولا يضل :

« وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ، ولنعلمه من تأويل الأحاديث . والله غالب على أمره » ..

وها هو ذا يوسف أراد له إخوته أمراً ، وأراد له الله أمراً ، ولما كان الله غالباً على أمره ومسيطرأ فقد نفذ أمره ، أما إخوة يوسف فلا يملكون أمرهم فأفلت من أيديهم وخرج على ما أرادوا :
« ولكن أكثر الناس لا يعلمون » ..

لا يعلمون أن سنة الله ماضية وأن أمره هو الذي يكون .
ويعضي السياق ليقرر أن ما شاء الله ليوسف ، وقال عنه :
« ولتعلمه من تأويل الأحاديث » ..

قد تحقق حين بلغ أشده :

« ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً . وكذلك نجزي المحسنين » ..

فقد أوتي صحة الحكم على الأمور ، وأوتي علماً بمصائر الأحاديث أو بتأويل الرؤيا ، أو بما هو أعم ، من العلم بالحياة وأحوالها ، فاللفظ عام ويشمل الكثير . وكان ذلك جزاء إحسانه . إحسانه في الاعتقاد وإحسانه في السلوك :

« وكذلك نجزي المحسنين » ..

* * *

وعندئذ تجيئه المحنة الثانية في حياته ، وهي أشد وأعظم من المحنة الأولى . تجيئه وقد أوتي صحة الحكم وأوتي العلم - رحمة من الله - ليواجهها وينجو منها جزاء إحسانه الذي سجله الله له في قرآنه .
والآن نشهد ذلك المشهد العاصف الخطير المثير كما يرسمه التعبير :

« وراودته التي هو في بيتها عن نفسه ، وغلقت الأبواب وقالت : هيت لك ! قال : معاذ الله . إنه ربي أحسن مثواي . إنه لا يفلح الظالمون - ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه . كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء . إنه من عبادنا المخلصين - واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر ، وألفيا سيدها لدى الباب . قالت : ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً ؟ إلا أن يسجن أو عذاب أليم . قال : هي راودتني عن نفسي . وشهد شاهد من أهلها . إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين ؛ وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين . فلما رأى قميصه قد من دبر قال : إنه من كيدكن . إن كيدكن عظيم . يوسف أعرض عن هذا ، واستغفري لذنبك ، إنك كنت من الخاطئين » ..

إن السياق لم يذكر كم كانت سنهنا وكم كانت سنه ؛ فلننظر في هذا الأمر من باب التقدير .
لقد كان يوسف غلاماً عندما التقطته السيارة وباعته في مصر . أي إنه كان حوالي الرابعة عشرة تنقص ولا تزيد . فهذه هي السن التي يطلق فيها لفظ الغلام ، وبعدها يسمى فتى فشاباً فرجلاً ... وهي السن التي يجوز فيها أن يقول يعقوب : « وأخاف أن يأكله الذئب » .. وفي هذا الوقت كانت هي زوجة ، وكانت وزوجها لم يرزقا أولاداً كما يبدو من قوله : « أو نتخذهُ ولداً » .. فهذا الخاطر .. خاطر النبي .. لا يرد على النفس عادة إلا حين لا يكون هناك ولد ؛ ويكون هناك يأس أو شبه يأس من الولد . فلا بد أن تكون قد مضت على زواجهما فترة ، يعلمان فيها أن لا ولد لهما . وعلى كل حال فالتوقع عن رئيس وزراء مصر ألا تقل سنه عن أربعين سنة ، وأن تكون سن زوجه حينئذ حوالي الثلاثين .

ونتوقع كذلك أن تكون سنهنا أربعين سنة عندما يكون يوسف في الخامسة والعشرين أو حواليها . وهي

السن التي نرجح أن الحادثة وقعت فيها . . نرجحه لأن تصرف المرأة في الحادثة وما بعدها يشير إلى أنها كانت مكتملة جريئة ، مألوفة لكيدها ، متهاككة كذلك على فتاها . ونرجحه من كلمة النسوة فيما بعد . . « امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه » . . وإن كانت كلمة فتى تقال بمعنى عبد ، ولكنها لا تقال إلا ولها حقيقة من مدلولها من سن يوسف . وهو ما نرجحه شواهد الحال .

نبحث هذا البحث ، لنصل منه إلى نتيجة معينة . لنقول : إن التجربة التي مر بها يوسف - أو المحنة - لم تكن فقط في مواجهة المرادة في هذا المشهد الذي يصوره السياق . إنما كانت في حياة يوسف فترة مراقبته كلها في جو هذا القصر ، مع هذه المرأة بين سن الثلاثين وسن الأربعين ، مع جو القصور ، وجو البيئة التي يصورها قول الزوج أمام الحالة التي وجد فيها امرأته مع يوسف :

« يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين » .

وكفى . . !

والتي يتحدث فيها النسوة عن امرأة العزيز ، فيكون جوابها عليهن ، مأدبة يخرج عليهن يوسف فيها ، ويفتتن به ، ويصرحن ، فتصرح المرأة :

« ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما أمره لیسجنن وليكونن من الصاغرين » . .

فهذه البيئة التي تسمح بهذا وذلك بيئة خاصة . هي بيئة الطبقة المترفة دائماً . ويوسف كان فيها مولى وتربى فيها في سن الفتنة . . فهذه هي المحنة الطويلة التي مر بها يوسف ، وصمد لها ، ونجا منها ومن تأثيراتها ومغرياتها وميوعتها ووسائلها الخبيثة . ولسنه وسن المرأة التي يعيش معها تحت سقف واحد كل هذه المدة قيمة في تقدير مدى الفتنة وخطورة المحنة والصمود لها هذا الأمد الطويل . أما هذه المرة فلو كانت وحدها وكانت مفاجأة بلا تمهيد من إغراء طويل ، لما كان عسيراً أن يصمد لها يوسف ، وبخاصة أنه هو المطلوب فيها لا طالب . وتهاكك المرأة قد يصد من نفس الرجل . وهي كانت متهاككة .

والآن نواجه النصوص :

« وراودته التي هو في بيتها عن نفسه ، وغلقت الأبواب ، وقالت : هيت لك ! » . .

وإذن فقد كانت المرادة في هذه المرة مكشوفة ، وكانت الدعوة فيها سافرة إلى الفعل الأخير . . وحركة تغليق الأبواب لا تكون إلا في اللحظة الأخيرة ، وقد وصلت المرأة إلى اللحظة الحاسمة التي تحتاج فيها دفعة الجسد الغليظة ، ونداء الجسد الأخير :

« وقالت : هيت لك ! » .

هذه الدعوة السافرة الجاهرة الغليظة لا تكون أول دعوة من المرأة . إنما تكون هي الدعوة الأخيرة . وقد لا تكون أبداً إذا لم تضطر إليها المرأة اضطراراً . والفتى يعيش معها وقوته وفتوته تتكامل ، وأنوثتها هي كذلك تكمل وتنضج ، فلا بد كانت هناك إغراءات شتى خفيفة لطيفة ، قبل هذه المفاجأة الغليظة العنيفة .

« قال : معاذ الله . إنه ربي أحسن مثواي . إنه لا يفلح الظالمون » . .

« معاذ الله » . .

أعيد نفسي بالله أن أفعل .

« إنه ربي أحسن مثواي » .

وأكرمني بأن نجاني من الجب وجعل في هذه الدار مثواي الطيب الآمن .
« إنه لا يفلح الظالمون » .. الذين يتجاوزون حدود الله ، فيرتكبون ما تدعيني للحظة إليه .

والنص هنا صريح وقاطع في أن رد يوسف المباشر على المراودة السافرة كان هو التأيي ، المصحوب بتذكر نعمة الله عليه ، وبتذكر حدوده وجزاء من يتجاوزون هذه الحدود . فلم تكن هناك استجابة في أول الموقف لما دعت إليه دعوة غليظة جاهرة بعد تعليق الأبواب ، وبعد الهتاف باللفظ الصريح الذي يتجمل القرآن في حكايته وروايته :

« وقالت : هيت لك » .

« ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه » !

لقد حصر جميع المفسرين القدامى والمحدثين نظرهم في تلك الواقعة الأخيرة . فأما الذين ساروا وراء الإسرائيليات فقد رووا أساطير كثيرة يصورون فيها يوسف هائج الغريزة مندفعاً شبقاً ، والله يدافعه ببراهين كثيرة فلا يندفع ! صورت له هيئة أبيه يعقوب في سقف المخدع عاضاً على أصبعه بفمه ! وصورت له لوحات كتبت عليها آيات من القرآن - أي نعم من القرآن ! - تنهى عن مثل هذا المنكر ، وهولا يرعوي ! حتى أرسل الله جبريل يقول له : أدرك عبدي ، فجاء فضربه في صدره .. إلى آخر هذه التصورات الأسطورية التي سار وراءها بعض الرواة وهي واضحة التلفيق والاختراع !

وأما جمهور المفسرين فسار على أنها همت به هم الفعل ، وهم بها هم النفس ، ثم تجلى له برهان ربه فترك . وأنكر المرحوم الشيخ رشيد رضا في تفسير المنار على الجمهور هذا الرأي . وقال : إنها إنما همت بضربه نتيجة إبانته وإهانته لها وهي السيدة الأمرة ، وهم هو برد الاعتداء ؛ ولكنه أثر الهرب فلحقت به وقادت قميصه من دبر .. وتفسير الهم بأنه هم الضرب ورد الضرب مسألة لا دليل عليها في العبارة ، فهي مجرد رأي لمحاولة البعد بيوسف عن هم الفعل أو هم الميل إليه في تلك الواقعة . وفيه تكلف وإبعاد عن مدلول النص .

أما الذي خطر لي وأنا أراجع النصوص هنا ، وأراجع الظروف التي عاش فيها يوسف ، في داخل القصر مع هذه المرأة الناضجة فترة من الزمن طويلة ، وقبل أن يؤتى الحكم والعلم وبعدهما أوتيهما .. الذي خطر لي أن قوله تعالى :

« ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه » ..

هو نهاية موقف طويل من الإغراء ، بعدما أبى يوسف في أول الأمر واستعصم .. وهو تصوير واقعي صادق لحالة النفس البشرية الصالحة في المقاومة والضعف ؛ ثم الاعتصام بالله في النهاية والنجاة .. ولكن السياق القرآني لم يفصل في تلك المشاعر البشرية المتداخلة المتعارضة المتغلبة ؛ لأن المنهج القرآني لا يريد أن يجعل من هذه اللحظة معرضاً يستغرق أكثر من مساحته المناسبة في محيط القصة ، وفي محيط الحياة البشرية المتكاملة كذلك . فذكر طرفي الموقف بين الاعتصام في أوله والاعتصام في نهايته ، مع الإلمام بلحظة الضعف بينهما ، ليكتمل الصدق والواقعية والجو النظيف جميعاً .

هذا ما خطر لنا ونحن نواجه النصوص ، وتصور الظروف . وهو أقرب إلى الطبيعة البشرية وإلى العصمة النبوية . وما كان يوسف سوى بشر . نعم إنه بشر مختار . ومن ثم لم يتجاوز هم الميل النفسي في لحظة من

اللحظات . فلما أن رأى برهان ربه الذي نبض في ضميره وقلبه ، بعد لحظة الضعف الطارئة ، عاد إلى الاعتصام والتأني^١ .

« كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ، إنه من عبادنا المخلصين » ..

« واستبقا الباب » ..

فهو قد آثر التخلص بعد أن استفاق .. وهي عدت خلفه لتمسك به ، وهي ما تزال في هياجها الحيواني .

« وقدت قميصه من دبر » ..

نتيجة جذبها له لترده عن الباب ..

وتقع المفاجأة :

« وألفيا سيدها لدى الباب » ..

وهنا تتبدى المرأة المكتملة ، فتجد الجواب حاضراً على السؤال الذي يهتف به المنظر المريب . إنها تهتم الفتى :

« قالت : ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً ؟ » ..

ولكنها امرأة تعشق ، فهي تخشى عليه ، فتشير بالعقاب المأمون .

« إلا أن يسجن أو عذاب أليم ! »

ويجهر يوسف بالحقيقة في وجه الاتهام الباطل :

« قال : هي راودتني عن نفسي ! »

وهنا يذكر السياق أن أحد أهلها حسم بشهادته في هذا النزاع :

« وشهد شاهد من أهلها : إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين ، وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين » ..

فأين ومتى أدلى هذا الشاهد بشهادته هذه ؟ هل كان مع زوجها (سيدها بتعبير أهل مصر) وشهد الواقعة ؟ أم أن زوجها استدعاه وعرض عليه الأمر ، كما يقع في مثل هذه الأحوال أن يستدعي الرجل كبيراً من أسرة المرأة ويطلعه على ما رأى ، وبخاصة تلك الطبقة الباردة الدم المائعة القيم !

هذا وذلك جائز . وهو لا يغير من الأمر شيئاً . وقد سمي قوله هذا شهادة ، لأنه لما سئل رأيه في الموقف والنزاع المعروف من الجانبين - ولكل منها ومن يوسف قول - سميت فتواه هذه شهادة ، لأنها تساعد على تحقيق النزاع والوصول إلى الحق فيه .. فإن كان قميصه قد من قبل فذلك إذن من أثر مدافعتها له وهو يريد الاعتداء عليها فهي صادقة وهو كاذب . وإن كان قميصه قد من دبر فهو إذن من أثر تملصه منها وتعقبها هي

(١) قال الزمخشري في الكشاف : « فإن قلت : كيف جاز على نبي الله أن يكون منه هم بالمعصية وقصد إليها ؛ قلت : المراد أن نفسه مالت إلى المخالطة ، ونازعت إليها عن شهوة الشباب وقرمه ميلا يشبه الهمة به والقصد إليه ، وكما تقتضيه صورة تلك الحال التي تكاد تذهب بالعقول والعزائم ، وهو يكسر ما به ويرده بالنظر في برهان الله المأخوذ على المكلفين من وجوب اجتناب المحارم . ولو لم يكن ذلك الميل الشديد المسمى هما لشدة لما كان صاحبه ممدوحا عند الله بالامتناع ، لأن استعظام الصبر على الابتلاء على حسب عظم الابتلاء وشدة » .. انتهى . وهو تعليل صحيح في جملته بغض النظر عن الإشارة الاعتراضية في قول الزمخشري : « ويرده بالنظر في برهان الله المأخوذ على المكلفين من وجوب اجتناب المحارم » . فهو إشارة منه إلى مذهب المعتزلة في أن البرهان عقلي . والبرهان الذي أخذه الله على المكلفين هو ما قرره في شريعته .. ولكن هذا خلاف مذهبي تاريخي لا شأن لنا به . فهو بجملته غريب على التصور الإسلامي !

له حتى الباب ، وهي كاذبة وهو صادق .. وقدم الفرض الأول لأنه إن صح يقتضي صدقها وكذبه ، فهي السيدة وهذا فتى ، فن باب اللياقة أن يذكر الفرض الأول ! والأمر لا يخرج عن أن يكون قرينة .
« فلما رأى قميصه قد من دُبر » ..

تبين له حسب الشهادة المبنية على منطق الواقع أنها هي التي راودت ، وهي التي دبرت الاتهام .. وهنا تبدو لنا صورة من « الطبقة الراقية » في الجاهلية قبل آلاف السنين وكأنها هي هي اليوم شاخصة . رخاوة في مواجهة الفضائح الجنسية ؛ وميل إلى كتمانها عن المجتمع ، وهذا هو المهم كله :
« قال : إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم . يوسف أعرض عن هذا ، واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين » !

هكذا . إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم .. فهي اللباقة في مواجهة الحادث الذي يثير الدم في العروق . والتلطف في مجابهة السيدة بنسبة الأمر إلى الجنس كله ، فيما يشبه الثناء . فإنه لا يسوء المرأة أن يقال لها : إن كيدكن عظيم ! فهو دلالة في حسها على أنها أنثى كاملة مستوفية لمقدرة الأنثى على الكيد العظيم !
والتفاتة إلى يوسف البريء :
« يوسف أعرض عن هذا » ..

فأهمله ولا تُعزّه اهتماماً ولا تتحدث به .. وهذا هو المهم .. محافظة على الظواهر !
وعظة إلى المرأة التي راودت فتاها عن نفسه ، وضبطت متلبسة بمساورته وتمزيق قميصه :
« واستغفري لذنبك . إنك كنت من الخاطئين » ..

إنها الطبقة الأرستقراطية ، من رجال الحاشية ، في كل جاهلية . قريب من قريب !
ويسدل الستار على المشهد وما فيه .. وقد صور السياق تلك اللحظة بكل ملابسها وانفعالاتها ولكن دون أن ينشئ منها معرضاً للزوة الحيوانية الجاهرة ، ولا مستقراً للوحل الجنسي المقبوح !

* * *

ولم يحل السيد بين المرأة وفتاها . ومضت الأمور في طريقها . فهكذا تمضي الأمور في القصور !
ولكن للقصور جدراناً ، وفيها خدم وحشم . وما يجري في القصور لا يمكن أن يظل مستوراً . وبخاصة في الوسط الأرستقراطي ، الذي ليس لنسائه من هم إلا الحديث عما يجري في محيطهن . وإلا تداول هذه الفضائح ولو كها على الألسن في المجالس والسهرات والزيارات :

« وقال نسوة في المدينة : امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه . قد شغفها حباً . إنا لنها في ضلال مبين » ..
وهو كلام أشبه بما تقوله النسوة في كل بيئة جاهلية عن مثل هذه الشؤون . ولأول مرة نعرف أن المرأة هي امرأة العزيز ، وأن الرجل الذي اشتراه من مصر هو عزيز مصر - أي كبير وزرائها - ليعلن هذا مع إعلان الفضيحة العامة بانتشار الخبر في المدينة :

« امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه » ..

ثم بيان لحالها معه :

« قد شغفها حباً » ..

فهي مفتونة به ، بلغ حبه شغاف قلبها ومزقه ، وشغاف القلب غشاؤه الرقيق :
« إنا لنها في ضلال مبين » ..

وهي السيدة الكبيرة زوجة الكبير ، تفتن بفتاها العبراني المشتري . أم لعلهن يتحدثن عن اشتهاها بهذه الفنتة وانكشافها وظهور أمرها ، وهو وحده المنتقد في عرف هذه الأوساط لا الفعلة في ذاتها لو ظلت وراء الأستار ؟ !

* * *

وهنا كذلك يقع مالا يمكن وقوعه إلا في مثل هذه الأوساط . ويكشف السياق عن مشهد من صنع تلك المرأة الجريئة ، التي تعرف كيف تواجه نساء طبقتها بمكر كمكرهن وكيد من كيدهن :
« فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن ، وأعدت لهن متكأ ، وآتت كل واحدة منهن سكيناً ، وقالت :
اخرج عليهن . فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن ، وقلن : حاش لله ! ما هذا بشراً . إن هذا إلا ملك كريم .
قالت : فذلكن الذي لُمْتُنِّي فيه . ولقد راودته عن نفسه فاستعصم . ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين » ..

لقد أقامت لهن مأدبة في قصرها . وندرك من هذا أنهن كن من نساء الطبقة الراقية . فهن اللواتي يدعين إلى المآدب في القصور . وهن اللواتي يؤخذن بهذه الوسائل الناعمة المظهر . ويبدو أنهن كن يأكلن وهن متكئات على الوسائد والحشايا على عادة الشرق في ذلك الزمان . فأعدت لهن هذا المتكأ . وآتت كل واحدة منهن سكيناً تستعملها في الطعام . ويؤخذ من هذا أن الحضارة المادية في مصر كانت قد بلغت شأواً بعيداً ، وأن الترف في القصور كان عظيماً . فإن استعمال السكاكين في الأكل قبل هذه الآلاف من السنين له قيمته في تصوير الترف والحضارة المادية . وبينما هن مشغولات بتقطيع اللحم أو تقشير الفاكهة ، فاجأهن بيوسف :

« وقالت : اخرج عليهن » ..

« فلما رأينه أكبرنه » ..

بهتن لطلعته ، ودهشن .

« وقطعن أيديهن » ..

وجرحن أيديهن بالسكاكين للدهشة المفاجئة .

« وقلن حاش لله ! » ..

وهي كلمة تنزيه تقال في هذا الموضع تعبيراً عن الدهشة بصنع الله ..

« ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم »^١ .

وهذه التعبيرات دليل - كما قلنا في تقديم السورة - على تسرب شيء من ديانات التوحيد في ذلك الزمان .

(١) أتعب الرواة والمفسرون أنفسهم في وصف حسن يوسف الذي بهر النسوة وبهر امرأة العزيز . وتصور بعضهم أوصافاً أقرب ما تكون إلى أوصاف النساء . وما يمثل هذه الأوصاف تبهر النساء ! وإن للرجولة لجمالها الخاص في اكتمال الملامح الرجولية . وإن كان هناك احتمال آخر وهو أن نساء تلك الطبقة كثيراً ما تحرف فطرتهم فتعجبهن في الرجل ملامح وتقاطع مما يحسب جميلاً في النساء . ويغفلن عن غيرها مما يوجد في الرجل من سمات الرجال !

ورأت المرأة أنها انتصرت على نساء طبقتها ، وأنهن لقين من طلعة يوسف الدهش والإعجاب والذهول . فقالت قولة المرأة المنتصرة ، التي لا تستحي أمام النساء من بنات جنسها وطبقتها ؛ والتي تفخر عليهن بأن هذا في تناول يدها ؛ وإن كان قد استعصى قياده مرة فهي تملك هذا القياد مرة أخرى :

« قالت : فذلكن الذي لمتني فيه » ..

فانظرون ماذا لقيتن منه من البهر والدهش والإعجاب !

« ولقد راودته عن نفسه فاستعصم » ..

ولقد بهرني مثلكن فراودته عن نفسه فطلب الاعتصام - تريد أن تقول : إنه عانى في الاعتصام والتحرز من دعوتها وفتنتها ! - ثم تظهر سيطرتها عليه أمامهن في تبجح المرأة من ذلك الوسط ، لا ترى بأساً من الجهر بنزاوتها الأنثوية جاهرة مكشوفة في معرض النساء :

« ولئن لم يفعل ما أمره لیسجنن وليكوناً من الصاغرين » !

فهو الإصرار والتبجح والتهديد والإغراء الجديد في ظل التهديد .

ويسمع يوسف هذا القول في مجتمع النساء المبهورات ، المبديات لمفاتنهن في مثل هذه المناسبات . ونفهم من السياق أنهن كن نساء مفتونات فانتات في مواجهته وفي التعليق على هذا القول من ربة الدار ؛ فإذا هو يناجي ربه :

« قال : رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه » ..

ولم يقل : ما تدعونني إليه . فهن جميعاً كن مشتركات في الدعوة . سواء بالقول أم بالحركات واللفتات .. وإذا هو يستنجد ربه أن يصرف عنه محاولاتهم لإيقاعه في حباثلهن ، خيفة أن يضعف في لحظة أمام الإغراء الدائم ، فيقع فيما يخشاه على نفسه ، ويدعو الله أن ينقذه منه :

« وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين » ..

وهي دعوة الإنسان العارف ببشريته . الذي لا يعتر بعصمته ؛ فيريد مزيداً من عناية الله وحياطته ، يعاونه على ما يعترضه من فتنة وكيد وإغراء .

« فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن ، إنه هو السميع العليم » ..

وهذا الصرف قد يكون بإدخال اليأس في نفوسهن من استجابته لهن ، بعد هذه التجربة ؛ أو بزيادة انصرافه عن الإغراء حتى لا يحس في نفسه أثراً منه . أو بهما جميعاً .

« إنه هو السميع العليم » الذي يسمع ويعلم ، يسمع الكيد ويسمع الدعاء ، ويعلم ما وراء الكيد وما وراء الدعاء . وهكذا اجتاز يوسف محنته الثانية ، بلطف الله ورعايته . وانتهت بهذه النجاة الحلقة الثانية من قصته المثيرة .

* * *

ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوْا الْآيَاتِ لَيْسَجْنُهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا
 إِنِّي أَرِنِي عُصْرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرِنِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِئْنَا بِتَأْوِيلِهِ
 إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأَكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا
 ذَلِكَ مَا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَأَتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي
 لِإِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ
 أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَصْحَجِي السِّجْنَ ءَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَّاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ
 دُونِهِ إِلَّا الْأَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا
 بِهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَصْحَجِي السِّجْنَ أَمَا أَحَدُكُمْ فَيَسْتَهْتِكُ رَبَّهُ يَوْمَ الْحَمْدِ
 وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَنَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا
 اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾
 وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعٌ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخْرَىٰ يُاسِئَاتٍ يَا أَيُّهَا
 الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءُوسِي إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءُوسِ يَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوا أَضْغَثُ أَحْلَمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَمِ
 بِعَلْبِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾
 يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخْرَىٰ يُاسِئَاتٍ لَعَلِّي
 أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا
 مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا مَحْصُونُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي
 مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِضُونَ ﴿٤٩﴾
 وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِنِي بِهِ قُلْنَا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ
 إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾

قَالَ مَا خَطْبُكَ إِذْ رُودْتَنِ يَوْسُفَ عَنْ نَفْسِهِ ۚ قُلْنَا خَشِيَ اللَّهُ مَا عَدَلْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ۗ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ ائْتِنَا
 حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رُودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥٣﴾ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ
 لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٤﴾ * وَمَا أَبرئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ۗ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ
 رَحِيمٌ ﴿٥٥﴾

وهذه هي الحلقة الثالثة والمحنة الثالثة والأخيرة من محن الشدة في حياة يوسف ؛ فكل ما بعدها رخاء ،
 وابتلاء لصبره على الرخاء ، بعد ابتلاء صبره على الشدة . والمحنة في هذه الحلقة هي محنة السجن بعد ظهور
 البراءة . والسجن للبريء المظلوم أقسى ، وإن كان في طمأنينة القلب بالبراءة تعزية وسلوى .
 وفي فترة المحنة هذه تتجلى نعمة الله على يوسف ، بما وهبه من علم لدني بتعبير الرؤيا وبعض الغيب القريب
 الذي تبدو أوائله فيعرف تأويله . ثم تتجلى نعمة الله عليه أخيراً بإعلان براءته الكاملة إعلاناً رسمياً بحضرة
 الملك ، وظهور مواهبه التي تؤهله لما هو مكنون له في عالم الغيب من مكانة مرموقة وثقة مطلقة ، وسلطان عظيم .

* * *

« ثم بدا لهم من بعدما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين » ..

وهكذا جو القصور ، وجو الحكم المطلق ، وجو الأوساط الأرستقراطية ، وجو الجاهلية ! فبعد أن
 رأوا الآيات الناطقة ببراءة يوسف . وبعد أن بلغ التبجح بامرأة العزيز أن تقم للنسوة حفل استقبال تعرض
 عليهن فتاها الذي شغفها حباً ، ثم تبلى لهم أنها به مفتونة حقاً ، ويفتن هن به ويفرغنه بما يلجأ إلى ربه ليغيثه
 منه وينقذه ، والمرأة تعلن في مجتمع النساء - دون حياء - أنه إما أن يفعل ما يؤمر به ، وإما أن يلقي السجن
 والصغار ، فيختار السجن على ما يؤمر به ! .

بعد هذا كله ، بدا لهم أن يسجنوه إلى حين !

ولعل المرأة كانت قد يشتت من محاولاتها بعد التهديد ؛ ولعل الأمر كذلك قد زاد انتشاراً في طبقات
 الشعب الأخرى .. وهنا لا بد أن تحفظ سمعة « البيوتات » ! وإذا عجز رجال البيوتات عن صيانة بيوتهن
 ونسائهن ، فإنهم ليسوا بعاجزين عن سجن فتى بريء كل جريمته أنه لم يستجب ، وأن امرأة من « الوسط
 الراقي » قد فتنت به ، وشهرت بجه ، ولاكت الألسن حديثها في الأوساط الشعبية !
 « ودخل معه السجن فتان » ..

سنعرف من بعد أنهما من خدم الملك الخواص ..

ويختصر السياق ما كان من أمر يوسف في السجن ، وما ظهر من صلاحه وإحسانه ، فوجه إليه الأنظار ،
 وجعله موضع ثقة المساجين ، وفيهم الكثيرون ممن ساقهم سوء الطالع مثله للعمل في القصر أو الحاشية ،

(١) يشي الجزء هنا .

فغضب عليهم في نزوة عارضة ، فألتي بهم في السجن .. يختصر السياق هذا كله ليعرض مشهد يوسف في السجن وإلى جواره فتيان أنسا إليه ، فهما يقصان عليه رؤيا رأياها . ويطلبان إليه تعبيرها ، لما يتوسمانه فيه من الطيبة والصلاح وإحسان العبادة والذكر والسلوك :

« قال أحدهما : إني أراي أعصر خمراً ؛ وقال الآخر : إني أراي أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه . نبئنا بتأويله ، إنا نراك من المحسنين » ..

وينتهز يوسف هذه الفرصة ليث بين السجناء عقيدته الصحيحة ؛ فكونه سجيناً لا يعفيه من تصحيح العقيدة الفاسدة والأوضاع الفاسدة ، القائمة على إعطاء حق الربوبية للحكام الأرضيين ، وجعلهم بالخضوع لهم أرباباً يزولون خصائص الربوبية ، ويصبحون فراعين !

ويبدأ يوسف مع صاحبي السجن من موضوعهما الذي يشغل بالهما ، فيطمئنهما ابتداء إلى أنه سيؤول لهم الرؤى ، لأن ربه علمه علماً لديناً خاصاً ، جزاء على تجرده لعبادته وحده ، وتخلصه من عبادة الشركاء . هو وآباؤه من قبله .. وبذلك يكسب ثقتهم منذ اللحظة الأولى بقدرته على تأويل رؤياهما ، كما يكسب ثقتهم كذلك لدينه :

« قال : لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نباتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ، ذلكما مما علمني ربي . إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله ، وهم بالآخرة هم كافرون . واتبعت ملة آباي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء . ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون » ..

ويبدو في طريقة تناول يوسف للحديث لطف مدخله إلى النفوس ، وكياسته وتنقله في الحديث في رفق لطيف .. وهي سمة هذه الشخصية البارزة في القصة بطولها ..

« قال : لا يأتيكما طعام ترزقانه ، إلا نباتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ، ذلكما مما علمني ربي » .. بهذا التوكيد الموحى بالثقة بأن الرجل على علم لديني ، يرى به مقبل الرزق وينبئ بما يرى . وهذا - فوق دلالته على هبة الله لعبده الصالح يوسف - وهي كذلك بطبيعة الفترة وشيوع النبوءات فيها والرؤى - وقوله : « ذلكما مما علمني ربي » تجيء في اللحظة المناسبة من الناحية النفسية ليدخل بها إلى قلوبهما بدعوته إلى ربه ؛ وليعلل بها هذا العلم اللدني الذي سيؤول لهما رؤياهما عن طريقه .

« إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله ، وهم بالآخرة هم كافرون » .. مشيراً بهذا إلى القوم الذين ربي فيهم ، وهم بيت العزيز وحاشية الملك والملا من القوم والشعب الذي يتبعهم . والفتيان على دين القوم ، ولكنه لا يواجههما بشخصيتهما ، إنما يواجه القوم عامة كي لا يحرجهما ولا ينفرهما - وهي كياسة وحكمة ولطافة حس وحسن مدخل .

وذكر الآخرة هنا في قول يوسف يقرر - كما قلنا من قبل - أن الإيمان بالآخرة كان عنصراً من عناصر العقيدة على لسان الرسل جميعاً ؛ منذ فجر البشرية الأول ؛ ولم يكن الأمر كما يزعم علماء الأديان المقارنة أن تصور الآخرة جاء إلى العقيدة - بجمليتها - متأخراً .. لقد جاء إلى العقائد الوثنية الجاهلية متأخراً فعلاً ، ولكنه كان دائماً عنصراً أصيلاً في الرسائل السماوية الصحيحة ..

ثم يمضي يوسف بعد بيان معالم ملة الكفر ليين معالم ملة الإيمان التي يتبعها هو وآباؤه :

« واتبعت ملة آباي : إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء » ..

فهي ملة التوحيد الخالص الذي لا يشرك بالله شيئاً قط .. والهداية إلى التوحيد فضل من الله على المهتدين ، وهو فضل في متناول الناس جميعاً لو اتجهوا إليه وأرادوه . ففي فطرتهم أصوله وهوائه ، وفي الوجود من حولهم موحياته ودلائله ، وفي رسالات الرسل بيانه وتقريره . ولكن الناس هم الذين لا يعرفون هذا الفضل ولا يشكرونه : « ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون » ..

مدخل لطيف .. وخطوة خطوة في حذر ولين .. ثم يتوغل في قلبيهما أكثر وأكثر ، ويفصح عن عقيدته ودعوته إفصاحاً كاملاً ، ويكشف عن فساد اعتقادها واعتقاد قومها ، وفساد ذلك الواقع النكد الذي يعيشون فيه ... بعد ذلك التمهيد الطويل :

« يا صاحبي السجن ، أرباب متفرقون خير ؟ أم الله الواحد القهار ؟ ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان . إن الحكم إلا لله . أمر ألا تعبدوا إلا إياه . ذلك الدين القيم . ولكن أكثر الناس لا يعلمون » ..

لقد رسم يوسف - عليه السلام - بهذه الكلمات القليلة الناصعة الحاسمة المنيرة ، كل معالم هذا الدين ، وكل مقومات هذه العقيدة . كما هز بها كل قوائم الشرك والطاغوت والجاهلية هزاً شديداً عنيفاً .. « يا صاحبي السجن ، أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟ » ..

إنه يتخذ منهما صاحبين ، ويتحجب إليهما هذه الصفة المؤنسة ، ليدخل من هذا المدخل إلى صلب الدعوة وجسم العقيدة . وهو لا يدعوها إليها دعوة مباشرة ، إنما يعرضها قضية موضوعية : « أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟ » ..

وهو سؤال يهجم على الفطرة في أعماقها ويهزها هزاً شديداً .. إن الفطرة تعرف لها إلهاً واحداً فقيم إذن تعدد الأرباب ؟ .. إن الذي يستحق أن يكون رباً يعبد ويطاع أمره ويتبع شرعه هو الله الواحد القهار . ومتى توحد الإله وتقرر سلطانه القاهر في الوجود فيجب تبعاً لذلك أن يتوحد الرب وسلطانه القاهر في حياة الناس . وما يجوز لحظة واحدة أن يعرف الناس أن الله واحد ، وأنه هو القاهر ، ثم يدينوا لغيره ويخضعوا لأمره ، ويتخذوا بذلك من دون الله ربا .. إن الرب لا بد أن يكون إلهاً يملك أمر هذا الكون ويسيره . ولا ينبغي أن يكون العاجز عن تسيير أمر هذا الكون كله رباً للناس يقهرهم بحكمه ، وهو لا يقهر هذا الكون كله بأمره !

والله الواحد القهار خير أن يدين العباد لربوبيته من أن يدينوا للأرباب المتفرقة الأهواء الجاهلة القاصرة العمياء عن رؤية ما وراء المنظور القريب - كالثأن في كل الأرباب إلا الله - وما شقيت البشرية قط شقاءها بتعدد الأرباب وتفرقهم ، وتوزع العباد بين أهوائهم وتنازعهم .. فهذه الأرباب الأرضية التي تغتصب سلطان الله وربوبيته ؛ أو يعطيها الجاهليون هذا السلطان تحت تأثير الوهم والخرافة والأسطورة ، أو تحت تأثير القهر أو الخداع أو الدعاية ! هذه الأرباب الأرضية لا تملك لحظة أن تتخلص من أهوائها ، ومن حرصها على ذواتها وبقائها ، ومن الرغبة الملحة في استبقاء سلطانتها وتقويتها ، وفي تدمير كل القوى والطاقات التي تهدد ذلك السلطان من قريب أو من بعيد ؛ وفي تسخير تلك القوى والطاقات في تمجيدها والطلب حولها والزمرو والنفخ فيها كي لا تذبل ولا تنفث نفثتها الخادعة !

والله الواحد القهار في غنى عن العالمين ؛ فهو سبحانه لا يريد منهم إلا التقوى والصلاح والعمل والعمارة -

وفق منهجه - فيعدّ لم هذا كله عبادة . وحتى الشعائر التي يفرضها عليهم إنما يريد بها إصلاح قلوبهم ومشاعرهم ، لإصلاح حياتهم وواقفهم .. وإلا فما أغناه سبحانه عن عباده أجمعين ! « يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله ، والله هو الغني الحميد » .. ففرق بين الدينونة لله الواحد القهار والدينونة للأرباب المتفرقة بعيداً !

ثم يخطو يوسف - عليه السلام - خطوة أخرى في تفنيد عقائد الجاهلية وأوهامها الواهية :

« ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان » ..

إن هذه الأرباب - سواء كانت من البشر أم من غير البشر من الأرواح والشياطين والملائكة والقوى الكونية المسخرة بأمر الله - ليست من الربوبية في شيء ، وليس لها من حقيقة الربوبية شيء . فالربوبية لا تكون إلا لله الواحد القهار ؛ الذي يخلق ويقهر كل العباد .. ولكن البشر في الجاهليات المتعددة الأشكال والأوضاع يسمون من عند أنفسهم أسماء ، ويخلعون عليها صفات ، ويعطونها خصائص ؛ وفي أول هذه الخصائص خاصية الحكم والسلطان .. والله لم يجعل لها سلطاناً ولم ينزل بها من سلطان ..

وهنا يضرب يوسف - عليه السلام - ضربته الأخيرة الحاسمة فيبين : لمن ينبغي أن يكون السلطان ! لمن ينبغي أن يكون الحكم ! لمن ينبغي أن تكون الطاعة .. أو بمعنى آخر لمن ينبغي أن تكون « العبادة » !

« إن الحكم إلا لله . أمر ألا تعبدوا إلا إياه . ذلك الدين القيم . ولكن أكثر الناس لا يعلمون » ..

إن الحكم لا يكون إلا لله . فهو مقصور عليه سبحانه بحكم ألوهيته . إذ الحاكمية من خصائص الألوهية . من ادعى الحق فيها فقد نازع الله سبحانه أولى خصائص ألوهيته ؛ سواء ادعى هذا الحق فرد ، أو طبقة ، أو حزب . أو هيئة ، أو أمة ، أو الناس جميعاً في صورة منظمة عالمية . ومن نازع الله سبحانه أولى خصائص ألوهيته وادعاه فقد كفر بالله كفرةً بواحاً ، يصبح به كفره من المعلوم من الدين بالضرورة ، حتى بحكم هذا النص وحده !

وادعاء هذا الحق لا يكون بصورة واحدة هي التي تخرج المدعي من دائرة الدين القيم ، وتجعله منازعاً لله في أولى خصائص ألوهيته - سبحانه - فليس من الضروري أن يقول : ما علمت لكم من إله غيري ؛ أو يقول : أنا ربكم الأعلى ، كما قالها فرعون جهرة . ولكنه يدعي هذا الحق وينازع الله فيه بمجرد أن ينحي شريعة الله عن الحاكمية ؛ ويستمد القوانين من مصدر آخر . وبمجرد أن يقرر أن الجهة التي تملك الحاكمية ، أي التي تكون هي مصدر السلطات ، جهة أخرى غير الله سبحانه .. ولو كان هو مجموع الأمة أو مجموع البشرية . والأمة في النظام الإسلامي هي التي تختار الحاكم فتعطيه شرعية مزاوله الحكم بشريعة الله ؛ ولكنها ليست هي مصدر الحاكمية التي تعطي القانون شرعيته . إنما مصدر الحاكمية هو الله . وكثيرون حتى من الباحثين المسلمين يخلطون بين مزاوله السلطة وبين مصدر السلطة . فالناس يجمّلهم لا يملكون حق الحاكمية إنما يملكه الله وحده . والناس إنما يزاوون تطبيق ما شرعه الله بسلطانه ، أما ما لم يشرعه الله فلا سلطان له ولا شرعية ، وما أنزل الله به من سلطان ..

ويوسف - عليه السلام - يعلل القول بأن الحكم لله وحده . فيقول :

« أمر ألا تعبدوا إلا إياه » ..

ولا نفهم هذا التعليل كما كان يفهمه الرجل العربي إلا حين ندرك معنى « العبادة » التي يخص بها الله وحده ..

(١) يراجع ما سبق تقريره في هذا الجزء عن قيمة العبودية لله وحده في واقع الحياة البشرية . ص ١٩٣٨ - ١٩٤٣ .

إن معنى عبد في اللغة : دان ، وخضع ، وذل .. ولم يكن معناه في الاصطلاح الإسلامي في أول الأمر أداء الشعائر .. إنما كان هو معناه اللغوي نفسه .. فعندما نزل هذا النص أول مرة لم يكن شيء من الشعائر قد فرض حتى ينطلق اللفظ إليه . إنما كان المقصود هو معناه اللغوي الذي صار هو معناه الاصطلاحي . كان المقصود به هو الدينونة لله وحده ، والخضوع له وحده ، واتباع أمره وحده . سواء تعلق هذا الأمر بشعيرة تعبدية ، أو تعلق بتوجيه أخلاقي ، أو تعلق بشريعة قانونية . فالدينونة لله وحده في هذا كله هي مدلول العبادة التي خص الله - سبحانه - بها نفسه ؛ ولم يجعلها لأحد من خلقه ..

وحين نفهم معنى العبادة على هذا النحو نفهم لماذا جعل يوسف - عليه السلام - اختصاص الله بالعبادة تعليلاً لاختصاصه بالحكم . فالعبادة - أي الدينونة - لا تقوم إذا كان الحكم لغيره .. وسواء في هذا حكمه القدري القهري في حياة الناس وفي نظام الوجود ، وحكمه الشرعي الإرادي في حياة الناس خاصة . فكله حكم تتحقق به الدينونة .

ومرة أخرى نجد أن منازعة الله الحكم تخرج المنازع من دين الله - حكماً معلوماً من الدين بالضرورة - لأنها تخرجه من عبادة الله وحده .. وهذا هو الشرك الذي يخرج أصحابه من دين الله قطعاً . وكذلك الذين يقرون المنازع على ادعائه ، ويدينون له بالطاعة وقلوبهم غير منكرة لاغتصابه سلطان الله وخصائصه .. فكلهم سواء في ميزان الله .

ويقرر يوسف - عليه السلام - أن اختصاص الله - سبحانه - بالحكم - تحقيقاً لاختصاصه بالعبادة - هو وحده الدين القيم :

« ذلك الدين القيم » ..

وهو تعبير يفيد القصر . فلا دين قياً سوى هذا الدين ، الذي يتحقق فيه اختصاص الله بالحكم ، تحقيقاً لاختصاصه بالعبادة ..

« ولكن أكثر الناس لا يعلمون » ..

وكونهم « لا يعلمون » لا يجعلهم على دين الله القيم . فالذي لا يعلم شيئاً لا يملك الاعتقاد فيه ولا تحقيقه .. فإذا وجد ناس لا يعلمون حقيقة الدين ، لم يعد من الممكن عقلاً وواقعاً وصفهم بأنهم على هذا الدين ! ولم يبق جهلهم عذراً لهم يسبغ عليهم صفة الإسلام . ذلك أن الجهل مانع للصفة ابتداءً . فاعتقاد شيء فرع عن العلم به .. وهذا منطوق العقل والواقع .. بل منطوق البدهة الواضح .

لقد رسم يوسف - عليه السلام - بهذه الكلمات القليلة الناصعة الحاسمة المنيرة كل معالم هذا الدين . وكل مقومات هذه العقيدة ؛ كما هز بها كل قوائم الشرك والطاغوت والجاهلية هزاً شديداً ..

إن الطاغوت لا يقوم في الأرض إلا مدعياً أخص خصائص الألوهية ، وهو الربوبية . أي حق تعبد الناس لأمره وشرعه ، ودينونتهم لفكره وقانونه . وهو إذ يزاول هذا في عالم الواقع يدعيه - ولولم يقله بلسانه - فالعمل دليل أقوى من القول .

وإن الطاغوت لا يقوم إلا في غيبة الدين القيم والعقيدة الخالصة عن قلوب الناس . فما يمكن أن يقوم وقد استقر في اعتقاد الناس فعلاً أن الحكم لله وحده ، لأن العبادة لا تكون إلا لله وحده ، والخضوع للحكم عبادة . بل هي أصلاً مدلول العبادة .

وإلى هنا يبلغ يوسف أقصى الغاية من الدرس الذي ألقاه ، مرتبطاً في مطلعته بالأمر الذي يشغل بال صاحبيه في السجن . ومن ثم فهو يؤول لهما الرؤيا في نهاية الدرس ، ليزيدهما ثقة في قوله كله وتعلقاً به :

« يا صاحبي السجن ، أما أحدكما فيسقي ربه خمراً ، وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه » ..

ولم يعين من هو صاحب البشرى ومن هو صاحب المصير السيئ تطفلاً وتحرجاً من المواجهة بالشر والسوء . ولكنه أكد لهما الأمر واثقاً من العلم الذي وهبه الله له :

« قضي الأمر الذي فيه تستفتيان » ..

وانتهى فهو كائن كما قضاه الله .

وأحب يوسف السجن البريء ، الذي أمر الملك بسجنه دون نحر ودون بحث ، إلا ما نقله إليه بعض حاشيته من وشاية لعلهم صوروا له فيها حادث امرأة العزيز وحادث النسوة تصويراً مقلوباً ، كما يقع عادة في مثل هذه الأوساط .. أحب يوسف أن يبلغ أمره إلى الملك ليفحص عن الأمر :

« وقال للذي ظن أنه ناج منهما : اذكرني عند ربك » ..

اذكر حالي ووضعني وحقيقتي عند سيدك وحاكمك الذي تدين بشرعه وتخضع لحكمه ، فهو بهذا ربك . فالرب هو السيد والحاكم والقاهر والمشرع .. وفي هذا تأكيد لمعنى الربوبية في المصطلح الإسلامي . ومما يلاحظ أن ملوك الرعاة لم يكونوا يدعون الربوبية قولاً كالفراعة ، ولم يكونوا ينتسبون إلى الإله أو الآلهة كالفراعة . ولم يكن لهم من مظاهر الربوبية إلا الحاكمية وهي نص في معنى الربوبية ..

وهنا يسقط السياق أن التأويل قد تحقق ، وأن الأمر قد قُضي على ما أوله يوسف . ويترك هنا فجوة ، نعرف منها أن هذا كله قد كان . ولكن الذي ظن يوسف أنه ناج فنجا فعلاً لم ينفذ الوصية ، ذلك أنه نسي الدرس الذي لقنه له يوسف ، ونسي ذكر ربه في زحمة حياة القصر وملهياتها وقد عاد إليها ، فنسي يوسف وأمره كله ..

« فأنساه الشيطان ذكر ربه » ..

« فلبث في السجن بضع سنين » ..

والضمير الأخير في لبث عائد على يوسف . وقد شاء ربه أن يعلمه كيف يقطع الأسباب كلها ويستمسك بسببه وحده ، فلم يجعل قضاء حاجته على يد عبد ولا سبب يرتبط بعبد . وكان هذا من اصطفاؤه وإكرامه . إن عباد الله المخلصين ينبغي أن يخلصوا له سبحانه ، وأن يدعوا له وحده قيادهم ، ويدعوا له سبحانه تنقيلاً خطاهم . وحين يعجزون بضعفهم البشري في أول الأمر عن اختيار هذا السلوك ، يتفضل الله سبحانه فيقهرهم عليه حتى يعرفوه ويتذوقوه ويلتزموه بعد ذلك طاعة ورضى وحباً وشوقاً .. فيتم عليهم فضله بهذا كله ..

* * *

والآن نحن في مجلس الملك ، وقد رأى رؤيا أهمته ، فهو يطلب تأويلها من رجال الحاشية ومن الكهنة والمتصلين بالغيبيات :

« وقال الملك : إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف^١ ، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات .

(١) من العجف وهو ظهور العظام من الهزال .

يا أيها الملأ أفتوني في رؤيائي ، إن كنتم للرؤيا تعبرون^١ . قالوا : أضغاث أحلام ، وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين ..

طلب الملك تأويل رؤياه . فعجز الملأ من حاشيته ومن الكهنة عن تأويلها ، أو أحسوا أنها تشير إلى سوء لم يريدوا أن يواجهوا به الملك على طريقة رجال الحاشية في إظهار كل ما يسر الحكام وإخفاء ما يزعجهم . وصرف الحديث عنه ! فقالوا : إنها «أضغاث أحلام» أي أخلاط أحلام مضطربة وليست رؤيا كاملة تحتتمل التأويل . «وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين» .. إذا كانت أضغاثاً مختلطة لا تشير إلى شيء !

والآن لقد مرت بنا رؤى ثلاث : رؤيا يوسف ، ورؤيا صاحبي السجن ، ورؤيا الملك . وطلب تأويلها في كل مرة ، والاهتمام بها يعطينا صورة من جو العصر كله في مصر وخارج مصر - كما أسلفنا - وأن الهبة اللدنية التي وهبها يوسف كانت من روح العصر وجوه ، على ما نعهد في معجزات الأنبياء ، فهل كانت هذه هي معجزة يوسف ؟ ولكن هذا بحث ليس مكانه هذه الظلال . فتكمل حديث رؤيا الملك الآن !

هنا تذكر أحد صاحبيه في السجن ، الذي نجا منهما وأنساه الشيطان ذكرربه ، وذكر يوسف في دوامة القصر والحاشية والعصر والخمر والشراب .. هنا تذكر الرجل الذي أول له رؤياه ورؤيا صاحبه ، فتحقق التأويل :

« وقال الذي نجا منها واذكر بعد أمة^٢ : أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون ! »

* * *

أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون .. ويسدل الستار هنا ، ليرفع في السجن على يوسف وصاحبه هذا يستفتيه : « يوسف - أيها الصديق - أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف : وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات ، لعلني أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون » ..

والساقى يلقب يوسف بالصديق ، أي الصادق الكثير الصدق . وهذا ما جربه في شأنه من قبل ..

« أفتنا في سبع بقرات سمان ... » ..

ونقل ألفاظ الملك التي قالها كاملة ، لأنه يطلب تأويلها ، فكان دقيقاً في نقلها ، وأثبتها السياق مرة أخرى ليبين هذه الدقة أولاً ، وليجيء تأويلها ملاصقاً في السياق لذكرها .

ولكن كلام يوسف هنا ليس هو التأويل المباشر المجرد ، إنما هو التأويل والنصح بمواجهة عواقبه . وهذا أكمل :

« قال : ترزعون سبع سنين دأباً » ..

أي .. متوالية متتابعة . وهي السنوات السبع المخصبة المرموز لها بالبقرات السمان .

« فما حصدتم فذروه في سنبله » ..

أي فاتركوه في سنبله لأن هذا يحفظه من السوس والمؤثرات الجوية .

« إلا قليلاً مما تأكلون » ..

(١) تعبرون : أي تصلون إلى نهايتها وتذكرون مآلها .

(٢) بعد أمة من السنين أو الأوقات : أي مجموعة . والمقصود عددم السنين هي بضع سنين ما بين ثلاث وتسع .

فجر دوه من سنابله ، واحتفظوا بالبقية للسنوات الأخرى المجدبة الرموز لها بالبقرات العجاف .
« ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد » ..
لا زرع فيهن .

« يأكلن ما قدمتم لهن » ..

وكأن هذه السنوات هي التي تأكل بذاتها كل ما يقدم لها لشدة نهمها وجوعها !
« إلا قليلاً مما تحصنون » ..

أي إلا قليلاً مما تحفظونه وتصونونه من التهامها !

« ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغال الناس وفيه يعصرون » ..

أي ثم تنقضي هذه السنوات الشداد العجاف المجدبة ، التي تأتي على ما خزتم وادخرتم من سنوات الخصب .
تنقضي ويعقبها عام رخاء ، يغال الناس فيه بالزرع والماء ، وتنمو كرومهم فيعصرونها خمراً ، وسمسمهم
وخسهم وزيتونهم فيعصرونه زيتاً ..

وهنا نلاحظ أن هذا العام الرخاء لا يقابله رمز في رؤيا الملك ؛ فهو إذن من العلم اللدني الذي علمه الله
يوسف . فبشر به الساقى لبيشر الملك والناس ، بالخلاص من الجذب والجوع بعام رخي رغيد .

* * *

وهنا كذلك ينتقل السياق إلى المشهد التالي . تاركاً فجوة بين المشهدين يكمل التصور ما تم فيها من حركة .
ويرفع الستار مرة أخرى على مجلس الملك . ويحذف السياق ما نقله الساقى من تأويل الرؤيا ، وما تحدث به
عن يوسف الذي أولها . وعن سجنه وأسبابه والحال التي هوفها .. كل أولئك يحذفه السياق من المشهد ،
لنسمع نتيجة من رغبة الملك في رؤية يوسف ، وأمره أن يأتيه به :
« وقال الملك : ائتوني به » ..

ومرة ثالثة في المشهد يحذف السياق جزئيات تفصيلية في تنفيذ الأمر . ولكننا نجد يوسف يرد على رسول
الملك الذي لا نعرف : إن كان هو الساقى الذي جاءه أول مرة . أو رسولاً تنفيذياً مكلفاً بمثل هذا الشأن .
نجد يوسف السجين الذي طال عليه السجن لا يستعجل الخروج حتى تحقق قضيته ، ويتبين الحق واضحاً
في موقفه ، وتعلن براءته - على الأَشهاد - من الوشايات والدسائس والغمز في الظلام .. لقد رباه ربه وأدبه .
ولقد سكبت هذه التربية وهذا الأدب في قلبه السكينة والثقة والطمأنينة . فلم يعد معجلاً ولا عجولاً !

إن أثر التربية الربانية شديد الوضوح في الفارق بين الموقفين : الموقف الذي يقول يوسف فيه للفتى : اذكرني
عند ربك ، والموقف الذي يقول له فيه : ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ، والفارق
بين الموقفين بعيد ..

« قال : ارجع إلى ربك فاسأله : ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ؟ إن ربي بكيدهن عليم » .

لقد رد يوسف أمر الملك باستدعائه حتى يستوثق الملك من أمره ، وحتى يتحقق من شأن النسوة اللاتي
قطعن أيديهن .. بهذا القيد .. تذكيراً بالواقعة وملاساتها وكيد بعضهن لبعض فيها وكيدهن له بعدها .. وحتى
يكون هذا التحقق في غيبته لتظهر الحقيقة خالصة ، دون أن يتدخل هو في مناقشتها .. كل أولئك لأنه واثق
من نفسه ، واثق من براءته ، مطمئن إلى أن الحق لا يخفى طويلاً ، ولا يتخذ طويلاً .

ولقد حكى القرآن عن يوسف استعمال كلمة « رب » بملولها الكامل ، بالقياس إليه وبالقياس إلى رسول الملك إليه . فالملك رب هذا الرسول لأنه هو حاكمه الذي يدين لسلطانه . والله رب يوسف لأنه هو حاكمه الذي يدين لسلطانه ..

ورجع الرسول فأخبر الملك وأحضر الملك النسوة يستجو بهن - والسياق يحذف هذا لتعلمه مما يليه - :
« قال : ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه ؟ » ..

والخطب : الأمر الجلل والمصاب . فكأن الملك كان قد استقصى فعلم أمرهن قبل أن يواجههن ، وهو المعتاد في مثل هذه الأحوال ، ليكون الملك على بينة من الأمر وظروفه قبل الخوض فيه . فهو يواجههن مقررّاً الاتهام ، ومشيراً إلى أمرهن جلل أو شأن لهن خطير :
« ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه ؟ » .

ومن هذا نعلم شيئاً مما دار في حفل الاستقبال في بيت الوزير ؛ ما قالته النسوة ليوسف وما كَمَّحن به وأشارن إليه ، من الإغراء الذي يبلغ درجة المراودة . ومن هذا تتخيل صورة لهذه الأوساط ونسائها حتى في ذلك العهد الموغل في التاريخ . فالجاهلية دائماً هي الجاهلية . إنه حيثما كان الترف ، وكانت القصور والحاشية ، كان التخلل والتميع والفجور الناعم الذي يرتدي ثياب الأرسقراطية !

وفي مثل هذه المواجهة بالاتهام في حضرة الملك ، يبدو أنه لم يكن هنالك مجال للإنكار :
« قلن : حاش لله ! ما علمنا عليه من سوء ! »

وهي الحقيقة التي يصعب إنكارها . ولومن مثل هؤلاء النسوة . فقد كان أمر يوسف إذن من النصاعة والوضوح بحيث لا يقوم فيه جدال .

وهنا تتقدم المرأة المحبة ليوسف ، التي يئست منه ، ولكنها لا تستطيع أن تخلص من تعلقها به .. تتقدم لتقول كل شيء في صراحة :

« قالت امرأة العزيز : الآن حصحص الحق . أنا راودته عن نفسه . وإنه لمن الصادقين » ..

الآن حصحص الحق وظهر ظهوراً واضحاً لا يحتمل الخفاء :

« أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين » ..

وزادت ما يكشف عن أن قلبها لم يخل من إثارة ورجاء تقديره والتفاته بعد كل هذا الأمد ؛ وما يشي كذلك بأن عقيدة يوسف قد أخذت طريقها إلى قلبها فأمن :

« ذلك ليعلم أي لم أخنه بالغيب ، وأن الله لا يهدي كيد الخائنين » ..

وهذا الاعتراف وما بعده يصوره السياق هنا بألفاظ موحية ، تشي بما وراءها من انفعالات ومشاعر . كما يشي الستار الرقيق بما وراءه في ترفع وتجميل في التعبير :

« أنا راودته عن نفسه ، وإنه لمن الصادقين » ..

شهادة كاملة بنظافته وبرائه وصدقه . لا تبالي المرأة ما وراءها مما يلم بها هي ويلحق بأردانها .. فهل هو الحق وحده الذي يدفعها لهذا الإقرار الصريح في حضرة الملك والملأ ؟

يشي السياق بحافظ آخر ، هو حرصها على أن يحترمها الرجل المؤمن الذي لم يعبأ بفتنتها الجسدية . أن يحترمها تقديراً لإيمانها ولصدقها وأمانتها في حقه عند غيبته :

« ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب » ..

ثم تمضي في هذه المحاولة والعودة إلى الفضيلة التي يحبها يوسف ويقدرها :

« وأن الله لا يهدي كيد الخائنين » ..

وتمضي خطوة أخرى في هذه المشاعر الطيبة :

« وما أبرئ نفسي ، إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي ، إن ربي غفور رحيم » ..

إنها امرأة أحببت . امرأة تكبر الرجل الذي تعلقت به في جاهليتها وإسلامها ، فهي لا تملك إلا أن تظل معلقة بكلمة منه ، أو خاطرة ارتياح تحس أنها صدرت عنه !

وهكذا يتجلى العنصر الإنساني في القصة ، التي لم تسق لمجرد الفن ، إنما سبقت للعبرة والعظة . وسيقت لتعالج قضية العقيدة والدعوة . ويرسم التعبير الفني فيها خفقات المشاعر وانتفاضات الوجدان رسماً رقيقاً رقيقاً شفيفاً . في واقعة كاملة تناسق فيها جميع المؤثرات وجميع الواقعات في مثل هذه النفوس ، في ظل بيئتها ومؤثرات هذه البيئة كذلك .

وإلى هنا تنتهي محنة السجن ومحنة الاتهام ، وتسير الحياة بيوسف رخاء ، الاختبار فيه بالنعمة لا بالشدة .

وإلى هنا نقف في هذا الجزء من الظلال ، وتتابع القصة سيرها في الجزء التالي إن شاء الله .

اتمى الجزء الثاني عشر
ويليه الجزء الثالث عشر
مبدوءاً بقوله تعالى :

« وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي ... »

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بَقِيَّةُ
سُورَةِ يُوسُفَ
وَسُورَتَا
الرَّعْدِ وَابْرَاهِيمَ

الجزء الثالث عشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يتألف هذا الجزء من بقية سورة يوسف المكية ، ومن سورتي الرعد وإبراهيم المكيّتين أيضاً . فهو جزء كامل من القرآن المكي ؛ بكل خصائص القرآن المكي^١ .

فأما سورتا الرعد وإبراهيم فسنعرّف بهما - إن شاء الله - في موضعهما . وأما بقية سورة يوسف ، فترجو أن تراجع قبل قراءتها في هذا الجزء ما سبق من التعريف بالسورة في الجزء الماضي .

إننا نستقبل في هذا الجزء بقية قصة يوسف ، والتعقيبات المباشرة عليها ؛ ثم التعقيبات الأخيرة في السورة .. وكذلك نستقبل فيه مرحلة جديدة من مراحل حياة الشخصية الأساسية في القصة - شخصية يوسف عليه السلام - ومع امتداد هذه الشخصية واستقامتها على المقومات الأساسية لها - تلك التي مر ذكرها في التعريف بشخصيات القصة في التقديم للسورة^٢ ، فإننا نجد في هذه المرحلة الجديدة ملامح جديدة تبرز - هي امتداد طبيعي واقعي لنشأة الشخصية وللمرحلة السابقة من حياتها ولكنها مع ذلك ذات طابع مميز ..

نجد شخصية يوسف - عليه السلام - وقد استقامت مع نشأتها والأحداث التي مرت بها ، والابتلاءات التي اجتازتها ، في ظل التربية الربانية للعبد الصالح ، الذي يعدّ ليتمكن له في الأرض ، وليقوم بالدعوة إلى دين الله وهو ممكن له في الأرض ، وهو قابض على مقاليد الأمور في مركز التموين في الشرق الأوسط !

وأول ملامح هذه المرحلة هذا الاعتزاز بالله ، والاطمئنان إليه ، والثقة به ، والتجرد له ، والتعري من كل قيم الأرض ، والتحرر من كل أوهاقها ، واستصغار شأن القوى المتحكمة فيها ، وهوان تلك القيم وهذه القوى في النفس الموصولة الأسباب بالله - سبحانه وتعالى !

تبدو هذه الظاهرة الواضحة في موقف يوسف ، ورسول الملك يحمي إليه في سجنه يبلغه رغبة الملك في أن يراه .. فلا يخف يوسف - عليه السلام - لطلب الملك ؛ ولا يتلهف على مغادرة سجنه الظالم المظلم إلى رحاب الملك الذي يرغب في لقائه ؛ ولا تستخفه الفرحة بالخروج من هذا الضيق .

ولا تتجلى هذه الظاهرة - وماوراءها من التغيرات العميقة في الموازين والقيم والمشاعر في نفس يوسف

(١) تراجع مقدمة سورة الأنعام في الجزء السابع ، ومقدمة سورة يونس في الجزء الحادي عشر ، ومقدمة سورة هود في الجزء الثاني عشر .

(٢) ص ١٩٥١ - ١٩٦٣ من الجزء الثاني عشر من هذه الطبعة المصححة . « دار الشروق » .

الصديق ، إلا حين نعود القهقري بضع سنين ، لنجد يوسف يوصي ساقى الملك - وهو يظن أنه ناج - أن يذكره عند ربه .. إن الإيمان هو الإيمان ، ولكن هذه هي الطمأنينة . الطمأنينة التي تنسكب في القلب وهو يلابس قدر الله في جريانه .. وهو يرى كيف يتحقق هذا القدر أمام عينيه فعلاً .. الطمأنينة التي كان يطلبها جده إبراهيم عليه السلام ، وهو يقول لربه : « رب أرني كيف تحيي الموتى » فيسأله ربه - وربّه يعلم : - « أولم تؤمن ؟ » فيقول - وربّه يعلم حقيقة ما يشعر وما يقول - : « بلى ! ولكن ليطمئن قلبي » .. إنها هي الطمأنينة التي تسكبها التربية الربانية في قلوب الصفوة المختارة ، بالابتلاء والمعاناة ، والرؤية والمشاهدة ، والمعرفة والتذوق .. ثم الثقة والسكينة ..

وهذه هي الظاهرة الواضحة في كل مواقف يوسف من بعد ، حتى يكون الموقف الأخير في نجائه مع ربه ، منخلعاً من كل شيء تهفو له النفوس في هذه الأرض : « رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث . فاطر السموات والأرض ، أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وأحقني بالصالحين » .

أما التعقيبات التي ترد في نهاية القصة ، والتعقيبات العامة في السورة ، فقد تحدثنا عنها إجمالاً عند تقديم السورة في الجزء الثاني عشر^١ . وسوف نواجهها بالتفصيل في مواضعها من السياق إن شاء الله .. إنما أردنا فقط أن نبرز تلك الظاهرة الجديدة في الشخصية الرئيسية في القصة . ذلك أنها الظاهرة الأساسية التي تتكامل بها صورة الشخصية ؛ كما أنها هي الظاهرة الأساسية التي يحتفل بها سياق القصة وسياق السورة من الناحية الحركية التربوية للمنهج القرآني ..
والآن سنواجه النصوص تفصيلاً :

* وَمَا أَبْرَأُ نَفْسِي^{٤٤} إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي^{٤٥} إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٤٦﴾

وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِنِي بِهِ^{٤٧} أَسْتَخْلَصُهُ لِنَفْسِي^{٤٨} فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٤٩﴾ قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى

خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾

وَكَذَلِكَ مَكَانٌ لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَنْبُؤُا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ^{٥١} نُنْصِبُ بِرَحْمَتِنَا مِنْ نَشَاءٍ^{٥٢} وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ

الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَا جُرْأَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٤﴾

وَجَاءَ إِخْوَةَ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٥﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ أَتُؤْتِنِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ

أَبْيَكُمُ^{٥٦} الْأَتْرُونَ أَتِي أَوْفِي الْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٥٧﴾ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ^{٥٨} فَلَا يَكِلُ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونَ ﴿٥٩﴾

قَالُوا سُرِدُوا عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَعْتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَيْنَا أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٦﴾

فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نَكْتَلُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ هَلْ ءَأَمِنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٨﴾

وَلَمَّا فَتَحُوا مَتْعَهُمْ وَجَدُوا بِضَعْتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بَضَعْتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَمِمِّرُ أَهْلِنَا وَنَحْفِظُ آخَانَ وَتَزَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ﴿٦٩﴾ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُتَوَّنُوا موثِقًا مِنَ اللَّهِ لِنَأْتِيَنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٧١﴾

وَقَالَ يَبْنَئِي لَأَتَدْخُلُونِ مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَأَدْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَحْكُرُ إِلَّا اللَّهُ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٧٢﴾

وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لُدُوْعٌ عَلَيْهِمْ لَمَّا عَلَنَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٣﴾
وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾

فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِبْرِيُّ إِنَّكَ لَمُسْرِقُونَ ﴿٧٥﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧٦﴾ قَالُوا نَفَقْدُ صُوعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٧﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٨﴾ قَالُوا فَا جَرَّأُوهُوَ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٩﴾ قَالُوا جَرَّأُوهُوَ مِنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَرَّأُوهُوَ كَذَلِكَ تَجْرَى الظَّالِمِينَ ﴿٨٠﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وَعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وَعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٨١﴾ * قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا

لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٦﴾ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَلَعْنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذَا نَظَرْنَا لَمُنُونَ ﴿٧٨﴾

نمضي في هذا الدرس مع قصة يوسف ، في حلقة جديدة من حلقاتها - الحلقة الرابعة - وقد وقفنا في نهاية الجزء الثاني عشر عند نهاية الحلقة الثالثة . وقد أخرج من السجن ، واستدعاه الملك ليكون له شأن معه ، هو الذي سنعرفه في هذه الحلقة الجديدة .

هذا الدرس يبدأ بآخر فقرة في المشهد السابق . مشهد الملك يستجوب النسوة اللاتي قطعن أيديهن - كما رغب إليه يوسف أن يفعل - تمحيصاً لتلك المكاييد التي أدخلته السجن ، وإعلاناً لبراءته على الملأ ، قبل أن يبدأ مرحلة جديدة في حياته ؛ وهو يبدوها واثقاً مطمئناً ، في نفسه سكينه وفي قلبه طمأنينة وقد أحس أنها ستكون مرحلة ظهور في حياة الدولة ، وفي حياة الدعوة كذلك . فيحسن أن يبدأها وكل ما حوله واضح ، ولا شيء من غبار الماضي يلاحقه وهو بريء .

ومع أنه قد تجمل فلم يذكر عن امرأة العزيز شيئاً ، ولم يشر إليها على وجه التخصيص ، إنما رغب إلى الملك أن يفحص عن أمر النسوة اللاتي قطعن أيديهن ، فإن امرأة العزيز تقدمت لتعلن الحقيقة كاملة : « الآن حصحص الحق . أنا راودته عن نفسه ، وإنه لمن الصادقين . ذلك ليعلم أنني لم أخنه بالغيب ، وأن الله لا يهدي كيد الخائنين . وما أبرئ نفسي ؛ إن النفس لأماره بالسوء ، إلا ما رحم ربي ، إن ربي غفور رحيم » ..

وفي هذه الفقرة الأخيرة تبدو المرأة مؤمنة متحرجة ، تبرئ نفسها من خيانة يوسف في غيبته ؛ ولكنها تتحفظ فلا تدعي البراءة المطلقة ، لأن النفس أماره بالسوء - إلا ما رحم ربي - ثم تعلن ما يدل على إيمانها بالله - ولعل ذلك كان اتباعاً ليوسف - « إن ربي غفور رحيم » .. وبذلك يسدل الستار على ماضي الآلام في حياة يوسف الصديق . وتبدأ مرحلة الرخاء والعز والتمكين ..

* * *

« وقال الملك : اتئوني به أستخلصه لنفسي .. فلما كلمه قال : إنك اليوم لدينا مكين أمين . قال : اجعلني على خزائن الأرض ، إني حفيظ عليم .. وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ، يتبوأ منها حيث يشاء ، نصيب برحمتنا من نشاء ، ولا نضيع أجر المحسنين . ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون » ..

لقد تبينت للملك براءة يوسف ، وتبين له معها علمه في تفسير الرؤيا ، وحكمته في طلب تمحيص أمر النسوة ، كذلك تبينت له كرامته وإباؤه ، وهو لا يتهافت على الخروج من السجن ، ولا يتهافت على لقاء الملك . وأي ملك ؟ ملك مصر ! ولكن يقف وقفة الرجل الكريم المتهم في سمعته ، المسجون ظلماً ، يطلب رفع الاتهام عن سمعته قبل أن يطلب رفع السجن عن بدنه ؛ ويطلب الكرامة لشخصه ولدينه الذي يمثله قبل أن يطلب الحظوة عند الملك ..

كل أولئك أوقع في نفس الملك احترام هذا الرجل وحبه فقال :
« اتنوني به أستخلصه لنفسي » ..

فهو لا يأتي به من السجن ليطلق سراحه ؛ ولا ليرى هذا الذي يفسر الرؤى ؛ ولا ليسمعه كلمة « الرضاء الملكي السامي ! » فيطير بها فرحاً .. كلا ! إنما يطلبه ليستخلصه لنفسه ، ويجعله بمكان المستشار والنجيب والصديق ..

فيا ليت رجلاً يرغبون كرامتهم على أقدام الحكام - وهم أبرياء مطلقو السراح - فيضعوا النير في أعناقهم بأيديهم ؛ ويتهافتوا على نظرة رضى وكلمة ثناء ، وعلى حظوة الأتباع لا مكانة الأصفياء .. يا ليت رجلاً من هؤلاء يقرأون هذا القرآن ، ويقرأون قصة يوسف ، ليعرفوا أن الكرامة والإيابة والاعتزاز تدر من الربح - حتى المادي - أضعاف ما يدره التمرغ والتزلف والانحناء !

« وقال الملك : اتنوني به أستخلصه لنفسي » ..

ويخذف السياق جزئية تنفيذ الأمر لنجد يوسف مع الملك ..

« فلما كلمة قال : إنك اليوم لدينا مكين أمين » ..

فلما كلمه تحقق له صدق ما توسمه . فإذا هو يطمئنه على أنه عند الملك ذو مكانة وفي أمان . فليس هو الفتى العبراني الموسوم بالعبودية . إنما هو مكين . وليس هو المتهم المهدد بالسجن . إنما هو أمين . وتلك المكانة وهذا الأمان لدى الملك وفي حماه . فإذا قال يوسف ؟

إنه لم يسجد شكراً كما يسجد رجال الحاشية المتملقون للظواغيت . ولم يقل له : عشت يا مولاي وأنا عبدك الخاضع أو خادمك الأمين ، كما يقول المتملقون للظواغيت ! كلا إنما طالب بما يعتقد أنه قادر على أن ينهض به من الأعباء في الأزمة القادمة التي أول بها رؤيا الملك ، خيراً مما ينهض بها أحد في البلاد ؛ وبما يعتقد أنه سيصون به أرواحاً من الموت وبلاداً من الخراب ، ومجتمعاً من الفتنة - فتنة الجوع - فكان قوياً في إدراكه لحاجة الموقف إلى خبرته وكفائته وأمانته ، قوته في الاحتفاظ بكرامته وإيائه :

« قال : اجعلني على خزائن الأرض . إني حفيظ عليم » ..

والأزمة القادمة وسنو الرخاء التي تسبقها في حاجة إلى الحفظ والصيانة والقدرة على إدارة الأمور بالدقة وضبط الزراعة والمحاصيل وصيانتها . وفي حاجة إلى الخبرة وحسن التصرف والعلم بكافة فروع الضرورية لتلك المهمة في سنوات الخصب وفي سني الجذب على السواء . ومن ثم ذكر يوسف من صفاته ما تحتاج إليه المهمة التي يرى أنه أقدر عليها ، وأن وراءها خيراً كبيراً لشعب مصر وللشعوب المجاورة :

« إني حفيظ عليم » ..

ولم يكن يوسف يطلب لشخصه وهو يرى إقبال الملك عليه فيطلب أن يجعله على خزائن الأرض .. إنما كان حصيفاً في اختيار اللحظة التي يستجاب له فيها لينهض بالواجب المرهق الثقيل ذي التبعة الضخمة في أشد أوقات الأزمة ؛ وليكون مسؤولاً عن إطعام شعب كامل وشعوب كذلك تجاوره طوال سبع سنوات ، لا زرع فيها ولا ضرع . فليس هذا غنماً يطلبه يوسف لنفسه . فإن التكفل بإطعام شعب جائع سبع سنوات متوالية لا يقول أحد إنه غنيمة . إنما هي تبعة يهرب منها الرجال ، لأنها قد تكلفهم رؤوسهم ، والجوع كافر ، وقد تمزق الجماهير الجائعة أجسادهم في لحظات الكفر والجنون .

وهنا تعرض شبهة .. أليس في قول يوسف - عليه السلام - : « اجعلني على خزائن الأرض ، إني حفيظ عليم » .. أمران محظوران في النظام الإسلامي :

أولهما : طلب التولية ، وهو محظور بنص قول الرسول - صلى الله عليه وسلم - : « إنا والله لا نولي هذا العمل أحداً سأله (أو حرص عليه) ... (متفق عليه) .

وثانيهما : تزكية النفس ، وهي محظورة بقوله تعالى : « فلا تزكوا أنفسكم » ؟

ولا تريد أن نجيب بأن هذه القواعد إنما تقرر في النظام الإسلامي الذي تقرر على عهد محمد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأنها لم تكن مقررة على أيام يوسف - عليه السلام - والمسائل التنظيمية في هذا الدين ليست موحدة كأصول العقيدة ، الثابتة في كل رسالة وعلى يد كل رسول ..

لا تريد أن نجيب بهذا ، وإن كان له وجه ، لأننا نرى أن الأمر في هذه المسألة أبعد أعماقاً ، وأوسع آفاقاً من أن يرتكن إلى هذا الوجه ؛ وأنه إنما يرتكن إلى اعتبارات أخرى لا بد من إدراكها ، لإدراك منهج الاستدلال من الأصول والنصوص ، وإعطاء أصول الفقه وأحكامه تلك الطبيعة الحركية الأصيلة في كيانها ، والتي خمدت وجمدت في عقول الفقهاء وفي عقلية الفقه كلها في قرون الخمود والركود !

إن الفقه الإسلامي لم ينشأ في فراغ ، كما أنه لا يعيش ولا يفهم في فراغ !.. لقد نشأ الفقه الإسلامي في مجتمع مسلم ، ونشأ من خلال حركة هذا المجتمع في مواجهة حاجات الحياة الإسلامية الواقعية . كذلك لم يكن الفقه الإسلامي هو الذي أنشأ المجتمع المسلم ؛ إنما كان المجتمع المسلم بحركته الواقعية لمواجهة حاجات الحياة الإسلامية هو الذي أنشأ الفقه الإسلامي ..

وهاتان الحقيقتان التاريخيتان الواقعتان عظيمتا الدلالة ؛ كما أنهما ضروريتان لفهم طبيعة الفقه الإسلامي ؛ وإدراك الطبيعة الحركية للأحكام الفقهية الإسلامية .

والذين يأخذون اليوم تلك النصوص والأحكام المدونة ، دون إدراك لهاتين الحقيقتين ؛ ودون مراجعة للظروف والملابسات التي نزلت فيها تلك النصوص ونشأت فيها تلك الأحكام ، ودون استحضار لطبيعة الجو والبيئة والحالة التي كانت تلك النصوص تليها وتوجهها ؛ وكانت تلك الأحكام تصاغ فيها وتحكمها وتعيش فيها .. الذين يفعلون ذلك ؛ ويحاولون تطبيق هذه الأحكام كأنها نشأت في فراغ ؛ وكأنها اليوم يمكن أن تعيش في فراغ .. هؤلاء لبسوا « فقهاء » ! وليس لهم « فقه » بطبيعة الفقه ! وبطبيعة هذا الدين أصلاً !

إن « فقه الحركة » يختلف اختلافاً أساسياً عن « فقه الأوراق » مع استمداده أصلاً وقيامه على النصوص التي يقوم عليها ويستمد منها « فقه الأوراق » !

إن فقه الحركة يأخذ في اعتباره « الواقع » الذي نزلت فيه النصوص ، وصيغت فيه الأحكام . ويرى أن ذلك الواقع يؤلف مع النصوص والأحكام مركباً لا تنفصل عناصره . فإذا انفصلت عناصر هذا المركب فقد طبيعته ، واختل تركيبه !

ومن ثم فليس هنالك حكم فقهي واحد مستقل بذاته ، يعيش في فراغ ، لا تتمثل فيه عناصر الموقف والجو والبيئة والملابسات التي نشأت نشأته الأولى فيها .. إنه لم ينشأ في فراغ ومن ثم لا يستطيع أن يعيش في فراغ !

ونأخذ مثلاً لهذا التقرير العام هذا الحكم الفقهي الإسلامي بعدم تزكية النفس وعدم ترشيحها للمناصب ،

وهو المأخوذ من قوله تعالى : « فلا تركوا أنفسكم » ومن قول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « إنا والله لا نولي هذا العمل أحداً سأله .. »

لقد نشأ هذا الحكم - كما نزلت تلك النصوص - في مجتمع مسلم ؛ ليطبق في هذا المجتمع ؛ وليعيش في هذا الوسط ؛ وليلي حاجة ذلك المجتمع . وفق نشأته التاريخية ، ووفق تركيبه العضوي ، ووفق واقعه الذاتي . فهو من ثم حكم إسلامي جاء ليطبق في مجتمع إسلامي .. وقد نشأ في وسط واقعي ولم ينشأ في فراغ مثالي . وهو من ثم لا يطبق ولا يصلح ولا ينشأ آثاره الصحيحة إلا إذا طبق في مجتمع إسلامي .. إسلامي في نشأته ، وفي تركيبه العضوي ، وفي التزامه بشريعة الإسلام كاملة .. وكل مجتمع لا تتوافر فيه هذه المقومات كلها يعتبر « فراغاً » بالقياس إلى ذلك الحكم ، لا يملك أن يعيش فيه ، ولا يصلح له ، ولا يصلحه كذلك ! .. ومثل هذا الحكم كل أحكام النظام الإسلامي . وإن كنا في هذا المقام لا نفصل إلا هذا الحكم بمناسبة ذلك السياق القرآني ..

ونريد أن نفهم لماذا لا يزكي الناس أنفسهم في المجتمع المسلم ، ولا يرشحون أنفسهم للوظائف ، ولا يقومون لأشخاصهم بدعاية ما كي يختاروا لمجلس الشورى أو للإمامة أو للإمارة ...

إن الناس في المجتمع المسلم لا يحتاجون لشيء من هذا لإبراز أفضليتهم وأحقيتهم . كما أن المناصب والوظائف في هذا المجتمع تكليف ثقيل لا يغري أحداً بالتزاحم عليه - اللهم إلا ابتغاء الأجر بالنهوض بالواجب وللخدمة الشاقة ابتغاء رضوان الله تعالى - ومن ثم لا يسأل المناصب والوظائف إلا المتهاقون عليها لحاجة في نفوسهم . وهؤلاء يجب أن يُمنعوا !

ولكن هذه الحقيقة لا نفهم إلا بمراجعة النشأة الطبيعية للمجتمع المسلم ، وإدراك طبيعة تكوينه العضوي أيضاً ..

إن الحركة هي العنصر المكوّن لذلك المجتمع . فالمجتمع المسلم وليد الحركة بالعقيدة الإسلامية ..

أولاً : تجيء العقيدة من مصدرها الإلهي متمثلة في تبليغ الرسول وعمله - على عهد النبوات - أو متمثلة في دعوة الداعية بما جاء من عند الله وما بلغه رسوله - على مدار الزمان بعد ذلك - فيستجيب للدعوة ناس ؛ يتعرضون للأذى والفتنة من الجاهلية الحاكمة السائدة في أرض الدعوة . ففهم من يفتن ويرتد ، ومنهم من يصدق ما عاهد الله عليه فيقضي نجهه شهيداً ومنهم من ينتظر حتى يحكم الله بينه وبين قومه بالحق ..

هؤلاء يفتح الله عليهم ، ويجعل منهم ستاراً لقدره ، ويمكن لهم في الأرض تحقيقاً لوعده بنصر من ينصره ، والتمكين في الأرض له ، ليقم مملكة الله في الأرض - أي لينفذ حكم الله في الأرض - ليس له من هذا النصر والتمكين شيء ؛ إنما هو نصر لدين الله ، وتمكين لربوبية الله في العباد .

وهؤلاء لا يقفون بهذا الدين عند حدود أرض معينة ؛ ولا عند حدود جنس معين ؛ ولا عند حدود قوم أو لون أو لغة أو مقوم واحد من تلك المقومات البشرية الأرضية الهزيلة السخيفة ! إنما ينطلقون بهذه العقيدة الربانية ليحرروا « الإنسان » .. كل الإنسان : في « الأرض » .. كل الأرض .. من العبودية لغير الله ؛ وليرفعوه عن العبودية للطواغيت أياً كانت هذه الطواغيت .

(1) يراجع فصل « الجهاد في سبيل الله » في كتاب : « معالم في الطريق » . « دار الشروق » .

وفي أثناء الحركة بهذا الدين - وقد لاحظنا أنها لا تتوقف عند إقامة الدولة المسلمة في بقعة من الأرض ، ولا تقف عند حدود أرض أو جنس أو قوم - تتميز أقدار الناس ، وتحدد مقاماتهم في المجتمع ، ويقوم هذا التحديد وذلك التمييز على موازين وقيم إيمانية ، الجميع يتعارفون عليها ، من البلاء في الجهاد ، والتقوى والصلاح والعبادة والأخلاق والقدرة والكفاءة .. وكلها قيم يحكم عليها الواقع ، وتبرزها الحركة ، ويعرفها المجتمع ويعرف المتسمين بها .. ومن ثم لا يحتاج أصحابها أن يزكوا أنفسهم ، ولا أن يطلبوا الإمارة أو مراكز الشورى والتوجيه على أساس هذه التزكية ..

وفي المجتمع المسلم الذي نشأ هذه النشأة ، وقام تركيبه العضوي على أساس التمييز في أثناء الحركة بتلك القيم الإيمانية - كما حدث في المجتمع المسلم من تمييز السابقين من المهاجرين ثم الأنصار . وأهل بدر ، وأهل بيعة الرضوان . ومن أنفق من قبل الفتح وقاتل - ثم ظل يتميز الناس فيه بحسن البلاء في الإسلام .. في هذا المجتمع لا يبغض الناس بعضهم بعضاً ، ولا ينكر الناس فضائل المتميزين - مهما غلب الضعف البشري أصحابه أحياناً فغلبتهم الأطماع - وعندئذ تنتفي الحاجة - من جانب آخر - إلى أن يزكي المتميزون أنفسهم ويطلبوا الإمارة أو مراكز الشورى والتوجيه على أساس هذه التزكية ..

ولقد نجيب للناس الآن أن هذه خاصية متفردة للمجتمع المسلم الأول بسبب نشأته التاريخية ! ولكنهم ينسون أن أي مجتمع مسلم لن يوجد إلا بمثل هذه النشأة .. لن يوجد اليوم أو غداً ، إلا أن تقوم دعوة لإدخال الناس في هذا الدين من جديد ، وإخراجهم من الجاهلية التي صاروا إليها .. وهذه نقطة البدء .. ثم تعقبها الفتنة والابتلاء - كما حدث أول مرة - فأما ناس فيفتنون ويرتدون ! وأما ناس فيصدقون ما عاهدوا الله عليه فيقضون نحبهم ويموتون شهداء . وأما ناس فيصبرون ويصابرون ويصرون على الإسلام ، ويكرهون أن يعودوا إلى الجاهلية كما يكره أحدهم أن يلقى في النار ؛ حتى يحكم الله بينهم وبين قومهم بالحق ، ويمكن لهم في الأرض - كما مكن للمسلمين أول مرة - فيقوم في أرض من أرض الله نظام إسلامي .. ويومئذ تكون الحركة من نقطة البدء إلى قيام النظام الإسلامي قد ميزت المجاهدين المتحركين إلى طبقات إيمانية ، وفق الموازين والقيم الإيمانية .. ويومئذ لن يحتاج هؤلاء إلى ترشيح أنفسهم وتركيتها ، لأن مجتمعهم الذي جاهد كله معهم يعرفهم ويزكيهم ويرشحهم !

ولقد يقال بعد هذا : ولكن هذا يكون في المرحلة الأولى . فإذا استقر المجتمع بعد ذلك ؟ وهذا سؤال من لا يعرف طبيعة هذا الدين ! إن هذا الدين يتحرك دائماً ولا يكف عن الحركة .. يتحرك لتحرير « الإنسان » . كل الإنسان .. في « الأرض » .. كل الأرض .. من العبودية لغير الله ؛ وليرفعه عن العبودية للطواغيت ؛ بلا حدود من الأرض أو الجنس أو القوم أو أي مقوم من المقومات البشرية الأرضية الهزيلة السخيفة !

وإذن فستظل الحركة - التي هي طبيعة هذا الدين الأصيلة - تميز أصحاب البلاء وأصحاب الكفايات والمواهب ؛ ولا تقف أبداً ليركد هذا المجتمع ويأسن - إلا أن ينحرف عن الإسلام - وسيظل الحكم الفقهي - الخاص بتحريم تزكية النفس وطلب العمل على أساس هذه التزكية - قائماً وعملاً في محيطه الملائم .. ذات المحيط الذي نشأ أول مرة وعمل فيه .

ثم يقال : ولكن المجتمع حين يتسع لا يعرف الناس بعضهم بعضاً ؛ ويصبح الأكفاء الموهوبون في حاجة إلى الإعلان عن أنفسهم وتركيتها وطلب العمل على أساس هذه التزكية !

وهذا القول كذلك وهم ناشئ من التأثير بواقع المجتمعات الجاهلية الحاضرة .. إن المجتمع المسلم يكون

أهل كل محلة فيه متعارفين متواصلين متكافلين - كما هي طبيعة التربية والتكوين والتوجيه ، والالتزام في المجتمع المسلم - ومن ثم يكون أهل كل محلة عارفين بأصحاب الكفايات والمواهب فيهم ؛ موزونة هذه الكفايات والمواهب بموازين وقيم إيمانية ؛ فلا يعز عليهم أن يتدبوا هم من بينهم أهل البلاء والتقوى والكفاية .. سواء لمجلس الشورى أو للشؤون المحلية . أما الإمارات العامة فيختار لها الإمام - الذي اختارته الأمة بعد ترشيح أهل الحل والعقد - أو أهل الشورى - له .. يختار لها من بين مجموعة الرجال المختارين الذين ميزتهم الحركة . والحركة دائبة كما قلنا في المجتمع المسلم ، والجهاد ماض إلى يوم القيامة .

إن الذين يفكرون في النظام الإسلامي اليوم وتشكيلاته - أو يكتبون - يدخلون في متاهة ! ذلك أنهم يحاولون تطبيق قواعد النظام الإسلامي وأحكامه الفقهية المدونة في فراغ ! يحاولون تطبيقها في هذا المجتمع الجاهلي القائم ، بتركيبه العضوي الحاضر ! وهذا المجتمع الجاهلي الحاضر يعتبر - بالقياس إلى طبيعة النظام الإسلامي وأحكامه الفقهية - فراغاً لا يمكن أن يقوم فيه هذا النظام ولا أن تطبق فيه هذه الأحكام .. إن تركيبه العضوي مناقض تماماً للتركيب العضوي للمجتمع المسلم . فالمجتمع المسلم - كما قلنا - يقوم بتركيبه العضوي على أساس ترتيب الشخصيات والفئات كما ترتبها الحركة لإقرار هذا النظام في عالم الواقع ، ولمجاهدة الجاهلية لإخراج الناس منها إلى الإسلام . مع تحمل ضغوط الجاهلية وما توجهه من فتنة وإيذاء وحرب على هذه الحركة ، والصبر على الابتلاء وحسن البلاء من نقطة البدء إلى نقطة الفصل في نهاية المطاف . أما المجتمع الجاهلي الحاضر فهو مجتمع راكد ، قائم على قيم لا علاقة لها بالإسلام ، ولا بالقيم الإيمانية .. وهو - من ثم - يعد بالقياس إلى النظام الإسلامي وأحكامه الفقهية فراغاً لا يعيش فيه هذا النظام ولا تقوم فيه هذه الأحكام !

هؤلاء الكاتبون الباحثون عن حل لتطبيق قواعد النظام وتشكيلاته وأحكامه الفقهية يحيرهم - أول ما يحيرهم - طريقة اختيار أهل الحل والعقد - أو أهل الشورى - من غير ترشيح من أنفسهم ولا تركية ! كيف يمكن هذا في مثل هذه المجتمعات التي نعيش فيها والناس لا يعرف بعضهم بعضاً ولا يزنون كذلك بموازين الكفاية والنزاهة والأمانة ! كذلك تحيرهم طريقة اختيار الإمام ؟ أيكون الاختيار من عامة الشعب أم يكون من ترشيح أهل الحل والعقد ؟ وإذا كان الإمام سيختار أهل الحل والعقد - متابعة لعدم تركيتهم لأنفسهم أو ترشيحها - فكيف يعودون هم فيختارون الإمام ؟ ألا يؤثر هذا في ميزانهم ؟ ثم إذا كانوا هم الذين سيعودون فيرشحون الإمام ؟ ألا تكون لهم ولاية عليه وهو الإمام الأعظم ؟ ثم ألا يجعله هذا يختار أشخاصاً يضمن ولاءهم له ، ويكون هذا هو العنصر الأول في اعتباره ؟ ...

وأسئلة أخرى كثيرة لا يجدون لها جواباً في هذه المتاهة !

أنا أعرف نقطة البدء في هذه المتاهة .. إنها هي افتراض أن هذا المجتمع الجاهلي الذي نعيش فيه مجتمع مسلم ؛ وأن قواعد النظام الإسلامي وأحكامه الفقهية سيحاء بها لتطبيق على هذا المجتمع الجاهلي بتركيبه العضوي الحاضر ، وبقيمه وأخلاقه الحاضرة !

هذه نقطة البدء في المتاهة .. ومتى بدأ منها الباحث فإنه يبدأ في فراغ ، ويوغل في هذا الفراغ ، حتى يبعد في التيه ، وحتى يأخذ الدوار !

إن هذا المجتمع الجاهلي الذي نعيش فيه ليس هو المجتمع المسلم ، ومن ثم لن يطبق فيه النظام الإسلامي ولن تطبق فيه الأحكام الفقهية الخاصة بهذا النظام .. لن تطبق لاستحالة هذا التطبيق الناشئة من أن قواعد النظام

الإسلامي وأحكامه الفقهية لا يمكن أن تتحرك في فراغ ؛ لأنها بطبيعتها لم تنشأ في فراغ ، ولم تتحرك في فراغ كذلك !

إن المجتمع الإسلامي ينشأ بتركيب عضوي آخر غير التركيب العضوي للمجتمع الجاهلي .. ينشأ من أشخاص ومجموعات وفئات جاهدت - في وجه الجاهلية - لإنشائه ؛ وتحددت أقدارها وتميزت مقاماتها في ثنايا تلك الحركة .

إنه مجتمع جديد .. ومجتمع وليد .. ومجتمع متحرك دائماً في طريقه لتحرير « الإنسان » ، .. كل الإنسان .. في « الأرض » .. كل الأرض ... من العبودية لغير الله ، ولرفع هذا الإنسان عن ذلة العبودية للطواغيت .. أياً كانت هذه الطواغيت ..

ومثل قضية التزكية وطلب الإمارة ، واختيار الإمام ، واختيار أهل الشورى ... وما إليها ... قضايا كثيرة تثار ، ويطرحها الباحثون في الإسلام .. في الفراغ .. في هذا المجتمع الجاهلي الذي نعيش فيه .. بتركيبه العضوي المختلف تماماً عن التركيب العضوي للمجتمع المسلم .. وبقيمه وموازينه واعتباراته وأخلاقه ومشاعره وتصوراته المختلفة تماماً عن قيم المجتمع المسلم وموازينه واعتباراته وأخلاقه ومشاعره وتصوراته ..

أعمال البنوك وأساسها الربوي .. شركات التأمين وقاعدتها الربوية .. تحديد النسل وما أدري ماذا؟! إلى آخر هذه « المشكلات » التي يشغل « الباحثون » بها أنفسهم أو يجيئون فيها عن استفتاءات توجه إليهم .. إنهم جميعاً - مع الأسف - يبدأون من نقطة البدء في المتاهة ! يبدأون من افتراض أن قواعد النظام الإسلامي وأحكامه سيجاء بها لتطبق على هذه المجتمعات الجاهلية الحاضرة بتركيبها العضوي الحاضر ؛ فنتنقل هذه المجتمعات إذن - متى طبقت عليها أحكام الإسلام - إلى الإسلام !

وهي تصورات مضحكة لولا أنها محزنة !

إن الفقه الإسلامي بكل أحكامه ليس هو الذي أنشأ المجتمع المسلم . إنما المجتمع المسلم بحركته - في مواجهة الجاهلية ابتداءً - ثم بحركته في مواجهة حاجة الحياة الحقيقية ثانياً ، هو الذي أنشأ الفقه الإسلامي مستمداً من أصول الشريعة الكلية .. والعكس لا يمكن أن يكون أصلاً !

إن الفقه الإسلامي لا ينشأ في فراغ ، ولا يعيش في فراغ كذلك .. لا ينشأ في الأدمغة والأوراق ؛ إنما ينشأ في واقع الحياة . وليست أية حياة . إنما هي حياة المجتمع المسلم على وجه التحديد .. ومن ثم لا بد أن يوجد المجتمع المسلم أولاً بتركيبه العضوي الطبيعي ؛ فيكون هو الوسط الذي ينشأ فيه الفقه الإسلامي ويطبق .. وعندئذ تختلف الأمور جداً ..

وساعتها قد يحتاج ذلك المجتمع الخاص - بعد نشأته في مواجهة الجاهلية وتحركه في مواجهة الحياة - إلى البنوك وشركات التأمين وتحديد النسل ... الخ وقد لا يحتاج ! ذلك أننا لا نملك سلفاً أن نقدر أصل حاجته ، ولا حجمها ، ولا شكلها ، حتى نشرع لها سلفاً ! كما أن ما لدينا من أحكام هذا الدين لا يطابق حاجات المجتمعات الجاهلية ولا يليها .. ذلك أن هذا الدين لا يعترف ابتداءً بشرعية وجود هذه المجتمعات الجاهلية ولا يرضى ببقائها . ومن ثم فهو لا يعني نفسه بالاعتراف بحاجاتها الناشئة من جاهليتها ولا بتلبيتها كذلك !

إن المحنة الحقيقية لهؤلاء الباحثين أنهم يتصورون أن هذا الواقع الجاهلي هو الأصل ، الذي يجب على دين الله أن يطابق نفسه عليه ! ولكن الأمر غير ذلك تماماً .. إن دين الله هو الأصل الذي يجب على البشرية

أن تطابق نفسها عليه ؛ وأن تحور من واقعها الجاهلي وتغير حتى تم هذه المطابقة .. ولكن هذا التحور وهذا التغير لا يتان عادة إلا عن طريق واحد .. هو التحرك - في وجه الجاهلية - لتحقيق ألوهية الله في الأرض وربوبيته وحده للعباد ، وتحريير الناس من العبودية للطاغوت ، بتحكيم شريعة الله وحدها في حياتهم .. وهذه الحركة لا بد أن تواجه الفتنة والأذى والابتلاء . فيفتن من يفتن ويرتد من يرتد ، ويصدق الله من يصدقه فيقضي نحبه ويستشهد ، ويصبر من يصبر ويمضي في حركته حتى يحكم الله بينه وبين قومه بالحق ، وحتى يمكن الله له في الأرض ، وعندئذ فقط يقوم النظام الإسلامي ، وقد انطبع المتحركون لتحقيقه بطابعه ، وتميزوا بقيمه .. وعندئذ تكون لحياتهم مطالب وحاجات تختلف في طبيعتها وفي طرق تلبيتها عن حاجات المجتمعات الجاهلية ومطالبها وطرق تلبيتها .. وعلى ضوء واقع المجتمع المسلم يومذاك تستنبط الأحكام ؛ وينشأ فقه إسلامي حي متحرك - لا في فراغ - ولكن في وسط واقعي محدد المطالب والحاجات والمشكلات ..

ومن ذا الذي يدرينا اليوم مثلاً أن يكون الناس في مجتمع مسلم تجبى فيه الزكاة وتنفق في مصارفها ، ويقوم فيه التراحم والتكافل بين أهل كل محلة ، ثم بين كل أفراد الأمة ، وتقوم حياة الناس فيه على غير السرف والترف والمخيلة والتكاثر .. إلى آخر مقومات الحياة الإسلامية .. من يدرينا أن مجتمعاً كهذا سيكون في حاجة إلى شركات تأمين أصلاً؟! وعنده كل تلك التأمينات والضمانات مع تلك الملابس والقيم والتصورات؟! وإذا احتاج إلى نوع من التأمين فن يدرينا أنه سيكون هو هذا النوع المعروف في المجتمع الجاهلي ، المنبثق من حاجات هذا المجتمع الجاهلي وملابساته وقيمه وتصوراتاه؟!

وكذلك من يدرينا أن المجتمع المسلم المتحرك المجاهد سيكون في حاجة إلى تحديد النسل مثلاً؟! وهكذا .. وإذا كنا لا نملك افتراض أصل حاجات المجتمع حين يكون مسلماً ولا حجم هذه الحاجات أو شكلها ، بسبب اختلاف تركيبه العضوي عن تركيب المجتمع الجاهلي ، واختلاف تصوراته ومشاعره وقيمه وموازينه .. فما هذا الضنى في محاولة تحوير وتطوير وتغيير الأحكام المدونة لكي تطابق حاجات هي في ضمير الغيب ، شأنها شأن وجود المجتمع المسلم ذاته !

إن نقطة البدء في المناهة - كما قلنا - هي افتراض أن هذه المجتمعات القائمة هي المجتمعات الإسلامية ؛ وأنه سيجاء بأحكام الفقه الإسلامي من الأوراق لتطبق عليها ، وهي بهذا التركيب العضوي ذاته ، وبالتصورات والمشاعر والقيم والموازين ذاتها .

كما أن أصل المحنة هو الشعور بأن واقع هذه المجتمعات الجاهلية وتركيبها الحاضر هو الأصل الذي يجب على دين الله أن يطابق نفسه عليه . وأن يحور ويطور ويغير في أحكامه ليلاحق حاجات هذه المجتمعات ومشكلاتها .. حاجاتها ومشكلاتها المنبثقة أصلاً من مخالفتها للإسلام ومن خروج حياتها جملة من إبطاره !

ونحسب أنه قد آن للإسلام أن يستعلي في نفوس دعائه ، فلا يجعله مجرد خادم للأوضاع الجاهلية ، والمجتمعات الجاهلية ، والحاجات الجاهلية . وأن يقولوا للناس - وللذين يستفتونهم بوجه خاص - تعالوا أتم أولاً إلى الإسلام ، وأعلنوا خضوعكم سلفاً لأحكامه .. أو بعبارة أخرى .. تعالوا أتم أولاً فادخلوا في دين الله ، وأعلنوا عبوديتكم لله وحده ، واشهدوا أن لا إله إلا الله بمدلولها الذي لا يقوم الإيمان والإسلام إلا به . وهو أفراد الله بألوهيته في الأرض كإفراده بالألوهية في السماء ؛ وتقرير ربوبيته - أي حاكميته وسلطانه - وحده في حياة الناس بحملتها . وتنحية ربوبية العباد للعباد ، بتنحية حاكمية العباد للعباد ، وتشريع العباد للعباد .

وحين يستجيب الناس - أو الجماعة منهم - لهذا القول ، فإن المجتمع المسلم يكون قد بدأ أولى خطواته في الوجود . وهذا المجتمع يكون حينئذ هو الوسط الواقعي الحي الذي ينشأ فيه الفقه الإسلامي الحي وينمو ، لمواجهة حاجات ذلك المجتمع المستسلم لشريعة الله فعلاً ..

فأما قبل قيام هذا المجتمع فالعمل في حقل الفقه والأحكام التنظيمية هو مجرد خداع للنفس ، باستنبات البذور في الهواء ، ولن ينبت الفقه الإسلامي في الفراغ ، كما أنه لن تنبت البذور في الهواء !

إن العمل في الحقل « الفكري » للفقه الإسلامي عمل مريح ! لأنه لا خطر فيه ! ولكنه ليس عملاً للإسلام ؛ ولا هو من منهج هذا الدين ولا من طبيعته ! وخير للذين ينشدون الراحة والسلامة أن يشتغلوا بالأدب وبالفن أو بالتجارة ! أما الاشتغال بالفقه الآن على ذلك النحو بوصفه عملاً للإسلام في هذه الفترة فأحسب - والله أعلم - أنه مضيعة للعمر وللأجر أيضاً !

إن دين الله يأبى أن يكون مجرد مطية ذلول ، ومجرد خادم مطيع ، لتلبية هذا المجتمع الجاهلي الآبق منه ، المتنكر له ، الشارذ عنه .. الذي يسخر منه الحين بعد الحين باستفتائه في مشكلاته وحاجاته ؛ وهو غير خاضع لشريعته وسلطانه ..

إن فقه هذا الدين وأحكامه لا تنشأ في فراغ ، ولا تعمل في فراغ .. وإن المجتمع المسلم الخاضع لسلطان الله ابتداء هو الذي صنع هذا الفقه وليس الفقه هو الذي صنع ذلك المجتمع .. ولن تنعكس الآية أبداً .

إن خطوات النشأة الإسلامية ومراحلها هي دائماً واحدة ؛ والانتقال من الجاهلية إلى الإسلام لن يكون يوماً ما سهلاً ولا يسيراً . ولن يبدأ أبداً من صياغة الأحكام الفقهية في الفراغ ، لتكون معدة جاهزة يوم يقوم المجتمع الإسلامي والنظام الإسلامي . ولن يكون وجود هذه الأحكام المفصلة على « الجاهز » والناشئة في الفراغ هي نقطة البدء في التحول من الجاهلية إلى الإسلام . وليس الذي ينقص هذه المجتمعات الجاهلية لكي تتحول إلى الإسلام هو الأحكام الفقهية « الجاهزة » ! وليست الصعوبة في ذلك التحول ناشئة عن قصور أحكام الفقه الإسلامي الحاضرة عن ملاحقة حاجات المجتمعات المتطورة .. إلى آخر ما يخادع به بعضهم ، وينخدع به بعضهم الآخر !

كلا ! إن الذي يحول دون تحول هذه المجتمعات الجاهلية إلى النظام الإسلامي هو وجود الطواغيت التي تأبى أن تكون الحاكمة لله ؛ فتأبى أن تكون الربوبية في حياة البشر والألوهية في الأرض لله وحده . وتخرج بذلك من الإسلام خروجاً كاملاً . يعد الحكم عليه من المعلوم من الدين بالضرورة .. ثم هو بعد ذلك وجود جماهير من البشر تعبد أولئك الطواغيت من دون الله - أي تدين لها وتخضع وتتبع - فتجعلها بذلك أرباباً متفرقة معبودة مطاعة . وتخرج هذه الجماهير بهذه العبادة من التوحيد إلى الشرك .. فهذا هو أخص مدلولات الشرك في نظر الإسلام ..

وبهذا وذلك تقوم الجاهلية نظاماً في الأرض ؛ وتعتمد على ركائز من ضلال التصور بقدر ما تعتمد على ركائز من القوة المادية .

وصياغة أحكام الفقه لا تواجه هذه الجاهلية - إذن - بوسائل مكافئة . إنما الذي يواجهها دعوة إلى الدخول في الإسلام مرة أخرى ؛ وحركة تواجه الجاهلية بكل ركائزها ؛ ثم يكون ما يكون من شأن كل دعوة للإسلام في وجه الجاهلية . ثم يعكس الله بين من يسلمون لله وبين قومهم بالحق .. وعندئذ فقط يجيء دور أحكام الفقه ، التي تنشأ نشأة طبيعية في هذا الوسط الواقعي الحي ، وتواجه حاجات الحياة الواقعية المتجددة

في هذا المجتمع الوليد ، وفق حجم هذه الحاجات يومئذ وشكلها وملابساتها ، وهي أمور كلها في ضمير الغيب - كما أسلفنا - ولا يمكن التكهن بها سلفاً ، ولا يمكن الاشتغال بها من اليوم على سبيل الجد المناسب لطبيعة هذا الدين !

إن هذا لا يعني - بحال - أن الأحكام الشرعية المنصوص عليها في الكتاب والسنة ليست قائمة الآن فعلاً من الوجهة الشرعية . ولكنه يعني فقط أن المجتمع الذي شرعت هذه الأحكام له ، والذي لا تطبق هذه الأحكام إلا فيه - بل الذي لا تعيش هذه الأحكام إلا به - ليس قائماً الآن فعلاً . ومن ثم يصبح وجودها الفعلي معلقاً بقيام ذلك المجتمع .. ويبقى الالتزام بها قائماً في عنق كل من يسلم من ذلك المجتمع الجاهلي ويتحرك في وجه الجاهلية لإقامة النظام الإسلامي ؛ ويتعرض لما يتعرض له من يتحرك بهذا الدين في وجه الجاهلية وطواغيتها المتألهة وجماهيرها الخاضعة للطواغيت الراضية بالشرك في الربوبية ..

إن إدراك طبيعة النشأة الإسلامية على هذا النحو الذي لا يتغير ، كلما قامت الجاهلية وقامت في وجهها محاولة إسلامية .. هو نقطة البدء في العمل الحقيقي البناء لإعادة هذا الدين إلى الوجود الفعلي ، بعد أن انقطع هذا الوجود منذ أن حلت شرائع البشر محل شريعة الله في خلال القرنين الأخيرين ؛ وخلا وجه الأرض من الوجود الحقيقي للإسلام ؛ وإن بقيت المآذن والمساجد ، والأدعية والشعائر ؛ تخدر مشاعر الباقين على الولاء العاطفي الغامض لهذا الدين ؛ وتوهمهم أنه لا يزال بخير ؛ وهو يحى من الوجود محوياً !

إن المجتمع المسلم وجد قبل أن توجد الشعائر ، وقبل أن توجد المساجد .. وجد من يوم أن قيل للناس : اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، فعبدوه . ولم تكن عبادتهم له ممثلة في الشعائر ، فالشعائر لم تكن بعد قد فرضت . إنما كانت عبادتهم له ممثلة في الدينونة له وحده - من ناحية المبدأ فلم تكن بعد نزلت شرائع ! - وحين أصبح هؤلاء الذين قرروا الدينونة لله وحده سلطان مادي في الأرض تنزلت الشرائع ؛ وحين واجهوا الحاجات الحقيقية لحياتهم هم استنبطت بقية أحكام الفقه ، إلى جانب ما ورد بنصه في الكتاب والسنة ..

وهذا هو الطريق وحده ؛ وليس هنالك طريق آخر ..

وليت هنالك طريقاً سهلاً عن طريق تحول الجماهير بجملتها إلى الإسلام منذ أول وهلة في الدعوة باللسان ، وبيان أحكام الإسلام ! ولكن هذه إنما هي « الأمانى » ! فالجماهير لا تتحول أبداً من الجاهلية وعبادة الطواغيت ، إلى الإسلام وعبادة الله وحده إلا عن ذلك الطريق الطويل البطيء الذي سارت فيه دعوة الإسلام في كل مرة .. والذي يبدوه فرد ، ثم تنبعه طليعة ، ثم تتحرك هذه الطليعة في وجه الجاهلية لتعاني ما تعاني حتى يحكم الله بينها وبين قومها بالحق ويمكّن لها في الأرض .. ثم .. يدخل الناس في دين الله أفواجا .. ودين الله هو منهجه وشرعه ونظامه الذي لا يرضى من الناس ديناً غيره : « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه » ..

ولعل هذا البيان أن يكشف لنا عن حقيقة الحكم في موقف يوسف - عليه السلام .

إنه لم يكن يعيش في مجتمع مسلم تنطبق عليه قاعدة عدم تزكية النفس عند الناس وطلب الإمارة على أساس هذه التزكية . كما أنه كان يرى أن الظروف تمكن له من أن يكون حاكماً مطاعاً لا خادماً في وضع جاهلي . وكان الأمر كما توقع فتمكن بسيطرته من الدعوة لدينه ونشره في مصر في أيام حكمه . وقد توارى العزيز وتوارى الملك تماماً ..

ثم نعود بعد هذا الاستطراد إلى صلب القصة وإلى صلب السياق . إن السياق لا يثبت أن الملك وافق . فكأنما يقول : إن الطلب تضمن الموافقة ! زيادة في تكريم يوسف ، وإظهار مكانته عند الملك . فيكفي أن يقول ليجاب ، بل ليكون قوله هو الجواب .. ومن ثم يحذف رد الملك ، ويدع القارئ يفهم أنه أصبح في المكان الذي طلبه .

ويؤيد هذا الذي نقوله تعقيب السياق :

« وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء . ولا نضيع أجر المحسنين .. ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون » ..

فعلى هذا النحو من إظهار براءة يوسف ، ومن إعجاب الملك به ، ومن الاستجابة له فيما طلب .. على هذا النحو مكنا ليوسف في الأرض ، وثبتنا قدميه ، وجعلنا له فيها مكاناً ملحوظاً . والأرض هي مصر . أو هي هذه الأرض كلها باعتبار أن مصر يومذاك أعظم ممالكها .

« يتبوأ منها حيث يشاء » ..

يتخذ منها المنزل الذي يريد ، والمكان الذي يريد ، والمكانة التي يريد . في مقابل الجب وما فيه من مخاوف ، والسجن وما فيه من قيود .

« نصيب برحمتنا من نشاء » ..

فببدله من العسر يسراً ، ومن الضيق فرجاً ، ومن الخوف أمناً ، ومن القيد حرية ، ومن الهوان على الناس عزاً ومقاماً علياً .

« ولا نضيع أجر المحسنين » ..

الذين يحسنون الإيمان بالله ، والتوكل عليه ، والاتجاه إليه ، ويحسنون السلوك والعمل والتصرف مع الناس .. هذا في الدنيا ..

« ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون » ..

فلا ينقص منه المتاع في الدنيا وإن كان خيراً من متاع الدنيا ، متى آمن الإنسان واتقى . فاطمأن بإيمانه إلى ربه ، وراقبه بتقواه في سره وجهره .

وهكذا عوض الله يوسف عن المحنة ، تلك المكانة في الأرض ، وهذه البشرية في الآخرة جزاء وفاقاً على الإيمان والصبر والإحسان .

* * *

ودارت عجلة الزمن . وطوى السياق دوراتها بما كان فيها طوال سنوات الرخاء . فلم يذكر كيف كان الخصب ، وكيف زرع الناس . وكيف أدار يوسف جهاز الدولة . وكيف نظم ودبر وادخر . كأن هذه كلها أمور مقررة بقوله :

« إني حفيظ علم » ..

وكذلك لم يذكر مقدم سني الجذب ، وكيف تلقاها الناس ، وكيف ضاعت الأرزاق .. لأن هذا كله ملحوظ في رؤيا الملك وتأويلها :

« ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلاً مما تحصنون » ..

كذلك لم يبرز السياق الملك ولا أحداً من رجاله بعد ذلك في السورة كلها . كأن الأمر كله قد صار ليوسف . الذي اضطلع بالعبء في الأزمة الخانقة الرهيبة . وأبرز يوسف وحده على مسرح الحوادث ، وسلط عليه كل الأضواء . وهذه حقيقة واقعية استخدمها السياق استخداماً فنياً كاملاً في الأداء .

أما فعل الجذب فقد أبرزه السياق في مشهد إخوة يوسف ، يبحثون من البدو من أرض كنعان البعيدة يبحثون عن الطعام في مصر . ومن ذلك ندرك اتساع دائرة المجاعة ، كما ندرك كيف وقفت مصر - بتدبير يوسف - منها ، وكيف صارت محط أنظار جيرانها ومخزن الطعام في المنطقة كلها . وفي الوقت ذاته تمضي قصة يوسف في مجراها الأكبر بين يوسف وإخوته وهي سمة فنية تحقق هدفاً دينياً في السياق :

« وجاء إخوة يوسف ، فدخلوا عليه ، فعرفهم وهم له منكرون . ولما جهزهم بجهازهم قال : ائتوني بأخ لكم من أبيكم . ألا ترون أي أوفي الكيل وأنا خير المنزلين ؟ فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون . قالوا : سزاود عنه أباه وإنا لفاعلون . وقال لفتياناه : اجعلوا بضاعتهم في رحالهم ، لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون .. »

لقد اجتاحت الجذب والمجاعة أرض كنعان وما حولها . فاتجه إخوة يوسف - فيمن يتجهون - إلى مصر . وقد تسامع الناس بما فيها من فائض الغلة منذ السنوات السمان . وها نحن أولاء نشهدهم يدخلون على يوسف ، وهم لا يعلمون . إنه يعرفهم فهم هم لم يتغيروا كثيراً . أما يوسف فإن خيالهم لا يتصور قط أنه هو ذلك ! وأين الغلام العبراني الصغير الذي ألقوه في الجب منذ عشرين عاماً أو تزيداً من عزيز مصر شبه المتوج في سنه وزيه وحرسه ومهابتة وخدمته وحشمه وهيله وهيلمانه ؟

ولم يكشف لهم يوسف عن نفسه . فلا بد من دروس يتلقونها :

« فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون .. »

ولكننا ندرك من السياق أنه أنزلهم منزلاً طيباً ، ثم أخذ في إعداد الدرس الأول :

« ولما جهزهم بجهازهم قال : ائتوني بأخ لكم من أبيكم .. »

فنفهم من هذا أنه تركهم يأنسون إليه ، واستدرجهم حتى ذكروا له من هم على وجه التفصيل ، وأن لهم أخاً أصغر من أبيهم لم يحضر معهم لأن أباه يحبه ولا يطيق فراقه . فلما جهزهم بحاجات الرحلة قال لهم : إنه يريد أن يرى أخاهم هذا .

« قال : ائتوني بأخ لكم من أبيكم .. »

وقد رأيتم أنني أوفي الكيل للمشتريين . فسأوفيكم نصيبكم حين يجيء معكم ؛ ورأيتم أنني أكرم التزلاء فلا خوف عليه بل سيلقى مني الإكرام المعهود :

« ألا ترون أي أوفي الكيل وأنا خير المنزلين ؟ .. »

ولما كانوا يعلمون كيف يضمن أبوهم بأخيهم الأصغر - وبخاصة بعد ذهاب يوسف - فقد أظهروا أن الأمر ليس ميسوراً ، وإنما في طريقه عقبات من ممانعة أبيهم ، وأنهم سيحاولون إقناعه ، مع توكيد عزمهم - على الرغم من هذه العقبات - على إحضاره معهم حين يعودون :

(1) وهو المتوقع بعد سنوات الإقامة في بيت العزيز وبضع سنين في السجن وسبع سنوات رخاء وبعض سني الجذب حتى جاءوا .

« قالوا : سزاود عنه أباه وإنما لفاعلون » ..

ولفظ « نراود » يصور الجهد الذي يعلمون أنهم باذلوه ..

أما يوسف فقد أمر غلمانه أن يدسوا البضاعة التي حضر بها إخوته ليستبدلوا بها القمح والعلف . وقد تكون خليطاً من نقد ومن غلات صحراوية أخرى من غلات الشجر الصحراوي ، ومن الجلود والشعر وسواها مما كان يستخدم في التبادل في الأسواق .. أمر غلمانه بدسها في رحالمهم - والرحل متاع المسافر - لعلهم يعرفون حين يرجعون أنها بضاعتهم التي جاءوا بها :

« وقال لفتياناه : اجعلوا بضاعتهم في رحالمهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون » ..

* * *

وندع يوسف في مصر . لنشهد يعقوب وبنيه في أرض كنعان . دون كلمة واحدة عن الطريق وما فيه :
« فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا : يا أبانا منع منا الكيل ، فأرسل معنا أخانا نكتل ، وإنما له لحافظون . قال : هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل ؟ فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين . ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم ، قالوا : يا أبانا ما نبغي . هذه بضاعتنا ردت إلينا ، ونمير أهلنا ، ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير . ذلك كيل يسير . قال : لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله : لتأتني به - إلا أن يحاط بكم - فلما آتوه موثقهم قال : الله على ما نقول وكيل » ..

ويبدو أنهم في دخلتهم على أبيهم ، وقبل أن يفكوا متاعهم ، عاجلوه بأن الكيل قد تقرر منعه عنهم ما لم يأتوا عزيز مصر بأخيهم الصغير معهم . فهم يطلبون إليه أن يرسل معهم أخاهم الصغير ليكتالوا له ولهم . وهم يعدون بحفظه :

« فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا : يا أبانا منع منا الكيل ، فأرسل معنا أخانا نكتل ، وإنما له لحافظون » .. ولا بد أن هذا الوعد قد أثار كوامن يعقوب . فهو ذاته وعدهم له في يوسف ! فإذا هو يجهر بما أثاره الوعد من شجونه :

« قال : هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل ! » ..

فخلوني من وعودكم وخلوني من حفظكم ، فإذا أنا طلبت الحفظ لولدي والرحمة بي ..
« فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين » !

وبعد الاستقرار من المشوار ، والراحة من السفر فتحوا أوعيتهم ليخرجوا ما فيها من غلال فإذا هم يجدون فيها بضاعتهم التي ذهبوا يشترون بها ، ولم يجدوا في رحالمهم غلالاً !
إن يوسف لم يعطهم قمحاً ، إنما وضع لهم بضاعتهم في رحالمهم . فلما عادوا قالوا : يا أبانا منع منا الكيل ، وفتحوا رحالمهم فوجدوا بضاعتهم . وكان ذلك ليضطرهم إلى العودة بأخيهم ، وكان هذا بعض الدرس الذي عليهم أن يأخذوه .

على أية حال لقد اتخذوا من رد بضاعتهم إليهم دليلاً على أنهم غير باغين فيما يطلبون من استصحاب أخيهم ولا ظالمين :

« قالوا : يا أبانا ما نبغي . هذه بضاعتنا ردت إلينا » ..

ثم أخذوا يحرجونه بالتلويح له بمصلحة أهلهم الحيوية في الحصول على الطعام :
« ونمير أهلنا » ..

والميرة الزاد ، ويؤكدون له عزمهم على حفظ أخيهم ..
« ونحفظ أخاننا » ..

ويرغبونه بزيادة الكيل لأخيهم :

« ونزداد كيل بعير » ..

وهو ميسور لهم حين يرافقتهم :

« ذلك كيل يسير » ..

ويبدو من قولهم : « ونزداد كيل بعير » أن يوسف - عليه السلام - كان يعطي كل واحد وسق بعير - وهو قدر معروف - ولم يكن يبيع كل مشر ما يريد . وكان ذلك من الحكمة في سنوات الجذب ، كي يظل هناك قوت للجميع :

واستسلم الرجل على كرهه ، ولكنه جعل لتسليم ابنه الباقي شرطاً :

« قال : لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله : لتأتني به إلا أن يحاط بكم » ..

أي لتقسمن لي بالله قسماً يربطكم ، أن تردوا عليّ ولدي ، إلا إذا غلبتم على أمركم غلباً لا حيلة لكم فيه ، ولا تجدي مدافعتكم عنه :

« إلا ان يحاط بكم » ..

وهو كناية عن أخذ المسالك كلها عليهم . فأقسموا :

« فلما آتوه موثقهم قال : الله على ما نقول وكيل » ..

زيادة في التوكيد والتذكير .

وبعد هذا الموثق جعل الرجل يوصيهم بما خطر له في رحلتهم القادمة ومعهم الصغير العزيز :

« وقال : يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة . وما أغني عنكم من الله من شيء .

إن الحكم إلا لله ، عليه توكلت ، وعليه فليتوكل المتوكلون » ..

ونقف هنا أمام قول يعقوب - عليه السلام - :

« إن الحكم إلا لله » ..

وواضح من سياق القول أنه يعني هنا حكم الله القدري القهري الذي لا مفر منه ولا فكاك . وقضاه الإلهي

الذي يجري به قدره فلا يملك الناس فيه لأنفسهم شيئاً .

وهذا هو الإيمان بالقدر خيره وشره .

وحكم الله القدري يمضي في الناس على غير إرادة منهم ولا اختيار .. وإلى جانبه حكم الله الذي ينفذه

الناس عن رضى منهم واختيار . وهو الحكم الشرعي المتمثل في الأوامر والنواهي .. وهذا كذلك لا يكون

إلا لله . شأنه شأن حكمه القدري ، باختلاف واحد : هو أن الناس ينفذونه مختارين أو لا ينفذونه . فيترتب

على هذا أو ذلك نتائجه وعواقبه في حياتهم في الدنيا وفي جزائهم في الآخرة . ولكن الناس لا يكونون مسلمين حتى يختاروا حكم الله هذا وينفذوه فعلاً راضين ..

وسار الركب ، ونفذوا وصية أبيهم :

« ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ، ما كان يغني عنهم من الله من شيء - إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها - وإنه لذو علم لما علمناه ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » ..

فيم كانت هذه الوصية ؟ لم قال لهم أبوهم : لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة ؟

تضرب الروايات والتفاسير في هذا وتبدى وتعيد ، بلا ضرورة ، بل ضد ما يقتضيه السياق القرآني الحكيم . فلو كان السياق يحب أن يكشف عن السبب لقال . ولكنه قال فقط - إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها - فينبغي أن يقف المفسرون عند ما أراده السياق ، احتفاظاً بالجو الذي أراده . والجو يوحي بأنه كان يخشى شيئاً عليهم ، ويرى في دخولهم من أبواب متفرقة اتقاء لهذا الشيء مع تسليمه بأنه لا يغني عنهم من الله من شيء . فالحكم كله إليه ، والاعتماد كله عليه . إنما هو خاطر شعر به ، وحاجة في نفسه قضاها بالوصية ، وهو على علم بأن إرادة الله نافذة . فقد علمه الله هذا فتعلم .

« ولكن أكثر الناس لا يعلمون » ..

ثم ليكن هذا الشيء الذي كان يخشاه هو العين الحاسدة ، أو هي غيرة الملك من كثرتهم وفتوتهم . أو هو تتبع قطاع الطريق لهم . أو كائناً ما كان فهو لا يزيد شيئاً في الموضوع . سوى أن يجد الرواة والمفسرون باباً للخروج عن الجو القرآني المؤثر إلى قال وقيل ، مما يذهب بالجو القرآني كله في كثرة الأحايين ! فلنطو نحن الوصية والرحلة كما طوَّها السياق ، لنلتقي بإخوة يوسف في المشهد التالي بعد الوصول :

* * *

« ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه . قال : إني أنا أخوك ، فلا تبتئس بما كانوا يعملون » ..

ونجد السياق هنا يعجل بضم يوسف لأخيه في المأوى ، وإطلاعه على أنه أخوه ؛ ودعوته لأن يترك من خاطره ذكرى ما فعله إخوته به من قبل ، وهي ذكرى لا بد كان يبتئس لها الصغير كلما علمها من البيت الذي كان يعيش فيه . فما كان يمكن أن تكون مكتومة عنه في وسطه في أرض كنعان .

يعجل السياق بهذا ، بينا الطبيعي والمفهوم أن هذا لم يحدث فور دخولهم على يوسف . ولكن بعد أن اختلى يوسف بأخيه . ولكن هذا ولا شك كان أول خاطر ساور يوسف عند دخولهم عليه ، وعند رؤيته لأخيه ، بعد الفراق الطويل .

ومن ثم جعله السياق أول عمل لأنه كان أول خاطر . وهذه من دقائق التعبير في هذا الكتاب العجيب ! ويطوي السياق كذلك فترة الضيافة ، وما دار فيها بين يوسف وإخوته ، ليعرض مشهد الرحيل الأخير . فنطلع على تديير يوسف ليحفظ بأخيه ، ريثما يتلقى إخوته درساً أو دروساً ضرورية لهم ، وضرورة للناس في كل زمان ومكان :

« فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه ؛ ثم أذن مؤذن : أيتها العير إنكم لسارقون . قالوا : وأقبلوا عليهم - ماذا تفقدون ؟ قالوا : نفقد صواع الملك ، ولن جاء به حمل بغير ، وأنا به زعيم . قالوا : تالله لقد علمتم ما جئنا لنفقد في الأرض ، وما كنا سارقين . قالوا : فما جزاؤه إن كنتم كاذبين ؟ قالوا :

جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه ، كذلك نجزي الظالمين . فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه - كذلك كدنا ليوسف ، ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك ، إلا أن يشاء الله ، نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم - قالوا : إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل . فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم . قال : أنتم شر مكاناً . والله أعلم بما تصفون . قالوا : يا أيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً ، فخذنا مكانه ، إنا نراك من المحسنين . قال : معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده . إنا إذن لظالمون ..

وهو مشهد مثير ، حافل بالحركات والانفعالات والمفاجآت ، كأشد ما تكون المشاهد حيوية وحركة وانفعالاً ، غير أن هذا صورة من الواقع يعرضها التعبير القرآني هذا العرض الحي الأخاذ .

فن وراء الستار يدس يوسف كأس الملك - وهي عادة من الذهب - وقيل : إنها كانت تستخدم للشراب ، ويستخدم قعرها الداخل المجوف من الناحية الأخرى في كيل القمح ، لندرته وعزته في تلك المجاعة . يدسها في الرحل المخصص لأخيه ، تنفيذاً لتدبير خاص ألهمه الله له وسعلمه بعد قليل .

ثم ينادي مناد بصوت مرتفع ، في صيغة إعلان عام ، وهم منصرفون :
« أيتها العير إنكم لسارقون » ..

ويرتاع إخوة يوسف لهذا النداء الذي يتهمهم بالسرقة - وهم أبناء يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم - فيعودون أدراجهم يتبينون الأمر المريب :

« قالوا - وأقبلوا عليهم - ماذا تفقدون ؟ » .

قال الغلمان الذين يتولون تجهيز الرحال ، أو الحراس ومنهم هذا الذي أذاع بالإعلان :
« قالوا : نفقد صواع الملك » ..

وأعلن المؤذن أن هناك مكافأة لمن يحضره متطوعاً . وهي مكافأة ثمينة في هذه الظروف :
« ولمن جاء به حمل بعير » من القمح العزيز « وأنا به زعيم » .. أي كفييل .

ولكن القوم مستيقنون من براءتهم ، فهم لم يسرقوا ، وما جاءوا ليسرقوا وليجتروا هذا الفساد الذي يخلخل الثقة والعلاقات في المجتمعات ، فهم يقسمون واثقين :

« قالوا : تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض » ..

فقد علمتم من حالنا ومظهرنا ونسبنا أننا لا نجترح هذا ..

« وما كنا سارقين » .. أصلاً فما يقع منا مثل هذا الفعل الشنيع .

قال الغلمان أو الحراس :

« فما جزاؤه إن كنتم كاذبين ؟ » ..

وهنا ينكشف طرف التدبير الذي ألهمه الله يوسف . فقد كان المتبع في دين يعقوب : أن يؤخذ السارق رهينة أو أسيراً أو رقيقاً في مقابل ما يسرق . ولما كان إخوة يوسف موقنين بالبراءة ، فقد ارتضوا تحكيم شريعتهم فيمن يظهر أنه سارق . ذلك ليتم تدبير الله ليوسف وأخيه :

« قالوا : جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه . كذلك نجزي الظالمين » ..

وهذه هي شريعتنا نحكمها في السارق . والسارق من الظالمين .

كل هذا الحوار كان على منظر ومسمع من يوسف . فأمر بالتفتيش . وأرشدته حصافته إلى أن يبدأ برحلهم قبل رحل أخيه ، كي لا يثير شبهة في نتيجة التفتيش :

« فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه . ثم استخرجها من وعاء أخيه ! »

ويدعنا السياق نتصور الدهشة بالمفاجأة العنيفة لأبناء يعقوب الموقنين ببراءتهم ، الحالفين ، المتحدين .. فلا يذكر شيئاً عن هذا ، بل يتركه يتملاه الخيال على الصورة التي تكمل رسم المشهد بانفعالاته .. بينما يأخذ في التعقيب ببعض مرامي القصة ، ريثما يفیق النظارة وأبناء يعقوب مما هم فيه :

« كذلك كدنا ليوسف » ..

أي كذلك دبرنا له هذا التدبير الدقيق .

« ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك » ..

فلو حكم شريعة الملك ما تمكن من أخذ أخيه ، إنما كان يعاقب السارق على سرقة ، دون أن يستولي على أخيه كما استولى عليه بتحكيم إخوته لدينهم هم . وهذا هو تدبير الله الذي ألهم يوسف أسبابه . وهو كيد الله له . والكيد يطلق على التدبير في الخفاء للخير أو للشر سواء . وإن كان الشر قد غلب عليه . وظاهر الأمر هنا أنه شر يحل بأخيه وهو شر يحل بإخوته لإحراجهم أمام أبيه . وهو سوء - ولو مؤقتاً - لأبيه . فلهذا اختار تسميته كيداً على إجمال اللفظ وبالإلماع إلى ظاهره . وهو من دقائق التعبير .

« ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك » .. « إلا أن يشاء الله » ..

فيدبر مثل هذا التدبير الذي رأيناه .

ويتضمن التعقيب الإشارة إلى ما ناله يوسف من رفعة :

« نرفع درجات من نشاء » ..

وإلى ما ناله من علم ، مع التنبيه إلى أن علم الله هو الأعلى :

« وفوق كل ذي علم عليم » ..

وهو احتراس لطيف دقيق .

ولا بد أن نقف أمام التعبير القرآني الدقيق العميق :

« كذلك كدنا ليوسف .. ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك ... » ..

إن هذا النص يحدد مدلول كلمة « الدين » - في هذا الموضع - تحديداً دقيقاً .. إنه يعني : نظام الملك وشرعه .. فإن نظام الملك وشرعه ما كان يجعل عقوبة السارق هو أخذه في جزاء سرقة . إنما هذا كان نظام يعقوب وشريعة دينه . وقد ارتضى إخوة يوسف تحكيم نظامهم هم وشريعتهم ؛ فطبقتها يوسف عليهم عندما وجد صواع الملك في رحل أخيه .. وعبر القرآن الكريم عن النظام والشريعة بأنها « الدين » ..

هذا المدلول القرآني الواضح هو الذي يغيب في جاهلية القرن العشرين عن الناس جميعاً . سواء منهم من يدعون أنفسهم مسلمين وغيرهم من الجاهليين !

إنهم يقصرون مدلول « الدين » على الاعتقاد والشعائر .. ويعدون كل من يعتقد في وحدانية الله وصدق رسوله ويؤمن بملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ؛ ويؤدي الشعائر المكتوبة ... داخلاً في « دين الله » مهما تكن دينوته بالطاعة والخضوع وإقراره بالحاكمية لغير الله من الأرباب المتفرقة في

الأرض .. بينما النص القرآني هنا يحدد مدلول « دين الملك » بأنه نظام الملك وشريعته . وكذلك « دين الله » فهو نظامه وشريعته ..

إن مدلول « دين الله » قد هزل وانكمش حتى صار لا يعني في تصور الجماهير الجاهلية إلا الاعتقاد والشعائر .. ولكنه لم يكن كذلك يوم جاء هذا الدين منذ آدم ونوح إلى محمد عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين .

لقد كان يعني دائماً : الدينونة لله وحده ؛ بالتزام ما شرعه ، ورفض ما يشرعه غيره . وإفراده – سبحانه – بالألوهية في الأرض مثل إفراده بالألوهية في السماء ؛ وتقرير ربوبيته وحده للناس : أي حاكميته وشرعه وسلطانه وأمره . وكان مفرق الطريق دائماً بين من هم في دين « الله » ومن هم في « دين الملك » أن الأولين يدينون لنظام الله وشرعه وحده ، وأن الآخرين يدينون لنظام الملك وشرعه . أو يشركون فيدينون لله في الاعتقاد والشعائر ، ويدينون لغير الله في النظام والشرائع !

وهذا من المعلوم من الدين بالضرورة ، ومن بديهيات العقيدة الإسلامية تماماً .

وبعض المترققين بالناس اليوم يتلمسون لهم عذراً في أنهم يجهلون مدلول كلمة « دين الله » وهم من ثم لا يصرون ولا يحاولون تحكيم شريعة الله وحدها بوصفها هي « الدين » . وأن جهلهم هذا بمدلول الدين يعفيهم من أن يكونوا جاهليين مشركين !

وأنا لا أتصور كيف أن جهل الناس ابتداء بحقيقة هذا الدين يجعلهم في دائرة هذا الدين !

إن الاعتقاد بحقيقة فرع عن معرفتها . فإذا جهل الناس حقيقة عقيدة فكيف يكونون معتقدين لها ؟ وكيف يحسبون من أهلها وهم لا يعرفون ابتداء مدلولها ؟

إن هذا الجهل قد يعفيهم من حساب الآخرة ، أو يخفف عنهم العذاب فيها ؛ ويلقي بتبعاتهم وأوزارهم على كاهل من لا يعلمونهم حقيقة هذا الدين وهم يعرفونها .. ولكن هذه مسألة غيبية متروك أمرها لله ، والجدل في الجزاء الأخروي لأهل الجاهلية عامة ليس وراءه كبير طائل . وليس هو الذي يعيننا نحن البشر الذين ندعو إلى الإسلام في الأرض !

إن الذي يعيننا هو تقرير حقيقة الدين الذي فيه الناس اليوم .. إنه ليس دين الله قطعاً . فدين الله هو نظامه وشرعه وفق النصوص القرآنية الصريحة . فن كان في نظام الله وشرعه فهو في « دين الله » . ومن كان في نظام الملك وشرعه فهو في « دين الملك » . ولا جدال في هذا .

والذين يجهلون مدلول الدين لا يمكن أن يكونوا معتقدين بهذا الدين . لأن الجهل هنا وارد على أصل حقيقة الدين الأساسية . والجاهل بحقيقة هذا الدين الأساسية لا يمكن عقلاً وواقعاً أن يكون معتقداً به . إذ الاعتقاد فرع عن الإدراك والمعرفة .. وهذه بديهية ..

وخير لنا من أن ندافع عن الناس – وهم في غير دين الله – وتلمس لهم المعاذير ، ونحاول أن نكون أرحم بهم من الله الذي يقرر مدلول دينه وحدوده ! ..

خير لنا من هذا كله أن نشرع في تعريف الناس حقيقة مدلول « دين الله » ليدخلوا فيه .. أو يرفضوه ..

هذا خير لنا وللناس أيضاً .. خير لنا لأنه يعفينا من تبعة ضلال هؤلاء الجاهلين بهذا الدين ، الذين ينشأ عن جهلهم به عدم اعتناقه في الحقيقة .. وخير للناس لأن مواجهتهم بحقيقة ما هم عليه – وأنهم في دين الملك

لا في دين الله - قد تهزهم هزة تخرجهم من الجاهلية إلى الإسلام ، ومن دين الملك إلى دين الله !
كذلك فعل الرسل - عليهم صلوات الله وسلامه - وكذلك ينبغي أن يفعل الدعاة إلى الله في مواجهة
الجاهلية في كل زمان ومكان ..

ثم نعود إلى إخوة يوسف بعد هذا التحقيب القصير . نعود إليهم وقد حرك الحرج الذي يلاقونه كوامن
حقدهم على أخي يوسف ، وعلى يوسف من قبله ، فإذا هم يتصلون من نقيصة السرقة ، وينفونها عنهم ،
ويلقونها على هذا الفرع من أبناء يعقوب :
« قالوا : إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل ! »

إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل .. وتنطلق الروايات والتفسيرات تبحث عن مصداق قولهم هذا في تعلات
وحكايات وأساطير . كأنهم لم يكذبوا قبل ذلك على أبيهم في يوسف ؛ وكأنهم لا يمكن أن يكذبوا على عزيز
مصر دفعا للتهمة التي تخرجهم ، وتبرؤا من يوسف وأخيه السارق ، وإرواء لحقدهم القديم على يوسف
وأخيه !

لقد قذفوا بها يوسف وأخاه !

« فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم » ..

أسر هذه الفعلية وحفظها في نفسه ، ولم يبد تأثره منها . وهو يعلم براءته وبراءة أخيه . إنما قال لهم :
« أتم شر مكانا » ..

يعني أنكم بهذا القذف شر مكانا عند الله من المقذوف - وهي حقيقة لا شتمه .

« والله أعلم بما تصفون » .. وبحقيقة ما تقولون . وأراد بذلك قطع الجدل في الاتهام الذي أطلقوه ، ولا
دخل له بالموضوع ! ..

وعندئذ عادوا إلى الموقف المحرج الذي وقعوا فيه . عادوا إلى الموثق الذي أخذه عليهم أبوهم : « لتأتني
به إلا أن يحاط بكم » .. فراحوا يسترحمون يوسف باسم والد الفتى ، الشيخ الكبير ، ويعرضون أن يأخذ
بدله واحدا منهم إن لم يكن مطلقه لخاطر أبيه ؛ ويستعينون في رجائه بتذكيره بإحسانه وصلاحه وبره لعله
يلين :

« قالوا : يا أيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا ، فخذ أحدنا مكانه ، إنا نراك من المحسنين » :

ولكن يوسف كان يريد أن يلقي عليهم درسا . وكان يريد أن يشوقهم إلى المفاجأة التي يعدها لهم ولوالده
وللجميع ! ليكون وقعها أعمق وأشد أثرا في النفوس :

« قال : معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده . إنا إذن لظالمون » ..

ولم يقل معاذ الله أن نأخذ بريئا بجريرة سارق . لأنه كان يعلم أن أخاه ليس بسارق . فعبّر أدق تعبير
يحكيه السياق هنا باللغة العربية بدقة^١ :

(١) كان يوسف يتكلم العربية لغة أهله واللغة المصرية القديمة لغة وسطه . والمفهوم أنه كان يخاطبهم بالمصرية فيعرفونها أو تترجم لهم .

« معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده » وهي الحقيقة الواقعة دون زيادة في اللفظ تحقق الاتهام أو تنفيه ..

« إنا إذن لظالمون » ..

وما نريد أن نكون ظالمين ..

وكانت هي الكلمة الأخيرة في الموقف . وعرفوا أن لا جدوى بعدها من الرجاء ، فانسجبا يفكرون في موقفهم المحرج ، أمام أبيهم حين يرجعون .

فَلَمَّا اسْتَبَسُّوْا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيْرُهُمْ اَلرَّءُوْٓسُوْلُ اَنْ اَبَاكُرْ قَدْ اَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْتَقًا مِّنَ اللّٰهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِيْ يُوسُفَ ۖ فَلَنْ اُبْرِحَ اَلْاَرْضَ حَتّٰى يَأْذَنَ لِيْ اَبِيْٓ اَوْ يَحْكُمَ اللّٰهُ لِيْ ۗ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِيْنَ ﴿٨٦﴾ اَرْجِعُوْا اِلَيَّ اَيْبٰكُرْ فَقُولُوْا يٰٓاَبَانَا اِنَّ اَبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا اِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَاَمَّا كَلِمَ الْغَيْبِ حَفِظِيْنَ ﴿٨٧﴾ وَسَعَلَ الْقَرْبِيَّةَ اَلَّتِي كُنَّا فِيْهَا وَالْعَبِيْرَ اَلَّتِي اَقْبَلْنَا فِيْهَا ۗ وَاِنَّا لَصٰدِقُوْنَ ﴿٨٨﴾

قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمۡ اَنْفُسُكُمْ اَمْرًا ۗ فَصَبِرۡ بِحَمِيْلٍ ۗ عَسَى اللّٰهُ اَنْ يَّاتِيَنِيۡ بِرَيْسٍ جَمِيْعًا ۗ اِنَّهُ هُوَ الْعَلِيْمُ الْحَكِيْمُ ﴿٨٩﴾ وَتَوَلَّوْا عَنْهُمْ وَقَالَ يٰٓاَسٰنِيۡ عَلٰى يُوسُفَ وَاَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحَزَنِ فَهُوَ كَبِيْرٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوْا تَاللّٰهِ تَفْتُوْا تَذَكُّرُ يُوسُفَ حَتّٰى تَكُوْنَ حَرَضًا اَوْ تَكُوْنَ مِنَ الْاَهْلِكِيْنَ ﴿٩١﴾ قَالَ اِنَّمَا اَشْكُوۡا بَنِيَّ وَحُزْنِيۡ اِلَى اللّٰهِ وَاَعْلَمُ مِنَ اللّٰهِ مَا لَا تَعْلَمُوْنَ ﴿٩٢﴾ يٰٓبَنِيَّ اذْهَبُوْا فَتَحَسَّسُوْا مِنْ يُوسُفَ وَاَخِيْهِ وَلَا تَاْبَسُوْا مِنْ رَّوْحِ اللّٰهِ ۗ اِنَّهُ لَا يَابِسُ مِنْ رَّوْحِ اللّٰهِ اِلَّا الْقَوْمُ الْكٰفِرُوْنَ ﴿٩٣﴾

فَلَمَّا دَخَلُوْا عَلَيْهِ قَالُوْا يٰٓاَيُّهَا الْعَزِيْزُ مَسَّنَا وَاَهْلَنَّا الضَّرَّ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُّزَجَلَةٍ فَاَرْوِفْ لَنَا الْاَكْبِيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ۗ اِنَّ اللّٰهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِيْنَ ﴿٩٤﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمۡ مَا فَعَلْتُمۡ بِيُوسُفَ وَاَخِيْهِ اِذْ اَنْتُمْ جٰهِلُوْنَ ﴿٩٥﴾ قَالُوْا اَوَ اِنَّكَ لَآنْتَ يُوسُفَ ۗ قَالَ اَنَا يُوسُفُ وَهٰذَا اَخِي ۗ قَدْ مَنَّ اللّٰهُ عَلَيْنَا ۗ اِنَّهُ مَن يَّتَّقِ وَيَصْبِرْ فَاِنَّ اللّٰهَ لَا يُضِيْعُ اَجْرَ الْمُحْسِنِيْنَ ﴿٩٦﴾ قَالُوْا تَاللّٰهِ لَقَدْ اَثَرَ اللّٰهُ عَلَيْنَا وَاِن كُنَّا لَخٰطِئِيْنَ ﴿٩٧﴾ قَالَ لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمۡ الْيَوْمَ ۗ يَغْفِرُ اللّٰهُ

لَكُمْ^ط وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ ﴿١٢٦﴾ أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَاَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٧﴾

وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ ﴿١٢٨﴾ قَالُوا تَأَلَّهِ إِنَّكَ لَنِي ضَلَلَكَ الْقَدِيمَ ﴿١٢٩﴾ فَلَمَّا آتَى بَشِيرُ الْفَقْدِ عَلَى وَجْهِهِ فَأَرْتَدَّ بِصِيرًا^ط قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٠﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿١٣١﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٣٢﴾

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَاتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلْنَا رُبِّي حَقًّا^ط وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٣٤﴾

* رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّتَنِي مِنَ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ^ط فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٣٥﴾

يُس إخوة يوسف من محاولة تخليص أخيهما الصغير ، فانصرفوا من عنده ، وعقدوا مجلساً يتشاورون فيه . وهم هنا في هذا المشهد يتناجون . والسياق لا يذكر أقوالهم جميعاً . إنما يثبت آخرها الذي يكشف عما اتهموا إليه :

« فلما استياسوا منه خلصوا نجياً . قال كبيرهم : ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ومن قبل ما فرطتم في يوسف ؟ فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي ، أو يحكم الله لي ، وهو خير الحاكمين . ارجعوا إلى أبيكم فقولوا : يا أبانا إن ابنك سرق ، وما شهدنا إلا بما علمنا ، وما كنا للغيب حافظين . واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها ، وإنا لصادقون .. »

إن كبيرهم ليذكرهم بالموثق المأخوذ عليهم ، كما يذكرهم بتفريطهم في يوسف من قبل . ويقرن هذه إلى تلك ، ثم يرتب عليهما قراره الجازم : ألا يبرح مصر ، وألا يواجه أباه ، إلا أن يأذن له أبوه ، أو يقضي الله له بحكم ، فيخضع له وينصاع .

أما هم فقد طلب إليهم أن يرجعوا إلى أبيهم فيخبروه صراحة بأن ابنه سرق ، فأخذ بما سرق . ذلك ما علموه شهدوا به . أما إن كان بريئاً ، وكان هناك أمر وراء هذا الظاهر لا يعلمونه ، فهم غير موكلين بالغيب . كما أنهم لم يكونوا يتوقعون أن يحدث ما حدث ، فذلك كان غيباً بالنسبة إليهم ، وما هم بحافظين للغيب . وإن كان في شك من قولهم فليسأل أهل القرية التي كانوا فيها - وهي عاصمة مصر - والقرية اسم للمدينة الكبيرة - وليسأل القافلة التي كانوا فيها ، فهم لم يكونوا وحدهم ، فالقوافل الكثيرة كانت ترد مصر لتمتار الغلة في السنين العجاف ..

* * *

ويطوي السياق الطريق بهم ، حتى يفقههم في مشهد أمام أبيهم المفجوع ، وقد أفضوا إليه بالنبا الفظيع . فلا نسمع إلا رده قصيراً سريعاً ، شجياً وجيماً . ولكن وراءه أملاً لم ينقطع في الله أن يرد عليه ولديه ، أو أولاده الثلاثة بما فيهم كبيرهم الذي أقسم ألا يبرح حتى يحكم الله له . وإنه لأمل عجيب في ذلك القلب الوجيع :

« قال : بل سولت لكم أنفسكم أمراً ، فصبر جميل ، عسى الله أن ياتيني بهم جميعاً إنه هو العليم الحكيم » ..
« بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل » .. كلمته ذاتها يوم فقد يوسف . ولكنه في هذه المرة يضيف إليها هذا الأمل أن يرد الله عليه يوسف وأخاه فيرد ابنه الآخر المتخلف هناك .. « إنه هو العليم الحكيم » .. الذي يعلم حاله ، ويعلم ما وراء هذه الأحداث والامتحانات ، ويأتي بكل أمر في وقته المناسب ، عندما تتحقق حكمته في ترتيب الأسباب والنتائج .

هذا الشعاع من أين جاء إلى قلب هذا الرجل الشيخ ؟ إنه الرجاء في الله ، والاتصال الوثيق به ، والشعور بوجوده ورحمته . ذلك الشعور الذي يتجلى في قلوب الصفوة المختارة ، فيصبح عندها أصدق وأعمق من الواقع المحسوس الذي تلمسه الأيدي وتراه الأبصار .

« وتولى عنهم وقال : يا أسفا على يوسف ! وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم » ..

وهي صورة مؤثرة للوالد المفجوع . يحس أنه منفرد بهم ، وحيد بمصابه ، لا تشاركه هذه القلوب التي حوله ولا تجاوبه ، فينفرد في معزل ، يندب فجيعته في ولده الحبيب . يوسف . الذي لم ينسه ، ولم تهون من مصيبته السنون ، والذي تذكره به نكبته الجديدة في أخيه الأصغر فتغلبه على صبره الجميل :

« يا أسفا على يوسف ! » ..

ويكظم الرجل حزنه ويتجلد فيؤثر هذا الكظم في أعصابه حتى تبيض عيناه حزناً وكمداً :

« وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم » ..

ويبلغ الحقد بقلوب بنيه ألا يرحموا ما به ، وأن يلسع قلوبهم حينه ليوسف وحزنه عليه ذلك الحزن الكامد الكظيم ، فلا يسرون عنه ، ولا يعزونه ، ولا يعللونه بالرجاء ، بل يريدون ليطمسوا في قلبه الشعاع الأخير :

« قالوا : تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين ! » ..

وهي كلمة حاققة مستنكرة . تالله تظل تذكر يوسف ، ويهدك الحزن عليه ، حتى تذوب حزناً أو تهلك أسى بلا جلوى . فيوسف ميثوس منه قد ذهب ولن يعود !

ويرد عليهم الرجل بأن يتركوه لربه ، فهو لا يشكو لأحد من خلقه ، وهو على صلة بربه غير صلتهم ، ويعلم من حقيقته ما لا يعلمون :

« قال : إنما أشكو بثي^١ وحزني إلى الله ، وأعلم من الله ما لا تعلمون » .

وفي هذه الكلمات يتجلى الشعور بحقيقة الألوهية في هذا القلب الموصول ؛ كما تتجلى هذه الحقيقة ذاتها بجلاها الغامر ، ولألائها الباهر .

إن هذا الواقع الظاهر الميئس من يوسف ، وهذا المدى الطويل الذي يقطع الرجاء من حياته فضلاً على عودته إلى أبيه ، واستنكار بنيه لهذا التطلع بعد هذا الأمد الطويل في وجه هذا الواقع الثقيل .. إن هذا كله لا يؤثر شيئاً في شعور الرجل الصالح بربه . فهو يعلم من حقيقة ربه ومن شأنه ما لا يعلم هؤلاء المحجوبون عن تلك الحقيقة بذلك الواقع الصغير المنظور !

وهذه قيمة الإيمان بالله ، ومعرفته سبحانه هذا اللون من المعرفة . معرفة التجلي والشهود وملابسة قدرته وقدره ، وملابسة رحمته ورعايته ، وإدراك شأن الألوهية مع العبيد الصالحين .

إن هذه الكلمات : « وأعلم من الله ما لا تعلمون » تجلوه هذه الحقيقة بما لا تملك كلماتنا نحن أن تجلوها . وتعرض مذاقاً يعرفه من ذاق مثله ، فيدرك ماذا تعني هذه الكلمات في نفس العبد الصالح يعقوب ..

والقلب الذي ذاق هذا المذاق لا تبلغ الشدائد منه - مهما بلغت - إلا أن يتعمق للمس والمشاهدة والمذاق ! ولا تملك أن تزيد . ولكننا نحمد الله على فضله في هذا ، وندع ما بيننا وبينه له يعلمه سبحانه ويراه .. ثم يوجههم يعقوب إلى تلمس يوسف وأخيه ؛ وألا يأسوا من رحمة الله ، في العثور عليهما ، فإن رحمة الله واسعة وفرجه دائماً منظور :

« يا بني اذهبوا فتحسنوا من يوسف وأخيه ، ولا تيأسوا من روح الله . إنه لا يأس من روح الله إلا القوم الكافرون » ..

فيا للقلب الموصول !!!

« يا بني اذهبوا فتحسنوا من يوسف وأخيه » ..

تحسنوا بحواسكم ، في لطف وبصر وصبر على البحث . ودون يأس من الله وفرجه ورحمته . وكلمة « روح » أدق دلالة وأكثر شفافية . ففيها ظل الاسترواح من الكرب الخائق بما ينسم على الأرواح من رُوح الله الندي :

« إنه لا يأس من رُوح الله إلا القوم الكافرون » ..

فأما المؤمنون الموصولة قلوبهم بالله ، الندية أرواحهم بروحه ، الشاعرون بنفحاته المحيية الرخية ، فإنهم لا يأسون من رُوح الله ولو أحاط بهم الكرب ، واشتد بهم الضيق . وإن المؤمن لفي روح من ظلال إيمانه ، وفي أنس من صلته بربه ، وفي طمأنينة من ثقته بمولاه ، وهو في مضايق الشدة ومخائق الكروب ...

* * *

ويدخل إخوة يوسف مصر للمرة الثالثة ، وقد أضرت بهم المجاعة ، ونفدت منهم النقود ، وجاءوا

(١) همي ومصيبتي .

ببضاعة رديئة هي الباقية لديهم يشترون بها الزاد .. يدخلون وفي حديثهم انكسار لم يعهد في أحاديثهم من قبل ، وشكوى من المجاعة تدل على ما فعلت بهم الأيام :

« فلما دخلوا عليه قالوا : يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر ، وجئنا ببضاعة مزجاة ، فأوف لنا الكيل وتصدق علينا ، إن الله يجزي المتصدقين » ..

وعندما يبلغ الأمر بهم إلى هذا الحد من الاسترحام والضيق والانكسار لا تبقى في نفس يوسف قدرة على المضي في تمثيل دور العزيز ، والتخفي عنهم بحقيقة شخصيته . فقد انتهت الدروس ، وحان وقت المفاجأة الكبرى التي لا تخطر لهم على بال ؛ فإذا هو يترفق في الإفضاء بالحقيقة إليهم ، فيعود بهم إلى الماضي البعيد الذي يعرفونه وحدثهم ، ولم يطلع عليه أحد إلا الله :

« قال : هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون ؟ » !!

ورن في آذانهم صوت لعلهم يذكرون شيئاً من نبراته . ولاحت لهم ملامح وجه لعلهم لم يلتفتوا إليها وهم يرونه في سميت عزيز مصر وأبته وشيأته . والتمتع في نفوسهم خاطر من بعيد :

« قالوا : أأنك لأنت يوسف ؟ » ..

أأنك لأنت ؟! فالآن تترك قلوبهم وجوارحهم وآذانهم ظلال يوسف الصغير في ذلك الرجل الكبير ..

« قال : أنا يوسف . وهذا أخى . قد من الله علينا . إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين » ..

مفاجأة ! مفاجأة عجيبة . يعلنها لهم يوسف ويذكرهم في إجمال بما فعلوه بيوسف وأخيه في دفعة الجهالة .. ولا يزيد .. سوى أن يذكر منة الله عليه وعلى أخيه ، معللاً هذه المنة بالتقوى والصبر وعدل الله في الجزاء .

أما هم فتمثل لعيونهم وقلوبهم صورة ما فعلوا بيوسف ، ويجللهم الخزي والخجل وهم يواجهونه محسناً إليهم وقد أساءوا . حليماً بهم وقد جهلوا . كريماً معهم وقد وقفوا منه موقفاً غير كريم :

« قالوا : نال الله لقد أترك الله علينا ، وإن كنا لخطئين » ..

اعتراف بالخطيئة ، وإقرار بالذنب ، وتقرير لما يرونه من إيثار الله له عليهم بالمكانة والحلم والتقوى والإحسان . يقابله يوسف بالصفح والعتو وإنهاء الموقف المخجل . شيمة الرجل الكريم . وينجح يوسف في الابتلاء بالنعمة كما نجح من قبل في الابتلاء بالشدة . إنه كان من المحسنين .

« قال : لا تثريب عليكم اليوم . يغفر الله لكم ، وهو أرحم الراحمين » ..

لا مؤاخذه لكم ولا تأنيب اليوم . فقد انتهى الأمر من نفسي ولم تعد له جذور . والله يتولاكم بالمغفرة وهو أرحم الراحمين .. ثم يحول الحديث إلى شأن آخر . شأن أبيه الذي ابيضت عيناه من الحزن . فهو معجل إلى تبشيره . معجل إلى لقائه . معجل إلى كشف ما علق بقلبه من حزن ، وما ألم بجسمه من ضنى ، وما أصاب بصره من كلال :

« اذهبوا بقميصي هذا ، فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً ، وأتوني بأهلكم أجمعين » ..

كيف عرف يوسف أن رائحته سترد على أبيه بصره الكليل ؟ ذلك مما علمه الله . والمفاجأة تصنع في كثير من الحالات فعل الخارقة .. وما لها لا تكون خارقة ويوسف نبي رسول ويعقوب نبي رسول ؟

ومنذ اللحظة نحن أمام مفاجأة في القصة بعد مفاجأة ، حتى تنتهي مشاهدتها المثيرة بتأويل رؤيا الصبي الصغير .

« ولما فصلت العير قال أبوهم : إني لأجد ريح يوسف . لولا أن تفندون ! » ..

ريح يوسف ! كل شيء إلا هذا . فما يخطر على بال أحد أن يوسف بعد في الأحياء بعد هذا الأمد الطويل . وأن له ريحاً يشمها هذا الشيخ الكليل !

إني لأجد ريح يوسف . لولا أن تقولوا شيخ خرف : « لولا أن تفندون » .. لصدقم معي ما أجده من ريح الغائب البعيد .

كيف وجد يعقوب ريح يوسف منذ أن فصلت العير . ومن أين فصلت ؟ يقول بعض المفسرين : إنها منذ فصلت من مصر ، وأنه شم رائحة القميص من هذا المدى البعيد . ولكن هذا لا دلالة عليه . فربما كان المقصود لما فصلت العير عند مفارق الطرق في أرض كنعان ، واتجهت إلى محلة يعقوب على مدى محدود . ونحن بهذا لا ننكر أن خارقة من الخوارق يمكن أن تقع لنبي كيعقوب من ناحية نبي كيوسف . كل ما هنالك أننا نحب أن نقف عند حدود مدلول النص القرآني أو رواية ذات سند صحيح . وفي هذا لم ترد رواية ذات سند صحيح . ودلالة النص لا تعطي هذا المدى الذي يريده المفسرون !

ولكن المحيطين بيعقوب لم يكن لهم ما له عند ربه . فلم يجدوا ما وجد من رائحة يوسف :
« قالوا : تالله . إنك لفي ضلالك القديم » ..

في ضلالك بيوسف ، وضلالك بانتظاره وقد ذهب مذهب الذي لا يعود .

ولكن المفاجأة البعيدة تقع ، وتتبعها مفاجأة أخرى :

« فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه ، فارتد بصيراً » ..

مفاجأة القميص . وهو دليل على يوسف وقرب لقياه . ومفاجأة ارتداد البصر بعد ما ابيضت عيناه .. وهنا يذكر يعقوب حقيقة ما يعلمه من ربه . تلك التي حدثهم بها من قبل فلم يفهموه :

« قال : ألم أقل لكم : إني أعلم من الله ما لا تعلمون ؟ » ..

« قالوا : يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين » ..

ونلمح هنا أن في قلب يعقوب شيئاً من بنيه ، وأنه لم يصف لهم بعد ، وإن كان يعدهم باستغفار الله لهم بعد أن يصفو ويسكن ويستريح :

« قال : سوف أستغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم » .

وحكاية عبارته بكلمة « سوف » لا تخلو من إشارة إلى قلب إنساني مكلوم ..

* * *

ويعضي السياق في مفاجآت القصة . فيطوي الزمان والمكان ، لنتلقي في المشهد النهائي المؤثر المثير :
« فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه . وقال : ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين . ورفع أبويه على العرش ، وخرؤا له سجداً ، وقال : يا أبت ، هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً ، وقد أحسن بي إذ أخرجني

من السجن وجاء بكم من البدو ، من بعد أن نزع الشيطان بيني وبين إخوتي . إن ربي لطيف لما يشاء ، إنه هو العليم الحكيم » ..

ويا له من مشهد ! بعد كر الأعوام وانقضاء الأيام . وبعد اليأس والقنوط . وبعد الألم والضيق . وبعد الامتحان والابتلاء . وبعد الشوق المضي والحزن الكامد واللهف الظامئ الشديد .

يا له من مشهد حافل بالانفعال والخفقات والفرح والدموع !

ويا له من مشهد ختامي موصول بمطلع القصة : ذلك في ضمير الغيب وهذا في واقع الحياة. ويوسف بين هذا كله يذكر الله ولا ينساه :

« فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه ، وقال : ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين » ..

ويذكر رؤياه ويرى تأويلها بين يديه في سجود إخوته له - وقد رفع أبويه على السرير الذي يجلس عليه - كما رأى الأحد عشر كوكباً والشمس والقمر له ساجدين :

« ورفع أبويه على العرش ، وخرروا له سجداً ، وقال : يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً » ..

ثم يذكر نعمة الله عليه :

« وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزع الشيطان بيني وبين إخوتي » ..
ويذكر لطف الله في تديره لتحقيق مشيئته :

« إن ربي لطيف لما يشاء » ..

بحقق مشيئته بلطف ودقة خفية لا يحسها الناس ولا يشعرون بها :

« إنه هو العليم الحكيم » ..

ذات التعبير الذي قاله يعقوب وهو يقص عليه رؤياه في مطلع القصة :

« إن ربك عليم حكيم » ..

ليتوافق البدء والختام حتى في العبارات .

* * *

وقبل أن يسدل الستار على المشهد الأخير المثير ، نشهد يوسف ينزع نفسه من اللقاء والعناق والفرحة والابتهاج والجاه والسلطان ، والرغد والأمان ... ليتجه إلى ربه في تسبيح الشاكر الذاكر ! كل دعوته - وهو في أبهة السلطان ، وفي فرحة تحقيق الأحلام - أن يتوفاه ربه مسلماً وأن يلحقه بالصالحين :

« رب قد آتيتني من الملك ، وعلمتني من تأويل الأحاديث . فاطر السماوات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة . توفي مسلماً وألحقني بالصالحين » ..

« رب قد آتيتني من الملك » ..

آتيتني منه سلطانه ومكانه وجاهه وماله . فذلك من نعمة الدنيا .

« وعلمتني من تأويل الأحاديث » ..

بإدراك مآلاتها وتعبير رؤاها . فذلك من نعمة العلم .

نعمتك يا ربي أذكرها وأعددها ..

« فاطر السماوات والأرض » ..

بكلمتك خلقتها وبيدك أمرها ، ولك القدرة عليها وعلى أهلها ..

« أنت وليي في الدنيا والآخرة » ..

فأنت الناصر والمعين ..

رب تلك نعمتك . وهذه قدرتك .

رب إني لا أسألك سلطاناً ولا صحة ولا مالاً . رب إني أسألك ما هو أبقى وأغنى :

« توفي مسلماً وألحقني بالصالحين » ..

وهكذا يتوارى الجاه والسلطان ، وتتوارى فرحة اللقاء واجتماع الأهل ولمة الإخوان . ويبدو المشهد الأخير

مشهد عبد فرد يتهلل إلى ربه أن يحفظ له إسلامه حتى يتوفاه إليه ، وأن يلحقه بالصالحين بين يديه .

إنه النجاح المطلق في الامتحان الأخير ..

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ اجْتَمَعُوا أَمْرُهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٣٦﴾ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا سَأَلْتَهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١٣٨﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٣٩﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١٤٠﴾ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٤١﴾

قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤٢﴾

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ

كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٤٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْعَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا

أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنَجَّىٰ مِنْ نَشَاءٍ وَلَا يَرُدُّ بِأَسْنَانٍ الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٤﴾

لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ

وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٤٥﴾

انتهت قصة يوسف لتبدأ التعقيبات عليها . تلك التعقيبات التي أشرنا إليها في مقدمة الحديث عن السورة . وتبدأ معها اللفتات المتنوعة واللمسات المتعددة ، والجولات الموحية في صفحة الكون وفي أغوار النفس وفي آثار الغابرين ، وفي الغيب المجهول وراء الحاضر المعلوم . فنأخذ في استعراضها حسب ترتيبها في السياق . وهو ترتيب ذو هدف معلوم .

* * *

تلك القصة لم تكن متداولة بين القوم الذين نشأ فيهم محمد - صلى الله عليه وسلم - ثم بعث إليهم . وفيها أسرار لم يعلمها إلا الذين لامسوها من أشخاص القصة ، وقد غبرت بهم القرون . وقد سبق في مطلع السورة قول الله تعالى لنبيه :

« نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ، وإن كنت من قبله لمن الغافلين » ..
فها هو ذا يعقب على القصة بعد تمامها ، ويعطف ختامها على مطلعها :
« ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ، وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون » ..

ذلك القصص الذي مضى في السياق من الغيب الذي لا تعلمه ؛ ولكننا نوحيه إليك وآية وحيه أنه كان غيباً بالقياس إليك . وما كنت معهم إذ اجتمعوا وافق رأيهم ، وهم يمكرون ذلك المكر الذي تحدثت عنه القصة في مواضعه . وهم يمكرون بيوسف ، وهم يمكرون بأبيهم ، وهم يدبرون أمرهم بعد أخذ أخيه وقد خلصوا نجياً وهو من المكر بمعنى التدبير . وكذلك ما كان هناك من مكر بيوسف من ناحية النسوة ومن ناحية رجال الحاشية وهم يودعونه السجن .. كل أولئك مكر ما كنت حاضره لتحكي عنه إنما هو الوحي الذي سيقت السورة لتثبته من بين ما ثبتت من قضايا هذه العقيدة وهذا الدين ، وهي متناثرة في مشاهد القصة الكثيرة .

* * *

ولقد كان من مقتضى ثبوت الوحي ، وإيحاء القصص ، واللفتات واللمسات التي تحرك القلوب ، أن يؤمن الناس بهذا القرآن ، وهم يشهدون الرسول - صلى الله عليه وسلم - ويعرفون أحواله ، ثم يسمعون منه ما يسمعون . ولكن أكثر الناس لا يؤمنون . وهم يمرون كذلك على الآيات المبثوثة في صفحة الوجود فلا ينتبهون إليها ، ولا يدركون مدلولها ، كالذي يلوي صفحة وجهه فلا يرى ما يواجهه . فما الذي ينتظرونه ؟ وعذاب الله قد يأخذهم بغتة وهم لا يشعرون :

« وما أكثر الناس - ولو حرصت - بمؤمنين . وما تسألهم عليه من أجر ، إن هو إلا ذكر للعالمين . وكأني من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون . وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون . أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون ؟ » ..

ولقد كان الرسول - صلى الله عليه وسلم - حريصاً على إيمان قومه ، رغبة في إيصال الخير الذي جاء به إليهم ، ورحمة لهم مما ينتظر المشركين من نكد الدنيا وعذاب الآخرة . ولكن الله العلم بقلوب البشر ، الخبير بطبائعهم وأحوالهم ، ينهي إليه أن حرصه على إيمانهم لن يسوق الكثرة المشركة إلى الإيمان ، لأنهم - كما قال في هذه الآيات - يمرون على الآيات الكثيرة معرضين . فهذا الإعراض لا يؤهلهم للإيمان ، ولا يجعلهم ينتفعون بدلائله المبثوثة في الآفاق .

وإنك لغني عن إيمانهم فما تطلب منهم أجراً على الهداية ؛ وإن شأنهم في الإعراض عنها لعجيب ، وهي تبذل لهم بلا أجر ولا مقابل :

« وما تسألهم عليه من أجر ، إن هو إلا ذكر للعالمين » ..

تذكرهم بآيات الله ، وتوجه إليها أبصارهم وبصائرهم ، وهي مبذولة للعالمين ، لا احتكار فيها لأمة ولا جنس ولا قبيلة ، ولا ثمن لها يعجز عنه أحد ، فيمتاز الأغنياء على الفقراء ، ولا شرط لها يعجز عنه أحد فيمتاز القادرون على العاجزين . إنما هي ذكرى للعالمين . ومائدة عامة شاملة معروضة لمن يريد ..

« وكأي من آية في السماوات والأرض يبرون عليها وهم عنها معرضون » ..

والآيات الدالة على الله ووحديته وقدرته كثيرة ماثورة في تضاعيف الكون ، معروضة للأبصار والبصائر . في السماوات وفي الأرض . يبرون عليها صباح مساء ، آناء الليل وأطراف النهار . وهي ناطقة تكاد تدعو الناس إليها . بارزة تواجه العيون والمشاعر . موحية تخايل للقلوب والعقول . ولكنهم لا يرونها ولا يسمعون دعاءها ولا يحسون إيقاعها العميق .

وإن لحظة تأمل في مطلع الشمس ومغيبها . لحظة تأمل في الظل الممدود ينقص بلطف أو يزيد . لحظة تأمل في الخضم الزاخر ، والعين الفوارة ، والنبع الروي . لحظة تأمل في النبتة النامية ، والبرعم الناعم ، والزهرة المتفتحة ، والحصيد الهشيم . لحظة تأمل في الطائر السابح في الفضاء ، والسماك السابح في الماء ، والدود السارب والنمل الدائب ، وسائر الحشود والأمم من الحيوان والحشرات والهوام .. لحظة تأمل في صبح أو مساء ، في هدأة الليل أو في زحمة النهار .. لحظة واحدة يتسمع فيها القلب البشري إلى إيقاعات هذا الوجود العجيب .. إن لحظة واحدة لكافية لارتعاش هذا القلب بقشعريرة الإدراك الرهيب ، والتأثر المستجيب . ولكنهم « يبرون عليها وهم عنها معرضون » .. لذلك لا يؤمن الأكثرون !

وحتى الذين يؤمنون ، كثير منهم يتدسس الشرك - في صورة من صوره - إلى قلوبهم . فالإيمان الخالص يحتاج إلى بقلعة دائمة تنفي عن القلب أولاً بأول كل خالجة شيطانية ، وكل اعتبار من اعتبارات هذه الأرض في كل حركة وكل تصرف ، لتكون كلها لله ، خالصة له دون سواه . والإيمان الخالص يحتاج إلى حسم كامل في قضية السلطان على القلب وعلى التصرف والسلوك فلا تبقى في القلب دينونة إلا الله سبحانه ، ولا تبقى في الحياة عبودية إلا للمولى الواحد الذي لا راد لما يريد :

« وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون » ..

مشركون قيمة من قيم هذه الأرض في تقريرهم للأحداث والأشياء والأشخاص . مشركون سبباً من الأسباب مع قدرة الله في النفع أو الضرر سواء . مشركون في الدينونة لقوة غير قوة الله من حاكم أو موجه لا يستمد من شرع الله دون سواه . مشركون في رجاء يتعلق بغير الله من عباده على الإطلاق . مشركون في توضيحية يشوبها التطلع إلى تقدير الناس . مشركون في جهاد لتحقيق نفع أو دفع ضرر ولكن لغير الله . مشركون في عبادة يلحظ فيها وجه مع وجه الله .. لذلك يقول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « الشرك فيكم أخفى من ديبب النمل »^١ .

(١) رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي - بإسناده - عن معقل بن يسار . قال : شهدت النبي - صلى الله عليه وسلم - أو قال : حدثني أبو بكر الصديق عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - .

وفي الأحاديث نماذج من هذا الشرك الخفي :

روى الترمذي - وحسنه - من رواية ابن عمر : « من حلف بغير الله فقد أشرك » .

وروى أحمد وأبو داود وغيره عن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إن الرقي والتأثم شرك » .

وفي مسند الإمام أحمد من حديث عقبة بن عامر قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « من علق تيممة فقد أشرك » .

وعن أبي هريرة - بإسناده - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « يقول الله : أنا أغني الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشريكه » .

وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد ابن أبي فضالة قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه ينادي مناد : من كان أشرك في عمله لله ، فليطلب ثوابه من عند غير الله ، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك » .

وروى الإمام أحمد - بإسناده - عن محمود بن لبيد أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر » قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال : « الرياء . يقول الله تعالى يوم القيامة إذا جاء الناس بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم من جزاء » ؟

فهذا هو الشرك الخفي الذي يحتاج إلى اليقظة الدائمة للتحرز منه ليخلص الإيمان .

وهناك الشرك الواضح الظاهر ، وهو الدينونة لغير الله في شأن من شؤون الحياة . الدينونة في شرع يتحاكم إليه - وهو نص في الشرك لا يجادل عليه - والدينونة في تقليد من التقاليد كاتخاذ أعياد ومواسم يشرعها الناس ولم يشرعها الله . والدينونة في زي من الأزياء يخالف ما أمر الله به من الستر ويكشف أو يحدد العورات التي نصت شريعة الله أن تستر ..

والأمر في مثل هذه الشؤون يتجاوز منطقة الإثم والذنب بالمخالفة حين يكون طاعة وخضوعاً ودينونة لعرف اجتماعي سائد من صنع العبيد ، وتركاً للأمر الواضح الصادر من رب العبيد .. إنه عندئذ لا يكون ذنباً ، ولكنه يكون شركاً . لأنه يدل على الدينونة لغير الله فيما يخالف أمر الله .. وهو من هذه الناحية أمر خطير ..

ومن ثم يقول الله :

« وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون » ..

فتنطبق على من كان يواجههم رسول الله في الجزيرة ، وتشمل غيرهم على تتابع الزمان وتغير المكان . وبعد فما الذي ينتظره أولئك المعرضون عن آيات الله المعروضة في صفحات الوجود ، بعد إعراضهم عن آيات القرآن التي لا يسألون عليها أجراً ؟

ماذا ينتظرون ؟

« أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله ، أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون ؟ » ..

وهي لمسة قوية لمشاعرهم ، لايقاظهم من غفلتهم ، وليحذروا عاقبة هذه الغفلة . فإن عذاب الله الذي لا

يعلم مواعده أحد ، قد يغشاهم اللحظة بغاشية تلفهم وتشملهم ، وربما تكون الساعة على الأبواب فيطرقهم اليوم الرهيب المخيف بغتة وهم لا يشعرون .. إن الغيب موصل الأبواب ، لا تمتد إليه عين ولا أذن ، ولا يدري أحد ماذا سيكون اللحظة ، فكيف يأمن الغافلون ؟

وإذا كانت آيات هذا القرآن الذي يحمل دليل الرسالة ، وكانت الآيات التي يحفل بها الكون معروضة للأنظار .. إذا كانت هذه وتلك يمرون عليها وهم عنها معرضون ، ويشركون بالله شركاً ظاهراً أو خفياً وهم الأكثرون . فالرسول - صلى الله عليه وسلم - ماض في طريقه ومن اهتدى بهديه ، لا ينحرفون ولا يتأثرون بالمنحرفين :

« قل : هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني ، وسبحان الله ! وما أنا من المشركين » .
« قل : هذه سبيلي » ..

واحدة مستقيمة ، لا عوج فيها ولا شك ولا شبهة .

« أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني » ..

فنحن على هدى من الله ونور . نعرف طريقنا جيداً ، ونسير فيها على بصر وإدراك ومعرفة ، لا نخبط ولا نتحسس ، ولا نحسد . فهو اليقين البصير المستبين . نزه الله - سبحانه - عما لا يليق بألوهيته ، ونفصل وننزل ونتميز عن الذين يشركون به :

« وما أنا من المشركين » ..

لا ظاهر الشرك ولا خفيه .

هذه طريقي فمن شاء فليتابع ، ومن لم يشأ فأنا سائر في طريقي المستقيم .

وأصحاب الدعوة إلى الله لا بد لهم من هذا التميز ، لا بد لهم أن يعلنوا أنهم أمة وحدهم ، يفترقون عن من لا يعتقد عقيدتهم ، ولا يسلك مسلكهم ، ولا يدين لقيادتهم ، ويتميزون ولا يختلطون ! ولا يكفي أن يدعوا أصحاب هذا الدين إلى دينهم ، وهم متميعون في المجتمع الجاهلي . فهذه الدعوة لا تؤدي شيئاً ذا قيمة ! إنه لا بد لهم منذ اليوم الأول أن يعلنوا أنهم شيء آخر غير الجاهلية ؛ وأن يتميزوا بتجمع خاص أصرتة العقيدة المتميزة ، وعنوانه القيادة الإسلامية .. لا بد أن يميزوا أنفسهم من المجتمع الجاهلي ؛ وأن يميزوا قيادتهم من قيادة المجتمع الجاهلي أيضاً !

إن اندغامهم وتميعهم في المجتمع الجاهلي ، وبقاءهم في ظل القيادة الجاهلية ، يذهب بكل السلطان الذي تحمله عقيدتهم ، وبكل الأثر الذي يمكن أن تنشئه دعوتهم ، وبكل الجاذبية التي يمكن أن تكون للدعوة الجديدة .

وهذه الحقيقة لم يكن مجالها فقط هو الدعوة النبوية في أوساط المشركين .. إن مجالها هو مجال هذه الدعوة كلما عادت الجاهلية فغلبت على حياة الناس .. وجاهلية القرن العشرين لا تختلف في مقوماتها الأصيلة ، وفي ملامحها المميزة عن كل جاهلية أخرى واجهتها الدعوة الإسلامية على مدار التاريخ !

والذين يظنون أنهم يصلون إلى شيء عن طريق التميع في المجتمع الجاهلي والأوضاع الجاهلية ، والتدسس الناعم من خلال تلك المجتمعات ومن خلال هذه الأوضاع بالدعوة إلى الإسلام .. هؤلاء لا يدركون طبيعة هذه العقيدة ولا كيف ينبغي أن تطرق القلوب ! .. إن أصحاب المذاهب الإلحادية أنفسهم يكشفون عن

عنوانهم وواجهتهم ووجهتهم ! أفلا يعلن أصحاب الدعوة إلى الإسلام عن عنوانهم الخاص ؟ وطريقهم الخاص ؟ وسبيلهم التي تفرق تماماً عن سبيل الجاهلية ؟

* * *

ثم لفترة إلى سنة الله في رسالاته ، وإلى بعض آيات الله في الأرض من مصائر السابقين .. إن محمداً ليس بدعاً من الرسل ، ورسالاته ليست بدعاً من الرسالات . وهذه عواقب الذين كذبوا من قبل ، آيات معروضة في الأرض .

« وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم من أهل القرى . أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، ولدار الآخرة خير للذين اتقوا ، أفلا تعقلون ؟ » .

إن النظر في آثار الغابرين يهز القلوب . حتى قلوب المتجربين . ولحظات الاسترجاع الخيالي لحركاتهم وسكناتهم وخلجاتهم ؛ وتصورهم أحياء يروحون في هذه الأمكنة ويحيثون ، يخافون ويرجون ، يطمعون ويتطلعون .. ثم إذا هم ساكنون ، لا حس ولا حركة . آثارهم خاوية ، طواهم الفناء وانطوت معهم مشاعرهم وعوالمهم وأفكارهم وحركاتهم وسكناتهم ، وديانهم الماثلة للعيان والمستكنة في الضمائر والمشاعر .. إن هذه التأملات تهز القلب البشري هزاً مهما يكن جاسياً غافلاً قاسياً . ومن ثم يأخذ القرآن بيد القوم ليقفهم على مصارع الغابرين بين الحين والحين :

« وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم من أهل القرى » ..

لم يكونوا ملائكة ولا خلقاً آخر . إنما كانوا بشراً مثلك من أهل الحاضرة ، لا من أهل البادية ، ليكونوا أرق حاشية وألين جانباً .. وأصبر على احتمال تكاليف الدعوة والهداية ، فرسانك ماضية على سنة الله في إرسال رجال من البشر نوحى إليهم ..

« أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ؟ » ..

فيدركوا أن مصيرهم كمصيرهم ؛ وأن سنة الله الواضحة الآثار في آثار الغابرين ستناهم ؛ وأن عاقبتهم في هذه الأرض إلى ذهاب :

« ولدار الآخرة خير للذين اتقوا » .

خير من هذه الدار التي ليس فيها قرار .

« أفلا تعقلون ؟ » ..

فتتدبروا سنن الله في الغابرين ؟ أفلا تعقلون فتؤثروا المتاع الباقي على المتاع القصير ؟

ثم يصور ساعات الحرج القاسية في حياة الرسل ، قبيل اللحظة الحاسمة التي يتحقق فيها وعد الله ، وتمضي فيها سنته التي لا تتخلف ولا تحيد :

« حتى إذا استأسس الرسل ، وظنوا أنهم قد كذبوا ، جاءهم نصرنا ، فنجى من نشاء ، ولا يراد بأسنا عن القوم المجرمين » .

إنها صورة رهيبة ، ترسم مبلغ الشدة والكرب والضيق في حياة الرسل ، وهم يواجهون الكفر والعمى والإصرار والجحود . وتمر الأيام وهم يدعون فلا يستجيب لهم إلا قليل ، وتكر الأعوام والباطل في قوته ، وكثرة أهله ، والمؤمنون في عدتهم القليلة وقوتهم الضئيلة .

إنها ساعات حرجة ، والباطل ينتفش ويطغى وبيطش ويغدر . والرسل ينتظرون الوعد فلا يتحقق لهم في هذه الأرض . قهجس في خواطرهم الهواجس .. تراهم كذبوا ؟ ترى نفوسهم كذبتهم في رجاء النصر في هذه الحياة الدنيا ؟

وما يقف الرسول هذا الموقف إلا وقد بلغ الكرب والحرج والضيق فوق ما يطيقه بشر . وما قرأت هذه الآية والآية الأخرى : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتيكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه : متى نصر الله ؟... » ما قرأت هذه الآية أو تلك إلا وشعرت بقشعريرة من تصور الهول الذي يبلغ بالرسول هذا المبلغ ، ومن تصور الهول الكامن في هذه الهواجس ، والكرب المزلزل الذي يرج نفس الرسول هذه الرجة ، وحالته النفسية في مثل هذه اللحظات ، وما يحس به من ألم لا يطاق .

في هذه اللحظة التي يستحکم فيها الكرب ، ويأخذ فيها الضيق بمخاتق الرسل ، ولا تبقى ذرة من الطاقة المدخرة .. في هذه اللحظة يجيء النصر كاملاً حاسماً فاصلاً :

« جاءهم نصرنا ، فنجي من نشاء ، ولا يُردُّ بأسنا عن القوم المجرمين » ..

تلك سنة الله في الدعوات . لا بد من الشدائد ، ولا بد من الكروب ، حتى لا تبقى بقية من جهد ولا بقية من طاقة . ثم يجيء النصر بعد اليأس من كل أسبابه الظاهرة التي يتعلق بها الناس . يجيء النصر من عند الله ، فينجو الذين يستحقون النجاة ، ينجون من الهلاك الذي يأخذ المكذبين ، وينجون من البطش والعسف الذي يسلطه عليهم المتجبرون . ويحل بأس الله بالمجرمين ، مدمراً ماحقاً لا يقفون له ، ولا يصدده عنهم ولي ولا نصير .

ذلك كي لا يكون النصر رخيصاً فتكون الدعوات هزلاً . فلو كان النصر رخيصاً لقام في كل يوم دعوى بدعوة لا تكلفه شيئاً . أو تكلفه القليل . ودعوات الحق لا يجوز أن تكون عبثاً ولا لعباً . فإنما هي قواعد للحياة البشرية ومناهج ، ينبغي صيانتها وحراستها من الأذعياء . والأذعياء لا يحتملون تكاليف الدعوة ، لذلك يشفقون أن يدعوا ، فإذا ادعوا عجزوا عن حملها وطرحوها ، وتبين الحق من الباطل على محك الشدائد التي لا يصمد لها إلا الواثقون الصادقون ؛ الذين لا يتخلون عن دعوة الله ، ولو ظنوا أن النصر لا يجيئهم في هذه الحياة !

إن الدعوة إلى الله ليست تجارة قصيرة الأجل ؛ إما أن تبيع ربحاً معيناً محدداً في هذه الأرض ، وإما أن يتخلى عنها أصحابها إلى تجارة أخرى أقرب ربحاً وأيسر حصيلة ! والذي ينهض بالدعوة إلى الله في المجتمعات الجاهلية - والمجتمعات الجاهلية هي التي تدين لغير الله بالطاعة والاتباع في أي زمان أو مكان - يجب أن يوطن نفسه على أنه لا يقوم برحلة مريحة ، ولا يقوم بتجارة مادية قريبة الأجل ! إنما ينبغي له أن يستيقن أنه يواجه طواغيت يملكون القوة والمال ويملكون استخفاف الجماهير حتى ترى الأسود أبيض والأبيض أسود ! ويملكون تأليب هذه الجماهير ذاتها على أصحاب الدعوة إلى الله ، باستشارة شهواتها وتهديدها بأن أصحاب الدعوة إلى الله يريدون حرمانها من هذه الشهوات !.. ويجب أن يستيقنوا أن الدعوة إلى الله كثيرة التكاليف ، وأن الانضمام إليها في وجه المقاومة الجاهلية كثير التكاليف أيضاً . وأنه من ثم لا تنضم إليها - في أول الأمر - الجماهير المستضعفة ، إنما تنضم إليها الصفوة المختارة في الجيل كله ، التي تؤثر حقيقة هذا الدين على الراحة والسلامة ، وعلى كل متاع هذه الحياة الدنيا . وأن عدد هذه الصفوة يكون دائماً قليلاً جداً .

ولكن الله يفتح بينهم وبين قومهم بالحق ، بعد جهاد يطول أو يقصر . وعندئذ فقط تدخل الجماهير في دين الله أفواجا .

وفي قصة يوسف ألوان من الشدائد . في الحب وفي بيت العزيز وفي السجن . وألوان من الاستيئاس من نصرة الناس .. ثم كانت العاقبة خيراً للذين اتقوا - كما هو وعد الله الصادق الذي لا يخيب - وقصة يوسف نموذج من قصص المرسلين . فيها عبرة لمن يعقل ، وفيها تصديق ما جاءت به الكتب المترلة من قبل ، على غير صلة بين محمد وهذه الكتب . فما كان يمكن أن يكون ما جاء به حديثاً مفترى . فالأكاذيب لا يصدق بعضها بعضاً ولا تحقق هداية ، ولا يستروح فيها القلب المؤمن الروح والرحمة :

« لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ، ما كان حديثاً يفترى ، ولكن تصديق الذي بين يديه ، وتفصيل كل شيء ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » ..

* * *

وهكذا يتوافق المطلع والختام في السورة . كما توافق المطلع والختام في القصة . ونجسي التعقيبات في أول القصة وآخرها ، وبين ثناياها ، متناسقة مع موضوع القصة ، وطريقة أدائها ، وعباراتها كذلك . فتحقق الهدف الديني كاملاً ، وتحقق السمات الفنية كاملة ، مع صدق الرواية ، ومطابقة الواقع في الموضوع . وقد بدأت القصة وانتهت في سورة واحدة : لأن طبيعتها تستلزم هذا اللون من الأداء . فهي رؤيا تتحقق رويداً رويداً ، ويوماً بعد يوم ، ومرحلة بعد مرحلة . فلا تتم العبرة بها - كما لا يتم التنسيق الفني فيها - إلا بأن يتابع السياق خطوات القصة ومراحلها حتى نهايتها . وإفراد حلقة واحدة منها في موضع لا يحقق شيئاً من هذا كله كما يحققه أفراد بعض الحلقات في قصص الرسل الآخرين . كحلقة قصة سليمان مع بلقيس . أو حلقة قصة مولد مريم . أو حلقة قصة مولد عيسى . أو حلقة قصة نوح والطوفان ... الخ فهذه الحلقات تفي بالعرض منها كاملاً في مواضعها . أما قصة يوسف فتقتضي أن تتلى كلها متوالية حلقاتها ومشاهدها ، من بدئها إلى نهايتها وصدق الله العظيم :

« نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن . وإن كنت من قبله لمن الغافلين » ..

(١٣) سُورَةُ الرَّعْدِ مَكِّيَّةٌ وَآيَاتُهَا ثَلَاثٌ وَأَرْبَعُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كثيراً ما أقف أمام النصوص القرآنية وقفة المتهيب أن أمسها بأسلوب البشري القاصر ؛ المتحرج أن أشوبها بتعيري البشري الفاني !

وهذه السورة كلها - شأنها شأن سورة الأنعام من قبلها - من بين هذه النصوص التي لا أكاد أجرؤ على مسها بتفسير أو إيضاح .

ولكن ماذا أصنع ونحن في جيل لا بد أن يقدم له القرآن مع الكثير من الإيضاح لطبيعته ولمنهجه ولموضوعه كذلك ووجهته . بعد ما ابتعد الناس عن الجو الذي تنزل فيه القرآن . وعن الاهتمامات والأهداف التي تنزل لها ، وبعد ما انماعت وذبلت في حسهم وتصورهم مدلولاته وأبعادها الحقيقية ، وبعد ما انحرفت في حسهم مصطلحاته عن معانيها .. وهم يعيشون في جاهلية كالتي نزل القرآن ليواجهها ، بينما هم لا يتحركون بهذا القرآن في مواجهة الجاهلية كما كان الذين تنزل عليهم القرآن أول مرة يتحركون .. وبدون هذه الحركة لم يعد الناس يدركون من أسرار هذا القرآن شيئاً . فهذا القرآن لا يدرك أسراره قاعد ، ولا يعلم مدلولاته إلا إنسان يؤمن به ويتحرك به في وجه الجاهلية لتحقيق مدلوله ووجهته .

ومع هذا كله يصيبني رهبة ورعدة كلما تصديت لترجمة عن هذا القرآن ! إن إيقاع هذا القرآن المباشر في حسي محال أن أترجمه في ألفاظي وتعبيراتي . ومن ثم أحس دائماً بالفجوة الهائلة بين ما أستشعره منه وما أترجمه للناس في هذه « الظلال » !

وإنني لأدرك الآن - بعمق - حقيقة الفارق بين جيلنا الذي نعيش فيه والجيل الذي تلقى مباشرة هذا القرآن . لقد كانوا يخاطبون بهذا القرآن مباشرة ؛ ويتلقون إيقاعه في حسهم ، وصوره وظلاله ، وإيحاءاته وإيماءاته ، وينفعلون بها انفعالاً مباشراً ، ويستجيبون لها استجابة مباشرة . وهم يتحركون به في وجه الجاهلية لتحقيق مدلولاته في تصورهم . ومن ثم كانوا يحققون في حياة البشر القصيرة تلك الخوارق التي حققوها ، بالانقلاب المطلق الذي تم في قلوبهم ومشاعرهم وحياتهم ، ثم بالانقلاب الآخر الذي حققوه في الحياة من حولهم ، وفي أقدار العالم كله يومذاك ، وفي خط سير التاريخ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

لقد كانوا ينهلون مباشرة من معين هذا القرآن بلا وساطة . ويتأثرون بإيقاعه في حسهم فماً لأذن . وينضجون

بحرارته وإشعاعه وإيحائه ؛ ويتكيفون بعد ذلك وفق حقائقه وقيمه وتصوراته .
أما نحن اليوم فتكليف وفق تصورات فلان وفلان عن الكون والحياة والقيم والأوضاع . وفلان وفلان من البشر القاصرين أبناء الفناء !

ثم ننظر نحن إلى ما حققوه في حياتهم من خوارق في ذات أنفسهم وفي الحياة من حولهم ، فنحاول تفسيرها وتعليلها بمنطقنا الذي يستمد معاييرها من قيم وتصورات ومؤثرات غير قيمهم وتصوراتهم ومؤثراتهم . فنخطئ ولا شك في تقدير البواعث وتعليل الدوافع وتفسير النتائج .. لأنهم هم خلق آخر من صنع هذا القرآن ..

وإني لأهيب بقراء هذه الظلال ، ألا تكون هي هدفهم من الكتاب . إنما يقرءونها ليدنوا من القرآن ذاته . ثم ليتناولوه عند ذلك في حقيقته ، ويطرحوا عنهم هذه الظلال . وهم لن يتناولوه في حقيقته إلا إذا وقفوا حياتهم كلها على تحقيق مدلولاته وعلى خوض المعركة مع الجاهلية باسمه وتحت رايته .

* * *

وبعد فهذا استطراد اندفعت إليه وأمامي هذه السورة - سورة الرعد - وكأنما أقرؤها لأول مرة ، وقد قرأتها من قبل وسمعتها ما لا أحصيه من المرات . ولكن هذا القرآن يعطيك بمقدار ما تعطيه ؛ ويتفتح عليك في كل مرة بإشعاعات وإشراقات وإيقاعات بإيقاعات بقدر ما تفتح له نفسك ؛ ويبدو لك في كل مرة جديداً كأنك تتلقاه للحظة ، ولم تقرأه أو تسمعه أو تعالجه من قبل !

وهذه السورة من أعاجيب السور القرآنية التي تأخذ في نفس واحد ، وإيقاع واحد^١ ، وجو واحد ، وعطر واحد من بدئها إلى نهايتها ؛ والتي تغم النفس ، وتزحم الحس بالصور والظلال والمشاهد والخوارج ، والتي تأخذ النفس من أقطارها جميعاً ، فإذا هي في مهرجان من الصور والمشاعر والإيقاعات والإشراقات ؛ والتي ترتاد بالقلب آفاقاً وأكواناً وعوالم وأزماناً ، وهو مستيقظ ، مبصر ، مدرك ، شاعر بما يمجج حوله من المشاهد والموجبات .

إنها ليست ألفاظاً وعبارات ، إنما هي مطارق وإيقاعات : صورها . ظلالتها . مشاهدتها موسيقاها . لمساتها الوجدانية التي تكمن وتوزع هنا وهناك !

إن موضوعها الرئيسي ككل موضوع السور المكية^٢ كلها على وجه التقريب - هو العقيدة وقضاياها .. هو توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية ، وتوحيد الدينونة لله وحده في الدنيا والآخرة جميعاً ؛ ومن ثم قضية الوحي وقضية البعث ... وما إليها ...

ولكن هذا الموضوع الواحد ذا القضايا الواحدة ، لم يتكرر عرضه قط بطريقة واحدة في كل تلك السور

(١) الإيقاع الموسيقي في القرآن يتألف من عناصر شتى : من مخارج الحروف في الكلمة الواحدة ، ومن تناسق الإيقاعات بين كلمات الفقرة ؛ ومن اتجاهات المد في الكلمات . ثم من اتجاهات المد في نهاية الفاصلة المطردة في الآيات ومن حرف الفاصلة ذاته (وقد تكلمت عن هذا بتوسع في كتاب التصوير الفني) وجميع العناصر التي يتألف منها الإيقاع في هذه السورة واحدة فيها عدا اتجاه المد وحرف الفاصلة في القسم الأول منها حتى آية هـ فهد الفاصلة وحرفها : « يؤمنون . توقنون . يفكرون . يعقلون . خالدون » وبقية السورة : « العقاب . هاد . بمقدار . المتعال . بالنهار ... الخ » .

(٢) السورة مكية بخلاف ما ورد في المصحف الأميري وبعض المصاحف - اعتماداً على بعض الروايات - أنها مدنية .. ومكية السورة شديدة الوضوح : سواء في طبيعة موضوعها ، أو طريقة أدائها ، أو في جوها العام . الذي لا يخطيء تنسمه من يعيش فترة في ظلال القرآن !

المكية وفي غيرها من السور المدنية . فهو في كل مرة يعرض بطريقة جديدة ؛ وفي ضوء جديد ؛ ويتناول عرضه مؤثرات وموحيات ذات إيقاع جديد وإيحاء جديد !

إن هذه القضايا لا تعرض عرضاً جديلاً بارداً يقال في كلمات وينتهي كأية قضية ذهنية باردة إنما تعرض وحوها إطار ، هو هذا الكون كله بكل ما فيه من عجائب هي براهين هذه القضايا وآياتها في الإدراك البشري البصير المفتوح . وهذه العجائب لا تنفذ ؛ ولا تبلى جدتها . لأنها تنكشف كل يوم عن جديد يصل إليه الإدراك ، وما كشف منها من قبل يبدو جديداً في ضوء الجديد الذي يكشف ! ومن ثم تبقى تلك القضايا حية في مهرجان العجائب الكونية التي لا تنفذ ولا تبلى جدتها !

وهذه السورة تطوف بالقلب البشري في مجالات وآفاق وآماد وأعماق ؛ وتعرض عليه الكون كله في شتى مجالاته الأخاذة : في السماوات المرفوعة بغير عمد . وفي الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى . وفي الليل يغشاها النهار . وفي الأرض الممدودة وما فيها من رواس نابثة وأنهار جارية ، وجنات وزرع ونخيل مختلف الأشكال والطعوم والألوان ، ينبت في قطع من الأرض متجاورات ويسقى بماء واحد . وفي البرق يخيف ويطمع ، والرعد يسبح ويحمد ، والملائكة تخاف وتخشع ، والصواعق يصيب بها من يشاء ، والسحاب الثقال والمطر في الوديان ، والزبد الذي يذهب جفاء ، ليبقى في الأرض ما ينفع الناس .

وهي تلاحق ذلك القلب أينما توجه : تلاحقه بعلم الله النافذ الكاشف الشامل ، يلم بالشارد والوارد ، والمستخفي والسارب ، ويتعقب كل حي ويحصي عليه الخواطر والخواجج . والغيب المكنون الذي لا تدركه الظنون ، مكشوفاً لعلم الله ، وما تحمل كل أنثى ، وما تغيض الأرحام وما تزداد .

إنها تقرب مدارك البشر شيئاً من حقيقة القوة الكبرى المحيطة بالكون ظاهره وخافيه ، جليله ودقيقه ، حاضره وغيبه . وهذا القدر الذي يمكن مدارك البشر تصويره هائل مخيف ، ترجف له القلوب . وذلك إلى الأمثال المصورة تتمثل في مشاهد حية حافلة بالحركة والانفعال . إلى مشاهد القيامة ، وصور النعيم والعذاب ، وخلجات الأنفس في هذا وذاك . إلى وقفات على مصارع الغابرين ، وتأملات في سير الراحلين ، وفي سنة الله التي مشت عليهم فإذا هم دائرون ..

* * *

هذا عن موضوعات السورة وقضاياها ، وعن آفاقها الكونية وآمادها .. ووراءها خصائص الأداء الفنية العجيبة . فالإطار العام الذي تعرض فيه قضاياها هو الكون كما أسلفنا ومشاهده وعجائبه في النفس وفي الآفاق . وهذا الإطار ذو جو خاص :

إنه جو المشاهد الطبيعية المتقابلة : من سماء وأرض . وشمس وقمر . وليل ونهار . وشخوص وظلال . وجبال راسية وأنهار جارية . وزبد ذاهب وماء باق . وقطع من الأرض متجاورات مختلفات . ونخيل صنوان وغير صنوان .. ومن ثم تطرد هذه التقابلات في كل المعاني وكل الحركات وكل المصائر في السورة ، فيتناسق التقابل المعنوي في السورة مع التقابلات الحسية ، وتنسق في الجو العام .. ومن ثم يتقابل الاستعلاء في الاستواء على العرش مع تسخير الشمس والقمر . ويتقابل ما تغيض الأرحام مع ما تزداد . ويتقابل من أسر القول مع من جهر به . ومن هو مستخف بالليل مع من هو سارب بالنهار . ويتقابل الخوف مع الطمع تجاه البرق . ويتقابل تسبيح الرعد حمداً مع تسبيح الملائكة خوفاً . وتتقابل دعوة الحق لله مع دعوة الباطل

للشركاء . ويتقابل من يعلم مع من هو أعمى . ويتقابل الذين يفرحون من أهل الكتاب بالقرآن مع من ينكر بعضه . ويتقابل المحو مع الإنبات في الكتاب .. وبالإجمال تتقابل المعاني ، وتتقابل الحركات ، وتتقابل الاتجاهات .. تنسيقاً للجو العام في الأداء !

وظاهرة أخرى من ظواهر التناسق في جو الأداء .. فلأنه جو الطبيعة من سماء وأرض ، وشمس وقمر ، ورعد وبرق ، وصواعق وأمطار .. وحياة وإنبات .. يجيء الحديث عما تكنه الأرحام من حيوان ؛ ويجيء معها : « وما تغيض الأرحام وما تزداد » .. ويتناسق غيض الأرحام وازديادها مع سيل الماء في الأودية ومع الإنبات .. وذلك من بدائع التناسق في هذا القرآن^١ .

ذلك طرف من الأسباب التي من أجلها أقف أمام هذه السورة - كما وقفت من قبل كثيراً أمام غيرها - متهيئاً أن أمسها بأسلوب البشري القاصر ، متحرجاً أن أشوبها بتعبيري البشري الفاني ... ولكنها ضرورة الجليل .. الجليل الذي لا يعيش في جو هذا القرآن .. نستعين عليها بالله . والله المستعان .

* * *

(١) تراجع فصل : « التناسق الفني » في كتاب : « التصوير الفني في القرآن » .. « دار الشروق » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْمَرَّةَ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾
 اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ
 مُّسَمًّى يُدِيرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا
 رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجِينَ مِثْلَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ
 يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَلِّجَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ وَسَوَّانٌ وَغَيْرُ صَوَّانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ
 وَاحِدٍ وَنُفِضَلُ بَعْضُهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾

* وَإِن تَعَجَبَ فَعَجِبْ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أُنَاذِرُكَ خَلْقِي جَدِيدٌ أَوَلَيْكَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ
 الْأَعْغُلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٥﴾
 وَيَسْتَعِجِلُونَكَ بِالسَّبِئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ
 ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ؎ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ
 وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿١٧﴾

اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿١٨﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ
 الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿١٩﴾ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَّنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ ؎ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿٢٠﴾
 لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ؎ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ
 وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ ؎ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَّالٍ ﴿٢١﴾
 هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿٢٢﴾ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ ؎ وَالْمَلَكُ مِنْ

خَيْفَتِهِ ۚ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي آلِهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴿١١٦﴾ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ ۚ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ شَيْءٌ إِلَّا كِبَاسٌ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَلِّغِهِ ۚ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿١١٧﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿١١٨﴾

قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا تَخْلُقُهُ فَتَشَبَهَ الْخَلْقَ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهْرُ ﴿١١٩﴾ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أوديةً بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلَهُ ۚ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ۚ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُتُ فِي الْأَرْضِ ۚ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٢٠﴾ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَهُمُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢١﴾

تبدأ السورة بقضية عامة من قضايا العقيدة : قضية الوحي بهذا الكتاب ، والحق الذي اشتمل عليه . وتلك هي قاعدة بقية القضايا من توحيد الله ، ومن إيمان بالبعث ، ومن عمل صالح في الحياة . فكلها متفرعة عن الإيمان بأن الأمر بهذا هو الله ، وأن هذا القرآن وحي من عنده سبحانه إلى رسوله صلى الله عليه وسلم .

« آلمر . تلك آيات الكتاب . والذي أنزل إليك من ربك الحق . ولكن أكثر الناس لا يؤمنون » ..

ألف . لام . ميم . را .. « تلك آيات الكتاب » .. آيات هذا القرآن . أو تلك آيات على الكتاب تدل على الوحي به من عند الله . إذ كانت صياغته من مادة هذه الأحرف دلالة على أنه من وحي الله ، لا من عمل مخلوق كائناً من كان .

« والذي أنزل إليك من ربك الحق » ..

الحق وحده . الحق الخالص الذي لا يتلبس بالباطل . والذي لا يحتمل الشك والتردد . وتلك الأحرف آيات على أنه الحق . فهي آيات على أنه من عند الله . ولن يكون ما عند الله إلا حقاً لا ريب فيه .

« ولكن أكثر الناس لا يؤمنون » ..

لا يؤمنون بأنه موحي به ، ولا بالقضايا المترتبة على الإيمان بهذا الوحي من توحيد الله ودينونة له وحده
ومن بعث وعمل صالح في الحياة .

* * *

هذا هو الافتتاح الذي يلخص موضوع السورة كله ، ويشير إلى جملة قضاياها . ومن ثم يبدأ في استعراض
آيات القدرة ، وعجائب الكون الدالة على قدرة الخالق وحكمته وتدبيره ، الناطقة بأن من مقتضيات هذه
الحكمة أن يكون هناك وحي لتبصير الناس ؛ وأن يكون هناك بعث لحساب الناس . وأن من مقتضيات
تلك القدرة أن تكون مستطبعة بعث الناس ورجعهم إلى الخالق الذي بدأهم وبدأ الكون كله قبلهم . وسخره
لهم ليلوهم فيما آتاهم .

وتبدأ الريشة المعجزة في رسم المشاهد الكونية الضخمة .. لمسة في السماوات ، ولمسة في الأرضين . ولمسات
في مشاهد الأرض وكوامن الحياة ..

ثم التعجب من قوم ينكرون البعث بعد هذه الآيات الضخام ، ويستعجلون عذاب الله ، ويطلبون آية غير
هذه الآيات :

« الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ، ثم استوى على العرش ، وسخر الشمس والقمر كل يجري
لأجل مسمى ، يدبر الأمر ، يفصل الآيات ، لعلمكم بلقاء ربكم توقنون .

« وهو الذي مد الأرض ، وجعل فيها رواسي وأنهاراً ، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ، يُغشي
الليل النهار . إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون .

« وفي الأرض قطع متجاورات ، وجنات من أعناب ، وزرع ، ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء
واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل . إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون .

« وإن تعجب فعجب قولهم : أئذا كنا تراباً أئنا لفي خلق جديد ؟ أولئك الذين كفروا بربهم . وأولئك الأغلال
في أعناقهم ، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات
وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ، وإن ربك لشديد العقاب . ويقول الذين كفروا : لولا أنزل
عليه آية من ربه ، إنما أنت منذر ولكل قوم هاد .

والسماوات - أياً كان مدلولها وأياً كان ما يدركه الناس من لفظها في شتى العصور - معروضة على الأنظار ،
هائلة - ولا شك - حين يخلو الناس إلى تأملها لحظة . وهي هكذا لا تستند إلى شيء . مرفوعة « بغير عمد »
مكشوفة « ترونها » ..

هذه هي اللمسة الأولى في مجالي الكون الهائلة وهي بذاتها اللمسة الأولى للوجدان الإنساني ، وهو يقف
أمام هذا المشهد الهائل يتملاه ؛ ويدرك أنه ما من أحد يقدر على رفعها بلا عمد - أو حتى بعمد - إلا الله ؛
وقصارى ما يرفعه الناس بعمد أو بغير عمد تلك البنيان الصغيرة الهزيلة القابعة في ركن ضيق من الأرض
لا تتعداه . ثم يتحدث الناس عما في تلك البنيان من عظمة ومن قدرة ومن إتقان ، غافلين عما يشملهم ويعلوهم
من سماوات مرفوعة بغير عمد ؛ وعما وراءها من القدرة الحقة والعظمة الحقة ، والإتقان الذي لا يتناول
إليه خيال إنسان !

ومن هذا المنظور الهائل الذي يراه الناس ، إلى المغيب الهائل الذي تتقاصر دونه المدارك والأبصار : « ثم
استوى على العرش » ..

فإن كان علو فهذا أعلى . وإن كانت عظمة فهذا أعظم . وهو الاستعلاء المطلق ، يرسمه في صورة على طريقة القرآن في تقريب الأمور المطلقة لمدارك البشر المحدودة .

وهي لمسة أخرى هائلة من لمسات الريشة المعجزة . لمسة في العلو المطلق إلى جانب اللمسة الأولى في العلو المنظور ، تتجاوران وتتسقان في السياق ..

ومن الاستعلاء المطلق إلى التسخير . تسخير الشمس والقمر . تسخير العلو المنظور للناس على ما فيه من عظمة أخاذة ، أخذت بألبابهم في اللمسة الأولى ، ثم إذا هي مسخرة بعد ذلك لله الكبير المتعال .

ونقف لحظة أمام التقابلات المتداخلة في المشهد قبل أن نمضي معه إلى غايته . فإذا نحن أمام ارتفاع في الفضاء المنظور يقابله ارتفاع في الغيب المجهول . وإذا نحن أمام استعلاء يقابله التسخير . وإذا نحن أمام الشمس والقمر يتقابلان في الجنس : نجم وكوكب ، ويتقابلان في الألوان ، بالليل والنهار ..

ثم نمضي مع السياق .. فمع الاستعلاء والتسخير والحكمة والتدبير :
« كل يجري لأجل مسمى » ..

وإلى حدود مرسومة ، ووفق ناموس مقدر . سواء في جريانهما في فلكيهما دورة سنوية ودورة يومية . أو جريانهما في مداريهما لا يتعدياته ولا ينحرفان عنه . أو جريانهما إلى الأمد المقدر لهما قبل أن يحول هذا الكون المنظور .

« يدبر الأمر » ..

الأمر كله ، على هذا النحو من التدبير الذي يسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى .. والذي يمسك بالأفلاك الهائلة والأجرام السابحة في الفضاء فيجريها لأجل لا تعداه ، لا شك عظيم التدبير جليل التقدير .

ومن تديره الأمر أنه « يفصل الآيات » وينظمها وينسقها ، ويعرض كلاً منها في حينه ، ولعلته ، ولغايته « لعلكم بلقاء ربكم توقنون » حين ترون الآيات مفصلة منسقة ، ومن ورائها آيات الكون ، تلك التي أبدعتها يد الخالق أول مرة ، وصورت لكم آيات القرآن ما وراء إبداعها من تدبير وتقدير وإحكام .. ذلك كله يوحي بأن لا بد من عودة إلى الخالق بعد الحياة الدنيا ، لتقدير أعمال البشر ، ومجازاتهم عليها . فذلك من كمال التقدير الذي توحى به حكمة الخلق الأول عن حكمة وتدبير .

وبعد ذلك يهبط الخط التصويري الهائل من السماء إلى الأرض فيرسم لوحها العريضة الأولى :

« وهو الذي مد الأرض ، وجعل فيها رواسي وأنهاراً ، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين . يغشي الليل النهار . إن في ذلك لآيات لقوم يفكرون » ..

والخطوط العريضة في لوحة الأرض هي مد الأرض وبسطها أمام النظر وانفاسها على مدها . لا يهم ما يكون شكلها الكلي في حقيقته . إنما هي مع هذا ممدودة مبسطة فسيحة . هذه هي اللمسة الأولى في اللوحة . ثم يرسم خط الرواسي الثوابت من الجبال ، وخط الأنهار الجارية في الأرض . فتم الخطوط العريضة الأولى في المشهد الأرضي ، متناسقة متقابلة .

ومما يناسب هذه الخطوط الكلية ما تحتويه الأرض من الكليات ، وما يلبس الحياة فيها من كليات كذلك .

وتتمثل الأولى فيما تنبت الأرض : « ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين » . وتمثل الثانية في ظاهري الليل والنهار : « يغشي الليل النهار » .

والمشهد الأول يتضمن حقيقة لم تعرف للبشر من طريق علمهم وبحبهم إلا قريباً . هي أن كل الأحياء وأولها النبات تتألف من ذكر وأنثى ، حتى النباتات التي كان مزنوناً أن ليس لها من جنسها ذكور ، تبين أنها تحمل في ذاتها الزوج الآخر ، فتضم أعضاء التذكير وأعضاء التأنيث مجتمعة في زهرة ، أو متفرقة في العود . وهي حقيقة تتضامن مع المشهد في إثارة الفكر إلى تدبر أسرار الخلق بعد تملي ظواهره .

والمشهد الثاني مشهد الليل والنهار متعاقبين ، هذا يغشي ذلك ، في انتظام عجيب . هو ذاته مثار تأمل في مشاهد الطبيعة ، فقدم ليل وإدبار نهار أو إشراق فجر وانقشاع ليل ، حادث تهوّن الألفة من وقعه في الحس ، ولكنه في ذاته عجب من العجب ، لمن ينفض عنه موات الألفة وخمودها ، ويتلقاه بحس الشاعر المتجدد ، الذي لم يجمده التكرار .. والنظام الدقيق الذي لا تتخلف معه دورة الفلك هو بذاته كذلك مثار تأمل في ناموس هذا الكون ، وتفكير في القدرة المبدعة التي تدبره وترعاه : « إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » ..

ونقف كذلك هنا رقيقة قصيرة أمام التقابلات الفنية في المشهد قبل أن نجاوزه إلى ما وراءه .. التقابلات بين الرواسي الثابتة والأنهار الجارية . وبين الزوج والزوج في كل الثمرات . وبين الليل والنهار . ثم بين مشهد الأرض كله ومشهد السماء السابق . وهما متكاملان في المشهد الكوني الكبير الذي يضمهما ويتألف منهما جميعاً .

ثم تمضي الريشة المبدعة في تخطيط وجه الأرض بخطوط جزئية أدق من الخطوط العريضة الأولى : « وفي الأرض قطع متجاورات ، وجنات من أعناب ، وزرع ، ونخيل صنوان وغير صنوان ، يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل . إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون » ..

وهذه المشاهد الأرضية ، فينا الكثيرون يمرون عليها فلا تثير فيهم حتى رغبة التطلع إليها ! إلا أن ترجع النفس إلى حيوية القطرة والاتصال بالكون الذي هي قطعة منه ، انفصلت عنه لتأمله ثم تندمج فيه .. « وفي الأرض قطع متجاورات » ..

متعددة الشبات ، وإلا ما تبين أنها « قطع » فلو كانت متماثلة لكانت قطعة .. منها الطيب الخصب ، ومنها السبخ النكد . ومنها المقفر الجذب ، ومنها الصخر الصلد . وكل واحد من هذه وتلك أنواع وألوان ودرجات . ومنها العامر والغامر . ومنها المزروع الحي والمهمل الميت . ومنها الريان والعطشان . ومنها ومنها ومنها .. وهي كلها في الأرض متجاورات .

هذه اللمسة العريضة الأولى في التخطيط التفصيلي .. ثم تتبعها تفصيلات : « وجنات من أعناب » . « وزرع » . « ونخيل » تمثل ثلاثة أنواع من النبات ، الكرم المستلق . والنخل السامق . والزرع من بقول وأزهار وما أشبه . مما يحقق تلوين المنظر ، وملء فراغ اللوحة الطبيعية ، والتمثيل لمختلف أشكال النبات .

ذلك النخيل . صنوان وغير صنوان . منه ما هو عود واحد . ومنه ما هو عودان أو أكثر في أصل واحد .. وكله « يسقى بماء واحد » والتربة واحدة ، ولكن الثمار مختلفات الطعوم : « ونفضل بعضها على بعض في الأكل » .

فمن غير الخالق المدبر المرید يفعل هذا وذاك !؟

من منا لم يذق الطعوم مختلفات في نبت البقعة الواحدة . فكلم منا التفت هذه اللفتة التي وجه القرآن إليها العقول والقلوب ؟ إنه يمثل هذا يبقى القرآن جديداً أبداً ، لأنه يجدد أحاسيس البشر بالمناظر والمشاهد في الكون والنفس ؛ وهي لا تنفذ ولا يستقصيها إنسان في عمره المحدود ، ولا تستقصيها البشرية في أجلها الموعود . « إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون » ..

ومرة ثالثة نقف أمام التقابلات الفنية في اللوحة بين القطع المتجاورات المختلفات . والنخل صنوان وغير صنوان والطعوم مختلفات . والزرع والنخيل والأعنان ...

تلك الجولة الهائلة في آفاق الكون الفسيحة ، يعود منها السياق ليعجب من قوم ، هذه الآيات كلها في الآفاق لا توقظ قلوبهم ، ولا تنبه عقولهم ، ولا يلوح لهم من ورائها تدير المدبر . وقدرة الخالق ، كأن عقولهم مغلوطة ، وكأن قلوبهم مقيدة ، فلا تنطلق للتأمل في تلك الآيات :

« وإن تعجب فعجب قولهم : أنذا كنا تراباً أننا لفي خلق جديد ؟ أولئك الذين كفروا بربهم . وأولئك الأغلال في أعناقهم ، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » ..
 وإنه لعجيب يستحق التعجب . أن يسأل قوم بعد هذا العرض الهائل :
 « أنذا كنا تراباً أننا لفي خلق جديد ؟ » ..

والذي خلق هذا الكون الضخم ودبره على هذا النحو ، قادر على إعادة الأناسي في بعث جديد . إنما هو الكافر بربهم الذي خلقهم ودبر أمرهم . وإنما هي أغلال العقل والقلب . فالجزء هو الأغلال في الأعناق ، تنسيقاً بين غل العقل وغل العنق ؛ والجزء هو النار خالدين فيها . فقد عطلوا كل مقومات الإنسان التي من أجلها يكرمه الله ، وانتكسوا في الدنيا فهم في الآخرة يلاقون عاقبة الانتكاس حياة أدنى من حياتهم الدنيا . التي عاشوها معطي الفكر والشعور والإحساس .

هؤلاء القوم الذين يعجبون من أن يعذبهم الله خلقاً جديداً . وعجبهم هذا هو العجب ! هؤلاء يستعجلونك أن تأتيمهم بعذاب الله ، بدلاً من أن يطلبوا هدايته ويرجوا رحمته :
 « ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة » ..

وكما أنهم لا ينظرون في آفاق الكون ، وآيات الله الماثورة في السماء والأرض ، فهم لا ينظرون إلى مصارع الغابرين الذين استعجلوا عذاب الله فأصابهم ؛ وتركهم مثلة يعتبر بها من بعدهم :
 « وقد خلت من قبلهم المثالات » ..

فهم في غفلة حتى عن مصائر أسلافهم من بني البشر ، وقد كان فيها مثل لمن يعتبر .
 « وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم » ..

فهو بعباده رحيم حتى وإن ظلموا قرة ، يفتح لهم باب المغفرة ليدخلوه عن طريق التوبة . ولكن يأخذ بعقابه الشديد من يصرون ويلجئون ، ولا يلجئون من الباب المفتوح .
 « وإن ربك لشديد العقاب » ..

والسياق يقدم هنا مغفرة الله على عقابه ، في مقابل تعجل هؤلاء الغافلين للعذاب قبل الهداية . ل يبدو الفارق الضخم الهائل بين الخير الذي يريده الله لهم ، والشر الذي يريدونه لأنفسهم . ومن ورائه يظهر انطماس البصيرة ، وعمى القلب ، والانتكاس الذي يستحق درك النار .

ثم يمضي السياق في التعجيب من أمر القوم : الذين لا يدركون كل تلك الآيات الكونية ، فيطلبون آية واحدة ينزلها الله على رسوله . آية واحدة والكون حولهم كله آيات :

« ويقول الذين كفروا : لولا أنزل عليه آية من ربه ! إنما أنت منذر ، ولكل قوم هاد » ..

إنهم يطلبون خارقة . والخوارق ليست من عمل الرسول ولا اختصاصه . إنما يبعث بها الله معه . حين يرى بحكمته أنها لازمة . « إنما أنت منذر » محذر ومبصر . شأنك شأن كل رسول قبلك ، فقد بعث الله الرسل للأقوام للهداية « ولكل قوم هاد » فأما الآيات الخارقة فأمرها إلى مدبر الكون والعباد .

* * *

وبذلك تنتهي الجولة الأولى في الآفاق . والتعقيبات عليها . لبدأ السياق جولة جديدة في واد آخر : في الانفس والمشاعر والأحياء :

« الله يعلم ما تحمل كل أنثى ، وما تغيض الأرحام وما تزداد ، وكل شيء عنده بمقدار . عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال . سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ، ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار . له معقبات من بين يديه ومن خلفه - يحفظونه - من أمر الله . إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له ، وما لهم من دونه من وال » ..

ويقف الحس مشدوهاً يرتعش تحت وقع هذه اللمسات العميقة في التصوير ، وتحت إيقاع هذه الموسيقى العجيبة في التعبير . يقف مشدوهاً وهو يقفو مسارب علم الله ومواقفه ؛ وهو يتبع الحمل المكنون في الأرحام ، والسر المكنون في الصدور ، والحركة الخفية في جنح الليل ؛ وكل مستخف وكل سارب وكل هامس وكل جاهر . وكل أولئك مكشوف تحت المجهر الكاشف ، يتبعه شعاع من علم الله ، وتتعبه لحظة تحصي خواطره ونواياه .. ألا إنها الرهبة الخاشعة التي لا تملك النفس معها إلا أن تلجأ إلى الله ، تطمئن في حماه .. وإن المؤمن بالله ليعلم أن علم الله يشمل كل شيء . ولكن وقع هذه القضية الكلية في الحس ، لا يقاس إلى وقع مفرداتها كما يعرض السياق بعضها في هذا التصوير العجيب .

وأين أية قضية تجريدية ، وأية حقيقة كلية في هذا المجال من قوله :

« الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد . وكل شيء عنده بمقدار » ؟

حين يذهب الخيال يتتبع كل أنثى في هذا الكون .. المترامي الأطراف .. كل أنثى .. كل أنثى في الوبر والمدر ، في البدو والحضر ، في البيوت والكهوف والمسارب والغابات . ويتصور علم الله مطلقاً على كل حمل في أرحام هذه الإناث ، وعلى كل قطرة من دم تغيض أو تزداد في تلك الأرحام !

وأين أية قضية تجريدية وأية حقيقة كلية في هذا المجال من قوله :

« سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ، ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار . له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله » ؟

حين يذهب الخيال يتتبع كل هامس وكل جاهر ، وكل مستخف وكل سارب في هذا الكون الهائل . ويتصور علم الله يتعقب كل فرد من بين يديه ومن خلفه ، ويقيد عليه كل شاردة وكل واردة آناء الليل وأطراف النهار !

إن اللمسات الأولى في آفاق الكون الهائل ليست بأضحكم ولا أعمق من هذه اللمسات الأخيرة في أغوار

النفس والغيب ومجاهيل السرائر . وإن هذه لكفاء لتلك في مجال التقابل والتناظر ..
ونستعرض شيئاً من بدائع التعبير والتصوير في تلك الآيات :

« الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد . وكل شيء عنده بمقدار » .. فلما أن صور العلم بالغيض والزيادة في مكونات الأرحام ، عقب بأن كل شيء عنده بمقدار . والتناسق واضح بين كلمة مقدار وبين النقص والزيادة . والقضية كلها ذات علاقة بإعادة الخلق فيما سبق من ناحية الموضوع . كما أنها من ناحية الشكل والصورة ذات علاقة بما سيأتي بعدها من الماء الذي تسيل به الأودية « بقدرها » في السيوالة والتقدير .. كما أن في الغيظ والزيادة تلك المقابلة المعهودة في جو السورة على الإطلاق ..
« عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال » ..

ولفظة « الكبير » ولفظة « المتعال » كلتاها تلقي ظلها في الحس . ولكن يصعب تصوير ذلك الظل بألفاظ أخرى . إنه ما من خلق حادث إلا وفيه نقص بصغره . وما يقال عن خلق من خلق الله كبير ، أو أمر من الأمور كبير ، أو عمل من الأعمال كبير ، حتى يتضاءل بمجرد أن يذكر الله .. وكذلك « المتعال » .. تراني قلت شيئاً؟ لا . ولا أي مفسر آخر للقرآن وقف أمام « الكبير المتعال » !

« سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ، ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار » .. والتقابل واضح في العبارة . إنما تستوقفنا كلمة « سارب » وهي تكاد بظلمتها تعطي عكس معناها ، فظلمها ظل خفاء أو قريب من الخفاء . والسارب : الذاهب . فالحركة فيها هي المقصودة في مقابل الاستخفاء . هذه النعومة في جرس اللفظ وظلمه مقصودة هنا كي لا تخدش الجو . جو العلم الخفي اللطيف الذاهب وراء الحمل المكنون والسر الخافي والمستخفي بالليل والمعقبات التي لا تراها الأنظار . فاختر اللفظ الذي يؤدي معنى التقابل مع المستخفي ولكن في لين ولطف وشبه خفاء !

« له معقبات من بين يديه ومن خلفه - يحفظونه - من أمر الله » ..

والحفظة التي تتعقب كل إنسان ، وتحفظ كل شاردة وكل واردة وكل خاطرة وكل خالجة ، والتي هي من أمر الله ، لا يتعرض لها السياق هنا بوصف ولا تعريف . أكثر من أنها .. « من أمر الله » .. فلا نتعرض نحن لها : ما هي ؟ وما صفاتها ؟ وكيف تتعقب ؟ وأين تكون ؟ ولا نذهب بجو الخفاء والرهبة والتعقب الذي يسبغه السياق . فذلك هو المقصود هنا ؛ وقد جاء التعبير بقدره ؛ ولم يجيء هكذا جزافاً ؛ وكل من له ذوق بأجواء التعبير يشفق من أن يشوه هذا الجو الغامض بالكشف والتفصيل !

« إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » ..

فهو يتعقبهم بالحفظة من أمره لمراقبة ما يحدثونه من تغيير بأنفسهم وأحوالهم فيرتب عليه الله تصرفه بهم . فإنه لا يغير نعمة أو بؤسى ، ولا يغير عزاً أو ذلة ، ولا يغير مكانة أو مهانة ... إلا أن يغير الناس من مشاعرهم وأعمالهم وواقع حياتهم ، فيغير الله ما بهم وفق ما صارت إليه نفوسهم وأعمالهم . وإن كان الله يعلم ما سيكون منهم قبل أن يكون . ولكن ما يقع عليهم يترتب على ما يكون منهم ، ويجيء لاحقاً له في الزمان بالقياس إليهم .

وإنها لحقيقة تلقي على البشر تبعة ثقيلة ؛ فقد قضت مشيئة الله وجرت بها سنته ، أن ترتب مشيئة الله بالبشر على تصرف هؤلاء البشر ؛ وأن تنفذ فيهم سنته بناء على تعرضهم لهذه السنة بسلوكهم . والنص صريح في هذا لا يحتمل التأويل . وهو يحمل كذلك - إلى جانب التبعة - دليل التكريم لهذا المخلوق الذي اقتضت مشيئة

الله ، أن يكون هو بعمله أداة التنفيذ لمشيئة الله فيه .

وبعد تقرير المبدأ يبرز السياق حالة تغيير الله ما يقوم إلى السوء ؛ لأنهم - حسب المفهوم من الآية - غيروا ما بأنفسهم إلى أسوأ فأراد لهم الله السوء :

« وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال .. »

يبرز السياق هذا الجانب هنا دون الجانب الآخر لأنه في معرض الذين يستعجلون بالسيئة قبل الحسنه . وقد قدم لهم هناك المغفرة على العذاب ليبرز غفلتهم ، وهو هنا يبرز العاقبة السوأى وحدها لإنذارهم حيث لا يرد عذاب الله عنهم - إذا استحقوه بما في أنفسهم - ولا يعصمهم منه وال ينصرهم ..

* * *

ثم يأخذ السياق في جولة جديدة في واد آخر ، موصول بذلك الوادي الذي كنا فيه . واد تجتمع فيه مناظر الطبيعة ومشاعر النفس ، متداخلة متناسقة في الصورة والظل والإيقاع . وتخيم عليه الرهبة والضرعة والجهد والإشفاق . وتظل النفس فيه في ترقب وحذر ، وفي تأثر وانفعال :

« هو الذي يريكم البرق . خوفاً وطمعاً . وينشئ السحاب الثقيل . ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته . ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء ، وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال . له دعوة الحق ، والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه ، وما هو ببالغه ، وما دعاء الكافرين إلا في ضلال . والله يسجد من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً ، وظلالهم ، بالغدو والآصال . قل : من رب السماوات والأرض ؟ قل : الله . قل : أفأنتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً ؟ قل : هل يستوي الأعمى والبصير . أم هل تستوي الظلمات والنور ؟ أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ؟ قل : الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار .. »

والبرق والرعد والسحاب مشاهد معروفة ، وكذلك الصواعق التي تصاحبها في بعض الأحيان . وهي بذاتها مشاهد ذات أثر في النفس - سواء عند الذين يعرفون الكثير عن طبيعتها والذين لا يعرفون عن الله شيئاً ! والسياق يحشدنا هنا ؛ ويضيف إليها الملائكة والظلال والتسبيح والسجود والخوف والطمع ، والدعاء الحق والدعاء الذي لا يستجاب . ويضم إليها هيئة أخرى : هيئة ملهوف يتطلب الماء ، باسطاً كفيه ليبلغه ، فاتحاً فاه يتلقف منه قطرة ..

هذه كلها لا تتجمع في النص اتفاقاً أو جزافاً . إنما تتجمع لتلقي كلها ظلها على المشهد ، وتلفه في جو من الرهبة والترقب ، والخوف والطمع ، والضرعة والارتجاف ، في سياق تصوير سلطان الله المتفرد بالقهر والنفع والضر ، نفيًا للشركاء المدعاة ، وإرهاباً من عقبي الشرك بالله .

« هو الذي يريكم البرق . خوفاً وطمعاً . » ..

هو الله الذي يريكم هذه الظاهرة الكونية ، فهي ناشئة من طبيعة الكون التي خلقها هو على هذا النحو الخاص ، وجعل لها خصائصها وظواهرها . ومنها البرق الذي يريكم إياه وفق ناموسه ، فتخافونه لأنه بذاته يهز الأعصاب ، ولأنه قد يتحول إلى صاعقة ، ولأنه قد يكون نذيراً بسيل مدمر كما علمتكم تجاربكم . وتطمعون في الخير من ورائه ، فقد يعقبه المطر المدرار المحيي للموات ، المجري للأنهار .

« وينشئ السحاب الثقيل .. »

وهو كذلك الذي ينشئ السحاب - والسحاب اسم جنس واحده سحابة - الثقال بالماء . فوفق ناموسه في خلقه هذا الكون وتركيبه تتكون السحب ، وتهطل الأمطار . ولو لم يجعل خلقه الكون على هذا النحو ما تكونت سحب ولا هطلت أمطار . ومعرفة كيف تتكون السحب ، وكيفية هطول الأمطار لا تفقد هذه الظاهرة الكونية شيئاً من روعتها ، ولا شيئاً من دلالتها . فهي تتكون وفق تركيب كوني خاص لم يصنعه أحد إلا الله . ووفق ناموس معين يحكم هذا التركيب لم يشترك في سنه أحد من عبيد الله ! كما أن هذا الكون لم يخلق نفسه ، ولا هو الذي ركب في ذاته ناموسه !

والرعد .. الظاهرة الثالثة لجو المطر والبرق والرعد .. هذا الصوت المرقع المدوي . إنه أثر من آثار الناموس الكوني ، الذي صنعه الله - أياً كانت طبيعته وأسبابه - فهو رجع صنع الله في هذا الكون ، فهو حمد وتسيح بالقدرة التي صاغت هذا النظام . كما أن كل مصنوع جميل متقن يسبح ويعلم عن حمد الصانع والثناء عليه بما يحمله من آثار صنعته من جمال وإتقان .. وقد يكون المدلول المباشر للفظ يسبح هو المقصود فعلاً ، ويكون الرعد « يسبح » فعلاً بحمد الله . فهذا الغيب الذي زواه الله عن البشر لا بد أن يتلقاه البشر بالتصديق والتسليم وهم لا يعلمون من أمر هذا الكون ولا من أمر أنفسهم إلا القليل !

وقد اختار التعبير أن ينص على تسيح الرعد بالحمد اتباعاً لمنهج التصوير القرآني في مثل هذا السياق ، وخلع سمات الحياة وحركاتها على مشاهد الكون الصامتة لتشارك في المشهد بحركة من جنس حركة المشهد كله - كما فصلت هذا في كتاب التصوير الفني في القرآن - والمشهد هنا مشهد أحياء في جو طبيعي . وفيه الملائكة تسبح من خيفته ، وفيه دعاء لله ، ودعاء للشركاء . وفيه باسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه .. ففي وسط هذا المشهد الداعي العابد المتحرك اشترك الرعد ككائن حي بصوته في التسيح والدعاء ..

ثم يكمل جو الرهبة والابتهاال والبرق والرعد والسحاب الثقال .. بالصواعق يرسلها فيصيب بها من يشاء . والصواعق ظاهرة طبيعية ناشئة من تركيب الكون على هذا المنوال ؛ والله يصيب بها أحياناً من غير واما بأنفسهم واقتضت حكمته ألا يمهلهم ، لعلمه أن لا خير في إمهالهم ، فاستحقوا الهلاك ..

والعجيب أنه في هول البرق والرعد والصواعق ، وفي زحمة تسيح الرعد بحمده والملائكة من خيفته وزجرجة العواصف بغضبه .. في هذا الهول ترتفع أصوات بشرية بالجلد في الله صاحب كل هذه القوى وباعث كل هذه الأصوات التي ترتفع على كل جدال وكل محال :

« وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال » !

وهكذا تضع أصواتهم الضعيفة في غمرة هذا الهول المتجاوب بالدعاء والابتهاال والرعد والقرقعة والصواعق ، الناطقة كلها بوجود الله - الذي يجادلون فيه - وبوحدانيته واتجاه التسيح والحمد إليه وحده من أضخم مجالي الكون الهائل ، ومن الملائكة الذين يسبحون من خيفته (وللخوف إيقاعه في هذا المجال) فأين من هذا كله أصوات الضعاف من البشر وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال !؟

وهم يجادلون في الله وينسبون إليه شركاء يدعونهم معه . ودعوة الله هي وحدها الحق ؛ وما عداها باطل ذاهب ، لا ينال صاحبه منه إلا العناء :

« له دعوة الحق ، والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء ، إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه ، وما دعاء الكافرين إلا في ضلال » ..

والمشهد هنا ناطق متحرك جاهد لاهف .. فدعوة واحدة هي الحق ، وهي التي تحق ، وهي التي تستجاب .

إنها دعوة الله والتوجه إليه والاعتماد عليه وطلب عونه ورحمته وهداه . وما عداها باطل وما عداها ضائع وما عداها هباء .. ألا ترون حال الداعين لغيره من الشركاء ؟ انظروا هذا واحد منهم . ملهوف ظمآن يمد ذراعيه وييسط كفيه . وفمه مفتوح يلهث بالدعاء . يطلب الماء ليلبغ فاه فلا يلبغه . وما هو ببالغه . بعد الجهد واللهفة والعناء . وكذلك دعاء الكافرين بالله الواحد حين يدعون الشركاء :

« وما دعاء الكافرين إلا في ضلال » .

وفي أي جو لا يبلغ هذا الداعي اللاهث اللاهث قطرة من ماء ؟ في جو البرق والرعد والسحاب الثقيل ، التي تجري هناك بأمر الله الواحد القهار !

وفي الوقت الذي يتخذ هؤلاء الخائبون آلهة من دون الله ، ويتوجهون إليهم بالرجاء والدعاء ، إذا كل من في الكون يعنو لله . وكلهم محكومون بإرادته ، خاضعون لسنته ، مسيرون وفق ناموسه . المؤمن منهم يخضع طاعة وإيماناً ، وغير المؤمن يخضع أخذاً وإرغاماً ، فما يملك أحد أن يخرج على إرادة الله ، ولا أن يعيش خارج ناموسه الذي سنه للحياة :

« والله يسجد من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً ، وظالمهم ، بالغدو والآصال » ..

ولأن الجو جو عبادة ودعاء ، فإن السياق يعبر عن الخضوع لمشيئة الله بالسجود وهو أقصى رمز للعبودية ، ثم يضم إلى شخوص من في السماوات والأرض ، ظالمهم كذلك . ظالمهم بالغدو في الصباح ، وبالآصال عند انكسار الأشعة وامتداد الظلال . يضم هذه الظلال إلى الشخوص في السجود والخضوع والامتثال . وهي في ذاتها حقيقة ، فالظلال تبع للشخوص . ثم تلقي هذه الحقيقة ظلها على المشهد ، فإذا هو عجب . وإذا السجود مزدوج : شخوص وظلال ! وإذا الكون كله بما فيه من شخوص وظلال جاثية خاضعة عن طريق الإيمان أو غير الإيمان سواء . كلها تسجد لله .. وأولئك الخائبون يدعون آلهة من دون الله !

وفي جو هذا المشهد العجيب يتوجه إليهم بالأسئلة التهكمية . فما يجدر بالشرك بالله في مثل هذا الجو إلا التهكم ، وما يستحق إلا السخرية والاستهزاء :

« قل : من رب السماوات والأرض ؟ قل : الله . قل : أفأنتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً ؟ قل : هل يستوي الأعمى والبصير ؟ أم هل تستوي الظلمات والنور ؟ أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ؟ قل : الله خالق كل شيء ، وهو الواحد القهار » ..

سلمهم - وكل من في السماوات والأرض مأخوذ بقدرة الله وإرادته - رضي أم كره - : « من رب السماوات والأرض ؟ » .. وهو سؤال لا ليجيبوا عنه ، فقد أجاب السياق من قبل . إنما ليسمعوا الجواب ملفوظاً وقد رأوه مشهوداً : « قل : الله » .. ثم سلمهم : « أفأنتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً ؟ » .. سلمهم للاستنكار فهم بالفعل قد اتخذوا أولئك الأولياء . سلمهم والقضية واضحة ، والفرق بين الحق والباطل واضح : وضوح الفارق بين الأعمى والبصير ، وبين الظلمات والنور . وفي ذكر الأعمى والبصير إشارة إليهم وإلى المؤمنين ؛ فالعمى وحده هو الذي يصدمهم عن رؤية الحق الواضح الجاهر الذي يحس بأثره كل من في السماوات والأرض . وفي ذكر الظلمات والنور إشارة إلى حالهم وحال المؤمنين ، فالظلمات التي تحجب الرؤية هي التي تلفهم وتكفهم عن الإدراك للحق المبين .

أم ترى هؤلاء الشركاء الذين اتخذوهم من دون الله ، خلقوا مخلوقات كالتي خلقها الله . فتشابهت على القوم هذه المخلوقات وتلك ، فلم يدروا أيها من خلق الله وأيها من خلق الشركاء ؟ فهم معذورون إذن إن

كان الأمر كذلك ، في اتخاذ الشركاء ، فلهم من صفات الله تلك القدرة على الخلق ، التي بها يستحق المعبود العبادة ؛ وبدونها لا تقوم شبهة في عدم استحقاقه !

وهو التهكم المر على القوم يرون كل شيء من خلق الله ، ويرون هذه الآلهة المدعاة لم تخلق شيئاً ، وما هي بخالفة شيئاً ، إنما هي مخلوقة . وبعد هذا كله يعبدونها ويدنون لها في غير شبهة . وذلك أسخف وأحط ما تصل العقول إلى دركه من التفكير ..

والتعقيب على هذا التهكم اللاذع ، حيث لا معارضة ولا جدال ، بعد هذا السؤال :

« قل : الله خالق كل شيء . وهو الواحد القهار » ..

فهي الوجدانية في الخلق ، وهي الوجدانية في القهر - أقصى درجات السلطان - وهكذا تحاط قضية الشركاء في مطلعها بسجود من في السماوات والأرض وظلالهم طوعاً وكرهاً لله ؛ وفي ختامها بالقهر الذي يخضع له كل شيء في الأرض أو في السماء .. وقد سبقته من قبل بروق ورجوع وصواعق وتسيح وتحميد عن خوف أو طمع .. فأين القلب الذي يصمد لهذا الهول ، إلا أن يكون أعمى مطموساً يعيش في الظلمات ، حتى يأخذه الهلاك !؟

وقبل أن نغادر هذا الوادي نشير إلى التقابلات الملحوظة في طريقة الأداء . بين « خوفاً وطمعاً » وبين البرق الخاطف والسحاب الثقيل - و« الثقال » هنا ، بعد إشارتها إلى الماء ، تشارك في صفة التقابل مع البرق الخفيف الخاطف - وبين تسيح الرعد بحمده وتسيح الملائكة من خيفته . وبين دعوة الحق ودعوة الجهد الضائع . وبين السماوات والأرض ، وسجود من فيهن طوعاً وكرهاً . وبين الشخوص والظلال . وبين الغدو والآصال . وبين الأعمى والبصير . وبين الظلمات والنور . وبين الخالق القاهر والشركاء الذين لا يخلقون شيئاً ، ولا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً ... وهكذا يمضي السياق على نهجه في دقة ملحوظة ولألاء باهر وتنسيق عجيب .

* * *

ثم نمضي مع السياق . يضرب مثلاً للحق والباطل . للدعوة الباقية والدعوة الذاهبة مع الريح . للخير الهادئ والشر المتفنج . والمثل المضروب هنا مظهر لقوة الله الواحد القهار . ولتدبير الخالق المدبر المقدر للأشياء . وهو من جنس المشاهد الطبيعية التي يمتضي في جوها السياق .

« أنزل من السماء ماء ، فسالت أودية بقدرها . فاحتمل السيل زبداً رابياً : وما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله . كذلك يضرب الله الحق والباطل . فأما الزبد فيذهب جفاً ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض . كذلك يضرب الله الأمثال » ..

وإنزال الماء من السماء حتى تسيل به الوديان يتناسق مع جو البرق والرعد والسحاب الثقيل في المشهد السابق ؛ ويؤلف جانباً من المشهد الكوني العام ، الذي تجري في جوه قضايا السورة وموضوعاتها . وهو كذلك يشهد بقدرة الواحد القهار .. وأن تسيل هذه الأودية بقدرها ، كل بحسبه ، وكل بمقدار طاقته ومقدار حاجته يشهد بتدبير الخالق وتقديره لكل شيء .. وهي إحدى القضايا التي تعالجها السورة .. وليس هذا أو ذلك بعد إلا إطاراً للمثل الذي يريد الله ليضربه للناس من مشهود حياتهم الذي يمررون عليه دون انتباه .

إن الماء لينزل من السماء فتسيل به الأودية ، وهو يلم في طريقه غطاءً ، فيطفو على وجهه في صورة الزبد

حتى ليحجب الزبد الماء في بعض الأحيان . هذا الزبد نافس راب منتفخ .. ولكنه بعد غناء . والماء من تحته سارب ساكن هادئ .. ولكنه هو الماء الذي يحمل الخير والحياة .. كذلك يقع في المعادن التي تذاب لتصاغ منها حلية كالذهب والفضة ، أو آنية أو آلة نافعة للحياة كالحديد والرصاص ، فإن الخبث يطفو وقد يحجب المعدن الأصيل . ولكنه بعدُ خبثٌ يذهب ويبقى المعدن في نقاء ..

ذلك مثل الحق والباطل في هذه الحياة . فالباطل يطفو ويعلو وينتفخ ويبدو رايباً طافياً ولكنه بعدُ زبد أو خبث ، ما يلبث أن يذهب جفاء مطروحاً لا حقيقة له ولا تماسك فيه . والحق يظل هادئاً ساكناً . وربما يحسبه بعضهم قد انزوى أو غار أو ضاع أو مات . ولكنه هو الباقي في الأرض كالماء المحي والمعدن الصريح ، ينفع الناس . « كذلك يضرب الله الأمثال » وكذلك يقرر مصائر الدعوات ، ومصائر الاعتقادات . ومصائر الأعمال والأقوال . وهو الله الواحد القهار ، المدبر للكون والحياة ، العليم بالظاهر والباطن ، والحق والباطل والباقي والزائل .

فن استجاب لله فله الحسنى . والذين لم يستجيبوا له يلاقون من الهول ما يود أحدهم لو ملك ما في الأرض ومثله معه أن يفتدى به . وما هو بمفتد ، إنما هو الحساب الذي يسوء ، وإنما هي جهنم لهم مهاد . وبإساءة المهاد ! :

« للذين استجابوا لربهم الحسنى ، والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به ، أولئك لهم سوء الحساب ، ومأواهم جهنم . وبئس المهاد » ..
ويتقابل الذين يستجيبون مع الذين لا يستجيبون . وتتقابل الحسنى مع سوء العذاب ..
ومع جهنم وبئس المهاد .. على منهج السورة كلها وطريقها المطردة في الأداء ..

* أَفَن يَعْلمُ أَنَّمَا أَنْزَلْ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾ الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشُونَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾ جَنَّتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٥﴾ سَلَّمَ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٧﴾ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ

إِلَّا مَنَعٌ ﴿٢٨﴾

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ۗ قُلْ إِنْ أَلَّفَ اللَّهُ بَعْضَ أُمِّمَاتِكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِيُتِلَّ عَلَيْهِمْ كِتَابٌ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ لَافْتِنًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا ۗ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا مِنْ أَلْفِ عَذَابٍ ۗ لَمْ يَأْتِ اللَّهُ بِآيَةٍ تَبْلُغُ الْكَافِرِينَ إِلَىٰ يَوْمِ الْحِسَابِ ۗ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحَسَنُ مَقَابِرُهُمْ ۗ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِيَتْلُوا عَلَيْهِمُ الْآيَاتِ الْبَارِيَّةَ ۗ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِعِي ۗ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَةٌ بِهِ الْعَمَلُ بَلِ اللَّهُ الْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَأْتِصِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِعَادَ ۗ وَلَقَدْ أَسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلِنَا مِنْ قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۗ

أَفَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنِدُّونَهُمْ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَبْظُرُونَ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ ۗ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ۗ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۗ وَالْعَذَابُ الْأٰخِرَةُ أَشَقُّ ۗ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ۗ * مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ ۗ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۗ كُلُّهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ۗ تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ۗ

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ۗ وَمَنْ آمَنَ مِنْكُمْ وَعَمِلَ الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَلَنُؤْتِيَنَّهُ أَجْرًا عَظِيمًا ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ غَوًى ۗ لَنُؤْتِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَنُؤْتِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَنُؤْتِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَنُؤْتِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۗ

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ۗ وَمَا كَانَ لِرُسُلِنَا أَنْ يَأْتِيَ بِعَايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ۗ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُنَبِّئُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ۗ وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْدُهُمْ أَوْ تُتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ۗ

أُولَئِكَ يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۗ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لِمَنْ يَشَاءُ ۗ وَهُوَ سَرِيعٌ

الْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسِعَعِلْمُ الْكُفْرِ لَعِينِ
عُقْبَىٰ الدَّارِ ﴿٤٢﴾

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسَتْ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾

بعد المشاهد الهائلة في آفاق الكون وفي أعماق الغيب ، وفي أغوار النفس التي استعرضها شطر السورة الأولى ، يأخذ الشطر الثاني في لمسات وجدانية وعقلية ، وتصويرية دقيقة رقيقة ، حول قضية الوحي والرسالة ، وقضية التوحيد والشركاء ، ومسألة طلب الآيات واستعجال تأويل الوعيد .. وهي جولة جديدة حول تلك القضايا في السورة .

وتبدأ هذه الجولة بلمسة في طبيعة الإيمان وطبيعة الكفر ، فالأول علم والثاني عمى . وفي طبيعة المؤمنين وطبيعة الكافرين والصفات المميزة لهؤلاء وهؤلاء . يتلوها مشهد من مشاهد القيامة ، وما فيها من نعيم للأولين ومن عذاب للآخرين . فلمسة في بسط الرزق وتقديره وردها إلى الله . فجولة مع القلوب المؤمنة المطمئنة بذكر الله . فوصف لهذا القرآن الذي يكاد يسير الجبال وتقطع به الأرض ويكلم به الموتى . فلمسة بما يصيب الكفار من قوارع تنزل بهم أو تحل قريباً من دارهم . فجدل تهكمي حول الآلهة المدعاة . فلمسة من مصارع الغابرين ونقص أطراف الأرض منهم حيناً بعد حين . يختم هذا كله بتهديد الذين يكذبون برسالة الرسول - صلى الله عليه وسلم - بتركهم للمصير المعلوم !

من ذلك نرى أن الإيقاعات والمطارق المتوالية في شطر السورة الأولى ، تحضر المشاعر وتهيئها لمواجهة القضايا والمسائل في شطرها الثاني ، وهي على استعداد وتفتح لتلقيها ؛ وأن شطري السورة متكاملان ؛ وكل منهما يوقع على الحس طرقاته وإيحاءاته لهدف واحد وقضية واحدة .

* * *

والقضية الأولى هي قضية الوحي . وقد أثيرت في صدر السورة . وهي تثار هنا مرة أخرى على نسق جديد .. « أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ؟ إنما يتذكر أولو الألباب » .. إن المقابل لمن يعلم أن أنزل إليك من ربك هو الحق ليس هو من لا يعلم هذا ، إنما المقابل هو الأعمى ! وهو أسلوب عجيب في لمس القلوب وتجسيم الفروق . وهو الحق في الوقت ذاته لا مبالغة فيه ولا زيادة ولا تحريف . فالعمى وحده هو الذي ينشئ الجهل بهذه الحقيقة الكبرى الواضحة التي لا تخفى إلا على أعمى . والناس إزاء هذه الحقيقة الكبيرة صنفان : مبصرون فهم يعلمون ، وعمى فهم لا يعلمون ! والعمى عمى البصيرة ، وانطماس المدارك ، واستغلاق القلوب ، وانطفاء قبس المعرفة في الأرواح ، وانفصالها عن مصدر الإشعاع ..

« إنما يتذكر أولو الألباب » ..

الذين لهم عقول وقلوب مدركة تذكر بالحق فتتذكر ، وتنبه إلى دلائله فتتفكر .
وهذه صفات أولي الألباب هؤلاء :

« الذين يوفون بعهد الله ، ولا ينقضون الميثاق » ..

وعهد الله مطلق يشمل كل عهد ، وميثاق الله مطلق يشمل كل ميثاق . والعهد الأكبر الذي تقوم عليه العهود كلها هو عهد الإيمان ؛ والميثاق الأكبر الذي تتجمع عليه المواثيق كلها هو ميثاق الوفاء بمقتضيات هذا الإيمان .

وعهد الإيمان قديم وجديد . قديم مع الفطرة البشرية المتصلة بناموس الوجود كله ؛ المدركة إدراكاً مباشراً لوحدة الإرادة التي صدر عنها الوجود ، ووحدة الخالق صاحب الإرادة ، وأنه وحده المعبود . وهو الميثاق المأخوذ على الذرية في ظهور بني آدم فيما ارتضيناه لها من تفسير .. ثم هو جديد مع الرسل الذين بعثهم الله لا لينشئوا عهد الإيمان ولكن ليجددوه ويذكروا به ويفصلوه ، ويبينوا مقتضياته من الدينونة لله وحده والانخلاع من الدينونة لسواه ، مع العمل الصالح والسلوك القويم ، والتوجه به إلى الله وحده صاحب الميثاق القديم ..

ثم تترتب على العهد الإلهي والميثاق الرباني كل العهود والمواثيق مع البشر . سواء مع الرسول أو مع الناس . ذوي قرابة أو أجناب . أفراداً أم جماعات . فالذي يرعى العهد الأول يرعى سائر العهود ، لأن رعايتها فريضة ؛ والذي ينهض بتكاليف الميثاق الأول يؤدي كل ما هو مطلوب منه للناس ، لأن هذا داخل في تكاليف الميثاق .

فهي القاعدة الضخمة الأولى التي يقوم عليها بنيان الحياة كله . يقررها في كلمات .

« والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ، ويحشون ربهم ، ويخافون سوء الحساب » ..

هكذا في إجمال . فكل ما أمر الله به أن يوصل يصلونه . أي أنها الطاعة الكاملة والاستقامة الواصلة ، والسير على السنة ووفق الناموس بلا انحراف ولا التواء . لهذا ترك الأمر مجملاً ، ولم يفصل مفردات ما أمر الله به أن يوصل ، لأن هذا التفصيل يطول ، وهو غير مقصود ، إنما المقصود هو تصوير الاستقامة المطلقة التي لا تلتوي ، والطاعة المطلقة التي لا تنفلت ، والصلة المطلقة التي لا تنقطع .. ويلمح عجز الآية إلى الشعور المصاحب في نفوسهم لهذه الطاعة الكاملة :

« ويحشون ربهم ويخافون سوء الحساب » ..

فهي خشية الله ومخافة العقاب الذي يسوء في يوم لقائه الرهيب . وهم أولو الألباب الذين يتدبرون الحساب قبل يوم الحساب .

« والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم » ..

والصبر ألوان . وللصبر مقتضيات . صبر على تكاليف الميثاق . من عمل وجهاد ودعوة واجتهاد ... الخ وصبر على النعماء والبأساء . وقل من يصبر على النعمة فلا يبتر ولا يكفر . وصبر على حماقات الناس وجهالاتهم وهي تضيق الصدور .. وصبر وصبر وصبر .. كله ابتغاء وجه ربهم ، لا تحرجاً من أن يقول الناس : جددوا . ولا تجملاً ليقول الناس : صبروا . ولا رجاء في نفع من وراء الصبر . ولا دفعاً لضر يأتي به الجزع . ولا لهدف واحد غير ابتغاء وجه الله ، والصبر على نعمته وبلواه . صبر التسليم لقضائه والاستسلام لمشيئته والرضى والاقتران ..

« وأقاموا الصلاة » ..

وهي داخلة في الوفاء بعهد الله وميثاقه ، ولكنه يبرزها لأنها الركن الأول لهذا الوفاء ، ولأنها مظهر التوجه الخالص الكامل لله ، ولأنها الصلة الظاهرة بين العبد والرب ، الخالصة له ليس فيها من حركة ولا كلمة لسواه .
« وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية » ..

وهي داخلة في وصل ما أمر الله به أن يوصل ، وفي الوفاء بتكاليف الميثاق . ولكنه يبرزها لأنها الصلة بين عباد الله ، التي تجمعهم في الله وهم في نطاق الحياة . والتي تزكي نفس معطيها من البخل ، وتزكي نفس آخذها من الغل ؛ وتجعل الحياة في المجتمع المسلم لائقة بالبشر المتعاونين المتضامنين الكرام على الله . والإنفاق سراً وعلانية . السر حيث تصان الكرامة وتطلب المروءة ، وتخرج النفس من الإعلان . والعلانية حيث تطلب الأسوة ، وتنفذ الشريعة ، ويطاع القانون . ولكل موضعه في الحياة .
« ويدرأون بالحسنة السيئة » ..

والمقصود أنهم يقابلون السيئة بالحسنة في التعاملات اليومية لا في دين الله . ولكن التعبير يتجاوز المقدمة إلى النتيجة . فمقابلة السيئة بالحسنة تكسر شرة النفوس ، وتوجهها إلى الخير ؛ وتطفئ جذوة الشر ، وترد نزع الشيطان ، ومن ثم تدرأ السيئة وتدفعها في النهاية . فعجل النص بهذه النهاية وصدر بها الآية ترغيباً في مقابلة السيئة بالحسنة وطلباً لنتيجتها المرتقبة ..

ثم هي إشارة خفية إلى مقابلة السيئة بالحسنة عندما يكون في هذا درء السيئة ودفعها لا إطماعها واستعلاؤها ! فأما حين تحتاج السيئة إلى القمع ، ويحتاج الشر إلى الدفع ، فلا مكان لمقابلتها بالحسنة ، لثلا ينتفش الشر ويتجرأ ويستعلي .

ودرء السيئة بالحسنة يكون غالباً في المعاملة الشخصية بين المتماثلين . فأما في دين الله فلا .. إن المستعلي الغاشم لا يجدي معه إلا الدفع الصارم . والمفسدون في الأرض لا يجدي معهم إلا الأخذ الحاسم . والتوجيهات القرآنية متروكة لتدبير المواقف ، واستشارة الألباب ، والتصرف بما يرجح أنه الخير والصواب .

« أولئك لهم عقبي الدار : جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ؛ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب . سلام عليكم بما صبرتم ، فنعم عقبي الدار » ..

« أولئك » في مقامهم العالي لهم عقبي الدار : جنات عدن للإقامة والقرار . في هذه الجنات يأتلف شملهم مع الصالحين من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم . وهؤلاء يدخلون الجنة بصلاحهم واستحقاقهم . ولكنهم يكرمون بتجمع شئاتهم ، وتلاقي أحبابهم ، وهي لذة أخرى تضاعف لذة الشعور بالجنان .

وفي جو التجمع والتلاقي يشترك الملائكة في التأهيل والتكريم ، في حركة رائحة غادية :

« يدخلون عليهم من كل باب » ..

ويدعنا السياق نرى المشهد حاضراً وكأنما نشهده ونسمع الملائكة أطوافاً أطوافاً :

« سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبي الدار » ..

فهو مهرجان حافل باللقاء والسلام والحركة الدائبة والإكرام .

وعلى الضفة الأخرى أولئك الذين لا ألباب لهم فيتذكروا . ولا بصيرة لهم فيبصروا . وهم على النقيض في كل شيء مع أولي الألباب :

« والذين يتقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ، ويفسدون في الأرض . أولئك لهم اللعنة ، ولهم سوء الدار » ..

إنهم يتقضون عهد الله المأخوذ على القطرة في صورة الناموس الأزلي ؛ ويتقضون من بعده كل عهد ، فتى نقض العهد الأول فكل عهد قائم عليه منقوض من الأساس . والذي لا يرضى الله لا يبقى على عهد ولا ميثاق . ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل على وجه العموم والإطلاق . ويفسدون في الأرض في مقابل صبر أولئك وإقامتهم للصلاة وإنفاقهم سرأً وعلانية ودرء السيئة بالحسنة . فالإفساد في الأرض يقابل هذا كله ، وترك شيء من هذا كله إنما هو إفساد أو دافع إلى الإفساد .

« أولئك » .. المبعدون المطرودون « لهم اللعنة » والطرود في مقابل التكريم هناك « ولهم سوء الدار » ولا حاجة إلى ذكرها ، فقد عرفت بمقابلها هناك !

أولئك فرحوا بالحياة الدنيا ومتاعها الزائل فلم يتطلعوا إلى الآخرة ونعيمها المقيم . مع أن الله هو الذي يقدر الرزق فيوسع فيه أو يضيق فالأمر كله إليه في الأولى والآخرة على السواء . ولو ابتغوا الآخرة ما حرمهم الله متاع الأرض ، وهو الذي أعطاهم إياه :

« الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر . وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع » ..

* * *

ولقد سبقت الإشارة إلى الفارق الضخم بين من يعلم أن ما أنزل إلى الرسول من ربه هو الحق ، ومن هو أعمى . فالآن يحكي السياق شيئاً عن العمى الذين لا يرون آيات الله في الكون ، والذين لا يكفهم هذا القرآن ، فإذا هم يطلبون آية . وقد حكى السياق شيئاً كهذا في شطر السورة الأول ، وعقب عليه بأن الرسول ليس إلا منذراً والآيات عند الله . وهو الآن يحكيه ويعقب عليه ببيان أسباب الهدى وأسباب الضلال . ويضع إلى جواره صورة القلوب المطمئنة بذكر الله ، لا تقلق ولا تطلب خوارق لتؤمن وهذا القرآن بين أيديها . هذا القرآن العميق التأثير ، حتى لتكاد تسير به الجبال وتقطع به الأرض ، ويكلم به الموتى لما فيه من سلطان وقوة ودفعة وحيوية . وينهى الحديث عن هؤلاء الذين يتطلبون القوارع والخوارق بتأسيس المؤمنين منهم ، وتوجيههم إلى المثالات من قبلهم ، وإلى ما يحل بالمكذبين من حولهم بين الحين والحين :

« ويقول الذين كفروا : لولا أنزل عليه آية من ربه ! قل : إن الله يضل من يشاء ، ويهدي إليه من أناب : الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله . ألا بذكر الله تطمئن القلوب . الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب .

« كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهم الذي أوحينا إليك ، وهم يكفرون بالرحمن . قل : هو ربي لا إله إلا هو عليه توكلت ، وإليه متاب .

« ولو أن قرآنًا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى . بل لله الأمر جميعاً . أفلم يئأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً . ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريباً من دارهم حتى يأتي وعد الله . إن الله لا يخلف الميعاد . ولقد استهزئ برسلك من قبلك ، فأملت للذين كفروا ثم أخذتهم . فكيف كان عقاب ؟ » ..

إن الرد على طلبهم آية خارقة ، أن الآيات ليست هي التي تقود الناس إلى الإيمان ، فلإيمان دواعيه الأصيلة في النفوس ، وأسبابه المؤدية إليه من فعل هذه النفوس :

« قل : إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب » ..

فالله يهدي من ينيون إليه . فالإجابة إلى الله هي التي جعلتهم أهلاً لهده . والمفهوم إذن أن الذين لا ينيون هم الذين يستأهلون الضلال ، فيضلهم الله . فهو استعداد القلب للهدى وسعيه إليه وطلبه ، أما القلوب التي لا تتحرك إليه فهو عنها بعيد ..

ثم يرسم صورة شفيفة للقلوب المؤمنة . في جو من الطمأنينة والأنس والبشاشة والسلام :

« الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله » ..

تطمئن بإحساسها بالصلة بالله ، والأنس بجواره ، والأمن في جانبه وفي حماه . تطمئن من قلق الوحدة ، وحيرة الطريق . بإدراك الحكمة في الخلق والمبدأ والمصير . وتطمئن بالشعور بالحماية من كل اعتداء ومن كل ضرر ومن كل شر إلا بما يشاء ، مع الرضى بالابتلاء والصبر على البلاء . وتطمئن برحمته في الهداية والرزق والستر في الدنيا والآخرة :

« ألا بذكر الله تطمئن القلوب » ..

ذلك الاطمئنان بذكر الله في قلوب المؤمنين حقيقة عميقة يعرفها الذين خالطت بشاشة الإيمان قلوبهم ، فاتصلت بالله . يعرفونها ، ولا يملكون بالكلمات أن ينقلوها إلى الآخرين الذين لم يعرفوها ، لأنها لا تنقل بالكلمات ، إنما تسري في القلب فيستر وحها ويهش لها ويندى بها ويستريح إليها ويستشعر الطمأنينة والسلام ، ويحس أنه في هذا الوجود ليس مفرداً بلا أنيس . فكل ما حوله صديق ، إذ كل ما حوله من صنع الله الذي هو في حماه .

وليس أشقى على وجه هذه الأرض ممن يحرمون طمأنينة الأنس إلى الله . ليس أشقى ممن ينطلق في هذه الأرض مبتوت الصلة بما حوله في الكون ، لأنه انفصم من العروة الوثقى التي تربطه بما حوله في الله خالق الكون . ليس أشقى ممن يعيش لا يدري لم جاء ؟ ولم يذهب ؟ ولم يعاني ما يعاني في الحياة ؟ ليس أشقى ممن يسير في الأرض يوجس من كل شيء خيفة لأنه لا يستشعر الصلة الخفية بينه وبين كل شيء في هذا الوجود . ليس أشقى في الحياة ممن يشق طريقه فريداً وحيداً شارداً في فلاة ، عليه أن يكافح وحده بلا ناصر ولا هاد ولا معين .

وإن هناك للحظات في الحياة لا يصمد لها بشر إلا أن يكون مرتكناً إلى الله ، مطمئناً إلى حماه ، مهما أوتي من القوة والثبات والصلابة والاعتداد .. ففي الحياة لحظات تعصف بهذا كله ، فلا يصمد لها إلا المطمئنون بالله :

« ألا بذكر الله تطمئن القلوب » ..

هوؤلاء النبيون إلى الله ، المطمئنون بذكر الله ، يحسن الله ما بهم عنده ، كما أحسنوا الإجابة إليه وكما أحسنوا العمل في الحياة :

« الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب » ..

طوبى (على وزن كبرى من طاب يطيب) للتفخيم والتعظيم . وحسن مآب إلى الله الذي أنابوا إليه في الحياة ..

أما أولئك الذين يطلبون آية فلم يستشعروا طمأنينة الإيمان فهم في قلق يطلبون الخوارق والمعجزات . ولست أول رسول جاء لقومه بمثل ما جئت به حتى يكون الأمر عليهم غريباً ، فقد خلت من قبلهم الأمم وخلت من قبلهم الرسل . فإذا كفروا هم فلتنمض على نهجك ولتتوكل على الله :

« كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أُمم ، لتتلو عليهم الذي أوحينا إليك ، وهم يكفرون بالرحمن . قل : هو ربي لا إله إلا هو ، عليه توكلت وإليه متاب » ..

والعجيب أنهم يكفرون بالرحمن ، العظيم الرحمة ، الذي تطمئن القلوب بذكره ، واستشعار رحمته الكبرى . وما عليك إلا أن تتلو عليهم الذي أوحينا إليك ، فلهذا أرسلناك . فإن يكفروا فأعلن لهم أن اعتمادك على الله وحده ، وأنتك تائب إليه وراجع ، لا تتجه إلى أحد سواه .

وإنما أرسلناك لتتلو عليهم هذا القرآن . هذا القرآن العجيب ، الذي لو كان من شأن قرآن أن تسير به الجبال أو تقطع به الأرض ، أو يكلم به الموتى ، لكان في هذا القرآن من الخصائص والمؤثرات ، ما تم معه هذه الخوارق والمعجزات . ولكنه جاء لخطاب المكلفين الأحياء . فإذا لم يستجيبوا فقد آن أن يئأس منهم المؤمنون ، وأن يدعوهم حتى يأتي وعد الله للمكذبين :

« ولو أن قرآناً سيرت به الجبال ، أو قطعت به الأرض ، أو كلم به الموتى . بل لله الأمر جميعاً . أفلم يئأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً . ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريباً من دارهم حتى يأتي وعد الله . إن الله لا يخلف الميعاد » ..

ولقد صنع هذا القرآن في النفوس التي تلقته وتكيفت به أكثر من تسيير الجبال وتقطيع الأرض وإحياء الموتى . لقد صنع في هذه النفوس وهذه النفوس خوارق أضخم وأبعد آثاراً في أقدار الحياة ، بل أبعد أثراً في شكل الأرض ذاته . فكم غير الإسلام والمسلمون من وجه الأرض ، إلى جانب ما غيروا من وجه التاريخ ؟!

وإن طبيعة هذا القرآن ذاتها . طبيعته في دعوته وفي تعبيره . طبيعته في موضوعه وفي أدائه . طبيعته في حقيقته وفي تأثيره .. إن طبيعة هذا القرآن لتحتوي على قوة خارقة نافذة ، يحسها كل من له ذوق وبصر وإدراك للكلام ، واستعداد لإدراك ما يوجه إليه ويوحى به . والذين تلقوه وتكيفوا به سيروا ما هو أضخم من الجبال ، وهو تاريخ الأمم والأجيال ؛ وقطعوا ما هو أصلب من الأرض ، وهو جمود الأفكار وجمود التقاليد . وأحيوا ما هو أحمَد من الموتى . وهو الشعوب التي قتل روحها الطغيان والأوهام . والتحول الذي تم في نفوس العرب وحياتهم فنقلهم تلك النقطة الضخمة دون أسباب ظاهرة إلا فعل هذا الكتاب ومنهجه في النفوس والحياة ، أضخم بكثير من تحول الجبال عن رسوخها ، وتحول الأرض عن جمودها ، وتحول الموتى عن الموات !

« بل لله الأمر جميعاً » ..

وهو الذي يختار نوع الحركة وأدائها في كل حال .

فإذا كان قوم بعد هذا القرآن لم تتحرك قلوبهم فما أجدر المؤمنين الذي يحاولون تحريكها أن يئأسوا من القوم ؛ وأن يدعو الأمر لله ، فلو شاء لخلق الناس باستعداد واحد للهدى ، فلهدى الناس جميعاً على نحو

خلقة الملائكة لو كان يريد . أو لقهرهم على الهدى بأمر قدري منه .. ولكن لم يرد هذا ولا ذاك . لأنه خلق هذا الإنسان لمهمة خاصة يعلم سبحانه أنها تقتضي خلقته على هذا النحو الذي كان .

فليدعوهم إذن لأمر الله . وإذا كان الله قد قدر ألا يهلكهم هلاك استئصال في جيل كبعض الأقسام قبلهم ، فإن قارعة من عنده بعد قارعة تنزل بهم فتصيبهم بالضر والكرب ، وتهلك من كتب عليه منهم الهلاك .
« أو تحل قريباً من دارهم » ..

فتروهم وتدعهم في هلق وانتظار لمثلها ؛ وقد تلين بعض القلوب وتحركها وتحببها .
« حتى يأتي وعد الله » ..

الذي أعطاهم إياه ، وأمهلهم إلى انتهاء أجله :

« إن الله لا يخلف الميعاد » ..

فهو آت لا ريب فيه ، فلاقون فيه ما وعدوه .

والأمثلة حاضرة ، وفي مصارع الغابرين عبرة ، بعد الإنظار والإمهال :

« ولقد استهزئ برسلك من قبلك ، فأملت للذين كفروا ثم أخذتهم ، فكيف كان عقاب ؟ » .

وهو سؤال لا يحتاج إلى جواب . فلقد كان عقاباً تتحدث به الأجيال !!!

* * *

والقضية الثانية هي قضية الشركاء . وقد أثبتت في الشطر الأول من السورة كذلك . وهي تثار هنا في سؤال تهكمي حين تقرن هذه الشركاء إلى الله القائم على كل نفس ، المجازي لها بما كسبت في الحياة . وتنتهي هذه الجولة بتصوير العذاب الذي ينتظر المفترين لهذه الفرية في الدنيا والعذاب الأشق في الآخرة . وفي مقابلة ما ينتظر المتقين من أمن وسلام !

« أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ؟ وجعلوا لله شركاء . قل : سموهم . أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض ؟ أم بظاهر من القول ؟ بل زين للذين كفروا مكرهم ، وصدوا عن السبيل ، ومن يضل الله فما له من هاد . لهم عذاب في الحياة الدنيا ، ولعذاب الآخرة أشق ، وما لهم من الله من واق ..

« مثل الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها . تلك عقبي الذين اتقوا . وعقبي الكافرين النار » ..

والله سبحانه رقيب على كل نفس ، مسيطر عليها في كل حال ، عالم بما كسبت في السر والجهر . ولكن التعبير القرآني المصور يشخص الرقابة والسيطرة والعلم في صورة حسية - على طريقة القرآن - صورة ترتعد لها الفرائص :

« أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت » ..

فلتتصور كل نفس أن عليها حارساً قائماً عليها مشرفاً مراقباً يحاسبها بما كسبت . ومن ؟ إنه الله ! فأية نفس لا ترتعد لهذه الصورة وهي في ذاتها حق ، إنما يجسمها التعبير للإدراك البشري الذي يتأثر بالحسيات أكثر مما يتأثر بالتجريدات .

أفذلك كذلك ؟ ثم يجعلون لله شركاء ؟! هنا يبدو تصرفهم مستنكراً مستغرباً في ظل هذا المشهد الشاخص المرهوب .

« وجعلوا لله شركاء » ..

الله القائم على كل نفس بما كسبت ، لا تفلت منه ولا تروغ .
« قل : سموهم » ! فإنهم نكرات مجهولة . وقد تكون لهم أسماء . ولكن التعبير هنا ينزل منزلة النكرات التي لا تعرف أسماؤها .

« أم تبتونونه بما لا يعلم في الأرض ؟ » .. يا للتهكم ! أم إنكم أنتم البشر تعلمون ما لا يعلمه الله ؟ فتعلمون أن هناك آلهة في الأرض ، وغاب هذا عن علم الله ؟! إنها دعوى لا يجروون على تصورها . ومع هذا فهم يقولونها بلسان الحال ، حين يقول الله أن ليست هناك آلهة ، فيدعون وجودها وقد نفاه الله !
« أم بظاهر من القول ؟ » .

تدعون وجودها بكلام سطحي ليس وراءه مدلول . وهل قضية الألوهية من التفاهة والهزل بحيث يتناولها الناس بظاهر من القول ؟!

ويتهي هذا التهكم بالتقرير الجاد الفاصل :

« بل زين للذين كفروا مكرهم وصدوا عن السبيل . ومن يضلل الله فما له من هاد » ..

فالمسألة إذن أن هؤلاء كفروا وسترُوا أدلة الإيمان عنهم وسترُوا نفوسهم عن دلائل الهدى ، فحقت عليهم سنة الله ، وصورت لهم نفوسهم أنهم على صواب ، وأن مكرهم وتديبرهم ضد الدعوة حسن وجميل ، فصدتهم هذا عن السبيل الواصل المستقيم . ومن تقتضي سنة الله ضلاله لأنه سار في طريق الضلال فلن يهديه أحد ، لأن سنة الله لا تتوقف إذا حقت بأسبابها على العباد .

والنهاية الطبيعية لهذه القلوب المنتكسة هي العذاب :

« لهم عذاب في الحياة الدنيا » .

إن أصابتهم قارعة فيها ، وإن حلت قريباً من دارهم فهو الرعب والقلق والتوقع . وإلا فجفاف القلب من بشاشة الإيمان عذاب ، وحيرة القلب بلا طمأنينة الإيمان عذاب . ومواجهة كل حادث بلا إدراك للحكمة الكبرى وراء الأحداث عذاب ...

« ولعذاب الآخرة أشق » ..

ويتركه هنا بلا تحديد للتصور والتخيل بلا حدود .

« وما لهم من الله من واق » .

يحميهم من أخذه ، ومن نكاله . فهم معرضون بلا وقاية لما ينزله بهم من عذاب ..

وعلى الضفة الأخرى « المتقون » .. في مقابل « وما لهم من الله من واق » . المتقون الذين وقوا أنفسهم بالإيمان والصلاح فهم في مأمن من العذاب . بل لهم فوق الأمن الجنة التي وعدوها : « مثل الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها » فهو المتع والاسترواح - ومشهد الظل الدائم والثمر الدائم مشهد تطمئن له النفس وتستريح - في مقابل المشقة هناك :

ذلك العذاب وهذه الجنة هما النهاية الطبيعية لهؤلاء وهؤلاء :
« تلك عقبي الذين اتقوا . وعقبي الكافرين النار » ..

* * *

ويعضي السياق مع قضية الوحي وقضية التوحيد معاً يتحدث عن موقف أهل الكتاب من القرآن ومن الرسول - صلى الله عليه وسلم - وبين للرسول أن ما أنزل عليه هو الحكم الفصل فيما جاءت به الكتب قبله ، وهو المرجع الأخير ، أثبت الله فيه ما شاء إثباته من أمور دينه الذي جاء به الرسل كافة ، ومحا ما شاء محوه مما كان فيها لانقضاء حكمته . فليقف عند ما أنزل عليه ، لا يطيع فيه أهواء أهل الكتاب في كبيرة ولا صغيرة . أما الذين يطلبون منه آية ، فالآيات بإذن الله وعلى الرسول البلاغ .

« والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك ، ومن الأحزاب من ينكر بعضه . قل : إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به ، إليه أدعو ، وإليه مآب . وكذلك أنزلناه حكماً عربياً ، ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا واق . ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك ، وجعلنا لهم أزواجاً وذرية ، وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله . لكل أجل كتاب . يحو الله ما يشاء ، ويثبت ، وعنده أم الكتاب . وإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك ، فإنما عليك البلاغ ، وعلينا الحساب » ..

إن الفريق الصادق من أهل الكتاب في الاستمساك بدينه ، يجد في هذا القرآن مصداق القواعد الأساسية في عقيدة التوحيد ؛ كما يجد الاعتراف بالديانات التي سبقته وكتبها ، ودرسها مع الإكبار والتقدير ، وتصور الآصرة الواحدة التي تربط المؤمنين بالله جميعاً . فمن ثم يفرحون ويؤمنون . والتعبير بالفرح هنا حقيقة نفسية في القلوب الصافية وهو فرح الالتقاء على الحق ، وزيادة اليقين بصحة ما لديهم ومؤازرة الكتاب الجديد له ..
« ومن الأحزاب من ينكر بعضه » ..

الأحزاب من أهل الكتاب والمشركين .. ولم يذكر السياق هذا البعض الذي ينكرونه ، لأنه الغرض هو ذكر هذا الإنكار للرد عليه :

« قل : إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به . إليه أدعو وإليه مآب » ..

فله وحده العبادة ، وإليه وحده الدعوة ، وله وحده المآب .

وقد أمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يعلن منهجه في مواجهة من ينكر بعض الكتاب ، وهو استمساكه الكامل بكامل الكتاب الذي أنزل إليه من ربه . سواء فرح به أهل الكتاب كله ، أم أنكر فريق منهم بعضه . ذلك أن ما أنزل إليه هو الحكم الأخير ، نزل بلغته العربية وهو مفهوم له تماماً ، وإليه يرجع ما دام هو حكم الله الأخير في العقيدة :

« وكذلك أنزلناه حكماً عربياً » ..

« ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا واق » ..

فالذي جاءك هو العلم اليقين ، وما يقوله الأحزاب أهواء لا تستند إلى علم أو يقين . وهذا التهديد الموجه إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - أبلغ في تقرير هذه الحقيقة ، التي لا تسامح في الانحراف عنها ، حتى ولو كان من الرسول ، وحاشاه عليه الصلاة والسلام .

وإذا كان هناك اعتراض على بشرية الرسول فقد كان الرسل كلهم بشراً :

« ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك ، وجعلنا لهم أزواجاً وذرية » .

وإذا كان الاعتراض بأنه لم يأت بخارقة مادية ، فذلك ليس من شأنه إنما هو شأن الله :

« وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله » ..

وفق ما تقتضيه حكمته وعندما يشاء .

وإذا كان هناك خلاف جزئي بين ما أنزل على الرسول وما عليه أهل الكتاب ، فإن لكل فترة كتاباً ،

وهذا هو الكتاب الأخير :

« لكل أجل كتاب ، يحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » ..

فما انقضت حكمته محوه ، وما هو نافع يثبته . وعنده أصل الكتاب ، المتضمن لكل ما يثبته وما يحويه .

فعنه صدر الكتاب كله ، وهو المتصرف فيه ، حسباً تقتضي حكمته ، ولا راد لمشيئته ولا اعتراض .

وسواء أخذهم الله في حياة الرسول - صلى الله عليه وسلم - بشيء مما أوعدهم ، أو توفاه إليه قبل ذلك ،

فإن هذا لا يغير من الأمر شيئاً ، ولا يبدل من طبيعة الرسالة وطبيعة الألوهية :

« وإما نرينك بعض الذي تعدهم أو نتوفينك ، فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب » ..

وفي هذا التوجيه الحاسم ما فيه من بيان طبيعة الدعوة وطبيعة الدعاة .. إن الدعاة إلى الله ليس عليهم إلا

أن يؤدوا تكاليف الدعوة في كل مراحلها ؛ وليس عليهم أن يبلغوا بها إلا ما يشاؤه الله . كما أنه ليس لهم

أن يستعجلوا خطوات الحركة ، ولا أن يشعروا بالفشل والخيبة ، إذا رأوا قدر الله يبطئ بهم عن الغلب

الظاهر والتمكين في الأرض ، إنهم دعاة وليسوا إلا دعاة .

* * *

وإن يد الله القوية لبادية الآثار فيما حولهم ، فهي تأتي الأمم القوية الغنية - حين تبطر وتكفر وتفسد - فتنقص

من قوتها وتنقص من ثرائها وتنقص من قدرها ؛ وتحصرها في رقعة من الأرض ضيقة بعد أن كانت ذات

سلطان وذات امتداد ، وإذا حكم الله عليها بالانحسار فلا معقب لحكمه ، ولا بد له من النفاذ^١ :

« أولم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها ! والله يحكم لا معقب لحكمه ، وهو سريع الحساب » ..

وليسوا هم بأشد مكرراً ولا تديباً ولا كيداً ممن كان قبلهم . فأخذهم الله وهو أحكم تديباً وأعظم كيداً :

« وقد مكر الذين من قبلهم فله المكر جميعاً . يعلم ما تكسب كل نفس ، وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار » ..

ويختم السورة بحكاية إنكار الكفار للرسالة . وقد بدأها بإثبات الرسالة . فيلتقي البدء والختام . ويشهد

الله مكتفياً بشهادته . وهو الذي عنده العلم المطلق بهذا الكتاب وبكل كتاب :

« ويقول الذين كفروا : لست مرسلأ . قل : كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ، ومن عنده علم الكتاب »^٢ .

* * *

(١) هذا هو المعنى المتعين لهذا النص . لا ما يخطط فيه دعاة « التفسير العلمي للقرآن » من دلالة هذه الآية على نقص أطراف الأرض عند القطبين وانعاجها عند خط الاستواء ! إلى آخر هذا الهراء ! إن السياق القرآني يحدد مدلول العبارات فيه . فليتنق الله من يخطون في هذا المجال دون فقه وبصيرة بطبيعة هذا القرآن !

(٢) تذكر بعض الروايات في التفسير المأثور أن المقصود بقوله تعالى : « ومن عنده علم الكتاب » شهادة من آمن من أهل الكتاب بأن هذا =

وتنتهي السورة وقد طوفت بالقلب البشري في أرجاء الكون ، وأرجاء النفس ، ووقعت عليه إيقاعات مطردة مؤثرة عميقة . وتركته بعد ذلك إلى شهادة الله التي جاء بها المطلع وجاء بها الختام ، والتي يحسم بها كل جدل ، وينتهي بعدها كل كلام ..

* * *

وبعد .. ففي السورة معالم للعقيدة الإسلامية ، وللمنهج القرآني في عرض هذه العقيدة .. وكان من حق هذه المعالم أن نقف عندها في مواضعها ؛ لولا أننا آثرنا ألا تقطع تدفق السياق القرآني في هذه السورة بتلك الوقفات ؛ وأن نبقيا إلى النهاية لنقف أمامها متمهلين !

وقد أشرنا في أثناء استعراض السورة في سياقها إلى تلك المعالم إشارات سريعة ؛ فترجو أن نقف عندها الآن وقفات أطول بقدر المستطاع .

.. والله المستعان ..

* * *

إن افتتاح السورة ، وطبيعة الموضوعات التي تعالجها ، وكثيراً من التوجيهات فيها .. كل أولئك يدل دلالة واضحة على أن السورة مكية - وليست مدنية كما جاء في بعض الروايات والمصاحف - وأنها نزلت في فترة اشتد فيها الإعراض والتكذيب والتحدي من المشركين ؛ كما كثر فيها طلب الخوارق من الرسول - صلى الله عليه وسلم - واستعجال العذاب الذي يندرجهم به ؛ مما اقتضى حملة ضخمة تستهدف تثبيت الرسول - صلى الله عليه وسلم - ومن معه على الحق الذي أنزل إليه من ربه ، في وجه المعارضة والإعراض ، والتكذيب والتحدي ؛ والاستعلاء بهذا الحق ، والالتجاء إلى الله وحده ؛ وإعلان وحدانيته إلهاً ورباً ؛ والثبات على هذه الحقيقة ؛ والاعتقاد بأنها هي وحدها الحق ، مهما كذب بها المشركون . كما تستهدف مواجهة المشركين بدلائل هذا الحق في الكون كله ، وفي أنفسهم ، وفي التاريخ البشري وأحداثه كذلك ؛ مع حشد جميع هذه المؤثرات ومخاطبة الكينونة البشرية بها خطاباً مؤثراً موحياً عميق الإيقاع قوي الدلالة .

وهذه نماذج من التوكيدات على أن هذا الكتاب هو وحده الحق ؛ وأن الإعراض عنه ، والتكذيب به ، والتحدي ، وبطء الاستجابة ، ووعورة الطريق .. كلها لا تغير شيئاً من تلك الحقيقة الكبيرة :

« تلك آيات الكتاب ، والذي أنزل إليك من ربك الحق ، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون » .

« ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلثات ، وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ، وإن ربك لشديد العقاب . ويقول الذين كفروا : لولا أنزل عليه آية من ربه ! إنما أنت منذر ، ولكل قوم هاد » .

« له دعوة الحق ، والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء ، إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه ، وما دعاء الكافرين إلا في ضلال » .

« ... كذلك يضرب الله الحق والباطل . فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض . كذلك يضرب الله الأمثال » ..

= القرآن حق استناداً إلى ما سبق في السورة من قوله تعالى : « والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك من ربك » .. وهذا ما قد وقع فعلاً في مكة .. ثم في المدينة . ونحن لا ننفي وجهة الرواية . فقد تكون هي المقصودة .

« أفن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ؟ إنما يتذكر أولو الألباب » ..
 « ويقول الذين كفروا : لولا أنزل عليه آية من ربه ! قل : إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب .
 الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله . ألا بذكر الله تطمئن القلوب » ..
 « كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهم الذي أوحينا إليك . وهم يكفرون بالرحمن .
 قل : هو ربي ، لا إله إلا هو ، عليه توكلت ، وإليه متاب » ..

« والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك ، ومن الأحزاب من ينكر بعضه . قل : إنما أمرت أن
 أعبد الله ولا أشرك به ، إليه أدعو ، وإليه مآب . وكذلك أنزلناه حكماً عربياً . ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما
 جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا واق » ..
 « وإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك ، فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب » ..

« ويقول الذين كفروا : لست مرسلأ . قل : كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب » ..
 وهكذا نلمس في هذه الطائفة من الآيات التي أوردناها طبيعة المواجهة التي كان المشركون يتحدون بها
 رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ويتحدون بها هذا القرآن ؛ ثم دلالة هذا التحدي ودلالة التوجيه الرباني
 إزاءه على طبيعة الفترة التي نزلت فيها السورة من العهد المكّي .

ومن اللّمحات البارزة في التوجيه الرباني لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يجهر - في مواجهة الإعراض
 والتكذيب والتحدي وبطء الاستجابة ووعورة الطريق - بالحق الذي معه كاملاً ؛ وهو أنه لا إله إلا الله ،
 ولا رب إلا الله ، ولا معبود إلا الله ، وأن الله هو الواحد القهار ، وأن الناس مردودون إليه فيما إلى جنة
 وإما إلى نار .. وهي مجموعة الحقائق التي كان ينكرها المشركون ويتحدونه فيها .. وألا يتبع أهواءهم فيصانها
 ويترضاها بكمّان شيء من هذا الحق أو تأجيل إعلانه ! مع تهديده بما ينتظره من الله لو اتبع أهواءهم في
 شيء من هذا من بعد ما جاءه من العلم ! ..

وهذه اللّمحة البارزة تكشف لأصحاب الدعوة إلى الله عن طبيعة منهج هذه الدعوة التي لا يجوز لهم الاجتهاد
 فيها ! وهي أن عليهم أن يجهروا بالحقائق الأساسية في هذا الدين ، وألا يخفوا منها شيئاً ، وألا يؤجلوا منها
 شيئاً .. وفي مقدمة هذه الحقائق : أنه لا ألوهية ولا ربوبية إلا لله . ومن ثم فلا دينونة ولا طاعة ولا خضوع
 ولا اتباع إلا لله .. فهذه الحقيقة الأساسية يجب أن تعلن أياً كانت المعارضة والتحدي ؛ وأياً كان الإعراض
 من المكذبين والتولي ؛ وأياً كانت وعورة الطريق وأخطارها كذلك .. وليس من « الحكمة والموعظة الحسنة »
 إخفاء جانب من هذه الحقيقة أو تأجيله ، لأن الطواغيت في الأرض يكرهونه أو يؤذون الذين يعلنونه ! أو
 يعرضون بسببه عن هذا الدين ، أو يكيدون له وللدعاة إليه ! فهذا كله لا يجوز أن يجعل الدعاة إلى هذا
 الدين يكتمون شيئاً من حقائقه الأساسية أو يؤجلونه ؛ ولا أن يبدأوا مثلاً من الشعائر والأخلاق والسلوك
 والتهذيب الروحي ، متجنّبين غضب طواغيت الأرض لو بدأوا من إعلان وحدانية الألوهية والربوبية ، ومن
 ثم توحيد الدينونة والطاعة والخضوع والاتباع لله وحده !

إن هذا هو منهج الحركة بهذه العقيدة كما أراد الله سبحانه ؛ ومنهج الدعوة إلى الله كما سار بها سيدنا محمد
 - صلى الله عليه وسلم - بتوجيه من ربه .. فليس لداع إلى الله أن يتنكب هذا الطريق ؛ وليس له أن ينهج
 غير ذلك المنهج .. والله - بعد ذلك - متكفل بدينه ، وهو حسب الدعاة إلى هذا الدين وكافهم شر الطواغيت !

والمهجع القرآني في الدعوة يجمع بين الحديث عن كتاب الله المتلوّ - وهو هذا القرآن - وبين كتاب الكون المفتوح ؛ ويجعل الكون بجملته مصدر إحياء للكينونة البشرية ؛ بما فيه من دلائل شاهدة بسلطان الله وتقديره وتدييره . كما يضم إلى هذين الكتابين سجل التاريخ البشري ، وما يحفظه من دلائل ناطقة بالسلطان والتقدير والتدبير أيضاً . ويواجه الكينونة البشرية بهذا كله ويأخذ عليها أقطارها جميعاً ؛ وهو يخاطب حسها وقلبها وعقلها جميعاً !

وهذه السورة تحوي الكثير من النماذج الباهرة في عرض صفحات الكتاب الكوني - عقب الكتاب القرآني - في مواجهة الكينونة البشرية بجملتها .. وهذه بعض هذه النماذج :

« آلمر . تلك آيات الكتاب . والذي أنزل إليك من ربك الحق ، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون . »

« الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ؛ ثم استوى على العرش ؛ وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ، يدبر الأمر ، يفصل الآيات ، لعلكم بقاء ربكم توقنون . وهو الذي مدّ الأرض ، وجعل فيها رواسي وأنهاراً ، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ، يغشي الليل النهار ، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفي الأرض قطع متجاورات ، وجنات من أعناب ، وزرع ، ونخيل - صنوان وغير صنوان - يسقي بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض في الأكل ، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون » ..

يحشد السياق هذه المشاهد الكونية ، ليحيل الكون كله شاهداً ناطقاً بسلطان الله - سبحانه - في الخلق والإنشاء ، والتقدير والتدبير . ثم يعجّب من أمر قوم يرون هذه الشواهد كلها ، ثم يستكثرون قضية البعث والنشأة الأخرى ، ويكذبون بالوحي من أجل أنه يقرر هذه الحقيقة القريبة .. القريبة في ظل تلك المشاهد العجيبة ..

« وإن تعجب فعجب قولهم : أئذا كنا تراباً أئنا لفي خلق جديد ؟ أولئك الذين كفروا بربهم ، وأولئك الأغلال في أعناقهم ، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » ..

« هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً ، وينشئ السحاب الثقال . ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ، ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء ... » ..

يعرض هذه الصفحة من الوجود الكوني ليعجّب من أمر قوم يجادلون في الله ويشركون به ، وهم يشاهدون آثار ربوبيته وقدرته وسلطانه ، ودينونة الكون له ، وتصريفه وتدييره لأمر العباد فيه ؛ وعجز كل من عداه - سبحانه - عن الخلق والتدبير والتقدير :

« وهم يجادلون في الله ، وهو شديد المحال . له دعوة الحق ، والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه - وما هو ببالغه - وما دعاء الكافرين إلا في ضلال . والله يسجد من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً ، وظلالهم بالغدو والآصال .. قل : من رب السماوات والأرض ؟ قل : الله . قل : أفأنتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً ؟ قل : هل يستوي الأعمى والبصير ؟ أم هل تستوي الظلمات والنور ؟ أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ؟ قل : الله خالق كل شيء ، وهو الواحد القهار . »

وهكذا يستحيل الكون معرضاً باهراً لدلائل القدرة وموحيات الإيمان ، يخاطب الفطرة بالمنطق الشامل العميق ؛ ويخاطب الكينونة البشرية جملة ، بكل ما فيها من قوى الإدراك الباطنة والظاهرة ، في تناسق عجيب . ثم يضيف إلى صفحات الكتاب الكوني ، صفحات التاريخ الإنساني ؛ ويعرض آثار القدرة والسلطان

والهيمنة والقهر والتقدير والتدبير في حياة الإنسان :

* « ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلاث ! » .

* « الله يعلم ما تحمل كل أنثى ، وما تغيض الأرحام وما تزداد ، وكل شيء عنده بمقدار . عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال . سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ، ومن هو مستخف بالليل وسارب بالتهار له معقبات من بين يديه ومن خلفه - يحفظونه - من أمر الله ، إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له ، وما لهم من دونه من وال » ..

* « الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، وفرحوا بالحياة الدنيا ، وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع » ..

* « ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريباً من دارهم حتى يأتي وعد الله . إن الله لا يخلف الميعاد . ولقد استهزئ برسل من قبلك ، فأملت للذين كفروا ، ثم أخذتهم . فكيف كان عقاب ؟ » .
* « أو لم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها ؟ والله يحكم لا معقب لحكمه ، وهو سريع الحساب » .
* « وقد مكر الذين من قبلهم ، فله المكر جميعاً ، يعلم ما تكسب كل نفس ، وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار ! » .

وهكذا يحشد المنهج القرآني هذه الشواهد والدلائل في التاريخ البشري ، ويحيلها إلى مؤثرات وموحيات ، تخاطب الكينونة البشرية بجملتها في تناسق واتساق .

وتقف من هذا الحشد على معلم من معالم هذا المنهج في الدعوة إلى الله - على بصيرة - دعوة تخاطب الكينونة البشرية بجملتها ، ولا تخاطب فيها جانباً واحداً من قواها المدركة .. جانب الفكر والذهن ، أو جانب الإلهام والبصيرة ، أو جانب الحس والشعور ..

وهذا القرآن ينبغي أن يكون هو كتاب هذه الدعوة ، الذي يعتمد عليه الدعاة إلى الله ، قبل الاتجاه إلى أي مصدر سواه . والذي ينبغي لهم بعد ذلك أن يتعلموا منه كيف يدعون الناس ، وكيف يوقظون القلوب الغافية ، وكيف يحيون الأرواح الخاملة .

إن الذي أوحى بهذا القرآن هو الله ، خالق هذا الإنسان ، العليم بطبيعة تكوينه ، الخير بدروب نفسه ومنحنياتهما .. وكما أن الدعاة إلى الله يجب أن يتبعوا منهج الله في البدء بتقرير ألوهية الله - سبحانه - وربوبيته وحاكميته وسلطانه ؛ فإنهم كذلك يجب أن يسلكوا إلى القلوب طريق هذا القرآن في تعريف الناس بربهم الحق - على ذلك النحو - كما تنتهي هذه القلوب إلى الدينونة لله وحده ، والاعتراف بربوبيته المتفردة وسلطانه ..

* * *

ولتعريف الناس بربهم الحق ، ونفي كل شبهة شرك ، يعنى المنهج القرآني ببيان طبيعة الرسالة ، وطبيعة الرسول .. ذلك أن انحرافات كثيرة في التصور الاعتقادي جاءت لأهل الكتاب من قبل ، من جراء الخلط بين طبيعة الألوهية وطبيعة النبوة - وبخاصة في العقائد النصرانية - حيث خلعت على عيسى - عليه السلام - خصائص الألوهية وخصائص الربوبية ؛ ودخل أتباع شتى الكنائس في متاهة من الخلافات العقيدية المذهبية بسبب ذلك الخلط المنافي للحقيقة .

ولم تكن عقائد النصارى وحدهم هي التي دخلت في تلك المتاهة ؛ فقد خبطت شتى الوثنيات في ذلك التيه ؛ وتصورت للنبوة صفات غامضة ؛ بعضها يصل بين النبوة والسحر ! وبعضها يصل بين النبوة والنبؤات الكشفية ! وبعضها يصل بين النبوة والجن والأرواح الخفية !

وكثير من هذه التصورات كان يخالف الوثنية العربية .. من أجل هذا كان بعضهم يطلب من الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن ينبتهم بالغيب ! وبعضهم كان يقترح أن يصنع لهم خوارق مادية معينة ! كما أنهم كانوا يرمونه - صلى الله عليه وسلم - بأنه ساحر ، وبأنه « مجنون » - أي على صلة بالجن ! - وبعضهم كان يطلب أن يكون معه ملك ... إلى آخر هذه المقترحات والتحديات والاتهامات التي كانت متلبسة بالتصورات الوثنية عن طبيعة النبي وطبيعة النبوة !

ولقد جاء هذا القرآن ليجلي الحقيقة كاملة عن طبيعة النبوة وطبيعة النبي ؛ وعن طبيعة الرسالة وطبيعة الرسول ؛ وعن حقيقة الألوهية المتمثلة في الله وحده - سبحانه - وحقيقة العبودية التي تشمل كل ما خلق الله وكل من خلق ؛ ومنهم أنبياء الله ورسله ؛ فهم عباد صالحون ؛ وليسوا خلقاً آخر غير البشر ؛ وليس لهم من خصائص الألوهية شيء ؛ وليسوا على اتصال بعوالم الجن والخفاء المسحور ! إنما هو الوحي من الله - سبحانه - وليس لهم وراءه شيء من القدرة على الخوارق - إلا بإذن الله حين يشاء - فهم بشر من البشر ، وقع عليهم الاختيار ، وبقيت لهم بشريتهم وعبوديتهم لله - سبحانه - كبقية خلق الله .

وفي هذه السورة نماذج من تجلية طبيعة النبوة والرسالة ؛ وحدود النبي والرسول ؛ وتخليص العقول والأفكار من رواسب الوثنيات كلها ؛ وتحريرها من تلك الأساطير التي أفسدت عقائد أهل الكتاب من قبل ؛ ورددتها إلى الوثنية بأوهامها وأساطيرها !

وقد كانت تلك التجلية تواجه تحديات المشركين الواقعية ؛ ولم تكن جدلاً ذهنياً ، ولا بحثاً فلسفياً « ميتافيزيقياً » .. كانت « حركة » تواجه « الواقع » وتجاهده مجاهدة واقعية :

« ويقول الذين كفروا : لولا أنزل عليه آية من ربه ! إنما أنت منذر ، ولكل قوم هاد » ..
 « ويقول الذين كفروا : لولا أنزل عليه آية من ربه ! قل : إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب » ..
 « كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهم الذي أوحينا إليك ، وهم يكفرون بالرحمن ، قل : هو ربي ، لا إله إلا هو ، عليه توكلت ، وإليه متاب » ..
 « ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك ، وجعلناهم أزواجاً وذرية ، وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله ، لكل أجل كتاب » ..

« وإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك ، فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب » ..

وهكذا تتجلي طبيعة الرسالة وحدود الرسول .. إنما هو منذر ، ليس عليه إلا البلاغ وليس له إلا أن يتلو ما أوحى إليه ، وما كان له أن يأتي بخارقة إلا بإذن الله . ثم هو عبد لله ، الله ربه ، وإليه متاب ومآبه ؛ وهو بشر من البشر يتزوج وينسل ؛ ويزاول بشريته كاملة بكل مقتضيات البشرية ؛ كما يزاول عبوديته لله كاملة بكل مقتضيات العبودية ..

وبهذه الصناعة الكاملة في العقيدة الإسلامية تنتهي تلك الأوهام والأساطير المهوَّمة في الفضاء والظلام ، حول طبيعة النبوة وطبيعة النبي ، وتخلص العقيدة من تلك التصورات المحيرة التي حفلت بها العقائد الكنسية كما حفلت بها شتى العقائد الوثنية ؛ والتي قضت على « المسيحية » منذ القرن الأول لها أن تكون إحدى العقائد الوثنية في طبيعتها وحقيقتها ، بعد ما كانت عقيدة سماوية على يد المسيح عليه السلام ؛ تجعل المسيح عبداً لله ؛ لا يأتي بآية إلا بإذن الله .

ولا تنتهي من هذه الوقفة قبل أن نلم بتلك اللفتة البارزة في قوله تعالى :

« وإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإتينا عليك البلاغ وعلينا الحساب » ..

إن هذا القول إنما يقال للنبي - صلى الله عليه وسلم - الرسول الذي أوحى إليه من ربه . وكلف مخاطبة الناس بهذه العقيدة .. وخالصة هذا القول : إن أمر هذا الدين ليس إليه هو ، ومآل هذه الدعوة ليس من اختصاصه ! إنما عليه البلاغ وليس عليه هداية الناس . فالله وحده هو الذي يملك الهداية . وسواء حقق الله بعض وعده له من مصير القوم أو أدركه الأجل قبل تحقيق وعد الله ، فهذا أو ذلك لا يغير من طبيعة مهمته .. البلاغ .. وحسابهم بعد ذلك على الله .. وليس بعد هذا تجريد لطبيعة الداعية وتحديد لمهمته . فواجبه محدد ، والأمر كله في هذه الدعوة وفي كل شيء آخر لله .

بذلك يتعلم الدعاة إلى الله أن يتأدبوا في حق الله ! إنه ليس لهم أن يستعجلوا النتائج والمصائر .. ليس لهم أن يستعجلوا هداية الناس ، ولا أن يستعجلوا وعد الله ووعده للمهتدين وللمكذابين .. ليس لهم أن يقولوا : لقد دعونا كثيراً فلم يستجب لنا إلا القليل ؛ أو لقد صبرنا طويلاً فلم يأخذ الله الظالمين بظلمهم ونحن أحياء ! .. إن عليهم إلا البلاغ .. أما حساب الناس في الدنيا أو في الآخرة فهذا ليس من شأن العبيد . إنما هو من شأن الله ! فينبغي - تأدباً في حق الله واعترافاً بالعبودية له - أن يترك له سبحانه ، يفعل فيه ما يشاء ويختار ..

والسورة مكية .. من أجل ذلك تحدد فيها وظيفة الرسول - صلى الله عليه وسلم - « بالبلاغ » .. ذلك أن « الجهاد » لم يكن بعد قد كتب . فأما بعد ذلك فقد أمر بالجهاد - بعد البلاغ - وهذا ما تبغى ملاحظته في الطبيعة الحركية لهذا الدين . فالنصوص فيه نصوص حركية ؛ مواكبة لحركة الدعوة وواقعها ؛ وموجهة كذلك لحركة الدعوة وواقعها .. وهذا ما تغفل عنه كثرة « الباحثين » في هذا الدين في هذا الزمان . وهم يزاولون « البحث » ولا يزاولون « الحركة » فلا يدركون - من ثم - مواقع النصوص القرآنية ، وارتباطها بالواقع الحركي لهذا الدين !

وكثيرون يقرأون مثل هذا النص : « إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب » ثم يأخذون منه أن مهمة الدعاة إلى الله تنتهي عند البلاغ . فإذا قاموا « بالتبليغ » فقد أدوا ما عليهم ! .. أما « الجهاد » ! فلا أدري - والله - أين مكانه في تصور هؤلاء !

كما أن كثيرين يقرأون مثل هذا النص ، فلا يلغون به الجهاد ، ولكن يقيدونه ! .. دون أن يفتنوا إلى أن هذا نص مكّي نزل قبل فرض الجهاد . ودون أن يدركوا طبيعة ارتباط النصوص القرآنية بحركة الدعوة الإسلامية . ذلك أنهم هم لا يزاولون الحركة بهذا الدين ؛ إنما هم يقرأونه في الأوراق وهم قاعدون ! وهذا الدين لا يفقهه القاعدون . فما هو بدين القاعدين !

على أن « البلاغ » يظل هو قاعدة عمل الرسول ، وقاعدة عمل الدعاة بعده إلى هذا الدين . وهذا البلاغ هو أول مراتب الجهاد . فإنه متى صح . واتجه إلى تبليغ الحقائق الأساسية في هذا الدين قبل الحقائق الفرعية .. أي متى اتجه إلى تقرير الألوهية والربوبية والحاكمية لله وحده منذ الخطوة الأولى ؛ واتجه إلى تعبيد الناس لله وحده ، وقصر دينوتهم عليه وخلع الدينونة لغيره .. فإن الجاهلية لا بد أن تواجه الدعاة إلى الله ، المبلغيين التبليغ الصحيح ، بالإعراض والتحدي ، ثم بالإيذاء والمكافحة ... ومن ثم تجيء مرحلة الجهاد في حينها ،

نتاجاً طبيعياً للتبليغ الصحيح لا محالة : « وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين ، وكفى بربك هادياً ونصيراً » ..

هذا هو الطريق ... وليس هنالك غيره من طريق !

* * *

ثم نقف من السورة أمام معلم آخر ، وهي تقرر كلمة الفصل في العلاقة بين اتجاه « الإنسان » وحركته وبين تحديد مآله ومصيره ؛ وتقرير أن مشيئة الله به إنما تتحقق من خلال حركته بنفسه ؛ وذلك مع تقرير أن كل حدث إنما يقع ويتحقق بقدر من الله خاص .. ومجموعة النصوص الخاصة بهذا الموضوع في السورة كافية بذاتها لجلاء النظرة الإسلامية في هذه القضية الخطيرة .. وهذه نماذج منها كافية :

« إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له ، وما لهم من دونه من وال » ..

« للذين استجابوا لربهم الحسنى ، والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به ، أولئك لهم سوء الحساب ، ومأواهم جهنم وبئس المهاد » ..

« قل : إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب . الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله . ألا بذكر الله تطمئن القلوب » ..

« أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً؟! » ..

« بل زين للذين كفروا مكرهم وصدوا عن السبيل ، ومن يضل الله فاله من هاد » ..

وواضح من النص الأول من هذه النصوص أن مشيئة الله في تغيير حال قوم إنما تجري وتنفذ من خلال حركة هؤلاء القوم بأنفسهم ، وتغيير اتجاهها وسلوكها تغييراً شعورياً وعملياً . فإذا غير القوم ما بأنفسهم اتجاهها وعملاً غير الله حالهم وفق ما غيروا هم من أنفسهم .. فإذا اقتضى حالهم أن يريد الله بهم سوء مضت إرادته ولم يقف لها أحد ، ولم يعصمهم من الله شيء ، ولم يجدوا لهم من دونه ولياً ولا نصيراً .

فأما إذا هم استجابوا لربهم ، وغيروا ما بأنفسهم بهذه الاستجابة ، فإن الله يريد بهم الحسنى ، ويحقق لهم هذه الحسنى في الدنيا أو في الآخرة ، أو فيهما جميعاً ، فإذا لم يستجيبوا أراد بهم سوء ، وكان لهم سوء الحساب ، ولم تغن عنهم فدية إذا جاءوه - غير مستحيين - يوم الحساب !

وواضح من النص الثاني أن الاستجابة أو عدم الاستجابة راجعة إلى اتجاههم وحركتهم ؛ وأن مشيئة الله بهم إنما تتحقق من خلال هذه الحركة وذلك الاتجاه .

أما النص الثالث فإن مطلعته يتحدث عن طلاقة مشيئة الله في إضلال من يشاء . ولكن عقب النص : « ويهدي إليه من أناب ... الخ » يقرر أن الله - سبحانه - يقضي بالهدى لمن ينيب إليه ؛ فيدل هذا على أنه إنما يضل من لا ينيب ومن لا يستجيب ، ولا يضل منيباً ولا مستجيباً . وذلك وفق وعده سبحانه في قوله : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » . فهذه الهداية وذلك الإضلال هما مقتضى مشيئته سبحانه بالعباد . هذه المشيئة التي تجري وتتحقق من خلال تغيير العباد ما بأنفسهم ، والاتجاه إلى الاستجابة أو الإعراض .

والنص الرابع يقرر أن الله لو شاء لهدى الناس جميعاً .. وفي ظل مجموع النصوص يتضح أن المقصود هو أنه لو شاء سبحانه لخلق الناس باستعداد واحد للهدى . أو لقهروهم على الهدى . ولكنه - سبحانه - شاء أن

يخلقهم كما خلقهم مستعدين للهدى أو للضلال ؛ ولم يشأ بعد ذلك أن يقهرهم على الهدى ولا أن يقهرهم على الضلال - حاشاه ! - إنما جعل مشيئته بهم تجري من خلال استجابتهم أو عدم استجابتهم لدلائل الهدى وموحيات الإيمان .

أما النص الخامس فيقرر أن الذين كفروا زين لهم مكرهم وصدوا عن السبيل .. وأخذ أمثال هذا النص بمفرده هو الذي ساق إلى الجدل المعروف في تاريخ الفكر الإسلامي حول الجبر والاختيار .. أما أخذه مع مجموعة النصوص - كما رأينا - فإنه يعطي التصور الشامل : وهو أن هذا التزيين وهذا الصد عن السبيل ، إنما كان من جراء الكفر وعدم الاستجابة لله . أي من جراء تغيير الكفار ما بأنفسهم إلى ما يقتضي أن تجري مشيئة الله فيهم بالتزيين والصد والإضلال .

وتبقى تكلمة لا بد منها لجلاء هذا الموضوع الذي كثر فيه الجدل في جميع الملل .. ذلك أن اتجاه الناس بأنفسهم لا يوقع بذاته مصائرهم . فهذه المصائر أحداث لا ينشئها إلا قدر الله ؛ وكل حادث في هذا الكون إنما ينشأ ويقع ويتحقق بقدر من الله خاص ؛ تتحقق به إرادته وتم به مشيئته : « إنا كل شيء خلقناه بقدر » .. وليست هنالك آلية في نظام الكون كله ، ولا حتمية أسباب تنشئ بذاتها آثاراً . فالسبب كالأثر كلاهما مخلوق بقدر .. وكل ما يصنعه اتجاه الناس بأنفسهم هو أن تجري مشيئة الله بهم من خلال هذا الاتجاه ، أما جريان هذه المشيئة وآثاره الواقعية فإنما يتحقق بقدر من الله خاص بكل حادث : « وكل شيء عنده بمقدار » .

وهذا التصور - كما أسلفنا عند مواجهة النص في سياق السورة - يزيد من ضخامة التبعة الملقاة على هذا الكائن الإنساني ؛ بقدر ما يجلو من كرامته في نظام الكون كله . فهو وحده المخلوق الذي تجري مشيئة الله به من خلال اتجاهه وحركته .. وما أثقلها من تبعة ! وما أعظمها كذلك من كرامة !^١

* * *

وفي السورة كلمة الفصل كذلك في دلالة الكفر وعدم الاستجابة لهذا الحق الذي جاء به هذا الدين . على فساد الكينونة البشرية ، وتعطل أجهزة الاستقبال الفطرية فيها ، واختلال طبيعتها وخروجها عن سوائها . فما يمكن أن تكون هناك بنية إنسانية سوية . غير مطموسة ولا معطلة ولا مشوهة ؛ ثم يعرض عليها هذا الحق ، ويبين لها بالصورة التي بينها المنهج القرآني ؛ ثم لا تستجيب لهذا الحق بالإيمان والإسلام . والفطرة الإنسانية بطبيعتها مصطلحة على هذا الحق في أعماقها ؛ فإذا صُدت عنه فإنما يصددها صاحبها لآفة فيه يجعله يختار لنفسه غير هذا الهدى ؛ وتجعله بذلك مستحقاً للضلال ، ومستحقاً للعذاب . كما قال الله سبحانه في السورة الأخرى ؛ « سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق ، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ، وإن يروا سبيل الرشداً لا يتخذوه سبيلاً ، وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً ، ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين » ..

وفي هذه السورة ترد أمثال هذه الآيات الدالة على طبيعة الكفر فتقرر أنه عمى وانطماس بصيرة ، وأن الهدى دلالة على سلامة الكينونة البشرية من هذا العمى ، ودلالة على سلامة القوى المدركة فيها ؛ وأن في صفحة هذا الكون من الدلائل ما يبين عن الحق لمن يتفكرون ولمن يعقلون :

« أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى؟ إنما يتذكر أولو الألباب . الذين يوفون بعهد

(١) يراجع بتوسع فصل : « حقيقة الإنسان » في القسم الثاني من كتاب : « خصائص التصور الإسلامي ومقوماته » . « دار الشروق » .

الله ولا ينقضون الميثاق ، والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ، ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب . والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم ، وأقاموا الصلاة ، وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ، ويدرأون بالحسنة السيئة ، أولئك لهم عقبى الدار ... » ..

* « ويقول الذين كفروا : لولا أنزل عليه آية من ربه ! قل : إن الله يضل من يشاء ، ويهدي إليه من أناب . الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب . الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب » ..

* « وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين . يغشي الليل النهار ، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفي الأرض قطع متجاورات ، وجات من أعناب ، وزرع ، ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل ، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون » ..

وهكذا يتقرر أن الذين لا يستجيبون لهذا الحق هم - بشهادة الله سبحانه - عُمي . وأنهم لا يتفكرون ولا يعقلون . وأن الذين يستجيبون له هم أولو الألباب ، وهؤلاء تطمئن قلوبهم بذكر الله ، وتتصل بما هي عارفة له ومصطلحة عليه بفطرتها العميقة ، فتسكن وتستريح .

وإن الإنسان ليجد مصداق قول الله هذا في كل من يلقاه من الناس معرضاً عن هذا الحق الذي تضمنه دين الله ، والذي جاء به في صورته الكاملة محمد رسول الله .. فإن هي إلا جبال مؤوفة مطموسة . وإن هي إلا كينونات معطلة في أهم جوانبها بحيث لا تتلقى إيقاعات هذا الوجود كله من حولها ، وهو يسبح بحمد ربه ؛ وينطق بوحدانيته وقدرته وتدبيره وتقديره .

وإذا كان الذين لا يؤمنون بهذا الحق عُمياً - بشهادة الله سبحانه - فإنه لا ينبغي لمسلم يزعم أنه يؤمن برسول الله ، ويؤمن بأن هذا القرآن وحى من عند الله .. لا ينبغي لمسلم يزعم هذا الزعم أن يتلقى في شأن من شؤون الحياة عن أعمى ! وبخاصة إذا كان هذا الشأن متعلقاً بالنظام الذي يحكم حياة الإنسان ؛ أو بالقيم والموازن التي تقوم عليها حياته ؛ أو بالعادات والسلوك والتقاليد والآداب التي تسود مجتمعه ..

وهذا هو موقفنا من نتاج الفكر - غير الإسلامي - بجملته - فيما عدا العلوم المادية البحتة وتطبيقاتها العملية مما قصده رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بقوله : « أتم أعلم بشؤون دنياكم » . فإنه ما ينبغي قط لمسلم يعرف هدى الله ويعرف هذا الحق الذي جاء به رسول الله ، أن يقعد مقعد التلميذ الذي يتلقى من أي إنسان لم يستجب لهذا الهدى ولم يعلم أنه الحق .. فهو أعمى بشهادة الله سبحانه .. ولن يرد شهادة الله مسلم .. ثم يزعم بعد ذلك أنه مسلم !!!

إنه لا بد لنا أن نأخذ هذا الدين مأخذ الجد ؛ وأن نأخذ قراراته هذه مأخذ الجزم .. وكل تميع في مثل هذه القضية هو تميع في العقيدة ذاتها ؛ إن لم يكن هو رد شهادة الله - سبحانه - وهو الكفر البواح في هذه الصورة !

وأعجب العجب أن ناساً من الناس اليوم يزعمون أنهم مسلمون ؛ ثم يأخذون في منهج الحياة البشرية عن فلان وفلان من الذين يقول عنهم الله سبحانه : إنهم عُمي . ثم يظنون يزعمون بعد ذلك أنهم مسلمون !

إن هذا الدين جد لا يحتمل الهزل ، وجزم لا يحتمل التميع ، وحق في كل نص فيه وفي كل كلمة ..

فمن لم يجد في نفسه هذا الجذو وهذا الجزم وهذه الثقة فما أغنى هذا الدين عنه . والله غني عن العالمين !^١
وما يجوز أن يثقل الواقع الجاهلي على حس مسلم ، حتى يتلقى من الجاهلية في منهج حياته ؛ وهو يعلم أن ما جاء به محمد - صلى الله عليه وسلم - هو الحق ؛ وأن الذي لا يعلم أن هذا هو الحق « أعمى » . ثم يتبع هذا الأعمى ، ويتلقى عنه ، بعد شهادة الله سبحانه وتعالى ..

* * *

وأخيراً نقف أمام المعلم الأخير من المعالم التي تقينها هذه السورة لهذا الدين ..
إن هناك علاقة وثيقة بين الفساد الذي يصيب حياة البشر في هذه الأرض وبين ذلك العمى عن الحق الذي جاء من عند الله لهداية البشر إلى الحق والصلاح والخير . فالذين لا يستجيبون لعهد الله على الفطرة ، ولا يستجيبون للحق الذي جاء من عنده ويعلمون أنه وحده الحق .. هم الذين يفسدون في الأرض ؛ كما أن الذين يعلمون أنه الحق ويستجيبون له هم الذين يصلحون في الأرض ، وتزكو بهم الحياة :
* « أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ؟ إنما يتذكر أولو الألباب . الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق . والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ، ويخشون ربهم ، ويخافون سوء الحساب . والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم ، وأقاموا الصلاة ، وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ، ويدرون بالحسنة السيئة ، أولئك لهم عقبى الدار ... » ..
* « والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ، ويفسدون في الأرض ، أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار » ..

إن حياة الناس لا تصلح إلا بأن يتولى قيادتها المبصرون أولو الألباب الذين يعلمون أن ما أنزل إلى محمد - صلى الله عليه وسلم - هو الحق . ومن ثم يوفون بعهد الله على الفطرة ، وبعهد الله على آدم وذريته ، أن يعبدوه وحده ، فيدينوا له وحده ، ولا يتلقوا عن غيره . ولا يتبعوا إلا أمره ونهيه . ومن ثم يصلون ما أمر الله به أن يوصل ، ويخشون ربهم فيخافون أن يقع منهم ما نهى عنه وما يغضبه ؛ ويخافون سوء الحساب ، فيجعلون الآخرة في حسابهم في كل خالجة وكل حركة ؛ ويصبرون على الاستقامة على عهد الله ذلك بكل تكاليف الاستقامة ؛ ويقومون الصلاة ؛ وينفقون مما رزقهم الله سراً وعلانية ؛ ويدفعون سوء الفساد في الأرض بالصلاح والإحسان ..

إن حياة الناس في الأرض لا تصلح إلا بمثل هذه القيادة المبصرة ؛ التي تسير على هدى الله وحده ؛ والتي تصوغ الحياة كلها وفق منهجه وهديه .. إنها لا تصلح بالقيادات الضالة العمياء ، التي لا تعلم أن ما أنزل على محمد - صلى الله عليه وسلم - هو الحق وحده ؛ والتي تتبع - من ثم - مناهج أخرى غير منهج الله الذي ارتضاه للصالحين من عباده .. إنها لا تصلح بالإقطاع والرأسمالية . كما أنها لا تصلح بالشيوعية والاشتراكية العلمية ! .. إنها كلها من مناهج العمى الذين لا يعلمون أن ما أنزل على محمد - صلى الله عليه وسلم - هو وحده الحق ، الذي لا يجوز العدول عنه ، ولا التعديل فيه .. إنها لا تصلح بالثيوقراطية كما أنها لا تصلح بالديكتاتورية أو الديمقراطية ! فكلها سواء في كونها من مناهج العمى ، الذين يقيمون من أنفسهم أرباباً من دون الله ، تضع

(١) يراجع فصل : « التصور الإسلامي والثقافة » في كتاب : « معالم في النظر » . « دار الشروق » .

هي مناهج الحكم ومناهج الحياة . وتشرع للناس ما لم يأذن به الله ؛ وتعبدهم لما تشرع ، فتجعل دينوتهم لغير الله ..

وآية هذا الذي نقوله - استمداداً من النص القرآني - هو هذا الفساد الطامي الذي يعم وجه الأرض اليوم في جاهلية القرن العشرين . وهو هذه الشقوة النكدة التي تعانها البشرية في مشارق الأرض ومغاربها .. سواء في ذلك أوضاع الإقطاع والرأسمالية ، وأوضاع الشيوعية والاشتراكية العلمية ! .. وسواء في ذلك أشكال الديكتاتورية في الحكم أو الديمقراطية ! .. إنها كلها سواء فيما تلقاه البشرية من خلالها من فساد ومن تحلل ومن شقاء ومن قلق .. لأنها كلها سواء من صنع العمي الذين لا يعلمون أن ما أنزل على محمد من ربه هو الحق وحده ؛ ولا تلتزم - من ثم - بعهد الله وشرعه ؛ ولا تستقيم في حياتها على منهجه وهديه .

إن المسلم يرفض - بحكم إيمانه بالله وعلمه بأن ما أنزل على محمد هو الحق - كل منهج للحياة غير منهج الله ؛ وكل مذهب اجتماعي أو اقتصادي ؛ وكل وضع كذلك سياسي ، غير المنهج الوحيد ، والمذهب الوحيد ، والشرع الوحيد الذي سنه الله وارتضاه للصالحين من عباده .

ومجرد الاعتراف بشرعية منهج أو وضع أو حكم من صنع غير الله ، هو بذاته خروج من دائرة الإسلام لله ؛ فالإسلام لله هو توحيد الدينونة له دون سواه .

إن هذا الاعتراف فوق أنه يخالف بالضرورة مفهوم الإسلام الأساسي ، فهو في الوقت ذاته يسلم الخلافة في هذه الأرض للعمي الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض .. فهذا الفساد في الأرض مرتبط كل الارتباط بقيادة العمي ! ..

ولقد شقيت البشرية في تاريخها كله ؛ وهي تتخبط بين شتى المناهج وشتى الأوضاع وشتى الشرائع بقيادة أولئك العمي ، الذين يلبسون أردية الفلاسفة والمفكرين والمشرعين والسياسيين على مدار القرون . فلم تسعد قط ؛ ولم ترتفع « إنسانيتها » قط ، ولم تكن في مستوى الخلافة عن الله في الأرض قط ، إلا في ظلال المنهج الرباني في الفترات التي فاءت فيها إلى ذلك المنهج القويم^١ .

* * *

هذه بعض المعالم البارزة في هذه السورة ، وقفنا عندها هذه الوقفات التي لا تبلغ مداها ، ولكنها تشير إليها .

والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ..

(١) تراجع بتوسع فصل : « تخبط واضطراب » في كتاب : « الإسلام ومشكلات الحضارة » . « دار الشروق » .

(١٤) سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ مَكِّيَّةٌ وَآيَاتُهَا ثِنْتَانِ وَخَمْسُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذه السورة - سورة إبراهيم - مكية ، موضوعها الأساسي هو موضوع السور المكية الغالب : العقيدة في أصولها الكبيرة : الوحي والرسالة والتوحيد والبعث والحساب والجزاء .

ولكن السياق في السورة يسلك نهجاً خاصاً بها في عرض هذا الموضوع وحقائقه الأصيلة . نهجاً مفرداً يميزها - كالثأن في كل سورة قرآنية - عن السور غيرها . يميزها بجوها وطريقة أدائها ، والأضواء والظلال الخاصة التي تعرض فيها حقائقها الكبرى . ولون هذه الحقائق التي قد لا تفترق موضوعياً عن مثيلاتها في السور الأخرى ؛ ولكنها تعرض من زاوية خاصة ، في أضواء خاصة فتوحى إحياءات خاصة . كما تختلف مساحتها في رقعة السورة وجوها ، فتزيد أطرافاً وتنقص أطرافاً ، فيحسها القارئ جديدة بما وقع فيها من تجديد في « اللقطات الفنية » . ونحن نستعمل هذا التعبير « اللقطات الفنية » لأنه يلاحظ في صورته المعجزة في طريقة الأداء القرآنية !

ويبدو أنه كان لجو السورة من اسمها نصيب .. إبراهيم .. أبو الأنبياء .. المبارك ، الشاكر الأواه المنيب . وكل الظلال التي تخلعها هذه الصفات ملحوظة في جو السورة ، وفي الحقائق التي تبرزها ، وفي طريقة الأداء ، وفي التعبير والإيقاع .

ولقد تضمنت السورة عدة حقائق رئيسية في العقيدة . ولكن حقيقتين كبيرتين تظللان جو السورة كلها . وهما الحقيقتان المتناسقتان مع ظل إبراهيم في جو السورة : حقيقة وحدة الرسالة والرسول ، ووحدة دعوتهم ، ووقفهم أمة واحدة في مواجهة الجاهلية المكذبة بدين الله على اختلاف الأمكنة والأزمان . وحقيقة نعمة الله على البشر وزيادتها بالشكر ؛ ومقابلة أكثر الناس لها بالجحود والكفران ..

وبروز هاتين الحقيقتين ، أو هذين الظلين . لا ينفي أن هناك حقائق أخرى في سياق السورة . ولكن هاتين الحقيقتين تظللان جو السورة . وهذا ما أردنا الإشارة إليه :

تبدأ السورة ببيان وظيفة الرسول وما أوتيته من كتاب .. فهي إخراج الناس من الظلمات إلى النور بإذن الله :

« كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد » .

وتختم بهذا المعنى وبالْحَقِيقَةِ الْكُبْرَى التي تتضمنها الرسالة . حقيقة التوحيد :

« هذا بلاغ للناس ولينذروا به ، وليعلموا إنما هو إله واحد ، وليذكر أولو الألباب » .
وفي أثنائها يذكر أن موسى قد أرسل بمثل ما أرسل به محمد - صلى الله عليه وسلم - ولمثل ما أرسل به ، حتى في ألفاظ التعبير :

« ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور » ..

ويذكر كذلك أن وظيفة الرسل عامة كانت هي البيان :

« وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم » ..

وتتضمن إلى جانب وظيفة الرسول بيان حقيقته البشرية ، وهي التي تحدد وظيفته . فهو مبلغ ومنذر وناصح ومبين . ولكنه لا يملك أن يأتي بخارقة إلا بإذن الله ، وحين يشاء الله ، لا حين يشاء هو أو قومه ؛ ولا يملك كذلك أن يهدي قومه أو يضلهم ، فالهدى والضلال متعلقان بسنة الله التي اقتضتها مشيئته المطلقة .
ولقد كانت بشرية الرسل هي موضع الاعتراض من جميع الأقسام في جاهليتهم ، والسورة هنا تحكي قولهم مجتمعين :

« قالوا : إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا ، فأتونا بسطان مبين » .

وتحكي رد رسلهم كذلك مجتمعين :

« قالت لهم رسلهم : إن نحن إلا بشر مثلكم ، ولكن الله يمن على من يشاء من عباده . وما كان لنا أن نأتيكم بسطان إلا بإذن الله . وعلى الله فليتوكل المؤمنون » .

ويتضمن السياق كذلك أن إخراج الناس من الظلمات إلى النور إنما يتم « بإذن ربهم » .. وكل رسول يبين لقومه « فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء ، وهو العزيز الحكيم » .

وبهذا وذلك تتحدد حقيقة الرسول ، فتحدد وظيفته في حدود هذه الحقيقة ، ولا تشبه حقيقة الرسل البشرية وصفاتهم ، بشيء من حقيقة الذات الإلهية وصفاتها . وكذلك يتجرد توحيد الله بلا ظل من مماثلة أو مشابهة .

كذلك تتضمن السورة تحقق وعد الله للرسل والمؤمنين بهم إيماناً حقاً . تحقق ذلك الوعد في الدنيا بالنصر والاستخلاف ، وفي الآخرة بعذاب المكذبين ونعيم المؤمنين .

يصور السياق هذه الحقيقة الكبيرة في نهاية المعركة بين الرسل مجتمعين وقومهم مجتمعين في الدنيا :

« وقال الذين كفروا لرسولهم : لنخرجنكم من أرضنا أو لنعودن في ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ، ولنسكننكم الأرض من بعدهم . ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد .. واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد .. » .
ويصورها في مشاهد القيامة في الآخرة :

« وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن ربهم تحيتهم فيها سلام » ..

« وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد ، سرايلهم من قطران وتغشى وجوههم النار » ..

ويصورها في الأمثال التي يضربها لهؤلاء وهؤلاء :

« ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ؛ ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون . ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت

من فوق الأرض ما لها من قرار . يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، ويضل الله الظالمين ، ويفعل الله ما يشاء ..

« مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف ، لا يقدرון مما كسبوا على شيء . ذلك هو الضلال البعيد » ..

* * *

فأما الحقيقتان اللتان تظللان جو السورة ، وتتسقان مع ظل إبراهيم : أبي الأنبياء . الشكور الأواه المنيب ، وهما حقيقة وحدة الرسالة والرسول ، ووحدة دعوتهم ، ووقفهم أمة واحدة في مواجهة الجاهلية المكذبة . وحقيقة نعمة الله على البشر كافة وعلى المختارين منهم بصفة خاصة .. فنفردهما هنا بالحديث .

فأما الحقيقة الأولى فيبرزها السياق في معرض فريد في طريقة الأداء . لقد أبرزها سياق بعض السور الماضية في صورة توحيد الدعوة التي يجيء بها كل رسول ، فيقول كلمته لقومه ويمضي ، ثم يجيء رسول ورسول . كلهم يقولون الكلمة ذاتها ، ويلقون الرد ذاته ، ويصيب المكذبين ما يصيبهم في الدنيا ، ويُنظر بعضهم ويمهل إلى أجل في الأرض أو إلى أجل في يوم الحساب . ولكن السياق هناك كان يعرض كل رسول في مشهد ، كالشريط المتحرك منذ الرسالات الأولى . وأقرب مثل لهذا النسق سورة الأعراف وسورة هود .

فأما سورة إبراهيم - أبي الأنبياء - فتجمع الأنبياء كلهم في صف وتجمع الجاهليين كلهم في صف . وتجري المعركة بينهم في الأرض ، ثم لا تنتهي هنا ، بل تتابع خطواتها كذلك في يوم الحساب !
ونبصر فنشهد أمة الرسل ، وأمة الجاهلية ، في صعيد واحد ، على تباعد الزمان والمكان . فالزمان والمكان عرضان زائلان ، أما الحقيقة الكبرى في هذا الكون - حقيقة الإيمان والكفر - فهي أضخم وأبرز من عرضي الزمان والمكان :

« ألم يأتكم نبا الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود . والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله . جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم ، وقالوا : إنا كافرين بما أرسلتم به ، وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب . قالت رسلهم : أفي الله شك فاطر السماوات والأرض ، يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ، ويؤخركم إلى أجل مسمى ؟ قالوا : إن أنتم إلا بشر مثلنا ، تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا ، فأتونا بسلطان مبين . قالت لهم رسلهم : إن نحن إلا بشر مثلكم ، ولكن الله يمين على من يشاء من عباده ، وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون . وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ، ولنصبرن على ما آذيتمونا . وعلى الله فليتوكل المتوكلون . وقال الذين كفروا لرسولهم : لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا . فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ، ولنسكننكم الأرض من بعدهم . ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد .

« واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد ، من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد ، يتجرعه ولا يكاد يسيغه ، ويأتيه الموت من كل مكان ، وما هو بميت ، ومن ورائه عذاب غليظ » ..

فها هنا تتجمع الأجيال من لدن نوح وتتجمع الرسل ؛ ويتلاشى الزمان والمكان ؛ وتبرز الحقيقة الكبرى : حقيقة الرسالة وهي واحدة . واعتراضات الجاهليين عليها وهي واحدة . وحقيقة نصر الله للمؤمنين وهي واحدة . وحقيقة استخلاف الله للصالحين وهي واحدة . وحقيقة الخيبة والخذلان للمتجبرين وهي واحدة . وحقيقة العذاب الذي ينتظرهم هناك وهي واحدة .. وذلك إلى التماثل بين قول الله لمحمد - صلى الله عليه وسلم - :

« كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور » .

وحكاية قوله لموسى - عليه السلام - :

« ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور » .

ولا تنتهي المعركة بين الكفر والإيمان هنا بل يتابع السياق خطواته بها إلى ساحة الآخرة . فتبرز معالمها في مشاهد القيامة المتنوعة التي تتضمنها السورة . وهذه نماذج منها :

« وبرزوا لله جميعاً ، فقال الضعفاء للذين استكبروا : إنا كنا لكم تبعاً ، فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء ؟ قالوا : لو هدانا الله لهديناكم ، سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص . وقال الشيطان لما قضي الأمر : إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم ، وما كان لي عليكم من سلطان ، إلا أن أدعوتكم فاستجبتم لي ، فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ، ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي ، إني كفرت بما أشركتمون من قبل ، إن الظالمين لهم عذاب أليم .. وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن ربهم ، تحيهم فيها سلام » ..

« ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون ، إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار . مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء » ..

« وقد مكروا مكروهم ، وعند الله مكروهم وإن كان مكروهم لتزول منه الجبال . فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله . إن الله عزيز ذو انتقام . يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ، وبرزوا لله الواحد القهار ، وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد . سرايلهم من قطران وتغشى وجوههم النار » ... وهي كلها تشير إلى أنها معركة واحدة تبدأ في الدنيا وتنتهي في الآخرة ، وتكمل إحداها الأخرى بلا انقطاع ولا انفصال .

وتكمل الأمثال التي تبدأ في الدنيا وتنتهي في الآخرة كذلك إبراز معالم المعركة بين الفريقين . ونتائجها الأخيرة : مثل الكلمة الطيبة كالشجرة الطيبة : شجرة النبوة . وشجرة الإيمان ، وشجرة الخير . والكلمة الخبيثة : كالشجرة الخبيثة : شجرة الجاهلية والباطل والتكذيب والشر والطغيان .

* * *

وأما الحقيقة الثانية المتعلقة بالنعمة والشكر والبطر فتطبع جو السورة كله ، وتتناثر في سياقها .

يعدد الله نعمه على البشر كافة . مؤمنهم وكافرهم ، صالحهم وطالحهم ، برهم وفاجرهم . طائعهم وعاصيهم . وإنها لرحمة من الله وسماحة وفضل أن يتيح للكافر والفاجر والعاصي نعمه في هذه الأرض . كالمؤمن والبار والطائع : لعلهم يشكرون . ويعرض هذه النعمة في أضخم مجالي الكون وأبرزها . ويضعها داخل إطار من مشاهد الوجود العظيمة :

« الله الذي خلق السموات والأرض ، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ؛ وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره ، وسخر لكم الأنهار . وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار . وآتاكم من كل ما سألتموه ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها . إن الإنسان لظلوم كفار » ..

وفي إرسال الرسل للناس نعمة تعدل تلك أو تربو عليها :

« كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور » ..

والنور أجلّ نعم الله في الوجود . والنور هنا هو النور الأكبر . النور الذي يشرق به كيان الإنسان ، ويشرق به الوجود في قلبه وحسه .. وكذلك كانت وظيفة موسى في قومه . ووظيفة الرسل كما بينها السورة .
وفي قول للرسل مجتمعين :

« يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم » ..

والدعوة لأجل الغفران نعمة تعدل نعمة النور ، وهي منه قريب ..

وفي جو الحديث عن النعمة يذكر موسى قومه بأنعم الله عليهم :

« وإذ قال موسى لقومه : اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم » .

وفي هذا الجو يذكر وعد الله للرسل :

« فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الأرض من بعدهم . ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد » ..
وهي نعمة من نعم الله الكثار الكبار .

ويبرز السياق حقيقة زيادة النعمة بالشكر :

« وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذابي لشديد » ..

مع بيان أن الله غني عن الشكر وعن الشاكرين :

« إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد » .

ويقرر السياق أن الإنسان في عمومه لا يشكر النعمة حق الشكر :

« وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار » ..

ولكن الذين يتدبرون آيات الله ، وتتفتح لها بصائرهم يصبرون على البأساء ويشكرون على النعماء :

« إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور » .

ويمثل الصبر والشكر في شخص إبراهيم في موقف خاشع ، وفي دعاء واجف ، عند بيت الله الحرام ،
كله حمد وشكر وصبر ودعاء .

« وإذ قال إبراهيم : رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبني أن نعبد الأصنام . رب إنهن أضللن كثيراً من الناس ، فمن تبعني فإنه مني ، ومن عصاني فإنك غفور رحيم . ربنا إنني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم . ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون . ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن ، وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء . الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربي لسميع الدعاء . رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ، ربنا وتقبل دعاء ، ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب » ..

ولأن النعمة والشكر عليها والكفر بها تطبع جو السورة تجيء التعبيرات والتعليقات فيها متناسقة مع هذا الجو :

« وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » ..

« إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور » ..

« ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار ..
اذكروا نعمة الله عليكم .. »

« الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق .. »

وفي رد الأنبياء على اعتراض المكذبين بأنهم بشر يجيء :

« ولكن الله يمن على من يشاء من عباده .. »

فيرزمنة الله تنسيقاً للرد مع جو السورة كله . جو النعمة والمنة والشكر والكفران ..

وهكذا يتساقط التعبير اللفظي مع ظلال الجو العام في السورة كلها على طريقة التناسق الفني في القرآن ..

* * *

وتنقسم السورة إلى مقطعين متماسكي الحلقات :

المقطع الأول يتضمن بيان حقيقة الرسالة وحقيقة الرسول . ويصور المعركة بين أمة الرسل وفرقة المكذبين في الدنيا وفي الآخرة ، ويعقب عليها بمثل الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة .

والمقطع الثاني يتحدث عن نعم الله على البشر ، والذين كفروا بهذه النعمة وبطروا . والذين آمنوا بها وشكروا ونمذجهم الأول هو إبراهيم . ويصور مصير الظالمين الكافرين بنعمة الله في سلسلة من أعنف مشاهد القيامة وأجملها ، وأحفلها بالحركة والحياة .. ليختم السورة ختاماً يتسق مع مطلعها :

« هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد ، وليذكر أولو الألباب .. »

فلنأخذ في السير مع المقطع الأول في السياق :

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّ كَتَبُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾
 اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ
 الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا
 مِنْ رُسُلٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۗ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤﴾
 وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِعَايِنِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَسْمِ اللَّهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
 لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ
 يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدْحِقُونَ أبنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۗ فِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾
 وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرًا أَنتُمْ وَمَنْ
 فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾

الرَّ يَا تَكْرُمًا نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۗ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ۗ جَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ
 بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ ۗ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ
 مُرِيبٍ ﴿٩﴾ * قَالَتْ رُسُلُهُمْ أِنِّي اللَّهُ شَكُّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤْتِيَكُمْ
 إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوا إِنَّا نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۗ تَصُدُّونَنَا وَأَنْتُمْ كَانُوا عَبِيدًا ۗ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ ۗ وَمَا كَانُوا لِنَا أَن نَّاتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ
 قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنَّا نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ۗ مَنْ عَلَىٰ مِنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۗ وَمَا كَانُوا لِنَا أَن نَّاتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ
 إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا ۗ سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ
 عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا

أَوَلْتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٦﴾ وَلَنُسَكِّنَنَّكَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٧﴾

وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَجْرَعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾
مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾

وَبَرُّوا اللَّهَ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَّنا اللَّهُ لَهَدَيْتُكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ سَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّجِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تُلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلِ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾

وَأَدْخَلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٢٣﴾

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يَثْبُتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾

« أُر . كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد . الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض ، وويل للكافرين من عذاب شديد . الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ، ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً ، أولئك في ضلال بعيد . وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ، يفضل الله من يشاء ، ويهدي من يشاء ، وهو العزيز الحكيم » ..
ألف لام . را .. « كتاب أنزلناه إليك » ..

هذا الكتاب المؤلف من جنس هذه الأحرف كتاب أنزلناه إليك . لم تنشئه أنت . أنزلناه إليك لغاية :
« لتخرج الناس من الظلمات إلى النور » ..

لتخرج هذه البشرية من الظلمات . ظلمات الوهم والخرافة . وظلمات الأوضاع والتقاليد . وظلمات الحيرة في تيه الأرباب المتفرقة ، وفي اضطراب التصورات والقيم والموازن .. لتخرج البشرية من هذه الظلمات كلها إلى النور . النور الذي يكشف هذه الظلمات . يكشفها في عالم الضمير وفي دنيا التفكير . ثم يكشفها في واقع الحياة والقيم والأوضاع والتقاليد .

والإيمان بالله نور يشرق في القلب ، فيشرق به هذا الكيان البشري ، المركب من الطينة الغليظة ومن نفخة روح الله . فإذا ما خلا من إشراق هذه النفخة ، وإذا ما طمست فيه هذه الإشراق استحال طينة معتمة . طينة من لحم ودم كالبهيمة ، فاللحم والدم وحدهما من جنس طينة الأرض ومادتها . لولا تلك الإشراق التي تنتفض فيه من روح الله ، يرققها الإيمان ويجلوها ، ويطلقها تشف في هذا الكيان المعتم ، ويشف بها هذا الكيان المعتم .

والإيمان بالله نور تشرق به النفس ، فترى الطريق . ترى الطريق واضحة إلى الله ، لا يشوبها غبش ولا يحجبها ضباب . غبش الأوهام وضباب الخرافات . أو غبش الشهوات وضباب الأطماع . ومتى رأت الطريق سارت على هدى لا تتعث ولا تضطرب ولا تتردد ولا تحتار .

والإيمان بالله نور تشرق به الحياة . فإذا الناس كلهم عباد متساوون . تربط بينهم آصرتهم في الله وتمحض دينوتهم له دون سواه ، فلا ينقسمون إلى عبيد وطغاة . وتربطهم بالكون كله رابطة المعرفة . معرفة الناموس المسير لهذا الكون وما فيه ومن فيه . فإذا هم في سلام مع الكون وما فيه ومن فيه .

والإيمان بالله نور . نور العدل . ونور الحرية . ونور المعرفة . ونور الأنس بجوار الله ، والاطمئنان إلى عدله ورحمته وحكمته في السراء والضراء . ذلك الاطمئنان الذي يستتبع الصبر في الضراء والشكر في السراء على نور من إدراك الحكمة في البلاء .

والإيمان بالله وحده إلهاً ورباً ، منهج حياة كامل لا مجرد عقيدة تغمر الضمير وتسكب فيه النور .. منهج حياة يقوم على قاعدة العبودية لله وحده ، والدينونة لربوبيته وحده ، والتخلص من ربوبيات العبيد ، والاستعلاء على حاكمية العبيد ..

وفي هذا المنهج من المواءمة مع الفطرة البشرية ، ومع الحاجات الحقيقية لهذه الفطرة ، ما يملأ الحياة سعادة ونوراً وطمأنينة وراحة . كما أن فيه من الاستقرار والثبات عاصماً من التقلبات والتخبطات التي تتعرض لها المجتمعات التي تخضع لربوبية العبيد ، وحاكمية العبيد ، ومناهج العبيد في السياسة والحكم وفي الاقتصاد والاجتماع ، وفي الخلق والسلوك ، وفي العادات والتقاليد .. وذلك فوق صيانة هذا المنهج للطاقة البشرية أن تبذل في تأليه العبيد ، والطلب والزمير للطواغيت !!!

وإن وراء هذا التعبير القصير : « لتخرج الناس من الظلمات إلى النور .. » لآفاقاً بعيدة لحقائق ضخمة عميقة في عالم العقل والقلب . وفي عالم الحياة والواقع ، لا يبلغها التعبير البشري ولكنه يشير !
« لتخرج الناس من الظلمات إلى النور .. بإذن ربهم » ..

فليس في قدرة الرسول إلا البلاغ ، وليس من وظيفته إلا البيان . أما إخراج الناس من الظلمات إلى النور ، فإنما يتحقق بإذن الله ، وفق سنته التي ارتضتها مشيئته ، وما الرسول إلا رسول !
« لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم » .. « إلى صراط العزيز الحميد » ..

فالصراط بدل من النور . وصراط الله : طريقه ، وسنته ، وناموسه الذي يحكم الوجود وشريعته التي تحكم الحياة . والنور يهدي إلى هذا الصراط ، أو النور هو الصراط . وهو أقوى في المعنى . فالنور المشرق في ذات النفس هو المشرق في ذات الكون . هو السنة . هو الناموس . هو الشريعة . والنفس التي تعيش في هذا النور لا تخطئ الإدراك ولا تخطئ التصور ولا تخطئ السلوك . فهي على صراط مستقيم .. « صراط العزيز الحميد » .. مالك القوة القاهر المسيطر المحمود المشكور .

والقوة تبرز هنا لتهديد من يكفرون ، والحمد يبرز لتذكير من يشكرون .. ثم يعقبا التعريف بالله سبحانه . إنه مالك ما في السماوات وما في الأرض ، الغني عن الناس ، المسيطر على الكون وما فيه ومن فيه :
« الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض » ..

فمن خرج واهتدى فذاك . ولا يذكر عنه شيئاً هنا ، إنما يمضي السياق إلى تهديد الكافرين ينذرهم بالويل من عذاب شديد . جزاء كفرهم هذه النعمة . نعمة إرسال الرسول بالكتاب ليخرجهم من الظلمات إلى النور . وهي النعمة الكبرى التي لا يقوم لها شكر إنسان . فكيف بالكفران :
« وويل للكافرين من عذاب شديد » ..

ثم يكشف عن صفة تحمل معنى العلة لكفر الكافرين بنعمة الله التي يحملها رسوله الكريم :
« الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة » .. « ويصدون عن سبيل الله ، ويغفونها عوجاً ، أولئك في ضلال بعيد » ..
فاستحباب الحياة الدنيا على الآخرة يصطدم بتكاليف الإيمان ، ويتعارض مع الاستقامة على الصراط . وليس الأمر كذلك حين تستحب الآخرة ، لأنه عندئذ تصلح الدنيا ، ويصبح المتاع بها معتدلاً ، ويراعى فيه وجه الله . فلا يقع التعارض بين استحباب الآخرة ومتاع هذه الحياة .

إن الذين يوجهون قلوبهم للآخرة ، لا يحسرون متاع الحياة الدنيا - كما يقوم في الأخيلة المنحرفة - فصلاح الآخرة في الإسلام يقتضي صلاح هذه الدنيا . والإيمان بالله يقتضي حسن الخلافة في الأرض . وحسن الخلافة في الأرض هو استعمارها والتمتع بطبيعتها . إنه لا تعطيل للحياة في الإسلام انتظاراً للآخرة ، ولكن تعمير للحياة بالحق والعدل والاستقامة ابتغاء رضوان الله ، وتمهيداً للآخرة .. هذا هو الإسلام .

فأما الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ، فلا يملكون أن يصلوا إلى غاياتهم من الاستئثار بخيرات الأرض ، ومن الكسب الحرام ، ومن استغلال الناس وغشهم واستعبادهم .. لا يملكون أن يصلوا إلى غاياتهم هذه في نور الإيمان بالله ، وفي ظل الاستقامة على هداه . ومن ثم يصدون عن سبيل الله . يصدون أنفسهم ويصدون الناس ، ويبغونها عوجاً لا استقامة فيها ولا عدالة . وحين يفلحون في صد أنفسهم وصد غيرهم عن سبيل الله ، وحين يتخلصون من استقامة سبيله وعدالتها ، فعندئذ فقط يملكون أن يظلموا وأن يظفوا وأن

يغشوا وأن ينجذعوا وأن يغرروا الناس بالفساد ، فيتم لهم الحصول على ما ييغونه من الاستئثار بخيرات الأرض ، والكسب الحرام ، والمتاع المرذول ، والكبرياء في الأرض ، وتعييد الناس بلا مقاومة ولا استنكار .
إن منهج الإيمان ضماناً للحياة وضماناً للأحياء من أثره الذين يستحيون الحياة الدنيا على الآخرة ، واستئثارهم بخيرات هذه الحياة .

« وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم » ..

وهذه نعمة شاملة للبشر في كل رسالة . فلنكن يتمكن الرسول من إخراج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم ، لم يكن بد من أن يرسل بلغتهم ، ليبين لهم ويفهموا عنه ، فتمت الغاية من الرسالة .

وقد أرسل النبي - صلى الله عليه وسلم - بلسان قومه - وإن كان رسولاً إلى الناس كافة - لأن قومه هم الذين سيحملون رسالته إلى كافة البشر . وعمره - صلى الله عليه وسلم - محدود . وقد أمر ليدعو قومه أولاً حتى تخلص الجزيرة العربية للإسلام . ومن ثم تكون مهدياً يخرج منه حملة رسالة محمد إلى سائر بقاع الأرض . والذي حدث بالفعل - وهو من تقدير الله العليم الخبير - أن اختير الرسول إلى جوار ربه عند انتهاء الإسلام إلى آخر حدود الجزيرة ، وبعث جيش أسامة إلى أطراف الجزيرة ، الذي توفي الرسول - صلى الله عليه وسلم - ولم يتحرك بعد .. وحقيقة إن الرسول قد بعث برسائله إلى خارج الجزيرة يدعو إلى الإسلام ، تصديقاً لرسالته إلى الناس كافة . ولكن الذي قدره الله له ، والذي يتفق مع طبيعة العمر البشري المحدود ، أن يبلغ الرسول - صلى الله عليه وسلم - قومه بلسانهم ، وأن تم رسالته إلى البشر كافة عن طريق حملة هذه الرسالة إلى الأصقاع .. وقد كان .. فلا تعارض بين رسالته للناس كافة ، ورسالته بلسان قومه ، في تقدير الله ، وفي واقع الحياة .

« وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم » .. « فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء » ..

إذ تنتهي مهمة الرسول - كل رسول - عند البيان . أما ما يترتب عليه من هدى ومن ضلال ، فلا قدرة له عليه ، وليس خاضعاً لرغبته ، إنما هو من شأن الله . وضع له سنة ارتضتها مشيئته المطلقة . فن سار على درب الضلال ضل ، ومن سار على درب الهدى وصل .. هذا وذلك يتبع مشيئة الله ، التي شرعت سنته في الحياة .

« وهو العزيز الحكيم » ..

القادر على تصريف الناس والحياة ، بصرفهم بحكمة وتقدير فليست الأمور متروكة جزافاً بلا توجيه ولا

تدبير .

* * *

وكذلك كانت رسالة موسى . بلسان قومه .

« ولقد أرسلنا موسى بآياتنا : أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور ، وذكرهم بأيام الله . إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور . وإذ قال موسى لقومه : اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون ، يسومونكم سوء العذاب ، ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم ، وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم . وإذ تأذن ربكم : لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذابي لشديد . وقال موسى : إن تكفروا أتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد » ..

والتعبير يوحد بين صيغة الأمر الصادر لموسى والصادر لمحمد - عليهما صلاة الله وسلامه - تمثيلاً مع نسق الأداء في السورة - وقد تحدثنا عنه آنفاً - فإذا الأمر هناك :

« لتخرج الناس من الظلمات إلى النور » ..

والأمر هنا :

« أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور » ..

الأولى للناس كافة والثانية لقوم موسى خاصة ، ولكن الغاية واحدة :

« أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور » .. « وذكرهم بأيام الله » ..

وكل الأيام أيام الله . ولكن المقصود هنا أن يذكرهم بالأيام التي يبدو فيها للبشر أو لجماعة منهم أمر بارز أو خارق بالنعمة أو بالنقمة ؛ كما سيجيء في حكاية تذكير موسى لقومه . وقد ذكرهم بأيام لهم ، وأيام لأقوام نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم . فهذه هي الأيام .

« إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور » ..

ففي هذه الأيام ما هو بؤسى فهو آية للصبر ، وفيها ما هو نعمى فهو آية للشكر . والصبار الشكور هو الذي يدرك هذه الآيات ، ويدرك ما وراءها ، ويجد فيها عبرة له وعظة ؛ كما يجد فيها تسرية وتذكيراً .

وراح موسى يؤدي رسالته ، ويذكر قومه :

« وإذ قال موسى لقومه : اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ،

ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم ، وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم » ..

إنه يذكرهم بنعمة الله عليهم . نعمة النجاة من سوء العذاب الذي كانوا يلقونه من آل فرعون ، يسامونه سوماً ، أي يوالون به ويتابعون ، فلا يفتر عنهم ولا ينقطع . ومن ألوانه البارزة تذبيح الذكور من الأولاد واستحياء الإناث ، منعاً لتكاثر القوة المانعة فيهم واستبقاء لضعفهم وذلمهم . فإجاء الله لهم من هذه الحال نعمة تذكير . وتذكر لتشكر .

« وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم » ..

بلاء بالعذاب أولاً ، لامتحان الصبر والتماسك والمقاومة والعزم على الخلاص والعمل له . فليس الصبر هو احتمال الذل والعذاب وكفى . ولكن الصبر هو احتمال العذاب بلا تضعف ولا هزيمة روحية ، واستمرار العزم على الخلاص ، والاستعداد للوقوف في وجه الظلم والطغيان . وإلا فما هو صبر مشكور ذلك الاستسلام للذل والهوان .. وبلاء بالنجاة ثانياً لامتحان الشكر ، والاعتراف بنعمة الله ، والاستقامة على الهدى في مقابل النجاة .

ويمضي موسى في البيان لقومه . بعد ما ذكرهم بأيامه . ووجههم إلى الغاية من العذاب والنجاة . وهي الصبر للعذاب والشكر للنجاة .. يمضي ليبين لهم ما رتبته الله جزاء على الشكر والكفران :

« وإذ تأذن ربكم : لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذابي لشديد » ..

ونقف نحن أمام هذه الحقيقة الكبيرة : حقيقة زيادة النعمة بالشكر ، والعذاب الشديد على الكفر .

نقف نحن أمام هذه الحقيقة تطمئن إليها قلوبنا أول وهلة لأنها وعد من الله صادق . فلا بد أن يتحقق

على أية حال .. فإذا أردنا أن نرى مصداقها في الحياة ، ونبحث عن أسبابه المدركة لنا . فإننا لا نبعد كثيراً في تلمس الأسباب .

إن شكر النعمة دليل على استقامة المقاييس في النفس البشرية . فالخير يشكر لأن الشكر هو جزاؤه الطبيعي في الفطرة المستقيمة ..

هذه واحدة .. والأخرى أن النفس التي تشكر الله على نعمته . تراقبه في التصرف بهذه النعمة . بلا بطر ، وبلا استعلاء على الخلق ، وبلا استخدام للنعمة في الأذى والشر والدنس والفساد .

وهذه وتلك مما يزكي النفس ، ويدفعها للعمل الصالح ، وللتصرف الصالح في النعمة بما ينميها ويبارك فيها ؛ ويرضي الناس عنها وعن صاحبها ، فيكونون له عوناً ؛ ويصلح روابط المجتمع فتتم في الثروات في أمان . إلى آخر الأسباب الطبيعية الظاهرة لنا في الحياة . وإن كان وعد الله بذاته يكفي لاطمئنان المؤمن ، أدرك الأسباب أولم يدركها ، فهو حق واقع لأنه وعد الله .

والكفر بنعمة الله قد يكون بعدم شكرها . أو بإنكار أن الله واهبها ، ونسبتها إلى العلم والخبرة والكبد الشخصي والسعي ! كأن هذه الطاقات ليست نعمة من نعم الله ! وقد يكون بسوء استخدامها بالبطر والكبر على الناس واستغلالها للشهوات والفساد .. وكله كفر بنعمة الله ..

والعذاب الشديد قد يتضمن محق النعمة . عيناً بذهابها . أو سحق آثارها في الشعور . فكم من نعمة تكون بذاتها نعمة يشقى بها صاحبها ويحسد الخالين ! وقد يكون عذاباً مؤجلاً إلى أجله في الدنيا أو في الآخرة كما يشاء الله . ولكنه واقع لأن الكفر بنعمة الله لا يمضي بلا جزاء .

ذلك الشكر لا تعود على الله عائدته . وهذا الكفر لا يرجع على الله أثره . فالله غني بذاته محمود بذاته ، لا بحمد الناس وشكرهم على عطاياه .

« وقال موسى : إن تكفروا أتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد » ..

إنما هو صلاح الحياة يتحقق بالشكر ، ونفوس الناس تزكو بالاتجاه إلى الله ، وتستقيم بشكر الخير ، وتطمئن إلى الاتصال بالمنعم ، فلا تخشى نفاذ النعمة وذهابها ، ولا تذهب حسرات وراء ما ينفق أو يضيع منها . فالمنعم موجود ، والنعمة بشكره تزكو وتزيد .

* * *

ويستمر موسى في بيانه وتذكيره لقومه . ولكنه يتوارى عن المشهد لتبرز المعركة الكبرى بين أمة الأنبياء والجاهليات المكذبة بالرسول والرسالات . وذلك من بدائع الأداء في القرآن ، لإحياء المشاهد ، ونقلها من حكاية تروى إلى مشهد ينظر ويسمع ، وتتحرك فيه الشخوص ، وتتجلى فيه السمات والانفعالات ..

والآن إلى الساحة الكبرى التي يتلاشى فيها الزمان والمكان :

« ألم يأتكم نبا الذين من قبلكم ، قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله ؟ جاءتهم رسلهم بالبينات ، فردوا أيديهم في أفواههم ، وقالوا : إنا كفرنا بما أرسلتم به ، وإنا لفي شك مما تدعونا إليه مريب » ..

هذا التذكير من قول موسى . ولكن السياق منذ الآن يجعل موسى يتوارى ليستمر في عرض قصة الرسل والرسالات في جميع أزمانها . قصة الرسل والرسالات وحقيقتها في مواجهة الجاهلية ، وعاقبة المكذبين بها

على اختلاف الزمان والمكان .. وكأن موسى « راوية » يبدأ بالإشارة إلى أحداث الرواية الكبرى . ثم يدع أبطالها يتحدثون بعد ذلك ويتصرفون .. وهي طريقة من طرق العرض للقصة في القرآن ، تحول القصة المحكية إلى رواية حية كما أسلفنا . وهنا نشهد الرسل الكرام في موكب الإيمان ، يواجهون البشرية متجمعة في جاهليتها . حيث تتوارى الفواصل بين أجيالها وأقوامها . وتبرز الحقائق الكبرى مجردة عن الزمان والمكان ، كما هي في حقيقة الوجود خلف حواجز الزمان والمكان :

« ألم يأتكم نبا الذين من قبلكم : قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله ؟ » ..

فهم كثير إذن ، وهناك غير من جاء ذكرهم في القرآن . ما بين ثمود وقوم موسى . والسياق هنا لا يعنى بتفصيل أمرهم ، فهناك وحدة في دعوة الرسل ووحدة فيما قوبلت به :

« جاءتهم رسلهم بالبينات » ..

الواضحات التي لا يلتبس أمرها على الإدراك السليم .

« فردوا أيديهم في أفواههم ، وقالوا : إنا كفرنا بما أرسلتم به ؛ وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب » .. ردوا أيديهم في أفواههم كما يفعل من يريد تمويج الصوت ليسمع عن بعد ، بتحريك كفه أمام فمه وهو يرفع صوته ذهاباً وإياباً فيتموج الصوت ويُسمع . يرسم السياق هذه الحركة التي تدل على جهرهم بالتكذيب والشك ، وإفحاشهم في هذا الجهر ، وإتيانهم بهذه الحركة الغليظة التي لا أدب فيها ولا ذوق ، إمعاناً منهم في الجهر بالكفر .

ولما كان الذي يدعوهم إليه رسلهم هو الاعتقاد بألوهية الله وحده ، وربوبيته للبشر بلا شريك من عباده .. فإن الشك في هذه الحقيقة الناطقة التي تدركها الفطرة ، وتدل عليها آيات الله الماثورة في ظاهر الكون المتجلية في صفحاته ، يبدو مستنكراً قبيحاً . وقد استنكر الرسل هذا الشك . والسموات والأرض شاهدان .

« قالت رسلهم : أفي الله شك فاطر السماوات والأرض ؟ » ..

أفي الله شك والسماوات والأرض تنطقان للفطرة بأن الله أبدعهما إبداعاً وأنشأهما إنشاءً ؟ قالت رسلهم هذا القول ، لأن السماوات والأرض آيتان هائلتان بارزتان ، فجرد الإشارة إليهما يكفي ، ويرد الشارد إلى الرشد سريعاً ، ولم يزيدوا على الإشارة شيئاً لأنها وحدها تكفي ؛ ثم أخذوا يعددون نعم الله على البشر في دعوتهم إلى الإيمان ، وفي إمهالهم إلى أجل يتدبرون فيه ويتقون العذاب :

« أفي الله شك فاطر السماوات والأرض . يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم » .

والدعوة أصلاً دعوة إلى الإيمان ، المؤدي إلى المغفرة . ولكن السياق يجعل الدعوة مباشرة للمغفرة ، لتتجل نعمة الله ومنته . وعندئذ يبدو عجيباً أن يدعى قوم إلى المغفرة فيكون هذا تلقينهم للدعوة !

« يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم » .. « ويؤخركم إلى أجل مسمى » ..

فهو - سبحانه - مع الدعوة للمغفرة لا يعجلكم بالإيمان فور الدعوة ، ولا يأخذكم بالعذاب فور التكذيب . إنما يمن عليكم منة أخرى فيؤخركم إلى أجل مسمى . إما في هذه الدنيا وإما إلى يوم الحساب ، ترجعون فيه إلى نفوسكم ، وتدبرون آيات الله ويبان رسلكم . وهي رحمة وسماحة تحسبان في باب النعم .. فهل هذا هو جواب دعوة الله الرحيم المنان ؟!

هنا يرجع القوم في جهالتهم إلى ذلك الاعتراض الجهول :

« قالوا : إن أتم إلا بشر مثلنا ، تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا .. »

وبدلاً من أن يعترف البشر باختيار الله لواحد منهم ليحمل رسالته ، فإنهم لجهالتهم ينكرون هذا الاختيار ، ويجعلونه مثار ريبة في الرسل المختارين ؛ ويعللون دعوة رسلهم لهم بأنها رغبة في تحويلهم عما كان يعبد آباؤهم . ولا يسألون أنفسهم : لماذا يرغب الرسل في تحويلهم؟! وبطبيعة الجمود العقلي الذي تطبعه الوثنيات في العقول لا يفكرون فيما كان يعبد آباؤهم : ما قيمته؟ ما حقيقته؟ ماذا يساوي في معرض النقد والتفكير؟! وبطبيعة الجمود العقلي كذلك لا يفكرون في الدعوة الجديدة ، إنما يطلبون خارقة ترغهم على التصديق :

« فأتونا بسلطان مبين » ..

ويرد الرسل .. لا ينكرون بشريتهم بل يقررونها ، ولكنهم يوجهون الأنظار إلى منة الله في اختيار رسل من البشر ، وفي منحهم ما يؤهلهم لحمل الأمانة الكبرى :

« قالت لهم رسلهم : إن نحن إلا بشر مثلكم . ولكن الله يمن على من يشاء من عباده » ..

ويذكر السياق لفظ « يمن » تسيقاً للحوار مع جو السورة . جو الحديث عن نعم الله . ومنها هذه المنة على من يشاء من عباده . وهي منة ضخمة لا على أشخاص الرسل وحدهم . ولكن كذلك على البشرية التي تشرف بانتخاب أفراد منها لهذه المهمة العظمى . مهمة الاتصال والتلقي من الملأ الأعلى . وهي منة على البشرية بتذكير الفطرة التي ران عليها الركام لتخرج من الظلمات إلى النور ؛ ولتتحرك فيها أجهزة الاستقبال والتلقي فتخرج من الموت الراكد إلى الحياة المفتحة .. ثم هي المنة الكبرى على البشرية بإخراج الناس من الدينونة للعباد إلى الدينونة لله وحده بلا شريك ؛ واستنقاذ كرامتهم وطاقتهم من الذل والتبدد في الدينونة للعباد .. الذل الذي يحيي هامة إنسان لعبده مثله ! والتبدد الذي يسخر طاقة إنسان لتأليه عبد مثله !

فأما حكاية الإتيان بسلطان مبين ، وقوة خارقة ، فالرسل يبينون لقومهم أنها من شأن الله . ليفرقوا في مداركهم المبهمة المظلمة بين ذات الله الإلهية ، وذواتهم هم البشرية ، وليمحسوا صورة التوحيد المطلق الذي لا يلبس بمشابهة في ذات ولا صفة ، وهي المتاهة التي تاهت فيها الوثنيات كما تاهت فيها التصورات الكنسية في المسيحية عندما تلبست بالوثنيات الإغريقية والرومانية والمصرية والهندية . وكانت نقطة البدء في المتاهة هي نسبة الخوارق إلى عيسى - عليه السلام - بذاته واللبس بين ألوهية الله وعبودية عيسى عليه السلام !

« وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله » ..

وما نعتمد على قوة غير قوته :

« وعلى الله فليتوكل المؤمنون » ..

يطلقها الرسل حقيقة دائمة . فعلى الله وحده يتوكل المؤمن ، لا يتلفت قلبه إلى سواه ، ولا يرجو عوناً إلا منه ، ولا يرتكن إلا إلى حماه .

ثم يواجهون الطغيان بالإيمان ، ويواجهون الأذى بالثبات ؛ ويسألون للتقرير والتوكيد :

« وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا؟ ولنصبرن على ما آذيتمونا ، وعلى الله فليتوكل المتوكلون » ..

« وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا » ..

إنها كلمة المظتمن إلى موقفه وطريقه . المائى يديه من وليه وناصره . المؤمن بأن الله الذي يهدي السبيل لا بد

أن ينصر وأن يعين . وماذا يهم حتى ولو لم يتم في الحياة الدنيا نصر إذا كان العبد قد ضمن هداية السبيل ؟
والقلب الذي يحس أن يد الله - سبحانه - تقود خطاه ، وتهديه السبيل ، هو قلب موصول بالله لا يخطئ
الشعور بوجوده - سبحانه - وألوهيته القاهرة المسيطرة ؛ وهو شعور لا مجال معه للتردد في المضي في الطريق ،
أياً كانت العقبات في الطريق ، وأياً كانت قوى الطاغوت التي تتربص في هذا الطريق . ومن ثم هذا الربط
في رد الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - بين شعورهم بهداية الله لهم وبين توكلهم عليه في مواجهة التهديد
السافر من الطواغيت ؛ ثم إصرارهم على المضي في طريقهم في وجه هذا التهديد .

وهذه الحقيقة - حقيقة الارتباط في قلب المؤمن بين شعوره بهداية الله وبين بديهية التوكل عليه - لا تستشعرها
إلا القلوب التي تراول الحركة فعلاً في مواجهة طاغوت الجاهلية ؛ والتي تستشعر في أعماقها يد الله - سبحانه -
وهي تفتح لها كوى النور فتبصر الآفاق المشرقة وتستروح أنسام الإيمان والمعرفة ، وتحس الأناش والقربى ..
وحينئذ لا تحفل بما يتوعددها به طواغيت الأرض ؛ ولا تملك أن تستجيب للإغراء ولا للتهديد ؛ وهي تحققر
طواغيت الأرض وما في أيديهم من وسائل البطش والتنكيل . وماذا يخاف القلب الموصول بالله على هذا
النحو ؟ وماذا يخيفه من أولئك العبيد !؟

« وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبيلنا » ..

« ولنصبرن على ما آذيتمونا » .

لنصبرن ؛ لا نتزحزح ولا نضعف ولا تراجع ولا ننهن ، ولا نتزعزع ولا نشك ولا نفرط ولا نحيد ..
« وعلى الله فليتوكل المتوكلون » ..

وهنا يسفر الطغيان عن وجهه . لا يجادل ولا يناقش ولا يفكر ولا يتعقل ، لأنه يحس بهزيمته أمام انتصار
العقيدة ، فيسفر بالقوة المادية الغليظة التي لا يملك غيرها المتجبرون :

« وقال الذين كفروا لرسولهم : لنخرجنكم من أرضنا أو لنعودن في ملتنا ! »

هنا تتجلى حقيقة المعركة وطبيعتها بين الإسلام والجاهلية .. إن الجاهلية لا ترضى من الإسلام أن يكون له
كيان مستقل عنها . ولا تطيق أن يكون له وجود خارج عن وجودها . وهي لا تسالم الإسلام حتى لو سالمها .
فالإسلام لا بد أن يبدو في صورة تجمع حركي مستقل بقيادة مستقلة وولاء مستقل ، وهذا ما لا تطيقه الجاهلية .
لذلك لا يطلب الذين كفروا من رسولهم مجرد أن يكفوا عن دعوتهم ؛ ولكن يطلبون منهم أن يعودوا في
ملتهم ، وأن يندمجوا في تجمعهم الجاهلي ، وأن يذوبوا في مجتمعهم فلا يبقى لهم كيان مستقل . وهذا ما تأباه
طبيعة هذا الدين لأهله ، وما يرفضه الرسل من ثم ويأبونه ، فما ينبغي لمسلم أن يندمج في التجمع الجاهلي مرة
أخرى ..

وعندما تسفر القوة الغاشمة عن وجهها الصلد لا يبقى مجال للدعوة ، ولا يبقى مجال لحجة ؛ ولا يسلم
الله الرسل إلى الجاهلية ..

إن التجمع الجاهلي - بطبيعة تركيبه العضوي - لا يسمح لعنصر مسلم أن يعمل من داخله ، إلا أن يكون
عمل المسلم وجهده وطاقته لحساب التجمع الجاهلي ، ولتوطيد جاهليته ! والذين يخيل إليهم أنهم قادرون على
العمل لدينهم من خلال التسرب في المجتمع الجاهلي ، والتميع في تشكيلاته وأجهزته هم ناس لا يدركون
الطبيعة العضوية للمجتمع . هذه الطبيعة التي ترغم كل فرد داخل المجتمع أن يعمل لحساب هذا المجتمع

ولحساب منهجه وتصوره .. لذلك يرفض الرسل الكرام أن يعودوا في ملة قومهم بعد إذ نجاهم الله منها .. وهنا تتدخل القوة الكبرى فتضرب ضربتها المدمرة القاضية التي لا تقف لها قوة البشر المهازيل ، وإن كانوا طغاة متجبرين :

« فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين . ولنسكننكم الأرض من بعدهم . ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد » . ولا بد أن ندرك أن تدخل القوة الكبرى للفصل بين الرسل وقومهم إنما يكون دائماً بعد مفاصلة الرسل لقومهم .. بعد أن يرفض المسلمون أن يعودوا إلى ملة قومهم بعد إذ نجاهم الله منها .. وبعد أن يصروا على تميزهم بدينهم وبتجمعهم الإسلامي الخاص بقيادته الخاصة . وبعد أن يفاصلوا قومهم على أساس العقيدة فينقسم القوم الواحد إلى أمتين مختلفتين عقيدة ومنهجاً وقيادة وتجمعاً .. عندئذ تتدخل القوة الكبرى لتضرب ضربتها الفاصلة ، ولتدمر على الطواغيت الذين يتهددون المؤمنين ، ولتمكن للمؤمنين في الأرض ، ولتحقق وعد الله لرسله بالنصر والتمكين ... ولا يكون هذا التدخل أبداً والمسلمون متميعون في المجتمع الجاهلي ، عاملون من خلال أوضاعه وتشكيلاته ، غير منفصلين عنه ولا متميزين بتجمع حركي مستقل وقيادة إسلامية مستقلة ..

« فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين » ..

نون العظمة ونون التوكيد .. كلتاها ذات ظل وإيقاع في هذا الموقف الشديد . لنهلكن المتجبرين المهديين ، المشركين الظالمين لأنفسهم وللحق وللرسل وللناس بهذا التهديد ..

« ولنسكننكم الأرض من بعدهم » ..

لا محاباة ولا جزافاً ، إنما هي السنة الجارية العادلة :

« ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد » ..

ذلك الإسكان والاستخلاف لمن خاف مقامي ، فلم يتناول ولم يتعال ولم يستكبر ولم يتجبر . وخاف وعيد ، فحسب حسابه ، واتقى أسبابه ، فلم يفسد في الأرض ، ولم يظلم في الناس . فهو من ثم يستحق الاستخلاف ، ويناله باستحقاق .

وهكذا تلتقي القوة الصغيرة الهزيلة - قوة الطغاة الظالمين - بالقوة الجبارة الطامة - قوة الجبار المهيمن المتكبر - فقد انتهت مهمة الرسل عند البلاغ المبين والمفاصلة التي تميز المؤمنين من المكذبين .

ووقف الطغاة المتجبرون بقوتهم الهزيلة الضئيلة في صف ، ووقف الرسل الداعون المتواضعون ومعهم قوة الله - سبحانه - في صف . ودعا كلاهما بالنصر والفتح .. وكانت العاقبة كما يجب أن تكون :

« واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد . من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد . يتجرعه ولا يكاد يسيغه ، ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ، ومن ورائه عذاب غليظ » ..

والمشهد هنا عجيب . إنه مشهد الخيبة لكل جبار عنيد . مشهد الخيبة في هذه الأرض . ولكنه يقف هذا الموقف ، ومن ورائه تخاليل جهنم وصورته فيها ، وهو يُسقى من الصديد السائل من الجسم . يُسقاها بعنف فيتجرعه غضباً وكرهاً ، ولا يكاد يسيغه ، لقدارته ومرارته ، والتقرز والتكره باديان نكاد نلمحهما من خلال الكلمات ! ويأتيه الموت بأسبابه المحيطة به من كل مكان ، ولكنه لا يموت ، ليستكمل عذابه . ومن ورائه عذاب غليظ ..

إنه مشهد عجيب ، يرسم الجبار الخائب المهزوم ووراءه مصيره يخاليل له على هذا النحو المروّع الفظيع .
وتشترك كلمة « غليظ » في تفضيع المشهد ، تنسيقاً له مع القوة العاشمة التي كانوا يهددون بها دعاة الحق والخير
والصلاح واليقين .

* * *

وفي ظل هذا المصير يجيء التعقيب مثلاً مصوراً في مشهد يضرب الذين كفروا ؛ ولفتة إلى قدرة الله على
أن يُذهب المكذبين ويأتي بخلق جديد .. ذلك قبل أن يتابع مشاهد الرواية في الساحة الأخرى ، وقد أسدل
الستار على فصلها الأخير في هذه الأرض ، مخايلاً بالساحة الأخرى :

« مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف . لا يقدرُونَ مما كسبوا على
شيء . ذلك هو الضلال البعيد » ..

ومشهد الرماد تشتد به الريح في يوم عاصف مشهود معهود ، يجسم به السياق معنى ضياع الأعمال سدى ،
لا يقدر أصحابها على الإمساك بشيء منها ، ولا الانتفاع به أصلاً . يجسمه في هذا المشهد العاصف المتحرك ،
فيبلغ في تحريك الشاعر له ما لا يبلغه التعبير الذهني المجرد عن ضياع الأعمال وذهابها بدا .

هذا المشهد ينطوي على حقيقة ذاتية في أعمال الكفار . فالأعمال التي لا تقوم على قاعدة من الإيمان ، ولا
تمسكها العروة الوثقى التي تصل العمل بالباعث ، وتصل الباعث بالله .. مفككة كالهباء والرماد ، لا قوام
لها ولا نظام . فليس المعول عليه هو العمل ، ولكن باعث العمل . فالعمل حركة آلية لا يفترق فيها الإنسان
عن الآلة إلا بالباعث والقصد والغاية .

وهكذا يلتقي المشهد المصور مع الحقيقة العميقة ، وهو يؤدي المعنى في أسلوب مشوق موح مؤثر . ويلتقي
معهما التعقيب :

« ذلك هو الضلال البعيد » ..

فهو تعقيب يتفق ظله مع ظل الرماد المتطاير في يوم عاصف .. إلى بعيد !!

ثم يلتقي مع مشهد الرماد المتطاير ظل آخر في الآية التالية ، التي يلتفت فيها السياق من مصائر المكذبين السابقين
إلى المكذبين من قريش ، يهددهم بإذابهم والإتيان بخلق جديد :

« ألم تر أن الله خلق السماوات والأرض بالحق . إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد . وما ذلك على الله
بعزيز » ..

والانتقال من حديث الإيمان والكفر ، ومن قضية الرسل والجاهلية إلى مشهد السماوات والأرض .. هو
انتقال طبيعي في المنهج القرآني كما أنه انتقال طبيعي في مشاعر الفطرة البشرية يدل على ربانية هذا المنهج
القرآني ..

إن بين فطرة الكائن الإنساني وبين هذا الكون لغة سرية مفهومة !.. إن فطرته تتلاقى مباشرة مع السر
الكامن وراء هذا الكون بمجرد الاتجاه إليه والتقاط إيقاعاته ودلالاته !

والذين يرون هذا الكون ثم لا تسمع فطرتهم هذه الإيقاعات وهذه الإيهامات هم أفراد معطلو الفطرة .
في كيانهم خلل تعطلت به أجهزة الاستقبال الفطرية . كما تصاب الحواس بالتعطل نتيجة لآفة تصيبها .. كما
تصاب العين بالعمى ، والأذن بالصمم ، واللسان بالبكم !.. إنهم أجهزة تالفة لا تصلح للتلقي ؛ ومن باب

أولى لا تصلح للقيادة والزعامة !.. ومن هؤلاء كل أصحاب التفكير المادي - الذي يسمونه « المذاهب العلمية » كذباً وافتراء .. إن العلم لا يتفق مع تعطل أجهزة الاستقبال الفطرية وفساد أجهزة الاتصال الإنسانية بالكون كله ! إنهم الذين يسميهم القرآن بالعمي .. وما يمكن أن تقام الحياة الإنسانية على مذهب أو رأي أو نظام يراه أعمى !!!

إن خلق السماوات والأرض بالحق يوحى بالقدرة كما يوحى بالثبات . فالحق ثابت مستقر حتى في جرسه اللفظي .. ذلك في مقابل الرماد المتطاير إلى بعيد . وفي مقابل الضلال البعيد .

وفي ضوء مصير المعاندين الجبارين في معركة الحق والباطل يجيء التهديد :

« إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد » ..

والقادر على خلق السماوات والأرض ، قادر على استخلاف جنس غير هذا الجنس في الأرض . واستخلاف قوم مكان قوم من أقوام هذا الجنس . وظل الذهاب بالقوم يتسق من بعيد مع ظل الرماد المتطاير الذاهب إلى الفناء .

« وما ذلك على الله بعزيز » ..

وخلق السماوات والأرض شاهد . ومصارع المكذبين من قبل شاهدة . والرماد المتطاير شاهد من بعيد ! ألا إنه الإعجاز في تنسيق المشاهد والصور والظلال في هذا القرآن !

* * *

ثم نرقى إلى أفق آخر من آفاق الإعجاز في التصوير والأداء والتنسيق . فلقد كنا منذ لحظة مع الجبارين المعاندين . ولقد خاب كل جبار عنيد . وكانت صورته في جهنم تخايل له من ورائه وهو بعد في الدنيا . فالآن نجدهم هناك ، حيث يتابع السياق خطواته بالرواية الكبرى - رواية البشرية ورسالتها - في المشهد الأخير . وهو مشهد من أعجب مشاهد القيامة وأحفلها بالحركة والانفعال والحوار بين الضعفاء والمستكبرين . وبين الشيطان والجميع :

« وبرزوا لله جميعاً - فقال الضعفاء للذين استكبروا : إنا كنا لكم تبعاً . فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء ؟ قالوا : لو هدانا الله لهديناكم . سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محييص . وقال الشيطان لما قضي الأمر : إن الله وعدكم وعد الحق ، ووعدتكم فأخلفتكم ، وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي . فلا تلموني ولوموا أنفسكم ، ما أنا بمُصْرِحِكُمْ وما أنتم بمُصْرِحِي . إني كفرت بما أشركتمون من قبل . إن الظالمين لهم عذاب أليم .. »

« وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار ، خالدين فيها بإذن ربهم ، تحييتهم فيها سلام » .

لقد انتقلت الرواية .. رواية الدعوة والدعاة ، والمكذبين والطغاة .. انتقلت من مسرح الدنيا إلى مسرح الآخرة :

« وبرزوا لله جميعاً » ..

الطغاة المكذبون وأتباعهم من الضعفاء المستذلين . ومعهم الشيطان .. ثم الذين آمنوا بالرسول وعملوا الصالحات .. برزوا « جميعاً » مكشوفين . وهم مكشوفون لله دائماً . ولكنهم الساعة يعلمون ويحسون أنهم مكشوفون

لا يحجبهم حجاب ، ولا يسترهم ساتر ، ولا يقيمهم واق .. برزوا وامتألت الساحة ورفع الستار ، وبدأ الحوار :
 « فقال الضعفاء للذين استكبروا : إنا كنا لكم تبعاً . فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء ؟ » ..
 والضعفاء هم الضعفاء . هم الذين تنازلوا عن أخص خصائص الإنسان الكريم على الله حين تنازلوا عن
 حرمتهم الشخصية في التفكير والاعتقاد والاتجاه ؛ وجعلوا أنفسهم تبعاً للمستكبرين والظغاة . ودانوا لغير
 الله من عبيده واختاروها على الدينونة لله . والضعف ليس عذراً ، بل هو الجريمة ؛ فما يريد الله لأحد أن يكون
 ضعيفاً ، وهو يدعو الناس كلهم إلى حماه يعتزون به والعزة لله . وما يريد الله لأحد أن ينزل طائعا عن نصيبه
 في الحرية - التي هي ميزته ومناط تكريمه - أو أن ينزل كارهاً . والقوة المادية - كائنة ما كانت - لا تملك
 أن تستعبد إنساناً يريد الحرية ، ويستمسك بكرامته الآدمية . فقصارى ما تملكه تلك القوة أن تملك الجسد ،
 تؤذيه وتعذبه وتكبله وتحبسه . أما الضمير . أما الروح . أما العقل . فلا يملك أحد حبسها ولا استدلالها ، إلا
 أن يسلمها صاحبها للحبس والإذلال !

من ذا الذي يملك أن يجعل أولئك الضعفاء تبعاً للمستكبرين في العقيدة ، وفي التفكير ، وفي السلوك ؟
 من ذا الذي يملك أن يجعل أولئك الضعفاء يدينون لغير الله ، والله هو خالقهم ورازقهم وكافلهم دون سواه ؟
 لا أحد . لا أحد إلا أنفسهم الضعيفة . فهم ضعفاء لأنهم أقل قوة مادية من الظغاة ، ولأنهم أقل جاهاً
 أو مالاً أو منصباً أو مقاماً .. كلا ، إن هذه كلها أعراض خارجية لا تعد بذاتها ضعفاً يلحق صفة الضعف
 بالضعفاء . إنما هم ضعفاء لأن الضعف في أرواحهم وفي قلوبهم وفي نخوتهم وفي اعتزازهم بأخص خصائص
 الإنسان !

إن المستضعفين كثرة ، والطواغيت قلة . فن ذا الذي يخضع الكثرة للقلة ؟ وماذا الذي يخضعها ؟ إنما
 يخضعها ضعف الروح ، وسقوط الهمة ، وقلة النخوة ، والتنازل الداخلي عن الكرامة التي وهبها الله لني
 الإنسان !

إن الظغاة لا يملكون أن يستذلوا الجماهير إلا برغبة هذه الجماهير . فهي دائماً قادرة على الوقوف لهم لو أرادت .
 فالإرادة هي التي تنقص هذه القطعان !

إن الذل لا ينشأ إلا عن قابلية للذل في نفوس الأذلاء .. وهذه القابلية هي وحدها التي يعتمد عليها الظغاة !!
 والأذلاء هنا على مسرح الآخرة في ضعفهم وتبعيتهم للذين استكبروا يسألونهم :
 « إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء ؟ » ..

وقد اتبعناكم فاتبيننا إلى هذا المصير الأليم ؟!

أم لعلمهم وقد رأوا العذاب يهمون بتأنيب المستكبرين على قيادتهم لهم هذه القيادة ، وتعريضهم إياهم للعذاب ؟
 إن السياق يحكي قولهم وعليه طابع الدلة على كل حال !

ويرد الذين استكبروا على ذلك السؤال :

« قالوا : لو هدانا الله لهديناكم ! سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محييص ! » ..

وهو رد يبدو فيه البرم والضيق :

« لو هدانا الله لهديناكم » ..

فعلام تلومونا ونحن وإياكم في طريق واحد إلى مصير واحد ؟ إننا لم نهتد ونضلكم . ولو هدانا الله لقدناكم

إلى الهدى معنا ، كما قدناكم حين ضللنا إلى الضلال ! وهم ينسبون هدايم وضلالهم إلى الله . فيعترفون الساعة بقدرته وكانوا من قبل ينكرونه وينكرونها ، ويستطيون على الضعفاء استطالة من لا يحسب حساباً لقدرة القاهر الجبار . وهم إنما يتهربون من تبعة الضلال والإضلال برفع الأمر لله .. والله لا يأمر بالضلال كما قال سبحانه : « إن الله لا يأمر بالفحشاء » .. ثم هم يؤنبون الضعفاء من طرف خفي ، فيعلنونهم بأن لا جدوى من الجزع كما أنه لا فائدة من الصبر . فقد حق العذاب ، ولا راد له من صبر أو جزع ، وفات الأوان الذي كان الجزع فيه من العذاب يجدي فيرد الضالين إلى الهدى ؛ وكان الصبر فيه على الشدة يجدي فتدركهم رحمة الله . لقد انتهى كل شيء ، ولم يعد هنالك مفر ولا محيص :

« سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص » !

لقد قضي الأمر ، وانتهى الجدل ، وسكت الحوار .. وهنا نرى على المسرح عجباً . نرى الشيطان .. هاتف الغواية ، وحادي الغواية .. نراه الساعة يلبس مسوح الكهان ، أو مسوح الشيطان ! ويتشيطان على الضعفاء والمستكبرين سواء ، بكلام ربما كان أقسى عليهم من العذاب :

« وقال الشيطان - لما قضي الأمر - إن الله وعدكم وعد الحق ، ووعدتكم فأخلفتكم . وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي . فلا تلموني ولوموا أنفسكم . ما أنا بمُصْرِحِكُمْ وما أتم بمصرخي . إني كفرت بما أشركتمون من قبل . إن الظالمين لهم عذاب أليم » .

الله ! الله ! أما إن الشيطان حقاً لشيطان ! وإن شخصيته لتبدو هنا على أتمها كما بدت شخصية الضعفاء وشخصية المستكبرين في هذا الحوار ..

إنه الشيطان الذي وسوس في الصدور ، وأغرى بالعصيان ، وزين الكفر ، وصداهم عن استماع الدعوة .. هو هو الذي يقول لهم وهو يطعنهم طعنة أليمة نافذة ، حيث لا يملكون أن يردوها عليه - وقد قضي الأمر - هو الذي يقول الآن ، وبعد فوات الأوان :

« إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم » !

ثم يخزهم وخزة أخرى بتعيرهم بالاستجابة له ، وليس له عليهم من سلطان ، سوى أنهم تخلوا عن شخصياتهم ، ونسوا ما بينهم وبين الشيطان من عدااء قديم ، فاستجابوا لدعوته الباطلة وتركوا دعوة الحق من الله :

« وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي » !

ثم يؤنبهم ، ويدعوهم لتأنيب أنفسهم . يؤنبهم على أن أطاعوه ! :

« فلا تلموني ولوموا أنفسكم » !

ثم يخلي بهم ، وينفض يده منهم ، وهو الذي وعدهم من قبل ومناهم ، ووسوس لهم أن لا غالب لهم ؛ فأما الساعة فما هو بمليهم إذا صرخوا ، كما أنهم لن ينجدوه إذا صرخ :
« ما أنا بمصرحكم وما أتم بمصرخي » ..

وما بيننا من صلة ولا ولاء !

ثم يبرأ من إشراكهم به ويكفر بهذا الإشرارك :

« إني كفرت بما أشركتمون من قبل » !

ثم ينهي خطبته الشيطانية بالقاصمة يصبها على أوليائه :

« إن الظالمين لهم عذاب أليم » !

فيا للشيطان ! ويا لهم من وليهم الذي هتف بهم إلى الغواية فأطاعوه ؛ ودعاهم الرسل إلى الله فكذبوهم
وجحدوه !

وقبل أن يسدل الستار نبصر على الضفة الأخرى بتلك الأمة المؤمنة ، الأمة الفائزة ، الأمة الناجية :
« وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار ، خالدين فيها بإذن ربهم ، تحييتهم
فيها سلام » ..
ويسدل الستار ..

فيا له من مشهد ! ويا لها من خاتمة لقصة الدعوة والدعاة مع المكذبين والطغاة !

* * *

وفي ظل هذه القصة بفضولها جميعاً . في الدنيا حيث وقفت أمة الرسل في مواجهة الجاهلية الظالمة :
« واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد . من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد . يتجرعه ولا يكاد يسيغه ،
ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ » ..
وفي الآخرة حيث شاهدنا ذلك المشهد الفريد : مشهد الذين استكبروا والضعفاء والشيطان ، مع ذلك
الحوار العجيب ..

في ظل تلك القصة ومصائر الأمة الطيبة ، والفرقة الخبيثة ، يضرب الله مثل الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة ،
لتصوير سنته الجارية في الطيب والخبيث في هذه الحياة ؛ فتكون خاتمة كتعليق الراوية على الرواية بعد إسدال
الستار :

« ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة ، أصلها ثابت وفرعها في السماء ، تؤتي أكلها كل
حين بإذن ربها ، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون . ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت
من فوق الأرض ما لها من قرار ..

« يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ؛ ويضل الله الظالمين ؛ ويفعل الله ما يشاء » ..
إن مشهد الكلمة الطيبة كالشجرة الطيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ... والكلمة الخبيثة كالشجرة الخبيثة ،
اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار .. هو مشهد مأخوذ من جو السياق ، ومن قصة النبيين والمكذبين ،
ومصير هؤلاء وهؤلاء بوجه خاص . وشجرة النبوة هنا وظل إبراهيم أبي الأنبياء عليها واضح ، وهي تؤتي
أكلها كل فترة ، أكلاً جنياً طيباً .. نبياً من الأنبياء .. يثمر إيماناً وخيراً وحيوية ..
ولكن المثل - بعد تناسقه مع جو السورة وجو القصة - أبعد من هذا آفاقاً ، وأعرض مساحة ، وأعمق
حقيقة .

إن الكلمة الطيبة - كلمة الحق - لكالشجرة الطيبة . ثابتة ساقمة مثمرة .. ثابتة لا ترزعزعا الأعاصير ،
ولا تعصف بها رياح الباطل ؛ ولا تقوى عليها معاول الطغيان - وإن خيل للبعوض أنها معرضة للخطر الماحق
في بعض الأحيان - ساقمة متعالية ، تطل على الشر والظلم والطغيان من عل - وإن خيل إلى البعض أحياناً أن
الشر يرحمها في الفضاء - مثمرة لا ينقطع ثمرها ، لأن بدورها تنبت في النفوس المتكاثره أناً بعد آن ..
وإن الكلمة الخبيثة - كلمة الباطل - لكالشجرة الخبيثة ؛ قد تهيج وتعالى وتتشابك ؛ ويخيل إلى بعض

الناس أنها أضخم من الشجرة الطيبة وأقوى . ولكنها تظل نافذة هشة ، وتظل جذورها في التربة قريبة حتى لكأنها على وجه الأرض .. وما هي إلا قشرة ثم تجتث من فوق الأرض ، فلا قرار لها ولا بقاء .

ليس هذا وذلك مجرد مثل يضرب ، ولا مجرد عزاء للطيبين وتشجيع . إنما هو الواقع في الحياة ، ولو أبطأ تحققة في بعض الأحيان .

والخير الأصل لا يموت ولا يدوي . مهما زحمة الشر وأخذ عليه الطريق .. والشر كذلك لا يعيش إلا ريثما يستهلك بعض الخير المتلبس به - فقلما يوجد الشر الخالص - وعندما يستهلك ما يلبسه من الخير فلا تبقى فيه منه بقية ، فإنه يتهالك ويتشم مهما تضخم واستطال .

إن الخير بخير ! وإن الشر بشر !

« ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون » ..

فهي أمثال مصداقها واقع في الأرض ، ولكن الناس كثيراً ما ينسونه في زحمة الحياة .

وفي ظل الشجرة الثابتة ، التي يشارك التعبير في تصوير معنى الثبات وجوه ، في رسمها : أصلها ثابت مستقر في الأرض ، وفرعها سامق ذاهب في الفضاء على مد البصر ، قائم أمام العين يوحي بالقوة والثبات .

في ظل الشجرة الثابتة مثلاً للكلمة الطيبة : « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة » .. وفي ظل الشجرة الخبيثة المجتثة من فوق الأرض ما لها من قرار ولا ثبات : « ويضل الله الظالمين » .. فتتناسق ظلال التعبير وظلال المعاني كلها في السياق !

يثبت الله الذين آمنوا في الحياة الدنيا وفي الآخرة بكلمة الإيمان المستقرة في الضمائر ، الثابتة في الفطر ، المثمرة بالعمل الصالح المتجدد الباقي في الحياة . ويشتمهم بكلمات القرآن وكلمات الرسول ؛ وبوعده للحق بالنصر في الدنيا ، والفوز في الآخرة .. وكلها كلمات ثابتة صادقة حققة ، لا تتخلف ولا تتفرق بها السبل ، ولا يمس أصحابها قلق ولا حيرة ولا اضطراب .

ويضل الله الظالمين بظلمهم وشركهم (والظلم يكثر استعماله في السياق القرآني بمعنى الشرك ويغلب) وبعدهم عن النور الهادي ، واضطرابهم في تيه الظلمات والأوهام والخرافات واتباعهم مناهج وشرائع من الهوى لا من اختيار الله .. يضلهم وفق سنته التي تنتهي بمن يظلم ويعمى عن النور ويخضع للهوى إلى الضلال والتهيه والشرود .

« ويفعل الله ما يشاء » ..

بإرادته المطلقة ، التي تختار الناموس ، فلا تقيد به ولكنها ترضاه . حتى تقتضي الحكمة تبديله فيتبدل في نطاق المشيئة التي لا تقف لها قوة ، ولا يقوم في طريقها عائق ؛ والتي يتم كل أمر في الوجود وفق ما تشاء . وبهذه الخاتمة يتم التعقيب على القصة الكبرى للرسالات والدعوات . وقد استغرقت الشطر الأول والأكبر من السورة المسماة باسم إبراهيم أي الأنبياء ، والشجرة الظليلة الوارفة المثمرة خير الثمرات ، والكلمة الطيبة المتجددة في الأجيال المتعاقبة ، تحتوي دائماً على الحقيقة الكبرى .. حقيقة الرسالة الواحدة التي لا تتبدل ، وحقيقة الدعوة الواحدة التي لا تتغير ، وحقيقة التوحيد لله الواحد القهار .

* * *

والآن نقف وقفات قصيرة أمام الحقائق البارزة التي تعرضها قصة الرسل مع الجاهلية . وهي الحقائق التي

أشرنا إليها إشارات سريعة في أثناء استعراض السياق القرآني ، ونرى أنها تحتاج إلى وقفات أخرى أمامها مسقلة :
« إننا نفد من هذه القصة على حقيقة أولية بارزة يقصها علينا الحكيم الخبير .. إن موكب الإيمان منذ فجر التاريخ الإنساني موكب واحد موصول ، يقوده رسل الله الكرام ، داعين بحقيقة واحدة ، جاهرين بدعوة واحدة ، سائرين على منهج واحد .. كلهم يدعوا إلى ألوهية واحدة ، وربوبية واحدة ؛ وكلهم لا يدعوا مع الله أحداً ، ولا يتوكل على أحد غيره ، ولا يلجأ إلى ملجأ سواه ، ولا يعرف له سنداً إلا إياه .

وأمر الاعتقاد في الله الواحد - إذن - ليس كما يزعم « علماء الدين المقارن » أنه تطور وترقى من التعديد إلى التثنية إلى التوحيد ؛ ومن عبادة الطواطم والأرواح والنجوم والكواكب إلى عبادة الله الواحد ؛ وأنه تطور وترقى كذلك بتطور وترقى التجربة البشرية والعلم البشري ، وبتطور وترقى الأنظمة السياسية وانتهائها إلى الأوضاع الموحدة تحت سلطان واحد ...

إن الاعتقاد في الله الواحد جاءت به الرسالات منذ فجر التاريخ ؛ ولم تتغير هذه الحقيقة ولم تتبدل في رسالة واحدة من الرسالات ؛ ولا في دين واحد من الأديان السماوية . كما يقص علينا الحكيم الخبير .

ولو قال أولئك « العلماء » : إن قابلية البشرية لعقيدة التوحيد التي جاء بها الرسل كانت تترقى من عهد رسول إلى عهد رسول ؛ وإن الوثنيات الجاهلية كانت تتأثر بعقائد التوحيد المتوالية التي كان موكب الرسل الكرام يواجه بها هذه الوثنيات حيناً بعد حين . حتى جاء زمان كانت عقيدة التوحيد أكثر قبولاً لدى جماهير الناس مما كانت ، بفعل توالي رسالات التوحيد ؛ وبفعل العوامل الأخرى التي يفردها بالتأثير ... لو قال أولئك « العلماء » قولاً كهذا لساغ .. ولكنهم إنما يتأثرون بمنهج في البحث يقوم ابتداء على قاعدة من العداة للدين القديم للكنيسة في أوروبا - حتى ولو لم يلحظه العلماء المعاصرون ! - ومن الرغبة الخفية - الواعية أو غير الواعية - في تحطيم المنهج الديني في التفكير ؛ وإثبات أن الدين لم يكن قط وحياً من عند الله ؛ إنما كان اجتهاداً من البشر ، ينطبق عليه ما ينطبق على تطورهم في التفكير والتجربة والمعرفة العلمية سواء بسواء .. ومن ذلك العداة القديم ومن هذه الرغبة الخفية ينبثق منهج علم الأديان المقارن ؛ ويسمى مع ذلك « علماً » ينخدع به الكثيرون !

وإذا جاز أن يخدع أحد بمثل هذا « العلم » فإنه لا ينبغي لمسلم يؤمن بدينه ، ويحترم منهج هذا الدين في تقرير مثل هذه الحقيقة أن يخدع لحظة واحدة ؛ وأن يدلي بقول يصطدم اصطداماً مباشراً مع مقررات دينه ، ومع منهجه الواضح في هذا الشأن الخطير^١ ..

« هذا الموكب الكريم من الرسل واجه البشرية الضالة - إذن - بدعوة واحدة ، وعقيدة واحدة . وكذلك واجهت الجاهلية ذلك الموكب الكريم ، وهذه الدعوة الواحدة بالعقيدة الواحدة ، مواجهة واحدة - كما يعرضها السياق القرآني مغضياً عن الزمان والمكان ، مبرزاً للحقيقة الواحدة الموصولة من وراء الزمان والمكان - وكما أن دعوة الرسل لم تتبدل ، فكذلك مواجهة الجاهلية لم تتبدل !

إنها حقيقة تستوقف النظر حقاً ! .. إن الجاهلية هي الجاهلية على مدار الزمان .. إن الجاهلية ليست فترة تاريخية ؛ ولكنها وضع واعتقاد وتصور وتجمع عضوي على أساس هذه المقومات ..

(١) يراجع ما كتب عن هذه القضية في الجزء الثاني عشر ص ١٨٨٢ - ١٨٨٦ من هذه الطبعة المنقحة .

والجاهلية تقوم ابتداء على أساس من دينونة العباد للعباد ؛ ومن تأليه غير الله . أو من ربوبية غير الله - وكلاهما سواء في إنشاء الجاهلية - فسواء كان الاعتقاد قائماً على تعدد الآلهة ؛ أو كان قائماً على توحيد الإله مع تعدد الأرباب - أي المتسلطين - فهو ينشئ الجاهلية بكل خصائصها الثانوية الأخرى !

ودعوة الرسل إنما تقوم على توحيد الله وتنحية الأرباب الزائفة ، وإخلاص الدين لله - أي إخلاص الدينونة لله وإفراجه سبحانه بالربوبية ، أي الحاكمية والسلطان - ومن ثم تصطدم اصطداماً مباشراً بالقاعدة التي تقوم عليها الجاهلية ؛ وتصبح بذاتها خطراً على وجود الجاهلية . وبخاصة حين تمثل دعوة الإسلام في تجمع خاص ، يأخذ أفراد من التجمع الجاهلي ؛ ويفصل بهم عن الجاهلية من ناحية الاعتقاد ، ومن ناحية القيادة ، ومن ناحية الولاء .. الأمر الذي لا بد منه للدعوة الإسلامية في كل مكان وفي كل زمان ..

وعندما يشعر التجمع الجاهلي - بوصفه كياناً عضوياً واحداً متسانداً - بالخطر الذي يهدد قاعدة وجوده من الناحية الاعتقادية ؛ كما يهدد وجوده ذاته بتمثل الاعتقاد الإسلامي في تجمع آخر منفصل عنه ومواجه له .. فعندئذ يسفر التجمع الجاهلي عن حقيقة موقفه تجاه دعوة الإسلام !

إنها المعركة بين وجودين لا يمكن أن يكون بينهما تعايش أو سلام ! المعركة بين تجمعين عضويين كل منهما يقوم على قاعدة مناقضة تماماً للقاعدة التي يقوم عليها التجمع الآخر . فالتجمع الجاهلي يقوم على قاعدة تعدد الآلهة ، أو تعدد الأرباب ، ومن ثم يدين فيه العباد للعباد . والتجمع الإسلامي يقوم على قاعدة وحدانية الألوهية ووحداية الربوبية ؛ ومن ثم لا يمكن فيه دينونة العباد للعباد ..

ولما كان التجمع الإسلامي إنما يأكل في كل يوم من جسم التجمع الجاهلي ، في أول الأمر وهو في دور التكوين ، ثم بعد ذلك لا بد له من مواجهة التجمع الجاهلي لتسلم القيادة منه ، وإخراج الناس كافة من العبودية للعباد إلى العبودية لله وحده .. لما كانت هذه كلها حتميات لا بد منها متى سارت الدعوة الإسلامية في طريقها الصحيح ، فإن الجاهلية لا تطيق منذ البدء دعوة الإسلام .. ومن هنا ندرك لماذا كانت مواجهة الجاهلية واحدة لدعوة الرسل الكرام ! .. إنها مواجهة الدفاع عن النفس في وجه الاجتياح ؛ ومواجهة الدفاع عن الحاكمية المغتصبة وهي من خصائص الألوهية التي يغتصبها في الجاهلية العباد !

« وإذ كان هذا هو شعور الجاهلية بخطر الدعوة الإسلامية عليها ، فقد واجهت هذه الدعوة في معركة حياة أو موت ، لا هواده فيها ولا هدنة ولا تعايش ولا سلام ! .. إن الجاهلية لم تخدع نفسها في حقيقة المعركة ؛ وكذلك لم يخدع الرسل الكرام - صلوات الله وسلامه عليهم - أنفسهم ولا المؤمنين بهم في حقيقة المعركة .. » وقال الذين كفروا لرسولهم : لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا ..

فهم لا يقبلون من الرسل والذين آمنوا معهم . أن يتميزوا ويفصلوا بعقيدتهم وقيادتهم وبتجمعهم الخاص . إنما يطلبون إليهم أن يعودوا في ملتهم ، ويندجوا في تجمعهم ، ويدوبوا في هذا التجمع . أو أن يطردوهم بعيداً ويفقوهم من أرضهم ..

ولم يقبل الرسل الكرام أن يندجوا في التجمع الجاهلي . ولا أن يدوبوا فيه ، ولا أن يفقدوا شخصية تجمعهم الخاص .. هذا التجمع الذي يقوم على قاعدة أخرى غير القاعدة التي يقوم عليها التجمع الجاهلي .. ولم يقولوا - كما يقول ناس ممن لا يدركون حقيقة الإسلام .. ولا حقيقة التركيب العضوي للمجتمعات - : حسناً ! فلندمج في ملتهم كي نزاول دعوتنا ونخدم عقيدتنا من خلالهم !!!

إن تميز المسلم بعقيدته في المجتمع الجاهلي ، لا بد أن يتبعه حتماً تميزه بتجمعه الإسلامي وقيادته وولائه .. وليس في ذلك اختيار .. إنما هي حتمية من حتميات التركيب العضوي للمجتمعات .. هذا التركيب الذي يجعل التجمع الجاهلي حساساً بالنسبة لدعوة الإسلام القائمة على قاعدة عبودية الناس لله وحده ؛ وتنحية الأرباب الزائفة عن مراكز القيادة والسلطان . كما يجعل كل عضو مسلم يتمتع في المجتمع الجاهلي خادماً للتجمع الجاهلي لا خادماً لإسلامه كما يظن بعض الأغرار !

ثم تبقى الحقيقة القدرية التي ينبغي ألا يغفل عنها الدعاة إلى الله في جميع الأحوال . وهي أن تحقيق وعد الله لأوليائه بالنصر والتمكين ؛ والفصل بينهم وبين قومهم بالحق ، لا يقع ولا يكون ، إلا بعد تمييز أصحاب الدعوة وتحيزهم ؛ وإلا بعد مفاصلتهم لقومهم على الحق الذي معهم .. فذلك الفصل من الله لا يقع وأصحاب الدعوة متميعون في المجتمع الجاهلي ، ذائبون في أوضاعه عاملون في تشكيلاته .. وكل فترة تميع على هذا النحو هي فترة تأخير وتأجيل لوعد الله بالنصر والتمكين .. وهي تبعة ضخمة هائلة يجب أن يتدبرها أصحاب الدعوة إلى الله ، وهم واعون مقدرين ..

« وأخيراً .. تقف أمام الجمال الباهر الذي يعرض فيه القرآن الكريم موكب الإيمان ، وهو يواجه الجاهلية الضالّة على مدار الزمان .. جمال الحق الفطري البسيط الواضح العميق ، الواثق المطمئن ، الرصين المكين :

« قالت رسلهم : أفي الله شك فاطر السماوات والأرض ، يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ، ويؤخركم إلى أجل مسمى ؟ » ..

... « قالت لهم رسلهم : إن نحن إلا بشر مثلكم ، ولكن الله يمن على من يشاء من عباده ، وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون . وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ، ولنصبرن على ما آذيتونا ، وعلى الله فليتوكل المتوكلون » ..

وهذا الجمال الباهر إنما ينشأ من هذا العرض الذي يجعل الرسل موكباً موحداً في مواجهة الجاهلية الموحدة ؛ ويصور الحقيقة الباقية من وراء الملابس المتغيرة ؛ ويبرز العالم المميزة للدعوة التي يحملها الرسل وللجاهلية التي تواجههم ، من وراء الزمان والمكان ، ومن وراء الأجناس والأقوام !

ثم يتجلى هذا الجمال في كشف الصلة بين الحق الذي تحمله دعوة الرسل الكرام ، والحق الكامن في كيان هذا الوجود :

« قالت رسلهم : أفي الله شك فاطر السماوات والأرض ؟ » ..

« وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ؟ » ..

« ألم تر أن الله خلق السماوات والأرض بالحق ، إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد ، وما ذلك على الله

بعزيز » ..

وهكذا تتجلى العلاقة العميقة بين الحق في هذه الدعوة ، والحق الكامن في الوجود كله . ويبدو أنه حق واحد موصول بالله الحق ، ثابت وطيد عميق الجذور : « كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء » .. وأن ما عداه هو الباطل الزائل « كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار » ..

كذلك يتمثل ذلك الجمال في شعور الرسل بحقيقة الله ربهم ؛ وفي حقيقة الألوهية كما تتجلى في قلوب تلك العصابة المختارة من عباده :

« وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ، ولنصبرن على ما آذيتمونا ، وعلى الله فليتوكل المتوكلون » ..
 وكلها لمحات من ذلك الجمال الباهر لا يملك التعبير البشري إلا أن يشير إليها كما يشار إلى النجم البعيد ، لا تبلغ الإشارة مداه ، ولكنها فقط تلفت العين إلى سناه ...

* الر تر إلى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا وَبِسَ الْقَرَارِ ﴿٢٩﴾
 وَجَعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾
 قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا يَبِيعُ فِيهِ
 وَلَا يَخْتَلَىٰ ﴿٣١﴾

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ
 لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۗ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ ﴿٣٣﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٤﴾
 وَءَاتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٥﴾

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ ءَامِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٦﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنْ
 النَّاسِ فَمَنْ تَبِعْنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي
 زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ
 لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا تُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي
 السَّمَاءِ ﴿٣٩﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ۗ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٤٠﴾ رَبِّ
 اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٤١﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ
 الْحِسَابُ ﴿٤٢﴾

وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِيلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٦﴾ مُهْطِعِينَ
مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُ يُرُوءٍ وَأَفْعِدْتُمْ هَوَاءً ﴿٤٧﴾
وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرَجْنَا مِنَ الْأَجْلِ قَرِيبٍ نَجِّبْ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ
الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ﴿٤٨﴾ وَسَكَنتُمْ فِي مَسْكِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ
وَتَبَيَّنَ لَكُمُ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴿٤٩﴾
وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٥٠﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِيفَ وَعْدِهِ
رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٥١﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ
الْقَهَّارِ ﴿٥٢﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٥٣﴾ سَرَابِلُهُمْ مِنْ فَطْرَانَ وَتَغَشَّى وُجُوهُهُمُ النَّارُ ﴿٥٤﴾
لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥٥﴾ هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِءَ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّ مَا هُوَ
إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكُرُوا أُولَ الْأَلْبَابِ ﴿٥٦﴾

يبدأ هذا الشوط الثاني من نهاية الشوط الأول ، قائماً عليه ، متناسقاً معه ، مستمداً منه .

لقد تضمن الشوط الأول رسالة الرسول - صلى الله عليه وسلم - ليخرج الناس من الظلمات إلى النور
بإذن ربهم . ورسالة موسى - عليه السلام - لقومه ليخرجهم من الظلمات إلى النور ، ويذكرهم بأيام الله .
فبين لهم وذكرهم بنعمة الله عليهم ، وأعلن لهم ما تأذن الله به : لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي
لشديد .. ثم عرض عليهم قصة النبوات والمكذبين . بدأها ثم توارى عن السياق ؛ وتابعت القصة أدوارها
ومشاهدتها حتى انتهت بالكافرين إلى ذلك الموقف ، الذي يستمعون فيه من الشيطان عظته البليغة ! حيث لا
تنفع العظاظ !

فالآن يعود السياق إلى المكذبين من قوم محمد - صلى الله عليه وسلم - بعد ما عرض عليهم ذلك الشريط
الطويل - أولئك الذين أنعم الله عليهم - فيما أنعم - برسول يخرجهم من الظلمات إلى النور ، ويدعوهم ليغفر
الله لهم ، فإذا هم يكفرون النعمة ، ويردون ، ويستبدلون بها الكفر ، يؤثرونه على الرسول وعلى دعوة
الإيمان ..

ومن ثم يبدأ الشوط الثاني بالتعجب من أمر هؤلاء الذين يبدلون نعمة الله كفراً ، ويقودون قومهم إلى
دار البوار ، كما قاد من قبلهم أتباعهم إلى النار . في قصة الرسل والكفار .

ثم يستطرد إلى بيان نعم الله على البشر في أضخم المشاهد الكونية البارزة . ويقدم نموذجاً لشكر النعمة : إبراهيم الخليل - بعد أن يأمر الذين آمنوا بلون من ألوان الشكر هو الصلاة والبر بعباد الله - قبل أن يأتي يوم لا تربو فيه الأموال . يوم لا يبيع فيه ولا خِلال .

فأما الذين كفروا فليسوا بمتروكين عن غفلة ولا إهمال ، إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار .. وأما وعد الله لرسله فهو واقع مهما يمكر الذين كفروا وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال .. وهكذا يتأسك الشوط الثاني مع الشوط الأول ويتناسق .

* * *

« ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار ، جهنم يصلونها ، وبئس القرار ؟ !
« وجعلوا لله أنداداً ليضلوا عن سبيله . قل : تمتعوا فإن مصيركم إلى النار » ..

ألم تر إلى هذا الحال العجيب . حال الذين وهبوا نعمة الله ، ممثلة في رسول وفي دعوة إلى الإيمان ، وفي قيادة إلى المغفرة ، وإلى مصير في الجنة .. فإذا هم يتركون هذا كله ويأخذون بدله « كفراً » ! أولئك هم السادة القادة من كبراء قومك - مثلهم مثل السادة القادة من كل قوم - وبهذا الاستبدال العجيب قادوا قومهم إلى جهنم ، وأنزلوهم بها - كما شاهدنا منذ قليل في الأقوام من قبل ! - وبئس ما أحلوهم من مستقر ، وبئس القرار فيها من قرار !

ألم تر إلى تصرف القوم العجيب ، بعد ما رأوا ما حل بمن قبلهم - وقد عرضه القرآن عليهم عرض رؤية في مشاهد تلك القصة التي مضى بها الشوط الأول من السورة . عرضه كأنه وقع فعلاً . وإنه لواقع . وما يزيد النسق القرآني على أن يعرض ما تقرر وقوعه في صورة الواقع المشهود .

لقد استبدلوا بنعمة الرسول ودعوته كفراً . وكانت دعوته إلى التوحيد ، فتركوها :
« وجعلوا لله أنداداً ليضلوا عن سبيله » ..

جعلوا لله أقراناً مماثلين يعبدونهم كعبادته ، ويدينون لسلطانهم كما يدينون لسلطانه ، ويعترفون لهم بما هو من خصائص ألوهيته سبحانه !

جعلوا لله هذه الأنداد ليضلوا الناس عن سبيل الله الواحد الذي لا يتعدد ولا تنفرق به السبل .

والنص يشير إلى أن كبراء القوم عمدوا عمداً إلى تضليل قومهم عن سبيل الله ، باتخاذ هذه الأنداد من دون الله . فعقيدة التوحيد خطر على سلطان الطواغيت ومصالحهم في كل زمان . لا في زمن الجاهلية الأولى ، ولكن في زمن كل جاهلية ينحرف الناس فيها عن التوحيد المطلق ، في أية صورة من صور الانحراف ، فيسلمون قيادهم إلى كبرائهم ، ويتزولون لهم عن حرياتهم وشخصياتهم ، ويخضعون لأهوائهم ونزواتهم ، ويتلقون شريعتهم من أهواء هؤلاء الكبراء لا من وحي الله .. عندئذ تصبح الدعوة إلى توحيد الله خطراً على الكبراء يتقونه بكل وسيلة . ومنها كان اتخاذ الآلهة أنداداً لله في زمن الجاهلية الأولى . ومنها اليوم اتخاذ شرائع من عمل البشر ، تأمر بما لم يأمر الله به ، وتنهى عما لم ينه عنه الله . فإذا واضعوها في مكان الند لله في النفوس المضللة عن سبيل الله ، وفي واقع الحياة !

فيا أيها الرسول « قل » للقوم : « تمتعوا » .. تمتعوا قليلاً في هذه الحياة إلى الأجل الذي قدره الله . والعاقبة معروفة : « فإن مصيركم إلى النار » ..

ودعهم . وانصرف عنهم إلى « عبادي الذين آمنوا » . انصرف عنهم إلى موعظة الذين تجدي فيهم الموعظة . الذين يتقبلون نعمة الله ولا يردونها ، ولا يستبدلون بها الكفر . انصرف إليهم تعلمهم كيف يشكرون النعمة بالعبادة والطاعة والبر بعباد الله :

« قل لعبادي الذين آمنوا : يقيموا الصلاة ، وينفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ، من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلال » ..

قل لعبادي الذين آمنوا : يشكروا ربهم بإقامة الصلاة . فالصلاة أخص مظاهر الشكر لله . وينفقوا مما أنعمنا عليهم به من الرزق سراً وعلانية . سراً حيث تصان كرامة الآخذين ومروءة المعطين ، فلا يكون الإنفاق تفاخراً وتظاهراً ومباهاة . وعلانية حيث تعلن الطاعة بالإنفاق وتؤدي الفريضة ، وتكون القدوة الطيبة في المجتمع . وهذا وذلك متروك لحساسية الضمير المؤمن وتقديره للأحوال .

قل لهم : ينفقوا ليربو رصيدهم المدخر من قبل أن يأتي يوم لا تنمو فيه الأموال بتجارة ، ولا تنفع كذلك فيه صداقة ، إنما ينفع المدخر من الأعمال :

« من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلال » ..

* * *

وهنا يفتح كتاب الكون على مصراعيه فتنتطق سطور الهائلة بنعم الله التي لا تحصى . وتتوالى صفحاته الضخمة الفسيحة بألوان هذه النعم على مد البصر : السماوات والأرض . الشمس والقمر . الليل والنهار . الماء النازل من السماء والثمار النابتة من الأرض . البحر تجري فيه الفلك ، والأنهار تجري بالأرزاق .. هذه الصفحات الكونية المعروضة على الأنظار ، ولكن البشر في جاهليتهم لا ينظرون ولا يقرأون ولا يتدبرون ولا يشكرون : إن الإنسان لظلوم كفار . يبدل نعمة الله كفرأ ، ويجعل لله أنداداً ، وهو الخالق الرازق المسخر الكون كله لهذا الإنسان :

« الله الذي خلق السماوات والأرض ، وأنزل من السماء ماء ، فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ، وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره ، وسخر لكم الأنهار . وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار . وآتاكم من كل ما سألتموه ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، إن الإنسان لظلوم كفار » ..

إنها حملة . إنها سباط تلذع الوجدان .. حملة أدواتها الهائلة السماوات والأرض والشمس والقمر والليل والنهار والبحار والأنهار والأمطار والثمار .. وسباط ذات إيقاع ، وذات رنين ، وذات لذع لهذا الإنسان الظلوم الكفار !

إن من معجزات هذا الكتاب أنه يربط كل مشاهد الكون وكل خلجات النفس إلى عقيدة التوحيد . ويحول كل ومضة في صفحة الكون أو في ضمير الإنسان إلى دليل أو إيهاء .. وهكذا يستحيل الكون بكل ما فيه وبكل من فيه معرضاً لآيات الله ، تبذع فيه يد القدرة ، وتتجلى آثارها في كل مشهد فيه ومنظر ، وفي كل صورة فيه وظل .. إنه لا يعرض قضية الألوهية والعبودية في جدل ذهني ولا في لاهوت تجريدي ولا في فلسفة « ميتافيزيقية » ذلك العرض الميت الجاف الذي لا يمس القلب البشري ولا يؤثر فيه ولا يوحى إليه .. إنما هو يعرض هذه القضية في مجال المؤثرات والموجيات الواقعية من مشاهد الكون ، ومجالي الخلق ، ولمسات الفطرة ، وبديهيات الإدراك . في جمال وروعة واتساق .

والمشهد الهائل الحافل المعروض هنا لأيدي الله وآلائه ، تسير فيه خطوط الريشة المبدعة وفق اتجاه الآلاء

بالقياس إلى الإنسان : خط السماوات والأرض . يتبعه خط الماء النازل من السماء والثمار النابتة من الأرض بهذا الماء . فخط البحر تجري فيه الفلك والأنهار تجري بالأرزاق .. ثم تعود الريشة إلى لوحة السماء بخط جديد . خط الشمس والقمر . فخط آخر في لوحة الأرض متصل بالشمس والقمر : خط الليل والنهار .. ثم الخط الشامل الأخير الذي يلون الصفحة كلها ويظللها :

« وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » ..

إنه الإعجاز الذي تتناسق فيه كل لمسة وكل خط وكل لون وكل ظل . في مشهد الكون ومعرض الآلاء .

أفكل هذا مسخر للإنسان ؟ أفكل هذا الكون الهائل مسخر لذلك المخلوق الصغير ؟ السماوات ينزل منها الماء ، والأرض تتلقاه ، والثمار تخرج من بينهما . والبحر تجري فيه الفلك بأمر الله مسخرة . والأنهار تجري بالحياة والأرزاق في مصلحة الإنسان . والشمس والقمر مسخران دائبان لا يفتران . والليل والنهار يتعاقبان .. أفكل أولئك للإنسان ؟ ثم لا يشكر ولا يذكر ؟

« إن الإنسان لظلم كفار !

« الله الذي خلق السماوات والأرض » ..

وبعد ذلك يجعلون لله أنداداً ، فكيف يكون الظلم في التقدير ، والظلم في عبادة خلق من خلقه في السماوات أو في الأرض ؟

« وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم » ..

والزرع مورد الرزق الأول ، ومصدر النعمة الظاهر . والمطر والإنبات كلاهما يتبع السنة التي فطر الله عليها هذا الكون ، ويتبع ناموس الذي يسمح بتزول المطر وإنبات الزرع وخروج الثمر ، وموافقة هذا كله للإنسان . وإنبات حبة واحدة يحتاج إلى القوة المهيمنة على هذا الكون كله لتسخر أجرامه وظواهره في إنبات هذه الحبة وإمدادها بعوامل الحياة من تربة وماء وأشعة وهواء .. والناس يسمعون كلمة « الرزق » فلا يتبادر إلى أذهانهم إلا صورة الكسب للمال . ولكن مدلول « الرزق » أوسع من ذلك كثيراً ، وأعمق من ذلك كثيراً .. إن أقل « رزق » يرزقه الكائن الإنساني في هذا الكون يقتضي تحريك أجرام هذا الكون وفق ناموس يوفر مئات الآلاف من الموافقات المتواكبة المتناسقة التي لولاها لم يكن لهذا الكائن ابتداء وجود ؛ ولم تكن له بعد وجوده حياة وامتداد . ويكفي ما ذكر في هذه الآيات من تسخير الأجرام والظواهر ليدرك الإنسان كيف هو مكفول محمول بيد الله ..

« وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره » ..

بما أودع في العناصر من خصائص تُجري الفلك على سطح الماء ؛ وبما أودع في الإنسان من خصائص يدرك بها ناموس الأشياء ؛ وكلها مسخرة بأمر الله للإنسان .

« وسخر لكم الأنهار » ..

تجري فتجري الحياة ، وتفيض فيفيض الخير ، وتحمل ما تحمل في جوفها من أسماك وأعشاب وخيرات .. كلها للإنسان ولما يستخدمه الإنسان من طير وحيوان ..

« وسخر لكم الشمس والقمر دائبين » ..

لا يستخدمهما الإنسان مباشرة كما يستخدم الماء والثمار والبحار والفلك والأنهار .. ولكنه ينتفع بآثارهما ،

ويستمد منهما مواد الحياة وطاقتها . فهما مسخران بالناموس الكوني ليصدر عنهما ما يستخدمه هذا الإنسان في حياته ومعاشه بل في تركيب خلاياه وتجديدها .

« وسخر لكم الليل والنهار » ..

سخرهما كذلك وفق حاجة الإنسان وتركيبه ، وما يناسب نشاطه وراحته . ولو كان نهار دائم أو ليل دائم لفسد جهاز هذا الإنسان ؛ فضلاً على فساد ما حوله كله ، وتعذر حياته ونشاطه وإنتاجه .

وليست هذه سوى الخطوط العريضة في صفحة الآلاء المديدة . ففي كل خط من النقط ما لا يحصى . ومن ثم يضم إليها على وجه الإجمال المناسب للوحة المعروضة وللجو الشامل :

« وآتاكم من كل ما سألتموه » ..

من مال وذرية وصحة وزينة ومتاع ...

« وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » ..

فهي أكبر وأكثر من أن يحصياها فريق من البشر ، أو كل البشر . وكلهم محدودون بين حدين من الزمان : بدء ونهاية . وبين حدود من العلم تابعة لحدود الزمان والمكان . ونعم الله مطلقة - فوق كثرتها - فلا يحيط بها إدراك إنسان ..

وبعد ذلك كله يجعلون لله أنداداً ، وبعد ذلك كله لا تشكرون نعمة الله بل تبدلونها كفرًا ..

« إن الإنسان لظلم كفار » !!!

* * *

وحين يستيقظ ضمير الإنسان ، ويتطلع إلى الكون من حوله ، فإذا هو مسخر له ، إما مباشرة ، وإما بموافقة ناموسه لحياة البشر وحوادثهم ؛ ويتأمل فيما حوله فإذا هو صديق له برحمة الله ، معين بقدرته الله ، ذلول له بتسخير الله .. حين يستيقظ ضمير الإنسان فيتطلع ويتأمل ويتدبر . لا بد يرتجف ويخشع ويسجد ويشكر ، ويتطلع دائماً إلى ربه المنعم : حين يكون في الشدة لبيدله منها يسراً ، وحين يكون في الرخاء ليحفظ عليه النعماء .

والنموذج الكامل للإنسان الذاكر الشاكر هو أبو الأنبياء . إبراهيم . الذي يظلل سمته هذه السورة ، كما تظللها النعمة وما يتعلق بها من شكران أو كفران .. ومن ثم يأتي به السياق في مشهد خاشع ، يظلله الشكر ، وتشيع فيه الضراعة ، ويتجاوب فيه الدعاء ، في نعمة رخيّة متموجة ، ذاهبة في السماء .

« وإذ قال إبراهيم : رب اجعل هذا البلد آمناً ، واجنبي وبنيتي أن نعبد الأصنام . رب إنهن أضللن كثيراً من الناس ، فمن تبعني فإنه مني ؛ ومن عصاني فإنك غفور رحيم . ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم ، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكروا . ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن ، وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء . الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق ، إن ربي لسميع الدعاء . رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ، ربنا وتقبل دعاء . ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب » ..

إن السياق يصور إبراهيم - عايه السلام - إلى جوار بيت الله الذي بناه في البلد الذي آل إلى قريش ، فإذا بها تكفر فيه بالله ، مرتكبة إلى البيت الذي بناه بانيه لعبادة الله ! فيصوره في هذا المشهد الضارع الخاشع

الذاكر الشاكر ، ليرد الجاحدين إلى الاعتراف ، ويرد الكافرين إلى الشكر ، ويرد الغافلين إلى الذكر ، ويرد الشاردين من أبنائه إلى سيرة أبيهم لعلهم يقتدون بها ويبتدون .

ويبدأ إبراهيم دعاءه :

« رب اجعل هذا البلد آمناً » ..

فنعمة الأمن نعمة ماسة بالإنسان ، عظيمة الوقع في حسه ، متعلقة بحرصه على نفسه . والسياق يذكرها هنا ليذكر بها سكان ذلك البلد ، الذين يستطيون بالنعمة ولا يشكرونها وقد استجاب الله دعاء أبيهم إبراهيم فجعل البلد آمناً ، ولكنهم هم سلكوا غير طريق إبراهيم ، فكفروا بالنعمة ، وجعلوا لله أنداداً ، وصدوا عن سبيل الله . ولقد كانت دعوة أبيهم التالية لدعوة الأمن :

« واجنبي وبنِّي أن نعبد الأصنام » ..

ويبدو في دعوة إبراهيم الثانية تسليم إبراهيم المطلق إلى ربه ، والتجاؤه إليه في أخص مشاعر قلبه . فهو يدعو أن يجنبه عبادة الأصنام هو وبنيه ، يستعين بهذا الدعاء ويستهديه . ثم ليبرز أن هذه نعمة أخرى من نعم الله . وإنها لنعمة أن يخرج القلب من ظلمات الشرك وجهالاته إلى نور الإيمان بالله وتوحيده . فيخرج من التيه والحيرة والضلال والشroud ، إلى المعرفة والطمأنينة والاستقرار والهدوء . ويخرج من الدينونة المذلة لشتى الأرباب ، إلى الدينونة الكريمة العزيزة لرب العباد .. إنها لنعمة يدعو إبراهيم ربه ليحفظها عليه ، فيجنبه هو وبنيه أن يعبد الأصنام .

يدعو إبراهيم دعوته هذه لما شهده وعلمه من كثرة من ضلوا بهذه الأصنام من الناس في جيله وفي الأجيال التي قبله ؛ ومن فتنوا بها ومن افتتنوا وهم خلق كثير :

« رب إنهن أضللن كثيراً من الناس » ..

ثم يتابع الدعاء .. فأما من تبع طريقي فلم يفتن بها فهو مني ، ينتسب إلي ويلتقي معي في الآصرة الكبرى ، آصرة العقيدة :

« فمن تبعني فإنه مني » ..

وأما من عصاني منهم فأفوض أمره إليك :

« ومن عصاني فإنك غفور رحيم » ..

وفي هذا تبدو سمة إبراهيم العطوف الرحيم الأواه الحليم ؛ فهو لا يطلب الهلاك لمن يعصيه من نسله ويحيد عن طريقه ، ولا يستعجل لهم العذاب ؛ بل لا يذكر العذاب ، إنما يكلمهم إلى غفران الله ورحمته . ويلقي على الجو ظلال المغفرة والرحمة ؛ وتحت هذا الظل يتوارى ظل المعصية ؛ فلا يكشف عنه إبراهيم الرحيم الحليم !

ويعمضي إبراهيم في دعائه يذكر إساكانه لبعض أبنائه بهذا الوادي المجذب المقفر المجاور للبيت المحرم ، ويذكر الوظيفة التي أسكنهم في هذا القفر الجذب ليقوموا بها :

« ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم » ..

لماذا ؟

« ربنا ليقموا الصلاة » ..

فهذا هو الذي من أجله أسكنهم هناك ، وهذا هو الذي من أجله يحتملون الجذب والحرمان .
« فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم » ..

وفي التعبير رقة ورפרفة ، تصور القلوب رفاقة مجنحة ، وهي تهوي إلى ذلك البيت وأهله في ذلك الوادي الجديب . إنه تعبير نديّ يندّي الجذب برقة القلوب ..
« وارزقهم من الثمرات » ..

عن طريق تلك القلوب التي ترف عليهم من كل فج .. لماذا؟ ألياًكلوا ويطعموا ويستمتعوا؟ نعم ! ولكن لينشأ عن ذلك ما يرجوه إبراهيم الشكور :
« لعلهم يشكرون » ..

وهكذا يبرز السياق. هدف السكنى بجوار البيت الحرام .. إنه إقامة الصلاة على أصولها كاملة لله . ويبرز هدف الدعاء برفرة القلوب وهويها إلى أهل البيت ورزقهم من ثمرات الأرض .. إنه شكر الله المنعم الوهاب . وفي ظل هذا الدعاء تبدو المفارقة واضحة في موقف قريش جيرة البيت المحرم .. فلا صلاة قائمة لله ، ولا شكر بعد استجابة الدعاء ، وهوي القلوب والثمرات !

ويعقب إبراهيم على دعاء الله لذريته الساكنة بجوار بيته المحرم لتقيم الصلاة وتشكر الله .. يعقب على الدعاء بتسجيله لعلم الله الذي يطلع على ما في قلوبهم من توجه وشكر ودعاء . فليس القصد هو المظاهرات والأدعية والتصديّة والمكاء . إنما هو توجه القلب إلى الله الذي يعلم السر والجهر ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء :

« ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن : وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء » ..

ويذكر إبراهيم نعمة الله عليه من قبل ؛ فيلهج لسانه بالحمد والشكر شأن العبد الصالح يذكر فيشكر :
« الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق ، إن ربي لسميع الدعاء » ..
وهبة الذرية على الكبر أوقع في النفس . فالذرية امتداد . وما أجل الإنعام به عند شعور الفرد بقرب النهاية ، وحاجته النفسية الفطرية إلى الامتداد . وإن إبراهيم ليحمد الله ، ويطمع في رحمته :
« إن ربي لسميع الدعاء » ..

ويعقب على الشكر بدعاء الله أن يجعله مديماً للشكر . الشكر بالعبادة والطاعة فيعلن بهذا تصميمه على العبادة وخوفه أن يعوقه عنها عائق ، أو يصرفه عنها صارف ، ويستعين الله على إنفاذ عزمته وقبول دعائه :
« رب اجعلني مقيم الصلاة . ومن ذريتي . ربنا وتقبل دعاء » ..

وفي ظل هذا الدعاء تبدو المفارقة مرة أخرى في موقف جيرة البيت من قريش . وهذا إبراهيم يجعل عون الله له على إقامة الصلاة رجاء يرجوه ، ويدعو الله ليوفقه إليه . وهم يتأون عنها ويعرضون ، ويكذبون الرسول الذي يذكرهم بما كان إبراهيم يدعو الله أن يعينه عليه هو وبنيه من بعده !

ويتحتم إبراهيم دعاءه الضارع الخاشع بطلب المغفرة له ولوالديه وللمؤمنين جميعاً ، يوم يقوم الحساب ، فلا ينفع إنساناً إلا عمله ؛ ثم مغفرة الله في تقصيره :

« ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب » ..

ويتهيء المشهد الطويل : مشهد الدعاء الخاشع الضارع . ومشهد تعداد النعم والشكر عليها .. في إيقاع موسيقي

متموج رخي .. ينتهي بعد أن يخلع على الموقف كله ظلاً وديعاً لطيفاً ، تهفو القلوب معه إلى جوار الله ، وتذكر القلوب فيه نعم الله . ويرتسم إبراهيم أبو الأنبياء نموذجاً للعبد الصالح الذاكر الشاكر ، كما ينبغي أن يكون عباد الله ، الذين وجه الحديث إليهم هذا الدعاء ..

ولا يفوتنا أن نلمح تكرار إبراهيم - عليه السلام - في كل فقرة من فقرات دعائه الخاشع المنيب لكلمة : « ربنا » أو « رب » . فإن لهجان لسانه بذكر ربوبية الله له ولبنيه من بعده ذات مغزى .. إنه لا يذكر الله - سبحانه - بصفة الألوهية ، إنما يذكره بصفة الربوبية . فالألوهية قلما كانت موضع جدال في معظم الجاهليات - وبخاصة في الجاهلية العربية - إنما الذي كان دائماً موضع جدل هو قضية الربوبية . قضية الدينونة في واقع الحياة الأرضية . وهي القضية العملية الواقعية المؤثرة في حياة الإنسان . والتي هي مفرق الطريق بين الإسلام والجاهلية وبين التوحيد والشرك في عالم الواقع .. فإما أن يدين الناس لله فيكون ربهم وإما أن يدينوا لغير الله فيكون غيره ربهم .. وهذا هو مفرق الطريق بين التوحيد والشرك وبين الإسلام والجاهلية في واقع الحياة . والقرآن وهو يعرض على مشركي العرب دعاء أبيهم إبراهيم والتركيز فيه على قضية الربوبية كان يلفتهم إلى ما هم فيه من مخالفة واضحة لمدلول هذا الدعاء !

* * *

ثم يكمل السياق الشوط مع « الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار » .. وهم ما يزالون بعد في ظلمهم لم يأخذهم العذاب . والذين أمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يقول لهم : « تمتعوا فإن مصيركم إلى النار » .. وأن ينصرف إلى عباد الله المؤمنين بأمرهم بالصلاة والإنفاق سراً وعلانية « من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلاق » ..

يكمل السياق الشوط ليكشف عما أعد للكافرين بنعمة الله ؛ ومتى يلقون مصيرهم المحتوم ؛ وذلك في مشاهد متعاقبة من مشاهد القيامة ، تزلزل الأقدام والقلوب :

« ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون ، إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ، مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم ، وأفئدتهم هواء » ..

والرسول - صلى الله عليه وسلم - لا يحسب الله غافلاً عما يعمل الظالمون . ولكن ظاهر الأمر يبدو هكذا لبعض من يرون الظالمين يتمتعون ، ويسمع بوعيد الله ، ثم لا يراه واقعاً بهم في هذه الحياة الدنيا . فهذه الصيغة تكشف عن الأجل المضروب لأخذهم الأخذة الأخيرة ، التي لا إمهال بعدها . ولا فكاك منها . أخذهم في اليوم العصيب الذي تشخص فيه الأبصار من الفزع والهلع ، فتظل مفتوحة مبهوتة مذهولة ، مأخوذة بالهول لا تطرف ولا تتحرك . ثم يرسم مشهداً للقوم في زحمة الهول .. مشهدهم مسرعين لا يلوون على شيء ، ولا يلتفتون إلى شيء . رافعين رؤوسهم لا عن إرادة ولكنها مشدودة لا يملكون لها حراكاً . يمتد بصرهم إلى ما يشاهدون من الرعب فلا يطرف ولا يرتد إليهم . وقلوبهم من الفزع خاوية خالية لا تضم شيئاً يعونه أو يحفظونه أو يتذكرونه ، فهي هواء خواء ..

هذا هو اليوم الذي يؤخرهم الله إليه . حيث يقفون هذا الموقف ، ويعانون هذا الرعب . الذي يرتسم من خلال المقاطع الأربعة مذهلاً أخذاً بهم كالطائر الصغير في مخالب الباشق الرعيب :

« إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار مهطعين مقنعي رؤوسهم ، لا يرتد إليهم طرفهم ، وأفئدتهم هواء » ..

فالسّعة المهرولة المدفوعة ، في الهيئة الشاحصة المكروهة المشدودة ، مع القلب المفزع الطائر الخاوي من كل وعي ومن كل إدراك .. كلها تشي بالهول الذي تشخص فيه الأبصار ..

هذا هو اليوم الذي يؤخرهم الله إليه ، والذي ينتظرهم بعد الإمهال هناك . فأندّر الناس أنه إذا جاء فلا اعتذار يومئذ ولا فكاك .. وهنا يرسم مشهداً آخر لليوم الرعب المنظور :

« وأندّر الناس يوم يأتيهم العذاب ، فيقول الذين ظلموا : ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل . أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال ؟! وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم ، وتبين لكم كيف فعلنا بهم ، وضربنا لكم الأمثال ؟! » ..

أندّرهم يوم يأتيهم ذلك العذاب المرسوم آنفاً ، فيتوجه الذين ظلموا يومئذ إلى الله بالرجاء ، يقولون :
« ربنا » ..

الآن وقد كانوا يكفرون به من قبل ويجعلون له أنداداً !

« أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل » ..

وهنا ينقلب السياق من الحكاية إلى الخطاب . كأنهم مائلون شاخصون يطلبون . وكأننا في الآخرة وقد أنطوت الدنيا وما كان فيها . فها هو ذا الخطاب يوجه إليهم من الملأ الأعلى بالتبكيك والتأنيب ، والتذكير بما فرط منهم في تلك الحياة :

« أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال ؟! » ..

فكيف ترون الآن ؟! زلتم يا ترى أم لم تزولوا ؟! ولقد قلتم قولتكم هذه وآثار الغابرين شاخصه أمامكم مثلاً بارزاً للظالمين ومصيرهم المحتوم :

« وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال » ..

فكان عجبياً أن تروا مساكن الظالمين أمامكم ، خالية منهم ، وأنتم فيها خلفاء ، ثم تقسمون مع ذلك :
« ما لكم من زوال ! »

وعند هذا التبكيك ينتهي المشهد ، وندرك أين صاروا ، وماذا كان بعد الدعاء وخيبة الرجاء .

وإن هذا المثل ليتجدد في الحياة ويقع كل حين . فكم من طغاة يسكنون مساكن الطغاة الذين هلكوا من قبلهم . وربما يكونون قد هلكوا على أيديهم . ثم هم يطغون بعد ذلك ويتجرون ؛ ويسرون حذوك النعل بالنعل سيرة الهالكين ؛ فلا تهز وجدانهم تلك الآثار الباقية التي يسكنونها ، والتي تتحدث عن تاريخ الهالكين ، وتصور مصائرهم للناظرين . ثم يؤخذون إخذة الغابرين ، ويلحقون بهم وتخلو منهم الديار بعد حين !

* * *

ثم يلتفت السياق بعد أن يسدل عليهم الستار هناك ، إلى واقعهم الحاضر ، وشدة مكرهم بالرسول والمؤمنين ، وتديبرهم الشر في كل نواحي الحياة . فيلقي في الروح أنهم مأخوذون إلى ذلك المصير ، مهما يكن مكرهم من العنف والتديبر :

« وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم .. وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال » ..

إن الله محيط بهم وبمكرهم ، وإن كان مكرهم من القوة والتأثير حتى ليؤدي إلى زوال الجبال ، أثقل شيء وأصلب شيء ، وأبعد شيء عن تصور التحرك والزوال . فإن مكرهم هذا ليس مجهولاً وليس خافياً

وليس بعيداً عن تناول القدرة . بل إنه لحاضر « عند الله » يفعل به كيفما يشاء .

« فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله . إن الله عزيز ذو انتقام » ..

فألهذا المكر من أثر ، وما يعوق تحقيق وعد الله لرسله بالنصر وأخذ الماكرين أخذ عزيز مقتدر :
« إن الله عزيز ذو انتقام » ..

لا يدع الظالم يفلت ، ولا يدع الماكر ينجو .. وكلمة الانتقام هنا تلقي الظل المناسب للظلم والمكر ، فالظالم الماكر يستحق الانتقام ، وهو بالقياس إلى الله تعالى يعني تعذيبهم جزاء ظلمهم وجزاء مكرهم ، تحقيقاً لعدل الله في الجزاء .

وسيكون ذلك لا محالة :

« يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات » ..

ولا ندري نحن كيف يتم هذا ، ولا طبيعة الأرض الجديدة وطبيعة السماوات ، ولا مكانها ؛ ولكن النص يلقي ظلال القدرة القادرة التي تبدل الأرض وتبدل السماوات ؛ في مقابل ذلك المكر الذي مهما اشتد فهو ضئيل عاجز حسير .

وفجأة نرى ذلك قد تحقق :

« وبرزوا لله الواحد القهار » ..

وأحسوا أنهم مكشوفون لا يسترهم ساتر ، ولا يقيهم واق . ليسوا في دورهم وليسوا في قبورهم . إنما هم في العراء أمام الواحد القهار .. ولفظة « القهار » هنا تشترك في ظل التهديد بالقوة القاهرة التي لا يقف لها كيد الجبابة . وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال .

ثم ها نحن أولاء أمام مشهد من مشاهد العذاب العنيف القاسي المذل ، يناسب ذلك المكر وذلك الجبروت :

« وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد سرايلهم من قَطران وتغشى وجوههم النار » ..

فشهد المجرمين : اثنين اثنين مقرنين في الوثاق ، يمررون نصفاً وراء نصف .. مشهد مذل دال كذلك على قدرة القهار . ويضاف إلى قرينهم في الوثاق أن سرايلهم وثيابهم من مادة شديدة القابلية للالتهاب ، وهي في ذات الوقت قدرة سوداء .. « من قَطران » .. ففيها الذل والتحقير ، وفيها الإيحاء بشدة الاشتعال بمجرد قرينهم من النار !

« وتغشى وجوههم النار » ..

فهو مشهد العذاب المذل المتلطي المشتعل جزاء المكر والاستكبار ..

« ليجزي الله كل نفس ما كسبت . إن الله سريع الحساب » ..

ولقد كسبوا المكر والظلم فجزاؤهم القهر والذل . إن الله سريع الحساب . فالسرعة في الحساب هنا تناسب المكر والتدبير الذي كانوا يحسبونه يحميهم ويخفيهم ، ويعوق انتصار أحد عليهم . فها هم أولاء يجزون ما كسبوا ذلاً وألماً وسرعة حساب !

* * *

وفي النهاية تختم السورة بمثل ما بدأت ، ولكن في إعلان عام جهير الصوت ، عالي الصدى ، لتبلغ البشرية كلها في كل مكان :

« هذا بلاغ للناس ، ولينذروا به ، وليعلموا أنما هو إله واحد ، وليذكر أولو الألباب » .

إن الغاية الأساسية من ذلك البلاغ وهذا الإنذار ، هي أن يعلم الناس « أنما هو إله واحد » .. فهذه هي قاعدة دين الله التي يقوم عليها منهجه في الحياة .

وليس المقصود بطبيعة الحال مجرد العلم ، إنما المقصود هو إقامة حياتهم على قاعدة هذا العلم .. المقصود هو الدينونة لله وحده ، ما دام أنه لا إله غيره . فالإله هو الذي يستحق أن يكون رباً - أي حاكماً وسيداً ومتصرفاً ومشرعاً وموجهاً - وقيام الحياة البشرية على هذه القاعدة يجعلها تختلف اختلافاً جوهرياً عن كل حياة تقوم على قاعدة ربوبية العباد للعباد - أي حاكمية العباد للعباد - وهو اختلاف يتناول الاعتقاد والتصور ، ويتناول الشعائر والمناسك ؛ كما يتناول الأخلاق والسلوك ، والقيم والموازين ؛ وكما يتناول الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وكل جانب من جوانب الحياة الفردية والجماعية على السواء .

إن الاعتقاد بالألوهية الواحدة قاعدة لمنهج حياة متكامل ؛ وليس مجرد عقيدة مستكنة في الضمائر . وحدود العقيدة أبعد كثيراً من مجرد الاعتقاد الساكن .. إن حدود العقيدة تتسع وتترامى حتى تتناول كل جانب من جوانب الحياة .. وقضية الحاكمية بكل فروعها في الإسلام هي قضية عقيدة . كما أن قضية الأخلاق بجملة هي قضية عقيدة . فن العقيدة ينبثق منهج الحياة الذي يشمل الأخلاق والقيم ؛ كما يشتمل الأوضاع والشرائع سواء بسواء ..

ونحن لا ندرك مرامي هذا القرآن قبل أن ندرك حدود العقيدة في هذا الدين ، وقبل أن ندرك مدلولات : « شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » على هذا المستوى الواسع البعيد الآماد . وقبل أن نفهم مدلول : العبادة لله وحده ؛ ونحدده بأنه الدينونة لله وحده ؛ لا في لحظات الصلاة ، ولكن في كل شأن من شؤون الحياة !

إن عبادة الأصنام التي دعا إبراهيم - عليه السلام - ربه أن يجنبه هو وبنه إياها ، لا تتمثل فقط في تلك الصورة الساذجة التي كان يزاوها العرب في جاهليتهم ، أو التي كانت تراولها شتى الوثنيات في صور شتى ، مجسمة في أحجار أو أشجار ، أو حيوان أو طير ، أو نجم أو نار ، أو أرواح أو أشباح ...

إن هذه الصور الساذجة كلها لا تستغرق كل صور الشرك بالله ، ولا تستغرق كل صور العبادة للأصنام من دون الله . والوقوف بمدلول الشرك عند هذه الصور الساذجة يمنعنا من رؤية صور الشرك الأخرى التي لا نهاية لها ؛ ويمنعنا من الرؤية الصحيحة لحقيقة ما يعتور البشرية من صور الشرك والجاهلية الجديدة !

ولا بد من التعمق في إدراك طبيعة الشرك وعلاقة الأصنام بها ؛ كما أنه لا بد من التعمق في معنى الأصنام ، وتمثل صورها المتجددة مع الجاهليات المستحدثة !

إن الشرك بالله - المخالف لشهادة أن لا إله إلا الله - يتمثل في كل وضع وفي كل حالة لا تكون فيها الدينونة في كل شأن من شؤون الحياة خالصة لله وحده . ويكفي أن يدين العبد لله في جوانب من حياته ، بينما هو يدين في جوانب أخرى لغير الله ، حتى تتحقق صورة الشرك وحقيقته .. وتقديم الشعائر ليس إلا صورة واحدة من صور الدينونة الكثيرة .. والأمثلة الحاضرة في حياة البشر اليوم تعطينا المثال الواقعي للشرك في أعماق طبيعته .. إن العبد الذي يتوجه لله بالاعتقاد في ألوهيته وحده ؛ ثم يدين لله في الوضوء والطهارة والصلاة والصوم والحج وسائر الشعائر . بينما هو في الوقت ذاته يدين في حياته الاقتصادية والسياسية والاجتماعية

لشرائع من عند غير الله . ويدين في قيمه وموازينه الاجتماعية لتصورات واصطلاحات من صنع غير الله . ويدين في أخلاقه وتقاليده وعاداته وأزيائه لأرباب من البشر تفرض عليه هذه الأخلاق والتقاليد والعادات والأزياء - مخالفة لشرع الله وأمره - إن هذا العبد يزاول الشرك في أخص حقيقته ؛ ويخالف عن شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله في أخص حقيقتها .. وهذا ما يغفل عنه الناس اليوم فيزاولونه في ترخص وتميع ، وهم لا يحسبونه الشرك الذي كان يزاوله المشركون في كل زمان ومكان !

والأصنام .. ليس من الضروري أن تتمثل في تلك الصور الأولية الساذجة .. فالأصنام ليست سوى شعارات للطاغوت ، يتخفى وراءها لتعبيد الناس باسمها ، وضمان دينوتهم له من خلالها ..

إن الصنم لم يكن ينطق أو يسمع أو يبصر .. إنما كان السادن أو الكاهن أو الحاكم يقوم من ورائها ؛ يتمم حولها بالتعاون والرقى .. ثم ينطق باسمها بما يريد هو أن ينطق لتعبيد الجماهير وتذليلها !

فإذا رفعت في أي أرض وفي أي وقت شعارات ينطق باسمها الحكام والكهان ، ويقررون باسمها ما لم يأذن به الله من الشرائع والقوانين والقيم والموازن والتصرفات والأعمال ... فهذه هي الأصنام في طبيعتها وحقيقتها ووظيفتها !

إذا رفعت « القومية » شعاراً ، أو رفع « الوطن » شعاراً ، أو رفع « الشعب » شعاراً ، أو رفعت « الطبقة » شعاراً ... ثم أريد الناس على عبادة هذه الشعارات من دون الله ؛ وعلى التضحية لها بالنفوس والأموال والأخلاق والأعراض . بحيث كلما تعارضت شريعة الله وقوانينه وتوجيهاته وتعليقاته مع مطالب تلك الشعارات ومقتضياتها ، نحيت شريعة الله وقوانينه وتوجيهاته وتعاليمه ، ونفذت إرادة تلك الشعارات - أو بالتعبير الصحيح الدقيق : إرادة الطواغيت الواقفة وراء هذه الشعارات - كانت هذه هي عبادة الأصنام من دون الله .. فالصنم ليس من الضروري أن يتمثل في حجر أو خشبة ؛ ولقد يكون الصنم مذهباً أو شعاراً !

إن الإسلام لم يجرى لمجرد تحطيم الأصنام الحجرية والخشبية ! ولم تبذل فيه تلك الجهود الموصولة ، من موكب الرسل الموصول ؛ ولم تقدم من أجله تلك التضحيات الجسام وتلك العذابات والآلام ، لمجرد تحطيم الأصنام من الأحجار والأخشاب !

إنما جاء الإسلام ليقم مفرق الطريق بين الدينونة لله وحده في كل أمر وفي كل شأن ؛ وبين الدينونة لغيره في كل هيئة وفي كل صورة .. ولا بد من تتبع الهيئات والصور في كل وضع وفي كل وقت لإدراك طبيعة الأنظمة والمناهج القائمة ، وتقرير ما إذا كانت توحيداً أم شركاً ؟ دينونة لله وحده أم دينونة لشتى الطواغيت والأرباب والأصنام !

والذين يظنون أنفسهم في « دين الله » لأنهم يقولون بأفواههم « نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » ، ويدينون لله فعلاً في شؤون الطهارة والشعائر والزواج والطلاق والميراث .. بينما هم يدينون فيما وراء هذا الركن الضيق لغير الله ؛ ويخضعون لشرائع لم يأذن بها الله - وكثرتها مما يخالف مخالفة صريحة شريعة الله - ثم هم يبذلون أرواحهم وأموالهم وأعراضهم وأخلاقهم - أرادوا أم لم يريدوا - ليحققوا ما تتطلبه منهم الأصنام الجديدة . فإذا تعارض دين أو خلق أو عرض مع مطالب هذه الأصنام ، نبذت أوامر الله فيها ونفذت مطالب هذه الأصنام ...

الذين يظنون أنفسهم « مسلمين » وفي « دين الله » وهذا حالهم .. عليهم أن يستفيقوا لما هم فيه من الشرك العظيم !!!

إن دين الله لبس بهذا الهزال الذي يتصوره من يزعمون أنفسهم « مسلمين » في مشارق الأرض ومغاربها !
إن دين الله منهج شامل لجزئيات الحياة اليومية وتفصيلاتها . والدينونة لله وحده في كل تفصيل وكل جزئية
من جزئيات الحياة اليومية وتفصيلاتها - فضلاً على أصولها وكلياتها - هي دين الله ، وهي الإسلام الذي لا
يقبل الله من أحد ديناً سواه

وإن الشرك بالله لا يتمثل فحسب في الاعتقاد بألوهية غيره معه ؛ ولكنه يتمثل ابتداء في تحكيم أرباب
غيره معه ..

وإن عبادة الأصنام لا تتمثل في إقامة أحجار وأخشاب ؛ بقدر ما تتمثل في إقامة شعارات لها كل ما لتلك
الأصنام من نفوذ ومقتضيات !

ولينظر الناس في كل بلد لمن المقام الأعلى في حياتهم ؟ ولمن الدينونة الكاملة ؟ ولمن الطاعة والاتباع والامتثال ؟
.. فإن كان هذا كله لله فهم في دين الله . وإن كان لغير الله - معه أو من دونه - فهم في دين الطواغيت
والأصنام .. والعياذ بالله .. !

« هذا بلاغ للناس ، ولينذروا به . وليعلموا أنما هو إله واحد ، وليذكر أولو الألباب » ..

* * *

انتهى الجزء الثالث عشر
ويليه الجزء الرابع عشر
مبدوءاً بسورة الحجّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَتَا
الْحَجْرِ وَالنَّجْلِ

الجزء الرابع عشر

(١٥) سُورَةُ الْحَجْرِ مَكِّيَّةٌ وَآيَاتُهَا تَسْبَعُ وَتَسْعُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذه السورة مكية بجملتها ، نزلت بعد سورة يوسف ، في الفترة الحرجة ، ما بين « عام الحزن » و عام الهجرة .. تلك الفترة التي تحدثنا عن طبيعتها وملابساتها ومعالمها من قبل في تقديم سورة يونس وفي تقديم سورة هود وفي تقديم سورة يوسف بما فيه الكفاية ..

وهذه السورة عليها طابع هذه الفترة ، وحاجاتها ومقتضياتها الحركية .. إنها تواجه واقع تلك الفترة مواجهة حركية ؛ وتوجه الرسول - صلى الله عليه وسلم - والجماعة المسلمة معه ، توجيهاً واقعياً مباشراً وتجاهد المكذبين جهاداً كبيراً . كما هي طبيعة هذا القرآن ووظيفته .

ولما كانت حركة الدعوة في تلك الفترة تكاد تكون قد تجملت ، بسبب موقف قريش العنيد منها ومن النبي - صلى الله عليه وسلم - والعصبة المؤمنة معه ؛ حيث اجترأت قريش على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بما لم تكن تجترئ عليه في حياة أبي طالب . واشتد استهزاؤها بدعوته ؛ كما اشتد إيذاؤها لصحابته .. فقد جاء القرآن الكريم في هذه الفترة يهدد المشركين المكذبين ويتوعدهم ؛ ويعرض عليهم مصارع المكذبين الغابرين ومصائرهم ؛ ويكشف للرسول - صلى الله عليه وسلم - عن علة تكذيبهم وعنادهم ؛ وهي لا تتعلق به ولا بالحق الذي معه ، لكنها ترجع إلى العناد الذي لا تجدي معه الآيات البينات . ومن ثم يسلي الرسول - صلى الله عليه وسلم - ويواسيه ؛ ويوجهه إلى الإصرار على الحق الذي معه ؛ والصدع به بقوة في مواجهة الشرك وأهله ؛ والصبر بعد ذلك على بطء الاستجابة ووحشة العزلة ، وطول الطريق !

ومن هنا تلتقي هذه السورة في وجهتها وفي موضوعها وفي ملامحها مع بقية السور التي نزلت في تلك الفترة ؛ وتواجه مثلها مقتضيات تلك الفترة وحاجاتها الحركية . أي الحاجات والمقتضيات الناشئة من حركة الجماعة المسلمة بعقيدتها الإسلامية في مواجهة الجاهلية العربية في تلك الفترة من الزمان بكل ملابسها الواقعية . ومن ثم تواجه حاجات الحركة الإسلامية ومقتضياتها كلما تكررت هذه الفترة ، وذلك كالذي تواجهه الحركة الإسلامية الآن في هذا الزمان .

ونحن نؤكد على هذه السمة في هذا القرآن .. سمة الواقعية الحركية .. لأنها في نظرنا مفتاح التعامل مع هذا الكتاب وفهمه وفقهه وإدراك مراميهِ وأهدافه ..

إنه لا بد من استصحاب الأحوال والملابسات والظروف والحاجات والمقتضيات الواقعية العملية التي صاحبت

نزول النص القرآني .. لا بد من هذا لإدراك وجهة النص وأبعاد مدلولاته ؛ ولرؤية حيويته وهو يعمل في وسط حي ؛ ويواجه حالة واقعة ؛ كما يواجه أحياء يتحركون معه أو ضده . وهذه الرؤية ضرورية لفقه أحكامه وتدوقها ؛ كما هي ضرورية للانتفاع بتوجيهاته كلما تكررت تلك الظروف والملابسات في فترة تاريخية تالية ، وعلى الأخص فيما يواجهنا اليوم ونحن نستأنف الدعوة الإسلامية .

نقول هذه المقالة ونحن على يقين أنه لن يرى هذه الرؤية اليوم إلا الذين يتحركون فعلاً بهذا الدين في مواجهة الجاهلية الحاضرة ؛ ومن ثم يواجهون أحوالاً وملابسات وظروفاً وأحداثاً كالتالي كان يواجهها صاحب الدعوة الأولى - صلوات الله وسلامه عليه - والعصبة المسلمة معه .. من الإعراض والتولي عن هذا الدين في حقيقته الكبيرة الشاملة ؛ التي لا تتحقق إلا بالدينونة الكاملة لله وحده في كل شأن من شؤون الحياة الاعتمادية والأخلاقية والتعبدية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية .. وما يلقونه كذلك من الإيذاء والمطاردة والتعذيب والتقتيل كالذي كانت تلك العصبة المختارة الأولى تتلى - في سبيل الله - به ..

إن هؤلاء الذين يتحركون بهذا الدين في مواجهة الجاهلية ؛ ويواجهون به ما كانت تواجهه الجماعة المسلمة الأولى .. هم وحدهم الذين يرون تلك الرؤية .. وهم وحدهم الذين يفقهون هذا القرآن ؛ ويدركون الأبعاد الحقيقية لمدلولات نصوصه . على النحو الذي أسلفنا .. وهم وحدهم الذين يملكون استنباط فقه الحركة الذي لا يغني عنه فقه الأوراق ، في مواجهة الحياة المتحركة التي لا تكف عن الحركة !

وبمناسبة هذه الإشارة إلى فقه الحركة نحب أن نقرر أن الفقه المطلوب استنباطه في هذه الفترة الحاضرة هو الفقه اللازم لحركة ناشئة في مواجهة الجاهلية الشاملة . حركة تهدف إلى إخراج الناس من الظلمات إلى النور ، ومن الجاهلية إلى الإسلام ؛ ومن الدينونة للعباد إلى الدينونة لرب العباد ؛ كما كانت الحركة الأولى - على عهد محمد صلى الله عليه وسلم - تواجه جاهلية العرب بمثل هذه المحاولة ؛ قبل أن تقوم الدولة في المدينة ؛ وقبل أن يكون للإسلام سلطان على أرض وعلى أمة من الناس .

نحن اليوم في شبه هذا الموقف لا في مثله ، وذلك لاختلاف بعض الظروف والملابسات الخارجية .. نحن نستهدف دعوة إلى الإسلام ناشئة في مواجهة جاهلية شاملة .. ولكن مع اختلاف في الملابسات والظروف والحاجات والمقتضيات الواقعية للحركة .. وهذا الاختلاف هو الذي يقتضي « اجتهاداً » جديداً في « فقه الحركة » يوائم بين السوابق التاريخية للحركة الإسلامية الأولى وبين طبيعة الفترة الحاضرة ومقتضياتها المتغيرة قليلاً أو كثيراً ..

هذا النوع من الفقه هو الذي تحتاج إليه الحركة الإسلامية الوليدة .. أما الفقه الخاص بأنظمة الدولة ، وشرائع المجتمع المنظم المستقر . فهذا ليس أوانه ... إنه ليس على وجه الأرض اليوم دولة مسلمة ولا مجتمع مسلم ، قاعدة التعامل فيه هي شريعة الله والفقه الإسلامي ! .. هذا النوع من الفقه يأتي في حينه ؛ وتفصل أحكامه على قد المجتمع المسلم حين يوجد ؛ ويواجه الظروف الواقعية التي تكون محيطة بذلك المجتمع يومذاك ! إن الفقه الإسلامي لا ينشأ في فراغ ولا تستتب بذوره في الهواء !

ونعود إلى استكمال الحديث عن موضوعات السورة :

محور هذه السورة الأول : هو إبراز طبيعة المكذبين بهذا الدين ودوافعهم الأصلية للتكذيب ، وتصوير المصير المخوف الذي ينتظر الكافرين المكذبين .. وحول هذا المحور يدور السياق في عدة جولات ، متنوعة

الموضوع والمجال ، ترجع كلها إلى ذلك المحور الأصيل . سواء في ذلك القصة ، ومشاهد الكون ، ومشاهد القيامة ، والتوجيهات والتعقيبات التي تسبق القصص وتتخلله وتعقب عليه .

وإذا كان جو سورة الرعد يذكر بجو سورة الأنعام . فإن جو هذه السورة - الحجر - يذكر بجو سورة الأعراف . - وابتداؤها كان بالإنداز ، وسياقها كله جاء مصداقاً للإنداز - فهنا كذلك في سورة الحجر يتشابه البدء والسياق ، مع اختلاف في الطعم والمذاق !

إن الإنداز في مطلع سورة الأعراف صريح :

« كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه ، لتنذره وذكرى للمؤمنين . اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء ، قليلاً ما تذكرون . وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتاً أو هم قائلون . فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا : إنا كنا ظالمين .. »

ثم ترد فيها قصة آدم وإبليس ويتابعها السياق حتى تنتهي الحياة الدنيا ، ويعود الجميع إلى ربهم ، فيجدوا مصداق النذير .. ويلى القصة عرض لبعض مشاهد الكون : السماوات والأرض ، والليل والنهار ، والشمس والقمر ، والنجوم مسخرات بأمره ، والرياح والسحاب والماء والثمرات .. ويلى ذلك قصص قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى : وكلها تصدق النذير ..

وهنا في سورة الحجر يجيء الإنداز كذلك في مطلعها . ولكن ملفعاً بظل من التهويل والغموض يزيد جوها رهبةً وتوقعاً للمصير :

« ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين . ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون . وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم . ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون .. »

ثم يعرض السياق بعض مشاهد الكون : السماء وما فيها من بروج ، والأرض الممدودة والرواسي الراسخة ، والنبت الموزون ، والرياح اللواحق ، والماء والسقيا ، والحياة والموت والحشر للجميع .. يلي ذلك قصة آدم وإبليس ، منتهية بمصير أتباعه ومصير المؤمنين .. ومن ثم لمحات من قصص إبراهيم ولوط وشعيب وصالح منظوراً فيها إلى مصائر المكذبين ، وملحوظاً فيها أن مشركي العرب يعرفون الآثار الدارسة لهذه الأقوام ، وهم يعمرون عليها في طريقهم إلى الشام .

فالمحور في السورتين واحد ، ولكن شخصية كل منهما متميزة ؛ وإيقاعهما يتشابه ولا يتماثل ، على عادة القرآن الكريم في تناوله لموضوعاته الموحدة ، بطرق شتى ، تختلف وتشابه ، ولكنها لا تتكرر أبداً ولا تتماثل !

ويمكن تقسيم سياق السورة هنا إلى خمس جولات ، أو خمسة مقاطع ، يتضمن كل منها موضوعاً أو مجالاً :

تتضمن الجولة الأولى بيان سنة الله التي لا تتخلف في الرسالة والإيمان بها والتكذيب . مبدوءة بذلك الإنداز الضمني الملفع بالتهويل :

« ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين . ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون .. »

ومنتهية بأن المكذبين إنما يكذبون عن عناد لا عن نقص في دلائل الإيمان :

« ولوفتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا : إنما سكرت أبصارنا بل نحن مسحورون ! » .
وأنتهم جميعاً من طراز واحد :

« ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين . وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون . كذلك نسلكه في قلوب المجرمين . لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين » ..

وتعرض الجولة الثانية بعض آيات الله في الكون : في السماء وفي الأرض وما بينهما . وقد قدرت بحكمة ، وأنزلت بقدر :

« ولقد جعلنا في السماء بروحاً وزيناها للنظرين . وحفظناها من كل شيطان رجيم . إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين . والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون . وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين . وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم . وأرسلنا الرياح لواقح ، فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أتم له بخازنين » ..

وإلى الله مرجع كل شيء وكل أحد في الوقت المقدر المعلوم : « وإنا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون . ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين . وإن ربك هو يحشرهم إنه حكيم عليم » ..

أما الجولة الثالثة فتعرض قصة البشرية وأصل الهدى والغواية في تركيبها وأسبابها الأصيلية ، ومصير الغاوين في النهاية والمهتدين . وذلك في خلق آدم من صلصال من حمأ مسنون والنفخ من روح الله في هذا الطين . ثم في غرور إبليس واستكباره وتوليه الغاوين دون المخلصين .

والجولة الرابعة في مصارع الغابرين من قوم لوط وشعيب وصالح ، مبدوءة بقول الله : « نبي عبادي أني أنا الغفور الرحيم . وأن عذابي هو العذاب الأليم » ثم يتتابع القصص ، يجلو رحمة الله مع إبراهيم ولوط ، وعذابه لأقوام لوط وشعيب وصالح .. ملحوظاً في هذا القصص أنه يعرض على قريش مصارع أقوام يمرون على أرضهم في طريقهم إلى الشام ويرون آثارهم :

« إن في ذلك لآيات للمتوسمين . وإنها لبسبيل مقيم » ..

أما الجولة الخامسة والأخيرة فتكشف عن الحق الكامن في خلق السماوات والأرض المتلبس بالساعة وما بعدها من ثواب وعقاب ، المتصل بدعوة الرسول - صلى الله عليه وسلم - فهو الحق الأكبر الشامل للكون كله ، وللبداء والمصير : « وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق ، وإن الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل . إن ربك هو الخلاق العليم . ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم » .. إلى آخر السورة ..

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رَبِّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرَهُمْ يَا كُلُوا
وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمِ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَا أَهْلَكَا مِنْ قَرِيَةٍ إِلَّا وَهَلَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَا تَسْبِقُ
مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَعْجِرُونَ ﴿٥﴾

وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧﴾
مَا نُنزِلُ الْمَلَكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾
وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١١﴾ كَذَلِكَ
نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ
فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ مَسْحُورُونَ ﴿١٥﴾

هذا المقطع الأول في سياق السورة ، يتحدث عن طبيعة الكتاب الذي يكذب به المشركون .. ويهددهم
يوم يتمنون فيه لو كانوا مسلمين ! كما يكشف لهم عن سبب إرجاء هذا اليوم عنهم ، فهو موقوت بأجل
معلوم .. ويذكر تحدياتهم واستهزاءهم وطلبهم الملائكة ، ثم يهددهم بأن نزول الملائكة يكون معه الهلاك
والتدمير ! وأخيراً يكشف عن العلة الحقيقية للتكذيب .. إنها ليست نقص الدليل ولكنه العناد الأصيل ! ..

ألف . لام . را . . « تلك آيات الكتاب وقرآن مبين » ..

هذه الأحرف ونظائرها هي الكتاب وهي القرآن . هذه الأحرف التي في متناول الجميع ، هي « تلك »
الآيات العالية الأفق البعيدة المتناول ، المعجزة التنسيق . هذه الأحرف التي لا مدلول لها في ذاتها هي القرآن
الواضح الكاشف المبين .

فإذا كان قوم يكفرون بآيات الكتاب المعجز ويكذبون بهذا القرآن المبين فسيأتي يوم يودون فيه لو كانوا
غير ما كانوا ؛ ويتمنون فيه لو آمنوا واستقاموا :
« ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين » ..

ربما .. ولكن حيث لا ينفع التمني ولا تجدي الودادة .. ربما .. وفيها التهديد الخفي ، والاستهزاء الملقوف ؛ وفيها كذلك الحث على انتهاز الفرصة المعروضة للإسلام والنجاة قبل أن تضيع ، ويأتي اليوم الذي يودون فيه لو كانوا مسلمين ؛ فما ينفعهم يومئذ أنهم يودون !
وتهديد آخر ملقوف :

« ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون » ..

ذرهم فيما هم فيه من حياة حيوانية محضة للأكل والمتاع . لا تأمل فيها ولا تدبر ولا استطلاع . ذرهم في تلك الدوامة : الأمل يلهي والمطامع تغر ، والعمر يمضي والفرصة تضيع . ذرهم فلا تشغل نفسك بهؤلاء الهالكين ، الذين ضلوا في متاهة الأمل الغرور ، يلوح لهم ويشغلهم بالأطعام ، ويملي لهم فيحسبون أن أجلهم ممدود ، وأنهم محصلون ما يطعمون لا يردهم عنه راد ، ولا يمنعم منه مانع . وأن ليس وراءهم حسيب ؛ وأنهم ناجون في النهاية بما ينالون مما يطعمون !

وصورة الأمل الملهي صورة إنسانية حية . فالأمل البراق ما يزال يخائل لهذا الإنسان ، وهو يجري وراءه ، ويشغل به ، ويستغرق فيه ، حتى يجاوز المنطقة المأمونة ؛ وحتى يغفل عن الله ، وعن القدر ، وعن الأجل ؛ وحتى ينسى أن هنالك واجبا ، وأن هنالك محظورا ؛ بل حتى لينسى أن هنالك إلها ، وأن هنالك موتا ، وأن هناك نشورا .

وهذا هو الأمل القاتل الذي يؤمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يدعهم له .. « فسوف يعلمون » .. حيث لا ينفع العلم بعد فوات الأوان .. وهو أمر فيه تهديد لهم ، وفيه كذلك لمسة عنيفة لعلمهم يصحون من الأمل الخادع الذي يلهيهم عن المصير المحتوم .

وإن سنة الله الماضية لا تتخلف ؛ وهلاك الأمم مرهون بأجلها الذي قدره الله لها ؛ مترتب على سلوكها الذي تنفذ به سنة الله ومشيبته :

« وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم ، ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون » ..

فلا يغرنهم تخلف العذاب عنهم فترة من الوقت ، فإنما هي سنة الله تمضي في طريقها المعلوم . ولسوف يعلمون .

وذلك الكتاب المعلوم والأجل المقسوم ، يمنحه الله للقرى والأمم ، لتعمل ، وعلى حسب العمل يكون المصير . فإذا هي آمنت وأحسن وأصلحت وعدلت مد الله في أجلها ، حتى تنحرف عن هذه الأسس كلها ، ولا تبقى فيها بقية من خير يرجى ، عندئذ تبلغ أجلها ، وينتهي وجودها ، إما نهائيا بالهلاك والدثور ، وإما وقتيا بالضعف والذبول .

ولقد يقال : إن أما لا تؤمن ولا تحسن ولا تصلح ولا تعدل . وهي مع ذلك قوية ثرية باقية . وهذا وهم . فلا بد من بقية من خير في هذه الأمم . ولو كان هو خير العمارة للأرض ، وخير العدل في حدوده الضيقة بين أبنائها ، وخير الإصلاح المادي والإحسان المحدود بحدودها . فعلى هذه البقية من الخير تعيش حتى تستنفدها فلا تبقى فيها من الخير بقية . ثم تنتهي حتما إلى المصير المعلوم .

إن سنة الله لا تتخلف . ولكل أمة أجل معلوم :

« ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون » ..

ويحكى السياق سوء أدبهم مع الرسول - صلى الله عليه وسلم - وقد جاءهم بالكتاب والقرآن المبين ،
يوقظهم من الأمل الملهي ، ويذكرهم بسنة الله ، فإذا هم يسخرون منه ويتوقحون :

« وقالوا : يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون . لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين ! » ..
وتبدوا السخرية في نداءهم :

« يا أيها الذي نزل عليه الذكر » ..

فهم ينكرون الوحي والرسالة ؛ ولكنهم يتهمون على الرسول الكريم بهذا الذي يقولون .
ويبدو سوء الأدب في وصفهم للرسول الأمين :

« إنك لمجنون » ..

جزاء على دعوته لهم بالقرآن المبين .

وهم يتمحكون فيطلبون الملائكة مصدقين :

« لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين ! » ..

وطلب نزول الملائكة يتكرر في هذه السورة وفي غيرها ، مع الرسول - صلى الله عليه وسلم - ومع غيره
من الرسل قبله : وهو كما قلنا ظاهرة من ظواهر الجهل بقيمة هذا الكائن الإنساني الذي كرمه الله ، فجعل
النبوّة في جنسه ، ممثلة في أفراد المختارين .

والرد على ذلك التهكم وتلك الوقاحة وهذا الجهل هو ذكر القاعدة التي تشهد بها مصارع السالفين : أن
الملائكة لا تنزل على الرسول إلا لهلاك المكذبين من قومه حين ينتهي الأجل المعلوم ؛ وعندئذ فلا إمهال
ولا تأجيل :

« ما ننزل الملائكة إلا بالحقّ ، وما كانوا إذن منظرين » ..

فهل هو ما يريدون وما يتطلبون ؟ !

* * *

ثم يردهم السياق إلى الهدى والتدبر .. إن الله لا ينزل الملائكة إلا بالحق ، ليحقوه وينفذوه . والحق عند
التكذيب هو الهلاك . فهم يستحقونه فيحق عليهم . فهو حق تنزل به الملائكة لتنفذه بلا تأخير . وقد أراد الله
لهم خيراً مما يريدون بأنفسهم ، فنزل لهم الذكر يتدبرونه ويهتدون به ، وهو خير لهم من تنزيل الملائكة بالحق
الأخير ! لو كانوا يفقهون :

« إنا نحن نزلنا الذكر ، وإنا له لحافظون » ..

فخير لهم أن يقبلوا عليه . فهو باق محفوظ لا يندثر ولا يتبدل . ولا يلتبس بالباطل ولا يمس التحريف وهو
يقودهم إلى الحق برعاية الله وحفظه ، إن كانوا يريدون الحق ، وإن كانوا يطلبون الملائكة للتثبت .. إن الله
لا يريد أن ينزل عليهم الملائكة ، لأنه أراد بهم الخير فنزل لهم الذكر المحفوظ ، لا ملائكة الهلاك والتدمير .

وننظر نحن اليوم من وراء القرون إلى وعد الله الحق بحفظ هذا الذكر ؛ فترى فيه المعجزة الشاهدة برانية
هذا الكتاب - إلى جانب غيرها من الشواهد الكثيرة - ونرى أن الأحوال والظروف والملابسات والعوامل
التي تقلبت على هذا الكتاب في خلال هذه القرون ما كان يمكن أن تتركه مصوناً محفوظاً لا تبدل فيه كلمة ،

ولا تحرف فيه جملة ، لولا أن هنالك قدرة خارجة عن إرادة البشر ، أكبر من الأحوال والظروف والملابسات والعوامل ، تحفظ هذا الكتاب من التغيير والتبديل ، وتصونه من العبث والتحريف .

لقد جاء على هذا القرآن زمان في أيام الفتن الأولى كثرت فيه الفرق ، وكثر فيه النزاع ، وطمت فيه الفتن ، وتماوجت فيه الأحداث . وراحت كل فرقة تبحث لها عن سند في هذا القرآن وفي حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ودخل في هذه الفتن وساقها أعداء هذا الدين الأصلاء من اليهود - خاصة - ثم من « القوميين » دعاة « القومية » الذين تسموا بالشعوبيين !

ولقد أدخلت هذه الفرق على حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما احتاج إلى جهد عشرات العلماء الأتقياء الأذكياء عشرات من السنين لتحرير سنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وغربلتها وتنقيتها من كل دخيل عليها من كيد أولئك الكائدين لهذا الدين .

كما استطاعت هذه الفرق في تلك الفتن أن تؤول معاني النصوص القرآنية ، وأن تحاول أن تلوي هذه النصوص لتشهد لها بما تريد تقريره من الأحكام والاتجاهات . .

ولكنها عجزت جميعا - وفي أشد أوقات الفتن حلوكة واضطرابا - أن تحدث حدثاً واحداً في نصوص هذا الكتاب المحفوظ ؛ وبقيت نصوصه كما أنزلها الله ؛ حجة باقية على كل محرف وكل مؤول ؛ وحجة باقية كذلك على ربانية هذا الذكر المحفوظ .

ثم جاء على المسلمين زمان - ما نزال نعانيه - ضعفوا فيه عن حماية أنفسهم ، وعن حماية عقيدتهم ، وعن حماية نظامهم ، وعن حماية أراضهم ، وعن حماية أعراضهم وأموالهم وأخلاقهم . وحتى عن حماية عقولهم وإدراكهم ! وغير عليهم أعداؤهم الغالبون كل معروف عندهم ، وأحلوا مكانه كل منكر فيهم . . كل منكر من العقائد والتصورات ؛ ومن القيم والموازين . ومن الأخلاق والعادات . ومن الأنظمة والقوانين ... وزينوا لهم الانحلال والفساد والتوقيع والتعري من كل خصائص « الإنسان » وردوهم إلى حياة كحياة الحيوان . . وأحيانا إلى حياة يشمئز منها الحيوان . . ووضعوا لهم ذلك الشر كله تحت عنوانات براقية من « التقدم » و« التطور » و« العلمانية » و« العلمية » و« الانطلاق » و« التحرر » و« تحطيم الأغلال » و« الثورية » و« التجديد » . . . إلى آخر تلك الشعارات والعناوين . . وأصبح « المسلمون » بالأسماء وحدها مسلمين . ليس لهم من هذا الدين قليل ولا كثير . وباتوا غثاء كغثاء السيل لا يمنع ولا يدفع . ولا يصلح لشيء إلا أن يكون وقوداً للنار . . وهو وقود هزيل ! . .

ولكن أعداء هذا الدين - بعد هذا كله - لم يستطيعوا تبديل نصوص هذا الكتاب ولا تحريفها . ولم يكونوا في هذا من الزاهدين . فلقد كانوا أحرص الناس على بلوغ هذا الهدف لو كان يبلغ . وعلى نيل هذه الأمنية لو كانت تنال !

ولقد بذل أعداء هذا الدين - وفي مقدمتهم اليهود - رصيدهم من تجارب أربعة آلاف سنة أو تزيد في الكيد لدين الله . وقدروا على أشياء كثيرة . . قدروا على الدس في سنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعلى تاريخ الأمة المسلمة . وقدروا على تزوير الأحداث ودس الأشخاص في جسم المجتمع المسلم ليؤدوا الأدوار التي يعجزون عن أدائها وهم سافرون . وقدروا على تحطيم الدول والمجتمعات والأنظمة والقوانين . وقدروا على تقديم عملائهم الخونة في صورة الأبطال الأجداد ليقوموا لهم بأعمال الهدم والتدمير في أجسام المجتمعات الإسلامية على مدار القرون . وبخاصة في العصر الحديث . .

ولكنهم لم يقدرُوا على شيء واحد - والظروف الظاهرية كلها مهياة له - . . لم يقدرُوا على إحداث شيء في

هذا الكتاب المحفوظ ، الذي لا حماية له من أهله المنتسبين إليه ؛ وهم بعد أن نبذوه وراء ظهورهم غثاء كغثاء السيل لا يدفع ولا يمنع ؛ فدل هذا مرة أخرى على ربانية هذا الكتاب ، وشهدت هذه المعجزة الباهرة بأنه حقاً تنزيل من عزيز حكيم .

لقد كان هذا الوعد على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مجرد وعد . أما هو اليوم - من وراء كل تلك الأحداث الضخام ؛ ومن وراء كل تلك القرون الطوال . فهو المعجزة الشاهدة بربانية هذا الكتاب ، والتي لا يماري فيها إلا عنيد جهول :

« إنا نحن نزلنا الذكر ، وإنا له لحافظون » .. وصدق الله العظيم ..

ويعزي الله سبحانه نبيه - صلى الله عليه وسلم - فيخبره أنه ليس بدعاً من الرسل الذين لقوا الاستهزاء والتكذيب ، فهكذا المكذبون دائماً في عنادهم الذميم :

« ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين . وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون » ..

وعلى هذا النحو الذي تلقى به المكذبون أتباع الرسل ما جاءهم به رسلهم ، يتلقى المكذبون المجرمون من أتباعك ما جتتهم به . وعلى هذا النحو تجري هذا التكذيب في قلوبهم التي لا تدبر ولا تحسن الاستقبال ، جزاء ما أعرضت وأجرت في حق الرسل المختارين :

« كذلك نسلكه في قلوب المجرمين . لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين » ..

نسلكه في قلوبهم مكذباً بما فيه مستهزأ به ؛ لأن هذه القلوب لا تحسن أن تتلقاه إلا على هذا النحو . سواء في هذا الجيل أم في الأجيال الخالية أم في الأجيال اللاحقة ؛ فالمكذبون أمة واحدة ، من طينة واحدة : « وقد خلت سنة الأولين » ..

وليس الذي ينقصهم هو توافر دلائل الإيمان ، فهم معاندون ومكابرون ، مهما تأتهم من آية بينة فهم في عنادهم ومكابرتهم سادرون .

وهنا يرسم السياق نموذجاً باهراً للمكابرة المرذولة والعناد البغيض :

« ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلّوا فيه يعرجون ، لقالوا : إنما سكرت أبصارنا ، بل نحن قوم مسحورون » ..

ويكفي تصورهم يصعدون في السماء من باب يفتح لهم فيها . يصعدون بأجسامهم ، ويرون الباب المفتوح أمامهم ، ويحسون حركة الصعود ويرون دلائلها .. ثم هم بعد ذلك يكابرون فيقولون : لا . لا . ليست هذه حقيقة . إنما أحد سكر أبصارنا وخذرها فهي لا ترى إنما تتخيل :

« إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون » ..

سكر أبصارنا مسكر وسحرنا ساحر ، فكل ما نراه وما نحسه وما نتحرّكه تهيّوات مسكر مسحور !

يكفي تصورهم على هذا النحو لتبدو المكابرة السمجة ويتجلى العناد المزري . ويتأكد أن لا جدوى من الجدل مع هؤلاء . وبثبت أن ليس الذي ينقصهم هو دلائل الإيمان . وليس الذي يمنهم أن الملائكة لا تنزل . فصعودهم هم أشد دلالة وألصق بهم من نزول الملائكة . إنما هم قوم مكابرون . مكابرون بلا حياة وبلا تحرج وبلا مبالاة بالحق الواضح المكشوف !

إنه نموذج بشري للمكابرة والاستغلاق والانطماس يرسمه التعبير ، مثيراً لشعور الاشتزاز والتحقير ..

وهذا النموذج ليس محلياً ولا وقتياً ، ولا هو وليد بيئة معينة في زمان معين .. إنه نموذج للإنسان حين تفسد فطرته ، وتستغلق بصيرته ، وتتعلق في كيانه أجهزة الاستقبال والتلقي ، وينقطع عن الوجود الحي من حوله ، وعن إيقاعاته وإيحاءاته .

هذا النموذج يتمثل في هذا الزمان في الملحددين وأصحاب المذاهب المادية التي يسمونها « المذاهب العلمية ! » وهي أبعد ما تكون عن العلم ؛ بل أبعد ما تكون عن الإلهام والبصيرة ..

إن أصحاب المذاهب المادية يلحدون في الله ؛ ويجادلون في وجوده - سبحانه - وينكرون هذا الوجود .. ثم يقيمون على أساس إنكار وجود الله ، والزعم بأن هذا الكون موجود هكذا بذاته ، بلا خالق ، وبلا مدبر ، وبلا موجه .. يقيمون على أساس هذا الزعم وذلك الإنكار مذاهب اجتماعية وسياسية واقتصادية و« أخلاقية ! » كذلك . ويزعمون أن هذه المذاهب القائمة على ذلك الأساس ، والتي لا تنفصل عنه بحال .. « علمية » .. هي وحدها « العلمية » !

وعدم الشعور بوجود الله سبحانه ، مع وجود تلك الشواهد والدلائل الكونية ، هو دلالة لا تنكر على تعطل أجهزة الاستقبال والتلقي في تلك الجبلات النكدة . كما أن اللجاجة في هذا الإنكار لا تقل تبجحاً عن تبجح ذلك النموذج الذي ترسمه النصوص القرآنية السابقة :

« ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون . لقالوا : إنما سكرت أبصارنا ، بل نحن قوم مسحورون ! » ..

فالشواهد الكونية أظهر وأوضح من عروجهم إلى السماء . وهي تحاظب كل فطرة غير معطلة خطاباً هامساً وجاهراً ، باطناً وظاهراً ، بما لا تملك هذه الفطرة معه إلا المعرفة والإقرار .

إن القول بأن هذا الكون موجود بذاته ؛ وفيه كل تلك النواميس المتوافقة لحفظه وتحريكه وتديره ؛ كما أن فيه كل تلك الموافقات لنشأة الحياة في بعض أجزائه .. وهي موافقات لا تحصى .. إن هذا القول بذاته يرفضه العقل البشري ، كما ترفضه الفطرة من أعماقها . وكلما توغل « العلم » في المعرفة بطبيعة هذا الكون وأسراره وموافقاته ؛ رفض فكرة التلقائية في وجود هذا الكون وفي حركته بعد وجوده ؛ واضطراراً إلى رؤية اليد الخالقة المدبرة من ورائه .. هذه الرؤية التي تم للفطرة السوية بمجرد تلقي إيقاعات هذا الكون وإيحاءاته . قبل جميع البحوث العلمية التي لم تجئ إلا أخيراً !

إن الكون لا يملك أن يخلق ذاته ، ثم يخلق في الوقت نفسه قوانينه التي تصرف وجوده . كما أن نشأة الحياة لا يفسرها وجود الكون الخالي من الحياة . وتفسير نشأة الكون ونشأة الحياة بدون وجود خالق مدبر تفسير متعسف ترفضه الفطرة كما يرفضه العقل أيضاً .. كما أخذ يرفضه العلم المادي نفسه أخيراً :

يقول عالم الأحياء والنبات « رسل تشارلز إرنست » الأستاذ بجامعة فرانكفورت بألمانيا : « لقد وضعت نظريات عديدة لكي تفسر نشأة الحياة من عالم الجمادات ؛ فذهب بعض الباحثين إلى أن الحياة قد نشأت من البروتوجين ، أو من الفيروس ، أو من تجمع بعض الجزيئات البروتينية الكبيرة . وقد يخيل إلى بعض الناس أن هذه النظريات قد سدت الفجوة التي تفصل بين عالم الأحياء وعالم الجمادات . ولكن الواقع الذي ينبغي أن نسلم به هو أن جميع الجهود التي بذلت للحصول على المادة الحية من غير الحية ، قد باءت بفشل وخذلان ذريعين . ومع ذلك فإن من ينكرو وجود الله لا يستطيع أن يقيم الدليل المباشر للعالم المتطلع على أن مجرد تجمع الذرات والجزيئات عن طريق المصادفة ، يمكن أن يؤدي إلى ظهور الحياة وصيانتها وتوجيهها بالصورة

التي شاهدها في الخلايا الحية . وللشخص مطلق الحرية في أن يقبل هذا التفسير لنشأة الحياة ، فهذا شأنه وحده ! ولكنه إذ يفعل ذلك ، فإنما يسلم بأمر أشد إعجازا وصعوبة على العقل من الاعتقاد بوجود الله ، الذي خلق الأشياء وديرها .

« إنني أعتقد أن كل خلية من الخلايا الحية قد بلغت من التعقد درجة يصعب علينا فهمها . وأن ملايين الملايين من الخلايا الحية الموجودة على سطح الأرض تشهد بقدرته شهادة تقوم على الفكر والمنطق . ولذلك فإنني أؤمن بوجود الله إيماناً راسخاً »

وهذا الذي يكتب هذا التقرير لم يبدأ بحثه من التقريرات الدينية عن نشأة الحياة . إنما بدأ بحثه من النظر الموضوعي لنواميس الحياة . والمنطق السائد في بحثه هو منطق « العلم الحديث » - بكل خصائصه - لا منطق الإلهام الفطري ، ولا منطق الحس الديني . ومع ذلك فقد انتهى إلى الحقيقة التي يقرها الإلهام الفطري ، كما يقرها الحس الديني . ذلك أن الحقيقة متى كان لها وجود ، اعترض وجودها كل سالك إليها من أي طريق يسلكه إليها ؛ أما الذين لا يجدون هذه الحقيقة فهم الذين تعطلت فيهم أجهزة الإدراك جميعاً !

والذين يجادلون في الله - مخالفين عن منطق الفطرة وعن منطق العقل ، وعن منطق الكون . . . أولئك كائنات تعطلت فيها أجهزة الاستقبال والتلقي جميعاً . . . إنهم العمي الذين يقول الله تعالى فيهم : « أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى » .

وإذا كانت هذه حقيقتهم ؛ فإن ما ينشئونه من مذاهب « علمية ! » اجتماعية وسياسية واقتصادية ؛ وما ينشئون من نظريات عن الكون والحياة والإنسان والحياة الإنسانية والتاريخ الإنساني ؛ يجب أن ينظر إليها المسلم كما ينظر إلى كل تخبط ، صادر عن أعمى ، معطل الحواس الأخرى ، محجوباً عن الرؤية وعن الحس وعن الإدراك جميعاً - على الأقل فيما يتعلق بالحياة الإنسانية وتفسيرها وتنظيمها . وما ينبغي لمسلم أن يتلقى عن هؤلاء شيئاً ؛ فضلاً على أن يكيف نظره ، ويقم منهج حياته ، على شيء مقبوس من أولئك العمي أصلاً ! إن هذه قضية إيمانية اعتقادية ، وليست قضية رأي وفكر ! إن الذي يقم تفكيره ، ويقم مذهبه في الحياة ، ويقم نظام حياته كذلك ، على أساس أن هذا الكون المادي هو منشئ ذاته ، ومنشئ الإنسان أيضاً . . . إنما يخطئ في قاعدة الفكرة والمذهب والنظام ؛ فكل التشكيلات والتنظيمات والإجراءات القائمة على هذه القاعدة لا يمكن أن تبيح بخير ؛ ولا يمكن أن تلتحم في جزئية واحدة مع حياة مسلم ، يقم اعتقاده وتصوره ، ويجب أن يقم نظامه وحياته على قاعدة ألوهية الله للكون وخلقته وتديره .

ومن ثم يصبح القول بـ « ما يسمى « الاشتراكية العلمية » منهج مستقل عن المذهب المادي مجرد جهالة أو هراء ! ويصبح الأخذ بما يسمى « الاشتراكية العلمية » - وتلك قاعدتها ونشأتها ومنهج تفكيرها وبناء أنظمتها - عدولاً جذرياً عن الإسلام : اعتقاداً وتصوراً ثم منهجاً ونظاماً . . . حيث لا يمكن الجمع بين الأخذ بتلك « الاشتراكية العلمية » واحترام العقيدة في الله بتاتاً . ومحاولة الجمع بينهما هي محاولة الجمع بين الكفر والإسلام . . . وهذه هي الحقيقة التي لا محيص عنها . . .

إن الناس في أي أرض وفي أي زمان ؛ إما أن يتخذوا الإسلام ديناً ، وإما أن يتخذوا المادية ديناً . فإذا

(١) من مقال « الخلايا الحية تؤدي رسالتها » في كتاب : « الله يتجلى في عصر العلم » ونحب أن ننبه أننا إذ نقتطف ما نقتطف إنما نخاطب الماديين « العلميين » بلغتهم . . . وليس هذا إقراراً منا بصحة كل ما نستشهد به وسلامة منهجه التفكري والتعبيري في القضية التي نعرضها .

اتخذوا الإسلام ديناً امتنع عليهم أن يتخذوا « الاشتراكية العلمية » المنبثقة من « الفلسفة المادية » ، والتي لا يمكن فصلها عن الأصل الذي انبثقت منه ، نظاماً .. وعلى الناس أن يختاروا .. إما الإسلام ، وإما المادية ، منذ الابتداء !

إن الإسلام ليس مجرد عقيدة مستكنة في الضمير . إنما هو نظام قائم على عقيدة .. كما أن « الاشتراكية العلمية » - بهذا الاصطلاح - ليست قائمة على هواء ، إنما هي منبثقة انبثاقاً طبيعياً من « المذهب المادي » الذي يقوم بدوره على قاعدة مادية الكون وإنكار وجود الخالق المبدئ أصلاً ، ولا يمكن الفصل بين هذا التركيب العضوي .. ومن ثم ذلك التناقض الجذري بين الإسلام وما يسمى « الاشتراكية العلمية » بكل تطبيقاتها ! ولا بد من الاختيار بينهما .. ولكل أن يختار وأن يتحمل عند الله تبعه ما يختار !!!

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ وَشَهَابٌ مُبِينٌ ﴿١٨﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لِكُلِّ فِيهَا مَعَدِيثٍ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُمْ رِزْقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاحٍ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَائِرِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِيهِ وَنُمِيتُهُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَعْرِبِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾

من مشهد المكابرة . وكان ميدانه السماء . إلى معرض الآيات الكونية مبدوءاً بمشهد السماء . فشهد الأرض . فشهد الرياح اللوآح بالماء . فشهد الحياة والموت . فشهد البعث والحشر .. كل أولئك آيات يكابر فيها من لوفتح عليهم باب من السماء فظلوا فيه يعرجون ، قالوا : إنما سكرت أبصارنا ، بل نحن قوم مسحورون . فلنعرضها مشهداً مشهداً كما هي في السياق :

« ولقد جعلنا في السماء بروجاً . وزيناها للناظرين . وحفظناها من كل شيطان رجيم . إلا من استرق السمع ، فأتبعه شهاب مبين » ..

إنه الخط الأول في اللوحة العريضة .. لوحة الكون العجيبة ، التي تنطق بآيات القدرة المبدعة ، وتشهد بالإعجاز أكثر مما يشهد نزول الملائكة ؛ وتكشف عن دقة التنظيم والتقدير ، كما تكشف عن عظمة القدرة على هذا الخلق الكبير .

والبروج قد تكون هي النجوم والكواكب بضخامتها . وقد تكون هي منازل النجوم والكواكب التي

تنتقل فيها في مدارها . وهي في كلتا الحالتين شاهدة بالقدرة ، وشاهدة بالدقة ، وشاهدة بالإبداع الجميل :
« وزيناها للناظرين » ..

وهي لفته هنا إلى جمال الكون - وبخاصة تلك السماء - تشي بأن الجمال غاية مقصودة في خلق هذا الكون . فليست الضخامة وحدها ، وليست الدقة وحدها ، إنما هو الجمال الذي ينتظم المظاهر جميعا . وينشأ من تناسقها جميعا .

وإن نظرة مبصرة إلى السماء في الليلة الحالكة ، وقد انتثرت فيها الكواكب والنجوم ، توصف بنورها ثم يبدو كأنما تحبو ، ريثما تنتقل العين لتلبي دعوة من نجم بعيد .. ونظرة مثلها في الليلة القمرية والبدر حام ، والكون من حوله مهوّم ، كأنما يمسك أنفاسه لا يوقظ الحالم السعيد !

إن نظرة واحدة شاعرة لكفيلة بإدراك حقيقة الجمال الكوني ، وعمق هذا الجمال في تكوينه ؛ ولإدراك معنى هذه اللقطة العجيبة :

« وزيناها للناظرين » ..

ومع الزينة الحفظ والتهارة :

« وحفظناها من كل شيطان رجيم » ..

لا يخالها ولا يدنسها ؛ ولا ينفث فيها من شره ورجسه وغوايته . فالشيطان موكل بهذه الأرض وحدها ، وبالغاوين من أبناء آدم فيها . أما السماء - وهي رمز للسمو والارتفاع - فهو مطرود عنها مطارد لا يخالها ولا يدنسها . إلا محاولة منه ترد كلما حاولها :

« إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين » ..

وما الشيطان ؟ وكيف يحاول استراق السمع ؟ وأي شيء يسترق ؟ .. كل هذا غيب من غيب الله ؛ لا سبيل لنا إليه إلا من خلال النصوص . ولا جدوى في الخوض فيه ، لأنه لا يزيد شيئاً في العقيدة ؛ ولا يثمر إلا انشغال العقل البشري بما ليس من اختصاصه ، وبما يعطله عن عمله الحقيقي في هذه الحياة . ثم لا يضيف إليه إدراكاً جديداً لحقيقة جديدة .

فلنعلم أن لا سبيل في السماء للشيطان ، وأن هذا الجمال الباهر فيها محفوظ ، وأن ما ترمز إليه من سمو وعُلى مصون لا يناله دنس ولا رجس ، ولا يخطر فيه شيطان ، وإلا طورد فطرد وحيل بينه وبين ما يريد .

ولا ننسى جمال الحركة في المشهد في رسم البرج الثابت ، والشيطان الصاعد ، والشهاب المنقض ، فهي من بدائع التصوير في هذا الكتاب الجميل .

والخط الثاني في اللوحة العريضة الهائلة هو خط الأرض الممدودة أمام النظر ، المبسوطة للخط والسير ؛ وما فيها من رواسٍ ، وما فيها من نبت وأرزاق للناس ولغيرهم من الأحياء :

« والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي ، وأنبتنا فيها من كل شيء موزون . وجعلنا لكم فيها معاش ومن لستم له برازقين » ..

إن ظل الضخامة واضح في السياق . فالإشارة في السماء إلى البروج الضخمة - تبدو ضخامتها حتى في جرس كلمة « بروج » وحتى الشهاب المتحرك وصف من قبل بأنه « مبين » .. والإشارة في الأرض إلى الرواسي - ويتجسم ثقلها في التعبير بقوله : « وألقينا فيها رواسي » . وإلى النبات موصوفاً بأنه « موزون » وهي كلمة

ذات ثقل ، وإن كان معناها أن كل نبت في هذه الأرض في خلقه دقة وإحكام وتقدير .. ويشترك في ظل التضخيم جمع « معايش » وتنكيرها ، وكذلك « ومن لستم له برازقين » من كل ما في الأرض من أحياء على وجه الإجمال والإيهام . فكلها تخلع ظل الضخامة الذي يجعل المشهد المرسوم .

والآية الكونية هنا تتجاوز الآفاق إلى الأنفس . فهذه الأرض الممدودة للنظر والخطو ؛ وهذه الرواسي الملقاة على الأرض ، تصاحبها الإشارة إلى النبت الموزون ؛ ومنه إلى المعاش التي جعلها الله للناس في هذه الأرض . وهي الأرزاق المؤهلة للعيش والحياة فيها . وهي كثيرة شتى ، يحملها السياق هنا ويهملها لتلقي ظل الضخامة كما أسلفنا . جعلنا لكم فيها معاش ، وجعلنا لكم كذلك « من لستم له برازقين » . فهم يعيشون على أرزاق الله التي جعلها لهم في الأرض . وما أنتم إلا أمة من هذه الأمم التي لا تحصى . أمة لا ترزق سواها إنما الله يرزقها ويرزق سواها ، ثم يتفضل عليها فيجعل لمنفعتيها ومتاعها وخدمتها أما أخرى تعيش من رزق الله ، ولا تكلفها شيئاً .

هذه الأرزاق - ككل شيء - مقدره في علم الله ، تابعة لأمره ومشيته ، يصرفها حيث يشاء وكما يريد ، في الوقت الذي يريده حسب سنته التي ارتضاها ، وأجراها في الناس والأرزاق :

« وإن من شيء إلا عندنا خزائنه ، وما ننزله إلا بقدر معلوم » ..

فما من مخلوق بقدر على شيء أو يملك شيئاً ، إنما خزائن كل شيء - مصادره وموارده - عند الله . في علاه . ينزله على الخلق في عوالمهم « بقدر معلوم » فليس من شيء ينزل جزافاً ، وليس من شيء يتم اعتباطاً .

ومدلول هذا النص المحكم : « وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » يتجلى بوضوح أكثر كلما تقدم الإنسان في المعرفة ، وكلما اهتدى إلى أسرار تركيب هذا الكون وتكوينه . ومدلول « خزائنه » يتجلى في صورة أقرب بعدما كشف الإنسان طبيعة العناصر التي يتألف منها الكون المادي ؛ وطبيعة تركيبها وتحليلها - إلى حد ما - وعرف مثلاً أن خزائن الماء الأساسية هي ذرات الأيدروجين والأكسوجين ! وأن من خزائن الرزق المتمثل في النبات الأخضر كله ذلك الآزوت الذي في الهواء ! وذلك الكربون وذلك الأكسجين المركب في ثاني أكسيد الكربون ! وتلك الأشعة التي ترسل بها الشمس أيضاً ! ومثل هذا كثير يوضح دلالة خزائن الله التي توصل الإنسان إلى معرفة شيء منها .. وهو شيء على كثيرته قليل قليل ...¹

ومما يرسله الله بقدر معلوم الرياح والماء :

« وأرسلنا الرياح لواقح ، فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه . وما أنتم له بخازنين » ..

أرسلنا الرياح لواقح بالماء¹ ، كما تلقح الناقة بالنتاج ؛ فأنزلنا من السماء ماء مما حملت الرياح ، فأسقيناكموه فعشتم به :

« وما أنتم له بخازنين » ..

(1) أراد بعضهم أن يفسر لواقح هنا بالمعنى العلمي الذي كشف وهو أن الرياح تحمل اللقاح من شجرة إلى شجرة . ولكن السياق هنا يشير إلى أنها لواقح بالماء دون سواه « فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه » وليس هناك ذكر ولو من بعيد للإنبات حتى يكون هناك ظل في المشهد للنبات . والتعبير القرآني دقيق في رسم ظلال المشاهد من قريب ومن بعيد . يدرك ذلك من يعيش في ظلال القرآن ناجياً من الشوائب والإيحاءات الغريبة ، حتى يتكون له حس قرآني بريء من تلك الشوائب والإيحاءات الغريبة ! وعندئذ يلفظ حسه كل تأويل غريب دخيل !

فما من خزائنكم جاء ، إنما جاء من خزائن الله ونزل منها بقدر معلوم .
والرياح تنطلق وفق نواميس كونية ، وتحمل الماء وفقاً لهذه النواميس ؛ وتسقط الماء كذلك بحسبها .
ولكن من الذي قدر هذا كله من الأساس ؟ لقد قدره الخالق ، ووضع الناموس الكلي الذي تنشأ عنه كل
الظواهر :

« وإن من شيء إلا عندنا خزائنه ، وما ننزله إلا بقدر معلوم » .

ونلاحظ في التعبير أنه يرد كل حركة إلى الله حتى شرب الماء .. « فأسقيناهموه » .. والمقصود أننا جعلنا
خلقتكم تطلب الماء ، وجعلنا الماء صالحاً لحاجتكم ، وقدرنا هذا وذاك . وأجرينا وحققناه بقدر الله . والتعبير
يجيء على هذا النحو لتنسيق الجو كله ، ورجع الأمر كله إلى الله حتى في حركة تناول الماء للشراب .
لأن الجو جو تعليق كل شيء في هذا الكون بإرادة الله المباشرة وقدره المتعلق بكل حركة وحادثة .. سنة الله هنا
في حركات الأفلاك كسنته هناك في حركات الأنفس .. تضمن المقطع الأول سنته في المكذبين ، وتضمن
المقطع الثاني سنته في السموات والأرضين ، وفي الرياح والماء والاستقاء . وكله من سنة الله التي يجري بها قدر
الله . وهذه تلك موصولتان بالحق الكبير الذي خلق الله به السموات والأرض والناس والأشياء سواء .

ثم يتم السياق رجع كل شيء إلى الله ، فيرد إليه الحياة والموت ، والأحياء والأموات ، والبعث والنشور .
« وإنا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون . ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين . وإن
ربك هو يحشرهم إنه حكيم عليم » ..

وهنا يلتقي المقطع الثاني بالمقطع الأول . فهناك قال :

« وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم ، ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون » ..

وهنا يقرر أن الحياة والموت بيد الله ، وأن الله هو الوارث بعد الحياة . وأنه هو يعلم من كتب عليهم أن
يستقدموا فيتوفوا ، ومن كتب عليهم أن يؤجلوا فيستأخروا في الوفاة . وأنه هو الذي يحشرهم في النهاية ،
وإليه المصير :

« إنه حكيم عليم » ..

يقدر لكل أمة أجلها بحكمته ، ويعلم متى تموت ، ومتى تحشر ، وما بين ذلك من أمور ..

ونلاحظ في هذا المقطع وفي الذي قبله تناسقاً في حركة المشهد . في تنزيل الذكر . وتنزيل الملائكة . وتنزيل
الرجوم للشياطين . وتنزيل الماء من السماء .. ثم في المجال الذي يحيط بالأحداث والمعاني ، وهو مجال الكون
الكبير : السماء والبروج والشهب ، والأرض والرواسي والنبات ، والرياح والمطر .. فلما ضرب مثلاً للمكابرة
جعل موضوعه العروج من الأرض إلى السماء خلال باب منها مفتوح في ذات المجال المعروض .. وذلك
من بدائع التصوير في هذا الكتاب العجيب .

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمِإٍ مَسْنُونٍ ﴿١٩٦﴾ وَالْجَنَّانَ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ ﴿١٩٧﴾

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمِإٍ مَسْنُونٍ ﴿١٩٦﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي

فَفَعُولُهُۥٓ وَسَجِدِينَ ﴿٣١﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ يَا بَلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٤﴾ قَالَ لَئِن لَّا تُجِيبُنِي بِرَبِّكَ لَأَكُونَنَّ لِشَيْءٍ خَلْقَةً ۖ مِنْ صُلْبِ مَنْ هَمَّ مَسْنُونٍ ﴿٣٥﴾ قَالَ فَانْخُرْ مِنْهَا فإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣٧﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٨﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤١﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤٣﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٤﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٥﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٦﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٧﴾ أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٨﴾ وَزَعَنَّا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ إِخْرَؤْنَا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٩﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٥٠﴾

هنا نجيء إلى قصة البشرية الكبرى : قصة الفطرة الأولى . قصة الهدى والضلال وعواملهما الأصيلة . قصة آدم . مم خلق ؟ وماذا صاحب خلقه وتلاه ؟

ولقد مرت بنا هذه القصة في الضلال معروضة مرتين من قبل . في سورة البقرة ، وفي سورة الأعراف .^١ ولكن مساقها في كل مرة كان لأداء غرض خاص ، في معرض خاص ، في جو خاص . ومن ثم اختلفت الحلقات التي تعرض منها في كل موضع ، واختلفت طريقة الأداء ، واختلفت الضلال ، واختلف الإيقاع . مع المشاركة في بعض المقدمات والتعقيبات بقدر الاشتراك في الأهداف .

تشابهت مقدمات القصة في السور الثلاث ؛ في الإشارة إلى التمكين للإنسان في الأرض وإلى استخلافه فيها :

ففي سورة البقرة سبقها في السياق : « هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ، ثم استوى إلى السماء ، فسواهن سبع سماوات وهو بكل شيء عليم » ..

وفي سورة الأعراف سبقها : « ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلاً ما تشكرون » ..
وهنا سبقها : « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون ، وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين » ..

ولكن السياق الذي وردت فيه القصة في كل سورة كان مختلف الوجهة والغرض ..
في البقرة كانت نقطة التركيز في السياق هي استخلاف آدم في الأرض التي خلق الله للناس ما فيها جميعاً :

(١) هذا بحسب ترتيب السورة في المصحف . لا بحسب ترتيب النزول ؛ والأعراف مكية كالحجر . وقد نزلنا قبل البقرة المدنية .

« وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة » .. ومن ثم عرض من القصة أسرار هذا الاستخلاف الذي عجبت له الملائكة لما خفي عليهم سره : « وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال : أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا : سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . قال : يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم قال : ألم أقل لكم : إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ؟ » .. ثم عرض حكاية سجود الملائكة وإباء إبليس واستكباره . وسكنى آدم وزوجه الجنة . وإزال الشيطان لهما عنها وإخراجهما منها . ثم الهبوط إلى الأرض للخلافة فيها ، بعد تزويدهما بهذه التجربة القاسية ، واستغفارهما وتوبة الله عليهما . . . وعقب على القصة بدعوة بني إسرائيل لذكر نعمة الله عليهم والوفاء بعهده معهم ، فكان هذا متصلاً باستخلاف أيهم الأكبر في الأرض ، وعهده معه ، والتجربة القاسية لأبي البشر . .

وفي الأعراف كانت نقطة التركيز في السياق هي الرحلة الطويلة من الجنة وإليها ؛ وإبراز عداوة إبليس للإنسان منذ بدء الرحلة إلى نهايتها . حتى يعود الناس مرة أخرى إلى ساحة العرض الأولي . ففريق منهم يعودون إلى الجنة التي أخرج الشيطان أبويهم منها لأنهم عادوه وخالفوه . وفريق ينتكس إلى النار لأنه اتبع خطوات الشيطان العدو اللدود . . ومن ثم عرض السياق حكاية سجود الملائكة وإباء إبليس واستكباره . وطلبه من الله أن ينظره إلى يوم البعث ، ليغوي أبناء آدم الذي من أجله طرد . ثم إسكان آدم وزوجه الجنة يأكلان من ثمرها كله إلا شجرة واحدة ، هي رمز المحذور الذي تبتلى به الإرادة والطاعة . ثم وسوسة الشيطان لهما بتوسع وتفصيل ، وأكلهما من الشجرة وظهور سوء آتهما لهما ، وعتاب الله لآدم وزوجه ، وإهباطهم إلى الأرض جميعاً للعمل في أرض المعركة الكبرى : « قال : اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين ، قال : فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون » .. ثم تابع السياق الرحلة كلها حتى يعود الجميع كرة أخرى . وعرضهم في الساحة الكبرى مع التفصيل والحوار . ثم انتهى فريق إلى الجنة وفريق إلى النار : « ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله . قالوا : إن الله حرمهما على الكافرين » .. وأسدل الستار ..

فأما هنا في هذه السورة فإن نقطة التركيز في السياق هي سر التكوين في آدم ، وسر الهدى والضلال ، وعواملهما الأصيلية في كيان الإنسان . . ومن ثم نص ابتداء على خلق الله آدم من صلصال من حمأ مسنون ، ونفخه فيه من روحه المشرق الكريم ؛ وخلق الشيطان من قبل من نار السموم . ثم عرض حكاية سجود الملائكة وإباء إبليس استنكافاً من السجود لبشر من صلصال من حمأ مسنون . وطرده ولعنته . وطلبه الإنظار إلى يوم البعث وإجابته . وزاد أن إبليس قرر على نفسه أن ليس له سلطان على عباد الله المخلصين . إنما سلطانه على من يدينون له ولا يدينون لله . وانتهى بمصير هؤلاء وهؤلاء في غير حوار ولا عرض ولا تفصيل . تبعاً لنقطة التركيز في السياق ، وقد استوفيت ببيان عنصري الإنسان ، وبيان مجال سلطة الشيطان . .

فلنمض إلى مشاهد القصة في هذا المجال :

« ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون . والجان خلقناه من قبل من نار السموم » ..

وفي هذا الافتتاح يقرر اختلاف الطبيعتين بين الصلصال - وهو الطين اليابس الذي يصلصل عند نقره ، المتخذ من الطين الرطب الآسن - والنار الموسومة بأنها شعواء سامة . . نار السموم . . وفيها بعد سنعلم أن طبيعة الإنسان قد دخل فيها عنصر جديد هو النفخة من روح الله ، أما طبيعة الشيطان فبقيت من نار السموم .

« وإذ قال ربك للملائكة : إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ، فسجد الملائكة كلهم أجمعون ، إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين . قال : يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين ؟ قال : لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون . قال : فاخرج منها فإنك رجيم ، وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين » . .

وإذ قال ربك للملائكة .. متى قال ؟ ، وأين قال ؟ وكيف قال ؟ كل أولئك قد أجبتنا عنه في سورة البقرة في الجزء الأول من هذه الظلال . إنه لا سبيل إلى الإجابة ، لأنه ليس لدينا نص يجب . وليس لنا من سبيل إلى ذلك الغيب إلا بنص ، وكل ما عدا ذلك ضرب في التيه بلا دليل^١ .

فأما خلق الإنسان من صلصال من حمأ مسنون والنفخ فيه من روح الله فكيف كان ؟ فهو كذلك ما لا ندري كيفيته ، ولا سبيل إلى تحديد هذه الكيفية بحال من الأحوال .

وقد يقال بالإحالة إلى نصوص القرآن الأخرى في هذه القضية ، وبخاصة قوله : ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . وقوله : ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من ماء مهين . أن أصل الإنسان وأصل الحياة كلها من طين هذه الأرض ؛ ومن عناصره الرئيسية التي تتمثل بذاتها في تركيب الإنسان الجسدي وتركيب الأحياء أجمعين . وأن هنالك أطواراً بين الطين والإنسان تشير إليها كلمة « سلالة » . وإلى هنا وتنتهي دلالة النصوص ، فكل زيادة تحمل عليها ضرب من التحمل ليس القرآن في حاجة إليه . وللبحث العلمي أن يمضي في طريقه بوسائله الميسرة له ، ، فيصل إلى ما يصل إليه من فروض ونظريات ، يحقق منها ما يجد إلى تحقيقه سبيلاً مضمونة ، ويبدل منها ما لا يثبت على البحث والتمحيص . غير متعارض في أية نتيجة يحققها مع الحقيقة الأولية التي تضمنها القرآن ؛ وهي ابتداء خلق هذه السلالة من عناصر الطين ودخول الماء في تركيبها على وجه اليقين .

فأما كيف ارتقى هذا الطين من طبيعته العنصرية المعروفة إلى أفق الحياة العضوية أولاً ، وإلى أفق الحياة الإنسانية أخيراً ؟ فهنا السر الذي يعجز عن تعليقه البشر أجمعون . وما يزال سر الحياة في الخلية الأولى خافياً لا يزعم أحد أنه اهتدى إليه . فأما سر الحياة الإنسانية العليا بما فيها من مدارك وإشراقات وطاقت متميزة على الخلائق الحيوانية جميعاً ، تفوقاً حاسماً فاصلاً منذ بدء ظهور الإنسان . فأما هذا السرفا تزال النظريات تحبظ حوله ولا تملك الآن أن تنكر تفرد الإنسان بخصائصه منذ نشأته كما أنها لا تملك أن تثبت الصلة المباشرة بينه وبين أي كائن قبله ، مما يزعم بعضها أن الإنسان « تطور » عنه . كما أنها لا تملك نبي الاحتمال الآخر : وهو نشأة الأجناس منفصلة منذ البدء – وإن كان بعضها أرقى من بعض – ثم نشأة هذا الإنسان متفرداً منذ البدء أيضاً . والقرآن الكريم يفسر لنا ذلك التفرد . هذا التفسير المجمل الواضح البسيط :

« فإذا سويته ونفخت فيه من روحي ... »

فهي روح الله تنقل هذا التكوين العضوي الوضع إلى ذلك الأفق الإنساني الكريم ، منذ بدء التكوين ، وتجعله ذلك الخلق المتفرد الذي توكل إليه الخلافة في الأرض بحكم تفرد خصائصه منذ بدء التكوين .

كيف ؟ ..

ومتى كان في نطاق هذا المخلوق الإنساني أن يدرك كيف يفعل الخالق العظيم ؟

وهنا نصل إلى الأرض الصلبة التي نستوي عليها مطمئنين ..

لقد كان خلق الشيطان - من قبل - من نار السموم . فهو سابق إذن للإنسان في الخلق . هذا ما نعلمه . أما كيف هو وكيف كان خلقه . فذلك شأن آخر . ليس لنا أن نخوض فيه . إنما ندرك من صفاته بعض صفات نار السموم . ندرك من صفاته التأثير في عناصر الطين بحكم أنه من النار . والأذى والمسارة فيه بحكم أنها نار السموم . ثم تنكشف لنا من ثنايا القصة صفة الغرور والاستكبار . وهي ليست بعيدة في التصور عن طبيعة النار ! ولقد كان خلق الإنسان من عناصر هذا الطين اللزج المتحول إلى صلصال ؛ ثم من النفخة العلوية التي فرقت بينه وبين سائر الأحياء ؛ ومنحته خصائصه الإنسانية ، التي أفردته منذ نشأته عن كل الكائنات الحية ؛ فسلك طريقاً غير طريقها منذ الابتداء . بينما بقيت هي في مستواها الحيواني لا تتعداه !

هذه النفخة التي تصله بالملا الأعلى ؛ وتجعله أهلاً للاتصال بالله ، ولتلقى عنه ؛ ولتجاوز النطاق المادي الذي تتعامل فيه العضلات والحواس . إلى النطاق التجريدي الذي تتعامل فيه القلوب والعقول . والتي تمنحه ذلك السر الخفي الذي يسرب به وراء الزمان والمكان ، ووراء طاقة العضلات والحواس . إلى ألوان من المدركات وألوان من التصورات غير محدودة في بعض الأحيان .

ذلك كله مع ثقله الطين في طبعه ، ومع خضوعه لضرورات الطين وحاجاته : من طعام وشراب ولباس وشهوات ونزوات . ومن ضعف وقصور وما ينشئه الضعف والقصور من تصورات ونزعات وحركات . . هذا مع أن هذا الكائن « مركب » منذ البدء من هذين الأفيق اللذين لا ينفصلان فيه . طبيعته طبيعة « المركب » لا طبيعة « المخلوط » أو « الممزوج ! » . . ولا بد من ملاحظة هذه الحقيقة ودقة تصورهما كلما تحدثنا عن تركيب الإنسان من الطين ومن النفخة العلوية التي جعلت منه هذا المخلوق الفريد التكوين . . إنه لا انفصال بين هذين الأفيق في تكوينه ، ولا تصرف لأحدهما بدون الآخر في حالة واحدة من حالاته . إنه لا يكون طيناً خالصاً في لحظة ، ولا يكون روحاً خالصاً في لحظة ؛ ولا يتصرف تصرفاً واحداً إلا بحكم تركيبه الذي لا يقع فيه الانفصال !

والتوازن بين خصائص العناصر الطينية فيه والعناصر العلوية هو الأفق الأعلى الذي يطلب إليه أن يبلغه ، وهو الكمال البشري المقدر له . فليس مطلوباً منه أن يتخلى عن طبيعة أحد عنصريه ومطالبه ليكون ملكاً أو ليكون حيواناً . وليس واحد منهما هو الكمال المنشود للإنسان . والارتفاع الذي يخل بالتوازن المطلق نقص بالقياس إلى هذا المخلوق وخصائصه الأصيلة ، والحكمة التي من أجلها خلق على هذا النحو الخاص .

والذي يحاول أن يعطل طاقاته الجسدية الحيوية هو كالذي يحاول أن يعطل طاقاته الروحية الطليقة . . كلاهما يخرج على سواء فطرته ؛ ويريد من نفسه ما لم يرده الخالق له . وكلاهما يدمر نفسه بتدمير ذلك المركب في كيانها الأصيل . وهو محاسب أمام الله على هذا التدمير .

من أجل هذا أنكر الرسول - صلى الله عليه وسلم - على من أراد أن يترهب فلا يقرب النساء ، ومن أراد أن يصوم الدهر فلا يفطر . ومن أراد أن يقوم الليل فلا ينام . أنكر عليهم كما ورد في حديث عائشة - رضي الله عنها - وقال : « فمن رغب عن سنتي فليس مني » .

وقد أقام الإسلام شريعته للإنسان على أساس تكوينه ذلك ؛ وأقام له عليها نظاماً بشرياً لا تدمر فيه طاقة واحدة من طاقات البشر . إنما قصارى هذا النظام أن يحقق التوازن بين هذه الطاقات ، لتعمل جميعها في غير طغيان ولا ضعف ؛ ولا اعتداء من إحداها على الأخرى . فكل اعتداء يقابله تعطيل . وكل طغيان يقابله تدمير .

والإنسان حفيظ على خصائص فطرته ومسؤول عنها أمام الله . والنظام الذي يقيمه الإسلام للناس حفيظ على هذه الخصائص التي لم يهبها الله جزافاً للإنسان .

والذي يريد قتل النوازع الفطرية الحيوانية في الإنسان يدمر كيانه المتفرد . ومثله الذي يريد قتل النوازع الفطرية الخاصة بالإنسان دون الحيوان من الاعتقاد في الله والإيمان بالغيب الذي هو من خصائص الإنسان . والذي يسلب الناس عقائدهم يدمر كينوتهم البشرية ، كالذي يسلب الناس طعامهم وشرابهم ومطالبهم الحيوية سواء . كلاهما عدو « للإنسان » يجب أن يطارده كما يطارد الشيطان !

إن الإنسان حيوان وزيادة . فله مثل مطالب الحيوان ، وله ما يقابل هذه الزيادة . وليست هذه المطالب دون هذه هي «المطالب الأساسية» كما يزعم أعداء الإنسان من أصحاب المذاهب المادية « العلمية » . هذه بعض الخواطر التي تطلقها في النفس حقيقة تكوين الإنسان ، كما يقرها القرآن . نمر بها سراعا ، حتى لا نوقف تدفق النص القرآني في عرض مشاهد القصة الكبرى ، راجين أن نعود إليها ببعض التعقيبات في نهايتها :

لقد قال الله للملائكة : « إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون . فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين » . .

وقد كان ما قاله الله . فقلوه - تعالى - إرادة . وتوجه الإرادة ينشئ الخلق المراد . ولا تملك أن نسأل كيف تلبست نفخة الله الأزلي الباقي بالصلصال المخلوق الفاني . فالجدل على هذا النوع عبث عقلي . بل عبث بالعقل ذاته ، وخروج به عن الدائرة التي يملك فيها أسباب التصور والإدراك والحكم . وكل ما ثار من الجدل حول هذا الموضوع وكل ما يثور إن هو إلا جهل بطبيعة العقل البشري وخصائصه وحدوده ، وإقحام له في غير ميدانه ، ليقبس عمل الخالق إلى مدركات الإنسان ، وهوسفه في إنفاق الطاقة العقلية ، وخطأ في المنهج من الأساس . إنه يقول : كيف يتلبس الخالد بالفاني ، وكيف يتلبس الأزلي بالحادث ؟ ثم ينكر أو يثبت ويعلل ! بينما العقل الإنساني ليس مدعواً أصلاً للفصل في الموضوع . لأن الله يقول : إن هذا قد كان . ولا يقول : كيف كان . فالأمر إذن ثابت ولا يملك العقل البشري أن ينفيه . وكذلك هو لا يملك أن يثبته بتفسير من عنده - غير التسليم بالنص - لأنه لا يملك وسائل الحكم . فهو حادث . والحادث لا يملك وسائل الحكم على الأزلي في ذاته ، ولا على الأزلي في خلقه للحادث . وتسليم العقل ابتداءً بهذه البديهية أو القضية - وهي أن الحادث لا يملك وسائل الحكم على الأزلي في أي صورة من صورته . يكفي ليكيف العقل عن إنفاق طاقته سفها في غير مجاله المأمون .

فلننظر بعد ذلك ماذا كان :

« فسجد الملائكة كلهم أجمعون » . .

كما هي طبيعة هذا الخلق - الملائكة - الطاعة المطلقة بلا جدل أو تعويق .

« إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين » . .

وإبليس خلق آخر غير الملائكة . فهو من نار وهم من نور . وهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . وهو أبى وعصى . فليس هو من الملائكة بيقين . أما الاستثناء هنا فليس على وجهه . إنما هو كما تقول : حضر بنوفلان إلا أحمد . وليس منهم . إنما هو معهم في كل مكان أو ملابسة . وأما أن الأمر المذكور للملائكة : « وإذ

قال ربك للملائكة « .. فكيف شمل إبليس ؟ فإن صدور الأمر إلى إبليس يدل عليه ما بعده ، وقد ذكر صريحاً في سورة الأعراف : « قال : ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك ؟ » .. وأسلوب القرآن يكتفي بالدلالة اللاحقة في كثير من المواضع . فقول الله تعالى له : « ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك ؟ » .. قاطع في أن الأمر قد صدر له . وليس من الضروري أن يكون هذا الأمر هو أمره للملائكة . فقد يصدر إليه معهم لاجتماعهم في ملاسمة ما . وقد يصدر إليه منفردا ولا يذكر تهيؤنا لشأنه وإظهارا للملائكة في الموقف . ولكن المقطوع به من النصوص ومن دلالة تصرفه أنه ليس من الملائكة . وهذا ما نختاره .

وعلى أية حال فنحن نتعامل هنا مع مسلمات غيبية لا نملك تصور ماهياتها ولا كيفياتها في غير حدود النصوص . لأن العقل كما أسلفنا لا سبيل له في هذا المجال بحال من الأحوال .

« قال : يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين ؟ قال : لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون » ..

وصرحت طبيعة الغرور والاستكبار والعصيان في ذلك المخلوق من نار السموم . وذكر إبليس الصلصال والحمأ ، ولم يذكر النفخة العلوية التي تلبس هذا الطين . وتشامخ برأسه المغرور يقول : إنه ليس من شأنه في عظمته أن يسجد لبشر خلقه الله من صلصال من حمأ مسنون ! .
وكان ما ينبغي أن يكون :

« قال : فاحرج منها فإنك رجيم وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين » ..
جزاء العصيان والشرود .

عندئذ تبدى خليفة الحقد وخليفة الشر :

« قال : رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون . قال : فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم » ..
لقد طلب النظرة إلى يوم البعث ، لا ليندم على خطيئته في حضرة الخالق العظيم ، ولا ليتوب إلى الله ويرجع ويكفر عن إثمه الجسم . ولكن لينتقم من آدم وذريته جزاء ما لعنه الله وطرده . يربط لعنة الله له بآدم ، ولا يربطها بعصيانه لله في تبجح كبير !

« قال : رب بما أغويتني لأزين لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين » ..
وبذلك حدد إبليس ساحة المعركة . إنها الأرض :
« لأزين لهم في الأرض » ..

وحدد عدته فيها إنه التزيين . تزيين القبيح وتجميله ، والإغراء بزيئته المصطنعة على ارتكابه . وهكذا لا يجترح الإنسان الشر إلا وعليه من الشيطان مسحة تزيينه وتجميله ، وتظهره في غير حقيقته وردائه . فليفتن الناس إلى عدة الشيطان ؛ وليحذروا كلما وجدوا في أمر تزيينا ، وكلما وجدوا من نفوسهم إليه اشتها . ليحذروا فقد يكون الشيطان هناك . إلا أن يتصلوا بالله ويعبدوه حق عبادته ، فليس للشيطان - بشرطه هو - على عباد الله المخلصين من سبيل :

« ولأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين » ..

والله يستخلص لنفسه من عباده من يخلص نفسه لله ، ويجردها له وحده ، ويعبده كأنه يراه . وهؤلاء ليس للشيطان عليهم من سلطان .

هذا الشرط الذي قرره إبليس - اللعين - قرره وهو يدرك أن لا سبيل إلى سواه ، لأنه سنة الله . . أن يستخلص لنفسه من يخلص له نفسه ، وأن يحميه ويرعاه . . ومن ثم كان الجواب :

« هذا صراط عليّ مستقيم . إن عبادي ليس لك عليهم سلطان . إلا من اتبعك من الغاوين » . .

هذا صراط . هذا ناموس . هذه سنة . وهي السنة التي ارتضتها الإرادة قانونا وحكما في الهدى والضلال . « إن عبادي » المخلصين لي ليس لك عليهم سلطان ، ولا لك فيهم تأثير ، ولا تملك أن تزين لهم لأنك عنهم محصور ، ولأنهم منك في حمى ، ولأن مداخلك إلى نفوسهم مغلقة ، وهم يعلقون أبصارهم بالله ، ويدركون ناموسه بفطرتهم الواصلة إلى الله . إنما سلطانك على من اتبعك من الغاوين الضالين . فهو استثناء مقطوع لأن الغاوين ليسوا جزءاً من عباد الله المخلصين . إن الشيطان لا يتلقف إلا الشاردين كما يتلقف الذئب الشاردة من القطيع . فأما من يخلصون أنفسهم لله ، فالله لا يتركهم للضباع . ورحمة الله أوسع ولوتخلفوا فإنهم يثوبون من قريب !

فأما العاقبة . عاقبة الغاوين . فهي معلنة في الساحة منذ البدء :

« وإن جهنم لموعدهم أجمعين . لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم » .

فهؤلاء الغاؤون صنوف ودرجات . والغواية ألوان وأشكال . ولكل باب منهم جزء مقسوم ، بحسب ما يكونون وما يعملون .

وينتهي المشهد وقد وصل السياق بالقصة إلى نقطة التركيز وموضع العبرة . ووضح كيف يسلك الشيطان طريقه إلى النفوس . وكيف تغلب خصائص الطين في الإنسان على خصائص النفخة . فأما من يتصل بالله ويحتفظ بنفخة روجه فلا سلطان عليه للشيطان . .

وبمناسبة ذكر مصير الغاوين يذكر مصير المخلصين :

« إن المتقين في جنات وعيون . ادخلوها بسلام آمنين . ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين . لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين » .

والمتقون هم الذين يرقبون الله ويقون أنفسهم عذابه وأسبابه . ولعل العيون في الجنات تقابل في المشهد تلك الأبواب في جهنم . وهم يدخلون الجنات بسلام آمنين في مقابل الخوف والفرع هناك . ونزعنا ما في صدورهم من غل ، في مقابل الحقد الذي يغلي به صدر إبليس فيما سلف من السياق . لا يمسهم فيها نصب ولا يخافون منها خروجاً . جزاء ما خافوا في الأرض واتفقوا فاستحقوا المقام المطمئن الآمن في جوار الله الكريم

* * *

وبعد ، فإن قصة البشرية الكبرى - كما تعرض في هذا السياق القرآني - تستحق تعقيبات مفصلة لا نملك أن نستطرد فيها - في ظلال القرآن - فنكتفي أن نلم بها إماما ، على قدر المناسبة :

* إن دلالتها واضحة على طبيعة تكوين هذا الخلق المسمى بالإنسان . فهو تكوين خاص متفرد ، يزيد على مجرد التركيب العضوي الحيوي ، الذي يشترك فيه مع بقية الأحياء . وأيا كانت نشأة الحياة ، ونشأة الأحياء ؛ فإن الخلق الإنساني يتفرد بخاصية أخرى هي التي ورد بها النص القرآني . . خاصية الروح الإلهي المودع فيه . .

وهي الخاصية التي تجعل من هذا الإنسان إنسانا ، يتفرد بخصائصه عن كل الأحياء الأخرى . وهي قطعاً ليست مجرد الحياة . فهو يشترك في « الحياة » مع سائر الأحياء . ولكنها خاصية الروح الزائد عن مجرد الحياة .

هذه الخاصية - كما يلهم النص القرآني - لم تيجئ للإنسان بعد مراحل أو أطوار من نشأته - كما تزعم الداروينية - ولكنها جاءت مصاحبة لخلقه ونشأته . فلم ييجئ على هذا الكائن الإنساني زمان كان فيه مجرد حي من الأحياء - بلا روح إنساني خاص - ثم دخلته هذه الروح ، فصار بها هو هذا الإنسان !

ولقد اضطرت الداروينية الحديثة - على يد جوليان هاكسلي - أن تعترف بشطر من هذه الحقيقة الكبيرة ؛ وهي تقرر « تفرد الإنسان » من الناحية الحيوية والوظيفية . ومن ثم تفرده من الناحية العقلية ، وما نشأ عن ذلك كله من تفرده من الناحية الحضارية ..

ولكنها ظلت تزعم أن هذا الإنسان المتفرد متطور عن حيوان !

والتوفيق عسير بين ما انتهت إليه الداروينية الحديثة من تفرد الإنسان ، وبين القاعدة التي تقوم عليها الداروينية - قاعدة التطور المطلق وتطور الإنسان عن الحيوان - ولكن الداروينيين ومن والاهم لا يزالون مصرين على ذلك الاندفاع - غير العلمي - الذي صبغوه بصبغة العلم ، في دفعة الانسلاخ من كل مقررات الكنيسة ! والذي شجع اليهود على نشره وتمكينه وتثبيتته ، وإضفاء الصبغة « العلمية » عليه لغرض في نفوسهم ؛ ولغاية في مخططاتهم !

ولقد سبق أن تحدثنا عن هذه القضية ، ونحن نواجه النصوص القرآنية المشابهة في سورة الأعراف في هذه الظلال^٢ ؛ فنقتطف هذه الفقرات مما سبق تقريره هناك :

« وعلى أية حال ، فإن مجموع النصوص القرآنية في خلق آدم عليه السلام ، وفي نشأة الجنس البشري ، ترجح أن إعطاء هذا الكائن خصائصه الإنسانية ووظائفه المستقلة ، كان مصاحباً لخلقه . وأن الترقى « الإنساني » كان ترقياً في بروز هذه الخصائص ، ونموها ، وتدريبها ، واكتسابها الخبرة العالية . ولم يكن ترقياً في « وجود » الإنسان .. من تطور الأنواع حتى انتهت إلى الإنسان .. كما تقول الداروينية .

« ووجود أنواع مترقية من الحيوان تتبع ترتيباً زمنياً - بدلالة الحفريات التي تعتمد عليها نظرية النشوء والارتقاء - هو مجرد نظرية « ظنية » وليست « يقينية » لأن تقدير أعمار الصخور ذاته في طبقات الأرض ليس إلا ظناً ! مجرد فرض كتقدير أعمار النجوم من إشعاعها . وليس ما يمنع من ظهور فروض أخرى تعدلها أو تغيرها !

« على أنه - على فرض العلم اليقيني بأعمار الصخور - ليس هناك ما يمنع من وجود « أنواع » من الحيوان ، في أزمان متوالية ، بعضها أرقى من بعض ، بفعل الظروف السائدة في الأرض ومدى ما تسمح به من وجود أنواع تلائم هذه الظروف السائدة في حياتها . ثم انقرض بعضها حين تتغير الظروف السائدة بحيث لا تسمح لها بالحياة (و ظهور أنواع أخرى أكثر ملاءمة للظروف السائدة)^٣ . . ولكن هذا لا « يحتم » أن يكون بعضها « متطوراً » من بعض .. وحفريات دارون وما بعدها لا تستطيع أن تثبت أكثر من هذا ، لا تستطيع أن تثبت

(١) يراجع فصل : « اليهود الثلاثة » في كتاب : « التطور والنبات في الحياة لبشرية » المؤلفه : محمد قطب . « دار الشروق » .

(٢) ص ١٢٦٤ - ١٢٦٥ من الجزء الثامن .

(٣) إضافات لم تيجئ . موضحة في المقتطفات .

- في يقين مقطوع به - أن هذا النوع تطور تطوراً عضوياً من النوع الذي قبله من الناحية الزمنية - وفق شهادة الطبقة الصخرية التي يوجد فيها - ولكنها فقط تثبت أن هناك نوعاً أرقى من النوع الذي قبله زمنياً . . وهذا يمكن تعليقه بما قلنا من أن الظروف السائدة في الأرض كانت تسمح بوجود هذا النوع . فلما تغيرت صارت صالحة لنشأة نوع آخر ، فنشأ . ومساعدة على انقراض النوع الذي كان عائشاً من قبل في الظروف الأخرى ، فانقرض .

« وعندئذ تكون نشأة النوع الإنساني نشأة مستقلة ، في الزمن الذي علم الله أن ظروف الأرض تسمح بالحياة والنمو والترقي لهذا النوع . . وهذا ما ترجمه مجموعة النصوص القرآنية في نشأة البشرية .

« وتفرد الإنسان من الناحية البيولوجية والفسولوجية والعقلية والروحية . هذا التفرد الذي اضطرت الداروينيون المحدثون - وفيهم الملحدون بالله كلية - للاعتراف به ، دليل مرجح (في مجال البحوث الإنسانية) على تفرد النشأة الإنسانية ، وعدم تداخلها مع الأنواع الأخرى في تطور عضوي . »

« هذه النشأة المتفردة للإنسان ، باحتوائها على هذه الخاصية المنشئة للوجود الإنساني المستقل . . خاصية النفخة من روح الله . . تجعل النظرة إلى هذا الإنسان و « مطالبه الأساسية » تختلف اختلافاً أصيلاً عن نظرة المذاهب المادية ، بكل إفرازاتها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، وكل إفرازاتها في التصورات والقيم التي ينبغي أن تسود الحياة الإنسانية .

إن الزعم بأن الإنسان مجرد حيوان متطور عن حيوان ! هي التي جعلت الإعلان الماركسي يذكر أن مطالب الإنسان الأساسية هي الطعام والشراب والمسكن والجنس ! فهذه فعلاً هي مطالب الحيوان الأساسية ! ولا يكون الإنسان في وضع أحقر مما يكون وفق هذه النظرة ! ومن ثم تهدر كل حقوقه المترتبة على تفرد عن الحيوان بخصائصه الإنسانية . . تهدر حقوقه في الاعتقاد الديني . وتهدر حقوقه في حرية التفكير والرأي . وتهدر حقوقه في اختيار نوع العمل ، ومكان الإقامة . وتهدر حقوقه في نقد النظام السائد وأسس الفكرية والمذهبية . بل تهدر حقوقه في نقد تصرفات « الحزب » ومن هم أقل من الحزب من الحكام المتسلطين في تلك الأنظمة البغيضة ، التي تحشر الأناسي حشراً ، وتسوقهم سوقاً ، لأن هؤلاء « الأناسي » وفق الفلسفة المادية ليسوا سوى نوع من الحيوانات تطور عن حيوان ! . . ثم يسمى ذلك النكد كله : « الاشتراكية العلمية » !

فأما النظرة الإسلامية إلى « الإنسان » - وهي تقوم على أساس تفرد بخصائصه الإنسانية إلى جانب ما يشارك فيه الحيوان من التكوين العضوي - فإنها منذ اللحظة الأولى تعتبر أن مطالب الإنسان الأساسية مختلفة وزائدة عن مطالب الحيوان الأساسية . فليس الطعام والشراب والمسكن والجنس هي كل مطالبه الأساسية . وليس ما وراءها من مطالب العقل والروح مطالب ثانوية ! . . إن العقيدة وحرية التفكير والإرادة والاختيار هي مطالب أساسية كالطعام والشراب والمسكن والجنس . . بل هي أعلى منها في الاعتبار ؛ لأنها هي المطالب الزائدة في الإنسان على الحيوان . أي المطالب المتعلقة بخصائصه التي تقرر إنسانيته ! والتي بإهدارها تهدر آدميته ! ومن ثم لا يجوز أن تهدر في النظام الإسلامي حرية الاعتقاد والتفكير والاختيار في سبيل « الإنتاج » وتوفير الطعام والشراب والمسكن والجنس للآدميين ! كما لا يجوز أن تهدر القيم الأخلاقية - كما يقرها الله للإنسان لا كما يقرها العرف والبيئة والاقتصاد - في سبيل توفير تلك المطالب الحيوانية . .

إنهما نظرتان مختلفتان من الأساس في تقييم « الإنسان » و « مطالبه الأساسية » . . ومن ثم لا يمكن الجمع بينهما في نظام واحد على الإطلاق ! فإما الإسلام ، وإما المذاهب المادية بكل ما تفرزه من إفرازات نكدة . .

بما فيها ما يسمونه هناك : « الاشتراكية العلمية » فإن هو إلا إفراز خبيث من إفرازات المادية الحقيرة المحترقة للإنسان الذي كرمه الله .

* والمعركة الخالدة بين الشيطان والإنسان في هذه الأرض ترتكز ابتداء إلى استدراج الشيطان للإنسان بعيدا عن منهج الله ؛ والتزيين له فيما عداه . استدراجه إلى الخروج من عبادة الله - أي الدينونة له في كل ما شرع من عقيدة وتصور ، وشعيرة ونسك ، وشريعة ونظام - فأما الذين يدينون له وحده - أي يعبدونه وحده - فليس للشيطان عليهم من سلطان .. « إن عبادي ليس لك عليهم سلطان » ..

ومفرق الطريق بين الاتجاه إلى الجنة التي وعد بها المتقون ؛ وبين الاتجاه إلى جهنم التي وعد بها الغاؤون ، هو الدينونة لله وحده - التي يعبر عنها في القرآن دائماً بالعبادة - أو اتباع تزيين الشيطان بالخروج على هذه الدينونة .

والشيطان نفسه لم يكن ينكر وجود الله سبحانه ، ولا صفاته .. أي إنه لم يكن يلحد في الله من ناحية العقيدة ! إنما الذي فعله هو الخروج على الدينونة لله .. وهذا هو ما أورده جهنم هو ومن اتبعه من الغاوين . إن الدينونة لله وحده هي مناط الإسلام . فلا قيمة لإسلام يدين أصحابه لغير الله في حكم من الأحكام . وسواء كان هذا الحكم خاصاً بالاعتقاد والتصور . أو خاصاً بالشعائر والمناسك . أو خاصاً بالشرائع والقوانين . أو خاصاً بالقيم والموازن ... فهو سواء .. الدينونة فيه لله هي الإسلام . والدينونة فيه لغير الله هي الجاهلية الذاهبة مع الشيطان .

ولا يمكن تجزئة هذه الدينونة ؛ واختصاصها بالاعتقاد والشعائر دون النظام والشرائع . فالدينونة لله كل لا يتجزأ . وهي العبادة لله في معناها اللغوي وفي معناها الاصطلاحي على السواء .. وعليها تدور المعركة الخالدة بين الإنسان والشيطان !

* وأخيراً نقف أمام اللفتة الصادقة العميقة في قوله تعالى عن المتقين :

« إن المتقين في جنات وعيون . ادخلوها بسلام آمنين ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين . لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين » ..

إن هذا الدين لا يحاول تغيير طبيعة البشر في هذه الأرض ؛ ولا تحويلهم خلقاً آخر . ومن ثم يعترف لهم بأنه كان في صدورهم غلٌ في الدنيا ؛ وبأن هذا من طبيعة بشريتهم التي لا يذهب بها الإيمان والإسلام من جذورها ؛ ولكنه يعالجها فقط لتخف حدتها ، ويتسامى بها لتتصرف إلى الحب في الله والكره في الله - وهل الإيمان إلا الحب والبغض ؟ - ولكنهم في الجنة - وقد وصلت بشريتهم إلى منتهى رقيها وأدت كذلك دورها في الحياة الدنيا - يتزع أصل الإحساس بالغل من صدورهم ؛ ولا تكون إلا الأخوة الصافية الودود ..

إنها درجة أهل الجنة .. فن وجدها في نفسه غالبية في هذه الأرض ، فليستبشر بأنه من أهلها ، ما دام ذلك وهو مؤمن ، فهذا هو الشرط الذي لا تقوم بغيره الأعمال ..

* نَبِيِّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٢١﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٢٢﴾ وَنَبِّئُهُمْ عَنِ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٢٣﴾

إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِئُونَ ﴿٢٤﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ

أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ تَبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشَرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَنْ يَقْطَعُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنْجُوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَا إِنَّمَا لِمَنِ الْغَابِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَتُولَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْحِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَتُولَاءِ ضُفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَوْلَىٰ نَهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَتُولَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لِبَسَائِلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَاتَّقَمْنَا مِنْهُم وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَهُمْ ءَايَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يُخْتَلُونَ مِنَ الْجِبَالِ بِبُوتَاءٍ أَمِينٍ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُصْحِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَآغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾

يتضمن هذا الدرس نماذج من رحمة الله وعذابه . مثلة في قصص إبراهيم وبناته على الكبر بغلام
 عليم ، ولوط ونجاته وأهله إلا امرأته من القوم الظالمين . وأصحاب الأيكة وأصحاب الحجر وما حل بهم
 من عذاب الألم .

هذا القصاص يساق بعد مقدمة : « نبي عبادي أي أنا الغفور الرحيم . وأن عذابي هو العذاب الأليم » فيجيء
 بعضه مصداقاً لنبا الرحمة ، ويجيء بعضه مصداقاً لنبا العذاب . كذلك هو يرجع إلى مطالع السورة ، فيصدق
 ما جاء فيها من نذير : « ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون . وما أهلكنا من قرية إلا ولها
 كتاب معلوم ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون » . فهذه نماذج من القرى المهلكة بعد النذر ، حل بها
 جزاؤها بعد انقضاء الأجل . . وكذلك يصدق هذا القصاص ما جاء في مطالع السورة في شأن الملائكة حين
 يرسلون : « وقالوا : يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون . لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين .

ما تنزل الملائكة إلا بالحق ، وما كانوا إذن منظرين » ..

فتبدو السورة وحدة متناسقة ، يظهر بعضها بعضاً .. وذلك مع ما هو معلوم من أن السور لم تكن تنزل جملة إلا نادراً ، وأن الآيات الواردة فيها لم تكن تنزل متتالية توالياً في المصحف . ولكن ترتيب هذه الآيات في السور ترتيب توقيفي ، فلا بد من حكمة في ترتيبها على هذا النسق . وقد كشفت لنا جوانب من هذه الحكمة حتى الآن في السور التي عرضناها في تماسك بنیان السور ، واتحاد الجو والظلال في كل سورة .. والعلم بعد ذلك لله . إنما هو اجتهاد . والله الموفق إلى الصواب .

* * *

« نبيّ عبادي أي أنا الغفور الرحيم . وأن عذابي هو العذاب الأليم » ..

يجيء هذا الأمر للرسول - صلى الله عليه وسلم - بعد ذكر جزاء الغاوين وجزاء المتقين في سياق السورة . والمناسبة بينهما ظاهرة في السياق . ويقدم الله نبأ الغفران والرحمة على نبأ العذاب . جرياً على الأصل الذي ارتضت مشيئته . فقد كتب على نفسه الرحمة . وإنما يذكر العذاب وحده أحياناً أو يقدم في النص لحكمة خاصة في السياق تقتضي إفراده بالذكر أو تقديمه .

ثم تجيء قصة إبراهيم مع الملائكة المرسلين إلى قوم لوط .. وقد وردت هذه الحلقة من قصة إبراهيم وقصة لوط في مواضع متعددة بأشكال متنوعة ، تناسب السياق الذي وردت فيه . ووردت قصة لوط وحده في مواضع أخرى .

وقد مرت بنا حلقة من قصة لوط في الأعراف ، وحلقة من قصة إبراهيم ولوط في هود .. فأما في الأولى فقد تضمنت استنكار لوط لما يأتيه قومه من الفاحشة ، وجواب قومه : « أخرجوهم من قريبتكم إنهم أناس يتطهرون » .. وإنجاءه هو وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين . وذلك دون ذكر لمجيء الملائكة إليه واتّمار قومه بهم .. وأما في الثانية فقد جاءت قصة الملائكة مع إبراهيم ولوط مع اختلاف في طريقة العرض . فهناك تفصيل في الجزء الخاص بإبراهيم وتبشيرهم وامرأته قائمة ، وجداله مع الملائكة عن لوط وقومه . وهو ما لم يذكر هنا . وكذلك يختلف ترتيب الحوادث في القسم الخاص بلوط في السورتين .. ففي سورة هود لم يكشف عن طبيعة الملائكة إلا بعد أن جاءه قومه يهرعون إليه وهو يرحمهم في ضيفه فلا يقبلون رجاءه ، حتى ضاق بهم ذرعاً وقال قولته الأسيفة : « لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد ! » . وأما هنا فقد تم الكشف عن طبيعة الملائكة منذ اللحظة الأولى ، وأخر حكاية القوم واتّمارهم بضيف لوط . لأن المقصود هنا ليس هو القصة بترتيبها الذي وقعت به ، ولكن تصديق النذير ، وأن الملائكة حين ينزلون فإنما ينزلون للعذاب فلا ينظر القوم ولا يمهلون ..

« ونبئهم عن ضيف إبراهيم . إذ دخلوا عليه فقالوا : سلاما . قال : إنا منكم وجلون . قالوا : لا توجلنا نبشرك بغلام عليم . قال : أبشرتموني على أن مسني الكبر؟ فيم تبشرون؟ قالوا : بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين . قال : ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ؟ » ..

قالوا : سلاما . قال : إنا منكم وجلون .. ولم يذكر هنا سبب قوله ، ولم يذكر أنه جاءهم بعجل حينئذ .. فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة » .. كما جاء في سورة هود . ذلك أن المجال هنا هو مجال تصديق الرحمة التي ينبيئ الله بها عباده على لسان رسوله ، لا مجال تفصيلات قصة إبراهيم ..

« قالوا : لا توجلنا نبشرك بغلام عليم » ..

وهكذا عجلوا له البشري ، وعجل بها السياق دون تفصيل .

كذلك يثبت هنا رد إبراهيم ولا يدخل امرأته وحوارها في هذه الحلقة :

« قال : أبشرتوني على أن مسني الكبر؟ فم تبشرون ؟ »

فقد استبعد إبراهيم في أول الأمر أن يرزق بولد وقد مسه الكبر (وزوجته كذلك عجوز عقيم كما جاء في مجال آخر) فرده الملائكة إلى اليقين :

« .. قالوا : بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين » ..

أي من اليائسين . فآب إبراهيم سريعاً ، ونفى عن نفسه القنوط من رحمة الله :

« قال : ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ؟ »

وبرزت كلمة « الرحمة » في حكاية قول إبراهيم تسبقاً مع المقدمة في هذا السياق ؛ وبرزت معها الحقيقة الكلية : أنه لا يقنط من رحمة ربه إلا الضالون . الضالون عن طريق الله ، الذين لا يسترحوون روحه ، ولا يحسون رحمته ، ولا يستشعرون رأفته وبره ورعايته . فأما القلب الندي بالإيمان ، المتصل بالرحمن ، فلا يئأس ولا يقنط مهما أحاطت به الشدائد ، ومهما ادلهمت حوله الخطوب ، ومهما غام الجو وتلبد ، وغاب وجه الأمل في ظلام الحاضر وثقل هذا الواقع الظاهر .. فإن رحمة الله قريب من قلوب المؤمنين المهتدين . وقدرة الله تنشيء الأسباب كما تنشيء النتائج ، وتغير الواقع كما تغير الموعد .

وهنا - وقد اطمأن إبراهيم إلى الملائكة ، وثابت نفسه واطمأن للبشري - راح يستطلع سبب مجيئهم وغايته :

« قال : فما خطبكم أيها المرسلون؟ قالوا : إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين . إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين ، إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين^١ » ..

ولا يعرض السياق لجدال إبراهيم عن لوط وقومه هنا كما عرض له في سورة هود . بل يصل إخبار الملائكة له ، بالنبأ كله . ذلك أنه يصدق رحمة الله بلوط وأهله ، وعذابه لامرأته وقومه . وينتهي بذلك دورهم مع إبراهيم ، ويمضون لعملهم مع قوم لوط ..

« فلما جاء آل لوط المرسلون ، قال : إنكم قوم منكرون . قالوا : بل جئناك بما كانوا فيه يمترون . وأتيناك بالحق وإنا لصادقون . فأسر بأهلك بقطع من الليل ، واتبع أدبارهم ، ولا يلتفت منكم أحد ، وامضوا حيث تؤمرون . وقضينا إليه ذلك الأمر : أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين » ..

وهكذا يعجل السياق إخبارهم للوط بأنهم الملائكة ، جاءوه بما كان قومه يمترون فيه من أخذهم بذنوبهم وإهلاكهم جزاء ما يرتكبون ، تصديقاً لوعده الله ، وتوكيداً لوقوع العذاب حين ينزل الملائكة بلا إبطاء .

« قال : إنكم قوم منكرون » ..

قالها ضيق النفس بهم ، وهو يعرف قومه ، ويعرف ماذا سيحاولون بأضيافه هؤلاء ، وهو بين قومه غريب ، وهم فجرة فاحشون .. إنكم قوم منكرون أن يجيئوا إلى هذه القرية وأهلها مشهورون بما يفعلون مع أمثالكم حين يجيئون !

(١) أي إنها باقية مع القوم تلقى مصيرهم . وأصله من الغبرة وهي بقية اللبن في الضرع .

« قالوا : بل جئناك بما كانوا فيه يمترون ، وأتيناك بالحق وإنا لصادقون » ..

وهذه التوكيدات كلها تصور لنا جزع لوط وكربه . وهو في حيرة بين واجبه لضيفه وضعفه عن حمايتهم في وجه قومه . فجاءه التوكيد بعد التوكيد ، لإدخال الطمأنينة عليه قبل إلقاء التعليمات إليه :

« فأسر بأهلك بقطع من الليل . واتبع أدبارهم ، ولا يلتفت منكم أحد ، وامضوا حيث تؤمرون » ..
والسرى سير الليل ، والقطع من الليل جزؤه . وقد كان الأمر للوط أن يسير بقومه في الليل قبل الصبح ، وأن يكون هو في مؤخرتهم يتفقدهم ولا يدع أحدا منهم يتخلف أو يتلكأ أو يتلفت إلى الديار على عادة المهاجرين الذين يتنازعهم الشوق إلى ما خلفوا من ديارهم فيتلفتون إليها ويتلكأون . وكان الموعد هو الصبح والصبح قريب :

« وقضينا إليه ذلك الأمر : أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين » ..

وأطلعناه على ذلك الأمر الخطير : أن آخر هؤلاء القوم - وهو دابرهم - مقطوع في الصباح . وإذا انقطع آخرهم فقد انقطع أولهم ؛ والتعبير على هذا النحو يصور النهاية الشاملة التي لا تبق أحدا . فلا بد من الحرص واليقظة كي لا يتخلف أحد ولا يتلفت ، فيصيبه ما يصيب أهل المدينة المتخلفين .
قدم السياق هذه الواقعة في القصة لأنها الأنسب لموضوع السورة كله . ثم أكمل ما حدث من قوم لوط قبلها .

لقد تسامعوا بأن في بيت لوط شبانا صباح الوجوه ففرحوا بأن هناك صيدا :
« وجاء أهل المدينة يستبشرون » ..

والتعبير على هذا النحو يكشف عن مدى الشناعة والبشاعة الذي وصل إليه القوم في الدنس والفجور في الفاحشة الشاذة المريضة . يكشف عن هذا المدى في مشهد أهل المدينة يجيئون جماعة ، يستبشرون بالعثور على شبان يعتدون عليهم جهرة وعلانية . هذه العلانية الفاضحة في طلب هذا المنكر - فوق المنكر ذاته - شيء بشع لا يكاد الخيال يتصور وقوعه لولا أنه وقع . فقد يشذ فرد مريض فيتوارى بشذوذه ، ويتخفى بمرضه ، ويحاول الحصول على لذته المستقذرة في الخفاء وهو يخجل أن يطلع عليه الناس . وإن الفطرة السليمة لتتخفى بهذه اللذة حين تكون طبيعية . بل حين تكون شرعية . وبعض أنواع الحيوان يتخفى بها كذلك .. بينما أولئك القوم المنحوسون يجاهرون بها ، ويتجمهرون لتحصيلها ، ويستبشرون جماعات وهم يتلمظون عليها ! إنها حالة من الارتكاس معدومة النظر .

فأما لوط فوقف مكروباً يحاول أن يدفع عن ضيفه وعن شرفه . وقف يستثير النخوة الآدمية فيهم ويستجيش وجدان التقوى لله . وإنه ليعلم أنهم لا يتقون الله ، ويعلم أن هذه النفوس المرتكسة المطموسة لم تعد فيها نخوة ولا شعور إنساني يستجاش . ولكنه في كربه وشدته يحاول ما يستطيع :

« قال : إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون ، واتقوا الله ولا تخزون » ..

وبدلاً من أن يثير هذا في نفوسهم روااسب المروءة والحياة ، إذا هم يتبجحون فيؤنبون لوطاً على استضافة أحد من الرجال . كأنما هو الجاني الذي هيا لهم أسباب الجريمة ودفعهم إليها وهم لا يملكون له دفاعاً !
« قالوا : أو لم نهك عن العالمين ؟ » ..

ويعض لوط في محاولته يلوح لهم باتجاه الفطرة السليمة إلى الجنس الآخر . إلى الإناث اللواتي جعلهن الله

لتلبية هذا الدافع العميق في نظام الحياة ؛ ليكون النسل الذي تمتد به الحياة وجعل تلبية هذا الدافع معهن موضع اللذة السليمة المريحة للجنسين معا - في الحالات الطبيعية - ليكون هذا ضمانا لامتداد الحياة ، بدافع من الرغبة الشخصية العميقة .. يمضي لوط في محاولته هذه :

« قال : هؤلاء بناي إن كنتم فاعلين » ..

ولوط النبي لا يعرض بناته على هؤلاء الفجار ليأخذوهن سفاحا . إنما هو يلوح لهم بالطريق الطبيعي الذي ترضاه الفطرة السليمة ، لينبه فيهم هذه الفطرة . وهو يعلم أنهم إن تابوا إليها فلن يطلبوا النساء سفاحا . فهو مجرد هتاف للفطرة السليمة في نفوسهم لعلها تستيقظ على هذا العرض الذي هم عنه معرضون .

وبينا هذا المشهد معروض . القوم في سعارهم المريض يستبشرون ويتلمظون . ولوط يدافعهم ويستثير نخوتهم ، ويستجيش وجدانهم ، ويحرك دواعي الفطرة السليمة فيهم ، وهم في سعارهم مندفعون ..

بينما المشهد البشع معروض على هذا النحو المثير يلتفت السياق خطابا لمن يشهد ذلك المشهد ، على طريقة العرب في كلامهم بالقسم :

« لعمرك إنهم لني سكرتهم يعمهون » ..

لتصوير حالتهم الأصيلة الدائمة التي لا يرحى معها أن يفيقوا ولا أن يسمعوا هواتف النخوة والتقوى والفطرة السليمة .

ثم تكون الخاتمة . وتحق عليهم كلمة الله :

« ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذن منظرين » ..

وإذا نحن أمام مشهد الدمار والخراب والخسف والهلاك المناسب لتلك الطباع المقلوبة :

« فأخذتهم الصيحة مشرقين ، فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل » ..

وقد خسف بقري لوط بظاهرة تشبه ظاهرة الزلازل أو البراكين وتصاحبها أحيانا ظاهرة الخسف وتناثر أحجار ملوثة بالطين وهبوط مدن بكاملها تسيح في الأرض . ويقال : إن بحيرة لوط الحالية وجدت بعد هذا الحادث ، بعد انقلاب عمورة وسدوم في باطن الأرض ، وهبوط مكانها وامتلائه بالماء . ولكننا لا نعلم ما وقع لهم بأنه كان زلزالا أو بركاناً عابراً مما يقع في كل حين .. فالمنهج الإيماني الذي نحرص عليه في هذه الظلال يبعد كل البعد عن هذه المحاولة !

إننا نعلم علم اليقين أن الظواهر الكونية كلها تجري وفق ناموس الله الذي أودعه هذا الكون . ولكن كل ظاهرة وكل حدث في هذا الكون لا يقع بأية حتمية إنما يقع وفق قدر خاص به . بلا تعارض بين ثبات الناموس وجريان المشيئة بقدر خاص لكل حدث .. كذلك نحن نعلم علم اليقين أن الله سبحانه يجري في حالات معينة أقداراً معينة بأحداث معينة لوجهة معينة . وليس من الضروري أن يكون ذلك الذي دمر قري لوط زلزالاً أو بركاناً عادي ؛ فقد يريد الله أن ينزل بهم ما يشاء ، وقتما يشاء ، فيكون ما يشاء ، وفق ما يشاء .. وهذا هو المنهج الإيماني في تفسير معجزات الرسل أجمعين ..

وقري لوط تقع في طريق مطروق بين الحجاز والشام يمر عليها الناس . وفيها عظام لمن يتفرس ويتأمل ، ويجد العبرة في مصارع الغابرين . وإن كانت الآيات لا تنفع إلا القلوب المؤمنة المتفتحة المستعدة للتلقي والتدبر واليقين :

« إن في ذلك لآيات للمتوسمين . وإنما لبسبيل مقيم^١ . إن في ذلك لآية للمؤمنين » ..
وهكذا صدق النذير ، وكان نزول الملائكة إيذاناً بعذاب الله الذي لا يرد ولا يمهل ولا يهجد .

* * *

كذلك كان الحال مع قوم شعيب - أصحاب الأيكة^٢ - ومع قوم صالح - أصحاب الحجر :
« وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين ، فانتقمنا منهم . وإنما ليأمام مبين . ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين ؛ وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين ؛ وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين ؛ فأخذتهم الصيحة مصبحين ، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون » ..

وقد فصل القرآن قصة شعيب مع قومه : أهل مدين وأصحاب الأيكة في مواضع أخرى . فأما هنا فيشير إشارة إلى ظلمهم وإلى مصرعهم تصديقا لنبا العذاب ، في هذا الشوط ، ولإهلاك القرى بعد انقضاء الأجل المعلوم الوارد في مطالع السورة . ومدين والأيكة كانتا بالقرب من قرى لوط . والإشارة الواردة هنا ..
« وإنما ليأمام مبين .. » قد تعني مدين والأيكة ، فهما في طريق واضح غير مندثر ، وقد تعني قرى لوط السالفة الذكر وقرية شعيب ، جمعهما لأنهما في طريق واحد بين الحجاز والشام . ووقوع القرى الدائرة على الطريق المطروق أدعى إلى العبرة ، فهي شاهد حاضر يراه الرائح والغادي . والحياة تجري من حولها وهي دائرة كأن لم تكن يوماً عامرة . والحياة لا تحفلها وهي ماضية في الطريق !

أما أصحاب الحجر فهم قوم صالح ، والحجر تقع بين الحجاز والشام إلى وادي القرى ، وهي ظاهرة إلى اليوم . فقد نحتوها في الصخر في ذلك الزمان البعيد ، مما يدل على القوة والأيد والحضارة .
« ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين » ..

وهم لم يكذبوا سوى رسولهم صالح . ولكن صالحاً ليس إلا ممثلاً للرسول أجمعين ؛ فلما كذبه قومه قيل :
إنهم كذبوا المرسلين . توحيدا للرسالة وللرسول وللمكذبين . في كل أعصار التاريخ ، وفي كل جوانب الأرض ، على اختلاف الزمان والمكان والأشخاص والأقوام .
« وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين » ..

وآية صالح كانت الناقة . ولكن الآيات في هذا الكون كثير . والآيات في هذه الأنفس كثير . وكلها معروضة للأبصار والأفكار . وليست الخارقة التي جاءهم بها صالح هي وحدها الآية التي آتاهم الله . وقد عرضوا عن آيات الله كلها ، ولم يفتحوا لها عينا ولا قلبا ، ولم يستشعروا فيهم عقل ولا ضمير .

« وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين ، فأخذتهم الصيحة مصبحين ، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون » ..
وهذه اللمحة المخاطفة من الأمن في البيوت الحصينة في صلب الجبال ، إلى الصيحة التي تأخذهم فلا تبقي لهم مما جمعوا ومما كسبوا ومما بنوا ومما نحتوا شيئاً يغني عنهم ويدفع الهلاك الخاطف .. هذه اللمحة تلمس القلب البشري لمسة عنيفة . فما يأمن قوم على أنفسهم أكثر مما يأمن قوم بيوتهم منحوتة في صلب الصخور . وما يبلغ الاطمئنان بالناس في وقت أشد من اطمئنانهم في وقت الصباح المشرق الوديع .. وها هم أولاء

(١) طريق باق لم يندثر .

(٢) الشجر الملتف الكثيف . وقد أرسل شعيب إلى أصحاب الأيكة وإلى أهل مدين .

قوم صالح تأخذهم الصيحة مصبحين وهم في ديارهم الحصينة آمنون . فإذا كل شيء ذاهب ، وإذا كل وقاية ضائعة ، وإذا كل حصين موهون .. فما شيء من هذا كله بواقبهم من الصيحة . وهي فرقة ريح أو صاعقة ، تلحقهم فتهلكهم في جوف الصخر المتين .

وهكذا تنتهي تلك الحلقات الخاطفة من القصص في السورة ، محققة سنة الله في أخذ المكذبين عند انقضاء الأجل المعلوم . فتتناسق نهاية هذا الشوط مع نهايات الأشواط الثلاثة السابقة في تحقيق سنة الله التي لا ترد ، ولا تتخلف ، ولا تحيد .

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ ۖ فَاصْفَحَ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾
 إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ
 إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٨٩﴾
 كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسَعَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا
 يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ
 يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ
 رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾

تلك السنن العامة التي لا تتخلف ، والتي تحكم الكون والحياة ، وتحكم الجماعات والرسالات، وتحكم الهدى والضلال ، وتحكم المصائر والحساب والجزاء . والتي انتهى كل مقطع من مقاطع السورة بتصديق سنة منها ، أو عرض نماذج منه في شتى هذه المجالات . تلك السنن شاهد على الحكمة المكنونة في كل خلق من خلق الله ، وعلى الحق الأصيل الذي تقوم عليه طبيعة هذا الخلق .

ومن ثم يعقب السياق في ختام السورة ببيان هذا الحق الأكبر ، الذي يتجلى في طبيعة خلق السموات والأرض وما بينهما . وطبيعة الساعة الآتية لا ريب فيها . وطبيعة الدعوة التي يحملها الرسول - صلى الله عليه وسلم - وقد حملها الرسل قبله . ويجمع بينها كلها في نطاق الحق الأكبر الذي يربطها ويتجلى فيها ؛ ويشير إلى أن ذلك الحق متلبس بالخلق ، صادر عن أن الله هو الخالق لهذا الوجود : « إن ربك هو الخلاق العليم » ..

فليمض الحق الأكبر في طريقه ، ولتمض الدعوة المستندة إلى الحق الأكبر في طريقها ، وليمض الداعية إلى الحق لا يبالي المشركين المستهزئين : « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » .. وسنة الله ماضية في

طريقها لا تتخلف . والحق الأكبر من ورائها متلبساً بالدعوة وبالساعة وبخلق السماوات والأرض ، وبكل ما في الوجود الصادر عن الخلاق العليم .. إنها لفئة ضخمة تختم بها السورة . لفئة إلى الحق الأكبر الذي يقوم به هذا الوجود ..

* * *

« وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق ، وإن الساعة لآتية . فاصفح الصفح الجميل . إن ربك هو الخلاق العليم .. »

إن هذا التعقيب بتقرير الحق الذي تقوم به السماوات والأرض ، والذي به كان خلقهما وما بينهما ، لتعقيب عظيم الدلالة ، عميق المعنى ، عجيب التعبير . فإذا يشير إليه هذا القول : « وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق » ؟ إنه يوحي بأن الحق عميق في تصميم هذا الوجود : عميق في تكوينه . عميق في تديره . عميق في مصير هذا الوجود وما فيه ومن فيه ..

عميق في تصميم هذا الوجود . فهو لم يخلق عبثاً ، ولم يكن جزافاً ، ولم يتلبس بتصميمه الأصيل خداع ولا زيف ولا باطل . والباطل طارئ عليه ليس عنصراً من عناصر تصميمه .

عميق في تكوينه . فقوامه من العناصر التي يتألف منها حق لا وهم ولا خداع . والنواميس التي تحكم هذه العناصر وتؤلف بينها حق لا يترزع ولا يضطرب ولا يتبدل . ولا يتلبس به هوى أو خلل أو اختلاف .

عميق في تديره . فبالحق يدبر ويصرف ، وفق تلك النواميس الصحيحة العادلة التي لا تتبع هوى ولا نزوة ، إنما تتبع الحق والعدل .

عميق في مصيره . فكل نتيجة تم وفق تلك النواميس الثابتة العادلة ؛ وكل تغيير يقع في السماوات والأرض وما بينهما يتم بالحق وللحق . وكل جزاء يترتب يتبع الحق الذي لا يحايي .

ومن هنا يتصل الحق الذي خلق الله به السماوات والأرض وما بينهما ، بالساعة الآتية لا ريب فيها . فهي آتية لا تتخلف . وهي جزء من الحق الذي قام به الوجود . فهي في ذاتها حقيقة ، وقد جاءت لتتحقق الحق .

« فاصفح الصفح الجميل .. »

ولا تشغل قلبك بالحق والحقد ، فالحق لا بد أن يحق :

« إن ربك هو الخلاق العليم .. الذي خلق ويعلم ما خلق ومن خلق . والخلق كله من إبداعه فلا بد أن يكون الحق أصيلاً فيه ، ولا بد أن ينتهي كل شيء فيه إلى الحق الذي بدأ منه وقام عليه . فهو فيه أصيل وما عداه باطل وزيف طارئ يذهب ، فلا يبقى إلا ذلك الحق الكبير الشامل المستقر في ضمير الوجود .

يتصل بهذا الحق الكبير تلك الرسالة التي جاء بها الرسول . وذلك القرآن الذي أوتيته :

« ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم .. »

والمثاني الأرجح أن المقصود بها آيات سورة الفاتحة السبع - كما ورد في الأثر - فهي تثنى وتكرر في الصلاة ، أو يثنى فيها على الله^١ .

(١) بعض التفاسير المأثورة تقول : إن المقصود بها السبع الطوال : البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف والأنفال والتوبة بوصفهما سورة واحدة . ولما كانت هذه السور مدنية فإنها تذكر أن هذه الآية مدنية . والذي يلهمه سياق السورة أن الآية مكية وأنها تشير إلى الفاتحة وآياتها السبع المثاني .

والقرآن العظيم سائر القرآن .

والمهم أن وصل هذا النص بآيات خلق السماوات والأرض وما بينهما بالحق والساعة الآتية لا ريب فيها ، يشي بالاتصال بين هذا القرآن والحق الأصيل الذي يقوم به الوجود وتقوم عليه الساعة . فهذا القرآن من عناصر ذلك الحق ، وهو يكشف سنن الخالق ويوجه القلوب إليها ، ويكشف آياته في الأنفس والآفاق ويستجيش القلوب لإدراكها ، ويكشف أسباب الهدى والضلال ، ومصير الحق والباطل ، والخير والشر والصلاح والطلاح . فهو من مادة ذلك الحق ومن وسائل كشفه وتبينه . وهو أصيل أصالة ذلك الحق الذي خلقت به السماوات والأرض . ثابت ثبوت نواميس الوجود ، مرتبط بتلك النواميس . وليس أمراً عارضاً ولا ذاهباً . إنما يبقى مؤثراً في توجيه الحياة وتصريفها وتحويلها ، مهما يكذب المكذبون ، ويستهزئ المستهزئون ، ويحاول المبطلون ، الذين يعتمدون على الباطل ، وهو عنصر طارئ زائل في هذا الوجود .

ومن ثم فإن من أوتي هذه المثاني وهذا القرآن العظيم ، المستمد من الحق الأكبر ، المتصل بالحق الأكبر .. لا يمتد بصره ولا تتحرك نفسه لشيء زائل في هذه الأرض من أعراضها الزوائل . ولا يحفل مصير أهل الضلال ، ولا يهمه شأنهم في كثير ولا قليل . إنما يمضي في طريقه مع الحق الأصيل :

« لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم ، ولا تحزن عليهم ، واخفض جناحك للمؤمنين . وقل : إني أنا النذير المبين » ..

« لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم » ..

والعين لا تمتد . إنما يمتد البصر أي يتوجه . ولكن التعبير التصويري يرسم صورة العين ذاتها ممدودة إلى المتاع . وهي صورة طريفة حين يتصورها المتخيل . والمعنى وراء ذلك ألا يحفل الرسول - صلى الله عليه وسلم - ذلك المتاع الذي آتاه الله لبعض الناس رجالاً ونساء - امتحاناً وابتلاء - ولا يلقي إليه نظرة اهتمام ، أو نظرة استجمال . أو نظرة تمن . فهو شيء زائل وشيء باطل ؛ ومعه هو الحق الباقي من المثاني والقرآن العظيم .

وهذه اللفتة كافية للموازنة بين الحق الكبير والعتاء العظيم الذي مع الرسول ، والمتاع الصغير الذي يتألق بالبريق وهو ضئيل . يليها توجيه الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى إهمال القوم المتمتعين ، والعناية بالمؤمنين ، فهؤلاء هم أتباع الحق الذي جاء به ، والذي تقوم عليه السماوات والأرض وما بينهما ؛ وأولئك هم أتباع الباطل الزائل الطارئ على صميم الوجود ..

« ولا تحزن عليهم » ..

ولا تهتم لمصيرهم السيئ الذي تعلم أن عدل الله يقتضيه ، وأن الحق في الساعة يقتضيه . ودعهم لمصيرهم الحق .

« واخفض جناحك للمؤمنين » ..

والتعبير عن اللين والمودة والعطف بخفض الجناح تعبير تصويري ، يمثل لطف الرعاية وحسن المعاملة ورقة الجانب في صورة محسوسة على طريقة القرآن الفنية في التعبير .

« وقل : إني أنا النذير المبين » ..

فذلك هو طريق الدعوة الأصيل .. ويفرد الإنذار هنا دون التبشير لأنه الأليق بقوم يكذبون ويستهزئون ،

ويتمتعون ذلك المتاع البراق ، ولا يستيقظون منه لتدبر الحق الذي تقوم عليه الدعوة ، وتقوم عليه الساعة ، ويقوم عليه الكون الكبير .

« وقل : إني أنا النذير المبين » . . تلك القولة التي قالها كل رسول لقومه ؛ ومنهم بقايا الأقسام التي جاءها أولئك الرسل بتلك النذارة البينة التي جثت بها قومك . . وكان منهم في الجزيرة العربية اليهود والنصارى . . ولكن هذه البقايا لم تكن تتلقى هذا القرآن بالتسليم الكامل ، إنما كانت تقبل بعضه وترفض بعضه ، وفق الهوى ووفق التعصب وهؤلاء هم الذين يسميهم الله هنا : « المقتسمين ، الذين جعلوا القرآن عضين » . . « كما أنزلنا على المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين : فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون » . . وهذه السورة مكية . ولكن الخطاب بالقرآن كان عاماً للبشر . ومن البشر هؤلاء المقتسمون الذين جعلوا القرآن عضين (والعضة : الجزء . من عضى الشاة أي فصل بين أعضائها) . . وهم مسؤولون عن هذه التفرقة . وقد جاءهم القرآن بالنذارة البينة ، كما جاءهم كتبهم من قبل . ولم يكن أمر القرآن ولا أمر النبي بدءاً لا عهد لهم به . فقد أنزل الله عليهم مثله ، فكان أولى أن يستقبلوا الجديد من كتاب الله بالقبول والتسليم . .

وحين يصل السياق إلى هذا الحد ، يتجه بالخطاب إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يمضي في طريقه . يجهر بما أمره الله أن يبلغه . ويسمي هذا الجهر صدعاً - أي شقاً - دلالة على القوة والنفوذ . لا يقعه عن الجهر والمضي شرك مشرك فسوف يعلم المشركون عاقبة أمرهم . ولا استهزاء مستهزئ فقد كفاه الله شر المستهزئين : « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ؛ إنا كفييناك المستهزئين ، الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر فسوف يعلمون » . .

والرسول - صلى الله عليه وسلم - بشر لا يملك نفسه أن يضيق صدره وهو يسمع الشرك بالله ، ويسمع الاستهزاء بدعوة الحق . فيغار على الدعوة ويغار على الحق ، ويضيق بالضلال والشرك . لهذا يؤمر أن يسبح بحمد ربه ويعبده ، ويلوذ بالتسبيح والحمد والعبادة من سوء ما يسمع من القوم . ولا يفتر عن التسبيح بحمد ربه طوال الحياة ، حتى يأتيه اليقين الذي ما بعده يقين . . الأجل . . فيمضي إلى جوار ربه الكريم :

« ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون . فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين . واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » . .

ويكون هذا ختام السورة . . الإعراض عن الكافرين واللواذ بجوار الله الكريم . أولئك الكافرين الذين سيأتي يوم يودون فيه لو كانوا مسلمين . .

إن الصدع بحقيقة هذه العقيدة ؛ والجهر بكل مقوماتها وكل مقتضياتها . ضرورة في الحركة بهذه الدعوة ؛ فالصدع القوي النافذ هو الذي يهز الفطرة الغافية ؛ ويوقظ المشاعر المتبلدة ؛ ويقم الحججة على الناس « ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة » أما التدسس الناعم بهذه العقيدة ؛ وجعلها عضين يعرض الداعية منها جانباً ويكتم جانباً ، لأن هذا الجانب يثير الطواغيت أو يصد الجماهير ! فهذا ليس من طبيعة الحركة الصحيحة بهذه العقيدة القوية .

والصدع بحقيقة هذه الحقيقة لا يعني الغلظة المنفرة ، والخشونة وقلة الذوق والجلافة ! كما أن الدعوة بالحسنى لا تعني التدسس الناعم ، وكتمان جانب من حقائق هذه العقيدة وإبداء جانب ، وجعل القرآن عضين . . لا هذه ولا تلك . . إنما هو البيان الكامل لكل حقائق هذه العقيدة ؛ في وضوح جلي ، وفي حكمة كذلك في الخطاب ولطف ومودة ولين وتيسير .

«وليس وظيفة الإسلام أن يصطلح مع التصورات الجاهلية السائدة في الأرض ، ولا الأوضاع الجاهلية القائمة في كل مكان .. لم تكن هذه وظيفته يوم جاء ؛ ولن تكون هذه وظيفته اليوم ولا في المستقبل .. فالجاهلية هي الجاهلية ، والإسلام هو الإسلام .. الجاهلية هي الانحراف عن العبودية لله وحده ، وعن المنهج الإلهي في الحياة ، واستنباط النظم والشرائع والقوانين ، والعادات والتقاليد والقيم والموازين ، من مصدر آخر غير المصدر الإلهي .. والإسلام هو الإسلام ، ووظيفته هي نقل الناس من الجاهلية إلى الإسلام»^١ .

وهذه الحقيقة الأساسية الكبيرة هي التي يجب أن يصدع بها أصحاب الدعوة الإسلامية ، ولا يخفوا منها شيئاً ؛ وأن يصروا عليها مهما لاقوا من بطش الطواغيت وتملعل الجماهير :

« ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون . فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين . واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » ..

* * *

(١) رجع بتوسع فصل : « نقلة بعيدة » في كتاب : « معالم في الطريق » . « دار الشروق » .

(١٦) سُورَةُ النَّجْمِ مَكِّيَّةٌ وَآيَاتُهَا ثَمَانٌ وَعِشْرُونَ وَمِائَةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنزِلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونَ ﴿٢﴾

خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٤﴾ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَيَجْعَلُ الْغُلَامَ إِلَىٰ بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ ﴿٧﴾ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٨﴾ وَالْغَيْالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾

وَعَلَىٰ اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايْزٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٠﴾

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجْرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١١﴾ يُنبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٣﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٤﴾

وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلَةً حَلِيبَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَىٰ الْفُلْكَ مَوَاحِرَ فِيهِ

وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَالْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ يَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَّمَتِ بِالنِّجْمِ ۗ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾

أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تَعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَسْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾

هذه السورة هادئة الإيقاع ، عادية الجرس ، ولكنها مليئة حافلة . موضوعاتها الرئيسية كثيرة متنوعة ؛ والإطار الذي تعرض فيه واسع شامل ؛ والأوتار التي توقع عليها متعددة مؤثرة ، والظلال التي تلونها عميقة الخطوط .

وهي كسائر السور المكية تعالج موضوعات العقيدة الكبرى : الألوهية . والوحي . والبعث . ولكنها تلم بموضوعات جانبية أخرى تتعلق بتلك الموضوعات الرئيسية . تلم بحقيقة الوجدانية الكبرى التي تصل بين دين إبراهيم - عليه السلام - ودين محمد - صلى الله عليه وسلم - وتلم بحقيقة الإرادة الإلهية والإرادة البشرية فيما يختص بالإيمان والكفر والهدى والضلال . وتلم بوظيفة الرسل ، وسنة الله في المكذبين لهم . وتلم بموضوع التحليل والتحریم وأوهام الوثنية حول هذا الموضوع . وتلم بالهجرة في سبيل الله ، وفتنة المسلمين في دينهم ، والكفر بعد الإيمان وجزاء هذا كله عند الله .. ثم تضيف إلى موضوعات العقيدة موضوعات المعاملة : العدل والإحسان والإنفاق والوفاء بالعهد ، وغيرها من موضوعات السلوك القائم على العقيدة .. وهكذا هي مليئة حافلة من ناحية الموضوعات التي تعالجها .

فأما الإطار الذي تعرض فيه هذه الموضوعات ، والمجال الذي تجري فيه الأحداث ، فهو فسيح شامل .. هو السماوات والأرض . والماء الهاطل والشجر النامي . والليل والنهار والشمس والقمر والنجوم . والبحار والجبال والمعالم والسبل والأنهار . وهو الدنيا بأحداثها ومصائرنا ، والأخرى بأقذارها ومشاهدها . وهو الغيب بألوانه وأعماقه في الأنفس والآفاق .

في هذا المجال الفسيح يبدو سياق السورة وكأنه حملة ضخمة للتوجيه والتأثير واستجاشة العقل والضمير . حملة هادئة الإيقاع ، ولكنها متعددة الأوتار . ليست في جلجلة الأنعام والرعد ، ولكنها في هدونها تخاطب كل حاسة وكل جارحة في الكيان البشري ، وتتجه إلى العقل الواعي كما تتجه إلى الوجدان الحساس . إنها تخاطب العين لترى ، والأذن لتسمع ، واللمس ليستشعر ، والوجدان ليتأثر ، والعقل ليتدبر . وتحشد الكون كله : سماءه وأرضه ، وشمسه وقمره ، وليله ونهاره ، وجباله وبحاره وفجاجه وأنهاره وظلاله وأكفانه نبتة وثماره ، وحيوانه وطيوره . كما تحشد دنياه وآخرته ، وأسراره وغيوبه .. كلها أدوات توقع بها على أوتار الحواس والجوارح والعقول والقلوب ، مختلف الإيقاعات التي لا يصمد لها فلا يتأثر بها إلا العقل المغلق والقلب الميت ، والحس المطموس .

هذه الإيقاعات تتناول التوجيه إلى آيات الله في الكون ، وآياته على الناس كما تتناول مشاهد القيامة ، وصور الاحتضار ، ومصارع الغابرين ؛ تصاحبها اللمسات الوجدانية التي تندسس إلى أسرار الأنفس ، وإلى أحوال البشر وهم أجنة في البطون ، وهم في الشباب والهرم والشيخوخة ، وهم في حالات الضعف والقوة ، وهم في أحوال النعمة والتعاسة . كذلك يتخذ الأمثال والمشاهد والحوار والقصص الخفيف أدوات للعرض والإيضاح .

فأما الظلال العميقة التي تلون جواسير كل سورة فهي الآيات الكونية تتجلى فيها عظمة الخلق ، وعظمة النعمة ، وعظمة العلم والتدبير . . كلها متداخلة . . فهذا الخلق الهائل العظيم المدبر عن علم وتقدير ، ملحوظ فيه أن يكون نعمة على البشر ، لا تليي ضرورتهم وحدها ، ولكن تليي أشواقهم كذلك ، فتسد الضرورة . وتتخذ للزينة ، وترتاح بها أبدانهم وتستروح لها نفوسهم ، لعلهم يشكرون . .

ومن ثم تراءى في السورة ظلال النعمة وظلال الشكر ، والتوجهات إليها ، والتعقيب بها في مقاطع السورة ، وتضرب عليها الأمثال ، وتعرض لها النماذج ، وأظهرها نموذج إبراهيم « شاكراً لأنعمه اجتباها وهداه إلى صراط مستقيم » .

كل أولئك في تناسق ملحوظ بين الصور والظلال والعبارات والإيقاعات ، والقضايا والموضوعات نرجو أن نقف على نماذج منه في أثناء استعراضنا للسياق .

ونبدأ الشوط الأول ، وموضوعه هو التوحيد ؛ وأدواته هي آيات الله في الخلق ، وأياديه في النعمة ، وعلمه الشامل في السر والعلانية ، والدنيا والآخرة . فلنأخذ في التفصيل :

* * *

« أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون . ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده : أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون » . .

لقد كان مشركوا مكة يستعجلون الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يأتيهم بعذاب الدنيا أو عذاب الآخرة . وكلما امتد بهم الأجل ولم ينزل بهم العذاب زادوا استعجالاً ، وزادوا استهزاء ، وزادوا استهتاراً ؛ وحسبوا أن محمداً يخفهم ما لا وجود له ولا حقيقة ، ليؤمنوا له ويستسلموا . ولم يدركوا حكمة الله في إمهالهم ورحمته في إنظارهم ؛ ولم يحاولوا تدبير آياته في الكون ، وآياته في القرآن . هذه الآيات التي تخاطب العقول والقلوب ، خيراً من خطابها بالعذاب ! والتي تليق بالإنسان الذي أكرمه الله بالعقل والشعور ، وحرية الإرادة والتفكير .

وجاء مطلع السورة حاسماً جازماً : « أتى أمر الله » . . يوحي بصدور الأمر وتوجه الإرادة ؛ وهذا يكفي لتحققه في الموعد الذي قدره الله لوقوعه « فلا تستعجلوه » فإن سنة الله تمضي وفق مشيئته ، لا يقدمها استعجال . ولا يؤخرها رجاء . فأمر الله بالعذاب أو بالساعة قد قضي وانتهى ، أما وقوعه ونفاذه فسيكون في حينه المقدر ، لا يستقدم ساعة ولا يتأخر .

وهذه الصيغة الحاسمة الجازمة ذات وقع في النفس مهما تتأسك أو تكابر ، وذلك فوق مطابقتها لحقيقة الواقع ؛ فأمر الله لا بد واقع ، ومجرد قضائه يعد في حكم نفاذه ، ويتحقق به وجوده ، فلا مبالغة في الصيغة ولا مجانبة للحقيقة ، في الوقت الذي تؤدي غايتها من التأثير العميق في الشعور .

فأما ما هم عليه من شرك بالله الواحد ، وتصورات مستمدة من هذا الشرك فقد تنزه الله عنه وتعالى :

« سبحانه وتعالى عما يشركون » بكل صورته وأشكاله ، الناشئة عن هبوط في التصور والتفكير .

أتى أمر الله المنزه عن الشرك المتعالي عما يشركون . الله الذي لا يدع الناس إلى ضلالهم وأوهامهم إنما هو ينزل عليهم من السماء ما يحييهم وينجيهم : « ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده » .. وهذا أولى نعمه وكبراهها . فهو لا ينزل من السماء ماء يحيي الأرض والأجسام وحدها - كما سيحيي - إنما ينزل الملائكة بالروح من أمره . وللتعبير بالروح ظله ومعناه . فهو حياة ومبعث حياة : حياة في النفوس والضمائر والعقول والمشاعر . وحياة في المجتمع تحفظه من الفساد والتحلل والانهيار . وهو أول ما ينزله الله من السماء للناس ، وأول النعم التي يمن الله بها على العباد . تنزل به الملائكة أظهر خلق الله على المختارين من عباده - الأنبياء - خلاصته وفحواه : « أن أئذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون . »

إنها الوحدانية في الألوهية . روح العقيدة . وحياة النفس . ومفرق الطريق بين الاتجاه المحيي والاتجاه المدمر . فالنفس التي لا توحد المعبود نفس حائرة هالكة تتجاذبها السبل وتخيل لها الأوهام وتمزقها التصورات المتناقضة ، وتناوشها الوسواس ، فلا تنطلق مجتمعة لهدف من الأهداف !

والتعبير بالروح يشمل هذه المعاني كلها ويشير إليها في مطلع السورة المشتملة على شتى النعم ، فيصدر بها نعمه جميعا ؛ وهي النعمة الكبرى التي لا قيمة لغيرها بدونها ؛ ولا تحسن النفس البشرية الانتفاع بنعم الأرض كلها إن لم توهب نعمة العقيدة التي تحيها .

ويفرد الإنذار ، فيجعله فحوى الوحي والرسالة ، لأن معظم سياق السورة يدور حول المكذبين والمشركين والجاحدين لنعمة الله ، والمحرمين ما أحله الله ، والناقضين لعهد الله ، والمتردين عن الإيمان ومن ثم يكون إظهار الإنذار أليق في هذا السياق . وتكون الدعوة إلى التقوى والحذر والخوف أولى في هذا المقام .

* * *

ثم يأخذ في عرض الآيات . آيات الخلق الدالة على وحدانية الخالق ؛ وآيات النعمة الدالة على وحدانية المنعم ؛ يعرضها فوجا فوجا ، ومجموعة مجموعة . بادئاً بخلق السماوات والأرض وخلق الإنسان .

« خلق السماوات والأرض بالحق ، تعالى عما يشركون . خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصم مبين . »
« خلق السماوات والأرض بالحق » .. الحق قوام خلقهما ، والحق قوام تدبيرهما ، والحق عنصر أصيل في تعريفهما وتصريف من فيهما وما فيهما . فما شيء من ذلك كله عبث ولا جزاف . إنما كل شيء قائم على الحق ومتلبس به ومفض له وصائر في النهاية إليه .. « تعالى عما يشركون » .. تعالى عن شركهم ، وتعالى عما يشركون به من خلق الله الذي خلق السماوات والأرض ، وخلق من فيهما وما فيهما ، فليس أحد وليس شيء شريكاً له وهو الخالق الواحد بلا شريك .

« خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصم مبين » ويا لها من نقلة ضخمة بين المبدأ والمصير . بين النطفة الساذجة والإنسان المخاصم المجادل الذي يخاصم خالقه فيكفر به ويجادل في وجوده أو في وحدانيته . وليس بين مبدئه من نطفة وصيرورته إلى الجدل والخصومة فارق ولا مهلة . فهكذا يصوره التعبير : ويختصر المسافة بين المبدأ والمصير ، لتبدو المفارقة كاملة ، والنقلة بعيدة ، ويقف الإنسان بين مشهدين وعهدين متواجهين : مشهد النطفة المهينة الساذجة ، ومشهد الإنسان الخصم المبين .. وهو إيجاز مقصود في التصوير .

وفي هذا المجال الواسع - مجال الكون : السماوات والأرض - الذي يقف فيه الإنسان ، يأخذ السياق

في استعراض خلق الله الذي سخره للإنسان ، ويبدأ بالأنعام :
 « والأنعام خلقها ، لكم فيها دفاء ومنافع ، ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ،
 وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ، إن ربكم لرؤوف رحيم ، والخيل والبغال والحمير
 لتركبوها وزينة ، ويخلق ما لا تعلمون » . .

وفي بيئة كالبيئة التي نزل فيها القرآن أول مرة ، وأشباهها كثير ؛ وفي كل بيئة زراعية والبيئات الزراعية
 هي الغالبة حتى اليوم في العالم . . في هذه البيئة تبرزنعمة الأنعام ، التي لا حياة بدونها لبني الإنسان . والأنعام
 المتعارف عليها في الجزيرة كانت هي الإبل والبقر والضأن والمعز . أما الخيل والبغال والحمير فللكوب والزينة
 ولا تؤكل^١ والقرآن إذ يعرض هذه النعمة هنا ينبه إلى ما فيها من تلبية لضرورات البشر وتلبية لأشواقهم كذلك :
 ففي الأنعام دفاء من الجلود والأصواف والأوبار والأشعار ، ومنافع في هذه وفي اللبن واللحم وما إليها . ومنها
 تأكلون لحماً ولبناً وسمناً ، وفي حمل الأثقال إلى البلد البعيد لا يبلغونه إلا بشق الأنفس . وفيها كذلك جمال
 عند الإراحة في المساء وعند السرح في الصباح . جمال الاستمتاع بمنظرها فارهة رائعة صحيحة سميئة . وأهل
 الريف يدركون هذا المعنى بأعماق نفوسهم ومشاعرهم أكثر مما يدركه أهل المدينة .
 وفي الخيل والبغال والحمير تلبية للضرورة في الركوب . وتلبية لحاسة الجمال في الزينة : « لتركبوها
 وزينة » .

وهذه اللفتة لها قيمتها في بيان نظرة القرآن ونظرة الإسلام للحياة . فالجمال عنصر أصيل في هذه النظرة
 وليست النعمة هي مجرد تلبية للضرورات من طعام وشراب وركوب ؛ بل تلبية الأشواق الزائدة على الضرورات .
 تلبية حاسة الجمال ووجدان الفرح والشعور الإنساني المرتفع على ميل الحيوان وحاجة الحيوان .
 « إن ربكم لرؤوف رحيم » يعقب بها على حمل الأثقال إلى بلد لم يكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس توجيهها
 إلى ما في خلق الأنعام من نعمة ، وما في هذه النعمة من رحمة .

« ويخلق ما لا تعلمون » . . يعقب بها على خلق الأنعام للأكل والحمل والجمال ، وخلق الخيل والبغال
 والحمير للركوب والزينة . . ليظل المجال مفتوحاً في التصور البشري لتقبل أنماط جديدة من أدوات الحمل
 والنقل والركوب والزينة ، فلا يعلق تصورهم خارج حدود البيئة ، وخارج حدود الزمان الذي يظلمهم .
 فوراء الموجود في كل مكان وزمان صور أخرى ، يريد الله للناس أن يتوقعوها فيتسع تصورهم وإدراكهم ،
 ويريد لهم أن يأنسوا بها حين توجد أو حين تكشف فلا يعادوها ولا يجمدوا دون استخدامها والانتفاع بها .
 ولا يقولوا : إنما استخدم آباؤنا الأنعام والخيل والبغال والحمير فلا نستخدم سواها . وإنما نص القرآن على
 هذه الأصناف فلا نستخدم ما عداها ! .

إن الإسلام عقيدة مفتوحة مرنة قابلة لاستقبال طاقات الحياة كلها ، ومقدرات الحياة كلها ومن ثم يهتئ
 القرآن الأذهان والقلوب لاستقبال كل ما تتمخض عنه القدرة ، ويتمخض عنه العلم ، ويتمخض عنه
 المستقبل . استقباله بالوجدان الديني المفتوح المستعد لتلقي كل جديد في عجائب الخلق والعلم والحياة .
 ولقد جدت وسائل للحمل والنقل والركوب والزينة لم يكن يعلمها أهل ذلك الزمان . وستجد وسائل

(١) هناك خلاف فقهي في الخيل فأبو حنيفة يحرم لحومها استناداً إلى هذا النص الذي يخصصها للركوب والزينة وإلى بعض الأحاديث .
 والجمهور يحلها استناداً إلى أحاديث صحيحة وإلى السنة العملية .

أخرى لا يعلمها أهل هذا الزمان . والقرآن يهتئ لها القلوب والأذهان ، بلا جمود ولا تحجر « ويخلق ما لا تعلمون » ..

وفي معرض النقل والحمل والركوب والسير لبلوغ غايات محسوسة في عالم الأرض ، يدخل السياق غايات معنوية وسيرا معنوية وطرقا معنوية . فثمة الطريق إلى الله . وهو طريق قاصد مستقيم لا يلتوي ولا يتجاوز الغاية . وثمة طرق أخرى لا توصل ولا تهدي . فأما الطريق إلى الله فقد كتب على نفسه كشفها وبيانها : بآياته في الكون وبرسله إلى الناس :

« وعلى الله قصد السبيل . ومنها جائر . ولو شاء لهداكم أجمعين » ..

والسبيل القاصد هو الطريق المستقيم الذي لا يلتوي كأنه يقصد قصدا إلى غايته فلا يحيد عنها . والسبيل الجائر هو السبيل المنحرف المجاوز للغاية لا يوصل إليها ، أو لا يقف عندها !

« ولو شاء لهداكم أجمعين » .. ولكنه شاء أن يخلق الإنسان مستعداً للهدى والضلال ، وأن يدع لإرادته اختيار طريق الهدى أو طريق الضلال . فكان منهم من يسلك السبيل القاصد ، ومنهم من يسلك السبيل الجائر . وكلاهما لا يخرج على مشيئة الله ، التي قضت بأن تدع للإنسان حرية الاختيار .

والفوج الثاني من آيات الخلق والنعمة :

« هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ، ومنه شجر فيه تسمون ، ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ، ومن كل الثمرات . إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون » ..

والماء ينزل من السماء وفق النواميس التي خلقها الله في هذا الكون ، والتي تدبر حركاته ، وتنشئ نتائجها وفق إرادة الخالق وتدييره ، بقدر خاص من أقداره ينشئ كل حركة وكل نتيجة . هذا الماء يذكر هنا نعمة من نعم الله « لكم منه شراب » فهي خصوصية الشراب التي تبرز في هذا المجال ثم خصوصية المرعى « ومنه شجر فيه تسمون » وهي المراعي التي تربون فيها السوائم . ذلك بمناسبة ذكر الأنعام قبلها وتنسيقاً للجو العام بين المراعي والأنعام . ثم الزروع التي يأكل منها الإنسان مع الزيتون والنخيل والأعناب وغيرها من أشجار الثمار ..

« إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون » .. في تدبير الله لهذا الكون ، ونواتمه الموالية لحياة البشر ، وما كان الإنسان ليستطيع الحياة على هذا الكوكب لو لم تكن نواميس الكون موالية لحياته ، موافقة لفطرته ، ملبية لحاجاته . وما هي بالمصادفة العابرة أن يخلق الإنسان في هذا الكوكب الأرضي ، وأن تكون النسب بين هذا الكوكب وغيره من النجوم والكواكب هي هذه النسب ، وأن تكون الظواهر الجوية والفلكية على ما هي عليه ، ممكنة للإنسان من الحياة ، ملبية هكذا لحاجاته على النحو الذي نراه .

والذين يتفكرون هم الذين يدركون حكمة التدبير ، وهم الذين يربطون بين ظاهرة كظاهرة المطر وما ينشئه على الأرض من حياة وشجر وزروع وثمار ، وبين النواميس العليا للوجود ، ودلالاتها على الخالق وعلى وحدانية ذاته ووحدانية إرادته ووحدانية تدييره . أما الغافلون فيمرون على مثل هذه الآية في الصباح والمساء ، في الصيف والشتاء ، فلا توظف تطلعتهم ، ولا تثير استطلاعهم ولا تستجيش ضمائرهم إلى البحث عن صاحب هذا النظام الفريد .

والفوج الثالث من أفواج الآيات :

« وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر ، والنجوم مسخرات بأمره . إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون » ..

ومن مظاهر التدبير في الخلق ، وظواهر النعمة على البشر في آن : الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم . فكلها مما يلبي حاجة الإنسان في الأرض . وهي لم تخلق له ولكنها مسخرة لمنفعته . فظاهرة الليل والنهار ذات أثر حاسم في حياة هذا المخلوق البشري . ومن شاء فليتصور نهارة بلا ليل أو ليلاً بلا نهار ، ثم يتصور مع هذا حياة الإنسان والحيوان والنبات في هذه الأرض كيف تكون .

كذلك الشمس والقمر . وعلاقتهما بالحياة على الكوكب الأرضي ، وعلاقة الحياة بهما في أصلها وفي نموها ، « والنجوم مسخرات بأمره » للإنسان ولغير الإنسان مما يعلم الله ..

وكل أولئك طرف من حكمة التدبير ، وتناسق النواميس في الكون كله ، يدركه أصحاب العقول التي تتدبر وتعقل وتدرِك ما وراء الظواهر من سنن وقوانين : « إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون » ..

والفوج الرابع من أفواج النعمة فيما خلق الله للإنسان :

« وما ذراً لكم في الأرض مختلفاً ألوانه . إن في ذلك لآية لقوم يذكرون » ..

وما خلق الله في الأرض وما أودع فيها للبشر من مختلف المعادن التي تقوم بها حياتهم في بعض الجهات وفي بعض الأزمان . ونظرة إلى هذه الذخائر المخبوءة في الأرض ، المودعة للناس حتى يبلغوا رشدهم يوماً بعد يوم ، ويستخرجوا كنوزهم في حينها ووقت الحاجة إليها . وكلما قيل : إن كنزاً منها قد نفذ أعقبه كنز آخر غني ، من رزق الله المدخر للعباد .. « إن في ذلك لآية لقوم يذكرون » ولا ينسون أن يد القدرة هي التي خبأت لهم هذه الكنوز .

والفوج الخامس من أفواج الخلق والأنعام في البحر الملح الذي لا يشرب ولا يسي ، ولكنه يشتمل على صنوف من آلاء الله على الإنسان :

« وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً ، وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه ، ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون » ..

ونعمة البحر وأحيائه تلي كذلك ضرورات الإنسان وأشواقه . فنه اللحم الطري من السمك وغيره للطعام . وإلى جواره الحلية من اللؤلؤ ومن المرجان ، وغيرهما من الأصداف والقواقع التي يتحلى بها أقوام ما يزالون حتى الآن . والتعبير كذلك عن الفلك يشي بتلبية حاسة الجمال لا بمجرد الركوب والانتقال : « وترى الفلك مواخر فيه » فهي لفتة إلى متاع الرؤية وروعيتها : رؤية الفلك « مواخر » تشق الماء وتفرق العباب .. ومرة أخرى نجد أنفسنا أمام التوجيه القرآني العالي إلى الجمال في مظاهر الكون ، بجانب الضرورة والحاجة ، لتتملى هذا الجمال ونستمتع به ، ولا نجس أنفسنا داخل حدود الضرورات والحاجات .

كذلك يوجهنا السياق - أمام مشهد البحر والفلك تشق عبابه - إلى ابتغاء فضل الله وورقه ، وإلى شكره على ما سخر من الطعام والزينة والجمال في ذلك الملح الأجاج : « ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » .

والفوج الأخير في هذا المقطع من السورة :

« وألقى في الأرض رواسي أن تمتد بكم ، وأنهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون . وعلامات وبالنجم هم يهتدون » . فأما الجبال الرواسي فالعلم الحديث يعلل وجودها ولكنه لا يذكر وظيفتها التي يذكرها القرآن هنا . يعلل وجودها بنظريات كثيرة متعارضة أهمها أن جوف الأرض الملتهب يبرد فينكمش ، فتنتقل القشرة الأرضية من فوقه وتتجمع فتكون الجبال المرتفعات والمنخفضات . ولكن القرآن يذكر أنها تحفظ توازن الأرض . وهذه الوظيفة لم يتعرض لها العلم الحديث .

وفي مقابل الجبال الرواسي يوجه النظر إلى الأنهار الجوارية ، والسبل السواك . والأنهار ذات علاقة طبيعية في المشهد بالجبال ، ففي الجبال في الغالب تكون منابع الأنهار ، حيث مساقط الأمطار . والسبل ذات علاقة بالجبال والأنهار . وذات علاقة كذلك بجو الأنعام والأحمال والانتقال . وإلى جوار ذلك معالم الطرق التي يهتدي بها السالكون في الأرض من جبال ومرتفعات ومنفراجات ، وفي السماء من النجم الذي يهدي السالكين في البر والبحر سواء .

* * *

وعندما ينتهي استعراض آيات الخلق ، وآيات النعمة ، وآيات التدبير في هذا المقطع من السورة يعقب السياق عليه بما سيق هذا الاستعراض من أجله . فقد ساقه في صدد قضية التعريف بالله سبحانه وتوحيده وتزويجه عما يشركون :

« أفن يخلق كمن لا يخلق ؟ أفلا تذكرون ؟ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم . والله يعلم ما تسرون وما تعلنون . والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ، أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون » ..

وهو تعقيب يجيء في أوانه ، والنفس متهيبة للإقرار بمضمونه : « أفن يخلق كمن لا يخلق ؟ » .. فهل هنالك إلا جواب واحد : لا . وكلا : أفيجوز أن يسوي إنسان في حسه وتقديره .. بين من يخلق ذلك الخلق كله ، ومن لا يخلق لا كبيراً ولا صغيراً ؟ « أفلا تذكرون » فما يحتاج الأمر إلى أكثر من التذكر ، فيتضح الأمر ويتجلى اليقين .

ولقد استعرض ألوانا من النعمة . فهو يعقب عليها : « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » .. فضلاً على أن تشكروها . وأكثر النعم لا يدركها الإنسان ، لأنه يألفها فلا يشعر بها إلا حين يفتقدها .. وهذا تركيب جسده ووظائفه متى يشعر بما فيه من إنعام إلا حين يدركه المرض فيحس بالاختلال ؟ إنما يسعه غفران الله للتقصير ورحمته بالإنسان الضعيف « إن الله لغفور رحيم » ..

والخالق يعلم ما خلق . يعلم الخافي والظاهر : « والله يعلم ما تسرون وما تعلنون » فكيف يسوونه في حسهم وتقديرهم بتلك الآلهة المدعاة وهم لا يخلقون شيئاً ولا يعلمون شيئاً ، بل إنهم لأموات غير قابلين للحياة على الإطلاق . ومن ثم فهم لا يشعرون :

« والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون . أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون » .. والإشارة هنا إلى البعث وموعده فيها تقرير أن الخالق لا بد أن يعلم موعد البعث . لأن البعث تكملة للخلق . وعنده يستوفي الأحياء جزاءهم على ما قدموا . فالآلهة التي لا تعلم متى يبعث عبادها هي آلهة لا تستحق التأليه ، بل هي سخرية الساحرين . فالخالق يبعث مخالفة ويعلم متى يبعثهم على التحقيق !

إِلَّهِكَ إِلَهُ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَاجِرٌ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنزِلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٤٤﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ
 أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٤٥﴾ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ
 فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَسْعُرُونَ ﴿٤٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِبُهُمْ وَيَقُولُ
 أَيَنْ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُسَلِّتُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٤٧﴾
 الَّذِينَ نَتَوَقَّعُهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ
 تَعْمَلُونَ ﴿٤٨﴾ فَأَدْخَلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٤٩﴾

* وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ
 خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٠﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يُجْزَى
 اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٥١﴾ الَّذِينَ نَتَوَقَّعُهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ أَدْخَلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٢﴾

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ
 وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥٤﴾
 وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ
 كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ
 وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ
 كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ ﴿٥٦﴾ إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٥٧﴾

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ بَلَاءِ وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٨﴾
 لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ
 نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٦٠﴾

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبِيِّنَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَا جُرْأَلًا لِنَبِيِّنَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾
 الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٤﴾
 وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحَىٰ إِلَيْهِمْ فَسَعَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٥﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ
 وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِنُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾
 أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَحْسِيفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَسْعُرُونَ ﴿٤٧﴾
 أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَاهُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٨﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٤٩﴾
 أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَالَهُ عَنِ الْأَيْمَنِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ ذَاكِرُونَ ﴿٥٠﴾
 وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٥١﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ
 مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٢﴾

وقفنا في الدرس السابق عند استعراض آيات الخالق في خلقه ، وفي نعمته على عباده ، وفي علمه بالسر والعلن .. بينا الآلهة المدعاة ، لا تخلق شيئا ، بل هي مخلوقة . ولا تعلم شيئا ، بل هي ميتة لا تنتظر لها حياة . وهي لا تعلم متى يبعث عبادها للجزاء ! وهذا وذلك قاطع في بطلان عبادتها ، وفي بطلان عقيدة الشرك كافة . وكان هذا هو الشوط الأول في قضية التوحيد في السورة مع إشارة إلى قضية البعث أيضا .

وها نحن أولاء نبدأ في الدرس الجديد من حيث انتهينا في الدرس السابق . نبدأ شوطا جديدا ، يفتح بتقرير وحدة الألوهية ، ويعلل عدم إيمان الذين لا يؤمنون بالآخرة بأن قلوبهم منكورة ، فالجحود صفة كاملة فيها تصدهم عن الإقرار بالآيات البينات ، وهم مستكبرون ، فالاستكبار يصددهم عن الإذعان والتسليم .. ويحتم بمشهد مؤثر : مشهد الظلال في الأرض كلها ساجدة لله ، ومعها ما في السماوات وما في الأرض من دابة ، والملائكة ، قد برئت نفوسهم من الاستكبار ، وامتلأت بالخوف من الله ، والطاعة لأمره بلا جدال .. هذا المشهد الخاشع الطائع يقابل صورة المستكبرين المنكرة قلوبهم في مفتتح هذا الشوط الجديد .

وبين المطلع والختام يستعرض السياق مقولات أولئك المستكبرين المنكرين عن الوحي والقرآن إذ يزعمون أنه أساطير الأولين . ومقولاتهم عن أسباب شركهم بالله وتحريمهم ما لم يحرمه الله ، إذ يدعون أن الله أراد منهم الشرور ارتضاه . ومقولاتهم عن البعث والقيامة إذ يقسمون جهدهم لا يبعث الله من يموت . ويتولى الرد على مقولاتهم جميعا . ويعرض في ذلك مشاهد احتضارهم ومشاهد بعثهم وفيها يتبرأون من تلك المقولات الباطلة ، كما يعرض بعض مصارع الغابرين من المكذبين أمثالهم ، ويخوفهم أخذ الله في ساعة من ليل أو نهار وهم لا يشعرون ، وهم في تقلبهم في البلاد ، أو وهم على تخوف وتوقع وانتظار للعذاب .. وإلى جوار هذا

يعرض صوراً من مقولات المتقين المؤمنين وما ينتظرهم عند الاحتضار ويوم البعث من طيب الجزاء . وينتهي بذلك المشهد الخاشع الطائع للظلال والدواب والملائكة في الأرض والسماء ..

* * *

« إلهكم إله واحد . فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون . لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون ، إنه لا يحب المستكبرين » ..

ويجمع السياق بين الإيمان بوحدة الله والإيمان بالآخرة . بل يجعل إحداها دالة على الأخرى لارتباط عبادة الله الواحد بعقيدة البعث والجزاء . فبالآخرة تتم حكمة الخالق الواحد ويتجلى عدله في الجزاء ..

« إلهكم إله واحد » وكل ما سبق في السورة من آيات الخلق وآيات النعمة وآيات العلم يؤدي إلى هذه الحقيقة الكبيرة البارزة ، الواضحة الآثاري في نواميس الكون وتناسقها وتعاونها كما سلف الحديث .

فالذين لا يسلمون بهذه الحقيقة ، ولا يؤمنون بالآخرة - وهي فرع عن الاعتقاد بوحدانية الخالق وحكمته وعدله - هؤلاء لا تنقصهم الآيات ولا تنقصهم البراهين ، إنما تكمن العلة في كيانهم وفي طباعهم . إن قلوبهم منكرة جاحدة لا تقر بما ترى من الآيات ، وهم مستكبرون لا يريدون التسليم بالبراهين والاستسلام لله والرسول . فالعلة أصيلة والداء كامن في الطباع والقلوب !

والله الذي خلقهم يعلم ذلك منهم . فهو يعلم ما يسرون وما يعلنون . يعلمه دون شك ولا ريب ويكرهه فيهم . « إنه لا يحب المستكبرين » فالقلب المستكبر لا يرجى له أن يقتنع أو يسلم . ومن ثم فهم مكروهون من الله لاستكبارهم الذي يعلمه من يعلم حقيقة أمرهم ويعلم ما يسرون وما يعلنون .

« وإذا قيل لهم : ماذا أنزل ربكم ؟ قالوا : أساطير الأولين . ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ، ألا ساء ما يزرون » .

هؤلاء المستكبرون ذوو القلوب المنكرة التي لا تقتنع ولا تستجيب إذا سئلوا : « ماذا أنزل ربكم ؟ » لم يجيبوا الجواب الطبيعي المباشر ، فابتدأوا شيناً من القرآن أو يلخصوا فحواه ، فيكونوا أمناء في النقل ، ولولم يعتقدوه . إنما هم يعدلون عن الجواب الأمين فيقولون : « أساطير الأولين » والأساطير هي الحكايات الوهمية الحافلة بالخرافة .. وهكذا يصفون هذا القرآن الذي يعالج النفوس والعقول ، ويعالج أوضاع الحياة وسلوك الناس وعلاقات المجتمع وأحوال البشر في الماضي والحاضر والمستقبل . هكذا يصفونه لما يحويه من قصص الأولين . وهكذا يؤدي بهم ذلك الإنكار والاستهتار إلى حمل ذنوبهم وشطر من ذنوب الذين يضلونهم بهذا القول ، ويصدونهم عن القرآن والإيمان ، وهم جاهلون به لا يعلمون حقيقته .. ويصور التعبير هذه الذنوب أحمالاً ذات ثقل - وساءت أحمالاً وأثقالاً ! - فهي توقر النفوس كما توقر الأحمال الظهور ، وهي تثقل القلوب ، كما تثقل الأحمال العواتق ، وهي تتعب وتشتي كما تتعب الأثقال حاملها بل هي أدهى وأنكى !

روى ابن أبي حاتم عن السدي قال : « اجتمعت قريش ، فقالوا : إن محمداً رجل حلوا للسان ، إذا كلمه الرجل ذهب بعقله ، فانظروا ناساً من أشرافكم المعدودين المعروفة أنسابهم ، فابعثوهم في كل طريق من طرق مكة على رأس ليلة أو ليلتين ، فمن جاء يريده فردوه عنه . فخرج ناس في كل طريق فكان إذا أقبل الرجل وافداً لقومه ينظر ما يقول محمد ، ووصل إليهم ، قال أحدهم : أنا فلان ابن فلان . فيعرفه نسبه ، ويقول له : أنا أخبرك عن محمد . إنه رجل كذاب لم يتبعه على أمره إلا السفهاء والعبيد ومن لا خير فيهم ،

وأما شيوخ قومه وخيارهم ففارقون له . فيرجع الوافد . فذلك قوله تعالى : « وإذا قيل لهم : ماذا أنزل ربكم ؟ قالوا : أساطير الأولين » . فإن كان الوافد ممن عزم الله له الرشاد ، فقالوا له مثل ذلك قال : بس الوافد لقومي إن كنت جئت حتى إذا بلغت مسيرة يوم رجعت قبل أن ألقى هذا الرجل ، وانظر ما يقول وآتي قومي ببيان أمره . فيدخل مكة . فيلقى المؤمنين فيسألهم ماذا يقول محمد ؟ فيقولون : خيراً . . . » .

فقد كانت حرب دعاية منظمة يديرها قريش على الدعوة ، ويديرها أمثال قريش في كل زمان ومكان من المستكبرين الذين لا يريدون الخضوع للحق والبرهان ، لأن استكبارهم يمنهم من الخضوع للحق والبرهان . فهؤلاء المستكبرون من قريش ليسوا أول من ينكر ، وليسوا أول من يمكر . والسياق يعرض عليهم نهاية الماكرين من قبلهم ، ومصيرهم يوم القيامة ، بل مصيرهم منذ مفارقة أرواحهم لأجسادهم حتى يلقوا في الآخرة جزاءهم . يعرض عليهم هذا كله في مشاهد مصورة على طريقة القرآن الماثورة :

« قد مكر الذين من قبلهم . فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم ، وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون . ثم يوم القيامة يخزيهم ، ويقول : أين شركائي الذين كنتم تشاقون فيهم ؟ قال الذين أتوا العلم : إن الخزي اليوم والسوء على الكافرين ، الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم ، فألقوا السلم ما كنا نعمل من سوء . بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون . فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها ، فلبئس مثوى المتكبرين » .

« قد مكر الذين من قبلهم » والتعبير بصور هذا المكر في صورة بناء ذي قواعد وأركان وسقف إشارة إلى دقته وإحكامه ومتانته وضخامته . ولكن هذا كله لم يقف أمام قوة الله وتدييره : « فأتى الله بنيانهم من القواعد ، فخرَّ عليهم السقف من فوقهم » وهو مشهد للتدمير الكامل الشامل ، يطبق عليهم من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، فالقواعد التي تحمل البناء تحطم وتهدم من أساسها ، والسقف ينخر عليهم من فوقهم فيطبق عليهم ويدفهمهم » وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون » فإذا البناء الذي بنوه وأحكموه واعتمدوا على الاحتماء فيه . إذا هو مقبرتهم التي تحتويهم ، ومهلكتهم التي تأخذهم من فوقهم ومن أسفل منهم . وهو الذي اتخذوه للحماية ولم يفكروا أن يأتيهم الخطر من جهته !

إنه مشهد كامل للدمار والهلاك ، وللسخرية من مكر الماكرين وتديير المدبرين ، الذين يقفون لدعوة الله ، ويحسبون مكرهم لا يرد ، وتدييرهم لا يجيب ، والله من ورائهم محيط ! .

وهو مشهد مكرر في الزمان قبل قريش وبعدها . ودعوة الله ماضية في طريقها مهما يمكر الماكرون ، ومهما يدير المدبرون . وبين الحين والحين يتلفت الناس فيذكرون ذلك المشهد المؤثر الذي رسمه القرآن الكريم : « فأتى الله بنيانهم من القواعد فخرَّ عليهم السقف من فوقهم ، وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون » .

هذا في الدنيا ، وفي واقع الأرض : « ثم يوم القيامة يخزيهم ، ويقول : أين شركائي الذين كنتم تشاقون فيهم ؟ » .

ويرسم مشهد من مشاهد القيامة يقف فيه هؤلاء المستكبرون الماكرون موقف الخزي ؛ وقد انتهى عهد الاستكبار والمكر . وجاءوا إلى صاحب الخلق والأمر ، يسألهم سؤال التبكيت والتأنيب : « أين شركائي الذين كنتم تشاقون فيهم ؟ » أين شركائي الذين كنتم تحاصمون من أجلهم الرسول والمؤمنين ، وتجادلون فيهم المقرين الموحدين ؟ .

ويستكت القوم من خزي ، لننتقل ألسنة الذين أتوا العلم من الملائكة والرسول والمؤمنين وقد أذن الله لهم أن يكونوا في هذا اليوم متكلمين ظاهرين : « قال الذين أتوا العلم : إن الخزي اليوم والسوء على الكافرين » . .

« إن الخزي اليوم والسوء على الكافرين » .. « الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم » فيعود السياق بهم خطوة قبل خطوة القيامة . يعود بهم إلى ساعة الاحتضار ، والملائكة تتوفاهم ظالمين لأنفسهم بما حرموها من الإيمان واليقين ، وبما أوردوها موارد الهلاك ، وبما قادوها في النهاية إلى النار والعذاب .

ويرسم مشهدهم في ساعة الاحتضار ، وهم قريبو عهد بالأرض ، وما لهم فيها من كذب ومكرو وكيد : « فألقوا السلم ما كنا نعمل من سوء ! » ألقوا السلم . هؤلاء المستكبرون . فإذا هم مستسلمون لا يهتمون بتزاع أو خصام ، إنما يلقون السلم ويعرضون الاستسلام ! ثم يكذبون - ولعله طرف من مكرهم في الدنيا - فيقولون مستسلمين : « ما كنا نعمل من سوء ! » وهو مشهد مخز وموقف مهين لأولئك المستكبرين !

ويجيئهم الجواب : « بلى » من العليم بما كان منهم « إن الله عليم بما كنتم تعملون » فلا سبيل إلى الكذب والمغالطة والتمويه .

ويجيئهم الجزاء جزاء المتكبرين : « فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها ، فلبئس مثوى المتكبرين ! »

* * *

وعلى الجانب الآخر .. الذين اتقوا .. يقابلون المنكرين المستكبرين في المبدأ والمصير : « وقيل للذين اتقوا : ماذا أنزل ربكم ؟ قالوا : خيراً . للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ، ولدار الآخرة خير ، ولنعم دار المتقين . جنات عدن يدخلونها تجري من تحتها الأنهار ، لهم فيها ما يشاءون ، كذلك يجزي الله المتقين . الذين تتوفاهم الملائكة طيبين ، يقولون : سلام عليكم ، ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون » .. إن المتقين يدركون أن الخير هو قوام هذه الدعوة ، وقوام ما أنزل ربهم من أمر ونهي وتوجيه وتشريع . فيلخصون الأمر كله في كلمة : « قالوا : خيراً » ثم يفصلون هذا الخير حسبما علموا مما أنزل الله : « للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة » حياة حسنة ومنتعة حسنة ، ومكانة حسنة . « ولدار الآخرة خير » من هذه الدار الدنيا « ولنعم دار المتقين » .. ثم يفصل ما أجمل . عن هذه الدار . فإذا هي « جنات عدن » للإقامة « تجري من تحتها الأنهار » رضاء . « لهم فيها ما يشاءون » فلا حرمان ولا كد ، ولا حدود للرزق كما هي الحياة الدنيا .. « كذلك يجزي الله المتقين » .

ثم يعود السياق خطوة بالمتقين كما عاد من قبلهم خطوة بالمستكبرين . فإذا هم في مشهد الاحتضار وهو مشهد هين لين كريم : « الذين تتوفاهم الملائكة طيبين » طيبة نفوسهم بلقاء الله ، معافين من الكرب وعذاب الموت . يقولون : سلام عليكم « طمأنة لقلوبهم وترحيباً بقدمهم » ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون « تعجيلاً لهم بالبشرى ، وهم على عتاب الآخرة ، جزاء وفاقاً على ما كانوا يعملون .

* * *

وفي ظل هذا المشهد بشقيه . مشهد الاحتضار ومشهد البعث . يعقب السياق بسؤال عن المشركين من قريش : ماذا ينتظرون ؟ أينظرون الملائكة فتتوفاهم ؟ أم ينتظرون أمر الله فيبعثهم . وهذا ما ينتظرهم عند الوفاة ، وما ينتظرهم يوم يبعثهم الله ! أوليس في مصير المكذبين قبلهم وقد شهدوه ممثلاً في ذنك المشهدين عبرة وغناء : « هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي أمر ربك ؟ كذلك فعل الذين من قبلهم ، وما ظلمهم الله ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون . فأصابهم سيئات ما عملوا ، وحق بهم ما كانوا به يستهزئون » ..

وعجيب أمر الناس . فإنهم يرون ما حل بمن قبلهم ممن يسلكون طريقهم ، ثم يظنون سادرين في الطريق غير متصورين أن ما أصاب غيرهم يمكن أن يصيبهم ، وغير مدركين أن سنة الله تمضي وفق ناموس مرسوم ، وأن المقدمات تعطي دائماً نتائجها ، وأن الأعمال تلتقي دائماً جزاءها ، وأن سنة الله لن تحايبهم ولن تتوقف إزاءهم ، ولن تحيد عن طريقهم .

« وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » فقد آتاهم الله حرية التدبر والتفكير والاختيار ، وعرض عليهم آياته في الآفاق وفي أنفسهم ، وحذرهم العاقبة ، ووكلمهم إلى عملهم وإلى سنته الجارية . فما ظلمهم في مصيرهم المحتوم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

وما قسا عليهم في عقوبة ، إنما قست عليهم سيئات أعمالهم ، لأنهم أصيبوا بها أي بنتائجها الطبيعية وجرائرها : « فأصابتهم سيئات ما عملوا ، وحق بهم ما كانوا به يستهزئون » . . ولهذا التعبير وأمثاله دلالة فإنهم لا يعاقبون بشيء خارج عن ثمرة أعمالهم الذاتية . وإنهم ليصابون بجرائر سلوكهم التلقائية . وهم يتكسون إلى أدنى من رتبة البشرية بما يعملون ، فيجازون بما هو أدنى من رتبة البشرية في دركات المقام المهين ، والعذاب الأليم .

* * *

ومقولة جديدة من مقولات المشركين عن علة شركهم وملابساته :

« وقال الذين أشركوا: لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ، ولا حرمانا من دونه من شيء . كذلك فعل الذين من قبلهم . فهل على الرسل إلا البلاغ المبين ؟ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ؛ فمنهم من هدى الله ، ومنهم من حقت عليه الضلالة . فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » . .

إنهم يحيلون شركهم وعبادتهم آلهة من دون الله هم وآباؤهم ، وأوهام الوثنية التي يزاولونها من تحريمهم لبعض الذبائح وبعض الأطعمة على أنفسهم بغير شريعة من الله . . إنهم يحيلون هذا كله على إرادة الله ومشيته . فلو شاء الله - في زعمهم - ألا يفعلوا شيئاً من هذا لمنعهم من فعله .

وهذا وهم وخطأ في فهم معنى المشيئة الإلهية . وتجريد للإنسان من أهم خصائصه التي وهبها له الله لاستخدامها في الحياة .

فإنه سبحانه لا يريد لعباده الشرك ، ولا يرضى لهم أن يحرموا ما أحله لهم من الطيبات . وإرادته هذه ظاهرة منصوص عليها في شرائعه ، على ألسنة الرسل الذين كلفوا التبليغ وحده فقاموا به وأدوه : « ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت » فهذا أمره وهذه إرادته لعباده . والله - تعالى - لا يأمر الناس بأمر يعلم أنه منعهم خلقه من القدرة عليه ، أو دفعهم قسراً إلى مخالفته . وآية عدم رضاه عن مخالفة أمره هذا ما أخذ به المكذبين « فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » .

إنما شاءت إرادة الخالق الحكيم أن يخلق البشر باستعداد للهدى وللضلال ، وأن يدع مشيئتهم حرة في اختيار أي الطريقين ؛ ومنعهم بعد ذلك العقل يرجحون به أحد الاتجاهين ، بعد ما بث في الكون من آيات الهدى ما يلمس العين والأذن والحس والقلب والعقل حينما اتجهت آناء الليل وأطراف النهار . . ثم شاءت رحمة الله بعباده بعد هذا كله ألا يدعهم لهذا العقل وحده ، فوضع لهذا العقل ميزاناً ثابتاً في شرائعه التي

جاءت بها رسله ، يثوب إليه العقل كلما غم عليه الأمر ، ليتأكد من صواب تقديره أو خطئه عن طريق الميزان الثابت الذي لا تعصف به الأهواء . ولم يجعل الرسل جبارين يلوون أعناق الناس إلى الإيمان ، ولكن مبلغين ليس عليهم إلا البلاغ ، يأمرون بعبادة الله وحده واجتناب كل ما عداه من وثنية وهوى وشهوة وسلطان :

« ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت » ..

ففرق استجاب : « فمنهم من هدى الله » و فريق شرد في طريق الضلال « ومنهم من حقت عليه الضلالة » .. وهذا الفريق وذلك كلاهما لم يخرج على مشيئة الله ، وكلاهما لم يقصره الله قسراً على هدى أو ضلال ، إنما سلك طريقه الذي شاءت إرادة الله أن تجعل إرادته حرة في سلوكه ، بعد ما زودته بمعالم الطريق في نفسه وفي الآفاق .

كذلك ينبي القرآن الكريم بهذا النص وهم الإجمار الذي لوح به المشركون ، والذي يستند إليه كثير من العصاة والمنحرفين . والعقيدة الإسلامية عقيدة ناصعة واضحة في هذه النقطة . فالله يأمر عباده بالخير وينهاهم عن الشر ، ويعاقب المذنبين أحياناً في الدنيا عقوبات ظاهرة يتضح فيها غضبه عليهم . فلا مجال بعد هذا لأن يقال : إن إرادة الله تتدخل لترغمهم على الانحراف ثم يعاقبهم عليه الله ! إنما هم متروكون لاختيار طريقهم وهذه هي إرادة الله . وكل ما يصدر عنهم من خير أو شر . من هدى ومن ضلال . يتم وفق مشيئة الله على هذا المعنى الذي فصلناه .

ومن ثم يعقب على هذا بخطاب إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - يقرر سنة الله في الهدى والضلال :

« إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يضل وما لهم من ناصرين » .

فليس الهدى أو الضلال بحرص الرسول على هدى القوم أو عدم حرصه ، فوظيفته البلاغ . أما الهدى أو الضلال فيمضي وفق سنة الله وهذه السنة لا تتخلف ولا تتغير عواقبها ، فمن أضله الله لأنه استحق الضلال وفق سنة الله ، فإن الله لا يهديه ، لأن الله سننا تعطي نتائجها . وهكذا شاء . والله فعال لما يشاء . « وما لهم من ناصرين » ينصرونهم من دون الله .

* * *

ومقولة ثالثة من مقولات المنكرين المستكبرين :

« وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت . بلى . وعداً عليه حقاً ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون . لبيّن لهم الذي يختلفون فيه ، وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين . إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له : كن . فيكون » ..

ولقد كانت قضية البعث دائماً هي مشكلة العقيدة عند كثير من الأقوام منذ أن أرسل الله رسله للناس ، يأمرونهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر ، ويخوفونهم حساب الله يوم البعث والحساب .

وهؤلاء المشركون من قريش أقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ! فهم يقرون بوجود الله ولكنهم ينفون عنه بعث الموتى من القبور . يرون هذا البعث أمراً عسيراً بعد الموت واليلى وتفرق الأشلاء والذرات ! .

سورة النحل

وغفلوا عن معجزة الحياة الأولى .. وغفلوا عن طبيعة القدرة الإلهية ، وأنها لا تقاس إلى تصورات البشر وطاقتهم . وأن إيجاد شيء لا يكلف تلك القدرة شيئاً ؛ فيكفي أن تتوجه الإرادة إلى كون الشيء ليكون . وغفلوا كذلك عن حكمة الله في البعث . وهذه الدنيا لا يبلغ أمر فيها تمامه . فالتناس يختلفون حول الحق والباطل ، والهدى والضلال ، والخير والشر . وقد لا يفصل بينهم فيما يختلفون فيه في هذه الأرض لأن إرادة الله شاءت أن يمتد ببعضهم الأجل ، وألا يحل بهم عذابه الفاصل في هذه الديار . حتى يتم الجزاء في الآخرة ويبلغ كل أمر تمامه هناك .

والسياق يرد على تلك المقولة الكافرة ، ويكشف ما يحيط بها في نفوس القوم من شبهات فيبدأ بالتقرير : « بلى . وعداً عليه حقاً » ومتى وعد الله فقد كان ما وعد به لا يتخلف بحال من الأحوال « ولكن أكثر الناس لا يعلمون » حقيقة وعد الله .

وللأمر حكمته : « ليبين لهم الذي يختلفون فيه ، وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين » فيما ادعوا أنهم على الهدى ؛ وفيما زعموا من كذب الرسل ، ومن نبي الآخرة ؛ وفيما كانوا فيه من اعتقاد ومن فساد . والأمر بعد ذلك هين : « إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له : كن . فيكون » .. والبعث شيء من هذه الأشياء يتم حالما تتوجه إليه الإرادة دون إبطاء .

* * *

وهنا يعرض في الجانب المقابل للمنكرين الجاحدين ، لمحة عن المؤمنين المصدقين ، الذين يحملهم يقينهم في الله والآخرة على هجر الديار والأموال ، في الله ، وفي سبيل الله : « والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوتهم في الدنيا حسنة ، ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون . الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون » ..

فهؤلاء الذين هاجروا من ديارهم وأموالهم ، وتعرضوا عما يملكون وعما يحبون ، وضحوا بدارهم وقرب عشيرتهم والحبيب من ذكرياتهم .. هؤلاء يرجون في الآخرة عوضاً عن كل ما خلفوا وكل ما تركوا . وقد عانوا الظلم وفارقوه . فإذا كانوا قد خسروا الديار ف« لنبوتهم في الدنيا حسنة » ولنسكتهم خيراً مما فقدوا « ولأجر الآخرة أكبر » لو كان الناس يعلمون . هؤلاء « الذين صبروا » واحتملوا ما احتملوا « وعلى ربهم يتوكلون » لا يشركون به أحداً في الاعتماد والتوجه والتكylan .

* * *

ثم يعود السياق إلى بيان وظيفة الرسل التي أشار عليها عند الرد على مقولة المشركين عن إرادة الله الشرك لهم ولآبائهم . يعود إليها لبيان وظيفة الرسول الأخير - صلوات الله وسلامه عليه - وما معه من الذكر الأخير . وذلك تمهيداً لإنداز المكذبين به ما يتهددهم من هذا التكذيب :

« وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم ، فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون . بالبينات والزبر ، وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ، ولعلهم يتفكرون » ..

وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً . لم نرسل ملائكة ، ولم نرسل خلقاً آخر . رجالاً مختارين « نوحى إليهم » كما أوحينا إليك ، ونكل إليهم التبليغ كما وكلنا إليك . « فاسألوا أهل الذكر » أهل الكتاب الذين جاءتهم

الرسول من قبل ، أكانوا رجالاً أم كانوا ملائكة أم خلقاً آخر . أسألوهم « إن كنتم لا تعلمون » . أرسلناهم بالبينات وبالكتب (والزبر الكتب المتفرقة) « وأنزلنا إليك الذكركتين للناس ما نزل إليهم » سواء منهم السابقون أهل الكتاب الذين اختلفوا في كتابهم ، فجاء القرآن ليفصل في هذا الخلاف ، وليبين لهم وجه الحق فيه . أو المعاصرون الذين جاءهم القرآن والرسول - صلى الله عليه وسلم - يبينه لهم ويشرحه بفعله وقوله « ولعلمهم يتفكرون » في آيات الله وآيات القرآن فإنه يرد دائماً إلى التفكر والتدبر ، وإلى يقظة الفكر والشعور .

* * *

ويحتم هذا الدرس الذي بدأه بالإشارة إلى الذين يستكبرون ويمكرون . . ينتهي بلمسة وجدانية بعد لمسة : أولاهما للتخويف من مكر الله الذي لا يأمنه أحد في ساعة من ليل أو نهار . والثانية لمشاركة هذا الوجود في عبادة الله وتسيحه . فليس إلا الإنسان هو الذي يستكبر ويمكر . وكل ما حوله يحمد ويسبح .

« أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض : أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون ؟ أو يأخذهم في تقلبهم فما هم بمعجزين ؟ أو يأخذهم على تخوف ؟ فإن ربكم لرؤوف رحيم .
« أولم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفياً ظلاله عن اليمين والشمائل سجداً لله وهم داخرون ؟
« ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة . والملائكة ، وهم لا يستكبرون ، يخافون ربهم من فوقهم . ويفعلون ما يؤمرون » . .

وأعجب العجب في البشر أن يد الله تعمل من حولهم . وتأخذ بعضهم أخذ عزيز مقتدر ، فلا يغني عنهم مكروهم وتديبرهم . ولا تدفع عنهم قوتهم وعلمهم وما لهم . . وبعد ذلك يظل الذين يمكرون يمكرون ، ويظل الناجون آمنين لا يتوقعون أن يؤخذوا كما أخذ من قبلهم ومن حولهم ، ولا يخشون أن تمتد إليهم يد الله في صحوهم أو في منامهم . في غفلتهم أو في استيقاظهم والقرآن الكريم يلمس وجدانهم من هذا الجانب ليثير حساسيتهم للخطر المتوقع . الذي لا يفغل عنه إلا الخاسرون :

« أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون ؟ .
أو يأخذهم وهم يتقلبون في البلاد . من بلد إلى بلد للتجارة والسياحة . « فما هم بمعجزين » لله ، ولا يبعد عليه مكانهم في حل أو ترحال . « أو يأخذهم على تخوف » فإن يقظتهم وتوقعهم لا يرد يد الله عنهم فهو قادر على أخذهم وهم متأهبون قدرته على أخذهم وهم لا يشعرون ؟ ولكن الله رؤوف رحيم .
أفأمن الذين مكروا السيئات أن يأخذهم الله ؟ فهم لاجون في مكروهم سادرون في غيهم لا يثوبون ولا يتقون .

ذلك والكون من حولهم بنواميسه وظواهره يوحى بالإيمان . ويوحى بالخشوع : « أولم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفياً ظلاله عن اليمين والشمائل سجداً لله وهم داخرون » . .
ومشهد الظلال تمتد وتراجع . تثبت وتتمايل . مشهد موح لمن يفتح قلبه ، ويوقظ حسه ، ويتجاوب مع الكون حوله .

والسياق القرآني يعبر عن خضوع الأشياء لنواميس الله بالسجود - وهو أقصى مظاهر الخضوع - ويوجه إلى حركة الظلال المتفيضة - أي الراجعة بعد امتداد - وهي حركة لطيفة خفية ذات ديبب في المشاعر وتيد عميق . ويرسم المخلوقات داخرة أي خاضعة خاشعة طائعة . ويضم إليها ما في السموات وما في الأرض من

دابة . ويضيف إلى الحشد الكوني .. الملائكة فإذا مشهد عجيب من الأشياء والظلال والدواب . ومعهم الملائكة . في مقام خشوع وخضوع وعبادة وسجود . لا يستكبرون عن عبادة الله ولا يخالفون عن أمره . والمنكرون المستكبرون من بني الإنسان وحدهم شواذ في هذا المقام العجيب .
وبهذا المشهد يختم الدرس الذي بدأ بالإشارة إلى المنكرين المستكبرين ، ليفردهم في النهاية بالإنكار والاستكبار في مشهد الوجود ...

* وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ ۗ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَارَهُونَ ﴿٥١﴾ وَلَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ
وَلَهُ الدِّينُ وَأَصْبَأُ أَغْفِيرَ اللَّهِ تُتَقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضَّرُّ فَأَلَيْهِ يَجْعُرُونَ ﴿٥٣﴾
ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضَّرُّ عَنكُمُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ
تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾

وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْـَٔلَنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ
سُبْحٰنَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِّنَ
الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَبِهِ ۗ أَيَسْكُرُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾
لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مِثْلُ السُّوءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم
مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِّن دَابَّةٍ وَلٰكِن يُؤَنِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسْمًى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَفْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾
وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَسْنَتُهُمُ الْكُذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾
تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطٰنُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَا أُنزِلْنَا
عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾

وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۗ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُم
فِي الْأَنْعٰمِ لَعِبْرَةً ۗ نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ ۖ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبْنَا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَاتِ
النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ يَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ

إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٧٥﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٧٦﴾
وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾

وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَأْدِي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِعَمَّةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧٨﴾

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٩﴾

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾

* ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنْ آثَرِ رِزْقِ حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٢﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكُرُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْمَانًا يُوجِبُهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨٣﴾

هذا الشوط الثالث في قضية الألوهية الواحدة التي لا تتعدد ، يبدأ فيقرر وحدة الإله ، ووحدة المالك ، ووحدة المنعم في الآيات الثلاث الأولى متواليات ، ويحتم بمثلين يضرهما للسيد المالك الرازق ، والعبد المملوك لا يقدر على شيء ، ولا يملك شيئاً .. هل يستون ؟ فكيف يسوي الله المالك الرازق بمن لا يقدر ولا يملك ولا يرزق ؟ فيقال : هذا إله وهذا إله ؟ ! .

وفي خلال الدرس يعرض نموذجاً بشرياً للناس حين يصيبهم الضرر فيجأون إلى الله وحده ، حتى إذا كشف عنهم الضرر احووا يشركون به غيره ! .

ويعرض كذلك صوراً من أوهام الوثنية وخرافاتهما . في تخصيص بعض ما رزقهم الله لآلهتهم المدعاة ، في حين أنهم لا يردون شيئاً مما يملكونه على عبيدهم ولا يقاسمونهم إياه ! وفي نسبة البنات إلى الله على حين يكرهون ولادة البنات لهم : « وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم » ! وفي الوقت الذي

يجعلون لله ما يكرهون تروح ألسنتهم تتشدد بأن لهم الحسنى ، وأنهم سينالون على ما فعلوا خيرا ! وهذه الأوهام التي ورثوها من المشركين قبلهم هي التي جاءهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - ليبين لهم الحقيقة فيها هدى ورحمة للمؤمنين .

ثم يأخذ في عرض نماذج من صنع الألوهية الحققة في تأملها عظة وعبرة فالله وحده هو القادر عليها الموجد لها ، وهي هي دلائل الألوهية لا سواها : فالله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها . والله يسقي الناس - غير الماء - لبنا سائغا يخرج من بطون الأنعام من بين فرث ودم . والله يطلع للناس ثمرات النخيل والأعناب يتخذون منها سكرأ ورزقا حسنا . والله أوحى إلى النحل لتتخذ من الجبال بيوتا ومن الشجر وما يعرشون ، ثم تخرج عسلا فيه شفاء للناس . ثم الله يخلق الناس ويتوفاهم ويؤجل بعضهم حتى يشيخ فينسى ما تعلمه ويرتد ساذجاً لا يعلم شيئا . والله فضل بعضهم على بعض في الرزق . والله جعل لهم من أنفسهم أزواجا وجعل لهم من أزواجهم بنين وحفدة . . . وهم بعد هذا كله يعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقاً في السماوات والأرض ولا يقدرون على شيء . ويجعلون لله الأشباه والأمثال ! .

هذه اللمسات كلها في أنفسهم وفيما حولهم ، يوجههم إليها لعلهم يستشعرون القدرة وهي تعمل في ذواتهم وفي أزواجهم وفي طعامهم وفي شرابهم ، وفي كل شيء حولهم . ثم يختمها بالمثلين الواضحين الموضحين اللذين أشرنا إليهما آنفا . فهي حملة على الوجدان البشري والعقل البشري ، ذات إيقاعات عميقة ، تضرب على أوتار حساسة في النفس البشرية يصعب ألا تهتز لها وتتأثر وتستجيب .

* * *

« وقال الله : لا تتخذوا إلهين اثنين ، إنما هو إله واحد فيايباى فارهبون . وله ما في السماوات والأرض وله الدين واصبا . أفغير الله تتقون . وما بكم من نعمة فن الله ؛ ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون . ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون ، ليكفروا بما آتيناهم ، فتمتعوا فسوف تعلمون » ..

لقد أمر الله ألا يتخذ الناس إلهين اثنين . إنما هو إله واحد لا ثاني له . ويأخذ التعبير أسلوب التقرير والتكرير فيتبع كلمة إلهين بكلمة اثنين ، ويتبع النهي بالقصر إنما هو إله واحد . ويعقب على النهي والقصر بقصر آخر « فيايباى فارهبون » دون سواي بلا شبيه أو نظير . ويذكر الرهبة زيادة في التحذير . ذلك أنها القضية الأساسية في العقيدة كلها ، لا تقوم إلا بها ، ولا توجد إلا بوجودها في النفس واضحة كاملة دقيقة لا لبس فيها ولا غموض .

إنما هو إله واحد .. وإنما هو كذلك مالك واحد : «وله ما في السماوات والارض» .. ودائن واحد « وله الدين واصبا » (أي واصلاً منذ ما وجد الدين ، فلا دين إلا دينه) ومنعم واحد : « وما بكم من نعمة فن الله » . وفطر تكم تلجأ إليه وحده ساعة العسرة والضيق ، وتنتني عنها أوهام الشرك والثنية فلا تتوجه إلا إليه دون شريك : « ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون » وتصرخون لينجيككم مما أتم فيه .

وهكذا يتفرد سبحانه وتعالى بالألوهية والملك والدين والنعمة والتوجه ؛ وتشهد فطرة البشر بهذا كله حين يصرها الضر وينفض عنها أوشاب الشرك . . ومع هذا فإن فريقا من البشر يشركون بالله بعد توحيدهم حالما ينجيبهم من الضر المحيق ! فينتهوا إلى الكفر بنعمة الله عليهم ، وبالهدى الذي آتاهم . . فلينظروا إذن ما يصيبهم بعد المتاع القصير : « فتمتعوا فسوف تعلمون »

هذا النموذج الذي يرسمه التعبير هنا « ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون ، ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بر بهم يشركون » .. نموذج متكرر في البشرية . ففي الضيق تتوجه القلوب إلى الله ، لأنها تشعر بالفطرة ألا عاصم لها سواه . وفي الفرج تتلهى بالنعمة والمتاع ، فتضعف صلتها بالله ، وتزيغ عنه ألوانا من الزيف تبدو في الشرك به وتبدو كذلك في صورشتى من تأليه قيم وأوضاع ولولم تدع باسم الإله ! .

ولقد يشتد انحراف الفطرة وفسادها ، فإذا بعضهم في ساعة العسرة لا يلجأ إلى الله ؛ ولكن يلجأ إلى بعض مخالفه يدعوها للنصرة والإنقاذ والنجاة ، بحجة أنها ذات جاه أو منزلة عند الله ، أو بغير هذه الحججة في بعض الأحيان ، كالذين يدعون الأولياء لإنقاذهم من مرض أو شدة أو كرب .. فهؤلاء أشد انحرافا من مشركي الجاهلية الذين يرسم لهم القرآن ذلك النموذج الذي رأيناه ! .

* * *

« ويجعلون لما لا يعلمون نصيباً مما رزقناهم » . فإذا هم يحرمون على أنفسهم بعض الأنعام . لا يركبونها أولاً يذوقون لحومها . أو يبجحونها للذكور دون الإناث - كما أسلفنا في سورة الأنعام - باسم الآلهة المدعاة ؛ التي لا يعلمون عنها شيئاً ، إنما هي أوهام موروثه من الجاهلية الأولى . والله هو الذي رزقهم هذه النعمة التي يجعلون لما لا يعلمون نصيباً منها ، فليست هي من رزق الآلهة المدعاة لهم ليردوها عليها ، إنما هي من رزق الله ، الذي يدعوهم إلى توحيدهم فيشركون به سواه ! .

وهكذا تبدو المقارفة في تصورهم وفي تصرفهم على السواء .. الرزق كله من الله . والله يأمر ألا يعبد سواه فهم يخالفون عن أمره فيتخذون الآلهة . وهم يأخذون من رزقه فيجعلونه لما نهاهم عنه ! وبهذا تتبدى المقارفة واضحة جاهرة عجيبة مستنكرة ! .

وما يزال أناس بعد أن جاءت عقيدة التوحيد وتقررت ، يجعلون نصيباً من رزق الله لهم موقوفاً على ما يشبه آلهة الجاهلية . ما يزال بعضهم يطلق عجلًا يسميه « عجل السيد البدوي » يأكل من حيث يشاء لا يمنعه أحد ، ولا يتنفع به أحد ، حتى يذبح على اسم السيد البدوي لا على اسم الله ! وما يزال بعضهم يندرون للأولياء ذبائح يخرجونها من ذمتهم لا لله ، ولا باسم الله ، ولكن باسم ذلك الولي ، على ما كان أهل الجاهلية يجعلون لما لا يعلمون نصيباً مما رزقهم الله . وهو حرام نذره على هذا الوجه . حرام لحمه . ولو سمي اسم الله عليه . لأنه أهل لغير الله به ! .

« تالله لتسألن عما كنتم تفترون » بالقسم والتوكيد الشديد . فهو افتراء يحطم العقيدة من أساسها لأنه يحطم فكرة التوحيد .

* * *

« ويجعلون لله البنات - سبحانه - ولهم ما يشتهون . وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بشره ، أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ؟ ألا ساء ما يحكمون ! » .. إن الانحراف في العقيدة لا تقف آثاره عند حدود العقيدة ، بل يتمشى في أوضاع الحياة الاجتماعية وتقاليدها . فالعقيدة هي المحرك الأول للحياة ، سواء ظهرت أو كمننت . وهؤلاء عرب الجاهلية كانوا يزعمون أن لله بنات - هن الملائكة - على حين أنهم كانوا يكرهون لأنفسهم ولادة البنات ! فالبنات لله أما هم فيجعلون لأنفسهم ما يشتهون من الذكور ! .

وانحرفهم عن العقيدة الصحيحة سول لهم وأد البنات أو الإبقاء عليهن في الذل والهوان من المعاملة السيئة والنظرة الوضيعة . ذلك أنهم كانوا يحشون العار والفقر مع ولادة البنات . إذ البنات لا يقاننن ولا يكسبن ؛ وقد يقعن في السبي عند الغارات فيجلبن العار ، أو يعشن كلاً على أهلهن فيجلبن الفقر .

والعقيدة الصحيحة عصمة من هذا كله . إذ الرزق بيد الله يرزق الجميع ؛ ولا يصيب أحداً إلا ما كتب له ؛ ثم إن الإنسان بجنسيه كريم على الله ، والأنثى - من حيث إنسانيتها - صنوار الرجل وشطر نفسه كما يقرر الإسلام .

ويرسم السياق صورة منكراً لعادات الجاهلية : « وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم » مسوداً من الهم والحزن والضيق ، وهو كظيم ، يكظم غيظه وغمه ، كأنها بلية ، والأنثى هبة الله له كالذكر ، وما يملك أن يصور في الرحم أنثى ولا ذكراً ، وما يملك أن ينفخ فيه حياة ، وما يملك أن يجعل من النطفة الساذجة إنساناً سوياً . وإن مجرد تصور الحياة نامية متطورة من نطفة إلى بشر - بإذن الله - ليكني لاستقبال المولود - أياً كان جنسه - بالفرح والترحيب وحسن الاستقبال ، لمعجزة الله التي تتكرر ، فلا يبلي جدتها التكرار ! فكيف يغم من يبشر بالأنثى ويتوارى من القوم من سوء ما بشره وهو لم يخلق ولم يصور . إنما كان أداة القدرة في حدوث المعجزة الباهرة ؟ .

وحكمة الله ، وقاعدة الحياة ، اقتضت أن تنشأ الحياة من زوجين ذكر وأنثى . فالأنثى أصيلة في نظام الحياة أصالة الذكر ؛ بل ربما كانت أشد أصالة لأنها المستقر . فكيف يغم من يبشر بالأنثى ، وكيف يتوارى من القوم من سوء ما بشره ونظام الحياة لا يقوم إلا على وجود الزوجين دائماً ؟ . إنه انحراف العقيدة ينشئ آثاره في انحراف المجتمع وتصوراته وتقاليده .. « ألساء ما يحكمون » وما أسوأه من حكم وتقدير .

وهكذا تبدو قيمة العقيدة الإسلامية في تصحيح التصورات والأوضاع الاجتماعية . وتجلي النظرة الكريمة القويمة التي بثها في النفوس والمجتمعات تجاه المرأة ، بل تجاه الإنسان . فما كانت المرأة هي المغبونة وحدها في المجتمع الجاهلي الوثني إنما كانت « الإنسانية » في أخص معانيها . فالأنثى نفس إنسانية ، إهانتها إهانة للعنصر الإنساني الكريم ، ووأدها قتل للنفس البشرية ، وإهدار لشطر الحياة ؛ ومصادمة لحكمة الخلق الأصيلة ، التي اقتضت أن يكون الأحياء جميعاً - لا الإنسان وحده - من ذكر وأنثى .

وكلما انحرفت المجتمعات عن العقيدة الصحيحة عادت تصورات الجاهلية تطل بقرونها .. وفي كثير من المجتمعات اليوم تعود تلك التصورات إلى الظهور . فالأنثى لا يرحب بمولدها كثير من الأوساط وكثير من الناس ، ولا تعامل معاملة الذكر من العناية والاحترام . وهذه وثنية جاهلية في إحدى صورها ، نشأت من الانحراف الذي أصاب العقيدة الإسلامية .

ومن عجب أن ينق الناعقون بلمز العقيدة الإسلامية والشريعة الإسلامية - في مسألة المرأة - ، نتيجة لما يرونه في هذه المجتمعات المنحرفة ولا يكلف هؤلاء الناعقون اللامزون أنفسهم أن يراجعوا نظرة الإسلام ، وما أحدثته من ثورة في التطورات والأوضاع . وفي المشاعر والضماير . وهي بعد نظرة علوية لم تنشأها ضرورة واقعية ولا دعوة أرضية ولا مقتضيات اجتماعية أو اقتصادية . إنما أنشأتها العقيدة الإلهية الصادرة عن الله الذي كرم الإنسان ، فاستتبع تكريمه للجنس البشري تكريمه للأنثى ، ووصفها بأنها شطر النفس البشرية ، فلا تفاضل بين الشطرين الكريمين على الله .

والفارق بين طبيعة النظرة الجاهلية والنظرة الإسلامية ، هو الفارق بين صفة الذين لا يؤمنون بالآخرة وصفة الله سبحانه - والله المثل الأعلى - :

« للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء . والله المثل الأعلى ، وهو العزيز الحكيم » ..

وهنا تقترن قضية الشرك بقضية إنكار الآخرة ، لأنهما ينبعان من معين واحد وانحراف واحد . ويختلطان في الضمير البشري ، وينشئان آثارهما في النفس والحياة والمجتمع والأوضاع . فإذا ضرب مثل للذين لا يؤمنون بالآخرة فهو مثل السوء . السوء المطلق في كل شيء : في الشعور والسلوك ، في الاعتقاد والعمل . في التصور والتعامل ، في الأرض والسماء .. « والله المثل الأعلى » الذي لا يقارن ولا يوازن بينه وبين أحد ، بله الذين لا يؤمنون بالآخرة هؤلاء .. « وهو العزيز الحكيم » ذو المنعة وذو الحكمة الذي يتحكم ليضع كل شيء موضعه ، ويحكم ليقر كل شيء في مكانه بالحق والحكمة والصواب .

وإنه لقادر أن يأخذ الناس بظلمهم الذي يقع منهم ولو فعل لدمرها عليهم تدميراً ؛ ولكن حكمته اقتضت أن يؤخرهم إلى أجل . وهو العزيز الحكيم :

« ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ، ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى ، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » ..

والله خلق هذا الخلق - البشري - وأنعم عليه بآلائه . وهو وحده الذي يفسد في الأرض ويظلم ، وينحرف عن الله ويشرك ؛ ويطغى بعضه على بعض ، ويؤذي سواه من الخلق .. والله بعد هذا كله يحلم عليه ويرأف به ، ويمهله وإن كان لا يمهله . فهي الحكمة تصاحب القوة ، وهي الرحمة تصاحب العدل . ولكن الناس يغترون بالإمهال ، فلا تستشعر قلوبهم رحمة الله وحكمته ، حتى يأخذهم عدله وقوته . عند الأجل المسمى الذي ضربه الله لحكمته ، وأمهلهم إليه لرحمة . « فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » .

وأعجب ما في الأمر أن المشركين ، يجعلون لله ما يكرهون من البنات وغير البنات ، ثم يزعمون كاذبين أن سينالهم الخير والإحسان جزاء على ما يجعلون ويزعمون ! والقرآن يقرر ما ينتظرهم وهو غير ما يزعمون : « ويجعلون لله ما يكرهون وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى . لا جرم أن لهم النار وأنهم مفرطون » . والتعبير يجعل ألسنتهم ذاتها كأنها الكذب ذاته ، أو كأنها صورة له ، تحكيه وتصفه بذاتها . كما تقول قوامه يصف الرشاقة وعينه تصف الحور . لأن ذلك القوام بذاته تعبير عن الرشاقة مفصح عنها ، ولأن هذه العين بذاتها تعبير عن الحور مفصح عنه . كذلك قال : تصف ألسنتهم الكذب ، فهي بذاتها تعبير عن الكذب مفصح عنه مصوره ، لطول ما قالت الكذب وعبرت عنه حتى صارت رمزاً عليه ودلالة له !

وقولهم : أن لهم الحسنى ، وهم يجعلون لله ما يكرهون هو ذلك الكذب الذي تصفه ألسنتهم أما الحقيقة التي يجبههم بها النص قبل أن تكمل الآية ، فهي أن لهم النار دون شك ولا ريب ، وعن استحقاق وجدارة : « لا جرم أن لهم النار » وأنهم معجلون إليها غير مؤخرين عنها : « وأنهم مفرطون » والفرط هو ما يسبق ، والمفرط ما يقدم ليسبق فلا يؤجل .

* * *

وبعد فإن القوم ليسوا أول من انحرف ، وليسوا أول من جدف ، فقد كان قبلهم منحرفون ومجدفون ، أغواهم الشيطان ، وزين لهم ما انحرفوا إليه من تصورات وأعمال ، فصار وليهم الذي يشرف عليهم ويصرفهم ؛

وإنما أرسل الله رسوله - صلى الله عليه وسلم - ليستنقذهم ، وليبين لهم الحق من الباطل ، ويفصل فيما وقع بينهم من خلاف في عقائدهم وكتبهم ؛ وليكون هدى ورحمة لمن يؤمنون .

« تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك ، فزين لهم الشيطان أعمالهم ، فهو وليهم اليوم ، ولهم عذاب أليم . وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » ..

فوظيفة الكتاب الأخير والرسالة الأخيرة هي الفصل فيما شجر من خلاف بين أصحاب الكتب السابقة وطوائفهم . إذ الأصل هو التوحيد ، وكل ما طرأ على التوحيد من شبهات وكل ما شابه من شرك في صورة من الصور ، ومن تشبيه وتمثيل .. كله باطل جاء القرآن الكريم ليجلوه وينفيه . وليكون هدى ورحمة لمن استعدت قلوبهم للإيمان وفتحت لتلقيه .

* * *

وعند هذا الحد يأخذ السياق في استعراض آيات الألوهية الواحدة فيما خلق الله في الكون ، وفيما أودع الإنسان من صفات واستعدادات ، وفيما وهبه من نعم وآلاء ، مما لا يقدر عليه أحد إلا الله . وقد ذكر في الآية السابقة إنزال الكتاب - وهو خير ما أنزل الله للناس وفيه حياة الروح - فهو يتبعه بإنزال الماء من السماء ، وفيه حياة الأجسام :

« والله أنزل من السماء ماء ، فأحيا به الأرض بعد موتها . إن في ذلك لآية لقوم يسمعون » ..

والماء حياة كل حي . والنص يجعله حياة للأرض كلها على وجه الشمول لكل ما عليها ومن عليها . والذي يحول الموت إلى حياة هو الذي يستحق أن يكون إلها : « إن في ذلك لآية لقوم يسمعون » فيتدبرون ما يسمعون . فهذه القضية . قضية آيات الألوهية ودلائلها من الحياة بعد الموت ذكرها القرآن كثيرا ووجه الأنظار إليها كثيرا ، ففيها آية لمن يسمع ويعقل ويتدبر ما يقال .

وعبرة أخرى في الأنعام تشير إلى عجب صنع الخالق ، وتدل على الألوهية بهذا الصنع العجيب :

« وإن لكم في الأنعام لعبرة ، نسقيكم مما في بطونه - من بين فرث ودم - لبناًخالصاً سائغاً للشاربين » فهذا اللبن الذي تدره ضرع الأنعام مم هو؟ إنه مستخلص من بين فرث ودم . والفرث ما يتبقى في الكرش بعد الهضم ، وامتصاص الأمعاء للعصارة التي تتحول إلى دم . هذا الدم الذي يذهب إلى كل خلية في الجسم ، فإذا صار إلى غدد اللبن في الضرع تحول إلى لبن ببديع صنع الله العجيب ، الذي لا يدري أحد كيف يكون .

وعملية تحول الخلاصات الغذائية في الجسم إلى دم ، وتغذية كل خلية بالمواد التي تحتاج إليها من مواد هذا الدم ، عملية عجيبة فائقة العجب ، وهي تتم في الجسم في كل ثانية ، كما تتم عمليات الاحتراق . وفي كل لحظة تتم في هذا الجهاز الغريب عمليات هدم وبناء مستمرة لا تكف حتى تفارق الروح الجسد . . ولا يملك إنسان سوي الشعور أن يقف أمام هذه العمليات العجيبة لا تهتف كل ذرة فيه بتسييح الخالق المبدع لهذا الجهاز الإنساني ، الذي لا يقاس إليه أعقد جهاز من صنع البشر ، ولا إلى خلية واحدة من خلاياه التي لا تحصى .

ووراء الوصف العام لعمليات الامتصاص والتحول والاحتراق تفصيلات تدير العقل ، وعمل الخلية الواحدة في الجسم في هذه العملية عجب لا ينقضي التأمل فيه .

وقد بقي هذا كله سرا إلى عهد قريب . وهذه الحقيقة العلمية التي يذكرها القرآن هنا عن خروج اللبن من

بين فرث ودم لم تكن معروفة لبشر . وما كان بشر في ذلك العهد ليتصورها فضلاً على أن يقررها بهذه الدقة العلمية الكاملة . وما يملك إنسان يحترم عقله أن يماري في هذا أو يجادل . ووجود حقيقة واحدة من نوع هذه الحقيقة يكفي وحده لإثبات الوحي من الله بهذا القرآن . فالبشرية كلها كانت تجهل يومذاك هذه الحقيقة .

والقرآن - يعبر هذه الحقائق العلمية البحتة - يحمل أدلة الوحي من الله في خصائصه الأخرى لمن يدرك هذه الخصائص ويقدرها ؛ ولكن ورود حقيقة واحدة على هذا النحو الدقيق يفحم المجادلين المتعنتين .

« ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرًا ورزقًا حسنًا . إن في ذلك لآية لقوم يعقلون » ..

هذه الثمرات المنبثقة عن الحياة التي بثها الماء النازل من السماء . تتخذون منه سكرًا (والسكر الخمر ولم تكن حُرمت بعد) ورزقًا حسنًا . والنص يلمح إلى أن الرزق الحسن غير الخمر وأن الخمر ليست رزقًا حسنًا . وفي هذا توطئة لما جاء بعد من تحريمها ، وإنما كان يصف الواقع في ذلك الوقت من اتخاذهم الخمر من ثمرات النخيل والأعناب ، وليس فيه نص بحلها ، بل فيه توطئة لتحريمها « إن في ذلك لآية لقوم يعقلون » .. فيدركون أن من يصنع هذا الرزق هو الذي يستحق العبودية له وهو الله ..

« وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتًا . ومن الشجر وما يعرشون ، ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللاً . يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس . إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون » ..

والنحل تعمل بإلهام من الفطرة التي أودعها إياها الخالق ، فهولون من الوحي تعمل بمقتضاه . وهي تعمل بدقة عجيبة يعجز عن مثلها العقل المفكر سواء في بناء خلاياها ، أو في تقسيم العمل بينها ، أو في طريقة إفرازها للعسل المصنوع .

وهي تتخذ بيوتها - حسب فطرتها - في الجبال والشجر وما يعرشون أي ما يرفعون من الكروم وغيرها - وقد ذلل الله لها سبل الحياة بما أودع في فطرتها وفي طبيعة الكون حولها من توافق . والنص على أن العسل فيه شفاء للناس قد شرحه بعض المختصين في الطب . شرحاً فنياً^١ . وهو ثابت بمجرد نص القرآن عليه . وهكذا يجب أن يعتقد المسلم استناداً إلى الحق الكلي الثابت في كتاب الله ؛ كما أثر عن رسول الله .

روى البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري أن رجلاً جاء إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : إن أخي استطلق بطنه ، فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « اسقه عسلاً » فسقاه عسلاً . ثم جاء فقال : يا رسول الله سقيته عسلاً فما زاده إلا استطلاقاً . قال : « اذهب فاسقه عسلاً » فذهب فسقاه عسلاً ثم جاء فقال : يا رسول الله ما زاده ذلك إلا استطلاقاً . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « صدق الله وكذب بطن أخيك اذهب فاسقه عسلاً » فذهب فسقاه عسلاً فبرئ .

ويرونا في هذا الأثرين الرسول - صلى الله عليه وسلم - أمام ما بدا واقعاً عملياً من استطلاق بطن الرجل كلما سقاه أخوه . وقد انتهى هذا اليقين بتصديق الواقع له في النهاية . وهكذا يجب أن يكون يقين المسلم بكل قضية وبكل حقيقة وردت في كتاب الله . مهما بدا في ظاهر الأمر أن ما يسمى الواقع يخالفها . فهي أصدق من ذلك الواقع الظاهري ، الذي ينتهي في النهاية ليصدقها ..

(١) الدكتور عبد العزيز اسماعيل في كتابه : « الإسلام والطب الحديث » ..

ونقف هنا أمام ظاهرة التناسق في عرض هذه النعم : إنزال الماء من السماء . وإخراج اللبن من بين فرث ودم . واستخراج السكر والرزق الحسن من ثمرات النخيل والأعناب . والعسل من بطون النحل .. إنها كلها أشربة تخرج من أجسام مخالفة لها في شكلها . ولما كان الجو جو أشربة فقد عرض من الأنعام لبنا وحده في هذا المجال تنسيقاً لمفردات المشهد كله . وسنرى في الدرس التالي أنه عرض من الأنعام جلودها وأصوافها وأوبارها لأن الجو هناك كان جو أكنان وبيوت وسراويل فناسب أن يعرض من الأنعام جانبها الذي يتناسق مع مفردات المشهد .. وذلك أفق من آفاق التناسق الفني في القرآن^١ .

* * *

ومن الأنعام والأشجار والثمار والنحل والعسل إلى لمسة أقرب إلى أعماق النفس البشرية ، لأنها في صميم ذواتهم : في أعمارهم وأرزاقهم وأزواجهم وبنينهم وأحفادهم . فهم أشد حساسية بها ، وأعمق تأثراً واستجابة لها :

« والله خلقكم ثم يتوفاكم ، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكي لا يعلم بعد علم شيئاً ، إن الله عليم قدير .

« والله فضل بعضكم على بعض في الرزق ، فما الذين فضلوا برادي رزقهم على ما ملكت أيماهم فهم فيه سواء . أفبنعمة الله يبحدون ؟

« والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ، وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ، ورزقكم من الطيبات أفالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون ؟ ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقاً من السماوات والأرض شيئاً ولا يستطيعون ؟ » ..

واللمسة الأولى في الحياة والوفاة ، وهي متصلة بكل فرد وبكل نفس ، والحياة حبيبة ، والتفكير في أمرها قد يرد القلب الصلد إلى شيء من اللين ، وإلى شيء من الحساسية بيد الله ونعمته وقدرته . والخوف عليها قد يستجيش وجدان التقوى والحذر والالتجاء إلى واهب الحياة . وصورة الشيخوخة حين يرد الإنسان إلى أرذل العمر ، فينسى ما كان قد تعلم ، ويرتد إلى مثل الطفولة من العجز والنسيان والسذاجة . هذه الصورة قد ترد النفس إلى شيء من التأمل في أطوار الحياة ، وقد تغض من كبرياء المرء واعتزازه بقوته وعلمه ومقدرته . ويجيء التعقيب : « إن الله عليم قدير » ليرد النفس إلى هذه الحقيقة الكبيرة . أن العلم الشامل الأزلي الدائم لله ، وأن القدرة الكاملة التي لا تتأثر بالزمن هي قدرة الله . وأن علم الإنسان إلى حين ، وقدرته إلى أجل ، وهما بعد جزئيان ناقصان محدودان .

واللمسة الثانية في الرزق . والتفاوت فيه ملحوظ . والنص يرد هذا التفاوت إلى تفضيل الله لبعضهم على بعض في الرزق . ولهذا التفضيل في الرزق أسبابه الخاضعة لسنة الله . فليس شيء من ذلك جزافاً ولا عبثاً . وقد يكون الإنسان مفكراً عالماً عاقلاً ، ولكن موهبته في الحصول على الرزق وتنميته محدودة ، لأن له مواهب في ميادين أخرى . وقد يبدو غيباً جاهلاً ساذجاً ، ولكن له موهبة في الحصول على المال وتنميته .

(١) التناسق الفني في كتاب : التصوير الفني . «دار الشروق» .

والناس مواهب وطاقات . فيحسب من لا يدقق أن لا علاقة للرزق بالمقدرة ، وإنما هي مقدرة خاصة في جانب من جوانب الحياة . وقد تكون بسطة الرزق ابتلاء من الله ، كما يكون التضييق فيه لحكمة يريد بها ويحققها بالابتلاء .. وعلى أية حال فإن التفاوت في الرزق ظاهرة ملحوظة تابعة لاختلاف في المواهب - وذلك حين تمتنع الأسباب المصطنعة الظالمة التي توجد في المجتمعات المختلة - والنص يشير إلى هذه الظاهرة التي كانت واقعة في المجتمع العربي ، ويستخدمها في تصحيح بعض أوهام الجاهلية الوثنية التي يزاولونها ، والتي سبقت الإشارة إليها . ذلك حين كانوا يعزلون جزءاً من رزق الله الذي أعطاهم ويجعلونه لآلهم المدعاة . فهو يقول عنهم هنا : إنهم لا يردون جزءاً من أموالهم على ما ملكت أيماهم من الرقيق . (وكان هذا أمراً واقعاً قبل الإسلام) ليصبحوا سواء في الرزق . فما بلهم يردون جزءاً من مال الله الذي رزقهم إياه على آلتهم المدعاة ؟ « أفبنعمة الله يجحدون ؟ » فيجازون النعمة بالشرك ، بدل الشكر للمنع المتفضل الوهاب ؟ .

واللمسة الثالثة في الأنفس والأزواج والأبناء والأحفاد وتبدأ بتقرير الصلة الحية بين الجنسين : « جعل لكم من أنفسكم أزواجاً » فهن من أنفسكم ، شطرنكم ، لا جنس أحط يتوارى من يبشر به ويحزن ! « وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة » والإنسان الفاني يحس الامتداد في الأبناء والحفدة ، ولمس هذا الجانب في النفس يثير أشد الحساسية .. ويضم إلى هبة الأبناء والأحفاد هبة الطيبات من الرزق للمشاكل بين الرزقين ليعقب عليها بسؤال استنكاري : « أقبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون ؟ » فيشركون به ويخالفون عن أمره . وهذه النعم كلها من عطائه . وهي آيات على ألوهيته وهي واقعة في حياتهم ، تلابسهم في كل آن .. أقبالباطل يؤمنون ؟ وما عدا الله باطل ، وهذه الآلهة المدعاة ، والأوهام المدعاة كلها باطل لا وجود له ، ولا حق فيه . وبنعمة الله هم يكفرون ، وهي حق يلمسونه ويحسونه ويتمتعون به ثم يجحدونه . « ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقاً من السموات والأرض شيئاً ولا يستطيعون » ..

وإنه لعجيب أن تنحرف الفطرة إلى هذا الحد ، فيتجه الناس بالعبادة إلى ما لا يملك لهم رزقاً وما هو بقادر في يوم من الأيام ، ولا في حال من الأحوال . ويدعون الله الخالق الرازق ، وآلاؤه بين أيديهم لا يملكون إنكارها ، ثم يجعلون لله الأشباه والأمثال !
« فلا تضربوا لله الأمثال . إن الله يعلم وأتم لا تعلمون » ..
إنه ليس لله مثال ، حتى تضربوا له الأمثال .

ثم يضرب لهم مثلين للسيد المالك الرازق وللمملوك العاجز الذي لا يملك ولا يكسب . لتقريب الحقيقة الكبرى التي غفلوا عنها . حقيقة أن ليس لله مثال ، وما يجوز أن يسوا في العبادة بين الله وأحد من خلقه وكلهم لهم عبيد :

« ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ، ومن رزقناه منا رزقاً حسناً فهو ينفق منه سراً وجهراً . هل يستون ؟ الحمد لله . بل أكثرهم لا يعلمون .

« وضرب الله مثلاً رجلين : أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير . هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم ؟ »

والمثل الأول مأخوذ من واقعهم ، فقد كان لهم عبيد مملوكون ، لا يملكون شيئاً ولا يقدر على شيء . وهم لا يسوون بين العبد المملوك العاجز والسيد المالك المتصرف . فكيف يسوون بين سيد العباد ومالكهم وبين أحد أو شيء مما خلق . وكل مخلوقاته له عبيد ؟

والمثل الثاني يصور الرجل الأبكم الضعيف البليد الذي لا يدري شيئاً ولا يعود بخير . والرجل القوي المتكلم الأمر بالعدل ، العامل المستقيم على طريق الخير .. ولا يسوي عاقل بين هذا وذاك . فكيف تمكن التسوية بين ضم أو حجر ، وبين الله سبحانه وهو القادر العليم الأمر بالمعروف ، الهادي إلى الصراط المستقيم ؟
وهذين المثلين يختم الشوط الذي بدأ بأمر الله للناس ألا يتخذوا إلهين اثنين ، وختم بالتعجب من أمر قوم يتخذون إلهين اثنين !

وَاللَّهُ غِيبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾
وَاللَّهُ أَنْحَرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَسْكُرُونَ
أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٨﴾
وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِئْتًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُم سُرَابِيلَ تَفِيكُم بِأَسْكَرٍ كَذَلِكَ يَتِمُّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾

فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يَنْكُرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾
وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفِّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُم لَكَذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَالْقَوَا إِلَى اللَّهِ يُومِدُ السَّلْمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾

وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾

الجزء الرابع عشر

يستمر السياق في هذا الدرس في استعراض دلائل الألوهية الواحدة التي يتكئ عليها في هذه السورة : عظمة الخلق ، وفيض النعمة وإحاطة العلم . غير أنه يركز في هذا الشوط على قضية البعث . والساعة أحد أسرار الغيب الذي يختص الله بعلمه فلا يطلع عليه أحداً .

وموضوعات هذا الدرس تشمل ألواناً من أسرار غيب الله في السماوات والأرض ، وفي الأنفس والآفاق . غيب الساعة . التي لا يعلمها إلا الله وهو عليها قادر وهي عليه هينة : « وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب » .. وغيب الأرحام والله وحده هو الذي يخرج الأجنة من هذا الغيب . لا تعلم شيئاً ، ثم ينعم على الناس بالسمع والأبصار والأفئدة لعلهم يشكرون نعمته .. وغيب أسرار الخلق يعرض منها تسخير الطير في جوار السماء ما يمكنه إلا الله .

يلي هذا في الدرس استعراض لبعض نعم الله المادية على الناس وهي بجانب تلك الأسرار وفي جوها ، نعم السكن والهدوء والاستغلال . في البيوت المبنية والبيوت المتخذة من جلود الأنعام للظن والإقامة ، والأثاث والمتاع من الأصواف والأوبار والأشعار . وهي كذلك الظلال والأركان والسرابيل تقي الحروق تقي البأس في الحرب : « كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون » .

ثم تفصيل لأمر البعث في مشاهد يعرض فيها المشركين وشركاءهم ، والرسول شهداء عليهم . والرسول - صلى الله عليه وسلم - شهيداً على قومه . وبذلك تم هذه الجولة في جوار البعث والقيامة .

* * *

« والله غيب السماوات والأرض . وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب . إن الله على كل شيء قدير » .. وقضية البعث إحدى قضايا العقيدة التي لقيت جدلاً شديداً في كل عصر ، ومع كل رسول . وهي غيب من غيب الله الذي يختص بعلمه . « والله غيب السماوات والأرض » وإن البشر ليقفون أمام أستار الغيب عاجزين قاصرين ، مهما يبلغ علمهم الأرضي ، ومهما تتفتح لهم كنوز الأرض وقواها المذخورة . وإن أعلم العلماء من بني البشر ليقف مكانه لا يدري ماذا سيكون اللحظة التالية في ذات نفسه . أيرتد نفسه الذي خرج أم يذهب فلا يعود ! وتذهب الآمال بالإنسان كل مذهب ، وقدره كامن خلف ستار الغيب لا يدري متى يفجؤه ، وقد يفجؤه اللحظة . وإنه لمن رحمة الله بالناس أن يجهلوا ما وراء اللحظة الحاضرة ليؤمنوا ويعملوا وينتجوا وينشئوا ، ويخلفوا وراءهم ما بدؤوه يتمه الخلف حتى يأتيهم ما خبي لهم خلف الستار الرهيب .

والساعة من هذا الغيب المستور . ولوعلم الناس موعدها لتوقفت عجلة الحياة ، أو اختلت ، ولما سارت الحياة وفق الخط الذي رسمته لها القدرة ، والناس يعدون السنين والأيام والشهور والساعات واللحظات لليوم الموعود ! « وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب » .. فهي قريب . ولكن في حساب غير حساب البشر المعلوم . وتدير أمرها لا يحتاج إلى وقت . طرفة عين . فإذا هي حاضرة مهياً بكل أسبابها « إن الله على كل شيء قدير » وبعث هذه الحشود التي يحطتها الحصر والعد من الخلق ، وانتفاضها ، وجمعها ، وحسابها ، وجزاؤها .. كله هين على تلك القدرة التي تقول للشيء : كن . فيكون . إنما يستهول الأمر ويستصعبه من يحسبون بحساب البشر . وينظرون بعين البشر ، ويقيسون بمقاييس البشر .. ومن هنا يخطئون التصور والتقدير !

ويقرب القرآن الأمر بعرض مثل صغير من حياة البشر ، تعجز عنه قواهم ويعجز عنه تصورهم ، وهو يقع في كل لحظة من ليل أو نهار :

« والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون » ..

وهو غيب قريب ، ولكنه موغل بعيد . وأطوار الجنين قد يراها الناس ، ولكنهم لا يعلمون كيف تم ، لأن سرها هوسر الحياة المكنون . والعلم الذي يدعيه الإنسان ويتطاول به ويريد أن يتخبر به أمر الساعة وأمر الغيب ، علم حادث مكسوب : « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً » ومولد كل عالم وكل باحث ، ومخرجه من بطن أمه لا يعلم شيئاً قريب قريب ! وما كسبه بعد ذلك من علم هبة من الله بالقدر الذي أراده للبشر ، وجعل فيه كفاية حياتهم على هذا الكوكب ، في المحيط المكشوف لهم من هذا الوجود : « وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة » والقرآن يعبر بالقلب ويعبر بالفؤاد عن مجموع مدارك الإنسان الواعية ؛ وهي تشمل ما اصططح على أنه العقل ، وتشمل كذلك قوى الإلهام الكامنة المجهولة الكنه والعمل . جعل لكم السمع والأبصار والأفئدة « لعلكم تشكرون » حين تدركون قيمة النعمة في هذه وفي سواها من آلاء الله عليكم . وأول الشكر : الإيمان بالله الواحد المعبود .

وعجبية أخرى من آثار القدرة الإلهية يرونها فلا يتدبرونها وهي مشهد عجيب معروض للعيون :

« ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء . ما يمسكهن إلا الله . إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون » . .

ومشهد الطير مسخرات في جو السماء مشهد مكرر ، قد ذهب الألفة بما فيه من عجب ، وما يتلفت القلب البشري عليه إلا حين يستيقظ ، ويلحظ الكون بعين الشاعر الموهوب . وإن تحليقة طائر في جو السماء لتستجيش الحس الشاعر إلى القصيدة حين تلمسه . فينتفض للمشهد القديم الجديد .. « ما يمسكهن إلا الله » بنواميسه التي أودعها فطرة الطير وفطرة الكون من حولها ، وجعل الطير قادرة على الطيران ، وجعل الجو من حولها مناسباً لهذا الطيران ؛ وأمسك بها الطير لا تسقط وهي في جو السماء : « إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون » . فالقلب المؤمن هو القلب الشاعر ببدايع الخلق والتكوين ، المدرك لما فيها من روعة باهرة تزه المشاعر وتستجيش الضمائر . وهو يعبر عن إحساسه بروعة الخلق ، بالإيمان والعبادة والتسبيح ؛ والموهوبون من المؤمنين هبة التعبير ، قادرون على إبداع ألوان من رائع القول في بدائع الخلق والتكوين ، لا يبلغ إليها شاعر لم تمس قلبه شرارة الإيمان المشرق الوضيء .

* * *

ويخطو السياق خطوة أخرى في أسرار الخلق وآثار القدرة ومظاهر النعمة ، يدخل بها إلى بيوت القوم وما يسر لهم فيها وحولها من سكن ومتاع وأكنا وظلال !

« والله جعل لكم من بيوتكم سكناً ، وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين . والله جعل لكم مما خلق ظلالاً ؛ وجعل لكم من الجبال أكناناً وجعل لكم سراويل تقيكم الحر وسراويل تقيكم بأسكم . كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون » ..

والسكن والطمانية في البيوت نعمة لا يقدرها حق قدرها إلا المشردون الذين لا بيوت لهم ولا سكن ولا طمانية . وذكرها في السياق يجيء بعد الحديث عن الغيب ، وظل السكن ليس غريباً عن ظل الغيب ، فكلاهما فيه خفاء وستر . وأتدكير بالسكن يمس المشاعر الغافلة عن قيمة هذه النعمة .

ونستطرد هنا إلى شيء عن نظرة الإسلام إلى البيت ، بمناسبة هذا التعبير الموحى : « والله جعل لكم من بيوتكم سكناً » .. فهكذا يريد الإسلام البيت مكاناً للسكنية النفسية والاطمئنان الشعوري . هكذا يريد مريحاً تظمن إليه النفس وتسكن وتأمين سواء بكفايته المادية للسكنى والراحة ، أو باطمئنان من فيه بعضهم

لبعض ، وبسكن من فيه كل إلى الآخر . فليس البيت مكاناً للنزاع والشقاق والخصام ، إنما هو مبيت وسكن وأمن واطمئنان وسلام .

ومن ثم يضمن الإسلام للبيت حرمة ، ليضمن له أمنه وسلامه واطمئنانه . فلا يدخله داخل إلا بعد الاستئذان ، ولا يقتحمه أحد - بغير حق - باسم السلطان ، ولا يتطلع أحد على من فيه لسبب من الأسباب ، ولا يتجسس أحد على أهله في غفلة منهم أو غيبة ، فيروع أمنهم ، ويخل بالسكن الذي يريده الإسلام للبيوت ، ويعبر عنه ذلك التعبير الجميل العميق !

ولأن المشهد مشهد بيوت وأكنان وسرايل ، فإن السياق يعرض من الأنعام جانبها الذي يتناسق مع مفردات المشهد : « وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ، ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين » . وهو هنا كذلك يستعرض من نعمة الأنعام ما يلي الضرورات وما يلي الأشواق ، فيذكر المتاع ، إلى جانب الأثاث . والمتاع ولو أنه يطلق على ما في الأرحال من فرش وأغطية وأدوات ، إلا أنه يشي بالتمتع والارتياح .

ويرق التعبير في جو السكن والطمأنينة ، وهو يشير إلى الظلال والأكنان في الجبال ، وإلى السرايل تقي في الحرو تقي في الحرب : « والله جعل لكم مما خلق ظلالاً ، وجعل لكم من الجبال أكناناً ، وجعل لكم سرايل تقيكم الحر ، وسرايل تقيكم بأسكم » وللنفس في الظلال استرواح وسكن ، ولها في الأكنان طمأنينة ووسن ، ولها في السرايل التي تقي الحر من الأردية والأغطية راحة وفي السرايل التي تقي البأس من الدروع وغيرها وقاية .. وكلها بسبيل من طمأنينة البيوت وأمنها وراحتها وظلها .. ومن ثم يجيء التعقيب : « كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون » والإسلام استسلام وسكن وركون .. وهكذا تتناسق ظلال المشهد كله على طريقة القرآن في التصوير .

فإن أسلموا فيها . وإن تولوا وشردوا فما على الرسول إلا البلاغ . وليكونن إذا جاحدين منكرين ، بعد ما عرفوا نعمة الله التي لا تقبل النكران !

« فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين . يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها ، وأكثرهم الكافرون » ..

* * *

ثم يعرض ما ينتظر الكافرين عندما تأتي الساعة التي ذكرت في مطلع الحديث :

« ويوم نبعث من كل أمة شهيداً ، ثم لا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون . وإذا رأى الذين ظلموا العذاب فلا يخفف عنهم ولا هم ينظرون . وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم قالوا : ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعومونك . فألحقوا إليهم القول : إنكم لكاذبون . وألقوا إلى الله يومئذ السلم ، وضل عنهم ما كانوا يفترون . الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون » ..

والمشهد يبدأ بموقف الشهداء من الأنبياء يدلون بما يعلمون مما وقع لهم في الدنيا مع أقوامهم من تبليغ وتكذيب والذين كفروا واقفون لا يؤذن لهم في حجة ولا استشفاع ولا يطلب منهم أن يسترضوا ربهم بعمل أو قول ، فقد فات أوان العتاب والاسترضاء ، وجاء وقت الحساب والعقاب . « وإذا رأى الذين ظلموا العذاب فلا يخفف عنهم ولا هم ينظرون » .. ثم يقطع هذا الصمت رؤية الذين أشركوا لشركائهم في ساحة الحشر ممن كانوا يزعمون أنهم شركاء لله ، وأنهم آلهة يعبدونهم مع الله أو من دون الله . فإذا هم يثيرون إليهم ويقولون ! « ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعومونك » فالיום يقرون : « ربنا » واليوم لا يقولون عن هؤلاء إنهم

شركاء لله . إنما يقولون : « هؤلاء شركاؤنا » .. ويفزع الشركاء ويرتجفون من هذا الاتهام الثقيل ، فإذا هم يجهون عبادهم بالكذب في تقرير وتوكيد : « فآلقوا إليهم القول إنكم لكاذبون » ويتجهون إلى الله مستسلمين خاضعين « وآلقوا إلى الله يومئذ السلم » .. وإذا المشركون لا يجدون من مقترياتهم شيئاً يعتمدون عليه في موقفهم العصيب : « وضل عنهم ما كانوا يفترون » .. وينتهي الموقف بتقرير مضاعفة العذاب للذين كفروا وحملوا غيرهم على الكفر وصدوهم عن سبيل الله : « الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون » فالكفر فساد ، والتكفير فساد ، وقد ارتكبوا جريمة كفرهم ، وجريمة صد غيرهم عن الهدى ، فضوعف لهم العذاب جزاء وفاقاً .

ذلك شأن عام مع جميع الأقوام . ثم يخصص السياق موقفاً خاصاً للرسول - صلى الله عليه وسلم - مع قومه :

« ويوم نبعث في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم . وجئنا بك شهيداً على هؤلاء ، ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء . وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين » ..

وفي ظل المشهد المعروض للمشركين ، والموقف العصيب الذي يكذب الشركاء فيه شركاءهم ، ويستسلمون لله متبرئين من دعوى عبادهم الضالين ، يبرز السياق شأن الرسول مع مشركي قريش يوم يبعث من كل أمة شهيد . فتجيء هذه اللمسة في وقتها وقوتها : « وجئنا بك شهيداً على هؤلاء » .. ثم يذكر أن في الكتاب الذي نزل على الرسول « تبياناً لكل شيء » فلا حجة بعده لمحتج ، ولا عنذر معه لمعتذر . « وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين » .. فن شاء الهدى والرحمة فليسلم قبل أن يأتي اليوم المرهوب ، فلا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون ..

وهكذا تجيء مشاهد القيامة في القرآن لأداء غرض في السياق ، تتناسق مع جوه وتؤديه .

* إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٠١﴾ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَعْمَلُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزَاهُمْ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَخَذُونَ آيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ ۗ وَلِيُبَيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ۗ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٤﴾

وَلَا تَتَّخِذُوا آيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوْءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ ۗ لَكُمُ الْعَذَابُ

وَلَا تَسْتُرُوا عَهْدَ اللَّهِ عَمَّا قَلِيلًا ۖ إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لِّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمَلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾

فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطٰنِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطٰنٌ عَلَى الَّذِينَ ءٰمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطٰنُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ ۖ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَلْنَا ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۖ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنزِلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ ۖ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءٰمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾

وَلَقَدْ نَعَلُمْ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمٌ ۖ وَهٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِءَايَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكٰذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِءَايَاتِ اللَّهِ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾

مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمٰنِهِ ۖ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمٰنِ وَلٰكِن مِّنْ شَرَحٍ بِالْكَفْرِ صَدْرًا ۖ فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحْبَبُوا الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمِعَتْهُمُ ۖ وَأَبْصَرْتَهُمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَاجِرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جٰهَدُوا وَصَبَرُوا ۖ إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ * يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ مُّجَدِّلٌ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾

ختم الدرس الماضي بقوله تعالى : « ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء ، وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين » . وفي هذا الدرس بيان لبعض ما في الكتاب من التبيان والهدى والرحمة والبشرى . فيه الأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى ، والنهي عن الفحشاء والمنكر والبغى ، وفيه الأمر بالوفاء بالعهد والنهي عن نقض الأيمان بعد توكيدها .. وكلها من مبادئ السلوك الأساسية التي جاء بها هذا الكتاب .

وفيه بيان الجزاء المقرر لنقض العهد واتخاذ الأيمان للخداع والتضليل ، وهو العذاب العظيم . والبشرى للذين صبروا وتوفيتهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون .

ثم يذكر بعض آداب قراءة هذا الكتاب . وهو الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم ، لطرده شبحه من مجلس القرآن الكريم . كما يذكر بعض تقولات المشركين عن هذا الكتاب . ففهم من يرمي الرسول - صلى الله عليه وسلم - باقرائه على الله . ومنهم من يقول : إن غلاماً أعجمياً هو الذي يعلمه هذا القرآن !
وفي نهاية الدرس يبين جزاء من يكفر بعد إيمانه ، ومن يكره على الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان ، ومن فتنوا عن دينهم ثم هاجروا وجاهدوا وصبروا .. وكل أولئك تبيان ، وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين .

* * *

« إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى . يعظكم لعلكم تذكرون . وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً ، إن الله يعلم ما تفعلون . ولا تكونوا كالتى نقضت غزها من بعد قوة أنكاثاً ، تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة ، إنما ييلوكم الله به ، وليبين لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون . ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ، ولكن يضل من يشاء ، ويهدي من يشاء ، ولتسألن عما كنتم تعملون » ..

لقد جاء هذا الكتاب لينشئ أمة وينظم مجتمعاً ، ثم لينشئ عالماً وقيم نظاماً . جاء دعوة عالمية إنسانية لا تعصب فيها لقبيلة أو أمة أو جنس ؛ إنما العقيدة وحدها هي الأصرة والرابطة والقومية والعصبية .
ومن ثم جاء بالمبادئ التي تكفل تماسك الجماعة والجماعات ، واطمئنان الأفراد والأمم والشعوب ، والثقة بالمعاملات والوعود والعهود :

جاء « بالعدل » الذي يكفل لكل فرد ولكل جماعة ولكل قوم قاعدة ثابتة للتعامل ، لا تميل مع الهوى ، ولا تتأثر بالود والبغض ، ولا تتبدل مجارة للصر والنسب ، والغنى والفقر ، والقوة والضعف . إنما تمضي في طريقها تكيلاً بمكيال واحد للجميع ، وتزن بميزان واحد للجميع .

وإلى جوار العدل .. « الإحسان » .. يلطف من حدة العدل الصارم الجازم ، ويدع الباب مفتوحاً لمن يريد أن يتسامح في بعض حقه إيثراً لود القلوب ، وشفاء لغل الصدور . لمن يريد أن ينهض بما فوق العدل الواجب عليه ليدأوي جرحاً أو يكسب فضلاً .

والإحسان أوسع مدلولاً ، فكل عمل طيب إحسان ، والأمر بالإحسان يشمل كل عمل وكل تعامل ، فيشمل محيط الحياة كلها في علاقات العبد بربه ، وعلاقاته بأسرته ، وعلاقاته بالجماعة ، وعلاقاته بالبشرية جميعاً^١ .
ومن الإحسان « إيتاء ذي القربى » إنما يبرز الأمر به تعظيماً لشأنه ، وتوكيداً عليه . وما بيني هذا على عصبية الأسرة ، إنما بينه على مبدأ التكافل الذي يتدرج به الإسلام من المحيط المحلي إلى المحيط العام . وفق نظريته التنظيمية لهذا التكافل^٢ .

(١) بعض التفسيرات تقول : إن العدل هو الواجب والإحسان هو الندب في العبادات خاصة . استناداً إلى أن هذه الآية مكية . ولم يكن التشريع قد نزل بعد . ولكن عمرم اللفظ يطلق مفهوم العدل ومفهوم الإحسان . فضلاً على أن العدل والإحسان مبدآن عامان من الناحية الأخلاقية البحتة ، وليس مجرد تشريع قانوني .

(٢) فصل التكافل الاجتماعي في كتاب « دراسات إسلامية » . « دار الشروق » .

« وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى » .. والفحشاء كل أمر يفحش أي يتجاوز الحد . ومنه ما خصص به غالباً وهو فاحشة الاعتداء على العرض ، لأنه فعل فاحش فيه اعتداء وفيه تجاوز للحد حتى ليدل على الفحشاء ويختص بها . والمنكر كل فعل تنكره الفطرة ومن ثم تنكره الشريعة فهي شريعة الفطرة . وقد تنحرف الفطرة أحياناً فتبقى الشريعة ثابتة تشير إلى أصل الفطرة قبل انحرافها . والبغى الظلم وتجاوز الحق والعدل . وما من مجتمع يمكن أن يقوم على الفحشاء والمنكر والبغى . ما من مجتمع تشيع فيه الفاحشة بكل مدلولاتها ، والمنكر بكل مغرراته ، والبغى بكل معقاته ، ثم يقوم ..

والفطرة البشرية تنتفض بعد فترة معينة ضد هذه العوامل الهدامة ، مهما تبلغ قوتها ، ومهما يستخدم الطغاة من الوسائل لحمايتها . وتاريخ البشرية كله انتفاضات وانتفاضات ضد الفحشاء والمنكر والبغى . فلا يهم أن تقوم عهود وأن تقوم دول عليها حيناً من الدهر ، فالانتفاض عليها دليل على أنها عناصر غريبة على جسم الحياة ، فهي تنتفض لطردها ، كما ينتفض الحي ضد أي جسم غريب يدخل إليه . وأمر الله بالعدل والإحسان ونهيه عن الفحشاء والمنكر والبغى يوافق الفطرة السليمة الصحيحة ، ويقويها ويدفعها للمقاومة باسم الله . لذلك يجيء التعقيب : « يعظكم لعلكم تذكرون » فهي عظة للتذكير وتذكروحي الفطرة الأصيل التويم . « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ما تفعلون » ..

والوفاء بعهد الله يشمل بيعة المسلمين للرسول - صلى الله عليه وسلم - ويشمل كل عهد على معروف يأمر به الله . والوفاء بالعهد هو الضمان لبقاء عنصر الثقة في التعامل بين الناس ، وبدون هذه الثقة لا يقوم مجتمع ، ولا تقوم إنسانية . والنص يخجل المتعاهدين أن ينقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلوا الله كفيلاً عليهم ، وأشهدوه عهدهم ، وجعلوه كافلاً للوفاء بها . ثم يهددهم تهديداً خفياً « إن الله يعلم ما تفعلون » . وقد تشدد الإسلام في مسألة الوفاء بالعهد فلم يتسامح فيها أبداً ، لأنها قاعدة الثقة التي يفرط بدونها عقد الجماعة ويتهدم ، والنصوص القرآنية هنا لا تقف عند حد الأمر بالوفاء والنهي عن النقض إنما تستطرد لضرب الأمثال ، وتبحيح نكث العهد ، ونفي الأسباب التي قد يتخذها بعضهم مبررات :

« ولا تكونوا كالتى نقضت غزها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم ، أن تكون أمة هي أربى من أمة . إنما يبلوكم الله به . وليبين لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون » .

فمثل من ينقض العهد مثل امرأة حمقاء ملتائة ضعيفة العزم والرأي ، تقتل غزها ثم تنقضه وتركه مرة أخرى قطعاً منكوثة ومحلولة ! وكل جزئية من جزئيات التشبيه تشي بالتحقير والترذيل والتعجيب . وتشوه الأمر في النفوس وتقبحه في القلوب . وهو المقصود . وما يرضى إنسان كريم لنفسه أن يكون مثله كمثل هذه المرأة الضعيفة الإرادة الملتائة العقل ، التي تقضي حياتها فيما لا غناء فيه !

وكان بعضهم يبرر لنفسه نقض عهده مع الرسول - صلى الله عليه وسلم - بأن محمداً ومن معه قلة ضعيفة ، بينما قريش كثيرة قوية . فنبههم إلى أن هذا ليس مبرراً لأن يتخذوا أقسامهم غشاً وخديعة فيتخلوا عنها : « تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة » أي بسبب كون أمة أكثر عدداً وقوة من أمة . وطلباً للمصلحة مع الأمة الأربى .

ويدخل في مدلول النص أن يكون نقض العهد تحقيقاً لما يسمى الآن « مصلحة الدولة » فتعقد دولة معاهدة مع دولة أو مجموعة دول ، ثم تنقضها بسبب أن هناك دولة أربى أو مجموعة دول أربى في الصف الآخر ، تحقيقاً

« لمصلحة الدولة » ! فالإسلام لا يقر مثل هذا المبرر، وييجزم بالوفاء بالعهد، وعدم اتخاذ الأيمان ذريعة للغش والدخل. ذلك في مقابل أنه لا يقر تعاهداً ولا تعاوناً على غير البر والتقوى. ولا يسمح بقيام تعاهد أو تعاون على الإثم والفسوق والعصيان، وأكل حقوق الناس، واستغلال الدول والشعوب.. وعلى هذا الأساس قام بناء الجماعة الإسلامية وبناء الدولة الإسلامية فنعم العالم بالطمأنينة والثقة والنظافة في المعاملات الفردية والدولية يوم كانت قيادة البشرية إلى الإسلام.

والنص هنا يحذر من مثل ذلك المبرر، وينبه إلى أن قيام مثل هذه الحالة: « أن تكون أمة هي أربى من أمة » هو ابتلاء من الله لهم ليمتحن إرادتهم ووفاءهم وكرامتهم على أنفسهم وتخرجهم من نقض العهد الذي أشهدوا الله عليه: « إنما يلوكم الله به .. »

ثم يكمل أمر الخلافات التي تنشأ بين الجماعات والأقوام إلى الله في يوم القيامة للفصل فيه: « وليبين لكم يوم القيامة ما كنتم تختلفون » يمهّد بهذا لترضية النفوس بالوفاء بالعهد حتى لمخالفهم في الرأي والعقيدة: « ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة، ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء ولتسألن عما كنتم تعملون ».. ولو شاء الله لخلق الناس باستعداد واحد، ولكنه خلقهم باستعدادات متفاوتة، نسخاً غير مكررة ولا معادة، وجعل نواميس للهدى والضلال، تمضي بها مشيئته في الناس. وكل مسؤول عما يعمل. فلا يكون الاختلاف في العقيدة سبباً في نقض العهود. فالاختلاف له أسبابه المتعلقة بمشيئة الله. والعهد مكفول مهما اختلفت المعتقدات. وهذه قمة في نظافة التعامل، والساحة الدينية، لم يحققها في واقع الحياة إلا الإسلام في ظل هذا القرآن.

* * *

ويعضي السياق في توكيده للوفاء بالعهود، ونبيه عن اتخاذ الأيمان للغش والخديعة، وبث الطمأنينة الكاذبة للحصول على منافع قريبة من منافع هذه الدنيا الفانية. ويحذر عاقبة ذلك في زعزعة قوائم الحياة النفسية والاجتماعية، وزلزلة العقائد والارتباطات والمعاملات. وينذر بالعذاب العظيم في الآخرة، ويلوح بما عند الله من عوض عما يفوتهم بالوفاء من منافع هزيلة، وينوه ببناء ما بأيديهم وبقاء ما عند الله الذي لا تنفذ خزائنه، ولا ينقطع رزقه:

« ولا تتخذوا أيمانكم دخلاً بينكم، فتزل قدم بعد ثبوتها، وتدقوا السوء بما صدقتم عن سبيل الله، ولكم عذاب عظيم. ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً. إن ما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون. ما عندكم ينفد وما عند الله باق. ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ».

واتخاذ الأيمان غشاً وخداعاً يزعزع العقيدة في الضمير، ويشوه صورتها في ضمائر الآخرين. فالذي يقسم وهو يعلم أنه خادع في قسمه، لا يمكن أن تثبت له عقيدة، ولا أن تثبت له قدم على صراطها. وهو في الوقت ذاته يشوه صورة العقيدة عند من يقسم لهم ثم ينكث، ويعلمون أن أقسامه كانت للغش والدخل؛ ومن ثم يصددهم عن سبيل الله بهذا المثل السيئ الذي يضربه للمؤمنين بالله.

ولقد دخلت في الإسلام جماعات وشعوب بسبب ما رأوا من وفاء المسلمين بعهدهم، ومن صدقهم وعدهم، ومن إخلاصهم في أيمانهم، ومن نظافتهم في معاملاتهم. فكان الكسب أضخم بكثير من الخسارة الوقتية الظاهرية التي نشأت عن تمسكهم بعهودهم.

ولقد ترك القرآن وسنة الرسول - صلى الله عليه وسلم - في نفوس المسلمين أثراً قوياً وطابعاً عاماً في هذه الناحية ظل هو طابع التعامل الإسلامي الفردي والدولي المتميز.. روي أنه كان بين معاوية بن أبي سفيان وملك

الروم أمد ، فسار إليهم في آخر الأجل . (حتى إذا انقضى وهو قريب من بلادهم أغار عليهم وهم غارون لا يشعرون) فقال له عمر بن عتبة : الله أكبر يا معاوية . وفاء لا غدر . سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « من كان بينه وبين قوم أجل فلا يحلن عقده حتى ينقضي أمدها » فرجع معاوية بالجيش . والروايات عن حفظ اليهود - مهما تكن المصلحة القريبة في نقضها - متواترة مشهورة .

وقد ترك هذا القرآن في النفوس ذلك الطابع الإسلامي البارز . وهو يرغب ويرهب ، وينذر ويحذر ويجعل العهد عهد الله ، ويصور النفع الذي يجره نقضه ضيلاً هزيباً ، وما عند الله على الوفاء عظيماً جزيلاً : « ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً . إن ما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون » .. ويذكر بأن ما عند البشر ولو ملكه فرد فإنه زائل ، وما عند الله باق دائم : « ما عندكم ينفد وما عند الله باق » ، ويقوي العزائم على الوفاء ، والصبر لتكاليف الوفاء ، ويعد الصابرين أجراً حسناً « ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » والتجاوز عما وقع منهم من عمل سيئ ، ليكون الجزاء على أحسن العمل دون سواه .

* * *

وبمناسبة العمل والجزاء ، يعقب بالقاعدة العامة فيهما :

« من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ، فلنجزيه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » .. فيقرر بذلك القواعد التالية :

أن الجنسين : الذكر والأنثى . متساويان في قاعدة العمل والجزاء ، وفي صلتها بالله ، وفي جزائهما عند الله . ومع أن لفظ « من » حين يطلق يشمل الذكر والأنثى إلا أن النص يفصل : « من ذكر أو أنثى » لزيادة تقرير هذه الحقيقة . وذلك في السورة التي عرض فيها سوء رأي الجاهلية في الأنثى ، وضيق المجتمع بها ، واستياء من يبشر بمولدها ، وتواريه من القوم حزناً وغماً وخجلاً وعاراً !

وأن العمل الصالح لا بد له من القاعدة الأصلية يركز عليها . قاعدة الإيمان بالله « وهو مؤمن » فبغير هذه القاعدة لا يقوم بناء ، وبغير هذه الرابطة لا يتجمع شتاته ، إنما هو بهاء كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف . والعقيدة هي المحور الذي تشد إليه الخيوط جميعاً ، وإلا فهي أنكاث . فالعقيدة هي التي تجعل للعمل الصالح باعاً و غاية . فتجعل الخير أصيلاً ثابتاً يستند إلى أصل كبير . لا عارضاً مزعزاعاً يميل مع الشهوات والأهواء حيث تميل .

وأن العمل الصالح مع الإيمان جزاؤه حياة طيبة في هذه الأرض . لا يهتم أن تكون ناعمة رغبة ثرية بالمال . فقد تكون به ، وقد لا يكون معها . وفي الحياة أشياء كثيرة غير المال الكثير تطيب بها الحياة في حدود الكفاية : فيها الاتصال بالله والثقة به والاطمئنان إلى رعايته وستره ورضاه . وفيها الصحة والهدوء والرضى والبركة ، وسكن البيوت ومودات القلوب . وفيها الفرح بالعمل الصالح وآثاره في الضمير وآثاره في الحياة .. وليس المال إلا عنصراً واحداً يكفي منه القليل ، حين يتصل القلب بما هو أعظم وأزكى وأبقى عند الله .

وأن الحياة الطيبة في الدنيا لا تنقص من الأجر الحسن في الآخرة .

وأن هذا الأجر يكون على أحسن ما عمل المؤمنون العاملون في الدنيا ، ويتضمن هذا تجاوز الله لهم عن السيئات . فما أكرمه من جزاء ! .

* * *

ثم يأخذ السياق في شيء عن خاصة الكتاب . عن آداب قراءته . وعن تقولات المشركين عليه :
« فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم . إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون .
إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون » .

والاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم تمهيد للجوالذي يتلى فيه كتاب الله ، وتطهير له من الوسوسة واتجاه بالمشاعر
إلى الله خالصة لا يشغلها شاغل من عالم الرجس والشر الذي يمثله الشيطان .

فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم .. « إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون » فالذين يتوجهون
إلى الله وحده ، ويخلصون قلوبهم لله ، لا يملك الشيطان أن يسيطر عليهم ، مهما وسوس لهم فإن صلتهم بالله
تعصمهم أن ينساقوا معه ، وينقاد إليه . وقد يخطفون ، لكنهم لا يستسلمون ، فيطردون الشيطان عنهم
ويثوبون إلى ربهم من قريب .. « إنما سلطانه على الذين يتولونه » أولئك الذين يجعلونه وليهم ويستسلمون له
بشهواتهم ونزواتهم ، ومنهم من يشرك به . فقد عرفت عبادة الشيطان وعبادة إله الشرع عند بعض الأقسام . على
أن اتباعهم للشيطان نوع من الشرك بالولاء والاتباع .

وعند ذكر المشركين يذكر تقولاتهم عن القرآن الكريم :

« وإذا بدلنا آية مكان آية ، والله أعلم بما ينزل قالوا : إنما أنت مفتر . بل أكثرهم لا يعلمون . قل : نزله
روح القدس من ربك بالحق ، ليثبت الذين آمنوا ، وهدى وبشرى للمسلمين . ولقد نعلم أنهم يقولون : إنما
يعلمه بشر . لسان الذي يلحدون إليه أعجمي ، وهذا لسان عربي مبين . إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا
يهدىهم الله ولهم عذاب أليم . إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله ، وأولئك هم الكاذبون » ..

إن المشركين لا يدركون وظيفة هذا الكتاب . لا يدركون أنه جاء لإنشاء مجتمع عالمي إنساني ، وبناء أمة
تقود هذا المجتمع العالمي . وأنه الرسالة الأخيرة التي ليست بعدها من السماء رسالة ؛ وأن الله الذي خلق البشر
عليم بما يصلح لهم من المبادئ والشرائع . فإذا بدل آية انتهى أجلها واستنفدت أغراضها ، ليأتي بآية أخرى
أصلح للحالة الجديدة التي صارت إليها الأمة ، وأصلح للبقاء بعد ذلك الدهر الطويل الذي لا يعلمه إلا هو ،
فالشأن له ، ومثل آيات هذا الكتاب كمثال الدواء تعطى للمريض منه جرعات حتى يشفى ، ثم ينصح بأطعمة
أخرى تصلح للبنية العادية في الظروف العادية .

إن المشركين لا يدركون شيئاً من هذا كله ، ومن ثم لم يدركوا حكمة تبديل آية مكان آية في حياة الرسول
- صلى الله عليه وسلم - فحسبوا افتراء منه وهو الصادق الأمين الذي لم يعهدوا عليه كذباً قط . « بل أكثرهم لا
يعلمون » ..

« قل : نزله روح القدس من ربك بالحق » .. فما يمكن أن يكون افتراء . وقد نزله « روح القدس » -
جبريل عليه السلام - « من ربك » لا من عندك « بالحق » لا يتلبس به الباطل « ليثبت الذين آمنوا » الموصولة
قلوبهم بالله ، فهي تدرك أنه من عند الله ، فثبت على الحق وتطمئن إلى الصدق « وهدى وبشرى للمسلمين »
بما يهديهم إلى الطريق المستقيم ، وبما يبرهم بالنصر والتمكين .

« ولقد نعلم أنهم يقولون : إنما يعلمه بشر . لسان الذي يلحدون إليه أعجمي . وهذا لسان عربي مبين » ..

والقرية الأخرى بزعمهم أن الذي يعلم الرسول - صلى الله عليه وسلم - هذا القرآن إنما هو بشر . سموه
باسمه ، واختلفت الروايات في تعيينه .. قيل : كانوا يشيرون إلى رجل أعجمي كان بين أظهرهم غلام لبعض

بطون قريش ، وكان يباعا يبيع عند الصفا ، وربما كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يجلس إليه ويكلمه بعض الشيء ، وذلك كان أعجمي اللسان لا يعرف العربية ، أو أنه كان يعرف الشيء اليسير بقدر ما يرد جواب الخطاب فيما لا بد منه .

وقال محمد بن اسحاق في السيرة : كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيما بلغني كثيرا ما يجلس عند المروة إلى سبيعة . غلام نصراني يقال له : جبر . عبد لبعض بني الحضرمي ، فأنزل الله : « ولقد نعلم أنهم يقولون : إنما يعلمه بشر . لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين » .
وقال عبد الله بن كثير وعن عكرمة وقتادة كان اسمه « يعيش » .

وروى ابن جرير - بإسناده - عن ابن عباس قال : كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يعلم قنا بمكة وكان اسمه بلعام . وكان أعجمي اللسان ، وكان المشركون يرون رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يدخل عليه ويخرج من عنده فقالوا : إنما يعلمه بلعام . فأنزل الله هذه الآية ...

وأما ما كان فقد رد عليهم الرد البسيط الواضح الذي لا يحتاج إلى جدل : « لسان الذي يلحدون إليه أعجمي . وهذا لسان عربي مبين » فكيف يمكن لمن لسانه أعجمي أن يعلم محمدا هذا الكتاب العربي المبين ؟ وهذه المقالة منهم يصعب حملها على الجدل ، وأغلب الظن أنها كيد من كيدهم الذي كانوا يدبرونه وهم يعلمون كذبه واقتراه . وإلا فكيف يقولون - وهم أخبر بقيمة هذا الكتاب وإعجازه - إن أعجميا يملك أن يعلم محمدا هذا الكتاب . ولئن كان قادرا على مثله ليظهرن به لنفسه !

واليوم ، بعد ما تقدمت البشرية كثيرا ، وتفتقت مواهب البشر عن كتب ومؤلفات ، وعن نظم وتشريعات ؛ يملك كل من يتذوق القول ، وكل من يفقه أصول النظم الاجتماعية ، والتشريعات القانونية أن يدرك أن مثل هذا الكتاب لا يمكن أن يكون من عمل البشر .

وحتى الماديون الملحدون في روسيا الشيوعية ، عندما أرادوا أن يطعنوا في هذا الدين في مؤتمر المستشرقين عام ١٩٥٤ كانت دعواهم أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون من عمل فرد واحد - هو محمد - بل من عمل جماعة كبيرة . وأنه لا يمكن أن يكون قد كتب في الجزيرة العربية بل إن بعض أجزاءه كتب خارجها !!! دعاهم إلى هذا استكثار هذا الكتاب على موهبة رجل واحد . وعلى علم أمة واحدة .

ولم يقولوا ما يوحى به المنطق الطبيعي المستقيم : إنه من وحي رب العالمين . لأنهم ينكرون أن يكون لهذا الوجود إله ، وأن يكون هناك وحي ورسول ونبوات !

فكيف كان يمكن - وهذا رأي جماعة من العلماء في القرن العشرين - أن يعلمه بشر لسانه أعجمي عبد لبني فلان في الجزيرة العربية ؟ !

ويعلل القرآن هذه المقولة الضالة فيقول :

« إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله وهم عذاب أليم » ..

فهؤلاء الذين لم يؤمنوا بآيات الله لم يهديهم الله إلى الحقيقة في أمر هذا الكتاب ، ولا يهديهم إلى الحقيقة في شيء ما . بكفرهم وإعراضهم عن الآيات المؤدية إلى الهدى « وهم عذاب أليم » بعد ذلك الضلال المقم . ثم يثني بأن الاقتراء على الله لا يصدر إلا من مثل هؤلاء الذين لا يؤمنون . ولا يمكن أن يصدر من الرسول الأمين :

« إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله . وأولئك هم الكاذبون » ..
فالكذب جريمة فاحشة لا يقدم عليها مؤمن . وقد نفى الرسول - صلى الله عليه وسلم - في حديث له
صدورها عن المسلم ، وإن كان يصدر عنه غيرها من الذنوب .

* * *

ثم ينتقل السياق إلى بيان أحكام من يكفر بعد الإيمان :

« من كفر بالله من بعد إيمانه - إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان - ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم
غضب من الله ، ولهم عذاب عظيم . ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ، وأن الله لا يهدي القوم
الكافرين . أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم ، وأولئك هم الغافلون . لا جرم أنهم
في الآخرة هم الخاسرون » ..

ولقد لقي المسلمون الأوائل في مكة من الأذى ما لا يطيقه إلا من نوى الشهادة ، وآثر الحياة الأخرى ،
ورضي بعذاب الدنيا عن العودة إلى ملة الكفر والضلال .

والنص هنا يغلظ جريمة من كفر بالله من بعد إيمانه . لأنه عرف الإيمان وذاقه ، ثم ارتد عنه إثارةً للحياة
الدنيا على الآخرة . فرماهم بغضب من الله ، وبالعذاب العظيم ، والحرمان من الهداية ؛ ووصمهم بالغفلة
وانظماس القلوب والسمع والأبصار ؛ وحكم عليهم بأنهم في الآخرة هم الخاسرون .. ذلك أن العقيدة
لا يجوز أن تكون موضع مساومة ، وحساب للربح والخسارة . ومتى آمن القلب بالله فلا يجوز أن يدخل عليه
مؤثر من مؤثرات هذه الأرض ؛ فللأرض حساب ، وللعقيدة حساب ولا يتداخلان . وليست العقيدة هزلاً ،
وليست صفقة قابلة للأخذ والرد فهي أعلى من هذا وأعز . ومن ثم كل هذا التعليل في العقوبة ، والتفطيع
للجريمة .

واستثنى من ذلك الحكم الدماغ من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان . أي من أظهر الكفر بلسانه نجا لروحه
من الهلاك ، وقلبه ثابت على الإيمان مرتكن إليه مطمئن به . وقد روي أن هذه الآية نزلت في عمار بن ياسر .
روى ابن جرير - بإسناده - عن أبي عبيدة محمد بن عمار بن ياسر قال : أخذ المشركون عمار بن ياسر
فعدبوه حتى قاربهم في بعض ما أراؤا . فشكا ذلك إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال النبي - صلى الله
عليه وسلم - « كيف تجد قلبك ؟ » قال : مطمئناً بالإيمان . قال النبي - صلى الله عليه وسلم - : « إن عادوا
فعد » .. فكانت رخصة في مثل هذه الحال .

وقد أبى بعض المسلمين أن يظهر الكفر بلسانهم مؤثرين الموت على لفظه باللسان . كذلك صنعت سمية
أم ياسر ، وهي تطعن بالحربة في موضع العفة حتى تموت وكذلك صنع أبوه ياسر .

وقد كان بلال - رضوان الله عليه - يفعل المشركون به الأفاعيل حتى ليضعون الصخرة العظيمة على صدره
في شدة الحر ، ويأمرونه بالشرك بالله ، فيأبى عليهم وهو يقول : أحد . أحد . ويقول : والله لو أعلم
كلمة هي أعيظ لكم منها لقلتها .

وكذلك حبيب بن زيد الأنصاري لما قال له مسيلمة الكذاب : أتشهد أن محمداً رسول الله . فيقول :
نعم . فيقول : أتشهد أني رسول الله ؟ فيقول : لا أسمع ! فلم يزل يقطعه إرباً إرباً ، وهوثابت على ذلك .
وذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبد الله بن حذيفة السهمي - أحد الصحابة رضوان الله عليهم - أنه

أسرته الروم ، فجاءوا به إلى ملكهم ، فقال له : تَنَصَّرَ وأنا أشرك في ملكي وأزوجك ابنتي . فقال له : لو أعطيتني جميع ما تملك وجميع ما تملكه العرب أن أرجع عن دين محمد - صلى الله عليه وسلم - طرفة عين ما فعلت . فقال : إذن أقتلك ، فقال : أنت وذاك . قال : فأمر به فصلب ، وأمر الرماة فرموه قريبا من يديه ورجليه وهو يعرض عليه دين النصرانية فأبى . ثم أمر به فأنزل . ثم أمر بقدر . وفي رواية : بقرة من نحاس فأحميت ، وجاء بأسير من المسلمين فألقاه وهو ينظر فإذا هو عظام تلوح . وعرض عليه فأبى ، فأمر به أن يلقي فيها . فرفع في البكرة ليلقي فيها فبكى . فطمع فيه ودعاه . فقال : إني إنما بكيت لأن نفسي إنما هي نفس واحدة تلتقي في هذه القدر الساعة في الله ، فأحبيت أن يكون لي بعدد كل شعرة في جسدي نفس تعذب هذا العذاب في الله .

وفي رواية أنه سجنه ، ومنع عنه الطعام والشراب أياما ، ثم أرسل إليه بخمر ولحم خنزير ، فلم يقربه ، ثم استدعاه فقال : ما منعك أن تأكل ؟ فقال : أما إنه قد حل لي ، ولكن لم أكن لأشمتك في . فقال له الملك : فقبل رأسي وأنا أطلقك . فقال : تطلق معي جميع أسارى المسلمين . فقال : نعم . فقبل رأسه ، فأطلق معه جميع أسارى المسلمين عنده . فلما رجع قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : حق على كل مسلم أن يقبل رأس عبد الله بن حذافة ، وأنا أبدا . فقام فقبل رأسه رضي الله عنهما .

ذلك أن العقيدة أمر عظيم ، لا هواده فيها ولا ترخص ، وثمن الاحتفاظ بها فادح ، ولكنها ترجحه في نفس المؤمن ، وعند الله . وهي أمانة لا يؤتمن عليها إلا من يفديها بحياته وهانت الحياة وهان كل ما فيها من نعيم .

« ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ، ثم جاهدوا وصابروا ، إن ربك من بعدها لغفور رحيم . يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها . وتوفى كل نفس ما عملت ، وهم لا يظلمون » .

وقد كانوا من ضعاف العرب ، الذين فتنهم المشركون الطغاة عن دينهم بالعذاب وغيره . ولكنهم هاجروا بعد ذلك عندما أمكنتهم الفرصة ، وحسن إسلامهم ، وجاهدوا في سبيل الله ، صابرين على تكاليف الدعوة . فإله يبشرهم بأنه سيغفر لهم ويرحمهم « إن ربك من بعدها لغفور رحيم » .

ذلك يوم تشغل كل نفس بأمرها ، لا تتلفت إلى سواها ؛ « يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها » وهو تعبير يلقي ظل الهول الذي يشغل كل امرئ بنفسه . يجادل عنها لعلها تنجو من العذاب . ولا غناء في انشغال ولا جدال . إنما هو الجزاء . كل نفس وما كسبت . « وهم لا يظلمون » ..

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾

فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ
الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَحَلْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أَهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ۗ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا
تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ السُّنُكُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لَتَفْتُرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ
الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَّعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾

وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ ۗ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ
إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٩﴾
إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَا يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى
صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَعَآدَيْنَهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ
اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ
لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾

أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ
ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ۗ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عَاقَبْتُمْ بِهِ ۗ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ
لِلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۗ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ
الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾

سبق أن ضرب الله في هذه السورة مثلين لتقريب حقيقة من حقائق العقيدة . وهو يضرب هنا مثلاً لتصوير
حال مكة ، وقومها المشركين ، الذين جحدوا نعمة الله عليهم . لينظروا المصير الذي يهددهم من خلال المثل
الذي يضربه لهم .

ومن ذكر النعمة في المثل ، وهي نعمة الرزق الرغد مع الأمن والطمأنينة ينتقل السياق بهم إلى الطيبات التي
يحرمونها عليهم اتباعاً لأوهام الوثنية ، وقد أحلها الله لهم ، وحدد المحرمات وبينها وليست هذه منها . وذلك
لون من الكفر بنعمة الله ، وعدم القيام بشكرها . يهددهم بالعذاب الأليم من أجله ، وهو افتراء على الله لم
ينزل به شريعة .

وبمناسبة ما حرم على المسلمين من الخبائث ، يشير إلى ما حرم على اليهود من الطيبات . بسبب ظلمهم . جعل هذا التحريم عقوبة لهم على عصيانهم ولم يكن محرماً على آبائهم في عهد إبراهيم الذي كان أمة قانتا لله حنيفا ، ولم يك من المشركين شاكرًا لأنعمه اجتنابه وهداه إلى صراط مستقيم ، فكانت حلالا له الطيبات ولبنيه من بعده ، حتى حرم الله بعضها على اليهود في صورة عقوبة لهم خاصة . ومن تاب بعد جهالته فالله غفور رحيم .

ثم جاء دين محمد امتدادا واتباعا لدين إبراهيم ، فعادت الطيبات حلالا كلها . وكذلك السبت الذي منع فيه اليهود من الصيد . فإنما السبت على أهله الذين اختلفوا فيه ففريق كف عن الصيد وفريق نقض عهده فسخه الله وانتكس عن مستوى الإنسانية الكريم .

وتختتم السورة عند هذه المناسبة بالأمر إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة . وأن يجادلهم بالتي هي أحسن . وأن يلتزم قاعدة العدل في رد الاعتداء بمثله دون تجاوز . . . والصبر والرفق والخير . والعاقبة بعد ذلك للمتقين المحسنين لأن الله معهم ، ينصرهم ويرعاهم ويهديهم طريق الخير والفلاح .

* * *

« وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة ، يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله ، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون . ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه ، فأخذهم العذاب وهم ظالمون . . »

وهي حال أشبه شيء بحال مكة . جعل الله فيها البيت ، وجعلها بلدا حراما من دخله فهو آمن مطمئن ، لا تمتد إليه يد ولو كان قاتلا ، ولا يجروا أحد على إيذائه وهو في جوار بيت الله الكريم . وكان الناس يتخطفون من حول البيت وأهل مكة في حراسته وحمايته آمنون مطمئنون . كذلك كان رزقهم يأتيهم هينا هنيئا من كل مكان مع الحجيج ومع القوافل الآمنة ، مع أنهم في وادٍ قفر جرد غير ذي زرع ، فكانت تجبي إليهم ثمرات كل شيء فيندوقون طعم الأمن وطعم الرغد منذ دعوة إبراهيم الخليل .

ثم إذا رسول منهم ، يعرفونه صادقا آمينا ، ولا يعرفون عنه ما يشين ، يبعثه الله فيهم رحمة لهم وللعالمين ، دينه دين إبراهيم باني البيت الذي ينعمون في جواره بالأمن والطمأنينة والعيش الرغد ؛ فإذا هم يكذبونه ، ويفترون عليه الاقتراءات ، وينزلون به وبمن اتبعوه الأذى . وهم ظالمون .

والمثل الذي يضربه الله لهم منطبق على حالهم ، وعاقبة المثل أمامهم . مثل القرية التي كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله ، وكذبت رسوله « فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » وأخذ قومها العذاب وهم ظالمون .

ويجسم التعبير الجوع والخوف فيجعل له لباسا ؛ ويجعلهم يذوقون هذا اللباس ذوقا ، لأن الذوق أعمق أثرا في الحسن من مساس اللباس للجلد . وتتداخل في التعبير استجابات الحواس فتضعف مس الجوع والخوف لهم ولذعه وتأثيره وتغلغله في النفوس . لعلهم يشفقون من تلك العاقبة التي تنتظرهم لتأخذهم وهم ظالمون . وفي ظل هذا المثل الذي تخايل فيه النعمة والرزق ، كما يخايل فيه المنع والحرمان ، يأمرهم بالأكل مما أحل لهم من الطيبات وشكر الله على نعمته إن كانوا يريدون أن يستقيموا على الإيمان الحق بالله ، وأن يخلصوا له

سورة النحل

العبودية خالصة من الشرك ، الذي يوحي إليهم بتحريم بعض الطيبات على أنفسهم باسم الآلهة المدعاة :
« فكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً ، واشكروا نعمة الله إن كنتم إياه تعبدون » .

ويحدد لهم المحرمات على سبيل الحصر . وليس منها ما يحرمونه على أنفسهم من رزق الله من بحيرة أو سائبة أو وصيلة أو حام :

« إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير ، وما أهل لغير الله به » .. وهي محرمة إما لأن فيها أذى للجسم والحس كالميتة والدم ولحم الخنزير ، أو أذى للنفس والعقيدة كالذي توجه به ذابحه لغير الله . « فن اضطر غير باغ ولا عاد فإن الله غفور رحيم » فهذا الدين يسر لا عسر . ومن خاف على نفسه الموت أو المرض من الجوع والظمأ فلا عليه أن يتناول من هذه المحرمات قدر ما يدفع الضرر (على خلاف فقهي ذكرناه من قبل) غير باغ على مبدأ التحريم ولا متجاوز قدر الضرورة التي أباحت المحظور .

ذلك حد الحلال والحرام الذي شرعه الله في الأطعمة ، فلا تخالفوه اتباعاً لأوهام الوثنية ، ولا تكذبوا فتدعوا تحريم ما أحله الله . فالتحريم والتحليل لا يكونان إلا بأمر من الله . فهما تشريع . والتشريع لله وحده لا لأحد من البشر . وما يدعي أحد لنفسه حق التشريع بدون أمر من الله إلا مفتر ، والمفترون على الله لا يفلحون :
« ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب : هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب ، إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون . متاع قليل ولهم عذاب أليم » ..

لا تقولوا للكذب الذي تصفه ألسنتكم وتحكيه : هذا حلال وهذا حرام . فهذا حلال وهذا حرام حين تقولونها بلا نص هي الكذب عينه ، الذي تفترونه على الله . والذين يفترون على الله الكذب ليس لهم إلا المتاع القليل في الدنيا ومن ورائه العذاب الأليم ، والخيبة والخسران ..

ثم يجرؤ ناس بعد ذلك على التشريع بغير إذن من الله ، وبغير نص في شريعته يقوم عليه ما يشرعونه من القوانين ، وينتظرون أن يكون لهم فلاح في هذه الأرض أو عند الله !

* * *

فأما ما حرمه الله على اليهود في قوله من قبل في سورة الأنعام . « وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ، ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما ، أو الحوايا أو ما اختلطت بهنم » فقد كان عقوبة خاصة بهم لا تسري على المسلمين :

« وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل ، وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون . ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة ، ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا . إن ربك من بعدها لغفور رحيم » ..

ولقد استحق اليهود تحريم هذه الطيبات عليهم بسبب تجاوزهم الحد ومعصيتهم لله . فكانوا ظالمين لأنفسهم لم يظلمهم الله . فمن تاب ممن عمل السوء بجهالة ولم يصر على المعصية ، ولم يلج فيها حتى يوافيه الأجل ؛ ثم أتبع التوبة القلبية بالعمل الصالح فإن غفران الله يسعه ورحمته تشملهم . والنص عام يشمل التائبين العاملين من اليهود المذنبين وغيرهم إلى يوم الدين .

* * *

وبمناسبة ما حرم على اليهود خاصة ، ومناسبة ادعاء مشركي قريش أنهم على ملة إبراهيم فيما يحرمونه على أنفسهم ويجعلونه للآلهة ، يعرج السياق على إبراهيم - عليه السلام - يجلو حقيقة ديانته ، ويربط بينها وبين الدين

الذي جاء به محمد - صلى الله عليه وسلم - ويبين ما اختص به اليهود من المحظورات التي لم تكن على عهد إبراهيم .

« إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين ، شاكراً لأنعمه اجتنابه وهداه إلى صراط مستقيم ؛ وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين . ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين . إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه ، وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » .
والقرآن الكريم يرسم إبراهيم - عليه السلام - نموذجاً للهداية والطاعة والشكر والإجابة لله . ويقول عنه هنا : إنه كان أمة . واللفظ يحتمل أنه يعدل أمة كاملة بما فيها من خير وطاعة وبركة . ويحتمل أنه كان إماماً يقتدى به في الخير . وورد في التفسير المأثور هذا المعنى وذلك . وهما قريبان فالإمام الذي يهدي إلى الخير هو قائد أمة وله أجره وأجر من عمل بهدأته فكأنه أمة من الناس في خيره وثوابه لا فرد واحد . « قانتاً لله » طائعاً خاشعاً عابداً « حنيفاً » متجهاً إلى الحق مائلاً إليه « ولم يك من المشركين » فلا يتعلق به ولا يتمسح فيه المشركون ! « شاكراً لأنعمه » بالقول والعمل . لا كهؤلاء المشركين الذين يمجحون نعمة الله قولاً ، ويكفرونها عملاً ، ويشركون في رزقه لهم ما يدعون من الشركاء ، ويحرمون نعمة الله عليهم اتباعاً للأوهام والأهواء . « اجتنابه » اختاره « وهداه إلى صراط مستقيم » هو صراط التوحيد الخالص القويم .

ذلك شأن إبراهيم الذي يتعلق به اليهود ويتمسح به المشركون . « ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين » فكان ذلك وصل ما انقطع من عقيدة التوحيد ، ويؤكد لها النص من جديد على أن إبراهيم « ما كان من المشركين » فالصلة الحقيقية هي صلة الدين الجديد . فأما تحريم السبت فهو خاص باليهود الذين اختلفوا فيه ، وليس من ديانة إبراهيم ، وليس كذلك من دين محمد السائر على نهج إبراهيم : « إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه » وأمرهم موكل إلى الله « وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » .

* * *

ذلك بيان المشتبهات في العلاقة بين عقيدة التوحيد التي جاء بها إبراهيم من قبل ، وكملت في الدين الأخير ، والعقائد المنحرفة التي يتمسك بها المشركون واليهود . وهو بعض ما جاء هذا الكتاب لتبينه . فليأخذ الرسول - صلى الله عليه وسلم - في طريقه يدعو إلى سبيل ربه دعوة التوحيد بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويجادل المخالفين في العقيدة بالتي هي أحسن . فإذا اعتدوا عليه وعلى المسلمين عاقبهم بمثل ما اعتدوا . إلا أن يعفو ويصبر مع المقدرة على العقاب بالمثل ؛ مطمئناً إلى أن العاقبة للمتقين المحسنين . فلا يحزن على من لا يهتدون ، ولا يضيق صدره بمكرهم به وبالمؤمنين :

« ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتي هي أحسن ، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو أعلم بالمهتدين . وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين . واصبر وما صبرك إلا بالله . ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون . إن الله مع الذين اتقوا ، والذين هم محسنون » ..

على هذه الأسس يرسي القرآن الكريم قواعد الدعوة ومبادئها ، ويعين وسائلها وطرائقها ، ويرسم المنهج للرسول الكريم ، وللدعاة من بعده بدينه القويم فلننظر في دستور الدعوة الذي شرعه الله في هذا القرآن . إن الدعوة دعوة إلى سبيل الله . لا لشخص الداعي ولا لقومه . فليس للداعي من دعوته إلا أنه يؤدي واجبه

الله ، لا فضل له يتحدث به ، لا على الدعوة ولا على من يهدون به . وأجره بعد ذلك على الله .
والدعوة بالحكمة ، والنظر في أحوال المخاطبين وظروفهم . والقدر الذي يبينه لهم في كل مرة حتى لا يثقل
عليهم ولا يشق بالتكاليف قبل استعداد النفوس لها . والطريقة التي يخاطبهم بها . والتنوع في هذه الطريقة حسب
مقتضياتها . فلا تستبد به الحماسة والاندفاع والغيرة فيتجاوز الحكمة في هذا كله وفي سواه .

وبالموعظة الحسنة التي تدخل إلى القلوب برفق . وتعمق المشاعر بلطف . لا بالزجر والتأنيب في غير موجب ،
ولا بفضح الأخطاء التي قد تقع عن جهل أو حسن نية . فإن الرفق في الموعظة كثيراً ما يهدي القلوب الشاردة ،
ويؤلف القلوب النافرة . ويأتي بخير من الزجر والتأنيب والتوبيخ .

وبالجدل بالتي هي أحسن . بلا تحامل على المخالف ولا ترذيل له وتقييح . حتى يطمئن إلى الداعي ويشعر
أن ليس هدفه هو الغلبة في الجدل . ولكن الإقناع والوصول إلى الحق . فالنفس البشرية لها كبرياؤها وعنادها ،
وهي لا تنزل عن الرأي الذي تدافع عنه إلا بالرفق . حتى لا تشعر بالهزيمة . وسرعان ما تختلط على النفس قيمة
الرأي وقيمتها هي عند الناس ، فتعتبر التنازل عن الرأي تنازلاً عن هيبتها واحترامها وكيانها . والجدل بالحسنى
هو الذي يطمئن من هذه الكبرياء الحساسة . ويشعر المجادل أن ذاته مصونة . وقيمته كريمة . وأن الداعي لا
يقصد إلا كشف الحقيقة في ذاتها ، والاهتداء إليها . في سبيل الله . لا في سبيل ذاته ونصرة رأيه وهزيمة الرأي
الآخر !

ولكي يطمئن الداعية من حماسته واندفاعه يشير النص القرآني إلى أن الله هو الأعلم بمن ضل عن سبيله وهو
الأعلم بالمهتدين . فلا ضرورة للجاجة في الجدل إنما هو البيان والأمر بعد ذلك لله .

هذا هو منهج الدعوة ودستورها ما دام الأمر في دائرة الدعوة باللسان والجدل بالحجة . فأما إذا وقع الاعتداء
على أهل الدعوة فإن الموقف يتغير . فالاعتداء عمل مادي يدفع بمثله إعزازاً لكرامة الحق ، ودفعاً لغلبة الباطل ،
على ألا يتجاوز الرد على الاعتداء حدوده إلى التمثيل والتفطيع ، فالإسلام دين العدل والاعتدال ، ودين السلم
والمسالمة . إنما يدفع عن نفسه وأهله البغي ولا يبغى « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به » . وليس ذلك بعيداً
عن دستور الدعوة فهو جزء منه . فالدفع عن الدعوة في حدود القصد والعدل يحفظ لها كرامتها وعزتها ، فلا
تهون في نفوس الناس . والدعوة المهينة لا يعتنقها أحد . ولا يثق أنها دعوة الله . فالله لا يترك دعوته مهينة لا
تدفع عن نفسها ، والمؤمنون بالله لا يقبلون الضيم وهم دعاة الله والعزة لله جميعاً . ثم إنهم أمناء على إقامة الحق
في هذه الأرض وتحقيق العدل بين الناس : وقيادة البشرية إلى الطريق القويم . فكيف ينهضون بهذا كله وهم
يعاقبون فلا يعاقبون ، ويعتدى عليهم فلا يردون ؟ ! .

ومع تقرير قاعدة القصاص بالمثل ، فإن القرآن الكريم يدعو إلى العفو والصبر ، حين يكون المسلمون قادرين
على دفع الشر ووقف العدوان . في الحالات التي قد يكون العفو فيها والصبر أعمق أثراً . وأكثر فائدة للدعوة .
فأشخاصهم لا وزن لها إذا كانت مصلحة الدعوة تؤثر العفو والصبر . فأما إذا كان العفو والصبر يهينان دعوة الله
ويرخصانها ، فالقاعدة الأولى هي الأولى .

ولأن الصبر يحتاج إلى مقاومة للانفعال ، وضبط للعواطف ، وكبت للفطرة ، فإن القرآن يصله بالله ويزين
عقابه : « ولئن صبرتم لهو خير للصابرين . واصبر وما صبرك إلا بالله » .. فهو الذي يعين على الصبر وضبط
النفس ، والاتجاه إليه هو الذي يطمئن من الرغبة الفطرية في رد الاعتداء بمثله والقصاص له بقدره .

ويوصي القرآن الرسول - صلى الله عليه وسلم - وهي وصية لكل داعية من بعده ، ألا يأخذ الحزن إذا

الجزء الرابع عشر

رأى الناس لا يهتدون ، فإنما عليه واجبه يؤديه ، والهدى والضلال بيد الله ، وفق سنته في فطرة النفوس واستعداداتها واتجاهاتها ومجاهدتها للهدى أو للضلال . وألا يضيق صدره بمكرهم فإنما هو داعية لله ، فالله حافظه من المكر والكيد ، لا يدعه للماكرين الكائدين وهو مخلص في دعوته لا يبتغي من ورائها شيئاً لنفسه .. ولقد يقع به الأذى لامتحان صبره ، ويبطئ عليه النصر لابتلاء ثقته بربه ، ولكن العاقبة مظنونة ومعروفة « إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » ومن كان الله معه فلا عليه ممن يكيدون وممن يمكرون . هذا هو دستور الدعوة إلى الله كما رسمه الله . والنصر مرهون باتباعه كما وعد الله . ومن أصدق من الله ؟ .

* * *

انتهى الجزء الرابع عشر
ويليه الجزء الخامس عشر
مبدوءاً بسورة الإسراء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْإِسْرَاءِ
وَقِسْمٌ مِنْ
سُورَةِ الْكَهْفِ

الجزء الخامس عشر

(١٧) سُورَةُ الْاِنشَاءِ مَكِّيَّةٌ وَآيَاتُهَا اِحْدَى عَشْرَةَ وَمِائَةٌ

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

سُبْحٰنَ الَّذِیْ اَسْرٰی بَعْدَهُ لَیْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ اِلَى الْمَسْجِدِ الْاَقْصَا الَّذِیْ بَرَکًا حَوْلَهُ لِزَیْرِهِ وَمِنَ اٰیٰتِنَا
اِنَّهُ هُوَ السَّمِیْعُ الْبَصِیْرُ ﴿١﴾

وَءَاٰتِیْنَا مُوسٰی الْكِتٰبَ وَجَعَلْنٰهُ هُدًى لِّبَنِیْ اِسْرٰءِیْلَ اَلَّا یَتَّخِذُوْا مِنْ دُوْنِیْ وَكِیْلًا ﴿٢﴾ ذُرِّیَّةً مِّنْ حَمَلِنَا
مَعَ نُوْحٍ اِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُوْرًا ﴿٣﴾ وَقَضٰیْنَا اِلَیْ بَنِیْ اِسْرٰءِیْلَ فِی الْكِتٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِی الْاَرْضِ مَرَّتَیْنِ
وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِیْرًا ﴿٤﴾ فَاِذَا جَآءَ وَعْدُ اُولٰٓئِهٖمَا بَعَثْنَا عَلَیْكُمْ عِبَادًا لَّنَا اُوْلٰی بَاسٍ شَدِیْدٍ فَجَاسُوا خَلْلَ الدِّیَارِ
وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُوْلًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمْ الْكُرَّةَ عَلَیْهِمْ وَاَمَدَدْنٰكُمْ بِاَمْوَالٍ وَبَنِیْنَ وَجَعَلْنٰكُمْ اَكْثَرًا نَّفِیْرًا ﴿٦﴾ اِنْ
اَحْسَنْتُمْ اَحْسَنْتُمْ لِاَنْفُسِكُمْؕ وَاِنْ اَسَاۤءْتُمْ فَلَهَا ؕ فَاِذَا جَآءَ وَعْدُ الْاٰخِرَةِ لَیُسَّعُوْا وُجُوْهُكُمْ وَلِیَدْخُلُوْا الْمَسْجِدَ
كَمَا دَخَلُوْهُ اَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِیَتَّبِعُوْا مَا عَلُوْا تَتَّبِعُوْا ﴿٧﴾ عَسٰی رَبُّكُمْ اَنْ یَّرْحَمَكُمْؕ وَاِنْ عُدْتُمْ عَلٰنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ
لِلْكَافِرِیْنَ حَصِیْرًا ﴿٨﴾

اِنَّ هٰذَا الْقُرْءَانَ یَهْدِیْ لِلّٰتِیْ هِیَ اَقْوَمُ وَیُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِیْنَ الَّذِیْنَ یَعْمَلُوْنَ الصّٰلِحٰتِ اَنَّ لَهُمْ اَجْرًا كَبِیْرًا ﴿٩﴾ وَاَنَّ
الَّذِیْنَ لَا یُؤْمِنُوْنَ بِالْاٰخِرَةِ اَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا اَلِیْمًا ﴿١٠﴾

وِیَدْعُ الْاِنْسَانَ بِالشَّرِّ دُعَآءَهُ بِالنَّحْرِیْرِؕ وَكَانَ الْاِنْسَانُ مُجْمُوْلًا ﴿١١﴾

وَجَعَلْنَا الْاَیْلَ وَالنَّهَارَ اَبَتَیْنِؕ فَحَوْنًا ؕ اٰیةَ الْاَیْلِ وَجَعَلْنَا ؕ اٰیةَ النَّهَارِ مُصِرَّةً لِّتَبْتَغُوْا فَضْلًا مِّنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوْا

عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ ۗ وَكُلُّ شَيْءٍ فَصَلْنَاهُ تَفْصِيلاً ﴿١٦﴾ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَبْعَهُ فِي عَهْدِهِ ۗ وَنُخْرِجُهُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ﴿١٧﴾ أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٨﴾
 مِّنْ أُمَّتِي ۖ فَلِمَّا هَمَّ بِتَنبِيئِهِ لِنَفْسِهِ ۗ وَمَنْ ضَلَّ فِيمَا بَدَأْنَا مِنْ آيَاتِنَا لَا نَحْمِلُ الْوِزْرَ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا ۗ فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿٢٠﴾ وَكَرَّ أَهْلُكَا مِنْ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَانَ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٢١﴾
 مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ ۗ جَعَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَدْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿٢٢﴾
 وَمَن أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَّشْكُورًا ﴿٢٣﴾ كَلَّا لَمُدَّ هَهُؤُلَاءِ وَهَهُؤُلَاءِ مِن عَطَاءِ رَبِّكَ ۗ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٤﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَلْنَا بَعْضَهُم عَلَىٰ بَعْضٍ ۗ وَاللَّاحِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْصِيلاً ﴿٢٥﴾

هذه السورة - سورة الإسراء - مكية ، وهي تبدأ بتسبيح الله وتنتهي بحمده ؛ وتضم موضوعات شتى معظمها عن العقيدة ؛ وبعضها عن قواعد السلوك الفردي والجماعي وآدابه القائمة على العقيدة ؛ إلى شيء من القصص عن بني إسرائيل يتعلق بالمسجد الأقصى الذي كان إليه الإسراء . وطرف من قصة آدم وإبليس وتكريم الله للإنسان .

ولكن العنصر البارز في كيان السورة ومحور موضوعاتها الأصيل هو شخص الرسول - صلى الله عليه وسلم - وموقف القوم منه في مكة . وهو القرآن الذي جاء به ، وطبيعة هذا القرآن ، وما يهدي إليه ، واستقبال القوم له . واستطراد بهذه المناسبة إلى طبيعة الرسالة والرسول ، وإلى امتياز الرسالة المحمدية بطابع غير طابع الخوارق الحسية وما يتبعها من هلاك المكذبين بها . وإلى تقرير التبعية الفردية في الهدى والضلال الاعتقادي ، والتبعية الجماعية في السلوك العملي في محيط المجتمع .. كل ذلك بعد أن يعذر الله - سبحانه - إلى الناس ، فيرسل إليهم الرسل بالتبشير والتحذير والبيان والتفصيل « وكل شيء فصلناه تفصيلاً » .

ويتكرر في سياق السورة تنزيه الله وتسبيحه وحمده وشكر آلائه . ففي مطلعها : « سبحانه الذي أسرى بعبداه ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ... » وفي أمر بني إسرائيل بتوحيد الله يذكرهم بأنهم من ذرية المؤمنين مع نوح « إنه كان عبداً شكوراً » .. وعند ذكر دعاوى المشركين عن الآلهة يعقب بقوله : « سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً ، تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » .. وفي حكاية قول بعض أهل الكتاب حين يتلى عليهم القرآن : « ويقولون : سبحانه ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً » .. وتختتم السورة بالآية « وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ، ولم يكن له

شريك في الملك ، ولم يكن له ولي من الذل ، وكبره تكبيراً » .

في تلك الموضوعات المتنوعة حول ذلك المحور الواحد الذي بيننا ، يمضي سياق السورة في أشواط متتابعة . يبدأ الشوط الأول بالإشارة إلى الإسراء : « سبحانه الذي أسرى بعبد له ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله » مع الكشف عن حكمة الإسراء « لنريه من آياتنا » .. وبمناسبة المسجد الأقصى يذكر كتاب موسى وما قضى فيه لبني إسرائيل ، من نكبة وهلاك وتشريد مرتين ، بسبب طغيانهم وإفسادهم مع إنذارهم بثالثة ورابعة « وإن عدتم عدنا » .. ثم يقرر أن الكتاب الأخير - القرآن - يهدي للتي هي أقوم ، بينا الإنسان عمجول مندفع لا يملك زمام انفعالاته . ويقرر قاعدة التبعة الفردية في الهدى والضلال ، وقاعدة التبعة الجماعية في التصرفات والسلوك .

ويبدأ الشوط الثاني بقاعدة التوحيد ، ليقم عليها البناء الاجتماعي كله وآداب العمل والسلوك فيه ، ويشدها إلى هذا المحور الذي لا يقوم بناء الحياة إلا مستنداً إليه .

ويتحدث في الشوط الثالث عن أوامير الوثنية الجاهلية حول نسبة البنات والشركاء إلى الله ، وعن البعث واستبعادهم لوقوعه ، وعن استقبالهم للقرآن وتقولاتهم على الرسول - صلى الله عليه وسلم - ويأمر المؤمنين أن يقولوا قولاً آخر ، ويتكلموا بالتي هي أحسن .

وفي الشوط الرابع يبين لماذا لم يرسل الله محمداً - صلى الله عليه وسلم - بالخوارق فقد كذب بها الأولون ، فحق عليهم الهلاك اتباعاً لسنة الله ؛ كما يتناول موقف المشركين من إنذار الله لهم في رؤيا الرسول - صلى الله عليه وسلم - وتكذيبهم وطغيانهم . ويجيء في هذا السياق طرف من قصة إبليس ، وإعلانه أنه سيكون حرباً على ذرية آدم . يجيء هذا الطرف من القصة كأنه كشف لعوامل الضلال الذي يبدو من المشركين . ويعقب عليه بتخويف البشر من عذاب الله ، وتذكيرهم بنعمة الله عليهم في تكريم الإنسان ، وما ينتظر الطائعين والعصاة يوم ندعو كل أناس بإمامهم : « فن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرأون كتابهم ولا يظلمون قتيلاً . ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً » .

ويستعرض الشوط الأخير كيد المشركين للرسول - صلى الله عليه وسلم - ومحاولة فتنته عن بعض ما أنزل إليه ومحاولة إخراجهم من مكة . ولو أخرجوه قسراً - ولم يخرج هو مهاجراً بأمر الله - لحل بهم الهلاك الذي حل بالقرى من قبلهم حين أخرجت رسلها أو قتلهم . ويأمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يمضي في طريقه يقرأ قرآنه ويصلي صلاته ، ويدعو الله أن يحسن مدخله ومخرجه ويعلن محبة الحق وزهوق الباطل ، ويعقب بأن هذا القرآن الذي أرادوا فتنته عن بعضه فيه شفاء وهدى للمؤمنين ، بينا الإنسان قليل العلم « وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » .

ويستمر في الحديث عن القرآن وإعجازه . بينا هم يطلبون خوارق مادية ، ويطلبون نزول الملائكة ، ويقترحون أن يكون للرسول بيت من زخرف أو جنة من نخيل وعنب ، يفجر الأنهار خلالها تفسجيراً ! أو أن يفجر لهم من الأرض ينبوعاً . أو أن يرقى هو في السماء ثم يأتيهم بكتاب مادي معه يقرأونه ... إلى آخر هذه المقترحات التي يملئها العنت والمكابرة ، لا طلب الهدى والافتناع . ويرد على هذا كله بأنه خارج عن وظيفة الرسول وطبيعة الرسالة ، ويكل الأمر إلى الله . ويتهمهم على أولئك الذين يقترحون هذه الاقتراحات كلها بأنهم لو كانوا يملكون خزائن رحمة الله - على سعتها وعدم نفاذها - لأمسكوا خوفاً من الإنفاق ! وقد كان حسبهم أن يستشعروا أن الكون وما فيه يسبح لله ، وأن الآيات الخارقة قد جاء بها موسى من قبل فلم تؤد إلى

إيمان المعتنقين الذين استفزوه من الأرض ، فأخذهم الله بالعذاب والنكال .

وتنتهي السورة بالحديث عن القرآن والحق الأصيل فيه . القرآن الذي نزل مفزقاً ليقراه الرسول على القوم زمناً طويلاً بمناسبة ومقتضياته ، ولتأثروا به ويستجيبوا له استجابة حية واقعية عملية . والذي يتلقاه الذين أوتوا العلم من قبله بالخشوع والتأثر إلى حد البكاء والسجود . ويحتم السورة بحمد الله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الدل . كما بدأها بتسبيحه وتنزيهه .

* * *

وقصة الإسراء - ومعها قصة المعراج - إذ كانتا في ليلة واحدة - الإسراء من المسجد الحرام في مكة إلى المسجد الأقصى في بيت المقدس . والمعراج من بيت المقدس إلى السموات العلى وسدرة المنتهى ، وذلك العالم الغيبي المجهول لنا .. هذه القصة جاءت فيها روايات شتى ؛ وثار حولها جدل كثير . ولا يزال إلى اليوم يثور . وقد اختلف في المكان الذي أسري منه ، فقيل هو المسجد الحرام بعينه - وهو الظاهر - وروي عن النبي - صلى الله عليه وسلم - « بينا أنا في المسجد في الحجر عند البيت بين النائم واليقظان إذ أتاني جبريل عليه السلام بالبراق » . وقيل : أسري به من دار أم هانئ بنت أبي طالب . والمراد بالمسجد الحرام الحرم لإحاطته بالمسجد والتباسه به . وعن ابن عباس : الحرم كله مسجد .

وروي أنه كان نائماً في بيت أم هانئ بعد صلاة العشاء فأسري به ورجع من ليلته ، وقص القصة على أم هانئ وقال : « مثل لي النبيون فضليت بهم » ثم قام ليخرج إلى المسجد ، فتشبتت أم هانئ بثوبه ، فقال : « مالك ؟ » قالت : أخشى أن يكذبك قومك إن أخبرتهم . قال : « وإن كذبوني » . فخرج فجلس إليه أبو جهل ، فأخبره رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بحديث الإسراء . فقال أبو جهل : يا معشر بني كعب ابن لؤي هلم . فحدثهم ، فن بين مصفق وواضع يده على رأسه تعجباً وإنكاراً ؛ وارتد ناس ممن كان آمن به ؛ وسعى رجال إلى أبي بكر - رضي الله عنه - فقال : أوقال ذلك ؟ قالوا نعم . قال : فأنا أشهد لئن كان قال ذلك لقد صدق . قالوا : فتصدقه في أن يأتي في الشام في ليلة واحدة ثم يرجع إلى مكة قبل أن يصبح ؟ قال : نعم أنا أصدقه بأبعد من ذلك . أصدقه بخبر السماء ! فسمي الصديق . وكان منهم من سافر إلى بيت المقدس فطلبوا إليه وصف المسجد ، فجلى له ، فطفق ينظر إليه وينعته لهم ، فقالوا : أما النعت فقد أصاب . فقالوا : أخبرنا عن غيرنا . فأخبرهم بعدد جمالها وأحوالها ؛ وقال : تقدم يوم كذا مع طلوع الشمس يقدمها جمل أورك . فخرجوا يشتدون ذلك اليوم نحو الثنية - لمراقبة مقدم العير - فقال قائل منهم : هذه والله الشمس قد شرقت . فقال آخر : وهذه والله العير قد أقبلت يقدمها جمل أورك ، كما قال محمد .. ثم لم يؤمنوا ! .. وفي الليلة ذاتها كان العروج به إلى السماء من بيت المقدس .

واختلف في أن الإسراء كان في اليقظة أم في المنام . فعن عائشة - رضي الله عنها - أنها قالت : والله ما فقد جسد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولكن عرج بروحه . وعن الحسن كان في المنام رؤيا رآها . وفي أخبار أخرى أنه كان بروحه وجسمه ، وأن فراشه - عليه الصلاة والسلام - لم يبرد حتى عاد إليه .

والراجح من مجموع الروايات أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ترك فراشه في بيت أم هانئ إلى المسجد فلما كان في الحجر عند البيت بين النائم واليقظان أسري به وعرج . ثم عاد إلى فراشه قبل أن يبرد . على أننا لا نرى محلاً لذلك الجدل الطويل الذي ثار قديماً والذي يثور حديثاً حول طبيعة هذه الواقعة المؤكدة في حياة الرسول - صلى الله عليه وسلم - والمسافة بين الإسراء والمعراج بالروح أو بالجسم ، وبين أن تكون

رؤيا في المنام أو رؤية في اليقظة .. المسافة بين هذه الحالات كلها ليست بعيدة ؛ ولا تغير من طبيعة هذه الواقعة شيئاً وكونها كشفاً وتجلية للرسول - صلى الله عليه وسلم - عن أمكنة بعيدة وعوالم بعيدة في لحظة خاطفة قصيرة .. والذين يدركون شيئاً من طبيعة القدرة الإلهية ومن طبيعة النبوة لا يستغربون في الواقعة شيئاً . فأمام القدرة الإلهية تتساوى جميع الأعمال التي تبدو في نظر الإنسان وبالقياس إلى قدرته وإلى تصوره متفاوتة السهولة والصعوبة ، حسب ما اعتاده وما رآه . والمعتاد المرئي في عالم البشر ليس هو الحكم في تقدير الأمور بالقياس إلى قدرة الله . أما طبيعة النبوة فهي اتصال بالملأ الأعلى - على غير قياس أو عادة لبقية البشر - وهذه التجلية لمكان بعيد ، أو عالم بعيد ؛ والوصول إليه بوسيلة معلومة أو مجهولة ليست أغرب من الاتصال بالملأ الأعلى والتلقي عنه . وقد صدق أبو بكر - رضي الله عنه - وهو يرد المسألة المستغربة المستهولة عند القوم إلى بساطتها وطبيعتها فيقول : إني لأصدقه بأبعد من ذلك . أصدقه بخبر السماء !

ومما يلاحظ - بمناسبة هذه الواقعة وتبين صدقها للقوم بالدليل المادي الذي طلبوه يومئذ في قصة العير وصفها - أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - لم يسمع لتخوف أم هانئ - رضي الله عنها - من تكذيب القوم له بسبب غرابة الواقعة . فإن ثقة الرسول بالحق الذي جاء به ، والحق الذي وقع له ، جعلته يصارح القوم بما رأى كائناً ما كان رأيهم فيه . وقد ارتد بعضهم فعلاً ، واتخذها بعضهم مادة للسخرية والتشكيك . ولكن هذا كله لم يكن ليقعد الرسول - صلى الله عليه وسلم - عن الجهر بالحق الذي آمن به .. وفي هذا مثل لأصحاب الدعوة أن يجهروا بالحق لا يخشون وقوعه في نفوس الناس ، ولا يتملقون به القوم ، ولا يتحسسون مواضع الرضى والاستحسان ، إذا تعارضت مع كلمة الحق تقال .

كذلك يلاحظ أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - لم يتخذ من الواقعة معجزة لتصديق رسالته ، مع إلحاح القوم في طلب الخوارق - وقد قامت البينة عندهم على صدق الإسراء على الأقل - ذلك أن هذه الدعوة لا تعتمد على الخوارق ، إنما تعتمد على طبيعة الدعوة ومنهاجها المستمد من الفطرة القويمة ، المتفقة مع المدارك بعد تصحيحها وتقويمها . فلم يكن جهر الرسول - صلى الله عليه وسلم - بالواقعة ناشئاً عن اعتماده عليها في شيء من رسالته . إنما كان جهراً بالحقيقة المستيقنة له لمجرد أنها حقيقة :

والآن نأخذ في الدرس الأول على وجه التفصيل :

* * *

« سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله ، لئله من آياتنا إنه هو السميع البصير » ..

تبدأ السورة بتسبيح الله ، أليق حركة نفسية تتسق مع جو الإسراء اللطيف ، وأليق صلة بين العبد والرب في ذلك الأفق الوضيء .

وتذكر صفة العبودية : « أسرى بعبده » لتقريرها وتوكيدها في مقام الإسراء والعروج إلى الدرجات التي لم يبلغها بشر ؛ وذلك كي لا تنسى هذه الصفة ، ولا يلتبس مقام العبودية ، بمقام الألوهية ، كما التبس في العقائد المسيحية بعد عيسى عليه السلام ، بسبب ما لابس مولده ووفاته ، وبسبب الآيات التي أعطيت له ، فاتخذها بعضهم سبباً للخلط بين مقام العبودية ومقام الألوهية .. وبذلك تبقى للعقيدة الإسلامية بساطتها ونصاعتها وتزيتها للذات الإلهية عن كل شبهة من شرك أو مشابهة ، من قريب أو من بعيد .

والإسراء من السرى : السير ليلاً . فكلمة « أسرى » تحمل معها زمانها . ولا تحتاج إلى ذكر . ولكن

السياق ينص على الليل « سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً » للتظليل والتصوير - على طريقة القرآن الكريم - فيلقي ظل الليل الساكن ، ويخيم جوه الساجي على النفس ، وهي تتملى حركة الإسراء اللطيفة وتتابعها .
والرحلة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى رحلة مختارة من اللطيف الخبير ، تربط بين عقائد التوحيد الكبرى من لدن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، إلى محمد خاتم النبيين - صلى الله عليه وسلم - وتربط بين الأماكن المقدسة لديانات التوحيد جميعاً . وكأنما أريد بهذه الرحلة العجيبة إعلان وراثته الرسول الأخير لمقدسات الرسل قبله ، واشتال رسالته على هذه المقدسات ، وارتباط رسالته بها جميعاً . فهي رحلة ترمز إلى أبعد من حدود الزمان والمكان ؛ وتشمل آماداً وآفاقاً أوسع من الزمان والمكان ؛ وتتضمن معاني أكبر من المعاني القريبة التي تتكشف عنها للنظرة الأولى .

ووصف المسجد الأقصى بأنه « الذي باركنا حوله » وصف يرسم البركة حافةً بالمسجد ، فائضة عليه . وهو ظل لم يكن ليلقيه تعبير مباشر مثل : باركناه . أوباركنا فيه . وذلك من دقائق التعبير القرآني العجيب .
والإسراء آية صاحبها آيات : « لزيه من آياتنا » والنقلة العجيبة بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى في البرهة الوجيزة التي لم يرد فيها فراش الرسول - صلى الله عليه وسلم - أيا كانت صورتها وكيفيتها .. آية من آيات الله ، تفتح القلب على آفاق عجيبة في هذا الوجود ؛ وتكشف عن الطاقات المخبوءة في كيان هذا المخلوق البشري ، والاستعدادات اللدنية التي يتهبأ بها لاستقبال فيض القدرة في أشخاص المختارين من هذا الجنس ، الذي كرمه الله وفضله على كثير من خلقه ، وأودع فيه هذه الأسرار اللطيفة .. « إنه هو السميع البصير » .. يسمع ويرى كل ما لطف وذق ، وخفي على الأسماع والأبصار من اللطائف والأسرار .

والسياق ينتقل في آية الافتتاح من صيغة التسييح لله : « سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً » إلى صيغة التقرير من الله : « لزيه من آياتنا » إلى صيغة الوصف لله : « إنه هو السميع البصير » وفقاً لدقائق الدلالات التعبيرية بميزان دقيق حساس . فالتسييح يرتفع موجهها إلى ذات الله سبحانه . وتقرير القصد من الإسراء يجيء منه تعالى نصاً . والوصف بالسمع والبصير يجيء في صورة الخبر الثابت لذاته الإلهية . وتجتمع هذه الصيغ المختلفة في الآية الواحدة لتؤدي دلالاتها بدقة كاملة .

* * *

هذا الإسراء آية من آيات الله . وهو نقلة عجيبة بالقياس إلى مألوف البشر . والمسجد الأقصى هو طرف الرحلة . والمسجد الأقصى هو قلب الأرض المقدسة التي أسكنها الله بني إسرائيل ثم أخرجهم منها . فسيرة موسى وبني إسرائيل تجيء هنا في مكانها المناسب من سياق السورة في الآيات التالية :

« وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل ألا تتخذوا من دوني وكيلاً ؛ ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً . وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً . فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبداً لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار ، وكان وعداً مفعولاً . ثم رددنا لكم الكرة عليهم ، وأممدناكم بأموال وبنين ، وجعلناكم أكثر نفيراً . إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم ، وإن أسأتم فلها . فإذا جاء وعد الآخرة ليسوؤوا وجوهكم ، وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة ، وليتبروا ما علوا تتيهوا . عسى ربكم أن يرحمكم ، وإن عدتم عدنا ، وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً » ..

وهذه الحلقة من سيرة بني إسرائيل لا تذكر في القرآن إلا في هذه السورة . وهي تتضمن نهاية بني إسرائيل التي صاروا إليها ؛ ودالت دولتهم بها . وتكشف عن العلاقة المباشرة بين مصارع الأمم وفشو الفساد فيها ، وفاقاً

لسنة الله التي ستذكر بعد قليل في السورة ذاتها . وذلك أنه إذا قدر الله الهلاك لقرية جعل إفساد المترفين فيها سبباً لهلاكها وتدميرها .

ويبدأ الحديث في هذه الحلقة بذكر كتاب موسى - التوراة - وما اشتمل عليه من إنذار لبني إسرائيل وتذكير لهم بجدهم الأكبر - نوح - العبد الشكور ، وآبائهم الأولين الذين حملوا معه في السفينة ، ولم يحمل معه إلا المؤمنون :

« وآتينا موسى الكتاب ، وجعلناه هدى لبني إسرائيل ألا تتخذوا من دوني وكيلاً ، ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً » ..

ذلك الإنذار وهذا التذكير مصداق لوعده الله الذي يتضمنه سياق السورة كذلك بعد قليل . وذلك ألا يعذب الله قوماً حتى يبعث إليهم رسولاً ينذرهم ويذكرهم .

وقد نص على القصد الأول من إتياء موسى الكتاب : « هدى لبني إسرائيل ألا تتخذوا من دوني وكيلاً » فلا يعتمدوا إلا على الله وحده ، ولا يتجهوا إلا إلى الله وحده . فهذا هو الهدى ، وهذا هو الإيمان . فما آمن ولا اهتدى من اتخذ من دون الله وكيلاً .

ولقد خاطبهم باسم آبائهم الذين حملهم مع نوح ، وهم خلاصة البشرية على عهد الرسول الأول في الأرض . خاطبهم بهذا النسب ليدكرهم باستخلاص الله لآبائهم الأولين ، مع نوح العبد الشكور ، وليردهم إلى هذا النسب المؤمن العريق .

ووصف نوحاً بالعبودية لهذا المعنى ولمعنى آخر ، هو تنسيق صفة الرسل المختارين وإبرازها . وقد وصف بها محمداً - صلى الله عليه وسلم - من قبل . على طريقة التناسق القرآنية في جواسورة وسياقها .

في ذلك الكتاب الذي آتاه الله لموسى ليكون هدى لبني إسرائيل ، أخبرهم بما قضاه عليهم من تدميرهم بسبب إفسادهم في الأرض . وتكرار هذا التدمير مرتين لتكرر أسبابه من أفعالهم . وأنذرهم بمثله كلما عادوا إلى الإفساد في الأرض ، تصديقاً لسنة الله الجارية التي لا تتخلف :

« وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً » ..

وهذا القضاء إخبار من الله تعالى لهم بما سيكون منهم ، حسب ما وقع في علمه الإلهي من ما لهم ؛ لا أنه قضاء قهري عليهم ، تنشأ عنه أفعالهم . فالله سبحانه لا يقضي بالإفساد على أحد « قل : إن الله لا يأمر بالفحشاء » إنما يعلم الله ما سيكون علمه بما هو كائن . فما سيكون - بالقياس إلى علم الله - كائن ، وإن كان بالقياس إلى علم البشر لم يكن بعد ، ولم يكشف عنه الستار .

ولقد قضى الله لبني إسرائيل في الكتاب الذي آتاه لموسى أنهم سيفسدون في الأرض مرتين ، وأنهم سيعلمون في الأرض المقدسة وسيسيطرون . وكلما ارتفعوا فاتخذوا الارتفاع وسيلة للإفساد سلط عليهم من عباده من يقهرهم ويستبيح حرماهم ويدمرهم تدميراً :

« فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبداً لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار ، وكان وعداً مفعولاً » .

فهذه هي الأولى : يعلمون في الأرض المقدسة ، ويصبح لهم فيها قوة وسلطان ، فيفسدون فيها . فيبعث الله عليهم عبداً من عباده أولي بأس شديد ، وأولي بطش وقوة ، يستبيحون الديار ، ويروحون فيها ويغدون باستهتار ، ويطأون ما فيها ومن فيها بلا تهيب « وكان وعداً مفعولاً » لا يخلف ولا يكذب .

حتى إذا ذاق بنو إسرائيل ويلات الغلب والقهر والذل ؛ فرجعوا إلى ربهم ، وأصلحوا أحوالهم وأفادوا من البلاء المسلط عليهم . وحتى إذا استعلى الفاتحون وغرتهم قوتهم ، فطغوا هم الآخرون وأفسدوا في الأرض ، أدال الله للمغلوبين من الغالبين ، ومكن للمستضعفين من المستكبرين : « ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً » ..

ثم تتكرر القصة من جديد !

وقبل أن يتم السياق بقية النبوءة الصادقة والوعد المفعول يقرر قاعدة العمل والجزاء :

« إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها » ..

القاعدة التي لا تتغير في الدنيا وفي الآخرة ؛ والتي تجعل عمل الإنسان كله له ، بكل ثماره ونتائجه . وتجعل الجزاء ثمرة طبيعية للعمل ، منه تنتج ، وبه تتكيف ؛ وتجعل الإنسان مسؤولاً عن نفسه ، إن شاء أحسن إليها ، وإن شاء أساء ، لا يلومن إلا نفسه حين يحق عليه الجزاء .

فإذا تقرر القاعدة مضى السياق يكمل النبوءة الصادقة :

« فإذا جاء وعد الآخرة ليسوؤوا وجوهكم ، وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة ، وليتبروا ما علوا تبيراً » ..

ويحذف السياق ما يقع من بني إسرائيل بعد الكرة من إفساد في الأرض ، اكتفاء بذكره من قبل : « لتفسدن في الأرض مرتين » ويثبت ما يسلطه عليهم في المرة الآخرة : « فإذا جاء وعد الآخرة ليسوؤوا وجوهكم » بما يرتكبونه معهم من نكال يملأ النفوس بالإساءة حتى تفيض على الوجوه ، أو بما يجنون به وجوههم من مساءة وإذلال . ويستبيحون المقدسات ويستهبون بها : « وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة » ويدمرون ما يغلبون عليه من مال وديار « ليتبروا ما علوا تبيراً » .. وهي صورة للدمار الشامل الكامل الذي يطغى على كل شيء ، والذي لا يبقى على شيء .

ولقد صدقت النبوءة ووقع الوعد ، فسلط الله على بني إسرائيل من قهرهم أول مرة ، ثم سلط عليهم من شردهم في الأرض ، ودمر مملكتهم فيها تدميراً .

ولا ينص القرآن على جنسية هؤلاء الذين سلطهم على بني إسرائيل ، لأن النص عليها لا يزيد في العبرة شيئاً . والعبرة هي المطلوبة هنا . وبيان سنة الله في الخلق هو المقصود .

ويعقب السياق على النبوءة الصادقة والوعد المفعول ، بأن هذا الدمار قد يكون طريقاً للرحمة : « عسى ربكم أن يرحمكم » إن أفدتم منه عبرة .

فأما إذا عاد بنو إسرائيل إلى الإفساد في الأرض فالجزاء حاضر والسنة ماضية : « وإن عدتم عدنا » ..

ولقد عادوا إلى الإفساد فسلط الله عليهم المسلمين فأخرجوهم من الجزيرة كلها . ثم عادوا إلى الإفساد فسلط عليهم عباداً آخرين ، حتى كان العصر الحديث فسلط عليهم « هتلر » .. ولقد عادوا اليوم إلى الإفساد في صورة « إسرائيل » التي أذاقت العرب أصحاب الأرض الويلات . وليسلطن الله عليهم من يسومهم سوء العذاب ، تصديقاً لوعد الله القاطع ، وفاقاً لسنة التي لا تتخلف .. وإن غداً لناظره قريب !

ويحتم السياق الآية بمصير الكافرين في الآخرة لما بينه وبين مصير المفسدين من مشاكلة :

« وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً » .. تحصرهم فلا يفلت منهم أحد ؛ وتتسع لهم فلا يند عنها أحد .

ومن هذه الحلقة من سيرة بني إسرائيل ، وكتابهم الذي آتاه الله لموسى ليهتدوا به فلم يهتدوا ؛ بل ضلوا فهلكوا .. ينتقل السياق إلى القرآن . القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم :

« إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً ، وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليماً » ..
« إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم » ..

هكذا على وجه الإطلاق فيمن يهديهم وفيما يهديهم ، فيشمل الهدى أقواماً وأجيالاً بلا حدود من زمان أو مكان ؛ ويشمل ما يهديهم إليه كل منهج وكل طريق ، وكل خير يهدي إليه البشر في كل زمان ومكان .

يهدي للتي هي أقوم في عالم الضمير والشعور ، بالعقيدة الواضحة البسيطة التي لا تعقيد فيها ولا غموض ، والتي تطلق الروح من أقال الوهم والخرافة ، وتطلق الطاقات البشرية الصالحة للعمل والبناء ، وترتبط بين نواميس الكون الطبيعية ونواميس الفطرة البشرية في تناسق واتساق .

ويهدي للتي هي أقوم في التنسيق بين ظاهر الإنسان وباطنه ، وبين مشاعره وسلوكه ، وبين عقيدته وعمله ، فإذا هي كلها مشدودة إلى العروة الوثقى التي لا تنفصم ، متطلعة إلى أعلى وهي مستقرة على الأرض ، وإذا العمل عبادة متى توجه الإنسان به إلى الله ، ولو كان هذا العمل متاعاً واستمتاعاً بالحياة .

ويهدي للتي هي أقوم في عالم العبادة بالموازنة بين التكليف والطاقة ، فلا تشق التكليف على النفس حتى تملى وتيأس من الوفاء . ولا تسهل وترخص حتى تشيع في النفس الرخاوة والاستهتار . ولا تتجاوز القصد والاعتدال وحدود الاحتمال .

ويهدي للتي هي أقوم في علاقات الناس بعضهم ببعض : أفراداً وأزواجاً ، وحكومات وشعوباً ، ودولاً وأجناساً ، وبقية هذه العلاقات على الأسس الوطيدة الثابتة التي لا تتأثر بالرأي والهوى ؛ ولا تميل مع المودة والشأن ؛ ولا تصرفها المصالح والأغراض . الأسس التي أقامها العلم الخبير لخلقها ، وهو أعلم بمن خلق ، وأعرف بما يصلح لهم في كل أرض وفي كل جيل ، فيهديهم للتي هي أقوم في نظام الحكم ونظام المال ونظام الاجتماع ونظام التعامل الدولي اللائق بعالم الإنسان .

ويهدي للتي هي أقوم في تبني الديانات السماوية جميعها والربط بينها كلها ، وتعظيم مقدساتها وصيانتها حرمانها فإذا البشرية كلها يجمع عقائدها السماوية في سلام ووثام .

« إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم » .. « ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً ، وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليماً » فهذه هي قاعدته الأصيلة في العمل والجزاء . فعلى الإيمان والعمل الصالح يقيم بناءه . فلا إيمان بلا عمل ، ولا عمل بلا إيمان . الأول مبتور لم يبلغ تمامه ، والثاني مقطوع لاركيزة له . وبهما معاً تسير الحياة على التي هي أقوم .. وبهما معاً تتحقق الهداية بهذا القرآن .

فأما الذين لا يهتدون بهدي القرآن ، فهم متروكون لهوى الإنسان . الإنسان العجول الجاهل بما ينفعه وما يضره ، المنذفع الذي لا يضبط انفعالاته ولو كان من ورائها الشر له :

« ويدعو الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولاً » ..

ذلك أنه لا يعرف مصائر الأمور وعواقبها . ولقد يفعل الفعل وهو شر ، ويعجل به على نفسه وهو لا يدري . أويُدري ولكنه لا يقدر على كيح جماعه وضبط زمامه .. فأين هذا من هدى القرآن الثابت الهادي الهادي ؟

ألا إنهما طريقان مختلفان : شتان شتان . هدى القرآن وهوى الإنسان !

* * *

ومن الإشارة إلى الإسراء وما صاحبه من آيات ؛ والإشارة إلى نوح ومن حملوا معه من المؤمنين ؛ والإشارة إلى قصة بني إسرائيل وما قضاه الله لهم في الكتاب ، وما يدل عليه هذا القضاء من سنن الله في العباد ، ومن قواعد العمل والجزاء ؛ والإشارة إلى الكتاب الأخير الذي يهدي للتي هي أقوم .. من هذه الإشارات إلى آيات الله التي أعطاها للرسل ينتقل السياق إلى آيات الله الكونية في هذا الوجود ، يربط بها نشاط البشر وأعمالهم ، وجهدهم وجزاءهم ، وكسبهم وحسابهم ، فإذا نواميس العمل والجزاء والكسب والحساب مرتبطة أشد ارتباط بالنواميس الكونية الكبرى ، محكومة بالنواميس ذاتها ، قائمة على قواعد وسنن لا تتخلف ، دقيقة منظمة دقة النظام الكوني الذي يصرف الليل والنهار ؛ مدبرة بإرادة الخالق الذي جعل الليل والنهار :

« وجعلنا الليل والنهار آيتين ، فحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة ، لتبتغوا فضلاً من ربكم ، ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلاً ؛ وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ، ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً ، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً . من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ، ولا تزر وزرارة وزرأخرى ، وما كنا معذنين حتى نبعث رسولاً . وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفياً ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً . وكم أهلكننا من القرون من بعد نوح ، وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً . من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ، ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً ؛ ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً . كلاً نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك ، وما كان عطاء ربك محظوراً . انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض ، وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفصيلاً » ..

فالناموس الكوني الذي يحكم الليل والنهار ، يرتبط به سعي الناس للكسب . وعلم السنين والحساب . ويرتبط به كسب الإنسان من خير وشر وجزاؤه على الخير والشر . وترتبط به عواقب الهدى والضلال ، وفردية التبعة فلا تزر وزرارة وزرأخرى . ويرتبط به وعد الله ألا يعذب حتى يبعث رسولاً . وترتبط به سنة الله في إهلاك القرى بعد أن يفسق فيها مترفوها . وترتبط به مصائر الذين يطلبون العاجلة والذين يطلبون الآخرة وعطاء الله لهؤلاء وهؤلاء في الدنيا والآخرة .. كلها تمضي وفق ناموس ثابت وسنن لا تتبدل ، ونظام لا يتحول . فليس شيء من هذا كله جزافاً .

« وجعلنا الليل والنهار آيتين ، فحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب ، وكل شيء فصلناه تفصيلاً » ..

والليل والنهار آيتان كونيتان كبيرتان تشيان بدقة الناموس الذي لا يصيبه الخلل مرة واحدة ، ولا يدركه التعطل مرة واحدة ، ولا يني يعمل دائماً بالليل والنهار . فما المحو المقصود هنا وآية الليل باقية كآية النهار؟ يبدو - والله أعلم - أن المقصود به ظلمة الليل التي تخفى فيها الأشياء وتسكن فيها الحركات والأشباح .. فكأن الليل محو إذا قيس إلى ضوء النهار وحركة الأحياء فيه والأشياء ؛ وكأنما النهار ذاته مبصر بالضوء الذي يكشف كل شيء فيه للأبصار .

ذلك المحو لليل والبروز للنهار « لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب » .. فالليل للراحة

والسكون والجِمام ، والنهار للسعي والكسب والقيام ، ومن المخالفة بين الليل والنهار يعلم البشر عدد السنين ، ويعلمون حساب المواعيد والفصول والمعاملات .

« وكل شيء فصلناه تفصيلاً » فليس شيء وليس أمر في هذا الوجود متروكاً للمصادفة والجفاف . ودقة الناموس الذي يصرف الليل والنهار ناطقة بدقة التدبير والتفصيل ، وهي عليه شاهد ودليل . بهذا الناموس الكوني الدقيق يرتبط العمل والجزاء .

« وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ، ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً . اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً » .

وطائر كل إنسان ما يطير له من عمله ، أي ما يقسم له من العمل ، وهو كناية عما يعمل . وإلزامه له في عنقه تصوير للزومه إياه وعدم مفارقتة ؛ على طريقة القرآن في تجسيم المعاني وإبرازها في صورة حسية . فعمله لا يتخلف عنه وهو لا يملك التملص منه . وكذلك التعبير بإخراج كتابه منشوراً يوم القيامة . فهو يصور عمله مكشوفاً ، لا يملك إخفائه ، أو تجاهله أو المغالطة فيه . ويتجسم هذا المعنى في صورة الكتاب المنشور ، فإذا هو أعمق أثراً في النفس وأشد تأثيراً في الحس ؛ وإذا الخيال البشري يلاحق ذلك الطائر ويلحظ هذا الكتاب في فرع طائر من اليوم العصيب ، الذي تتكشف فيه الخبايا والأسرار ، ولا يحتاج إلى شاهد أو حسيب : « اقرأ كتابك . كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً » .

وبذلك الناموس الكوني الدقيق ترتبط قاعدة العمل والجزاء :

« من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنا مضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى » ..

فهي التبعة الفردية التي تربط كل إنسان بنفسه ؛ إن اهتدى فلها ، وإن ضل فعليها . وما من نفس تحمل وزر أخرى ، وما من أحد يخفف حمل أحد . إنما يسأل كل عن عمله ، ويجزى كل بعمله ولا يسأل حميم حميماً .. وقد شاءت رحمة الله ألا يأخذ الإنسان بالآيات الكونية الماثورة في صفحات الوجود ، وألا يأخذه بعهد الفطرة الذي أخذه على بني آدم في ظهور آبائهم^١ ، إنما يرسل إليهم الرسل منذرين ومذكرين : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » وهي رحمة من الله أن يعذر إلى العباد قبل أن يأخذهم بالعذاب .

كذلك تمضي سنة الله في إهلاك القرى وأخذ أهلها في الدنيا ، مرتبطة بذلك الناموس الكوني الذي يصرف الليل والنهار :

« وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً » .

والمترفون في كل أمة هم طبقة الكبراء الناعمين الذين يجدون المال ويجدون الخدم ويجدون الراحة ، فينعمون بالدعة وبالراحة وبالسيادة ، حتى ترهل نفوسهم وتأسن ، وترتع في الفسق والمجانة ، وتسهر بالقيم والمقدسات والكرامات ، وتلغ في الأعراض والحرمات ، وهم إذا لم يجدوا من يضرب على أيديهم عاثوا في الأرض فساداً ، ونشروا الفاحشة في الأمة وأشاعوها ، وأرخصوا القيم العليا التي لا تعيش الشعوب إلا بها . ولها . ومن ثم تتحلل الأمة وتسترخي ، وتفقد حيويتها وعناصر قوتها وأسباب بقائها ، فهلك وتطوى صفحاتها .

والآية تقر سنة الله هذه . فإذا قدر الله لقرية أنها هالكة لأنها أخذت بأسباب الهلاك ، فكثرت فيها المترفون ،

(١) تراجع الجزء الأول والجزء التاسع من هذه الظلال .

فلم تدافعهم ولم تضرب على أيديهم ، سلط الله هؤلاء المترفين ففسقوا فيها ، فعم فيها الفسق ، فتحللت وترهلت ، فحقت عليها سنة الله ، وأصابها الدمار والهلاك . وهي المسؤولة عما يحل بها لأنها لم تضرب على أيدي المترفين ، ولم تصلح من نظامها الذي يسمح بوجود المترفين . فوجود المترفين ذاته هو السبب الذي من أجله سلطهم الله عليها ففسقوا ، ولو أخذت عليهم الطريق فلم تسمح لهم بالظهور فيها ما استحقت الهلاك ، وما سلط الله عليها من يفسق فيها ويفسد فيقودها إلى الهلاك .

إن إرادة الله قد جعلت للحياة البشرية نواميس لا تتخلف ، وسنناً لا تتبدل ، وحين توجد الأسباب تتبعها النتائج فتتخذ إرادة الله وتحق كلمته . والله لا يأمر بالفسق ، لأن الله لا يأمر بالفحشاء . لكن وجود المترفين في ذاته ، دليل على أن الأمة قد تخلخل بناؤها ، وسارت في طريق الانحلال ، وأن قدر الله سيصيبها جزاء وفاقاً . وهي التي تعرضت لسنة الله بسماعها للمترفين بالوجود والحياة .

فالإرادة هنا ليست لإرادة للتوجيه القهري الذي ينشئ السبب ، ولكنها ترتب النتيجة على السبب . الأمر الذي لا مفر منه لأن السنة جرت به . والأمر ليس أمراً توجيهياً إلى الفسق ، ولكنه إنشاء النتيجة الطبيعية المترتبة على وجود المترفين وهي الفسق .

وهنا تبرزبئة الجماعة في ترك النظم الفاسدة تنشئ آثارها التي لا مفر منها . وعدم الضرب على أيدي المترفين فيها كي لا يفسقوا فيها فيحق عليها القول فيدمرها تدميراً .

هذه السنة قد مضت في الأولين من بعد نوح ، قرناً بعد قرن ، كلما فشئت الذنوب في أمة انتهت بها إلى ذلك المصير ، والله هو الخبير بذنوب عباده البصير :

« وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح ، وكفى يربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً » .

* * *

وبعد فإن من أراد أن يعيش لهذه الدنيا وحدها ، فلا يتطلع إلى أعلى من الأرض التي يعيش فيها ، فإن الله يجعل له حظه في الدنيا حين يشاء ، ثم تنتظره في الآخرة جهنم عن استحقاق . فالذين لا يتطلعون إلى أبعد من هذه الأرض يتلطفون بوحلها ودنسها ورجسها ، ويستمتعون فيها كالأنعام ، ويستسلمون فيها للشهوات والزعات . ويرتكبون في سبيل تحصيل اللذة الأرضية ما يؤدي بهم إلى جهنم :

« من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ، ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً » .
مذموماً بما ارتكب ، مدحوراً بما انتهى إليه من عذاب .

« ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن ، فأولئك كان سعيهم مشكوراً » .

والذي يريد الآخرة لا بد أن يسعى لها سعيها ، فيؤدي تكاليفها ، وينهض بتبعاتها ، ويقم سعيه لها على الإيمان . وليس الإيمان بالتمني ، ولكن ما قر في القلب وصدقه العمل . والسعي للآخرة لا يحرم المرء من لذائذ الدنيا الطيبة ، إنما يمد بالبصر إلى آفاق أعلى فلا يكون المتاع في الأرض هو الهدف والغاية . ولا ضير بعد ذلك من المتاع حين يملك الإنسان نفسه ، فلا يكون عبداً لهذا المتاع .

وإذا كان الذي يريد العاجلة ينتهي إلى جهنم مذموماً مدحوراً ، فالذي يريد الآخرة ويسعى لها سعيها ينتهي إليها مشكوراً يتلقى التكريم في الملأ الأعلى جزاء السعي الكريم لهدف كريم ، وجزاء التطلع إلى الأفق البعيد الوضيء .

إن الحياة للأرض حياة تليق بالديدان والزواحف والحشرات والهوام والوحوش والأنعام . فأما الحياة للآخرة فهي الحياة اللاتقة بالإنسان الكريم على الله ، الذي خلقه فسواه ، وأودع روحه ذلك السر الذي يتزع به إلى السماء وإن استقرت على الأرض قدماء .

على أن هؤلاء وهؤلاء إنما ينالون من عطاء الله . سواء منهم من يطلب الدنيا فيعطاه ومن يطلب الآخرة فيلقاها . وعطاء الله لا يحظره أحد ولا يمنع ، فهو مطلق تتوجه به المشيئة حيث تشاء :

« كلاً نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك . وما كان عطاء ربك محظوراً » .

والتفاوت في الأرض ملحوظ بين الناس بحسب وسائلهم وأسبابهم واتجاهاتهم وأعمالهم ، ومجال الأرض ضيق ورقعة الأرض محدودة . فكيف بهم في المجال الواسع وفي المدى المتطاول . كيف بهم في الآخرة التي لا تزن فيها الدنيا كلها جناح بعوضة ؟

« انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض والآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً » .

فن شاء التفاوت الحق ، ومن شاء التفاضل الضخم ، فهو هناك في الآخرة . هنالك في الرقعة الفسيحة ، والآماد المتطاوله التي لا يعلم حدودها إلا الله . وفي ذلك فليتنافس المتنافسون لا في متاع الدنيا القليل الهزيل ...

لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ * وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا

إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٌ وَلَا تُنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾

وَآخِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾

رَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غُفُورًا ﴿٢٥﴾

وَأَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذُرْ نَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنْ الْمُبَدِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ وَكَانَ

الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تَعْرِضْ عَنْهُمْ أْبْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا ﴿٢٨﴾

وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنْ رَبُّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ

لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾

وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنْ قَاتَلْتُمْ كَانَ خِطَاءً كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ

كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِرَبِّهِ

سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴿٣٣﴾

وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ۗ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٢٤﴾
 وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٢٥﴾
 وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۗ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٢٦﴾ وَلَا تَمَسَّ فِي
 الْأَرْضِ مَرَحًا ۗ إِنَّكَ لَن تَحْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٢٧﴾
 كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٢٨﴾
 ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ۗ أَنْتَ فَتُفْلِتُنِي فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا ﴿٢٩﴾

في الدرس الماضي ربطت قواعد العمل والجزاء ، والهدى والضلال ، والكسب والحساب .. إلى الناموس الكوني الذي يصرف الليل والنهار. وفي هذا الدرس تربط قواعد السلوك والآداب والتكاليف الفردية والاجتماعية إلى العقيدة في وحدة الله ، كما تربط بهذه العروة الوثقى جميع الروابط وتشد إليها كل الوشائج ، في الأسرة وفي الجماعة وفي الحياة .

وفي الدرس الماضي ورد « إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم » وورد : « وكل شيء فصلناه تفصيلاً » . ففي هذا الدرس يعرض شيئاً من أوامر هذا القرآن ونواهيها ، مما يهدي للتي هي أقوم ، ويفصل شيئاً مما اشتمل عليه من قواعد السلوك في واقع الحياة .

يبدأ الدرس بالنهي عن الشرك ، وإعلان قضاء الله بعبادته وحده . ومن ثم تبدأ الأوامر والتكاليف : بر الوالدين ، وإيتاء ذي القربى والمسكين وابن السبيل ، في غير إسراف ولا تبذير . وتحريم قتل الذرية ، وتحريم الزنا ، وتحريم القتل . ورعاية مال اليتيم ، والوفاء بالعهد ، وتوفية الكيل والميزان ، والتثبت من الحق ، والنهي عن الخيلاء والكبر ... وينتهي بالتحذير من الشرك . فإذا الأوامر والنواهي والتكاليف محصورة بين بدء الدرس وختامه ، مشدودة إلى عقيدة التوحيد التي يقوم عليها بناء الحياة .

* * *

« لا تجعل مع الله إلهاً آخر فتقع مذموماً مخذولاً » .

إنه النهي عن الشرك والتحذير من عاقبته ، والأمر عام ، ولكنه وجه إلى المفرد ليحس كل أحد أنه أمر خاص به ، صادر إلى شخصه . فالاعتقاد مسألة شخصية مسؤول عنها كل فرد بذاته ، والعاقبة التي تنتظر كل فرد يحميد عن التوحيد أن « يقعد » « مذموماً » بالفعللة الذميمة التي أقدم عليها ، « مخذولاً » لا ناصر له ، ومن لا ينصره الله فهو مخذول وإن كثر ناصره . ولفظ « فتقع » يصور هيئة المذموم المخذول وقد حط به الخذلان فقعد ، ويلقي ظل الضعف فالقعو: هو أضعف هيئات الإنسان وأكثرها استكانة وعجزاً ، وهو يلقي كذلك ظل الاستمرار في حالة البذ والخذلان ، لأن القعود لا يوحى بالحركة ولا تغير الوضع ، فهو لفظ مقصود في هذا المكان .

« وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه » ..

فهو أمر بتوحيد المعبود بعد النهي عن الشرك . أمر في صورة قضاء . فهو أمر حتمي حتمية القضاء . ولفظه « قضى » تلخ على الأمر معنى التوكيد ، إلى جانب القصر الذي يفيد النفي والاستثناء « ألا تعبدوا إلا إياه » فتبدو في جو التعبير كله ظلال التوكيد والتشديد .

فإذا وضعت القاعدة ، وأقيم الأساس ، جاءت التكاليف الفردية والاجتماعية ، ولها في النفس ركيزة من العقيدة في الله الواحد ، توحد البواعث والأهداف من التكاليف والأعمال .
والرابطة الأولى بعد رابطة العقيدة ، هي رابطة الأسرة ، ومن ثم يربط السياق بر الوالدين بعبادة الله ، إعلاناً لقيمة هذا البر عند الله :

« وبالوالدين إحساناً إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما : أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، وقل : رب ارحمهما كما ربياني صغيراً » .

بهذه العبارات الندية ، والصور الموحية ، يستجيش القرآن الكريم وجدان البر والرحمة في قلوب الأبناء . ذلك أن الحياة وهي مندفة في طريقها بالأحياء ، توجه اهتمامهم القوي إلى الأمام . إلى الذرية . إلى الناشئة الجديدة . إلى الجيل المقبل . وقلما توجه اهتمامهم إلى الوراء . إلى الأبوة . إلى الحياة المولية . إلى الجيل الذاهب ! ومن ثم تحتاج النبوة إلى استجاشة وجدانها بقوة لتنعطف إلى الخلف ، وتتلفت إلى الآباء والأمهات .

إن الوالدين يندفعان بالفطرة إلى رعاية الأولاد . إلى التضحية بكل شيء حتى بالذات . وكما تمتص النابتة الخضراء كل غذاء في الحبة فإذا هي فتات ، ويمتص الفرخ كل غذاء في البيضة فإذا هي قشر ؛ كذلك يمتص الأولاد كل رحيق وكل عافية وكل جهد وكل اهتمام من الوالدين فإذا هما شيخوخة فانية - إن أمهلها الأجل - وهما مع ذلك سعيدان !

فأما الأولاد فسرعان ما ينسون هذا كله ، ويندفعون بدورهم إلى الأمام . إلى الزوجات والذرية .. وهكذا تندفع الحياة .

ومن ثم لا يحتاج الآباء إلى توصية بالأبناء . إنما يحتاج هؤلاء إلى استجاشة وجدانهم بقوة ليدكروا واجب الجيل الذي أنفق رحيقه كله حتى أدركه الجفاف !

وهنا يجيء الأمر بالإحسان إلى الوالدين في صورة قضاء من الله يحمل معنى الأمر المؤكد ، بعد الأمر المؤكد بعبادة الله .

ثم يأخذ السياق في تظليل الجو كله بأرق الظلال ؛ وفي استجاشة وجدان بذكريات الطفولة ومشاعر الحب والعطف والحنان :

« إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما » .. والكبر له جلاله ، وضعف الكبر له إيحاؤه ؛ وكلمة « عندك » تصور معنى الالتجاء والاحتماء في حالة الكبر والضعف .. « فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما » وهي أول مرتبة من مراتب الرعاية والأدب ألا يند من الولد ما يدل على الضجر والضييق ، وما يشي بالإهانة وسوء الأدب .. « وقل لهما قولاً كريماً » وهي مرتبة أعلى إيجابية أن يكون كلامه لهما يشي بالإكرام والاحترام .. « واخفض لهما جناح الذل من الرحمة » وهنا يشف التعبير ويلطف ، ويبلغ شغاف القلب وحنايا وجدان . فهي الرحمة ترق وتلطف حتى لكأنها الذل الذي لا يرفع عيناً ، ولا يرفض أمراً . وكأنما للذل جناح يحفضه إيذاناً بالسلام

والاستسلام . « وقل : رب ارحمهما كما ربياني صغيرا » فهي الذكرى الحانية . ذكرى الطفولة الضعيفة يرهاها الولدان ، وهما اليوم في مثلها من الضعف والحاجة إلى الرعاية والحنان . وهو التوجه إلى الله أن يرحمهما فرحمة الله أوسع ، ورعاية الله أشمل ، وجناب الله أرحب . وهو أقدر على جزائهما بما بذلا من دمهما وقلبهما مما لا يقدر على جزائه الأبناء .

قال الحافظ أبو بكر البزار - بإسناده - عن بريدة عن أبيه : أن رجلاً كان في الطواف حاملاً أمه يطوف بها فسأل النبي - صلى الله عليه وسلم - هل أديت حقها ؟ قال : لا . ولا بزفرة واحدة .

ولأن الانفعالات والحركات موصولة بالعقيدة في السياق ، فإنه يعقب على ذلك برجع الأمر لله الذي يعلم النوايا ، ويعلم ما وراء الأقوال والأفعال :

« ربكم أعلم بما في نفوسكم ، إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا » .

وجاء هذا النص قبل أن يمضي في بقية التكاليف والواجبات والآداب ليرجع إليه كل قول وكل فعل ؛ وليفتح باب التوبة والرحمة لمن يخطئ أو يقصر ، ثم يرجع فيتوب من الخطأ والتقصير .

وما دام القلب صالحاً ، فإن باب المغفرة مفتوح . والأوابون هم الذين كلما أخطأوا عادوا إلى ربهم مستغفرين .

* * *

ثم يمضي السياق بعد الالتماس إلى ذوي القربى أجمعين ؛ ويصل بهم المساكين وابن السبيل ، متوسعاً في القربات حتى تشمل الروابط الإنسانية بمعناها الكبير :

« وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبريراً ، إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفوراً ؛ وإما تعرض عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها ، فقل لهم قولاً ميسوراً » .

والقرآن يجعل لذي القربى والمسكين وابن السبيل حقاً في الإنفاق . فليس هو تفضلاً من أحد على أحد ؛ إنما هو الحق الذي فرضه الله ، ووصله بعبادته وتوحيده . الحق الذي يؤديه المكلف فيرى ذمته ، ويصل المودة بينه وبين من يعطيه ، وإن هو إلا مؤد ما عليه الله .

وينهى القرآن عن التبذير . والتبذير - كما يفسره ابن مسعود وابن عباس - الإنفاق في غير حق . وقال مجاهد : لو أنفق إنسان ماله كله في الحق لم يكن مبذراً ، ولو أنفق مئداً في غير حق كان مبذراً .

فليس هي الكثرة والقلة في الإنفاق . إنما هو موضع الإنفاق . ومن ثم كان المبذرون إخوان الشياطين ، لأنهم ينفقون في الباطل ، وينفقون في الشر ، وينفقون في المعصية . فهم رفقاء الشياطين وصحابهم « وكان الشيطان لربه كفوراً » لا يؤدي حق النعمة ، كذلك إخوانه المبذرون لا يؤديون حق النعمة ، وحقها أن ينفقوها في الطاعات والحقوق ، غير متجاوزين ولا مبذرين .

فإذا لم يجد إنسان ما يؤدي به حق ذوي القربى والمسكين وابن السبيل واستحيا أن يواجههم ، وتوجه إلى الله يرزقهم ويرزقهم ، فليعدهم إلى ميسرة ، وليقل لهم قولاً ليناً ، فلا يضيق بهم صدره ، ولا يسكت ويدعهم فيحسوا بالضيق في سكوته ، ففي القول الميسور عوض وأمل وتجمل .

* * *

وبمناسبة التبذير والنهي عنه يأمر بالتوسط في الإنفاق كافة :

« ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتتعد ملوماً محسوراً .. »

والتوازن هو القاعدة الكبرى في النهج الإسلامي ، والغلو كالتفريط يخل بالتوازن . والتعبير هنا يجري على طريقة التصوير ؛ في رسم البخل يداً مغلولة إلى العنق ، ويرسم الإسراف يداً مبسوطة كل البسط لا تمسك شيئاً ، ويرسم نهاية البخل ونهاية الإسراف قاعدة كقعدة الملوم المحسور . والحسير في اللغة الدابة تعجز عن السير فتقف ضعفاً وعجزاً . فكذلك البخيل يحسره بخله فيقف . وكذلك المسرف ينتهي به سرفه إلى وقفة الحسير . ملوماً في الحالتين على البخل وعلى السرف ، وخير الأمور الوسط .

ثم يعقب على الأمر بالتوسط بأن الرزق هو الله . هو الذي يبسط في الرزق ويوسع ، وهو الذي يقدر في الرزق ويضيق . ومعطي الرزق هو الأمر بالتوسط في الإنفاق :

« إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، إنه كان بعباده خبيراً بصيراً » .

يبسط الرزق لمن يشاء عن خبرة وبصر ، ويقدر الرزق لمن يشاء عن خبرة وبصر . ويأمر بالفضد والاعتدال ، وينهى عن البخل والسرف ، وهو الخبير البصير بالأقوم في جميع الأحوال ؛ وقد أنزل هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم في جميع الأحوال .

* * *

وكان بعض أهل الجاهلية يقتلون البنات خشية الفقر والإملاق ؛ فلما قرر في الآية السابقة أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، أتبعه بالنهي عن قتل الأولاد خشية الإملاق في المكان المناسب من السياق . فإدام الرزق بيد الله ، فلا علاقة إذن بين الإملاق وكثرة النسل أو نوع النسل ؛ إنما الأمر كله إلى الله . ومتى انتفت العلاقة بين الفقر والنسل من تفكير الناس ، وصححت عقيدتهم من هذه الناحية فقد انتفى الدافع إلى تلك الفعلة الوحشية المنافية لفطرة الأحياء وسنة الحياة :

« ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم ، إن قتلهم كان خطأً كبيراً » ..

إن انحرف العقيدة وفسادها ينشئ آثاره في حياة الجماعة الواقعية ، ولا يقتصر على فساد الاعتقاد والطقوس التعبدي . وتصحيح العقيدة ينشئ آثاره في صحة المشاعر وسلامتها ، وفي سلامة الحياة الاجتماعية واستقامتها . وهذا المثل من وأد البنات مثل بارز على آثار العقيدة في واقع الجماعة الإنسانية . وشاهد على أن الحياة لا يمكن إلا أن تتأثر بالعقيدة ، وأن العقيدة لا يمكن أن تعيش في معزل عن الحياة .

ثم نقف هنا لحظة أمام مثل من دقائق التعبير القرآني العجيبة .

ففي هذا الموضوع قدم رزق الأبناء على رزق الآباء : « نحن نرزقهم وإياكم » وفي سورة الأنعام قدم رزق الآباء على رزق الأبناء : « نحن نرزقكم وإياهم » . وذلك بسبب اختلاف آخر في مدلول النصين . فهذا النص : « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم » : والنص الآخر « ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم » .

هنا قتل الأولاد خشية وقوع الفقر بسببهم فقدم رزق الأولاد . وفي الأنعام قتلهم بسبب فقر الآباء فعلاً . فقدم رزق الآباء . فكان التقديم والتأخير وفق مقتضى الدلالات التعبيرية هنا وهناك .

ومن النهي عن قتل الأولاد إلى النهي عن الزنا :

« ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً » ..

وبين قتل الأولاد والزنا صلة ومناسبة - وقد توسط النهي عن الزنا بين النهي عن قتل الأولاد والنهي عن قتل النفس - لذات الصلة وذات المناسبة .

إن في الزنا قتلاً من نواحي شتى . إنه قتل ابتداءً لأنه إراقة لمادة الحياة في غير موضعها . يتبعه غالباً الرغبة في التخلص من آثاره بقتل الجنين قبل أن يتخلق أو بعد أن يتخلق ، قبل مولده أو بعد مولده فإذا ترك الجنين للحياة ترك في الغالب لحياة شريرة ، أو حياة مهينة ، فهي حياة مضبعة في المجتمع على نحو من الأنحاء . . وهو قتل في صورة أخرى . قتل للجماعة التي يفشو فيها ، فتضيع الأنساب وتختلط الدماء ، وتذهب الثقة في العرض والولد ، وتحلل الجماعة وتفكك روابطها . فنتتهي إلى ما يشبه الموت بين الجماعات .

وهو قتل للجماعة من جانب آخر ، إذ أن سهولة قضاء الشهوة عن طريقه يجعل الحياة الزوجية نافلة لا ضرورة لها ، ويجعل الأسرة تبعة لا داعي إليها ، والأسرة هي المحضن الصالح للفراخ الناشئة ، لا تصح فطرتها ولا تسلم تربيتها إلا فيه .

وما من أمة فشت فيها الفاحشة إلا صارت إلى انحلال ، منذ التاريخ القديم إلى العصر الحديث . وقد يفر بعضهم أن أوربا وأمريكا تملكان زمام القوة المادية اليوم مع فشو هذه الفاحشة فيهما . ولكن آثار هذا الانحلال في الأمم القديمة منها كفرنسا ظاهرة لا شك فيها . أما في الأمم الفتية كالولايات المتحدة ، فإن فعلها لم تظهر بعد آثاره بسبب حداثة هذا الشعب واتساع موارده كالشباب الذي يسرف في شهواته فلا يظهر أثر الإسراف في بنيته وهو شاب ولكنه سرعان ما يتحطم عندما يدلف إلى الكهولة فلا يقوى على احتمال آثار السن ، كما يقوى عليها المعتدلون من أنداده !

والقرآن يحذر من مجرد مقارنة الزنا . وهي مبالغة في التحرز . لأن الزنا تدفع إليه شهوة عنيفة ، فالتحرز من المقاربة أضمن . فعند المقاربة من أسبابه لا يكون هناك ضمان .

ومن ثم يأخذ الإسلام الطريق على أسبابه الدافعة ، توقياً للوقوع فيه . . يكره الاختلاط في غير ضرورة . ويحرم الخلوة . وينهى عن التبرج بالزينة . ويحض على الزواج لمن استطاع ، ويوصي بالصوم لمن لا يستطيع . ويكره الحواجز التي تمنع من الزواج كالمغالاة في المهور . وينفي الخوف من العيلة والإملاق بسبب الأولاد . ويحض على مساعدة من يبتغون الزواج ليحصنوا أنفسهم . ويوقع أشد العقوبة على الجريمة حين تقع ، وعلى رمي المحصنات الغافلات دون برهان ... إلى آخر وسائل الوقاية والعلاج ، ليحفظ الجماعة الإسلامية من التردى والانحلال .

* * *

ويحتم النهي عن قتل الأولاد وعن الزنا بالنهي عن قتل النفس إلا بالحق :
« ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق . ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل ، إنه كان منصوراً » ..

والإسلام دين الحياة ودين السلام ، فقتل النفس عنده كبيرة تلي الشرك بالله ، فالله واهب الحياة ، وليس لأحد غير الله أن يسلبها إلا بإذنه وفي الحدود التي يرسما . وكل نفس هي حرم لا يمس ، وحرام إلا بالحق ، وهذا الحق الذي يبيح قتل النفس محدد لا غموض فيه ، وليس متروكاً للرأي ولا متأثراً بالهوى . وقد جاء في الصحيحين أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والزاني المحصن ، والتارك لدينه المفارق للجماعة » . فأما الأولى فهي القصاص العادل الذي إن قتل نفساً فقد ضمن الحياة لنفوس « ولكم في القصاص حياة » . حياة بكف يد الذين يهمون بالاعتداء على الأنفس والقصاص ينتظرهم فير دعهم قبل الإقدام على الفعلة النكراء .

وحياة بكف يد أصحاب الدم أن تتور نفوسهم فيثأروا ولا يقفوا عند القاتل ، بل يعضوا في الثأر ، ويتبادلوا القتل فلا يقف هذا الفريق وذاك حتى تسيل دماء ودماء . وحياة بأمن كل فرد على شخصه واطمئنانه إلى عدالة القصاص ، فينطلق آمناً يعمل وينتج فإذا الأمة كلها في حياة .

وأما الثانية فهي دفع للفساد القاتل في انتشار الفاحشة ، وهي لون من القتل على النحو الذي بيناه .

وأما الثالثة فهي دفع للفساد الروحي الذي يشيع الفوضى في الجماعة ، ويهدد أمنها ونظامها الذي اختاره الله لها ، ويسلمها إلى الفرقة القاتلة . والتارك لدينه المفارق للجماعة إنما يقتل لأنه اختار الإسلام لم يجبر عليه ، ودخل في جسم الجماعة المسلمة ، واطلع على أسرارها ، فخروجه بعد ذلك عليها فيه تهديد لها . ولوقبي خارجها ما أكرهه أحد على الإسلام . بل لتكفل الإسلام بحمايته إن كان من أهل الكتاب وبإجارته وإبلاغه مأمنه إن كان من المشركين . وليس بعد ذلك سماحة للمخالفين في العقيدة .

« ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق » .. « ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً » ..

تلك الأسباب الثلاثة هي المبيحة للقتل ، فمن قتل مظلوماً بغير واحد من تلك الأسباب ، فقد جعل الله لوليه - وهو أقرب عاصب إليه - سلطاناً على القاتل ، إن شاء قتله وإن شاء عفا على الدية ، وإن شاء عفا عنه بلا دية . فهو صاحب الأمر في التصرف في القاتل ، لأن دمه له .

وفي مقابل هذا السلطان الكبير ينهأ الإسلام عن الإسراف في القتل استغلالاً لهذا السلطان الذي منحه إياه . والإسراف في القتل يكون بتجاوز القاتل إلى سواه ممن لا ذنب لهم - كما يقع في الثأر الجاهلي الذي يؤخذ فيه الآباء والأخوة والأبناء والأقارب بغير ذنب إلا أنهم من أسرة القاتل - ويكون الإسراف كذلك بالتمثيل بالقاتل ، والولي مسلط على دمه بلا مثله . فالله يكره المثلة والرسول قد نهي عنها .

« فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً » يقضي له الله ، ويؤيده الشرع ، وينصره الحاكم . فليكن عادلاً في قصاصه ، وكل السلطات تناصره وتأخذ له بحقه .

وفي تولية صاحب الدم على القصاص من القاتل ، وتجنييد سلطان الشرع وسلطان الحاكم لنصرته تلبية للفطرة البشرية ، وتهذبة للغليان الذي تستشعره نفس الولي . الغليان الذي قد يجرفه ويدفعه إلى الضرب يميناً وشمالاً في حمى الغضب والانفعال على غير هدى . فأما حين يحس أن الله قد ولاه على دم القاتل ، وأن الحاكم مجند لنصرته على القصاص ، فإن ثأرتة تهدأ ونفسه تسكن ويقف عند حد القصاص العادل الهادئ .

والإنسان إنسان فلا يطالب بغير ما ركب في فطرته من الرغبة العميقة في القصاص . لذلك يعترف الإسلام بهذه الفطرة ويلبها في الحدود المأمونة ، ولا يتجاهلها فيفرض التسامح فرضاً . إنما هو يدعو إلى التسامح ويؤثره ويحبب فيه ، ويأجر عليه . ولكن بعد أن يعطي الحق . فلولي الدم أن يقتص أو يصفح . وشعور ولي الدم بأنه قادر على كليهما قد يجنح به إلى الصفح والتسامح ، أما شعوره بأنه مرغم على الصفح فقد يهيج نفسه ويدفع به إلى الغلو والجماح !

* * *

وبعد أن ينتهي السياق من حرمة العرض وحرمة النفس ، يتحدث عن حرمة مال اليتيم ، وحرمة العهد . « ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن ، حتى يبلغ أشده وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولاً » ..

والإسلام يحفظ على المسلم دمه وعرضه وماله ، لقول الرسول - صلى الله عليه وسلم - « كل المسلم على

المسلم حرام دمه وعرضه وماله^١ ولكنه يشدد في مال اليتيم ويبرز النهي عن مجرد قربه إلا بالتي هي أحسن . ذلك أن اليتيم ضعيف عن تدبير ماله ، ضعيف عن الذود عنه ، والجماعة الإسلامية مكلفة برعاية اليتيم وماله حتى يبلغ أشده ويرشد ويستطيع أن يدبر ماله وأن يدفع عنه .

ومما يلاحظ في هذه الأوامر والنواهي أن الأمور التي يكلف بها كل فرد بصفته الفردية جاء الأمر والنهي فيها بصيغة المفرد ؛ أما الأمور التي تناط بالجماعة فقد جاء الأمر والنهي فيها بصيغة الجمع ، ففي الإحسان للوالدين وإيتاء ذي القربى والمسكين وابن السبيل ، وعدم التبذير ، والتوسط في الإنفاق بين البخل والسرف ، وفي التثبت من الحق والنهي عن الخيلاء والكبر .. كان الأمر والنهي بصيغة المفرد لما لها من صبغة فردية . وفي النهي عن قتل الأولاد وعن الزنا وعن قتل النفس ، والأمر برعاية مال اليتيم والوفاء بالعهد ، وإيفاء الكيل والميزان كان الأمر والنهي بصيغة الجمع لما لها من صبغة جماعية .

ومن ثم جاء النهي عن قرب مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن في صيغة الجمع ، لتكون الجماعة كلها مسؤولة عن اليتيم وماله ، فهذا عهد عليها بوصفها جماعة .

ولأن رعاية مال اليتيم عهد على الجماعة ألحق به الأمر بالوفاء بالعهد إطلاقاً . « وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولاً » .. يسأل الله جل جلاله عن الوفاء به ، ويحاسب من ينكث به وينقضه .

وقد أكد الإسلام على الوفاء بالعهد وشدد . لأن هذا الوفاء مناط الاستقامة والثقة والنظافة في ضمير الفرد وفي حياة الجماعة . وقد تكرر الحديث عن الوفاء بالعهد في صور شتى في القرآن والحديث ؛ سواء في ذلك عهد الله وعهد الناس . عهد الفرد وعهد الجماعة وعهد الدولة . عهد الحاكم وعهد المحكوم . وبلغ الإسلام في واقعه التاريخي شأواً بعيداً في الوفاء بالعهود لم تبلغه البشرية إلا في ظل الإسلام^٢ .

* * *

ومن الوفاء بالعهد إلى إيفاء الكيل والميزان :

« وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم . ذلك خير وأحسن تأويلاً » ..

والمناسبة بين الوفاء بالعهد وإيفاء الكيل والميزان ظاهرة في المعنى واللفظ ، فالانتقال في السياق ملحوظ التناسق .

وإيفاء الكيل والاستقامة في الوزن ، أمانة في التعامل ، ونظافة في القلب ، يستقيم بهما التعامل في الجماعة ، وتتوافر بهما الثقة في النفوس ، وتم بهما البركة في الحياة . « ذلك خير وأحسن تأويلاً » .. خير في الدنيا وأحسن مآلاً في الآخرة .

والرسول - صلى الله عليه وسلم - يقول : « لا يقدر رجل على حرام ثم يدعه ، ليس به إلا مخافة الله ، إلا أبدله الله به في عاجل الدنيا قبل الآخرة ما هو خير من ذلك » .

والطمع في الكيل والوزن قذارة وصغار في النفس ، وغش وخيانة في التعامل تترزعع بهما الثقة ، ويتبعها الكساد ، وتقل بهما البركة في محيط الجماعة ، فيرتد هذا على الأفراد ؛ وهم يحسبون أنهم كاسبون بالتطفيف .

(١) أخرجه مالك والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي .

(٢) يراجع كتاب « السلام العالمي في الإسلام » فصل : « سلام المجتمع » فقرة : « العنصر الأخلاقي في المعاملات » « دار الشروق » .

وهو كسب ظاهري ووقتي ، لأن الكساد في الجماعة يعود على الأفراد بعد حين .
وهذه حقيقة أدركها بعيد النظر في عالم التجارة فاتبعوها ، ولم يكن الدافع الأخلاقي ، أو الحافز الديني هو
الباعث عليها ؛ بل مجرد إدراكها في واقع السوق بالتجربة العملية .
والفارق بين من يلتزم إيفاء الكيل والميزان تجارة ، ومن يلتزمه اعتقاداً .. أن هذا يحقق أهداف ذلك ؛
ويزيد عليه نظافة القلب والتطلع في نشاطه العملي إلى آفاق أعلى من الأرض ، وأوسع في تصور الحياة وتدوقها .
وهكذا يحقق الإسلام دائماً أهداف الحياة العملية وهو ماض في طريقه إلى آفاقه الوضيئة وآماده البعيدة ،
ومجالاته الرحبية .

* * *

والعقيدة الإسلامية عقيدة الوضوح والاستقامة والنصاعة . فلا يقوم شيء فيها على الظن أو الوهم أو الشبهة :
« ولا تقف ما ليس لك به علم . إن السمع والبصر والفؤاد .. كل أولئك كان عنه مسؤولاً » ...
وهذه الكلمات القليلة تقيم منهجاً كاملاً للقلب والعقل ، يشمل المنهج العلمي الذي عرفته البشرية حديثاً جداً ،
ويضيف إليه استقامة القلب ومراقبة الله ، ميزة الإسلام على المناهج العقلية الجافة !

فالتثبت من كل خبر ومن كل ظاهرة ومن كل حركة قبل الحكم عليها هو دعوة القرآن الكريم ، ومنهج
الإسلام الدقيق . ومتى استقام القلب والعقل على هذا المنهج لم يبق مجال للوهم والخرافة في عالم العقيدة . ولم
يبق مجال للظن والشبهة في عالم الحكم والقضاء والتعامل . ولم يبق مجال للأحكام السطحية والفروض الوهمية
في عالم البحوث والتجارب والعلوم .

والأمانة العلمية التي يشيد بها الناس في العصر الحديث ليست سوى طرف من الأمانة العقلية القلبية التي يعلن
القرآن تبعتها الكبرى ، ويجعل الإنسان مسؤولاً عن سمعه وبصره وفؤاده ، أمام واهب السمع والبصر والفؤاد ..
إنها أمانة الجوارح والحواس والعقل والقلب . أمانة يسأل عنها صاحبها ، وتسأل عنها الجوارح والحواس
والعقل والقلب جميعاً . أمانة يرتعش الوجدان لدقتها وجسامتها كلما نطق اللسان بكلمة ، وكلما روى الإنسان
رواية ، وكلما أصدر حكماً على شخص أو أمر أو حادثة .

« ولا تقف ما ليس لك به علم » .. ولا تتبع ما لم تعلمه علم اليقين ، وما لم تثبت من صحته : من قول
يقال ورواية تروى . من ظاهرة تفسر أو واقعة تعلل . ومن حكم شرعي أو قضية اعتقادية .

وفي الحديث : « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث » . وفي سنن أبي داود : « بشئ مطية الرجل :
زعموا » وفي الحديث الآخر : « إن أفرى القرى أن يري الرجل عينيه ما لم تريا » ..

وهكذا تتضافر الآيات والأحاديث على تقرير ذلك المنهج الكامل المتكامل الذي لا يأخذ العقل وحده بالتحرج
في أحكامه ، والتثبت في استقرائه ؛ إنما يصل ذلك التحرج بالقلب في خواطره وتصوراته ، وفي مشاعره
وأحكامه ، فلا يقول اللسان كلمة ولا يروي حادثة ولا ينقل رواية ، ولا يحكم العقل حكماً ولا يبرم الإنسان
أمراً إلا وقد تثبت من كل جزئية ومن كل ملابسة ومن كل نتيجة ، فلم يبق هنالك شك ولا شبهة في صحتها .
« إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم » حقاً وصدقاً ..

* * *

وتحتم هذه الأوامر والنواهي المرتبطة بعقيدة التوحيد بالنهي عن الكبر الفارغ والخيلاء الكاذبة :
« ولا تمش في الأرض مرحاً . إنك لن تحرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا » ..
والإنسان حين يخلو قلبه من الشعور بالخالق القاهر فوق عباده تأخذه الخيلاء بما يبلغه من ثراء أو سلطان ،
أوقوة أو جمال . ولوتذكر أن ما به من نعمة فمن الله ، وأنه ضعيف أمام حول الله ، لطامن من كبرياته ، وخفف
من خيلائه ، ومشى على الأرض هوناً لا تهباً ولا مرحاً .

والقرآن يجبه المتناول المختال المرح بضعفه وعجزه وضآلته : « إنك لن تحرق الأرض ولن تبلغ الجبال
طولاً » فالإنسان يجسمه ضئيل هزيل ، لا يبلغ شيئاً من الأجسام الضخمة التي خلقها الله . إنما هو قوي بقوة
الله ، عزيز بعزة الله ، كريم بروحه الذي نفخه الله فيه ، ليتصل به ويراقبه ولا ينساه .

ذلك التظامن والتواضع الذي يدعو إليه القرآن بتريذيل المرح والخيلاء ، أدب مع الله ، وأدب مع الناس .
أدب نفسي وأدب اجتماعي . وما يترك هذا الأدب إلى الخيلاء والعجب إلا فارغ صغير القلب صغير الاهتمامات .
يكرهه الله لبطوره ونسيان نعمته ، ويكرهه الناس لانتفاشه وتعاله .

وفي الحديث : « من تواضع لله رفعه فهو في نفسه حقير وعند الناس كبير . ومن استكبر وضعه الله ، فهو في
نفسه كبير وعند الناس حقير . حتى لو أبغض إليهم من الكلب والخنزير » .

* * *

وتنتهي تلك الأوامر والنواهي والغالب فيها هو النهي عن ذميم الفعال والصفات بإعلان كراهية الله للسيء
منها :

« كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً » .

فيكون هذا تلخيصاً وتذكيراً بمرجع الأمر والنهي وهو كراهية الله للسيء من تلك الأمور . ويسكت عن
الحسن المأمور به ، لأن النهي عن السيء هو الغالب فيها كما ذكرنا .

ويحتم الأوامر والنواهي كما بدأها بربطها بالله وعقيدة التوحيد والتحذير من الشرك . وبيان أنها بعض الحكمة
التي يهدي إليها القرآن الذي أوحاه الله إلى الرسول :

« ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة ولا تجعل مع الله الهاً آخر فتلقى في جهنم ملوماً مدحوراً » .

وهو ختام يشبه الابتداء . فتجيء محبوبكة الطرفين ، موصولة بالقاعدة الكبرى التي يقيم عليها الإسلام بناء
الحياة ، قاعدة توحيد الله وعبادته دون سواه ..

أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنْتَانَا إِنَّكُم لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا

الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَآتَبَعُوا إِلَى ذِي الْعَرْشِ

سَبِيلًا ﴿٤٣﴾ سُبْحٰنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٤﴾ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمٰوٰتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ

مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبِحُ بِحَمْدِهِ ۗ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٤٦ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ۝٤٧

وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْمِعْ أَنْ يَسْمِعَكَ رَبُّكَ وَأَنْتَ حَافِظٌ لِمَا يَخْفَىٰ عَنِ الْعَيْنِ ۝٤٨ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۝٤٩ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ، وَلَمْ يَأْمُرْكَ أَنْ تَبْتَغِيَهُمْ نَفُورًا ۝٥٠ فَخُنُوعًا لِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ ۚ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ ۚ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ۝٥١ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝٥٢ وَقَالُوا أَإِذَا ضَعَلْنَا أَكْبَارًا مِثْلَ آبَائِنَا لَمَلْعُوبُونَ ۚ خَلَقْنَا جَدِيدًا ۝٥٣ * قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝٥٤ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَبِّحُوا لِلَّهِ مِمَّا يُعْبَدُ ۚ قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُبْعَثُكُمْ فِيهِ لَمَلْعُوبُونَ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ عَلِيمٌ ۝٥٥ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ ۚ وَتَقْنُونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۝٥٦ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ۝٥٧ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۚ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ يَنْزِلْ عَلَيْكُمْ عَذَابٌ رِجٌّ ۚ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ۝٥٨ وَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ۝٥٩

قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ ۚ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرْعِ عَنْكُمْ وَلَا نَحْوِيًّا ۝٦٠ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ۝٦١

بدأ الدرس الثاني وانتهى بتوحيد الله والنهي عن الشرك به ، وضم بين البداية والنهاية تكاليف وأوامر ونواهي وآداباً مرتكزة كلها على قاعدة التوحيد الوطيدة .. ويبدأ هذا الدرس وينتهي باستنكار فكرة الولد والشريك ، وبيان ما فيها من اضطراب وتهاوت ، وتقرير وحدة الاتجاه الكوني إلى الخالق الواحد : « وإن من شيء إلا يسبح بحمده » ووحدة المصير والرجعة إلى الله في الآخرة ، ووحدة علم الله الشامل بمن في السموات ومن في الأرض ، ووحدة التصرف في شؤون الخلائق بلا معقب : « إن يشأ يرحمكم أو إن يشأ يعذبكم » .. ومن خلال السياق تهافت عقائد الشرك وتهاوى ، وتنفرد الذات الإلهية بالعبادة والاتجاه والقدرة والتصرف والحكم في هذا الوجود ، ظاهره وخافيه ، دنياه وآخرته ؛ ويبدو الوجود كله متجهاً إلى خالقه في تسبيحة مديدة شاملة تشترك فيها الأحياء والأشياء .

« أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثاً؟ إنكم لتقولون قولاً عظيماً؟ »
استفهام للاستنكار والتهمك . استنكار لما يقولون من أن الملائكة بنات الله ، تعالى الله عن الولد والساحبة
كما تعالى عن الشبيه والشريك . وتهكم على نسبة البنات لله وهم يعدون البنات أدنى من البنين ويقتلون البنات
خوف الفقر أو العار؛ ومع هذا يجعلون الملائكة إناثاً ، وينسبون هؤلاء الإناث إلى الله ! فإذا كان الله هو واهب
البنين والبنات ، فهل أصفاهم بالبنين المفضلين واتخذ لنفسه الإناث المفضولات ؟ !
وهذا كله على سبيل مجاراتهم في ادعاءاتهم لبيان ما فيها من تفكك وتهافت . وإلا فالقضية كلها مستنكرة من
الأساس :

« إنكم لتقولون قولاً عظيماً » .. عظيماً في شناعته وبشاعته ، عظيماً في جرأته ووقاحته ، عظيماً في ضخامة
الافتراء فيه ، عظيماً في خروجه عن التصور والتصديق .
« ولقد صرفنا في هذا القرآن ليدركوا ، وما يزيدهم إلا نفورا » ..

فقد جاء القرآن بالتوحيد ، وسلك إلى تقرير هذه العقيدة وإيضاحها طرقاً شتى ، وأساليب متنوعة ، ووسائل
متعددة « ليدركوا » فالتوحيد لا يحتاج إلى أكثر من التذكرو الرجوع إلى الفطرة ومنطقها ، وإلى الآيات الكونية
ودلائها ؛ ولكنهم يزيدون نفوراً كلما سمعوا هذا القرآن . نفوراً من العقيدة التي جاء بها ، ونفوراً من القرآن
ذاته خيفة أن يغلبهم على عقائدهم الباطلة التي يستمسكون بها . عقائد الشرك والوهم والتهافت .

وكما جاراهم في ادعاءاتهم في حكاية البنات ونسبتها إلى الله ليكشف عما فيها من تفكك وتهافت ، فهو
يجاريهم في حكاية الآلهة المدعاة ، ليقرر أن هذه الآلهة لو وجدت فإنها ستحاول أن تتقرب إلى الله ، وأن تجد
لها وسيلة إليه وسبيلاً :

« قل : لو كان معه آلهة كما يقولون ، إذن لابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً » ..

ولو - كما يقول النحاة - حرف امتناع لامتناع ، فالقضية كلها ممتنعة ، وليس هنالك آلهة مع الله - كما
يقولون - والآلهة التي يدعونها إن هي إلا خلق من خلق الله سواء كانت نجماً أو كوكباً ، إنساناً أو حيواناً ، نباتاً
أو جماداً . وهذه كلها تتجه إلى الخالق حسب ناموس الفطرة الكونية ، وتخضع للإرادة التي تحكمها وتصرفها ؛
وتجد طريقها إلى الله عن طريق خضوعها لناموسه وتلبيتها لإرادته :

« إذن لابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً » .. وذكر العرش هنا يوحى بالارتفاع والتسامي على هذه الخلائق التي
يدعون أنها آلهة « مع » الله . وهي تحت عرشه وليست معه .. ويعقب على ذلك بتنزيه الله في علاه :
« سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً » ..

ثم يرسم السياق للكون كله بما فيه ومن فيه مشهداً فريداً ، تحت عرش الله ، يتوجه كله إلى الله ، يسبح
له ويجد الوسيلة إليه :

« تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شيء إلا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون
تسبيحهم ، إنه كان حليماً غفوراً » ..

وهو تعبير تنبض به كل ذرة في هذا الكون الكبير ، وتنفض روحاً حية تسبح الله . فإذا الكون كله حركة
وحياة ، وإذا الوجود كله تسبيحة واحدة شجية رحية ، ترتفع في جلال إلى الخالق الواحد الكبير المتعال .
وإنه لمشهد كوني فريد ، حين يتصور القلب . كل حصة وكل حجر . كل حبة وكل ورقة . كل زهرة وكل

ثمرة . كل نبتة وكل شجرة . كل حشرة وكل زاحفة . كل حيوان وكل إنسان . كل دابة على الأرض وكل سباحة في الماء والهواء .. ومعها سكان السماء .. كلها تسبح الله وتتوجه إليه في علاه .

وإن الوجدان ليرتعش وهو يستشعر الحياة تدب في كل ما حوله مما يراه وما لا يراه ، وكلما همت يده أن تلمس شيئاً ، وكلما همت رجله أن تطأ شيئاً .. سمعه يسبح لله ، وينبض بالحياة .

« وإن من شيء إلا يسبح بحمده » يسبح بطريقته ولغته « ولكن لا تفقهون تسبيحهم » لا تفقهونه لأنكم محجوبون بصفاقة الطين ، ولأنكم لم تسمعوا بقلوبكم ، ولم توجهوها إلى أسرار الوجود الخفية ، وإلى النواميس التي تنجذب إليها كل ذرة في هذا الكون الكبير ، وتتوجه بها إلى خالق النواميس ، ومدبر هذا الكون الكبير .

وحين تشف الروح وتصفو فتسمع لكل متحرك أو ساكن وهو ينبض بالروح ، ويتوجه بالتسبيح ، فإنها تتبهاً للاتصال بالملأ الأعلى ، وتدرک من أسرار هذا الوجود ما لا يدركه الغافلون ، الذين تحول صفاقة الطين بين قلوبهم وبين الحياة الخفية الساربة في ضمير هذا الوجود ، النابضة في كل متحرك وساكن ، وفي كل شيء في هذا الوجود .

« إنه كان حليماً غفوراً » .. وذكر الحلم هنا والغفران بمناسبة ما يبدو من البشر من تقصير في ظل هذا الموكب الكوني المسيح بحمد الله ، بينا البشر في جحود وفيهم من يشرك بالله ، ومن ينسب له البنات ، ومن يغفل عن حمده وتسبيحه . والبشر أولى من كل شيء في هذا الكون بالتسبيح والتحميد والمعرفة والتوحيد . ولولا حلم الله وغفرانه لأخذ البشر أخذ عزيز مقتدر . ولكنه يمهلهم ويذكرهم ويعظهم ويزجرهم « إنه كان حليماً غفوراً » .

* * *

ولقد كان كبراء قريش يستمعون إلى القرآن ، ولكنهم يجاهدون قلوبهم ألا ترق له ، ويمنعون فطرتهم أن تتأثر به ، فجعل الله بينهم وبين الرسول حجاباً ، حجاباً خفياً ، وجعل على قلوبهم كالأغلفة فلا تفقه القرآن ، وجعل في آذانهم كالصمم فلا تعي ما فيه من توجيه :

« وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستورا . وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا . وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا . نحن أعلم بما يستمعون به ، إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى . إذ يقول الظالمون : إن تتبعون إلا رجلاً مسحورا . انظر كيف ضربوا لك الأمثال ، فضلوا فلا يستطيعون سبيلا » ..

وقد روى ابن اسحاق في السيرة عن محمد بن مسلم بن شهاب عن الزهري أنه حدث أن أبا سفيان بن حرب ، وأبا جهل بن هشام ، والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي حليف نبي زهرة خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو يصلي بالليل في بيته ؛ فأخذ كل واحد منهم مجلساً يستمع فيه ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، حتى إذا جمعهم الطريق تلاوموا ، فقال بعضهم لبعض : لا تعودوا فلورآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً . ثم انصرفوا . حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا وجمعهم الطريق . فقال بعضهم لبعض مثل ما قاله أول مرة . ثم انصرفوا . حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ؛ فقال بعضهم لبعض : لا نبرح حتى نتعاهد لا نعود . فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا . فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم

خرج حتى أتى أبا سفيان بن حرب في بيته ، فقال : أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد . قال : يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها . قال الأخنس : وأنا ، والذي حلفت به . قال : ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته ؛ فقال : يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ قال : ماذا سمعت ؟ قال : تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا . حتى إذا تجاثينا على الركب ، وكنا كفرسي رهان ، قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء . فتي ندرك هذه ؟ والله لا تؤمن به أبداً ولا نصدقه ! قال فقام عنه الأخنس وتركه ..

فهكذا كان القوم تتأثر بالقرآن فظرتهم فيصدونها ، وتجاذبهم إليه قلوبهم فيما نعوها ، فجعل الله بينهم وبين الرسول حجاباً خفياً لا يظهر للعيون ولكن تحسه القلوب ، فإذا هم لا ينتفعون به ، ولا يهتدون بالقرآن الذي يتلوه . وهكذا كانوا يتناجون بما أصاب قلوبهم من القرآن ، ثم يتآمرون على عدم الاستماع إليه ؛ ثم يغلبهم التأثير فيعودون ، ثم يتناجون من جديد ، حتى ليتعاهدون على عدم العودة ليحجزوا أنفسهم عن هذا القرآن المؤثر الجذاب الذي يخلب القلوب والألباب ! ذلك أن عقيدة التوحيد التي يدور عليها هذا القرآن كانت تهددهم في مكانتهم وفي امتيازاتهم وفي كبرياتهم فينفرون منها :

« وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا » ..

نفوراً من كلمة التوحيد ، التي تهدد وضعهم الاجتماعي ، القائم على أوهام الوثنية وتقاليد الجاهلية ، وإلا فقد كان كبراء قريش أذكى من أن يخفى عليهم ما في عقائدهم من تهافت ، وما في الإسلام من تماسك ، وأعرف بالقول من أن يغيب عنهم ما في القرآن من سمو وارتفاع وامتياز . وهم الذين لم يكونوا يملكون أنفسهم من الاستماع إليه والتأثر به ، على شدة ما يمانعون قلوبهم ويدافعونها !

ولقد كانت الفطرة تدفعهم إلى التسمع والتأثر ؛ والكبرياء تدفعهم عن التسليم والإذعان ؛ فيطلقون التهم على الرسول - صلى الله عليه وسلم - يعتذرون بها عن المكابرة والعناد :

« إذ يقول الظالمون : إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً » ..

وهذه الكلمة ذاتها تحمل في ثناياها دليل تأثرهم بالقرآن ؛ فهم يستكثرون في دخيلتهم أن يكون هذا قول بشر ؛ لأنهم يحسون فيه شيئاً غير بشري . ويحسون دبيبه الخفي في مشاعرهم فينسبون قائله إلى السحر ، يرجعون إليه هذه الغرابة في قوله ، وهذا التميز في حديثه ، وهذا التفوق في نظمه . فحمد إذن لا ينطق عن نفسه ، إنما ينطق عن السحرة بقوة غير قوة البشر ! ولو أنصفوا لقالوا : إنه من عند الله ، فما يمكن أن يقول هذا إنسان ، ولا خلق آخر من خلق الله .

« انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً » ..

ضربوا لك الأمثال بالمسحورين ولست بمسحور ، إنما أنت رسول ، فضلوا ولم يهتدوا ، وحاروا فلم يجدوا طريقاً يسلكونه . لا إلى الهدى ، ولا إلى تعليل موقفهم المريب !

* * *

ذلك قولهم عن القرآن ، وعن الرسول - صلى الله عليه وسلم - وهو يتلو عليهم القرآن . كذلك كذبوا بالبعث ، وكفروا بالآخرة :

« وقالوا : أئذا كنا عظماً ورفاتاً أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً ؟ قل : كونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً مما يكبر في صدوركم . فسيقولون : من يعيدنا ؟ قل : الذي فطركم أول مرة . فسينغضون إليك رؤوسهم ويقولون : متى هو ؟ قل : عسى أن يكون قريباً ، يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً » ..

وقد كانت قضية البعث مثار جدل طويل بين الرسول - صلى الله عليه وسلم - والمشركون ، واشتمل القرآن الكريم على الكثير من هذا الجدل . مع بساطة هذه القضية ووضوحها عند من يتصور طبيعة الحياة والموت ، وطبيعة البعث والحشر . ولقد عرضها القرآن الكريم في هذا الضوء مرات . ولكن القوم لم يكونوا يتصورونها بهذا الوضوح وبتلك البساطة ؛ فكان يصعب عليهم تصور البعث بعد البلى والفناء المسلط على الأجسام :

« وقالوا : أئذا كنا عظماً ورفاتاً أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً ؟

ذلك أنهم لم يكونوا يتدبرون أنهم لم يكونوا أحياء أصلاً ثم كانوا ، وأن النشأة الآخرة ليست أعسر من النشأة الأولى . وأنه لا شيء أمام القدرة الإلهية أعسر من شيء ، وأداة الخلق واحدة في كل شيء : « كن فيكون » فيستوي إذن أن يكون الشيء سهلاً وأن يكون صعباً في نظر الناس ، متى توجهت الإرادة الإلهية إليه .

وكان الرد على ذلك التعجب :

« قل : كونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً مما يكبر في صدوركم » ..

والعظام والرفات فيها رائحة البشرية وفيها ذكرى الحياة ؛ والحديد والحجارة أبعد عن الحياة . فيقال لهم : كونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً آخر أو غل في البعد عن الحياة من الحجارة والحديد مما يكبر في صدوركم أن تتصوروه وقد نفخت فيه الحياة .. فسيعثكم الله .

وهم لا يملكون أن يكونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً آخر ولكنه قول للتحدي . وفيه كذلك ظل التوبيخ والتقريع ، فالحجارة والحديد جماد لا يحس ولا يتأثر ، وفي هذا إيحاء من بعيد إلى ما في تصورهم من جمود وتحجر !

« فسيقولون : من يعيدنا ؟

من يردنا إلى الحياة إن كنا رفاتاً وعظماً ، أو خلقاً آخر أشد إيغالاً في الموت والخمود ؟ « قل : الذي فطركم أول مرة » ..

وهو رد يرجع المشكلة إلى تصور بسيط واضح مريح . فالذي أنشأهم إنشاءً قادر على أن يردهم أحياء . ولكنهم لا ينتفعون به ولا يقتنعون :

« فسينغضون إليك رؤوسهم ينغضونها علواً أو سفلاً ، استنكاراً واستهزاء :

« ويقولون : متى هو ؟ » : استبعاداً لهذا الحادث واستنكاراً .

« قل : عسى أن يكون قريباً » ..

فالرسول لا يعلم مواعده تحديداً . ولكن لعله أقرب مما يظنون . وما أجدرهم أن يخشوا وقوعه وهم في غفلتهم يكذبون ويستهزئون !

ثم يرسم مشهداً سريعاً لذلك اليوم :

« يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده ، وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً » ..

وهو مشهد يصور أولئك المكذبين بالبعث المنكرين له ، وقد قاموا بلبون دعوة الداعي ، وألسنتهم تلهج بحمد

الله . ليس لهم سوى هذه الكلمة من قول ولا جواب !
وهو جواب عجيب ممن كانوا ينكرون اليوم كله وينكرون الله ، فلا يكون لهم جواب إلا أن يقولوا : الحمد لله . الحمد لله !

ويومئذ تنطوي الحياة الدنيا كما ينطوي الظل : « وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً » .
وتصوير الشعور بالدنيا على هذا النحو يصغر من قيمتها في نفوس المخاطبين ، فإذا هي قصيرة قصيرة ، لا يبقى من ظلها في النفس وصورها في الحس ، إلا أنها لمحة مرت وعهد زال وظل تحول ، ومتاع قليل .

* * *

ثم يلتفت السياق عن هؤلاء المكذبين بالبعث والنشور ، المستهزئين بوعد الله وقول الرسول ، المنغضين رؤوسهم المتكلمين المتهمجين .. يلتفت عنهم إلى عباد الله المؤمنين ليوجههم الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يقولوا الكلمة الطيبة وينطقوا دائماً بالحسنى :

« وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن . إن الشيطان ينزغ بينهم ، إن الشيطان كان للإنسان عدواً مبيناً » .
« وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن » على وجه الإطلاق وفي كل مجال . فيختاروا أحسن ما يقال ليقولوه ..
بذلك يتقون أن يفسد الشيطان ما بينهم من مودة . فالشيطان ينزغ بين الإخوة بالكلمة الخسنة تفلت ، وبالرد السيء يتلوها فإذا جو الود والمحبة والوفاق مشوب بالخلاف ثم بالجفوة ثم بالعداء . والكلمة الطيبة تأسوجراح القلوب ، تندّي جفافها ، وتجمعها على الود الكريم .
« إن الشيطان كان للإنسان عدواً مبيناً » ..

يتلمس سقطات فمه وعثرات لسانه ، فيغري بها العداوة والبغضاء بين المرء وأخيه . والكلمة الطيبة تسد عليه الثغرات ، وتقطع عليه الطريق ، وتحفظ حرم الأخوة آمناً من نزغاته ونفثاته .

* * *

وبعد هذه اللفتة يعود السياق إلى مصائر القوم يوم يدعوهم فيستجيبون بحمده ، فإذا المبصر كله بيد الله وحده ، إن شاء رحم ، وإن شاء عذب ، وهم متروكون لقضاء الله ، وما الرسول عليهم بوكيل ، إن هو إلا رسول :
« ربكم أعلم بكم ، إن يشأ يرحمكم أو إن يشأ يعذبكم ، وما أرسلناك عليهم وكيلاً . وربك أعلم بمن في السماوات والأرض » ..

فالعلم المطلق لله . وهو يرتب على كامل علمه بالناس رحمتهم أو عذابهم . وعند البلاغ تنتهي وظيفة الرسول .
وعلم الله الكامل يشمل من في السماوات والأرض من ملائكة ورسول وإنس وجن ، وكائنات لا يعلم إلا الله ما هي ؟ وما قدرها ؟ وما درجتها .

وبهذا العلم المطلق بحقائق الخلائق فضل الله بعض النبيين على بعض :
« ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض » . وهو تفضيل يعلم الله أسبابه . أما مظاهر هذا التفضيل فقد سبق الحديث عنها في الجزء الثالث من هذه الظلال عند تفسير قوله تعالى : « تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض » ..
فيراجع في موضعه هناك :

« وآتينا داود زبوراً » .. وهو نموذج من عطاء الله لأحد أنبيائه ، ومن مظاهر التفضيل أيضاً . إذ كانت

الكتب أبقى من الخوارق المادية التي يراها بعض الناس في ظرف معين من الزمان .

* * *

وينتهي هذا الدرس الذي بدأ بنفي فكرة الأبناء والشركاء ، واستطرد إلى تفرد الله سبحانه بالاتجاه إليه ، وتفرده بالعلم والتصرف في مصائر العباد .. ينتهي بتحدى الذين يزعمون الشركاء ، أن يدعوا الآلهة المدعاة إلى كشف الضر عنهم لو شاء الله أن يعذبهم ، أو تحويل العذاب إلى سواهم :

« قل : ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً » .. فليس أحد بقادر على أن يكشف الضر أو يحوله إلا الله وحده ، المتصرف في أقدار عباده .

ويقر لهم أن من يدعونهم آلهة من الملائكة أو الجن أو الإنس .. إن هم إلا خلق من خلق الله ، يحاولون أن يجدوا طريقهم إلى الله ويتسابقون إلى رضاه ، ويخافون عذابه الذي يحذره من يعلم حقيقته ويخشاه :

« أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ، ويرجون رحمته ويخافون عذابه . إن عذاب ربك كان محذورا » ..

وقد كان بعضهم يدعو عزيزاً ابن الله ويعبده ، وبعضهم يدعو عيسى ابن الله ويعبده . وبعضهم يدعو الملائكة بنات الله ويعبدهم ، وبعضهم يدعو غير هؤلاء .. فالله يقول لهم جميعاً : إن هؤلاء الذين تدعونهم ، أقربهم إلى الله يبتغي إليه الوسيلة ، ويتقرب إليه بالعبادة ، ويرجون رحمته ، ويخشى عذابه - وعذاب الله شديد يحذر ويخاف - فما أجدركم أن تتوجهوا إلى الله ، كما يتوجه إليه من تدعونهم آلهة من دونه وهم عباد الله ، يبتغون رضاه .

وهكذا يبدأ الدرس ويحتم بيان تهافت عقائد الشرك في كل صورها . وتفرد الله سبحانه بالألوهية والعبادة والاتجاه .

•

وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَأَنحُنُّ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأُولُونَ وَعَ اتَيْنَا مُودَ الْأَنَاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَحْوِيلًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُحُوفُهُمْ مَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَأَسْتَفْرَزَ مِنْهُمُ ابْنُ مَرْيَمَ وَاجْتَبَاهُ عَلَيْهِمُ بَنِيكَ وَرَجِبَكَ

وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدَّهُمْ ۗ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ ۗ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ۗ وَكُنِيَ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾

رَبُّكُمْ الَّذِي يُرْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ ۗ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ ۗ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهَهُ فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۗ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ ۗ أَفَلَمِنتُمْ أَنْ يَجْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۗ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ ۗ أَمْ أَمِنتُمْ أَنْ يُعِيدَ كُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى ۗ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۗ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾

* وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ۗ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِئْمَانِهِمْ ۗ فَمَنْ أُوِّيَ كِتَابُهُ وَبِئْمَانِهِ ۗ فَأُولَئِكَ يَفْرَهُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ ۗ وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾

انتهى الدرس السابق بتقرير أن الله وحده هو المتصرف في مصائر العباد ، إن شاء رحمهم وإن شاء عذبهم ؛ وأن الآلهة التي يدعونها من دونه لا تملك كشف الضر عنهم ولا تحويله إلى سواهم .

فالآن يستطرد السياق إلى بيان المصير النهائي للبشر جميعاً - كما قدره الله في علمه وقضائه - وهو انتهاء القرى جميعها إلى الموت والهلاك قبل يوم القيامة ، أو وقوع العذاب ببعضها إن ارتكبت ما يستحق العذاب . فلا يبقى حي إلا ويلاقي نهايته على أي الوجهين : الهلاك حتف أنفه أو الهلاك بالعذاب .

وبمناسبة ذكر العذاب الذي يحل ببعض القرى يشير السياق إلى ما كان يسبقه من الخوارق على أيدي الرسل - قبل رسالة محمد صلى الله عليه وسلم - هذه الخوارق التي امتنعت في هذه الرسالة ، لأن الأولين الذين جاءتهم كذبوا بها ولم يهتدوا فحق عليهم الهلاك . والهلاك لم يقدر على أمة محمد لذلك لم يرسله بالخوارق المادية ، وما كانت الخوارق إلا تخويفاً للأمم الخالية مما يحل بها من الهلاك إذا كذبت بعد مجيئها .

وقد كلف الله الناس عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - وعصمه منهم فلا يصلون إليه . وأراه الرؤيا الصادقة في الإسراء لتكون ابتلاء للناس ، ولم يتخذ منها خارقة كخوارق الرسالات من قبل ، وخوفهم الشجرة الملعونة في القرآن - شجرة الزقوم - التي رآها في أصل الجحيم ، فلم يزددهم التخويف إلا طغياناً . وإذن فما كانت الخوارق إلا لتزيدهم طغياناً .

وفي هذا الموضوع من السياق نجيء قصة إبليس مع آدم ، وإذن الله لإبليس في ذرية آدم إلا الصالحين من عباده فقد عصمهم من سلطانه وإغوائه .. فتكشف القصة عن أسباب الغواية الأصلية التي تقود الناس إلى الكفر والطغيان ، وتبعدهم عن تدبر الآيات .

ويلمس السياق في هذا الموضع وجدان الإنسان بذكر فضل الله على نبي آدم ، ومقابلتهم هذا الفضل بالبطر والجحود ، فلا يذكرون الله إلا في ساعات الشدة . فإذا مسهم الضر في البحر لجأوا إليه . فإذا أنجاهم إلى البر أعرضوا . والله قادر على أن يأخذهم في البر وفي البحر سواء ! ولقد كرمهم الله وفضلهم على كثير ممن خلقه ، ولكنهم لا يشكرون ولا يذكرون .

ويختتم هذا الدرس بمشهد من مشاهد القيامة ؛ يوم يلقون جزاءهم على ما قدمت أيديهم ، فلا مجال للنجاة لأحد إلا بما قدمت يده .

* * *

« وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذاباً شديداً . كان ذلك في الكتاب مسطوراً .. »
فقد قدر الله أن يجيء يوم القيامة ووجه هذه الأرض خال من الحياة ، فالهلاك ينتظر كل حي قبل ذلك اليوم الموعد . كذلك قدر العذاب لبعض هذه القرى بما ترتكب من ذنوب . ذلك ما ركز في علم الله . والله يعلم ما سيكون علمه بما هو كائن . فالذي كان والذي سيكون كله بالقياس إلى علم الله سواء .

وقد كانت الخوارق تصاحب الرسالات لتصديق الرسل وتخويف الناس من عاقبة التكذيب وهي الهلاك بالعذاب . ولكن لم يؤمن بهذه الخوارق إلا المستعدة قلوبهم للإيمان ؛ أما الجاحدون فقد كذبوا بها في زمانهم . ومن هنا جاءت الرسالة الأخيرة غير مصحوبة بهذه الخوارق :

« وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون . وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها . وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً » .

إن معجزة الإسلام هي القرآن . وهو كتاب يرسم منهجاً كاملاً للحياة . ويخاطب الفكر والقلب ، ويلبي الفطرة القويمة . ويبقى مفتوحاً للأجيال المتتابعة تقرأه وتؤمن به إلى يوم القيامة . أما الخارقة المادية فهي تخاطب جيلاً واحداً من الناس ، وتقتصر على من يشاهدها من هذا الجيل .

على أن كثرة من كانوا يشاهدون الآيات لم يؤمنوا بها . وقد ضرب السياق المثل بثمود ، الذين جاءتهم الناقة وفق ما طلبوا واقرحوا آية واضحة . فظلموا بها أنفسهم وأوردوها موارد الهلكة تصديقاً لوعد الله بإهلاك المكذبين بالآية الخارقة . وما كانت الآيات إلا إنذاراً وتخويفاً بحتمية الهلاك بعد مجيء الآيات .

هذه التجارب البشرية اقتضت أن تجيء الرسالة الأخيرة غير مصحوبة بالخوارق . لأنها رسالة الأجيال المقبلة جميعها لا رسالة جيل واحد يراها . ولأنها رسالة الرشد البشري تخاطب مدارك الإنسان جيلاً بعد جيل ، وتحترم إدراكه الذي تميزه بشريته والذي من أجله كرمه الله على كثير من خلقه .

أما الخوارق التي وقعت للرسول - صلى الله عليه وسلم - وأوها خارقة الإسراء والمعراج فلم تتخذ معجزة مصدقة للرسالة . إنما جعلت فتنة للناس وابتلاء .

« وإذ قلنا لك : إن ربك أحاط بالناس وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس ، والشجرة الملعونة في القرآن ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً » .

ولقد ارتد بعض من كان آمن بالرسول - صلى الله عليه وسلم - بعد حادثة الإسراء ، كما ثبت بعضهم وازداد يقيناً . ومن ثم كانت الرؤيا التي أراها الله لعبده في تلك الليلة « فتنة للناس » وابتلاء لإيمانهم . أما إحاطة الله بالناس فقد كانت وعداً من الله لرسوله بالنصر ، وعصمة له من أن تمتد أيديهم إليه .

ولقد أخبرهم بوعد الله له وبما أطلع الله عليه في رؤياه الكاشفة الصادقة . ومنه شجرة الزقوم التي يخوف الله بها المكذبين . فكذبوا بذلك حتى قال أبو جهل متهاكماً : هاتوا لنا تمراً وزبداءً ، وجعل يأكل من هذا بهذا ويقول : تزقموا فلا تعلم الزقوم غير هذا !

فإذا كانت الخوارق صانعة مع القوم لو كانت هي آية رسالته كما كانت علامة الرسالات قبله ومعجزة المرسلين ؟ وما زادتهم خارقة الإسراء ولا زادهم التخويف بشجرة الزقوم إلا طغياناً كبيراً ؟

إن الله لم يقدر إهلاكهم بعذاب من عنده . ومن ثم لم يرسل إليهم بخارقة . فقد اقتضت إرادته أن يهلك المكذبين بالخوارق . أما قريش فقد أمهلت ولم تؤخذ بالإبادة كقوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب .. ومن المكذبين من آمن بعد ذلك وكان من جند الإسلام الصادقين . ومنهم من أنجب المؤمنين الصادقين . وظل القرآن - معجزة الإسلام - كتاباً مفتوحاً لجيل محمد - صلى الله عليه وسلم - وللأجيال بعده ، فأمن به من لم يشهد الرسول وعصره وصحابته . إنما قرأ القرآن أو صاحب من قرأه . وسبق القرآن كتاباً مفتوحاً للأجيال ، يهتدي به من هم بعد في ضمير الغيب ، وقد يكون منهم من هو أشد إيماناً وأصلح عملاً ، وأنفع للإسلام من كثير سبقوه ..

* * *

وفي ظل الرؤيا التي رآها الرسول - صلى الله عليه وسلم - واطلع فيها على ما اطلع من عوالم ، والشجرة الملعونة التي يطعم منها أتباع الشياطين .. يجيء مشهد إبليس الملعون ، يهدد ويتوعد بإغواء الضالين :

« وإذ قلنا للملائكة : اسجدوا لآدم . فسجدوا إلا إبليس . قال : أسجد لمن خلقت طيناً ؟ قال : أرايتك هذا الذي كرمت عليّ لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً . قال : اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً . واستفز من استطعت منهم بصوتك ، وأجلب عليهم بخيلك ورجلك ، وشاركتهم في الأموال والأولاد وعدهم . وما يعدهم الشيطان إلا غروراً . إن عبادي ليس لك عليهم سلطان . وكفى بربك وكيلاً .. »

إن السياق يكشف عن الأسباب الأصلية لضلال الضالين ، فيعرض هذا المشهد هنا ، ليحذر الناس وهم يطلعون على أسباب الغواية ، ويرون إبليس عدوهم وعدوأيهم يتهددهم بها ، عن إصرار سابق قديم !

« وإذ قلنا للملائكة : اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال : أسجد لمن خلقت طينا ؟ »

إنه حسد إبليس لآدم يجعله يذكر الطين ويغفل نفخة الله في هذا الطين !

ويعرض إبليس بضعف هذا المخلوق واستعداده للغواية ، فيقول في تبجح :

« أرايتك هذا الذي كرمت عليّ ؟ » أترى هذا المخلوق الذي جعلته أكرم مني عندك ؟

« لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً .. فلاستولين عليهم وأحتويهم وأملك زمامهم وأجعلهم في قبضة يدي أصرف أمرهم . »

ويغفل إبليس عن استعداد الإنسان للخير والهداية استعداداً للشرو والغواية . عن حالته التي يكون فيها متصلاً بالله فيرتفع ويسمو ويعتصم من الشر والغواية ، ويغفل عن أن هذه هي مزية هذا المخلوق التي ترفعه على ذوي الطبيعة المفردة التي لا تعرف إلا طريقاً واحداً تسلكه بلا إرادة . فالإرادة هي سر هذا المخلوق العجيب .

وتشاء إرادة الله أن يطلق لرسول الشر والغواية الزمام ، يحاول محاولته مع بني الإنسان :

« قال : اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا » ..

اذهب فحاول محاولتك . اذهب مأذوناً في إغوائهم . فهم مزودون بالعقل والإرادة ، يملكون أن يتبعوك أو يعرضوا عنك « فمن تبعك منهم » مغلباً جانب الغواية في نفسه على جانب الهداية ، معرضاً عن نداء الرحمن إلى نداء الشيطان ، غافلاً عن آيات الله في الكون ، وآيات الله المصاحبة للرسالات ، « فإن جهنم جزاؤكم » أنت وتابعوك « جزاء موفورا » .

« واستفز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك » .

وهو تجسيم لوسائل الغواية والإحاطة ، والاستيلاء على القلوب والمشاعر والعقول . فهي المعركة الصاخبة ، تستخدم فيها الأصوات والخيل والرجل على طريقة المعارك والمبارزات . يرسل فيها الصوت فيزعج الخصوم ويخرجهم من مراكزهم الحصينة ، أو يستدرجهم للفخ المنسوب والمكيدة المدبرة . فإذا استدرجوا إلى العراء أخذتهم الخيل ، وأحاطت بهم الرجال !
« وشاركهم في الأموال والأولاد » ..

وهذه الشركة تتمثل في أوهم الوثنية الجاهلية ، إذ كانوا يجعلون في أموالم نصيباً للآلهة المدعاة - فهي للشيطان - وفي أولادهم نذوراً للآلهة أو عبيداً لها - فهي للشيطان - كعبد اللات وعبد مناة . وأحياناً كانوا يجعلونها للشيطان رأساً كعبد الحارث !

كما تتمثل في كل مال يجبي من حرام ، أو يتصرف فيه بغير حق ، أو ينفق في إثم . وفي كل ولد يجبي من حرام . ففيه شركة للشيطان .

والتعبير يصور في عمومه شركة تقوم بين إبليس وأتباعه تشمل الأموال والأولاد وهما قوام الحياة ! وإبليس مأذون في أن يستخدم وسائله كلها ، ومنها الوعود المغرية الخادعة : « وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا » كالوعد بالإفلات من العقوبة والقصاص . والوعد بالغنى من الأسباب الحرام . والوعد بالغلبة والفوز بالوسائل القذرة والأساليب الخسيسة ...

ولعل أشد الوعود إغراء الوعد بالعمو والمغفرة بعد الذنب والخطيئة ؛ وهي الثغرة التي يدخل منها الشيطان على كثير من القلوب التي يعز عليه غزوها من ناحية المجاهرة بالمعصية والمكابرة . فيتلطف حينئذ إلى تلك النفوس المتحرجة ، ويزين لها الخطيئة وهو يلوح لها بسعة الرحمة الإلهية وشمول العفو والمغفرة !

اذهب مأذوناً في إغواء من يجنون إليك . ولكن هنالك من لا سلطان لك عليهم ، لأنهم مزودون بحصانة تمنعهم منك ومن خيلك ورجلك !

« إن عبادي ليس لك عليهم سلطان . وكفى بربك وكيلا » ..

فتى اتصل القلب بالله ، واتجه إليه بالعبادة . متى ارتبط بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها . متى أيقظ في روحه النفخة العلوية فأشرفت وأنارت .. فلا سلطان حينئذ للشيطان على ذلك القلب الموصول بالله ، وهذا الروح المشرق بنور الإيمان .. « وكفى بربك وكيلا » يعصم ويتصرف ويبتل كيد الشيطان .

وانطلق الشيطان بنفذ وعيده ، ويستذل عبيده ، ولكنه لا يجزؤ على عباد الرحمن ، فإله عليهم من سلطان .

* * *

ذلك ما يبته الشيطان للناس من شروأذى ؛ ثم يوجد في الناس من يتبعون هذا الشيطان ، ويستمعون إليه ،

ويعرضون عن نداء الله لهم وهدايته . والله رحيم بهم يعينهم ويهديهم ويسر لهم المعاش ، وينجيهم من الضر والكرب ، ويستجيب لهم في موقف الشدة والضيقة .. ثم إذا هم يعرضون ويكفرون :

« ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر لئلا تتبغوا من فضله ، إنه كان بكم رحيماً . وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه ، فلما نجاكم إلى البر أعرضتم ، وكان الإنسان كفوراً » ..

والسياق يعرض هذا المشهد ، مشهد الفلك في البحر ، نموذجاً للحظات الشدة والحرارة . لأن الشعور بيد الله في الخضم أقوى وأشد حساسية ، ونقطة من الخشب أو المعدن تائهة في الخضم ، تتقاذفها الأمواج والتيارات والناس متشبثون بهذه النقطة على كف الرحمن .

إنه مشهد يحس به من كآبده ، ويحس بالقلوب الخائفة الواجفة المتعلقة بكل هزة وكل رجفة في الفلك صغيراً كان أو كبيراً حتى عبارات المحيط الجبارة التي تبدو في بعض اللحظات كالريشة في مهب الرياح على ثبج الموج الجبار !

والتعبير يلمس القلوب لمسة قوية وهو يشعر الناس أن يد الله تزجي لهم الفلك في البحر وتدفعه لئلا تتبغوا من فضله « إنه كان بكم رحيماً » فالرحمة هي أظهر ما تستشعره القلوب في هذا الأوان .

ثم ينتقل بهم من الإجزاء الرخي للاضطراب العتي . حين ينسى الركب في الفلك المتناوح بين الأمواج كل قوة وكل سند وكل مجير إلا الله ، فيتجهون إليه وحده في لحظة الخطر لا يدعون أحداً سواه : « ضل من تدعون إلا إياه » ..

ولكن الإنسان هو الإنسان ، فما إن تنجلي الغمرة ، وتحس قدماه ثبات الأرض من تحته حتى ينسى لحظة الشدة ، فينسى الله ، وتتقاذفه الأهواء وتجرفه الشهوات ، وتغطي على فطرته التي جلاها الخطر : « فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفوراً » إلا من اتصل قلبه بالله فأشرق واستنار .

وهنا يستجيش السياق وجدان المخاطبين بتصوير الخطر الذي تركوه في البحر وهو يلاحقهم في البر أو وهم يعودون إليه في البحر ، ليشعروا أن الأمن والقرار لا يكونان إلا في جوار الله وحماه ، لا في البحر ولا في البر ؛ لا في الموجة الرخية والريح المواتية ولا في الملجأ الحصين والمنزل المريح :

« أفأنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصباً ، ثم لا تجدوا لكم وكيلاً ؟ أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى ، فيرسل عليكم قاصفاً من الريح فيغيركم بما كفرتم ، ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا ؟ » .

إن البشر في قبضة الله في كل لحظة وفي كل بقعة . إنهم في قبضته في البر كما هم في قبضته في البحر . فكيف يأمنون ؟ كيف يأمنون أن يخسف بهم جانب البر بزلزال أو بركان ، أو بغيرهما من الأسباب المسخرة لقدرة الله ؟ أو يرسل عليهم عاصفة بركانية تقذفهم بالحمم والماء والطين والأحجار ، قهلكهم دون أن يجدوا لهم من دون الله وكيلاً يحميهم ويدفع عنهم ؟

أم كيف يأمنون أن يردهم الله إلى البحر فيرسل عليهم ريحاً قاصفة ، تقصف الصواري وتحطم السفين ، فيغيرهم بسبب كفرهم وإعراضهم ، فلا يجدون من يطالب بعدهم بتبعية إغراقهم ؟

ألا إنها الغفلة أن يعرض الناس عن ربهم ويكفروا . ثم يأمنوا أخذه وكيده . وهم يتوجهون إليه وحده في الشدة ثم ينسونه بعد النجاة . كأنها آخر شدة يمكن أن يأخذهم بها الله !

ذلك وقد كرم الله هذا المخلوق البشري على كثير من خلقه . كرمه بخلقته على تلك الهيئة ، بهذه الفطرة التي تجمع بين الطين والنفخة ، فتجمع بين الأرض والسماء في ذلك الكيان !

وكرمه بالاستعدادات التي أودعها فطرته ؛ والتي استأهل بها الخلافة في الأرض ، يغير فيها ويبدل ، وينتج فيها وينشئ ، ويركب فيها ويحلل ، ويبلغ بها الكمال المقدر للحياة .

وكرمه بتسخير القوى الكونية له في الأرض وإمداده بعون القوى الكونية في الكواكب والأفلاك .. وكرمه بذلك الاستقبال الفخم الذي استقبله به الوجود ، وبذلك الموكب الذي تسجد فيه الملائكة ويعلن فيه الخالق جل شأنه تكريم هذا الإنسان !

وكرمه بإعلان هذا التكريم كله في كتابه المنزل من الملأ الأعلى الباقي في الأرض .. القرآن .. « ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً » ..

« وحملناهم في البر والبحر » والحمل في البر والبحريتم بتسخير النواميس وجعلها موافقة لطبيعة الحياة الإنسانية وما ركب فيها من استعدادات ، ولولم تكن هذه النواميس موافقة للطبيعة البشرية لما قامت الحياة الإنسانية ، وهي ضعيفة ضئيلة بالقياس إلى العوامل الطبيعية في البر والبحر . ولكن الإنسان مزود بالقدرة على الحياة فيها ، ومزود كذلك بالاستعدادات التي تمكنه من استخدامها . وكله من فضل الله .

« ورزقناهم من الطيبات » .. والإنسان ينسى ما رزقه الله من الطيبات بطول الألفة فلا يذكر الكثير من هذه الطيبات التي رزقها إلا حين يحرمها . فعندئذ يعرف قيمة ما يستمتع به ، ولكنه سرعان ما يعود فينسى .. هذه الشمس . هذا الهواء . هذا الماء . هذه الصحة . هذه القدرة على الحركة . هذه الحواس . هذا العقل .. هذه المطاعم والمشارب والمشاهد ... هذا الكون الطويل العريض الذي استخلف فيه ، وفيه من الطيبات ما لا يحصيه . « وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً » .. فضلناهم بهذا الاستخلاف في ملك الأرض الطويل العريض . وبما ركب في فطرتهم من استعدادات تجعل المخلوق الإنساني فذاً بين الخلائق في ملك الله ...

* * *

ومن التكريم أن يكون الإنسان قياً على نفسه ، محتملاً تبعه اتجاهه وعمله . فهذه هي الصفة الأولى التي بها كان الإنسان إنساناً . حرية الاتجاه وفردية التبعية . وبها استخلف في دار العمل . فمن العدل أن يلقي جزاء اتجاهه وثمرة عمله في دار الحساب :

« يوم ندعو كل أناس بإمامهم . فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرأون كتابهم ولا يظلمون فتيلاً . ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً » ..

وهو مشهد بصور الخلائق محشورة . وكل جماعة تنادي بعنوانها باسم المنهج الذي اتبعته ، أو الرسول الذي اقتدت به ، أو الإمام الذي ائتمت به في الحياة الدنيا . تنادي ليسلم لها كتاب عملها وجزائها في الدار الآخرة .. فمن أوتي كتابه بيمينه فهو فرح بكتابه يقرؤه ويتملاه ، ويوفي أجره لا ينقص منه شيئاً ولو قدر الخيط الذي يتوسط النواة ! ومن عمي في الدنيا عن دلائل الهدى فهو في الآخرة أعمى عن طريق الخير . وأشد ضلالاً . وجزاؤه معروف . ولكن السياق يرسمه في المشهد المزدهم الهائل ، أعمى ضالاً يتخبط ، لا يجد من يهديه ولا ما يهتدي به ، ويدعه كذلك لا يقرر في شأنه أمراً ، لأن مشهد العمى والضلال في ذلك الموقف العصيب هو وحده جزاء مرهوب ؛ يؤثر في القلوب !

وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَأْخُذُكَ خَلِيلًا ﴿٧٦﴾ وَلَوْلَا أَنْ
ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْفًا قَلِيلًا ﴿٧٧﴾ إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ
عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٨﴾ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْزِنُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٩﴾
سُنَّةً مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٨٠﴾

أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٨١﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ
فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴿٨٢﴾ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي
مُخْرَجَ صِدْقٍ وَأَجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ﴿٨٣﴾ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ
زُهُوقًا ﴿٨٤﴾ وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٥﴾

وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ ﴿٨٦﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَفُوسًا ﴿٨٧﴾ قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَىٰ
شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٩﴾ وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي
أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٩٠﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٩١﴾

قُلْ لَئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْءَانِ لَيَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ
ظَهِيرًا ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْءَانِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٣﴾ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ
حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴿٩٤﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَجِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلْفَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩٥﴾
أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِلِلِّهِ وَالْمَلَكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٦﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُرْحٍ أَوْ
تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ ﴿٩٧﴾ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا
بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٨﴾

وَمَا مَعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ أَهْدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبْعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٩﴾ قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ

مَلَائِكَةً يَمْشُونَ مُطْمَئِنِينَ لَنَزَلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكَاتًا رَسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَبُهِتَ وَمَنْ يَضِلَّ فَلَنْ يُجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ يُنصَبُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عِمَاءٌ مِثْلُ مِصْبَاحٍ مَوْجُودًا وَمِنْهُمْ جَهَنَّمَ كَمَا خَبَتْ زِدَانُهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَلِكَ جَزَاءُهم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِعَايَتِنَا وَقَالُوا أَؤُذَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفْنَا أَوْنَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ * أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَارِبِّ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾

قُلْ لَوْ أَنتم تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾
 وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ نَسْعًا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسَعَلَ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَاطِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوعُونَ مُتَّبِعُونَ ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِزَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾
 وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَا أَنَا فَرَقْنَاهُ لِنَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْتٍ وَنَزَلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَأَمِنُوا بِهِ ءَأُولَا تُؤْمِنُونَ ؕ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ ءَأِذَا بُتِلَ عَلَيْهِمْ يَجْرُونَ لِلآذِقَانِ سِجْدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحٰنَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَجْرُونَ لِلآذِقَانِ يَبْكَونَ وَيَزِيدُهُم خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾

قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ أَدْعُوا الرَّحْمٰنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَخْذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وِليٌّ مِنَ الدُّنْيَا وَكَبْرُهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾

هذا الدرس الأخير في سورة الإسراء يقوم على المحور الرئيسي للسورة . شخص الرسول - صلى الله عليه وسلم - وموقف القوم منه . والقرآن الذي جاء به وخصائص هذا القرآن .

وهو يبدأ بالإشارة إلى محاولات المشركين مع الرسول ليفتنوه عن بعض ما أنزل الله إليه ، وما هموا به من إخراجهم من مكة وعصمة الله له من فتنهم ومن استفزازهم ، لما سبق في علمه تعالى من إمهالهم وعدم أخذهم بعذاب الإيابة كالأمم قبلهم . ولوأخرجوا الرسول لحاق بهم الهلاك وفق سنة الله التي لا تتبدل مع الذين يخرجون رسلهم من الأقسام .

ومن ثم يؤمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يمضي في طريقه يصلي لربه ويقرأ قرآنه ويدعو الله أن يدخله مدخل صدق ويخرجه مخرج صدق ويجعل له سلطاناً نصيراً ، ويعلن مجيء الحق وزهوق الباطل . فهذا الاتصال بالله هو سلاحه الذي يعصمه من الفتنة ويكفل له النصر والسلطان .

ثم بيان لوظيفة القرآن فهو شفاء ورحمة لمن يؤمنون به ، وهو عذاب ونقمة على من يكذبون ، فهم في عذاب منه في الدنيا ويلقون العذاب بسببه في الآخرة .

وبمناسبة الرحمة والعذاب يذكر السياق شيئاً من صفة الإنسان في حالتي الرحمة والعذاب . فهو في النعمة متبطر معرض ، وهو في النقمة يؤوس قنوط . ويعقب على هذا بتهديد خفي بترك كل إنسان يعمل وفق طبيعته حتى يلقي في الآخرة جزاءه .

كذلك يقر أن علم الإنسان قليل ضئيل . وذلك بمناسبة سؤالهم عن الروح . والروح غيب من غيب الله ، ليس في مقدور البشر إدراكه .. والعلم المستيقن هو ما أنزله الله على رسوله . وهو من فضله عليه ولو شاء الله لذهب بهذا الفضل دون معقب ، ولكنها رحمة الله وفضله على رسوله .

ثم يذكر أن هذا القرآن المعجز الذي لا يستطيع الإنسان والجن أن يأتوا بمثله ولو اجتمعوا وتظاهروا ، والذي صرف الله فيه دلائل الهدى ونوعها لتخاطب كل عقل وكل قلب .. هذا القرآن لم يغن كفار قريش ، فراحوا يطلبون إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - خوارق مادية ساذجة كتفجير الينابيع في الأرض ، أو أن يكون له بيت من زخرف ؛ كما تعنتوا فطلبوا ما ليس من خصائص البشر كأن يرقى الرسول في السماء أمامهم ويأتي إليهم بكتاب مادي يقرأونه ، أو يرسل عليهم قطعاً من السماء تهلكهم . وزادوا عنثاً وكفراً فطلبوا أن يأتيهم بالله والملائكة قبيلاً !

وهنا يعرض السياق مشهداً من مشاهد القيامة يصور فيه عاقبتهم التي تنتظرهم جزاء هذا العنت ، وجزاء تكذيبهم بالآخرة ، واستنكارهم البعث وقد صاروا عظاماً ورفاتاً .

ويسخر من اقتراحاتهم المتعنتة ، وهم لو كانوا خزنة رحمة الله ، لأدركهم الشح البشري فأمسكوا خشية نفاذ الخزائن التي لا تنفذ ! وهم مع ذلك لا يقفون عند حد فيما يطلبون ويقترحون !

وبمناسبة طلبهم الخوارق يذكرهم بالخوارق التي جاء بها موسى فكذب بها فرعون وقومه فأهلكهم الله حسب سنته في إهلاك المكذبين .

فأما هذا القرآن فهو المعجزة الباقية الحققة . وقد جاء متفرقاً حسب حاجة الأمة التي جاء لربيتها وإعدادها . والذين أوتوا العلم من قبله من مؤمني الأمم السابقة يدركون ما فيه من حق ويدعون له ويخشعون ، ويؤمنون به ويسلمون .

وتنهي السورة بتوجيه الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى عبادة الله وحده ، وإلى تسبيحه وحمده ، كما بدأت بالتسبيح والتتزيه ..

* * *

« وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفtri علينا غيره . وإذا لاتخذوك خليلاً . ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً . إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ، ثم لا تجد لك علينا نصيراً . وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها ، وإذا لا يلبثون خلافاك إلا قليلاً . سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لستتنا تحويلاً » ..

يعدد السياق محاولات المشركين مع الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأولها محاولة فتنته عما أوحى الله إليه ، ليفتري عليه غيره ، وهو الصادق الأمين .

لقد حاولوا هذه المحاولة في صورشتى .. منها مساومتهم له أن يعبدوا إله في مقابل أن يترك التنديد بأهتهم وما كان عليه آباؤهم . ومنها مساومة بعضهم له أن يجعل أرضهم حراماً كالبيت العتيق الذي حرمه الله . ومنها طلب بعض الكبراء أن يجعل لهم مجلساً غير مجلس الفقراء ...

والنص يشير إلى هذه المحاولات ولا يفصلها ، ليدكر فضل الله على الرسول في تثبيته على الحق ، وعصمته من الفتنة ، ولونحلى عنه تثبيت الله وعصمته لركن إليهم فاتخذوه خليلاً . وللقي عاقبة الركون إلى فتنة المشركين ، وهي مضاعفة العذاب في الحياة والممات ، دون أن يجد له نصيراً منهم يعصمه من الله .

هذه المحاولات التي عصم الله منها رسوله ، هي محاولات أصحاب السلطان مع أصحاب الدعوات دائماً . محاولة إغرائهم لينحرفوا - ولو قليلاً - عن استقامة الدعوة وصلابتها . ويرضوا بالحلول الوسط التي يغرونها بها في مقابل مغنم كثيرة . ومن حملة الدعوات من يفتن بهذا عن دعوته لأنه يرى الأمرهيناً ، فأصحاب السلطان لا يطلبون إليه أن يترك دعوته كلية ، إنما هم يطلبون تعديلات طفيفة ليلتقي الطرفان في منتصف الطريق . وقد يدخل الشيطان على حامل الدعوة من هذه الثغرة ، فيتصور أن خير الدعوة في كسب أصحاب السلطان إليها ولو بالتنازل عن جانب منها !

ولكن الانحراف الطفيف في أول الطريق ينهي إلى الانحراف الكامل في نهاية الطريق . وصاحب الدعوة الذي يقبل التسليم في جزء منها ولو يسير ، وفي إغفال طرف منها ولو ضئيل ، لا يملك أن يقف عند ما سلم به أول مرة . لأن استعدادة للتسليم يتزايد كلما رجع خطوة إلى الوراء !

والمسألة مسألة إيمان بالدعوة كلها . فالذي ينزل عن جزء منها مهما صغر ، والذي يسكت عن طرف منها مهما ضؤل ، لا يمكن أن يكون مؤمناً بدعوته حق الإيمان . فكل جانب من جوانب الدعوة في نظر المؤمن هو حق كالآخر . وليس فيها فاضل ومفضل . وليس فيها ضروري ونافلة . وليس فيها ما يمكن الاستغناء عنه ، وهي كل متكامل يفقد خصائصه كلها حين يفقد أحد أجزائه . كالمركب يفقد خواصه كلها إذا فقد أحد عناصره ! وأصحاب السلطان يستدرجون أصحاب الدعوات . فإذا سلموا في الجزء فقدوا هيبتهم وحصانتهن ، وعرف المتسلطون أن استمرار المساومة ، وارتفاع السعر ينتهيان إلى تسليم الصفقة كلها !

والتسليم في جانب ولو ضئيل من جوانب الدعوة لكسب أصحاب السلطان إلى صفها ؛ هو هزيمة روحية بالاعتماد على أصحاب السلطان في نصرة الدعوة . والله وحده هو الذي يعتمد عيه المؤمنون بدعوتهم . ومتى دبت الهزيمة في أعماق السريرة ، فلن تنقلب الهزيمة نصراً !

لذلك امتن الله على رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن ثبته على ما أوحى الله ، وعصمه من فتنة المشركين له ، ووقاه الركون إليهم - ولو قليلاً - ورحمه من عاقبة هذا الركون ، وهي عذاب الدنيا والآخرة مضاعفاً ، وفقدان المعين والنصير .

وعندما عجز المشركون عن استدراج الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى هذه الفتنة حاولوا استفزازه من الأرض - أي مكة - ولكن الله أوحى إليه أن يخرج هو مهاجراً ، لما سبق في علمه من عدم إهلاك قريش بالإيابة . ولو أخرجوا الرسول - صلى الله عليه وسلم - عنوة وقسراً لحل بهم الهلاك « وإذا لا يلبثون خلافاً إلا قليلاً » فهذه هي سنة الله النافذة : « سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ، ولا تجد لسننتنا تحويلاً » .

ولقد جعل الله هذه سنة جارية لا تتحول ، لأن إخراج الرسل كبيرة تستحق التأديب الحاسم . وهذا الكون تصرفه سنن مطردة ، لا تتحول أمام اعتبار فردي . وليست المصادفات العابرة هي السائدة في هذا الكون ، إنما هي السنن المطردة الثابتة . فلما لم يرد الله أن يأخذ قريشاً بعذاب الإيابة كما أخذ المكذبين من قبل ، لحكمة علوية ، لم يرسل الرسول بالخوارق ، ولم يقدر أن يخرجوه عنوة ، بل أوحى إليه بالهجرة . ومضت سنة الله في طريقها لا تتحول ..

* * *

بعد ذلك يوجه الله رسوله - صلى الله عليه وسلم - إلى الاتصال به ، واستمداد العون منه ، والمضي في طريقه ، يعلن انتصار الحق وزهوق الباطل :

« أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل ، وقرآن الفجر ، إن قرآن الفجر كان مشهوداً ؛ ومن الليل فتهجد به نافلة لك ، عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ، وقل ربّ أدخني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً . وقل : جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقاً . ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ، ولا يزيد الظالمين إلا خساراً » ..

ودلوك الشمس هو ميلها إلى المغرب . والأمر هنا للرسول - صلى الله عليه وسلم - خاصة . أما الصلاة المكتوبة فلها أوقاتها التي تواترت بها أحاديث الرسول - صلى الله عليه وسلم - وتواترت بها سنته العملية . وقد فسر بعضهم دلوك الشمس بزوالها عن كبد السماء ، والغسق بأول الليل ، وفسر قرآن الفجر بصلاة الفجر ، وأخذ من هذا أوقات الصلاة المكتوبة وهي الظهر والعصر والمغرب والعشاء - من دلوك الشمس إلى الغسق - ثم الفجر . وجعل التهجد وحده هو الذي اختص رسول الله بأن يكون مأموراً به ، وأنه نافلة له . ونحن نميل إلى الرأي الأول . وهو أن كل ما ورد في هذه الآيات مختص بالرسول - صلى الله عليه وسلم - وأن أوقات الصلاة المكتوبة ثابتة بالسنة القولية والعملية .

« أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل » .. أقم الصلاة ما بين ميل الشمس للغروب وإقبال الليل وظلامه ، وقرأ قرآن الفجر « إن قرآن الفجر كان مشهوداً » .. ولهذين الآيتين خاصيتهما وهما إدبار النهار وإقبال الليل . وإدبار الليل وإقبال النهار . ولهما وقعهما العميق في النفس ، فإن مقدم الليل وزحف الظلام ، كمطلع النور وانكشاف الظلمة .. كلاهما يخشع فيه القلب ، وكلاهما مجال للتأمل والتفكير في نواميس الكون التي لا تفتقر لحظة ولا تخل مرة . وللقرآن - كما للصلاة - إيقاعه في الحس في مطلع الفجر ونداوته ، ونسماته الرخية ، وهدوئه السارب ، وتفتحته بالنور ، ونبضه بالحركة ، وتنفسه بالحياة .

« ومن الليل فتهجد به نافلة لك » .. والتهجد الصلاة بعد نومة أول الليل . والضمير في « به » عائذ على القرآن ، لأنه روح الصلاة وقوامها .

« عسى أن يعثلك ربك مقاماً محموداً » .. بهذه الصلاة وبهذا القرآن والتهجد به ، وهذه الصلة الدائمة بالله . فهذا هو الطريق المؤدي إلى المقام المحمود وإذا كان الرسول - صلى الله عليه وسلم - يؤمر بالصلاة والتهجد والقرآن ليعثه ربه المقام المحمود المأذون له به ^١ ، وهو المصطفى المختار ، فما أحوج الآخرين إلى هذه الوسائل لينالوا المقام المأذون لهم به في درجاتهم . فهذا هو الطريق . وهذا هو زاد الطريق .

« وقل : رب أدخلني مدخل صدق . وأخرجني مخرج صدق ، واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً » . وهو دعاء يعلمه الله لبيبه ليدعوه به . ولتتعلم أمته كيف تدعو الله وفيه تتجه إليه . دعاء بصدق المدخل وصدق المخرج ، كناية عن صدق الرحلة كلها . بدئها وختامها . أولها وآخرها وما بين الأول والآخر . وللصدق هنا قيمته بمناسبة ما حاوله المشركون من فتنته عما أنزل الله عليه ليفتري على الله غيره . وللصدق كذلك ظلاله : ظلال الثبات والاطمئنان والنظافة والإخلاص . « واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً » قوة وهيبة أستعلي بهما على سلطان الأرض وقوة المشركين وكلمة « من لدنك » تصور القرب والاتصال بالله والاستمداد من عونه مباشرة واللجوء إلى حماه .

وصاحب الدعوة لا يمكن أن يستمد السلطان إلا من الله . ولا يمكن أن يهاب إلا بسلطان الله . لا يمكن أن يستظل بحاكم أو ذي جاه فينصره ويمنعه ما لم يكن اتجاهه قبل ذلك إلى الله . والدعوة قد تغزو قلوب ذوي السلطان والجاه ، فيصبحون لها جنداً وخداماً فيفلحون ، ولكنها هي لا تفلح إن كانت من جند السلطان وخدمه ، فهي من أمر الله ، وهي أعلى من ذوي السلطان والجاه .

« وقل : جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً » ..

بهذا السلطان المستمد من الله ، أعلن مجيء الحق بقوته وصدقه وثباته ، وزهوق الباطل واندحاره وجلاءه . فن طبيعة الصدق أن يحيا ويثبت ، ومن طبيعة الباطل أن يتوارى ويزهق ..

« إن الباطل كان زهوقاً » .. حقيقة لدية يقررها بصيغة التوكيد . وإن بدا للنظرة الأولى أن للباطل صولة ودولة . فالباطل ينتفخ ويتنفخ وينفش ، لأنه باطل لا يطمئن إلى حقيقة ؛ ومن ثم يحاول أن يمويه على العين ، وأن يبدو عظيماً كبيراً ضخماً راسخاً ، ولكنه هش سريع العطب ، كشمعة الهشيم ترتفع في الفضاء عالياً ثم تحبو سريعاً وتستحيل إلى رماد ؛ بينما الجمرة الذاكية تدفئ وتنفع وتبقى ؛ وكالزبد يطفو على الماء ولكنه يذهب جفاء ويبقى الماء .

« إن الباطل كان زهوقاً » .. لأنه لا يحمل عناصر البقاء في ذاته ، إنما يستمد حياته الموقوتة من عوامل خارجية وأسناد غير طبيعية ؛ فإذا تخلخلت تلك العوامل ، ووهت هذه الأسناد تهاوى وانهار . فأما الحق فن ذاته يستمد عناصر وجوده . وقد تقف ضده الأهواء وتقف ضده الظروف ويقف ضده السلطان .. ولكن ثباته واطمئنانه يجعل له العقبى ويكفل له البقاء ، لأنه من عند الله الذي جعل « الحق » من أسائه وهو الحي الباقي الذي لا يزول .

« إن الباطل كان زهوقاً » .. ومن ورائه الشيطان ، ومن ورائه السلطان . ولكن وعد الله أصدق ، وسلطان

(١) في روايات أنه مقام الشفاعة يوم القيامة .

الله أقوى . وما من مؤمن ذاق طعم الإيمان ، إلا وذاق معه حلاوة الوعد ، وصدق العهد . ومن أوفى بعهده من الله ؟ ومن أصدق من الله حديثاً ؟

* * *

« ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين » ..

وفي القرآن شفاء ، وفي القرآن رحمة ، لمن خالطت قلوبهم بشاشة الإيمان ، فأشرقت وفتحت لتلقي ما في القرآن من رُوح ، وطمأنينة وأمان .

في القرآن شفاء من الوسوسة والقلق والحيرة . فهو يصل القلب بالله ، فيسكن ويطمئن ويستشعر الحماية والأمن ؛ ويرضى فيستروح الرضى من الله والرضى عن الحياة ؛ والقلق مرض ، والحيرة نصب ، والوسوسة داء . ومن ثم هو رحمة للمؤمنين .

وفي القرآن شفاء من الهوى والدنس والطمع والحسد ونزغات الشيطان .. وهي من آفات القلب تصيبه بالمرض والضعف والتعب ، وتدفع به إلى التحطم والبلبلى والانهار . ومن ثم هو رحمة للمؤمنين .

وفي القرآن شفاء من الاتجاهات المختلفة في الشعور والتفكير . فهو يعصم العقل من الشطط ، ويطلق له الحرية في مجالاته المثمرة ، ويكفّه عن إنفاق طاقته فيما لا يجدي ، ويأخذه بمنهج سليم مضبوط ، يجعل نشاطه منتجاً ومأموناً . ويعصمه من الشطط والزلل . وكذلك هو في عالم الجسد ينفق طاقاته في اعتدال بلا كبت ولا شطط فيحفظه سليماً معافى ويدخر طاقاته للإنتاج المثمر . ومن ثم هو رحمة للمؤمنين .

وفي القرآن شفاء من العلل الاجتماعية التي تخلخل بناء الجماعات ، وتذهب بسلامتها وأمنها وطمأنيتها . فتعيش الجماعة في ظل نظامه الاجتماعي وعدالته الشاملة في سلامة وأمن وطمأنينة . ومن ثم هو رحمة للمؤمنين .

« ولا يزيد الظالمين إلا خساراً » ..

فهم لا ينتفعون بما فيه من شفاء ورحمة . وهم في غيظ وقهر من استعلاء المؤمنين به ، وهم في عنادهم وكبريائهم يشتطون في الظلم والفساد ، وهم في الدنيا مغلوبون من أهل هذا القرآن ، فهم خاسرون . وفي الآخرة معدبون بكفرهم به ولجاجهم في الطغيان ، فهم خاسرون : « ولا يزيد الظالمين إلا خساراً » ..

* * *

فأما حين يترك الإنسان بلا شفاء ولا رحمة . حين يترك لزرعاته واندفاعاته فهو في حال النعمة متبطر معرض لا يشكر ولا يذكر ، وهو في حال الشدة يائس من رحمة الله ، تظلم في وجهه فجاج الحياة :

« وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه ، وإذا مسه الشر كان يؤوساً » ..

والنعمة تظني وتبطر ما لم يذكر الإنسان واهبها فيحمد ويشكر ، والشدة تبيس وتقنط ما لم يتصل الإنسان بالله ، فيرجو ويأمل ، ويطمئن إلى رحمة الله وفضله ، فيتفاءل ويستبشر .

ومن هنا تتجلى قيمة الإيمان وما فيه من رحمة في السراء والضراء سواء .

ثم يقرر السياق أن كل فرد وكل فريق يعمل وفق طريقته واتجاهه ؛ والحكم على الاتجاهات والأعمال موكول لله :

« قل : كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً » ..

وفي هذا التقرير تهديد خفي ، بعاقبة العمل والاتجاه ، ليأخذ كل حذره ، ويحاول أن يسلك سبيل الهدى ويجد طريقه إلى الله .

* * *

وراح بعضهم يسأل الرسول - صلى الله عليه وسلم - عن الروح ما هو؟ والمنهج الذي سار عليه القرآن - وهو المنهج الأقوم - أن يجيب الناس عما هم في حاجة إليه ، وما يستطيع إدراكهم البشري بلوغه ومعرفته ؛ فلا يبدد الطاقة العقلية التي وهبها الله لهم فيما لا ينتج ولا يثمر ، وفي غير مجاها الذي تملك وسائله وتحيط به . فلما سألوه عن الروح أمره الله أن يجيبهم بأن الروح من أمر الله ، اختص بعلمه دون سواه :

« ويسألونك عن الروح . قل : الروح من أمر ربي . وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » ..

وليس في هذا حجر على العقل البشري أن يعمل . ولكن فيه توجيهاً لهذا العقل أن يعمل في حدوده وفي مجاله الذي يدرکه . فلا جدوى من الخبط في التيه ، ومن إنفاق الطاقة فيما لا يملك العقل إدراكه لأنه لا يملك وسائل إدراكه . والروح غيب من غيب الله لا يدرکه سواه ، وسر من أسراره القدسية أودعه هذا المخلوق البشري وبعض الخلائق التي لا نعلم حقيقتها . وعلم الإنسان محدود بالقياس إلى علم الله المطلق ، وأسرار هذا الوجود أوسع من أن يحيط بها العقل البشري المحدود . والإنسان لا يدبر هذا الكون فطاقاته ليست شاملة ، إنما وهب منها بقدر محيطه وبقدر حاجته ليقوم بالخلافة في الأرض ، ويحقق فيها ما شاء الله أن يحققه ، في حدود علمه القليل .

ولقد أبدع الإنسان في هذه الأرض ما أبدع ؛ ولكنه وقف حسيماً أمام ذلك السر اللطيف - الروح - لا يدري ما هو ، ولا كيف جاء ، ولا كيف يذهب ، ولا أين كان ولا أين يكون ، إلا ما يخبر به العليم الخبير في التنزيل .

وما جاء في التنزيل هو العلم المستيقن ، لأنه من العليم الخبير . ولو شاء الله لحرم البشرية منه ، وذهب بما أوحى إلى رسوله ؛ ولكنها رحمة الله وفضله .

« ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك ، ثم لا تجد لك به علينا وكيلاً . إلا رحمة من ربك ، إن فضلنا ، كان عليك كبيراً » ..

والله يمتن على رسوله - صلى الله عليه وسلم - بهذا الفضل . فضل إنزال الوحي ، واستبقاء ما أوحى به إليه ؛ المنة على الناس أكبر ، فهم بهذا القرآن في رحمة وهداية ونعمة ، أجيالاً بعد أجيال .

* * *

وكما أن الروح من الأسرار التي اختص الله بها فالقرآن من صنع الله الذي لا يملك الخلق محاكاته ، ولا يملك الإنس والجن - وهما يمثلان الخلق الظاهر والخفي - أن يأتوا بمثله ، ولوتظاهروا وتعاونوا في هذه المحاولة :

« قل : لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » ..

فهذا القرآن ليس ألفاظاً وعبارات يحاول الإنس والجن أن يحاكوها . إنما هو كسائر ما يبدعه الله يعجز

(١) في الأرجح أن هذا السؤال جاء من أهل الكتاب وأن هذه الآية مدنية هي وسبع آيات بعدها .

المخلوقون أن يصنعوه . هو كالروح من أمر الله لا يدرك الخلق سره الشامل الكامل ، وإن أدركوا بعض أوصافه وخصائصه وآثاره .

والقرآن بعد ذلك منهج حياة كامل . منهج ملحوظ فيه نواميس الفطرة التي تصرف النفس البشرية في كل أطوارها وأحوالها ، والتي تصرف الجماعات الإنسانية في كل ظروفها وأطوارها . ومن ثم فهو يعالج النفس المفردة ، ويعالج الجماعة المتشابكة ، بالقوانين الملائمة للفطرة المتغلغلة في وراثتها ودورها ومنحنياتها الكثيرة . يعالجها علاجاً متكاملًا متناسق الخطوات في كل جانب ، في الوقت الواحد ، فلا يغيب عن حسابه احتمال من الاحتمالات الكثيرة ولا ملابسة من الملابس المتعارضة في حياة الفرد وحياة الجماعة . لأن مشروع هذه القوانين هو العليم بالفطرة في كل أحوالها وملابسها المتشابكة .

أما النظم البشرية فهي متأثرة بقصور الإنسان وملابس حياته . ومن ثم فهي تقصر عن الإحاطة بجميع الاحتمالات في الوقت الواحد ؛ وقد تعالج ظاهرة فردية أو اجتماعية بدواء يؤدي بدوره إلى بروز ظاهرة أخرى تحتاج إلى علاج جديد !

إن إعجاز القرآن أبعد مدى من إعجاز نظمه ومعانيه ، وعجز الإنس والجن عن الإتيان بمثله هو عجز كذلك عن إبداع منهج كمنهجه يحيط بما يحيط به .

« ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفورا . وقالوا : لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ؛ أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا ؛ أو تسقط السماء - كما زعمت - علينا كسفاً ؛ أو تأتي بالله والملائكة قبيلا ؛ أو يكون لك بيت من زخرف ؛ أو ترقي في السماء . ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه ... » .

وهكذا قصر إدراكهم عن التطلع إلى آفاق الإعجاز القرآنية ، فراحوا يطلبون تلك الخوارق المادية ، ويتعمنون في اقتراحاتهم الدالة على الطفولة العقلية ، أو يتبجحون في حق الذات الإلهية بلا أدب ولا تحرج .. لم يفهمهم تصريف القرآن للأمثال والتنوع فيها لعرض حقائقه في أساليب شتى تناسب شتى العقول والمشاعر ، وشتى الأجيال والأطوار . « فأبى أكثر الناس إلا كفورا » وعلقوا إيمانهم بالرسول - صلى الله عليه وسلم - بأن يفجر لهم من الأرض ينبوعاً ! أو بأن تكون له جنة من نخيل وعنب يفجر الأنهار خلالها تفجيراً ! أو أن يأخذهم بعذاب من السماء ، فيسقطها عليهم قطعاً كما أنذرهم أن يكون ذلك يوم القيامة ! أو أن يأتي بالله والملائكة قبيلاً يناصره ويدفع عنه كما يفعلون هم في قبائلهم ! أو أن يكون له بيت من المعادن الثمينة . أو أن يرقى في السماء . ولا يكفي أن يعرج إليها وهم ينظرونه ، بل لا بد أن يعود إليهم ومعه كتاب محبر يقرأونه ! وتبدو طفولة الإدراك والتصور ، كما يبدو التعنت في هذه المقترحات الساذجة . وهم يسوون بين البيت المزخرف والعروج إلى السماء ! أو بين تفجير ينبوع من الأرض ومجيء الله - سبحانه - والملائكة قبيلاً ! والذي يجمع في تصورهم بين هذه المقترحات كلها هو أنها خوارق . فإذا جاءهم بها نظروا في الإيمان له والتصديق به !

وغفلوا عن الخارقة الباقية في القرآن ، وهم يعجزون عن الإتيان بمثله في نظمه ومعناه ومنهجه ، ولكنهم لا يلمسون هذا الإعجاز بحواسهم فيطلبون ما تدركه الحواس !

والخارقة ليست من صنع الرسول ، ولا هي من شأنه ، إنما هي من أمر الله سبحانه وفق تقديره وحكمته . وليس من شأن الرسول أن يطلبها إذا لم يعطه الله إياها . فأدب الرسالة وإدراك حكمة الله في تدييره يمنعان

الرسول أن يقترح على ربه ما لم يصرح له به .. « قل : سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولا » يقف عند حدود بشريته ، ويعمل وفق تكاليف رسالته ، لا يقترح على الله ولا يتزيد فيما كلفه إياه .

* * *

ولقد كانت الشبهة التي عرضت للأقوام من قبل أن يأتيهم محمد - صلى الله عليه وسلم - ومن بعد ما جاءهم ، والتي صدتهم عن الإيمان بالرسول وما معهم من الهدى ، أنهم استبعدوا أن يكون الرسول بشراً ؛ ولا يكون ملكاً :

« وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا : أبعث الله بشراً رسولا ؟ »

وقد نشأ هذا الوهم من عدم إدراك الناس لقيمة بشريتهم وكرامتها على الله ، فاستكثروا على بشر أن يكون رسولاً من عند الله . كذلك نشأ هذا الوهم من عدم إدراكهم لطبيعة الكون وطبيعة الملائكة ، وأنهم ليسوا مهئين للاستقرار في الأرض وهم في صورتهم الملائكية حتى يميزهم الناس ويستيقنوا أنهم ملائكة .

« قل : لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولا » .

فلو قدر الله أن الملائكة تعيش في الأرض لصاغهم في صورة آدمية ، لأنها الصورة التي تتفق مع نوااميس الخلق وطبيعة الأرض ، كما قال في آية أخرى : « ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً » والله قادر على كل شيء ، ولكنه خلق نوااميس وبراً مخلوقاته وفق هذه النوااميس بقدرته واختياره ، وقدر أن تمضي النوااميس في طريقها لا تتبدل ولا تتحول ، لتحقق حكمته في الخلق والتكوين - غير أن القوم لا يدركون !

وما دامت هذه سنة الله في خلقه ، فهو يأمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن ينهي معهم الجدل ، وأن يكل أمره وأمرهم إلى الله يشهده عليهم ، ويدع له التصرف في أمرهم ، وهو الخبير البصير بالعباد جميعاً :

« قل : كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ، إنه كان بعباده خبيراً بصيراً » ..

وهو قول يحمل رائحة التهديد . أما عاقبته فيرسمها في مشهد من مشاهد القيامة مخيف :

« ومن يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ، ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً ، ما أوهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً . ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا ، وقالوا : أئذا كنا عظاماً ورفاتاً أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً ؟ أولم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم ؟ وجعل لهم أجلاً لا ريب فيه ، فأبى الظالمون إلا كفوراً » ..

ولقد جعل الله للهدى وللضلال سنناً ، وترك الناس لهذه السنن يسرون وفقها ، ويتعرضون لعواقبها . ومن هذه السنن أن الإنسان مهياً للهدى وللضلال ، وفق ما يحاوله لنفسه من السير في طريق الهدى أو طريق الضلال . فالذي يستحق هداية الله بمحاولته واتجاهه يهديه الله ؛ وهذا هو المهتدي حقاً ، لأنه اتبع هدى الله . والذين يستحقون الضلال بالإعراض عن دلائل الهدى وآياته لا يعصمهم أحد من عذاب الله : « فلن تجد لهم أولياء من دونه » ويحشرهم يوم القيامة في صورة مهينة مزعجة : « على وجوههم » يتكفأون « عمياً وبكماً وصماً » مطموسين محرومين من جوارحهم التي تهديهم في هذا الزحام . جزاء ما عطلوا هذه الجوارح في الدنيا عن إدراك دلائل الهدى . و « ما أوهم جهنم » في النهاية ، لا تبرد ولا تفتت « كلما خبت زدناهم سعيراً » .

وهي نهاية مفزعة وجزاء مخيف . ولكنهم يستحقونه بكفرهم بآيات الله : « ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا » واستنكروا البعث واستبعدوا وقوعه : « وقالوا : أئذا كنا عظاماً ورفاتاً أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً ؟ »

والسياق يعرض هذا المشهد كأنه هو الحاضر الآن ، وكأننا الدنيا التي كانوا فيها قد انطوت صفحتها وصارت ماضياً بعيداً .. وذلك على طريقة القرآن في تجسيم المشاهد وعرضها واقعة حية ، تفعل فعلها في القلوب والمشاعر قبل فوات الأوان .

ثم يعود ليجادلهم بالمنطق الواقعي الذي يرونه فيغفلونه .

« أو لم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم ؟ » فأية غرابة في البعث ؛ والله خالق هذا الكون الهائل قادر على أن يخلق مثلهم ، فهو قادر إذاً على أن يعيدهم أحياء . « وجعل لهم أجلاً لا ريب فيه » أنظرهم إليه ، وأجلهم إلى مواعده « فأبى الظالمون إلا كفوراً » فكان جزاؤهم عادلاً بعد منطق الدلالات ومنطق المشاهدات ، ووضوح الآيات .

* * *

على أن أولئك الذين يقترحون على الرسول - صلى الله عليه وسلم - تلك المقترحات المتعنتة ، من بيوت الزخرف ، وجنات النخيل والأعناب ، والبنابيع المتفجرة .. بخلاء أشقاء حتى لو أن رحمة الله قد وكلت إليهم خزائنها لأمسكوا وبخلوا خوفاً من نفاذها ، ورحمة الله لا تنفذ ولا تغيب :

« قل : لو أتمتم تملكون خزائن رحمة ربي إذاً لأمسكنكم خشية الإنفاق وكان الإنسان قتوراً » .

وهي صورة بالغة للشح ، فإن رحمة الله وسعت كل شيء ، ولا يخشى نفاذها ولا نقصها . ولكن نفوسهم لشحيحة تمنع هذه الرحمة وتبخل بها لو أنهم كانوا هم خزنتها !

* * *

وعلى أية حال فإن كثرة الخوارق لا تنشيء الإيمان في القلوب الجاحدة . وما هوذا موسى قد أوتي تسع آيات بينات ثم كذب بها فرعون وملؤه ، فحل بهم الهلاك جميعاً .

« ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ، فاسأل بني إسرائيل إذ جاءهم ، فقال له فرعون : إني لأظنك يا موسى مسحوراً . قال : لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر ، وإني لأظنك يا فرعون مشبوراً . فأراد أن يستفزهم من الأرض فأغرقتاه ومن معه جميعاً . وقلنا من بعده لبني إسرائيل : اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لقيفا » ..

وهذا المثل من قصة موسى وبني إسرائيل يذكر لتناسقه مع سياق السورة وذكر المسجد الأقصى في أولها وطرف من قصة بني إسرائيل وموسى . وكذلك يعقب عليه بذكر الآخرة والمجيء بفرعون وقومه لمناسبة مشهد القيامة القريب في سياق السورة ومصير المكذبين بالبعث الذي صوره هذا المشهد .

والآيات التسع المشار إليها هنا هي اليد البيضاء والعصا وما أخذ الله به فرعون وقومه من السنين ونقص الثمرات والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم .. « فاسأل بني إسرائيل إذ جاءهم » فهم شهداء على ما كان بين موسى وفرعون :

« فقال له فرعون : إني لأظنك يا موسى مسحوراً » .. فكلمة الحق وتوحيد الله والدعوة إلى ترك الظلم والطغيان والإيذاء لا تصدر في عرف الطاغية إلا من مسحور لا يدري ما يقول ! فما يستطيع الطغاة من أمثال فرعون أن يتصوروا هذه المعاني ؛ ولا أن يرفع أحد رأسه ليتحدث عنها وهو يملك قواه العقلية !

فأما موسى فهو قوي بالحق الذي أرسل به مشرقاً منيراً ؛ مطمئن إلى نصره الله له وأخذة للطغاة :

« قال : لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض . بصائر . وإني لأظنك يا فرعون مثبورا »
هالكاً مدمراً ، جزاء تكذيبك بآيات الله وأنت تعلم أن لا أحد غيره يملك هذه الخوارق . وإنها لواضحة
مكشوفة منيرة للبصائر ، حتى لكأنها البصائر تكشف الحقائق وتجلوها .

عندئذ يلجأ الطاغية إلى قوته المادية ، ويعزم أن يزيلهم من الأرض ويبيدهم ، « فأراد أن يستفزهم من
الأرض » فكذلك يفكر الطغاة في الرد على كلمة الحق .

وعندئذ تحقق على الطاغية كلمة الله ، وتجري سنته بإهلاك الظالمين وتورث المستضعفين الصابرين : « فأغرقناه
ومن معه جميعاً . . . وقلنا من بعده لبني إسرائيل : اسكنوا الأرض . فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيقا » ..
وهكذا كانت عاقبة التكذيب بالآيات . وهكذا أورث الله الأرض للذين كانوا يستضعفون ، موكلين فيها
إلى أعمالهم وسلوكهم . وقد عرفنا كيف كان مصيرهم في أول السورة - أما هنا فهو يكلهم هم وأعداءهم إلى
جزاء الآخرة ، « فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيقا » .

* * *

ذلك مثل من الخوارق ، وكيف استقبلها المكذبون ، وكيف جرت سنة الله مع المكذبين . فأما هذا القرآن
فقد جاء بالحق ليكون آية دائمة ، ونزل مفرقاً ليقراً على مهل في الزمن الطويل :
« وبالحق أنزلناه وبالحق نزل ، وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً ، وقرآنًا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث
ونزلناه تنزيلاً » ..

لقد جاء هذا القرآن ليربي أمة ، ويقم لها نظاماً ، فتحمله هذه الأمة إلى مشارق الأرض ومغاربها ، وتعلم
به البشرية هذا النظام وفق المنهج الكامل المتكامل . ومن ثم فقد جاء هذا القرآن مفرقاً وفق الحاجات الواقعية
لتلك الأمة ، وفق الملابس التي صاحبت فترة التربية الأولى . والتربية تم في الزمن الطويل ، وبالتجربة
العملية في الزمن الطويل . جاء ليكون منهجاً عملياً يتحقق جزءاً جزءاً في مرحلة الإعداد ، لا فقهاً نظرياً ولا
فكرة تجريدية تعرض للقراءة والاستمتاع الذهني !
وتلك حكمة نزوله متفرقاً ، لا كتاباً كاملاً منذ اللحظة الأولى .

ولقد تلقاه الجيل الأول من المسلمين على هذا المعنى . تلقوه توجيهاً يطبق في واقع الحياة كلما جاءهم منه
أمر أو نهي ، وكلما تلقوا منه أدباً أو فريضة . ولم يأخذوه متعة عقلية أو نفسية كما كانوا يأخذون الشعر والأدب ،
ولا تسلية وتلهية كما كانوا يأخذون القصص والأساطير فتكيفوا به في حياتهم اليومية . تكيفوا به في مشاعرهم
وضمائرهم ، وفي سلوكهم ونشاطهم . وفي بيوتهم ومعاشهم . فكان منهج حياتهم الذي طرحوا كل ما عداه
مما ورثوه ، ومما عرفوه ، ومما مارسوه قبل أن يأتيهم هذا القرآن .

قال ابن مسعود - رضي الله عنه - كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل
هن .

ولقد أنزل الله هذا القرآن قائماً على الحق : « وبالحق أنزلناه » فنزل ليقر الحق في الأرض ويثبت : « وبالحق
نزل » .. فالحق مادته والحق غايته . ومن الحق قوامه ، وبالحق اهتنامه .. الحق الأصيل الثابت في ناموس
الوجود ، والذي خلق الله السماوات والأرض قائمين به ، متلبساً بهما ، والقرآن مرتبط بناموس الوجود كله ،
يشير إليه ويدل عليه وهو طرف منه . فالحق سده ولحمته ، والحق مادته وغايته . والرسول مبشرو منذر بهذا
الحق الذي جاء به .

وهنا يأمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يجبه القوم بهذا الحق ، ويدع لهم أن يختاروا طريقهم . إن شاءوا آمنوا بالقرآن وإن شاءوا لم يؤمنوا . وعليهم تبعه ما يختارون لأنفسهم : ويضع أمام أنظارهم نموذجاً من تلقي الذين أوتوا العلم من قبله من اليهود والنصارى المؤمنين لهذا القرآن ، لعل لهم فيه قدوة وأسوة وهم الأميون الذين لم يؤتوا علماً ولا كتاباً :

« قل : آمنوا به أو لا تؤمنوا . إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً ، ويقولون : سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً ؛ ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً » ..

وهو مشهد موح يلمس الوجدان . مشهد الذين أوتوا العلم من قبله ، وهم يسمعون القرآن ، فيخشعون ، و « يخرون للأذقان سجداً » إنهم لا يتألمون أنفسهم ، فهم لا يسجدون ولكن « يخرون للأذقان سجداً » ثم تنطق ألسنتهم بما خالج مشاعرهم من إحساس بعظمة الله وصدق وعده : « سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً » . ويغلبهم التأثير فلا تكفي الألفاظ في تصوير ما يجيش في صدورهم منه ، فإذا الدموع تنطلق معبرة عن ذلك التأثير الغامر الذي لا تصوره الألفاظ : « ويخرون للأذقان يبكون » .. « ويزيدهم خشوعاً » فوق ما استقبلوه به من خشوع .

إنه مشهد مصور لحالة شعورية غامرة ، يرسم تأثير هذا القرآن في القلوب المفتوحة لاستقبال فيضه ؛ العارفة بطبيعته وقيمته بسبب ما أوتيت من العلم قبله . والعلم المقصود هو ما أنزله الله من الكتاب قبل القرآن ، فالعلم الحق هو ما جاء من عند الله .

* * *

هذا المشهد الموحى للذين أوتوا العلم من قبل يعرضه السياق بعد تخيير القوم في أن يؤمنوا بهذا القرآن أو لا يؤمنوا ، ثم يعقب عليه بتركهم يدعون الله بما شاءوا من الأسماء - وقد كانوا بسبب أوهامهم الجاهلية ينكرون تسمية الله بالرحمن ، ويستبدون هذا الاسم من أسماء الله - فكلها أسماءه فما شاءوا منها فليدعوه بها :

« قل : ادعوا الله أو ادعوا الرحمن . أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى » .

وإن هي إلا سخافات الجاهلية وأوهام الوثنية التي لا تثبت للمناقشة والتعليل .

كذلك يؤمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يتوسط في صلاته بين الجهر والخفوت لما كانوا يقابلون به صلته من استهزاء وإيذاء ، أو من نفور وابتعاد و لعل الأمر كذلك لأن التوسط بين الجهر والخفاء أليق بالوقوف في حضرة الله :

« ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلاً » ..

* * *

وتختم السورة كما بدأت بحمد الله وتقرير وحدانيته بلا ولد ولا شريك ، وتزويه عن الحاجة إلى الولي والنصير . وهو العلي الكبير . فيلخص هذا الختام محور السورة الذي دارت عليه ، والذي بدأت ثم ختمت به :

« وقل : الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ، ولم يكن له شريك في الملك . ولم يكن له ولي من الدن . وكبره تكبيراً » ..

(١٨) سُورَةُ الْكَهْفِ مَكِّيَّةٌ وَآيَاتُهَا عَشِيرٌ وَمِائَةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴿١﴾ فِيمَا تَلْنِدِرُ بَأْسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرُ
الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَلَائِكِينَ فِيهِ أَبْدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ
اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾
فَلَعَلَّكَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ عَلَيَّ نَفْسًا مِّنْ أَوْلَادِهِمْ إِن لَّمْ يُوْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا
لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾
أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا
رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضْرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾
ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾
نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا
فَقَالُوا رَبَّنَا رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لِنَدْعُوكَ مِنْ دُونِهَا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَتُّوْلَاءَ قَوْمَنَا
أَتَّخِذُوا مِن دُونِنَا آلِهَةً قَوْلًا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ﴿١٥﴾ فَنُظْمِمْ مِّنْ أَمْرِنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٦﴾ وَإِذَا عَزَلْتَ قُلُوبَهُمْ
وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَاوْتُوا إِلَى الْكَهْفِ يَبْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَّحْمَتِهِ وَوَهِّبْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا ﴿١٧﴾
* وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَّوَّرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبُ مِنْهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ

فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَبِهِدِّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضِلِّ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْسِدًا ﴿١٧﴾
وَتَحْسِبُهُمْ أَيْقَاطًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقِلَبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعَتْ
عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتُ مِنْهُمْ فِرَارًا ۖ وَوَلَّيْتُ مِنْهُمْ رُجْبًا ﴿١٨﴾

وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا رَبُّكُمْ
أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِكِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ
وَلَا يُسْعِرَنَّ بَكَرًا أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾

وَكَذَٰلِكَ أَعَثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَن وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَن السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا
أَبْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾
سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ
كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۚ فَلَا تُمَارِفِهِمْ إِلَّا مَرَاءَ ظَهْرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ
أَحَدًا ﴿٢٢﴾

وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَن يَسْأَلَ اللَّهُ ۖ وَادَّكُرَّ رَبُّكَ إِذَا نَسِيتَ ۖ وَقُلْ عَسَىٰ أَن
يَهْدِيَنِّي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾

وَلْيَبْثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ ۖ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
أَبْصَرُ بِهِ ۚ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِّن دُونِهِ ۚ مِن وَّلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ وَأَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ
رَبِّكَ لَا يُبَدِّلُ لِكَلِمَتِهِ ۚ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾

القصص هو العنصر الغالب في هذه السورة . ففي أولها تبيء قصة أصحاب الكهف ، وبعدها قصة الجنتين ،
ثم إشارة إلى قصة آدم وإبليس . وفي وسطها تبيء قصة موسى مع العبد الصالح . وفي نهايتها قصة ذي القرنين .
ويستغرق هذا القصص معظم آيات السورة ، فهو وارد في إحدى وسبعين آية من عشر ومائة آية ؛ ومعظم ما
يتبقى من آيات السورة هو تعليق أو تعقيب على القصص فيها . وإلى جوار القصص بعض مشاهد القيامة ، وبعض

مشاهد الحياة التي تصور فكرة أو معنى ، على طريقة القرآن في التعبير بالتصوير .
أما المحور الموضوعي للسورة الذي ترتبط به موضوعاتها ، ويدور حوله سياقها ، فهو تصحيح العقيدة وتصحيح منهج النظر والفكر . وتصحيح القيم بميزان هذه العقيدة .
فأما تصحيح العقيدة فيقرره بلؤها وختامها .

في البدء : « الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً . قيباً . لينذر بأساً شديداً من لدنه ؛ ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً ما كثين فيه أبداً . وينذر الذين قالوا : اتخذ الله ولداً . ما لهم به من علم ولا آباء لهم . كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً » .
وفي الختام : « قل : إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ أنما إلهكم إله واحد ، فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً » .

وهكذا يتساق البدء والختام في إعلان الوحدة وإنكار الشرك ، وإثبات الوحي ، والتمييز المطلق بين الذات الإلهية وذوات الحوادث .

ويلمس سياق السورة هذا الموضوع مرات كثيرة في صورشتى :

في قصة أصحاب الكهف يقول الفتية الذين آمنوا بربهم : « ربنا رب السماوات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً ، لقد قلنا إذن شططاً » .

وفي التعقيب عليها : « ما لهم من دونه من ولي ، ولا يشرك في حكمه أحداً » ..

وفي قصة الجنتين يقول الرجل المؤمن لصاحبه وهو يحاوره : « أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً ، لكننا هو الله ربّي ولا أشرك بربي أحداً » .

وفي التعقيب عليها : « ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً ، هنالك الولاية لله الحق ، هو خير ثواباً وخير عقباً » .

وفي مشهد من مشاهد القيامة : « ويوم يقول : نادوا شركائي الذين زعمتم ، فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ، وجعلنا بينهم موبقاً » .

وفي التعقيب على مشهد آخر : « أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء ؟ إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلاً »

* * *

أما تصحيح منهج الفكر والنظر فيتجلى في استنكار دعاوى المشركين الذين يقولون ما ليس لهم به علم ، والذين لا يأتون على ما يقولون ببرهان . وفي توجيه الإنسان إلى أن يحكم بما يعلم ولا يتعداه ، وما لا علم له به فليدع أمره إلى الله .

ففي مطلع السورة : « وينذر الذين قالوا : اتخذ الله ولداً ، ما لهم به من علم ولا آباء لهم »

والفتية أصحاب الكهف يقولون : « هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة . لولا يأتون عليهم بسلطان بين ! »
وعندما يتساءلون عن فترة لبثهم في الكهف يكلون علمها لله : « قالوا : ربكم أعلم بما لبثتم » .

وفي ثنايا القصة إنكار على من يتحدثون عن عددهم رجماً بالغيب : « سيقولون : ثلاثة رابعهم كلبهم ؛ ويقولون : خمسة سادسهم كلبهم - رجماً بالغيب - ويقولون : سبعة وثامنهم كلبهم . قل : ربي أعلم بعدتهم »

ما يعلمهم إلا قليل ؛ فلا تمار فيهم إلا مرء ظاهراً ، ولا تستفت فيهم منهم أحداً » .
وفي قصة موسى مع العبد الصالح عندما يكشف له عن سر تصرفاته التي أنكرها عليه موسى يقول : « رحمة من ربك وما فعلته عن أمري » فيكل الأمر فيها لله .

* * *

فأما تصحيح القيم بميزان العقيدة ، فيرد في مواضع متفرقة ، حيث يرد القيم الحقيقية إلى الإيمان والعمل الصالح ، ويصغر ما عداها من القيم الأرضية الدنيوية التي تبهر الأنظار .

فكل ما على الأرض من زينة إنما جعل للابتلاء والاختبار ، ونهايته إلى فناء وزوال : « إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً ، وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرماً » .

وحمى الله أوسع وأرحب ، ولو أوى الإنسان إلى كهف خشن ضيق . والفتية المؤمنون أصحاب الكهف يقولون بعد اعتزالهم لقومهم : « وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون - إلا الله - فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ، ويهيئ لكم من أمركم مرفقاً »

والخطاب يوجه إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - ليصبر نفسه مع أهل الإيمان ؛ غير مبال بزينة الحياة الدنيا وأهلها الغافلين عن الله « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ، ولا تعد عينك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا ؛ واتبع هواه وكان أمره فرطاً . وقل : الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » .

وقصة الجنتين تصور كيف يعتز المؤمن بإيمانه في وجه المال والجاه والزينة . وكيف يجبه صاحبها المنتفض بالحق ، ويؤنبه على نسيان الله : « قال له صاحبه وهو يحاوره : أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً ؟ لكننا هو الله ربي ولا أشرك بربي أحداً . ولولا إذ دخلت جنتك قلت : ما شاء الله ، لا قوة إلا بالله . إن ترن أنا أقل منك مالاً وولداً . فعسى ربي أن يؤتيني خيراً من جنتك ، ويرسل عليها حسباناً من السماء فتصبح صعيداً زلقاً ، أو يصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع له طلباً » .

وعقب القصة يضرب مثلاً للحياة الدنيا وسرعة زوالها بعد ازدهارها : « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء ، فاختلط به نبات الأرض ، فأصبح هشيماً تذروه الرياح ، وكان الله على كل شيء مقتدرًا » .
ويعقب عليه ببيان للقيم الزائلة والقيم الباقية : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا ، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً » .

وذو القرنين لا يذكر لأنه ملك ، ولكن يذكر لأعماله الصالحة . وحين يعرض عليه القوم الذين وجدهم بين السدين أن يبني لهم سداً يحميهم من يأجوج ومأجوج في مقابل أن يعطوه مالا ، فإنه يرد عليهم ما عرضوه من المال ، لأن تمكين الله له خير من أموالهم « قال : ما مكني فيه ربي خير » . وحين يتم السد يرد الأمر لله لا لقوته البشرية : « قال : هذا رحمة من ربي ، فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء . وكان وعد ربي حقاً » .

وفي نهاية السورة يقرر أن أخسر الخلق أعمالاً ، هم الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه ؛ وهؤلاء لا وزن لهم ولا قيمة وإن حسبوا أنهم يحسنون صنعاً : « قل : هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ؟ أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً » .

وهكذا نجد محور السورة هو تصحيح العقيدة . وتصحيح منهج الفكر والنظر . وتصحيح القيم بميزان العقيدة .

* * *

ويسير سياق السورة حول هذه الموضوعات الرئيسية في أشواط متتابعة :

تبدأ السورة بالحمد لله الذي أنزل على عباده الكتاب للإنذار والتبشير . تبشير المؤمنين وإنذار الذين قالوا : اتخذ الله ولداً ؛ وتقرير أن ما على الأرض من زينة إنما هو للابتلاء والاختبار ، والنهاية إلى زوال وفناء .. ويتلو هذا قصة أصحاب الكهف . وهي نموذج لإيثار الإيمان على باطل الحياة وزخرفها ، والالتجاء إلى رحمة الله في الكهف ، هرباً بالعقيدة أن تمس .

ويبدأ الشوط الثاني بتوجيه الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يصبر نفسه مع الذين يدعون ربهم بالغدا والعشي يريدون وجهه ، وأن يغفل الغافلين عن ذكر الله .. ثم تجيء قصة الجنتين تصور اعتزاز القلب المؤمن بالله ، واستصغاره لقيم الأرض .. وينتهي هذا الشوط بتقرير القيم الحقيقية الباقية .

والشوط الثالث يتضمن عدة مشاهد متصلة من مشاهد القيامة تتوسطها إشارة قصة آدم وإبليس .. وينتهي ببيان سنة الله في إهلاك الظالمين ، ورحمة الله وإمهاله للمذنبين إلى أجل معلوم .

وتشغل قصة موسى مع العبد الصالح الشوط الرابع . وقصة ذي القرنين الشوط الخامس . ثم تحتم السورة بمثل ما بدأت : تبشيراً للمؤمنين وإنذاراً للكافرين ، وإثباتاً للوحي وتنزيهاً لله عن الشريك . فلنأخذ في الشوط الأول بالتفصيل :

* * *

« الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً . قيماً . لينذر بأساً شديداً من لدنه ، ويبشّر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً ما كثين فيه أبداً . وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً ، ما لهم به من علم ولا لآبائهم . كبرت كلمة تخرج من أفواههم . إن يقولون إلا كذباً . فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً .. إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً ، وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزاً » ...

بدء فيه استقامة ، وفيه صرامة . وفيه حمد لله على إنزاله الكتاب « على عبده » بهذه الاستقامة ، لا عوج فيه ولا التواء ، ولا مداراة ولا مداورة : « لينذر بأساً شديداً من لدنه » .

ومنذ الآية الأولى تتضح المعالم ، فلا لبس في العقيدة ولا غموض : الله هو الذي أنزل الكتاب ، والحمد له على تنزيله . ومحمد هو عبد الله . فالكل إذن عبيد ، وليس لله من ولد ولا شريك .

والكتاب لا عوج له .. « قيماً » .. يتكرر معنى الاستقامة مرة عن طريق نفي العوج ، ومرة عن طريق إثبات الاستقامة . تؤكد لهذا المعنى وتشديداً فيه .

والغرض من إنزال الكتاب واضح صريح : « لينذر بأساً شديداً من لدنه ، ويبشّر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً » .

ويغلب ظل الإنذار الصارم في التعبير كله . فهو يبدأ به على وجه الإجمال : « لينذر بأساً شديداً من لدنه » . ثم يعود إليه على وجه التخصيص : « وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً » .. وبينهما تبشير للمؤمنين « الذين يعملون الصالحات » بهذا القيد الذي يجعل للإيمان دليلاً العملي الظاهر المستند إلى الواقع الأكيد .

ثم يأخذ في كشف المنهج الفاسد الذي يتخذونه للحكم على أكبر القضايا وأخطرها . قضية العقيدة :
« ما لهم به من علم ولا آباؤهم » ..

فما أشنع وما أفظع أن يفضوا بهذا القول بغير علم ، هكذا جزافاً :
« كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً » ..

وتشترك الألفاظ بنظمها في العبرة وجرسها في النطق في تفضيح هذه الكلمة التي يقولونها . فهو يبدأ بكلمة « كبرت » لتجبه السامع بالضخامة والفظاعة وتملاً الجوبهما . ويجعل الكلمة الكبيرة تمييزاً للضميرها في الجملة : « كبرت كلمة » زيادة في توجيه الانتباه إليها . ويجعل هذه الكلمة تخرج من أفواههم خروجاً كأنما تنطلق منها جزافاً وتندفع منها اندفاعاً « تخرج من أفواههم » . وتشارك لفظة « أفواههم » بجرسها الخاص في تكبير هذه الكلمة وتفضيحها ، فالناطق بها يفتح فاه في مقطعها الأول بما فيه من مد : « أفوا... » ثم تتوالى الهاءان فيمتلىء القم بهما قبل أن يطبق على الميم في نهاية اللفظة : « أفواههم » . وبذلك يشترك نظم الجملة وجرس اللفظة في تصوير المعنى ورسم الظل . ويعقب على ذلك بالتوكيد عن طريق النفي والاستثناء : « إن يقولون إلا كذباً » : ويختار للنفي كلمة : « إن » لا كلمة « ما » لأن في الأولى صرامة بالسكون الواضح ، وفي لفظ « ما » شيء من الليونة بالمد .. وذلك لزيادة التشديد في الاستنكار ، ولزيادة التوكيد لكذب هذه الكلمة الكبيرة ..

* * *

وفيما يشبه الإنكار يخاطب الرسول - صلى الله عليه وسلم - الذي كان يحزنه أن يكذب قومه بالقرآن ويعرضوا عن الهدى ، ويذهبوا في الطريق الذي يعلم - صلى الله عليه وسلم - أنه مود بهم إلى الهلاك .. فيما يشبه الإنكار يقول للرسول - صلى الله عليه وسلم - :

« فلعلك باخع نفسك على آثارهم . إن لم يؤمنوا بهذا الحديث . أسفاً ! »

أي فلعلك قاتل نفسك أسفاً وحزناً عليهم ، إن لم يؤمنوا بهذا القرآن . وما يستحق هؤلاء أن تحزن عليهم هو تأسف . فدعهم فقد جعلنا ما على الأرض من زخرف ومتاع ، وأموا وأولاد .. جعلناه اختباراً وامتحاناً لأهلها ، ليتبين من يحسن منهم العمل في الدنيا ، ويستحق نعمتها ، كما يستحق نعيم الآخرة :
« إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً » .

والله يعلم . ولكنه يجزي على ما يصدر من العباد فعلاً ، وما يتحقق منهم في الحياة عملاً . ويسكت عن لا يحسنون العمل فلا يذكرهم لأن مفهوم التعبير واضح .

ونهاية هذه الزينة محتومة . فستعود الأرض مجردة منها ، وسيهلك كل ما عليها ، فتصبح قبل يوم القيامة سطحاً أجرد خشناً جذباً :

« وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزاً » ..

وفي التعبير صرامة ، وفي المشهد الذي يرسمه كذلك . وكلمة « جرزا » تصور معنى الجذب بجرسها اللفظي . كما أن كلمة « صعيداً » ترسم مشهد الاستواء والصلادة !

* * *

ثم تبجي قصة أصحاب الكهف ، فتعرض نموذجاً للإيمان في النفوس المؤمنة . كيف تطمئن به ، وتؤثره على زينة الأرض ومتاعها ، وتلجأ به إلى الكهف حين يعز عليها أن تعيش به مع الناس . وكيف يرعى الله هذه

النفوس المؤمنة ، وبقية الفتنة ، ويشملها بالرحمة .

وفي القصة روايات شتى ، وأقوال كثيرة . فقد وردت في بعض الكتب القديمة وفي الأساطير بصور شتى . ونحن نقف فيها عند حد ما جاء في القرآن ، فهو المصدر الوحيد المستيقن . ونطرح سائر الروايات والأساطير التي اندست في التفاسير بلا سند صحيح . وبخاصة أن القرآن الكريم قد نهى عن استفتاء غير القرآن فيها ، وعن المراء فيها والجدل رجماً بالغيب .

وقد ورد في سبب نزولها ونزول قصة ذي القرنين أن اليهود أغروا أهل مكة بسؤال الرسول - صلى الله عليه وسلم - عنهما وعن الروح . أو أن أهل مكة طلبوا إلى اليهود أن يصوغوا لهم أسئلة يختبرون بها الرسول - صلى الله عليه وسلم - وقد يكون هذا كله أو بعضه صحيحاً . فقد جاء في أول قصة ذي القرنين : « ويسألونك عن ذي القرنين . قل : سأتلو عليكم منه ذكراً » ولكن لم تجيء عن قصة أصحاب الكهف مثل هذه الإشارة . فنحن نمضي في القصة لذاتها وهي واضحة الارتباط بمحور السورة كما بينا .

* * *

إن الطريقة التي اتبعت في عرض هذه القصة من الناحية الفنية هي طريقة التلخيص الإجمالي أولاً ، ثم العرض التفصيلي أخيراً . وهي تعرض في مشاهد وتترك بين المشاهد فجوات يعرف ما فيها من السياق^١ . وهي تبدأ هكذا :

« أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا . إذ أوى الفتية إلى الكهف ، فقالوا : ربنا آتنا من لدنك رحمة ، وهيء لنا من أمرنا رشداً . فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عدداً ، ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً » .

وهو تلخيص يجمع القصة ، ويرسم خطوطها الرئيسية العريضة . فنعرف أن أصحاب الكهف فتية - لا نعلم عددهم - أووا إلى الكهف وهم مؤمنون . وأنه ضرب على آذانهم في الكهف - أي ناموا - سنين معدودة - لا نعلم عددها - وأنهم بعثوا من رقدتهم الطويلة . وأنه كان هناك فريقان يتجادلان في شأنهم ثم لبثوا في الكهف فبعثوا ليتبين أي الفريقين أدق إحصاء . وأن قصتهم على غرابتها ليست بأعجب آيات الله . وفي صفحات هذا الكون من العجائب وفي ثناياه من الغرائب ما يفوق قصة أصحاب الكهف والرقيم^٢ .

وبعد هذا التلخيص المشوق للقصة يأخذ السياق في التفصيل . ويبدأ هذا التفصيل بأن ما سيقصه الله منها هو فصل الخطاب في الروايات المتضاربة ، وهو الحق اليقين :

« نحن نقص عليك نبأهم بالحق . إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى . وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا : ربنا رب السماوات والأرض ، لن ندعو من دونه إلهاً . لقد قلنا إذا شططاً . هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة . لولا يأتون عليهم بسلطان بين . فن أظلم ممن افترى على الله كذباً ؟ وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون - إلا الله - فأووا إلى الكهف ، ينشر لكم ربكم من رحمته ، ويهيء لكم من أمركم مرفقاً » .

هذا هو المشهد الأول من مشاهد القصة . « إنهم فتية آمنوا بربهم » .. « وزدناهم هدى » بإلهامهم كيف

(١) تراجع فصل « القصة في القرآن » في كتاب : « التصوير الفني في القرآن » . « دار الشروق » .

(٢) الكهف : الفجوة في الصخر ، والرقيم - في الغالب - هو الكتاب الذي يحمل أسماءهم وربما كان هو الذي وضع على باب الكهف الذي عثر عليهم فيه .

يدبرون أمرهم . « وربطنا على قلوبهم » فإذا هي ثابتة راسخة ، مطمئنة إلى الحق الذي عرفت . معتزة بالإيمان الذي اختارت « إذ قاموا » .. والقيام حركة تدل على العزم والثبات . « فقالوا : ربنا رب السماوات والأرض » .. فهورب هذا الكون كله « لن ندعومن دونه إلهاً » .. فهو واحد بلا شريك . « لقد قلنا إذن شططاً » .. وتجاوزنا الحق وحدنا عن الصواب .

ثم يلتفتون إلى ما عليه قومهم فيستنكرونه ، ويستنكرون المنهج الذي يسلكونه في تكوين العقيدة :
« هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة . لولا يأتون عليهم بسطان بين ؟ » ..

فهذا هو طريق الاعتقاد : أن يكون للإنسان دليل قوي يستند إليه ، وبرهان له سلطان على النفوس والعقول . وإلا فهو الكذب الشنيع ، لأنه الكذب على الله : « فن أظلم ممن أفتى على الله كذباً ؟ » .. وإلى هنا يبدو موقف الفتية واضحاً صريحاً حاسماً ، لا تردد فيه ولا تلثم .. إنهم فتية ، أشداء في أجسامهم ، أشداء في إيمانهم . أشداء في استنكار ما عليه قومهم ..

ولقد تبين الطريقتان ، واختلف المنهجان ، فلا سبيل إلى الالتقاء ، ولا للمشاركة في الحياة . ولا بد من الفرار بالعقيدة . إنهم ليسوا رسلاً إلى قومهم فيواجهوهم بالعقيدة الصحيحة ويدعوهم إليها ، ويتلقوا ما يتلقاه الرسل . إنما هم فتية تبين لهم الهدى في وسط ظلم كافر ، ولا حياة لهم في هذا الوسط إن هم أعلنوا عقيدتهم وجأروا بها ، وهم لا يطيقون كذلك أن يداروا القوم ويداوروهم ، ويعبدوا ما يعبدون من الآلهة على سبيل التقية ويخفوا عبادتهم لله . والأرجح أن أمرهم قد كشف . فلا سبيل لهم إلا أن يفروا بدينهم إلى الله ، وأن يختاروا الكهف على زينة الحياة . وقد أجمعوا أمرهم فهم يتناجون بينهم :

« وإذا اعتزلتموهم وما يعبدون - إلا الله - فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ، ويهيئ لكم من أمركم مرفقاً » ..

وهنا ينكشف العجب في شأن القلوب المؤمنة . فهؤلاء الفتية الذين يعتزلون قومهم ، ويهجرون ديارهم ، ويفارقون أهلهم . ويتجردون من زينة الأرض ومتاع الحياة . هؤلاء الذين يأوون إلى الكهف الضيق الخشن المظلم . هؤلاء يستروحون رحمة الله . ويحسون هذه الرحمة ظلييلة فسيحة ممتدة . « ينشر لكم ربكم من رحمته » ولفظه « ينشر » تلقي ظلال السعة والبجوحة والانفساح . فإذا الكهف فضاء فسيح رحيب وسيع تنتشر فيه الرحمة وتتسع خيوطها وتمتد ظلالها ، وتشملهم بالرفق واللين والرخاء .. إن الحدود الضيقة لتتراج ، وإن الجدران الصلدة لترق ، وإن الوحشة الموغلة لتشف ، فإذا الرحمة والرفق والراحة والارتفاق .
إنه الإيمان ..

وما قيمة الظواهر؟ وما قيمة القيم والأوضاع والمدلولات التي تعارف عليها الناس في حياتهم الأرضية؟ إن هنالك عالماً آخر في جنبات القلب المغمور بالإيمان ، المأنوس بالرحمن . عالماً تظله الرحمة والرفق والاطمئنان والرضوان .

ويسدل الستار على هذا المشهد . ليرفع على مشهد آخر والفتية في الكهف وقد ضرب الله عليهم النعاس .

* * *

« وترى الشمس إذا طلعت ترأور عن كهفهم ذات اليمين ، وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال ، وهم في فجوة منه . ذلك من آيات الله . من يهد الله فهو المهتد . ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً . وتحسبهم أيقاظاً

وهم رقود . ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال . وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد . لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ، ولملت منهم رعباً » .

وهو مشهد تصويري عجيب ، ينقل بالكلمات هيئة الفتية في الكهف ، كما يلتقطها شريط متحرك . والشمس تطلع على الكهف فتميل عنه كأنها متعمدة . ولفظ « تزاور » تصور مدلولها وتلقي ظل الإرادة في عملها . والشمس تغرب فتجاوزهم إلى الشمال وهم في فجوة منه ..

وقبل أن يكمل نقل المشهد العجيب يعلّق على وضعهم ذاك بأحد التعليقات القرآنية التي تتخلل سياق القصص لتوجيه القلوب في اللحظة المناسبة^١ :

« ذلك من آيات الله » .. وضعهم هكذا في الكهف والشمس لا تنالهم بأشعتها وتقرب منهم بضوئها . وهم في مكانهم لا يموتون ولا يتحركون .

« من يهد الله فهو المهتد . ومن يضل فلن تجد له ولياً مرشداً » .. وللهدى والضلال ناموس . فمن اهتدى بآيات الله فقد هداه الله وفق ناموسه وهو المهتدي حقاً . ومن لم يأخذ بأسباب الهدى ضل . وجاء ضلاله وفق الناموس الإلهي فقد أضله الله إذن ، ولن تجد له من بعد هادياً .

ثم يمضي السياق يكمل المشهد العجيب . وهم يقبلون من جنب إلى جنب في نومهم الطويلة . فيحسبهم الرائي أيقاظاً وهم رقود . وكلبهم - على عادة الكلاب - باسط ذراعيه بالفناء قريباً من باب الكهف كأنه يحرسهم . وهم في هيئتهم هذه يثرون الرعب في قلب من يطلع عليهم . إذ يراهم نياماً كالأيقاظ ، يتقبلون ولا يستيقظون . وذلك من تدبير الله كي لا يعث بهم عابث ، حتى يحين الوقت المعلوم .

* * *

وفجأة تدب فيهم الحياة . فلننظر ولنسمع :

« وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم . قال قائل منهم : كم لبثتم ؟ قالوا : لبثنا يوماً أو بعض يوم . قالوا : ربكم أعلم بما لبثتم ، فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة ، فلينظر أيها أزكى طعاماً فليأتكم برزق منه وليتلطف ولا يشعرن بكم أحداً . إنهم إن يظهروا عليكم يرجمواكم أو يعيدوكم في ملتهم ، ولن تفلحوا إذن أبداً » ..

إن السياق يحتفظ بالمفاجأة في عرض القصة ، فيعرض هذا المشهد ، والفتية يستيقظون وهم لا يعرفون كم لبثوا منذ أن أدركهم النعاس .. إنهم يفركون أعينهم ، ويلتفت أحدهم إلى الآخرين فيسأل : كم لبثتم ؟ كما يسأل من يستيقظ من نوم طويل . ولا بد أنه كان يحس بآثار نوم طويل . « قالوا : لبثنا يوماً أو بعض يوم » !

ثم رأوا أن يتركوا هذه المسألة التي لا طائل وراء البحث فيها ، ويدعوا أمرها لله - شأن المؤمن في كل ما يعرض له مما يجهله - وأن يأخذوا في شأن عملي . فهم جائعون . ولديهم نقود فضية خرجوا بها من المدينة : « قالوا : ربكم أعلم بما لبثتم ، فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاماً ، فليأتكم برزق منه » .. أي فليختر أطيب طعام في المدينة فليأتكم بشيء منه .

(١) فصل القصة في القرآن . في كتاب «التصوير الفني في القرآن» . «دار الشروق» .

وهم يحذرون أن ينكشف أمرهم ويعرف مخبئهم . فياخذهم أصحاب السلطان في المدينة فيقتلوهم رجماً - بوصفهم خارجين على الدين لأنهم يعبدون إلهاً واحداً في المدينة المشركة ! - أو يفتنوهم عن عقيدتهم بالتعذيب . وهذه هي التي يتقونها . لذلك يوصون الرسول أن يكون حذراً لبقاً : « وليتلفظ ولا يشعرن بكم أحداً . إنهم إن يظروا عليكم يرحمواكم أو يعيدوكم في ملتهم ولن تغلحوا إذناً أبداً » . فإفلح من يرتد عن الإيمان إلى الشرك ، وإنها للخسارة الكبرى .

وهكذا نشهد الفتية يتناجون فيما بينهم ، حذرين خائفين ، لا يدرون أن الأعوام قد كرت ، وأن عجلة الزمن قد دارت ، وأن أجيالاً قد تعاقبت ، وأن مدينتهم التي يعرفونها قد تغيرت معالمها ، وأن المستلطين الذين يخشونهم على عقيدتهم قد دالت دولتهم ، وأن قصة الفتية الذين فروا بدينهم في عهد الملك الظالم قد تناقلها الخلف عن السلف ؛ وأن الأقاويل حولهم متعارضة ؛ حول عقيدتهم ؛ وحول الفترة التي مضت منذ اختفائهم . وهنا يسدل الستار على مشهدهم في الكهف ليرفع على مشهد آخر . وبين المشهدين فجوة متروكة في السياق القرآني .

ونفهم أن أهل المدينة اليوم مؤمنون ، فهم شديدو الحفاوة بالفتية المؤمنين بعد أن انكشف أمرهم بذهاب أحدهم لشراء الطعام ، وعرف الناس أنه أحد الفتية الذين فروا بدينهم منذ عهد بعيد . ولنا أن تصور ضخامة المفاجأة التي اعترت الفتية - بعد أن أيقن زميلهم أن المدينة قد مضى عليها العهد الطويل منذ أن فارقوها ؛ وأن الدنيا قد تبدلت من حولهم فلم يعد لشيء مما ينكرونه ولا لشيء مما يعرفونه وجود ! وأنهم من جيل قديم مضت عليه القرون . وأنهم أعجوبة في نظر الناس وحسبهم ، فلن يمكن أن يعاملوهم كبشر عاديين . وأن كل ما يربطهم بجيلهم من قرابات ومعاملات ومشاعروعات وتقاليد .. كله قد تقطع ، فهم أشبه بالذكري الحية منهم بالأشخاص الواقعية .. فيرحمهم الله من هذا كله فيتوفاهم .

لنا أن تصور هذا كله . أما السياق القرآني فيعرض المشهد الأخير ، مشهد وفاتهم ، والناس خارج الكهف يتنازعون في شأنهم : على أي دين كانوا ، وكيف يخلدونهم ويحفظون ذكراهم للأجيال . ويعهد مباشرة إلى العبرة المستقاة من هذا الحادث العجيب :

« وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق ، وأن الساعة لا ريب فيها . إذ يتنازعون بينهم أمرهم ، فقالوا : ابنوا عليهم بنياناً ربهم أعلم بهم . قال الذين غلبوا على أمرهم : لتتخذن عليهم مسجداً » .

إن العبرة في خاتمة هؤلاء الفتية هي دلالتها على البعث بمثل واقعي قريب محسوس . يقرب إلى الناس قضية البعث . فيعلموا أن وعد الله بالبعث حق ، وأن الساعة لا ريب فيها .. وعلى هذا النحو بعث الله الفتية من نومتهم وأعثر قومهم عليهم .

وقال بعض الناس : « ابنوا عليهم بنياناً » لا يحدد عقيدتهم « ربهم أعلم بهم » وبما كانوا عليه من عقيدة . وقال أصحاب السلطان في ذلك الأوان : « لتتخذن عليهم مسجداً » والمقصود معبد ، على طريقة اليهود والنصارى في اتخاذ المعابد على مقابر الأنبياء والقديسين . وكما يصنع اليوم من يقلدوهم من المسلمين مخالفين لهدى الرسول - صلى الله عليه وسلم - « لعن الله اليهود والنصارى ، اتخذوا قبوراً أنبيائهم وصالحيهم مساجد »¹ .

ويسدل الستار على هذا المشهد . ثم يرفع لنسمع الجدل حول أصحاب الكهف - على عادة الناس يتناقلون

الروايات والأخبار، ويزيدون فيها وينقصون ، ويضيفون إليها من خيالهم جيلاً بعد جيل ، حتى تتضخم وتتحول ، وتكثر الأقاويل حول الخبر الواحد أو الحادث الواحد كلما مرت القرون :

« سيقولون : ثلاثة رابعهم كلبهم ، ويقولون : خمسة سادسهم كلبهم – رجماً بالغيب ، ويقولون : سبعة وثمانهم كلبهم . قل : ربي أعلم بعدتهم . ما يعلمهم إلا قليل . فلا تمار فيهم إلا مرأواً ظاهراً ، ولا تستفت فيهم منهم أحداً » ..

فهذا الجدل حول عدد الفتية لا طائل وراءه . وإنه ليستوي أن يكونوا ثلاثة أو خمسة أو سبعة ، أو أكثر . وأمرهم موكل إلى الله ، وعلمهم عند الله . وعند القليلين الذين ثبتوا من الحادث عند وقوعه أو من روايته الصحيحة . فلا ضرورة إذن للجدل الطويل حول عددهم . والعبرة في أمرهم حاصلة بالقليل وبالكثير . لذلك يوجه القرآن الرسول – صلى الله عليه وسلم – إلى ترك الجدل في هذه القضية ، وإلى عدم استفتاء أحد من المتجادلين في شأنهم . تمثيلاً مع منهج الإسلام في صيانة الطاقة العقلية أن تبدد في غير ما يفيد . وفي ألا يقفوا المسلم ما ليس له به علم وثيق . وهذا الحادث الذي طواه الزمن هو من الغيب الموكول إلى علم الله ، فليترك إلى علم الله .

وبمناسبة النهي عن الجدل في غيب الماضي ، يرد النهي عن الحكم على غيب المستقبل وما يقع فيه ؛ فالإنسان لا يدري ما يكون في المستقبل حتى يقطع برأي فيه :

« ولا تقولن لشيء : إني فاعل ذلك غداً – إلا أن يشاء الله – واذكر ربك إذا نسيت ، وقل : عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشداً » ..

إن كل حركة وكل نامة ، بل كل نفس من أنفاس الحي ، مرهون بإرادة الله . وسجف الغيب مسبل يحجب ما وراء اللحظة الحاضرة ؛ وعين الإنسان لا تمتد إلى ما وراء الستر المسدل ؛ وعقله مهما علم قاصر كليل . فلا يقل إنسان : إني فاعل ذلك غداً . وغداً في غيب الله وأستار غيب الله دون العواقب .

وليس معنى هذا أن يقعد الإنسان ، لا يفكر في أمر المستقبل ولا يدبر له ؛ وأن يعيش يوماً بيوم ، لحظة بلحظة . وألا يصل ماضي حياته بحاضره وقابله .. كلا . ولكن معناه أن يحسب حساب الغيب وحساب المشيئة التي تدبره ؛ وأن يعزم ما يعزم ويستعين بمشيئة الله على ما يعزم ، ويستشعر أن يد الله فوق يده ، فلا يستبعد أن يكون لله تدبير غير تدبيره . فإن وفقه الله إلى ما اعترم فيها . وإن جرت مشيئة الله بغير ما دبر لم يحزن ولم يأس ، لأن الأمر لله أولاً وأخيراً .

فليفكر الإنسان وليدبر ؛ ولكن ليشر أنه إنما يفكر بتيسير الله ، ويدبر بتوفيق الله ، وأنه لا يملك إلا ما يمدده الله به من تفكير وتدبير . ولن يدعوه هذا إلى كسل أو تراخ ، أو ضعف أو فتور ؛ بل على العكس يمدده بالثقة والقوة والاطمئنان والعزيمة . فإذا انكشف ستر الغيب عن تدبير الله غير تدبيره ، فليقبل قضاء الله بالرضى والطمأنينة والاستسلام . لأنه الأصل الذي كان مجهولاً له فكشف عنه الستار .

هذا هو المنهج الذي يأخذ به الإسلام قلب المسلم . فلا يشعر بالوحدة والوحشة وهو يفكر ويدبر . ولا يحس بالغرور والتبطر وهو يفلح وينجح . ولا يستشعر القنوط واليأس وهو يفتشل ويخفق . بل يبقى في كل أحواله متصلاً بالله ، قوياً بالاعتماد عليه ، شاكراً لتوفيقه إياه ، مسلماً بقضائه وقدره . غير متبطر ولا قنوط .

« واذكر ربك إذا نسيت » .. إذا نسيت هذا التوجيه والاتجاه فاذا ذكر ربك وارجع إليه .

« وقل : عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشداً » .. من هذا النهج الذي يصل القلب دائماً بالله ، في كل ما يهم به وكل ما يتوجه إليه .
وتجيء كلمة « عسى » وكلمة « لأقرب » للدلالة على ارتفاع هذا المرتقى ، وضرورة المحاولة الدائمة للاستواء عليه في جميع الأحوال .

* * *

وإلى هنا لم نكن نعلم : كم لبث الفتية في الكهف . فلنعرفه الآن لنعرفه على وجه اليقين :
« وليثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين ، وازدادوا تسعاً . قل : الله أعلم بما لبثوا له غيب السماوات والأرض . أبصره وأسمع » ..
فهذا هو فصل الخطاب في أمرهم ، يقرره عالم غيب السماوات والأرض . ما أبصره ، وما أسمع ! سبحانه . فلا جدال بعد هذا ولا مرء .

* * *

ويعقب على القصة بإعلان الوجدانية الظاهرة الأثر في سير القصة وأحداثها : « ما لهم من دونه من ولي . ولا يشرك في حكمه أحداً » ..
وبتوجيه الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى تلاوة ما أوحاه ربه إليه ، وفيه فصل الخطاب - وهو الحق الذي لا يأتيه الباطل - والاتجاه إلى الله وحده ، فليس من حمى إلا حماه . وقد فرأ إليه أصحاب الكهف فשמلمهم برحمته وهده :
« وائل ما أوحى إليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته ، ولن تجد من دونه ملتحداً » ..
وهكذا تنتهي القصة ، تسبقها وتتخللها وتعقبها تلك التوجيهات التي من أجلها يساق القصص في القرآن . مع التناسق المطلق بين التوجيه الديني والعرض الفني في السياق .

وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تَطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٦﴾ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَن
شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفِرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ
كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٧﴾ إِنَّا لَنَدْعُو الصَّالِحِينَ إِنَّا لَنُضِيعُ
أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٢٨﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِن أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ
وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِعِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ
مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾

* وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا ﴿٣٧﴾
لَكُنَّا الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أَكْلَهَا وَلَمْ تَظْلِمِ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلْفَهُمَا نَهْرًا ﴿٣٨﴾

وَكَانَ لَهُ تَمْرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٩﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٤٠﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٤١﴾

قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا ﴿٤٢﴾ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٣﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتِكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَأَقْوَىٰ لِلَّهِ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَىٰ أَنَا أَقْلَ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٤٤﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٥﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤٦﴾

وَأَحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِبَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا ﴿٤٨﴾ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٩﴾

وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَّةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ﴿٥٠﴾ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَةُ الصَّالِحَةُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٥١﴾

هذا الدرس كله تقرير للقيم في ميزان العقيدة . إن القيم الحقيقية ليست هي المال ، وليست هي الجاه ، وليست هي السلطان . كذلك ليست هي اللذائذ والمتاع في هذه الحياة .. إن هذه كلها قيم زائفة وقيم زائلة . والإسلام لا يحرم الطيب منها ؛ ولكنه لا يجعل منها غاية حياة الإنسان . فمن شاء أن يتمتع بها فليتمتع ، ولكن ليذكر الله الذي أنعم بها . وليشكره على النعمة بالعمل الصالح ، فالباقيات الصالحات خير وأبقى . وهو يبدأ بتوجيه الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يصبر نفسه مع الذين يتجهون إلى الله ؛ وأن يغفل ويهمل

الذين يغفلون عن ذكر الله . ثم يضرب للفريقين مثلاً رجلين : أحدهما يعتز بما أوتي من مال وعزة ومتاع . والآخري يعتز بالإيمان الخالص ، ويرجو عند ربه ما هو خير . ثم يعقب بمثل يضرب للحياة الدنيا كلها ، فإذا هي قصيرة زائلة كالهشيم تذرّوه الرياح . وينتهي من ذلك كله بتقرير الحقيقة الباقية : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا ، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخيراً أملاً » ..

* * *

« واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ، ولا تعد عينك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا ، واتبع هواه وكان أمره فرطاً . وقل : الحق من ربكم . فمن شاء فليؤمن . ومن شاء فليكفر » ..

يروى أنها نزلت في أشراف قريش ، حين طلبوا إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يطرد فقراء المؤمنين من أمثال بلال وصهيب وعمار وخباب وابن مسعود إذا كان يطعم في إيمان رؤوس قريش . أو أن يجعل لهم مجلساً غير مجلس هؤلاء النفر ، لأن عليهم جباباً تفوح منها رائحة العرق ، فتؤذي السادة من كبراء قريش !

ويروى أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - طمع في إيمانهم فحدثته نفسه فيما طلبوا إليه . فأنزل الله عز وجل : « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ... » انزلها تعلن عن القيم الحقيقية ، وتقيم الميزان الذي لا يخطيء . وبعد ذلك « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » فالإسلام لا يتملق أحداً ، ولا يزن الناس بموازين الجاهلية الأولى ، ولا أية جاهلية تقيم للناس ميزاناً غير ميزانه .

« واصبر نفسك » .. لا تمل ولا تستعجل « مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه » .. فالله غايهم ، يتجهون إليه بالغداة والعشي ، لا يتحولون عنه ، ولا يبتغون إلا رضاه . وما يبتغونه أجل وأعلى من كل ما يبتغيه طلاب الحياة .

اصبر نفسك مع هؤلاء . صاحبهم وجالسهم وعلمهم . ففيهم الخير ، وعلى مثلهم تقوم الدعوات . فالدعوات لا تقوم على من يعتقونها لأنها غالبية ؛ ومن يعتقونها ليقودوا بها الأتباع ؛ ومن يعتقونها ليحققوا بها الأطماع ، وليتجروا بها في سوق الدعوات تشتري منهم وتباع ! إنما تقوم الدعوات بهذه القلوب التي تتجه إلى الله خالصة له ، لا تبغي جاهاً ولا متاعاً ولا انتفاعاً ، إنما تبتغي وجهه وترجو رضاه .

« ولا تعد عينك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا » .. ولا يتحول اهتمامك عنهم إلى مظاهر الحياة التي يستمتع بها أصحاب الزينة . فهذه زينة الحياة « الدنيا » لا ترتفع إلى ذلك الأفق العالي الذي يتطلع إليه من يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه .

« ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا ، واتبع هواه ، وكان أمره فرطاً » .. لا تطعمهم فيما يطلبون من تمييز بينهم وبين الفقراء . فلو ذكروا الله لطامنوا من كبريائهم ، وخففوا من غلوائهم ، وخففوا من تلك الهمات المتشامخة ، واستشعروا جلال الله الذي تتساوى في ظله الرؤوس ؛ وأحسوا رابطة العقيدة التي يصبح بها الناس إخوة . ولكنهم إنما يتبعون أهواءهم . أهواء الجاهلية . ويحكمون مقاييسها في العباد . فهم وأقوالهم سفه ضائع لا يستحق إلا الإغفال جزاء ما غفلوا عن ذكر الله .

لقد جاء الإسلام ليسوي بين الرؤوس أمام الله . فلا تفاضل بينها بمال ولا نسب ولا جاه . فهذه قيم زائفة ،

وقيم زائلة . إنما التفاضل بمكانها عند الله . ومكانها عند الله يوزن بقدر اتجاهها إليه وتجردها له . وما عدا هذا فهو الهوى والسفه والبطلان .

« ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا » .. أغفلنا قلبه حين اتجه إلى ذاته ، وإلى ماله ، وإلى أبنائه ، وإلى متاعه ولذائذه وشهواته ، فلم يعد في قلبه متسع لله . والقلب الذي يشتغل بهذه الشواغل ، ويجعلها غاية حياته لا جرم يغفل عن ذكر الله ، فيزيده الله غفلة ، ويملي له فيما هوفيه ، حتى تفلت الأيام من بين يديه ، ويلقى ما أعده الله لأمثاله الذين يظلمون أنفسهم ، ويظلمون غيرهم :

« وقل : الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » ..

بهذه العزة ، وبهذه الصراحة ، وبهذه الصرامة ، فالحق لا يثنى ولا ينحني ، إنما يسير في طريقه قيماً لا عوج فيه ، قوياً لا ضعف فيه ، صريحاً لا مداورة فيه . فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر . ومن لم يعجبه الحق فليذهب ، ومن لم يجعل هواه تبعاً لما جاء من عند الله فلا مجاملة على حساب العقيدة ؛ ومن لم يحزن هامته ويطامن من كبرياته أمام جلال الله فلا حاجة بالعقيدة إليه .

إن العقيدة ليست ملكاً لأحد حتى يجامل فيها . إنما هي ملك لله ، والله غني عن العالمين . والعقيدة لا تعتر ولا تنتصر بمن لا يريدونها لذاتها خالصة ، ولا يأخذونها كما هي بلا تحوير . والذي يرفع عن المؤمنين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه لا يرجي منه خير للإسلام ولا للمسلمين

* * *

ثم يعرض ما أعد للكافرين ، وما أعد للمؤمنين في مشهد من مشاهد القيامة :

« إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها ؛ وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه . بئس الشراب وساءت مرتفعاً . إن الذين آمنوا و عملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً . أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتهم الأنهار ، يحلون فيها من أساور من ذهب ؛ ويلبسون ثياباً خضراً من سندس وإستبرق ، متكئين فيها على الأرائك . نعم الثواب وحسنت مرتفعاً » .

« إنا أعتدنا للظالمين ناراً » .. أعددناها وأحضرناها .. فهي لا تحتاج إلى جهد لإيقادها ، ولا تستغرق زمناً لإعدادها ! ومع أن خلق أي شيء لا يقتضي إلا كلمة الإرادة : كن . فيكون . إلا أن التعبير هنا بلفظ « أعتدنا » يلقي ظل السرعة والتهيؤ والاستعداد ، والأخذ المباشر إلى النار المعدة للمهياة للاستقبال ! وهي نار ذات سرادق يحيط بالظالمين ، فلا سبيل إلى الهرب . ولا أمل في النجاة والإفلات . ولا مطمع في منفذ تهب منه نسمة ، أو يكون فيه استرواح !

فإن استغاثوا من الحريق والظماً أغيثوا .. أغيثوا بماء كدردي الزيت المغلي في قول ، وكالصديد الساخن في قول ! يشوي الوجوه بالقرب منها فكيف بالحلوق والبطون التي تتجرعه « بئس الشراب » الذي يغاث به الملهوفون من الحريق ! ويا لسوء النار وسرادقها مكاناً للارتفاق والاتكاء . وفي ذكر الارتفاق في سرادق النار تهكم مرير . فما هم هنالك للارتفاق ، إنما هم للاشتواء ! ولكنها مقابلة مع ارتفاق الذين آمنوا و عملوا الصالحات هنالك في الجنان .. وشتان شتان !

وبينا هؤلاء كذلك إذا الذين آمنوا و عملوا الصالحات في جنات عدن . للإقامة . تجري من تحتهم الأنهار بالري وبهجة المنظر واعتدال النسيم . وهم هنالك للارتفاق حقاً « متكئين فيها على الأرائك » وهم رافلون في

سورة الكهف

ألوان من الحرير . من سندس ناعم خفيف ومن إستبرق مخمل كثيف . تزيد عليها أساور من ذهب للزينة والمتاع : « نعم الثواب وحسنت مرتفقاً ! »

ومن شاء فليختر . ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر . ومن شاء فليجالس فقراء المؤمنين ، وجباهم تفوح منها رائحة العرق أو فلينفر . فمن لم ترضه رائحة العرق من تلك الجباب ، التي تضم القلوب الزكية بذكر الله ، فليرتفق في سرادق النار ، وليهنأ بدردي الزيت أو القيح يغاث به من النار ..

* * *

ثم تجيء قصة الرجلين والجنيتين تضرب مثلاً للقيم الزائلة والقيم الباقية ، وترسم نموذجين واضحين للنفس المعتزة بزينة الحياة ، والنفس المعتزة بالله . وكلاهما نموذج إنساني لطائفة من الناس : صاحب الجنيتين نموذج للرجل الثري ، تذهله الثروة ، وتبطره النعمة ، فينسى القوة الكبرى التي تسيطر على أقدار الناس والحياة . ويحسب هذه النعمة خالدة لا تفتنى ، فلن تحذله القوة ولا الجاه . وصاحبه نموذج للرجل المؤمن المعتز بإيمانه ، الذاكر لربه ، يرى النعمة دليلاً على المنعم ، موجبة لحمده وذكره ، لا لجحوده وكفره .

وتبدأ القصة بمشهد الجنيتين في ازدهار وفخامة :

« واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب ، وحففناهما بنخل ، وجعلنا بينهما زرعاً . كلتا الجنيتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً ، وفجرنا خلالهما نهراً . وكان له ثمر .. »

فهما جنتان مثمرتان من الكروم ، محفوفتان بسياج من النخيل ، تتوسطهما الزروع ، ويتفجر بينهما نهر .. إنه المنظر البهيج والحيوية الدافقة والمتاع والمال :

« كلتا الجنيتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً » .. ويختار التعبير كلمة « تظلم » في معنى تنقص وتمنع ، لتقابل بين الجنيتين وصاحبهما الذي ظلم نفسه فبطر ولم يشكر ، وازدهى وتكبر .

وها هو ذا صاحب الجنيتين تمتلئ نفسه بهما ، ويزدهيه النظر إليهما ، فيحس بالزهو ، وينتفش كالديك ، ويختال كالطاووس ، ويتعالى على صاحبه الفقير : « فقال لصاحبه وهو يحاوره - أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً » ..

ثم يخطوب صاحبه إلى إحدى الجنيتين ، وملء نفسه البطر ، وملء جنبه الغرور ؛ وقد نسي الله ، ونسي أن يشكره على ما أعطاه ؛ وظن أن هذه الجنان المثمرة لن تبيد أبداً ، أنكر قيام الساعة أصلاً ، وهبها قامت فسيجد هنالك الرعاية والإيثار ! أليس من أصحاب الجنان في الدنيا فلا بد أن يكون جنباه ملحوظاً في الآخرة !

« ودخل جنته وهو ظالم لنفسه . قال : ما أظن أن تبيد هذه أبداً ، وما أظن الساعة قائمة . ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً ! »

إنه الغرور يخيل لذوي الجاه والسلطان والمتاع والثراء ، أن القيم التي يعاملهم بها أهل هذه الدنيا الفانية تظل محفوظة لهم حتى في الملأ الأعلى ! فما داموا يستطيّلون على أهل هذه الأرض فلا بد أن يكون لهم عند السماء مكان ملحوظ !

فأما صاحبه الفقير الذي لا مال له ولا نفر ، ولا جنة عنده ولا ثمر .. فإنه معتز بما هو أبقي وأعلى . معتز بعقيدته وإيمانه . معتز بالله الذي تعنوله الجباه ؛ فهو يجبه صاحبه المتبطر المغرور منكرراً عليه بطره وكبره ، يذكره بمنشئه المهين من ماء وطن ، ويوجهه إلى الأدب الواجب في حق المنعم . وينذره عاقبة البطر والكبر . ويرجو عند ربه ما هو خير من الجنة والثمار :

« قال له صاحبه - وهويحاوره - أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً؟ لكننا هو الله ربي ، ولا أشرك بربي أحداً . ولولا إذ دخلت جنتك قلت : ما شاء الله لا قوة إلا بالله . إن ترن أنا أقل منك مالاً وولداً . فعسى ربي أن يؤتين خيراً من جنتك ، ويرسل عليها حساباً^١ من السماء فتصبح صعيداً زلقاً^٢ ، أو يصبح ماؤها غوراً^٣ فلن تستطيع له طلباً .. »

وهكذا تنتفض عزة الإيمان في النفس المؤمنة ، فلا تبالي المال والنفر ، ولا تداري الغنى والبطر ، ولا تتلثم في الحق ، ولا تجامل فيه الأصحاب . وهكذا يستشعر المؤمن أنه عزيز أمام الجاه والمال ، وأن ما عند الله خير من أعراض الحياة ، وأن فضل الله عظيم وهويطمع في فضل الله . وأن نعمة الله جبارة وأنها وشيكة أن تصيب الغافلين المتبطين .

وفجأة ينقلنا السياق من مشهد النماء والازدهار إلى مشهد الدمار والبوار . ومن هيئة البطر ، والاستكبار إلى هيئة الندم والاستغفار . فلقد كان ما توقعه الرجل المؤمن :

« وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها ، وهي خاوية على عروشها ، ويقول : يا ليتني لم أشرك بربي أحداً .. »

وهو مشهد شاخص كامل : الثمر كله مدمراً كما أخذ من كل جانب فلم يسلم منه شيء . والجنة خاوية على عروشها مهشمة محطمة . وصاحبها يقلب كفيه أسفاً وحزناً على ماله الضائع وجهده الذاهب . وهونادم على إشراكه بالله ، يعترف الآن بربوبيته ووحدانيته . ومع أنه لم يصرح بكلمة الشرك ، إلا أن اعترازه بقيمة أخرى أراضية غير قيمة الإيمان كان شركاً ينكره الآن ، ويندم عليه ويستعيد منه بعد فوات الأوان .

هنا يتفرد الله بالولاية والقدرة : فلا قوة إلا قوته ، ولا نصر إلا نصره . وثوابه هو خير الثواب ، وما يبقى عنده للمرء من خير فهو خير ما يتبقى :

« ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله ، وما كان منتصراً . هنالك الولاية لله الحق ، هو خير ثواباً وخير عقباً .. »

ويسدل الستار على مشهد الجنة الخاوية على عروشها ، وموقف صاحبها يقلب كفيه أسفاً وندماً ، وجلال الله يظلل الموقف ، حيث تتوارى قدرة الإنسان ..

* * *

وأمام هذا المشهد يضرب مثلاً للحياة الدنيا كلها . فإذا هي كتلك الجنة المضروبة مثلاً قصيرة قصيرة ، لا بقاء لها ولا قرار :

« واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض ، فأصبح هشيماً تذروه الرياح ، وكان الله على كل شيء مقتدرًا .. »

هذا المشهد يعرض قصيراً خاطفاً ليلقي في النفس ظل الفناء والزوال . فلما ينزل من السماء فلا يجري ولا

(١) سيل مدمر يقتل أشجارها ويهلكها .

(٢) سطحا أجرد تزل فيه القدم

(٣) غائراً وهو ضد النابع .

يسيل ولكن يختلط به نبات الأرض . والنبات لا ينمو ولا ينضج ، ولكنه يصبح هشياً تذروه الرياح . وما بين ثلاث جمل قصار ، ينتهي شريط الحياة .

ولقد استخدم النسق اللفظي في تقصير عرض المشاهد . بالتعقيب الذي تدل عليه الفاء :

« ماء أنزلناه من السماء » ف « اختلط به نبات الأرض » ف « أصبح هشياً تذروه الرياح » فما أقصرها حياة ! وما أهونها حياة !

وبعد أن يلقي مشهد الحياة الذاهبة ظلّه في النفس يقرر السياق بميزان العقيدة قيم الحياة التي يتعبد بها الناس في الأرض ، والقيم الباقية التي تستحق الاهتمام :

« المال والبنون زينة الحياة الدنيا ، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً ، وخير أملاً » ..

المال والبنون زينة الحياة ؛ والإسلام لا ينهى عن المتاع بالزينة في حدود الطيبات . ولكنه يعطيها القيمة التي تستحقها الزينة في ميزان الخلود ولا يزيد .

إنهما زينة ولكنهما ليسا قيمة . فما يجوز أن يوزن بهما الناس ولا أن يقدروا على أساسهما في الحياة . إنما القيمة الحقّة للباقيات الصالحات من الأعمال والأقوال والعبادات .

وإذا كان أمل الناس عادة يتعلق بالأموال والبنين فإن الباقيات الصالحات خير ثواباً وخير أملاً . عند ما تتعلق بها القلوب ، ويناط بها الرجاء ، ويرتقب المؤمنون نتائجها وثمارها يوم الجزاء .

* * *

وهكذا يتناسق التوجيه الإلهي للرسول - صلى الله عليه وسلم - في أن يصبر نفسه مع الذين يدعون ربهم في الغداة والعشي يريدون وجهه . مع إحياء قصة الجنتين . مع ظل المثل المضروب للحياة الدنيا . مع هذا التقرير الأخير للقيم في الحياة وما بعد الحياة .. وتشترك كلها في تصحيح القيم بميزان العقيدة . وتتساوى كلها في السورة وفق قاعدة التناسق الفني والتناسق الوجداني في القرآن^١ .

وَيَوْمَ نُسِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعَرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوَضَعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۖ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ

(١) تراجع فصل « التناسق الفني » في كتاب : « التصوير الفني في القرآن » . « دار الشروق » .

أُولِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٦﴾ * مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥٧﴾
 وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴿٥٨﴾ وَرَأَى
 الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٩﴾
 وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٦٠﴾ وَمَا مَعَ النَّاسِ أَنْ
 يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٦١﴾ وَمَا نُرْسِلُ
 الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَمُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا
 هُزُوًا ﴿٦٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَلِئْسَ مَا قَدَّمَتْ يَدَايَ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً
 أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِلَّا إِذَا أَبَدَا ﴿٦٣﴾ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ
 لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَهُمْ اللَّهُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلاً ﴿٦٤﴾ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ
 أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ﴿٦٥﴾

انتهى الدرس السابق بالحديث عن الباقيات الصالحات ؛ فهنا يصله بوصف اليوم الذي يكون للباقيات الصالحات وزن فيه وحساب ، يعرضه في مشهد من مشاهد القيامة . ويتبعه في السياق بإشارة إلى ما كان من إبليس يوم أمر بالسجود لآدم ففسق عن أمر ربه للتعجب من أبناء آدم الذين يتخذون الشياطين أولياء ، وقد علموا أنهم لهم أعداء ، وبذلك ينهون إلى العذاب في يوم الحساب . ويعرج على الشركاء الذين لا يستجيبون لعبادهم في ذلك اليوم الموعود .

هذا وقد صرف الله في القرآن الأمثال للناس ليقوا أنفسهم شر ذلك اليوم ، ولكنهم لم يؤمنوا ، وطلبوا أن يحل بهم العذاب أو أن يأتيهم الهلاك الذي نزل بالأمم قبلهم . وجادلوا بالباطل ليغلبوا به الحق ، واستهزأوا بآيات الله ورسله . ولولا رحمة الله لعجل لهم العذاب ..

هذا الشوط من مشاهد القيامة ، ومن مصارع المكذبين يرتبط بمحور السورة الأصيل في تصحيح العقيدة ، وبيان ما ينتظر المكذبين ، لعلمهم بهتدون .

* * *

« ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة ، وحشرناهم فلم تغادر منهم أحداً . وعرضوا على ربك صفاً .

لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة ، بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعداً . ووضع الكتاب قترى المجرمين مشفقين مما فيه ؛ ويقولون : يا ويلتنا ! مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ؟ ووجدوا ما عملوا حاضراً ، ولا يظلم ربك أحداً .

إنه مشهد تشترك فيه الطبيعة ويرسم الهول فيه على صفحاتها وعلى صفحات القلوب . مشهد تتحرك فيه الجبال الراسخة فتسير ، فكيف بالقلوب ، وتتبدى فيه الأرض عارية ، وتبرز فيه صفحاتها مكشوفة لا نجد فيها ولا وهاد ، ولا جبال فيها ولا وديان . وكذلك تتكشف خبايا القلوب فلا تخفي منها خافية .
ومن هذه الأرض المستوية المكشوفة التي لا تخفى شيئاً ، ولا تخفي أحداً : « وحشرناهم فلم تغادر منهم أحداً » .

ومن الحشر الجامع الذي لا يخلف أحداً إلى العرض الشامل : « عرضوا على ربك صفاً » .. هذه الخلائق التي لا يحصى لها عدد ، منذ أن قامت البشرية على ظهر هذه الأرض إلى نهاية الحياة الدنيا .. هذه الخلائق كلها محشورة مجموعة مصفوفة ، لم يتخلف منها أحد ، فالأرض مكشوفة مستوية لا تخفي أحداً .

وهنا يتحول السياق من الوصف إلى الخطاب . فكأنما المشهد حاضر اللحظة ، شاخص نراه ونسمع ما يدور فيه . ونرى الخزي على وجوه القوم الذين كذبوا بذلك الموقف وأنكروه : « لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة . بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعداً » .

هذا الالتفات من الوصف إلى الخطاب يحيي المشهد ويجسمه . كأنما هو حاضر اللحظة ، لا مستقبل في ضمير الغيب في يوم الحساب .

وإننا لنكاد نلمح الخزي على الوجوه ، والذل في الملامح . وصوت الجلالة الرهيب يحبه هؤلاء المجرمين بالتأنيب : « لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة » وكنتم تزعمون أن ذلك لن يكون : « بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعداً » !

وبعد إحياء المشهد واستحضاره بهذا الالتفات من الوصف إلى الخطاب يعود إلى وصف ما هناك :

« ووضع الكتاب قترى المجرمين مشفقين مما فيه » فهذا هو سجل أعمالهم يوضع أمامهم ، وهم يتملونه ويراجعونه ، فإذا هو شامل دقيق . وهم خائفون من العاقبة ضيقو الصدور بهذا الكتاب الذي لا يترك شاردة ولا واردة ، ولا تند عنه كبيرة ولا صغيرة : « ويقولون : يا ويلتنا . مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة ، إلا أحصاها ؟ » وهي قولة المحسور المغيظ المتوقع لأسوأ العواقب ، وقد ضبطت مكشوفاً لا يملك تفلتا ولا هرباً ، ولا مغالطة ولا مداورة : « ووجدوا ما عملوا حاضراً » ولاقوا جزاء عادلاً : « ولا يظلم ربك أحداً » ..

* * *

هؤلاء المجرمون الذين وقفوا ذلك الموقف كانوا يعرفون أن الشيطان عدوهم ، ولكنهم تولوه فقادهم إلى ذلك الموقف العصيب . فما أعجب أن يتولوا إبليس وذريته وهم لهم عدو منذ ما كان بين آدم وإبليس :

« وإذ قلنا للملائكة : اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه . أفتخذونه وذريته أولياء من دوني ، وهم لكم عدو ، بئس للظالمين بدلاً » .

وهذه الإشارة إلى تلك القصة القديمة تجيء هنا للتعجيب من أبناء آدم الذين يتخذون ذرية إبليس أولياء من دون الله بعد ذلك العداة القديم .

واتخاذ إبليس وذريته أولياء يتمثل في تلبية دواعي المعصية والتولي عن دواعي الطاعة .
ولماذا يتولون أعداءهم هؤلاء ، وليس لديهم علم ولا لهم قوة . فالله لم يشهدهم خلق السماوات والأرض
ولا خلق أنفسهم فيطلعهم على غيبه . والله لا يتخذهم عضداً فتكون لهم قوة :
« ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم ، وما كنت متخذ المضلين عضداً » ..
إنما هو خلق من خلق الله ، لا يعلمون غيبه ، ولا يستعين بهم سبحانه ..
« وما كنت متخذ المضلين عضداً » فهل يتخذ الله سبحانه غير المضلين عضداً ؟

وتعالى الله الغني عن العالمين ، ذو القوة المتين .. إنما هو تعبير فيه مجازة لأوهام المشركين لتبعتها واستئصالها .
فالذين يتولون الشيطان ويشركون به مع الله ، إنما يسلكون هذا المسلك توهماً منهم أن للشيطان علماً خفياً ،
وقوة خارقة . والشيطان مضل ، والله يكره الضلال والمضلين . فلوأنه - على سبيل الفرض والجدل - كان متخذاً
له مساعدين ، لما اختارهم من المضلين !
وهذا هو الظل الذي يراد أن يلقى التعبير ..

ثم يعرض مشهد من مشاهد القيامة يكشف عن مصير الشركاء ومصير المجرمين :
« ويوم يقول : نادوا شركائي الذين زعمتم . فدعوهم فلم يستجيبوا لهم . وجعلنا بينهم موبقا . ورأى المجرمون
النار فظنوا أنهم مواقعوها ، ولم يجدوا عنها مصرفاً » ..

إنهم في الموقف الذي لا تجدي فيه دعوى بلا برهان . والديان يطالبهم أن يأتوا بشركائهم الذين زعموا ،
ويأمرهم أن يدعوهم ليحضروا .. وإنهم لفي ذهول ينسون أنها الآخرة ، فينادون . لكن الشركاء لا يجيبون !
وهم بعض خلق الله الذين لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم شيئاً في الموقف المرهوب . وقد جعل الله بين المعبودين
وعبادهم مهلكة لا يجتازها هؤلاء ولا هؤلاء .. إنها النار « وجعلنا بينهم موبقاً » .
ويتطلع المجرمون ، فتمتلئ نفوسهم بالخوف والهلع ، وهم يتوقعون في كل لحظة أن يقعوا فيها . وما أشق
توقع العذاب وهو حاضر ، وقد أيقنوا أن لا نجاة منها ولا محيص :
« ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ، ولم يجدوا عنها مصرفاً »

* * *

ولقد كان لهم عنها مصرف ، لو أنهم صرفوا قلوبهم من قبل للقرآن ، ولم يجادلوا في الحق الذي جاء به ،
وقد ضرب الله لهم فيه الأمثال ونوعها لتشمل جميع الأحوال :
« ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل ، وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً » ..

ويعبر السياق عن الإنسان في هذا المقام بأنه « شيء » وأنه أكثر شيء جدلاً . ذلك كي يطامن الإنسان من
كبريائه ، ويقلل من غروره ، ويشعر أنه خلق من مخلوقات الله الكثيرة . وأنه أكثر هذه الخلائق جدلاً . بعد
ما صرف الله في هذا القرآن من كل مثل .

ثم يعرض الشبهة التي تعلق بها من لم يؤمنوا - وهم كثرة الناس - على مدار الزمان والرسالات :
« وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم إلا أن تأتيهم سنة الأولين ، أو يأتيهم العذاب
قبلاً » ..

فلقد جاءهم من الهدى ما يكفي للاهتداء . ولكنهم كانوا يطلبون أن يحل بهم ما حل بالمكذبين من قبلهم

من هلاك - استبعاداً لوقوعه واستهزاء - أو أن يأتيهم العذاب مواجهة يرون أنه سيقع بهم . وعندئذ فقط يوقنون فيؤمنون !

وليس هذا أوذاك من شأن الرسل . فأخذ المكذبين بالهلاك - كما جرت سنة الله في الأولين بعد مجيء الخوارق وتكذيبهم بها - أو إرسال العذاب .. كله من أمر الله . أما الرسل فهم مبشرون ومنذرون :
« وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين . ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق . واتخذوا آياتي وما أنذروا هزوا » .

والحق واضح . ولكن الذين كفروا يجادلون بالباطل ليغلبوا به الحق ويبطلوه . وهم حين يطلبون الخوارق ، ويستعجلون بالعذاب لا ييغون اقتناعاً ، إنما هم يستهزئون بالآيات والنذر ويسخرون .
« ومن أظلم ممن ذكر آيات ربه فأعرض عنها ونسي ما قدمت يدها . إننا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً ، وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذن أبداً » ..

فهؤلاء الذين يستهزئون بآيات الله ونذره لا يرجي منهم أن يفقهوا هذا القرآن ، ولا أن ينتفعوا به . لذلك جعل الله على قلوبهم أغطية تحول دون فقهه ، وجعل في آذانهم كالصمم فلا يستمعون إليه . وقدر عليهم الضلال - بسبب استهزائهم وإعراضهم - فلن يهتدوا إذن أبداً . فللهدى قلوب متفتحة مستعدة للتلقي .

« وربك الغفور ذو الرحمة لويؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب » ..

ولكن الله يمهلهم رحمة بهم ، ويؤخر عنهم الهلاك الذي يستعجلون به ، ولكنه لن يمهلهم :
« بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موثلاً » ..

موعد في الدنيا يحل بهم فيه شيء من العذاب . وموعد في الآخرة يوفون فيه الحساب .
ولقد ظلموا فكانوا مستحقين للعذاب أو الهلاك كالقرى قبلهم . لولا أن الله قدر إمهالهم إلى موعدهم ، لحكمة اقتضتها إرادته فيهم ، فلم يأخذهم أخذ القرى ؛ بل جعل لهم موعداً آخر لا يخلفونه :
« وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا . وجعلنا لمهلكهم موعداً » ..

فلا يغرهم إمهال الله لهم ، فإن موعدهم بعد ذلك آت . وسنة الله لا تتخلف . والله لا يخلف الميعاد ..

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتْنِهِ لَا أBRُحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتْنِهِ إِنَّا نَعْدَا نَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَن أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٤﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّ عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٥﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٦﴾ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَيْكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَ مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٧﴾ قَالَ

إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٧٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحَدِّثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٠﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٨١﴾ قَالَ الرَّاقِلُ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عَسْرًا ﴿٨٣﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِبَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتُمْ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا نَكِرًا ﴿٨٤﴾ * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنْ سَأَلْتَنِي عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴿٨٦﴾

فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَبَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا فَأَبْوَأَ أَن يُضَيَّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ ﴿٨٧﴾ قَالَ لَوِ شِئْتَ لَتَنَحَّدْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٨٨﴾ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَنِي وَبَيْنَكَ سَانِدُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٩﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٩٠﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٩١﴾ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٩٢﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٩٤﴾

هذه الحلقة من سيرة موسى - عليه السلام - لا تذكر في القرآن كله إلا في هذا الموضع من هذه السورة .
والقرآن لا يحدد المكان الذي وقعت فيه إلا بأنه « مجمع البحرين » ولا يحدد التاريخ الذي وقعت فيه من حياة موسى ، هل كان ذلك وهو في مصر قبل خروجه ببني إسرائيل أم بعد خروجه بهم منها ؟ ومتى بعد الخروج : قبل أن يذهب بهم إلى الأرض المقدسة ، أم بعد ما ذهب بهم إليها فوقفوا حياها لا يدخلون لأن فيها قوماً جبارين ؟ أم بعد ذهابهم في التيه ، مفترقين مبددين ؟
كذلك لا يذكر القرآن شيئاً عن العبد الصالح الذي لقيه موسى . من هو ؟ ما اسمه ؟ هل هو نبي أو رسول ؟ أم عالم ؟ أم ولي ؟

وهناك روايات كثيرة عن ابن عباس وعن غيره في هذه القصة . ونحن نقف عند نصوص القصة في القرآن .
لنعيش « في ظلال القرآن » ونعتقد أن لعرضها في القرآن على النحو الذي عرضت به ، دون زيادة ، ودون
تحديد للمكان والزمان والأسماء ، حكمة خاصة . فتقف نحن عند النص القرآني تملأه ١ ..

« وإذ قال موسى لفتاه : لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقبا .. »
والأرجح - والله أعلم - أنه مجمع البحرين : بحر الروم وبحر القلزم . أي البحر الأبيض والبحر الأحمر ..
ومجمعهما مكان التقائهما في منطقة البحيرات المرة وبحيرة التمساح . وأنه مجمع خليجي العقبة والسويس في
البحر الأحمر . فهذه المنطقة كانت مسرح تاريخ بني إسرائيل بعد خروجهم من مصر . وعلى أي فقد تركها
القرآن مجملة فنكتفي بهذه الإشارة ٢ .

ونفهم من سياق القصة فيما بعد - أنه كان لموسى - عليه السلام - هدف من رحلته هذه التي اعترمها ، وأنه
كان يقصد من ورائها أمراً ، فهو يعلن تصميمه على بلوغ مجمع البحرين مهما تكن المشقة ، ومهما يكن الزمن
الذي يتفقه في الوصول . وهو يعبر عن هذا التصميم بما حكاه القرآن من قوله : « أو أمضي حقبا » والحقب قيل
عام ، وقيل ثمانون عاماً . على أية حال فهو تعبير عن التصميم ، لا عن المدة على وجه التحديد .

« فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله في البحر سرباً . فلما جاوزا قال لفتاه : آتنا غداءنا لقد لقينا
من سفرنا هذا نصيباً . قال : أريت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره
واتخذ سبيله في البحر عجباً .. » ..

والأرجح كذلك أن هذا الحوت كان مشوياً ، وأن إحياءه واتخاذ سبيله في البحر سرباً كان آية من آيات
الله لموسى ، يعرف بهما مواعده ، بدليل عجب فتاه من اتخاذه سبيله في البحر ، ولو كان يعني أنه سقط منه فغاص
في البحر ما كان في هذا عجب . ويرجح هذا الوجه أن الرحلة كلها مفاجآت غيبية . فهذه إحداهما .

وأدرك موسى أنه جاوز الموعد الذي حدده ربه له للقاء عبده الصالح . وأنه هنالك عند الصخرة ثم عاد على
أثره هو وفتاه فوجداه :

« قال : ذلك ما كنا نبغ . فارتدا على آثارهما قصصاً . فوجدنا عبداً من عبادنا آتيناها رحمة من عندنا وعلمتنا
من لدنا علماً » ..

ويبدو أن ذلك اللقاء كان سر موسى وحده مع ربه ، فلم يطلع عليه فتاه حتى لقيه . ومن ثم ينفرد موسى
والعبد الصالح في المشاهد التالية للقصة :

« قال له موسى : هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً ؟ » .

(١) أورد البخاري عند الكلام عن هذه القصة في القرآن :

« حدثنا الحميدي ، حدثنا سفيان ، حدثنا عمرو بن دينار ، أخبرني سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : إن نوحاً البكالي يزعم أن
موسى صاحب الخضر عليه السلام ليس هو موسى صاحب بني إسرائيل . وقال ابن عباس : كذب عدو الله . حدثنا أبي بن كعب -
رضي الله عنه - أنه سمع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « إن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل ، فسئل أي الناس أعلم ؟
قال : أنا فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه ، فأوحى الله إليه إن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك قال موسى : يا رب وكيف لي
به ؟ قال تأخذ معك حوتاً فتجعله بمكث ، فحيثما فقدت الحوت فهو ثم » ..

(٢) ورد أن قتادة وغير واحد قال : هما بحر فارس مما يلي المشرق وبحر الروم مما يلي المغرب . وقال محمد بن كعب القرظي : مجمع
البحرين عند طنجة يعني في أقصى بلاد المغرب .. ونحن نستبعد القولين ..

بهذا الأدب اللائق بنبي ، يستفهم ولا يجزم ، ويطلب العلم الراشد من العبد الصالح العالم .

ولكن علم الرجل ليس هو العلم البشري الواضح الأسباب القريب النتائج ، إنما هو جانب من العلم اللدني بالغيب أطلعه الله عليه بالقدر الذي أراد ، للحكمة التي أرادها . ومن ثم فلا طاقة لموسى بالصبر على الرجل وتصرفاته ولو كان نبياً رسولاً . لأن هذه التصرفات حسب ظاهرها قد تصطدم بالمنطق العقلي ، وبالأحكام الظاهرة ، ولا بد من إدراك ما وراءها من الحكمة المغيبة ؛ وإلا بقيت عجيبة تثير الاستنكار . لذلك يخشى العبد الصالح الذي أوتي العلم اللدني على موسى ألا يصبر على صحبته وتصرفاته :

« قال : إنك لن تستطيع معي صبراً . وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً ؟ » .

ويعزم موسى على الصبر والطاعة ، ويستعين الله ، ويقدم مشيئته :

« قال : ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً .. »

فيزيد الرجل توكيداً وبياناً ، ويذكر له شرط صحبته قبل بدء الرحلة ، وهو أن يصبر فلا يسأل ولا يستفسر عن شيء من تصرفاته حتى يكشف له عن سرها :

« قال : فإن اتبعني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً » .

ويرضى موسى .. وإذا نحن أمام المشهد الأول لهما :

« فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها .. »

سفينة تحملهما وتحمل معهما ركاباً ، وهم في وسط اللجة ؛ ثم يجيء هذا العبد الصالح فيخرق السفينة ! إن ظاهر الأمر هنا أن هذه الفعلة تعرض السفينة وركابها لخطر الغرق وتؤدي بهم إلى هذا الشر ؛ فلماذا يقدم الرجل على هذا الشر ؟

لقد نسي موسى ما قاله هو وما قاله صاحبه ، أمام هذا التصرف العجيب الذي لا مبرر له في نظر المنطق العقلي ! والإنسان قد يتصور المعنى الكلي المجرد ، ولكنه عندما يصطدم بالتطبيق العملي لهذا المعنى والنموذج الواقعي منه يستشعره وقعاً غير التصور النظري . فالتجربة العملية ذات طعم آخر غير التصور المجرد . وها هو ذا موسى الذي نبه من قبل إلى أنه لا يستطيع صبراً على ما لم يحط به خبراً ، فاعتزم الصبر واستعان بالمشيئة وبذل الوعد وقبل الشرط . ها هو ذا يصطدم بالتجربة العملية لتصرفات هذا الرجل فيندفع مستنكراً .

نعم إن طبيعة موسى طبيعة انفعالية اندفاعية ، كما يظهر من تصرفاته في كل أدوار حياته . منذ أن وكز الرجل المصري الذي رآه يقتتل مع الإسرائيلي فقتله في اندفاعه من اندفاعاته . ثم أناب إلى ربه مستغفراً معتذراً حتى إذا كان اليوم الثاني ورأى الإسرائيلي يقتتل مع مصري آخر ، هم بالآخر مرة أخرى !

نعم إن طبيعة موسى هي هذه الطبيعة . ومن ثم لم يصبر على فعلة الرجل ولم يستطع الوفاء بوعد الذي قطعه أمام غرابتها . ولكن الطبيعة البشرية كلها تلتقي في أنها تجد للتجربة العملية وقعاً وطعماً غير التصور النظري . ولا تدرك الأمور حق إدراكها إلا إذا ذاقها وجربتها .

ومن هنا اندفع موسى مستنكراً :

« قال : أخرقتها لتغرق أهلها ؟ لقد جئت شيئاً إمرأاً » .

سورة الكهف

وفي صبر ولطف يذكره العبد الصالح بما كان قد قاله منذ البداية :
« قال : ألم أقل : إنك لن تستطيع معي صبراً ؟ » .

ويعتذر موسى بنسيانه ، ويطلب إلى الرجل أن يقبل عذره ولا يرهقه بالمراجعة والتذكير :

« قال : لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً .. »

ويقبل الرجل اعتذاره ، فتجدنا أمام المشهد الثاني :

« فانطلقا . حتى إذا لقيا غلاماً فقتله .. » .

وإذا كانت الأولى حرق سفينة واحتمال غرق من فيها ؛ فهذه قتل نفس . قتل عمد لا مجرد احتمال . وهي

فظيحة كبيرة لم يستطع موسى أن يصبر عليها على الرغم من تذكيره لوعده :

« قال : أقتلت نفساً زكية بغير نفس ؟ لقد جئت شيئاً نكراً » .

فليس ناسياً في هذه المرة ولا غافلاً ؛ ولكنه قاصد . قاصد أن ينكر هذا النكر الذي لا يصبر على وقوعه ولا يتأول له أسباباً ، والغلام في نظره بريء . لم يرتكب ما يوجب القتل ، بل لم يبلغ الحلم حتى يكون مؤاخذاً على ما يصدر منه .

ومرة أخرى يرده العبد الصالح إلى شرطه الذي شرط ووعده الذي وعد ، ويذكره بما قال له أول مرة .

والتجربة تصدقه بعد التجربة :

« قال : ألم أقل لك : إنك لن تستطيع معي صبراً .. »

وفي هذه المرة يعين أنه قال له : « ألم أقل لك ؟ » لك أنت على التعيين والتحديد . فلم تقتنع وطلبت الصحبة

وقبلت الشرط .

ويعود موسى إلى نفسه ، ويجد أنه خالف عن وعده مرتين ، ونسي ما تعهد به بعد التذكير والتفكير . فيندفع

ويقطع على نفسه الطريق ، ويجعلها آخر فرصة أمامه :

« قال : إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني . قد بلغت من لدني عذراً » .

وينطلق السياق فإذا نحن أمام المشهد الثالث :

« فانطلقا . حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض

فأقامه .. »

إنهما جائعان ، وهما في قرية أهلها بخلاء ، لا يطعمون جائعاً ، ولا يستضيفون ضيفاً . ثم يجد أن جداراً

مائلاً بهم أن ينقض . والتعبير يخلع على الجدار حياة وإرادة كالأحياء فيقول : « يريد أن ينقض » فإذا الرجل

الغريب يشغل نفسه بإقامة الجدار دون مقابل !!!

وهنا يشعر موسى بالتناقض في الموقف . ما الذي يدفع هذا الرجل أن يجهد نفسه ويقم جداراً بهم بالانقضاء

في قرية لم يقدم لهما أهلها الطعام وهما جائعان ، وقد أبوا أن يضيفوهما ؟ أفلا أقل من أن يطلب عليه أجراً

يأكلان منه ؟

« قال : لو شئت لا اتخذت عليه أجراً ! »

وكانت هي الفاصلة . فلم يعد لموسى من عذر ، ولم يعد للصحبة بينه وبين الرجل مجال :

« قال : هذا فراق بيني وبينك . سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً »^١ .

وإلى هنا كان موسى - ونحن الذين نتابع سياق القرآن - أمام مفاجآت متوالية لا نعلم لها سرّاً . وموقفنا منها كموقف موسى . بل نحن لا نعرف من هو هذا الذي يتصرف تلك التصرفات العجيبة ، فلم ينبئنا القرآن باسمه ، تكملة للجو الغامض الذي يحيط بنا . وما قيمة اسمه ؟ إنما يراد به أن يمثل الحكمة الإلهية العليا ، التي لا ترتب النتائج القريبة على المقدمات المنظورة ، بل تهدف إلى أغراض بعيدة لا تراها العين المحدودة . فعدم ذكر اسمه يتفق مع الشخصية المعنوية التي يمثلها . وإن القوى الغيبية لتتحكم في القصة منذ نشأتها . فها هو ذا موسى يريد أن يلقي هذا الرجل الموعود . فيمضي في طريقه ؛ ولكن فتاه ينسى غداءهما عند الصخرة ، وكأنما نسيه ليعودا . فيجد هذا الرجل هناك . وكان لقاؤه يفوتهما لوسارا في وجهتهما ، ولولم تردهما الأقدار إلى الصخرة كرة أخرى .. كل الجو غامض مجهول ، وكذلك اسم الرجل الغامض المجهول في سياق القرآن . ثم يأخذ السر في التجلي ..

« أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر ، فأردت أن أعيبها ؛ وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا » .

فهذا العيب نجت السفينة من أن يأخذها ذلك الملك الظالم غصباً . وكان الضرر الصغير الذي أصابها اتقاء للضرر الكبير الذي يكنه الغيب لها لو بقيت على سلامتها .

« وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً . فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحماً » ..

فهذا الغلام الذي لا يبدو في حاضره ومظهره أنه يستحق القتل ، قد كشف ستر الغيب عن حقيقته للعبد الصالح ، فإذا هو في طبيعته كافر طاغ ، تكمن في نفسه بذور الكفر والطغيان ، وتزيد على الزمن بروزاً وتحققاً .. فلو عاش لأرهب والدیه المؤمنين بكفره وطغيانه ، وقادهما بدافع جهما له أن يتبعاه في طريقه . فأراد الله ووجه إرادة عبده الصالح إلى قتل هذا الغلام الذي يحمل طبيعة كافرة طاغية ، وأن يبدلهما الله خلفاً خيراً منه ، وأرحم بوالديه .

ولو كان الأمر موكولاً إلى العلم البشري الظاهر ، لما كان له إلا الظاهر من أمر الغلام ، ولما كان له عليه من سلطان ، وهو لم يرتكب بعد ما يستحق عليه القتل شرعاً . وليس لغير الله ولمن يطلع منه من عباده على شيء من غيبه أن يحكم على الطبيعة المغيبة لفرد من الناس . ولا أن يرتب على هذا العلم حكماً غير حكم الظاهر الذي تأخذ به الشريعة . ولكنه أمر الله القائم على علمه بالغيب البعيد .

« وأما الجدار فكان لغلّامين يتيمين في المدينة ، وكان تحته كنز لهما ، وكان أبوهما صالحاً ، فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كثرهما ، رحمة من ربك وما فعلته عن أمري .. ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً » ..

فهذا الجدار الذي أتعب الرجل نفسه في إقامته ، ولم يطلب عليه أجراً من أهل القرية - وهما جائعان وأهل القرية لا يضيفونهما - كان يخبىء تحته كنزاً ، ويغيب وراءه مالاً لغلّامين يتيمين ضعيفين في المدينة . ولوترك الجدار ينقض لظهر من تحته الكثر فلم يستطع الصغيران أن يدفعا عنه .. ولما كان أبوهما صالحاً فقد نفعهما الله بصلاحه في طفولتهما وضعفهما ، فأراد أن يكبرا ويشتد عودهما ، ويستخرجا كثرهما وهما قادران على حمايته .

(١) إلى هنا ينتهي الجزء الخامس عشر . ولكننا استطرادنا فيه إلى نهاية القصة .

سورة الكهف

ثم ينفض الرجل يده من الأمر . فهي رحمة الله التي اقتضت هذا التصرف . وهو أمر الله لا أمره . فقد أطلعه على الغيب في هذه المسألة وفيما قبلها ، ووجهه إلى التصرف فيها وفق ما أطلعه عليه من غيبه « رحمة من ربك وما فعلته عن أمري » ..

فالآن ينكشف الستر عن حكمة ذلك التصرف ، كما انكشف عن غيب الله الذي لا يطلع عليه أحداً إلا من ارتضى .

وفي دهشة السر المكشوف والستر المرفوع يختفي الرجل من السياق كما بدا . لقد مضى في المجهول كما خرج من المجهول . فالقصة تمثل الحكمة الكبرى . وهذه الحكمة لا تكشف عن نفسها إلا بمقدار . ثم تبقى مغيبة في علم الله وراء الأستار .

* * *

وهكذا ترتبط - في سياق السورة - قصة موسى والعبد الصالح ، بقصة أصحاب الكهف في ترك الغيب لله ، الذي يدبر الأمر بحكمته ، وفق علمه الشامل الذي يقصر عنه البشر ، الواقفون وراء الأستار ، لا يكشف لهم عما وراءها من الأسرار إلا بمقدار ...

انتهى الجزء الخامس عشر
ويليه الجزء السادس عشر
مبدوءاً بقوله تعالى :

« أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر ... »

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بقيّة
سُورَةُ الْكَهْفِ
وَسُورَتَا
مَرْيَمَ وَطٰهٍ

الجزء السادس عشر

أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٨﴾
 وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبُوهُ مُؤْمِنِينَ نَخِشِينَا أَنْ يَرِهَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٧٩﴾ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ
 زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨٠﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا
 صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴿٨١﴾ ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ
 نَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ (١)

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّانَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ
 سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَاتَّبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا
 يَبْذَأُ الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ
 فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نَكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ الْحَسَنَىٰ وَسَنُقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾
 ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطَّلِعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ تَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾
 كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾

ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا
 يَبْذَأُ الْقَرْنَيْنِ إِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ
 سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ
 إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قَطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا اسْتَطَعُوا أَنْ
 يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ﴿٩٨﴾ وَكَانَ وَعْدُ
 رَبِّي حَقًّا ﴿٩٩﴾

* وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ لِحَمْعَتِهِمْ جَمْعًا ﴿١٠١﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ

(١) سبق تفسير هذه الآيات في الجزء الخامس عشر لارتباطها به .

لِّلْكَافِرِينَ عَرَضًا ﴿١١﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٢﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ
كَفَرُوا أَن يَخَذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِّلْكَافِرِينَ نَزُلًا ﴿١٣﴾
قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٤﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ
صُنْعًا ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَايَتِ رَبِّهِمْ وَلِقَايِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٦﴾
ذَلِكَ جَزَاءُ هُمَّ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوعًا ﴿١٧﴾ إِنَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نَزُلًا ﴿١٨﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٩﴾
قُلْ لَوْ كَانِ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ
مَدَدًا ﴿٢٠﴾

قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أُمَّةٍ إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ۗ قَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا
صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ ۚ أَحَدًا ﴿٢١﴾

هذا الدرس الأخير في سورة الكهف قوامه قصة ذي القرنين ، ورحلاته الثلاث إلى الشرق وإلى الغرب
وإلى الوسط ، وبناءه للسد في وجه يأجوج ومأجوج .
والسياق يحكي عن ذي القرنين قوله بعد بناء السد : « قال : هذا رحمة من ربي فإذا جاء وعد ربي جعله
دكاء ، وكان وعد ربي حقاً » .. ثم يعقب الوعد الحق . بالنفخ في الصور ومشهد من مشاهد القيامة .. ثم
تختم السورة بثلاثة مقاطع ، يبدأ كل مقطع منها : بقوله : « قل » .
وهذه المقاطع تلخص موضوعات السورة الرئيسية واتجاهاتها العامة . وكأنما هي الإيقاعات الأخيرة القوية
في اللحن المتناسق ..

* * *

وتبدأ قصة ذي القرنين على النحو التالي :

« ويسألونك عن ذي القرنين . قل : سأتلو عليكم منه ذكراً » ..

وقد ذكر محمد بن إسحاق سبب نزول هذه السورة فقال : « حدثني شيخ من أهل مصر قدم علينا منذ
بضع وأربعين سنة ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : « بعثت قريش النضر بن الحارث ، وعقبة بن أبي
معيط إلى أحبار يهود بالمدينة ، فقالوا لهم : سلوهم عن محمد ، وصفوا لهم صفته ، وأخبروهم بقوله ، فإنهم
أهل الكتاب الأول ، وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء .. فخرجوا حتى أتيا المدينة فسألوا أحبار يهود عن

رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ووصفوا لهم أمره وبعض قوله ، وقالوا : إنكم أهل التوراة ، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا . قال : فقالوا لهم : سلوه عن ثلاث نأمركم بهن . فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل ، وإلا فرجل متقول تروا فيه رأيكم : سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول . ما كان من أمرهم ؟ فإنهم كان لهم حديث عجيب . وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها . ما كان نبؤه ؟ وسلوه عن الروح ما هو ؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه ، وإن لم يخبركم فإنه رجل متقول فاصنعوا في أمره ما بدا لكم . فأقبل النصر وعقبة حتى قدما على قريش ، فقالوا : يا معشر قريش ، قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد . قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أمور ... فأخبروهم بها . فجاءوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالوا : يا محمد أخبرنا .. فسأله عما أمرهم به . فقال لهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « أخبركم غداً عما سألتم عنه » - ولم يستثن¹ - فانصرفوا عنه . ومكث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خمس عشرة ليلة لا يحدث الله له في ذلك وحياً ، ولا يأتيه جبريل عليه السلام ، حتى أرجف أهل مكة ؛ وقالوا : وعدنا محمد غداً ، واليوم خمس عشرة قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشيء عما سألتناه عنه . وحتى أحزن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مكث الوحي عنه ؛ وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة . ثم جاءه جبرائيل - عليه السلام - من الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف ، فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم ، وخبر ما سأله عنه من أمر الفتية ، والرجل الطواف ، وقول الله عز وجل : « ويسألونك عن الروح ... » الآية .

هذه رواية .. وقد وردت عن ابن عباس - رضي الله عنه - رواية أخرى في سبب نزول آية الروح خاصة ، ذكرها العوفي . وذلك أن اليهود قالوا للنبي - صلى الله عليه وسلم - : أخبرنا عن الروح . وكيف تعذب الروح التي في الجسد وإنما الروح من الله ؟ ولم يكن نزل عليه شيء . فلم يحر إليهم شيئاً . فأتاه جبريل فقال له : « قل : الروح من أمر ربي ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » .. إلى آخر الرواية .

ولتعدد الروايات في أسباب النزول ، تؤثر أن نقف في ظل النص القرآني المستيقن . ومن هذا النص نعلم أنه كان هناك سؤال عن ذي القرنين . لا ندري - على وجه التحقيق - من الذي سأله . والمعرفة به لا تزيد شيئاً في دلالة القصة . فلنواجه النص بلا زيادة .

إن النص لا يذكر شيئاً عن شخصية ذي القرنين ولا عن زمانه أو مكانه . وهذه هي السمة المطردة في قصص القرآن . فالتسجيل التاريخي ليس هو المقصود . إنما المقصود هو العبرة المستفادة من القصة . والعبرة تتحقق بدون حاجة إلى تحديد الزمان والمكان في أغلب الأحيان .

والتاريخ المدون يعرف ملكاً اسمه الاسكندر ذو القرنين . ومن المقطوع به أنه ليس ذا القرنين المذكور في القرآن . فالإسكندر الإغريقي كان وثنياً . وهذا الذي يتحدث عنه القرآن مؤمن بالله موحد معتقد بالبعث والآخرة .

ويقول أبو الريحان البيروني المنجم في كتاب : « الآثار الباقية عن القرون الخالية » إن ذا القرنين المذكور في القرآن كان من حمير مستدلاً باسمه . فلوك حمير كانوا يلقبون بذي . كذي نواس وذي يزن . وكان اسمه أبو بكر بن إفريقيش . وأنه رحل بجيوشه إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط ، فربطونس ومراكش وغيرها ؛ وبنى مدينة إفريقية فسميت القارة كلها باسمه . وسمي ذا القرنين لأنه بلغ قرني الشمس .

(١) يعني لم يقل . إلا أن يشاء الله .

وقد يكون هذا القول صحيحاً . ولكننا لا نملك وسائل تحصيله . ذلك أنه لا يمكن البحث في التاريخ المدون عن ذي القرنين الذي يقص القرآن طرفاً من سيرته ، شأنه شأن كثير من القصص الوارد في القرآن كقصص قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وغيرهم . فالتاريخ مولود حديث العهد جداً بالقياس إلى عمر البشرية . وقد جرت قبل هذا التاريخ المدون أحداث كثيرة لا يعرف عنها شيئاً . فليس هو الذي يستفتى فيها ! ولو قد سلمت التوراة من التحريف والزيادات لكانت مرجعاً يعتمد عليه في شيء من تلك الأحداث . ولكن التوراة أحيطت بالأساطير التي لا شك في كونها أساطير . وشحنت كذلك بالروايات التي لا شك في أنها مزيدة على الأصل الموحى به من الله . فلم تعد التوراة مصدراً مستيقناً لما ورد فيها من القصص التاريخي . وإذن فلم يبق إلا القرآن . الذي حفظ من التحريف والتبديل . هو المصدر الوحيد لما ورد فيه من القصص التاريخي .

ومن البديهي أنه لا تجوز محاكمة القرآن الكريم إلى التاريخ لسببين واضحين : أولهما : أن التاريخ مولود حديث العهد ، فاتته أحداث لا تحصى في تاريخ البشرية ، لم يعلم عنها شيئاً . والقرآن يروي بعض هذه الأحداث التي ليس لها لدى التاريخ علم عنها ! وثانيهما : أن التاريخ - وإن وعى بعض هذه الأحداث - هو عمل من أعمال البشر القاصرة بصيبه ما يصيب جميع أعمال البشر من القصور والخطأ والتحريف . ونحن نشهد في زماننا هذا - الذي تيسرت فيه أسباب الاتصال ووسائل الفحص - أن الخبر الواحد أو الحادث الواحد يروي على أوجه شتى ، وينظر إليه من زوايا مختلفة ، ويفسر تفسيرات متناقضة . ومن مثل هذا الركام يصنع التاريخ ، مهما قيل بعد ذلك في التمهيص والتدقيق !

فجرد الكلام عن استفتاء التاريخ فيما جاء به القرآن الكريم من القصص ، كلام تنكره القواعد العلمية المقررة التي ارتضاها البشر ، قبل أن تنكره العقيدة التي تقرر أن القرآن هو القول الفصل . وهو كلام لا يقول به مؤمن بالقرآن ، ولا مؤمن بوسائل البحث العلمي على السواء . إنما هو مرء !!!

* * *

لقد سأل سائلون عن ذي القرنين . سألوا الرسول - صلى الله عليه وسلم - فأوحى إليه الله بما هو وارد هنا من سيرته . وليس أمامنا مصدر آخر غير القرآن في هذه السيرة . فنحن لا نملك التوسع فيها بغير علم . وقد وردت في التفاسير أقوال كثيرة ، ولكنها لا تعتمد على يقين . وينبغي أن تؤخذ بحذر ، لما فيها من إسرئيليات وأساطير .

وقد سجل السياق القرآني لذي القرنين ثلاث رحلات : واحدة إلى المغرب ، وواحدة إلى المشرق ، وواحدة إلى مكان بين السدين .. فلتتابع السياق في هذه الرحلات الثلاث .

* * *

يبدأ الحديث عن ذي القرنين بشيء عنه :

« إنا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سبباً » ..

لقد مكن الله له في الأرض ، فأعطاه سلطاناً وطيد الدعائم ؛ ويسر له أسباب الحكم والفتح . وأسباب البناء والعمران ، وأسباب السلطان والمتاع .. وسائر ما هو من شأن البشر أن يمكننا فيه في هذه الحياة .

« فأتبع سبياً » . ومضى في وجه مما هو ميسر له ، وسلك طريقه إلى الغرب .

« حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة ، ووجد عندها قوماً . قلنا : يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسناً . قال : أما من ظلم فسوف نعذبه ، ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً . وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى ، وسنقول له من أمرنا يسراً » .

ومغرب الشمس هو المكان الذي يرى الرائي أن الشمس تغرب عنده وراء الأفق . وهو يختلف بالنسبة للمواضع . فبعض المواضع يرى الرائي فيها أن الشمس تغرب خلف جبل . وفي بعض المواضع يرى أنها تغرب في الماء كما في المحيطات الواسعة والبحار . وفي بعض المواضع يرى أنها تغرب في الرمال إذا كان في صحراء مكشوفة على مد البصر ..

والظاهر من النص أن ذا القرنين غرب حتى وصل إلى نقطة على شاطئ المحيط الأطلسي - وكان يسمى بحر الظلمات ويظن أن اليابسة تنتهي عنده - فرأى الشمس تغرب فيه .

والأرجح أنه كان عند مصب أحد الأنهار . حيث تكثر الأعشاب ويتجمع حولها طين لزج هو الحمأ . وتوجد البرك وكأنها عيون الماء .. فرأى الشمس تغرب هناك « وجدها تغرب في عين حمئة » .. ولكن يتعذر علينا تحديد المكان ، لأن النص لا يحدده . وليس لنا مصدر آخر موثوق به نعتمد عليه في تحديده . وكل قول غير هذا ليس مأموناً لأنه لا يستند إلى مصدر صحيح .

عند هذه الحمئة وجد ذو القرنين قوماً : « قلنا : يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسناً » . كيف قال الله هذا القول لذي القرنين ؟ أكان ذلك وحياً إليه أم إنه حكاية حال . إذ سلطه الله على القوم ، وترك له التصرف في أمرهم فكأنما قيل له : دونك وإياهم . فإما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسناً ؟ كلا القولين ممكن ، ولا مانع من فهم النص على هذا الوجه أو ذاك . والمهم أن ذا القرنين أعلن دستوره في معاملة البلاد المفتوحة ، التي دان له أهلها وسلطه الله عليها .

« قال : أما من ظلم فسوف نعذبه ، ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً . وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى ، وسنقول له من أمرنا يسراً » .

أعلن أن للمعتدين الظالمين عذابه الدنيوي وعقابه ، وأنهم بعد ذلك يردون إلى ربهم فيعذبهم عذاباً فظيماً « نكراً » لا نظير له فيما يعرفه البشر . أما المؤمنون الصالحون فلهم الجزاء الحسن ، والمعاملة الطيبة ، والتكريم والمعونة واليسير .

وهذا هو دستور الحكم الصالح . فالؤمن الصالح ينبغي أن يجد الكرامة واليسير والجزاء الحسن عند الحاكم . والمعتدي الظالم يجب أن يلقى العذاب والإيذاء .. وحين يجد المحسن في الجماعة جزاء إحسانه جزاء حسناً ، ومكاناً كريماً وعوناً وتيسيراً ؛ ويجد المعتدي جزاء إفساده عقوبة وإهانة وجفوة .. عندئذ يجد الناس ما يحفزهم إلى الصلاح والإنتاج . أما حين يضطرب ميزان الحكم فإذا المعتدون المفسدون مقربون إلى الحاكم مقدمون في الدولة ؛ وإذا العاملون الصالحون منبوذون أو محاربون . فعندئذ تتحول السلطة في يد الحاكم سوط عذاب وأداة إفساد . ويصير نظام الجماعة إلى الفوضى والفساد .

ثم عاد ذو القرنين من رحلة المغرب إلى رحلة المشرق ، ممكناً له في الأرض ، ميسرة له الأسباب :
« ثم أتبع سبباً . حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً . كذلك وقد
أحطنا بما لديه خبراً » .

وما قيل عن مغرب الشمس يقال عن مطلعها . فالمقصود هو مطلعها من الأفق الشرقي في عين الراي .
والقرآن لم يحدد المكان . ولكنه وصف طبيعته وحال القوم الذي وجدهم ذو القرنين هناك : « حتى إذا بلغ
مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً » . أي إنها أرض مكشوفة ، لا تحجبها عن
الشمس مرتفعات ولا أشجار . فالشمس تطلع على القوم فيها حين تطلع بلا ستر . وهذا الوصف ينطبق على
الصحارى والسهوب الواسعة . فهو لا يحدد مكاناً بعينه . وكل ما نرجحه أن هذا المكان كان في أقصى الشرق
حيث يجد الراي أن الشمس تطلع على هذه الأرض المستوية المكشوفة ، وقد يكون ذلك على شاطئ إفريقية
الشرقي . وهناك احتمال لأن يكون المقصود بقوله : « لم نجعل لهم من دونها ستراً » أنهم قوم عراة الأجسام
لم يجعل لهم ستراً من الشمس .

ولقد أعلن ذو القرنين من قبل دستوره في الحكم ، فلم يتكرر بيانه هنا ، ولا تصرفه في رحلة المشرق
لأنه معروف من قبل ، وقد علم الله كل ما لديه من افكار واتجاهات .

ونقف هنا وقفة قصيرة أمام ظاهرة التناسق الفني في العرض . فإن المشهد الذي يعرضه السياق هو مشهد
مكشوف في الطبيعة : الشمس ساطعة لا يسترها عن القوم ستر . وكذلك ضمير ذي القرنين ونواياه كلها
مكشوفة لعلم الله . . وكذلك يتناسق المشهد في الطبيعة وفي ضمير ذي القرنين على طريقة التنسيق القرآنية الدقيقة .

* * *

« ثم أتبع سبباً . حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولاً . قالوا : يا ذا القرنين
إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض ، فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سداً ؟ قال :
ما مكني فيه ربي خير فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردماً . آتوني زبر الحديد . حتى إذا ساوى بين الصدفين
قال : انفخوا . حتى إذا جعله نارا قال : آتوني أفرغ عليه قطراً . فما استطاعوا أن يظهره وما استطاعوا له
نقياً . قال : هذا رحمة من ربي ، فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء ، وكان وعد ربي حقاً » .

ونحن لا نستطيع أن نجزم بشيء عن المكان الذي بلغ إليه ذو القرنين « بين السدين » ولا ما هما هذان
السدان . كل ما يؤخذ من النص أنه وصل إلى منطقة بين حاجزين طبيعيين ، أو بين سدين صناعيين . تفصلهما
فجوة أو ممر . فوجد هنالك قوماً متخلفين : « لا يكادون يفقهون قولاً » .

وعندما وجدوه فاتحاً قوياً ، وتوسموا فيه القدرة والصلاح . . عرضوا عليه أن يقيم لهم سداً في وجه يأجوج
ومأجوج الذين يهاجمونهم من وراء الحاجزين ، ويغيرون عليهم من ذلك الممر ، فيعيشون في أرضهم فساداً ،
ولا يقدرهم هم على دفعهم وصدتهم . . وذلك في مقابل خراج من المال يجمعونه له من بينهم .

وتبعاً للمنهج الصالح الذي أعلنه ذلك الحاكم الصالح من مقاومة الفساد في الأرض فقد رد عليهم عرضهم
الذي عرضوه من المال ؛ وتطوع بإقامة السد ؛ ورأى أن أسير طريقة لإقامته هي ردم الممر بين الحاجزين
الطبيين ؛ فطلب إلى أولئك القوم المتخلفين أن يعينوه بقوتهم المادية والعضلية : « فأعينوني بقوة أجعل بينكم
وبينهم ردماً . آتوني زبر الحديد » . فجمعوا له قطع الحديد ، وكومها في الفتحة بين الحاجزين ، فأصبحت

كأنهما صدفتان تغلفان ذلك الكوم بينهما . « حتى إذا ساوى بين الصدفين » وأصبح الركاب بمساواة القمتين « قال : انفخوا » على النار لتسخين الحديد « حتى إذا جعله ناراً » كله لشدة توهجه واحمراره « قال : آتوني أفرغ عليه قطراً » أي نحاساً مذاباً يتخلل الحديد ، ويختلط به فيزيده صلابة .

وقد استخدمت هذه الطريقة حديثاً في تقوية الحديد ؛ فوجد أن إضافة نسبة من النحاس إليه تضعف مقاومته وصلابته . وكان هذا الذي هدى الله إليه ذا القرنين ، وسجله في كتابه الخالد سبقاً للعلم البشري الحديث بقرون لا يعلم عددها إلا الله .

بذلك التحم الحاجزان ، وأغلق الطريق على يأجوج ومأجوج « فما استطاعوا أن يظهروه » ويتسوروه « وما استطاعوا له نقباً » فينفذوا منه . وتعذر عليهم أن يهاجموا أولئك القوم الضعاف المتخلفين . فأمنوا واطمأنوا .

ونظر ذو القرنين إلى العمل الضخم الذي قام به ، فلم يأخذه البطر والغرور ، ولم تسكره نشوة القوة والعلم . ولكنه ذكر الله فشكره . ورد إليه العمل الصالح الذي وفقه إليه . وتبرأ من قوته إلى قوة الله ، وفوض إليه الأمر ، وأعلن ما يؤمن به من أن الجبال والحواجز والسدود ستندك قبل يوم القيامة ، فتعود الأرض سطحاً مجرد مستوياً .

« قال : هذا رحمة من ربي ، فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء . وكان وعد ربي حقاً » ..

وبذلك تنتهي هذه الحلقة من سيرة ذي القرنين . النموذج الطيب للحاكم الصالح ، يمكنه الله في الأرض ، ويسر له الأسباب ؛ فيجتاح الأرض شرقاً وغرباً ؛ ولكنه لا يتجبر ولا يتكبر ، ولا يظنى ولا يتبظر ، ولا يتخذ من الفتوح وسيلة للغنم المادي ، واستغلال الأفراد والجماعات والأوطان ، ولا يعامل البلاد المفتوحة معاملة الرقيق ؛ ولا يسخر أهلها في أغراضه وأطماعه .. إنما ينشر العدل في كل مكان يحل به ، ويساعد المتخلفين ، ويدبر عنهم العدوان دون مقابل ؛ ويستخدم القوة التي يسرها الله له في التعمير والإصلاح ، ودفع العدوان وإحقاق الحق . ثم يرجع كل خير يحققه الله على يديه إلى رحمة الله وفضل الله ، ولا ينسى وهو في إبان سطوته قدرة الله وجبروته ، وأنه راجع إلى الله .

* * *

وبعد فن يأجوج ومأجوج ؟ وأين هم الآن ؟ وماذا كان من أمرهم وماذا سيكون ! كل هذه أسئلة تصعب الإجابة عليها على وجه التحقيق ، فنحن لا نعرف عنهم إلا ما ورد في القرآن ، وفي بعض الأثر الصحيح .

والقرآن يذكر في هذا الموضوع ما حكاه من قول ذي القرنين : « فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء ، وكان وعد ربي حقاً » .

وهذا النص لا يحدد زماناً . ووعد الله بمعنى وعده بذلك السد ربما يكون قد جاء منذ أن هجم التتار ، وانساحوا في الأرض ، ودمروا الممالك تدميراً .

(١) كشف سد بمقربة من مدينة « ترمذ » عرف بباب الحديد . وقد مر به في أوائل القرن الخامس عشر الميلادي العالم الألماني (سيلد برجر) وسجله في كتابه . وكذلك ذكره المؤرخ الاسباني (كلافيجو) في رحلته سنة ١٤٠٣ . وقال : إن سد مدينة باب الحديد على الطريق - سمرقند والهند .. وقد يكون هو السد الذي بناه ذو القرنين ..

وفي موضع آخر في سورة الأنبياء : « حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون . واقترب الوعد الحق ... » .

وهذا النص كذلك لا يحدد زماناً معيناً لخروج يأجوج ومأجوج فاقترب الوعد الحق بمعنى اقتراب الساعة قد وقع منذ زمن الرسول - صلى الله عليه وسلم - فجاء في القرآن : « اقتربت الساعة وانشق القمر » والزمان في الحساب الإلهي غيره في حساب البشر . فقد تمر بين اقتراب الساعة ووقوعها ملايين السنين أو القرون ، يراها البشر طويلة مديدة ، وهي عند الله ومضة قصيرة .

وإذن فمن الجائز أن يكون السد قد فتح في الفترة ما بين : « اقتربت الساعة » ويومنا هذا . وتكون غارات المغول والتتار التي اجتاحت الشرق هي انسياح يأجوج ومأجوج .

وهناك حديث صحيح رواه الإمام أحمد عن سفيان الثوري عن عروة ، عن زينب بنت أبي سلمة ، عن حبيبة بنت أم حبيبة بنت أبي سفيان ، عن أمها حبيبة ، عن زينب بنت جحش - زوج النبي صلى الله عليه وسلم - قالت : استيقظ الرسول - صلى الله عليه وسلم - من نومه وهو محمر الوجه وهو يقول : « ويل للعرب من شر قد اقترب . فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا » وحلق (بإصبعيه السبابة والإبهام) . قلت : يارسول الله أتهلك وفينا الصالحون؟ قال : « نعم إذا كثر الخبيث » .

وقد كانت هذه الرؤيا منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً ونصف قرن . وقد وقعت غارات التتار بعدها ، ودمرت ملك العرب بتدمير الخلافة العباسية على يد هولاءكو في خلافة المستعصم آخر ملوك العباسيين . وقد يكون هذا تعبير رؤيا الرسول - صلى الله عليه وسلم - وعلم ذلك عند الله . وكل ما نقوله ترجيح لا يقين .

* * *

ثم نعود إلى سياق السورة . فنجده يعقب على ذكر ذي القرنين للوعد الحق بمشهد من مشاهد القيامة . « وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ، ونفخ في الصور فجمعناهم جمعا ، وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضاً ، الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكرى ، وكان لا يستطيعون سمعا » .

وهو مشهد يرسم حركة الجموع البشرية من كل لون وجنس وأرض . ومن كل جيل وزمان وعصر ، مبعوثين منشرين . يختلطون ويضطربون في غير نظام وفي غير انتباه ، تتدافع جموعهم تدافع الموج وتختلط اختلاط الموج .. ثم إذا نفخة التجمع والنظام : « ونفخ في الصور فجمعناهم جمعا » فإذا هم في الصف في نظام ! ثم إذا الكافرون الذين أعرضوا عن ذكر الله حتى لكأن على عيونهم غطاء ، ولكأن في أسماعهم صمماً .. إذا بهؤلاء تعرض عليهم جهنم فلا يعرضون عنها كما كانوا يعرضون عن ذكر الله . فما يستطيعون اليوم إعراضاً . لقد نزع الغطاء عن عيونهم نزاعاً فرأوا عاقبة الإعراض والعمى جزاء وفاقاً !

والتعبير ينسق بين الإعراض والعرض متقابلين في المشهد ، متقابلين في الحركة على طريقة التناسق الفني في القرآن .

ويعقب على هذا التقابل بالتهكم اللاذع والسخرية المريرة :

« أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء . إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلاً » ..

أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا مخلوقات الله المستعبدة له أنصاراً لهم من دونه ، ينصرونهم منه ويدفعون عنهم سلطانه ؟ إذن فليلقوا عاقبة هذا الحسبان : « إنا أعدنا جهنم للكافرين نزلاً » .. وياله من نزل مهياً للاستقبال ، لا يحتاج إلى جهد ولا انتظار . فهو حاضر ينتظر النزلاء الكفار !

* * *

ثم تحتم السورة بالإيقاعات الأخيرة ، تلخص خطوطها الكثيرة ، وتجمع إيقاعاتها المتفرقة :
فأما الإيقاع الأول فهو الإيقاع حول القيم والموازن كما هي في عرف الصالحين ، وكما هي على وجه اليقين .. قيم الأعمال وقيم الأشخاص ..

« قل : هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً . الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ؟ أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً » .
« قل : هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً » الذين لا يوجد من هم أشد منهم خسراً ؟ « الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا » فلم يؤد بهم إلى الهدى ، ولم ينته بهم إلى ثمرة أو غاية : « وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » لأنهم من الغفلة بحيث لا يشعرون بضلال سعيهم وذهابه سدى ، فهم ماضون في هذا السعي الخائب الضال ، ينفقون حياتهم فيه هدرًا ..

قل هل ننبئكم من هم هؤلاء ؟

وعندما يبلغ من استتارة التطلع والانتظار إلى هذا الحد يكشف عنهم فإذا هم :
« أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم » ..

وأصل الحبوط هو انتفاخ بطن الدابة حين تتغذى بنوع سام من الكلال ثم تلقى حتفها .. وهو أنسب شيء لوصف الأعمال .. إنها تنتفخ وأصحابها يظنونها صالحة ناجحة رابحة .. ثم تنتهي إلى البوار !
« أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم » .. « فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً » ..
فهم مهملون ، لا قيمة لهم ولا وزن في ميزان القيم الصحيحة « يوم القيامة » . ولهم بعد ذلك جزاؤهم :
« ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هزوا » .
ويتم التعاون في المشهد بعرض كفة المؤمنين في الميزان وقيمتهم :

« إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً . خالدون فيها لا يبغون عنها حولا » ..
وهذا التزل في جنات الفردوس في مقابل ذلك التزل في نار جهنم . وشتان شتان !
ثم هذه اللفتة الدقيقة العميقة إلى طبيعة النفس البشرية وإحساسها بالمتاع في قوله : « لا يبغون عنها حولا » .. وهي تحتاج منا إلى وقفة بإزاء ما فيها من عمق ودقة ..

إنهم خالدون في جنات الفردوس .. ولكن النفس البشرية حوّلت قلب . تمل الاطراد ، وتسأم البقاء على حال واحدة أو مكان واحد ؛ وإذا اطمأنت على النعيم من التغير والنقاد فقدت حرصها عليه . وإذا مضى على وتيرة واحدة فقد تسأمه . بل قد تنتهي إلى الضيق به ؛ والرغبة في الفرار منه !

هذه هي الفطرة التي فطر عليها الإنسان لحكمة عليا تناسب خلافته للأرض ، ودوره في هذه الخلافة . فهذا الدور يقتضي تحوير الحياة وتطويرها حتى تبلغ الكمال المقدر لها في علم الله . ومن ثم ركز في الفطرة البشرية حب التغيير والتبديل ؛ وحب الكشف والاستطلاع ، وحب الانتقال من حال إلى حال ، ومن مكان إلى مكان ، ومن مشهد إلى مشهد ، ومن نظام إلى نظام .. وذلك كي يندفع الإنسان في طريقه ، يغير في واقع الحياة ، ويكشف عن مجاهل الأرض ، ويدع في نظم المجتمع وفي أشكال المادة .. ومن وراء التغيير والكشف والإبداع ترتقي الحياة وتتطور ؛ وتصل شيئاً فشيئاً إلى الكمال المقدر لها في علم الله .

نعم إنه مركز في الفطرة كذلك ألفة القديم ، والتعلق بالمألوف ، والمحافظة على العادة . ولكن ذلك كله بدرجة لا تشل عملية التطور والإبداع ، ولا تعوق الحياة عن الرقي والارتفاع . ولا تنتهي بالأفكار والأوضاع إلى الجمود والركود . إنما هي المقاومة التي تضمن التوازن مع الاندفاع . وكلما اختل التوازن فغلب الجمود في بيئة من البيئات انبعثت الثورة التي تدفع بالعجلة دفعة قوية قد تتجاوز حدود الاعتدال . وخير الفترات هي فترات التعادل بين قوتي الدفع والجذب ، والتوازن بين الدوافع والضوابط في جهاز الحياة . فأما إذا غلب الركود والجمود . فهو الإعلان بانحسار دوافع الحياة ، وهو الإيدان بالموت في حياة الأفراد والجماعات سواء .

هذه هي الفطرة المناسبة لخلافة الإنسان في الأرض . فأما في الجنة وهي دار الكمال المطلق .. فإن هذه الفطرة لا تقابلها وظيفة . ولوبقيت النفس بفطرة الأرض ، وعاشت في هذا النعيم المقيم الذي لا تخشى عليه النفاد ، ولا تتحول هي عنه ، ولا يتحول هو عنها لانقلب النعيم جحياً لهذه النفس بعد فترة من الزمان ؛ ولأصبحت الجنة سجنًا لتزلائها يودون لو يغادرونها فترة ، ولو إلى الجحيم ، ليرضوا نزعة التغيير والتبديل ! ولكن باريء هذه النفس - وهو أعلم بها - يحول رغباتها ، فلا تعود تبغي التحول عن الجنة ، وذلك في مقابل الخلود الذي لا تحول له ولا نفاد !

* * *

وأما الإيقاع الثاني فيصور العلم البشري المحدود بالقياس إلى العلم الإلهي الذي ليست له حدود ؛ ويقربه إلى تصور البشر القاصر بمثال محسوس على طريقة القرآن في التعبير بالتصوير .

« قل : لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ، ولو جئنا بمثله مدداً » .. والبحر أوسع وأغزر ما يعرفه البشر . والبشر يكتبون بالمداد كل ما يكتبون ؛ وكل ما يسجلون به علمهم الذي يعتقدون أنه غزير !

فالسباق يعرض لهم البحر بسعته وغزارته في صورة مداد يكتبون به كلمات الله الدالة على علمه ؛ فإذا البحر ينفذ وكلمات الله لا تنفذ . ثم إذا هو يمدهم ببحر آخر مثله ، ثم إذا البحر الآخر ينفذ كذلك وكلمات الله تنتظر المداد !

وبهذا التصوير المحسوس والحركة المجسمة يقرب إلى التصور البشري المحدود معنى غير المحدود ، ونسبة المحدود إليه مهما عظم واتسع .

والمعنى الكلي المجرد يظل حائراً في التصور البشري ومائعاً حتى يتمثل في صورة محسوسة . ومهما أوتي العقل البشري من القدرة على التجريد فإنه يظل في حاجة إلى تمثيل المعنى المجرد في صور وأشكال وخصائص ونماذج .. ذلك شأنه مع المعاني المجردة التي تمثل المحدود ، فكيف بغير المحدود ؟

لذلك يضرب القرآن الأمثال للناس ؛ ويقرب إلى حسبهم معانيه الكبرى بوضعها في صور ومشاهد ، ومحسوسات ذات مقومات وخصائص وأشكال على مثال هذا المثال .

والبحر في هذا المثال يمثل علم الإنسان الذي يظنه واسعاً غزيراً . وهو - على سعته وغزارته - محدود . وكلمات الله تمثل العلم الإلهي الذي لا حدود له ، والذي لا يدرك البشر نهايته ؛ بل لا يستطيعون تلقيه وتسجيله . فضلاً على محاكاته .

ولقد يدرك البشر الغرور بما يكشفونه من أسرار في أنفسهم وفي الآفاق ، فتأخذهم نشوة الظفر العلمي ، فيحسبون أنهم علموا كل شيء ، أو أنهم في الطريق !

ولكن المجهول يواجههم بآفاقه المترامية التي لا حد لها ، فإذا هم ما يزالون على خطوات من الشاطئ ، والخضم أمامهم أبعد من الأفق الذي تدركه أبصارهم !

إن ما يطيق الإنسان تلقيه وتسجيله من علم الله ضئيل قليل ، لأنه يمثل نسبة المحدود إلى غير المحدود . فليعلم الإنسان ما يعلم ؛ وليكشف من أسرار هذا الوجود ما يكشف .. ولكن ليظامن من غروره العلمي ، فسيظل أقصى ما يبلغه علمه أن يكون البحر مداداً في يده . وسينفذ البحر وكلمات الله لم تنفذ ؛ ولو أمده الله ببحر مثله فسيستهي من بين يديه وكلمات الله ليست إلى نفاذ ..

* * *

وفي ظل هذا المشهد الذي يتضاءل فيه علم الإنسان ينطلق الإيقاع الثالث والأخير في السورة ، فيرسم أعلى أفق للبشرية - وهو أفق الرسالة الكاملة الشاملة . فإذا هو قريب محدود بالقياس إلى الأفق الأعلى الذي تتقاصر دونه الأبصار ، وتنحصر دونه الأنظار :

« قل : إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ أنما إلهكم إله واحد . فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ، ولا يشرك بعبادة ربه أحداً » ..

إنه أفق الألوهية الأسمى .. فأين هنا آفاق النبوة ، وهي - على كل حال - آفاق بشرية ؟

« قل : إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ .. » .. بشر يتلقى من ذلك الأفق الأسمى . بشر يستمد من ذلك المعين الذي لا ينضب . بشر لا يتجاوز الهدى الذي يتلقاه من مولاه . بشر يتعلم فيعلم فيعلم .. فمن كان يتطلع إلى القرب من ذلك الجوار الأسمى ، فلينتفع بما يتعلم من الرسول الذي يتلقى ، وليأخذ بالوسيلة التي لا وسيلة سواها :

« فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً » ..

هذا هو جواز المرور إلى ذلك اللقاء الأثير .

* * *

وهكذا تختم السورة - التي بدأت بذكر الوحي والتوحيد - بتلك الإيقاعات المتدرجة في العمق والشمول ، حتى تصل إلى نهايتها فيكون هذا الإيقاع الشامل العميق ، الذي تركز عليه سائر الأنغام في لحن العقيدة الكبير ..

(١٩) سُورَةُ مَرْيَمَ مَكِّيَّةٌ وَأَيَاتُهَا ثَمَانٌ وَتِسْعُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كَبَّعَسَ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكِيًّا ﴿٢﴾ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ عَالِ يَعْقُوبَ ۗ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَزَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَئِنٍ وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْعًا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ۗ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾

نَفَخَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَلِيحِي خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ۗ وَءَاتَيْنَاهُ الْحِكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَّمْ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ وَإِذْ كُرِّفِي الْكِتَابِ مَرِيْمَ إِذْ أَنْتَبَدْتَ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ

كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴿٣١﴾
 * فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٣٢﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلْبَسْنِي مَتَّ قَبْلَ هَذَا
 وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنَسِيًّا ﴿٣٣﴾ فَنَادَى مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٣٤﴾ وَهَزَيْتِ إِلَيْكَ بِجِذْعِ
 النَّخْلَةِ تُسَاقُ عَلَيْكِ رَبُّهَا جَنِيًّا ﴿٣٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فِيمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ
 لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ أَنْسِيًّا ﴿٣٦﴾
 فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٣٧﴾ يَتَّخِذَ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوِيًّا وَمَا
 كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ﴿٣٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْأَمْهِدِ صَبِيًّا ﴿٣٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي
 الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٤٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٤١﴾ وَبَرًّا
 بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٤٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٤٣﴾
 ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٤٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا
 فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٥﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤٦﴾
 فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٤٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا
 لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٤٨﴾ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ
 لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّاتُ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٥٠﴾

يدور سياق هذه السورة على محور التوحيد ؛ ونبي الولد والشريك ؛ ويلم بقضية البعث القائمة على قضية التوحيد .. هذا هو الموضوع الأساسي الذي تعالجه السورة ، كالأشأن في السور المكية غالباً .
 والقصص هو مادة هذه السورة . فهي تبدأ بقصة زكريا ويحيى . فقصة مريم ومولد عيسى . فطرف من قصة إبراهيم مع أبيه .. ثم تعقبها إشارات إلى النبيين : إسحاق ويعقوب ، وموسى وهرون ، وإسماعيل ، وإدريس . وآدم ونوح . ويستغرق هذا القصص حوالي ثلثي السورة . ويستهدف إثبات الوجدانية والبعث ، ونفي الولد والشريك ، وبيان منهج المهتدين ومنهج الضالين من أتباع النبيين .
 ومن ثم بعض مشاهد القيامة ، وبعض الجدل مع المنكرين للبعث .

واستنكار للشرك ودعوى الولد ؛ وعرض لمصارع المشركين والمكذبين في الدنيا وفي الآخرة .. وكله يتناسق مع اتجاه القصص في السورة ويتجمع حول محورها الأصيل .

وللسورة كلها جو خاص يظلمها ويشيع فيها ، ويتمشى في موضوعاتها ..

إن سياق هذه السورة معرض للانفعالات والمشاعر القوية .. الانفعالات في النفس البشرية ، وفي « نفس » الكون من حولها . فهذا الكون الذي تتصوره جماداً لا حس له يعرض في السياق ذا نفس وحس ومشاعر وانفعالات ، تشارك في رسم الجو العام للسورة . حيث نرى السماوات والأرض والجبال تغضب وتنفعل حتى لتكاد تنفطر وتنشق وتهد استنكاراً :

« أن دعوا للرحمن ولداً وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً » ..

أما الانفعالات في النفس البشرية فتبدأ مع مفتتح السورة وتنتهي مع ختامها . والقصص الرئيسي فيها حافل بهذه الانفعالات في مواقفه العنيفة العميقة . وبخاصة في قصة مريم وميلاد عيسى .

والظل الغالب في الجو هو ظل الرحمة والرضى والاتصال . فهي تبدأ بذكر رحمة الله لعبده زكريا « ذكر رحمة ربك عبده زكريا » وهو يناجي ربه نجاء : « إذ نادى ربه نداء خفياً » .. ويتكرر لفظ الرحمة ومعناها وظلها في ثنايا السورة كثيراً . ويكثر فيها اسم « الرحمن » . ويصور النعيم الذي يلقاه المؤمنون به في صورة ود : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا » ويذكر من نعمة الله على يحيى أن آتاه الله حناناً « وحناناً من لدنا وزكاة وكان تقياً » . ومن نعمة الله على عيسى أن جعله براً بوالدته وديعاً لطيفاً : « وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً » ..

وإنك لتحس لمسات الرحمة الندية وديبها اللطيف في الكلمات والعبارات والظلال . كما تحس انتفاضات الكون وارتجافاته لوقع كلمة الشرك التي لا تطيقها فطرتة .. كذلك تحس أن للسورة إيقاعاً موسيقياً خاصاً . فحتى جرس ألفاظها وفواصلها فيه رخاء وفيه عمق : رصيا . سريا . حفيا . نجياً .. فأما المواضع التي تقتضي الشد والعنف ، فتجيء فيها الفاصلة مشددة دالاً في الغالب . مدأ . ضدأ . إذأ ، هذأ ، أو زايأ : عزأ . آزا . وتنوع الإيقاع الموسيقي والفاصلة والقافية بتنوع الجو والموضوع يبدو جلياً في هذه السورة^١ . فهي تبدأ بقصة زكريا ويحيى فتسير الفاصلة والقافية هكذا :

« ذكر رحمة ربك عبده زكريا . إذ نادى ربه نداء خفياً ... الخ » .

وتليها قصة مريم وعيسى فتسير الفاصلة والقافية على النظام نفسه :

« واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً . فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً ... الخ »

إلى أن ينتهي القصص ، ويجيء التعقيب ، لتقرير حقيقة عيسى ابن مريم ، وللفصل في قضية بنوته . فيختلف نظام الفواصل والقوافي .. تطول الفاصلة ، وتنتهي القافية بحرف الميم أو النون المستقر الساكن عند الوقف لا بالياء الممدودة الرخية . على النحو التالي :

« ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون . ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له : كن فيكون ... الخ » .

(١) يراجع هذا الموضوع بتوسع في فصل التناسق الفني في القرآن في كتاب : التصوير الفني في القرآن « دار الشروق » .

حتى إذا انتهى التقرير والفصل وعاد السياق إلى القصص عادت القافية الرخية المديدة :
« واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً . إذ قال لأبيه : يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا
يعني عنك شيئاً . الخ » .

حتى إذا جاء ذكر المكذبين وما ينتظرهم من عذاب وانتقام ، تغير الإيقاع الموسيقي وجرس القافية :
« قل : من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مداً . حتى إذا رأوا ما يوعدون إما العذاب ؛ وإما الساعة
فسيعلمون من هو شر مكاناً وأضعف جنداً . الخ » .

وفي موضع الاستنكار يشتد الجرس والنغم بتشديد الدال :
« وقالوا : اتخذ الرحمن ولداً . لقد جئتم شيئاً إداً ، تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر
الجبال هداً . الخ » .

وهكذا يسير الإيقاع الموسيقي في السورة وفق المعنى والجو ؛ ويشارك في إبقاء الظل الذي يتناسق مع المعنى
في ثنايا السورة ، وفق انتقالات السياق من جوالى جو ومن معنى إلى معنى .

* * *

ويسير السياق مع موضوعات السورة في أشواط ثلاثة :

الشوط الأول يتضمن قصة زكريا ويحيى ، وقصة مريم وعيسى . والتعقيب على هذه القصة بالفصل في
قضية عيسى التي كثر فيها الجدل ، واختلفت فيها أحزاب اليهود والنصارى .

والشوط الثاني يتضمن حلقة من قصة إبراهيم مع أبيه وقومه واعتزاله لملة الشرك وما عوضه الله من ذرية
نسلت بعد ذلك أمة . ثم إشارات إلى قصص النبيين ، ومن اهتدى بهم ومن خلفهم من الغواة ؛ ومصير هؤلاء
وهؤلاء . وينتهي بإعلان الربوبية الواحدة ، التي تعبد بلا شريك : « رب السماوات والأرض وما بينهما فاعبده
واصطبر لعبادته . هل تعلم له سمياً ؟ »

والشوط الثالث والأخير يبدأ بالجدل حول قضية البعث ، ويستعرض بعض مشاهد القيامة . ويعرض
صورة من استنكار الكون كله لدعوى الشرك ، وينتهي بمشهد مؤثر عميق من مصارع القرون ! « وكم أهلكنا
قبلهم من قرن . هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً » فنأخذ في الدرس الأول :

* * *

« كاف . ها . يا . عين . صاد » .

هذه الأحرف المتقطعة التي تبدأ بها بعض السور ، والتي اخترنا في تفسيرها أنها نماذج من الحروف التي
يتألف منها هذا القرآن ، فيجيء نسقاً جديداً لا يستطيعه البشر مع أنهم يملكون الحروف ويعرفون الكلمات ،
ولكنهم يعجزون أن يصوغوا منها مثل ما تصوغه القدرة المبدعة لهذا القرآن .

وبعدها تبدأ القصة الأولى . قصة زكريا ويحيى . والرحمة قوامها . والرحمة تظلها . ومن ثم يتقدمها ذكر
الرحمة : « ذكر رحمة ربك عبده زكريا » .

تبدأ القصة بمشهد الدعاء . دعاء زكريا لربه في ضراعة وفي خفية :

« إذ نادى ربه نداء خفياً . قال : رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً ، ولم أكن بدعائك رب

شقياً . وإني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقراً ، فهب لي من لدنك ولياً ، يرثني ويرث من آل يعقوب ، واجعله رب رضياً ..

إنه يناجي ربه بعيداً عن عيون الناس ، بعيداً عن أسماعهم . في عزلة يخلص فيها لربه ، ويكشف له عما يثقل كاهله ويكرب صدره ويناديه في قرب واتصال : « رب .. » بلا واسطة حتى ولا حرف النداء . وإن ربه ليسمع ويرى من غير دعاء ولا نداء ولكن المكروب يستريح إلى البث ، ويحتاج إلى الشكوى . والله الرحيم بعباده يعرف ذلك من فطرة البشر . فيستحب لهم أن يدعوه وأن يثوه ما تضيق به صدورهم . « وقال ربكم : ادعوني أستجب لكم » ليريحوا أعصابهم من العبء المهق ، ولتطمئن قلوبهم إلى أنهم قد عهدوا بأعبائهم إلى من هو أقوى وأقدر ؛ وليستشعروا صلتهم بالجناب الذي لا يضام من يلجأ إليه ، ولا يخيب من يتوكل عليه .

وزكريا يشكو إلى ربه وهن العظم . وحين يهن العظم يكون الجسم كله قد وهن . فالعظم هو أصلب ما فيه ، وهو قوامه الذي يقوم به ويتجمع عليه . ويشكو إليه اشتعال الرأس شيباً . والتعبير المصور يجعل الشيب كأنه نار تشتعل ويجعل الرأس كله كأنما تشمله هذه النار المشتعلة ، فلا يبقى في الرأس المشتعل سواد . ووهن العظم واشتعال الرأس شيباً كلاهما كناية عن الشيخوخة وضعفها الذي يعانیه زكريا ويشكوه إلى ربه وهو يعرض عليه حاله ورجاءه ..

ثم يعقب عليه بقوله : « ولم أكن بدعائك رب شقياً » معترفاً بأن الله قد عوده أن يستجيب إليه إذا دعاه ، فلم يشق مع دعائه لربه ، وهو في فتوته وقوته . فما أحوجه الآن في هرمه وكبرته أن يستجيب الله له ويتم نعمته عليه .

فإذا صور حاله ، وقدم رجاءه ، ذكر ما يخشاه ، وعرض ما يطلبه .. إنه يخشى من بعده . يخشاهم ألا يقوموا على تراثه بما يرضاه . وتراثه هو دعوته التي يقوم عليها - وهو أحد أنبياء بني إسرائيل البارزين - وأهله الذين يرعاهم - ومنهم مريم التي كان قيماً عليها وهي تخدم المحراب الذي يتولاه - وماله الذي يحسن تديره وإنفاقه في وجهه . وهو يخشى الموالي من ورائه على هذا التراث كله ، ويخشى ألا يسيروا فيه سيرته .. قيل لأنه يعهدهم غير صالحين للقيام على ذلك التراث ..

« وكانت امرأتي عاقراً » .. لم تعقب فلم يكن له من ذريته من يملك تربيته وإعداده لوراثته وخلافته . ذلك ما يخشاه . فأما ما يطلبه فهو الولي الصالح ، الذي يحسن الوراثة ، ويحسن القيام على تراثه وتراث النبوة من آبائه وأجداده : « فهب لي من لدنك ولياً يرثني ويرث من آل يعقوب » .

ولا ينسى زكريا ، النبي الصالح ، أن يصور أمه في ذلك الوريث الذي يرثه في كبرته : « واجعله رب رضياً » لا جباراً ولا غليظاً ، ولا متبظراً ولا طموحاً . ولفظة « رضي » تلقي هذه الظلال . فالرضي الذي يرضى ويرضى . وينشر ظلال الرضى فيما حوله ومن حوله .

ذلك دعاء زكريا لربه في ضراعة وخفية . والألفاظ والمعاني والظلال والإيقاع الرخي . كلها تشارك في تصوير مشهد الدعاء .

ثم ترسم لحظة الاستجابة في رعاية وعطف ورضى .. فالرب ينادي عبده من الملأ الأعلى : « يا زكريا » .. ويعجل له البشرى : « إنا نبشرك بغلام » ويغمره بالعطف فيختار له اسم الغلام الذي بشره به : « اسمه يحيى » . وهو اسم فذ غير مسبوق : « لم نجعل له من قبل سمياً » ..

إنه فيض الكرم الإلهي يغدقه على عبده الذي دعاه في ضراعة ، وناجاه في خفية ، وكشف له عما يخشى ، وتوجه إليه فيما يرجو . والذي دفعه إلى دعاء ربه خوفاً الموالي من بعده على تراث العقيدة وعلى تدير المال والقيام على الأهل بما يرضي الله . وعلم الله ذلك من نيته فأغدق عليه وأرضاه .

وكأما أفاق زكريا من غمرة الرغبة وحرارة الرجاء ، على هذه الاستجابة القريبة للدعاء . فإذا هو يواجه الواقع . . إنه رجل شيخ بلغ من الكبر عتياً ، وهن عظمه واشتعل شيبه ، وامرأته عاقر لم تلد له في فتوته وصباه : فكيف يا ترى سيكون له غلام ؟ إنه ليريد أن يطمئن ، ويعرف الوسيلة التي يرزقه الله بها هذا الغلام : « قال : رب أنى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقراً وقد بلغت من الكبر عتياً ؟ » .

إنه يواجه الواقع ، ويواجه معه وعد الله . وإنه ليثق بالوعد ، ولكنه يريد أن يعرف كيف يكون تحقيقه مع ذلك الواقع الذي يواجهه ليطمئن قلبه . وهي حالة نفسية طبيعية . في مثل موقف زكريا النبي الصالح . الإنسان ! الذي لا يملك أن يغفل الواقع ، فيشتاق أن يعرف كيف يغيره الله !

هنا يأتيه الجواب عن سؤاله : أن هذا هين على الله سهل . ويذكره بمثل قريب في نفسه : في خلقته هو وإيجاده بعد أن لم يكن . وهو مثل لكل حي ، ولكل شيء في هذا الوجود : « قال : كذلك قال ربك : هو عليّ هين . وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً » .

وليس في الخلق هين وصعب على الله . ووسيلة الخلق للصغير والكبير ، وللحقير والجليل واحدة : كن . فيكون .

والله هو الذي جعل العاقر لا تلد . وجعل الشيخ الفاني لا ينسل ؛ وهو قادر على إصلاح العاقر وإزالة سبب العقم ، وتجديد قوة الإخصاب في الرجل . وهو أهون في اعتبار الناس من إنشاء الحياة ابتداء . وإن كان كل شيء هيناً على القدرة : إعادة أو إنشاء .

ومع ذلك فإن لطفة زكريا على الطمأنينة تدفع به أن يطلب آية وعلامة على تحقق البشرى فعلاً . فأعطاه الله آية تناسب الجو النفسي الذي كان فيه الدعاء وكانت فيه الاستجابة . . ويؤدي بها حق الشكر لله الذي وهبه على الكبر غلاماً . . وذلك أن ينقطع عن دنيا الناس ويحيا مع الله ثلاث ليال ينطلق لسانه إذا سبّح ربه ، ويحتبس إذا كلم الناس ، وهو سوي معافى في جوارحه لم يصب لسانه عوج ولا آفة . « قال : آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سوياً » . .

وكان ذلك :

« فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيّاً » . .

ذلك ليعيشوا في مثل الجو الذي يعيش فيه ، وليشكروا الله معه على ما أنعم عليه وعليهم من بعده .

* * *

ويترك السياق زكريا في صمته وتسيبته ، ويسدل عليه الستار في هذا المشهد ويطوي صفحته ليفتح الصفحة الجديدة على يحيى ؛ يناديه ربه من الملاء الأعلى :

« يا يحيى خذ الكتاب بقوة ... » .

لقد ولد يحيى وترعرع وصار صبياً ، في الفجوة التي تركها السياق بين المشهدين . على طريقة القرآن في عرضه الفني للقصص ، ليرز أهم الحلقات والمشاهد ، وأشدّها حيوية وحركة .

وهو يبدأ بهذا النداء العلوي ليحيى قبل أن يتحدث عنه بكلمة . لأن مشهد النداء مشهد رائع عظيم ، يدل على مكانة يحيى ، وعلى استجابة الله لذكركيا ، في أن يجعل له من ذريته ولياً ، يحسن الخلافة بعده في العقيدة وفي العشرة . فها هو ذا أول موقف ليحيى هو موقف انتدابه ليحمل الأمانة الكبرى . « يا يحيى خذ الكتاب بقوة » . والكتاب هو التوراة كتاب بني إسرائيل من بعد موسى ، وعليه كان يقوم أنبيأؤهم يعلمون به ويحكمون . وقد ورث يحيى أباه زكريا ، ونودي ليحمل العبء وينهض بالأمانة في قوة وعزم ، لا يضعف ولا يتهاون ولا يراجع عن تكاليف الوراثة ..

وبعد النداء يكشف السياق عما زود به يحيى لينهض بالتبعية الكبرى :

« وآتيناه الحكم صبياً ، وحناناً من لدنا وزكاة ، وكان تقياً » ..

فهذه هي المؤهلات التي زوده الله بها وأعداه وأعانه على احتمال ماكلفه إياه عندما ناداه .. آتاه الحكمة صبياً . فكان فذاً في زاده ، كما كان فذاً في اسمه وفي ميلاده . فالحكمة تأتي متأخرة . ولكن يحيى قد زود بها صبياً .

وآتاه الحنان هبة لدية لا يتكلفه ولا يتعلمه ؛ إنما هو مطبوع عليه ومطبوع به . والحنان صفة ضرورية للنبي المكلف رعاية القلوب والنفوس ، وتألفها واجتذابها إلى الخير في رفق .

وآتاه الطهارة والعفة ونظافة القلب والطبع ؛ يواجه بها أدران القلوب وندس النفوس ، فيطهرها ويزكئها . « وكان تقياً » موصولاً بالله ، متخرجاً معه ، مراقباً له ، يخشاه ويستشعر رقابته عليه في سره ونجواه . ذلك هو الزاد الذي آتاه الله يحيى في صباه ، ليخلف أباه كما توجه إلى ربه وناداه نداء خفياً . فاستجاب له ربه ووهب له غلاماً زكياً ..

وهنا يسدل الستار على يحيى كما أسدل من قبل على زكريا . وقد رسم الخط الرئيسي في حياته ، وفي منهجه وفي اتجاهه . وبرزت العبرة من القصة في دعاء زكريا واستجابة ربه له ، وفي نداء يحيى وما زوده الله به . ولم يعد في تفصيلات القصة بعد ذلك ما يزيد شيئاً في عبرتها ومعناها ..

* * *

والآن فإلى قصة أعجب من قصة ميلاد يحيى . إنها قصة ميلاد عيسى . وقد تدرج السياق من القصة الأولى ووجه العجب فيها هو ولادة العاقر من بعلها الشيخ ، إلى الثانية ووجه العجب فيها هو ولادة العذراء من غير بعل ! وهي أعجب وأغرب .

وإذا نحن تجاوزنا حادث خلق الإنسان أصلاً وإنشائه على هذه الصورة ، فإن حادث ولادة عيسى ابن مريم يكون أعجب ما شهدته البشرية في تاريخها كله ، ويكون حادثاً فذاً لا نظير له من قبله ولا من بعده . والبشرية لم تشهد خلق نفسها وهو الحادث العجيب الضخم في تاريخها ! لم تشهد خلق الإنسان الأول من غير أب وأم ، وقد مضت القرون بعد ذلك الحادث ؛ فشاءت الحكمة الإلهية أن تبرز العجيبة الثانية في مولد عيسى من غير أب ، على غير السنة التي جرت منذ وجد الإنسان على هذه الأرض ، ليشهدها البشر ؛ ثم تظل في سجل الحياة الإنسانية بارزة فذة تلتفت إليها الأجيال ، إن عز عليها أن تلتفت إلى العجيبة الأولى التي لم يشهدها إنسان !

لقد جرت بسنة الله التي وضعها لامتداد الحياة بالتناسل من ذكر وأنثى في جميع الفصائل والأنواع بلا

استثناء ، حتى المخلوقات التي لا يوجد فيها ذكر وأنتى متميزان تتجمع في الفرد الواحد منها خلايا التذكير والتأنيث .. جرت هذه السنة أحقاباً طويلة حتى استقر في تصور البشر أن هذه الطريقة الوحيدة ، ونسوا الحادث الأول . حادث وجود الإنسان لأنه خارج عن القياس . فأراد الله أن يضرب لهم مثل عيسى ابن مريم - عليه السلام - ليدكرهم بحرية القدرة وطلاقة الإرادة ، وأنها لا تحتبس داخل النواميس التي تختارها . ولم يتكرر حادث عيسى لأن الأصل هو أن تجري السنة التي وضعها الله ، وأن ينفذ الناموس الذي اختاره . وهذه الحادثة الواحدة تكفي لتبقى أمام أنظار البشرية معلماً بارزاً على حرية المشيئة ، وعدم احتباسها داخل حدود النواميس « ولنجعل آية للناس » .

ونظراً لغرابة الحادث وضخامته فقد عز على فرق من الناس أن تصوره على طبيعته وأن تدرك الحكمة في إبرازه ، فجعلت تصفي على عيسى ابن مريم - عليه السلام - صفات ألوهية ، وتصوغ حول مولده الخرافات والأساطير ، وتعكس الحكمة من خلقه على هذا النحو العجيب ، - وهي إثبات القدرة الإلهية التي لا تنقيد - تعكسها فتشوه عقيدة التوحيد .

والقرآن في هذه السورة يقص كيف وقعت هذه العجيبة ، ويرز دلالتها الحقيقية ، وينفي تلك الخرافات والأساطير .

والسياق يخرج القصة في مشاهد مثيرة ، حافلة بالعواطف والانفعالات ، التي تهز من يقرؤها هزاً كأنما هو يشهدها :

* * *

« واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً ، فاتخذت من دونهم حجاباً . فأرسلنا إليها روحنا ، فتمثل لها بشرأ سوياً . قالت : إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً . قال : إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً . قالت : أنى يكون لي غلام ولم يمسنني بشر ولم أك بغياً ؟ قال : كذلك قال ربك هو علي هين ، ولنجعله آية للناس ورحمة منا .. وكان أمراً مقضياً .. »
فهذا هو المشهد الأول - فتاة عذراء . قديسة ، وهبتها أمها وهي في بطنها لخدمة المعبد . لا يعرف عنها أحد إلا الطهر والعفة حتى لتنسب إلى هارون أبي سدنة المعبد الإسرائيلي المتطهرين - ولا يعرف عن أسرتها إلا الطيبة والصلاح من قديم .

ها هي ذي تخلو إلى نفسها الشآن من شؤونها التي تقتضي التواري من أهلها والاحتجاب عن أنظارهم .. ولا يحدد السياق هذا الشآن ، ربما لأنه شأن خاص جداً من خصوصيات الفتاة ..

وها هي ذي في خلوتها ، مطمئنة إلى انفرادها . ولكن ها هي ذي تفاجأ مفاجأة عنيفة .. إنه رجل مكتمل سوي : « فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرأ سوياً » .. وها هي ذي تنتفض انتفاضة العذراء المدعورة يفضؤها رجل في خلوتها ، فتلجأ إلى الله تستعيذ به وتستنجد وتستثير مشاعر التقوى في نفس الرجل ، والخوف من الله والتحرج من رقابته في هذا المكان الخالي : « قالت : إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً » فالتقي ينتفض وجدانه عند ذكر الرحمن ، ويرجع عن دفعة الشهوة ونزغ الشيطان ..

وهنا يتمثل الخيال تلك العذراء الطيبة البريئة ذات التربية الصالحة ، التي نشأت في وسط صالح ، وكفلها زكريا ، بعد أن نذرت لله جنينا .. وهذه هي الهزة الأولى .

« قال : إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً » .. وليتمثل الخيال مقدار الفرع والخجل . وهذا

الرجل السوي - الذي لم تثق بعد بأنه رسول ربها - فقد تكون حيلة فانتك يستغل طبيعتها - يصارحها بما يخدش سمع الفتاة الخجول ، وهو أنه يريد أن يهب لها غلاماً ، وهما في خلوة - وهذه هي الهزة الثانية .

ثم تدركها شجاعة الأنثى المهتدة في عرضها ! فتسأل في صراحة : كيف ؟

« قالت : أنى يكون لي غلام ، ولم يمسنني بشر ، ولم أك بغياً ؟ » .. هكذا في صراحة . وبالألفاظ المكشوفة . فهي والرجل في خلوة . والغرض من مباحثتها لها قد صار مكشوفاً . فما تعرف هي بعد كيف يهب لها غلاماً ؟ وما يخفف من روع الموقف أن يقول لها : « إنما أنا رسول ربك » ولا أنه مرسل ليهب لها غلاماً طاهراً غير مدنس المولد ، ولا مدنس السيرة ، ليطمئن بالها . لا . فالحياة هنا لا يجدي ، والصراحة أولى .. كيف ؟ وهي عذراء لم يمسنها بشر ، وما هي بغية فتقبل الفعل التي تحيي منها بغلام !

ويبدو من سؤالها أنها لم تكن تتصور حتى اللحظة وسيلة أخرى لأن يهبها غلاماً إلا الوسيلة المعهودة بين الذكر والأنثى . وهذا هو الطبيعي بحكم التصور البشري .

« قال : كذلك قال ربك : هو عليّ هين . ولنجعله آية للناس ، ورحمة منا » ..

فهذا الأمر الخارق الذي لا تتصور مريم وقوعه ، هين على الله . فأمام القدرة التي تقول للشيء كن فيكون ، كل شيء هين ، سواء جرت به السنة المعهودة أو جرت بغيره . والروح يخبرها بأن ربها يخبرها بأن هذا هين عليه . وأنه أراد أن يجعل هذا الحادث العجيب آية للناس ، وعلامة على وجوده وقدرته وحرية إرادته . ورحمة لبني إسرائيل أولاً ولل بشرية جميعاً ، يبرز هذا الحادث الذي يقودهم إلى معرفة الله وعبادته وابتغاء رضاه .

بذلك انتهى الحوار بين الروح الأمين ومريم العذراء .. ولا يذكر السياق ماذا كان بعد الحوار ، فهنا فجوة من فجوات العرض الفني للقصة . ولكنه يذكر أن ما أخبرها به من أن يكون لها غلام وهي عذراء لم يمسنها بشر ، وأن يكون هذا الغلام آية للناس ورحمة من الله . أن هذا قد انتهى أمره ، وتحقق وقوعه : « وكان أمراً مقضياً » كيف ؟ لا يذكر هنا عن ذلك شيئاً .

ثم تمضي القصة في مشهد جديد من مشاهدتها ؛ فتعرض هذه العذراء الحائرة في موقف آخر أشد هولاً : « فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً . فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة ؛ قالت : ياليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً » ..

وهذه هي الهزة الثالثة ..

إن السياق لا يذكر كيف حملته ولا كم حملته . هل كان حملاً عادياً كما تحمل النساء وتكون النفخة قد بعثت الحياة والنشاط في البويضة فإذا هي علقه فضغفة فعظام ثم تكسى العظام باللحم ويستكمل الجنين أيامه

(١) جاء في سورة التحريم : « ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا » . فهل كلمة « روحنا » التي في سورة مريم هي نفسها التي في سورة التحريم ؟ وهل مدلولها واحد ؟ .. نحن نميل إلى أنها ذات مدلولين : فهي هنا في السورة تعني جبريل الروح الأمين وهو رسول الله إلى مريم . أما في التحريم فتعني الروح الذي نفخ الله منه في آدم فإذا هو إنسان ونفخ منه في فرج مريم فإذا البويضة حية مستعدة للنمو : فهي النفخة الإلهية التي تمنح الحياة وتمنح معها الخصائص المرافقة لنوع هذه الحياة . وهي في الإنسان الاستعدادات التي تصله بالملأ الأعلى وتبته الحس الإنساني والتفكير والمشاعر والإلهامات . وتفسر حالة مريم بأن جبريل وهو الروح الأمين كان حاملاً وموصلاً لنفخة الروح العلوية من الله .. ثم نعود فنقول : إننا لا ندرك شيئاً لا عن ماهية الروح بمعنى جبريل ، ولا عن ماهية الروح بالمعنى الآخر . فكله غيب . إنما نحن نستلهم السياق في السورتين فنجد أن مدلول الروح هنا غيره هناك .

المعهودة ؟ إن هذا جائز . فبويضة المرأة تبدأ بعد التلقيح في النشاط والنمو حتى تستكمل تسعة أشهر قمرية ، والنفخة تكون قد أدت دور التلقيح فسارت البويضة سيرتها الطبيعية . . كما أنه من الجائز في مثل هذه الحالة الخاصة أن لا تسير البويضة بعد النفخة سيرة عادية ، فتختصر المراحل اختصاراً ؛ ويعقبها تكون الجنين ونموه واكتماله في فترة وجيزة . . ليس في النص ما يدل على إحدى الحالتين . فلا نجري طويلاً وراء تحقيق القضية التي لا سند لنا فيها . . فلنشهد مريم تنتبذ مكاناً قصياً عن أهلها ، في موقف أشد هولاً من موقفها الذي أسلفنا . فلئن كانت في الموقف الأول تواجه الحصانة والتربية والأخلاق ، بينها وبين نفسها ، فهي هنا وشيكة أن تواجه المجتمع بالفضيحة . ثم هي تواجه الآلام الجسدية بجانب الآلام النفسية . تواجه المخاض الذي «أجاءها» إجابة إلى جذع النخلة ، واضطرابها اضطراراً إلى الاستناد عليها . وهي وحيدة فريدة ، تعاني حيرة العذراء في أول مخاض ، ولا علم لها بشيء ، ولا معين لها في شيء . . فإذا هي قالت : « ياليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً » فإننا لنكاد نرى ملامحها ، ونحس اضطراب خواطرها ، ونلمس مواقع الألم فيها . وهي تتمنى لو كانت « نسياً » : تلك الخرقعة التي تتخذ لدم الحيض ، ثم تلقى بعد ذلك وتنسى !

وفي حدة الألم وغمرة الهول تقع المفاجأة الكبرى :

« فنأداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سرياً . وهزي إليك الجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً . فكلي واشربي وقرى عيناً ، فإما ترين من البشر أحداً فقولي : إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً » . .

يا لله ! طفل ولد اللحظة يناديها من تحتها . يطمئن قلبها ويصلها بربها ، ويرشدها إلى طعامها وشرابها . ويدلها على حجتها وبرهانها !

لا تحزني . . « قد جعل ربك تحتك سرياً » فلم ينسك ولم يتركك ، بل أجرى لك تحت قدميك جدولاً سارياً - الأرجح أنه جرى للخطته من ينبوع أو تدفق من مسيل ماء في الجبل - وهذه النخلة التي تستدين إليها هزيبها فتساقط عليك رطباً . فهذا طعام وذاك شراب . والطعام الحلو مناسب للنفساء . والرطب والتمر من أجود طعام النفساء . « فكلي واشربي » هنيئاً . « وقرى عيناً » واطمئني قلباً . فأما إذا واجهت أحداً فأعلمه بطريقتك غير الكلام ، أنك نذرت للرحمن صوماً عن حديث الناس وانقطعت إليه للعبادة . ولا تجيبي أحداً عن سؤال . .

ونحسبها قد دهشت طويلاً ، وبهتت طويلاً ، قبل أن تمد يدها إلى جذع النخلة تهزه ليساقط عليها رطباً جنياً . . ثم أفاقت فاطمأنت إلى أن الله لا يتركها . وإلى أن حجتها معها . . هذا الطفل الذي ينطق في المهد . . فيكشف عن الخارقة التي جاءت به إليها . .

« فأنت به قومها تحمله . . ! » . . فلنشهد هذا المشهد المثير :

إننا لتتصور الدهشة التي تملو وجوه القوم - ويبدو أنهم أهل بيتها الأقربون في نطاق ضيق محدود - وهم يرون ابنتهم الطاهرة العذراء الموهوبة للهيكلة العابدة المنقطعة للعبادة . . يرونها تحمل طفلاً !

« قالوا : يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً . يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء ، وما كانت أمك بغياً ! » إن ألسنتهم لتنطلق بالتقريع والتأنيب : « يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً » فظيعاً مستنكراً . ثم يتحول السخط إلى تهكم مرير : « يا أخت هارون » النبي الذي تولى الهيكل هو وذريته من بعده والذي تنتسبين إليه بعبادتك وانقطاعك لخدمة الهيكل . فيا للمفارقة بين تلك النسبة التي تنتسبينها وذلك الفعل الذي تقارفينه ! « ما كان

أبوك امرأ سوء ، وما كانت أمك بغياً « حتى تأتي بهذه الفعلة التي لا يأتيها إلا بنات آباء السوء والأمهات البغايا !
وتنفذ مريم وصية الطفل العجيب التي لفظها إياها :
« فأشارت إليه » .. فإذا نقول في العجب والغيب الذي ساورهم وهم يرون عذراء تواجههم بطفل ؛
ثم تبجح فتسخر ممن يستنكرون فعلتها فتصمت وتشير لهم إلى الطفل ليسألوه عن سرها !
« قالوا : كيف نكلم من كان في المهد صبياً ؟ » .
ولكن ها هي ذي الخارقة العجيبة تقع مرة أخرى :

« قال : إني عبد الله ، آتاني الكتاب ، وجعلني نبياً ، وجعلني مباركاً أينما كنت ، وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً ، وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً ، والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً » .
وهكذا يعلن عيسى - عليه السلام - عبوديته لله . فليس هو ابنه كما تدعي فرقة . وليس هو إله كما تدعي فرقة . وليس هو ثالث ثلاثة هم إله واحد وهم ثلاثة كما تدعي فرقة .. ويعلن أن الله جعله نبياً ، لا ولداً ولا شريكاً . وبارك فيه ، وأوصاه بالصلاة والزكاة مدة حياته . والبر بوالدته والتواضع مع عشيرته . فله إذن حياة محدودة ذات أمد . وهو يموت ويبعث . وقد قدر الله له السلام والأمان والطمأنينة يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً ..
والنص صريح هنا في موت عيسى وبعثه . وهو لا يحتمل تأويلًا في هذه الحقيقة ولا جدالاً .

* * *

ولا يزيد السياق القرآني شيئاً على هذا المشهد . لا يقول : كيف استقبل القوم هذه الخارقة . ولا ماذا كان بعدها من أمر مريم وابنها العجيب . ولا متى كانت نبوته التي أشار إليها وهو يقول :
« آتاني الكتاب وجعلني نبياً » .. ذلك أن حادث ميلاد عيسى هو المقصود في هذا الموضع . فحين يصل به السياق إلى ذلك المشهد الخارق يسدل الستار ليعقب بالعرض المقصود في أنسب موضع من السياق ، بلهجة التقرير ، وإيقاع التقرير :

« ذلك عيسى ابن مريم . قول الحق الذي فيه يمترون . ما كان لله أن يتخذ من ولد . سبحانه . إذا قضى أمراً فإنما يقول له : كن فيكون . وإن الله ربي وربكم فاعبدوه . هذا صراط مستقيم » ..
ذلك عيسى ابن مريم ، لا ما يقوله المؤهلون له أو المتهمون لأمه في مولده .. ذلك هو في حقيقته وذلك واقع نشأته . ذلك هو يقول قول الحق الذي فيه يمترون ويشكون . يقوها لسانه ويقوها الحال في قصته :
« ما كان لله أن يتخذ من ولد » تعالى وتزهر فليس من شأنه أن يتخذ ولداً . والولد إنما يتخذه الفانون للامتداد ، ويتخذه الضعاف للنصرة . والله باق لا يحشى فناء ، قادر لا يحتاج معيناً . والكائنات كلها توجد بكلمة كن . وإذا قضى أمراً فإنما يقول له : كن فيكون .. فما يريد تحقيقه يحققه بتوجه الإرادة لا بالولد والمعين .. وينتهي ما يقوله عيسى - عليه السلام - ويقول حاله بإعلان ربوبية الله له وللناس ، ودعوته إلى عبادة الله الواحد بلا شريك : « وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم » .. فلا يبقى بعد شهادة عيسى وشهادة قصته مجال للأوهام والأساطير .. وهذا هو المقصود بذلك التعقيب في لغة التقرير وإيقاع التقرير .

* * *

وبعد هذا التقرير يعرض اختلاف الفرق والأحزاب في أمر عيسى فيبدو هذا الاختلاف مستنكراً نائياً في ظل هذه الحقيقة الناصعة :

« فاختلف الأحزاب من بينهم » ..

ولقد جمع الإمبراطور الروماني قسطنطين مجعاً من الأساقفة - وهو أحد المجامع الثلاثة الشهيرة - بلغ عدد أعضائه ألفين ومائة وسبعين أسقفاً فاختلفوا في عيسى اختلافاً شديداً ، وقالت كل فرقة فيه قولاً .. قال بعضهم : هو الله هبط إلى الأرض فأحيا من أحيا وأمات من أمات ثم صعد إلى السماء . وقال بعضهم : هو ابن الله ، وقال بعضهم : هو أحد الأقانيم الثلاثة : الأب والابن والروح القدس . وقال بعضهم : هو ثالث ثلاثة : الله إله وهو إله وأمه إله . وقال بعضهم : هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته . وقالت فرق أخرى أقوالاً أخرى . ولم يجتمع على مقالة واحدة أكثر من ثلاث مائة وثمانية اتفقوا على قول . فقال إليه الإمبراطور ونصر أصحابه وطرده الآخرين وشرده المعارضين وبخاصة الموحدين .

ولما كانت العقائد المنحرفة قد قررتها مجامع شهدتها جموع الأساقفة فإن السياق هنا ينذر الكافرين الذين ينحرفون عن الإيمان بوحداية الله ، ينذرهم بمشهد يوم عظيم تشهده جموع أكبر ، وترى ما يحل بالكافرين المنحرفين :

« فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم . أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا ، لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين . وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون » .

ويل لهم من ذلك المشهد في يوم عظيم . بهذا التنكير للتفخيم والتهويل . المشهد الذي يشهده الثقلان : الإنس والجن ، وتشهده الملائكة ، في حضرة الجبار الذي أشرك به الكفار .

ثم يأخذ السياق في التهكم بهم وبعراضهم عن دلائل الهدى في الدنيا . وهم في ذلك المشهد أسمع الناس وأبصر الناس :

« أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا ، لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين » ..

فما أعجب حالهم ! .. لا يسمعون ولا يبصرون حين يكون السمع والبصر وسيلة للهدى والنجاة . وهم أسمع شيء وأبصر شيء يوم يكون السمع والبصر وسيلة للخزي ولاإسماعهم ما يكرهون وتبصيرهم ما يتقون في مشهد يوم عظيم !

« وأنذرهم يوم الحسرة » .. يوم تشتد الحسرات حتى لكأن اليوم ممحض للحسرة لا شيء فيه سواها ، فهي الغالبة على جوه ، البارزة فيه . أنذرهم هذا اليوم الذي لا تنفع فيه الحسرات : « إذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون » وكأنما ذلك اليوم موصول بعدم إيمانهم ، موصول بالغفلة التي هم فيها سادرون . أنذرهم ذلك اليوم الذي لا شك فيه ؛ فكل ما على الأرض ومن على الأرض عائد إلى الله ، عودة الميراث كله إلى الوارث الوحيد ! :

« إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون » ..

* * *

وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَأَهْرُنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكَ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾

فَلَمَّا أَعْتَزَلْتَهُمْ وَمَا يَعْبدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْمٰحِي وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾

وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنُنذِرُنُهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾

وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾

وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾

أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذْ تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُ الرَّحْمٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَكَبَّرُوا وَسَجَّدُوا لِخَلْقِهِمْ فَسَقَوْا ﴿٥٨﴾ * نَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴿٦٠﴾ جَنَّتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمٰنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾

وَمَا تَنْزَلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَبُّ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾

انتهت قصة ميلاد عيسى بكشف ما في أسطورة الولد من نكارة وكذب وضلال ؛ وهي التي يستند إليها بعض أهل الكتاب في عقائدهم الفاسدة . وتليها في السورة حلقة من قصة إبراهيم تكشف عما في عقيدة الشرك من نكارة وكذب وضلال كذلك . وإبراهيم هو الذي ينتسب إليه العرب . ويقول المشركون : إنهم سادة البيت الذي بناه هو وإسماعيل .

وتبدو في هذه الحلقة شخصية إبراهيم الرضي الحليم . . تبدو وداعته وحلمه في ألفاظه وتعبيراته التي يحكي القرآن الكريم ترجمتها بالعربية ، وفي تصرفاته ومواجهته للجهاالة من أبيه . كما تتجلى رحمة الله به وتعويضه عن أبيه وأهله المشركين ذرية صالحة تنسل أمة كبيرة ، فيها الأنبياء وفيها الصالحون . وقد خلف بعدهم خلف أضعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ينحرفون عن الصراط الذي سنه لهم أبوهم إبراهيم . هم هؤلاء المشركون . .

ويصف الله إبراهيم بأنه كان صديقاً نبياً . ولفظة صديق تحتمل معنى أنه كثير الصدق وأنه كثير التصديق . وكتاهما تناسب شخصية إبراهيم :

« واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً ، إذ قال لأبيه : يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً ؟ يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراط سويًا . يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً . يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً . . » . بهذا اللطف في الخطاب يتوجه إبراهيم إلى أبيه ، يحاول أن يهديه إلى الخير الذي هداه الله إليه ، وعلمه إياه ؛ وهو يتحجب إليه فيخطابه : « يا أبت » ويسأله : « لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً ؟ » والأصل في العبادة أن يتوجه بها الإنسان إلى من هو أعلى من الإنسان وأعلم وأقوى . وأن يرفعها إلى مقام أسنى من مقام الإنسان وأسنى . فكيف يتوجه بها إذن إلى ما هو دون الإنسان ، بل إلى ما هو في مرتبة أدنى من مرتبة الحيوان ، لا يسمع ولا يبصر ولا يملك ضميراً ولا تفكيراً . إذ كان أبوه وقومه يعبدون الأصنام كما هو حال قريش الذين يواجههم الإسلام .

هذه هي اللمسة الأولى التي يبدأ بها إبراهيم دعوته لأبيه . ثم يتبعها بأنه لا يقول هذا من نفسه ، إنما هو العلم الذي جاءه من الله فهده . ولو أنه أصغر من أبيه سنا وأقل تجربة ، ولكن المدد العلوي جعله يفقه ويعرف الحق ؛ فهو ينصح أباه الذي لم يتلق هذا العلم ، ليتبعه في الطريق الذي هدي إليه :

« يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سويًا . . »

فليست هناك غضاضة في أن يتبع الوالد ولده ، إذا كان الولد على اتصال بمصدر أعلى . فإنما يتبع ذلك المصدر ، ويسير في الطريق إلى الهدى .

وبعد هذا الكشف عما في عبادة الأصنام من نكارة ، وبيان المصدر الذي يستمد منه إبراهيم ويعتمد عليه في دعوة أبيه . . يبين له أن طريقه هو طريق الشيطان ، وهو يريد أن يهديه إلى طريق الرحمن ، فهو يخشى

أن يغضب الله عليه فيقضي عليه أن يكون من أتباع الشيطان .

« يا أبت لا تعبد الشيطان . إن الشيطان كان للرحمن عصياً . يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً » .

والشيطان هو الذي يغري بعبادة الأصنام من دون الله ، فالذي يعبدها كأنما يتعبد الشيطان والشيطان عاص للرحمن . وإبراهيم يحذر أباه أن يغضب الله عليه فيعاقبه فيجعله ولياً للشيطان وتابِعاً . فهداية الله لعبده إلى الطاعة نعمة ؛ وقضاؤه عليه أن يكون من أولياء الشيطان نقمة . . . نقمة تقوده إلى عذاب أشد وخسارة أفدح يوم يقوم الحساب .

ولكن هذه الدعوة اللطيفة بأحب الألفاظ وأرقها لا تصل إلى القلب المشرك الجاسي ، فإذا أبو إبراهيم يقابله بالاستنكار والتهديد والوعيد :

« قال : أرأغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم ؟ لئن لم تنته لأرجمنك . واهجرني ملياً » .

أرأغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم ، وكاره لعبادتها ومعرض عنها ؟ أو بلغ بك الأمر إلى هذا الحد من الجراءة ؟ ! فهذا إنذار لك بالموت الفظيع إن أنت أصررت على هذا الموقف الشنيع : « لئن لم تنته لأرجمنك » ! فأغرب عن وجهي وابتعد عني طويلاً . استبقاء لحياتك إن كنت تريد النجاة : « واهجرني ملياً » . .

بهذه الجهالة تلقى الرجل الدعوة إلى الهدى . وبهذه القسوة قابل القول المؤدب المهذب . وذلك شأن الإيمان مع الكفر ؛ وشأن القلب الذي هذبه الإيمان والقلب الذي أفسده الكفر .

ولم يغضب إبراهيم الحليم . ولم يفقد بره وعطفه وأدبه مع أبيه :

« قال : سلام عليك . سأستغفر لك ربّي إنه كان بي حفيباً . وأعتزلكم وما تدعون من دون الله ، وأدعو ربّي عسى ألا أكون بدعاء ربّي شقيماً » .

سلام عليك . . فلا جدال ولا أذى ولا رد للتهديد والوعيد . سأدعو الله أن يغفر لك فلا يعاقبك بالاستمرار في الضلال وتولي الشيطان ، بل يرحمك فيرزقك الهدى . وقد عودني ربّي أن يكرمني فيجيب دعائي . وإذا كان وجودي إلى جوارك ودعوتي لك إلى الإيمان تؤذيك فسأعتزلك أنت وقومك ، وأعتزل ما تدعون من دون الله من الآلهة . وأدعو ربّي وحده ، راجياً - بسبب دعائي لله - ألا يجعلني شقيماً .

فالذي يرحوه إبراهيم هو مجرد تجنبه الشقاوة . . وذلك من الأدب والتحرج الذي يستشعره . فهو لا يرى لنفسه فضلاً ، ولا يتطلع إلى أكثر من تجنبه الشقاوة !

وهكذا اعتزل إبراهيم أباه وقومه وعبادتهم وآلهتهم وهجر أهله ودياره ، فلم يتركه الله وحيداً . بل وهب له ذرية وعضه خيراً :

« فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب . وكلاً جعلنا نبياً . وهبنا لهم من رحمتنا ، وجعلنا لهم لسان صدق علياً » . .

وإسحاق هو ابن إبراهيم ، رزقه من سارة - وكانت قبله عقيماً - ويعقوب هو ابن إسحاق : ولكنه يحسب ولداً لإبراهيم لأن إسحاق رزقه في حياة جده ، فنشأ في بيته وحجره ، وكان كأنه ولده المباشر ؛ وتعلم ديانته ولقنها بنه . وكان نبياً كأبيه .

« وهبنا لهم من رحمتنا » إبراهيم وإسحاق ويعقوب ونسلهم . . والرحمة تذكر هنا لأنها السمة البارزة

في جو السورة ، ولأنها هبة الله التي تعوض إبراهيم عن أهله ودياره ، وتؤنسه في وحدته واعتزله .
« وجعلنا لهم لسان صدق عليا » . . فكانوا صادقين في دعوتهم ، مسموعي الكلمة في قومهم . يؤخذ قولهم
بالطاعة وبالتبجيل .

* * *

ثم يمضي السياق مع ذرية إبراهيم : مستطرداً مع فرع إسحق فيذكر موسى وهارون :
« واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصاً وكان رسولاً نبيا . ونادينه من جانب الطور الأيمن وقربناه
نجياً . ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا » . .

فيصف موسى بأنه كان مخلصاً استخلصه الله له ومحضه لدعوته . وكان رسولاً نبياً . والرسول هو صاحب
الدعوة من الأنبياء المأمور بإبلاغها للناس . والنبي لا يكلف إبلاغ الناس دعوة إنما هو في ذاته صاحب عقيدة
يتلقاها من الله . وكان في بني إسرائيل أنبياء كثيرون وظيفتهم القيام على دعوة موسى والحكم بالتوراة التي
جاء بها من عند الله : « يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا . والربانيون والأخبار بما استحفظوا
من كتاب الله وكانوا عليه شهداء » . .

ويبين فضل موسى بندائه من جانب الطور الأيمن (الأيمن بالنسبة لموسى إذ ذلك) وتقريبه إلى الله لدرجة
الكلام . الكلام القريب في صورة مناجاة . ونحن لا ندرى كيف كان هذا الكلام ، وكيف أدركه موسى . .
أكان صوتاً تسمعه الأذن أم يتلقاه الكيان الإنساني كله . ولا نعلم كيف أعد الله كيان موسى البشري لتلقي
كلام الله الأزلي . . إنما تؤمن أنه كان . وهو على الله هين أن يصل مخلوقه به بطريقة من الطرق ، وهو بشر
على بشريته ، وكلام الله علوي على علويته . ومن قبل كان الإنسان إنساناً بنفخة من روح الله . .
ويذكر رحمة الله بموسى في مساعدته بإرسال أخيه هارون معه حين طلب إلى الله أن يعينه به « وأخي هارون
هو أفصح مني لساناً فأرسله معي رداً يصدقني إني أخاف أن يكذبون » . وظل الرحمة هو الذي يظل جو
السورة كله .

ثم يعود السياق إلى الفرع الآخر من ذرية إبراهيم . فيذكر إسماعيل أبا العرب : « واذكر في الكتاب
إسماعيل ، إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبيا . وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة ، وكان عند ربه مرضياً » . .
وينوه من صفات إسماعيل بأنه كان صادق الوعد . وصدق الوعد صفة كل نبي وكل صالح ، فلا بد أن
هذه الصفة كانت بارزة في إسماعيل بدرجة تستدعي إبرازها والتنويه بها بشكل خاص .

وهو رسول فلا بد أن كانت له دعوة في العرب الأوائل وهو جدهم الكبير . وقد كان في العرب موحدون
أفراد قبيل الرسالة المحمدية ، فالأرجح أنهم بقية الموحدين من أتباع إسماعيل . ويذكر السياق من أركان
العقيدة التي جاء بها الصلاة والزكاة وكان يأمر بهما أهله . . ثم يثبت له أنه كان عند ربه مرضياً . . والرضى
سمة من سمات هذه السورة البارزة في جوها وهي شبيهة بسمة الرحمة ، وبينهما قرابة !

وأخيراً يختم السياق هذه الإشارات بذكر إدريس :

« واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقاً نبيا . ورفعناه مكاناً عليا » .

ولا نملك نحن تحديد زمان إدريس . ولكن الأرجح أنه سابق على إبراهيم وليس من أنبياء بني إسرائيل
فلم يرد ذكره في كتبهم . والقرآن يصفه بأنه كان صديقاً نبياً ويسجل له أن الله رفعه مكاناً عليا . فأعلى قدره
ورفع ذكره . .

وهناك رأي نذكره لمجرد الاستئناس به ولا نقرره أو نفيه ، يقول به بعض الباحثين في الآثار المصرية ، وهو أن إدريس تعريب لكلمة «أوزريس» المصرية القديمة . كما أن يحيى تعريب لكلمة يوحنا . وكلمة اليسع تعريب لكلمة إيليش . . وأنه هو الذي صيغت حوله أساطير كثيرة . فهم يعتقدون أنه صعد إلى السماء وصار له فيها عرش عظيم . وكل من وزنت أعماله بعد الموت فوجدت حسناته ترجح سيئاته فإنه يلحق بأوزريس الذي جعلوه إلهاً لهم . وقد علمهم العلوم والمعارف قبل صعوده إلى السماء . وعلى أية حال فنحن نكتفي بما جاء عنه في القرآن الكريم ؛ ونرجح أنه سابق على أنبياء بني إسرائيل .

* * *

يستعرض السياق أولئك الأنبياء ، ليوازن بين هذا الرعيل من المؤمنين الأتقياء وبين الذين خلفوهم سواء من مشركي العرب أو من مشركي بني إسرائيل . . فإذا المفارقة صارخة والمسافة شاسعة والهوة عميقة والفارق بعيد بين السلف والخلف :

« أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم ، ومن حملنا مع نوح ، ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل ، ومن هدينا واجتبيينا . إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً . فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً . . . » .

والسياق يقف في هذا الاستعراض عند المعالم البارزة في صفحة النبوة في تاريخ البشرية « من ذرية آدم » . « ومن حملنا مع نوح » . « ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل » . فآدم يشمل الجميع ، ونوح يشمل من بعده ، وإبراهيم يشمل فرعي النبوة الكبيرين : ويعقوب يشمل شجرة بني إسرائيل . وإسماعيل وإليه ينتسب العرب ومنهم خاتم النبيين .

أولئك النبيون ومعهم من هدى الله واجتبي من الصالحين من ذريتهم . . صفتهم البارزة : « إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً » . . فهم أتقياء شديداً الحساسية بالله ؛ ترتعش وجداناتهم حين تتلى عليهم آياته ، فلا تسعفهم الكلمات للتعبير عما يخالج مشاعرهم من تأثر ، فتفيض عيونهم بالدموع ويخرون سجداً وبكياً . . أولئك الأتقياء الحساسون الذين تفيض عيونهم بالدمع وتخشع قلوبهم لذكر الله . . خلف من بعدهم خلف ، يعيدون عن الله . « أضاعوا الصلاة » فتركوها وجحدوها « واتبعوا الشهوات » واستغرقوا فيها . فما أشد المفارقة ، وما أبعد الشبه بين أولئك وهؤلاء !

ومن ثم يتهدد السياق هؤلاء الذين خالفوا عن سيرة آبائهم الصالحين . يتهدهم بالضلال والهلاك : « فسوف يلقون غياً » والغى الشرود والضلال ، وعاقبة الشرود الضياع والهلاك .

ثم يفتح باب التوبة على مصراعيه تنسم منه نسيمات الرحمة واللطف والنعمة :

« إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً ، فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئاً . جنات عدن التي وعد الرحمن عباده بالغيب . إنه كان وعده مأتياً . لا يسمعون فيها لغواً إلا سلاماً . ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا . تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً » . .

فالتوبة التي تنشئ الإيمان والعمل الصالح ، فتحقق مدلولها الإيجابي الواضح . . تنجي من ذلك المصير فلا يلقى أصحابها « غياً » إنما يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئاً . يدخلون الجنة للإقامة . الجنة التي وعد الرحمن عباده إياها فآمنوا بها بالغيب قبل أن يروها . ووعد الله واقع لا يضيع . .

ثم يرسم صورة للجنة ومن فيها .. « لا يسمعون فيها لغواً إلا سلاماً » فلا فضول في الحديث ولا ضجة ولا جدال ، إنما يسمع فيها صوت واحد يناسب هذا الجو الراضي . صوت السلام .. والرزق في هذه الجنة مكفول لا يحتاج إلى طلب ولا كد . ولا يشغل النفس بالقلق والخوف من التخلف أو النفاد : « ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا » فما يليق الطلب ولا القلق في هذا الجو الراضي الناعم الأمين ..

« تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً » .. فمن شاء الوراثة فالطريق معروف : التوبة والإيمان والعمل الصالح . أما وراثة النسب فلا تجدي . فقد ورث قوم نسب أولئك الأتقياء من النبيين ومن هدى الله واجتنبى ؛ ولكنهم أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، فلم تنفعهم وراثة النسب « فسوف يلقون غيماً » ..

* * *

ويختم هذا الدرس بإعلان الربوبية المطلقة لله ، والتوجيه إلى عبادته والصبر على تكاليفها . ونفي الشبهة والنظير :

« وما نتنزل إلا بأمر ربك ، له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك ، وما كان ربك نسيا . رب السماوات والأرض وما بينهما ، فاعبده واصطبر لعبادته . هل تعلم له سمياً ؟ » ..

وتتصافر الروايات على أن قوله : « وما نتنزل إلا بأمر ربك .. » مما أمر جبريل عليه السلام أن يقوله للرسول - صلى الله عليه وسلم - رداً على استبطائه للوحي فترة لم يأتها فيها جبريل . فاستوحشت نفسه ، واشتاقت للاتصال الحبيب . فكلف جبريل أن يقول له : « وما نتنزل إلا بأمر ربك » فهو الذي يملك كل شيء من أمرنا :

« له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك » وهو لا ينسى شيئاً ، إنما يتزل الوحي عندما تقتضي حكمته أن ينزل « وما كان ربك نسيا » فناسب بعد ذلك أن يذكر الاضطراب على عبادة الله مع إعلان الربوبية له دون سواه : « رب السماوات والأرض وما بينهما » .. فلا ربوبية لغيره ، ولا شرك معه في هذا الكون الكبير .

« فاعبده واصطبر لعبادته » .. اعبده واصطبر على تكاليف العبادة . وهي تكاليف الارتقاء إلى أفق المثول بين يدي المعبود ، والثبات في هذا المرتقى العالي . اعبده واحشد نفسك وعبيء طاقتك للقاء والتلقي في ذلك الأفق العلوي .. إنها مشقة . مشقة التجمع والاحتشاد والتجرد من كل شاغل ، ومن كل هاتف ومن كل التفات .. وإنها مع المشقة للذة لا يعرفها إلا من ذاق . ولكنها لا تنال إلا بتلك المشقة ، وإلا بالتجرد لها ، والاستغراق فيها ، والتحفز لها بكل جارحة وخالجة . فهي لا نفسى سرها ولا تمنع عطرها إلا لمن يتجرد لها ، ويفتح منافذ حسه وقلبه جميعاً .

« فاعبده واصطبر لعبادته » .. والعبادة في الإسلام ليست مجرد الشعائر . إنما هي كل نشاط : كل حركة . كل خالجة . كل نية . كل اتجاه . وإنها لمشقة أن يتجه الإنسان في هذا كله إلى الله وحده دون سواه . مشقة تحتاج إلى الاضطراب . ليتوجه القلب في كل نشاط من نشاط الأرض إلى السماء . خالصاً من أوشاب الأرض وأوهاق الضرورات ، وشهوات النفس ، ومواضع الحياة .

إنه منهج حياة كامل ، يعيش الإنسان وفقه ، وهو يستشعر في كل صغيرة وكبيرة طوال الحياة أنه يتعبد الله ؛ فيرتفع في نشاطه كله إلى أفق العبادة الطاهر الوضيء . وإنه لمنهج يحتاج إلى الصبر والجهد والمعاناة . فاعبده واصطبر لعبادته .. فهو الواحد الذي يعبد في هذا الوجود والذي تتجه إليه الفطر والقلوب .. « هل تعلم له سمياً ؟ » . هل تعرف له نظيراً ؟ تعالى الله عن السمي والنظير ..

وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَاتَ لَسَوْفَ أُنْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْعًا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَهْبَمًا أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نَحْنُ الَّذِينَ أَتَقَوْا وَنَذُرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًّا ﴿٧٢﴾

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِءْيَا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَلْقِيَّتُ الصَّالِحَتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا ﴿٧٦﴾

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِينَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ ائْتَمَدَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَزَعْنَاهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَأَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تُوْزِعُهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعِدُهُمْ عَذَابًا يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ﴿٨٤﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرْدًا ﴿٨٥﴾ لَأَيْمَلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٨٦﴾

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٨٧﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْعًا إِذَا ﴿٨٨﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرَنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٨٩﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩٠﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩١﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٢﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٣﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ﴿٩٤﴾ إِنْ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴿٩٥﴾

فَأَيُّهَا يَسِّرْنَاهُ بِلسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴿٧٧﴾ وَكَرَّ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هَلْ نُحِيسُ مِنْهُمْ
مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَّهُمْ رِكْرًا ﴿٧٨﴾

مضى السياق في السورة بقصص زكريا ومولد يحيى ؛ ومريم ومولد عيسى ؛ وإبراهيم واعتزاله لأبيه .
ومن خلف بعدهم من المهتدين والضالين ، وبالتعقيب على هذا القصص بإعلان الربوبية الواحدة ، التي تستحق
العبادة بلا شريك ؛ وهي الحقيقة الكبيرة التي يبرزها ذلك القصص بأحداثه ومشاهدته وتعقيباته .

وهذا الدرس الأخير في السورة يمضي في جدل حول عقائد الشرك وحول إنكار البعث . ويعرض في
مشاهد القيامة مصائر البشر في مواقف حية حافلة بالحركة والانفعال ، يشارك فيها الكون كله ، سماواته
وأرضه ، إنسه وجنه ، مؤمنوه وكافروه .

ويتنقل السياق بمشاهدته بين الدنيا والآخرة ، فإذا هما متصلتان . تعرض المقدمة هنا في هذه الأرض ،
وتعرض نتيجتها هنالك في العالم الآخر ، فلا تتجاوز المسافة بضع آيات أو بضع كلمات . مما يلقي في الحس
أن العالمين متصلان مرتبطان متكاملان .

* * *

« ويقول الإنسان : أئنذا ما مت لسوف أخرج حيا ؟ أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا ؟
فوربك لنحشرنهم والشياطين ، ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا . ثم لنترعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن
عتيا . ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا . وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضيا . ثم ننجي الذين
اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا . »

يبدأ المشهد بذكر ما يقوله « الإنسان » عن البعث . ذلك أن هذه المقولة قالتها صنوف كثيرة من البشر
في عصور مختلفة ؛ فكأنما هي شبهة « الإنسان » واعتراضه المتكرر في جميع الأجيال :

« ويقول الإنسان : أئنذا ما مت لسوف أخرج حيا ؟ » ..

وهو اعتراض منشؤه غفلة الإنسان عن نشأته الأولى . فأين كان ؟ وكيف كان ؟ إنه لم يكن ثم كان ؛ والبعث
أقرب إلى التصور من النشأة الأولى لو أنه تذكر :

« أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا ؟ » .

ثم يعقب على هذا الإنكار والاستنكار بقسم تهديدي . يقسم الله تعالى بنفسه وهو أعظم قسم وأجله ؛ أنهم
سيحشرون - بعد البعث فهذا أمر مفروغ منه :

« فوربك لنحشرنهم » .. ولن يكونوا وحدهم . فلنحشرنهم « والشياطين » فهم والشياطين سواء . والشياطين
هم الذين يوسوسون بالإنكار ، وبينهما صلة التابع والمتبوع ، والقائد والمقود ..

وهنا يرسم لهم صورة حسية وهم جاثون حول جهنم جثوا الخزي والمهانة : « ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا » ..
وهي صورة رهيبية وهذه الجموع التي لا يحصيها العد محشورة محضرة إلى جهنم جاثية حولها ، تشهد هولها
ويلفحها حرها ، وتنتظر في كل لحظة أن تؤخذ فتلقى فيها . وهم جاثون على ركبهم في ذلة وفرع ..
وهو مشهد ذليل للمتجبرين المتكبرين ، يليه مشهد الترع والجذب لمن كانوا أشد عتواً وتجبراً :

« ثم لنتزغن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتياً .. وفي اللفظ تشديد ، ليرسم بظله وجرسه صورة لهذا الانتزاع ؛ تتبعها صورة القذف في النار ، وهي الحركة التي يكملها الخيال !
وإن الله ليعلم من هم أولى بأن يصلوها ، فلا يؤخذ أحد جزافاً من هذه الجموع التي لا تحصى . والتي أحصاها الله فرداً فرداً :

« ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صلياً » .. فهم المختارون ليكونوا طليعة المقدوفين !
وإن المؤمنين ليشهدون العرض الرهيب : « وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً » فهم يردون فيدونون ويمرون بها وهي تتأجج وتميز وتلمظ ؛ ويرون العتاة ينزعون ويقذفون . « ثم ننجي الذين اتقوا »
فتحزح عنهم وينجون منها لا يكادون ! « ونذر الظالمين فيها جثياً » ..

* * *

ومن هذا المشهد المفزع الذي يجثو فيه العتاة جثو الخزي والمهانة ، ويروح فيه المتقون ناجين . ويبقى الظالمون فيه جاثين .. من هذا المشهد إلى مشهد في الدنيا يتعالى فيه الكفار على المؤمنين ، ويعيروهم بفقرهم ، ويعتزون بثرائهم ومظاهرهم وقيمهم في عالم الفناء :

« وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات . قال الذين كفروا للذين آمنوا : أي الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً ؟ » ..
إنها النوادي الفخمة والمجامع المترفة ؛ والقيم التي يتعامل بها الكبراء والمترفون في عصور الفساد . وإلى جانبها تلك المجتمعات المتواضعة المظهر والمتديبات الفقيرة إلا من الإيمان . لا أبهة ولا زينة ، ولا زخرف ، ولا فخامة .. هذه وتلك تتقابلان في هذه الأرض وتجتمعان !

وتقف الأولى بمغرياتها الفخمة الضخمة : تقف بملها وجمالها . بسلطانها وجاهاها . بالمصالح تحققها ، والمغانم توفرها ، وباللذائذ والمتاع . وتقف الثانية بمظهرها الفقير المتواضع ، تهزأ بالمال والمتاع ، وتسخر من الجاه والسلطان ؛ وتدعو الناس إليها ، لا باسم لذة تحققها ، ولا مصلحة توفرها ، ولا قربى من حاكم ولا اعتزاز بذئ سلطان . ولكن باسم العقيدة تقدمها إليهم مجردة من كل زخرف ، عاطلة من كل زينة ، معتزة بعزة الله دون سواه . لا بل تقدمها إليهم ومعها المشقة والجهد والجهاد والاستهتار ، لا تملك أن تأجرهم على ذلك كله شيئاً في هذه الأرض ، إنما هو القرب من الله ، وجزاؤه الأوفى يوم الحساب .

وهؤلاء هم سادة قريش تتلى عليهم آيات الله - على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم - فيقولون للمؤمنين الفقراء : « أي الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً ؟ » الكبراء الذين لا يؤمنون بمحمد ، أم الفقراء الذين يلتفون حوله . أيهم خير مقاماً وأحسن ندياً ؟ النصير بن الحارث وعمرو بن هشام والوليد بن المغيرة وإخوانهم من السادة ، أم بلال وعمار وخباب وإخوانهم من المعدمين ؟ أفلو كان ما يدعو إليه محمد خيراً أفكان أتباعه يكونون هم هؤلاء النفر الذين لا قيمة لهم في مجتمع قريش ولا خطر ؟ وهم يجتمعون في بيت فقير عاطل كبيت خباب ؟ ويكون معارضوه هم أولئك أصحاب النوادي الفخمة الضخمة والمكانة الاجتماعية البارزة ؟ .

إنه منطق الأرض . منطق المحجوبين عن الآفاق العليا في كل زمان ومكان . وإنها لحكمة الله أن تقف العقيدة مجردة من الزينة والطلاء ، عاطلة من عوامل الإغراء . ليقلل عليها من يريد لها لذاتها خالصة لله من دون الناس ، ومن دون ما تواضعوا عليه من قيم ومغريات ؛ وينصرف عنها من يبتغي المطامع والمنافع ، ومن يشتهي الزينة والزخرف ، ومن يطلب المال والمتاع .

ويعقب السياق على قولة الكفار التياهيين ، المتباهين بما هم فيه من مقام وزينة بلمسة وجدانية ترجع القلب إلى مصارع الغابرين ، على ما كانوا فيه من مقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين :

« وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثاً ورثياً » ..

فلم ينفعهم أثنائهم ورياشهم وزينتهم ومظهرهم . ولم يعصمهم شيء من الله حين كتب عليهم الهلاك .
 ألا إن هذا الإنسان لينسى . ولو تذكر وتفكر ما أخذه الغرور بمظهره ؛ ومصارع الغابرين من حوله تلفته بعنف وتندره وتحذره ، وهو سادر فيما هو فيه ، غافل عما ينتظره مما لقيه من كانوا قبله وكانوا أشد قوة وأكثر أموالاً وأولاداً .

يعقب السياق بتلك اللفتة ثم يأمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يدعو عليهم في صورة مباهلة - بأن من كان من الفريقين في الضلالة فليزده الله مما هو فيه ؛ حتى يأتي وعده في الدنيا أو في الآخرة :

« قل : من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مداً ، حتى إذا رأوا ما يوعدون إما العذاب وإما الساعة فسيعلمون من هو شر مكاناً وأضعف جنداً ، ويزيد الله الذين اهتدوا هدى والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير مرداً » ..

فهم يزعمون أنهم أهدى من أتباع محمد - صلى الله عليه وسلم - لأنهم أغنى وأبهى . فليكن ! وليدع محمد ربه أن يزيد الضالين من الفريقين ضلالاً ، وأن يزيد المهتدين منهما اهتداءً .. حتى إذا وقع ما يعدهم ؛ وهو لا يعدو أن يكون عذاب الضالين في الدنيا بأيدي المؤمنين ، أو عذابهم الأكبر يوم الدين - فعندئذ سيعرفون : أي الفريقين شر مكاناً وأضعف جنداً . ويومئذ يفرح المؤمنون ويعتزون « والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير مرداً » خير من كل ما يتباهى به أهل الأرض ويتيهون .

* * *

ثم يستعرض السياق نموذجاً آخر من تبجح الكافرين ، وقولة أخرى من أقوالهم يستنكرها ويعجب منها :

« أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال : لأوتين مالا وولداً ؟ أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهداً ؟ كلا سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مداً . ونرثه ما يقول ويأتينا فرداً » ..

ورد في سبب نزول هذه الآيات - بإسناده - عن خباب بن الأثرث قال : كنت رجلاً قيناً (حداداً) وكان لي على العاص بن وائل دين فأتيته أتقاضاه منه فقال : لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد ، فقلت : لا والله ، لا أكفر بمحمد - صلى الله عليه وسلم - حتى تموت ثم تبعث . قال : فإني إذا مت ثم بعثت جئتني ولي ثم مال وولد ، فأعطيتك ! فأنزل الله : « أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال : لأوتين مالا وولداً ... ؟ » .
 وقولة العاص بن وائل نموذج من تهكم الكفار واستخفافهم بالبعث ؛ والقرآن يعجب من أمره ، ويستنكر ادعاءه : « أطلع الغيب ؟ » فهو يعرف ما هنالك . « أم اتخذ عند الرحمن عهداً » فهو واثق من تحققه ؟ ثم يعقب : « كلا » .. وهي لفظة نفي وزجر . كلاً لم يطلع على الغيب ولم يتخذ عند الله عهداً ، إنما هو يكفر ويسخر ؛ فالتهديد إذن والوعيد هو اللائق لتأديب الكافرين السافرين : « كلا سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مداً » .. سنكتب ما يقول فنسجله عليه ليوم الحساب فلا ينسى ولا يقبل المغالطة .. وهو تعبير تصويري

(١) مظهراً ومنظراً .

(٢) البخاري ومسلم .

للتهديد ، وإلا فالمغالطة مستحيلة ، وعلم الله لا تند عنه صغيرة ولا كبيرة . ونمد له من العذاب مدأ ، فزيده منه ونظيله عليه ولا تقطعه عنه ! ويستمر السياق في التهديد على طريقة التصوير أيضاً : « ونرثه ما يقول » أي نأخذ ما يخلفه مما يتحدث عنه من مال وولد كما يفعل الوارث بعد موت المورث ! « ويأتينا فرداً » لا مال معه ولا ولد ولا نصير له ولا سند ، مجرداً ضعيفاً وحيداً فريداً .

فهل رأيت إلى هذا الذي كفر بآيات الله وهو يحيل على يوم لا يملك فيه شيئاً؟ يوم مجرد من كل ما يملك في هذه الدنيا؟ إنه نموذج من نماذج الكفار . نموذج الكفر والادعاء والاستهتار .

* * *

ويستطرد السياق في استعراض ظواهر الكفر والشرك :

« واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا ، كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً . ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا . فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عداً . يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً ، ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً ، لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً » .

فهؤلاء الذين يكفرون بآيات الله يتخذون من دونه آلهة يطلبون عندها العزة ، والغلب والنصرة ، وكان فيهم من يعبد الملائكة ومن يعبد الجن ويستنصرونهم ويتقوون بهم . . . كلا ! فسيكفر الملائكة والجن بعبادتهم ، وينكرونها عليهم ، ويرأون إلى الله منهم ، « ويكونون عليهم ضداً » بالتبرؤ منهم والشهادة عليهم .

وإن الشياطين ليهيجونهم إلى المعاصي . فهم مسلطون عليهم ، مأذون لهم في إغوائهم منذ أن طلب إبليس إطلاق يده فيهم . .

« فلا تعجل عليهم » ولا يضق صدرك بهم ؛ فإنهم مملون إلى أجل قريب ، وكل شيء من أعمالهم محسوب عليهم ومعدود . . . والتعبير يصور دقة الحساب تصويراً محسوساً « إنما نعد لهم عداً » . . . وإنه لتصوير مرهوب ، فيا ويل من يعد الله عليه ذنوبه وأعماله وأنفاسه ، ويتبعها ليحاسبه الحساب العسير . . . إن الذي يحس أن رئيسه في الأرض يتتبع أعماله وأخطائه يفزع ويخاف ويعيش في قلق وحسبان . . . فكيف بالله المنتقم الجبار؟ ! وفي مشهد من مشاهد القيامة يصور عاقبة العد والحساب . فأما المؤمنون فقامدون على الرحمن وفداً في كرامة وحسن استقبال : « يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً » . وأما المجرمون فسوقون إلى جهنم ورداً كما تساق القطعان . « ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً » . ولا شفاعة يومئذ إلا لمن قدم عملاً صالحاً فهو عهد له عند الله يستوفيه . وقد وعد الله من آمن وعمل صالحاً أن يجزيه الجزاء الأوفى ، ولن يخلف الله وعداً .

* * *

ثم يستطرد السياق مرة أخرى إلى مقولة منكورة من مقولات المشركين . ذلك حين يقول المشركون من العرب : الملائكة بنات الله . والمشركون من اليهود : عزير ابن الله . والمشركون من النصارى : المسيح ابن الله . . . فينتفض الكون كله لهذه القولة المنكرة التي تنكرها فطرته ، وينفر منها ضميره :

« وقالوا : اتخذ الرحمن ولداً . لقد جئتم شيئاً إداً . تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً ، أن دعوا للرحمن ولداً ، وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً » . .

إن جرس الألفاظ وإيقاع العبارات ليشارك لظلال المشهد في رسم الجو : جو الغضب والغيرة والانفراض ! وإن ضمير الكون وجوارحه لتنتفض ، وترتعش وترجف من سماع تلك القولة النابية ، والمساس بقداسته

الذات العلية ، كما ينتفض كل عضو وكل جارحة عندما يغضب الإنسان للمساس بكرامته أو كرامة من يحبه ويوقره .

هذه الانتفاضة الكونية للكلمة النابية تشترك فيها السماوات والأرض والجبال ، والألفاظ بإيقاعها ترسم حركة الزلزلة والارتجاج .

وما تكاد الكلمة النابية تنطلق : « وقالوا : اتخذ الرحمن ولدا » حتى تنطلق كلمة التفضيع والتبشيع : « لقد جئتم شيئاً إدا » ثم يهتز كل ساكن من حولهم ويرتج كل مستقر ، ويغضب الكون كله لبارئه . وهو يحس بتلك الكلمة تصدم كيانه وفطرته ؛ وتجافي ما وقر في ضميره وما استقر في كيانه ؛ وتهز القاعدة التي قام عليها واطمأن إليها : « تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا . أن دعوا للرحمن ولدا . وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا » ..

وفي وسط الغضبة الكونية يصدر البيان الرهيب : « إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا . لقد أحصاهم وعدهم عدا . وكلهم آتية يوم القيامة فرداً » .

إن كل من في السماوات والأرض إلا عبد يأتي معبوده خاضعاً طائعاً ، فلا ولد ولا شريك ، إنما خلق وعبيد . وإن الكيان البشري ليرتجف وهو يتصور مدلول هذا البيان .. « لقد أحصاهم وعدهم عدا » فلا مجال لهرب أحد ولا لنسيان أحد « وكلهم آتية يوم القيامة فرداً » فعين الله على كل فرد . وكل فرد يقدم وحيداً لا يأنس بأحد ولا يعتر بأحد . حتى روح الجماعة ومشاعر الجماعة يجرد منها ، فإذا هو وحيد فريد أمام الديان . وفي وسط هذه الوحدة والوحشة والرهبة ، إذا المؤمنون في ظلال ندية من الود السامي : ود الرحمن : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً » ..

وللتعبير بالود في هذا الجو نداوة رخية تمس القلوب ، وروح رضى يلمس النفوس . وهو ود يشيع في الملاء الأعلى ، ثم يفيض على الأرض والناس فيمتلىء به الكون كله ويفيض ..

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال : يا جبريل إني أحب فلاناً فأحبه . قال : فيحبه جبريل . ثم ينادي في أهل السماء : إن الله يحب فلاناً فأحبه . قال : فيحبه أهل السماء . ثم يوضع له القبول في الأرض . وإن الله إذا أبغض عبداً دعا جبريل فقال : يا جبريل إني أبغض فلاناً فأبغضه . قال : فيبغضه جبريل . ثم ينادي في أهل السماء : إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه . قال : فيبغضه أهل السماء ؛ ثم يوضع له البغضاء في الأرض » ..

* * *

وبعد فإن هذه البشرية للمؤمنين المتقين ، وذلك الإنذار للجاحدين الخصمين هما غاية هذا القرآن . ولقد يسره الله للعرب فأنزله بلسان الرسول - صلى الله عليه وسلم - ليقرأوه : « وإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوماً لداً » ..

وتحتم السورة بمشهد يتأمله القلب طويلاً ؛ ويرتعش له الوجدان طويلاً ؛ ولا ينتهي الخيال من استعراضه

(1) رواه الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا أبو عوانة ، حدثنا سهيل عن أبيه عن أبي هريرة . ورواه مسلم من حديث سهيل . ورواه أحمد والبخاري من حديث ابن جريج عن موسى عن ابن عتبة عن نافع عن أبي هريرة .

« وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا ؟ » .
وهو مشهد يبدوك بالرجة المدمرة ، ثم يغمرك بالصمت العميق . وكأنما يأخذ بك إلى وادي الردى ،
ويقفك على مصارع القرون ؛ وفي ذلك الوادي الذي لا يكاد يحده البصر ، يسبح خيالك مع الشخوص
التي كانت تدب وتحرك ، والحياة التي كانت تنبض وتمرح . والأمانى والمشاعر التي كانت تحيا وتتطلع ..
ثم إذا الصمت يحجم ، والموت يجثم ، وإذا الجثث والأشلاء والبلى والدمار ، لا نامة . لا حس . لا حركة .
لا صوت .. « هل تحس منهم من أحد ؟ » انظر وتلفت « هل تسمع لهم ركزا » تسمع وأنصت . ألا إنه السكون
العميق والصمت الرهيب . وما من أحد إلا الواحد الحي الذي لا يموت .

* * *

(٢٠) سُورَةُ طهٍ مَكِّيَّةٌ
وَآيَاتُهَا خَمْسٌ وَثَلَاثُونَ وَمِائَةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طه ﴿١﴾ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿٢﴾ إِلَّا تَذَكُّرَةً لِمَنْ يَخْشَى ﴿٣﴾ تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ
وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ
الْأَثْرِى ﴿٦﴾ وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴿٨﴾
وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿٩﴾ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ
أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾
فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَمْوَسَى ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا آخَرْتُكَ
فَأَسْمَعْ لِمَا يُوحَى ﴿١٣﴾ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ
أَكَادُ أَخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوْلَهُ فتردى ﴿١٦﴾
وَمَا تَلَكَ بِبَيْمِينِكَ يَمْوَسَى ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا
مَعَارِبُ أُخْرَى ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَمْوَسَى ﴿١٩﴾ فَالْقَهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا
سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴿٢١﴾ وَأَضْمُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةٌ أُخْرَى ﴿٢٢﴾ لِئُرِيكَ مِنْ
آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾
وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَلْ لِي زَيرًا مِنَ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَلْ دُونَ أُنحَى ﴿٣٠﴾ أَشَدُّ

بِهِ أَرَى ﴿٦١﴾ وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ﴿٦٢﴾ كَى نُسِجَتِكَ كَثِيرًا ﴿٦٣﴾ وَتَذَكَّرَكَ كَثِيرًا ﴿٦٤﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٦٥﴾
 قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ﴿٦٦﴾ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى ﴿٦٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَى ﴿٦٨﴾
 أَنْ أَقْدِفِيهِ فِي الثَّابُوتِ فَأَقْدِفِيهِ فِي الْبَيْدِ فَلْيُلْفِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوِّي وَعَدُوُّ لَهٗ وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ حَبَّةٌ
 مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٦٩﴾ إِذْ تَمْشِي أُخُنُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۗ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ
 كَى تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۗ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ۗ فَلَمِيتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ
 جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَى ﴿٧٠﴾ وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٧١﴾ أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِمَا يَتَّبِعِي ۖ وَالآيَاتُ فِي ذِكْرِي ﴿٧٢﴾
 أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٧٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَحْشَى ﴿٧٤﴾

قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَتَخَفُ أَنْ يَقْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْفِئَ ﴿٧٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴿٧٦﴾ فَأْتِيَاهُ
 فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعْبُدْهُمْ ۗ قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَن
 اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴿٧٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٧٨﴾

قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى ﴿٧٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ۖ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٨٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ
 الْأُولَىٰ ﴿٨١﴾ قَالَ عَلِيهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَبْصُرُ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴿٨٢﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا
 وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن تَبَاتِ شَيْءٍ ﴿٨٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ
 إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴿٨٤﴾ * مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٨٥﴾
 وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٨٦﴾ قَالَ أَجِئْنَا لِنُخْرِجَنَّا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا بَيَّنَّاكَ
 بِسِحْرِ مِثْلِهِ ۖ فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ ۖ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سَوَىٰ ﴿٨٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ
 وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحَىٰ ﴿٨٩﴾

فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ بِجَمْعٍ كَيْدِهِ ۖ ثُمَّ أَنَّى ﴿٩٠﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ وَيَلِكُمْ لَا تَقْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ
 بِعَذَابٍ ۗ وَقَدْ خَابَ مَن آفَتَرَىٰ ﴿٩١﴾ فَتَنَزَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَىٰ ﴿٩٢﴾ قَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا لَسِحْرَانِ

يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكَ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكَ الْأَمْنَى ۝٦٣ فَاَجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتُوا صَفَا
وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى ۝٦٤ قَالُوا يَمْوَسِيَّ إِيمَانُ أَنْ تُلْقِي وَإِمَانُ أَنْ نَكُونَ أَوْلَ مَنْ أَلْقَى ۝٦٥ قَالَ بَلْ أَلْقُوا
فَإِذَا جَاءَهُمْ وَعَصِيهِمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ۝٦٦ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةُ مُوسَى ۝٦٧
فَلَمَّا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ۝٦٨ وَالْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفَ مَا صَنَعُوا ۝٦٩ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سِحْرٍ وَلَا يُفْلِحُ
السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ۝٧٠

فَأَلْقَى السَّحْرَةَ فَبَدَا قَالُوا أَمَّا رَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ۝٧١ قَالَ ءَأَمْنَتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَأْذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ
الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَا تُقِطْنَ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَا تُصَلِّبُنَا فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلْتَعْلُنَّ أَيْتَا
أَشَدَّ عَذَابًا وَأَبْقَى ۝٧٢ قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرْنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي
هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝٧٣ إِنَّا ءَأَمْنَا رَبَّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَتَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ
وَأَبْقَى ۝٧٤ إِنَّهُ مِنْ بَيَاتِ رَبِّهِ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ۝٧٥ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ
عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ۝٧٦ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا
وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ۝٧٧

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَحْشَى ۝٧٨
فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ۝٧٩ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى ۝٨٠
يَلْبَسِي إِسْرًا بَلْ قَدْ أَخْبَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى ۝٨١
كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى ۝٨٢ وَإِنِّي
لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ۝٨٣

* وَمَا أَجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمْوَسِيَّ ۝٨٤ قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَى أَثْرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ۝٨٥ قَالَ فَإِنَّا
قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ۝٨٦

فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسُنَا فَأَقَالٌ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ
 أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴿٤٦﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكًا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوْزَارًا مِّن
 زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٤٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ جِجَارًا حَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ
 وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٤٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ
 هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٥٠﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ
 عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ يَهْدُونَ مَأْمَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٥٢﴾ أَلَّا تَدَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ
 أَمْرِي ﴿٥٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِبِئْسَ بِلْحِيَّتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ
 تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٥٤﴾

قَالَ فَا خَطْبُكَ يَا سَمِرِيُّ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا
 وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٥٦﴾ قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ يُخْلَفُهُ
 وَأَنْظُرْ إِلَىٰ إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٥٧﴾ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ
 إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٥٨﴾

تبدأ هذه السورة وتختتم خطاباً للرسول - صلى الله عليه وسلم - ببيان وظيفته وحدود تكاليفه .. إنها ليست شقوة كتبت عليه ، وليست عناء يعذب به . إنما هي الدعوة والتذكرة ، وهي التبشير والإنذار . وأمر الخلق بعد ذلك إلى الله الواحد الذي لا إله غيره . المهيم على ظاهر الكون وباطنه ، الخير بظواهر القلوب وخوافيها . الذي تعنو له الجباه ، ويرجع إليه الناس : طائعهم وعاصيهم .. فلا على الرسول ممن يكذب ويكفر ؛ ولا يشقى لأنهم يكذبون ويكفرون .

وبين المطلع والختام تعرض قصة موسى عليه السلام من حلقة الرسالة إلى حلقة اتخاذ بني إسرائيل للعجل بعد خروجهم من مصر ، مفصلة مطولة ؛ وبخاصة موقف المناجاة بين الله وكليمه موسى - وموقف الجدل بين موسى وفرعون . وموقف المباراة بين موسى والسحرة ... وتتجلى في غضون القصة رعاية الله لموسى الذي صنعه على عينه واصطنعه لنفسه ، وقال له ولأخيه : « لا تخافا إني معكما أسمع وأرى » ..

وتعرض قصة آدم سريعة قصيرة ، تبرز فيها رحمة الله لآدم بعد خطيئته ، وهدايته له . وترك البشر من أبنائه لما يختارون من هدى أو ضلال بعد التذكير والإنذار .

وتحيط بالقصة مشاهد القيامة . وكأنما هي تكملة لما كان أول الأمر في الملائة الأعلى من قصة آدم . حيث يعود الطائون إلى الجنة ، ويذهب العصاة إلى النار . تصديقاً لما قيل لأبيهم آدم ، وهو يهبط إلى الأرض بعد ما كان ! ومن ثم يمضي السياق في هذه السورة في شوطين اثنين : الشوط الأول يتضمن مطلع السورة بالخطاب إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - « ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى . إلا تذكرة لمن يخشى ... » تتبعه قصة موسى نموذجاً كاملاً لرعاية الله سبحانه لمن يختارهم لإبلاغ دعوته فلا يشقون بها وهم في رعايته . والشوط الثاني يتضمن مشاهد القيامة وقصة آدم وهما يسيران في اتجاه مطلع السورة وقصة موسى . ثم ختام السورة بما يشبه مطلعها ويتناسق معه ومع جو السورة .

وللسورة ظل خاص يغمر جوها كله .. ظل علوي جليل ، تخشع له القلوب ، وتسكن له النفوس ، وتعنو له الجباه .. إنه الظل الذي يخلعه تجلي الرحمن على الوادي المقدس على عبده موسى ، في تلك المناجاة الطويلة ؛ والليل ساكن وموسى وحيد ، والوجود كله يتجاوب بذلك النجاء الطويل .. وهو الظل الذي يخلعه تجلي القيوم في موقف الحشر العظيم : « وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً » .. « وعنت الوجوه للحي القيوم » ..

والإيقاع الموسيقي للسورة كلها يستطرد في مثل هذا الجو من مطلعها إلى ختامها رخيماً شجياً ندياً بذلك المد الذاهب مع الألف المقصورة في القافية كلها تقريباً .

* * *

« طه . ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى . إلا تذكرة لمن يخشى . تنزيلاً ممن خلق الأرض والسماوات العلى . الرحمن على العرش استوى . له ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى . وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى . الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى » .

مطلع رخي ندي . يبدأ بالحروف المقطعة : « ط . ها » للتنبية إلى أن هذه السورة . كهذا القرآن - مؤلفة من مثل هذه الحروف على نحو ما أوردنا في مطالع السور . ويختار هنا حرفان ينتهيان بإيقاع كإيقاع السورة ، ويقصران ولا يمدان لتنسيق الإيقاع كذلك .

يتلو هذين الحرفين حديث عن القرآن - كما هو الحال في السور التي تبدأ بالحروف المقطعة - في صورة خطاب إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - :

« ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى » .. ما أنزلنا عليك القرآن ليؤدي إلى شقائك به أو بسببه . ما أنزلناه لتشقى بتلاوته والتعبد به حتى يجاوز ذلك طاقتك ، ويشق عليك ؛ فهو ميسر للذكر ، لا تتجاوز تكاليفه طاقة البشر ، ولا يكلفك إلا ما في وسعك ، ولا يفرض عليك إلا ما في طوقك والتعبد به في حدود الطاقة نعمة لا شقوة ، وفرصة للاتصال بالملائة الأعلى ، واستمداد القوة والطمأنينة ، والشعور بالرضى والأنس والوصول ..

وما أنزلناه عليك لتشقى مع الناس حين لا يؤمنون به . فلست مكلفاً أن تحملهم على الإيمان حملاً ؛ ولا أن تذهب نفسك عليهم حسرات ؛ وما كان هذا القرآن إلا للتذكير والإنذار : « إلا تذكرة لمن يخشى » .

والذي يخشى يتذكر حين يُذكر ، ويتقي ربه فيستغفر . وعند هذا تنتهي وظيفة الرسول - صلى الله عليه وسلم -

وسلم - فلا يكلف فتح مغاليق القلوب ، والسيطرة على الأفئدة والنفوس . إنما ذلك إلى الله الذي أنزل هذا القرآن . وهو المهيم على الكون كله ، المحيط بخفايا القلوب والأسرار :

« تنزيلاً ممن خلق الأرض والسماوات العلى . الرحمن على العرش استوى . له ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى » ..

فالذي نزل هذا القرآن هو الذي خلق الأرض والسماوات .. السماوات العلى .. فالقرآن ظاهرة كونية كالأرض والسماوات . تنزلت من الملأ الأعلى . ويربط السياق بين النواميس التي تحكم الكون والتي ينزل بها القرآن ؛ كما ينسق ظل السماوات العلى مع الأرض ، وظل القرآن الذي ينزل من الملأ الأعلى إلى الأرض ..

والذي نزل القرآن من الملأ الأعلى ، وخلق الأرض والسماوات العلى ، هو « الرحمن » فما نزله على عبده ليشقى . وصفة الرحمة هي التي تبرز هنا للإمام بهذا المعنى . وهو المهيم على الكون كله . « على العرش استوى » والاستواء على العرش كناية عن غاية السيطرة والاستعلاء . فأمر الناس إذن إليه وما على الرسول إلا التذكرة لمن يخشى .

ومع الهيمنة والاستعلاء الملك والإحاطة :

« له ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى » ..

والمشاهد الكونية تستخدم في التعبير لإبراز معنى الملك والإحاطة في صورة يدركها التصور البشري . والأمر أكبر من ذلك جداً . والله ما في الوجود كله وهو أكبر مما في السماوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى .

وعلم الله يحيط بما يحيط به ملكه :

« وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى » ..

وينسق التعبير بين الظل الذي تلقيه الآية : « له ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى » . والظل الذي تلقيه الآية بعدها : « وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى » ينسق بين الظاهر الجاهر في الكون ، والظاهر الجاهر من القول . وبين المستور المخبوء تحت الثرى والمستور المخبوء في الصدور : السر وأخفى . على طريقة التنسيق في التصوير . والسر خاف . وما هو أخفى من السر تصوير لدرجات الخفاء والاستتار ، كما هو الحال تحت أطباق الثرى ..

والخطاب للرسول - صلى الله عليه وسلم - لطمأنة قلبه بأن ربه معه يسمعه ، ولا يتركه وحده يشقى بهذا القرآن ، ويواجه الكافرين بلا سند ، فإذا كان يدعو جهراً فإنه يعلم السر وأخفى . والقلب حين يستشعر قرب الله منه ، وعلمه بسره ونجواه ، يطمئن ويرضى ، ويأنس بهذا القرب فلا يستوحش من العزلة بين المكذبين المناوئين ؛ ولا يشعر بالغرابة بين المخالفين له في العقيدة والشعور .

ويختتم هذا المطلع بإعلان وحدانية الله بعد إعلان هيئته وملكيته وعلمه :

« الله لا إله إلا هو . له الأسماء الحسنى » ..

و« الحسنى » تشارك في تنسيق الإيقاع ، كما تشارك في تنسيق الظلال . ظلال الرحمة والقرب والرعاية ، التي تغمر جو هذا المطلع وجو السورة كله .

ثم يقص الله على رسوله حديث موسى ، نموذجاً لرعايته للمختارين لحمل دعوته : وقصة موسى هي أكثر قصص المرسلين وروداً في القرآن . وهي تعرض في حلقات تناسب موضوع السورة التي تعرض فيها وجوهاً وظلها . وقد وردت حلقات منها حتى الآن في سورة البقرة . وسورة المائدة . وسورة الأعراف . وسورة يونس . وسورة الإسراء . وسورة الكهف . . وذلك غير الإشارات إليها في سور أخرى .

وما جاء منها في المائدة كان حلقة واحدة : حلقة وقوف بني إسرائيل أمام الأرض المقدسة لا يدخلون لأن فيها قوماً جبارين . وفي سورة الكهف كانت كذلك حلقة واحدة : حلقة لقاء موسى للعبد الصالح وصحبته فترة . . فأما في البقرة والأعراف ويونس وفي هذه السورة - طه - فقد وردت منها حلقات كثيرة . ولكن هذه الحلقات تختلف في سورة عنها في الأخرى . تختلف الحلقات المعروضة ، كما يختلف الجانب الذي تعرض منه تنسيقاً له مع اتجاه السورة التي يعرض فيها .

في البقرة سبقتها قصة آدم وتكريمه في الملاء الأعلى ، وعهد الله إليه بخلافة الأرض ونعمته عليه بعد ما غفر له . . فجاءت قصة موسى وبني إسرائيل تذكيراً لبني إسرائيل بنعمة الله عليهم وعهده إليهم وإنجائهم من فرعون وملئه . واستسقايتهم وتفجير الينابيع لهم وإطعامهم المن والسلوى ، وذكرت مواعدة موسى وعبادتهم للعجل من بعده ، ثم غفرانه لهم . وعهده إليهم تحت الجبل . ثم عدوانهم في السبت . وقصة البقرة .

وفي الأعراف سبقها الإنذار وعواقب المكذبين بالآيات قبل موسى - عليه السلام - فجاءت قصة موسى تعرض ابتداء من حلقة الرسالة ، وتعرض فيها آيات العصا واليد والظوفان والجراد والقمل والضفادع والدم . وتعرض حلقة السحرة بالتفصيل . وخاتمة فرعون وملئه المكذبين . ثم ما كان من بني إسرائيل بعد ذلك من اتخاذ العجل في غيبة موسى . وتنتهي القصة بإعلان فيها وراثته رحمة الله وهداه للذين يتبعون الرسول النبي الأمي .

وفي يونس سبقها عرض مصارع المكذبين . فجاءت قصة موسى من حلقة الرسالة ، وعرض مشهد السحرة ، ومصراع فرعون وقومه بالتفصيل .

أما هنا في طه . فقد سبقها مطلع السورة يشف عن رحمة الله ورعايته لمن يصطفئهم لحمل رسالته وتبليغ دعوته . فجاءت القصة مظلمة بهذا الظل تبدأ بمشهد المناجاة ؛ وتضمن نماذج من رعاية الله لموسى عليه السلام وتثبيته وتأييده ؛ وتشير إلى سبق هذه الرعاية للرسالة ، فقد كانت ترافقه في طفولته ، فتحرسه وتتعهدده : « وألقيت عليك محبة مني ولتصنع علي عيني » . . فلنأخذ في تتبع حلقات القصة كما وردت في السياق .

* * *

« وهل أتاك حديث موسى . إذ رأى نارا فقال لأهله : امكثوا إني آنست نارا ، لعل آتيكم منها بقبس ، أو أجد على النار هدى » . .

« وهل أتاك حديث موسى ؟ » وما يتجلى فيه من رعاية الله وهداه لمن اصطفاه ؟ . .

فها هو ذا موسى - عليه السلام - في الطريق بين مدين ومصر إلى جانب الطور ها هو ذا عائد بأهله بعد أن قضى فترة التعاقد بينه وبين نبي الله شعيب ، على أن يزوجه إحدى ابنتيه في مقابل أن يخدمه ثماني سنوات أو عشرًا . والأرجح أنه وفي عشرا ؛ ثم خطر له أن يفارق شعيباً وأن يستقل بنفسه وبزوج ، ويعود إلى

البلد الذي نشأ فيه ، والذي فيه قومه بنو إسرائيل يعيشون تحت سياط فرعون وقهره^١ .

لماذا عاد . وقد خرج من مصر طريداً . قتل قبطياً فيها حين رآه يقتتل مع إسرائيلي ، وغادر مصر هارباً وبنو إسرائيل فيها يسامون العذاب ألواناً ؟ حيث وجد الأمن والطمأنينة في مدين إلى جوار شعيب صهره الذي آواه وزوجه إحدى ابنتيه ؟

إنها جاذبية الوطن والأهل تتخذها القدرة ستاراً لما تهبته لموسى من أدوار .. وهكذا نحن في هذه الحياة نتحرك . تحركنا أشواق وهواتف ، ومطامح ومطامح ، وآلام وآمال .. وإن هي إلا الأسباب الظاهرة للغاية المضمره ، والستار الذي تراه العيون لليد التي لا تراها الأنظار ولا تدركها الأبصار . يد المدبر المهيمن العزيز القهار ..

وهكذا عاد موسى . وهكذا ضل طريقه في الصحراء ومع زوجته وقد يكون معهما خادم . ضل طريقه والليل مظلم ، والمتاهة واسعة . نعرف هذا من قوله لأهله : « امكثوا إني آنست نارا لعل آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى » .. فأهل البادية يوقدون النار عادة على مرتفع من الأرض ، ليراه الساري في الصحراء ، فتكشف له عن الطريق ، أو يجد عندها القرى والضيافة ومن يهديه إلى الطريق .

ولقد رأى موسى النار في الفلاة . فاستبشر . وذهب ليأتي منها بقبس يستدفئ به أهله ، فالليلة باردة وليالي الصحراء باردة قارة . أو ليجد عندها من يهديه إلى الطريق ؛ أو يهتدي على ضوئها إلى الطريق .

لقد ذهب يطلب قبساً من النار ؛ ويطلب هادياً في السرى .. ولكنه وجد المفاجأة الكبرى . إنها النار التي تدفئ . لا الأجسام ولكن الأرواح . النار التي تهدي لا في السرى ولكن في الرحلة الكبرى :

« فلما أتاها نودي : يا موسى إني أنا ربك . فاخلع نعليك . إنك بالوادي المقدس طوى . وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى . إني أنا الله لا إله إلا أنا ، فاعبدني وأقم الصلاة لذكري . إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى . فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى » ..

إن القلب ليحجف ، وإن الكيان ليرتجف . وهو يتصور - مجرد تصور - ذلك المشهد .. موسى فريد في تلك الفلاة . والليل دامس ، والظلام شامل ، والصمت مخم . وهو ذاهب يلتمس النار التي آسها من جانب الطور . ثم إذا الوجود كله من حوله يتجاوب بذلك النداء : « إني أنا ربك فاخلع نعليك . إنك بالوادي المقدس طوى وأنا اخترتك .. » .

إن تلك الذرة الصغيرة الضعيفة المحدودة تواجه الجلال الذي لا تدركه الأبصار . الجلال الذي تتضاءل في ظله الأرض والسموات . ويتلقى . يتلقى ذلك النداء العلوي بالكيان البشري .. فكيف ؟ كيف لولا لطف الله ؟

إنها لحظة ترتفع فيها البشرية كلها وتكبر ممثلة في موسى - عليه السلام - فبحسب الكيان البشري أن يطبق التلقي من ذلك الفيض لحظة . وبحسب البشرية أن يكون فيها الاستعداد لمثل هذا الاتصال على نحو من الأنحاء .. كيف ؟ لا ندري كيف ! فالعقل البشري ليس هنا ليدرك ويحكم ، إنما قصاره أن يقف مبهوتاً يشهد ويؤمن !

« فلما أتاها نودي يا موسى : إني أنا ربك .. » نودي بهذا البناء للمجهول . فما يمكن تحديد مصدر

(١) ورد هذا في الحلقات الأولى من قصة موسى في سورة القصص . وهي سابقة في النزول على سورة طه .

النداء ولا اتجاهه . ولا تعيين صورته ولا كلفيته . ولا كيف سمعه موسى أو تلقاه . . نودي بطريقة ما فتلقى بطريقة ما . فذلك من أمر الله الذي تؤمن بوقوعه ، ولا نسأل عن كلفيته ، لأن كلفيته وراء مدارك البشر وتصورات الإنسان

« ياموسى إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طوى ¹ » . . إنك في الحضرة العلوية . فتجرد بقدميك . وفي الوادي الذي تتجلى عليه الطلعة المقدسة ، فلا تطأه بنعليك .

« وأنا اخترتك » . . فيا للتكريم ! يا للتكريم أن يكون الله بذاته هو الذي يختار . يختار عبداً من العبيد هو فرد من جموع الجموع . . تعيش على كوكب من الكواكب هو ذرة في مجموعة . المجموعة هي ذرة في الكون الكبير الذي قال له الله : كن . . فكان ! ولكنها رعاية الرحمن لهذا الإنسان !

وبعد إعلانه بالتكريم والاختيار ، والاستعداد والتهيؤ بلخع نعليه ، يحيى التنبيه للتلقي :
« فاستمع لما يوحى » . .

ويلخص ما يوحى في ثلاثة أمور مترابطة : الاعتقاد بالوحدانية ، والتوجه بالعبادة ، والإيمان بالساعة ؛ وهي أسس رسالة الله الواحدة :

« إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري . إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى . فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى » . .

فأما الألوهية الواحدة فهي قوام العقيدة . والله في ندائه لموسى - عليه السلام - يؤكدها بكل المؤكدات : بالإثبات المؤكد . « إني أنا الله » وبالقصر المستفاد من النفي والاستثناء : « لا إله إلا أنا » الأولى لإثبات الألوهية لله ، والثانية لنفيها عن سواه . . وعلى الألوهية ترتب العبادة ؛ والعبادة تشمل التوجه لله في كل نشاط الحياة ؛ ولكنه يخص بالذكر منها الصلاة : « وأقم الصلاة لذكري » لأن الصلاة أكمل صورة من صور العبادة ، وأكمل وسيلة من وسائل الذكر ، لأنها تتمحض لهذه الغاية ، وتتجرد من كل الملابس الأخرى ؛ وتتهياً فيها النفس لهذا الغرض وحده ، وتتجمع للاتصال بالله .

فأما الساعة فهي الموعد المرتقب للجزاء الكامل العادل ، الذي تتوجه إليه النفوس فتحسب حسابه ؛ وتسير في الطريق وهي تراقب وتحاسب وتخشى الاتزلاق . . والله سبحانه يؤكد مجيئها : « إن الساعة آتية » وأنه يكاد يخفيها . فعلم الناس بها قليل لا يتجاوز ما يطلعهم عليه من أمرها بقدر ما يحقق حكمته من معرفتهم ومن جهلهم . . والمجهول عنصر أساسي في حياة البشر وفي تكوينهم النفسي . فلا بد من مجهول في حياتهم يتطلعون إليه . ولو كان كل شيء مكشوفاً لهم - وهم بهذه الفطرة - لوقف نشاطهم وأسنت حياتهم . فوراء المجهول يجرون . فيحذرون ويأملون ، ويجربون ويتعلمون . ويكشفون المخبوء من طاقاتهم وطاقات الكون من حولهم ؛ ويرون آيات الله في أنفسهم وفي الآفاق ؛ ويبدعون في الأرض بما شاء لهم الله أن يبدعوا . . وتعليق قلوبهم ومشاعرهم بالساعة المجهولة الموعد ، يحفظهم من الشرود ، فهم لا يدرون متى تأتي الساعة ، فهم من موعدها على حذر دائم وعلى استعداد دائم . ذلك لمن صحت فطرته واستقام . فأما من فسدت فطرته واتبع هواه فيغفل ويجهل ، فيسقط ومصيره إلى الردى :

« فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى » . .

(١) قيل : إنها اسم الوادي وقيل : إنها وصف له .

ذلك أن اتباع الهوى هو الذي ينشئ التكذيب بالساعة . فالفطرة السليمة تؤمن من نفسها بأن الحياة الدنيا لا تبلغ فيها الإنسانية كماها ، ولا يتم فيها العدل تمامه ؛ وأنه لا بد من حياة أخرى يتحقق فيها الكمال المقدر للإنسان ، والعدل المطلق في الجزاء على الأعمال .

* * *

هذه هي الوهلة الأولى للنداء العلوي الذي تجاوبت به جنبات الوجود ؛ وأنهى الله سبحانه إلى عبده المختار قواعد التوحيد . ولا بد أن موسى قد نسي نفسه ونسي ما جاء من أجله ، ليتبع ذلك الصوت العلوي الذي ناداه ؛ وليسمع التوجيه القدسي الذي يتلقاه . وبينما هو مستغرق فيما هو فيه ، ليس في كيانه ذرة واحدة تتلفت إلى سواه ، إذا هو يتلقى سؤالاً لا يحتاج منه إلى جواب :

« وما تلك بيمينك يا موسى ؟ » ..

إنها عصاه . ولكن أين هو من عصاه ؟ إنما يتذكر فيجيب :

« قال : هي عصاي ، أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى » ..

والسؤال لم يكن عن وظيفة العصا في يده . إنما كان عما في يمينه . ولكنه أدرك أن ليس عن ماهيتها يسأل ، فهي واضحة ، إنما عن وظيفتها معه . فأجاب ..

ذلك أقصى ما يعرفه موسى عن تلك العصا : أن يتوكأ عليها وأن يضرب بها أوراق الشجر لتساقط فتأكلها الغنم – وقد كان يرعى الغنم لشعيب . وقيل : إنه ساق معه في عودته قطعاً منها كان من نصيبه . وأن يستخدمها في أغراض أخرى من هذا القبيل أجملها ولم يعددها لأن ما ذكره نموذج منها .

ولكن ها هي ذي القدرة القادرة تصنع بتلك العصا في يده ما لم يخطر له على بال ، تمهيداً لتكليفه بالمهمة الكبرى :

« قال : ألقها يا موسى . فألقاها . فإذا هي حية تسعى . قال : خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى » :

ووقعت المعجزة الخارقة التي تقع في كل لحظة ؛ ولكن الناس لا يتنبهون إليها . وقعت معجزة الحياة . فإذا العصا حية تسعى . وكم من ملايين الذرات الميتة أو الجامدة كالعصا تتحول في كل لحظة إلى خلية حية ؛ ولكنها لا تبهر الإنسان كما يبهره أن تتحول عصا موسى حية تسعى ! ذلك أن الإنسان أسير حواسه ، وأسير تجاربه ، فلا يبعد كثيراً في تصوراته عما تدركه حواسه . وانقلاب العصا حية تسعى ظاهرة حسية تصدم حسه فينتبه لها بشدة . أما الظواهر الخفية لمعجزة الحياة الأولى ، ومعجزات الحياة التي تدب في كل لحظة فهي خفية قلما يلتفت إليها . وبخاصة أن الألفة تفقدتها جدتها في حسه ، فيمر عليها غافلاً أو ناسياً .

وقعت المعجزة فدهش لها موسى وخاف : « قال : خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى » ونردها عصا . والسياق هنا لا يذكر ما ذكره في سورة أخرى من أنه ولي مدبراً ولم يعقب . إنما يكتفي بالإشارة الخفيفة إلى ما نال موسى – عليه السلام – من خوف : ذلك أن ظل هذه السورة ظل أمن وطمأنينة ، فلا يشوبه بحركة الفرع والجري والتولي بعيدا .

واطمأن موسى والتقط الحية ، فإذا هي تعود سيرتها الأولى ! عصا ! .. ووقعت المعجزة في صورتها الأخرى . صورة سلب الحياة من الحي ، فإذا هو جامد ميت ، كما كان قبل أن تدركه المعجزة الأولى ..

وصدر الأمر العلوي مرة أخرى إلى عبده موسى :

« واضم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى » ..
 ووضع موسى يده تحت إبطه .. والسياق يختار للإبط والذراع صورة الجناح لما فيها من رفرقة وطلاقة
 وخفة في هذا الموقف المجنح الطليق من ربة الأرض وثقله الجسم لتخرج بيضاء لا عن مرض أو آفة . ولكن :
 « آية أخرى » مع آية العصا . « لزيك من آياتنا الكبرى » فتشهد وقوعها بنفسك تحت بصرك وحسك .
 فتطمئن للنهوض بالتبعية الكبرى :
 « اذهب إلى فرعون إنه طغى » ..

وإلى هنا لم يكن موسى يعلم أنه منتدب لهذه المهمة الضخمة .. وإنه ليعرف من هو فرعون : فقد ربي
 في قصره . وشهد طغيانه وجبروته . وشاهد ما يصبه على قومه من عذاب ونكال .. وهو اللحظة في حضرة
 ربه . يحس الرضى والتكريم والحفاوة . فليسأله كل ما يطمئنه على مواجهة هذه المهمة العسيرة ؛ ويكفل له
 الإستقامة على طريق الرسالة :

« قال : رب اشرح لي صدري . ويسر لي أمري . واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي . واجعل لي وزيراً
 من أهلي ، هارون أخي . اشدد به أزري ، وأشركه في أمري . كي نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً . إنك كنت
 بنا بصيراً » ..

لقد طلب إلى ربه أن يشرح له صدره .. وانشرح الصدر يحول مشقة التكليف إلى متعة ، ويحيل عناءه
 لذة ؛ ويجعله دافعاً للحياة لا عبئاً يثقل خطى الحياة .

وطلب إلى ربه أن يسر له أمره .. وتيسر الله لعباده هو ضمان النجاح . وإلا فإذا يملك الإنسان بدون
 هذا التيسير ؟ ماذا يملك وقواه محدودة وعلمه قاصر والطريق طويل وشائك ومجهول ؟ ! .

وطلب إلى ربه أن يحل عقدة لسانه فيفقهوا قوله .. وقد روي أنه كانت بلسانه حسة والأرجح أن هذا
 هو الذي عناءه . ويؤيده ما ورد في سورة أخرى من قوله : « وأخي هارون هو أفصح مني لساناً » . وقد
 دعا ربه في أول الأمر دعاء شاملاً بشرح الصدر وتيسير الأمر . ثم أخذ يحدد ويفصل بعض ما يعينه على أمره
 وييسر له تمامه .

وطلب أن يعينه الله بمعين من أهله . هارون أخيه . فهو يعلم عنه فصاحة اللسان وثبات الجنان وهدوء
 الأعصاب ، وكان موسى - عليه السلام - انفعالياً حاد الطبع سريع الانفعال . فطلب إلى ربه أن يعينه بأخيه
 يشد أزره ويقويه ويتروى معه في الأمر الجليل الذي هو مقدم عليه .

والأمر الجليل الذي هو مقدم عليه يحتاج إلى التسييح الكثير والذكر الكثير والاتصال الكثير . فوسى -
 عليه السلام - يطلب أن يشرح الله صدره وييسر له أمره ويحل عقدة من لسانه ويعينه بوزير من أهله ..
 كل أولئك لا يواجه المهمة مباشرة ؛ ولكن ليتخذ ذلك كله مساعداً له ولأخيه على التسييح الكثير والذكر
 الكثير والتلقي الكثير من السميع البصير .. « إنك كنت بنا بصيراً » .. تعرف حالنا وتطلع على ضعفنا وقصورنا
 وتعلم حاجتنا إلى العون والتدبير ..

لقد أطل موسى سؤله ، وبسط حاجته ، وكشف عن ضعفه ، وطلب العون والتيسير والاتصال الكثير .
 ورببه يسمع له ، وهو ضعيف في حضرته ، ناداه ونجاه . فها هو ذا الكريم المنان لا يخجل ضيفه ، ولا يرد
 سائله ، ولا يبطل عليه بالإجابة الكاملة :

« قال : قد أوتيت سؤلك يا موسى » :

هكذا مرة واحدة ، في كلمة واحدة . فيها إجمال يغني عن التفصيل . وفيها إنجاز لا وعد ولا تأجيل .. كل ما سألته أعطيته . أعطيته فعلاً . لا تعطاه ولا استعطاه ؟ وفيها مع الإنجاز عطف وتكريم وإيناس بنداؤه باسمه : « ياموسى » وأي تكريم أكبر من أن يذكر الكبير المتعال اسم عبد من العباد ؟

وإلى هنا كفاية وفضل من التكريم والعطف والإيناس . وقد طال التجلي ؛ وطال النجاء ؛ وأجيب السؤل وقضيت الحاجة .. ولكن فضل الله لا خازن له ، ورحمة الله لا ممسك لها . فهو يغمر عبده بمزيد من فضله وفيض من رضاه ، فيستبقيه في حضرته ، ويمد في نجائه وهو يذكره بسابق نعمته ، ليزيده اطمئناناً وأنساً بموصول رحمته وقديم رعايته . وكل لحظة تمر وهو في هذا المقام الوضيء هي متاع ونعمى وزاد ورصيد .

« ولقد مننا عليك مرة أخرى . إذ أوحينا إلى أمك مايوحى . أن اقدفيه في التابوت فاقدفيه في اليم . فليلقه اليم بالساحل ، يأخذه عدو لي وعدو له . وألقيت عليك محبة مني ، ولتصنع على عيني . إذ تمشي أختك فتقول : هل أدلكم على من يكفله ؟ فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها ولا تحزن . وقتلت نفساً فنجيناك من الغم وفتناك فتونا ، فلثت سنين في أهل مدين . ثم جئت على قدر ياموسى . واصطنعتك لنفسى ... » .

إن موسى - عليه السلام - ذاهب لمواجهة أقوى ملك في الأرض وأطغى جبار . إنه ذاهب لخوض معركة الإيمان مع الطغيان . إنه ذاهب إلى خضم من الأحداث والمشكلات مع فرعون أول الأمر ؛ ثم مع قومه بني إسرائيل وقد أذهم الاستعباد الطويل وأفسد فطرتهم ، وأضعف استعدادهم للمهمة التي هم منتدبون لها بعد الخلاص . فربه يطلعه على أنه لن يذهب غفلاً من التهيؤ والاستعداد . وأنه لم يرسل إلا بعد التهيئة والإعداد . وأنه صنع على عين الله منذ زمان ، ودرّب على المشاق وهو طفل رضيع ، ورافقته العناية وسهرت عليه وهو صغير ضعيف . وكان تحت سلطان فرعون وفي متناوله وهو مجرد من كل عدة ومن كل قوة فلم تمتد إليه يد فرعون ، لأن يد القدرة كانت تسنده ، وعين القدرة كانت ترعاه . في كل خطاه . فلا عليه اليوم من فرعون ، وقد بلغ أشده . وربّه معه . قد اصطنعه لنفسه ، واستخلصه واصطفاه .

« ولقد مننا عليك مرة أخرى » .. فالمنة قديمة ممتدة مطردة ، سائرة في طريقها معك منذ زمان . فلا انقطاع لها إذن بعد التكليف الآن .

لقد مننا عليك إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى ، وألهمناها ما يلهم في مثل حالها .. ذلك الإلهام :

« أن اقدفيه في التابوت فاقدفيه في اليم فليلقه اليم بالساحل » ..

حركات كلها عنف وكلها خشونة .. قذف في التابوت بالطفل . وقذف في اليم بالتابوت . وإلقاء للتابوت على الساحل .. ثم ماذا ؟ أين يذهب التابوت المقذوف فيه بالطفل المقذوف في اليم الملقى به على الساحل . من يتسلمه ؟ « عدو لي وعدو له » .

وفي زحمة هذه المخاوف كلها . وبعد تلك الصدمات كلها . ماذا ؟ ما الذي حدث للطفل الضعيف المجرد من كل قوة ؟ ما الذي جرى للتابوت الصغير المجرد من كل وقاية ؟

« وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني » !! !

يا للقدرة القادرة التي تجعل من المحبة الهينة اللينة درعاً تتكسر عليها الضربات وتتحطم عليه الأمواج . وتعجز قوى الشر والطغيان كلها أن تمس حاملها بسوء ؛ ولو كان طفلاً رضيعاً لا يصول ولا يجول بل لا يملك أن يقول ...

إنها مقابلةٌ عجيبةٌ في تصوير المشهد . مقابلة بين القوى الجبارة الطاغية التي ترصد بالطفل الصغير ، والخشونة القاسية فيما يحيط به من ملابس و ظروف . . والرحمة اللينة اللطيفة تحرسه من المخاوف ، وتقيه من الشدائد وتلفه من الخشونة ، ممثلة في المحبة لا في صيال أو نزال : « ولتصنع على عيني » . . وما من شرح يمكن أن يضيف شيئاً إلى ذلك الظل الرفيق اللطيف العميق الذي يلقبه التعبير القرآني العجيب : « ولتصنع على عيني » وكيف يصف لسان بشري ، خلقاً يصنع على عين الله ؟ إن قصارى أي بشري أن يتأمله ويتملاه . . إنها منزلة وإنها كرامة أن ينال إنسان لحظة من العناية . فكيف بمن يصنع صنعاً على عين الله ؟ إنه بسبب من هذا أطاق موسى أن يتلقى ذلك العنصر العلوي الذي تلقاه .

ولتصنع على عيني . تحت عين فرعون - عدوك وعدوي - وفي متناول يده بلا حارس ولا مانع ولا مدافع . ولكن عينه لا تمتد إليك بالشر لأي ألقيت عليك محبة مني . ويده لا تتالك بالضر وأنت تصنع على عيني . ولم أحطك في قصر فرعون ، بالرعاية والحماية وأدع أمك في بيتها للقلق والخوف . بل جمعتك بها وجمعتها بك :

« إذ تمشي أختك فتقول : هل أدلكم على من يكفله ؟ فرجعناك إلى أمك كي تفر عينها ولا تحزن » . . وكان ذلك من تدبير الله . إذ جعل الطفل لا يقبل ثدي المرضعات . وفرعون وزوجه وقد تبنيا الطفل الذي ألقاه اليم بالساحل - مما لا يفصله السياق كما يفصله في موضع آخر - يبغثان له عن مرضع . فيتسامع الناس وتروح أخت موسى بإيحاء من أمها تقول لهم : هل أدلكم على من يكفله ؟ وتجيء لهم بأمه فيلقم ثديها . وهكذا يتم تدبير الله للطفل وأمّه التي سمعت الإلهام فقذفت بفلذة كبدها في التابوت ، وقذفت بالتابوت في اليم ، فألقاه اليم بالساحل . ليأخذه عدو الله وله ، فيكون الأمان بإلقائه بين هذه المخاوف ، وتكون النجاة من فرعون الذي كان يذبح أطفال بني إسرائيل . بإلقائه بين يدي فرعون بلا حارس ولا معين !

ومنة أخرى : « وقتلت نفساً فنجيناك من الغم ، وقتناك فتونا فلبثت سنين في أهل مدين ثم جئت على قدر ياموسى . واصطنعتك لنفسى » . .

ذلك حين كبر وشب في قصر فرعون ، ثم نزل المدينة يوماً فوجد فيها رجلين يقتتلان أحدهما إسرائيلي والآخر مصري ، فاستعانه الإسرائيلي فوكز المصري بيده فخر صريعاً . ولم يكن بنوي قتله إنما كان بنوي دفعه . فامتلات نفسه بالغم على هذه الفعلة - وهو المصنوع على عين الله منذ نشأته ؛ وتخرج ضميره وتأثم من اندفاعه . . فربه يذكره هنا بنعمته عليه ، إذ هداه إلى الاستغفار فشرح صدره بهذا ونجاه من الغم . ولم يتركه مع هذا بلا ابتلاء ليريبه ويعده لما أراد ؛ فامتحنه بالخوف والهرب من القصاص ؟ وامتحنه بالغربة ومفارقة الأهل والوطن ؛ وامتحنه بالخدمة ورعي الغنم ، وهو الذي تربى في قصر أعظم ملوك الأرض ، وأكثرهم ترفاً ومتاعاً وزينة . .

وفي الوقت المقدر . عندما نضج واستعد ، وابتلي فثبت وصبر ؛ وامتحن فجاز الامتحان . وتهيأت الظروف كذلك والأحوال في مصر ، وبلغ العذاب ببني إسرائيل مداه . .

في ذلك الوقت المقدر في علم الله جيء بموسى من أرض مدين ، وهو يظن أنه هو جاء : « فلبثت سنين في أهل مدين ثم جئت على قدر ياموسى » .

جئت في الوقت الذي قدرته لمجيئك . . « واصطنعتك لنفسى » خالصاً مستخلصاً محضاً لي ولرسالتي ودعوتي . . ليس بك شيء من هذه الدنيا ولا هذه الدنيا . إنما أنت للمهمة التي صنعتك على عيني لها واصطنعتك

لتؤديها . فالك في نفسك شيء . وما لأهلك منك شيء ، وما لأحد فيك شيء . فامض لما اصطنعتك له :
« اذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تنيا في ذكرى . اذها إلى فرعون إنه طغى . فقولا له : قولاً لينا لعله
يتذكر أو يخشى » ..

اذها أنت وأخوك مزودين بآياتي وقد شهد منها آية العصا وآية اليد - ولا تنيا في ذكرى فهو عدتكما
وسلاحكما وسندكما الذي تأويان منه إلى ركن شديد .. اذها إلى فرعون . وقد حفظتكم من شره من قبل .
وأنت طفل وقد قذفت في التابوت ، فقذفت التابوت في اليم ، فألقاه اليم بالساحل ، فلم تضرك هذه الخشونة ،
ولم تؤذك هذه المخاوف . فالآن أنت معد مهياً ، ومعك أخوك . فلا عليك وقد نجوت مما هو أشد ، في ظروف
أسوأ وأعنف .

اذها إلى فرعون فقد طغى وتجبر وعتا « فقولا له قولاً لينا » فالقول اللين لا يثير الغزة بالإثم ؛ ولا يهيج
الكبرياء الزائف الذي يعيش به الطغاة . ومن شأنه أن يوقظ القلب فيتذكر ويخشى عاقبة الطغيان .
اذها إليه غير يائسين من هدايته ، راجيين أن يتذكر ويخشى . فالداعية الذي يأس من اهتداء أحد بدعوته
لا يبلغها بحرارة ، ولا يثبت عليها في وجه الجحود والإنكار .

وإن الله ليعلم ما يكون من فرعون . ولكن الأخذ بالأسباب في الدعوات وغيرها لا بد منه . والله يحاسب
الناس على ما يقع منهم بعد أن يقع في عالمهم . وهو عالم بأنه سيكون . فعلمه تعالى بمستقبل الحوادث كعلمه
بالحاضر منها والماضي في درجة سواء .

* * *

وإلى هنا كان الخطاب لموسى - عليه السلام - وكان المشهد هو مشهد المناجاة في الفلاة . وهنا يطوي السياق
المسافات والأبعاد والأزمان ، فإذا هارون مع موسى . وإذا هما معاً يكشفان لربهما عن خوفهما من مواجهة
فرعون ، ومن التسرع في أذاه ، ومن طغيانه إذا دعواه :

« قال : ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى . قال : لا تخافا إني معكما أسمع وأرى . فأتياه فقولا :
إنا رسول ربك فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم . قد جئناك بآية من ربك . والسلام على من اتبع الهدى .
إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى » .

وهارون لم يكن مع موسى قطعاً في موقف المناجاة الطويل - الذي تفضل المنعم فيه على عبده ، فأطال له
فيه النجاء ، وبسط له في القول ، وأوسع له في السؤال والجواب - فردهما معاً بقولهما : « إننا نخاف أن
يفرط علينا أو أن يطغى » لم يكن في موقف المناجاة . إنما هو السياق القرآني يطوي الزمان والمكان ، ويترك
فجوات بين مشاهد القصص ، تعلم من السياق ليصل مباشرة إلى المواقف الحية الموحية ذات الأثر في سير
القصص وفي وجدان الناس .

ولقد اجتمع موسى وهارون عليهما السلام إذن بعد انصراف موسى من موقف المناجاة بجانب الطور .
وأوحى الله إلى هارون بمشاركة أخيه في دعوة فرعون ثم هاهما ذان يتوجهان إلى ربهما بمخاوفهما : « قال :
ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى » ..

والفرط هو التسرع بالأذى للوهلة الأولى ، والطغيان أشمل من التسرع وأشمل من الأذى . وفرعون
الجبار يومئذ لا يتحرج من أحدهما أو كليهما .

هنا يجيئها الرد الحاسم الذي لا خوف بعده ، ولا خشية معه :
« قال : لا تخافا إني معكما أسمع وأرى » ..

إني معكما .. إنه القوي الجبار الكبير المتعال . إنه الله القاهر فوق عباده . إنه موجد الأكوان والحيوات والأفراد والأشياء بقوله : كن . ولا زيادة .. إنه معهما .. وكان هذا الإجمال يكفي . ولكنه يزيدهما طمأنينة ، ولمسا بالحس للمعونة : « أسمع وأرى .. » فما يكون فرعون وما يملك وما يصنع حين يفرط أو يطغى ؟ والله معهما يسمع ويرى ؟

ومع الطمأنينة الهداية إلى صورة الدعوة وطريق الجدال :

« فأتيه فقولا : إنا رسولا ربك . فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم . قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى . إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى » ..

إنه البدء بإيضاح قاعدة رسالتهم : « إنا رسولا ربك » ليشعر منذ اللحظة الأولى بأن هناك إلهاً هو ربه . وهو رب الناس . فليس هو إلهاً خاصاً بموسى وهارون أو ببني إسرائيل ، كما كان سائداً في خرافات الوثنية يومذاك أن لكل قوم إلهاً أو آلهة ؛ ولكل قبيل إلهاً أو آلهة . أو كما كان سائداً في بعض العصور من أن فرعون مصر إله يعبد فيها لأنه من نسل الآلهة .

ثم إيضاح لموضوع رسالتهم : « فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم » .. ففي هذه الحدود كانت رسالتهم إلى فرعون . لاستنقاذ بني إسرائيل ، والعودة بهم إلى عقيدة التوحيد ، وإلى الأرض المقدسة التي كتب الله لهم أن يسكنوها (إلى أن يفسدوا فيها ، فيدمرهم تدميراً) .

ثم استشهاد على صدقهما في الرسالة : « قد جئناك بآية من ربك » تدل على صدقنا في مجيئنا إليك بأمر ربك ، في هذه المهمة التي حددناها .

ثم ترغيب واستمالة : « والسلام على من اتبع الهدى » : فلعله منهم يتلقى السلام ويتبع الهدى . ثم تهديد وتحذير غير مباشرين كي لا يثيرا كبرياءه وطمغيانه : « إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى » .. فلعله لا يكون ممن كذب وتولى !

هكذا ألقى الله الطمأنينة على موسى وهارون . وهكذا رسم لهما الطريق . ودبر لهما الأمر . ليمضيا آمنين عارفين هادين .

وهنا يسدل الستار ليرفع . فإذا هما أمام الطاغية في حوار وجدال .

* * *

لقد أتيا فرعون - والسياق لا يذكر كيف وصلا إليه - أتياه وربهما معهما يسمع ويرى . فأية قوة وأي سلطان هذا الذي يتكلم به موسى وهارون ، كائنا فرعون ما كان ؛ ولقا أبلغاه ما أمرهما ربهما بتبليغه . والمشهد هنا يبدأ بما دار بينه وبين موسى - عليه السلام - من حوار :

« قال : فن ربكما يا موسى ! قال : ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » ..

إنه لا يريد أن يعترف بأن رب موسى وهارون هو ربه ، كما قال له : « إنا رسولا ربك » فهو يسأل موجهاً الكلام إلى موسى لما بدا له أنه هو صاحب الدعوى : « فن ربكما يا موسى ؟ » من ربكما الذي تتكلمان باسمه وتطلبان اطلاق بني إسرائيل ؟

فأما موسى - عليه السلام - فيرد بالصفة المبدعة المنشئة المدبرة من صفات الله تعالى : « قال : ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » .. ربنا الذي وهب الوجود لكل موجود في الصورة التي أوجده بها وفطره عليها . ثم هدى كل شيء إلى وظيفته التي خلقه لها ؛ وأمهده بما يناسب هذه الوظيفة ويعينه عليها . وثم هنا ليست للتراخي الزمني . فكل شيء مخلوق ومعه الاهتمام الطبيعي الفطري للوظيفة التي خلق لها ، وليس هناك افتراق زمني بين خلق المخلوق وخلق وظيفته . إنما هو التراخي في الرتبة بين خلق الشيء واهتمامه إلى وظيفته ؛ فهداية كل شيء إلى وظيفته مرتبة أعلى من خلقه غفلاً ..

وهذا الوصف الذي يحكيه القرآن الكريم عن موسى - عليه السلام - يلخص آثار الألوهية الخالقة المدبرة لهذا الوجود : هبة الوجود لكل موجود .. وهبة خلقه على الصورة التي خلق بها . وهبة هدايته للوظيفة التي خلق لها .. وحين يجول الإنسان ببصره وبصيرته - في حدود ما يطيق - في جنبات هذا الوجود الكبير تتجلى له آثار تلك القدرة المبدعة المدبرة في كل كائن صغير أو كبير . من الذرة المفردة إلى أضخم الأجسام ، ومن الخلية الواحدة إلى أرقى أشكال الحياة في الإنسان .

هذا الوجود الكبير المؤلف مما لا يحصى من الذرات والخلايا ، والخلائق والأحياء ؛ وكل ذرة فيه تنبض ، وكل خلية فيه تحيا ، وكل حي فيه يتحرك ، وكل كائن فيه يتفاعل أو يتعامل مع الكائنات الأخرى .. وكلها تعمل منفردة ومجمعة داخل إطار النواميس المودعة في فطرتها وتكوينها بلا تعارض ولا خلل ولا فتور في لحظة من اللحظات !

وكل كائن بمفرده كون وحده وعالم بذاته ، تعمل في داخله ذراته وخلاياه وأعضاؤه وأجهزته وفق الفطرة التي فطرت عليها ، داخل حدود الناموس العام ، في توافق وانتظام .

وكل كائن بمفرده - ودعك من الكون الكبير - يقف علم الإنسان وجهده قاصراً محدوداً في دراسة خواصه ووظائفه وأمراضه وعلاجه . دراستها مجرد دراسة لا خلقها ولا هدايتها إلى وظائفها ، فذلك خارج كلية عن طوق الإنسان . وهو خلق من خلق الله .. وهبه وجوده ، على الهيئة التي وجد بها ؟ للوظيفة التي خلق لها ، كأبي شيء من هاته الأشياء !

إلا أنه للإله الواحد .. ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ..

وثني فرعون بسؤال آخر :

« قال : فما بال القرون الأولى ؟ » .

ما شأن القرون التي مضت من الناس ؟ أين ذهب ؟ ومن كان ربها ؟ وما يكون شأنها وقد هلك لا تعرف إلهها هذا ؟

« قال : علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى » ..

بهذا أحال موسى ذلك الغيب البعيد في الزمان ، الخافي عن العيان ، إلى ربه الذي لا يفوت علمه شيء ولا ينسى شيئاً . فهو الذي يعلم شأن تلك القرون كله . في ماضيها وفي مستقبلها . والغيب لله والتصرف في شأن البشر لله .

ثم يستطرد فيعرض على فرعون آثار تدبير الله في الكون وآلائه على بني الإنسان . فيختار بعض هذه الآثار المحيطة بفرعون ، المشهودة له في مصر ذات التربة الخصبة والماء الوفور والزرع والأنعام :

« الذي جعل لكم الأرض مهداً ، وسلك لكم فيها سبلاً ، وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى . كلوا وارعوا أنعامكم . إن في ذلك لآيات لأولي النهى » ..

والأرض كلها مهد للبشر في كل مكان وزمان . مهد كمهد الطفل . وما البشر إلا أطفال هذه الأرض . يضمهم حضنها ويغذوهم درها ! وهي ممهدة لهم كذلك للسير والحراث والزرع والحياة . جعلها الخالق المدبر كذلك يوم أعطى كل شيء خلقه . فأعطى هذه الأرض خلقها على الهيئة التي خلقت بها صالحة للحياة التي قدرها فيها ؛ وأعطى البشر خلقهم كذلك على الهيئة التي خلقهم بها صالحين للحياة في هذه الأرض التي مهدها لهم وجعلها مهدهم .. المعنيان متقاربان متصلان .

وصورة المهد وصفة التمهيد لا تبدو في بقعة من الأرض كما تبدو في مصر . ذلك الوادي الخصيب الأخضر السهل الممهد الذي لا يحوج أهله إلا إلى أيسر الكد في زرعه وجناه . وكأنما هو المهد الحاني على الطفل يضمه ويرعاه

والخالق المدبر الذي جعل الأرض مهداً ، شق للبشر فيها طرقاً وأنزل من السماء ماء . ومن ماء المطر تتكون الأنهار وتفيض - ومنها نهر النيل القريب من فرعون - فيخرج النبات أزواجاً من أجناس كثيرة . ومصر أظهر نموذج لإخراج النبات لطعام الإنسان ورعي الحيوان .

وقد شاء الخالق المدبر أن يكون النبات أزواجاً كسائر الأحياء . وهي ظاهرة مطردة في الأحياء كلها . والنبات في الغالب يحمل خلايا التذكير ، وخلايا التأنيث في النبتة الواحدة وأحياناً يكون اللقاح في نبتة ذكر منفردة كما هو الحال في الفصائل الحيوانية . وبذلك يتم التناسق في نواميس الحياة ويطرد في كل الفصائل والأنواع .. « إن في ذلك لآيات لأولي النهى » .. وما من عقل مستقيم يتأمل هذا النظام العجيب ثم لا يطلع فيه على آيات تدل على الخالق المدبر الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ..

ويكمل السياق حكاية قول موسى بقول مباشر من الله جل وعلا :

« منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى . ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى » .

من هذه الأرض التي جعلناها لكم مهداً وسلكناكم فيها سبلاً وأنزلنا من السماء ماء فأنبئتنا به أزواجاً من نبات شتى ، للأكل والمرعى .. من هذه الأرض خلقناكم ، وفي هذه الأرض نعيدكم ، ومنها نخرجكم بعد موتكم .

والإنسان مخلوق من مادة هذه الأرض . عناصر جسمه كلها من عناصرها إجمالاً . ومن زرعتها يأكل ، ومن مائها يشرب ، ومن هوائها يتنفس . وهو ابنها وهي له مهد . وإليها يعود جثة تطويها الأرض ، ورفاتاً يختلط بترابها ، وغازاً يختلط بهوائها . ومنها يبعث إلى الحياة الأخرى ، كما خلق في النشأة الأولى .

وللتذكير بالأرض هنا مناسبة في مشهد الحوار مع فرعون الطاغية المتكبر ، الذي يتسامى إلى مقام الربوبية ؛ وهو من هذه الأرض وإليها ! وهو شيء من الأشياء التي خلقها الله في الأرض وهداها إلى وظيفتها .. « ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى » أريناه الآيات الكونية التي وجهه إليها موسى - عليه السلام - فيما حوله ، وآيتي العصا واليد يجمعهما هنا لأنهما بعض آيات الله ، وما في الكون منها أكبر وأبقى . لذلك لا يفصل السياق هنا عرض هاتين الآيتين على فرعون ، فهذا مفهوم ضمناً ، إنما يفصل رده على الآيات كلها ففهم أنه يشير إليهما ..

« قال : أجبنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى ؟ فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعداً

لا تخلفه نحن ولا أنت ، مكاناً سوى . قال : موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى ..
وهكذا لم يمض فرعون في الجدل ، لأن حجة موسى - عليه السلام - فيه واضحة وسلطانه فيه قوي ،
وهو يستمد حجته من آيات الله في الكون ، ومن آياته الخاصة معه .. إنما لجأ إلى اتهام موسى بالسحر الذي
يجعل العصا حية تسعى ، ويحيل اليد بيضاء من غير سوء . وقد كان السحر أقرب خاطر إلى فرعون لأنه
منتشر في ذلك الوقت في مصر ؛ وهاتان الآيتان أقرب في طبيعتهما إلى المعروف من السحر .. وهو تخييل
لا حقيقة ، وخداع للبصر والحواس ، قد يصل إلى خداع الإحساس ، فينشئ فيه آثاراً محسوسة كآثار
الحقيقة . كما يشاهد من رؤية الإنسان لأشياء لا وجود لها ، أو في صورة غير صورتها . وما يشاهد من تأثير
المسحور أحياناً تأثيرات عصبية وجسدية كما لو كان الأثر الواقع عليه حقيقة .. وليس من هذا النوع آيتا
موسى . إنما هما من صنع القدرة المبدعة المحولة للأشياء حقاً . تحويلاً وقتياً أو دائماً .
« قال : أجبثنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسى ؟ » .

ويظهر أن استعباد بني إسرائيل كان إجراءً سياسياً خوفاً من تكاثرهم وغلبتهم . وفي سبيل الملك والحكم
لا يتحرج الطغاة من ارتكاب أشد الجرائم وحشية وأشنعها بربرية وأبعدها عن كل معاني الإنسانية وعن الخلق
والشرف والضمير . ومن ثم كان فرعون يستأصل بني إسرائيل ويذلم بقتل المواليد الذكور . واستبقاء الإناث ؛
وتسخير الكبار في الشاق المهلك من الأعمال .. فلما قال له موسى وهارون : أرسل معنا بني إسرائيل ولا
تعذبهم . قال : « أجبثنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسى ؟ » لأن إطلاق بني إسرائيل تمهيد للاستيلاء
على الحكم والأرض .

وإذا كان موسى يطلب إطلاق بني إسرائيل لهذا الغرض ، وكل ما يقدمه هو عمل من أعمال السحر ،
فما أسهل الرد عليه : « فلنأتينك بسحر مثله » .. وهكذا يفهم الطغاة أن دعوى أصحاب العقائد إنما تخفي
وراءها هدفاً من أهداف هذه الأرض ؛ وأنها ليست سوى ستار للملك والحكم .. ثم هم يرون مع أصحاب
الدعوات آيات ، إما خارقة كآيات موسى ، وإما مؤثرة في الناس تأخذ طريقها إلى قلوبهم وإن لم تكن من
الخوارق . فإذا الطغاة يقابلونها بما يماثلها ظاهرياً .. سحر نأتي بسحر مثله ! كلام نأتي بكلام من نوعه !
صلاح نتظاهر بالصلاح ! عمل طيب نرأي بعمل طيب ! ولا يدركون أن للعقائد رصيلاً من الإيمان ،
ورصيلاً من عون الله ؛ فهي تغلب بهذا وبذاك ، لا بالظواهر والأشكال !

وهكذا طلب فرعون إلى موسى تحديد موعد للمباراة مع السحرة .. وترك له اختيار ذلك الموعد : للتحدي :
« فاجعل بيننا وبينك موعداً » وشدد عليه في عدم إخلاف الموعد زيادة في التحدي « لا تخلفه نحن ولا أنت » .
وأن يكون الموعد في مكان مفتوح مكشوف : « مكاناً سوى » مبالغة في التحدي !

وقبل موسى - عليه السلام - تحدي فرعون له ؛ واختار الموعد يوم عيد من الأعياد الجامعة ، يأخذ فيه
الناس في مصر زينتهم ، ويتجمعون في الميادين والأمكنة المكشوفة ؛ « قال : موعدكم يوم الزينة » . وطلب
أن يجمع الناس ضحى ، ليكون المكان مكشوقاً والوقت ضاحياً . فقابل التحدي بمثله وزاد عليه اختيار
الوقت في أوضح فترة من النهار وأشدها تجمعاً في يوم العيد . لا في الصباح الباكر حيث لا يكون الجميع
قد غادروا البيوت . ولا في الظهيرة فقد يعوقهم الحر ، ولا في المساء حيث يمنعهم الظلام من التجمع أو
من وضوح الرؤية .. !!

وانتهى المشهد الأول من مشاهد اللقاء بين الإيمان والطغيان في الميدان ..

وهنا يسدل الستار ليرفع على مشهد المباراة :

* * *

« فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى » ..

ويجمل السياق في هذا التعبير كل ما قاله فرعون وما أشار به الملأ من قومه ، وما دار بينه وبين السحرة من تشجيع وتحميس ووعد بالمكافأة ، وما فكر فيه وما دبر هو ومستشاروه .. يجمله في جملة : فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى . وتصور تلك الآية الواحدة القصيرة ثلاث حركات متواليات : ذهاب فرعون ، وجمع كيده ، والإتيان به .

ورأى موسى - عليه السلام - قبل الدخول في المباراة أن يبذل لهم النصيحة ، وأن يحذرهم عاقبة الكذب والافتراء على الله ، لعلهم يثوبون إلى الهدى ، ويدعون التحدي بالسحر والسحر افتراء :

« قال لهم موسى : ويلكم ! لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم^١ بعذاب ، وقد خاب من افترى » .

والكلمة الصادقة تلمس بعض القلوب وتنفذ فيها . ويبدو أن هذا الذي كان ؛ فقد تأثر بعض السحرة بالكلمة المخلصة ، فتلجلج في الأمر ؛ وأخذ المصريون على المباراة يجادلونهم همساً خيفة أن يسمعهم موسى :

« فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى » ..

وجعل بعضهم يحمس بعضاً ، وراحوأ يهيجون في المتردين الخوف من موسى وهارون ، اللذين يريدان الاستيلاء على مصر وتغيير عقائد أهلها ؛ مما يوجب مواجهتهما بدأً واحدة بلا تردد ولا نزاع . واليوم هو يوم المعركة الفاصلة والذي يغلب فيها الفالح الناجح :

« قالوا : إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى . فأجمعوا كيدكم ثم أتوا صفأً . وقد أفلح اليوم من استعلى » ..

وهكذا تنزل الكلمة الصادقة الواحدة الصادرة عن عقيدة ، كالقذيفة في معسكر المبطلين وصفوفهم ، فتزعزع اعتقادهم في أنفسهم وفي قدرتهم ، وفي ما هم عليه من عقيدة وفكرة . وتحتاج إلى مثل هذا التحميس والتشجيع . وموسى وأخوه رجلان اثنان ، والسحرة كثيرون ، ووراءهم فرعون وملكه وجنده وجبروته وماله .. ولكن موسى وهارون كان معهما ربهما يسمع ويرى ..

ولعل هذا هو الذي يفسر لنا تصرف فرعون الطاغية المتجبر ، وموقف السحرة ومن ورائهم فرعون . فمن هو موسى ومن هو هارون من أول الأمر حتى يتحداهما فرعون ويقبل تحديهما ؛ ويجمع كيده ثم يأتي ؛ ويحشر السحرة ويجمع الناس ؛ ويجلس هو والملأ من قومه ليشهدوا المباراة ؟ وكيف قبل فرعون أن يجادله موسى ويطاولة ؟ وموسى فرد من بني إسرائيل المستعبدين المستذلين تحت قهره ؟ .. إنها الهيبة التي ألقاها الله على موسى وهارون وهو معهما يسمع ويرى ..

وهي كذلك التي جعلت جملة واحدة توقع الارتباك في صفوف السحرة المدربين ، فتحوجهم إلى التناجي سراً ؛ وإلى تجسيم الخطر ، واستثارة الهمم ، والدعوة إلى التجمع والترابط والثبات .

ثم أقدموا :

(١) يهلككم ويستأصلكم .

« قالوا : يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى » ..

وهي دعوة الميدان إلى التزال . يبدو فيها التماسك وإظهار النصفة والتحدي .
« قال : بل ألقوا » ..

فقبل التحدي ، وترك لهم فرصة البدء ، واستبقى لنفسه الكلمة الأخيرة .. ولكن ماذا ؟ إنه لسحر عظيم فيما يبدو ، وحركة مفاجئة ماجت بها الساحة حتى موسى :

« فإذا جبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى . فأوجس في نفسه خيفة موسى » ،
والتعبير يشي بعظمة ذلك السحر وضخامته حتى ليوجس في نفسه خيفة موسى ، ومعه ربه يسمع ويرى .
وهو لا يوجس في نفسه خيفة إلا لأمر جليل ينسبه لحظة أنه الأقوى ، حتى يذكره ربه بأن معه القوة الكبرى :
« قلنا : لا تخف . إنك أنت الأعلى . وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا . إن ما صنعوا كيد ساحر ، ولا يفلح الساحر حيث أتى » ..

لا تخف إنك أنت الأعلى . فعك الحق ومعهم الباطل . معك العقيدة ومعهم الحرقة . معك الإيمان بصدق ما أنت عليه ومعهم الأجر على المباراة ومغانم الحياة . أنت متصل بالقوة الكبرى وهم يخدمون مخلوقاً بشرياً فانياً مهما يكن طاغية جباراً .

لا تخف « وألق ما في يمينك » بهذا التنكير للتضخيم « تلقف ما صنعوا » . فهو سحر من تديير ساحر وعمله .
والساحر لا يفلح أنى ذهب وفي أي طريق سار ، لأنه يتبع تخيلاً ويصنع تخيلاً ؛ ولا يعتمد على حقيقة ثابتة باقية . شأنه شأن كل مبطل أمام القائم على الحق المعتمد على الصدق . وقد يبدو باطله ضخماً فخماً ، مخيفاً لمن يغفل عن قوة الحق الكامنة الهائلة التي لا تتبخر ولا تتناول ولا تتظاهر ؛ ولكنها تدمغ الباطل في النهاية ، فإذا هو زاهق وتلقفه فتطويه ، فإذا هو يتوارى .

وألقى موسى .. ووقعت المفاجأة الكبرى . والسياق يصور ضخامة المفاجأة بوقعها في نفوس السحرة الذين جاءوا للمباراة فهم أحرص الناس على الفوز فيها ، والذين كانوا منذ لحظة يحمس بعضهم بعضاً ويدفع بعضهم بعضاً . والذين بلغت بهم البراعة في فهمهم إلى حد أن يوجس في نفسه خيفة موسى .

ويخيل إليه - وهو الرسول - أن جبالهم وعصيهم حيات تسعى ! يصور السياق وقع المفاجأة في نفوسهم في صورة تحول كامل في مشاعرهم ووجدانهم ، لا يسعفهم الكلام للتعبير عنه ؛ ولا يكفي النطق للإفشاء به :
« فألقى السحرة سجداً . قالوا : آمنا برب هارون وموسى » ..

إنها اللمسة تصادف العصب الحساس فينتفض الجسم كله . وتصادف « الزر » الصغير فينبعث النور ويشرق الظلام . إنها لمسة الإيمان للقلب البشري تحوله في لحظة من الكفر إلى الإيمان .

ولكن أنى للطاعة أن يدركوا هذا السر اللطيف ؟ أنى لهم أن يدركوا كيف تتقلب القلوب ؟ وهم قد نسوا لطول ما طغوا وبغوا ، ورأوا الأتباع ينقادون لإشارة منهم ، نسوا أن الله هو مقلب القلوب ؛ وأنها حين تتصل به وتستمد منه وتشرق بنوره لا يكون لأحد عليها سلطان :

« قال : آمنت له قبل أن آذن لكم ؟ إنه لكبيركم الذي علمكم السحر ، فلاقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل ، ولتعلمن أننا أشد عذاباً وأبقى » .

« آمنت له قبل أن آذن لكم » .. قوله الطاغية الذي لا يدرك أنهم هم أنفسهم لا يملكون - وقد لمس الإيمان

قلوبهم - أن يدفعوه عنها ، والقلب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقبله كيف يشاء .
 « إنه لكبيركم الذي علمكم السحر » . . فذلك سر الاستسلام في نظره ، لا أنه الإيمان الذي دب في قلوبهم
 من حيث لا يحتسبون . ولا أنها يد الرحمن تكشف عن بصائرهم غشاوة الضلال .
 ثم التهديد الغليظ بالعذاب الغليظ الذي يعتمد عليه الطغاة ؛ ويسلطونه على الجسوم والأبدان حين يعجزون
 عن قهر القلوب والأرواح : « فلاقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ، ولأصلبنكم في جذوع النخل » .
 ثم الاستعلاء بالقوة الغاشمة . قوة الوحوش في الغابة . القوة التي تمزق الأحشاء والأوصال ، ولا تفرق
 بين إنسان يقرع بالحجة وحيوان يقرع بالناب : « ولتلعمن أينا أشد عذاباً وأبقى ! »

ولكنه كان قد فات الأوان . كانت اللمسة الإيمانية قد وصلت الذرة الصغيرة بمصدرها الهائل . فإذا هي
 قوية قويمة . وإذا القوى الأرضية كلها ضئيلة ضئيلة . وإذا الحياة الأرضية كلها زهيدة زهيدة . وكانت
 قد تفتحت لهذه القلوب آفاق مشرقة وضيئة لا تبالي أن تنظر بعدها إلى الأرض وما بها من عرض زائل . ولا إلى
 حياة الأرض وما فيها من متاع تافه :

« قالوا : لن نؤثرك على ما جاءنا من البيئات والذي فطرنا ، فاقض ما أنت قاض . إنما تقضي هذه الحياة
 الدنيا . إنا آمننا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر ، والله خير وأبقى » .

إنها لمسة الإيمان في القلوب التي كانت منذ لحظة تعنو لفرعون وتعد القرى منه مغناً يتسابق إليه المتسابقون .
 فإذا هي بعد لحظة تواجهه في قوة ، وترخص ملكه وزخرفه وجاهه وسلطانه :

« قالوا : لن نؤثرك على ما جاءنا من البيئات والذي فطرنا . . » فهي علينا أعز وأغلى وهو جل شأنه أكبر
 وأعلى . « فاقض ما أنت قاض » ودونك وما تملكه لنا في الأرض . « إنما تقضي هذه الحياة الدنيا » . فسلطانك
 مقيد بها ، ومالك من سلطان علينا في غيرها . وما أقصر الحياة الدنيا ، وما أهون الحياة الدنيا . وما تملكه
 لنا من عذاب أيسر من أن يخشاه قلب يتصل بالله ، ويأمل في الحياة الخالدة أبداً . « إنا آمننا بربنا ليغفر لنا
 خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر » مما كنت تكلفنا به فلا نملك لك عصياناً ؛ فلعل بإيماننا بربنا يغفر لنا
 خطايانا . « والله خير وأبقى » خير قسمة وجواراً ، وأبقى مغناً وجزاء . إن كنت تهددنا بمن هو أشد وأبقى ...

وألم السحرة الذين آمنوا بربهم أن يقفوا من الطاغية موقف المعلم المستعلي :

« إنه من يأتي ربه مجرمًا فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى . ومن يأتيه مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك
 لهم الدرجات العلى . جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى » .

فإذا كان يتهددهم بمن هو أشد وأبقى . فما هي ذي صورة لمن يأتي ربه مجرمًا هي أشد عذاباً وأدوم
 « فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى » فلا هو ميت فيستريح ، ولا هو حي فيتمتع . إنما هو العذاب الذي
 لا ينتهي إلى موت ولا ينتهي إلى حياة . . وفي الجانب الآخر الدرجات العلى . . جنات للإقامة ندية بما يجري
 تحت غرفاتها من أنهار « وذلك جزاء من تزكى » وتظهر من الآثام .

وهزأت القلوب المؤمنة بهديد الطغيان الجائر ، وواجهته بكلمة الإيمان القوية . وباستعلاء الإيمان الواثق .
 وتحذير الإيمان الناصع . وبرجاء الإيمان العميق .

ومضى هذا المشهد في تاريخ البشرية إعلاناً لحرية القلب البشري باستعلائه على قيود الأرض وسلطان

الأرض ، وعلى الطمع ، في المثوبة والخوف من السلطان . وما يملك القلب البشري أن يجهر بهذا الإعلان القوي إلا في ظلال الإيمان .

وهنا يسدل الستار ليرفع على مشهد آخر وحلقة من القصة جديدة .

إنه مشهد انتصار الحق والإيمان في واقع الحياة المشهود ، بعد انتصارها في عالم الفكرة والعقيدة . فلقد مضى السياق بانتصار آية العصا على السحر ؛ وانتصار العقيدة في قلوب السحرة على الاحتراف ؛ وانتصار الإيمان في قلوبهم على الرغب والرهب ، والتهديد والوعيد . فالآن ينتصر الحق على الباطل والهدى على الضلال ، والإيمان على الطغيان في الواقع المشهود . والنصر الأخير مرتبط بالنصر الأول . فما يتحقق النصر في عالم الواقع إلا بعد تمامه في عالم الضمير ؛ وما يستعلي أصحاب الحق في الظاهر إلا بعد أن يستعلوا بالحق في الباطن . . إن للحق والإيمان حقيقة متى تجسمت في المشاعر أخذت طريقها فاستعلت ليراها الناس في صورتها الواقعية . فأما إذا ظل الإيمان مظهرًا لم يتجسم في القلب ، والحق شعارًا لا ينبع من الضمير ، فإن الطغيان والباطل قد يغلبان ، لأنهما يملكان قوة مادية حقيقية لا مقابل لها ولا كفاء في مظهر الحق والإيمان . . يجب أن تتحقق حقيقة الإيمان في النفس وحقيقة الحق في القلب ؛ فتصبح أقوى من حقيقة القوى المادية التي يستعلي بها الباطل ويصول بها الطغيان . . وهذا هو الذي كان في موقف موسى - عليه السلام - من السحر والسحرة . وفي موقف السحرة من فرعون وملئه . ومن ثم انتصر الحق في الأرض كما يعرضه هذا المشهد في سياق السورة :

« ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي ، فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً ، لا تخاف دركاً ولا تخشى . فأتبعهم فرعون يجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم ، وأضل فرعون قومه وما هدى » . .

ولا يذكر السياق هنا ما الذي كان بعد مواجهة الإيمان للطغيان في موقف السحرة مع فرعون . ولا كيف تصرف معهم بعدما اعتصموا بإيمانهم مستقبلين التهديد والوعيد بقلب المؤمن المتعلق بربه ، المستهين بحياة الأرض وما فيها ومن فيها . إنما يعقب بهذا المشهد . مشهد الانتصار الكامل ليتصل النصر القلبي بالنصر الواقعي . وتتجلى رعاية الله لعباده المؤمنين كاملة حاسمة . . ولنفس الغرض لا يطيل هنا في مشهد الخروج والوقوف أمام البحر - كما يطيل في سور أخرى - بل يبادر بعرض مشهد النصر بلا مقدمات كثيرة . لأن مقدماته كانت في الضمائر والقلوب .

وإن هو إلا الإيحاء لموسى أن يخرج بعباد الله - بني إسرائيل - ليلاً . فيضرب لهم طريقاً في البحر يبساً بدون تفصيل ولا تطويل - فنعرضه نحن كذلك كما جاء - مطمئناً إلى أن عناية الله ترعاهم فلا يخاف أن يدركه فرعون وجنوده ، ولا يخشى من البحر الذي اتخذ له طريقاً يبساً فيه ! ويد القدرة التي أجرت الماء وفق التاموس الذي أرادته قادرة على أن تكشفه بعض الوقت عن طريق يابس فيه !

« فأتبعهم فرعون يجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم . وأضل فرعون قومه وما هدى » . .

هكذا يجمل السياق كذلك ما غشي فرعون وقومه ، ولا يفصله ، ليبقى وقعه في النفس شاملاً مهولاً ؛ لا يحدده التفصيل ، وقاد فرعون قومه إلى الضلال في الحياة كما قادهم إلى الضلال والبحر . وكلاهما ضلال يؤدي إلى البوار . .

ولا نتعرض نحن لتفصيلات ما حدث في هذا الموضع ، كي نتابع السياق في حكمة الإجمال . إنما نقف أمام العبرة التي يتركها المشهد وتسمع لإيقاعه في القلوب . .

لقد تولت يد القدرة إدارة المعركة بين الإيمان والطغيان فلم يتكلف أصحاب الإيمان فيها شيئاً سوى اتباع الوحي والسرى ليلاً . ذلك أن القوتين لم تكونا متكافئتين ولا متقاربتين في عالم الواقع . . موسى وقومه ضعاف مجردون من القوة ، وفرعون وجنده يملكون القوة كلها . فلا سبيل إلى خوض معركة مادية أصلاً . هنا تولت يد القدرة إدارة المعركة . ولكن بعد أن اكتملت حقيقة الإيمان في نفوس الذين لا يملكون قوة سواها . بعد أن استعلن الإيمان في وجه الطغيان لا يخشاه ولا يرجوه ؛ لا يرهب وعيده ولا يرغب في شيء مما في يده . . يقول الطغيان : « فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل » فيقول الإيمان : « فاقض ما أنت قاض . إنما تقضي هذه الحياة الدنيا » . . عندما بلغت المعركة بين الإيمان والطغيان في عالم القلب إلى هذا الحد تولت يد القدرة راية الحق لترفعها عالية ، وتنكس راية الباطل بلا جهد من أهل الإيمان . وعبرة أخرى . .

إنه حين كان بنو إسرائيل يؤدون ضريبة الذل لفرعون وهو يقتل أبناءهم ويستحي نساءهم لم تتدخل يد القدرة لإدارة المعركة . فهم لم يكونوا يؤدون هذه الضريبة إلا ذلاً واستكابة وخوفاً . فأما حين استعلن الإيمان ، في قلوب الذين آمنوا بموسى واستعدوا لاحتمال التعذيب وهم مرفوعو الرؤوس بجمهورون بكلمة الإيمان في وجه فرعون دون تلجلج ودون تحرج ، ودون انقاء للتعذيب . فأما عند ذلك فقد تدخلت يد القدرة لإدارة المعركة . وإعلان النصر الذي تم قبل ذلك في الأرواح والقلوب . .

هذه هي العبرة التي يبرزها السياق بذلك الإجمال ، وبتتابع المشهدين بلا عائق من التفصيلات . ليستيقنها أصحاب الدعوات ، ويعرفوا متى يرتقبون النصر من عند الله وهم مجردون من عدة الأرض . والبطانة يملكون المال والجند والسلاح .

* * *

وفي ظلال النصر والنجاة يتوجه الخطاب إلى الناجين بالتذكير والتحذير ، كي لا ينسوا ولا يبطروا ؛ ولا يتجردوا من السلاح الوحيد الذي كان لهم في المعركة فضمنوا به النصر والنجاح : « يا بني إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم ؛ وواعدناكم جانب الطور الأيمن ، ونزلنا عليكم المن والسلوى . كلوا من طيبات ما رزقناكم ، ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي ، ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى . وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى » . .

لقد جازوا منطقة الخطر ، وانطلقوا ناجين ناحية الطور . وتركوا وراءهم فرعون وجنده غرقى : وإنجاؤهم من عدوهم واقع قريب يذكرونه لل لحظة فلم يمض عليه كثير : ولكنه إعلان التسجيل . والتذكير بالنعمة المشهودة ليعرفوها ويشكروها .

ومواعدهم جانب الطور الأيمن يشار إليها هنا على أنها أمر وقع ؛ وكانت مواعده لموسى - عليه السلام - بعد خروجهم من مصر ، أن يأتي إلى الطور بعد أربعين ليلة يتهاً فيها للقاء ربه ، لسمع ما يوحى إليه في الألواح من أمور العقيدة والشريعة ، المنظمة لهذا الشعب الذي كتب له دوراً يؤديه في الأرض المقدسة بعد الخروج من مصر .

وتزليل المن . وهو مادة حلوة تتجمع على أوراق الشجر . والسلوى وهو طائر السمانى يساق إليهم في الصحراء ، قريب المتناول سهل تناول ، كان نعمة من الله ومظهراً لعنايته بهم في الصحراء الجرداء . وهو يتولاهم حتى في طعامهم اليومي فييسره لهم من أقرب الموارد .

وهو يذكركم بهذه النعم لئلا تكلوا من الطيبات التي يسرها لهم ويحذركم من الطغيان فيها . بالبطنة والانصراف إلى لذائذ لبطون والغفلة عن الواجب الذي هم خارجون له ، والتكليف الذي يعدم ربهم لتلقيه . ويسميهم طغياناً وهم قريبو العهد بالطغيان ، ذاقوا منه ماذاقوا ، وأوا من نهايته مارأوا . « ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي . ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى » . . ولقد هوى فرعون منذ قليل . هوى عن عرشه وهوى في الماء . . والهوى إلى أسفل يقابل الطغيان والتعالي . والتعبير ينسق هذه المقابلات في اللفظ والظل على طريقة التناسق القرآنية الملحوظة .

هذا هو التحذير والإنذار للقوم المقدمين على المهمة التي من أجلها خرجوا ؛ كي لا تبطروهم النعمة ، ولا يترفوا فيها فيسترخوا . . وإلى جانب التحذير والإنذار يفتح باب التوبة لمن يخطيء ويرجع :

« وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى » . .

والتوبة ليست كلمة تقال ، إنما هي عزيمة في القلب ، يتحقق مدلولها بالإيمان والعمل الصالح . ويتجلى أثرها في السلوك العملي في عالم الواقع . فإذا وقعت التوبة وصح الإيمان ، وصدق العمل فهنا يأخذ الإنسان في الطريق ، على هدى من الإيمان ، وعلى ضمانته من العمل الصالح . فلا هتداء هنا ثمرة ونتيجة للمحاولة والعمل . .

وإلى هنا ينتهي مشهد النصر والتعقيب عليه . فيسدل الستار حتى يرفع على مشهد المناجاة الثانية إلى جانب الطور الأيمن . . .

* * *

لقد واعد الله موسى . عليه السلام - على الجبل معاداً ضربه له ليلقاه بعد أربعين يوماً ؛ لتلقي التكليف : تكاليف النصر بعد الهزيمة . وللنصر تكاليفه ، وللعقيدة تكاليفها ، ولا بد من تهيؤ نفسي واستعداد للتلقي . وصعد موسى إلى الجبل ، وترك قومه في أسفله ، وترك عليهم هارون نائباً عنه . .

لقد غلب الشوق على موسى إلى مناجاة ربه ، والوقوف بين يديه ، وقد ذاق حلاوتها من قبل ، فهو إليها مشتاق عجول . ووقف في حضرة مولاه . وهو لا يعلم ما وراءه ، ولا ما أحدث القوم بعده ؛ حين تركهم في أسفل الجبل .

وهنا ينبئه ربه بما كان خلفه . . فلنشهد المشهد ولنسمع الحوار :

« وما أعجلك عن قومك يا موسى ؟ قال : هم أولاء على أثري ، وعجلت إليك رب لترضى . قال : فإننا قد فتننا قومك من بعدك وأضلهم السامري » .

وهكذا فوجيء موسى . . إنه عجلان إلى ربه ، بعدما تهبأ واستعد أربعين يوماً ، ليلقاه ويتلقى منه التوجيه الذي يقيم عليه حياة بني إسرائيل الجديدة . وقد استخلصهم من الذل والاستعباد ، ليصوغ منهم أمة ذات رسالة ، وذات تكاليف .

ولكن الاستعباد الطويل والذل الطويل في ظل الفرعونية الوثنية كان قد أفسد طبيعة القوم وأضعف استعدادهم لاحتمال التكاليف والصبر عليها ، والوفاء بالعهد والثبات عليه ؛ وترك في كيانتهم النفسي خلخلة واستعداداً للانقياد والتقليد المريح . . فما يكاد موسى يتركهم في رعاية هارون ويعد عنهم قليلاً حتى تتخلخل عقيدتهم كلها وتنهار أمام أول اختيار . ولم يكن بد من اختبارات متوالية وابتلاءات متكررة لإعادة بنائهم

النفسي . وكان أول ابتلاء هو ابتلاؤهم بالعجل الذي صنعه لهم السامري : « قال : فإننا قد فتننا قومك من بعدك ، وأضلهم السامري » ولم يكن لدى موسى علم بهذا الابتلاء ، حتى لقي ربه ، وتلقى الألواح وفي نسختها هدى ، وبها الدستور التشريعي لبناء بني إسرائيل بناء يصلح للمهمة التي هم منتدبون لها .

وينهي السياق موقف المناجاة هنا على عجل وبطويه ، ليصور انفعال موسى - عليه السلام - مما علم من أمر الفتنة ، ومسارعتة بالعودة ، وفي نفسه حزن وغضب ، على القوم الذين أنقذهم الله على يديه من الاستعباد والذل في ظل الوثنية ؛ ومن عليهم بالرزق الميسر والرعاية الرحيمة في الصحراء ؛ وذكرهم منذ قليل بآلائه ، وحذرهم الضلال وعواقبه . ثم ها هم أولاء يتبعون أول ناعق إلى الوثنية ، وإلى عبادة العجل !

ولم يذكر هنا ما أخبر الله به موسى من تفصيلات الفتنة . استعجالاً في عرض موقف العودة إلى قومه . ولكن السياق يشي بهذه التفصيلات . فلقد عاد موسى غضبان أسفاً يوبخ قومه ويؤنب أخاه . فلا بد أنه كان يعلم شناعة الفعل التي أقدموا عليها :

« فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً . قال : يا قوم : ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً؟ أفتال عليكم العهد؟ أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدتي ؛ قالوا : ما أخلفنا موعدك بملكنا ، ولكننا حملنا أوزاراً من زينة القوم فقدفناها ، فكذلك ألقى السامري ، فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار ، فقالوا : هذا إلهكم وإله موسى فنسي ، أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولاً ، ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً؟ ولقد قال لهم هارون من قبل : يا قوم إنما فتنتم به ، وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري . قالوا : لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى ! » .

هذه هي الفتنة يكشف السياق عنها في مواجهة موسى بقومه ؛ وقد أخرج كشفها عن موقف المناجاة ، واحتفظ بتفصيلاتها لتظهر في مشهد التحقيق الذي يقوم به موسى ..

لقد رجع موسى ليجد قومه عاكفين على عجل من الذهب له خوار يقولون : هذا إلهكم وإله موسى . وقد نسي موسى فذهب يطلب ربه على الجبل وربه هنا حاضر !

فراح موسى يسألهم في حزن وغضب : « يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً؟ » وقد وعدهم الله بالنصر ودخول الأرض المقدسة في ظل التوحيد ؛ ولم يمض على هذا الوعد وإنجاز مقدماته طويل وقت . ويؤنبهم في استنكار : « أفتال عليكم العهد؟ أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم؟ » فعملكم هذا عمل من يريد أن يحل عليه غضب من الله كأنما يتعمد ذلك تعمداً ، ويقصد إليه قصداً ! . أفتال عليكم العهد؟ أم تعمدتم حلول الغضب « فأخلفتم موعدتي » وقد تواعدنا على أن تبقوا على عهدي حتى أعود إليكم ، لا تغيرون في عقيدتكم ولا منهجكم بغير أمري ؟

عندئذ يعتذرون بذلك العذر العجيب ، الذي يكشف عن أثر الاستعباد الطويل ، والتخلخل النفسي والسخف العقلي : « قالوا : ما أخلفنا موعدك بملكنا » فلقد كان الأمر أكبر من طاقتنا ! « ولكننا حملنا أوزاراً من زينة القوم فقدفناها » .. وقد حملوا معهم أكداً من حلي المصريات كانت عارية عند نسائهم فحملنها معهن . فهم يشيرون إلى هذه الأحمال . ويقولون : لقد قدفناها تخلصاً منها لأنها حرام . فأخذها السامري فصاغ منها عجلاً . والسامري رجل من « سامراء » كان يرافقهم أو أنه واحد منهم يحمل هذا اللقب . وجعل له منافذ إذا دارت فيها الريح أخرجت صوتاً كصوت الخوار ، ولا حياة فيه ولا روح فهو جسد - ولفظ الجسد يطلق على الجسم الذي لا حياة فيه - فما كادوا يرون عجلاً من ذهب يحور حتى نسوا ربهم الذي أنقذهم

من أرض الذل ، وعكفوا على عجل الذهب ؛ وفي بلاهة فكر وبلادة روح قالوا : « هذا إلهكم وإله موسى »
راح يبحث عنه على الجبل ، وهو هنا معنا . وقد نسي موسى الطريق إلى ربه وضل عنه !

وهي قولة تضيف إلى معنى البلادة والتفاهة اتهامهم لنبيهم الذي أنقذهم تحت عين الله وسمعه ، وبتوجيهه وإرشاده . اتهامهم له بأنه غير موصول بربه ، حتى ليضل الطريق إليه ، فلا هو يهتدي ولا ربه يهديه !

ذلك فضلاً على وضوح الخدعة : « أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولاً ، ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً ؟ »
والمقصود أنه حتى لم يكن عاجلاً حياً يسمع قولهم ويستجيب له على عادة العجول البقرية ! فهو في درجة أقل
من درجة الحيوانية . وهو بطبيعة الحال لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً في أبسط صورة . فهو لا ينطح ولا يرفس
ولا يدير طاحونة ولا ساقية !

وغير ذلك كله لقد نصح لهم هارون ، وهو نبيهم كذلك ، والنائب عن نبيهم المنقذ . ونبيهم إلى أن
هذا ابتلاء . قال : « يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن » ونصحهم باتباعه وطاعته كما تواعدوا مع موسى ،
وهو عائد إليهم بعد مياعده مع ربه على الجبل .. ولكنهم بدلاً من الاستجابة له التواو وتلمصوا من نصحه ،
ومن عهدهم لنبيهم بطاعته ، وقالوا : « لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى » ..

رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً ؛ فسمع منهم حجته التي تكشف عن مدى ما أصاب نفوسهم من
تخلخل ، وأصاب تفكيرهم من فساد . فالتفت إلى أخيه وهو في فورة الغضب ، يأخذ بشعر رأسه وبلحيته
في انفعال وثورة :

« قال : يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعن ؟ أفصيت أمري ؟ » .

يؤنبه على تركهم يعبدون العجل ، دون أن يبطل عبادته ، اتباعاً لأمر موسى - عليه السلام - بالألا يحدث
أمراً بعده ، ولا يسمح بإحداث أمر . ويستنكر عليه عدم تنفيذه ، فهل كان ذلك عصياناً لأمره ؟
وقد قرر السياق ما كان من موقف هارون . فهو يطلع أخاه عليه ؛ محاولاً أن يهديه من غضبه ، باستجاشة
عاطفة الرحم في نفسه :

« قال : يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي . إني خشيت أن تقول : فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي » .
وهكذا نجد هارون أهدأ أعصاباً وأملك لانفعاله من موسى ، فهو يلمس في مشاعره نقطة حساسة . ويحجيء
له من ناحية الرحم وهي أشد حساسية ، ويعرض له وجهة نظره في صورة الطاعة لأمره حسب تقديره ؛
وأنه خشى إن هو عالج الأمر بالعنف أن يتفرق بنو إسرائيل شيعاً ، بعضها مع العجل ، وبعضها مع نصيحة
هارون . وقد أمره بأن يحافظ على بني إسرائيل ولا يحدث فيهم أمراً . فهي كذلك طاعة الأمر من ناحية
أخرى ..

عندئذ يتجه موسى بغضبه وانفعاله إلى السامري صاحب الفتنة من أساسها . إنما لم يتوجه إليه منذ البدء ،
لأن القوم هم المسؤولون ألا يتبعوا كل ناعق ، وهارون هو المسؤول أن يحول بينهم وبين اتباعه إذا هموا بذلك
وهو قائدهم المؤمن عليهم . فأما السامري فذنبه يحجيء متأخراً لأنه لم يفتنهم بالقوة ، ولم يضرب على عقولهم ،
إنما أغواهم فغووا ، وكانوا يملكون أن يثبتوا على هدى نبيهم الأول ونصح نبيهم الثاني . فالتبعة عليهم أولاً
وعلى راعيهم بعد ذلك . ثم على صاحب الفتنة والغواية أخيراً .

اتجه موسى إلى السامري !

« قال : فما خطبك ياسامري ؟ » .. أي ما شأنك وما قصتك . وهذه الصيغة تشير إلى جسامة الأمر ، وعظم الفعلة .

« قال : بصرت بما لم يبصروا به ، فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها . وكذلك سولت لي نفسي » .. وتتكاثر الروايات حول قول السامريّ هذا . فما هو الذي بصر به ؟ ومن هو الرسول الذي قبض قبضة من أثره فنبذها ؟ وما علاقة هذا بعجل الذهب الذي صنعه ؟ وما أثر هذه القبضة فيه ؟ والذي يتردد كثيراً في هذه الروايات أنه رأى جبريل - عليه السلام - وهو في صورته التي ينزل بها إلى الأرض ؛ فقبض قبضة من تحت قدمه ، أو من تحت حافر فرسه ، فألقاها على عجل الذهب ، فكان له هذا الخوار . أو إنها هي التي أحالت كوم الذهب عجلًا له خوار ..

والقرآن لا يقرر هنا حقيقة ما حدث ، إنما هو يحكي قول السامري مجرد حكاية .. ونحن نميل إلى اعتبار هذا عذراً من السامريّ وتملصاً من تبعه ما حدث . وأنه هو صنع العجل من الذهب الذي قذفه بنو إسرائيل من زينة المصريين التي أخذوها معهم ، وأنه صنعه بطريقة تجعل الريح تصوت في فراغه فتحدث صوتاً كالخوار . ثم قال حكاية أثر الرسول يبرر بها موقفه ، ويرجع الأمر إلى فطنته إلى أثر الرسول ! وعلى أية حال فقد أعلنه موسى - عليه السلام - بالطرده من جماعة بني إسرائيل . مدة حياته . ووكل أمره بعد ذلك إلى الله . وواجهه بعنف في أمر إلهه الذي صنعه بيده . ليرى قومه بالدليل المادي أنه ليس إلهاً ، فهو لا يحمي صانعه ، ولا يدفع عن نفسه :

« قال : فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول : لا مساس . وإن لك موعداً لن تخلفه . وانظر إلى إهلك الذي ظلت عليه عاكفاً ، لنحرقته ثم لننسفنه في اليم نسفاً » ..

أذهب مطروداً لا يمسك أحد لا بسوء ولا بخير ولا تمس أحداً - وكانت هذه إحدى العقوبات في ديانة موسى . عقوبة العزل ، وإعلان دنس المدنس فلا يقربه أحد ولا يقرب أحداً - أما الموعد الآخر فهو موعد العقوبة والجزاء عند الله .. وفي حنق وعنف أمر أن يهوى على عجل الذهب ، فيحرق وينسف ويلقى في الماء . والعنف إحدى سمات موسى - عليه السلام - وهو هنا غضبة لله ولدين الله ، حيث يستحب العنف وتحسن الشدة .

وعلى مشهد الإله المزيف يحرق وينسف ، يعلن موسى - عليه السلام - حقيقة العقيدة .

« إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو . وسع كل شيء علماً » .

وينتهي بهذا الإعلان هذا القدر من قصة موسى في هذه السورة . تتجلى فيه رحمة الله ورعايته بحملة دعوته وعباده . حتى عندما يتلون فيخطئون . ولا يزيد السياق شيئاً من مراحل القصة بعد هذا ، لأنه بعد ذلك يقع العذاب على بني إسرائيل بما يرتكبون من آثام وفساد وطغيان . وجو السورة هوجو الرحمة والرعاية بالمختارين . فلا حاجة إلى عرض مشاهد أخرى من القصة في هذا الجو الظليل .

كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ^ج وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴿١١﴾ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَمْجَلُ

يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَرَأَى ﴿١٢﴾ خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ^ح وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ

يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٦٦﴾ يَخْفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٦٧﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٦٨﴾

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٦٩﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٧٠﴾ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٧١﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَعِوَجَ لَهُ^ط وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٧٢﴾ يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفِيعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴿١٧٣﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ^ه عِلْمًا ﴿١٧٤﴾ * وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ^ط وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١٧٥﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١٧٦﴾

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحَدِّثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١٧٧﴾ فَتَعَلَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ إِنْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ^ط وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١٧٨﴾

وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَى وَلَمْ نُجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١٧٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ﴿١٨٠﴾ قُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴿١٨١﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴿١٨٢﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ﴿١٨٣﴾ فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَابِيْنٍ ﴿١٨٤﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴿١٨٥﴾ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴿١٨٦﴾ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَلَمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنْي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿١٨٧﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿١٨٨﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٨٩﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى ﴿١٩٠﴾ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ^ع وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴿١٩١﴾

أَقْلَمَ بِهِ لَهُمْ كَرَّ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى ﴿١٢٨﴾
 وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى ﴿١٢٩﴾

فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ
 وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى ﴿١٣٠﴾ وَلَا تُؤْمَدَنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
 لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ
 نَزُوقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴿١٣٢﴾

وَقَالُوا لَوْلَا يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ أَوْ لَرَّ تَأْتِيهِمْ بَيِّنَةٌ مَّا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ
 قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذَلَّ وَنَحْزَى ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلُّ مَثْرَبٍ
 فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى ﴿١٣٥﴾

بدأت السورة بالحديث عن القرآن ، وأنه لم ينزل على الرسول - صلى الله عليه وسلم - ليشقى به أو بسببه . ومن القرآن قصة موسى - عليه السلام - وما يبدو فيها من رعاية الله وعنايته بموسى وأخيه وقومه . فالآن يعقب السياق على القصة بالعودة إلى القرآن ووظيفته ، وعاقبة من يعرض عنه . ويرسم هذه العاقبة في مشهد من مشاهد القيامة ، تتضاءل فيه أيام الحياة الدنيا ؛ وتتكشف الأرض من جبالها وتعري ، وتخشع الأصوات للرحمن ، وتعنو الوجوه للحجى القيوم . لعل هذا المشهد وما في القرآن من وعيد يثير مشاعر التقوى في النفوس ، ويذكرها بالله ويصلها به .. وينتهي هذا المقطع بإراحة بال الرسول - صلى الله عليه وسلم - من القلق من ناحية القرآن الذي ينزل عليه ، فلا يعجل في ترديده خوف أن ينساه ، ولا يشقى بذلك فالله ميسره وحافظه . إنما يطلب من ربه أن يزيده علماً .

وبمناسبة حرص الرسول - صلى الله عليه وسلم - على أن يردد ما يوحى إليه قبل انتهاء الوحي خشية النسيان ، يعرض السياق نسيان آدم لعهد الله . وينتهي بإعلان العداوة بينه وبين إبليس ، وعاقبة من يتذكرون عهد الله ومن يعرضون عنه من ولد آدم . ويرسم هذه العاقبة في مشهد من مشاهد القيامة كأنما هو نهاية الرحلة التي بدأت في الملأ الأعلى ، ثم تنتهي إلى هناك مرة أخرى .

وتختم السورة بتسليية الرسول - صلى الله عليه وسلم - عن إعراض المعرضين وتكذيب المكذبين فلا يشقى بهم ، فلهم أجل معلوم . ولا يحفل بما أوتوه من متاع في الحياة الدنيا فهو فتنة لهم . وينصرف إلى عبادة الله وذكره فترضى نفسه وتطمئن . ولقد هلكت القرون من قبلهم ، وشاء الله أن يعذر إليهم بالرسول الأخير ، فلينفذ يده من أمرهم ويكلمهم إلى مصيرهم .

« قل : كل مريض فتربصوا ، فستعلمون من أصحاب الصراط السوي ومن اهتدى .. »

* *

« كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق ، وقد آتيناك من لدا ذكرا . من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزراً . خالدين فيه ، وساء لهم يوم القيامة حملاً يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقاً . يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشراً . نحن أعلم بما يقولون : إذ يقول أمثلهم طريقة : إن لبثتم إلا يوماً .. »
كذلك القصة الذي أوحينا إليك بشأن موسى نقص عليك من أنباء ما قد سبق . نقصه عليك في القرآن - ويسمى القرآن ذكراً ، فهو ذكر لله ولآياته ، وتذكير بما كان من هذه الآيات في القرون الأولى .

ويرسم للمعرضين عن هذا الذكر - ويسميه المجرمين - مشهداً في يوم القيامة . فهؤلاء المجرمون يحملون أثقالهم كما يحمل المسافر أحماله . وبالسوئها من أحمال ! فإذا نفخ في البوق للتجمع فالمجرمون يحشرون زرق الوجوه من الكدر والغم . يتخافتون بينهم بالحديث ، لا يرفعون به صوتاً من الرعب والهول ، ومن الرهبة المخيمة على ساحة الحشر . وفيهم يتخافتون ؟ إنهم يحدسون عما قضا على الأرض من أيام . وقد تضاءلت الحياة الدنيا في حسهم ، وقصرت أيامها في مشاعرهم ، فليست في حسهم سوى أيام قلائل : « إن لبثتم إلا عشراً » فأما أرشدهم وأصوبهم رأياً فيحسونها أقصر وأقصر : « إن لبثتم إلا يوماً » . وهكذا تنزوي تلك الأعمار التي عاشوها على الأرض وتنطوي ، ويتضاءل متاع الحياة وهموم الحياة ؛ ويبدو ذلك كله فترة وجيزة في الزمان ، وشيئاً ضئيلاً في القيمة . فما قيمة عشر ليال ولو حفلت باللذائذ كلها وبالمتاع ؟ وما قيمة ليلة ولو كانت دقائقها ولحظاتها مليئة بالسعادة والمسرة . ما قيمة هذه أو تلك إلى جانب الآماد التي لا نهاية لها ، والتي تنتظرهم بعد الحشر وتمتد بهم بلا انقطاع ؟ !

ويزيد مشهد الهول بروزاً ، بالعودة إلى سؤال لم يسألونه في الدنيا عن الجبال ما يكون من شأنها يومئذ . فإذا الجواب بصور درجة الهول الذي يواجهونه !

« ويسألونك عن الجبال فقل : ينسفها ربي نسفاً ، فيذرها قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمناً . يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له ، وخشعت الأصوات للرحمن ، فلا تسمع إلا همساً . يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً . وعنت الوجوه للحج القيوم ، وقد خاب من حمل ظلماً . ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً .. »
ويتجلى المشهد الرهيب فإذا الجبال الراسية الراسخة قد نسفت نسفاً ؛ وإذا هي قاع بعد ارتفاع . قاع صفصف خال من كل نتوء ومن كل اعوجاج ، فلقد سويت الأرض فلا علو فيها ولا انخفاض ..

وكأما تسكن العاصفة بعد ذلك النسف والتسوية ؛ وتنصت الجموع المحشودة المحشورة ، وتختف كل حركة وكل نامة ، ويستمعون الداعي إلى الموقف فيتبعون توجيهه كالقطيع صامتين مستسلمين ، لا يتلفتون ولا يتخلفون - وقد كانوا يدعون إلى الهدى فيتخلفون ويعرضون - ويعبر عن استسلامهم بأنهم « يتبعون الداعي لا عوج له » تنسيقاً لمشهد القلوب والأجسام مع مشهد الجبال التي لا عوج فيها ولا نتوء !

ثم ينجم الصمت الرهيب والسكون الغامر : « وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً .. »
« وعنت الوجوه للحج القيوم .. »

وهكذا ينجم الجلال على الموقف كله ، وتغمر الساحة التي لا يحدها البصر رهبة وصمت وخشوع . فالكلام همس . والسؤال تخافت . والخشوع ضاف . والوجوه عانية . وجلال الحج القيوم يغمر النفوس بالجلال

الرزين . ولا شفاعة إلا لمن ارتضى الله قوله . والعلم كله لله . وهم لا يحيطون به علماً . والظالمون يحملون ظلمهم فيلقون الخيبة . والذين آمنوا مطمئنون لا يخشون ظلاماً في الحساب ولا هضماً لما عملوا من صالحات . إنه الجلال ، يغمر الجو كله ويغشاه ، في حضرة الرحمن .

« وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكراً » . كذلك على هذا النسق نوعنا في القرآن من صور الوعيد ومواقفه ومشاهدته لعله يستجيش في نفوس المكذبين شعور التقوى ، أو يذكرهم بما سيلقون في الآخرة فيترجروا . . . فذلك إذ يقول الله في أول السورة . « ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى . إلا تذكرة لمن يخشى » . .

ولقد كان الرسول - صلى الله عليه وسلم - يلاحق الوحي فيردد ألفاظ القرآن وآياته قبل أن ينتهي الوحي مخافة أن ينسى . وكان ذلك يشق عليه . فأراد ربه أن يطمئن قلبه على الأمانة التي يحملها .

« فتعالى الله الملك الحق . ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى إليك وحيه . وقل : رب زدني علماً » . . فتعالى الله الملك الحق الذي تعوله الوجوه ؛ ويخيب في حضرته الظالمون ويأمن في ظله المؤمنون الصالحون . . هو منزل هذا القرآن من عليائه ، فلا يعجل به لسانك ، فقد نزل القرآن لحكمة ، ولن يضيعه . إنما عليك أن تدعو ربك ليزيدك من العلم ، وأنت مطمئن إلى ما يعطيك ، لا تخشى عليه الذهاب . وما العلم إلا ما يعلمه الله فهو الباقي الذي ينفع ولا يضيع . ويشمر ولا يخيب . .

* * *

ثم تجيء قصة آدم ، وقد نسي ما عهد الله به إليه ؛ وضعف أمام الإغراء بالخلود ، فاستمع لوسوسة الشيطان : وكان هذا ابتلاء من ربه له قبل أن يعهد إليه بخلافة الأرض ؛ ونموذجاً من فعل إبليس يتخذ أبناء آدم منه عبرة . فلما تم الابتلاء تداركت آدم رحمة الله فاجتباها وهداه . .

والقصص القرآني يجيء في السياق متناسقاً معه . وقصة آدم هنا تجيء بعد عجلة الرسول بالقرآن خوف النسيان ، فيذكر في قصة آدم نقطة النسيان . وتجيء في السورة التي تكشف عن رحمة الله ورعايته لمن يجتنبهم من عباده ، فيذكر في قصة آدم أن ربه اجتباها فتاب عليه وهداه . ثم يعقبها مشهد من مشاهد القيامة يصور عاقبة الطائعين من أبنائه وعاقبة العصاة . وكأنما هي العودة من رحلة الأرض إلى المقر الأول ليجزى كل بما قدمت يداه .

فلنتبع القصة كما جاءت في السياق :

« ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً » . .

وعهد الله إلى آدم كان هو الأكل من كل الثمار سوى شجرة واحدة ، تمثل المحذور الذي لا بد منه لتربية الإرادة ، وتأكيد الشخصية ، والتحرر من رغائب النفس وشهواتها بالقدر الذي يحفظ للروح الإنسانية حرية الانطلاق من الضرورات عندما تريد ؛ فلا تستعبد بها الرغائب وتقهرها . وهذا هو المقياس الذي لا يخطيء في قياس الرقي البشري . فكلما كانت النفس أقدر على ضبط رغائبها والتحكم فيها والاستعلاء عليها كانت أعلى في سلم الرقي البشري . وكلما ضعفت أمام الرغبة وتهاوت كانت أقرب إلى البهيمية وإلى المذارج الأولى . من أجل ذلك شاءت العناية الإلهية التي ترعى هذا الكائن الإنساني أن تعده لخلافة الأرض باختبار إرادته ، وتنبية قوة المقاومة فيه ، وفتح عينيه على ما ينتظره من صراع بين الرغائب التي يزينها الشيطان ، وإرادته

وعهده للرحمن . وها هي ذي التجربة الأولى تعلن نتيجتها الأولى : « فنيي ولم نجد له عزماً » ثم تعرض تفصيلاتها :

« وإذ قلنا للملائكة : اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى » ..

هكذا في إجمال ، يجيء هذا المشهد الذي يفصل في سور أخرى ، لأن السياق هنا سياق النعمة والرعاية .. فيعجل بمظاهر النعمة في الرعاية :

« فقلنا : يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك ، فلا يخرجكما من الجنة فتشقى ، إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى ، وأنت لا تظمأ فيها ولا تضحى » ..

وكانت هذه رعاية من الله وعنايته أن ينبه آدم إلى عدوه ويحذره غدرة ، عقب نشوزه وعصيانه ، والامتناع عن السجود لآدم كما أمره ربه . « فلا يخرجكما من الجنة فتشقى » فالشقاء بالكد والعمل والشروء والضلال والقلق والحيرة واللهفة والانتظار والألم والفقدان .. كلها تنتظر هناك خارج الجنة ؛ وأنت في حمي منها كلها ما دمت في رحاب الفردوس .. « إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى . وأنت لا تظمأ فيها ولا تضحى » .. فهذا كله مضمون لك ما دمت في رحابها ، والجوع والعري ، يتقابلان مع الظمأ والضحوة . وهي في مجموعها تمثل متاع الإنسان الأولى في الحصول على الطعام والكساء ، والشراب والظلال . ولكن آدم كان غفلاً من التجارب . وهو يحمل الضعف البشري تجاه الرغبة في البقاء والرغبة في السلطان . ومن هذه الثغرة نفذ إليه الشيطان :

« فوسوس إليه الشيطان قال : يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ؟ »

لقد لمس في نفسه الموضع الحساس ، فالعمر البشري محدود ، والقوة البشرية محدودة . من هنا يتطلع إلى الحياة الطويلة وإلى الملك الطويل ، ومن هاتين النافذتين يدخل عليه الشيطان ، وآدم مخلوق بفترة البشر وضعف البشر ، لأمر مقدور وحكمة مخبوءة .. ومن ثم نسي العهد ، وأقدم على المحذور :

« فأكلا منها فبدت لهما سواتهما ، وطفقا يخضفان عليهما من ورق الجنة .. وعصى آدم ربه فغوى » .. والظاهر أنها السوات الحسية بدت لهما وكانت عنهما مستورة ، وأنها مواضع العفة في جسديهما . يرجع ذلك أنهما أخذنا يسترانها بورق الجنة يشبكانه ليستر هذه المواضع . وقد يكون ذلك إيذاناً باستيقاظ الدوافع الجنسية في كيانها . فقبل يقظة هذه الدوافع لا يحس الإنسان بالخنجل من كشف مواضع العفة ولا ينتبه إليها ولكنه ينتبه إلى العورات عند استيقاظ دوافع الجنس ويخنجل من كشفها .

وربما كان حظر هذه الشجرة عليهما ، لأن ثمارها مما يوقظ هذه الدوافع في الجسم تأجيلاً لها فترة من الزمان كما يشاء الله . وربما كان نسيانها عهد الله وعصيانها له تبعه هبوط في عزيمتها وانقطاع عن الصلة بخالقهما فسيطرت عليهما دوافع الجسد وتنهت فيهما دوافع الجنس . وربما كانت الرغبة في الخلود تجسمت في استيقاظ الدوافع الجنسية للتناسل ؛ فهذه هي الوسيلة الميسرة للإنسان للامتداد وراء العمر الفردي المحدود .. كل هذه فروض لتفسير مصاحبة ظهور سواتهما لهما للأكل من الشجرة . فهو لم يقل : فبدت سواتهما . إنما قال : فبدت لهما سواتهما . مما يؤذن أنها كانت محجوبة عنهما فظهرت لهما بدافع داخلي من إحساسهما .. وقد جاء في موضع آخر عن إبليس : « ليدي لهما ما ووري عنهما من سواتهما » ، وجاء : « ينزع عنهما لباسهما ليريهما سواتهما » وقد يكون اللباس الذي نزع الشيطان ليس لباساً مادياً إنما هو شعور ساتر ، قد يكون هو شعور البراءة والطهارة والصلة بالله . وعلى أية حال فهي مجرد فروض كما أسلفنا لا نؤكددها

ولا نرجح واحداً منها . إنما هي لتقرب صورة التجربة الأولى في حياة البشرية .

ثم أدركت آدم وزوجه رحمة الله ، بعدما عصاه ، فقد كانت هذه هي التجربة الأولى :
« ثم اجتبه ربه فتاب عليه وهدى » ..

بعدما استغفر آدم وندم واعتذر . ولا يذكر هذا هنا لتبدو رحمة الله في الجو وحدها ..

ثم صدر الأمر إلى الخصمين اللدودين أن يهبوا إلى أرض المعركة الطويلة بعد الجولة الأولى :
« قال : اهبطا منها جميعاً ، بعضكم لبعض عدو » ..

وبذلك أعلنت الخصومة في الثقلين . فلم يعد هناك عذر لآدم وبنيه من بعده أن يقول أحد منهم إنما أخذت على غرة ومن حيث لا أدري . فقد درى وعلم ؛ وأعلن هذا الأمر العلوي في الوجود كله : « بعضكم لبعض عدو » !

ومع هذا الإعلان الذي دوت به السماوات والأرضون ، وشهده الملائكة أجمعون . شاءت رحمة الله بعباده أن يرسل إليهم رسله بالهدى . قبل أن يأخذهم بما كسبت أيديهم . فأعلن لهم يوم أعلن الخصومة الكبرى بين آدم وإبليس ، أنه آتيتهم بهدى منه ، فمجاز كلاً منهم بعد ذلك حسبما ضل أو اهتدى :

« فإما يأتينكم مني هدى ، فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ، ونحشره يوم القيامة أعمى . قال : رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً ؟ قال : كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى . وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى » ..
يجيء هذا المشهد بعد القصة كأنه جزء منها ، فقد أعلن عنه في ختامها في الملأ الأعلى . فذلك أمر إذن قضي فيه منذ بعيد ولا رجعة فيه ولا تعديل .

« فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى » .. فهو في أمان من الضلال والشقاء باتباع هدى الله . وهما ينتظران خارج عتبات الجنة . ولكن الله يقي منهما من اتبع هدايه . والشقاء ثمرة الضلال ولو كان صاحبه غارقاً في المتاع . فهذا المتاع ذاته شقوة . شقوة في الدنيا وشقوة في الآخرة . وما من متاع حرام ، إلا وله غصة تعقبه وعقابيل تتبعه . وما يضل الإنسان عن هدى الله إلا ويتخبط في القلق والحيرة والتكفؤ والاندفاع من طرف إلى طرف لا يستقر ولا يتوازن في خطاه . والشقاء قرين التخبط ولو كان في المرتع الممرع ! ثم الشقوة الكبرى في دار البقاء . ومن اتبع هدى الله فهو في نجوة من الضلال والشقاء في الأرض ، وفي ذلك عوض عن الفردوس المفقود ، حتى يؤوب إليه في اليوم الموعود .

« ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا » والحياة المقطوعة الصلة بالله ورحمته الواسعة ، ضنك مهما يكن فيها من سعة ومتاع . إنه ضنك الانقطاع عن الاتصال بالله والاطمئنان إلى حماه . ضنك الحيرة والقلق والشك . ضنك الحرص والحذر : الحرص على ما في اليد والحذر من الفوت . ضنك الجري وراء بارق المطامع والحسرة على كل ما يفوت . وما يشعر القلب بطمأنينة الاستقرار إلا في رحاب الله . وما يحس راحة الثقة إلا وهو مستمسك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها .. إن طمأنينة الإيمان تضاعف الحياة طولاً وعرضاً وعمقاً وسعة ، والحرمان منه شقوة لا تعدلها شقوة الفقر والحرمان .

« ومن أعرض عن ذكري » وانقطع عن الاتصال بي « فإن له معيشة ضنكاً » .. « ونحشره يوم القيامة أعمى » .. وذلك ضلال من نوع ضلاله في الدنيا . وذلك جزء على إعراضه عن الذكر في الأولى . حتى

إذا سأل : « رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً ؟ » كان الجواب : « كذلك. أتتكَ آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى . وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه . ولعذاب الآخرة أشد وأبقى » !
ولقد أسرف من أعرض عن ذكر ربه . أسرف فألقى بالهدى من بين يديه وهو أنفس ثراء وذخر ، وأسرف في انفاق بصره في غير ما خلق له فلم يبصر من آيات الله شيئاً . فلا جرم يعيش معيشة ضنكاً ! ويحشر في يوم القيامة أعمى !

اتساق في التعبير . واتساق في التصوير . هبوط من الجنة وشقاء وضلال ، يقابله عودة إلى الجنة ونجوة من الشقاء والضلال . وفسحة في الحياة يقابلها الضنك ، وهداية يقابلها العمى . . . ويحيى هذا تعقيباً على قصة آدم - وهي قصة البشرية جميعاً - فيبدأ الاستعراض في الجنة ، وينتهي في الجنة ، كما مر في سورة الأعراف ، مع الاختلاف في الصور الداخلة في الاستعراض هنا وهناك حسب اختلاف السياق . .

* * *

فإذا انتهت هذه الجولة بطرفها أخذ السياق في جولة حول مصارع الغابرين ؛ وهي أقرب في الزمان من القيامة ، وهي واقع تشهده العيون إن كانت القيامة غيباً لا تراه الأبصار :
« أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم ؟ إن في ذلك لآيات لأولي النهى . ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاماً وأجل مسمى » . .

وحين تجول العين والقلب في مصارع القرون . وحين تطالع العين آثارهم ومساكنهم عن كتب ، وحين يتملى الخيال الدور وقد دخلت من أهلها الأول ؛ ويتصور شخوصهم الذاهبة ، وأشباحهم الهاربة ، وحركاتهم وسكناتهم ، وخواطرهم وأحلامهم ، وهمومهم وآمالهم . . حين يتأمل هذا الحشد من الأشباح والصور والانفعالات والمشاعر . . ثم يفتح عينه فلا يرى من ذلك كله شيئاً إلا الفراغ والخواء . . عندئذ يستيقظ للهوة التي تغرغرها لتبتلع الحاضر كما ابتلعت الغابر . وعندئذ يدرك يد القدرة التي أخذت القرون الأولى وهي قادرة على أن تأخذ ما يليها . وعندئذ يعي معنى الإنذار ، والعبرة أمامه معروضة للأنظار . فما هؤلاء القوم لا يهتدون وفي مصارع القرون ما يهدي أولي الأبواب ؟ : « إن في ذلك لآيات لأولي النهى » !

ولولا أن الله وعدهم ألا يستأصلهم بعذاب الدنيا ، لحكمة عليا . لحل بهم ما حل بالقرون الأولى . ولكنها كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى أمهلهم إليه : « ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاماً ، وأجل مسمى » .

* * *

وإذا كانوا مؤخرين إلى أجل ، مهملين لا مهملين ، فلا عليك - يا محمد - منهم ولا مما أوتوه من زينة الحياة الدنيا ليكون ابتلاء لهم ، فإنما هي الفتنة ، وما أعطاك الله إنعاماً فهو خير مما أعطاهم ابتلاء :

« فاصبر على ما يقولون ، وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ، ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى . ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ، ورزق ربك خير وأبقى . وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقاً نحن نرزقك والعاقبة للمتقوى » . .

فاصبر على ما يقولون من كفر واستهزاء وجحود وإعراض ، ولا يضق صدرك بهم ، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات . واتجه إلى ربك . سبح بحمده قبل طلوع الشمس وقبل غروبها . في هداة الصبح وهو يتنفس ويتفتح بالحياة ؛ وفي هداة الغروب والشمس تودع ، والكون يغمض أجفانه ، وسبح بحمده فترات من

الليل والنهار .. كن موصولاً بالله على مدار اليوم .. « لعلك ترضى » ..

إن التسبيح بالله اتصال . والنفس التي تتصل تطمئن وترضى . ترضى وهي في ذلك الجوار الرضي ؛ وتطمئن وهي في ذلك الحمى الآمن .

فالرضى ثمرة التسبيح والعبادة ، وهو وحده جزاء حاضر ينبت من داخل النفس ويتعرع في حنايا القلب . اتجه إلى ربك بالعبادة « ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم » من عرض الحياة الدنيا ، من زينة ومتاع ومال وأولاد وجاه وسلطان . « زهرة الحياة الدنيا » التي تطلعها كما يطلع النبات زهرته لأمعة جذابة . والزهرة سريعة الذبول على ما بها من رواء وزواق . فإنما نمتعهم بها ابتلاء « لفتنتهم فيه » فنكشف عن معادتهم ، بسلوكتهم مع هذه النعمة وذلك المتاع . وهو متاع زائل كالزهرة سرعان ما تذبل « ورزق ربك خير وأبقى » وهو رزق للنعمة لا للفتنة . رزق طيب خير باق لا يذبل ولا يندخ ولا يفتن .

وما هي دعوة للزهد في طيبات الحياة ، ولكنها دعوة إلى الاعتزاز بالقيم الأصيلة الباقية وبالصلة بالله والرضى به . فلا تهاوى النفوس أمام زينة الثراء ، ولا تفقد اعتزازها بالقيم العليا ، وتبقى دائماً تحس حرية الاستعلاء على الزخارف الباطلة التي تبهر الأنظار ..

« وأمر أهلك بالصلاة » .. فأول واجبات الرجل المسلم أن يحول بيته إلى بيت مسلم ؛ وأن يوجه أهله إلى أداء الفريضة التي تصلهم معه بالله ، فتوحد اتجاههم العلوي في الحياة . وما أرواح الحياة في ظلال بيست أهله كلهم يتجهون إلى الله .

« واصطبر عليها » .. على إقامتها كاملة ؛ وعلى تحقيق آثارها . إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر . وهذه هي آثارها الصحيحة . وهي في حاجة إلى اصطبار على البلوغ بالصلاة إلى الحد الذي تثمر فيه ثمارها هذه في المشاعر والسلوك . وإلا فما هي صلاة مقامة . إنما هي حركات وكلمات .

هذه الصلاة والعبادة والاتجاه إلى الله هي تكاليفك والله لا ينال منها شيئاً . فالله غني عنك وعن عبادة العباد : « لا نسألك رزقاً نحن نرزقك » إنما هي العبادة تستجيش وجدان التقوى « والعاقبة للتقوى » . فالإنسان هو الراجح بالعبادة في دنياه وأخراه . يعبد فيرضى ويطمئن ويستريح . ويعبد فيجزى بعد ذلك الجزاء الأوفى . والله غني عن العالمين .

* * *

وقرب ختام السورة يعود بالحديث إلى أولئك الكبراء الممتعين المكذبين ، الذين يطلبون إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - بعدما جاءهم بهذا القرآن أن يأتيهم بآية من ربه : هذا القرآن الذي يبين ويوضح ما جاءت به الرسالات قبله :

« وقالوا : لولا يأتينا بآية من ربه . أو لم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى ؟ » .

فليس إلا التعنت وإلا المكابرة والرغبة في الاقتراح هي التي تملي مثل هذا الاقتراح وإلا فآية القرآن كافية . وهو يصل حاضر الرسالة بماضيها ، ويوحد طبيعتها واتجاهها ، ويبين ويفصل ما أجمل في الصحف الأولى .

ولقد أعذر الله للمكذبين فأرسل إليهم خاتم المرسلين - صلى الله عليه وسلم -

« ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا : ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً ، فنتبع آياتك من قبل أن نذل

ونخزي » ..

وهم لم يذلوا ولم يخزوا لحظة أن كان هذا النص يتلى عليهم . إنما هو تصوير لمصيرهم المحتوم . الذي يذلون فيه ويخزون : فلعلهم حينذاك قائلون : « ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً ... » فهذا هي ذي الحجة قد قطعت عليهم ، فلم يعد لهم من عذر ولا عذير !

وعندما يصل السياق إلى تصوير المصير المحتوم الذي ينتظرهم يؤمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن ينفض يده منهم ، فلا يشقى بهم ، ولا يكربه عدم إيمانهم ، وأن يعلن إليهم أنه متربص بهم ذلك المصير ، فليتربصوا هم كيف يشاءون :

« قل : كل متربص فتربصوا . فستعلمون من أصحاب الصراط السوي ومن اهتدى » ..

* * *

بذلك تحتم السورة التي بدأت بنفي إرادة الشقاء عن النبي - صلى الله عليه وسلم - من تنزيل القرآن ، وحددت وظيفة القرآن : « إلا تذكرة لمن يخشى » .. والختام يتناسق مع المطلع كل التناسق . فهو التذكرة الأخيرة لمن تنفعه التذكرة . وليس بعد البلاغ إلا انتظار العاقبة . والعاقبة بيد الله ..

اتمى الجزء السادس عشر
ويليه الجزء السابع عشر
مبدءاً بسورة الأنبياء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَتَا
الْأَنْبِيَاءِ وَالْحَاجِّ

الجزء السابع عشر

(٢١) سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ مَكِّيَّةٌ وَآيَاتُهَا اثْنَتَا عَشْرَةَ وَمِائَةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا أَسْتَمِعُوهُ وَهُمْ
يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَأَ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَاءَ نِسْرًا
تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوا اضْغَبْتُ أَحْلِمُ بَلْ
أَفْتَرْتَهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوْلُونَ ﴿٥﴾ مَا ءَأَمَنْتَ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾
وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا
لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾
لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَرَّ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا
قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسْرَانَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ
وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَسْأَلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يُبَوِّئُنَا إِنْ أُنزِلْنَا عَلَيْكُمُ الظَّالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَزَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ
حَصِيدًا خِلْمِينَ ﴿١٥﴾

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِينِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَا تَخَذُكُمُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا
فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُ

من بناء هذا الكون ، يسير على نواميسه الكبرى ؛ وهي تقوم على الحق الذي قامت عليه السماوات والأرض ، وعلى الجسد الذي تدبر به السماوات والأرض ، وليست لعباً ولا باطلاً ، كما أن هذا الكون لم يخلق لعباً ، ولم يشب خلقه باطل : « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين » ..

ومن ثم يجول بالناس .. بقلوبهم وأبصارهم وأفكارهم .. بين مجالي الكون الكبرى : السماء والأرض . الرواسي والفضج . الليل والنهار . الشمس والقمر ... موجهاً أنظارهم إلى وحدة النواميس التي تحكمها وتصرفها ، وإلى دلالة هذه الوحدة على وحدة الخالق المدبر ، والمالك الذي لا شريك له في الملك ، كما أنه لا شريك له في الخلق .. « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا » ..

ثم يوجه مداركهم إلى وحدة النواميس التي تحكم الحياة في هذه الأرض ، وإلى وحدة مصدر الحياة : « وجعلنا من الماء كل شيء حي » وإلى وحدة النهاية التي ينتهي إليها الأحياء : « كل نفس ذائقة الموت » .. وإلى وحدة المصير الذي إليه ينتهون : « وإلينا ترجعون » ..

والعقيدة وثيقة الارتباط بتلك النواميس الكونية الكبرى . فهي واحدة كذلك وإن تعدد الرسل على مدار الزمان : « وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون » .. وقد اقتضت مشيئة الله أن يكون الرسل كلهم من البشر : « وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم » ..

وكما أن العقيدة وثيقة الارتباط بنواميس الكون الكبرى ، فكذلك ملاسبات هذه العقيدة في الأرض . فالسنة التي لا تتخلف أن يغلب الحق في النهاية وأن يزهق الباطل ، لأن الحق قاعدة كونية وغلبته سنة إلهية : « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق » .. وأن يحل الهلاك بالظالمين المكذبين ، وينجي الله الرسل والمؤمنين : « ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء وأهلكنا المسرفين » .. وأن يرث الأرض عباد الله الصالحون : « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون » ..

ومن ثم يستعرض السياق أمة الرسل الواحدة في سلسلة طويلة استعراضاً سريعاً . يطول بغض الشيء عند عرض حلقة من قصة إبراهيم - عليه السلام - وعند الإشارة إلى داود وسليمان . ويقصر عند الإشارة إلى قصص نوح ، وموسى ، وهارون ، ولوط ، وإسماعيل ، وإدريس ، وذو الكفل ، وذو النون ، وزكريا ، ويحيى ، وعيسى عليهم السلام .

وفي هذا الاستعراض تتجلى المعاني التي سبقت في سياق السورة . تتجلى . في صورة وقائع في حياة الرسل والدعوات ، بعدما تجلت في صورة قواعد عامة ونواميس .

كذلك يتضمن سياق السورة بعض مشاهد القيامة ؛ وتمثل فيها تلك المعاني نفسها في صورة واقع يوم القيامة ..

وهكذا تتجمع الإيقاعات المنوعة في السورة على هدف واحد ، هو استجاشة القلب البشري لإدراك الحق الأصيل في العقيدة التي جاء بها خاتم الرسل - صلى الله عليه وسلم - فلا يتلقاها الناس غافلين معرضين لاهين كما يصفهم في مطلع السورة : « اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون . ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون . لاهية قلوبهم ... » .

إن هذه الرسالة حق وجد . كما أن هذا الكون حق وجد . فلا مجال للهو في استقبال الرسالة ؛ ولا مجال

لطلب الآيات الخارقة ؛ وآيات الله في الكون وسنن الكون كله . توحى بأنه الخالق القادر الواحد ، والرسالة من لدن ذلك الخالق القادر الواحد .

* * *

نظم هذه السورة من ناحية بنائه اللفظي وإيقاعه الموسيقي هو نظم التقرير ، الذي يتناسق مع موضوعها ، ومع جو السياق في عرض هذا الموضوع .. يبدو هذا واضحاً بموازنته بنظم سورتى مريم وطه مثلاً . فهناك الإيقاع الرخي الذي يناسب جوها . وهنا الإيقاع المستقر الذي يناسب موضوع السورة وجوها ..
ويزيد هذا وضوحاً بموازنة نظم قصة إبراهيم - عليه السلام - في مريم ونظمها هنا . وكذلك بالتأمل في الحلقة التي أخذت منها هنا الحلقة التي أخذت منها هناك . ففي سورة مريم أخذت حلقة الحوار الرخي بين إبراهيم وأبيه . أما هنا فجاءت حلقة تحطيم الأصنام ، وإلقاء إبراهيم في النار . ليم التناسق في الموضوع والجو والنظم والإيقاع .

* * *

والسياق في هذه السورة يمضي في أشواط أربعة :

الأول : ويبدأ بمطلع قوي الضربات ، يهز القلوب هزاً ، وهو يلفتها إلى الخطر القريب المحقق ، وهي عنه غافلة لاهية : « اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ... الخ » .

ثم يهزها هزة أخرى بمشهد من مصارع الغابرين ، الذين كانوا عن آيات ربهم غافلين ، فعاشوا سادرين في الغي ظالمين : « وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قومًا آخرين . فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون . لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترقتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون . قالوا : يا ويلنا ! إنا كنا ظالمين . فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين .. »

ثم يربط بين الحق والجد في الدعوة ، والحق والجد في نظام الكون . وبين عقيدة التوحيد ونواميس الوجود . وبين وحدة الخالق المدبر ووحدة الرسالة والعقيدة . ووحدة مصدر الحياة ونهايتها ومصيرها على النحو الذي أسلفناه .

فأما الشوط الثاني فيرجع بالحديث إلى الكفار الذين يواجهون الرسول - صلى الله عليه وسلم - بالسخرية والاستهزاء ، بينما الأمر جد وحق ، وكل ما حولهم يوحى باليقظة والاهتمام . وهم يستعجلون العذاب والعذاب منهم قريب .. وهنا يعرض مشهداً من مشاهد القيامة . ويلفتهم إلى ما أصاب المستهزئين بالرسول قبلهم . ويقرر أن ليس لهم من الله من عاصم . ويوجه قلوبهم إلى تأمل يد القدرة وهي تنقص الأرض من أطرافها ، وتزوي رقعتها وتطويها ، فلعل هذا أن يوقظهم من غفلتهم التي جاءتهم من طول النعمة وامتداد الرخاء ..

وينتهي هذا الشوط بتوجيه الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى بيان وظيفته : « قل : إنما أنذركم بالوحي » وإلى الخطر الذي يتهددهم في غفلتهم : « ولا يسمع الصم الدعاء إذا ما يندرون » حتى تنصب الموازين القسط وهم في غفلتهم سادرون .

ويتضمن الشوط الثالث استعراض أمة النبيين ، وفيها تتجلى وحدة الرسالة والعقيدة . كما تتجلى رحمة الله بعباده الصالحين وإيحاؤه لهم وأخذ المكذبين .

أما الشوط الرابع والأخير فيعرض النهاية والمصير ، في مشهد من مشاهد القيامة المثيرة : ويتضمن ختام السورة بمثل ما بدأت : إيقاعاً قوياً ، وإنذاراً صريحاً ، وتحلية بينهم وبين مصيرهم المحتوم ..

* * *

والآن نأخذ في دراسة الشوط الأول بالتفصيل ..

« اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون . ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون . لاهية قلوبهم وأسروا النجوى الذين ظلموا . هل هذا إلا بشر مثلكم . أفتأتون السحر وأنتم تبصرون ؟ قال : ربي يعلم القول في السماء والأرض وهو السميع العليم . بل قالوا : أضغاث أحلام ، بل افتراه ، بل هو شاعر ، فليأتنا بآية كما أرسل الأولون . ما آمنت قلوبهم من قرية أهلكتناها . أفهم يؤمنون ؟ وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم ، فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون . وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام ، وما كانوا خالدين . ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء وأهلكنا المسرفين » ..

مطلع قوي يهز الغافلين هزاً . والحساب يقترب وهم في غفلة . والآيات تعرض وهم معرضون عن الهدى . والموقف جد وهم لا يشعرون بالموقف وخطورته . وكلما جاءهم من القرآن جديد قابلوه باللهو والاستهتار ، واستمعوه وهم هازلون يلعبون .. « لاهية قلوبهم » .. والقلوب هي موضع التأمل والتدبر والتفكير .

إنها صورة للنفوس الفارغة التي لا تعرف الجد ، فتلهو في أخطر المواقف ، وتهزل في مواطن الجد ؛ وتستهتر في مواقف القداسة . فالذكر الذي يأتيهم يأتيهم « من ربهم » فيستقبلونه لاعين ، بلا وقار ولا تقديس . والنفس التي تفرغ من الجد والاحتفال والقداسة تنتهي إلى حالة من التفاهة والجذب والانحلال ؛ فلا تصلح للنهوض بعبء ، ولا الاضطلاع بواجب ، ولا القيام بتكليف . وتغدو الحياة فيها عاطلة هينة رخيصة ! إن روح الاستهتار التي تلهو بالمقدسات روح مريضة . والاستهتار غير الاحتمال . فالاحتمال قوة جادة شاعرة . والاستهتار فقدان للشعور واسترخاء .

وهؤلاء الذين يفهم القرآن الكريم كانوا يواجهون ما ينزل من القرآن ليكون دستوراً للحياة ، ومنهaja للعمل ، وقانوناً للتعامل .. باللعب . ويواجهون اقتراب الحساب بالغفلة . وأمثال هؤلاء موجودون في كل زمان . فحيثما خلت الروح من الجد والاحتفال والقداسة صارت إلى هذه الصورة المريضة الشائثة التي يرسما القرآن . والتي تحيل الحياة كلها إلى هزل فارغ ، لا هدف له ولا قوام !

ذلك بينما كان المؤمنون يتلقون هذه السورة بالاهتمام الذي يذهل القلوب عن الدنيا وما فيها :

جاء في ترجمة الآمدي لعامر بن ربيعة أنه كان قد نزل به رجل من العرب فأكرم مثواه .. ثم جاء هذا الرجل وقد أصاب أرضاً فقال له : إني استقطعت من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وادياً في العرب . وقد أردت أن أقطع لك منه قطعة تكون لك ولعقبك من بعدك . فقال عامر : لا حاجة لي في قطيعتك . نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا : « اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون » ..

وهذا هو فرق ما بين القلوب الحية المتلقية المتأثرة ، والقلوب الميتة المغلقة الخاملة . التي تكفن ميتتها باللهو ؛ وتواري خمودها بالاستهتار ؛ ولا تتأثر بالذكر لأنها خاوية من مقومات الحياة .

« وأسروا النجوى الذين ظلموا » .. وقد كانوا يتناجون فيما بينهم ويتآمرون خفية ، يقولون عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « هل هذا إلا بشر مثلكم ؟ أفتأتون السحر وأنتم تبصرون ؟ » .

فهم على موت قلوبهم وفراغها من الحياة لم يكونوا يملكون أنفسهم من أن تنزل بهذا القرآن ؛ فكانوا

يلجأون في مقاومة تأثيره الطاعني إلى التعلات ، يقولون : إن محمداً بشر . فكيف تؤمنون لبشر مثلكم ؟ وإن ما جاء به السحر . فكيف تجيئون للسحر وتنفادون له وفيكم عيون وأتم تبصرون !

عند ذلك وكل الرسول - صلى الله عليه وسلم - أمرهم وأمره إلى ربه ، وقد أخبره الله بنجواهم التي أداروها بينهم خفية ؛ وأطلعه على كيدهم الذي يتقون به القرآن وأثره !

« قال : ربي يعلم القول في السماء والأرض ، وهو السميع العليم » .

فما من نجوى في مكان على الأرض إلا وهو مطلع عليها - وهو الذي يعلم القول في السماء والأرض ... وما من مؤامرة يحدثونها إلا وهو كاشفها ومطلع رسوله عليها - وهو السميع العليم .

ولقد حاروا كيف يصفون هذا القرآن وكيف يتقونه . فقالوا : إنه سحر . وقالوا : إنه أحلام مختلطة يراها محمد ويروها . وقالوا : إنه شعر . وقالوا : إنه افتراه وزعم أنه وحي من عند الله :

« بل قالوا : أضغاث أحلام ، بل افتراه ، بل هو شاعر » ..

ولم يثبتوا على صفة له ، ولا على رأي يروونه فيه ، لأنهم إنما يتمحلون ويحاولون أن يعللوا أثره المزلزل في نفوسهم بشتى التعلات فلا يستطيعون ؛ فينتقلون من ادعاء إلى ادعاء ، ومن تعليل إلى تعليل ، حائرين غير مستقرين .. ثم يخلصون من الحرج بأن يطلبوا بدل القرآن خارقة من الخوارق التي جاء بها الأولون : « فلبأتنا بآية كما أرسل الأولون » ..

ولقد جاءت الخوارق من قبل ، فلم يؤمن بها من جاءتهم ، فحل بهم الهلاك ، وفقاً لسنة الله التي لا تتخلف في إهلاك من يكذبون بالخوارق :

« ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها » ..

ذلك أن من يبلغ به العناد ألا يؤمن بالخارقة المادية المحسوسة ، لا يبقى له عذر ، ولا يرجى له صلاح . فيحق عليه الهلاك .

ولقد تكررت الآيات ، وتكرر التكذيب بها ، وتكرر كذلك إهلاك المكذبين .. فما بال هؤلاء سيؤمنون بالخارقة لو جاءتهم ؛ وهم ليسوا سوى بشر كهؤلاء الهالكين !

« أفهم يؤمنون » ..

« وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم ، فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون . وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام ، وما كانوا خالدين » ..

فقد اقتضت حكمة الله أن يكون الرسل من البشر ، يتلقون الوحي فيدعون به الناس . وما كان الرسل من قبل إلا رجالاً ذوي أجساد . وما جعل الله لهم أجساداً ثم جعلهم لا يأكلون الطعام . فأكل الطعام من مقتضيات الجسدية ، والجسدية من مقتضيات البشرية . وهم بحكم أنهم بشر مخلوقون لم يكونوا خالدين .. هذه هي سنة الله المطردة فليسألوا أهل الكتاب الذين عرفوا الأنبياء من قبل . إن كانوا هم لا يعلمون .

لقد كان الرسل من البشر ليعيشوا حياة البشر ؛ فتكون حياتهم الواقعية مصداق شريعتهم . وسلوكهم العملي نموذجاً حياً لما يدعون إليه الناس . فالكلمة الحية الواقعية هي التي تؤثر وتهدى ، لأن الناس يرونها ممثلة في شخص مترجمة إلى حياة .

ولو كان الرسل من غير البشر لا يأكلون الطعام ، ولا يمشون في الأسواق ، ولا يعاشرهم النساء .

ولا تعتلج في صدورهم عواطف البشر وانفعالاتهم لما كانت هناك وشيجة بينهم وبين الناس . فلا هم يحسون دوافع البشر التي تحركهم ، ولا البشر يتأسون بهم ويقتدون .

وأياً داعية لا يحس مشاعر الذين يدعوه ولا يحسون مشاعره ، فإنه يقف على هامش حياتهم ، لا يتجاوب معهم ولا يتجاوبون معه . ومهما سمعوا من قوله فلن يحركهم للعمل بما يقول . لما بينه وبينهم من قطيعة في الحس والشعور .

وأياً داعية لا يصدق فعله قوله . فإن كلماته تقف على أبواب الآذان لا تتعداها إلى القلوب . مهما تكن كلماته بارعة وعباراته بليغة . فالكلمة البسيطة التي يصاحبها الانفعال ، ويؤيدها العمل . هي الكلمة المثمرة التي تحرك الآخرين إلى العمل .

والذين كانوا يقترحون أن يكون الرسول من الملائكة ، كالذين يقترحون اليوم أن يكون الرسول منزهاً عن انفعالات البشر .. كلهم يتعتنون ويغفلون عن هذه الحقيقة . وهي أن الملائكة لا يحيون حياة البشر بحكم تكوينهم ولا يمكن أن يحيوها .. لا يمكن أن يحسوا بدوافع الجسد ومقتضياته ، ولا بمشاعر هذا المخلوق الآدمي ذي التكوين الخاص . وأن الرسول يجب أن يحس بهذه الدوافع والمشاعر ، وأن يزاوها في حياته الواقعية ليرسم بحياته دستور الحياة العملي لمتبعيه من الناس .

وهناك اعتبار آخر ، وهو أن شعور الناس بأن الرسول ملك لا يثير في نفوسهم الرغبة في تقليده في جزئيات حياته ؛ لأنه من جنس غير جنسهم ، وطبيعة غير طبيعتهم ، فلا مطمع لهم في تقليد منهجه في حياته اليومية . وحياة الرسل أسوة دافعة لغيرهم من الناس .

وهذا وذلك فوق ما في ذلك الاقتراح من غفلة عن تكريم الله للجنس البشري كله ، باختيار الرسل منه ، ليتصلوا بالملأ الأعلى ويتلقوا عنه .

لذلك كله اقتضت سنة الله الجارية اختيار الرسل من البشر ؛ وأجرت عليهم كل ما يجري على البشر من ولادة وموت . ومن عواطف وانفعالات . ومن آلام وآمال . ومن أكل للطعام ومعاشرة للنساء .. وجعلت أكبر الرسل وأكملهم وخاتمهم وصاحب الرسالة الباقية فيهم .. أكمل نموذج لحياة الإنسان على الأرض ، بكل ما فيها من دوافع وتجارب وعمل وحياة .

تلك سنة الله في اختيار الرسل . ومثلها سنته في إنجائهم ومن معهم ، وإهلاك المسرفين الظالمين المكذبين : « ثم صدقناهم الوعد ، فأنجيناهم ومن نشاء ، وأهلكنا المسرفين » ..

فهي كذلك سنة جارية كسنة اختيارهم . وقد وعدهم الله النجاة هم والمؤمنون معهم إيماناً حقيقياً يصدق العمل ؛ فصدقهم وعده ، وأهلك ، الذين كانوا يسرفون عليهم ، ويتجاوزون الحد معهم .

* * *

هذه السنة يخوف الله بها المشركين الذين كانوا يواجهون الرسول - صلى الله عليه وسلم - بالإسراف عليه ، وتكذيبه ، وإيذائه والمؤمنين معه . وينبهم إلى أنه رحمة بهم لم يرسل إليهم بخارقة مادية ، يتبعها هلاكهم ، إذا هم كذبوا بها كما كذب من قبلهم . إنما أرسل إليهم بكتاب يشرفهم لأنه بلغتهم ، ويقوم حياتهم ، ويخلق منهم أمة ذات سيادة في الأرض وذكر في الناس . وهو مفتوح للعقول لتدبره ، وترتفع به في سلم البشرية :

« لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم . أفلا تعقلون ؟ » ..

إن معجزة القرآن معجزة مفتوحة للأجيال ، وليست كالأوراق المادية التي تنقضي في جيل واحد ، ولا يتأثر بها إلا الذين يرونها من ذلك الجيل .

ولقد كان به ذكر العرب ومجدهم حين حملوا رسالته فشرقوا بها وغربوا . فلم يكن لهم قبله ذكر ، ولم يكن معهم ما يعطونه للبشرية فتعرفه لهم وتذكرهم به . ولقد ظلت البشرية تذكرهم وترفعهم طالما استمسكوا بهذا الكتاب ، وقادوا به البشرية قروناً طويلة ، فسعدوا وسعدت بما معهم من ذلك الكتاب . حتى إذا تخلوا عنه تخلت عنهم البشرية ، وانحط فيها ذكرهم ، وصاروا ذليلاً للقافلة يتخطفهم الناس ، وكانوا بكتابتهم يتخطف الناس من حولهم وهم آمنون !

وما يملك العرب من زاد يقدمونه للبشرية سوى هذا الزاد . وما يملكون من فكرة يقدمونها للإنسانية سوى هذه الفكرة . فإن تقدموا للبشرية بكتابتهم ذلك عرفتهم وذكرتهم ورفعتهم ، لأنها تجدهم عندهم ما تنتفع به . فأما إذا تقدموا إليها عرباً فحسب بجنسية العرب . فإهم ؟ وما ذلك ؟ وما قيمة هذا النسب بغير هذا الكتاب ؟ إن البشرية لم تعرفهم إلا بكتابتهم وعقيدتهم وسلوكهم المستمد من ذلك الكتاب وهذه العقيدة . . لم تعرفهم لأنهم عرب فحسب . فذلك لا يساوي شيئاً في تاريخ البشرية ، ولا مدلول له في معجم الحضارة ! إنما عرفتهم لأنهم يحملون حضارة الإسلام ومثله وفكرته . وهذا أمر له مدلوله في تاريخ البشرية ومعجم الحضارة ! . . ذلك ما كان يشير إليه القرآن الكريم ، وهو يقول للمشركين ، الذين كانوا يواجهون كل جديد يأتيهم منه باللهو والإعراض والغفلة والتكذيب : « لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم . أفلا تعقلون ؟ » .

ولقد كانت رحمة بهم أن ينزل الله لهم هذا القرآن . ولا يأتيهم بالبخارقة التي يطلبونها . فلا يأخذهم وفق سنته بالقاصمة كالقرى التي كذبت فاستأصلت . . وهنا يعرض مشهداً حياً من القصم والاستئصال : « وكم قصصنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قومًا آخرين . فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون . لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترقتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون . . قالوا : يا ويلنا إنا كنا ظالمين . فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين » . .

والقصم أشد حركات القطع . وجرسها اللفظي يصور معناها ، ويلقي ظل الشدة والعنف والتحطيم والقضاء الحاسم على القرى التي كانت ظالمة . فإذا هي مدمرة محطمة . . « وأنشأنا بعدها قومًا آخرين » .

وهو عند القصم يوقع الفعل على القرى ليشمل ما فيها ومن فيها . وعند الإنشاء يوقع الفعل على القوم الذين ينشأون ويعيدون إنشاء القرى . . وهذه حقيقة في ذاتها .

فالدمار يحل بالديار والديار . والإنشاء يبدأ بالديارين فيعيدون إنشاء الدور . . ولكن عرض هذه الحقيقة في هذه الصورة يضخم عملية القصم والتدمير ، وهذا هو الظل المراد إلقاءه بالتعبير على طريقة التصوير ! ثم ننظر فنشهد حركة القوم في تلك القرى وبأس الله يأخذهم ، وهم كالقيران في المصيدة يضطربون من هنا إلى هناك قبيل الخمود :

« فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون » . .

يسارعون بالخروج من القرية ركضاً وعدوا ، وقد تبين لهم أنهم مأخوذون ببأس الله . كأنما الركض ينجم

من بأس الله . وكأتما هم أسرع عدواً فلا يلحق بهم حيث يركضون ! ولكنها حركة الفأر في المصيدة بلا تفكير ولا شعور .

عندئذ يتلقون التهكم المرير :

« لا تركضوا ، وارجعوا إلى ما أترقتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون » !

لا تركضوا من قريبتكم . وعودوا إلى متاعكم الهنيء وعيشكم الرغيد وسكنكم المريح .. عودوا لعلكم تسألون عن ذلك كله فيم أنفقتموه ؟ !

وما عاد هنالك مجال لسؤال ولا لجواب . إنما هو التهكم والاستهزاء !

عند ذلك يفيقون فيشعرون بأن لا مفر ولا مهرب من بأس الله المحيط . وأنه لا ينفعهم ركض ، ولا ينقدهم فرار . فيحاولون الاعتراف والتوبة والاستغفار :

« قالوا : يا ويلنا ! إنا كنا ظالمين » ..

ولكن لقد فات الأوان . فليقولوا ما يشاءون . فإنهم لمتروكون يقولون حتى يقضى الأمر وتحمد الأنفاس :

« فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين » ..

ويا له من حصيد آدمي ، لا حركة فيه ولا حياة ؛ وكان منذ لحظة يموج بالحركة ، وتضطرب فيه الحياة !

* * *

هنا يربط السياق بين العقيدة التي سبق الحديث عنها ، وسننها التي تجري عليها ، والتي تأخذ المكذبين بها . يربط بينها وبين الحق الكبير والجد الأصيل ، اللذين يقوم بهما الكون كله ، ويتلبس بهما خلق السماوات والأرض في صميمه .

فإذا كان المشركون يستقبلون القرآن كلما جاءهم منه جديد باللعب واللهو ، غافلين عما في الأمر من حق وجد . وإذا كانوا يغفلون عن يوم الحساب القريب ، وعما ينتظر المكذبين المستهزئين .. فإن سنة الله مطردة نافذة مرتبطة بالحق الكبير والجد الأصيل :

« وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين . لو أردنا أن نتخذهاً لهواً لاتخذناها من لدنا . إن كنا فاعلين . بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ، ولكم الويل مما تصفون » ..

لقد خلق الله سبحانه هذا الكون لحكمة ، لا لعباً ولا لهواً . وديره بحكمة ، لا جزافاً ولا هوى ، وبالجد الذي خلق به السماء والأرض وما بينهما أرسل الرسل ، وأنزل الكتب ، وفرض الفرائض ، وشرع التكاليف .. فالجد أصيل في طبيعة هذا الكون ، أصيل في تديره ، أصيل في العقيدة التي أرادها الله للناس ، أصيل في الحساب الذي يأخذهم به بعد الممات .

ولو أراد الله - سبحانه - أن يتخذ لهواً لاتخذ من لدنه . لهواً ذاتياً لا يتعلق بشيء من مخلوقاته الحادثة الفانية . وهو مجرد فرض جدلي : « لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذنا من لدنا » .. ولو - كما يقول النحاة - حرف امتناع لامتناع . تفيد امتناع وقوع فعل الجواب لامتناع وقوع فعل الشرط . فالله سبحانه لم يرد أن يتخذ لهواً فلم يكن هناك لهو . لا من لدنه ولا من شيء خارج عنه .

ولن يكون لأن الله - سبحانه - لم يرده ابتداء ولم يوجه إليه إرادته أصلاً : « إن كنا فاعلين » .. وإن حرف نفي بمعنى ما ، والصيغة لنفي إرادة الفعل ابتداء .

إنما هو فرض جدلي لتقرير حقيقة مجردة .. هي أن كل ما يتعلق بذات الله - سبحانه - قديم لا حادث ، وبقا غير فان . فلو أراد - سبحانه - أن يتخذ هوألماً كان هذا اللهو حادثاً ، ولا كان متعلقاً بحادث كالسمااء والأرض وما بينهما فكلها حوادث .. إنما كان يكون ذاتياً من لدنه سبحانه . فيكون أزلياً باقياً ، لأنه يتعلق بالذات الأزلية الباقية .

إنما الناموس المقرر والسنة المطردة ألا يكون هناك لهو ، إنما يكون هناك جد ، ويكون هناك حق ؛ فيغلب الحق الأصيل على الباطل العارض :

« بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق » ..

و« بل » للإضراب عن الحديث في موضوع اللهو ؛ والعدول عنه إلى الحديث في الواقع المقرر الذي تجري به السنة ويقتضيه الناموس . وهو غلبة الحق وزهوق الباطل .

والتعبير يرسم هذه السنة في صورة حسية حية متحركة . فكأنما الحق قذيفة في يد القدرة . تقذف به على الباطل ، فيشق دماغه ! فإذا هو زاهق هالك ذاهب ..

هذه هي السنة المقررة ، فالحق أصيل في طبيعة الكون ، عميق في تكوين الوجود . والباطل منفي عن خلقه هذا الكون أصلاً ، طارئ لا أصالة فيه ، ولا سلطان له ، يطارده الله ، ويقذف عليه بالحق فيدمغه . ولا بقاء لشيء يطارده الله ؛ ولا حياة لشيء تقذفه يد الله فتدمغه !

ولقد يخيل للناس أحياناً أن واقع الحياة يخالف هذه الحقيقة التي يقرها العلم الخبير . وذلك في الفترات التي يبدو فيها الباطل منتفشاً كأنه غالب ، ويبدو فيها الحق متروياً كأنه مغلوب . وإن هي إلا فترة من الزمان . يمد الله فيها ما يشاء ، للفتنة والابتلاء . ثم تجري السنة الأزلية الباقية التي قام عليها بناء السماء والأرض ؛ وقامت عليها العقائد والدعوات سواء بسواء .

والمؤمنون بالله لا يخالجهم الشك في صدق وعده ؛ وفي أصالة الحق في بناء الوجود ونظامه ؛ وفي نصره الحق الذي يقذف به على الباطل فيدمغه .. فإذا ابتلاه الله بغلبة الباطل حيناً من الدهر عرفوا أنها الفتنة ؛ وأدركوا أنه الابتلاء ؛ وأحسوا أن ربهم يريهم ، لأن فيهم ضعفاً أو نقصاً ؛ وهو يريد أن يعدهم لاستقبال الحق المنتصر ، وأن يجعلهم ستر القدرة ، فيدعهم يمتازون فترة البلاء يستكملون فيها النقص ويعالجون فيها الضعف .. وكلما سارعوا إلى العلاج قصر الله عليهم فترة الابتلاء ، وحقق على أيديهم ما يشاء . أما العاقبة فهي مقررة : « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق » والله يفعل ما يريد .

* * *

هكذا يقرر القرآن الكريم تلك الحقيقة للمشركين ، الذين يقولون على القرآن وعلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - ويصفونه بالسحر والشعر والافتراء . وهو الحق الغالب الذي يدمغ الباطل ، فإذا هو زاهق .. ثم يعقب على ذلك التقرير بإنذارهم عاقبة ما يقولون : « ولكم الويل مما تصفون » ..

ثم يعرض لهم نموذجاً من نماذج الطاعة والعبادة في مقابل عصيانهم وإعراضهم . نموذجاً ممن هم أقرب منهم إلى الله . ومع هذا فهم دائبون على طاعته وعبادته ، لا يفترون ولا يقصرون :

« وله من في السماوات والأرض . ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون ، يسبحون الليل والنهار لا يفترون » ..

ومن في السماوات والأرض لا يعلمهم إلا الله ، ولا يحصيهم إلا الله . والعلم البشري لا يستيقن إلا من وجود البشر . والمؤمنون يستيقنون من وجود الملائكة والجن كذلك لذكرهما في القرآن . ولكننا لا نعرف عنهم إلا ما أخبرنا به خالقهم . وقد يكون هناك غيرهم من العقلاء في غير هذا الكوكب الأرضي ، بطبائع وأشكال تناسب طبيعة تلك الكواكب . وعلم ذلك عند الله .

فاذا نحن قرأنا : «وله من في السماوات والأرض» عرفنا منهم من نعرف ، وتركنا علم من لا نعلم لخالق السماوات والأرض ومن فيهن .

«ومن عنده» المفهوم القريب أنهم الملائكة . ولكننا لا نحدد ولا نقيدها ما دام النص عاماً يشمل الملائكة وغيرهم . والمفهوم من التعبير أنهم هم الأقرب إلى الله . فكلمة «عند» بالقياس إلى الله لا تعني مكاناً ، ولا تحدد وصفاً . «ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته» كما يستكبر هؤلاء المشركون «ولا يستحسرون» - أي يقصرون - في العبادة . فحياتهم كلها عبادة وتسبيح بالليل والنهار دون انقطاع ولا فتور . .

والبشر يملكون أن تكون حياتهم كلها عبادة دون أن ينقطعوا للتسبيح والتعبد كالملائكة . فالإسلام يعد كل حركة وكل نفس عبادة إذا توجه بها صاحبها إلى الله . ولو كانت متاعاً ذاتياً بطبيعت الحياة !

* * *

وفي ظل التسبيح الذي لا يفتر ولا ينقطع لله الواحد ، مالك السماوات والأرض ومن فيهن . يجيء الإنكار على المشركين واستنكار دعواهم في الآلهة . ويعرض السياق دليل الوحدانية من المشهود في نظام الكون وناموسه الواحد الدال على المدبر الواحد ؛ ومن المنقول عن الكتب السابقة عند أهل الكتاب :

«أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون؟ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا . فسبحان الله رب العرش عما يصفون . لا يسأل عما يفعل وهم يسألون . أم اتخذوا من دونه آلهة؟ قل : هاتوا برهانكم . هذا ذكر من معي وذكر من قبلي . بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون . وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ..

والسؤال عن اتخاذهم آلهة هو سؤال استنكار للواقع منهم . ووصف هؤلاء الآلهة بأنهم ينشرون من الأرض أي يقيمون الأموات ويعيثنهم أحياء . فيه تهكم بتلك الآلهة التي اتخذوها . فن أول صفات الإله الحق أن يُنشر الأموات من الأرض . فهل الآلهة التي اتخذوها تفعل هذا؟ إنها لا تفعل ، ولا يدعون لها هم أنها تخلق حياة أو تعيد حياة . فهي إذن فاقدة للصفة الأولى من صفات الإله .

ذلك منطق الواقع المشهود في الأرض . وهنالك الدليل الكوني المستمد من واقع الوجود : «لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ..

فالكون قائم على الناموس الواحد الذي يربط بين أجزائه جميعاً ؛ وينسق بين أجزائه جميعاً ؛ وبين حركات هذه الأجزاء وحركة المجموع المنظم .. هذا الناموس الواحد من صنع إرادة واحدة لإله واحد . فلو تعددت الذوات لتعددت الإرادات . ولتعددت النواميس تبعاً لها - فالإرادة مظهر الذات المريدة . والناموس مظهر الإرادة النافذة - ولانعدمت الوحدة التي تنسق الجهاز الكوني كله ، وتوحد منهجه وأتجاهه وسلوكه ؛ ولوقع الاضطراب والفساد تبعاً لفقدان التناسق . . هذا التناسق الملحوظ الذي لا ينكره أشد الملحدين لأنه واقع محسوس . وإن الفطرة السليمة التي تتلقى إيقاع الناموس الواحد للوجود كله ، لتشهد شهادة فطرية بوحدة هذا

الناموس ، ووحدة الإرادة التي أوجدته ، ووحدة الخالق المدبر لهذا الكون المنظم المنسق ، الذي لا فساد في تكوينه ، ولا خلل في سيره :

« فسبحان الله رب العرش عما يصفون » ..

وهم يصفونه بأن له شركاء . تنزه الله المتعالى المسيطر : « رب العرش » والعرش رمز الملك والسيطرة والاستعلاء . تنزه عما يقولون والوجود كله بنظامه وسلامته من الخلل والفساد يكذبهم فيما يقولون .

« لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » ..

ومتى كان المسيطر على الوجود كله يسأل ؛ ومن ذا الذي يسأله ؛ وهو القاهر فوق عباده ، وإرادته طليقة لا يحدها قيد من إرادة أخرى ، ولا حتى من الناموس الذي ترتضيه هي وتتخذها حاكماً لنظام الوجود ؟ والسؤال والحساب إنما يكونان بناء على حدود ترسم ومقياس يوضع . والإرادة الطليقة هي التي تضع الحدود والمقاييس ، ولا تنقيد بما تضع للكون من الحدود والمقاييس إلا كما تريد . والخلق مأخوذون بما تضع لهم من تلك الحدود فهم يسألون .

وإن الخلق ليستبد بهم الغرور أحياناً فيسألون سؤال المنكر المتعجب : ولماذا صنع الله كذا . وما الحكمة في هذا الصنيع ؟ وكأنما يريدون ليقولوا : إنهم لا يجدون الحكمة في ذلك الصنيع !

وهم يتجاوزون في هذا حدود الأدب الواجب في حق المعبود ، كما يتجاوزون حدود الإدراك الإنساني القاصر الذي لا يعرف العلل والأسباب والغايات وهو محصور في حيزه المحدود ..

إن الذي يعلم كل شيء ، ويدبر كل شيء ، ويسيطر على كل شيء ، هو الذي يقدر ويدبر ويحكم . « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » ..

وإلى جانب الدليل الكوني المستمد من طبيعة الوجود وواقعه يسألهم عن الدليل النقلي الذي يستندون إليه في دعوى الشرك التي لا تعتمد على دليل :

« أم اتخذوا من دونه آلهة ؟ قل : هاتوا برهانكم . هذا ذكر من معي وذكر من قبلي » .

فهذا هو القرآن يشتمل على ذكر المعاصرين للرسول - صلى الله عليه وسلم - وهناك ذكر من سبقه من الرسل . وليس فيما جاءوا به ذكر الشركاء . فكل الديانات قائمة على عقيدة التوحيد . فمن أين جاء المشركون بدعوى الشرك التي تنقضها طبيعة الكون ، ولا يوجد من الكتب السابقة عليها دليل :

« بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون » ..

« وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون » ..

فالتوحيد هو قاعدة العقيدة منذ أن بعث الله الرسل للناس . لا تبديل فيها ولا تحويل . توحيد الإله وتوحيد المعبود . فلا انفصال بين الألوهية والربوبية ؛ ولا مجال للشرك في الألوهية ولا في العبادة .. قاعدة ثابتة ثبوت النواميس الكونية ، متصلة بهذه النواميس وهي واحدة منها .

* * *

ثم يعرض السياق لدعوى المشركين من العرب أن لله ولداً . وهي إحدى مقولات الجاهلية السخيفة : « وقالوا : اتخذ الرحمن ولداً . سبحانه ! بل عباد مكرمون ، لا يسبقونه بالقول ، وهم بأمره يعملون . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ، وهم من خشيته مشفقون . ومن يقل منهم :

إني إله من دونه فذلك تجزيه جهنم . كذلك تجزي الظالمين » ..

ودعوى البنوة لله - سبحانه - دعوى اتخذت لها عدة صور في الجاهليات المختلفة . فقد عرفت عند مشركي العرب في صورة بنوة الملائكة لله . وعند مشركي اليهود في صورة بنوة العزيز لله . وعند مشركي النصارى في صورة بنوة المسيح لله .. وكلها من انحرافات الجاهلية في شتى الصور والعصور .

والمفهوم أن الذي يعنيه السياق هنا هو دعوى العرب في بنوة الملائكة . وهو يرد عليهم ببيان طبيعة الملائكة . فهم ليسوا بنات لله - كما يزعمون - « بل عباد مكرمون » عند الله . لا يقترحون عليه شيئاً تأدباً وطاعة وإجلالاً . إنما يعملون بأمره لا يناقشون . وعلم الله بهم محيط . ولا يتقدمون بالشفاعة إلا لمن ارتضاه الله ورضي أن يقبل الشفاعة فيه . وهم بطبيعتهم خائفون لله مشفقون من خشيته - على قربهم وطهارتهم وطاعتهم التي لا استثناء فيها ولا انحراف عنها . وهم لا يدعون الألوهية قطعاً . ولو ادعوا - جداً - لكان جزاؤهم جزاء من يدعي الألوهية كائناً من كان ، وهو جهنم . فذلك جزاء الظالمين الذين يدعون هذه الدعوى الظالمة لكل حق ، ولكل أحد ، ولكل شيء في هذا الوجود .

وكذلك تبدو دعوى المشركين في صورتها هذه واهية مستنكرة مستبعدة ، لا يدعيها أحد . ولو ادعاها لذاق جزاءها الأليم !

وكذلك يلمس الوجدان بمشهد الملائكة طائعين لله ، مشفقين من خشيته . بينما المشركون يتناولون ويدعون !

* * *

وعند هذا الحد من عرض الأدلة الكونية الشاهدة بالوحدة ؛ والأدلة النقلية النافية للتعدد ؛ والأدلة الوجدانية التي تلمس القلوب .. يجول السياق بالقلب البشري في مجالي الكون الضخمة ، ويد القدرة تدبره بحكمة ، وهم معرضون عن آياتها المعروضة على الأنظار والقلوب :

« أو لم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما . وجعلنا من الماء كل شيء حي ؛ أفلا يؤمنون ؟ وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم ، وجعلنا فيها فجاً سبلاً لعلهم يهتدون ؛ وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون . وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر . كل في فلك يسبحون » ..

إنها جولة في الكون المعروض للأنظار ، والقلوب غافلة عن آياته الكبار ، وفيها ما يحير اللب حين يتأمله بالبصيرة المفتوحة والقلب الواعي والحس اليقظ .

وتقريره أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقنا ، مسألة جديدة بالتأمل ، كلما تقدمت النظريات الفلكية في محاولة تفسير الظواهر الكونية ، فحامت حول هذه الحقيقة التي أوردها القرآن الكريم منذ أكثر من ثلاث مائة وألف عام .

فالنظرية القائمة اليوم هي أن المجموعات النجمية - كالمجموعة الشمسية المؤلفة من الشمس وتوابعها ومنها الأرض والقمر .. كانت سديماً . ثم انفصلت وأخذت أشكالها الكروية وأن الأرض كانت قطعة من الشمس ثم انفصلت عنها وبردت ..

ولكن هذه ليست سوى نظرية فلكية . تقوم اليوم وقد تنقض غداً . وتقوم نظرية أخرى تصلح لتفسير الظواهر الكونية بفرض آخر يتحول إلى نظرية ..

ونحن - أصحاب هذه العقيدة - لا نحاول أن نحمل النص القرآني المستيقن على نظرية غير مستيقنة ،
تقبل اليوم وترفض غدًا . لذلك لا نحاول في هذه الظلال أن نوفق بين النصوص القرآنية والنظريات التي
تسمى علمية . وهي شيء آخر غير الحقائق العلمية الثابتة القابلة للتجربة كتمدد المعادن بالحرارة وتحول
الماء بخاراً وتجمده بالبرودة .. إلى آخر هذا النوع من الحقائق العلمية . وهي شيء آخر غير النظريات العلمية -
كما بينا من قبل في الظلال - .

إن القرآن ليس كتاب نظريات علمية ولم يجرى ليكون علماً تجريبياً كذلك . إنما هو منهج للحياة كلها .
منهج لتقويم العقل ليعمل وينطلق في حدوده . ولتقويم المجتمع ليعمل للعقل بالعمل والانطلاق . دون أن
يدخل في جزئيات وتفصيليات علمية بحتة . فهذا متروك للعقل بعد تقويمه وإطلاق سراحه .

وقد يشير القرآن أحياناً إلى حقائق كونية كهذه الحقيقة التي يقرها هنا : « أن السماوات والأرض كانتا
رتقاً ففتقناهما » ونحن نستيقن هذه الحقيقة لمجرد ورودها في القرآن . وإن كنا لا نعرف منه كيف كان فتحق
السماوات والأرض . أو فتحق السماوات عن الأرض . وتقبل النظريات الفلكية التي لا تخالف هذه الحقيقة
المجملية التي قررها القرآن . ولكننا لا نجري بالنص القرآني وراء أية نظرية فلكية ، ولا نطلب تصديقاً للقرآن
في نظريات البشر . وهو حقيقة مستيقنة ! وقصارى ما يقال : إن النظرية الفلكية القائمة اليوم لا تعارض
المفهوم الإجمالي لهذا النص القرآني السابق عليها بأجيال !

فأما شطر الآية الثاني : « وجعلنا من الماء كل شيء حي » فيقرر كذلك حقيقة خطيرة . يعد العلماء كشفها
وتقريرها أمراً عظيماً . ويمجدون « دارون » لاهتدائه إليها ! وتقريره أن الماء هو مهد الحياة الأول .
وهي حقيقة تثير الانتباه حقاً . وإن كان ورودها في القرآن الكريم لا يثير العجب في نفوسنا ، ولا يزيدنا
يقيناً بصدق هذا القرآن . فنحن نستمد الاعتقاد بصدقه المطلق في كل ما يقرره من إيماننا بأنه من عند الله .
لا من موافقة النظريات أو الكشوف العلمية له . وأقصى ما يقال هنا كذلك : إن نظرية النشوء والارتقاء
لدارون وجماعته لا تعارض مفهوم النص القرآني في هذه النقطة بالذات .

ومنذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً كان القرآن الكريم يوجه أنظار الكفار إلى عجائب صنع الله في الكون ،
ويستنكر ألا يؤمنوا بها وهم يرونها مبثوثة في الوجود : « أفلا يؤمنون ؟ » وكل ما حولهم في الكون يقود إلى
الإيمان بالخالق المدبر الحكيم ؟

ثم يمضي في عرض مشاهد الكون الهائلة :

« وجعلنا في الأرض رواسي أن تمدد بهم » ..

فيقرر أن هذه الجبال الرواسي تحفظ توازن الأرض فلا تمدد بهم ولا تضطرب . وحفظ التوازن يتحقق
في صور شتى . فقد يكون توازناً بين الضغط الخارجي على الأرض والضغط الداخلي في جوفها ، وهو
يختلف من بقعة إلى بقعة : وقد يكون بروز الجبال في موضع معادلاً لانخفاض الأرض في موضع آخر ..
وعلى أية حال فهذا النص يثبت أن للجبال علاقة بتوازن الأرض واستقرارها . فلنترك للبحوث العلمية
كشف الطريقة التي يتم بها هذا التوازن فذلك مجالها الأصيل . ولنكتف من النص القرآني الصادق باللمسة
الوجدانية والتأمل الموحى ، وبتتبع يد القدرة المبدعة المدبرة لهذا الكون الكبير :

« وجعلنا فيها فججاً سبلاً لعلمهم يهتدون » ..

وذكر الفجاج في الجبال وهي الفجوات بين حواجزها العالية ، وتتخذ سبلاً وطرقاً .. ذكر هذه الفجاج

هنا مع الإشارة إلى الاهتداء بصور الحقيقة الواقعة أولاً ، ثم يشير من طرف خفي إلى شأن آخر في عالم العقيدة . فلعلهم يهتدون إلى سبيل يقودهم إلى الإيمان ، كما يهتدون في فجاج الجبال !
« وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً » ..

والسما كل ما علا . ونحن نرى فوقنا ما يشبه السقف . والقرآن يقرر أن السماء سقف محفوظ . محفوظ من الخلل بالنظام الكوني الدقيق . ومحفوظ من الدنس باعتباره رمزاً للعلو الذي تنتزل منه آيات الله ..
« وهم عن آياتها معرضون » ..

« وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون » .

والليل والنهار ظاهرتان كونيتان . والشمس والقمر جرمان هائلان لهما علاقة وثيقة بحياة الإنسان في الأرض . وبالحياء كلها .. والتأمل في توالي الليل والنهار ، وفي حركة الشمس والقمر . بهذه الدقة التي لا تحتل مرة ؛ وبهذا الاطراد الذي لا يكف لحظة .. جدير بأن يهدي القلب إلى وحدة الناموس ، ووحدة الإرادة ، ووحدة الخالق المدبر القدير .

* * *

وفي نهاية الشوط يربط السياق بين نواميس الكون في خلقه وتكوينه وتصريفه ؛ و نواميس الحياة البشرية في طبيعتها ونهايتها ومصيرها :

« وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد . أفان مت فهم الخالدون ؟ كل نفس ذائقة الموت ، ونبلوكم بالشرف والخير فتنه ، وإلينا ترجعون » ..

وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد . فكل حادث فهو فان . وكل ما له بدء فله نهاية . وإذا كان الرسول - صلى الله عليه وسلم - يموت فهل هم يخلدون ؟ وإذا كانوا لا يخلدون فإلهم لا يعملون عمل أهل الموتى ؟ وما لهم لا يتبصرون ولا يتدبرون ؟

« كل نفس ذائقة الموت » . هذا هو الناموس الذي يحكم الحياة . وهذه هي السنة التي ليس لها استثناء . فما أجدد الأحياء أن يحسبوا حساب هذا المذاق !

إنه الموت نهاية كل حي ، وعاقبة المطاف للرحلة القصيرة على الأرض . وإلى الله يرجع الجميع . فأما ما يصيب الإنسان في أثناء الرحلة من خير وشر فهو فتنه له وابتلاء :
« ونبلوكم بالشرف والخير فتنه » ..

والابتلاء بالشرف مفهوم أمره . ليتكشف مدى احتمال المبتلى ، ومدى صبره على الضر ، ومدى ثقته في ربه ، ورجائه في رحمته .. فأما الابتلاء بالخير فهو في حاجة إلى بيان ..

إن الابتلاء بالخير أشد وطأة ، وإن خيل للناس أنه دون الابتلاء بالشرف ..

إن كثيرين يصمدون للابتلاء بالشرف ولكن القلة القليلة هي التي تصمد للابتلاء بالخير .

كثيرون يصبرون على الابتلاء بالمرض والضعف . ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الابتلاء بالصحة والقدرة . ويكبحون جماح القوة الهائجة في كيانهن الجامحة في أوصالهم .

كثيرون يصبرون على الفقر والحرمان فلا تتهاوى نفوسهم ولا تذلل . ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الثراء والوجدان . وما يغريان به من متاع ، وما يثيرانه من شهوات وأطماع !

كثيرون يصبرون على التعذيب والإيذاء فلا يخيفهم ، ويصبرون على التهديد والوعيد فلا يرهبهم . ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الإغراء بالرغائب والمناصب والمتاع والثراء !
 كثيرون يصبرون على الكفاح والجراح ؛ ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الدعة والمراح . ثم لا يصابون بالحرص الذي يذل أعناق الرجال . وبلاسترخاء الذي يقعد الهمم ويذل الأرواح !
 إن الابتلاء بالشدة قد يثير الكبرياء ، ويستحث المقاومة ويجند الأعصاب ، فتكون القوى كلها معبأة لاستقبال الشدة والصمود لها . أما الرخاء فيرخي الأعصاب وينمها ويفقدها القدرة على اليقظة والمقاومة !
 لذلك يجتاز الكثيرون مرحلة الشدة بنجاح ، حتى إذا جاءهم الرخاء سقطوا في الابتلاء ! وذلك شأن البشر .. إلا من عصم الله فكانوا ممن قال فيهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :
 « عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير ، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له » .. وهم قليل !
 فاليقظة للنفس في الابتلاء بالخير أولى من اليقظة لها في الابتلاء بالشر . والصلة بالله في الحالين هي وحدها الضمان ..

وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَخِذُونَكُمْ إِلَّا هُزُوعًا أَهْلًا أَلَّذِي يَذُكُرُ الْمَهْتَكِرَ وَهُمْ يَذُكُرُ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٨﴾

خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾
 لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾

وَلَقَدْ أَسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلِ مَنِ قَبْلِكَ خَفَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤١﴾
 قُلْ مَنْ يَكْفُرْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾

قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصَّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمُ نَفْعَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يُؤَيِّلُنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾

وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكُنَّا بِبَنَى حَسِبِينَ ﴿٤٧﴾

بعد ذلك الشوط البعيد المديد في أرجاء الكون ، وفي نواميس الوجود ، وفي سنن الدعوات ، وفي مصائر البشر ، وفي مصارع الغابرين .. يرتد السياق إلى مثل ما بدأ به في مطلع السورة عن استقبال المشركين للرسول - صلى الله عليه وسلم - وما معه من الوحي ؛ واستهزائهم به وإصرارهم على الشرك .. ثم يتحدث عن طبيعة الإنسان العجول ، واستعجالهم بالعذاب . فيحذروهم ما يستعجلون به . وينذروهم عاقبة الاستهزاء بالرسول - صلى الله عليه وسلم - ويعرض لهم مشهداً من تقلص ظلال الغالين المسيطرين في الدنيا . ومشهداً من عذاب المكذبين في الآخرة . ويختم الشوط بدقة الحساب والجزاء في يوم القيامة . فيربط الحساب والجزاء بنواميس الكون وفطرة الإنسان وسنة الله في حياة البشر وفي الدعوات ..

* * *

« وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزواً . أهذا الذي يذكر آلهتكم ؛ وهم بذكر الرحمن هم كافرون . »

إن هؤلاء الكفار يكفرون بالرحمن ، خالق الكون ومدبره ، ليستنكروا على الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يذكر آلهتهم الأصنام بالسوء ، بينما هم يكفرون بالرحمن دون أن يتحرجوا أو يتلوموا .. وهو أمر عجيب جد عجيب !

وإنهم ليلقون رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالهزاء ، يستكثرون عليه أن ينال من أصنامهم تلك : « أهذا الذي يذكر آلهتكم ؟ » ولا يستكثرون على أنفسهم - وهم عبيد من عبيد الله - أن يكفروا به ، ويعرضوا عما أنزل لهم من قرآن .. وهي مفارقة عجيبة تكشف عن مدى الفساد الذي أصاب فطرتهم وتقديرهم للأمر ! ثم هم يستعجلون بما ينذروهم به الرسول - صلى الله عليه وسلم - من عذاب ؛ ويحذروهم من عاقبته . والإنسان بطبعه عجول :

« خلق الإنسان من عجل . سأريكم آياتي فلا تستعجلون . ويقولون : متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ! » .. « خلق الإنسان من عجل » .. فالعجلة في طبعه وتكوينه . وهو يمد بصره دائماً إلى ما وراء اللحظة الحاضرة يريد ليتناوله بيده ، ويريد ليحقق كل ما يخطر له بمجرد أن يخطر بباله ، ويريد أن يستحضر كل ما يوعد به ولو كان في ذلك ضرره وإيذاؤه . ذلك إلا أن يتصل بالله فيثبت ويطمئن ، ويكل الأمر لله فلا يتعجل قضاءه . والإيمان ثقة وصبر واطمئنان .

وهؤلاء المشركون كانوا يستعجلون بالعذاب ، ويسألون متى هذا الوعد . الوعد بعذاب الآخرة وعذاب الدنيا .. فهذا هو ذا القرآن يرسم لهم مشهداً من عذاب الآخرة ، ويحذرهم ما أصاب المستهزئين قبلهم من عذاب الدنيا :

« لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون . بل تأتيهم بغتة فتبهم ، فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون .. ولقد استهزىء برسلك من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون » .

لو يعلمون ما سيكون لكان لهم شأن غير شأنهم ، ولكفوا عن استهزائهم واستعجالهم .. فلينظروا ماذا سيكون . ها هم أولاء تنوشهم النار من كل جانب ، فيحاولون في حركة مخيلة - يرسمها التعبير من وراء السطور - أن يكفوا النار عن وجوههم وعن ظهورهم ، ولكنهم لا يستطيعون . وكأنما تلقفتهم النار من كل جانب ، فلا هم يستطيعون ردها ، ولا هم يؤخرون عنها ، ولا هم يمهلون إلى أجل قريب . وهذه المباحثة جزاء الاستعجال . فلقد كانوا يقولون : « متى هذا الوعد إن كنتم صادقين » فكان الرد هو هذه البغطة التي تذهل العقول ، وتشل الإرادة ، وتعجزهم عن التفكير والعمل ، وتحرمهم مهلة الإنظار والتأجيل .

ذلك عذاب الآخرة . فأما عذاب الدنيا فقد حل بالمستهزئين قبلهم . فإذا كانوا هم لم يقدر عليهم عذاب الاستئصال ، فعذاب القتل والأسر والغلب غير ممنوع . وليحذروا الاستهزاء برسولهم . وإلا فصيّر المستهزئين بالرسول معروف ، جرت به السنة التي لا تتخلف وشهدت به مصارع المستهزئين .

أم إن لهم من يرعاهم بالليل والنهار غير الرحمن ، ويمنعهم من العذاب في الدنيا أو الآخرة من دون الله ؟ « قل : من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن ؟ بل هم عن ذكر ربهم معرضون . أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا ؟ لا يستطيعون نصر أنفسهم ، ولا هم منا يصحبون » .

إن الله هو الحارس على كل نفس بالليل والنهار . وصفته هي الرحمة الكبرى ، وليس من دونه راع ولا حام . فاسألهم : هل لهم حارس سواه ؟

وهو سؤال للإنكار ، وللتوبيخ على غفلتهم عن ذكر الله ، وهو الذي يكلؤهم بالليل والنهار ، ولا راعي لهم سواه : « بل هم عن ذكر ربهم معرضون » .

ثم يعيد عليهم السؤال في صورة أخرى : « أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا ؟ » فتكون هي التي تحرسهم إذن وتحفظهم ؟ كلا فهؤلاء الآلهة « لا يستطيعون نصر أنفسهم » فهم من باب أولى لا يستطيعون نصر سواهم . « ولا هم منا يصحبون » فيستمدوا القوة من صحبة القدرة لهم - كما استمدتها هارون وموسى وربهما يقول لهما : « إنني معكما أسمع وأرى » ..

إن هذه الآلهة مجردة من القوة بذاتها ؛ وليس لها مدد من الله تستمد منه القوة . فهي عاجزة عاجزة .

وبعد هذا الجدل التهكمي الذي يكشف عن سخف ما يعتقد المشركون وخوائه من المنطق والدليل .. يضرب السياق عن مجادلتهم ؛ ويكشف عن علة لجأهم ؛ ثم يلمس وجدانهم لسة تهر القلوب ، وهو يوجهها إلى تأمل يد القدرة ، وهي تطوي رقعة الأرض تحت أقدام الغالبين ، وتقص أطرافها فتردهم إلى حيز منها منزو صغير ، بعد السعة والمنعة والسلطان !

« بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر . أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها ؟ أفهم الغالبون ؟ » ..

فهو المتاع الطويل الموروث الذي أفسد فطرتهم . والمتاع ترف . والترف يفسد القلب ويبلد الحس . ويتبي إلى ضعف الحساسية بالله ، وانطماس البصيرة دون تأمل آياته . وهذا هو الابتلاء بالنعمة حين لا يستيقظ الإنسان لنفسه ويراقبها ، ويصلها دائماً بالله ، فلا تنساه .

ومن ثم يلمس السياق وجدانهم بعرض المشهد الذي يقع كل يوم في جانب من جنبات الأرض حيث تطوى رقعة الدول المتغلبة وتنحسر وتقلص . فإذا هي دويلات صغيرة وكانت امبراطوريات . وإذا هي مغلوبة على أمرها وكانت غالبية . وإذا هي قليلة العدد وكانت كثيرة . قليلة الخيرات وكانت فائضة بالخيرات .. والتعبير يرسم يد القدرة وهي تطوي الرقعة وتنقص الأطراف وتزوي الأبعاد ... فإذا هو مشهد ساحر فيه الحركة اللطيفة ، وفيه الرهبة المخيفة !

« أفهم الغالبون ؟ فلا يجري عليهم ما يجري على الآخرين ؟

* * *

وفي ظل هذا المشهد الذي ترتعش له القلوب يؤمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يلقي كلمة الإنذار :
« قل : إنما أنذركم بالوحي ولا يسمع الصم الدعاء إذا ما ينذرون » ..
فليحذروا أن يكونوا هم الصم الذين لا يسمعون ! فتطوى رقعة الأرض تحت أقدامهم ، وتقص يد القدرة أطرافهم ، وتتحيفهم وما هم فيه من متاع !!

ويتابع السياق إيقاعه المؤثر في القلوب ، فيصورهم لأنفسهم حين يمسهم العذاب :
« ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك ليقولن : يا ويلنا إنا كنا ظالمين » ..

والنفحة تطلق غالباً في الرحمة . ولكنها هنا تطلق في العذاب . كأنما يقال : إن أخف مسة من عذاب ربك تطلقهم يجأرون بالاعتراف . ولكن حيث لا يجدي الاعتراف . فلقد سبق في سياق السورة مشهد القرى التي أخذها بأس الله ، فنادى أهلها : « يا ويلنا إنا كنا ظالمين . فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين » ..

وإذن فهو الاعتراف بعد فوات الأوان . ولخير منه أن يسمعوا نذير الوحي وفي الوقت متسع ، قبل أن تمسهم نفحة من العذاب !

* * *

ويحتم الشوط بالإيقاع الأخير من مشاهد يوم الحساب :
« ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً . وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها . وكفى بنا حاسبين » ..

والحبة من خردل تصور أصغر ما تراه العيون وأخفه في الميزان ، وهي لا تترك يوم الحساب ولا تضع . والميزان الدقيق يشيل بها أو يميل !

فلتنظر نفس ما قدمت لغد . وليصغ قلب إلى النذير . وليبادر الغافلون المعرضون المستهترون قبل أن يحق النذير في الدنيا أو في الآخرة . فإنهم إن نجوا من عذاب الدنيا فهناك عذاب الآخرة الذي تعد موازينه ،

فلا تظلم نفس شيئاً ، ولا يهمل مثقال حبة من خردل .
وهكذا ترتبط موازين الآخرة الدقيقة ، بنواميس الكون الدقيقة ، بسنن الدعوات ، وطبائع الحياة والناس . وتلتقي كلها متناسقة موحدة في يد الإرادة الواحدة مما يشهد لقضية التوحيد وهي محور السورة الأصيل .

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ الَّذِينَ يَحْشُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٠﴾

* وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾

قَالُوا مِن فَعَلْ هَذَا بِإِلَهِنَا إِنهٗ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتَىٰ يَدْعُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأَتُوا بِهِ عَلَىٰ عَيْنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾

قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِإِلَهِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسَعَوْهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نَكَسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾

وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۗ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ

أَنْعَمْتَ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ ﴿٧٢﴾
 وَلَوْ طَاءَ آتَيْنَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرِيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبِيثَاتِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ
 فَسَقِينَ ﴿٧٣﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٤﴾
 وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٥﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ
 كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٦﴾
 وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَمَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٧﴾ فَفَهَّمْنَاهَا
 سُلَيْمَانَ وَكُلَّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحُونَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٨﴾ وَعَلَّمْنَاهُ
 صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكَرِهُ لِيُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٧٩﴾ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى
 الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكَاتٌ فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ ﴿٨٠﴾ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا
 دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾
 * وَيَأْيُوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٢﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرِّهِ
 وَعَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ ﴿٨٣﴾
 وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾
 وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي
 كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُخَيِّبُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾
 وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٨﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يُحْيِي
 وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْأَعْيَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٨٩﴾
 وَالَّتِي أَحْصَيْنَا فَرَجَّهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَاءَ آيَةَ لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾
 إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩١﴾

هذا الشوط الثالث يستعرض أمة الرسل . لا على وجه الحصر . يشير إلى بعضهم مجرد إشارة ؛ ويفصل ذكر بعضهم تفصيلاً مطولاً ومختصراً .

وتتجلى في هذه الإشارات والحلقات رحمة الله وعنايته برسله ، وعواقب المكذبين بالرسل بعد أن جاءتهم البينات . كما تتجلى بعض الاختبارات للرسل بالخير وبالضرر ، وكيف اجتازوا الابتلاء .

كذلك تتجلى سنة الله في إرسال الرسل من البشر . ووحدة العقيدة والطريق ، لجماعة الرسل على مدار الزمان ؛ حتى لكأنهم أمة واحدة على تباعد الزمان والمكان .

وتلك إحدى دلائل وحدانية الألوهية المبدعة ، ووحداية الإرادة المدبرة ، ووحداية الناموس الذي يربط سنن الله في الكون ، ويؤلف بينها ، ويوجهها جميعاً وجهة واحدة ، إلى معبود واحد : « وأنا ربكم فاعبدون »

* * *

« ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكراً للمتقين . الذين يخشون ربهم بالغيب ، وهم من الساعة مشفقون . وهذا ذكر مبارك أنزلناه ، أفأنتم له منكرون ؟ » .

ولقد سبق في سياق السورة أن المشركين كانوا يستهزئون بالرسول - صلى الله عليه وسلم - لأنه بشر . وأنهم كانوا يكذبون بالوحي ، ويقولون : إنه سحر أو شعر أو اقراء .

فها هو ذا يكشف لهم أن إرسال الرسل من البشر هي السنة المطردة ، وهذه نماذج لها من قبل . وأن نزول الكتب على الرسل ليس بدعة مستغربة فهاهما دان موسى وهارون آتاهما الله كتاباً .

ويسمى هذا الكتاب « الفرقان » وهي صفة القرآن . فهناك وحدة حتى في الاسم . ذلك أن الكتب المنزلة كلها فرقان بين الحق والباطل ، وبين الهدى والضلال ، وبين منهج في الحياة ومنهج ، واتجاه في الحياة واتجاه . فهي في عمومها فرقان . وفي هذه الصفة تلتقي التوراة والقرآن .

وجعل التوراة كذلك ، « ضياء » يكشف ظلمات القلب والعقيدة ، وظلمات الضلال والباطل . وهي ظلمات يتوه فيها العقل ويضل فيها الضمير . وإن القلب البشري ليظل مظلماً حتى تشرق فيه شعلة الإيمان ، فتتبرج جوانبه ، ويتكشف له منهجه ، ويستقيم له اتجاهه ، ولا تختلط عليه القيم والمعاني والتقدير .

وجعل التوراة كالقرآن « ذكراً للمتقين » تذكروهم بالله ، وتبقي لهم ذكراً في الناس . وماذا كان بنو إسرائيل قبل التوراة ؟ كانوا أذلاء تحت سياط فرعون ، يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم ويستذلهم بالسخر والإيذاء . ويخص المتقين « الذين يخشون ربهم بالغيب » لأن الذين تستشعر قلوبهم خشية الله ولم يروه ، « وهم من الساعة مشفقون » فيعملون لها ويستعدون هؤلاء هم الذين ينتفعون بالضياء ، ويسيروا على هده ، فيكون كتاب الله لهم ذكراً ، يذكروهم بالله ، ويرفع لهم ذكراً في الناس .

ذلك شأن موسى وهارون . . « وهذا ذكر مبارك أنزلناه » فليس بدعاً ولا عجباً ، إنما هو أمر مسبوق وسنة معروفة « أفأنتم له منكرون ؟ » فإذا تنكرون منه ، وقد سبقت به الرسالات ؟

* * *

وبعد الإشارة السريعة إلى موسى وهارون وكتابهما يرتد السياق إلى حلقة كاملة من قصة إبراهيم ، وهو جد العرب الأكبر وباني الكعبة التي يحشدون فيها الأصنام ، ويعكفون عليها بالعبادة ، وهو الذي حطم الأصنام من قبل . والسياق يعرضه هنا وهو يستنكر الشرك ويحطم الأصنام .

والحلقة المعروفة هنا هي حلقة الرسالة . وهي مقسمة إلى مشاهد متتابعة ، بينها فجوات صغيرة . وهي تبدأ بالإشارة إلى سبق هداية إبراهيم إلى الرشد . ويعني به الهداية إلى التوحيد . فهذا هو الرشد الأكبر الذي تنصرف إليه لفظة « الرشد » في هذا المقام .

« ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل ، وكنا به عالمين » ..

آتينا رشده ، وكنا عالمين بحاله وباستعداده لحمل الأمانة التي يحملها المرسلون .

« إذ قال لأبيه وقومه : ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ؟ » ..

فكانت قوله هذه دليل رشده .. سمى تلك الأحجار والخشب باسمها : « هذه التماثيل » ولم يقل : إنها آلهة ، واستنكر أن يعكفوا عليها بالعبادة . وكلمة « عاكفون » تفيد الانكباب الدائم المستمر . وهم لا يقضون وقتهم كله في عبادتها . ولكنهم يتعلقون بها . فهو عكوف معنوي لازمني . وهو يسخف هذا التعلق وييشعه بتصويرهم منكبين أبدأً على هذه التماثيل !

فكان جوابهم وحجتهم أن

« قالوا : وجدنا آباءنا لها عابدين » !

وهو جواب يدل على التحجر العقلي والنفسي داخل قوالب التقليد الميتة ، في مقابل حرية الإيمان ، وانطلاقه للنظر والتدبر ، وتقويم الأشياء والأوضاع بقيمتها الحقيقية لا التقليدية . فالإيمان بالله طلاقة وتحرر من القداسات الوهمية التقليدية ، والوراثات المتحجرة التي لا تقوم على دليل :

« قال : لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين » ..

وما كانت عبادة الآباء لتكسب هذه التماثيل قيمة ليست لها ، ولا لتخلع عليها قداسة لا تستحقها . فالقيم لا تنبع من تقليد الآباء وتقديسهم ، إنما تنبع من التقويم المتحرر الطليق .

وعندما واجههم إبراهيم بهذه الطلاقة في التقدير ، وبهذه الصراحة في الحكم ، راحوا يسألون :

« قالوا : أجتئنا بالحق أم أنت من اللاعين ؟ » ..

وهو سؤال المزعزع العقيدة ، الذي لا يطمئن إلى ما هو عليه ، لأنه لم يتدبره ولم يتحقق منه . ولكنه كذلك معطل الفكر والروح بتأثير الوهم والتقليد . فهو لا يدري أي الأقوال حق . والعبادة تقوم على اليقين لا على الوهم المزعزع الذي لا يستند إلى دليل ! وهذا هو التيه الذي يجنط فيه من لا يدينون بعقيدة التوحيد الناصعة الواضحة المستقيمة في العقل والضمير .

فأما إبراهيم فهو مستيقن واثق عارف بربه ، متمثل له في خاطره وفكره ، يقوها كلمة المؤمن المطمئن لإيمانه :

« قال : بل ربكم رب السماوات والأرض الذي فطرهن ، وأنا على ذلكم من الشاهدين » .

فهو رب واحد . رب الناس ورب السماوات والأرض . ربوبيته ناشئة عن كونه الخالق . فهما صفتان لا تفككان : « بل ربكم رب السماوات والأرض الذي فطرهن » .. فهذه هي العقيدة المستقيمة الناصعة ، لا كما يعتقد المشركون أن الآلهة أرباب ، في الوقت الذي يقرون أنها لا تخلق ، وأن الخالق هو الله . ثم هم يعبدون تلك الآلهة التي لا تخلق شيئاً وهم يعلمون !

إنه واثق وثوق الذي يشهد على واقع لا شك فيه : « وأنا على ذلكم من الشاهدين » .. وإبراهيم - عليه السلام - لم يشهد خلق السماوات والأرض ، ولم يشهد خلق نفسه ولا قومه .. ولكن الأمر من الوضوح

والثبوت إلى حد أن يشهد المؤمنون عليه واثقين .. إن كل ما في الكون لينطق بوحدة الخالق المدبر . وإن كل ما في كيان الإنسان ليهتف به إلى الإقرار بوحدانية الخالق المدبر ، وبوحدة التاموس الذي يدبر الكون ويصرفه . ثم يعلن إبراهيم لمن كان يواجههم من قومه بهذا الحوار . أنه قد اعتزم في شأن آلهتهم أمراً لا رجعة فيه : « وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين » ..

ويترك ما اعتز به من الكيد للأصنام مبهماً لا يفصح عنه... ولا يذكر السياق كيف ردوا عليه . ولعلمهم كانوا مطمئنين إلى أنه لن يستطيع لآلهتهم كيدا . فتركوه !
« فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون » ..

وتحولت الآلهة المعبودة إلى قطع صغيرة من الحجارة والأخشاب المهشمة .. إلا كبير الأصنام فقد تركه إبراهيم « لعلهم إليه يرجعون » فيسألونه كيف وقعت الواقعة وهو حاضر فلم يدفع عن صغار الآلهة ! ولعلمهم حينئذ يرجعون القضية كلها ، فيرجعون إلى صوابهم ، ويدركون منه ما في عبادة هذه الأصنام من سخف وتهافت . وعاد القوم ليروا آلهتهم جذاذاً إلا ذلك الكبير ! ولكنهم لم يرجعوا إليه يسألونه ولا إلى أنفسهم يسألونها : إن كانت هذه آلهة فكيف وقع لها ما وقع دون أن تدفع عن أنفسها شيئاً . وهذا كبيرها كيف لم يدفع عنها ؟ لم يسألوا أنفسهم هذا السؤال ، لأن الخرافة قد عطلت عقولهم عن التفكير ، ولأن التقليد قد غل أفكارهم عن التأمل والتدبر . فإذا هم يدعون هذا السؤال الطبيعي لينقموا على من حطم آلهتهم ، وصنع بها هذا الصنيع : « قالوا : من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين » ..

عندئذ تذكر الذين سمعوا إبراهيم ينكر على أبيه ومن معه عبادة هذه التماثيل ، ويتوعدهم أن يكيد لآلهتهم بعد انصرافهم عنها !

« قالوا : سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم » ..

ويبدو من هذا أن إبراهيم - عليه السلام - كان شاباً صغير السن ، حينما آتاه الله رشده ، فاستنكر عبادة الأصنام وحطمها هذا التحطم . ولكن أكان قد أوحى إليه بالرسالة في ذلك الحين ؟ أم هو إلهام هداة إلى الحق قبل الرسالة . فدعا إليه أباه ، واستنكر على قومه ما هم فيه ؟ هذا هو الأرجح ..

وهناك احتمال أن يكون قولهم : « سمعنا فتى » يقصد به إلى تصغير شأنه بدليل تجهيلهم لأمره في قولهم : « يقال له إبراهيم ! » للتقليل من أهميته ، وإفادة أنه مجهول لا خطر له ؟ قد يكون . ولكننا نرجح أنه كان فتى حديث السن في ذلك الحين .

« قالوا : فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون » ..

وقد قصدوا إلى التشهير به ، وإعلان فعلته على رؤوس الأشهاد !

« قالوا : أنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ؟ » ..

فهم ما يزالون يصرون على أنها آلهة وهي جذاذ مهشمة . فأما إبراهيم فهو يتهم بهم ويسخر منهم ، وهو فرد وحده وهم كثير . ذلك أنه ينظر بعقله المفتوح وقلبه الواصل فلا يملك إلا أن يهزأ بهم ويسخر ، وأن يجيبهم إجابة تناسب هذا المستوى العقلي الدون :

« قال : بل فعله كبيرهم هذا . فاسألوهم إن كانوا ينطقون » ..

والتهكم واضح في هذا الجواب الساخر. فلا داعي لتسمية هذه كذبة من إبراهيم - عليه السلام - والبحث عن تحليلها بشتى العلل التي اختلف عليها المفسرون. فالأمر أيسر من هذا بكثير! إنما أراد أن يقول لهم: إن هذه التماثيل لا تدري من حطمها إن كنت أنا أم هذا الصنم الكبير الذي لا يملك مثلها حراكاً. فهي جماد لا إدراك له أصلاً. وأتم كذلك مثلها مسلوبو الإدراك لا تميزون بين الجائز والمستحيل. فلا تعرفون إن كنت أنا الذي حطمتها أم إن هذا التمثال هو الذي حطمها! « فاسألوهم إن كانوا ينطقون »!

ويبدو أن هذا التهكم الساخر قد هزهم هزاً، وردد هم إلى شيء من التدبر والتفكير: « فرجعوا إلى أنفسهم ، فقالوا: إنكم أتم الظالمون » ..

وكانت بادرة خير أن يستشعروا ما في موقفهم من سخف ، وما في عبادتهم لهذه التماثيل من ظلم . وأن تتفتح بصيرتهم لأول مرة فيتدبروا ذلك السخف الذي يأخذون به أنفسهم ، وذلك الظلم الذي هم فيه سادرون . ولكنها لم تكن إلا ومضة واحدة أعقبتها الظلام ، وإلا خفقة واحدة عادت بعدها قلوبهم إلى الخمود :

« ثم نكسوا على رؤوسهم . لقد علمت ما هؤلاء ينطقون » !

وحقاً لقد كانت الأولى رجعة إلى النفوس ، وكانت الثانية نكسة على الرؤوس ؛ كما يقول التعبير القرآني المصور العجيب .. كانت الأولى حركة في النفس للنظر والتدبر . أما الثانية فكانت انقلاباً على الرأس فلا عقل ولا تفكير . وإلا فإن قولهم هذا الأخير هو الحجة عليهم . وأية حجة لإبراهيم أقوى من أن هؤلاء لا ينطقون ؟ !

ومن ثم يجبههم بعنف وضيق على غير عادته وهو الصبور الحليم . لأن السخف هنا يجاوز صبر الحليم :

« قال : أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم ؟ أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ؟ ! »

وهي قولة يظهر فيها ضيق الصدر ، وغيظ النفس ، والعجب من السخف الذي يتجاوز كل مألوف . عند ذلك أخذتهم العزة بالإثم كما تأخذ الطغاة دائماً حين يفقدون الحجة ويعوزهم الدليل ، فيلجأون إلى القوة الغاشمة والعذاب الغليظ :

« قالوا : حرّوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين » ..

فيا لها من آلهة ينصرها عبادها ، وهي لا تملك لأنفسها نفعاً ولا ضرراً ؛ ولا تحاول لها ولا لعبادها نصراً !

« قالوا : حرّوه » ولكن كلمة أخرى قد قيلت .. فأبطلت كل قول ، وأحبطت كل كيد . ذلك أنها الكلمة العليا التي لا ترد :

« قلنا : يانار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم » ..

فكانت برداً وسلاماً على إبراهيم ..

كيف ؟

ولماذا نسأل عن هذه وحدها . و« كوني » هذه هي الكلمة التي تكون بها أكوان ، وتنشأ بها عوالم ، وتخلق بها نواميس : « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له : كن فيكون » .

فلا نسأل : كيف لم تحرق النار إبراهيم ، والمشهود المعروف أن النار تحرق الأجسام الحية ؟ فالذي قال للنار : كوني حارقة . هو الذي قال لها : كوني برداً وسلاماً . وهي الكلمة الواحدة التي تنشئ مدلولها عند قولها كيفما كان هذا المدلول . مألوفاً للبشر أو غير مألوف .

إن الذين يقيسون أعمال الله سبحانه إلى أعمال البشر هم الذين يسألون : كيف كان هذا ؟ وكيف أمكن أن يكون ؟ فأما الذين يدركون اختلاف الطبيعتين ، واختلاف الأداتين ، فإنهم لا يسألون أصلاً ، ولا يحاولون أن يخلقوا تعليلاً . علمياً أو غير علمي . فالمسألة ليست في هذا الميدان أصلاً . ليست في ميدان التعليل والتحليل بموازين البشر ومقاييس البشر . وكل منهج في تصور مثل هذه المعجزات غير منهج الإحالة إلى القدرة المطلقة هو منهج فاسد من أساسه ، لأن أعمال الله غير خاضعة لمقاييس البشر وعلمهم القليل المحدود .

إن علينا فقط أن نؤمن بأن هذا قد كان ، لأن صانعه يملك أن يكون . أما كيف صنع بالنار فإذا هي برد وسلام ؟ وكيف صنع إبراهيم فلا تحرقه النار . . . فذلك ما سكنت عنه النص القرآني لأنه لا سبيل إلى إدراكه بعقل البشر المحدود . وليس لنا سوى النص القرآني من دليل .

وما كان تحويل النار برداً وسلاماً على إبراهيم إلا مثلاً تقع نظائره في صور شتى . ولكنها قد لا تهز المشاعر كما يهزها هذا المثل السافر الجاهر . فكم من ضيقات وكربات تحيط بالأشخاص والجماعات من شأنها أن تكون القاصمة القاضية ، وإن هي إلا لفتة صغيرة ، فإذا هي تحيي ولا تميت ، وتنعش ولا تخمد ، وتعود بالخير وهي الشر المستطير .

إن « يانار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم » لتتكرر في حياة الأشخاص والجماعات والأمم ؛ وفي حياة الأفكار والعقائد والدعوات . وإن هي إلا رمز للكلمة التي تبطل كل قول ، وتحبط كل كيد ، لأنها الكلمة العليا التي لا ترد !

« وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخرسين » . .

وقد روي أن المملك المعاصر لإبراهيم كان يلقب « بالنمرود » وهو ملك الآراميين بالعراق . وأنه قد أهلك هو والملا من قومه بعذاب من عند الله . تختلف الروايات في تفصيلاته ، وليس لنا عليها من دليل . المهم أن الله قد أنجى إبراهيم من الكيد الذي أريد به ، وباء الكائدون له بخسارة ما بعدها خسارة « فجعلناهم الأخرسين » هكذا على وجه الإطلاق دون تحديد !

« ونجيناه ولو طأ إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين » . .

وهي أرض الشام التي هاجر إليها هو وابن أخيه لوط . فكانت مهبط الوحي فترة طويلة . ومبعث الرسل من نسل إبراهيم . وفيها الأرض المقدسة . وثاني الحرمين . وفيها بركة الخصب والرزق ، إلى جانب بركة الوحي والنبوة جيلاً بعد جيل .

« ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة ، وكلاً جعلنا صالحين . وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا ، وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وكانوا لنا عابدين » . .

لقد ترك إبراهيم - عليه السلام - وطناً وأهلاً وقوماً . فعوضه الله الأرض المباركة ووطناً خيراً من وطنه . وعوضه ابنه إسحاق وحفيده يعقوب أهلاً خيراً من أهله . وعوض من ذريته أمة عظيمة العدد قوماً خيراً من قومه . وجعل من نسله أئمة يهدون الناس بأمر الله ؛ وأوحى إليهم أن يفعلوا الخيرات على اختلافها ، وأن يقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة . وكانوا طائعين لله عابدين . . فنعم العوض ، ونعم الجزاء ، ونعمت الخاتمة التي قسمها الله لإبراهيم . لقد ابتلاه بالضرء فصبر ، فكانت الخاتمة الكريمة اللائقة بصبره الجميل .

* * *

« ولو طأ آتيناه حكماً وعلماً ؛ ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخباث ، إنهم كانوا قوم سوء فاسقين .

وأدخلناه في رحمتنا إنه من الصالحين» ..

وقصة لوط قد سبقت مفصلة . وهو يشير إليها هنا مجرد إشارة . وقد صحب عمه إبراهيم من العراق إلى الشام ، وأقام في قرية سدوم . وكانت تعمل الخبائث . وهي إتيان الفاحشة مع الذكور جهرة وبلا حياء أو تحرج . فأهلك الله القرية وأهلها : « إنهم كانوا قوم سوء فأسقين » . وأنجى لوطاً وأهله إلا امرأته . « وأدخلناه في رحمتنا إنه من الصالحين » .. وكأنما الرحمة مأوى وملاذ يدخل الله فيه من يشاء ، فإذا هو آمن ناعم مرحوم .

* * *

ويشير إلى نوح إشارة سريعة كذلك :

« ونوحاً إذ نادى من قبل فاستجبنا له ، فنجيناه وأهله من الكرب العظيم . ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا ، إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين » .. وهي إشارة كذلك لا تفصيل فيها . لإثبات استجابة الله لنوح - عليه السلام - حين ناداه « من قبل » وهو سابق لإبراهيم ولوط . ولقد أنجاه الله وأهله كذلك . إلا امرأته ، وأهلك قومه بالطوفان وهو « الكرب العظيم » الذي وصفه بالتفصيل في سورة هود .

* * *

ثم يفصل بعض الشيء في حلقة من قصة داود وسليمان :

« وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم ؛ وكنا لحكمهم شاهدين . ففهمناها سليمان . وكلاً آتينا حكماً وعلماً . وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير . وكنا فاعلين . وعلماناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم ، فهل أنتم شاكرون ؟ » .

« وللسليمان الريح عاصفة تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها ، وكنا بكل شيء عالمين . ومن الشياطين من يغوصون له ، ويعملون عملاً دون ذلك ، وكنا لهم حافظين » ..

وقصة الحرث التي حكم فيها داود وسليمان يقول الرواة في تفصيلها : إن رجلين دخلا على داود ، أحدهما صاحب حرث أي حقل وقيل حديقة كرم - والآخر صاحب غنم . فقال لصاحب الحرث : إن غنم هذا قد نفشت في حرثي - أي انطلقت فيه ليلاً - فلم تبق منه شيئاً . فحكم داود لصاحب الحرث أن يأخذ غنم خصمه في مقابل حرثه .. ومر صاحب الغنم بسليمان ؛ فأخبره بقضاء داود . فدخل سليمان على أبيه فقال : يانبي الله إن القضاء غير ما قضيت . فقال : كيف ؟ قال : ادفع الغنم إلى صاحب الحرث لينتفع بها ، وادفع الحرث إلى صاحب الغنم ليقوم عليه حتى يعود كما كان . ثم يعيد كل منهما إلى صاحبه ما تحت يده . فيأخذ صاحب الحرث حرثه ، وصاحب الغنم غنمه .. فقال داود : القضاء ما قضيت . وأمضي حكم سليمان .

وكان حكم داود وحكم سليمان في القضية اجتهاداً منهما . وكان الله حاضرًا حكمهما ، فألمح سليمان حكماً أحكم ، وفهمه ذلك الوجه وهو أصوب .

لقد اتجه داود في حكمه إلى مجرد التعويض لصاحب الحرث . وهذا عدل فحسب . ولكن حكم سليمان تضمن مع العدل البناء والتعمير ، وجعل العدل دافعاً إلى البناء والتعمير . وهذا هو العدل الحي الإيجابي في صورته البانية الدافعة . وهو فتح من الله وإلهام يهبه من يشاء .

ولقد أوتي داود وسليمان كلاهما الحكمة والعلم : « وكلاً آتينا حكماً وعلماً » .. وليس في قضاء داود من

خطأ ، ولكن قضاء سليمان كان أصوب ، لأنه من نبع الإلهام .

ثم يعرض السياق ما اختص به كلا منهما . فيبدأ بالوالد :

« وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير . وكنا فاعلين . وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم ، فهل أنتم شاكرون ؟ » .

وقد عرف داود - عليه السلام - بمزاميره . وهي تساييح لله كان يرتلها بصوته الحنون ، فتتجاوب أصدائها حوله ، وترجع معه الجبال والطير ..

وحينا يتصل قلب عبد بربه فإنه يحس الاتصال بالوجود كله ؛ وينبض قلب الوجود معه ؛ وتتراح العوائق والحواجز الناشئة عن الشعور بالفوارق والفواصل التي تميز الأنواع والأجناس ، وتقيم بينها الحدود والحواجز ، وعندئذ تتلاقى ضمائرها وحقائقها في ضمير الكون وحقيقته .

وفي لحظات الإشراق تحس الروح باندماجها في الكل ، واحتوائها على الكل .. عندئذ لا تحس بأن هنالك ما هو خارج عن ذاتها ؛ ولا بأنها هي متميزة عما حولها . فكل ما حولها مندمج فيها وهي مندمجة فيه . ومن النص القرآني نتصور داود وهو يرتل مزاميره ، فيسهو عن نفسه المنفصلة المتميزة المتحيزة . وتهيم روحه في ظلال الله في هذا الكون ومجاليه ومخلوقاته الجوامد منها والأحياء . فيحس ترجيعها ، ويتجاوب معها كما تتجاوب معه . وإذا الكون كله فرقة مرتلة عازفة مسبحة بجلال الله وحمده . « وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » .. إنما يفقهه من يتجرد من الحواجز والفواصل ، وينطلق مع أرواح الكائنات ، المتجهة كلها إلى الله .

« وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير » .. « وكنا فاعلين » فما هنالك من شيء يعز على القدرة أو يتأبى حين تريد . يستوي أن يكون مألوفاً للناس أو غير مألوف .

« وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم ، فهل أنتم شاكرون ؟ » ..

تلك هي صنعة الدروع حلقاً متداخلة ، بعد أن كانت تصنع صفيحة واحدة جامدة . والزرذ المتداخل أيسر استعمالاً وأكثر مرونة ، ويبدو أن داود هو الذي ابتدع هذا النوع من الدروع بتعليم الله . والله يمن على الناس أن علم داود هذه الصناعة لوقايتهم في الحرب : « لتحصنكم من بأسكم » وهو يسألهم سؤال توجيه وتحضيض : « فهل أنتم شاكرون ؟ » ..

والحضارة البشرية سارت في طريقها خطوة خطوة وراء الكشوف . ولم تجيء طفرة ، لأن خلافة الأرض تركت لهذا الإنسان ، ولمداركه التي زوده الله بها ليخطو في كل يوم خطوة ؛ ويعيد تنسيق حياته وفق هذه الخطوة . وإعادة تنسيق الحياة وفق نظام جديد ليست سهلة على النفس البشرية ؛ فهي تهز أعماقها ؛ وتغير عاداتها ومألوفها ؛ وتقتضي فترة من الزمان لإعادة الاستقرار الذي تطمئن فيه إلى العمل والإنتاج . ومن ثم شاءت حكمة الله أن تكون هناك فترة استقرار تطول أو تقصر . بعد كل تنسيق جديد .

والقلق الذي يستولي على أعصاب العالم اليوم منشؤه الأول سرعة توالي الهزات العلمية والاجتماعية التي لا تدع للبشرية فترة استقرار ، ولا تدع للنفس فرصة التكيف والتذوق للوضع الجديد .

* * *

ذلك شأن داود . فأما شأن سليمان فهو أعظم :

«ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها ؛ وكنا بكل شيء عالمين . ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملاً دون ذلك . وكنا لهم حافظين » ..

وتدور حول سليمان روايات وتصورات وأقوال ، معظمها مستمد من الإسرائيليات والتخيلات والأوهام . ولكن لا نضل في هذا التيه . فإننا نقف عند حدود النصوص القرآنية وليس وراءها أثر مستيقن في قصة سليمان بالذات .

والنص القرآني هنا يقرر تسخير الريح - وهي عاصفة - لسليمان ، تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها . وهي في الغالب الشام لسبق الإشارة إليها بهذه الصفة في قصة إبراهيم .. فكيف كان هذا التسخير ؟

هنالك قصة بساط الريح الذي قيل : إن سليمان كان يجلس عليه وهو وحاشيته فيطير بهم إلى الشام في فترة وجيزة . وهي مسافة كانت تقطع في شهر على الجمال . ثم يعود كذلك .. وتستند هذه الرواية إلى ما ورد في سورة « سبأ » من قوله : « ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر » ..

ولكن القرآن لم يذكر شيئاً عن بساط الريح ذاك ؛ ولم يرد ذكره كذلك في أي أثر مستيقن . فليس لنا ما نستند عليه لنقرر مسألة البساط .

والأسلم إذن أن نفس تسخير الريح بتوجيهها - بأمر الله - إلى الأرض المباركة في دورة تستغرق شهراً طرداً وعكساً .. كيف ؟ لقد قلنا : إن القدرة الإلهية الطليقة لا تسأل كيف ؟ فخلق النواميس وتوجيهها هو من اختصاص تلك القدرة الطليقة . والمعلوم للبشر من نواميس الوجود قليل . ولا يمتنع أن تكون هناك نواميس أخرى خفية على البشر تعمل ، وتظهر آثارها عندما يؤذن لها بالظهور : « وكنا بكل شيء عالمين » .. العلم المطلق لا كعلم البشر المحدود .

وكذلك تسخير الجن لسليمان - عليه السلام - ليغوصوا في أعماق البحر أو أعماق اليابسة . ويستخرجوا كنوزها المخبوءة لسليمان ؛ أو ليعملوا له أعمالاً غير هذا وذلك .. فالجن كل ما خفي . وقد قررت النصوص القرآنية أن هناك خلقاً يسمون الجن خافين علينا ، فمن هؤلاء سخر الله لسليمان من يغوصون له ويعملون عملاً دون ذلك . وحفظهم فلا يهربون ولا يفسدون ولا يخرجون على طاعة عبده . وهو القاهر فوق عباده يسخرهم حين يشاء كيف يشاء .

وعند هذا الحد المأمون نقف في ظلال النصوص . فلا نسبح في الإسرائيليات .

* * *

لقد ابتلى الله داود وسليمان - عليهما السلام - بالسراء . وقتنتهما في هذه النعمة . فتن داود في القضاء . وفتن سليمان بالخيال الصافنات - كما سيأتي في سورة ص - فلا نتعرض هنا لتفصيلات الفتنة حتى يأتي ذكرها في موضعها . إنما نخلص إلى نتائجها .. لقد صبر داود ، وصبر سليمان للابتلاء بالنعمة - بعد الاستغفار من الفتنة - واجتاز الامتحان في النهاية بسلام ؛ فكانا شاكرين لنعمة الله .

* * *

والآن نجيء إلى الابتلاء بالضراء في قصة أيوب عليه السلام :

« وأيوب إذ نادى ربه أي مسني الضر ، وأنت أرحم الراحمين . فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر ، وآتيناه أهله ومثلهم معهم ، رحمة من عندنا وذكرى للعابدين » ..

وقصة ابتلاء أيوب من أروع قصص الابتلاء . والنصوص القرآنية تشير إلى مجملها دون تفصيل . وهي في هذا الموضوع تعرض دعاء أيوب واستجابة الله للدعاء . لأن السياق سياق رحمة الله بأنبيائه ، ورعايته لهم في الابتلاء . سواء كان الابتلاء بتكذيب قومهم لهم وإيذائهم ، كما في قصص إبراهيم ولوط ونوح . أو بالنعمة في قصة داود وسليمان . أو بالضر كما في حال أيوب ..

وأيوب هنا في دعائه لا يزيد على وصف حاله : « أني مسني الضر » .. ووصف ربه بصفته : « وأنت أرحم الراحمين » . ثم لا يدعو بتغيير حاله ، صبراً على بلائه ، ولا يقترح شيئاً على ربه ، تأدباً معه وتوقيراً . فهو نموذج للبعد الصابر لا يضيق صدره بالبلاء ، ولا يتململ من الضر الذي تضرب به الأمثال في جميع الأعصار . بل إنه ليتحرج أن يطلب إلى ربه رفع البلاء عنه ، فيدع الأمر كله إليه ، اطمئناناً إلى علمه بالحال وغناه عن السؤال .

وفي اللحظة التي توجه فيها أيوب إلى ربه بهذه الثقة وبذلك الأدب كانت الاستجابة ، وكانت الرحمة ، وكانت نهاية الابتلاء : « فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر ، وآتيناه أهله ومثلهم معهم » .. رفع عنه الضر في بدنه فإذا هو معافي صحيح . ورفع عنه الضر في أهله فوضه عن فقدهم ، ورزقه مثلهم . وقيل هم أبناؤه فوهب الله له مثلهم . أو أنه وهب له أبناء وأحفاداً .

« رحمة من عندنا » فكل نعمة فهي رحمة من عند الله ومنة . « وذكرى للعابدين » . تذكرهم بالله وبلائه ، ورحمته في البلاء وبعد البلاء . وإن في بلاء أيوب لمثلاً للبشرية كلها ؛ وإن في صبر أيوب عبرة للبشرية كلها . وإنه لأق للصبير والأدب وحسن العاقبة تتطلع إليه الأبصار .

والإشارة « للعابدين » بمناسبة البلاء إشارة لها مغزاها . فالعابدون معرضون للابتلاء والبلاء . وتلك تكاليف العبادة وتكاليف العقيدة وتكاليف الإيمان . والأمر جد لا لعب . والعقيدة أمانة لا تسلم إلا للأمناء القادرين عليها ، المستعدين لتكاليفها وليست كلمة تقولها الشفاه ، ولا دعوى يدعيها من يشاء . ولا بد من الصبر ليجتاز العابدون البلاء ..

* * *

بعد ذلك يشير السياق مجرد إشارة إلى إسماعيل وإدريس وذي الكفل :

« وإسماعيل وإدريس وذا الكفل . كل من الصابرين . وأدخلناهم في رحمتنا إنهم من الصالحين » .. فهو عنصر الصبر كذلك يشير إليه في قصص هؤلاء الرسل .

فأما إسماعيل فقد صبر على ابتلاء ربه له بالذبح فاستسلم لله وقال : « يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين » .

وأما إدريس فقد سبق إن زمانه مجهول وكذلك مكانه ، وإن هنالك قولاً بأنه ، أوزوريس الذي عبده المصريون بعد موته ، وصاغوا حوله الأساطير . بوصف المعلم الأول للبشر ، الذي علمهم الزراعة والصناعة !

(١) تكثر الأقوال وتبالغ الروايات في الضر الذي مس أيوب . حتى تقول : إنه مرض مرضاً منفراً تحاشاه الناس بسببه وطرحوه خارج المدينة .. وليس وراء هذا القول من سند والرسالة تتنافى مع المرض المنفر . والظاهر من نصوص القرآن أنه أصيب بالضر في أهله ونفسه .. وفي هذا كفاية للابتلاء .

ولكننا لا نملك على هذا دليلاً . فلنعلم أنه كان من الصابرين على نحو من أنحاء الصبر الذي يستحق التسجيل في كتاب الله الباقي .

وأما ذو الكفل فهو كذلك مجهول لا نملك تحديد زمانه ولا مكانه . والأرجح أنه من أنبياء بني إسرائيل . وقيل : إنه من صالحهم ، وأنه تكفل لأحد أنبيائهم قبل موت هذا النبي ، بأن يخلفه في بني إسرائيل على أن يتكفل بثلاث : أن يقوم الليل ويصوم النهار ولا يغضب في القضاء . فوفى بما تكفل به وسمي ذا الكفل لذلك - ولكن هذه ليست سوى أقوال لا دليل عليها . والنص القرآني يكفي في هذا الموضع لتسجيل صفة الصبر لذي الكفل .

« وأدخلناهم في رحمتنا إنهم من الصالحين » . . وهذا هو المقصود بذكرهم في هذا السياق .

* * *

ثم تجيء قصة يونس - عليه السلام - وهو ذو النون .

« وذا النون إذ ذهب مغاضباً . فظن أن لن نقدر عليه . فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين . فاستجينا له ونجيناه من الغم . وكذلك ننجي المؤمنين » . .

وقصة يونس تأتي هنا في صورة إشارة سريعة مراعاة للتناسق في السياق ، وتفصل في سورة الصافات . ولكن لا بد لنا من بعض التفصيل هنا لهذه الإشارة كي تكون مفهومة .

لقد سمي ذا النون - أي صاحب الحوت - لأن الحوت التقمه ثم نبذه . وقصة ذلك أنه أرسل إلى قرية فدعا أهلها إلى الله فاستعصوا عليه ، فضاق بهم صدرأ ، وغادرهم مغاضباً ، ولم يصبر على معاناة الدعوة معهم . ظاناً أن الله لن يضيق عليه الأرض ، فهي فسيحة ، والقرى كثيرة ، والأقوام متعددون . وما دام هؤلاء يستعصون على الدعوة ، فسيوجهه الله إلى قوم آخرين . ذلك معنى « فظن أن لن نقدر عليه » أي أن لن تضيق عليه .

وقاده غضبه الجامح ، وضيقه الخانق ، إلى شاطئ البحر ، فوجد سفينة مشحونة فركب فيها . حتى إذا كانت في اللجة ثقلت ، وقال ربانها : إنه لا بد من إلقاء أحد ركبائها في البحر لينجو سائر من فيها من الغرق . فساهموا فجاء سهم على يونس ، فألقوه أو ألقى هو بنفسه . فالتقمه الحوت . مضيقاً عليه أشد الضيق ! فلما كان في الظلمات : ظلمة جوف الحوت ، وظلمة البحر ، وظلمة الليل نادى : « أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين » . فاستجاب الله دعاءه ، ونجاه من الغم الذي هوفيه . ولفظه الحوت على الساحل . ثم كان من أمره ما يفصله في سورة الصافات . فحسبنا هذا في هذا السياق .

إن في هذه الحلقة من قصة يونس - عليه السلام - لفتات ولمسات نقف أمامها لحظات .

إن يونس لم يصبر على تكاليف الرسالة ، فضاق صدرأ بالقوم ، وألقى عبء الدعوة ، وذهب مغاضباً ، ضيق الصدر ، حرج النفس ، فأوقعه الله في الضيق الذي تهون إلى جانبه مضايقات المكذبين . ولولا أن ثاب إلى ربه ! واعترف بظلمه لنفسه ودعوته وواجبه . لما فرج الله عنه هذا الضيق . ولكنها القدرة حفظته ونجته من الغم الذي يعانیه .

وأصحاب الدعوات لا بد أن يحتملوا تكاليفها ، وأن يصبروا على التكذيب بها ، والإيذاء من أجلها . وتكذيب الصادق الواثق مرير على النفس حقاً . ولكنه بعض تكاليف الرسالة . فلا بد لمن يكلفون حمل

الدعوات أن يصبروا ويحتملوا ، ولا بد أن يثابروا ويثبتوا . ولا بد أن يكرروا الدعوة ويبدؤوا فيها ويعيدوا . إنهم لا يجوز لهم أن يأسوا من صلاح النفوس واستجابة القلوب ، مهما واجهوا من إنكار وتكذيب ، ومن عتو وجحود . فإذا كانت المرة المائة لم تصل إلى القلوب ، فقد تصل المرة الواحدة بعد المائة . . وقد تصل المرة الواحدة بعد الألف . . ولو صبروا هذه المرة وحاولوا ولم يقنطوا لتفتحت لهم أرصاد القلوب !

إن طريق الدعوات ليس هيناً ليناً . واستجابة النفوس للدعوات ليست قريبة يسيرة . فهناك ركام من الباطل والضلال والتقاليد والعادات ، والنظم والأوضاع ، يجثم على القلوب . ولا بد من إزالة هذا الركام . ولا بد من استحياء القلوب بكل وسيلة . ولا بد من لمس جميع المراكز الحساسة . ومن محاولة العثور على العصب الموصل . . وإحدى اللمسات ستصادف مع المثابرة والصبر والرجاء . ولمسة واحدة قد تحول الكائن البشري تحويلاً تاماً في لحظة متى أصابت اللمسة موضعها . وإن الإنسان ليدهش أحياناً وهو يحاول ألف محاولة ، ثم إذا لمسة عابرة تصيب موضعها في الجهاز البشري فينتفض كله بأيسر مجهود ، وقد أعيا من قبل على كل الجهود !

وأقرب ما يحضرني للتمثيل لهذه الحالة جهاز الاستقبال عند البحث عن محطة إرسال . . إنك لتتحرك المشير مرات كثيرة ذهاباً وإياباً فتخطيء المحطة وأنت تدقق وتصوب . ثم إذا حركة عابرة من يدك . فتتصل الموجة وتطلق الأصداء والأنغام !

إن القلب البشري هو أقرب ما يكون إلى جهاز الاستقبال . وأصحاب الدعوات لا بد أن يحاولوا تحريك المشير ليتلقى القلب من وراء الأفق . ولمسة واحدة بعد ألف لمسة قد تصله بمصدر الإرسال ! إنه من السهل على صاحب الدعوة أن يغضب لأن الناس لا يستجيبون لدعوته ، فيهجر الناس . . إنه عمل مريح ، قد يفتأ الغضب ، ويهدى الأعصاب . . ولكن أين هي الدعوة ؟ وما الذي عاد عليها من هجران المكذبين المعارضين ؟ !

إن الدعوة هي الأصل لا شخص الداعية ! فليضق صدره . ولكن ليكظم ويمض . وخير له أن يصبر فلا يضيق صدره بما يقولون !

إن الداعية أداة في يد القدرة . والله أرعى لدعوته وأحفظ . فليؤد هو واجبه في كل ظرف ، وفي كل جو ، والبقية على الله . والهدى هدى الله .

وإن في قصة ذي النون لدرساً لأصحاب الدعوات ينبغي أن يتأملوه .

وإن في رجعة ذي النون إلى ربه واعترافه بظلمه لعبرة لأصحاب الدعوات ينبغي أن يتدبروها .

وإن في رحمة الله لذي النون واستجابة دعائه المنيب في الظلمات لبشرى للمؤمنين : « وكذلك ننجي المؤمنين » . .

* * *

ثم إشارة إلى قصة زكريا ويحيى — عليهما السلام — واستجابة الله لزكريا عندما دعاه : « وزكريا إذ نادى ربه . رب لا تدركني فرداً وأنت خير الوارثين . فاستجبنا له ، ووهبنا له يحيى ، وأصلحنا له زوجه . إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ، ويدعوننا رغباً ورهباً ، وكانوا لنا خاشعين » . . وقصة مولد يحيى سبقت مفصلة في سورة مريم وفي سورة آل عمران . وهي ترد هنا متناسقة مع السياق .

فتبدأ بدعاء زكريا : « رب لا تذرني فرداً » بلا عقب يقوم على الهيكل : وكان زكريا قائماً على هيكل العبادة في بني إسرائيل قبل مولد عيسى - عليه السلام - ولا ينسى زكريا أن الله هو وارث العقيدة ووارث المال : « وأنت خير الوارثين » إنما هو يريد من ذريته من يحسن الخلافة بعده في أهله ودينه وماله . لأن الخلق ستار القدرة في الأرض .

وكانت الاستجابة سريعة ومباشرة : « فاستجبنا له ، ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه » وكانت عقياً لا تصلح للنسل .. ويختصر السياق تفصيلات هذا كله ليصل مباشرة إلى استجابة الله للدعاء .

« إنهم كانوا يسارعون في الخيرات » .. فسارع الله في استجابة الدعاء .

« ويدعوننا رغباً ورهباً » .. رغبة في الرضوان ورهبة للغضب . فقلوبهم وثيقة الصلة دائمة التطلع .

« وكانوا لنا خاشعين » .. لا متكبرين ولا متجبرين ..

بهذه الصفات في زكريا وزوجه وبنهما يحيى استحق الوالدان أن ينعم عليهما بالابن الصالح . فكانت أسرة مباركة تستحق رحمة الله ورضاه .

* * *

أخيراً يذكر مريم بمناسبة ذكر ابنها عليه السلام :

« والتي أحصنت فرجها ، فنفخنا فيها من روحنا ، وجعلناها وابناً آية للعالمين » ..

ولا يذكر هنا اسم مريم ، لأن المقصود في سلسلة الأنبياء هو ابناها - عليه السلام - وقد جاءت هي تبعاً له في السياق . إنما يذكر صفتها المتعلقة بولدها : « والتي أحصنت فرجها » . أحصنته فصانته من كل مباشرة . والإحصان يطلق عادة على الزواج بالتبعية ، لأن الزواج يحصن من الوقوع في الفاحشة . أما هنا فيذكر في معناه الأصيل ، وهو الحفظ والصون أصلاً من كل مباشرة شرعية أو غير شرعية . وذلك تنزيهاً لمريم عن كل ما رماها به اليهود مع يوسف النجار الذي كان معها في خدمة الهيكل . والذي تقول عنه الأناجيل المتداولة ، إنه كان قد تزوجها ولكنه لم يدخل بها ولم يقربها .

لقد أحصنت فرجها « فنفخنا فيها من روحنا » والنفخ هنا شائع لا يحدد موضعه كما في سورة التحريم - وقد سبق الحديث عن هذا الأمر في تفسير سورة مريم - ومحافظة على أن نعيش في ظلال النص الذي بين أيدينا فإننا لا نفصل ولا نطوّل ، فنمضي مع النص إلى غايته :

« وجعلناها وابناً آية للعالمين » ..

وهي آية غير مسبوقة ولا ملحوقة . آية فذة واحدة في تاريخ البشرية جميعاً . ذلك أن المثل الواحد من هذا النوع يكفي لتأمله البشرية في أجيالها جميعاً ، وتذكر يد القدرة الطليقة التي تخلق النواميس ، ولكنها لا تحتبس داخل النواميس .

* * *

وفي نهاية الاستعراض الذي شمل نماذج من الرسل ، ونماذج من الابتلاء ، ونماذج من رحمة الله - يعقب بالعرض الشامل من هذا الاستعراض :

« إن هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم فاعبدون » ..

إن هذه أمتكم . أمة الأنبياء . أمة واحدة . تدين بعقيدة واحدة . وتنهج نهجاً واحداً . هو الاتجاه إلى الله دون سواه .

أمة واحدة في الأرض ، ورب واحد في السماء . لا إله غيره ولا معبود إلا إياه .
 أمة واحدة وفق سنة واحدة ، تشهد بالإرادة الواحدة في الأرض والسماء .
 وهنا يلتقي هذا الاستعراض بالمحور الذي تدور عليه السورة كلها ؛ وتشترك في تقرير عقيدة التوحيد ، تشهد
 بها مع سنن الكون وناموس الوجود . .

وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلُّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴿١٧﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ
 وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ﴿١٨﴾ وَحَرَّمَ عَلَيْنَا قَرِيَةَ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٩﴾
 حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴿٢٠﴾ وَأَقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ
 أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يُؤْيَلْنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢١﴾ إِن كُنتُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ
 جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٢٢﴾ لَوْ كَانَ هَتْؤَلَاءَ إِلَهًا مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٣﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا
 يَسْمَعُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُعْدُونٌ ﴿٢٥﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا
 أُشْتَمِتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَجْزِيهِمُ الْفِرْعُ الْأَكْبَرُ وَنَتَلَقْنَهُمُ الْمَلٰٓئِكَةَ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ
 تُوعَدُونَ ﴿٢٧﴾ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۗ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُمْ وَعِنَّا عَلَيْهِمْ ۗ إِنَّا كَّاٰ فَعٰلِعِينَ ﴿٢٨﴾
 وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿٢٩﴾
 إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عٰبِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعٰلَمِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَٰهٌ
 وَاحِدٌ ۗ فَهَلْ أَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٣٢﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرَىٰ أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿٣٣﴾
 إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنْ أَدْرَىٰ لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾
 قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا الرَّحْمٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿٣٦﴾

هذا الشوط الأخير في السورة بعد عرض سنن الله الكونية ، الشاهدة بوحدة الخالق ؛ وسنن الله في إرسال
 الرسل بالدعوات الشاهدة بوحدة الأمة ووحدة العقيدة . . يعرض السياق فيه مشهداً للساعة وأشراطها ،
 يتبين فيه مصير المشركين بالله ومصير الشركاء ؛ ويتفرد الله ذو الجلال بالتصريف فيه والتدبير .

ثم يقرر سنة الله في وراثته الأرض ، ورحمة الله للعالمين المتمثلة في رسالة محمد صلى الله عليه وسلم .
وعندئذ يؤمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن ينفذ يده منهم ، وأن يدعهم لمصيرهم ، فيترك الحكم
لله فيهم ؛ ويستعين به على شركهم وتكذيبهم واستهزائهم ، وانصرفهم إلى اللعب واللهو ، ويوم الحساب قريب .

* * *

« وتقطعوا أمرهم بينهم كل إلينا راجعون . فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه ، وإنا
له كاتبون . وحرام على قرية أهلكتها أنهم لا يرجعون » ..

إن أمة الرسل واحدة تقوم على عقيدة واحدة وملة واحدة ، أساسها التوحيد الذي تشهد به نواميس
الوجود ؛ والذي دعت إليه الرسل منذ أول الرسالات إلى آخرها دون تبديل ولا تغيير في هذا الأصل الكبير .
إنما كانت التفصيلات والزيادات في مناهج الحياة القائمة على عقيدة التوحيد ، بقدر استعداد كل أمة ،
وتطور كل جيل ؛ وبقدر نمو مدارك البشرية ونمو تجاربها ، واستعدادها لأنماط من التكليف ومن التشريعات ؛
وبقدر حاجاتها الجديدة التي نشأت من التجارب ، ومن نمو الحياة ووسائلها وارتباطاتها جيلاً بعد جيل .
ومع وحدة أمة الرسل ، ووحدة القاعدة التي تقوم عليها الرسالات .. فقد تقطع أتباعها أمرهم بينهم ،
كأنما اقتطع كل منهم قطعة وذهب بها . وثار بينهم الجدل ، وكثر بينهم الخلاف ، وهاجت بينهم العداوة
والبغضاء .. وقع ذلك بين أتباع الرسول الواحد حتى ليقتل بعضهم بعضاً باسم العقيدة . والعقيدة واحدة ،
وأمة الرسل كلها واحدة .

لقد تقطعوا أمرهم بينهم في الدنيا . ولكنهم جميعاً سيرجعون إلى الله ، في الآخرة : « كل إلينا راجعون »
فالمرجع إليه وحده ، وهو الذي يتولى حسابهم ويعلم ما كانوا عليه من هدى أو ضلال :
« فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن ، فلا كفران لسعيه ، وإنا له كاتبون » ..

هذا هو قانون العمل والجزاء .. لا جحود ولا كفران للعمل الصالح متى قام على قاعدة الإيمان .. وهو
مكتوب عند الله لا يضيع منه شيء ولا يغيب .

ولا بد من الإيمان لتكون للعمل الصالح قيمته ، بل ليثبت للعمل الصالح وجوده . ولا بد من العمل الصالح
لتكون للإيمان ثمرته ، بل لتثبت للإيمان حقيقته .

إن الإيمان هو قاعدة الحياة ، لأنه الصلة الحقيقية بين الإنسان وهذا الوجود ، والرابطة التي تشد الوجود
بما فيه ومن فيه إلى خالقه الواحد ، وترده إلى الناموس الواحد الذي ارتضاه ، ولا بد من القاعدة ليقوم
البناء . والعمل الصالح هو هذا البناء . فهو منهار من أساسه ما لم يقم على قاعدته .

والعمل الصالح هو ثمرة الإيمان التي تثبت وجوده وحيويته في الضمير . والإسلام بالذات عقيدة متحركة
متى تم وجودها في الضمير تحولت إلى عمل صالح هو الصورة الظاهرة للإيمان المضمير .. والثمرة البانعة
للجذور الممتدة في الأعماق .

ومن ثم يقرن القرآن دائماً بين الإيمان والعمل الصالح كلما ذكر العمل والجزاء . فلا جزاء على إيمان
عاطل خامد لا يعمل ولا يثمر . ولا على عمل منقطع لا يقوم على الإيمان .

والعمل الطيب الذي لا يصدر عن إيمان إنما هو مصادفة عابرة ، لأنه غير مرتبط بمنهج مرسوم ، ولا
موصول بناموس مطرد . وإن هو إلا شهوة أو نزوة غير موصولة بالباعث الأصيل للعمل الصالح في هذا

الوجود . وهو الإيمان بإله يرضى عن العمل الصالح ، لأنه وسيلة البناء في هذا الكون ، ووسيلة الكمال الذي قدره الله لهذه الحياة . فهو حركة ذات غاية مرتبطة بغاية الحياة ومصيرها ، لا فلتة عابرة ، ولا نزوة عارضة ، ولا رمية بغير هدف ، ولا اتجاهاً معزولاً عن اتجاه الكون وناموسه الكبير .

والجزء على العمل يتم في الآخرة حتى ولو قدم منه قسط في الدنيا . فالقرى التي هلكت بعذاب الاستئصال ستعود كذلك حتماً لتنال جزاءها الأخير ، وعدم عودتها ممتنعة ، فهي راجعة بكل تأكيد .
« وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون » ..

إنما يفرد السياق هذه القرى بالذكر بعد أن قال : « كل إلينا راجعون » لأنه قد يخطر للذهن أن هلاكها في الدنيا كان نهاية أمرها ، ونهاية حسابها وجزائها . فهو يؤكد رجعتها إلى الله ، وينفي عدم الرجعة نفيًا قاطعاً في صورة التحريم لوقوعه .. وهو تعبير فيه شيء من الغرابة ، مما جعل المفسرين يؤولونه فيقدرون أن « لا » زائدة . وأن المعنى هي نفي رجعة القرى إلى الحياة في الدنيا بعد إهلاكها . أو نفي رجوعهم عن غيرهم إلى قيام الساعة . وكلاهما تأويل لا داعي له . وتفسير النص على ظاهره أولى ، لأن له وجهه في السياق على النحو الذي ذكرنا .

* * *

ثم يعرض مشهداً من مشاهد القيامة يبدوه بالعلامة التي تدل على قرب الموعد . وهو فتح بأجوج وأجوج :
« حتى إذا فتحت بأجوج وأجوج وهم من كل حدب ينسلون ، واقترب الوعد الحق ، فإذا هي شاحصة أبصار الذين كفروا . يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا ، بل كنا ظالمين . إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أتم لها واردون . لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها ، وكل فيها خالدون . لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون . إن الذين سبقتم لهم منا الحسنی أولئك عنها مبعدون ، لا يسمعون حسيبها وهم فيما اشتت أنفسهم خالدون ، لا يحزنهم الفزع الأكبر ، وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون . يوم نظوي السماء كطي السجل للكتب ، كما بدأنا أول خلق نعيده ، وعدأ علينا إنا كنا فاعلين » ..

وقد قلنا من قبل عند الكلام على بأجوج وأجوج في قصة ذي القرنين في سورة الكهف : اقتراب الوعد الحق الذي يقرنه السياق بفتح بأجوج وأجوج ، ربما يكون قد وقع بانسياب التتار وتدفعهم شرقاً وغرباً ، وتحطيم الممالك والعروش .. لأن القرآن قد قال منذ أيام الرسول - صلى الله عليه وسلم - « اقتربت الساعة » . غير أن اقتراب الوعد الحق لا يحدد زماناً معيناً للساعة . فحساب الزمن في تقدير الله غيره في تقدير البشر ، وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون » .

إنما المقصود هنا هو وصف ذلك اليوم حين يجيء ، والتقديم له بصورة مصغرة من مشاهد الأرض ، هي تدفق بأجوج وأجوج من كل حدب في سرعة واضطراب . على طريقة القرآن الكريم في الاستعانة بمشاهدات البشر والترقي بهم من تصوراتهم الأرضية إلى المشاهد الأخروية .

وفي المشهد المعروض هنا يبرز عنصر المفاجأة التي تبهت المفجوتين !

« فإذا هي شاحصة أبصار الذين كفروا » ..

لا تطرف من الهول الذي فوجئوا به . ويقدم في التعبير كلمة « شاحصة » لترسم المشهد وتبرزه !

ثم يميل السياق عن حكاية حالهم إلى إبرازهم يتكلمون ، وبذلك يحيي المشهد ويستحضره :

« يا ويلنا! قد كنا في غفلة من هذا . بل كنا ظالمين » ..

وهو تفجع المفجوع الذي تتكشف له الحقيقة المروعة بغتة ؛ فيذهل ويشخص بصره فلا يطرف ، ويدعو بالويل والهلاك ، ويعترف ويندم ، ولكن بعد فوات الأوان !

وحين يصدر هذا الاعتراف في ذهول المفاجأة يصدر الحكم القاطع الذي لا مرد له :

« إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون » ..

وكأنما هم اللحظة في ساحة العرض ، يردون جهنم هم وآهتهم المدعاة ؛ وكأنما هم يقذفون فيها قذفاً بلا رفق ولا أناة ؛ وكأنما تحصب بهم حصباً كما تحصب بالنوأة ! وعندئذ يوجه إليهم البرهان على كذب ما يدعون لها من كونها آلهة . يوجه إليهم البرهان من هذا الواقع المشهود :

« لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها » ..

وهو برهان وجداني ينتزع من هذا المشهد المعروض عليهم في الدنيا ، وكأنما هو واقع في الآخرة .. ثم يستمر السياق على أنهم قد وردوا جهنم فعلاً ، فيصف مقامهم فيها ، ويصور حالهم هناك ؛ وهي حال المكروب المذموب بإدراكه من هول ما هو فيه :

« وكل فيها خالدون . لهم فيها زفير ، وهم فيها لا يسمعون » .

وندع هؤلاء لنجد المؤمنين في نجوة من هذا كله ، قد سبقت لهم الحسنى من الله ، وقدر لهم الفوز والنجاة :

« إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون . لا يسمعون حسيسها وهم فيما اشتبهت أنفسهم خالدون » ..

ولفظه « حسيسها » من الألفاظ المصورة يجرسها لمعناها . فهو تنقل صوت النار وهي تسري وتحرق ، وتحدث ذلك الصوت المفزع . وإنه لصوت يتفزع له الجلد ويقشعر . ولذلك نجى الذين سبقت لهم الحسنى من سماعه - فضلاً على معاناته - نجوا من الفزع الأكبر الذي يذهل المشركين . وعاشوا فيما تشتهي أنفسهم من أمن ونعيم . وتتولى الملائكة استقبالهم بالترحيب ، ومصاحبتهم لتطمئن قلوبهم في جو الفزع المرهوب :

« لا يحزنهم الفزع الأكبر ، وتتلقاهم الملائكة . هذا يومكم الذي كنتم توعدون » ..

ويتمّ المشهد بمنظر الكون الذي آل إليه . وهو يشارك في تصوير الهول الآخذ بزمام القلوب ، وبزمام الكائنات كلها في ذلك اليوم العصيب :

« يوم نظوي السماء كطي السجل للكتب » ..

فإذا السماء مطوية كما يطوي خازن الصحف صحائفه ؛ وقد قضى الأمر ، وانتهى العرض ، وطوي الكون الذي كان يألفه الإنسان .. وإذا عالم جديد وكون جديد :

« كما بدأنا أول خلق نعيده » .. « وعداً علينا إنا كنا فاعلين » ..

* * *

ومن هذا المشهد المصور لنهاية الكون والأحياء في الآخرة يعود السياق لبيان سنة الله في وراثة الأرض ، وصيرورتها للصالحين من عبادة في الحياة . وبين المشهدين مناسبة وارتباط :

« ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون » ..

والزبور إما أن يكون كتاباً بعينه هو الذي أوتيته داود عليه السلام . ويكون الذكر إذن هو التوراة التي

سبقت الزبور. وإما أن يكون وصفاً لكل كتاب بمعنى قطعة من الكتاب الأصيل الذي هو الذكر وهو اللوح المحفوظ ، الذي يمثل المنهج الكلي ، والمرجع الكامل ، لكل نواميس الله في الوجود .

وعلى أية حال فالمقصود بقوله : « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ... » هو بيان سنة الله المقررة في وراثة الأرض : « أن الأرض يرثها عبادي الصالحون » ..

فما هي هذه الوراثة ؟ ومن هم عباد الله الصالحون ؟

لقد استخلف الله آدم في الأرض لعمارته وإصلاحها ، وتنميتها وتحويرها ، واستخدام الكنوز والطاقات المرصودة فيها ، واستغلال الثروات الظاهرة والمخبوءة ، والبلوغ بها إلى الكمال المقدر لها في علم الله .

ولقد وضع الله للبشر منهجاً كاملاً متكاملًا للعمل على وفقه في هذه الأرض . منهجاً يقوم على الإيمان والعمل الصالح . وفي الرسالة الأخيرة للبشر فصل هذا المنهج ، وشرع له القوانين التي تقيمه وتحرسه ؛ وتكفل التناسق والتوازن بين خطواته .

في هذا المنهج ليست عمارة الأرض واستغلال ثرواتها والانتفاع بطاقتها هو وحده المقصود . ولكن المقصود هو هذا مع العناية بضمير الإنسان ، ليلبغ الإنسان كماله المقدر له في هذه الحياة . فلا ينتكس حيواناً في وسط الحضارة المادية الزاهرة ؛ ولا يهبط إلى الدرك بإنسانيته وهو يرتفع إلى الأوج في استغلال موارد الثروة الظاهرة والمخبوءة .

وفي الطريق لبلوغ ذلك التوازن والتناسق تشيل كفة وترجح كفة . وقد يغلب على الأرض جبارون وظلمة وطغاة . وقد يغلب عليها هيج ومتبربرون وغزاة . وقد يغلب عليها كفار فجار يحسنون استغلال قوى الأرض وطاقاتها استغلالاً مادياً .. ولكن هذه ليست سوى تجارب الطريق . والوراثة الأخيرة هي للعباد الصالحين ، الذين يجمعون بين الإيمان والعمل الصالح . فلا يفترق في كيانهم هذان العنصران ولا في حياتهم .

وحيثما اجتمع إيمان القلب ونشاط العمل في أمة فهي الوراثة للأرض في أية فترة من فترات التاريخ . ولكن حين يفترق هذان العنصران فالميزان يتأرجح . وقد تقع الغلبة للآخذين بالوسائل المادية حين يهمل الأخذ بها من يتظاهرون بالإيمان ، وحين تفرغ قلوب المؤمنين من الإيمان الصحيح الدافع إلى العمل الصالح ، وإلى عمارة الأرض ، والقيام بتكاليف الخلافة التي وكلها الله إلى هذا الإنسان .

وما على أصحاب الإيمان إلا أن يحققوا مدلول إيمانهم ، وهو العمل الصالح ، والنهوض بتبعات الخلافة ليتحقق وعد الله ، وتجري سنته : « أن الأرض يرثها عبادي الصالحون » .. فالمؤمنون العاملون هم العباد الصالحون ..

* * *

وفي النهاية يجيء إيقاع الختام في السورة مشابهاً لإيقاع الافتتاح !

« إن في هذا لبلاغاً لقوم عابدين . وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين . قل : إنما يوحى إليّ أنما يحكم إله واحد فهل أنتم مسلمون ؟ فإن تولوا فقل : آذنتكم على سواء ، وإن أدرى أقرب أم بعيد ما توعدون . إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون . وإن أدرى لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين .. قال : رب احكم بالحق ، وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون » ..

« إن في هذا لبلاغاً لقوم عابدين » .. إن في هذا القرآن وما يكشفه من سنن في الكون والحياة . ومن

مصائر الناس في الدنيا والآخرة . ومن قواعد العمل والجزاء .. إن في هذا لبلاغاً وكفاية للمستعدين لاستقبال هدى الله . ويسميه « عابدين » لأن العابد خاشع القلب طائع متبهيء للتلقي والتدبر والانتفاع .

ولقد أرسل الله رسوله رحمة للناس كافة ليأخذ بأيديهم إلى الهدى ، وما يهتدي إلا أولئك المتهيثون المستعدون . وإن كانت الرحمة تتحقق للمؤمنين ولغير المؤمنين ..

إن المنهج الذي جاء مع محمد - صلى الله عليه وسلم - منهج يسعد البشرية كلها ويقودها إلى الكمال المقدر لها في هذه الحياة .

ولقد جاءت هذه الرسالة للبشرية حينما بلغت سن الرشد العقلي : جاءت كتاباً مفتوحاً للعقول في مقبل الأجيال ، شاملاً لأصول الحياة البشرية التي لا تتبدل ، مستعداً لتلبية الحاجات المتجددة التي يعلمها خالق البشر ، وهو أعلم بمن خلق ، وهو اللطيف الخبير .

ولقد وضع هذا الكتاب أصول المنهج الدائم لحياة إنسانية متجددة . وترك للبشرية أن تستنبط الأحكام الجزئية التي تحتاج إليها ارتباطات حياتها النامية المتجددة ، واستنباط وسائل تنفيذها كذلك بحسب ظروف الحياة وملابساتها ، دون اصطدام بأصول المنهج الدائم .

وكفل للعقل البشري حرية العمل ، بكفالة حقه في التفكير ، وبكفالة مجتمع يسمح لهذا العقل بالتفكير . ثم ترك له الحرية في دائرة الأصول المنهجية التي وضعها لحياة البشر ، كيما تنمو وترقى وتصل إلى الكمال المقدر لحياة الناس في هذه الأرض .

ولقد دلت تجارب البشرية حتى اللحظة على أن ذلك المنهج كان وما يزال سابقاً لخطوات البشرية في عمومها ، قابلاً لأن تنمو الحياة في ظلاله بكل ارتباطاتها نمواً مطرداً . وهو يقودها دائماً ، ولا يتخلف عنها ، ولا يقعد بها ، ولا يشدها إلى الخلف ، لأنه سابق دائماً على خطواتها متسع دائماً لكامل خطواتها .

وهو في تلبية لرغبة البشرية في النمو والتقدم لا يكبت طاقاتها في صورة من صور الكبت الفردي أو الجماعي ، ولا يحرمها الاستمتاع بشمرات جهودها وطيبات الحياة التي تحققها .

وقيمة هذا المنهج أنه متوازن متناسق . لا يعذب الجسد ليسمو بالروح ، ولا يهمل الروح ليستمتع الجسد . ولا يقيد طاقات الفرد ورغائبه الفطرية السليمة ليحقق مصلحة الجماعة أو الدولة . ولا يطلق للفرد نزواته وشهوته الطاغية المنحرفة لتؤدي حياة الجماعة ، أو تسخرها لإمتاع فرد أو أفراد .

وكافة التكاليف التي يضعها ذلك المنهج على كاهل الإنسان ملحوظ فيها أنها في حدود طاقته ، ولمصلحته ؛ وقد زود بالاستعدادات والمقدرات التي تعينه على أداء تلك التكاليف ، وتجعلها محببة لديه - مهما لقي من أجلها الآلام أحياناً - لأنها تلي رغبة من رغبته ، أو تصرف طاقة من طاقاته .

ولقد كانت رسالة محمد - صلى الله عليه وسلم - رحمة لقومه ورحمة للبشرية كلها من بعده والمبادئ التي جاء بها كانت غريبة في أول الأمر على ضمير البشرية ، لبعدها ما كان بينها وبين واقع الحياة الواقعية والروحية من مسافة . ولكن البشرية أخذت من يومها تقرب شيئاً فشيئاً من آفاق هذه المبادئ . فتزول غرابتها في حسنها ، وتبناها وتنفذها ولو تحت عنوانات أخرى .

لقد جاء الإسلام لينادي بإنسانية واحدة تذوب فيها الفوارق الجنسية والجغرافية . لتلتقي في عقيدة واحدة ونظام اجتماعي واحد .. وكان هذا غريباً على ضمير البشرية وتفكيرها وواقعها يومذاك . والأشراف يعدون

أنفسهم من طينة غير طينة العبيد .. ولكن ها هي ذي البشرية في خلال نيف وثلاثة عشر قرناً تحاول أن تقفو خطى الإسلام ، فتتعث في الطريق ، لأنها لا تهتدي بنور الإسلام الكامل . ولكنها تصل إلى شيء من ذلك المنهج - ولو في الدعاوى والأقوال - وإن كانت ما تزال أمم في أوروبا وأمريكا تتمسك بالعنصرية البغيضة التي حاربها الإسلام منذ نيف وثلاث مائة وألف عام .

ولقد جاء الإسلام ليسوي بين جميع الناس أمام القضاء والقانون . في الوقت الذي كانت البشرية تفرق الناس طبقات ، وتجعل لكل طبقة قانوناً . بل تجعل إرادة السيد هي القانون في عهدي الرق والإقطاع .. فكان غريباً على ضمير البشرية يومذاك أن ينادي ذلك المنهج السابق المتقدم بمبدأ المساواة المطلقة أمام القضاء .. ولكن ها هي ذي شيئاً فشيئاً تحاول أن تصل - ولو نظرياً - إلى شيء مما طبقه الإسلام عملياً منذ نيف وثلاث مائة وألف عام .

وغير هذا وذلك كثير يشهد بأن الرسالة المحمدية كانت رحمة للبشرية وأن محمداً - صلى الله عليه وسلم - إنما أرسل رحمة للعالمين . من آمن به ومن لم يؤمن به على السواء . فالبشرية كلها قد تأثرت بالمنهج الذي جاء به طائفة أو كارهة ، شاعرة أو غير شاعرة ؛ وما تزال ظلال هذه الرحمة وارفة ، لمن يريد أن يستظل بها ، ويستروح فيها نسائم السماء الرخية ، في هجير الأرض المحرق وبخاصة في هذه الأيام . وإن البشرية اليوم لفي أشد الحاجة إلى حس هذه الرحمة ونداها . وهي قلقة حائرة ، شاردة في متاهات المادية ، وجحيم الحروب ، وجفاف الأرواح والقلوب ..

* * *

وبعد إبراز معنى الرحمة وتقريره يؤمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - بأن يواجه المكذبين المستهزئين ، بملخص رسالته التي تنبع منها الرحمة للعالمين :

« قل : إنما يوحى إليّ أنما يحكم إله واحد . فهل أتم مسلمون ؟ » .

فهذا هو عنصر الرحمة الأصيل في تلك الرسالة . عنصر التوحيد المطلق الذي ينقذ البشرية من أوهام الجاهلية ، ومن أفتال الوثنية ، ومن ضغط الوهم والخرافة . والذي يقيم الحياة على قاعدتها الركيطة ، فيربطها بالوجود كله ، وفق نواميس واضحة وسنن ثابتة ، لا وفق أهواء ونزوات وشهوات . والذي يكفل لكل إنسان أن يقف مرفوع الرأس فلا تنحني الرؤوس إلا لله الواحد القهار .

هذا هو طريق الرحمة .. « فهل أتم مسلمون ؟ » .

وهذا هو السؤال الواحد الذي يكلف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يلقه على المكذبين المستهزئين .

« فإن تولوا فقل : آذنتكم على سواء » ..

أي كشفت لكم ما عندي فأنا وأتم على علم سواء . والإيدان يكون في الحرب لإنهاء فترة السلم ، وإعلام الفريق الآخر أنها حرب لا سلام .. أما هنا - والسورة مكية ولم يكن القتال قد فرض بعد - فالمقصود هو أن يعلنهم بأنه قد نفذ يده منهم ، وتركهم عالمين بمصيرهم ، وأنذرهم عاقبة أمرهم . فلم يعد لهم بعد ذلك عذر ، فليذوقوا وبال أمرهم وهم عالمون ..

« وإن أدري أقرب أم بعيد ما توعدون » ..

آذنتكم على سواء . ولست أدري متى يحل بكم ما توعدون . فهو غيب من غيب الله . لا يعلمه إلا الله .

وهو وحده يعلم متى يأخذكم بعذابه في الدنيا أو في الآخرة سواء . وهو يعلم سركم وجهركم ، فما يخفى عليه منكم خافية :

« إنه يعلم الجهر من القول ، ويعلم ما تكتُمون » ..

فأمركم كله مكشوف له ، وحين يعذبكم يعذبكم بما يعلم من أمركم ظاهره وخافيه . وإذا أخرج عنكم العذاب فحكمة تأخيره عند الله :

« وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين » ..

وما أدري ما يريد الله بهذا التأخير . فلعله يريد أن يكون فتنة لكم وابتلاء ، فيمتعكم إلى أجل ، ثم يأخذكم أخذ عزيز مقتدر .

وبهذا التجهيل يلمس قلوبهم لمسة قوية ، ويدعهم يتوقعون كل احتمال ، ويتوجسون خيفة من المفاجأة التي تأخذهم بغتة . وتوقظ قلوبهم من غفلة المتاع فلعل وراءه الفتنة والبلاء . وتوقع العذاب على غير موعد مضروب كفيل بأن يترك النفس متوجسة ، والأعصاب متوفزة ، ترتقب في كل لحظة أن يرفع الستار المسدل ، عن الغيب المخبوء .

وإن القلب البشري ليغفل عما ينتظره من غيب الله ، وإن المتاع ليخدع ، فينسى الإنسان أن وراء الستار المسدل ما وراءه مما لا يدره ولا يكشف عنه إلا الله في مواعده الغيب المجهول .

فهذا الإنذار يرد القلوب إلى اليقظة ، ويعذر إليها بين يدي الله قبل فوات الأوان .

* * *

وهنا يتوجه الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى ربه . وقد أدى الأمانة ، وبلغ الرسالة . وآذنه على سواء ، وحذرهم بغتة البلاء .. يتوجه إلى ربه الرحمن يطلب حكمه الحق بينه وبين المستهزئين الغافلين ، ويستعينه على كيدهم وتكذيبهم . وهو وحده المستعان :

« قال : رب احكم بالحق ، وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون » ..

وصفة الرحمة الكبيرة هنا ذات مدلول . فهو الذي أرسله رحمة للعالمين ، فكذب به المكذبون واستهزأ به المستهزئون . وهو الكفيل بأن يرحم رسوله ويعينه على ما يصفون .

وبهذا المقطع القوي تحتم السورة كما بدأت بذلك المطلع القوي . فيتقابل طرفاها في إيقاع نافذ قوي مثير عميق .

(٢٢) سُورَةُ الْحَجِّ مِائَتًا
وَآيَاتُهَا ثَمَانٍ وَسَبْعُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُوا رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُذْهِلُ كُلُّ مَرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ
وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾
وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كَتَبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَآثَمُ يُضِلُّهُ
وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٤﴾

يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ مِّمَّنْ مِنْ نُطْفَةٍ مِّمَّنْ مِنْ عَلَقَةٍ مِّمَّنْ مِنْ
مُضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا
أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنْكُمْ مَّن يَمُوتُ وَمِنْكُمْ مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مَن بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ وَتَرَى الْأَرْضَ
هَامِدَةً فِإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ ۖ وَأُنبَتَتْ مِّن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ
يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾
وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِي عِطْفِهِهُ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ
اللَّهِ ۗ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ۖ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ
بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ۗ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَاسِرٌ
 الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ۚ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٤١﴾ يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نُنْفَعُهُ ۚ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ
 الْبَعِيدُ ﴿١٤٢﴾ يَدْعُوا لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ ۗ لَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَيْسَ الْعَشِيرُ ﴿١٤٣﴾
 إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤٤﴾
 مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدَهُ
 مَا يَغِيظُ ﴿١٤٥﴾

وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ ﴿١٤٦﴾
 إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّالِحِينَ وَالنَّصْرَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ
 يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٤٧﴾
 أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمٰوٰتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ
 وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ۗ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿١٤٨﴾
 * هَذَانِ خَصْمَانِ أَخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ۖ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ نِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمْ
 الْحَمِيمُ ﴿١٤٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿١٥٠﴾ وَلَهُمْ مَقْلَعٌ مِّن حديدٍ ﴿١٥١﴾ كَمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا
 مِنْهَا مِّنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٥٢﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ
 تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِن أَسَاوِرَ مِّن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۗ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿١٥٣﴾ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِّنَ
 الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطٍ الْحَمِيدِ ﴿١٥٤﴾

هذه السورة مشتركة بين مكة ومدنية كما يبدو من دلالة آياتها . وعلى الأخص آيات الإذن بالقتال ١ .
 وآيات العقاب بالمثل ٢ ، فهي مدنية قطعاً . فالمسلمون لم يؤذن لهم في القتال والقصاص إلا بعد الهجرة . وبعد

قيام الدولة الإسلامية في المدينة . أما قبل ذلك فقد قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين يابعه أهل يثرب ، وعرضوا عليه أن يميلوا على أهل منى من الكفار فيقتلوهم « إني لم أؤمر بهذا » . حتى إذا صارت المدينة دار إسلام شرع الله القتال لرد أذى المشركين عن المسلمين والدفاع عن حرية العقيدة ، وحرية العبادة للمؤمنين . والذي يغلب على السورة هو موضوعات السور المكية ، وجو السور المكية . فموضوعات التوحيد والتخويف من الساعة ، وإثبات البعث ، وإنكار الشرك . ومشاهد القيامة ، وآيات الله المبثوثة في صفحات الكون .. بارزة في السورة وإلى جوارها الموضوعات المدنية من الإذن بالقتال ، وحماية الشعائر ، والوعد بنصر الله لمن يقع عليه البغي وهو يرد العدوان ، والأمر بالجهاد في سبيل الله .

والظلال الواضحة في جو السورة كلها هي ظلال القوة والشدة والعنف والرهبة . والتحذير والترهيب واستجاشة مشاعر التقوى والوجل والاستسلام .

تبدو هذه الظلال في المشاهد والأمثال ..

فشهد البعث مزلز عنيف رهيب : « يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم . يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد » ..

وكذلك مشهد العذاب : « فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار ، يصب من فوق رؤوسهم الحميم ، يصهر به ما في بطونهم والجلود ، وهم مقامع من حديد ، كلما أرادوا أن يخرجوا منها - من غم - أعيدوا فيها ، وذوقوا عذاب الحريق » ..

ومثل الذي يشرك بالله : « ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق » ..

وحرمة من يأس من نصر الله : « من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء ، ثم ليقطع ، فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ » ..

ومشهد القرى المدمرة بظلمها : « فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة ، فهي خاوية على عروشها ، وبئر معطلة وقصر مشيد » ..

تجتمع هذه المشاهد العنيفة المرهوبة إلى قوة الأوامر والتكاليف ، وتبرير الدفع بالقوة ، وتأكيده الوعد بالنصر والتمكين . إلى عرض الحديث عن قوة الله وضعف الشركاء المزعومين ..

ففي الأولى : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا : ربنا الله . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً . ولينصرن الله من ينصره . إن الله لقوي عزيز . الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر . والله عاقبة الأمور » ..

وفي الثانية : « يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له . إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه . ضعف الطالب والمطلوب . ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوي عزيز » ..

وراء هذا وذلك ، الدعوة إلى التقوى والوجل واستجاشة مشاعر الرهبة والاستسلام

تبدأ بها السورة ، وتتناثر في ثناياها : « يأيتها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم » .. « ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب » .. « فإلهكم إله واحد ، فله أسلموا وبشر المحبتين . الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم » .. « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم » .. ذلك إلى استعراض مشاهد الكون ، ومشاهد القيامة ، ومصارع الغابرين . والأمثلة والعبر والصور والتأملات لاستجاشة مشاعر الإيمان والتقوى والإخبات والاستسلام .. وهذا هو الظل الشائع في جو السورة كلها ، والذي يطبعها ويميزها .

* * *

ويجري سياق السورة في أربعة أشواط :

يبدأ الشوط الأول بالنداء العام . نداء الناس جميعاً إلى تقوى الله ، وتخويفهم من زلزلة الساعة ، ووصف الهول المصاحب لها ، وهو هول عنيف مرهوب . ويعقب في ظل هذا الهول باستنكار الجدل في الله بغير علم ، واتباع كل شيطان محتوم على من يتبعه الضلال . ثم يعرض دلائل البعث من أطوار الحياة في جنين الإنسان ، وحياة النبات ؛ مسجلاً تلك القربى بين أبناء الحياة ، ويربط بين تلك الأطوار المطردة الثابتة وبين أن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور .. وكلها سنن مطردة وحقائق ثابتة متصلة بناموس الوجود .. ثم يعود إلى استنكار الجدل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير بعد هذه الدلائل المستقرة في صلب الكون وفي نظام الوجود . وإلى استنكار بناء العقيدة على حساب الريح والخسارة ، والانحراف عن الاتجاه إلى الله عند وقوع الضراء ، والالتجاء إلى غير حماه ؛ واليأس من نصره الله وعقابه . وينتهي هذا الشوط بتقرير أن الهدى والضلال بيد الله ، وأنه سيحكم بين أصحاب العقائد المختلفة يوم الحساب .. وهنا يعرض ذلك المشهد العنيف من مشاهد العذاب للكافرين ، وإلى جواره مشهد النعم للمؤمنين .

ويتصل الشوط الثاني بنهاية الشوط الأول بالحديث عن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام . ويستنكر هذا الصد عن المسجد الحرام الذي جعله الله للناس جميعاً . يستوي في ذلك المقيمون به والطارئون عليه .. وبهذه المناسبة يذكر طرفاً من قصة بناء البيت ، وتكليف إبراهيم - عليه السلام - أن يقيم على التوحيد ، وأن يظهره من رجس الشرك . ويستطرد إلى بعض شعائر الحج وما وراءها من استجاشة مشاعر التقوى في القلوب ، وهي الهدف المقصود . وينتهي هذا الشوط بالإذن للمؤمنين بالقتال لحماية الشعائر والعبادات من العدوان الذي يقع على المؤمنين ولا جريرة لهم إلا أن يقولوا : ربنا الله !

والشوط الثالث يتضمن عرض نماذج من تكذيب المكذبين من قبل ، ومن مصارع المكذبين ومشاهد القرى المدمرة على الظالمين . وذلك لبيان سنة الله في الدعوات ، وتسلية الرسول - صلى الله عليه وسلم - عما يلقاه من صد وإعراض ، وتطمين المسلمين ، بالعاقبة التي لا بد أن تكون . كذلك يتضمن عرض طرف من كيد الشيطان للرسول والنبين في دعوتهم ، وتثبيت الله لدعوته ، وإحكامه لآياته ، حتى يستيقن بها المؤمنون ، ويفتن بها الضعاف والمستكبرون ! .

أما الشوط الأخير فيتضمن وعد الله بنصرة من يقع عليه البغي وهو يدفع عنه العدوان ويتبع هذا الوعد بعرض دلائل القدرة في صفحات الكون ، وإلى جوارها يعرض صورة زرية لضعف الآلهة التي يركن إليها المشركون .. وينتهي الشوط وتنتهي السورة معه بنداء الذين آمنوا ليعبدوا ربهم ، ويجاهدوا في الله حق جهاده ،

ويعتصموا بالله وحده ، وهم ينهضون بتكاليف عقيدتهم العريقة منذ أيام إبراهيم الخليل ..
وهكذا تتساقق موضوعات السورة وتتعاقب في مثل هذا التناسق ..
والآن نبدأ الشوط الأول بالتفصيل :

* * *

« يا أيها الناس اتقوا ربكم ، إن زلزلة الساعة شيء عظيم . يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ؛ وترى الناس سكارى ، وما هم بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد » ..
مطلع عنيف رعب ، ومشهد ترتجف لهولة القلوب . يبدأ بالنداء الشامل للناس جميعاً : « يا أيها الناس »
يدعوهم إلى الخوف من الله : « اتقوا ربكم » ويخوفهم ذلك اليوم العصيب : « إن زلزلة الساعة شيء عظيم » .
وهكذا يبدأ بالتهويل المجل ، وبالتجهيل الذي يلقي ظل الهول يقصر عن تعريفه التعبير ، فيقال : إنه
زلزلة . وإن الزلزلة « شيء عظيم » ، من غير تحديد ولا تعريف .

ثم يأخذ في التفصيل . فإذا هو أشد رهبة من التهويل .. إذا هو مشهد حافل بكل مرضعة ذاهلة عما أرضعت
تنظر ولا ترى ، وتتحرك ولا تعي . وبكل حامل تسقط حملها للهول المروع ينتابها .. وبالناس سكارى
وما هم بسكارى ، يتبدى السكر في نظراتهم الذاهلة ، وفي خطواتهم المترنحة .. مشهد مزدحم بذلك الحشد
المتماوج ، تكاد العين تبصره لحظة التلاوة ، بينما الخيال يتملاه . والهول الشاخص يذهله ، فلا يكاد يبلغ
أقصاه .. وهو هول حي لا يقاس بالحجم والضخامة ، ولكن يقاس بوقعه في النفوس الآدمية : في المرضعات
الذاهلات عما أرضعن - وما تذهل المرضعة عن طفلها وفي فمه ثديها إلا للهول الذي لا يدع بقية من وعي -
والحوامل الملقيات حملهن ، وبالناس سكارى وما هم بسكارى : « ولكن عذاب الله شديد » ..
إنه مطلع عنيف مرهوب تنزل له القلوب ..

* * *

في ظل هذا الهول المروع يذكر أن هنالك من يتناول فيجادل في الله ، ولا يستشعر تقواه :
« ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ، ويتبع كل شيطان مريد ، كتب عليه أنه من تولاه فإنه يضل
ويهديه إلى عذاب السعير » ..

والجدال في الله ، سواء في وجوده تعالى ، أو في وحدانيته ، أو في قدرته ، أو في علمه ، أو في صفة ما
من صفاته .. الجدال في شيء من هذا في ظل ذلك الهول الذي ينتظر الناس جميعاً ، والذي لا نجاة منه إلا
بتقوى الله وبرضاه .. ذلك الجدال يبدو عجباً من ذي عقل وقلب ، لا يتقي شر ذلك الهول المزلزل المحتاح .
وياليت كان جدالاً عن علم ومعرفة ويقين . ولكنه جدال « بغير علم » جدال التناول المجرد من الدليل .
جدال الضلال الناشئ من اتباع الشيطان . فهذا الصنف من الناس يجادل في الله بالهوى : « ويتبع كل شيطان
مريد » عات مخالف للحق متبجح « كتب عليه أنه من تولاه فإنه يضل ويهديه إلى عذاب السعير » .. فهو حتم
مقدور أن يضل تابعه عن الهدى والصواب ، وأن يقوده إلى عذاب السعير .. وبتحكم التعبير فيسمي قيادته
أتباعه إلى عذاب السعير هداية ! « ويهديه إلى عذاب السعير » .. فيأله من هداية هي الضلال المهلك المبيد !

* * *

أم إن الناس في ريب من البعث ؟ وفي شك من زلزلة الساعة ؟ إن كانوا يشكون في إعادة الحياة فليتدبروا

كيف تنشأ الحياة ، ولينظروا في أنفسهم ، وفي الأرض من حولهم ، حيث تنطق لهم الدلائل بأن الأمر مألوف ميسور ؛ ولكنهم هم الذين يعمرون على الدلائل في أنفسهم وفي الأرض غافلين :

« يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقه ، ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة - لنين لكم - ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ؛ ثم نخرجكم طفلاً ؛ ثم لتبلغوا أشدكم ؛ ومنكم من يتوفى ، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكي لا يعلم من بعد علم شيئاً . وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج .. »

إن البعث إعادة لحياة كانت ، فهو في تقدير البشر - أيسر من إنشاء الحياة . وإن لم يكن - بالقياس إلى قدرة الله - شيء أيسر ولا شيء أصعب . فالبدء كالإعادة أثر لتوجه الإرادة : « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له : كن فيكون » .

ولكن القرآن يأخذ البشر بمقاييسهم ، ومنطقهم ، وإدراكهم ، فيوجه قلوبهم إلى تدبر المشهود المعهود لهم ، وهو يقع لهم كل لحظة ، ويمر بهم في كل برهة ؛ وهو من الخوارق لو تدبروه بالعين البصيرة ، والقلب المفتوح ، والحس المدرك . ولكنهم يعمرون به أو يمر بهم دون وعي ولا انتباه .

فما هؤلاء الناس ؟ ما هم ؟ من أين جاءوا ؟ وكيف كانوا ؟ وفي أي الأطوار مروا ؟

« فإننا خلقناكم من تراب » .. والإنسان ابن هذه الأرض . من ترابها نشأ ، ومن ترابها تكوّن ، ومن ترابها عاش . وما في جسمه من عنصر إلا له نظيره في عناصر أمه الأرض . اللهم إلا ذلك السر اللطيف الذي أودعه الله إياه ونفخه فيه من روحه ؛ وبه افترق عن عناصر ذلك التراب . ولكنه أصلاً من التراب عنصراً وهيكلًا وغذاء . وكل عناصره المحسوسة من ذلك التراب .

ولكن أين التراب وأين الإنسان ؟ أين تلك الذرات الأولية الساذجة من ذلك الخلق السوي المركب ، الفاعل المستجيب ، المؤثر المتأثر ، الذي يضع قدميه على الأرض ويرف بقلبه إلى السماء ؛ ويخلق بفكره فيما وراء المادة كلها ومنها ذلك التراب ..

إنها نقلة ضخمة بعيدة الأغوار والآماد ، تشهد بالقدرة التي لا يعجزها البعث ، وهي أنشأت ذلك الخلق من تراب !

« ثم من نطفة . ثم من علقه . ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة - لنين لكم - ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى . ثم نخرجكم طفلاً ... » .

والمسافة بين عناصر التراب الأولية الساذجة والنطفة المؤلفة من الخلايا المنوية الحية ، مسافة هائلة ، تضمّر في طياتها السر الأعظم . سر الحياة . السر الذي لم يعرف البشر عنه شيئاً يذكر ، بعد ملايين الملايين من السنين ، وبعد ما لا يحصى من تحول العناصر الساذجة إلى خلايا حية في كل لحظة من لحظات تلك الملايين . والذي لا سبيل إلى أكثر من ملاحظته وتسجيله ، دون التطلع إلى خلقه وإنشائه ، مهما طمح الإنسان ، وتعلق بأهداب المحال !

ثم يبقى بعد ذلك سر تحول تلك النطفة إلى علقه ، وتحول العلقه إلى مضغة ، وتحول المضغة إلى إنسان ! فما تلك النطفة ؟ إنها ماء الرجل . والنقطة الواحدة من هذا الماء تحمل ألاف الحيوانات المنوية . وحيوان واحد منها هو الذي يلقي البويضة من ماء المرأة في الرحم ، ويتحد بها فتعلق في جدار الرحم .

وفي هذه البويضة الملقحة بالحيوان المنوي .. في هذه النقطة الصغيرة العالقة بجدار الرحم - بقدره القادر وبالقوة المودعة بها من لدنه - في هذه النقطة تكن جميع خصائص الإنسان المقبل : صفاته الجسدية وسماته من طول وقصر ، وضخامة وضآلة ، وقبح ووسامة ، وآفة وصحة .. كما تكن صفاته العصبية والعقلية والنفسية : من ميول ونزعات ، وطباع واتجاهات ، وانحرافات واستعدادات ..

فمن يتصور أو يصدق أن ذلك كله كامن في تلك النقطة العالقة ؟ وأن هذه النقطة الصغيرة الضئيلة هي هذا الإنسان المعقد المركب ، الذي يختلف كل فرد من جنسه عن الآخر ، فلا يتماثل اثنان في هذه الأرض في جميع الأزمان ؟ !

ومن العلقه إلى المضغة ، وهي قطعة من دم غليظ لا تحمل سمة ولا شكلاً . ثم تخلق فتتخذ شكلها بتحويلها إلى هيكل عظمي يكسى باللحم ؛ أو يلفظها الرحم قبل ذلك إن لم يكن مقدراً لها التمام .

« لنبين لكم » .. فهنا محطة بين المضغة والطفل ، يقف السياق عندها بهذه الجملة المعترضة : « لنبين لكم » . لنبين لكم دلائل القدرة بمناسبة تبيين الملامح في المضغة . وذلك على طريقة التناسق الفني في القرآن .

ثم يمضي السياق مع أطوار الجنين : « ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى » فما شاء الله أن يتم تمامه أقره في الأرحام حتى يحين أجل الوضع . « ثم نخرجكم طفلاً » .. ويا للمسافة الهائلة بين الطور الأول والطور الأخير !

إنها في الزمان - تعادل في العادة - تسعة أشهر . ولكنها أبعد من ذلك جداً في اختلاف طبيعة النطفة وطبيعة الطفل . النطفة التي لا ترى بالعين المجردة وهذا المخلوق البشري المعقد المركب ، ذو الأعضاء والجوارح ، والسمات واللامح ، والصفات والاستعدادات ، والميول والنزعات ..

إلا إنها المسافة التي لا يعبرها الفكر الواعي إلا وقد وقف خاشعاً أمام آثار القدرة القادرة مرات ومرات .. ثم يمضي السياق مع أطوار ذلك الطفل بعد أن يرى النور ، ويفارق الممكن الذي تمت فيه تلك الخوارق الضخام ، في خفية عن الأنظار !

« ثم لتبلغوا أشدكم » .. فتستوفوا نموكم العضلي ، ونموكم العقلي ، ونموكم النفسي .. وكم بين الطفل الوليد والإنسان الشديد من مسافات في المميزات أبعد من مسافات الزمان ! ولكنها تتم بيد القدرة المبدعة التي أودعت الطفل الوليد كل خصائص الإنسان الرشيد ، وكل الاستعدادات الكامنة التي تتبدى فيه وتتكشف في أوانها ، كما أودعت النقطة العالقة بالرحم كل خصائص الطفل ، وهي ماء مهين !

« ومنكم من يتوفى ، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكي لا يعلم من بعد علم شيئاً » ..

فاما من يتوفى فهو صائر إلى نهاية كل حي . وأما من يرد إلى أرذل العمر فهو صفحة مفتوحة للتدبر ما تزال . فبعد العلم ، وبعد الرشد ، وبعد الوعي ، وبعد الاكتمال .. إذا هو يرتد طفلاً . طفلاً في عواطفه وانفعالاته . طفلاً في وعيه ومعلوماته . طفلاً في تقديره وتدييره . طفلاً أقل شيء يرضيه وأقل شيء يبكيه . طفلاً في حافظته فلا تمسك شيئاً ، وفي ذاكرته فلا تستحضر شيئاً . طفلاً في أخذه الأحداث والتجارب فرادى لا يربط بينها رابط ولا تؤدي في حسه ووعيه إلى نتيجة ، لأنه ينسى أولها قبل أن يأتي على آخرها : « لكي لا يعلم من بعد علم شيئاً » ولكي يفلت من عقله ووعيه ذلك العلم الذي ربما تخايل به وتطاول ، وجادل في الله وصفاته بالباطل !

ثم تستطرد الآية إلى عرض مشاهد الخلق والإحياء في الأرض والنبات ، بعد عرض مشاهد الخلق والإحياء في الإنسان .

« وترى الأرض هامدة ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج » .
والهمود درجة بين الحياة والموت . وهكذا تكون الأرض قبل الماء ، وهو العنصر الأصيل في الحياة والأحياء .
فإذا نزل عليها الماء « اهتزت وربت » وهي حركة عجيبة سجلها القرآن قبل أن تسجلها الملاحظة العلمية بنبات
الأعوام ، فالتربة الجافة حين ينزل عليها الماء تتحرك حركة اهتزاز وهي تشترب الماء وتنتفخ فتربو ثم تتفتح
بالحياة عن النبات « من كل زوج بهيج » . وهل أبهج من الحياة وهي تتفتح بعد الكمون ، وتنتفض بعد الهمود ؟
وهكذا يتحدث القرآن عن القرابة بين أبناء الحياة جميعاً ، فيسلوهم في آية واحدة من آياته . وإنما للفتة
عجيبة إلى هذه القرابة الوثيقة . وإنما لدليل على وحدة عنصر الحياة ، وعلى وحدة الإرادة الدافعة لها هنا وهناك .
في الأرض والنبات والحيوان والإنسان .

« ذلك بأن الله هو الحق ، وأنه يحيي الموتى ، وأنه على كل شيء قدير وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن
الله يبعث من في القبور » ..

ذلك .. أي إنشاء الإنسان من التراب وتطور الجنين في مراحل تكونه ، وتطور الطفل في مراحل حياته ،
وانبعاث الحياة من الأرض بعد الهمود . ذلك متعلق بأن الله هو الحق . فهو من السنن المطردة التي تنشأ من أن
خالقها هو الحق الذي لا تختل سنته ولا تتخلف . وأن اتجاه الحياة هذا الاتجاه في هذه الأطوار ليدل على الإرادة
التي تدفعها وتنسق خطاها وترتب مراحلها . فهناك ارتباط وثيق بين أن الله هو الحق ، وبين هذا الاطراد والثبات
والاتجاه الذي لا يحدد . « وأنه يُحيي الموتى » فأحياء الموتى هو إعادة للحياة . والذي أنشأ الحياة الأولى هو الذي
ينشئها للمرة الآخرة « وأن الله يبعث من في القبور » ليلاقوا ما يستحقونه من جزاء . فهذا البعث تقتضيه حكمة
الخلق والتدبير .

وإن هذه الأطوار التي يمر بها الجنين ، ثم يمر بها الطفل بعد أن يرى النور لتشير إلى أن الإرادة المدبرة لهذه
الأطوار ستدفع بالإنسان إلى حيث يبلغ كماله الممكن في دار الكمال . إذ أن الإنسان لا يبلغ كماله في حياة
الأرض ، فهو يقف ثم يتراجع « لكي لا يعلم من بعد علم شيئاً » فلا بد من دار أخرى يتم فيها تمام الإنسان .

فدلالة هذه الأطوار على البعث دلالة مزدوجة .. فهي تدل على البعث من ناحية أن القادر على الإنشاء قادر
على الإعادة ، وهي تدل على البعث لأن الإرادة المدبرة تكمل تطوير الإنسان في الدار الآخرة .. وهكذا تلتقي
نواميس الخلق والإعادة ، ونواميس الحياة والبعث ، ونواميس الحساب والجزاء وتشهد كلها بوجود الخالق المدير
القادر الذي ليس في وجوده جدال ..

ومع هذه الدلائل المتضاربة فهناك من يجادل في الله :

« ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله . له في
الدنيا خزي ، ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق . ذلك بما قدمت يداك ، وأن الله ليس بظلام للعبيد » ..

والجدال في الله بعد تلك الدلائل يبدو غريباً مستنكراً . فكيف إذا كان جدالاً بغير علم . لا يستند إلى دليل ،
ولا يقوم على معرفة ، ولا يستمد من كتاب ينير القلب والعقل ، ويوضح الحق ، ويهدي إلى اليقين .

والتعبير يرسم صورة لهذا الصنف من الناس . صورة فيها الكبر المتعجرف : « ثاني عطفه » مائلاً مزوراً يجنبه .
فهو لا يستند إلى حق فيعوض عن هذا بالعجرفة والكبر . « ليضل عن سبيل الله » فلا يكتفي بأن يضل ، إنما يحمل
غيره على الضلال .

سورة الحج

هذا الكبر الضال المضل لا بد أن يقمع ، ولا بد أن يحطم : « له في الدنيا خزي » فالخزي هو المقابل للكبر . والله لا يدع المتكبرين المتعرفين الضالين المضلين حتى يحطم تلك الكبرياء الزائفة وينكسها ولو بعد حين . إنما يمهلم أحياناً ليكون الخزي أعظم ، والتحقير أوقع . أما عذاب الآخرة فهو أشد وأوجع : « ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق » .

وفي لحظة ينقلب ذلك الوعيد المنظور إلى واقع مشهود ، بلفتة صغيرة في السياق ، من الحكاية إلى الخطاب :
« ذلك بما قدمت يداك ، وأن الله ليس بظلام للعبيد » ..
وكأنما هو اللحظة يلقي التفرغ والتبكي ، مع العذاب والحريق .

* * *

ويمضي السياق إلى نموذج آخر من الناس - إن كان يواجه الدعوة يومذاك فهو نموذج مكرور في كل جيل - ذلك الذي يزن العقيدة بميزان الربح والخسارة ؛ ويظنها صفقة في سوق التجارة :

« ومن الناس من يعبد الله على حرف ، فإن أصابه خير اطمأن به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة . ذلك هو الخسران المبين . يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه . ذلك هو الضلال البعيد . يدعو لمن ضره أقرب من نفعه . لبئس المولى ولبئس العشير » ..

إن العقيدة هي الركيزة الثابتة في حياة المؤمن ، تضطرب الدنيا من حوله فيثبت هو على هذه الركيزة وتتجاذبه الأحداث والدوافع فيتشبث هو بالصخرة التي لا تتزعزع ؛ وتهاوى من حوله الأسناد فيستند هو إلى القاعدة التي لا تحول ولا تزول .

هذه قيمة العقيدة في حياة المؤمن . ومن ثم يجب أن يستوي عليها ، متمكناً منها ، واثقاً بها ، لا يتلجلج فيها ، ولا ينتظر عليها جزاء ، فهي في ذاتها جزاء . ذلك أنها الحمى الذي يلجأ إليه ، والسند الذي يستند عليه . أجل هي في ذاتها جزاء على تفتح القلب للنور ، وطلبه للهدى . ومن ثم يهبه الله العقيدة ليأوي إليها ، ويطمئن بها . هي في ذاتها جزاء يدرك المؤمن قيمته حين يرى الحيارى الشاردين من حوله ، تتجاذبهم الرياح ، وتتقاذفهم الزوابع ، ويستبد بهم القلق . بينما هو بعقيدته مطمئن القلب ، ثابت القدم ، هادئ البال ، موصول بالله ، مطمئن بهذا الاتصال

أما ذلك الصنف من الناس الذي يتحدث عنه السياق فيجعل العقيدة صفقة في سوق التجارة : « فإن أصابه خير اطمأن به » وقال : إن الإيمان خير . فهذا هو ذا يجلب النفع ، ويدر الضرع ، وينمي الزرع ، ويربح التجارة ، ويكفل الرواج « وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة » .. خسر الدنيا بالبلاء الذي أصابه فلم يصبر عليه ، ولم يتأسك له ، ولم يرجع إلى الله فيه . وخسر الآخرة بانقلابه على وجهه ، وانكفائه عن عقيدته ، وانتكاسه عن الهدى الذي كان ميسراً له .

والتعبير القرآني يصوره في عبادته لله « على حرف » غير متمكن من العقيدة ، ولا مثبت في العبادة . يصوره في حركة جسدية متأرجحة قابلة للسقوط عند الدفعة الأولى . ومن ثم ينقلب على وجهه عند مس الفتنة ، ووقفته المتأرجحة تمهد من قبل لهذا الانقلاب !

إن حساب الربح والخسارة يصلح للتجارة ، ولكنه لا يصلح للعقيدة . فالعقيدة حق يعتنق لذاته ، بانفعال القلب المثقفي للنور والهدى الذي لا يملك إلا أن يفعل بما يتلقى . والعقيدة تحمل جزاءها في ذاتها ، بما فيها

من طمأنينة وراحة ورضى ، فهي لا تطلب جزاءها خارجاً عن ذاتها .
والمؤمن يعبد ربه شكراً له على هدايته إليه ، وعلى اطمئنانه للقرب منه والأنس به . فإن كان هنالك جزاء فهو فضل من الله ومنة . استحقاقاً على الإيمان أو العبادة !
والمؤمن لا يجرب إلهه . فهو قابل ابتداء لكل ما يقدره له ، مستسلم ابتداء لكل ما يجربه عليه راض ابتداء بكل ما يناله من السراء والضراء . وليست هي صفقة في السوق بين بائع وشار ، إنما هي إسلام المخلوق للخالق ، صاحب الأمر فيه ، ومصدر وجوده من الأساس .

والذي ينقلب على وجهه عند مس الفتنة يخسر الخسارة التي لا شبهة فيها ولا ريب : « ذلك هو الخسران المبين » .. يخسر الطمأنينة والثقة والهدوء والرضى . إلى جوار خسارة المال أو الولد ، أو الصحة ، أو أعراض الحياة الأخرى التي يفتن الله بها عباده ، ويبتلي بها تقهم فيه ، وصبرهم على بلائه ، وإخلاصهم أنفسهم له ، واستعدادهم لقبول قضائه وقدره .. ويخسر الآخرة وما فيها من نعم وقربى ورضوان . فإله من خسران ! وإلى أين يتجه هذا الذي يعبد الله على حرف ؟ إلى أين يتجه بعيداً عن الله ؟ إنه « يدعو من دون الله مالا يضره ومالا ينفعه » .. يدعو صنماً أو وثناً على طريقة الجاهلية الأولى . ويدعو شخصاً أو جهة أو مصلحة على طريقة الجاهليات المتناثرة في كل زمان ومكان ، كلما انحرف الناس عن الاتجاه إلى الله وحده ، والسير على صراطه ونهجه .. فما هذا كله ؟ إنه الضلال عن المتجه الوحيد الذي يجدي فيه الدعاء : « ذلك هو الضلال البعيد » المفرق في البعد عن الهدى والاهتداء .. « يدعو لمن ضره أقرب من نفعه » من وثن أو شيطان ، أو سند من بني الإنسان .. وهذا كله لا يملك ضراً ولا نفعاً ، وهو أقرب لأن ينشأ عنه الضر . وضره أقرب من نفعه . ضره في عالم الضمير بتوزيع القلب ، وإثقاله بالوهم وإثقاله بالذل . وضره في عالم الواقع وكفى بما يعقبه في الآخرة من ضلال وخسران « لبئس المولى » ذلك الضعيف لاسلطان له في ضر أو نفع « ولبئس العشير » ذلك الذي ينشأ عنه الخسران . يستوي في ذلك المولى والعشير من الأصنام والأوثان ، والمولى والعشير من بني الإنسان ، ممن يتخذهم بعض الناس آلهة أو أشباه آلهة في كل زمان ومكان !

والله يدخر للمؤمنين به ما هو خير من عرض الحياة الدنيا كله ، حتى لو خسروا ذلك العرض كله في الفتنة والابتلاء :

« إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار . إن الله يفعل ما يريد » ..
فمن مسه الضر في فتنة من الفتن ، وفي ابتلاء من الابتلاءات ، فليثبت ولا يتزعزع ، وليستبق ثقته برحمة الله وعونه ، وقدرته على كشف الضراء ، وعلى العوض والجزاء .

فأما من يفقد ثقته في نصر الله في الدنيا والآخرة ؛ ويقنط من عون الله له في المحنة حين تشتد المحنة . فدونه فليفعل بنفسه ما يشاء ؛ وليذهب بنفسه كل مذهب ، فما شيء من ذلك يبدل ما به من البلاء :
« من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة ، فليمدد بسبب إلى السماء ، ثم ليقطع ، فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ » !

وهو مشهد متحرك لغيظ النفس ، وللحركات المصاحبة لذلك الغيظ ، يجسم هذه الحالة التي يبلغ فيها الضيق بالنفس أقصاه ، عندما ينزل بها الضر وهي على غير اتصال بالله .
والذي يئأس في الضر من عون الله يفقد كل نافذة مضيئة ، وكل نسمة رخية ، وكل رجاء في الفرج ،

ويستبد به الضيق ، ويثقل على صدره الكرب ، فيزيد هذا كله من وقع الكرب والبلاء .
 فن كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة فليمدد بحبل إلى السماء يتعلق به أو يخنق . ثم ليقطع
 الحبل فيسقط أو ليقطع النفس فيخنق .. ثم لينظر هل ينقذه تديره ذلك مما يغيبه !
 ألا إنه لا سبيل إلى احتمال البلاء إلا بالرجاء في نصر الله . ولا سبيل إلى الفرج إلا بالتوجه إلى الله . ولا سبيل
 إلى الاستعلاء على الضر ، والكفاح للخلاص إلا بالاستعانة بالله . وكل حركة يائسة لا ثمرة لها ولا نتيجة إلا
 زيادة الكرب ، ومضاعفة الشعور به ، والعجز عن دفعه بغير عون الله .. فليستبق المكروب تلك النافذة
 المضئنة التي تنسم عليه من روح الله ...

* * *

بمثل هذا البيان لحالات الهدى والضلال ، ولتأذج الهدى والضلال ، أنزل الله هذا القرآن ليهتدي به
 من يفتح له قلبه ، فيقسم الله له الهداية :
 « وكذلك أنزلناه آيات بينات ، وأن الله يهدي من يريد » ..

وإرادة الله قد قررت سبق الهدى والضلال . فمن طلب الهدى تحققت إرادة الله بهدائه ، وفق سنته ،
 وكذلك من طلب الضلال . إنما يفرد هنا حالة الهدى بالذكر ، بمناسبة ما في الآيات من بيان يقتضي الهدى
 في القلب المستقيم .

فأما الفرق المختلفة في الاعتقاد فأمرها إلى الله يوم القيامة ، وهو العليم بكل ما في عقائدها من حق أو
 باطل ، ومن هدى أو ضلال :

« إن الذين آمنوا ، والذين هادوا ، والصابئين ، والنصارى ، والمجوس ، والذين أشركوا .. إن الله
 يفصل بينهم يوم القيامة ، إن الله على كل شيء شهيد » ..

وقد سبق تعريف هذه الفرق . وهي تذكر هنا بمناسبة أن الله يهدي من يريد ، وهو أعلم بالمهتدين والضالين ،
 وعليه حساب الجميع ، والأمر إليه في النهاية ، وهو على كل شيء شهيد .
 وإذا كان الناس بتفكيرهم ونزعاتهم وميولهم ، فإن الكون كله - فيما عداهم - يتجه بفطرته إلى خالقه ،
 يخضع لتأموسه ، ويسجد لوجهه :

« ألم تر أن الله يسجد له من في السماوات ومن في الأرض ، والشمس والقمر والنجوم ، والجبال والشجر
 والدواب ، وكثير من الناس ، وكثير حق عليه العذاب . ومن يهن الله فما له من مكرم . إن الله يفعل ما يشاء » ..
 ويتدبر القلب هذا النص ، فإذا حشد من الخلائق مما يدرك الإنسان ومما لا يدرك . وإذا حشد من الأفلاك
 والأجرام . مما يعلم الإنسان ومما لا يعلم . وإذا حشد من الجبال والشجر والدواب في هذه الأرض التي يعيش
 عليها الإنسان .. إذا بتلك الحشود كلها في موكب خاشع تسجد كلها لله ، وتتجه إليه وحده دون سواه . تتجه
 إليه وحده في وحدة واتساق . إلا ذلك الإنسان فهو وحده الذي يتفرق : « وكثير من الناس وكثير حق عليه
 العذاب » فيبدو هذا الإنسان عجباً في ذلك الموكب المتناسق .

وهنا يقرر أن من يحق عليه العذاب فقد حق عليه الهوان : « ومن يهن الله فما له من مكرم » .. فلا كرامة
 إلا بإكرام الله ، ولا عزة إلا بعزة الله . وقد ذل وهان من دان لغير الديان .

* * *

ثم مشهد من مشاهد القيامة يتجلى فيه الإكرام والهوان ، في صورة واقع يشهد كأنه معروض للعيان :
 « هذان خصمان اختصموا في ربهم . فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار ، يصب من فوق رؤوسهم
 الحميم ، يصهر به ما في بطونهم والجلود ؛ ولهم مقامع من حديد ، كلما أرادوا أن يخرجوا منها - من غم -
 أعيدوا فيها . وذوقوا عذاب الحريق . إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها
 الأنهار ، يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير» .
 إنه مشهد عنيف صاحب ، حافل بالحركة ، مطول بالتخييل الذي يبعثه في النفس نسق التعبير . فلا يكاد
 الخيال ينتهي من تتبعه في تجدده ..

هذه ثياب من النار تقطع وتفصل ! وهذا حميم ساخن يصب من فوق الرؤوس ، يصهر به ما في البطون
 والجلود عند صبه على الرؤوس ! وهذه سياط من حديد أحمرته النار .. وهذا هو العذاب يشتد ، ويتجاوز
 الطاقة ، فيهب « الذين كفروا » من الوهج والحميم والضرب الأليم يهمون بالخروج من هذا « الغم » وها هم
 أولاء يردون بعنف ، ويسمعون التأنيب : « وذوقوا عذاب الحريق » ..
 ويظل الخيال يكرر هذه المشاهد من أولى حلقاتها إلى آخرها ، حتى يصل إلى حلقة محاولة الخروج
 والرد العنيف ، ليبدأ في العرض من جديد !

ولا يبارح الخيال هذا المشهد العنيف المتجدد إلا أن يلتفت إلى الجانب الآخر ، الذي يستطرد السياق إلى
 عرضه . فأصل الموضوع أن هناك خصمين اختصموا في ربهم . فأما الذين كفروا به فقد كنا نشهد مصيرهم
 المفجع منذ لحظة ! وأما الذين آمنوا فهم هنالك في الجنات تجري من تحتها الأنهار . وملا بسهم لم تقطع
 من النار ، إنما فصلت من الحرير . ولهم فوقها حل من الذهب واللؤلؤ . وقد هداهم الله إلى الطيب من القول ،
 وهداهم إلى صراط الحميد . فلا مشقة حتى في القول أو في الطريق .. والهداية إلى الطيب من القول ،
 والهداية إلى صراط الحميد نعمة تذكر في مشهد النعم . نعمة الطمأنينة واليسر والتوفيق .
 وتلك عاقبة الخصام في الله . فهذا فريق وذلك فريق .. فليتدبر تلك العاقبة من لا تكفيه الآيات البينات ،
 ومن يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ..

وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَكْفُ فِيهِ وَالْبَادِ

وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾

وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾

وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَا تَوْكُ رَجُلًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِيَشْهَدُوا مَنَفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا أَنَّمَا

اللَّهُ فِي أَيَّامِ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَيْمَاتٍ الْأَنْعَمِ ﴿٢٨﴾ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِعُوا الْبَاسِ الْفَقِيرَ ﴿٢٩﴾ ثُمَّ لِيَقْضُوا

تَفْهِمُهُمْ وَلِيُؤْفُوا نُدُورَهُمْ وَلِيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٣٠﴾

ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظْ حُرْمَةَ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ۚ وَأَحَلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامَ إِلَّا مَا بَيَّأْتُمْ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا
الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٢﴾ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ۚ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ
السَّمَاءِ فَتَخَطَّفَهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣٣﴾

ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظْ شَعْتِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٤﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَىٰ
الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٣٥﴾

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَيْمَاتٍ الْأَنْعَامِ فَإِنَّهَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ
وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا
رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣٧﴾

وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعْتِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۚ فَأَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ ۚ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا
فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَنَاعَ وَالْمُعْتَرَّ ۚ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا
دِمَآؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ ۚ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْكُمْ ۚ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٩﴾

* إِنْ اللَّهُ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا ۚ إِنْ اللَّهُ لَا يُجِبُ كُلَّ خَوَانٍ كُفُورٍ ﴿٤٠﴾ أُوذِيَ الَّذِينَ يَقْتُلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا ۚ
وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ۚ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ
النَّاسَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتَّتْ صَوْمِعُ وَيَبِعُ وَصَلَوَاتُ وَمَسْجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ۚ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ
مَنْ يَنْصُرُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٢﴾ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا
بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ۚ وَاللَّهُ عَظِيمُ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾

انتهى الدرس الماضي بتصوير عاقبة الخصام في الله ، ومشهد الجحيم الحارق للكافرين ، والنعيم الوارف
للمؤمنين .

وبهذه النهاية يتصل الدرس الجديد ، فيتحدث عن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام .

وهم الذين كانوا يواجهون الدعوة الإسلامية في مكة ، فيصدون الناس عنها ؛ ويواجهون الرسول - صلى الله عليه وسلم - والمؤمنين فيمنعونهم من دخول المسجد الحرام .

وبهذه المناسبة يتحدث عن الأساس الذي أقيم عليه ذلك المسجد يوم فوض الله إبراهيم - عليه السلام - في بنائه ، والأذان في الناس بالحج إليه . ولقد كلف إبراهيم أن يقيم هذا البيت على التوحيد ، وأن ينفي عنه الشرك ، وأن يجعله للناس جميعاً ، سواء المقيم فيه والطارئ عليه ، لا يمنع عنه أحد ، ولا يملكه أحد . ويستطرد إلى بعض شعائر الحج وما وراءها من استجاشة القلوب للتقوى وذكر الله والاتصال به .. وينتهي إلى ضرورة حماية المسجد الحرام من عدوان المعتدين الذين يصدون عنه ويغيرون الأساس الذي قام عليه ؛ وبوعد الله للمدافعين بالنصر متى نهضوا بالتكاليف التي تفرضها حماية العقيدة .

* * *

« إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس ، سواء العاكف فيه والباد . ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم » ..

وكان ذلك فعل المشركين من قريش : أن يصدوا الناس عن دين الله - وهو سبيله الواصل إليه ، وهو طريقه الذي شرعه للناس ، وهو نهجه الذي اختاره للعباد - وأن يمنعوا المسلمين من الحج والعمرة إلى المسجد الحرام - كما فعلوا عام الحديبية - وهو الذي جعله الله للناس منطقة أمان ودار سلام ، وواحة اطمئنان . يستوي فيه المقيم بمكة والطارئ عليها . فهو بيت الله الذي يتساوى فيه عباد الله ، فلا يملكه أحد منهم ، ولا يمتاز فيه أحد منهم : « سواء العاكف فيه والباد » .

ولقد كان هذا النهج الذي شرعه الله في بيته الحرام سابقاً لكل محاولات البشر في إيجاد منطقة حرام . يلقي فيها السلاح ، ويأمن فيها المتخاصمون ، وتحقق فيها الدماء ، ويجد كل أحد فيها مأواه . لا تفضلاً من أحد ، ولكن حقاً يتساوى فيه الجميع .

ولقد اختلفت أقوال الفقهاء في جواز الملكية الفردية لبيوت مكة غير المسكونة بأهلها . وفي جواز كراء هذه البيوت عند من أجاز ملكيتها .. فذهب الشافعي رحمه الله - إلى أنها تملك وتورث وتؤجر محتجاً بما ثبت من أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - اشترى من صفوان بن أمية داراً بمكة بأربعة آلاف درهم فجعلها سجناً . وذهب إسحاق بن راهويه - رحمه الله - إلى أنها لا تورث ولا تؤجر ، وقال : توفي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأبو بكر وعمر ، وما تدعى رباع مكة (جمع ربع) إلا السوائب ، من احتاج سكن ، ومن استغنى أسكن . وقال عبد الرزاق عن مجاهد عن أبيه عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهم - أنه قال : لا يحل بيع دور مكة ولا كراؤها . وقال أيضاً عن ابن جريج : كان عطاء ينهى عن الكراء في الحرم . وأخبرني أن عمر بن الخطاب كان ينهى عن تبويب دور مكة لأن ينزل الحاج في عرصاتنا . فكان أول من بوب سهيل بن عمرو ، فأرسل إليه عمر بن الخطاب في ذلك ، فقال : أنظرنى يا أمير المؤمنين إني كنت امرأ تاجراً ، فأردت أن أتخذ لي بايين يحبسان لي ظهري (أي ركائي) قال : فلك ذلك إذن . وقال عبد الرزاق عن معمر عن منصور عن مجاهد أن عمر بن الخطاب قال : يا أهل مكة لا تتخذوا لدوركم أبواباً لينزل البادي حيث يشاء .. وتوسط الإمام أحمد - رحمه الله - فقال : تملك وتورث ولا تؤجر . جمعاً بين الأدلة .

وهكذا سبق الإسلام سبقاً بعيداً بإنشاء واحة السلام ، ومنطقة الأمان ، ودار الإنسان المفتوحة لكل إنسان ! والقرآن الكريم يهدد من يريد اعوجاجاً في هذا النهج المستقيم بالعذاب الأليم : « ومن يرد فيه بإلحاد

بظلم نذقه من عذاب ألمٍ .. فما بال من يريد ويفعل؟ إن التعبير يهدد ويتوعد على مجرد الإرادة زيادة في التحذير ، ومبالغة في التوكيد . وذلك من دقائق التعبير .

ومن دقائق التعبير كذلك أن يحذف خبر إن في الجملة : « إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام ... » فلا يذكرهم ما لهم؟ ما شأنهم؟ ما جزاؤهم كأن مجرد ذكر هذا الوصف لهم يغني عن كل شيء آخر في شأنهم ، ويقرر أمرهم ومصيرهم !

* * *

ثم يرجع إلى نشأة هذا البيت الحرام ، الذي يستبد به المشركون ، يعبدون فيه الأصنام ، ويمنعون منه الموحدين بالله ، المتطهرين من الشرك .. يرجع إلى نشأته على يد إبراهيم - عليه السلام - بتوجيه ربه وإرشاده . ويرجع إلى القاعدة التي أقيم عليها وهي قاعدة التوحيد . وإلى الغرض من إقامته وهو عبادة الله الواحد ، وتخصيصه للطائفتين به والقائمين لله فيه :

« وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ألا تشرك بي شيئاً ، وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود . وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ، ليشهدوا منافع لهم ، ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ، فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير . ثم ليقضوا تقضهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق .. »

فللتوحيد أقيم هذا البيت منذ أول لحظة . عرف الله مكانه لإبراهيم - عليه السلام - وملكه أمره ليقمه على هذا الأساس : « ألا تشرك بي شيئاً » فهو بيت الله وحده دون سواه . وليطهره به من الحجيج ، والقائمين فيه للصلاة : « وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود » فهؤلاء هم الذين أنشئ البيت لهم ، لالمن يشركون بالله ، ويتوجهون بالعبادة إلى سواه .

ثم أمر الله إبراهيم عليه السلام - باني البيت - إذا فرغ من إقامته على الأساس الذي كلف به أن يؤذن في الناس بالحج ؛ وأن يدعوهم إلى بيت الله الحرام ووعد أن يلبي الناس دعوته ، فيتقاطرون على البيت من كل فج ، رجالاً يسعون على أقدامهم ، وركوباً « على كل ضامر » يأتين من كل فج عميق ..

وما يزال وعد الله يتحقق منذ إبراهيم - عليه السلام - إلى اليوم والغد . وما تزال أفئدة من الناس تهوى إلى البيت الحرام ؛ وترف إلى رؤيته والطواف به .. الغني القادر الذي يجد الظهر يركبه ووسيلة الركوب المختلفة تنقله ؛ والفقير المعدم الذي لا يجد إلا قدميه . وعشرات الألوف من هؤلاء يتقاطرون من فجاج الأرض البعيدة تلبية لدعوة الله التي أذن بها إبراهيم - عليه السلام - منذ آلاف الأعوام ..

ويقف السياق عند بعض معالم الحج وغاياته :

« ليشهدوا منافع لهم ، ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير . ثم ليقضوا تقضهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق .. »

والمنافع التي يشهدها الحجيج كثير . فالحج موسم ومؤتمر . الحج موسم تجارة وموسم عبادة . والحج مؤتمر اجتماع وتعارف ، ومؤتمر تسيق وتعاون . وهو الفريضة التي تلتقي فيها الدنيا والآخرة كما تلتقي فيها ذكريات العقيدة البعيدة والقريبة .. أصحاب السلع والتجارة يجدون في موسم الحج سوقاً رائجة ، حيث

تجبي إلى البلد الحرام ثمرات كل شيء .. من أطراف الأرض ؛ ويقدم الحجيج من كل فج ومن كل قطر ، ومعهم من خيرات بلادهم ما تفرق في أرجاء الأرض في شتى المواسم . يتجمع كله في البلد الحرام في موسم واحد . فهو موسم تجارة ومعرض نتاج ؛ وسوق عالمية تقام في كل عام .

وهو موسم عبادة تصفو فيه الأرواح ، وهي تستشعر قربها من الله في بيته الحرام . وهي ترف حول هذا البيت وتستروح الذكريات التي تحوم عليه وترف كالأطياف من قريب ومن بعيد ..

طيف إبراهيم الخليل - عليه السلام - وهو يودع البيت فلذة كبده إسماعيل وأمه ، ويتوجه بقلبه الخافق الواجف إلى ربه : « ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم . ربنا ليقيموا الصلاة . فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم ، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكروا » ..

وطيف هاجر ، وهي تستروح الماء لنفسها ولطفلها الرضيع في تلك الحرة المثلثة حول البيت ، وهي تهول بين الصفا والمروة وقد نهكها العطش ، وهداها الجهد وأضناها الإشفاق على الطفل .. ثم ترجع في الجولة السابعة وقد حطها اليأس لتجد النبع يتدفق بين يدي الرضيع الوضيء . وإذا هي زمزم . ينبوع الرحمة في صحراء اليأس والجذب .

وطيف إبراهيم - عليه السلام - وهو يرى الرؤيا ، فلا يتردد في التضحية بفلذة كبده ، ويمضي في الطاعة المؤمنة إلى ذلك الأفق البعيد : « قال : يا بني إني أرى في المنام أي أذبحك فانظر ماذا ترى ؟ » فتجيبه الطاعة الراضية في إسماعيل - عليه السلام - : « قال : يا أبت افعل ما تؤمر ، ستجدني إن شاء الله من الصابرين » .. وإذا رحمة الله تتجلى في الفداء : « وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين . إن هذا لهو البلاء المبين . وفديناه بذبح عظيم » ..

وطيف إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - يرفعان القواعد من البيت ، في إنابة وخشوع : « ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا وتب علينا ، إنك أنت التواب الرحيم » ..

وتظل هذه الأطياف وتلك الذكريات ترف وتتابع ، حتى يلوح طيف عبد المطلب ، وهو ينذر دم ابنه العاشر إن رزقه الله عشرة أبناء . وإذا هو عبد الله . وإذا عبد المطلب حريصاً على الوفاء بالنذر . وإذا قومه من حوله يعرضون عليه فكرة الفداء وإذا هو يدير القداح حول الكعبة ويضاعف الفداء ، والقدح يخرج في كل مرة على عبد الله ، حتى يبلغ الفداء مائة ناقة بعد عشر هي الدية المعروفة . فيقبل منه الفداء ، فينحر مائة وينجو عبد الله . ينجو ليودع رحم آمنة أطهر نطفة وأكرم خلق الله على الله - محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم - ثم يموت ! فكأنما فداه الله من الذبح لهذا القصد الوحيد الكريم الكبير !

ثم تتواكب الأطياف والذكريات . من محمد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو يدرج في طفولته وصباه فوق هذا الثرى ، حول هذا البيت .. وهو يرفع الحجر الأسود بيديه الكريمتين فيضعه موضعه ليطفيء الفتنة التي كادت تنشب بين القبائل .. وهو يصلي .. وهو يطوف .. وهو يخطب .. وهو يعتكف .. وإن خطواته - عليه الصلاة والسلام - لتنبض حية في الخاطر ، وتتمثل شاخصة في الضمير ، يكاد الحاج هناك يلمحها وهو مستغرق في تلك الذكريات .. وخطوات الحشد من صحابته الكرام وأطيافهم ترف وتدب فوق هذا الثرى ، حول ذلك البيت ، تكاد تسمعها الأذن وتكاد تراها الأبصار !

والحج بعد ذلك كله مؤتمر جامع للمسلمين قاطبة . مؤتمر يجدون فيه أصلهم العريق الضارب في أعماق

الزمن منذ أيهم إبراهيم الخليل : « ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا » .. ويجدون محورهم الذي يشدهم جميعاً إليه : هذه القبلة التي يتوجهون إليها جميعاً ويلتقون عليها جميعاً .. ويجدون رايتهم التي يفيثون إليها . راية العقيدة الواحدة التي تتوارى في ظلها فوارق الأجناس والألوان والأوطان .. ويجدون قوتهم التي قد ينسونها حيناً . قوة التجمع والتوحد والترابط الذي يضم الملايين . الملايين التي لا يقف لها أحد لو فاءت إلى رايته الواحدة التي لا تتعدد.. راية العقيدة والتوحيد

وهو مؤتمر للتعارف والتشاور وتنسيق الخطط وتوحيد القوى ، وتبادل المنافع والسلع والمعارف والتجارب . وتنظيم ذلك العالم الإسلامي الواحد الكامل المتكامل مرة في كل عام . في ظل الله . بالقرب من بيت الله . وفي ظلال الطاعات البعيدة والقريبة ، والذكريات الغائبة والحاضرة . في أنسب مكان ، وأنسب جو ، وأنسب زمان ..

فذلك إذ يقول الله سبحانه : « ليشهدوا منافع لهم » .. كل جيل بحسب ظروفه وحاجاته وتجاربه ومقتضياته . وذلك بعض ما أراده الله بالحج يوم أن فرضه على المسلمين ، وأمر إبراهيم - عليه السلام - أن يؤذن به في الناس .

ويعمضي السياق يشير إلى بعض مناسك الحج وشعائره وأهدافها :

« ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام » ..

وهذه كناية عن نحر الذبائح في أيام العيد وأيام التشريق الثلاثة بعده . والقرآن يقدم ذكر اسم الله المصاحب لنحر الذبائح ، لأن الجور جو عبادة ولأن المقصود من النحر هو التقرب إلى الله . ومن ثم فإن أظهر ما يبرز في عملية النحر هو ذكر اسم الله على الذبيحة . وكأنما هو الهدف المقصود من النحر لا النحر ذاته .. والنحر ذكرى لهداء إسماعيل - عليه السلام - فهو ذكرى لآية من آيات الله وطاعة من طاعات عبديه إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - فوق ما هو صدقة وقرين لله بإطعام الفقراء . وبهيمة الأنعام هي الإبل والبقر والغنم والمعز .

« فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير » ..

والأمر بالأكل من الذبيحة يوم النحر هو أمر للإباحة أو الاستحباب . أما الأمر بإطعام البائس الفقير منها فهو أمر للوجوب . ولعل المقصود من أكل صاحبها منها أن يشعر الفقراء أنها طيبة كريمة . وبالنحر ينتهي الإحرام فيحل للحاج حلق شعره أو تقصيره ، وبتف شعر الإبط ، وقص الأظافر والاستحمام . مما كان ممنوعاً عليه في فترة الإحرام . وهو الذي يقول عنه : « ثم ليقضوا نهمهم ، وليوفوا نذورهم » التي نذروها من الذبائح غير الهدى الذي هو من أركان الحج . « وليطوفوا بالبيت العتيق » .. طواف الإفاضة بعد الوقوف بعرفات ، وبه تنتهي شعائر الحج . وهو غير طواف الوداع .

والبيت العتيق هو المسجد الحرام أعفاه الله فلم يغلب عليه جبار . وأعفاه الله من البلى والدثور ، فما يزال معموراً منذ إبراهيم عليه السلام ولن يزال .

* * *

تلك قصة بناء البيت الحرام ، وذلك أساسه الذي قام عليه .. بيت أمر الله خليله إبراهيم - عليه السلام - بإقامته على التوحيد ، وتطهيره من الشرك ، وأمره أن يؤذن في الناس بالحج إليه . ليذكروا اسم الله - لا أسماء

الآلهة المدعاة - على ما رزقهم من بهيمة الأنعام . ويأكلوا منها ويطعموا البائس الفقير على اسم الله دون سواه . .
فهو بيت حرام حرمت الله فيه مصونة - وأولها عقيدة التوحيد ، وفتح أبوابه للطائفين والقائمين والركع
السجود - إلى جانب حرمة الدماء ، وحرمة العهود والمواثيق . وحرمة الهدنة والسلام .

« ذلك . ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه . وأحلّت لكم الأنعام - إلا ما يتلى عليكم - فاجتنبوا
الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور ، حنفاء لله غير مشركين به . ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء
فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق » . .

وتعظيم حرمات الله يتبعه التخرج من المساس بها . وذلك خير عند الله . خير في عالم الضمير والمشاعر ،
وخير في عالم الحياة والواقع . فالضمير الذي يتخرج هو الضمير الذي يتطهر والحياة التي ترعى فيها حرمات
الله هي الحياة التي يأمن فيها البشر من البغي والاعتداء ، ويجلدون فيها متابة أمن ، وواحة سلام ، ومنطقة
اطمئنان . .

ولما كان المشركون يحرمون بعض الأنعام - كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحامي - فيجعلون لها حرمة ،
وهي ليست من حرمات الله بينما هم يعتقدون على حرمات الله - فإن النص يتحدث عن حل الأنعام إلا ما حرم
الله منها - كالميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به : « وأحلّت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم » . وذلك
كي لا تكون هنالك حرمات إلا لله ؛ وألا يشرع أحد إلا بإذن الله ؛ ولا يحكم إلا بشريعة الله .

وبمناسبة حل الأنعام يأمر باجتناب الرجس من الأوثان . وقد كان المشركون يذبحون عليها وهي رجس -
والرجس دنس النفس - والشرك بالله دنس يصيب الضمير ويلوث القلوب ، ويشوب نقاءها وطهارتها
كما تشوب النجاسة الثوب والمكان .

ولأن الشرك افتراء على الله وزور ، فإنه يحذر من قول الزور كقوله : « فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا
قول الزور » . .

ويغلظ النص من جريمة قول الزور إذ يقرنها إلى الشرك . . وهكذا روى الإمام أحمد - بإسناده - عن
فاتك الأسدي قال : صلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الصبح . فلما انصرف قام قائماً فقال : « عدلت
شهادة الزور الإشراف بالله عز وجل » ثم تلا هذه الآية . . .

إنما يريد الله من الناس أن يميلوا عن الشرك كله ، وأن يجتنبوا الزور كله ، وأن يستقيموا على التوحيد
الصادق الخالص . « حنفاء لله غير مشركين به » . . ثم يرسم النص مشهداً عنيفاً يصور حال من تزل قدمه
عن أفق التوحيد ، فيهوي إلى درك الشرك . فإذا هو ضائع ذاهب بدهاء كأن لم يكن من قبل أبداً :
« ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق » . .

إنه مشهد الهوي من شاق « فكأنما خر من السماء » . وفي مثل ملح البصر يتمزق « فتخطفه الطير » أو تقذف
به الريح بعيداً عن الأنظار : « أو تهوي به الريح في مكان سحيق » في هوة ليس لها قرار !
والمحوظ هو سرعة الحركة مع عنفها وتعاقب خطواتها في اللفظ « بالفاء » وفي المنظر بسرعة الاختفاء . .
على طريقة القرآن الكريم في التعبير بالتصوير .

وهي صورة صادقة لحال من يشرك بالله ، فيهوي من أفق الإيمان السامق إلى حيث الفناء والانطواء .
إذ يفقد القاعدة الثابتة التي يطمئن إليها . قاعدة التوحيد . ويفقد المستقر الآمن الذي يشوب إليه ؛ فتتخطفه

الأهواء تخطف الجوارح ، وتتقاذفه الأوهام تقاذف الرياح . وهو لا يمسك بالعروة الوثقى ، ولا يستقر على القاعدة الثابتة ، التي تربطه بهذا الوجود الذي يعيش فيه .

* * *

ثم يعود السياق من تعظيم حرمان الله باتقائها والتخرج من المساس بها .. إلى تعظيم شعائر الله - وهي ذبائح الحج - باستسماها وغلاء أثمانها :

« ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب . لكم فيها منافع إلى أجل مسمى ، ثم محلها إلى البيت العتيق » .

ويربط بين الهدى الذي ينحره الحاج وتقوى القلوب ؛ إذ أن التقوى هي الغاية من مناسك الحج وشعائره . وهذه المناسك والشعائر إن هي إلا رموز تعبيرية عن التوجه إلى رب البيت وطاعته . وقد تحمل في طياتها ذكريات قديمة من عهد إبراهيم - عليه السلام - وما تلاه . وهي ذكريات الطاعة والإنابة ، والتوجه إلى الله منذ نشأة هذه الأمة المسلمة . فهي والدعاء والصلاة سواء .

وهذه الأنعام التي تتخذ هدياً ينحر في نهاية أيام الإحرام يجوز لصاحبها الانتفاع بها . إن كان في حاجة إليها يركبها ، أو في حاجة إلى ألبانها يشربها ، حتى تبلغ محلها - أي مكان حلها - وهو البيت العتيق . ثم تنحر هناك ليأكل منها . ويطعم البائس الفقير .

« وقد كان المسلمون على عهد النبي - صلى الله عليه وسلم - يغالون في الهدى ، يختارونه سميئاً غالي الثمن ، يعلنون بها عن تعظيمهم لشعائر الله ، مدفوعين بتقوى الله . روى عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قال : أهدى عمر نجيباً فأعطى بها ثلاث مائة دينار ، فأتى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال : يا رسول الله إني أهديت نجيباً ، فأعطيت بها ثلاث مائة دينار . أفأبيعها وأشتري بثمانها بدناً ؟ قال : « لا . انحرها إياها » . والناقة النجيب التي جاءت هدية لعمر - رضي الله عنه - وقومت بثلاث مائة دينار لم يكن عمر - رضي الله عنه - يريد أن يرضن بقيمتها ، بل كان يريد أن يبيعها فيشتري بها نوقاً أو بقرراً للذبح . فشاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يرضي بالنجيب ذاتها لنفاستها وعظم قيمتها ، ولا يستبدل بها نوقاً كثيرة ، قد تعطي لحمأ أكثر ، ولكنها من ناحية القيمة الشعورية أقل . والقيمة الشعورية مقصودة « فإنها من تقوى القلوب » . وهذا هو المعنى الذي لحظه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو يقول لعمر - رضي الله عنه - « انحرها إياها » هي بذاتها لا سواها !

* * *

هذه الذبائح يذكر القرآن الكريم أنها شعيرة معروفة في شتى الأمم ؛ إنما يوجهها الإسلام وجهتها الصحيحة حين يتوجه بها إلى الله وحده دون سواه :

« ولكل أمة جعلنا منسكاً ليزكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام . فإلهم إله واحد . فله أسلموا وبشر المخبتين ، الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، والصابرين على ما أصابهم ، والمقيمي الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون » ..

(١) جمع بدنة وهي الناقة أو البقرة ونجزيء في الحج عن ثمانية من الناس .

والإسلام يوحد المشاعر والاتجاهات ، ويتوجه بها كلها إلى الله . ومن ثم يعنى بتوجيه الشعور والعمل ، والنشاط والعبادة ، والحركة والعادة ؛ إلى تلك الوجهة الواحدة . وبذلك تصطبغ الحياة كلها بصبغة العقيدة . وعلى هذا الأساس حرم من الذبائح ما أهل لغير الله به ؛ وحتم ذكر اسم الله عليها ، حتى ليجعل ذكر اسم الله هو الغرض البارز ، وكأنما تذبح الذبيحة بقصد ذكر اسم الله . « ولكل أمة جعلنا منسكاً ليدكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام » ..

ويعقب بتقرير الوحدانية : « فإلهكم إله واحد » .. وبالأمر بالإسلام له وحده : « فله أسلموا » .. وليس هو إسلام الإيجاب والاضطرار ، إنما هو إسلام التسليم والاطمئنان : « وبشر المخبتين . الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم » فبمجرد ذكر اسم الله يحرك الوجل في ضمائرهم ومشاعرهم . « والصابرين على ما أصابهم » فلا اعتراض لهم على قضاء الله فيهم . « والمقيمي الصلاة » . فهم يعبدون الله حق عبادته . « ومما رزقناهم ينفقون » فهم لا يضمنون على الله بما في أيديهم ..

وهكذا يربط بين العقيدة والشعائر . فهي منبثقة من العقيدة وقائمة عليها . والشعائر تعبير عن هذه العقيدة ورمز لها . والمهم أن تصطبغ الحياة كلها ويصطبغ نشاطها كله بتلك الصبغة ، فتوحد الطاقة ويتوحد الاتجاه ، ولا تتمزق النفس الإنسانية في شتى الاتجاهات^١ .

ويستطرد السياق في تقرير هذا المعنى وتوكيده وهو يبين شعائر الحج بنحر البدن :

« والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير ، فاذكروا اسم الله عليها صواف . فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر . كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون .. لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ، ولكن يناله التقوى منكم ، كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم ، وبشر المحسنين » ..

ويخص البدن بالذكر لأنها أعظم الهدى ، فيقرر أن الله أراد بها الخير لهم ، فجعل فيها خيراً وهي حية تركب وتحلب ، وهي ذبيحة تهدي وتطعم فجزاء ما جعلها الله خيراً لهم أن يذكروا اسم الله عليها ويتوجهوا بها إليه وهي تهباً للنحر بصف أقدامها : « فاذكروا اسم الله عليها صواف » . والإبل تنحر قائمة على ثلاث معقولة الرجل الرابعة - « فإذا وجبت جنوبها » واطمأنت على الأرض بموتها أكل منها أصحابها استحباباً ، وأطعموا منها الفقير القانع الذي لا يسأل والفقير المعتر الذي يتعرض للسؤال . فلهذا سخرها الله للناس ليشكروه على ما قدر لهم فيها من الخير حية وذبيحة : « كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون » ..

وهم حين يؤمرون بنحرها باسم الله « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها » فإن اللحوم والدماء لا تصل إلى الله سبحانه . إنما تصل إليه تقوى القلوب وتوجهاتها - لا كما كان مشركو قريش يلطخون أوثانهم وآهتهم بدماء الأضحيان على طريقة الشرك المنحرفة الغليظة !

« كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم » .. فقد هداكم إلى توحيدكم والاتجاه إليه وإدراك حقيقة الصلة بين الرب والعباد ، وحقيقة الصلة بين العمل والاتجاه .

« وبشر المحسنين » .. الذين يحسنون التصور ، ويحسنون الشعور ، ويحسنون العبادة ، ويحسنون الصلة بالله في كل نشاط الحياة .

وهكذا لا يخطط المسلم في حياته خطوة ، ولا يتحرك في ليله أو نهاره حركة ، إلا وهو ينظر فيها إلى الله .

(١) يراجع فصل : العقيدة والحياة ، في كتاب : السلام العالمي والإسلام .

سورة الحج

ويجيش قلبه فيها بتقواه ، ويتطلع فيها إلى وجهه ورضاه . فإذا الحياة كلها عبادة تتحقق بها إرادة الله من خلق العباد ، وتصلح بها الحياة في الأرض وهي موصولة السبب بالسماء .

* * *

تلك الشعائر والعبادات لا بد لها من حماية تدفع عنها الذين يصدون عن سبيل الله وتمنعهم من الاعتداء على حرية العقيدة وحرية العبادة ، وعلى قداسة المعابد وحرمة الشعائر ، وتمكن المؤمنين العابدين العاملين من تحقيق منهاج الحياة القائم على العقيدة ، المتصل بالله ، الكفيل بتحقيق الخير للبشرية في الدنيا والآخرة .

ومن ثم أذن الله للمسلمين بعد الهجرة في قتال المشركين ليدفعوا عن أنفسهم وعن عقيدتهم اعتداء المعتدين ، بعد أن بلغ أقصاه ، وليحققوا لأنفسهم ولغيرهم حرية العقيدة وحرية العبادة في ظل دين الله ، ووعدهم النصر والتمكين ، على شرط أن ينهضوا بتكاليف عقيدتهم التي بينها لهم فيما يلي من الآيات :

« إن الله يدافع عن الذين آمنوا ، إن الله لا يحب كل خوان كفور ، أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا . وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا : ربنا الله . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً . ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوي عزيز ، الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر . والله عاقبة الأمور » ..

إن قوى الشر والضلال تعمل في هذه الأرض ، والمعركة مستمرة بين الخير والشر والهدى والضلال ؛ والصراع قائم بين قوى الإيمان وقوى الطغيان منذ أن خلق الله الإنسان . والشر جامع والباطل مسلح . وهو يبطل غير متحرج ، ويضرب غير متورع ؛ ويملك أن يفتن الناس عن الخير إن اهدوا إليه ، وعن الحق إن تفتحت قلوبهم له . فلا بد للإيمان والخير والحق من قوة تحميها من البطش ، وتقياها من الفتنة وتحرسها من الأشواك والسموم .

ولم يشأ الله أن يترك الإيمان والخير والحق عزلاً تكافح قوى الطغيان والشر والباطل ، اعتماداً على قوة الإيمان في النفوس وتغلغل الحق في الفطر ، وعمق الخير في القلوب . فالقوة المادية التي يملكها الباطل قد تزلزل القلوب وتفتن النفوس وتزيغ الفطر . وللصبر حد وللإحتمال أمد ، وللطاقة البشرية مدى تنتهي إليه . والله أعلم بقلوب الناس ونفوسهم . ومن ثم لم يشأ أن يترك المؤمنين للفتنة ، إلا ريثما يستعدون للمقاومة ، ويتهيأون للدفاع ، ويتمكنون من وسائل الجهاد .. وعندئذ أذن لهم في القتال لرد العدوان .

وقبل أن يأذن لهم بالانطلاق إلى المعركة أذنهم أنه هو سيتولى الدفاع عنهم فهم في حمايته : « إن الله يدافع عن الذين آمنوا » ..

وأنه يكره أعداءهم لكفرهم وخيانتهم فهم مخذولون حتماً : « إن الله لا يحب كل خوان كفور » .. وأنه حكم لهم بأحقية دفاعهم وسلامة موقفهم من الناحية الأدبية فهم مظلومون غير معتدين ولا متبشرين : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا » ..

وأن لهم أن يطمئنوا إلى حماية الله لهم ونصره إياهم : « وإن الله على نصرهم لقدير » .. وأن لهم ما يبرر خوضهم للمعركة فهم منتدبون لمهمة إنسانية كبيرة ، لا يعود خيرا عليهم وحدهم ، إنما يعود على الجبهة المؤمنة كلها ؛ وفيها ضمان لحرية العقيدة وحرية العبادة . وذلك فوق أنهم مظلومون أخرجوا من ديارهم بغير حق : « الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا : ربنا الله » .. وهي أصدق كلمة

أن تقال ، وأحق كلمة بأن تقال . ومن أجل هذه الكلمة وحدها كان إخراجهم . فهو البغي المطلق الذي لا يستند إلى شبهة من ناحية المعتدين . وهو التجرد من كل هدف شخصي من ناحية المعتدى عليهم ، إنما هي العقيدة وحدها من أجلها يخرجون ، لا الصراع على عرض من أعراض هذه الأرض ، التي تشتجر فيها الأطماع ؛ وتعارض فيها المصالح ؛ وتختلف فيها الاتجاهات وتتضارب فيها المنافع !

ووراء هذا كله تلك القاعدة العامة .. حاجة العقيدة إلى الدفع عنها : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً » ..

والصوامع أماكن العبادة المنعزلة للرهبان ، والبيع للنصارى عامة وهي أوسع من الصوامع ، والصلوات أماكن العبادة لليهود . والمساجد أماكن العبادة للمسلمين .

وهي كلها معرضة للهدم - على قداستها وتخصيصها لعبادة الله - لا يشفع لها في نظر الباطل أن اسم الله يذكر فيها ، ولا يحميها إلا دفع الله الناس بعضهم ببعض . أي دفع حماة العقيدة لأعدائها الذين ينتهكون حرمتها ، ويعتدون على أهلها . فالباطل متبجح لا يكف ولا يقف عن العدوان إلا أن يدفع بمثل القوة التي يصول بها ويجول . ولا يكفي الحق أنه الحق ليقف عدوان الباطل عليه ، بل لا بد من القوة تحميه وتدفع عنه . وهي قاعدة كلية لا تتبدل ما دام الإنسان هو الإنسان !

ولا بد من وقفة أمام هذه النصوص القليلة الكلمات العميقة الدلالة ، وما وراءها من أسرار في عالم النفس وعالم الحياة .

إن الله يبدأ الإذن بالقتال للذين قاتلهم المشركون ، واعتدى عليهم المبطلون ، بأن الله يدافع عن الذين آمنوا ، وأنه يكره المعتدين عليهم من الكفار الخائنين :

« إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور » ..

فقد ضمن للمؤمنين إذن أنه هو تعالى يدافع عنهم . ومن يدافع الله عنه فهو ممنوع حتماً من عدوه ، ظاهر حتماً على عدوه .. فقيم إذن بأذن لهم بالقتال ؟ وقيم إذن يكتب عليهم الجهاد ؟ وقيم إذن يقاتلون نصيبهم القتل والجرح ، والجهد والمشقة ، والتضحية والآلام ... والعاقة معروفة ، والله قادر على تحقيق العاقبة لهم بلا جهد ولا مشقة ، ولا تضحية ولا ألم ، ولا قتل ولا قتال ؟

والجواب أن حكمة الله في هذا هي العليا ، وأن لله الحجة البالغة .. والذي ندركه نحن البشر من تلك الحكمة ويظهر لعقولنا ومداركنا من تجاربنا ومعارفنا أن الله سبحانه لم يرد أن يكون حملة دعوته وحمايتها من « التناقلة » الكسالى ، الذين يجلسون في استرخاء ، ثم يتنزل عليهم نصره سهلاً هيناً بلا عناء ، لمجرد أنهم يقيمون الصلاة ويرتلون القرآن ويتوجهون إلى الله بالدعاء ، كلما مسهم الأذى ووقع عليهم الاعتداء ! نعم إنهم يجب أن يقيموا الصلاة ، وأن يرتلوا القرآن ، وأن يتوجهوا إلى الله بالدعاء في السراء والضراء . ولكن هذه العبادة وحدها لا تؤهلهم لحمل دعوة الله وحمايتها ؛ إنما هي الزاد الذي يتزودونه للمعركة . والذخيرة التي يدخرونها للموقعة ، والسلاح الذي يطمثون إليه وهم يواجهون الباطل بمثل سلاحه ويزيدون عنه سلاح التقوى والإيمان والاتصال بالله .

لقد شاء الله تعالى أن يجعل دفاعه عن الذين آمنوا يتم عن طريقهم هم أنفسهم كي يتم نضجهم هم في أثناء المعركة . فالبنية الإنسانية لا تستيقظ كل الطاقات المدخورة فيها كما تستيقظ وهي تواجه الخطر ؛ وهي تدفع وتدافع ، وهي تستجمع كل قوتها لتواجه القوة المهاجمة .. عندئذ تتحفز كل خلية بكل ما أودع فيها من

استعداد لتؤدي دورها ؛ ولتساند مع الخلايا الأخرى في العمليات المشتركة ؛ ولتؤتي أقصى ما تملكه ، وتبذل آخر ما تنطوي عليه ؛ وتصل إلى أكمل ما هو مقدور لها وما هي مهياة له من الكمال .

والأمة التي تقوم على دعوة الله في حاجة إلى استيقاظ كل خلاياها ، واحتشاد كل قواها ، وتوفير كل استعدادها ، وتجمع كل طاقاتها ، كي يتم نموها ، ويكمل نضجها ، وتتهيأ بذلك لحمل الأمانة الضخمة والقيام عليها .

والنصر السريع الذي لا يكلف عناء ، والذي ينتزل هيناً ليناً على القاعدين المستريحين ، يعطل تلك الطاقات عن الظهور ، لأنه لا يحفزها ولا يدعوها .

وذلك فوق أن النصر السريع الهين اللين سهل فقدانه وضياعه . أولاً لأنه رخيص الثمن لم تبذل فيه تضحيات عزيزة . وثانياً لأن الذين نالوه لم تدرّب قواهم على الاحتفاظ به ولم تشحذ طاقاتهم وتحشد لكسبه . فهي لا تتحفز ولا تحشد للدفاع عنه .

وهناك التربية الوجدانية والدربة العملية تلك التي تنشأ من النصر والهزيمة ، والكر والفر ، والقوة والضعف والتقدم والتقهقر . ومن المشاعر المصاحبة لها .. من الأمل والألم . ومن الفرح والغم ، ومن الاطمئنان والقلق . ومن الشعور بالضعف والشعور بالقوة .. ومعها التجمع والفناء في العقيدة والجماعة والتنسيق بين الاتجاهات في ثنايا المعركة وقبلها وبعدها وكشف نقط الضعف ونقط القوة ، وتدير الأمور في جميع الحالات .. وكلها ضرورية للأمة التي تحمل الدعوة وتقوم عليها وعلى الناس .

من أجل هذا كله ، ومن أجل غيره مما يعلمه الله .: جعل الله دفاعه عن الذين آمنوا يتم عن طريقهم هم أنفسهم ؛ ولم يجعله لقيه تهبط عليهم من السماء بلا عناء .

والنصر قد يبطل على الذين ظلموا وأخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا : ربنا الله . فيكون هذا الإبطاء لحكمة يريد بها الله .

قد يبطل النصر لأن بنية الأمة المؤمنة لم تنضج بعد نضجها ، ولم يتم بعد تمامها ، ولم تحشد بعد طاقاتها ، ولم تتحفز كل خلية وتتجمع لتعرف أقصى المدخور فيها من قوى واستعدادات . فلو نالت النصر حينئذ لفقدته وشيكاً لعدم قدرتها على حمايته طويلاً !

وقد يبطل النصر حتى تبذل الأمة المؤمنة آخر ما في طوقها من قوة ، وآخر ما تملكه من رصيد ، فلا تستبقي عزيزاً ولا غالياً ، لا تبدله هيناً رخيصاً في سبيل الله .

وقد يبطل النصر حتى تجرب الأمة المؤمنة آخر قواها ، فتدرك أن هذه القوى وحدها بدون سند من الله

(1) والإسلام مع هذا لا يعد القتال غاية لذاته ، ولا يأذن به إلا لغاية أكبر من المهادنة والمودعة .. إن السلام هو غاية الإسلام كما تقر آيات أخرى كثيرة في القرآن . ولكنه السلام الذي لا اعتداء فيه ولا ظلم ولا بغي ولا عدوان . أما حيث يقع البغي والعدوان على أي مقوم من مقومات الإنسانية الفاضلة كحرية العقيدة وحرية العبادة ، والعدل في الحكم ، والعدل في الجزاء ، والعدل في توزيع المغنم والمغرم والحقوق والواجبات ، واستقامة السلوك الفردي والجماعي على حدود الله .. أما حيث يقع البغي على أي مقوم من هذه المقومات في أية صورة من الصور ، سواء وقع من فرد على فرد ، أو من فرد على جماعة . أو من جماعة على فرد أو جماعة ، أو من دولة ، على دولة . فالإسلام لا يرضى حينئذ بسلام يقوم على هذا العدوان . فليس السلام في الإسلام هو المهادنة والمودعة إنما هو تحقق الخير والعدل على النهج الذي رسمه الله للعباد .. (يراجع بتوسع كتاب السلام العالمي والإسلام) .

لا تكفل النصر . إنما يتنزل النصر من عند الله عندما تبذل آخر ما في طوقها ثم تكل الأمر بعدها إلى الله . وقد يبطل النصر لتزيد الأمة المؤمنة صلتها بالله ، وهي تعاني وتئلم وتبذل ؛ ولا تجد لها سنداً إلا الله ، ولا متوجهاً إلا إليه وحده في الضراء . وهذه الصلة هي الضمانة الأولى لاستقامتها على النهج بعد النصر عندما يتأذن به الله . فلا تطغى ولا تحرف عن الحق والعدل والخير الذي نصرها به الله .

وقد يبطل النصر لأن الأمة المؤمنة لم تتجرد بعد في كفاحها وبذلها وتضحياتها لله ولدعوته فهي تقاتل لمغنم تحققه ، أو تقاتل حمية لذاتها ، أو تقاتل شجاعة أمام أعدائها . والله يريد أن يكون الجهاد له وحده وفي سبيله ، بريئاً من المشاعر الأخرى التي تلبسه . وقد سئل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الرجل يقاتل حمية والرجل يقاتل شجاعة والرجل يقاتل ليرى . فأبى في سبيل الله . فقال : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » .

كما قد يبطل النصر لأن في الشر الذي تكافحه الأمة المؤمنة بقية من خير ، يريد الله أن يجرد الشر منها ليتمحض خالصاً ، ويذهب وحده هالكاً ، لا تلبس به ذرة من خير تذهب في الغمار !

وقد يبطل النصر لأن الباطل الذي تحاربه الأمة المؤمنة لم ينكشف زيفه للناس تماماً . فلو غلبه المؤمنون حينئذ فقد يجد له أنصاراً من المخدوعين فيه ، لم يقتنعوا بعد بفساده وضروره زواله ؛ فنظل له جذور في نفوس الأبرياء الذين لم تنكشف لهم الحقيقة . فيشاء الله أن يبقى الباطل حتى يتكشف عارياً للناس ، ويذهب غير مأسوف عليه من ذي بقية !

وقد يبطل النصر لأن البيئة لا تصلح بعد لاستقبال الحق والخير والعدل الذي تمثله الأمة المؤمنة . فلو انتصرت حينئذ للقيت معارضة من البيئة لا يستقر لها معها قرار . فيظل الصراع قائماً حتى تنبأ النفوس من حوله لاستقبال الحق الظاهر ، ولاستبقائه !

من أجل هذا كله ، ومن أجل غيره مما يعلمه الله ، قد يبطل النصر ، فتضعف التضحيات ، وتتضاعف الآلام . مع دفاع الله عن الذين آمنوا وتحقيق النصر لهم في النهاية . وللنصر تكاليفه وأعباؤه حين يتأذن الله به بعد استيفاء أسبابه وأداء ثمنه ، وتتهيؤ الجو حوله لاستقباله واستبقائه : « ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز . الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر ؛ ولله عاقبة الأمور » ..

فوعده الله المؤكد الوثيق المتحقق الذي لا يتخلف هو أن ينصر من ينصره .. فن هم هؤلاء الذين ينصرون الله ، فيستحقون نصر الله ، القوي العزيز الذي لا يهزم من يتولاه ؟ إنهم هؤلاء :

« الذين إن مكناهم في الأرض » .. فحققنا لهم النصر ، وثبتنا لهم الأمر .. « أقاموا الصلاة » .. فعبدوا الله ووثقوا صلتهم به ، واتجهوا إليه طائعين خاضعين مستسلمين .. « وآتوا الزكاة » .. فأدوا حق المال ، وانتصروا على شح النفس ، وتطهروا من الحرص ، وغلبوا وسوسة الشيطان ، وسلوا خلة الجماعة ، وكفلوا الضعاف فيها والمحاويج ، وحققوا لها صفة الجسم الحي - كما قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » .. « وأمروا بالمعروف » .. فدعوا إلى الخير والصلاح ، ودفعوا إليه الناس .. « ونهوا عن المنكر » .. فقاموا

الشر والفساد ، وحققوا بهذا وذاك صفة الأمة المسلمة التي لا تبقى على منكر وهي قادرة على تغييره ، ولا تقعد عن معروف وهي قادرة على تحقيقه ..

هؤلاء هم الذين ينصرون الله ، إذ ينصرون نهجه الذي أرادته للناس في الحياة ، معترزين بالله وحده دون سواه . وهؤلاء هم الذين يعدهم الله بالنصر على وجه التحقيق واليقين .

فهو النصر القائم على أسبابه ومقتضياته . المشروط بتكاليفه وأعبائه .. والأمر بعد ذلك لله ، يصرفه كيف يشاء ، فيبدل الهزيمة نصراً ، والنصر هزيمة ، عندما تختل القوائم ، أو تهمل التكاليف : « والله عاقبة الأمور » .. إنه النصر الذي يؤدي إلى تحقيق المنهج الإلهي في الحياة . من انتصار الحق والعدل والحرية المتجهة إلى الخير والصلاح . المنظور فيه إلى هذه الغاية التي يتوارى في ظلها الأشخاص والذوات ، والمطامع والشهوات .. وهو نصر له سببه . وله ثمنه . وله تكاليفه . وله شروطه . فلا يعطى لأحد جزافاً أو محاباة ولا يبقى لأحد لا يحقق غايته ومقتضاه ..

وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمٌ إِبرَاهِيمَ وَقَوْمٌ لُوطٍ ﴿٤٣﴾
 وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَايِنَ مِّنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُون لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾
 وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ ﴿٤٨﴾

قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا كُرْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾
 وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَتِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَإِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾

وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ
لَهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ
لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٥٧﴾

انتهى الدرس السابق عند الإذن بالقتال لحماية العقائد والشعائر ؛ ووعده الله بالنصر لمن ينهضون بتكاليف العقيدة ، ويحققون النهج الإلهي في حياة الجماعة .

وإذ انتهى من بيان تكاليف الأمة المؤمنة أنشأ يطمئن الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى تدخل يد القدرة الإلهية لنصره ؛ ولخذلان أعدائه ، كما تدخلت من قبل لنصرة إخوانه الرسل - عليهم السلام - وأخذ المكذبين على مدار الأجيال . وأخذ يوجه المشركين إلى تأمل مصارع الغابرين إن كانت لهم قلوب للتأمل والتدبر ، فإنها لا تعمي الأبصار ، ولكن تعمي القلوب التي في الصدور .

ثم يطمئن الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى أن الله يحمي رسله من كيد الشيطان كما يحميهم من كيد المكذبين . ويبطل ما يحاوله الشيطان ويحكم آياته ويجلوها للقلوب السليمة . فأما القلوب المريضة والقلوب الكافرة فتظل الريبة فيها حتى تنتهي بها إلى شر مصير ..

فالدروس كله بيان لآثار يد القدرة وهي تتدخل في سير الدعوة ، بعد أن يؤدي أصحابها واجبه ، وينهضوا بتكاليفهم التي سبق بها الدرس الماضي في السياق .

* * *

« وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود ، وقوم إبراهيم ، وقوم لوط ، وأصحاب مدن ، وكذب موسى ، فأملت للكافرين ثم أخذتهم ، فكيف كان نكير ؟ » ..

فهي سنة مطردة في الرسالات كلها ، قبل الرسالة الأخيرة ، أن يجيء الرسل بالآيات فيكذب بها المكذبون . فليس الرسول - صلى الله عليه وسلم - بدعا من الرسل حين يكذبه المشركون . والعاقبة معروفة ، والسنة مطردة « فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوط » .. ويفرد موسى بفقرة خاصة : « وكذب موسى » أولاً . لأنه لم يكذب من قومه كما كذب هؤلاء من قومهم ، إنما كذب من فرعون وملئه . وثانياً لوضوح الآيات التي جاء بها موسى وتعددتها وضخامة الأحداث التي صاحبها .. وفي جميع تلك الحالات أملى الله للكافرين حيناً من الزمان - كما يملي لقريش - ثم أخذهم أخذاً شديداً .. وهنا سؤال للتحويل والتعجب : « فكيف كان نكير ؟ » .. والنكير هو الإنكار العنيف المصحوب بالتغيير . والجواب معروف . فهو نكير مخيف ! نكير الطوفان والخسف والتدمير والهلاك والزلازل والعواصف والترويع ..

وبعد الاستعراض السريع لمصارع أولئك الأقوام يعمم في عرض مصارع الغابرين :

« فكأي من قرية أهلكناها وهي ظالمة ، فهي خاوية على عروشها ؛ وبشر معطلة ، وقصر مشيد » .

فهي كثيرة تلك القرى المهلكة بظلهما . والتعبير يعرض مصارعها في مشهد شاخص مؤثر : « فهي خاوية على عروشها » .. والعروش السقوف ، وتكون قائمة على الجدران عند قيام البناء . فإذا تهدم خرت العروش

وسقطت فوقها البنيان ، وكان منظرها هكذا موحشاً كثيباً مؤثراً . داعياً إلى التأمل في صورتها الخالية وصورتها البادية . والربوع الخربة أوحش شيء للنفس وأشدّها استجاشة للذكرى والعبرة والخشوع .
وإلى جوار القرى الخاوية على عروشها .. الآبار المعطلة المهجورة تذكر بالورد والوراد ؛ وتتراحم حولها الأخيلة وهي مهجورة خواء .

ثم إلى جوارها القصور المشيدة وهي خالية من السكان موحشة من الأحياء ، تطوف بها الرؤى والأشباح ، والذكريات والأطياف !

يعرض السياق هذه المشاهد ثم يسأل في استنكار عن آثارها في نفوس المشركين الكفار :

« أفلم يسيرا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها ؟ أو آذان يسمعون بها ؟ فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » !

إن مصارع الغابرين حيالهم شاخصة موحية ، تتحدث بالعبر ، وتنطق بالعظا . « أفلم يسيرا في الأرض » فيروها فتوحى لهم بالعبرة ؟ وتنطق لهم بلسانها البليغ ؟ وتحديثهم بما تنطوي عليه من عبر ؟ « فتكون لهم قلوب يعقلون بها » فتدرك ما وراء هذه الآثار الدوارس من سنة لا تتخلف ولا تبدل . « أو آذان يسمعون بها » فتسمع أحاديث الأحياء عن تلك الدور المهدمة والآبار المعطلة والقصور الموحشة ؟ .

أفلم تكن لهم قلوب ؟ فإنهم يرون ولا يدركون ، ويسمعون ولا يعتبرون « فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » !

ويعمن في تحديد مواضع القلوب : « التي في الصدور » زيادة في التوكيد ، وزيادة في إثبات العمى لتلك القلوب على وجه التحديد !

ولو كانت هذه القلوب مبصرة لجاشت بالذكري ، وجاشت بالعبرة ، وجنحت إلى الإيمان خشية العقاب المائلة في مصارع الغابرين ، وهي حولهم كثير .

ولكنهم بدلاً من التأمل في تلك المصارع ، والجنوح إلى الإيمان ، والتقوى من العذاب .. راحوا يستعجلون بالعذاب الذي أخره الله عنهم إلى أجل معلوم :

« ويستعجلونك بالعذاب . ولن يخلف الله وعده . وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون » ..

وذلك دأب الظالمين في كل حين . يرون مصارع الظالمين ، ويقرأون أخبارهم ويعلمون مصائرهم . ثم إذا هم يسلكون طريقهم غير ناظرين إلى نهاية الطريق ! فإذا ذكروا بما نال أسلافهم استبعدوا أن يصيبهم ما أصابهم .. ثم يطغى بهم الغرور والاستهتار إذا أملى لهم الله على سبيل الاختبار . فإذا هم يسخرون ممن يخوفهم ذلك المصير . وإذا هم - من السخرية - يستعجلون ما يوعدون ! « ولن يخلف الله وعده » فهو آت في مواعده الذي أراده الله وقدره وفق حكمته . واستعجال الناس به لا يعجله كي لا تبطل الحكمة المقصودة من تأجيله . وتقدير الزمن في حساب الله غيره في حساب البشر : « وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون » ..

ولقد أملى الله للكثير من تلك القرى الهالكة ؛ فلم يكن هذا الإملاء منجياً لها من المصير المحتوم والسنة المطردة في هلاك الظالمين :

« وكأني من قرية أملت لها وهي ظالمة ، ثم أخذتها ، وإليّ المصير » ..

فما بال هؤلاء المشركين يستعجلون بالعذاب ، ويهزأون بالوعيد ، بسبب إملة الله لهم حيناً من الزمان إلى أجل معلوم ؟ .

* * *

وعند هذا الحد من عرض مصارع الغابرين ، وبيان سنة الله في المكذبين .. يلتفت السياق بالخطاب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لينذر الناس ويبين لهم ما ينتظرهم من مصير :
« قل : يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين . فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم ، والذين سعوا في آياتنا معاجزين أولئك أصحاب الجحيم » ..

ويعرض السياق وظيفة الرسول - صلى الله عليه وسلم - في هذا المقام للإنذار : « إنما أنا لكم نذير مبين » .. لما يقتضيه التكذيب والاستهزاء واستعجال العذاب من إبراز الإنذار .. ثم يأخذ في تفصيل المصير :
فأما الذين آمنوا وأتبعوا إيمانهم بثمرته التي تدل على تحققه : « وعملوا الصالحات » فجزاؤهم « مغفرة من ربهم ، لما سلف من ذنوبهم أو تقصيرهم ، « ورزق كريم » غير متهم ولا مهين !
وأما الذين بذلوا غاية جهدهم في تعطيل آيات الله عن أن تبلغ القلوب ، وتحقق في حياة الناس - وآيات الله هي دلائله على الحق وهي شريعته كذلك للخلق - فأما هؤلاء فقد جعلهم مالكين للجحيم - ويا لسوءها من ملكية - في مقابل ذلك الرزق الكريم !

* * *

والله الذي يحفظ دعوته من تكذيب المكذبين ، وتعطيل المعوقين ، ومعاجزة المعاجزين .. يحفظها كذلك من كيد الشيطان ، ومن محاولته أن ينفذ إليها من خلال أمنيات الرسل النابعة من طبيعتهم البشرية . وهم معصومون من الشيطان ولكنهم بشر تمتد نفوسهم إلى أماني تتعلق بسرعة نشر دعوتهم وانتصارها وإزالة العقبات من طريقها . فيحاول الشيطان أن ينفذ من خلال أمنيتهم هذه فيحول الدعوة عن أصولها وعن موازينها .. فيبطل الله كيد الشيطان ، ويضون دعوته ، ويبين للرسل أصولها وموازينها ، فيحكم آياته ، ويزيل كل شبهة في قيم الدعوة ووسائلها :

« وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته ، فينسخ الله ما يلقي الشيطان ، ثم يحكم الله آياته ، والله عليم حكيم . ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم ، وإن الظالمين لفي شقاق بعيد . وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم ، وإن الله لهادي الذين آمنوا إلى صراط مستقيم » ..

لقد رويت في سبب نزول هذه الآيات روايات كثيرة ذكرها كثير من المفسرين . قال ابن كثير في تفسيره :
« ولكنها من طرق كلها مرسله ، ولم أرها مسندة من وجه صحيح . والله أعلم » .

وأكثر هذه الروايات تفصيلاً رواية ابن أبي حاتم . قال : حدثنا موسى بن أبي موسى الكوفي ، حدثنا محمد بن إسحاق الشيباني ، حدثنا محمد بن فليح ، عن موسى بن عقبة ، عن ابن شهاب ، قال : أنزلت سورة النجم ، وكان المشركون يقولون : لو كان هذا الرجل يذكر آلهتنا بخير أقرنناه وأصحابه ولكنه لا يذكر من خالف دينه من اليهود والنصارى بمثل الذي يذكر آلهتنا من الشتم والشر . وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد اشتد عليه ما ناله وأصحابه من أذاهم وتكذيبهم ، وأحزنه ضلالهم ؛ فكان يتمنى هداهم . فلما أنزل

الله سورة النجم قال : « أفرايتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ؟ ألكم الذكر وله الأنثى ؟ » ألقى الشيطان عندها كلمات حين ذكر الله الطواغيت فقال : وإنهن لمن الغرائق العلى ، وإن شفاعتهن لهي التي ترجى .. وكان ذلك من سجع الشيطان وفتنته .. فوقعت هاتان الكلمتان في قلب كل مشرك بمكة ، وزلت بها ألسنتهم ، وتباشروا بها ، وقالوا : إن محمداً قد رجع إلى دينه الأول ودين قومه .. فلما بلغ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - آخر النجم سجد ، وسجد كل من حضره من مسلم أو مشرك . غير أن الوليد بن المغيرة كان رجلاً كبيراً فرفع ملء كفه تراباً فسجد عليه . فعجب الفريقان كلاهما من جماعتهم في السجود لسجود رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأما المسلمون فعجبوا لسجود المشركين معهم على غير إيمان ولا يقين . ولم يكن المسلمون سمعوا الذي ألقى الشيطان في مسامع المشركين ، فاطمأنت أنفسهم - أي المشركون - لما ألقى الشيطان في أمنية رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وحديثهم به الشيطان أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد قرأها في السورة ، فسجدوا لتعظيم آهتهم . ففشت تلك الكلمة في الناس ؛ وأظهرها الشيطان حتى بلغت أرض الحبشة ومن بها من المسلمين : عثمان بن مظعون وأصحابه ؛ وتحدثوا أن أهل مكة قد أسلموا كلهم ، وصلوا مع رسول الله ؛ وبلغهم سجود الوليد بن المغيرة على التراب على كفه ؛ وحدثوا أن المسلمين قد آمنوا بمكة ، فأقبلوا سراعاً ، وقد نسخ الله ما ألقى الشيطان ، وأحكم الله آياته ، وحفظه من الفرية ، وقال : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته ، فيسخ الله ما يلقي الشيطان . ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم . ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم . وإن الظالمين لفي شقاق بعيد .. فلما بين الله قضاءه ، وبرأه من سجع الشيطان انقلب المشركون بضاللتهم وعداوتهم على المسلمين ، واشتدوا عليهم .. »

قال ابن كثير : وقد ساق البغوي في تفسيره روايات مجموعة من كلام ابن عباس ، ومحمد بن كعب القرظي وغيرهما بنحو من ذلك ، ثم سألها هنا سؤالاً : كيف وقع مثل هذا مع العصمة المضمونة من الله تعالى لرسوله - صلوات الله وسلامه عليه - ثم حكى أجوبة عن الناس ، من أظفها أن الشيطان أوقع في مسامع المشركين ذلك . فتوهما أنه صدر عن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وليس كذلك في نفس الأمر ، بل إنما كان من صنيع الشيطان لا عن رسول الرحمن - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - والله أعلم .

وقال البخاري : قال ابن عباس : « في أمنيته » إذا حدث ألقى الشيطان في حديثه . فيبطل الله ما يلقي الشيطان « ثم يحكم الله آياته » .

وقال مجاهد : « إذا تمنى » يعني إذا قال ؛ ويقال أمنيته : قراءته .

وقال البغوي : وأكثر المفسرين قالوا : معنى قوله : « تمنى » أي تلا وقرأ كتاب الله « ألقى الشيطان في أمنيته » أي في تلاوته .

وقال ابن جرير عن تفسير « تمنى » بمعنى تلا : هذا القول أشبه بتأويل الكلام !

هذه خلاصة تلك الروايات في هذا الحديث الذي عرف بحديث الغرائق .. وهو من ناحية السند واهي الأصل . قال علماء الحديث : إنه لم يخرج أحد من أهل الصحة ، ولا رواه بسند سليم متصل ثقة . وقال أبو بكر البزار : هذا الحديث لا نعلمه يروى عن النبي - صلى الله عليه وسلم - بإسناد متصل يجوز ذكره . وهو من ناحية موضوعه بصادم أصلاً من أصول العقيدة وهو عصمة النبي - صلى الله عليه وسلم - من أن يدس عليه الشيطان شيئاً في تبليغ رسالته .

وقد أوعى المستشرقون والطاعنون في هذا الدين بذلك الحديث ، وأذاعوا به ، وأثاروا حوله عجاجة من القول . والأمر في هذا كله لا يثبت للمناقشة ، بل لا يصح أن يكون موضوعاً للمناقشة .

وهناك من النص ذاته ما يستبعد معه أن يكون سبب نزول الآية شيئاً كهذا ، وأن يكون مدلوله حادثاً مفرداً وقع للرسول - صلى الله عليه وسلم - فالنص يقرر أن هذه القاعدة عامة في الرسالات كلها مع الرسل كلهم : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته ، فينسخ الله ما يلقي الشيطان ، ثم يحكم الله آياته » . فلا بد أن يكون المقصود أمراً عاماً يستند إلى صفة في الفطرة مشتركة بين الرسل جميعاً ، بوصفهم من البشر ، مما لا يخالف العصمة المقررة للرسل .

وهذا ما نحاول بيانه بعون الله . والله أعلم بمراده ، إنما نحن نفسر كلامه بقدر إدراكنا البشري . . إن الرسل عندما يكلفون حمل الرسالة إلى الناس ، يكون أحب شيء إلى نفوسهم أن يجتمع الناس على الدعوة ، وأن يدركوا الخير الذي جاءهم به من عند الله فيتبعوه . . ولكن العقبات في طريق الدعوات كثيرة . والرسل بشر محدودو الأجل . وهم يحسون هذا ويعلمونه . فيتمنون لو يجذبون الناس إلى دعوتهم بأسرع طريق . . يودون مثلاً لو هادنوا الناس فيما يعز على الناس أن يتركوه من عادات وتقاليد وموروثات فيسكتوا عنها مؤقتاً لعل الناس أن يفيتوا إلى الهدى ، فإذا دخلوا فيه أمكن صرفهم عن تلك الموروثات العزيزة ! ويودون مثلاً لو جاروهم في شيء يسير من رغبات نفوسهم رجاء استدراجهم إلى العقيدة ، على أمل أن تتم فيما بعد تربيتهم الصحيحة التي تطرد هذه الرغبات المألوفة !

ويودون . ويودون . من مثل هذه الأماني والرغبات البشرية المتعلقة بنشر الدعوة وانتصارها . . ذلك على حين يريد الله أن تمضي الدعوة على أصولها الكاملة ، وفق موازينها الدقيقة ، ثم من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر . فالكسب الحقيقي للدعوة في التقدير الإلهي الكامل غير المشوب بضعف البشر وتقديرهم . . هو أن تمضي على تلك الأصول وفق تلك الموازين ، ولو خسرت الأشخاص في أول الطريق . فالاستقامة الدقيقة الصارمة على أصول الدعوة ومقاييسها كفيل أن يثني هؤلاء الأشخاص أو من هم خير منهم إلى الدعوة في نهاية المطاف ، وتبقى مثل الدعوة سليمة لا تتخدش ، مستقيمة لا عوج فيها ولا انحناء . .

ويجد الشيطان في تلك الرغبات البشرية ، وفي بعض ما يترجم عنها من تصرفات أو كلمات ، فرصة للكيد للدعوة ، وتحويلها عن قواعدها ، والقاء الشبهات حولها في النفوس . . ولكن الله يحول دون كيد الشيطان ، ويبين الحكم الفاصل فيما وقع من تصرفات أو كلمات ، ويكلف الرسل أن يكشفوا للناس عن الحكم الفاصل ، وعماً يكون قد وقع منهم من خطأ في اجتهادهم للدعوة . كما حدث في بعض تصرفات الرسول - صلى الله عليه وسلم - وفي بعض اتجاهاته ، مما بين الله فيه بياناً في القرآن . .

بذلك يبطل الله كيد الشيطان ، ويحكم الله آياته ، فلا تبقى هنالك شبهة في الوجه الصواب :

« والله علم حكيم » . . فأما الذين في قلوبهم مرض من نفاق أو انحراف ، والقاسية قلوبهم من الكفار المعاندين ؛ فيجدون في مثل هذه الأحوال مادة للجدل واللجاج والشقاق : « وإن الظالمين لفي شقاق بعيد » . وأما الذين أتوا العلم والمعرفة فتطمئن قلوبهم إلى بيان الله وحكمه الفاصل : « وإن الله لهادي الذين آمنوا إلى صراط مستقيم » . .

وفي حياة النبي - صلى الله عليه وسلم - وفي تاريخ الدعوة الإسلامية نجد أمثلة من هذا ، تغنيا عن تأويل الكلام ، الذي أشار إليه الإمام ابن جرير رحمه الله .

نجد من ذلك مثلاً في قصة ابن أم مكتوم - رضي الله عنه - الأعمى الفقير الذي جاء إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : يا رسول الله أقرئني وعلمني مما علمك الله ، ويكرر هذا القول والرسول - صلى الله عليه وسلم - مشغول بأمر الوليد بن المغيرة يود لو يهديه إلى الإسلام ومعه صنديد قريش ، وابن أم مكتوم لا يعلم أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مشغول بهذا الأمر . حتى كره ، رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلحاحه فعبس وأعرض عنه .. فأنزل الله في هذا قرآناً يعاتب فيه الرسول عتاباً شديداً :
 « عبس وتولى . أن جاءه الأعمى . وما يدريك لعله يزكى ، أو يذكر فتنتفه الذكري ! أما من استغنى ، فأنت له تصدى ؟ وما عليك ألا يزكى ؟ وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهى ؟ كلا ! إنها تذكرة فمن شاء ذكره ... » .

وبهذا رد الله للدعوة موازينها الدقيقة وقيمتها الصحيحة . وصحح تصرف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الذي دفعته إليه ، رغبته في هداية صنديد قريش ، طمعاً في إسلام من وراءهم وهم كثيرون . فبين الله له : أن استقامة الدعوة على أصولها الدقيقة أهم من إسلام أولئك الصناديد . وأبطل كيد الشيطان من الدخول إلى العقيدة من هذه الثغرة ، وأحكم الله آياته . واطمأنت إلى هذا البيان قلوب المؤمنين .
 ولقد كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعد ذلك يكرم ابن أم مكتوم . ويقول إذا رآه : « مرحباً بمن عاتبني فيه ربي » ويقول له : « هل لك من حاجة » واستخلفه على المدينة مرتين .

كذلك وقع ما رواه مسلم في صحيحه قال : حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، حدثنا محمد بن عبد الله الأسدي ، عن اسراييل ، عن المقدم بن شريح ، عن أبيه ، عن سعد - هو ابن أبي وقاص - قال : كنا مع النبي - صلى الله عليه وسلم - ستة نفر . فقال المشركون للنبي - صلى الله عليه وسلم - : أطرد هؤلاء لا يجترئون علينا . قال : وكنت أنا وابن مسعود ، ورجل من هذيل ، وبلال ، ورجلان نسيت اسميهما . فوقع في نفس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما شاء الله أن يقع ، فحدث نفسه ، فأنزل الله عز وجل : « ولا تطرد الذين يدعون ربهم ؛ بالغداة والعشي يريدون وجهه » .

وهكذا رد الله للدعوة قيمتها المجردة ، وموازينها الدقيقة . ورد كيد الشيطان فيما أراد أن يدخل من تلك الثغرة . ثغرة الرغبة البشرية في استمالة كبراء قريش بإجابة رغبتهم في أن لا يحضر هؤلاء الفقراء مجلسهم مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقيم الدعوة أهم من أولئك الكبراء ، وما يتبع إسلامهم من إسلام الأولوف معهم وتقوية الدعوة في نشأتها بهم - كما كان يتمنى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والله أعلم بمصدر القوة الحقيقية ، وهو الاستقامة التي لا ترعى هوى شخصياً ولا عرفاً جارياً !

ولعله مما يلحق بالثلثين المتقدمين ما حدث في أمر زينب بنت جحش ابنة عمه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقد زوجها من زيد بن حارثة - رضي الله عنه - وكان قد تبناه قبل النبوة ، فكان يقال له : زيد بن محمد . فأراد الله أن يقطع هذا الإلحاق وهذه النسبة فقال تعالى : « ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله » وقال : « وما جعل أديعاً كم أبناءكم » .. وكان زيد - رضي الله عنه - أحب الناس إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فزوجه من ابنة عمته زينب بنت جحش - رضي الله عنها - فلم تستقم بينهما الحياة .. وكانوا في الجاهلية يكرهون أن يتزوج المتبني مطلقاً متبناه . فأراد الله سبحانه إبطال هذه العادة ، كما أبطل نسبة الولد إلى غير أبيه . فأخبر رسوله - صلى الله عليه وسلم - أنه سيزوجه من زينب بعد أن يطلقها زيد - لتكون هذه السنة مبطلت لتلك العادة - ولكن النبي - صلى الله عليه وسلم - أخفى في نفسه ما أخبره به الله . وكان كلما

شكاً إليه زيد تعذر الحياة مع زينب قال له : « أمسك عليك زوجك » مراعيًا في هذا كراهية القوم لزواجه منها حين يطلقها زيد . وظل يخفي ما قدر الله إظهاره حتى طلقها زيد .. فأنزل الله في هذا قرآنًا ، يكشف عما جال في خاطر الرسول - صلى الله عليه وسلم - ويقرر القواعد التي أراد الله أن يقوم تشريعه في هذه المسألة عليها :

« وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه : أمسك عليك زوجك واتق الله . وتخفي في نفسك ما الله مبديه ، وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه . فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً . وكان أمر الله مفعولاً » ..

ولقد صدقت عائشة - رضي الله عنها وهي تقول : لو كنتم محمد - صلى الله عليه وسلم - شيئاً مما أوحى إليه من كتاب الله تعالى لكنتم : « وتخفي في نفسك ما الله مبديه ، وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه » .. وهكذا أنفذ الله شريعته وأحكمها ، وكشف ما خالج خاطر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من كراهية القوم لزواجه من مطلقة دعيه . ولم يمكن للشيطان أن يدخل من هذه الثغرة . وترك الذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم يتخذون من هذه الحادثة ، مادة للشقاق والجدال ما تزال !! !

* * *

هذا هو ما نظمنا إليه في تفسير تلك الآيات . والله الهادي إلى الصواب .

ولقد تدفع الحماسة والحرارة أصحاب الدعوات - بعد الرسل - والرغبة الملحة في انتشار الدعوات وانتصارها .. تدفعهم إلى استمالة بعض الأشخاص أو بعض العناصر بالإغضاء في أول الأمر عن شيء من مقتضيات الدعوة يحسبونه هم ليس أصيلاً فيها ، ومجاراتهم في بعض أمرهم كي لا يتفروا من الدعوة ويخاصموها ! ولقد تدفعهم كذلك إلى اتخاذ وسائل وأساليب لا تستقيم مع موازين الدعوة الدقيقة ، ولا مع منهج الدعوة المستقيم . وذلك حرصاً على سرعة انتصار الدعوة وانتشارها . واجتهاداً في تحقيق « مصلحة الدعوة » ومصلحة الدعوة الحقيقية في استقامتها على النهج دون انحراف قليل أو كثير . أما النتائج فهي غيب لا يعلمه إلا الله . فلا يجوز أن يحسب حملة الدعوة حساب هذه النتائج ؛ إنما يجب أن يمشوا على نهج الدعوة الواضح الصريح الدقيق ، وأن يدعوا نتائج هذه الاستقامة لله . ولن تكون إلا خيراً في نهاية المطاف .

وها هو ذا القرآن الكريم ينبههم إلى أن الشيطان يتربص بأمانهم تلك لينفذ منها إلى صميم الدعوة . وإذا كان الله قد عصم أنبياءه ورسله فلم يمكن للشيطان أن ينفذ من خلال رغباتهم الفطرية إلى دعوتهم . فغير المعصومين في حاجة إلى الحذر الشديد من هذه الناحية ، والتحرج البالغ ، خيفة أن يدخل عليهم الشيطان من ثغرة الرغبة في نصرة الدعوة والحرص على ما يسمونه « مصلحة الدعوة » .. إن كلمة « مصلحة الدعوة » يجب أن ترتفع من قاموس أصحاب الدعوات ، لأنها مزلة ، ومدخل للشيطان يأتيهم منه ، حين يعز عليه أن يأتيهم من ناحية مصلحة الأشخاص ! ولقد تتحول « مصلحة الدعوة » إلى صنم يتعبده أصحاب الدعوة وينسون معه منهج الدعوة الأصيل ! .. إن على أصحاب الدعوة أن يستقيموا على نهجها ويتحروا هذا النهج دون التفات إلى ما يعقبه هذا التحري من نتائج قد يلوح لهم أن فيها خطراً على الدعوة وأصحابها ! فالخطر الوحيد الذي يجب أن يتقوه هو خطر الانحراف عن النهج لسبب من الأسباب ، سواء كان هذا الانحراف كثيراً

أو قليلاً . والله أعرف منهم بالمصلحة وهم ليسوا بها مكلفين . إنما هم مكلفون بأمر واحد . ألا ينحرفوا عن المنهج ، وألا يحيدوا عن الطريق ..

* * *

ويعقب السياق على تلك الآيات وما فيها من صيانة لدعوة الله من كيد الشيطان بأن الذين يكفرون بها مدحورون ينتظرهم العذاب المهين :

« ولا يزال الذين كفروا في مرية منه حتى تأتيتهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم . الملك يومئذ الله يحكم بينهم . فالذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات النعيم ، والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك لهم عذاب مهين » .

ذلك شأن الذين كفروا مع القرآن كله ، يذكره السياق بعد بيان موقفهم مما يلقي الشيطان في أمنيات الأنبياء والرسل ، لما بين الشائين من تشابه واتصال . فهم لا يزالون في ريبة من القرآن وشك . منشأ هذه الريبة أن قلوبهم لم تحاطها بشاشته فتدرك ما فيه من حقيقة وصدق . ويظل هذا حالهم « حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم » بعد قيام الساعة . ووصف هذا اليوم بالعقيم وصف يلقي ظلاً خاصاً . فهو يوم لا يعقب .. إنه اليوم الأخير ..

في هذا اليوم الملك لله وحده . فلا ملك لأحد ، حتى الملك الظاهري الذي كان يظنه الناس في الأرض ملكاً . والحكم يومئذ لله وحده ، وهو يقضي لكل فريق بجزائه المقسوم : « فالذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات النعيم » .. « والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك لهم عذاب مهين » .. جزاء الكيد لدين الله ، وجزاء التكذيب بآياته البيّنات . وجزاء الاستكبار عن الطاعة لله والتسليم ..

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُمْ
مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾

* ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ
يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ
مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ
وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَاءَ فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَبِمَسْكِ السَّمَاءِ أَنْ تَقَعَ عَلَى

الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ
الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾

لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنْتَرَعَنَّكَ فِي الْأَمْرِ ۖ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۚ إِنَّكَ لَعَلىٰ هُدًى
مُسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِنْ جَدَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ
تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِسِيرِ ﴿٧٠﴾

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ
عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ ۚ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا
قُلْ أَفَأَنْتُمْ بِسِرِّهِمْ مِنْ ذَلِكَ النَّارِ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ وَيَنْسِ الْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾

يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ مَثَلٍ ۖ فَاستَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ۗ
وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْعًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ۚ إِنَّ
اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ اللَّهُ يَصْطَلِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ
أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٧٦﴾

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ
حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلِ
وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا
بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ ۖ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

انتهى الدرس الماضي ببيان عاقبة المؤمنين والمكذبين يوم يكون الملك لله وحده . وذلك في سياق نصره الله
لرسله ، وصيانيته لدعوته ، وثوابه لمن يؤمن بها ، وعقابه لمن يكذبها .

فالآن يبدأ هذا الدرس بالحديث عن المهاجرين ، بعدما سبق الإذن لهم بالقتال ، دفاعاً عن عقيدتهم ،

وعن عبادتهم ، ودفعاً للظلم عن أنفسهم ، وقد أخرجوا من ديارهم بغير حق ، ولم تكن جريرتهم إلا أن يقولوا : ربنا الله ، ويبين ما أعده لهم من عوض عما تركوا من ديار وأموال ..

ثم يتحدث بصفة عامة في صورة حكم عام عن يقع عليهم الاعتداء فيردون عليه بمثله ، ثم يقع عليهم البغي والعدوان ، فيعدهم نصر الله في صيغة التوكيد .

ويعقب على هذا الوعد الوثيق باستعراض دلائل القدرة التي تضمن تحقيق ذلك الوعد الوثيق .. وهي دلائل كونية تتجلى في صفحات الكون ونواميس الوجود ؛ وتوحي بأن نصر الله للمظلومين الذين يدعون عن أنفسهم ، ويعاقبون بمثل ما وقع عليهم ، ثم يقع عليهم البغي .. سنة كونية ترتبط بنواميس الوجود الكبرى ..

وعندئذ يتوجه الخطاب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بأن لكل أمة منهجاً هي مأمورة به ومهيأة لنهجه ، كل يشغل نفسه بجidal المشركين ، ولا يدع لهم فرصة لينازعوه في منهجه . فإن جادلوه فليكل أمرهم إلى الله ، الذي يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ، فهو أعلم بحقيقة ما هم عليه ، وهو الذي يعلم ما في السماء والأرض .

ويعرض بعبادتهم ما لم يتزل به سلطاناً وما ليس لهم به علم ؛ وبقسوة قلوبهم ونفورهم من سماع كلمة الحق ، حتى ليكادون يبطنون بالذين يتلون عليهم آيات الله . ويهددهم إزاء همهم بالسطو على دعاة الحق بالنار التي جعلها الله مصيرهم ووعدهم بها وعداً لا بدآت !

ثم يعلن في صورة بيان عام شامل للخليفة عن ضعف من يدعونهم من دون الله . ويصور ضعفهم في صورة زرية لا مبالغة فيها . ولكنها بطريقة عرضها تجسم الضعف المزري . فهي صورة من لا يقدر على المنازلة الذباب ، ولا على استنقاذ ما يسلبهم إياه الذباب .. وهم آلهة كما يدعي لهم المشركون !

وينتهي الدرس وتنتهي السورة معه بتوجيه الخطاب إلى الأمة المؤمنة لتنهض بتكاليفها . وهي تكاليف الوصاية على البشرية . مستعدة لها بالركوع والسجود والعبادة وفعل الخير ، مستعينة عليها بإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة والاعتصام بالله ..

* * *

« والذين هاجروا في سبيل الله ، ثم قتلوا أو ماتوا ، ليرزقنهم الله رزقاً حسناً ، وإن الله هو خير الرازقين . ليدخلنهم مدخلاً يرضونه ، وإن الله لعليم حلیم » ..

والهجرة في سبيل الله تجرد من كل ما تهفو له النفس ، ومن كل ما تعترضه وتحرض عليه : الأهل والديار والوطن والذكريات ، والمال وسائر أعراض الحياة . وإيثار العقيدة على هذا كله ابتغاء رضوان الله ، وتطلعاً إلى ما عنده وهو خير مما في الأرض جميعاً .

والهجرة كانت قبل فتح مكة وقيام الدولة الإسلامية . أما بعد الفتح فلم تعد هجرة . ولكن جهاد وعمل - كما قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فنجاهد في سبيل الله وعمل كان له حكم الهجرة ، وكان له ثوابها ..

« والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقاً حسناً » .. سواء لاقوا الله شهداء بالقتل ، أو لاقوه على فراشهم بالموت . فلقد خرجوا من ديارهم وأموالهم في سبيله مستعدين لكل مصير ، واستروحوا الشهادة في هجرتهم عن أي طريق ، وضحوا بكل عرض الحياة وتجردوا بهذا الله . فتكفل الله لهم بالعوض الكريم عما فقدوه : « ليرزقنهم الله رزقاً حسناً ، وإن الله هو خير الرازقين » .. وهو رزق أكرم وأجزل

من كل ما تركوا : « ليدخلهم مدخلاً يرضونه » فقد خرجوا مخرجاً يرضي الله ، فتعهد لهم الله بأن يدخلهم مدخلاً يرضونه . وإنه لظاهر لتكريم الله لهم بأن يتوخى ما يرضونه فيحققته لهم ، وهم عباده ، وهو خالقهم سبحانه . « وإن الله لعليم حلیم » .. عليم بما وقع عليهم من ظلم وأذى ، وبما يرضي نفوسهم ويعوضها . حلیم يمهل . ثم يوفي الظالم والمظلوم الجزاء الأوفى ..

فأما الذين يقع عليهم العدوان من البشر فقد لا يحلمون ولا يصبرون ، فيردون العدوان ، ويعاقبون بمثل ما وقع عليهم من الأذى . فإن لم يكف المعتدون ، وعاودوا البغي على المظلومين تكفل الله عندئذ بنصر المظلومين على المعتدين :

« ذلك . ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغي عليه لينصرنه الله . إن الله لعفو غفور » وشرط هذا النصر أن يكون العقاب قصاصاً على اعتداء لا عدواناً ولا تبطراً ، وألا يتجاوز العقاب مثل ما وقع من العدوان دون مغالاة .

ويعقب على رد الاعتداء بمثله بأن الله عفو غفور . فهو الذي يملك العفو والمغفرة . أما البشر فقد لا يعفون ولا يغفرون ، وقد يؤثرون القصاص ورد العدوان . وهذا لهم بحكم بشريتهم ولهم النصر من الله .

بعد ذلك يربط السياق بين وعد الله بالنصر لمن يعاقب بمثل ما عوقب به ثم يقع عليه البغي .. يربط بين هذا الوعد وسنن الله الكونية الكبرى ، التي تشهد بقدرة الله على تحقيق وعده ، كما تشهد بدقة السنن الكونية المطردة مما يوحي بأن ذلك النصر هو إحدى هذه السنن التي لا تتخلف .

« ذلك بأن الله يولج الليل في النهار ، ويولج النهار في الليل ، وأن الله سميع بصير » ..

وهي ظاهرة طبيعية تمر بالبشر صباحاً ومساءً ، وصيفاً وشتاءً . الليل يدخل في النهار عند المغيب ، والنهار يدخل في الليل عند الشروق . والليل يدخل في النهار وهو يطول في مدخل الشتاء ، والنهار يدخل في الليل وهو يمتد عند مطلع الصيف .. ويرى البشر هذه الظاهرة وتلك من إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل فينسبهم طول رؤيتها وطول ألفتها ما وراءها من دقة النواميس واطرادها . فلا تختل مرة ، ولا تتوقف مرة . وهي تشهد بالقدرة الحكيمة التي تصرف هذا الكون وفق تلك النواميس .

والسياق يوجه النظر إلى تلك الظاهرة الكونية المكرورة التي يمر عليها الناس غافلين . ليفتح بصائرهم ومشاعرهم على يد القدرة ، وهي تطوي النهار من جانب وتسدل الليل من جانب . وهي تطوي الليل من جانب وتنشر النهار من جانب . في دقة عجيبة لا تختل ، وفي اطراد عجيبة لا يتخلف .. وكذلك نصر الله لمن يقع عليه البغي وهو يدفع عن نفسه العدوان .. إنه سنة مطردة كسنة إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل . فكذلك يزوي الله سلطان المتجربين وينشر سلطان العادلين . فهي سنة كونية كتلك السنة ، يمر عليها الناس غافلين ، كما يمرون على دلائل القدرة في صفحة الكون وهم لا يشعرون !

ذلك مرتبط بأن الله هو الحق . فالحق هو المسيطر على نظام هذا الكون . وكل ما دون الله باطل يختل ويتخلف ولا يطرده أو يستقيم .

« ذلك بأن الله هو الحق ، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلي الكبير » ..

وذلك تعليل كاف وضممان كاف لانتصار الحق والعدل ، وهزيمة الباطل والبغي . وهو كذلك ضمان لاطراد سنن الكون وثباتها ، وعدم تخلخلها أو تخلفها . ومن هذه السنن انتصار الحق وهزيمة البغي .

والله أعلى من الطغاة ، وأكبر من الجبارين : « وأن الله هو العلي الكبير » .. فلن يدع البغي يستعلي والظلم يستطيل .

* * *

ويستطرد السياق في استعراض دلائل القدرة في مشاهد الكون المعروضة للناس في كل حين :
 « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء ، فتصبح الأرض مخضرة ؟ إن الله لطيف خبير » .
 ونزول الماء من السماء ، ورؤية الأرض بعده مخضرة بين عشية وصباح .. ظاهرة واقعة مكرورة . قد تذهب الألفة بجدتها في النفوس . فأما حين يفتح الحس الشاعر ، فإن هذا المشهد في الأرض يستجيش في القلب شتى المشاعر والأحاسيس . وإن القلب ليحس أحياناً أن هذا النبات الصغير الطالع من سواد الطين ، بخضرتة وعضارته ، أطفال صغار تبسم في غرارة لهذا الوجود الشائق البهيج ، وتكاد من فرحتها بالنور تطير !
 والذي يحس على هذا النحو يستطيع أن يدرك ما في التعقيب بقوله : « إن الله لطيف خبير » .. من لطف وعمق ومشكلة للون هذا الإحساس ، ولحقيقة ذلك المشهد وطبيعته . فن اللطف الإلهي ذلك اللبيب اللطيف .
 ديبب النبتة الصغيرة من جوف الثرى ، وهي نحيلة ضئيلة ، ويد القدرة تمدها في الهواء ، وتمدها بالشوق إلى الارتفاع على جاذبية الأرض وثقله الطين .. وبالخبرة الإلهية يتم تدبير الأمر في إنزال الماء بقدر في الوقت المناسب وبالقدر المطلوب ويتم امتزاج الماء بالتربة ، وبخلائها النبات الحية المتطلعة إلى الانطلاق والنور !
 والماء ينزل من سماء الله إلى أرضه ، فينشئ فيها الحياة ، ويوفر فيها الغذاء والثراء .. والله المالك لما في السماء والأرض ، غني عما في السماء والأرض . وهو يرزق الأحياء بالماء والنبات ، وهو الغني عنهم وعماء يرزقون :

« وإن الله هو الغني الحميد » .

فما به سبحانه من حاجة إلى من في السماء والأرض ، أو ما في السماء والأرض فهو الغني عن الجميع .. وهو المحمود على آياته ، المشكور على نعمائه ، المستحق للحمد من الجميع .

* * *

ويستطرد السياق مرة أخرى إلى استعراض دلائل القدرة المعروضة للناس في كل حين :
 « ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض ، والفلك تجري في البحر بأمره . ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه . إن الله بالناس لرؤوف رحيم » ..
 وفي هذه الأرض كم من قوة وكم من ثروة سخرها الله لهذا الإنسان ؛ وهو غافل عن يد الله ونعمته التي يتقلب فيها بالليل والنهار !

لقد سخر الله ما في الأرض لهذا الإنسان ، فجعل نواميسها موافقة لفظرته وطاقاته . ولو اختلفت فطرة الإنسان وتركيبه عن نواميس هذه الأرض ما استطاع الحياة عليها ، فضلاً على الانتفاع بها وبما فيها .. لو اختلف تركيبه الجسدي عن الدرجة التي يحتمل فيها جو هذه الأرض ، واستنشاق هوائها ، والتغذي بطعامها والارتواء بمائها لما عاش لحظة . ولو اختلفت كثافة بدنه أو كثافة الأرض عما هي عليه ما استقرت قدماء على الأرض ، ولطار في الهواء أو غاص في الثرى .. ولو خلا وجه هذه الأرض من الهواء أو كان هذا الهواء أكثف مما هو أو أخف لاختنق هذا الإنسان أو لعجز عن استنشاق الهواء مادة الحياة ! فتوافق نواميس هذه الأرض وفطرة هذا

الإنسان هو الذي سخر الأرض وما فيها لهذا الإنسان . وهو من أمر الله .

ولقد سخر الله له ما في الأرض مما وهبه من طاقات وإدراكات صالحة لاستغلال ثروات هذه الأرض ، وما أودعه الله إياها من ثروات وطاقات ظاهرة وكامنة ؛ يكشف منها الإنسان واحدة بعد واحدة - وكلما احتاج إلى ثروة جديدة فض كنوزاً جديدة . وكلما خشي أن ينفذ رصيده من تلك الكنوز تكشف له منها رصيد جديد .. وها هو ذا اليوم لم يستفد بعد ثروة البترول وسائر الفلزات ثم فتح له كثر الطاقة الذرية والطاقة الإيدروجينية . وإن يكن بعد كالأطفال يعبث بالنار فيحرق نفسه بها ويحرق سواه ، إلا حين يهتدي بمنهج الله في الحياة ، فيوجه طاقاتها وثرواتها إلى العمران والبناء ، ويقوم بالخلافة في الأرض كما أرادها الله !

« والفلك تجري في البحر بأمره » .. فهو الذي خلق النواميس التي تسمح بجريان الفلك في البحر . وعلم الإنسان كيف يهتدي إلى هذه النواميس ، فيسخرها لمصلحته وينتفع بها هذا الانتفاع . ولو اختلفت طبيعة البحر أو طبيعة الفلك . أو لو اختلفت مدارك هذا الإنسان .. ما كان شيء من هذا الذي كان !

« ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه » .. وهو الذي خلق الكون وفق هذا النظام الذي اختاره له ؛ وحكم فيه تلك النواميس التي تظلل بها النجوم والكواكب مرفوعة متباعدة ، لا تسقط ولا يصدم بعضها بعضاً .. وكل تفسير فلكي للنظام الكوني ما يزيد على أنه محاولة لتفسير الناموس المنظم للوضع القائم الذي أنشأه خالق هذا النظام . وإن كان بعضهم ينسى هذه الحقيقة الواضحة ، فيخيل إليه أنه حين يفسر النظام الكوني ينفي يد القدرة عن هذا الكون ويستبعد آثارها ! وهذا وهم عجيب وانحراف في التفكير غريب . فإن الاهتداء إلى تفسير القانون - على فرض صحته والنظريات الفلكية ليست سوى فروض مدروسة لتفسير الظواهر الكونية تصح أو لا تصح ، وتثبت اليوم وتبطل غداً بفرض جديد - لا ينفي وجود واضع القانون . وأثره في إعمال هذا القانون ..

والله سبحانه « يمسك السماء أن تقع على الأرض » بفعل ذلك الناموس الذي يعمل فيها وهو من صنعه . « إلا بإذنه » وذلك يوم يعطل الناموس الذي يُعمله لحكمة ويعطله كذلك لحكمة .

* * *

وينتهي السياق في استعراض دلائل القدرة ودقة الناموس بالانتقال من الكون إلى النفس ؛ وعرض سنن الحياة والموت في عالم الإنسان :

« وهو الذي أحياكم ، ثم يميتكم ، ثم يحييكم ، إن الإنسان لكفور » ..

والحياة الأولى معجزة ، تتجدد في كل حياة تنشأ أثناء الليل وأطراف النهار . وسرها اللطيف ما يزال غيباً يحار العقل البشري في تصور كنهه .. وفيه مجال فسيح للتأمل والتدبر ..

والموت سر آخر يعجز العقل البشري عن تصور كنهه ، وهو يتم في لحظة خاطفة ، والمسافة بين طبيعة الموت وطبيعة الحياة مسافة عريضة ضخمة .. وفيه مجال فسيح للتأمل والتدبر ..

والحياة بعد الموت - وهي غيب من الغيب ، ولكن دليله حاضر من النشأة الأولى .. وفيه مجال كذلك للتأمل والتدبر ..

ولكن هذا الإنسان لا يتأمل ولا يتدبر هذه الدلائل والأسرار : « إن الإنسان لكفور » ..

والسياق يستعرض هذه الدلائل كلها ، ويوجه القلوب إليها في معرض التوكيد لنصرة الله لمن يقع عليه

البغي وهو يرد عن نفسه العدوان . وذلك على طريقة القرآن في استخدام المشاهد الكونية لاستجاشة القلوب ، وفي ربط سنن الحق والعدل في الخلق بسنن الكون ونواميس الوجود ..

* * *

وحين يصل السياق إلى هذا المقطع الفاصل من عرض دلائل القدرة في مشاهد الكون الكبرى يتوجه بالخطاب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ليمضي في طريقه ، غير ملتفت إلى المشركين وجداهم له ؛ فلا يمكنهم من نزاعه في منهجه الذي اختاره الله له ، وكلفه تبليغه وسلوكه .

« لكل أمة جعلنا منسكاً لهم ناسكوه ، فلا ينازعك في الأمر ، وادع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم . وإن جادلوك فقل : الله أعلم بما تعملون . الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون . ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض ؟ إن ذلك في كتاب . إن ذلك على الله يسير » ..

إن لكل أمة منهجاً وطريقة في الحياة والتفكير والسلوك والاعتقاد . هذا المنهج خاضع لسنن الله في تصريف الطبائع والقلوب وفق المؤثرات والاستجابات . وهي سنن ثابتة مطردة دقيقة . فالأمة التي تفتح قلوبها لدواعي الهدى ودلائله في الكون والنفس هي أمة مهتدية إلى الله بالاهتداء إلى نواميسه المؤدية إلى معرفته وطاعته . والأمة التي تغلق قلوبها دون تلك الدواعي والدلائل أمة ضالة تزداد ضلالاً كلما زادت اعراضاً عن الهدى ودواعيه ..

وهكذا جعل الله لكل أمة منسكاً لهم ناسكوه ، ومنهجاً لهم سالكوه .. فلا داعي إذن لأن يشغل الرسول - صلى الله عليه وسلم - نفسه بمجادلة المشركين ، وهم يصدون أنفسهم عن منسك الهدى ، ويمعنون في منسك الضلال . والله يأمره ألا يدع لهم فرصة لينازعوه أمره ، ويجادلوه في منهجه . كما يأمره أن يمضي على منهجه لا يتلفت ولا يشغل بجدل المجادلين . فهو منهج مستقيم : « وادع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم » .. فليطمئن إذن على استقامة منهجه . واستقامته هو على الهدى في الطريق .. فإن تعرض القوم لجداله فليختصر القول . فلا ضرورة لإضاعة الوقت والجهد :

« وإن جادلوك فقل : الله أعلم بما تعملون » ..

فإنما يجدي الجدل مع القلوب المستعدة للهدى التي تطلب المعرفة وتبحث حقيقة عن الدليل . لا مع القلوب المصرة على الضلال المكابرة التي لا تحفل كل هذا الحشد من الدواعي والدلائل في الأنفس والآفاق وهي كثيرة معروضة للأنظار والقلوب .. فليكلهم إلى الله . فهو الذي يحكم بين المناسك والمناهج وأتباعها الحكم الفاصل الأخير :

« الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون » ..

وهو الحكم الذي لا يجادل فيه أحد ، لأنه لا جدال في ذلك اليوم ، ولا نزاع في الحكم الأخير ! والله يحكم بعلم كامل ، لا يند عنه سبب ولا دليل ، ولا تخفى عليه خافية في العمل والشعور . وهو الذي يعلم ما في السماء والأرض كله ؛ ومن ضمنه عملهم ونياتهم وهو بها محيط :

« ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض . إن ذلك في كتاب . إن ذلك على الله يسير » . وعلم الله الكامل الدقيق لا يخفى عليه شيء في السماء ولا في الأرض ، ولا يتأثر بالمؤثرات التي تنسى وتمحو . فهو كتاب يضم علم كل شيء ويحتويه .

وإن العقل البشري ليصيبه الكلال ، وهو يتأمل - مجرد تأمل - بعض ما في السماء والأرض ، ويتصور إحاطة علم الله بكل هذا الحشد من الأشياء والأشخاص ، والأعمال والنيات والخواطر والحركات ، في عالم المنظور وعالم الضمير . ولكن هذا كله ، بالقياس إلى قدرة الله وعلمه شيء يسير : « إن ذلك على الله يسير » .. وبعد أن يأمر الله رسوله - صلى الله عليه وسلم - ألا يدع للمشركين فرصة لمنازعتة في منهجه المستقيم ، يكشف عما في منهج المشركين من عوج ، وعما فيه من ضعف ، وعما فيه من جهل وظلم للحق ؛ ويقرر أنهم محرومون من عونته تعالى ونصرته . وهم بذلك محرومون من النصير :

« ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً ، وما ليس لهم به علم . وما للظالمين من نصير » .

وما لوضع ولا لشرع من قوة إلا أن يستمد قوته من الله . فما لم ينزل به الله من عنده قوة ، هو ضعيف هزيل ، خلو من عنصر القوة الأصل .

وهؤلاء إنما يعبدون آلهة من الأصنام والأوثان ، أو من الناس أو الشيطان .. وهذه كلها لم ينزل الله بها قوة من عنده ، فهي محرومة من القوة . وهم لا يعبدونها عن علم ولا دليل يقتنعون به ، إنما هو الوهم والخرافة . وما لهم من نصير يلجأون إليه وقد حرموا من نصرته الله العزيز القدير .

وأعجب شيء أنهم وهم يعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً ، وما ليس لهم به علم . لا يستمعون لدعوة الحق ، ولا يتلقون الحديث عنها بالقبول . إنما تأخذهم العزة بالإثم ، ويكادون يبطشون بمن يتلون عليهم كلام الله : « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر ، يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا » ..

إنهم لا يناهضون الحجة بالحجة ، ولا يقرعون الدليل بالدليل إنما هم يلجأون إلى العنف والبطش عندما تعوزهم الحجة ويخذم الدليل . وذلك شأن الطغاة دائماً يشتجر في نفوسهم العتو ، وتبيح فيهم روح البطش ، ولا يستمعون إلى كلمة الحق لأنهم يدركون أن ليس لهم ما يدفعون به هذه الكلمة إلا العنف الغليظ ! ومن ثم يواجههم القرآن الكريم بالتهديد والوعيد : « قل : أفأنبئكم بشر من ذلكم ؟ » بشر من ذلكم المنكر الذي تنظون عليه ، ومن ذلك البطش الذي تمون به .. « النار » .. وهي الرد المناسب للبطش والمنكر « وبئس المصير » ..

* * *

ثم يعلن في الآفاق ، على الناس جميعاً ، إعلاناً مدوياً عاماً .. يعلن عن ضعف الآلهة المدعاة ؛ الآلهة كلها التي يتخذها الناس من دون الله . ومن بينها تلك الآلهة التي يستنصر بها أولئك الظالمون ، ويركن إليها أولئك الغاشمون . يعلن عن هذا الضعف في صورة مثل معروض للأسماع والأبصار ، مصور في مشهد شاخص متحرك ، تتملاه العيون والقلوب .. مشهد يرسم الضعف المزري ويمثله أبرع تمثيل :

« يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له : إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ،

وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب » ..

إنه النداء العام ، والنفير البعيد الصدى : « يا أيها الناس » .. فإذا تجمع الناس على النداء أعلنوا أنهم أمام مثل عام يضرب ، لا حالة خاصة ولا مناسبة حاضرة : « ضرب مثل فاستمعوا له » .. هذا المثل يضع قاعدة ، ويقرر حقيقة . « إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له » .. كل من تدعون

من دون الله من آله مدعاة . من أصنام وأوثان ، ومن أشخاص وقيم وأوضاع ، تستنصرون بها من دون الله ، وتستعينون بقوتها وتطلبون منها النصر والجاه .. كلهم « لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له » .. والذباب صغير حقير ؛ ولكن هؤلاء الذين يدعونهم آله لا يقدرين - ولو اجتمعوا وتساندوا - على خلق هذا الذباب الصغير الحقير !

وخلق الذباب مستحيل كخلق الجمل والفيل . لأن الذباب يحتوي على ذلك السر المعجز سر الحياة . فيستوي في استحالة خلقه مع الجمل والفيل .. ولكن الأسلوب القرآني المعجز يختار الذباب الصغير الحقير لأن العجز عن خلقه يلقي في الحس ظل الضعف أكثر مما يلقيه العجز عن خلق الجمل والفيل ! دون أن يخل هذا بالحقيقة في التعبير . وهذا من بدائع الأسلوب القرآني العجيب !

ثم يخطو خطوة أوسع في إبراز الضعف المزري : « وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه » .. والآله المدعاة لا تملك استنقاذ شيء من الذباب حين يسلبها إياه ، سواء كانت أصناماً أو أوثاناً أو أشخاصاً ! وكم من عزيز يسلبه الذباب من الناس فلا يملكون رده . وقد اختير الذباب بالذات وهو ضعيف حقير . وهو في الوقت ذاته يحمل أخطر الأمراض ويسلب أغلى النفائس : يسلب العيون والجوارح ، وقد يسلب الحياة والأرواح .. إنه يحمل ميكروب السل والتيفود والدوسنتاريا والرمم .. ويسلب ما لا سبيل إلى استنقاذه وهو الضعيف الحقير ! .

وهذه حقيقة أخرى كذلك يستخدمها الأسلوب القرآني المعجز .. ولو قال : « وإن تسلبهم السباع شيئاً لا يستنقذوه منها » .. لأوحى ذلك بالقوة بدل الضعف . والسباع لا تسلب شيئاً أعظم مما يسلبه الذباب ! ولكنه الأسلوب القرآني العجيب !

ويختم ذلك المثل المصور الموحى بهذا التعقيب : « ضعف الطالب والمطلوب » . ليقرر ما ألقاه المثل من ظلال ، وما أوحى به إلى المشاعر والقلوب !

وفي أنسب الظروف .. والمشاعر تفيض بالزراية والاحتقار لضعف الآلهة المدعاة يندد بسوء تقديرهم لله ، ويعرض قوة الله الحق الحقيق بأنه إله :

« ما قدروا الله حق قدره ، إن الله لقوي عزيز » ..

ما قدروا الله حق قدره ، وهم يشركون به تلك الآلهة الكليمة العاجزة التي لا تخلق ذباباً ولو تجمعت له . بل لا تستنقذ ما يسلبها الذباب إياه !

ما قدروا الله حق قدره ، وهم يرون آثار قدرته ، وبدائع مخلوقاته ، ثم يشركون به من لا يستطيعون خلق الذباب الحقير !

ما قدروا الله حق قدره ، وهم يستعينون بتلك الآلهة العاجزة الكليمة عن استنقاذ ما يسلبها إياه الذباب ، ويدعون الله القوي العزيز ..

إنه تقرير وتقريع في أشد المواقف مناسبة للخشوع والخضوع !

وهنا يذكر أن الله القوي العزيز يختار رسله من الملائكة إلى الأنبياء . ويختار رسله من البشر إلى الناس . وذلك عن علم وخبرة وقدره :

« الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس . إن الله سميع بصير . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم . وإلى الله ترجع الأمور » .

فعن صاحب القوة العزيز الجناب يصدر الاختيار للملائكة والرسل . ومن لدن القوي العزيز جاء محمد - صلى الله عليه وسلم - جاء بسطان من عند القوي العزيز الذي اختاره واصطفاه . فأنتى يقف له من يركنون إلى تلك الآلهة العاجزة الضعيفة المزدراة ؟ !

« إن الله سميع بصير » .. فهو يسمع ويرى فيعلم « يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم » علماً شاملاً كاملاً ، لا يند عنه حاضر ولا غائب ، ولا قريب ولا بعيد .

« وإلى الله ترجع الأمور » .. فهو الحكم الأخير ، وله السيطرة والتدبير .

* * *

والآن وقد كشف عما في منسك المشركين من سخف وضعف ؛ وعما في عبادتهم من قصور وجهل .. الآن يتوجه بالخطاب إلى الأمة المسلمة ، لتنهض بتكاليف دعوتها ، وتستقيم على نهجها العريق القويم :

« يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا ، واعبدوا ربكم ، وافعلوا الخير لعلكم تفلحون . وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم ؛ وما جعل عليكم في الدين من حرج ، ملة أبيكم إبراهيم . هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم ، وتكونوا شهداء على الناس . فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، واعتصموا بالله هو مولاكم ، فنعم المولى ونعم النصير » ..

وفي هاتين الآيتين يجمع المنهاج الذي رسمه الله لهذه الأمة ، ويلخص تكاليفها التي ناطها بها ، ويقرر مكانها الذي قدره لها ، ويثبت جذورها في الماضي والحاضر والمستقبل ، متى استقامت على النهج الذي أرادها لها الله . إنه يبدأ بأمر الذين آمنوا بالركوع والسجود . وهما ركنا الصلاة البارزان . ويكفي عن الصلاة بالركوع والسجود ليمنحها صورة بارزة ، وحركة ظاهرة في التعبير ، ترسمها مشهداً شاخصاً ، وهيئة منظورة . لأن التعبير على هذا النحو أوقع أثراً أقوى استجاشة للشعور .

ويثني بالأمر العام بالعبادة . وهي أشمل من الصلاة . فعبادة الله تشمل الفرائض كلها وتزيد عليها كذلك كل عمل وكل حركة وكل خالجة يتوجه بها الفرد إلى الله . فكل نشاط الإنسان في الحياة يمكن أن يتحول إلى عبادة متى توجه القلب به إلى الله . حتى لذائذه التي ينالها من طيبات الحياة بلفتة صغيرة تصبح عبادات تكتب له بها حسنات . وما عليه إلا أن يذكر الله الذي أنعم بها ، وينوي بها أن يتقوى على طاعته وعبادته فإذا هي عبادات وحسنات ، ولم يتحول في طبيعتها شيء ، ولكن تحول القصد منها والاتجاه !

ويحتم بفعل الخير عامة ، في التعامل مع الناس بعد التعامل مع الله بالصلاة والعبادة ..

يأمر الأمة المسلمة بهذا رجاء أن تفلح . فهذه هي أسباب الفلاح .. العبادة تصلها بالله فتقوم حياتها على قاعدة ثابتة وطريق واصل . وفعل الخير يؤدي إلى استقامة الحياة ، الجماعية على قاعدة من الإيمان وأصالة الاتجاه .

فإذا استعدت الأمة المسلمة بهذه العدة من الصلة بالله واستقامة الحياة ، فاستقام ضميرها واستقامت حياتها ..

نهضت بالتبعية الشاقة :

« وجاهدوا في الله حق جهاده » .. وهو تعبير شامل جامع دقيق ، يصور تكليفاً ضخماً ، يحتاج إلى تلك التعبئة وهذه الذخيرة وذلك الإعداد ..

« وجاهدوا في الله حق جهاده » .. والجهاد في سبيل الله يشمل جهاد الأعداء ، وجهاد النفس ، وجهاد الشر والفساد .. كلها سواء ..

« وجاهدوا في الله حق جهاده » .. فقد انتدبكم لهذه الأمانة الضخمة ، واختاركم لها من بين عباده : « هو اجتباكم » .. وإن هذا الاختيار ليضخم التبعة ، ولا يجعل هنالك مجالاً للتخلي عنها أو الفرار ! وإنه لإكرام من الله لهذه الأمة ينبغي أن يقابل منها بالشكر وحسن الأداء !

وهو تكليف محض برحمة الله : « وما جعل عليكم في الدين من حرج » .. وهذا الدين كله بتكاليفه وعباداته وشرائعه ملحوظ فيه فطرة الإنسان وطاقته . ملحوظ فيه تليته تلك الفطرة . وإطلاق هذه الطاقة ، والاتجاه بها إلى البناء والاستعلاء . فلا تبقى حبيسة كالبخار المكتوم . ولا تنطلق انطلاق الحيوان الغشيم ! وهو منهج عريق أصيل في ماضي البشرية ، موصول الماضي بالحاضر : « ملة أبيكم إبراهيم » وهو منبع التوحيد الذي اتصلت حلقاته منذ عهد إبراهيم - عليه السلام - فلم تنقطع من الأرض ، ولم تفصل بينها فجوات مضیعة لمعالم العقيدة كالفجوات التي كانت بين الرسالات قبل إبراهيم عليه السلام .

وقد سمي الله هذه الأمة الموحدة بالمسلمين . سماها كذلك من قبل وسماها كذلك في القرآن : « هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا » ..

والإسلام إسلام الوجه والقلب لله وحده بلا شريك . فكانت الأمة المسلمة ذات منهج واحد على تتابع الأجيال والرسول والرسالات . حتى انتهى بها المطاف إلى أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - وحتى سلمت إليها الأمانة ، وعهد إليها بالوصاية على البشرية . فاتصل ماضيها بحاضرها بمستقبلها كما أرادها الله : « ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس » .. فالرسول - صلى الله عليه وسلم - يشهد على هذه الأمة ، ويحدد نهجها واتجاهها ، ويقرر صوابها وخطأها . وهي تشهد على الناس بمثل هذا ، فهي القوامة على البشرية بعد نبيها ؛ وهي الوصية على الناس بموازين شريعتها ، وتربيتها وفكرتها عن الكون والحياة . ولن تكون كذلك إلا وهي أمينة على منهجها العريق المتصل الوشائج ، المختار من الله .

ولقد ظلت هذه الأمة وصية على البشرية طالما استمسكت بذلك المنهج الإلهي وطبقته في حياتها الواقعية . حتى إذا انحرفت عنه ، وتخلت عن تكاليفه ، ردها الله عن مكان القيادة إلى مكان التابع في ذيل القافلة . وما تزال . ولن تزال حتى تعود إلى هذا الأمر الذي اجتباها له الله .

هذا الأمر يقتضي الاحتشاد له والاستعداد .. ومن ثم يأمرها القرآن بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والاعتصام بالله : « فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله . هو مولاكم . فنعم المولى ونعم النصير » ..

فالصلاة صلة الفرد الضعيف الفاني بمصدر القوة والازداد . والزكاة صلة الجماعة بعضها ببعض والتأمين من الحاجة والفساد . والاعتصام بالله العروة الوثقى التي لا تنفصم بين المعبود والعباد .

بهذه العدة تملك الأمة المسلمة أن تهض بتكاليف الوصاية على البشرية التي اجتباها لها الله . وتملك الانتفاع بالموارد والطاقات المادية التي تعارف الناس على أنها مصادر القوة في الأرض . والقرآن الكريم لا يغفل من شأنها ، بل يدعو إلى إعدادها . ولكن مع حشد القوى والطاقات والازداد الذي لا ينفد ، والذي لا يملكه إلا المؤمنون بالله .

فيوجهون به الحياة إلى الخير والصلاح والاستعلاء .
إن قيمة المنهج الإلهي للبشرية أنه يمضي بها قدماً إلى الكمال المقدر لها في هذه الأرض ؛ ولا يكتفي بأن يقودها للذائد والمتاع وحدهما كما تقاد الأنعام .
وإن القيم الإنسانية العليا لتعتمد على كفاية الحياة المادية ، ولكنها لا تقف عند هذه المدارج الأولى . وكذلك يريدنا الإسلام في كنف الوصاية الرشيدة ، المستقيمة على منهج الله في ظل الله . .

انتهى الجزء السابع عشر
ويليه الجزء الثامن عشر
مبدءاً بسورة المؤمنون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَتَا
الْمُؤْمِنُونَ وَالنُّورِ

الجزء الثامن عشر

(٢٣) سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ مَكِّيَّةٌ
وَآيَاتُهَا ثَمَانِي عَشْرَةٌ وَمِائَةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾
وَالَّذِينَ هُمْ لِلرَّكْعَةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِوُجُوهِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَرْوَاحِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ
أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنْ أَبْغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ
رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ
فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ
عَلَقَةً خَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ
أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾
وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقٍ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَتْهُ
فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّتٍ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَبٍ لَكُمْ فِيهَا
فَرَكَهٌ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةٌ تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبِغٍ لِللَّاكِلِينَ ﴿٢٠﴾
وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لَسُقِيَكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا
وَعَلَىٰ الْفَلَاحِ يُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾

هذه سورة « المؤمنون » .. اسمها يدل عليها . ويحدد موضوعها .. فهي تبدأ بصفة المؤمنين ، ثم يستطرد السياق فيها إلى دلائل الإيمان في الأنفس والآفاق . ثم إلى حقيقة الإيمان كما عرضها رسل الله - صلوات الله عليهم - من لدن نوح - عليه السلام - إلى محمد خاتم الرسل والنبين ؛ وشبهات المكذبين حول هذه الحقيقة واعتراضاتهم عليها ، ووقوفهم في وجهها ، حتى يستنصر الرسل بربهم ، فيهلك المكذبين ، وينجي المؤمنين .. ثم يستطرد إلى اختلاف الناس - بعد الرسل - في تلك الحقيقة الواحدة التي لا تتعدد .. ومن هنا يتحدث عن موقف المشركين من الرسول - صلى الله عليه وسلم - ويستنكر هذا الموقف الذي ليس له مبرر .. وتنتهي السورة بمشهد من مشاهد القيامة يلقون فيه عاقبة التكذيب ، ويؤنّبون على ذلك الموقف المرعب ، يحتم بتعقيب يقرر التوحيد المطلق والتوجه إلى الله بطلب الرحمة والغفران ..

فهي سورة « المؤمنون » أو هي سورة الإيمان ، بكل قضايها ودلائله وصفاته . وهو موضوع السورة ومحورها الأصيل .

* * *

ويعضي سياق السورة في أربعة أشواط :

يبدأ الشوط الأول بتقرير الفلاح للمؤمنين : « قد أفلح المؤمنون » .. وبين صفات المؤمنين هؤلاء الذين كتب لهم الفلاح .. ويثني بدلائل الإيمان في الأنفس والآفاق ، فيعرض أطوار الحياة الإنسانية منذ نشأتها الأولى إلى نهايتها في الحياة الدنيا متوسعاً في عرض أطوار الجنين ، مجملاً في عرض المراحل الأخرى .. ثم يتابع خط الحياة البشرية إلى البعث يوم القيامة .. وبعد ذلك ينتقل من الحياة الإنسانية إلى الدلائل الكونية : في خلق السماء ، وفي إنزال الماء ، وفي إنبات الزرع والثمار . ثم إلى الأنعام المسخرة للإنسان ؛ والفلك التي يحمل عليها وعلى الحيوان .

فأما الشوط الثاني فينتقل من دلائل الإيمان في الأنفس والآفاق إلى حقيقة الإيمان . حقيقته الواحدة التي توافق عليها الرسل دون استثناء : « يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره » .. قالها نوح - عليه السلام - وقالها كل من جاء بعده من الرسل ، حتى انتهت إلى محمد - صلى الله عليه وسلم - وكان اعتراض المكذبين دائماً : « ما هذا إلا بشر مثلكم ! » .. « ولو شاء الله لأنزل ملائكة » .. وكان اعتراضهم كذلك : « أيعدكم أنكم إذا تمم وكنتم تراباً وعظماً أنكم مخرجون ؟ » .. وكانت العاقبة دائماً أن يلجأ الرسل إلى ربهم يطلبون نصره ، وأن يستجيب الله لرسله ، فيهلك المكذبين .. وينتهي الشوط ببدء للرسول جميعاً : « يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً ، إني بما تعملون عليم ، وإن هذه أمتكم واحدة وأنا ربكم فاتقون » . والشوط الثالث يتحدث عن تفرق الناس - بعد الرسل - وتنازعهم حول تلك الحقيقة الواحدة . التي جاءوا بها : « ففقطعوا أمرهم بينهم زبراً ، كل حزب بما لديهم فرحون » . وعن غفلتهم عن ابتلاء الله لهم بالنعمة ، واعتراضهم بما هم فيه من متاع . بينا المؤمنون مشفقون من خشية ربهم ، يعبدونه ولا يشركون به ، وهم مع ذلك دائمو الخوف والحذر « وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون » .. وهنا يرسم مشهداً لأولئك الغافلين المغرورين يوم يأخذهم العذاب فإذا هم يجأرون ؛ فيأخذهم التوبيخ والتأنيب : « قد كانت آياتي تنلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون ، مستكبرين به سامراً تهجرون » .. ويستنكر السياق موقفهم العجيب من رسولهم الأمين ، وهم يعرفونه ولا ينكرونه ؛ وقد جاءهم بالحق لا يسألهم عليه أجراً . فاذا ينكرون منه ومن

الحق الذي جاءهم به ؟ وهم يسلمون بملكية الله لمن في السماوات والأرض ، وربوبيته للسماوات والأرض ، وسيطرته على كل شيء في السماوات والأرض . وبعد هذا التسليم هم ينكرون البعث ، ويزعمون لله ولداً سبحانه ! ويشركون به آلهة أخرى « فتعالى عما يشركون » .

والشوط الأخير يدعهم وشركهم وزعمهم ؛ ويتوجه بالخطاب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يدفع السيئة بالتي هي أحسن^١ ، وأن يستعذ بالله من الشياطين ، فلا يغضب ولا يضيق صدره بما يقولون .. وإلى جوار هذا مشهد من مشاهد القيامة يصور ما ينتظرهم هناك من عذاب ومهانة وتأنيب .. وتحتم السورة بتزيه الله سبحانه : « فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم » . وبنفي الفلاح عن الكافرين في مقابل تقرير الفلاح في أول السورة للمؤمنين : « ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه ، إنه لا يفلح الكافرون » . وبالتوجه إلى الله طلباً للرحمة والغفران : « وقل : رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين » .

* * *

جو السورة كلها هو جو البيان والتقرير ، وجو الجدل الهادئ ، والمنطق الوجداني ، واللمسات الموحية للفكر والضمير . والظل الذي يغلب عليها هو الظل الذي يليق به موضوعها .. الإيمان .. ففي مطلعها مشهد الخشوع في الصلاة : « الذين هم في صلاتهم خاشعون » . وفي صفات المؤمنين في وسطها : « والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجة أنهم إلى ربهم راجعون » .. وفي اللمسات الوجدانية : « وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون » . وكلها مظلمة بذلك الظل الإيماني اللطيف .

* * *

« قد أفلح المؤمنون ، الذين هم في صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون . والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ، والذين هم على صلواتهم يحافظون .. أولئك هم الوارثون . الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون » .

إنه الوعد الصادق ، بل القرار الأكيد بفلاح المؤمنين . وعد الله لا يخلف الله وعده ؛ وقرار الله لا يملك أحد رده . الفلاح في الدنيا والفلاح في الآخرة . فلاح الفرد المؤمن وفلاح الجماعة المؤمنة . الفلاح الذي يحسه المؤمن بقلبه ويجد مصداقه في واقع حياته ؛ والذي يشمل ما يعرفه الناس من معاني الفلاح ، وما لا يعرفونه مما يدخره الله لعباده المؤمنين .

فن هم المؤمنون الذين كتب الله لهم هذه الوثيقة ، ووعدهم هذا الوعد ، وأعلن عن فلاحهم هذا الإعلان ؟ من هم المؤمنون المكتوب لهم الخير والنصر والسعادة والتوفيق والمتاع الطيب في الأرض ؟ والمكتوب لهم الفوز والنجاة ، والثواب والرضوان في الآخرة ؟ ثم ما شاء الله غير هذا وذلك في الدارين مما لا يعلمه إلا الله ؟

(١) السورة مكية . ولم يكن المسلمون حينئذ مأمورين بدفع العدوان بالعدوان .

من هم المؤمنون . الوارثون . الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ؟
إنهم هؤلاء الذين يفصل السياق صفاتهم بعد آية الافتتاح :

« الذين هم في صلاتهم خاشعون .

« والذين هم عن اللغو معرضون .

« والذين هم للزكاة فاعلون .

« والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم ... الخ .

« والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون .

« والذين هم على صلواتهم يحافظون » .

فما قيمة هذه الصفات ؟

قيمتها أنها ترسم شخصية المسلم في أفقها الأعلى . أفق محمد - صلى الله عليه وسلم - رسول الله ، وخير خلق الله ، الذي أدبه ربه فأحسن تأديبه ، والذي شهد له في كتابه بعظمة خلقه : « وإنك لعلی خلق عظیم » .. فلقد سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالت : كان خلقه القرآن . ثم قرأت . « قد أفلح المؤمنون » حتى « والذين هم على صلواتهم يحافظون » . وقالت . هكذا كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم -¹ .

ومرة أخرى .. ما قيمة هذه الصفات في ذاتها ؟ ما قيمتها في حياة الفرد ، وفي حياة الجماعة ، وفي حياة النوع الإنساني ؟

« الذين هم في صلاتهم خاشعون » .. تستشعر قلوبهم رهبة الموقف في الصلاة بين يدي الله ، فتسكن وتخشع ، فيسري الخشوع منها إلى الجوارح والملامح والحركات . ويغشى أرواحهم جلال الله في حضرته ، فتختفي من أذهانهم جميع الشواغل ، ولا تشتغل بسواه وهم مستغرقون في الشعور به مشغولون بنجواه . ويتوارى عن حسهم في تلك الحضرة القدسية كل ما حولهم وكل ما بهم ، فلا يشهدون إلا الله ، ولا يحسون إلا إياه ، ولا يتذوقون إلا معناه . ويتطهر وجدانهم من كل دنس ، ويفضون عنهم كل شائبة ؛ فما يضمون جوانحهم على شيء من هذا مع جلال الله .. عندئذ تتصل الذرة التائهة بمصدرها ، وتجد الروح الحائرة طريقها ، ويعرف القلب الموحد موته . وعندئذ تتضاءل القيم والأشياء والأشخاص إلا ما يتصل منها بالله .

« والذين هم عن اللغو معرضون » .. لغو القول ، ولغو الفعل ، ولغو الاهتمام والشعور . إن للقلب المؤمن ما يشغله عن اللغو واللهو والهذر .. له ما يشغله من ذكر الله ، وتصور جلاله وتدبر آياته في الأنفس والآفاق . وكل مشهد من مشاهد الكون يستغرق اللب ، ويشغل الفكر ، ويحرك الوجدان .. وله ما يشغله من تكاليف العقيدة : تكاليفها في تطهير القلب ، وتركيب النفس وتنقية الضمير . وتكاليفها في السلوك ، ومحاولة الثبات على المرتقى العالي الذي يتطلبه الإيمان . وتكاليفها في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وصيانة حياة الجماعة من الفساد والانحراف . وتكاليفها في الجهاد لحمايتها ونصرتها وعزتها ، والسهر عليها من كيد الأعداء .. وهي تكاليف لا تنتهي ، ولا يغفل عنها المؤمن ، ولا يعفي نفسه منها ، وهي مفروضة عليه فرض عين أو

فرض كفاية . وفيها الكفاية لاستغراق الجهد البشري والعمر البشري . والطاقة البشرية محدودة . وهي إما أن تنفق في هذا الذي يصلح الحياة وينميها ويرقيها ؛ وإما أن تنفق في الهدر واللغو واللغو . والمؤمن مدفوع بحكم عقيدته إلى انفاقها في البناء والتعمير والإصلاح .

ولا ينبغي هذا أن يروح المؤمن عن نفسه في الحين بعد الحين . ولكن هذا شيء آخر غير الهدر واللغو والفراغ ...

« والذين هم للزكاة فاعلون » .. بعد إقبالهم على الله ، وانصرافهم عن اللغو في الحياة .. والزكاة طهارة للقلب والمال : طهارة للقلب من الشح ، واستعلاء على حب الذات ، وانتصار على وسوسة الشيطان بالفقر ، وثقة بما عند الله من العوض والجزاء . وطهارة للمال تجعل ما بقي منه بعدها طيباً حلالاً ، لا يتعلق به حق – إلا في حالات الضرورة – ولا تحوم حوله شبهة . وهي صيانة للجماعة من الخلل الذي ينشئه العوز في جانب والترف في جانب ، فهي تأمين اجتماعي للأفراد جميعاً ، وهي ضمان اجتماعي للعاجزين ، وهي وقاية للجماعة كلها من التفكك والانحلال .

« والذين هم لفروجهم حافظون » . وهذه طهارة الروح والبيت والجماعة . ووقاية النفس والأسرة والمجتمع . بحفظ الفروج من دنس المباشرة في غير حلال ، وحفظ القلوب من التطلع إلى غير حلال ؛ وحفظ الجماعة من انطلاق الشهوات فيها بغير حساب ، ومن فساد البيوت فيها والأنساب .

والجماعة التي تنطلق فيها الشهوات بغير حساب جماعة معرضة للخلل والفساد . لأنه لا أمن فيها للبيت ، ولا حرمة فيها للأسرة . والبيت هو الوحدة الأولى في بناء الجماعة ، إذ هو المحضن الذي تنشأ فيه الطفولة وتدرج ؛ ولا بد له من الأمن والاستقرار والطهارة ، ليصلح محضناً ومدرباً ، وليعيش فيه الوالدان مطمئناً كلاهما للآخر ، وهما يريان ذلك المحضن . ومن فيه من فراخ !

والجماعة التي تنطلق فيها الشهوات بغير حساب جماعة قادرة هابطة في سلم البشرية ، فالمقياس الذي لا يخطيء للارتقاء البشري هو تحكم الإرادة الإنسانية وغلبتها . وتنظيم الدوافع الفطرية في صورة مثمرة نظيفة ، لا يتجمل الأطفال معها من الطريقة التي جاءوا بها إلى هذا العالم ، لأنها طريقة نظيفة معروفة ، يعرف فيها كل طفل أباه . لا كالحیوان الهابط الذي تلقى الأنثى فيه الذكر للقاح ، وبدافع اللقاح ، ثم لا يعرف الفصيل كيف جاء ولا من أين جاء !

والقرآن هنا يحدد المواضع النظيفة التي يحل للرجل أن يودعها بذور الحياة : « إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين » .. ومسألة الأزواج لا تثير شبهة ولا تستدعي جدلاً . فهي النظام المشروع المعروف . أما مسألة ملك اليمين فقد تستدعي شيئاً من البيان .

ولقد فصلت القول في مسألة الرق في الجزء الثاني من الظلال¹ ، وبينت هناك أن الإسلام قد جاء والرق نظام عالمي . واسترقاق أسرى الحرب نظام دولي . فما كان يمكن والإسلام مشتبك في حروب مع أعدائه الواقفين بالقوة المادية في طريقه أن يلغي هذا النظام من جانب واحد ، فيصبح أسارى المسلمين رقيقاً عند أعدائه ، بينما هو يحرق أسارى الأعداء .. فجفف الإسلام كل منابع الرق – عدا أسرى الحرب – إلى أن يتاح للبشرية وضع نظام دولي للتعامل بالمثل في مسألة الأسرى .

ومن هنا كان يجيء إلى المعسكر الإسلامي أسيرات ، تقضي قاعدة التعامل بالمثل باسترقاقهن ومن مقضيات هذا الاسترقاق ألا يرتفعن إلى مستوى الزوجات بالنكاح . فأباح الإسلام حينئذ الاستمتاع بهن بالتسري لمن يملكهن خاصة إلا أن يتحررن لسبب من الأسباب الكثيرة التي جعلها الإسلام سبباً لتحرير الرقيق .

ولعل هذا الاستمتاع ملحوظ فيه تلبية الحاجة الفطرية للأسيرات أنفسهن ، كي لا يشبعنها عن طريق الفوضى القدرة في المخالطة الجنسية كما يقع في زماننا هذا مع أسيرات الحرب بعد معاهدات تحرير الرقيق - هذه الفوضى التي لا يحبها الإسلام ! وذلك حتى يأذن الله فيرتفعن إلى مرتبة الحرية . والأمة تصل إلى مرتبة الحرية بوسائل كثيرة .. إذا ولدت لسيدها ثم مات عنها . وإذا أعتقها هو تطوعاً أو في كفارة . وإذا طلبت أن تكتبه على مبلغ من المال فافتدت به رقبتها . وإذا ضربها على وجهها فكفارتها عتقها .. الخ !

وعلى أية حال فقد كان الاسترقاق في الحرب ضرورة وقتية ، هي ضرورة المعاملة بالمثل في عالم كله يسترق الأسرى ، ولم يكن جزءاً من النظام الاجتماعي في الإسلام .

« فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون » .. وراء الزوجات وملك اليمين ، ولا زيادة بطريقة من الطرق . فمن ابتغى وراء ذلك فقد عدا الدائرة المباحة ، ووقع في الحرمات ، واعتدى على الأعراض التي لم يستحلها بنكاح ولا بجهاد . وهنا تفسد النفس لشعورها بأنها ترعى في كلاً غير مباح ، ويفسد البيت لأنه لا ضمان له ولا اطمئنان ، وتفسد الجماعة لأن ذنابها تنطلق فتنهش من هنا ومن هناك : وهذا كله هو الذي يتوقاه الإسلام . « والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » راعون لأماناتهم وعهدهم أفراداً ؛ وراعون لأماناتهم وعهدهم جماعة ..

والأمانات كثيرة في عتق الفرد وفي عتق الجماعة ؛ وفي أولها أمانة الفطرة ؛ وقد فطرها الله مستقيمة متناسقة مع ناموس الوجود الذي هي منه وإليه شاهدة بوجود الخالق ووحدانيته ، بحكم إحساسها الداخلي بوحدة الناموس الذي يحكمها ويحكم الوجود ، ووحدة الإرادة المختارة لهذا الناموس المدبرة لهذا الوجود .. والمؤمنون يراعون تلك الأمانة الكبرى فلا يدعون فطرتهم تنحرف عن استقامتها ، فتظل قائمة بأمانتها شاهدة بوجود الخالق ووحدانيته . ثم تأتي سائر الأمانات تبعاً لتلك الأمانة الكبرى .

والعهد الأول هو عهد الفطرة كذلك . هو العهد الذي قطعه الله على فطرة البشر بالإيمان بوجوده وبتوحيده . وعلى هذا العهد الأول تقوم جميع العهود والمواثيق . فكل عهد يقطعه المؤمن يجعل الله شهيداً عليه فيه ، ويرجع في الوفاء به إلى تقوى الله وخشيته .

والجماعة المسلمة مسؤولة عن أماناتها العامة ، مسؤولة عن عهدها مع الله تعالى ، وما يترتب على هذا العهد من تبعات . والنص يحمل التعبير ويدعه يشمل كل أمانة وكل عهد . ويصف المؤمنين بأنهم لأماناتهم وعهدهم راعون . فهي صفة دائمة لهم في كل حين . وما تستقيم حياة الجماعة إلا أن تؤدي فيها الأمانات ؛ وترعى فيها العهود ؛ ويضمن كل من فيها إلى هذه القاعدة الأساسية للحياة المشتركة ، الضرورية لتوفير الثقة والأمن والاطمئنان .

« والذين هم على صلواتهم يحافظون » .. فلا يفوتونها كسلاً ، ولا يضيعونها إهمالاً ؛ ولا يقصرون في

(١) يراجع فصل الرق في كتاب « شبهات حول الإسلام » لمحمد قطب . « دار الشروق » .

إقامتها كما ينبغي أن تقام ؛ إنما يؤدونها في أوقاتها كاملة الفرائض والسنن ، مستوفية الأركان والآداب ، حية يستغرق فيها القلب ، وينفعل بها الوجدان . والصلاة صلة ما بين القلب والرب ، فالذي لا يحافظ عليها لا ينتظر أن يحافظ على صلة ما بينه وبين الناس محافظة حقيقية مبعثها صدق الضمير .. ولقد بدأت صفات المؤمنين بالصلاة وختمت بالصلاة للدلالة على عظيم مكانتها في بناء الإيمان ، بوصفها أكمل صورة من صور العبادة والتوجه إلى الله .

تلك الخصائص تحدد شخصية المؤمنين المكتوب لهم الفلاح . وهي خصائص ذات أثر حاسم في تحديد خصائص الجماعة المؤمنة ونوع الحياة التي تحياها . الحياة الفاضلة اللائقة بالإنسان الذي كرمه الله ؛ وأراد له التدرج في مدارج الكمال . ولم يرد له أن يحيا حياة الحيوان ، يستمتع فيها ويأكل كما تأكل الأنعام . ولما كانت الحياة في هذه الأرض لا تحقق الكمال المقدر لبني الإنسان ، فقد شاء الله أن يصل المؤمنين الذين ساروا في الطريق ، إلى الغاية المقدره لهم ، هنالك في الفردوس ، دار الخلود بلا فناء ، والأمن بلا خوف ، والاستقرار بلا زوال :

« أولئك هم الوارثون ، الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون » ..
وتلك غاية الفلاح الذي كتبه الله للمؤمنين . وليس بعدها من غاية تمتد إليها عين أو خيال ..

* * *

ومن صفات المؤمنين ينتقل إلى دلائل الإيمان في حياة الإنسان ذاته ، وفي أطوار وجوده ونموه ، مبتدئاً بأصل النشأة الإنسانية ، متهيأً إلى البعث في الآخرة مع الربط بين الحياتين في السياق :

« ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة في قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظماً ، فكسونا العظام لحماً . ثم أنشأناه خلقاً آخر . فبارك الله أحسن الخالقين . ثم انكم بعد ذلك لميتون . ثم إنكم يوم القيامة تبعثون » ..

وفي أطوار هذه النشأة ، وتتبعها بهذا النظام ، وبهذا الاطراد ، ما يشهد بوجود المنشئ أولاً ، وما يشهد بالقصد والتدبير في تلك النشأة وفي اتجاهها أخيراً . فما يمكن أن يكون الأمر مصادفة عابرة ، ولا خبط عشواء بدون قصد ولا تدبير ؛ ثم تسير هذه السيرة التي لا تنحرف ، ولا تخطئ ، ولا تتخلف ؛ ولا تسير في طريق آخر من شتى الطرق التي يمكن عقلاً وتصوراً أن تسير فيها . إنما تسير النشأة الإنسانية في هذا الطريق دون سواه من شتى الطرق الممكنة بناء على قصد وتدبير من الإرادة الخالقة المدبرة في هذا الوجود .

كما أن في عرض تلك الأطوار بهذا التتابع الدقيق المطرد ، ما يشير إلى أن الإيمان بالخالق المدبر ، والسير على نهج المؤمنين الذي بينه في المقطع السابق .. هو وحده الطريق إلى بلوغ الكمال المقدر لتلك النشأة ؛ في الحياتين : الدنيا والآخرة . وهذا هو المحور الذي يجمع بين المقطعين في سياق السورة .

« ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين » .. وهذا النص يشير إلى أطوار النشأة الإنسانية ولا يحددها . فيفيد أن الإنسان مر بأطوار سلسلة ، من الطين إلى الإنسان . فالطين هو المصدر الأول ، أو الطور الأول . والإنسان هو الطور الأخير .. وهي حقيقة نعرفها من القرآن ، ولا نطلب لها مصداقاً من النظريات العلمية التي تبحث عن نشأة الإنسان ، أو نشأة الأحياء .

إن القرآن يقرر هذه الحقيقة ليتخذها مجالاً للتدبر في صنع الله ، ولتأمل النقلة البعيدة بين الطين وهذا الإنسان

المتسلسل في نشأته من ذلك الطين . ولا يتعرض لتفصيل هذا التسلسل لأنه لا يعنيه في أهدافه الكبيرة . أما النظريات العلمية فتحاول إثبات سلم معين للنشوء والارتقاء ، لوصل حلقات السلسلة بين الطين والإنسان . وهي تخطئ وتصيب في هذه المحاولة - التي سكت القرآن عن تفصيلها - وليس لنا أن نخلط بين الحقيقة الثابتة التي يقرها القرآن .. حقيقة التسلسل .. وبين المحاولات العلمية في البحث عن حلقات هذا التسلسل وهي المحاولات التي تخطئ وتصيب ، وثبت اليوم وتنقض غداً ، كلما تقدمت وسائل البحث وطرائقه في يد الإنسان .

والقرآن يعبر أحياناً عن تلك الحقيقة باختصار فيقول : « ... بدأ خلق الإنسان من طين » .. دون إشارة إلى الأطوار التي مر بها . والمرجع في هذا الأمر إلى النص الأكثر تفصيلاً ، وهو الذي يشير إلى أنه « من سلالة من طين » فالنص الآخر يختصر هذه الأطوار لمناسبة خاصة في السياق هناك .

أما كيف تسلسل الإنسان من الطين فسكوت عنه كما قلنا لأنه غير داخل في الأهداف القرآنية . وقد تكون حلقاته على النحو الذي تقول به النظريات العلمية وقد لا تكون ؛ وتكون الأطوار قد تمت بطريق آخر لم يعرف بعد ، وبسبب عوامل وعلل أخرى لم يكشف عنها الإنسان .. ولكن مفرق الطريق بين نظرة القرآن إلى الإنسان ونظرة تلك النظريات أن القرآن يكرم هذا الإنسان ؛ ويقرر أن فيه نفخة من روح الله هي التي جعلت من سلالة الطين إنساناً ، ومنحته تلك الخصائص التي بها صار إنساناً وافترق بها عن الحيوان . وهنا تفرق نظرة الإسلام افتراقاً كلياً عن نظرة الماديين . والله أصدق القائلين^١ .

ذلك أصل نشأة الجنس الإنساني .. من سلالة من طين .. فأما نشأة الفرد الإنساني بعد ذلك ، فتمضي في طريق آخر معروف :

« ثم جعلناه نطفة في قرار مكين » .. لقد نشأ الجنس الإنساني من سلالة من طين . فأما تكرار أفراده بعد ذلك وتكاثرهم فقد جرت سنة الله أن يكون عن طريق نقطة مائية تخرج من صلب رجل ، فتستقر في رحم امرأة . نقطة مائية واحدة . لا بل خلية واحدة من عشرات الألوف من الخلايا الكامنة في تلك النقطة . تستقر : « في قرار مكين » .. ثابتة في الرحم الغائرة بين عظام الحوض ، المحمية بها من التأثير باهتزازات الجسم ، ومن كثير مما يصيب الظهر والبطن من لكمات وكدمات ، ورجات وتأثرات !

والتعبير القرآني يجعل النطفة طوراً من أطوار النشأة الإنسانية ، تالياً في وجوده لوجود الإنسان .. وهي حقيقة . ولكنها حقيقة عجيبة تدعو إلى التأمل ، فهذا الإنسان الضخم يختصر ويلخص بكل عناصره وبكل خصائصه في تلك النطفة ، كما يعاد من جديد في الجنين وكفي يتجدد وجوده عن طريق ذلك التلخيص العجيب .

ومن النطفة إلى العلقة . حينما تمتزج خلية الذكر ببويضة الأنثى ، وتعلق هذه بجدار الرحم نقطة صغيرة في أول الأمر ، تتغذى بدم الأم ..

ومن العلقة إلى المضغة ، حينما تكبر تلك النقطة العالقة ، وتتحول إلى قطعة من دم غليظ مختلط .. وتمضي هذه الخليقة في ذلك الخط الثابت الذي لا ينحرف ولا يتحول ، ولا تتوانى حركته المنظمة الرتيبة .

(١) تراجع كتاب : « الإنسان بين المادية والإسلام » لمحمد قطب . « دار الشروق »

وبتلك القوة الكامنة في الخلية المستمدة من الناموس الماضي في طريقه بين التدبير والتقدير .. حتى تجيء مرحلة العظام .. « فخلقنا المضغة عظماً » فرحلة كسوة العظام باللحم : « فكسونا العظام لحماً » .. وهنا يقف الإنسان مدهوشاً أمام ما كشف عنه القرآن من حقيقة في تكوين الجنين لم تعرف على وجه الدقة إلا أخيراً بعد تقدم علم الأجنة التشريحي . ذلك أن خلايا العظام غير خلايا اللحم . وقد ثبت أن خلايا العظام هي التي تتكون أولاً في الجنين . ولا تشاهد خلية واحدة من خلايا اللحم إلا بعد ظهور خلايا العظام ، وتمام الهيكل العظمي للجنين . وهي الحقيقة التي يسجلها النص القرآني : « فخلقنا المضغة عظماً ، فكسونا العظام لحماً » .. فسبحان العليم الخبير !

« ثم أنشأناه خلقاً آخر » .. هذا هو الإنسان ذو الخصائص المتميزة . فجنين الإنسان يشبه جنين الحيوان في أطواره الجسدية . ولكن جنين الإنسان ينشأ خلقاً آخر ، ويتحول إلى تلك الخليفة المتميزة ، المستعدة للارتقاء . ويبقى جنين الحيوان في مرتبة الحيوان ، مجرداً من خصائص الارتقاء والكمال ، التي يمتاز بها جنين الإنسان .

إن الجنين الإنساني مزود بخصائص معينة هي التي تسلك به طريقه الإنساني فيما بعد . وهو ينشأ « خلقاً آخر » في آخر أطواره الجنينية ؛ بينما يقف الجنين الحيواني عند التطور الحيواني لأنه غير مزود بتلك الخصائص . ومن ثم فإنه لا يمكن أن يتجاوز الحيوان مرتبته الحيوانية ، فيتطور إلى مرتبة الإنسان تطوراً آلياً - كما تقول النظريات المادية - فهما نوعان مختلفان . اختلفا بتلك النفخة الإلهية التي بها صارت سلالة الطين إنساناً . واختلفا بعد ذلك بتلك الخصائص المعينة الناشئة من تلك النفخة والتي ينشأ بها الجنين الإنساني « خلقاً آخر » . إنما الإنسان والحيوان يتشابهان في التكوين الحيواني ؛ ثم يبقى الحيوان حيواناً في مكانه لا يتعداه . ويتحول الإنسان خلقاً آخر قابلاً لما هو مهياً له من الكمال . بواسطة خصائص مميزة . وهبها له الله عن تدبير مقصود لا عن طريق تطور آلي من نوع الحيوان إلى نوع الإنسان¹ .

« فتبارك الله أحسن الخالقين » .. وليس هناك من يخلق سوى الله . فأحسن هنا ليست للتفضيل ، إنما هي للحسن المطلق في خلق الله .

« فتبارك الله أحسن الخالقين » .. الذي أودع فطرة الإنسان تلك القدرة على السير في هذه الأطوار ، وفق السنة التي لا تتبدل ولا تنحرف ولا تتخلف ، حتى تبلغ بالإنسان ما هو مقدر له من مراتب الكمال الإنساني ، على أدق ما يكون النظام !

وإن الناس ليقفون دهشين أمام ما يسمونه « معجزات العلم » حين يصنع الإنسان جهازاً يتبع طريقاً خاصاً في تحركه ، دون تدخل مباشر من الإنسان .. فأين هذا من سير الجنين في مراحل تلك وأطواره وتحولاته ،

(1) تقوم نظرية الشوء والارتقاء على أساس مناقض . إذ تفترض أن الإنسان ليس إلا طوراً من أطوار الترقى الحيوانية . وتفترض أن الحيوان يحمل خصائص التطور إلى مرتبة الإنسان . والواقع المشهود يكذب هذا الفرض لتفسير الصلة بين الحيوان والإنسان . ويقرر أن الحيوان لا يحمل هذه الخصائص . فيقف دائماً عند حدود جنسه الحيواني لا يتعداه . وقد ثبت تطوره الحيواني على نحو ما يقول دارون أو على أي نحو آخر . ولكن يبقى النوع الإنساني متميزاً بأنه يحمل خصائص معينة تجعل منه إنساناً ليست نتيجة تطور آلي . إنما هي هبة مقصودة من قوة خارجية .

وبين كل مرحلة ومرحلة فوارق هائلة في طبيعتها . وتحولات كاملة في ماهيتها ؟ غير أن البشر يمرون على هذه الخوارق مغمضي العيون ، مغلقي القلوب . لأن طول الألفة أنساهم أمرها الخارق العجيب .. وإن مجرد التفكير في أن الإنسان - هذا الكائن المعقد - كله ملخص وكامن بجميع خصائصه وسماته وشيائه في تلك النقطة الصغيرة التي لا تراها العين المجردة ؛ وإن تلك الخصائص والسمات والشيئات كلها تنمو وتفتح وتتحرك في مراحل التطور الجنينية حتى تبرز واضحة عندما ينشأ خلقاً آخر . فإذا هي ناطقة بارزة في الطفل مرة أخرى . وإذا كل طفل يحمل وراثاته الخاصة فوق الوراثة البشرية العامة . هذه الوراثة وتلك التي كانت كامنة في تلك النقطة الصغيرة .. إن مجرد التفكير في هذه الحقيقة التي تتكرر كل لحظة لكاف وحده أن يفتح مغاليق القلوب على ذلك التدبير العجيب الغريب ...

ثم يتابع السياق خطاه لاستكمال مراحل الرحلة ، وأطوار النشأة . فالحياة الإنسانية التي نشأت من الأرض لا تنتهي في الأرض ، لأن عنصراً غير أرضي قد امتزج بها ، وتدخل في خط سيرها ؛ ولأن تلك النفخة العلوية قد جعلت لها غاية غير غاية الجسد الحيواني ، ونهاية غير نهاية اللحم والدم القريبة ؛ وجعلت كماها الحقيقي لا يتم في هذه الأرض ، ولا في هذه الحياة الدنيا ؛ إنما يتم هنالك في مرحلة جديدة وفي الحياة الأخرى : « ثم إنكم بعد ذلك لميتون . ثم إنكم يوم القيامة تبعثون » ..

فهو الموت نهاية الحياة الأرضية ، وبرزخ ما بين الدنيا والآخرة . وهو إذن طور من أطوار النشأة الإنسانية وليس نهاية الأطوار .

ثم هو البعث المؤذن بالطور الأخير من أطوار تلك النشأة . وبعده تبدأ الحياة الكاملة ، المبرأة من النقائص الأرضية ، ومن ضرورات اللحم والدم ، ومن الخوف والقلق ، ومن التحول والتطور لأنها نهاية الكمال المقدر لهذا الإنسان . ذلك لمن يسلك طريق الكمال . الطريق الذي رسمه المقطع الأول في السورة . طريق المؤمنين فأما من ارتكس في مرحلة الحياة الدنيا إلى درك الحيوان ، فهو صائر في الحياة الأخرى إلى غاية الارتكاس . حيث تهدر آدميته ، ويستحيل حصباً من حصب جهنم ، وقوداً للنار ، التي وقودها الناس والحجارة . والناس من هذا الصنف هو والحجارة سواء !

* * *

ومن دلائل الإيمان في الأنفس ينتقل إلى دلائل الإيمان في الآفاق . مما يشهده الناس ويعرفونه ، ثم يمرون عليه غافلين :

« ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق ، وما كنا عن الخلق غافلين . وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الأرض ؛ وإنا على ذهاب به لقادرون . فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب ، لكم فيها فواكه كثيرة ، ومنها تأكلون . وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين . وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونها ، ولكم فيها منافع كثيرة ، ومنها تأكلون . وعليها وعلى الفلك تحملون » ..

إن السياق يمضي في استعراض هذه الدلائل ، وهو يربط بينها جميعاً . يربط بينها بوصفها من دلائل القدرة ؛ ويربط بينها كذلك بوصفها من لائل التدبير ؛ فهي متناسقة في تكوينها ، متناسقة في وظائفها ، متناسقة في اتجاهها . كلها محكومة بناموس واحد ؛ وكلها تتعاون في وظائفها ؛ وكلها محسوب فيها لهذا الإنسان الذي كرمه الله حساب .

ومن ثم يربط بين هذه المشاهد الكونية وبين أطوار النشأة الإنسانية في سياق السورة .

* * *

« ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين » ..

والطرائق هي الطبقات بعضها فوق بعض . أو وراء بعض . وقد يكون المقصود هنا سبع مدارات فلكية . أو سبع مجموعات نجمية كالمجموعة الشمسية . أو سبع كتل سديمية . والسدم - كما يقول الفلكيون - هي التي تكون منها المجموعات النجمية .. وعلى أية حال فهي سبع خلائق فلكية فوق البشر - أي إن مستواها أعلى من مستوى الأرض في هذا الفضاء - خلقها الله بتدبير وحكمة ، وحفظها بناموس ملحوظ : « وما كنا عن الخلق غافلين » ..

« وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكنناه في الأرض ؛ وإنا على ذهاب به لقادرون » ..

وهنا تتصل تلك الطرائق السبع بالأرض . فالماء نازل من السماء ؛ وله علاقة بتلك الأفلاك . فتكوين الكون على نظامه هذا ، هو الذي يسمح بنزول الماء من السماء ، ويسمح كذلك بإسكانه في الأرض . ونظرية أن المياه الجوفية ناشئة من المياه السطحية الآتية من المطر ؛ وأنها تتسرب إلى باطن الأرض فتحفظ هناك .. نظرية حديثة . فقد كان المظنون إلى وقت قريب أنه لا علاقة بين المياه الجوفية والمياه السطحية . ولكن ها هو ذا القرآن الكريم يقرر هذه الحقيقة قبل ألف وثلاث مائة عام .

« وأنزلنا من السماء ماء بقدر » .. بحكمة وتدبير ، لا أكثر فيغرق ويفسد ؛ ولا أقل فيكون الجذب والمحل ؛ ولا في غير أوانه فيذهب ببداءً بلا فائدة ..

« فأسكنناه في الأرض » .. وما أشبهه وهو مستكن في الأرض بماء النطفة وهو مستقر في الرحم .

« في قرار مكين » .. كلاهما مستقر هنالك بتدبير الله لتنشأ عنه الحياة .. وهذا من تنسيق المشاهد على طريقة القرآن في التصوير ..

« وإنا على ذهاب به لقادرون » .. فيغور في طبقات الأرض البعيدة بكسر أو شق في الطبقات الصخرية التي استقر عليها فحفظته . أو بغير هذا من الأسباب . فالذي أمسكه بقدرته قادر على تبديده وإضاعته . إنما هو فضل الله على الناس ونعمته .

ومن الماء تنشأ الحياة :

« فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب ، لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون » ..

والنخيل والأعناب نموذجان من الحياة التي تنشأ بالماء في عالم النبات - كما ينشأ الناس من ماء النطفة في عالم الإنسان - نموذجان قريبان لتصور المخاطبين إذ ذاك بالقرآن ، يشيران إلى نظائرهما الكثيرة التي تحيا بالماء . ويخصص من الأنواع الأخرى شجرة الزيتون :

« وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصيغ^١ للآكلين » ..

وهي من أكثر الشجر فائدة بزيتها وطعامها وخشبها . وأقرب منابتها من بلاد العرب طور سيناء . عند الوادي المقدس المذكور في القرآن . لهذا ذكر هذا المنبت على وجه خاص . وهي تنبت هناك من الماء الذي

(١) الصيغ : الإدغام لأنه بصيغ اللقمة

أسكن في الأرض وعليه تعيش .

ويعرج من عالم النبات إلى عالم الحيوان :

« وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونها ، ولكم فيها منافع كثيرة ، ومنها تأكلون وعليها وعلى الفلك تحملون » ..

فهذه المخلوقات المسخرة للإنسان بقدرة الله وتديره ، وتوزيعه للوظائف والخصائص في هذا الكون الكبير .. فيها عبرة لمن ينظر إليها بالقلب المفتوح والحس البصير ؛ ويتدبر ما وراءها من حكمة ومن تقدير ؛ ويرى أن اللبن السائغ اللطيف الذي يشربه الناس منها خارج من بطونها ؛ فهو مستخلص من الغذاء الذي تهضمه وتمثله ؛ فتحوله غدده اللبن إلى هذا السائل السائغ اللطيف .

« ولكم فيها منافع كثيرة » .. يحملها أولاً ، ثم يخصص منها منفعتين : « ومنها تأكلون . وعليها وعلى الفلك تحملون » .. وقد أحل للإنسان أكل الأنعام ، وهي الإبل والبقر والضأن والمعز ولم يحل له تعذيبها ولا التمثيل بها ، لأن الأكل يحقق فائدة ضرورية في نظام الحياة . فأما التعذيب والتمثيل فهما من قسوة القلب ، وفساد الفطرة . وليس وراءها فائدة للأحياء .

ويربط السياق بين حمل الإنسان على الأنعام وحمله على الفلك . بوصفهما مسخرين بنظام الله الكوني ، الذي ينظم وظائف الخلائق جميعاً ، كما ينسق بين وجودها جميعاً . فهذا التكوين الخاص للماء ، والتكوين الخاص للسفن ، والتكوين الخاص لطبيعة الهواء فوق الماء والسفن .. هو الذي يسمح للفلك أن تطفو فوق سطح الماء . ولو اختل تركيب واحد من الثلاثة أو اختلف أدنى اختلاف ما أمكن أن تتم الملاحظة التي عرفها البشرية قديماً ، وما تزال تعتمد عليها جل الاعتماد .

وكل هذا من دلائل الإيمان الكونية ، لمن يتدبرها تدبر الفهم والإدراك . وكلها ذات صلة بالمقطع الأول في السورة والمقطع الثاني ، متناسقة معهما في السياق ..

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾
 فَقَالَ الْمَلَأُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ
 مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولِينَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَبَصَوْنَا بِهِ ۗ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ
 أَنْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَّوَحَيْنَا إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا
 مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ ۗ وَلَا تُخَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٧﴾
 فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّيْنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُلْ رَبِّ أُنزِلْنِي
 مِنْزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٥﴾

ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٣٦﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِيقَاعِ الْآخِرَةِ وَاتْرَفْتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٨﴾ وَلَئِن أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ ﴿٣٩﴾ أَيْعِدُكُمْ أَنُكِرُوا إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا إِنَّكُمْ تُعْرَجُونَ ﴿٤٠﴾ * هِيَاتَ هِيَاتَ لِمَا تُوْعَدُونَ ﴿٤١﴾ إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٤٢﴾ إِن هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ ﴿٤٤﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لِّيُصْبِحَنَّ نَدِمِينَ ﴿٤٥﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٦﴾

ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرُونًا آخَرِينَ ﴿٤٦﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَعْجِرُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولَنَا تَرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولَهَا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٨﴾

ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطٰنٍ مُّبينٍ ﴿٤٩﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عٰلِينَ ﴿٥٠﴾ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عٰبِدُونَ ﴿٥١﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٤﴾

يَتَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوَامِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صٰلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّ هٰذِهِ أُمَّةٌ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونَ ﴿٥٦﴾

ينتقل في هذا الدرس من دلائل الإيمان في الأنفس والآفاق ، إلى حقيقة الإيمان التي جاء بها الرسل جميعاً ، وبين كيف كان استقبال الناس لهذه الحقيقة الواحدة التي لا تبدل على مدار الزمان ، وتعدد الرسالات ،

وتتابع الرسل ، من لدن نوح - عليه السلام - فإذا نحن نشهد موكب الرسل ، أو أمة الرسل ، وهم يلقون إلى البشرية بالكلمة الواحدة ، ذات المدلول الواحد ، والاتجاه الواحد ، حتى ليوحد ترجمتها في العربية - وقد قيلت بشتى اللغات التي أرسل بها الرسل إلى أقوامهم - فإذا الكلمة التي قالها نوح - عليه السلام - هي ذاتها بنصها يقولها كل من جاء بعده من المرسلين ، فتجيب البشرية جواباً واحداً ، تكاد ألفاظه تتحد على مر القرون !

* * *

« ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه ، فقال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره . أفلا تتقون ؟ فقال الملأ الذين كفروا من قومه : ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ، ولو شاء الله لأنزل ملائكة ، ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين . إن هو إلا رجل به جنة ، فتربصوا به حتى حين » ..

« يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره » .. كلمة الحق التي لا تتبدل ، يقوم عليها الوجود ، ويشهد بها كل ما في الوجود « أفلا تتقون ؟ » وتحافون عاقبة الإنكار للحقيقة الأولى التي تقوم عليها الحقائق جميعاً ؟ وتستشعرون ما في إنكارها من تجن على الحق الباهر ، وما يعقب التجني من استحقاق للعذاب الأليم ؟

ولكن كبراء قومه من الكفار لا يناقشون هذه الكلمة ؛ ولا يتدبرون شواهداها ، ولا يستطيعون التخلص من النظرة الضيقة المتعلقة بأشخاصهم وبشخص الرجل الذي يدعوهم ، ولا يرتفعون إلى الأفق الطليق الذي ينظرون منه إلى تلك الحقيقة الضخمة مجردة عن الأشخاص والذوات .. فإذا هم يتركون الحقيقة الكبرى التي يقوم عليها الوجود ، ويشهد بها كل ما في الوجود ، ليتحدثوا عن شخص نوح :

« فقال الملأ الذين كفروا من قومه : ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم » !

من هذه الزاوية الضيقة الصغيرة نظر القوم إلى تلك الدعوة الكبيرة ، فما كانوا إذن ليدركوا طبيعتها ولا ليروا حقيقتها ؛ وذواتهم الصغيرة الضئيلة تحجب عنهم جوهرها ، وتعمي عليهم عنصرها ، وتقف حائلاً بين قلوبهم وبينها ؛ فإذا القضية كلها في نظرهم قضية رجل منهم لا يفترق في شيء عنهم ، يريد أن يتفضل عليهم ، وأن يجعل لنفسه منزلة فوق منزلتهم !

وهم في اندفاعهم الصغير لرد نوح عن المنزلة التي يتوهمون أنه يعمل لها ، ويتوسل إليها بدعوى الرسالة .. في اندفاعهم هذا الصغير لا يردون فضل نوح وحده ، بل يردون فضل الإنسانية التي هم منها ؛ ويرفضون تكريم الله لهذا الجنس ؛ ويستكثرون أن يرسل الله رسولاً من البشر ، إن يكن لا بد مرسلأ :

« ولو شاء الله لأنزل ملائكة » ..

ذلك أنهم لا يجدون في أرواحهم تلك النفحة العلوية التي تصل البشر بالملأ الأعلى ؛ وتجعل المختارين من البشرية يتلقون ذلك الفيض العلوي ويطبقونه ، ويحملونه إلى إخوانهم من البشر ، فيهدونهم إلى مصدره الوضيء .

وهم يحيلون الأمر إلى السوابق المألوفة لا إلى العقل المتدبر :

« ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين » ..

ومثل هذا يقع دائماً عندما يطمس التقليد على حركة الفكر وحرية القلب . فلا يتدبر الناس ما هو بين أيديهم من القضايا ، ليهتدوا على ضوء الواقع إلى حكم مباشر عليها . إنما هم يبحثون في ركام الماضي عن « سابقة » يستندون إليها ؛ فإن لم يجدوا هذه السابقة رفضوا القضية وطرحوها !

وعند هذه الجماعات الجاحدة الخادمة أن ما كان مرة يمكن أن يكون ثانية . فأما الذي لم يكن فإنه لا يمكن أن يكون ! وهكذا تجمد الحياة ، وتقف حركتها ، وتسمر خطاها ، عند جبل معين من « آباءنا الأولين » !
ويا ليتهم يدركون أنهم جامدون متحجرون ، إنما هم يهتمون دعاء التحرر والانطلاق بالجنون . وهم يدعونهم إلى التدبر والتفكر ، والتخلى بين قلوبهم ودلائل الإيمان الناطقة في الوجود . فإذا هم يتلقون هذه الدعوة بالتبجح والاهتمام :

« إن هو إلا رجل به جنة ، فترى صوابه حتى حين » ..

أي إلى أن يأخذ الموت ، ويريحكم منه ، ومن دعوته ، ومن إلحاحه عليكم بالقول الجديد !
عندئذ لم يجد نوح - عليه السلام - منفذاً إلى تلك القلوب الجامدة المتحجرة ؛ ولم يجد له موطئاً من السخرية والأذى ، إلا أن يتوجه إلى ربه وحده ، يشكو إليه ما لقيه من تكذيب ويطلب منه النصر بسبب هذا التكذيب :
« قال : رب انصرني بما كذبون » ..

وعندما يتجمد الأحياء على هذا النحو ، وتهم الحياة بالحركة إلى الأمام ، في طريق الكمال المرسوم ، فتجدهم عقبة في الطريق .. عندئذ إما إن تنحطم هذه المتحجرات ؛ وإما أن تدعها الحياة في مكانها وتمضي ..
والأمر الأول هو الذي حدث لقوم نوح . ذلك أنهم كانوا في فجر البشرية وفي أول الطريق ؛ فشاءت إرادة الله أن تطيح بهم من الطريق :

« فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا ، فإذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين ، وأهلك - إلا من سبق عليه القول منهم - ولا تخاطبني في الذين ظلموا . إنهم مغرقون » ..
وهكذا مضت سنة الله في تطهير الطريق من العقبات المتحجرة لتمضي الحياة في طريقها المرسوم . ولما كانت البشرية قد أسنت على عهد نوح ، وجمدت كالشجرة الناشئة تعوقها الآفة عن النمو فتبيس وتعجز وهي رقيقة العود .. كان العلاج هو الطوفان ، الذي يجتُب كل شيء ، ويجرف كل شيء . ويغسل التربة ، لتعاد بذرة الحياة السليمة من جديد ، فتنشأ على نظافة ، فتمتد وتكبر حتى حين :

« فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا » .. والفلك وسيلة للنجاة من الطوفان ، ولحفظ بذور الحياة السليمة كما يعاد بذرها من جديد . وقد شاء الله أن يصنع نوح الفلك بيده ، لأنه لا بد للإنسان من الأخذ بالأسباب والوسائل ، وبذل آخر ما في طوقه ، ليستحق المدد من ربه . فالمدد لا يأتي للقاعدين المستريحين ، الذين ينتظرون ولا يزيدون شيئاً على الانتظار ! ونوح قدر الله له أن يكون أبا البشر الثاني ؛ فدفع به إلى الأخذ بالأسباب ؛ مع رعاية الله له ، وتعليمه صناعة الفلك ، ليتم أمر الله ، وتحقق مشيئته عن هذا الطريق .

وجعل الله له علامة للبدء بعملية التطهير الشاملة لوجه الأرض المؤوف : « فإذا جاء أمرنا وفار التنور »¹ ، وانجس منه الماء ، ففلك هي العلامة ليسارع نوح ، فيحمل في السفينة بذور الحياة : « فاسلك فيها من كل زوجين اثنين » .. من أنواع الحيوان والطيور والنبات المعروفة لنوح في ذلك الزمان ، الميسرة كذلك لبني

(1) التنور : الموقد أو الفرن .

الإنسان « وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم » وهم الذين كفروا وكذبوا ، فاستحقوا كلمة الله السابقة ، وستته النافذة ، وهي الهلاك للمكذبين بآيات الله .

وصدر الأمر الأخير لنوح ألا يجادل في أمر أحد ، ولا يحاول إنقاذ أحد - ولو كان أقرب الأقربين إليه - ممن سبق عليهم القول .

« ولا مخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون » .

فسنة الله لا تحابي ، ولا تنحرف عن طريقها الواحد المستقيم ، من أجل خاطر ولي ولا قريب ! ولا يفصل هنا ما حدث للقوم بعد هذا الأمر . فقد قضي الأمر ، وتقرر : « إنهم مغرقون » ولكنه يمضي في تعليم نوح - عليه السلام - كيف يشكر نعمة ربه ، وكيف يحمد فضله ، وكيف يستهديه طريقه : « فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك ، فقل : الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين . وقل : رب أنزلني منزلاً مباركاً ، وأنت خير المنزلين » ..

فهكذا يحمد الله ، وهكذا يتوجه إليه ، وهكذا يوصف - سبحانه - بصفاته ، ويعترف له بآياته . وهكذا يتأدب في حق العباد ، وفي طليعتهم النبيون ، ليكونوا أسوة للآخرين .

ثم يعقب على القصة كلها ، وما تتضمنه خطواتها من دلائل القدرة والحكمة : « إن في ذلك لآيات ، وإن كنا لمبتلين » ..

والابتلاء ألوان . ابتلاء للصبر . وابتلاء للشكر . وابتلاء للأجر . وابتلاء للتوجيه . وابتلاء للتأديب . وابتلاء للتمحيص . وابتلاء للتقويم .. وفي قصة نوح ألوان من الابتلاء له ولقومه ولأبنائه القادمين ..

* * *

ويعضي السياق يعرض مشهداً آخر من مشاهد الرسالة الواحدة والتكذيب المكرور :

« ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين . فأرسلنا فيهم رسولاً منهم أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره . أفلا تتقون ؟ وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بقاء الآخرة ، وأترفاهم في الحياة الدنيا : ما هذا إلا بشر مثلكم ، يأكل مما تأكلون منه ، ويشرب مما تشربون . ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إنكم لإخاسرون . أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون ؟ هيهات هيهات لما توعدون ! إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ، وما نحن بمبعوثين . إن هو إلا رجل اقرى على الله كذباً ، وما نحن له بمؤمنين . قال : رب انصرني بما كذبون . قال : عما قليل ليصبحن نادمين . فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء . فبعداً للقوم الظالمين » ..

إن استعراض قصص الرسل في هذه السورة ليس للتقصي والتفصيل ؛ إنما هو لتقرير الكلمة الواحدة التي جاء بها الجميع ، والاستقبال الواحد الذي لقوه من الجميع . ومن ثم بدأ بذكر نوح - عليه السلام - ليحدد نقطة البدء ؛ وانتهى بموسى وعيسى ليحدد النقطة الأخيرة قبل الرسالة الأخيرة . ولم يذكر الأسماء في وسط السلسلة الطويلة ، كي يدل على تشابه حلقاتها بين البدء والنهاية . إنما ذكر الكلمة الواحدة في كل حلقة والاستقبال الواحد ، لأن هذا هو المقصود .

« ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين » .. لم يحدد من هم . وهم على الأرجح عاد قوم هود . .

« فأرسلنا فيهم رسولاً منهم أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره . أفلا تتقون ؟ » .. ذات الكلمة الواحدة

التي قالها من قبله نوح . يحكيها بالألفاظ ذاتها ، مع اختلاف اللغات التي كانت تتخاطب بها القرون !
فماذا كان الجواب ؟

إنه الجواب ذاته على وجه التقريب :

« وقال الملائكة من قومه الذين كفروا وكذبوا بقاء الآخرة ، وأترفناهم في الحياة الدنيا : ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون . ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذن لخاسرون .. »
فلا اعتراض المكرور هو الاعتراض على بشرية الرسول . وهو الاعتراض الناشئ من انقطاع الصلة بين قلوب هؤلاء الكبراء المترفين ، وبين الفحة العلوية التي تصل الإنسان بمخالقه الكريم .

والترف يفسد الفطرة ، ويغلظ المشاعر ، ويسد المنافذ ، ويفقد القلوب تلك الحساسية المرهفة التي تتلقى وتأثر وتستجيب . ومن هنا يحارب الإسلام الترف ؛ ويقم نظمته الاجتماعية على أساس لا يسمح للمترفين بالوجود في الجماعة المسلمة ، لأنهم كالعفن يفسد ما حوله ، حتى لينخر فيه السوس ، ويسبح فيه الدود ! ثم يزيد المترفون هنا إنكار البعث بعد الموت والبلى ؛ ويعجبون من هذا الرسول الذي ينبئهم بهذا الأمر الغريب .

« أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون ؟ هيهات هيهات لما توعدون : إن هي إلا حياتنا الدنيا ، نموت ونحيا ، وما نحن بمبعوثين .. »

ومثل هؤلاء لا يمكن أن يدركوا حكمة الحياة الكبرى ؛ ودقة التدبير في أطوارها للوصول بها إلى غايتها البعيدة . هذه الغاية التي لا تتحقق بكما لها في هذه الأرض . فالخير لا يلقي جزاءه الكامل في الحياة الدنيا . والشر كذلك . إنما يستكملان هذا الجزاء هنالك ، حيث يصل المؤمنون الصالحون إلى قمة الحياة المثلى ، التي لا خوف فيها ولا نصب ، ولا تحول فيها ولا زوال - إلا أن يشاء الله - ويصل المرتكسون المنتكسون إلى درك الحياة السفلية التي تهدر فيها آدميتهم ، ويرتدون فيها أحجاراً ، أو كالأحجار !

مثل هؤلاء لا يدركون هذه المعاني ؛ ولا يستدلون من أطوار الحياة الأولى - التي سبقت في السورة - على أطوارها الأخيرة ؛ ولا يتبهون إلى أن القوة المدبرة لتلك الأطوار لا تقف بالحياة عند مرحلة الموت والبلى كما يظنون .. لذلك هم يستعجبون ويعجبون من ذلك الذي يعدهم أنهم مخرجون ؛ ويستبعدون في جهالة أن ذلك يكون ؛ ويجزمون في تبجح بأن ليس هنالك إلا حياة واحدة وموت واحد . يموت جيل ويحيا بعده جيل . فأما الذين ماتوا ، وصاروا تراباً وعظاماً ، فهيهات هيهات الحياة لهم ، كما يقول ذلك الرجل الغريب ! وهيهات هيهات البعث الذي يعدهم به ، وقد صاروا عظاماً ورفاتاً !

ثم إنهم لا يقفون عند هذه الجهالة ، والغفلة عن تدبر حكمة الحياة التي تكشف عنها أطوارها الأولى .. لا يقفون عند هذه الجهالة ، إنما هم يتهمون رسولهم بالافتراء على الله . ولا يعرفون الله إلا في هذه اللحظة ، ولهذا الغرض من اتهام الرسول :

« إن هو إلا رجل افترى على الله كذباً ، وما نحن له بمؤمنين .. »

عندئذ لم يجد الرسول إلا أن يستنصر ربه كما استنصره من قبله نوح . وبالعبارة ذاتها التي توجه بها إلى ربه نوح :

« قال : رب انصرني بما كذبون .. »

وعندئذ وقعت الاستجابة ، بعد أن استوفى القوم أجلهم ؛ ولم يعد فيهم خير يرجى بعد العناد والغفلة والتكذيب :

« قال : عما قليل ليصبحن نادمين .. »

ولكن حيث لا ينفع الندم ، ولا يجدي المتاب :

« فأخذتهم الصيحة بالحق ، فجعلناهم غثاء .. »

والغثاء ما يجرفه السيل من حشائش وأعشاب وأشياء مبعثرة ، لا خير فيها ، ولا قيمة لها ، ولا رابط بينها .. وهؤلاء لما تخلوا عن الخصائص التي كرمهم الله بها ، وغفلوا عن حكمة وجودهم في الحياة الدنيا ، وقطعوا ما بينهم وبين الملأ الأعلى .. لم يبق فيهم ما يستحق التكريم ؛ فإذا هم غثاء كغثاء السيل ، ملقى بلا احتفال ولا اهتمام وذلك من فرائد التعبير القرآني الدقيق .

ويزيدهم على هذه المهانة ، الطرد من رحمة الله ، والبعد عن اهتمام الناس :

« فبعداً للقوم الظالمين .. »

بعداً في الحياة وفي الذكرى . في عالم الواقع وفي عالم الضمير ..

* * *

ويمضي السياق بعد ذلك في استعراض القرون :

« ثم أنشأنا من بعدهم قروناً آخرين . ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون . ثم أرسلنا رسلنا تترى . كلما جاء أمة رسولها كذوبه . فأتبعنا بعضهم بعضاً ، وجعلناهم أحاديث . فبعداً لقوم لا يؤمنون .. »

هكذا في إجمال ، يلخص تاريخ الدعوة ، ويقرر سنة الله الجارية ، في الأمد الطويل بين نوح وهود في أول السلسلة ، وموسى وعيسى في أواخرها .. كل قرن يستوفي أجله ويمضي : « ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون » . وكلهم يكذبون : « كلما جاء أمة رسولها كذوبه » . وكلما كذب المكذبون أخذتهم سنة الله : « فأتبعنا بعضهم بعضاً » . وبقيت العبرة ماثلة في مصارعهم لمن يعتبرون : « وجعلناهم أحاديث » تنقلها القرون .

ويحتم هذا الاستعراض الخاطف المجلل باللعنة والطرود والاستبعاد من العيون والقلوب : « فبعداً لقوم لا يؤمنون » .

* * *

ثم يجمل قصة موسى في الرسالة والتكذيب لتتمشى مع نسق العرض وهدفه المقصود :

« ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين ، إلى فرعون وملئه فاستكبروا وكانوا قوماً عالين . فقالوا : أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون ؟ فكذبوهما فكانوا من المهلكين » .

ويبرز في هذا الاستعراض الاعتراض ذاته على بشرية الرسل : « فقالوا : أنؤمن لبشرين مثلنا » . ويزيد عليه تلك الملاسة الخاصة بوضع بني اسرائيل في مصر : « وقومهما لنا عابدون » مسخرون خاضعون . وهي أدعى - في اعتبار فرعون وملئه - إلى الاستهانة بموسى وهارون !

فأما آيات الله التي معها ، وسلطانه الذي بأيديهما ، فكل هذا لا إيقاع له في مثل تلك القلوب المطموسة ،

المستغرقة في ملابسات هذه الأرض ، وأوضاعها الباطلة ، وقيمها الرخيصة .

* * *

وإشارة مجملة إلى عيسى ابن مريم وأمه . والآية البارزة في خلقه . وهي كآيات موسى كذب بها المكذبون . « ولقد آتينا موسى الكتاب لعلمهم يهتدون . وجعلنا ابن مريم وأمه آية ، وآويناها إلى ربوة ذات قرار ومعين » .. وتختلف الروايات في تحديد الربوة المشار إليها في هذا النص .. أين هي ؟ أكانت في مصر ، أم في دمشق ، أم في بيت المقدس .. وهي الأماكن التي ذهبت إليها مريم بابنها في طفولته وصباه - كما تذكر كتبهم - وليس المهم تحديد موضعها ، إنما المقصود هو الإشارة إلى إيواء الله لهما في مكان طيب ، ينضرفيه النبت ، ويسيل فيه الماء ، ويجدان فيه الرعاية والإيواء .

* * *

وعندما يصل إلى هذه الحلقة من سلسلة الرسائل ، يتوجه بالخطاب إلى أمة الرسل ؛ وكأنما هم متجمعون في صعيد واحد ، في وقت واحد ، فهذه الفوارق الزمانية والمكانية لا اعتبار لها أمام وحدة الحقيقة التي تربط بينهم جميعاً :

« يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً . إني بما تعملون عليم . وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » ..

إنه نداء للرسل ليارسوا طبيعتهم البشرية التي ينكرها عليهم الغافلون : « كلوا من الطيبات » .. فالأكل من مقتضيات البشرية عامة ، أما الأكل من الطيبات خاصة فهو الذي يرفع هذه البشرية ويزكيها ويصلها بالملأ الأعلى .

ونداء لهم ليصلحوا في هذه الأرض : « واعملوا صالحاً » .. فالعمل هو من مقتضيات البشرية كذلك . أما العمل الصالح فهو الذي يميز الصالحين المختارين ؛ فيجعل لعملهم ضابطاً وهدفاً ، وغاية موصولة بالملأ الأعلى .

وليس المطلوب من الرسول أن يتجرد من بشريته . إنما المطلوب أن يرتقي بهذه البشرية فيه إلى ألقها الكريم الوضيء ، الذي أراده الله لها ، وجعل الأنبياء رواداً لهذا الأفق ومثلاً أعلى . والله هو الذي يقدر عملهم بعد ذلك بميزانه الدقيق : « إني بما تعملون عليم » .

وتتلاشى آحاد الزمان ، وأبعاد المكان ، أمام وحدة الحقيقة التي جاء بها الرسل . ووحدة الطبيعة التي تميزهم . ووحدة الخالق الذي أرسلهم . ووحدة الاتجاه الذي يتجهونه أجمعين :

« وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » ..

فَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٦٧﴾ فَذَرَهُمْ فِي عَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٦٨﴾ أَيَحْسَبُونَ
أَنَّمَا نُمَدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنٍ ﴿٦٩﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٧٠﴾

إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشِيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِعَابَتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْأَخْبَارِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾

وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۗ وَلَدَيْنَا مَكْتُبٌ بِالنَّحْيِ بِالْحَقِّ ۗ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي عَمْرَةٍ مِنْ هَذَا وَهُمْ أَعْمَلٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمَلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْعَرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْعَرُوا الْيَوْمَ ۗ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُنْتَلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنْكِبُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ ۗ سَمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾

أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَالٌ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ ۗ جِنَّةٌ ۗ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُم لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ۗ بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرَجًا نَخْرُجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۗ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَشَكِبُونَ ﴿٧٤﴾ * وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلْجَوَّاءِ فِي طَعْنِهِمْ يَبْعَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَضُرُّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾

وَهُوَ الَّذِي أَنسَأَلُكَ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْعِدَةَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ۗ وَلَهُ اخْتَلَفُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا إِذَا مَا مِنَّا وَكُنَّا رَبَابًا ۗ وَعِظْمًا أَوْ نَا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ ۗ إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾

قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا ۗ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۗ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ

السَّيِّعَ وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٧﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٨﴾ قُلْ مَنْ يَدِينُهُ مَلَكَوَتْ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٩٠﴾
 بَلْ أَتَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩١﴾ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا أَذْهَبَ كُلَّ إِلَهٍ
 بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿٩٢﴾ عَلِيمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّى عَمَّا
 يُشْرِكُونَ ﴿٩٣﴾

قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيدُنِي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٤﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ نُزِيكَ مَا نَعِدُهُمْ
 لَقَادِرُونَ ﴿٩٦﴾ أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٧﴾ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ ﴿٩٨﴾
 وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُوا ﴿٩٩﴾

هذا الدرس الثالث في السورة يبدأ بتصوير حال الناس بعد أمة الرسل . تلك الحال التي جاء الرسول الأخير فوجدهم عليها . مختلفين متنازعين حول الحقيقة الواحدة التي جاءهم بها الرسل من قبل جميعاً .
 ويصور غفلتهم عن الحق الذي جاءهم به خاتم المرسلين - صلى الله عليه وسلم - والغمرة التي تذهلهم عن عاقبة ما هم فيه . بينا المؤمنون يعبدون الله ، ويعملون الصالحات ، وهم مع هذا خائفون من العاقبة ، وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون .. فتقابل صورة اليقظة والحذر في النفس المؤمنة ، وصورة الغمرة والغفلة في النفس الكافرة .

ثم يجول معهم جولات شتى : يستنكر موقفهم مرة ، ويستعرض شبهاتهم مرة ، ويلمس وجدانهم بدلائل الإيمان في أنفسهم وفي الآفاق مرة ، ويأخذهم بمسلماتهم فيجعلها حجة عليهم مرة .
 وينتهي بعد هذه الجولات بتركهم إلى مصيرهم المحتوم . ويتوجه بالخطاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يمضي في طريقه ، لا يغضب لعنادهم ، وأن يدفع السيئة بالحسنى ، وأن يستعبد بالله من الشياطين التي تقودهم إلى الضلال المبين .

* * *

« فقطعوا أمرهم بينهم زبراً ، كل حزب بما لديهم فرحون . فذرهم في غمرتهم حتى حين . أيحسبون
 أنما تمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات ؟ بل لا يشعرون ! »
 لقد مضى الرسل - صلوات الله عليهم - أمة واحدة ، ذات كلمة واحدة ، وعبادة واحدة ، ووجهة واحدة ؛
 فإذا الناس من بعدهم أحزاب متنازعة لا تلتقي على منهج ولا طريق .
 ويخرج التعبير القرآني المبدع هذا التنازع في صورة حسية عنيفة . لقد تنازعا الأمر حتى مزقوه بينهم مزقاً ،

وقطعوه في أيديهم قطعاً . ثم مضى كل حزب بالمرقة التي خرجت في يده . مضى فرحاً لا يفكر في شيء ، ولا يلتفت إلى شيء ! مضى وأغلق على حسه جميع المنافذ التي تأتيه منها أية نسمة طليقة ، أو يدخل إليه منها أي شعاع مضيء ! وعاش الجميع في هذه الغمرة مذهولين مشغولين بما هم فيه ، مغمورين لا تنفذ إليهم نسمة محيية ولا شعاع منير .

وحين يرسم لهم هذه الصورة يتوجه بالخطاب إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - :

« فذرهم في غمرتهم حتى حين » ..

ذرهم في هذه الغمرة غافلين مشغولين بما هم فيه ، حتى يفجأهم المصير حين يجيء موعده المحتوم . ويأخذ في التهكم عليهم والسخرية من غفلتهم ، إذ يحسبون أن الإملاء لهم بعض الوقت ، وإمدادهم بالأموال والبنين في فترة الاختبار ، مقصود به المسارعة لهم في الخيرات وإيثارهم بالنعمة والعطاء :

« أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات ؟ »

وإنما هي الفتنة ، وإنما هو الابتلاء :

« بل لا يشعرون » ..

لا يشعرون بما وراء المال والبنين من مصير قائم ومن شر مستطير !

* * *

وإلى جانب صورة الغفلة والغمرة في القلوب الضالة يبرز صورة اليقظة والحذر في القلوب المؤمنة :

« إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون . والذين هم بآيات ربهم يؤمنون . والذين هم بربهم لا يشركون . والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون . أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون » . ومن هنا يبدو أثر الإيمان في القلب ، من الحساسية والإرهاق والتحرج ، والتطلع إلى الكمال . وحساب العواقب . مهما ينهض بالواجبات والتكاليف .

فهؤلاء المؤمنون يشفقون من ربهم خشية وتقوى ؛ وهم يؤمنون بآياته ، ولا يشركون به . وهم ينهضون بتكاليفهم وواجباتهم . وهم يأتون من الطاعات ما استطاعوا .. ولكنهم بعد هذا كله : « يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون » لإحساسهم بالتقصير في جانب الله ، بعد أن بذلوا ما في طوقهم ، وهو في نظرهم قليل .

عن عائشة - رضي الله عنها - أنها قالت : يا رسول الله . « الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة » هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر ، وهو يخاف الله عز وجل ؟ قال : « لا يا بنت الصديق ! ولكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدق ، وهو يخاف الله عز وجل »¹

إن قلب المؤمن يستشعر يد الله عليه . ويحس آلاءه في كل نفس وكل نبضة .. ومن ثم يستصغر كل عباداته ، ويستقل كل طاعاته ، إلى جانب آلاء الله ونعمائه . كذلك هو يستشعر بكل ذرة فيه جلال الله وعظمته ؛ ويرقب بكل مشاعره يد الله في كل شيء من حوله .. ومن ثم يشعر بالهيبه ، ويشعر بالوجل ، ويشفق أن يلتقى الله وهو مقصر في حقه ، لم يوفه حقه عبادة وطاعة ولم يقارب أياديه عليه معرفة وشكراً .

وهؤلاء هم الذين يسارعون في الخيرات ، وهم الذين يسبقون لها فينالونها في الطليعة ، بهذه البقطة ، وبهذا التطلع ، وبهذا العمل ، وبهذه الطاعة . لا أولئك الذين يعيشون في غمرة ويحسبون لغفلتهم أنهم مقصودون بالنعمة ، مرادون بالخير ، كالصيد الغافل يستدرج إلى مصرعه بالطعم المغري . ومثل هذا الطير في الناس كثير ، يغمرهم الرخاء ، وتشغلهم النعمة ، ويطغيمهم الغنى ، ويلهيمهم الغرور ، حتى يلاقوا المصير !

* * *

تلك البقطة التي يفرضاها الإسلام على قلب المسلم . والتي يستجيشها الإيمان بمجرد استقراره في القلوب .. ليست أمراً فوق الطاقة ، وليست تكليفاً فوق الاستطاعة . إنما هي الحساسية الناشئة من الشعور بالله والاتصال به ؛ ومراقبته في السر والعلن ؛ وهي في حدود الطاقة الإنسانية ، حين يشرق فيها ذلك النور الوضيء :

« ولا نكلف نفساً إلا وسعها ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون » ..

ولقد شرع الله التكاليف وفق ما يعلم من استعداد النفوس ؛ وهو محاسبهم وفق ما يعملونه في حدود الطاقة ، لا يظلمون بتحميلهم ما لا يطيقون ؛ ولا يبخسهم شيئاً مما يعملون ، وكل ما يعملونه محسوب في سجل « ينطق بالحق » ويبرزه ظاهراً غير منقوص . والله خير الحاسبين .

إنما يغفل الغافلون لأن قلوبهم في غمرة عن الحق ، لم يمسهانوره المحيي ، لانشغالها عنه ، واندفاعها في التيه ؛ حتى تفتيق على الهول ، لتلقى العذاب الأليم ، وتلقى معه التوبيخ والتحقير :

« بل قلوبهم في غمرة من هذا ، ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون . حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون . لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون . قد كانت آياتي تتلى عليكم ، فكنتم على أعقابكم تنكصون ، مستكبرين به سامراً تهجرون » ..

فعلة اندفاعهم فيما هم فيه ليست هي تكليفهم بما هو فوق الطاقة ؛ إنما العلة أن قلوبهم في غمرة ، لا ترى الحق الذي جاء به القرآن ، وأنهم مندفعون في طريق آخر غير النهج الذي جاء به : « ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون » ..

ثم يرسم مشهد انتباههم على الكارثة الباغثة المفاجئة : « حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون » .. والمترفون أشد الناس استغراقاً في المتاع والانحراف والذهول عن المصير . وها هم أولاء يفاجأون بالعذاب الذي يأخذهم أخذاً ، فإذا هم يرفعون أصواتهم بالجوار ، مستغيثين مسترحمين (وذلك في مقابل الترف والغفلة والاستكبار والغرور) ثم ها هم أولاء يتلقون الزجر والتأنيب : « لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون » .. وإذا المشهد حاضر ، وهم يتلقون الزجر والتأنيب ، والتئيس من كل نجدة ومن كل نصير ، والتذكير بما كان منهم وهم في غمرتهم مستغرقون : « قد كانت آياتي تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون » فتراجعون على أعقابكم كأن ما يتلى عليكم خطر تحاذرونه ، أو مكروه تجانبونه ، مستكبرين عن الإذعان للحق . ثم تزيدون على هذا سوء القول وهجره في سمركم ، حيث تتناولون الرسول - صلى الله عليه وسلم - وما جاء به بكلمات السوء .

ولقد كانوا يطلقون ألسنتهم بهجر القول وفحشه في مجالسهم ؛ وهم يتحلقون حول الأصنام في سامرهم بالكعبة . فها هو ذا القرآن يرسم لهم مشهد حسابهم على ما هم فيه ؛ وهم يجأرون طالين الغوث ، فيذكرهم بسمرهم الفاحش ، وهجرهم القبيح . وكأنما هو واقع اللحظة ، وهم يشهدونه ويعيشون فيه ! وذلك على

طريقة القرآن الكريم في رسم مشاهد القيامة كأنها واقع مشهود^١.

والمشركون في تهجمهم على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعلى القرآن في نواديبهم وفي سمرهم يمتثلون الكبرياء الجاهلة ، التي لا تدرك قيمة الحق لأنها مطموسة البصيرة عمياء ، فتتخذ منه مادة للسخرية والهزاء والاتهام . ومثل هؤلاء في كل زمان . وليست جاهلية العرب إلا نموذجاً لجاهليات كثيرة خلت في الزمان ؛ وما تزال تظهر الآن بعد الآن !

* * *

وينتقل بهم من مشهد التائب في الآخرة ، فيعود بهم إلى الدنيا من جديد ! يعود بهم ليسأل ويعجب من موقفهم ذلك الغريب .. ما الذي يصددهم عن الإيمان بما جاءهم به رسولهم الأمين ؟ ما الشبهات التي تحيك في صدورهم فتصددهم عن الهدى ؟ ما حجبتهم في الإعراض عنه ، والسمر في مجالسهم بقالة السوء فيه ؟ وهو الحق الخالص والطريق المستقيم :

« أفلم يدبروا القول ؟ أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين ؟ أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون ؟ أم يقولون به جنة ؟ بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون ! ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن . بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون . أم تسألهم خراجاً ؟ فخراج ربك خير وهو خير الرازقين . وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم . وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون » ..

إن مثل ما جاء به محمد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لا يملك من يتدبره أن يظل معرضاً عنه ، ففيه من الجمال ، وفيه من الكمال ، وفيه من التناسق ، وفيه من الجاذبية ، وفيه من موافقة الفطرة ، وفيه من الإيحاءات الوجدانية ، وفيه من غذاء القلب ، وفيه من زاد الفكر ، وفيه من عظمة الاتجاهات ، وفيه من قويم المناهج ، وفيه من محكم التشريع .. وفيه من كل شيء ما يستجيش كل عناصر الفطرة ويغذيها ويلبها « أفلم يدبروا القول » إذن ؟ فهذا سر إعراضهم عنه لأنهم لم يتدبروه ..

« أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين ؟ » .. فكان بدعاً في مألوفهم ومألوف آبائهم أن يجيئهم رسول ! أو أن يجيئهم بكلمة التوحيد ! وذلك تاريخ الرسالات كلها يثبت أن الرسل جاءوا قومهم ترى ، وكلهم جاء بالكلمة الواحدة التي يدعوهم إليها هذا الرسول !

« أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون ؟ » .. ويكون هذا هو سر الإعراض والتكذيب ! ولكنهم يعرفون رسولهم حق المعرفة . يعرفون شخصه ويعرفون نسبه ، ويعرفون أكثر من أي أحد صفاته : يعرفون صدقه وأمانته حتى لقد لقبوه قبل الرسالة بالأمين !

« أم يقولون به جنة ؟ » كما كان بعض سفهائهم يقولون ؛ وهم على ثقة أنه العاقل الكامل ، الذي لا يعرفون عنه زلة في تاريخه الطويل ؟

إنه ما من شبهة من هذه الشبهات يمكن أن يكون لها أصل . إنما هي كراهية أكثرهم للحق ، لأنه يسلبهم القيم الباطلة التي بها يعيشون ، ويصددهم أهواءهم المتأصلة التي بها يعترفون :

« بل جاءهم بالحق ، وأكثرهم للحق كارهون » ..

(١) تراجع فصل التصوير الفني في كتاب : « التصوير الفني في القرآن » . « دار الشروق »

والحق لا يمكن أن يدور مع الهوى ؛ وبالحق تقوم السماوات والأرض ، وبالحق يستقيم ناموس ، وتجري السنن في هذا الكون وما فيه ومن فيه :

« ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن » ..

فالحق واحد ثابت ، والأهواء كثيرة متقلبة . وبالحق الواحد يدبر الكون كله ، فلا ينحرف ناموسه هوى عارض ، ولا تتخلف سنته لرغبة طارئة . ولو خضع الكون للأهواء العارضة ، والرغبات الطارئة لفسد كله ، ولفسد الناس معه ، ولفسدت القيم والأوضاع ، واختلت الموازين والمقاييس ؛ وتأرجحت كلها بين الغضب والرضى ، والكره والبغض ، والرغبة والرغبة ، والنشاط والخمول .. وسائر ما يعرض من الأهواء والمواجد والانفعالات والتأثرات .. وبناء الكون المادي واتجاهه إلى غايته كلاهما في حاجة إلى الثبات والاستقرار والاطراد، على قاعدة ثابتة ، ونهج مرسوم ، لا يتخلف ولا يتأرجح ولا يحدد .

ومن هذه القاعدة الكبرى في بناء الكون وتدييره ، جعل الإسلام التشريع للحياة البشرية جزءاً من الناموس الكوني ، تتولاه اليد التي تدبر الكون كله وتنسق أجزائه جميعاً . والبشر جزء من هذا الكون خاضع لناموسه الكبير ؛ فأولى أن يشرع لهذا الجزء من يشرع للكون كله ، ويدبره في تناسق عجيب . بذلك لا يخضع نظام البشر للأهواء فيفسد ويختل : « ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن » إنما يخضع للحق الكلي ، ولتدبير صاحب التدبير .

وهذه الأمة التي جاء لها الإسلام كانت أولى الأمم باتباع الحق الذي يتمثل فيه . ففوق أنه الحق هو كذلك مجد لها وذكر . وما كان لها من ذكر لولاه في العالمين :

« بل أتيناكم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون » ..

وقد ظلت أمة العرب لا ذكر لها في تاريخ العالم حتى جاءها الإسلام . وقد ظل ذكرها يدوي في آذان القرون طالما كانت به مستمسكة . وقد تضاعف ذكرها عندما تخلت عنه ، فلم تعد في العير ولا في النفير . ولن يقوم لها ذكر إلا يوم أن تفيء إلى عنوانها الكبير !..

وبعد هذا الاستطراد بمناسبة دعواهم على الحق الذي جاءهم فأعرضوا عنه واتهموه .. يعود السياق إلى استنكار موقفهم ، وإلى مناقشة الشبهات التي يمكن أن تصدهم عما جاءهم به الرسول الأمين :

« أم تسألهم خيراً ؟ » فهم يفرون مما تسألهم من أجر على الهداية والتعليم ؟ ! فإنك لا تطلب إليهم شيئاً ، فما عند ربك خير مما عندهم : « فخراج ربك خير وهو خير الرازقين » .. وماذا يطمع نبي أن ينال من البشر الضعاف الفقراء المحاويج وهو متصل بالفيض اللدني الذي لا ينضب ولا يغيض ؛ بل ماذا يطمع أتباع نبي أن ينالوا من عرض هذه الأرض وهم معلقو الأنظار والقلوب بما عند الله الذي يرزق بالكثير وبالقليل ؟ ألا إنه يوم يتصل القلب بالله يتضاءل هذا الكون كله ، بما فيه وكل من فيه !

ألا إنما تطلب هدايتهم إلى المنهج القويم : « وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم » يصلهم بالناموس الذي يحكم فطرتهم ، ويصلهم بالوجود كله ، ويقودهم في قافلة الوجود ، إلى خالق الوجود ، في استقامة لا تحيد .

ألا وإنهم – ككل من لا يؤمنون بالآخرة – حائدون عن النهج ضالون عن الطريق : « وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لنا كيون » .. فلو كانوا مهتدين لتابعوا بقلوبهم وعقولهم أطوار النشأة التي تحتم الإيمان

بالآخرة ، وبالعالم الذي يسمح ببلوغ الكمال الممكن ، وتحقيق العدل المرسوم . فليست الآخرة إلا حلقة من حلقات الناموس الشامل الذي ارتضاه الله لتدبير هذا الوجود .

* * *

هؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة ، والذين تنكبوا الطريق ، لا يفيدهم الابتلاء بالنعمة ، ولا الابتلاء بالنقمة . فإن أصابتهم النعمة حسبوا : « أما ندمهم به من مال وبنين تسارع لهم في الخيرات » وإن أصابتهم النقمة لم تلن قلوبهم ، ولم تستيقظ ضمائرهم ، ولم يرجعوا إلى الله يتضرعون له ليكشف عنهم الضر ، ويظنون كذلك حتى يأتيهم العذاب الشديد يوم القيامة فإذا هم حائرون يائسون .

« ولو رحمتناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجوا في طغيانهم يعمهون . ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون . حتى إذا فتحنا عليهم باباً إذا عذاب شديد إذا هم فيه مبلسون » ..

وهذه صفة عامة لذلك الصنف من الناس ، القاسية قلوبهم ، الغافلين عن الله ، المكذبين بالآخرة ، ومنهم المشركون الذين كانوا يواجهون رسول الله - صلى الله عليه وسلم .

والاستكانة والتضرع عند مس الضر دليل على الرجوع إلى الله ، والشعور بأنه الملجأ والملاذ . والقلب متى اتصل بالله على هذا النحو رقيق ولان ، واستيقظ وتذكر ، وكانت هذه الحساسية هي الحارس الواقعي من الغفلة والزلل ، وأفاد من المحنة وانتفع بالبلاء . فأما حين يسدر في غيبه ، ويعمه في ضلاله ، فهو ميؤوس منه لا يرجى له صلاح ، وهو متروك لعذاب الآخرة ، الذي يفاجئه ، فيسقط في يده ، ويبلس ويحتار ، ويبأس من الخلاص .

* * *

ثم يجول معهم جولة أخرى عليها توقظ وجدانهم إلى دلائل الإيمان في أنفسهم وفي الآفاق من حولهم : « وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة . قليلاً ما تشكرون . وهو الذي ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون . وهو الذي يحيي ويميت وله اختلاف الليل والنهار . أفلا تعقلون ؟ » ..

ولو تدبر الإنسان خلقه وهيبته ، وما زود به من الحواس والجوارح ، وما وهبه من الطاقات والمدارك لوجد الله ، ولاهتدى إليه بهذه الخوارق الدالة على أنه الخالق الواحد . فما أحد غير الله بقادر على إبداع هذه الخلقة المعجزة في الصغير منها وفي الكبير .

هذا السمع وحده وكيف يعمل ؟ كيف يلتقط الأصوات ويكيفها ؟ وهذا البصر وحده وكيف يبصر ؟ وكيف يلتقط الأضواء والأشكال ؟ وهذا الفؤاد ما هو ؟ وكيف يدرك ؟ وكيف يقدر الأشياء والأشكال ، والمعاني والقيم والمشاعر والمدركات ؟

إن مجرد معرفة طبيعة هذه الحواس والقوى وطريقة عملها ، يعد كشفاً معجزاً في عالم البشر . فكيف بخلقها وتركيبها على هذا النحو المتناسق مع طبيعة الكون الذي يعيش فيه الإنسان ؛ ذلك التناسق الملحوظ الذي لو اختلفت نسبة واحدة من نسبه في طبيعة الكون أو طبيعة الإنسان لفقد الاتصال ، فما استطاعت أذن أن تلتقط صوتاً ، ولا استطاعت عين أن تلتقط ضوءاً . ولكن القدرة المدبرة نسقت بين طبيعة الإنسان وطبيعة الكون الذي يعيش فيه ، فتم هذا الاتصال . غير أن الإنسان لا يشكر على النعمة : « قليلاً ما تشكرون » .. والشكر يبدأ بمعرفة واهب النعمة ، وتمجيده بصفاته ، ثم عبادته وحده ، وهو الواحد الذي تشهد بوحدانيته آثاره

في صنعته . ويتبعه استخدام هذه الحواس والطاقات في تذوق الحياة والمتاع بها ، بحس العابد لله في كل نشاط وكل متاع .

« وهو الذي ذرأكم في الأرض » .. فاستخلفكم فيها ، بعد ما زودكم بالسمع والأبصار والأفئدة ؛ وأمدكم بالاستعدادات والطاقات الضرورية لهذه الخلافة .. « وإليه تحشرون » .. فيحاسبكم على ما أحدثتم في هذه الخلافة من خير وشر ، ومن صلاح وفساد ، ومن هدى وضلال . فلستم بمخلوقين عبثاً ، ولا متروكين سدى ؛ إنما هي الحكمة والتدبير والتقدير .

« وهو الذي يحيي ويميت » .. والحياة والموت حادثان يقعان في كل لحظة ، وليس إلا الله يملك الموت والحياة ؛ فالبشر - أرقى الخلائق - أعجز من بث الحياة في خلية واحدة ، وأعجز كذلك من سلب الحياة سلباً حقيقياً عن حي من الأحياء . فالذي يهب الحياة هو الذي يعرف سرها ، ويملك أن يهبها ويستردها . والبشر قد يكونون سبباً وأداة لإزهاق الحياة ، ولكنهم هم ليسوا الذين يجردون الحي من حياته على وجه الحقيقة .. إنما الله هو الذي يحيي ويميت ، وحده دون سواه .

« وله اختلاف الليل والنهار » .. فهو الذي يملكه ويصرفه - كاختلاف الموت والحياة - وهو سنة كونية كسنة الموت والحياة . هذه في النفوس والأجساد ، وهذه في الكون والأفلاك . وكما يسلب الحياة من الحي فيعتم جسده ويهدم ، كذلك هو يسلب الضوء من الأرض فتعتم وتسكن . ثم تكون حياة ويكون ضياء ، يختلف هذا على ذلك ، بلا فتر ولا انقطاع إلا أن يشاء الله .. « أفلا تعقلون ؟ » وتدركون ما في هذا كله من دلائل على الخالق المدبر ، المالك وحده لتصرف الكون والحياة ؟

* * *

وهنا يعدل عن خطابهم وجداهم ، ليحكى مقولاتهم عن البعث والحساب ، بعد كل هذه الدلائل والآيات : « بل قالوا مثلما قال الأولون . قالوا : أنذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون ؟ لقد وعدنا نحن وآبائونا هذا من قبل . إن هذا إلا أساطير الأولين » ..

وتبدو هذه القولة مستنكرة غريبة بعد تلك الآيات والدلائل الناطقة بتدبير الله ، وحكمته في الخلق ، فقد وهب الإنسان السمع والبصر والفؤاد ليكون مسؤولاً عن نشاطه وعمله ، مجزياً على صلاحه وفساده ؛ والحساب والجزاء يكونان على حقيقتهما في الآخرة ، فالمشهود في هذه الأرض أن الجزاء قد لا يقع ، لأنه متروك إلى مواعده هناك .

والله يحيي ويميت ؛ فليس شيء من أمر البعث بعسير ، والحياة تدب في كل لحظة ، وتنشأ من حيث لا يدري إلا الله .

ولم يكف هؤلاء أن تقصر مداركهم عن إدراك حكمة الله ، وقدرته على البعث ، فإذا هم يسخرون مما يوعدون من البعث والجزاء . أن كان هذا الوعد قد قيل لهم ولآبائهم من قبل ، ولم يقع بعد ! « لقد وعدنا نحن وآبائونا هذا من قبل . إن هذا إلا أساطير الأولين » ..

والبعث متروك لموعده الذي ضربه الله له ، وفق تدبيره وحكمته ، لا يستقدم ولا يستأخر ، تلبية لطلب جيل من أجيال الناس ، أو استهزاء جماعة من الغافلين المحجوبين !

* * *

ولقد كان مشركو العرب مضطربى العقيدة ، لا ينكرون الله ، ولا ينكرون أنه مالك السماوات والأرض ، مدبر السماوات والأرض ، المسيطر على السماوات والأرض .. ولكنهم مع ذلك يشركون معه آلهة مدعاة ، يقولون : إنهم يعبدونها لتقربهم من الله ، وينسبون له البنات . سبحانه وتعالى عما يصفون :

فهو هنا يأخذهم بمسلماتهم التي يقرون بها ، ليصحح ذلك الاضطراب في العقيدة ، ويردهم إلى التوحيد الخالص الذي تقود إليه مسلماتهم ، لو كانوا يستقيمون على الفطرة ولا ينحرفون :

« قل : لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون : لله . قل : أفلا تذكرون ؟ قل : من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم ؟ سيقولون : لله . قل : أفلا تتقون ؟ قل : من بيده ملكوت كل شيء ، وهو يجير ولا يجار عليه ، إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون : لله . قل : فأنى تسحرون ؟ » ..

وهذا الجدال يكشف عن مدى الاضطراب الذي لا يفيء إلى منطوق ، ولا يرتكن إلى عقل ؛ ويكشف عن مدى الفساد الذي كانت عقائد المشركين قد وصلت إليه في الجزيرة عند مولد الإسلام .

« قل : لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ؟ » .. فهو سؤال عن ملكية الأرض ومن فيها : « سيقولون : لله » .. ولكنهم مع ذلك لا يذكرون هذه الحقيقة وهم يتوجهون بالعبادة لغير الله : « قل : أفلا تذكرون ؟ » ..

« قل : من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم » .. فهو سؤال عن الربوبية المدبرة ، المصرفة للسماوات السبع والعرش العظيم . والسماوات السبع قد تكون أفلاكاً سبعة ، أو مجموعات نجمية سبعة ، أو سداً سبعة ، أو عوالم سبعة ، أو أية خلائق فلكية سبعة . والعرش رمز للاستعلاء والهيمنة على الوجود .. فمن هو رب السماوات السبع ورب العرش العظيم ؟ « سيقولون : لله » ولكنهم مع ذلك لا يخافون صاحب العرش ، ولا يتقون رب السماوات السبع ، وهم يشركون معه أصناماً مهينة ، ملقاة على الأرض لا تريم .. « قل : أفلا تتقون » ..

« قل : من بيده ملكوت كل شيء ؟ وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ؟ » .. فهو سؤال عن السيطرة والسطوة والسلطان . سؤال عن بيده ملكية كل شيء ملكية استعلاء وسيطرة . ومن هو الذي يجير بقوته من يشاء فلا يناله أحد ؛ ولا يملك أحد أن يجير عليه ، وأن ينقذ من يريده بسوء من عباده .. من ؟ « سيقولون : لله » فالهم يصرفون عن عبادة الله ؟ وما لعقولهم تنحرف وتنخبط كالذي مسه السحر : « قل : فأنى تسحرون ؟ » ..

ألا إنه الاضطراب والتخبط الذي يصاب به المسحورون !

* * *

وفي اللحظة المناسبة لتقرير حقيقة ما جاءهم به الرسول - صلى الله عليه وسلم - من التوحيد ، وبطلان ما يدعونه من الولد والشريك .. في اللحظة المناسبة بعد ذلك الجدل يجيء هذا التقرير :

« بل أتيناكم بالحق وإنهم لكاذبون . ما اتخذ الله من ولد ، وما كان معه من إله . إذن لذهب كل إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض . سبحانه الله عما يصفون . عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون » .

يجيء هذا التقرير في أساليب شتى .. بالإضراب عن الجدل معهم ، وتقرير كذبهم الأكيد : « بل أتيناكم بالحق وإنهم لكاذبون » . ثم يفصل فيما هم كاذبون : « ما اتخذ الله من ولد ، وما كان معه من إله » .. ثم يأتي بالدليل الذي ينفي دعواهم ، ويصور ما في عقيدة الشرك من سخف واستحالة : « إذن لذهب كل إله بما خلق » مستقلاً بما خلقه ، بصرفه حسب ناموس خاص ؛ فيصبح لكل جزء من الكون ، أو لكل فريق

من المخلوقات ناموس خاص لا يلتقي فيه بناموس عام يصرف الجميع . « ولعلا بعضهم على بعض » بغلبة سيطرته وتصريفه على الكون الذي لا يبقى ولا يتنظم إلا بناموس واحد ، وتصريف واحد ، وتديير واحد . وكل هذه الصور لا وجود لها في الكون ، الذي تشهد وحدة تكوينه بوحدة خالقه ، وتشهد وحدة ناموسه بوحدة مدبره . وكل جزء فيه وكل شيء يبدو متناسقاً مع الأجزاء الأخرى بلا تصادم ولا تنازع ولا اضطراب .. « سبحان الله عما يصفون » ..

« عالم الغيب والشهادة » فليس لغيره من خلق يستقل به ، ويعلم من دون الله أمره . « فتعالى عما يشركون » .

* * *

وعند هذا الحد يلتفت عن خطابهم وجدلهم وحكاية حالهم ، إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - يأمره أن يتوجه إلى ربه مستعيذاً به أن يجعله مع هؤلاء القوم - إن كان قد قدر له أن يرى تحقيق ما وعدهم به من العذاب . وأن يستعيذ به كذلك من الشياطين ، فلا تنور نفسه ، ولا يضيق صدره بما يقولون :

« قل : رب إما تريني ما يوعدون . رب فلا تجعلني في القوم الظالمين . وإنا على أن نريك ما نعدهم لقادرون . ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون . وقل : رب أعوذ بك من همزات الشياطين . وأعوذ بك رب أن يحضرون » ..

ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - في منجاة من أن يجعله الله مع القوم الظالمين حين يحل بهم العذاب الأليم ، ويتحقق ما يوعدون ، ولكن هذا الدعاء زيادة في التوقي ؛ وتعليم لمن بعده ألا يأمنوا مكر الله ، وأن يظلوا أبداً أبقاظاً ، وأن يلوذوا دائماً بحماه .

والله قادر على أن يحقق ما وعده به الظالمين في حياة الرسول - صلى الله عليه وسلم - :

« وإنا على أن نريك ما نعدهم لقادرون » ..

ولقد أراه بعض ما وعدهم في غزوة بدر . ثم في الفتح العظيم .

فأما حين نزول هذه السورة - وهي مكية - فكان منهج الدعوة دفع السيئة بالتي هي أحسن ؛ والصبر حتى يأتي أمر الله ؛ وتفويض الأمر لله :

« ادفع بالتي هي أحسن السيئة . نحن أعلم بما يصفون » .

واستعادة الرسول - صلى الله عليه وسلم - من همزات الشياطين ودفعاتهم - وهو معصوم منها - زيادة كذلك في التوقي ، وزيادة في الالتجاء إلى الله ، وتعليم لأمتة وهو قدوتها وأسوتها ، أن يتحصنوا بالله من همزات الشياطين في كل حين . بل إن الرسول ليوجه إلى الاستعادة بالله من مجرد قرب الشياطين ، لا من همزاتهم ودفعاتهم :

« وأعوذ بك رب أن يحضرون » ..

ويحتمل أن تكون الاستعادة من حضورهم إياه ساعة الوفاة . ويرشح لهذا المعنى ما يتلوه في السياق : « حتى إذا جاء أحدهم الموت ... » على طريقة القرآن في تناسق المعاني وتداعيها ..

حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٢٠٠﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا

وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٥﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠٦﴾
 فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٧﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ
 فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٠٨﴾ تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارَ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٠٩﴾ أَلَمْ تَكُنْ أُمَّ ابْنِي يُثْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا
 تُكذِّبُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١١١﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١١٢﴾
 قَالُوا احْسَبُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١١٣﴾ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ
 الرَّاحِمِينَ ﴿١١٤﴾ فَأَخَذْتُمُوهُمْ فَجَرَبْتُمْهُمْ أَنِيسًا فَذَكَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْكُمْ تَضْحِكُونَ ﴿١١٥﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ
 هُمُ الْفَازُونَ ﴿١١٦﴾ قُلْ كَلِمَاتٌ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٧﴾ قَالُوا لَبِئْسَ يَوْمًا أُوْبِقُوا فَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿١١٨﴾ قُلْ إِنْ
 لَبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٩﴾ الْحَسِبْتُمْ أَنْمَّا خَلَقْنَاكُمْ عَبْنًا وَأَنْتُمْ لَا تُرْجَعُونَ ﴿١٢٠﴾
 فَتَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١٢١﴾ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ
 بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ
 الرَّاحِمِينَ ﴿١٢٣﴾

في هذا الدرس الأخير في السورة يستطرد في الحديث عن نهاية المشركين ؛ فيبرزها في مشهد من مشاهد
 القيامة . يبدأ بمشهد الاحتضار في الدنيا ، وينتهي هنالك بعد النفخ في الصور . ثم تنتهي السورة بتقرير
 الألوهية الواحدة ، وتحذير من يدعون مع الله لها آخر وتخويفهم من مثل تلك النهاية .
 وتختتم السورة بتوجيه الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى ربه ليطلب غفرانه ورحمته ؛ والله خير الراحمين .

* * *

« حتى إذا جاء أحدهم الموت قال : رب ارجعون ، لعلني أعمل صالحاً فيما تركت » ..
 إنه مشهد الاحتضار ، وإعلان التوبة عند مواجهة الموت ، وطلب الرجعة إلى الحياة ، لتدارك ما فات ،
 والإصلاح فيما ترك وراءه من أهل ومال .. وكأنما المشهد معروض للحظة للأنتظار ، مشهود كالعيان ! فإذا
 الرد على هذا الرجاء المتأخر لا يوجه إلى صاحب الرجاء ، إنما يعلن على رؤوس الأشهاد :

« كلا . إنها كلمة هو قائلها ... »

كلمة لا معنى لها ، ولا مدلول وراءها ، ولا تنبغي العناية بها أو بقائلها . إنها كلمة الموقف الرهيب ، لا
 كلمة الإخلاص المنيب . كلمة تقال في لحظة الضيق ، ليس لها في القلب من رصيد !

وبها ينتهي مشهد الاحتضار . وإذا الحواجز قائمة بين قائل هذه الكلمة والدنيا جميعاً . فلقد قضى الأمر ، وانقطعت الصلات ، وأغلقت الأبواب ، وأسدلت الأستار :

« ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون » ..

فلا هم من أهل الدنيا ، ولا هم من أهل الآخرة . إنما هم في ذلك البرزخ بين بين ، إلى يوم يبعثون .

ثم يستطرد السياق إلى ذلك اليوم ، يصوره ويعرضه للأنظار .

« فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون » ..

إنما تقطعت الروابط ، وسقطت القيم التي كانوا يتعارفون عليها في الدنيا « فلا أنساب بينهم يومئذ » . وشملهم الهول بالصمت ، فهم ساكنون لا يتحدثون « ولا يتساءلون » .

ويعرض ميزان الحساب وعملية الوزن في سرعة واختصار .

« فن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون . ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون . تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون » ..

وعملية الوزن بالميزان تجري على طريقة القرآن في التعبير بالتصوير ، وتجسيم المعاني في صور حسية ، ومشاهد ذات حركة^١ .

ومشهد لفح النار للوجوه حتى تكلح ، وتشوه هيئتها ، ويكدر لونها .. مشهد مؤذ أليم .

وهؤلاء الذين خفت موازينهم خسروا كل شيء . فقد خسروا أنفسهم . وحين يخسر الإنسان نفسه فإذا يملك إذن ؟ وما الذي يتبقى له . وقد خسر نفسه التي بين جنبيه ، وخسر ذاته التي تميزه ، فكأنما لم يكن له وجود .

وهنا يعدل عن أسلوب الحكاية إلى أسلوب الخطاب والمواجهة ، فإذا العذاب الحسي - على فظاعته - أهون من التأنيب والخزي الذي يصاحبه . وكأنما نحن نراه اللحظة ونشده في حوار ممض طويل :

« ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون ! » ..

وكانما يخجل إليهم - وقد سمعوا هذا السؤال - أنهم مأذونون في الكلام ، مسموح لهم بالرجاء . وأن الاعتراف بالذنب قد يجدي في قبول الرجاء :

« قالوا : ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين . ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون » ..

وهو اعتراف تتجلى فيه المرارة والشقوة ... ولكن كأنما هم قد تجاوزوا حدتهم وأساءوا أديهم ، فلم يكن مأذوناً لهم في غير الإجابة على قدر السؤال . بل لعله كان سؤالاً للتبكي لا يطلب عليه منهم جواب . فهم يزجرون زجراً عنيفاً قاسياً :

« قال : احسأوا فيها ولا تكلمون » ..

اخرسوا واسكتوا سكوت الأذلاء المهينين ، فإنكم لتستحقون ما أنتم فيه من العذاب الأليم والشقاء المهين :

« إنه كان فريق من عبادي يقولون : ربنا آمنة فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين . فاتخذتموهم سخرياً حتى أنسوكم ذكري ، وكنتم منهم تضحكون » ..

(١) اراجع فصل التصوير الفني في كتاب : « التصوير الفني في القرآن » . « دار الشروق »

وكذلك لم يكن جرمكم أنكم كفرتم فحسب ، واقتصرتم على أنفسكم بالكفر وهو جرم عظيم ؛ إنما بلغ بكم السفه والتوقع أن تسخروا ممن آمنوا ، وراحوا يرجون غفران ربهم ورحمته ؛ وأن تضحكوا منهم حتى ليشغلكم هذا الهذر عن ذكر الله ، ويباعد بينكم وبين التدبر والتفكر في دلائل الإيمان الماثلة في صفحات الوجود .. فانظروا اليوم أين مكانكم ومكان أولئك الذين كنتم تسخرون منهم وتضحكون :

« إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون » ..

وبعد هذا الرد القاسي المهين ، وبيان أسبابه ، وما في هذا البيان من تزدليل وتبكيث .. يبدأ استجواب جديد :

« قال : كم ليتم في الأرض عدد سنين ؟ » ..

وإن الله - سبحانه - ليعلم . ولكنه سؤال لاستصغار أمر الأرض ، واستقصار أيامهم فيها . وقد باعوا بها حياة الخلود .. وإنهم ليحسون اليوم بقصر تلك الحياة وضآلتها . وإنهم ليائون ضيق الصدر ، لا يعينهم حسابها وعدتها :

« قالوا : لبنا يوماً أو بعض يوم . فاسأل العادين » ..

وهي إجابة الضيق واليأس والأسى والقنوط !

والرد : إنكم لم تلبثوا إلا قليلاً بالقياس إلى ما أنتم عليه مقبلون لو كنتم تحسنون التقدير :

« قال : إن ليتم إلا قليلاً لو أنكم كنتم تعلمون » ..

ثم عودة إلى التزدليل والتعنيف على تكذيبهم بالآخرة ، مع التبصير بحكمة البعث المكنونة منذ أول الخلق :

« أفحسبتم أننا خلقناكم عبثاً ؛ وأنكم إلينا لا ترجعون ؟ » ..

فحكمة البعث من حكمة الخلق . محسوب حسابها ، ومقدر وقوعها ، ومدبر غايتها . وما البعث إلا حلقة في سلسلة النشأة ، تبلغ بها كمالها ، ويتم فيها تمامها . ولا يغفل عن ذلك إلا المحجوبون المطموسون ، الذين لا يتدبرون حكمة الله الكبرى ؛ وهي متجلية في صفحات الكون ، ماثلة في أطواء الوجود ..

* * *

وتنتهي سورة الإيمان بتقرير القاعدة الأولى للإيمان .. التوحيد .. وإعلان الخسارة الكبرى لمن يشركون بالله ، في مقابل الفلاح في أول السورة للمؤمنين . وبالتوجه إلى الله في طلب الرحمة والغفران وهو أرحم الراحمين :

« فتعالى الله الملك الحق ، لا إله إلا هو رب العرش الكريم . ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه ، إنه لا يفلح الكافرون . وقل : رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين » ..

هذا التعقيب يجيء بعد مشهد القيامة السابق ؛ وبعد ما حوته السورة قبل هذا المشهد من جدل وحجج ودلائل وبيانات .. يجيء نتيجة طبيعية منطقية لكل محتويات السورة . وهو يشهد بتنزيه الله - سبحانه - عما يقولون ويصفون . ويشهد بأنه الملك الحق ، والمسيطر الحق ، الذي لا إله إلا هو . صاحب السلطان والسيطرة والاستعلاء : « رب العرش الكريم » .

وكل دعوى بألوهية أحد مع الله ، فهي دعوى ليس معها برهان . لا من الدلائل الكونية ، ولا من منطق

القطرة ، ولا من حجة العقل . وحساب مدعيها عند ربه ، والعاقبة معروفة : « إنه لا يفلح الكافرون » ..
سنة نافذة لا تتخلف ، كما أن الفلاح للمؤمنين طرف من الناموس الكبير .
وكل ما يراه الناس على الكافرين من نعمة ومتاع ، وقوة وسلطان ، في بعض الأحيان ، فليس فلاحاً في
ميزان القيم الحقيقية . إنما هو فتنة واستدراج ، ينتهي بالوبال في الدنيا . فإن ذهب بعضهم ناجين في الدنيا ،
فهناك في الآخرة يتم الحساب . والآخرة هي الشوط الأخير في مراحل النشأة ، وليست شيئاً منفصلاً في
تقدير الله وتدييره . ومن ثم هي ضرورة لا بد منها في النظرة البعيدة .

* * *

وآخر آية في سورة « المؤمنون » هي اتجاه إلى الله في طلب الرحمة والغفران :

« وقل : رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين » ..

وهنا يلتقي مطلع السورة وختامها في تقرير الفلاح للمؤمنين والخسران للكافرين . وفي تقرير صفة الخشوع
في الصلاة في مطلعها والتوجه إلى الله بالخشوع في ختامها .. فيتناسق المطلع والختام في ظلال الإيمان ...

* * *

(٢٤) سُورَةُ النُّورِ مَلَانِيَّتَا وَآيَاتُهَا اَرْبَعٌ وَسِتُّونَ

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

سُورَةٌ اُنزِلْنَاهَا وَقَرَّضْنَاهَا وَاُنزِلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾
 اَلزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوهُمَا كُلٌّ وَّاحِدٌ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللّٰهِ اِنَّ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ
 وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾
 اَلزَّانِي لَا يَنْكِحُ اِلَّا زَانِيَةً اَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا اِلَّا زَانٍ اَوْ مُشْرِكٌ وَحُرْمٌ ذٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾
 وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِاَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا يَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةٌ اَبَدًا
 وَاُولٰٓئِكَ هُمُ الْفٰسِقُونَ ﴿٤﴾ اِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ وَاَصْلَحُوا فَاِنَّ اللّٰهَ غَفُوْرٌ رَّحِيْمٌ ﴿٥﴾
 وَالَّذِينَ يَرْمُونَ اَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ اِلَّا اَنْفُسُهُمْ فَشَهَدَةُ اَحَدِهِمْ اَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللّٰهِ اِنَّهُ لَمِنَ
 الصّٰدِقِيْنَ ﴿٦﴾ وَاَلْحِمْسَةُ اَنْ لَعَنَتَ اللّٰهُ عَلَيْهِ اِنْ كَانَ مِنَ الْكٰذِبِيْنَ ﴿٧﴾ وَيَدْرُؤُاْ عَنْهَا الْعَذَابَ اَنْ تَشْهَدَ
 اَرْبَعَ شَهَدَاتٍ بِاللّٰهِ اِنَّهُ لَمِنَ الْكٰذِبِيْنَ ﴿٨﴾ وَاَلْحِمْسَةُ اَنْ غَضِبَ اللّٰهُ عَلَيْهَا اِنْ كَانَ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ ﴿٩﴾
 وَلَوْ لَا فَضْلُ اللّٰهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَاَنَّ اللّٰهَ تَوَّابٌ حَكِيْمٌ ﴿١٠﴾
 اِنَّ الَّذِيْنَ جَاءُوْا بِالْاِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا نَحْسِبُوْهُ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ اِمْرٍيٍّ مِّنْهُم مَّا كَتَبَ
 مِنْ الْاِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيْمٌ ﴿١١﴾ لَوْلَا اِذْ سَمِعْتُمُوْهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُوْنَ وَالْمُؤْمِنٰتُ بِاَنْفُسِهِمْ
 خَيْرًا وَقَالُوْا هٰذَا اِفْكٌ مُّبِيْنٌ ﴿١٢﴾ لَوْلَا جَاءُوْا عَلَيْهِ بِاَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاِذْ لَمْ يَأْتُوْا بِالشُّهَدَاءِ قَالُوْا لَكَ عِنْدَ اللّٰهِ

هُمُ الْكَذِبُونَ ﴿١٤﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ إِذْ تَلَقَّوهُ بِالْسِّنِّكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هِينًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٧﴾ يَعِظُكُمْ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٨﴾ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٩﴾

إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٢١﴾

* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَلَا يَأْتِلْ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِيَ الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا يُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٣﴾

إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٤﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَسِنَّتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمْ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٦﴾

الْحَبِيبَاتُ لِحَبِيبَاتٍ وَالْحَبِيبَاتُ لِحَبِيبَاتٍ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٧﴾

هذه سورة النور . . يذكر فيها النور بلفظه متصلاً بذات الله : « الله نور السموات والأرض » ويذكر فيها النور بآثاره ومظاهره في القلوب والأرواح : بمثابة هذه الآثار في الآداب والأخلاق التي يقوم عليها بناء هذه السورة . وهي آداب وأخلاق نفسية وعائلية وجماعية . تثير القلب ، وتثير الحياة ؛ ويربطها بذلك النور الكوني الشامل أنها نور في الأرواح . وإشراق في القلوب . وشفافية في الضمائر ، مستمدة كلها من ذلك النور الكبير .

وهي تبدأ بإعلان قوي حاسم عن تقرير هذه السورة وفرضها بكل ما فيها من حدود وتكاليف ، ومن آداب

وأخلاق : « سورة أنزلناها وفرضناها ، وأنزلنا فيها آيات لعلكم تذكرون » .. فيدل هذا البدء الفريد على مدى اهتمام القرآن بالعنصر الأخلاقي في الحياة ؛ ومدى عمق هذا العنصر وأصالته في العقيدة الإسلامية ، وفي فكرة الإسلام عن الحياة الإنسانية ..

والمحور الذي تدور عليه السورة كلها هو محور التربية التي تشتد في وسائلها إلى درجة الحدود . وترق إلى درجة للمسات الوجدانية الرفيعة ، التي تصل القلب بنور الله وآياته المبثوثة في تضاعيف الكون وثنايا الحياة . والهدف واحد في الشدة واللين . هو تربية الضمائر ، واستجاشة المشاعر ؛ ورفع المقاييس الأخلاقية للحياة ، حتى تشف وترف ، وتتصل بنور الله .. وتتداخل الآداب النفسية الفردية ، وآداب البيت والأسرة ، وآداب الجماعة والقيادة . بوصفها نابعة كلها من معين واحد هو العقيدة في الله ، متصلة كلها بنور واحد هو نور الله . وهي في صميمها نور وشفافية ، وإشراق وطهارة . تربية عناصرها من مصدر النور الأول في السموات والأرض . نور الله الذي أشرقت به الظلمات . في السموات والأرض ، والقلوب والضمائر ، والنفوس والأرواح .

* * *

ويجري سياق السورة حول محورها الأصيل في خمسة أشواط :

الأول يتضمن الإعلان الحاسم الذي تبدأ به ؛ يليه بيان حد الزنا ، وتفظيع هذه الفعل ، وتفظيع ما بين الزنا والجماعة المسلمة ، فلا هي منهم ولا هم منها . ثم بيان حد القذف وعلة التشديد فيه ؛ واستثناء الأزواج من هذا الحد مع التفريق بين الزوجين بالملاعنة . ثم حديث الإفك وقصته .. وينتهي هذا الشوط بتقرير مشاكلة الخبيثين للخبيثات ، ومشاكلة الطيبين للطيبات . وبالعلاقة التي تربط بين هؤلاء وهؤلاء .

ويتناول الشوط الثاني وسائل الوقاية من الجريمة ، وتجنب النفوس أسباب الإغراء والغواية . فيبدأ بآداب البيوت والاستئذان على أهلها ، والأمر بغض البصر والنهي عن إبداء الزينة للمحارم . والحض على إنكاح الأيامى . والتحذير من دفع الفتيات إلى البغاء .. وكلها أسباب وقائية لضمانة الطهر والتعفف في عالم الضمير والشعور ، ودفع المؤثرات التي تهيج الميول الحيوانية ، وترهق أعصاب المتخرجين المتطهرين ، وهم يقاومون عوامل الإغراء والغواية .

والشوط الثالث يتوسط مجموعة الآداب التي تتضمنها السورة ، فيربطها بنور الله . ويتحدث عن أظهر البيوت التي يعمرها وهي التي تعمر بيوت الله .. وفي الجانب المقابل الذين كفروا وأعمالهم كسراب من اللعان الكاذب ؛ أو كظلمات بعضها فوق بعض . ثم يكشف عن فيوض من نور الله في الآفاق : في تسبيح الخلائق كلها لله . وفي إزجاء السحاب . وفي تقلب الليل والنهار . وفي خلق كل دابة من ماء ، ثم اختلاف أشكالها ووظائفها وأنواعها وأجناسها ، مما هو معروض في صفحة الكون للبصائر والأبصار ..

والشوط الرابع يتحدث عن مجافاة المنافقين للأدب الواجب مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في الطاعة والتحاكم . ويصور أدب المؤمنين الخالص وطاعتهم . ويعدهم ، على هذا ، الاستخلاف في الأرض والتمكين في الدين ، والنصر على الكافرين .

ثم يعود الشوط الخامس إلى آداب الاستئذان والضيافة في محيط البيوت بين الأقارب والأصدقاء . وإلى آداب الجماعة المسلمة كلها كأسرة واحدة ، مع رئيسها ومربيها - رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وتم السورة بإعلان ملكية الله لما في السماوات والأرض ، وعلمه بواقع الناس ، وما تنطوي عليه احتياجاتهم ، ورجعتهم إليه ، وحسابهم على ما يعلمه من أمرهم . وهو بكل شيء عليم .
والآن نأخذ في التفصيل .

* * *

« سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون » ..

مطلع فريد في القرآن كله . الجديد فيه كلمة « فرضناها » والمقصود بها - فيما نعلم - تأكيد الأخذ بكل ما في السورة على درجة سواء . ففرضية الآداب والأخلاق فيها كفرضية الحدود والعقوبات . هذه الآداب والأخلاق المركوزة في الفطرة ، والتي ينساها الناس تحت تأثير المغريات والانحرافات ، فتذكرهم بها تلك الآيات البينات ، وتردهم إلى منطق الفطرة الواضح المبين .

* * *

ويتبع هذا المطلع القوي الصريح الجازم ببيان حد الزنا ؛ وتفضيع هذه الفعلة ، التي تقطع ما بين فاعليها وبين الأمة المسلمة من وشائج وارتباطات :

« الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ؛ ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله - إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر - وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين . الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة ، والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك ؛ وحرم ذلك على المؤمنين » ..

كان حد الزانيين في أول الإسلام ما جاء في سورة النساء : « واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم . فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلاً » .. فكان حد المرأة الحبس في البيت والأذى بالتعيير . وكان حد الرجل الأذى بالتعيير .

ثم أنزل الله حد الزنا في سورة النور . فكان هذا هو « السبيل » الذي أشارت إليه من قبل آية النساء . والجلد هو حد البكر من الرجال والنساء . وهو الذي لم يحصن بالزواج . ويوقع عليه متى كان مسلماً بالغاً عاقلاً حراً . فأما المحصن وهو من سبق له الوطء في نكاح صحيح وهو مسلم حر بالغ فحده الرجم . وقد ثبت الرجم بالسنة . وثبت الجلد بالقرآن . ولما كان النص القرآني مجملاً وعماماً . وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد رجم الزانين المحصنين ، فقد تبين من هذا أن الجلد خاص بغير المحصن .

وهناك خلاف فقهي حول الجمع بين الجلد والرجم للمحصن . والجمهور على أنه لا يجمع بين الجلد والرجم . كما أن هناك خلافاً فقهيّاً حول تعريب الزاني غير المحصن مع جلده . وحول حد الزاني غير الحر .. وهو خلاف طويل لا ندخل في تفصيله هنا ، يطلب في موضعه من كتب الفقه .. إنما تمضي نحن مع حكمة هذا التشريع . فترى أن عقوبة البكر هي الجلد ، وعقوبة المحصن هي الرجم . ذلك أن الذي سبق له الوطء في نكاح صحيح - وهو مسلم حر بالغ - قد عرف الطريق الصحيح النظيف وجربه ، فعدوله عنه إلى الزنا يشي بفساد فطرته وانحرافها ، فهو جدير بتشديد العقوبة ، بخلاف البكر الغفل الغر ، الذي قد يتدفع تحت ضغط الميل وهو غرير .. وهناك فارق آخر في طبيعة الفعل . فالمحصن ذو تجربة فيه تجعله يتدوقه ويستجيب له بدرجة أعمق مما يتدوقه البكر . فهو حري بعقوبة كذلك أشد .

والقرآن يذكر هنا حد البكر وحده - كما سلف - فيشدد في الأخذ به ، دون تسامح ولا هوادة :

« الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ، ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله . إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر . وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين » .

فهي الصرامة في إقامة الحد ؛ وعدم الرأفة في أخذ الفاعلين بجرمهما ، وعدم تعطيل الحد أو الترفق في إقامته ، تراخياً في دين الله وحقه . وإقامته في مشهد عام تحضره طائفة من المؤمنين ، فيكون أوقع في نفوس الفاعلين ونفوس المشاهدين .

ثم يزيد في تفضيع الفعلة وتبشيعها ، فيقطع ما بين فاعليها وبين الجماعة المسلمة من وشيجة :
 « الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة ، والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك . وحرّم ذلك على المؤمنين » ..
 وإذن فالذين يرتكبون هذه الفعلة لا يرتكبونها وهم مؤمنون . إنما يكونون في حالة نفسية بعيدة عن الإيمان وعن مشاعر الإيمان . وبعد ارتكابها لا ترتضي النفس المؤمنة أن ترتبط في نكاح مع نفس خرجت عن الإيمان بتلك الفعلة البشعة ؛ لأنها تنفر من هذا الرباط وتشمئز . حتى لقد ذهب الإمام أحمد إلى تحريم مثل هذا الرباط بين زان وعفيفة ، وبين عفيف وزانية ؛ إلا أن تقع التوبة التي تظهر من ذلك الدنس المنفر . وعلى أية حال فالآية تفيد نفور طبع المؤمن من نكاح الزانية ، ونفور طبع المؤمنة من نكاح الزاني ؛ واستبعاد وقوع هذا الرباط بلفظ التحريم الدال على شدة الاستبعاد : « وحرّم ذلك على المؤمنين » .. وبذلك تقطع الوشائج التي تربط هذا الصنف المدنس من الناس بالجماعة المسلمة الطاهرة النظيفة .

ورد في سبب نزول هذه الآية أن رجلاً يقال له : مرثد بن أبي مرثد كان يحمل الأسارى من مكة حتى يأتي بهم المدينة^١ . وكانت امرأة بغية بمكة يقال لها : عناق . وكانت صديقة له . وأنه واعد رجلاً من أسارى مكة يحمله . قال : فجنّحت حتى انتهيت إلى ظل حائط من حوائط مكة في ليلة مقمرة . قال : فجاءت عناق ، فأبصرت سواد ظل تحت الحائط . فلما انتهت إليّ عرفتني . فقالت : مرثد ؟ فقلت : مرثد ! فقالت : مرحباً وأهلاً . هلم فبت عندنا الليلة : قال : فقلت : يا عناق حرم الله الزنا . فقالت : يا أهل الخيام هذا الرجل يحمل أسراكم . قال : فتبعني ثمانية ، ودخلت الحديقة . فأنتهيت إلى غار أو كهف ، فدخلت ، فجاءوا حتى قاموا على رأسي ، فبالوا ، فظل بولهم على رأسي ، فأعماهم الله عني . قال : ثم رجعوا فرجعت إلى صاحبي فحملته ؛ وكان رجلاً ثقیلاً ؛ حتى انتهيت إلى الإذخر ؛ ففككت عنه أحبله ، فجعلت أحمله ويعينني حتى أتيت به المدينة ؛ فأتيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقلت : يا رسول الله أنكح عناقاً ؟ - مرتين - فأمسك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلم يرد عليّ شيئاً حتى نزلت « الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة ، والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك ، وحرّم ذلك على المؤمنين » فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « يا مرثد . الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة . فلا تنكحها »^٢ .

فهذه الرواية تفيد تحريم نكاح المؤمن للزانية ما لم تتب ، ونكاح المؤمنة للزاني كذلك . وهو ما أخذ به الإمام أحمد . ورأى غيره غير رأيه . والمسألة خلافية تطلب في كتب الفقه . وعلى أية حال فهي فعلة تعزل فاعليها عن الجماعة المسلمة ؛ وتقطع ما بينه وبينها من روابط . وهذه وحدها عقوبة اجتماعية أليمة كعقوبة الجلد أو أشد وقعاً !

(١) ربما يكون المقصود بالأسارى هنا ضعاف المؤمنين الذين لم يقدرُوا على الهجرة من أمسك بهم المشركون في مكة .

(٢) رواه أبو داود والنسائي والترمذي .

والإسلام وهو يضع هذه العقوبات الصارمة الحاسمة لتلك الفعلة المستنكرة الشائنة لم يكن يغفل الدوافع الفطرية أو يحاربها . فالإسلام يقدر أنه لا حيلة للبشر في دفع هذه الميول ، ولا خير لهم في كبئها أو قتلها . ولم يكن يحاول أن يوقف الوظائف الطبيعية التي ركبها الله في كيانهم، وجعلها جزءاً من ناموس الحياة الأكبر ، يؤدي إلى غايته من امتداد الحياة ، وعمارة الأرض ، التي استخلف فيها هذا الإنسان .

إنما أراد الإسلام محاربة الحيوانية التي لا تفرق بين جسد وجسد ، أو لا تهدف إلى إقامة بيت ، وبناء عش ، وإنشاء حياة مشتركة ، لا تنتهي بانتهاء اللحظة الجسدية الغليظة ! وأن يقيم العلاقات الجنسية على أساس من المشاعر الإنسانية الراقية ، التي تجعل من التقاء جسدين نفسين وقلبين وروحين ، وبتعبير شامل التقاء إنسانين ، تربط بينهما حياة مشتركة ، وآمال مشتركة ، وآلام مشتركة ، ومستقبل مشترك ، يلتقي في الذرية المرتقبة ، ويتقابل في الجيل الجديد الذي ينشأ في العش المشترك ، الذي يقوم عليه الوالدان حارسين لا يفترقان .

من هنا شدد الإسلام في عقوبة الزنا بوصفه نكسة حيوانية ، تذهب بكل هذه المعاني ، وتطيح بكل هذه الأهداف ؛ وترد الكائن الإنساني مسخاً حيوانياً ، لا يفرق بين أنثى وأنثى ، ولا بين ذكر وذكر . مسخاً كل هم إرواء جوعه اللحم والدم في لحظة عابرة . فإن فرق وميز فليس وراء اللذة بناء في الحياة ، وليس وراءها عمارة في الأرض ، وليس وراءها نتاج ولا إرادة نتاج ! بل ليس وراءها عاطفة حقيقية راقية ، لأن العاطفة تحمل طابع الاستمرار . وهذا ما يفرقها من الانفعال المنفرد المتقطع ، الذي يحسبه الكثيرون عاطفة يتغنون بها ، وإنما هي انفعال حيواني يتزيا بزوي العاطفة الإنسانية في بعض الأحيان !

إن الإسلام لا يحارب دوافع الفطرة ولا يستقدرها ؛ وإنما ينظمها ويظهرها ، ويرفعها عن المستوى الحيواني ، ويرقيها حتى تصبح المحور الذي يدور عليه الكثير من الآداب النفسية والاجتماعية . فأما الزنا - وبخاصة البغاء - فيجرد هذا الميل الفطري من كل الرفرفات الروحية ، والأشواق العلوية ؛ ومن كل الآداب التي تجمعت حول الجنس في تاريخ البشرية الطويل ؛ ويبدیه عارياً غليظاً قدراً كما هو في الحيوان ، بل أشد غلظاً من الحيوان . ذلك أن كثيراً من أزواج الحيوان والطير تعيش متلازمة ، في حياة زوجية منظمة ، بعيدة عن القوضى الجنسية التي يشيعها الزنا - وبخاصة البغاء - في بعض بيئات الإنسان !

دفع هذه النكسة عن الإنسان هو الذي جعل الإسلام يشدد ذلك التشديد في عقوبة الزنا .. ذلك إلى الأضرار الاجتماعية التي تعارف الناس على أن يذكرها عند الكلام عن هذه الجريمة ، من اختلاط الأنساب ، وإثارة الأحقاد ، وتهديد البيوت الآمنة المطمئنة ... وكل واحد من هذه الأسباب يكفي لتشديد العقوبة . ولكن السبب الأول وهو دفع النكسة الحيوانية عن الفطرة البشرية ، ووقاية الآداب الإنسانية التي تجمعت حول الجنس ، والمحافظة على أهداف الحياة العليا من الحياة الزوجية المشتركة القائمة على أساس الدوام والامتداد .. هذا السبب هو الأهم في اعتقادي . وهو الجامع لكل الأسباب الفرعية الأخرى .

على أن الإسلام لا يشدد في العقوبة هذا التشديد إلا بعد تحقيق الضمانات الوقائية المانعة من وقوع الفعل ، ومن توقيع العقوبة إلا في الحالات الثابتة التي لا شبهة فيها . فالإسلام منهيح حياة متكامل ، لا يقوم على العقوبة ؛ إنما يقوم على توفير أسباب الحياة النظيفة . ثم يعاقب بعد ذلك من يدع الأخذ بهذه الأسباب الميسرة ويتمرغ في الوحل طائعاً غير مضطر .

وفي هذه السورة نماذج من هذه الضمانات الوقائية الكثيرة ستأتي في موضعها من السياق ..

فإذا وقعت الجريمة بعد هذا كله فهو يدرأ الحد ما كان هناك مخرج منه لقوله - صلى الله عليه وسلم - :

« ادروا الحدود عن المسلمين ما استطعتم فإن كان له مخرج فخلوا سبيله فإن الإمام أن يخطئ في العفو خير من أن يخطئ في العقوبة^١ » لذلك يطلب شهادة أربعة عدول يقرون برؤية الفعل . أو اعترافاً لا شبهة في صحته .

وقد يظن أن العقوبة إذن وهمية لا تردع أحداً ، لأنها غير قابلة للتطبيق . ولكن الإسلام - كما ذكرنا - لا يقيم بناءه على العقوبة ، بل على الوقاية من الأسباب الدافعة إلى الجريمة ؛ وعلى تهذيب النفوس ، وتطهير الضمائر ؛ وعلى الحساسية التي يثيرها في القلوب ، فتخرج من الإقدام على جريمة تقطع ما بين فاعلها وبين الجماعة المسلمة من وشيجة . ولا يعاقب إلا المتبجحين بالجريمة ، الذين يرتكبونها بطريقة فاضحة مستهترة فيراها الشهود . أو الذين يرغبون في التطهر بإقامة الحد عليهم كما وقع لما عزم ولصاحبه الغامدية . وقد جاء كل منهما يطلب من النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يطهره بالحد ، ويلج في ذلك ، على الرغم من إعراض النبي مراراً ؛ حتى بلغ الإقرار أربع مرات . ولم يعد بد من إقامة الحد ، لأنه بلغ إلى الرسول بصفة مستيقنة لا شبهة فيها . والرسول - صلى الله عليه وسلم - يقول : « تعافوا الحدود فيما بينكم فما بلغني من حد فقد وجب^٢ »

فإذا وقع اليقين ، وبلغ الأمر إلى الحاكم ، فقد وجب الحد ولا هوادة ، ولا رأفة في دين الله . فالرأفة بالزناة الجناة حينئذ هي قسوة على الجماعة ، وعلى الآداب الإنسانية ، وعلى الضمير البشري . وهي رأفة مصطنعة . فالله أرفأ عباده . وقد اختار لهم . وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن تكون لهم الخيرة من أمرهم . والله أعلم بمصالح العباد ، وأعرف بطبائعهم ، فليس لمتشدد أن يتحدث عن قسوة العقوبة الظاهرية ؛ فهي أرفأ مما ينتظر الجماعة التي يشيع فيها الزنا ، وتفسد فيها الفطرة ، وترتكس في الحمأة ، وتنتكس إلى درك البهيمة الأولى ..

والتشديد في عقوبة الزنا لا يغني وحده في صيانة حياة الجماعة ، وتطهير الجو الذي تعيش فيه . والإسلام لا يعتمد على العقوبة في إنشاء الحياة النظيفة - كما قلنا - إنما يعتمد على الضمانات الوقائية وعلى تطهير جو الحياة كلها من رائحة الجريمة .

لذلك يعقب على حد الزنا بعزل الزناة عن جسم الأمة المسلمة . ثم يمضي في الطريق خطوة أخرى في استبعاد ظل الجريمة من جو الجماعة ؛ فيعاقب على قذف المحصنات واتهامهن دون دليل أكيد :

« والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ، ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً . وأولئك هم الفاسقون » ..

إن ترك الألسنة تلقي التهم على المحصنات - وهن العفيفات الحرائر ثيبات أو أبكاراً - بدون دليل قاطع ، يترك المجال فسيحاً لكل من شاء أن يقذف بريئة أو بريئاً بتلك التهمة النكراء ؛ ثم يمضي آمناً ! فتصبح الجماعة وتمسي ، وإذا أعراضها مجرحة ، وسعته ملوثة ؛ وإذا كل فرد فيها متهم أو مهدد بالاتهام ؛ وإذا كل زوج فيها شاك في زوجه ، وكل رجل فيها شاك في أصله ، وكل بيت فيها مهدد بالانهيار .. وهي حالة من الشك والقلق والريبة لا تطاق .

ذلك إلى أن اطراد سماع التهم يوحى إلى النفوس المتحرجة من ارتكاب الفعلة أن جو الجماعة كله ملوث ؛

(١) أخرجه الترمذي من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الحدود (باب العفو عن الحدود ما لم تبلغ السلطان) .

وأن الفعلة فيها شائعة ؛ فيقدم عليها من كان يتحرج منها ، وتهون في حسه بشاعتها بكثرة ترددها ، وشعوره بأن كثيرين غيره يأتونها !

ومن ثم لا تجدي عقوبة الزنا في منع وقوعه ؛ والجماعة تسمي وتصيح وهي تتنفس في ذلك الجو الملوث الموحى بارتكاب الفحشاء .

لهذا ، وصيانة للأعراض من التهجم ، وحماية لأصحابها من الآلام الفظيعة التي تصب عليهم .. شدد القرآن الكريم في عقوبة القذف ، فجعلها قريبة من عقوبة الزنا .. ثمانين جلدة .. مع إسقاط الشهادة ، والوصم بالفسق .. والعقوبة الأولى جسدية . والثانية أدبية في وسط الجماعة ؛ ويكفي أن يهدر قول القاذف فلا يؤخذ له بشهادة ، وأن يسقط اعتباره بين الناس ويمشي بينهم متمماً لا يوثق له بكلام ! والثالثة دينية فهو منحرف عن الإيمان خارج عن طريقه المستقيم .. ذلك إلا أن يأتي القاذف بأربعة يشهدون برؤية الفعل ، أو بثلاثة معه إن كان قد رآه . فيكون قوله إذن صحيحاً . ويوقع حد الزنا على صاحب الفعلة .

والجماعة المسلمة لا تخسر بالسكوت عن تهمة غير محققة كما تخسر بشيوع الاتهام والترخص فيه ، وعدم التحرج من الإذاعة به ، وتحريض الكثيرين من المتحرجين على ارتكاب الفعلة التي كانوا يستقذرونها ، ويظنونها ممنوعة في الجماعة أو نادرة . وذلك فوق الآلام الفظيعة التي تصيب الحرائر الشريفات والأحرار الشرفاء ؛ وفوق الآثار التي تترتب عليها في حياة الناس وطمأنينة البيوت .

وتظل العقوبات التي توقع على القاذف ، بعد الحد ، مصلته فوق رأسه ، إلا أن يتوب :

« إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم » ..

وقد اختلف الفقهاء في هذا الاستثناء : هل يعود إلى العقوبة الأخيرة وحدها ، فيرفع عنه وصف الفسق ، ويظل مردود الشهادة ؟ أم إن شهادته تقبل كذلك بالتوبة .. فذهب الأئمة مالك وأحمد والشافعي إلى أنه إذا تاب قبل شهادته ، وارتفع عنه حكم الفسق . وقال الإمام أبو حنيفة : إنما يعود الاستثناء إلى الجملة الأخيرة ، فيرتفع الفسق بالتوبة ، ويبقى مردود الشهادة . وقال الشعبي والضحاك : لا تقبل شهادته ، وإن تاب ، إلا أن يعترف على نفسه أنه قال البهتان فيما قذف ؛ فحينئذ تقبل شهادته .

وأنا أختار هذا الأخير لأنه يزيد على التوبة إعلان براءة المقذوف باعتراف مباشر من القاذف . وبذلك يمحي آخر أثر للقذف . ولا يقال : إنه إنما وقع الحد على القاذف لعدم كفاية الأدلة ! ولا يحيك في أي نفس ممن سمعوا الاتهام أنه ربما كان صحيحاً ؛ ولكن القاذف لم يجد بقية الشهود .. بذلك يبرأ العرض المقذوف تماماً ، ويرد له اعتباره من الوجهة الشعورية بعد رده من الوجهة التشريعية ؛ فلا يبقى هنالك داع لإهدار اعتبار القاذف المحدود التائب المعترف بما كان من بهتان .

ذلك حكم القذف العام . ولكن استثني منه أن يقذف الرجل امرأته . فإن مطالبته بأن يأتي بأربعة شهداء فيه إرهاب له وإعانت . والمفروض ألا يقذف الرجل امرأته إلا صادقاً لما في ذلك من التشهير بعرضه وشرفه وكرامة أبنائه . لذلك جعل لهذا النوع من القذف حكم خاص :

« والذين يرمون أزواجهم ، ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم . فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين ، والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين . ويدراً عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين ، والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين . ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم » ..

وفي هذه النصوص تيسير على الأزواج ، يناسب دقة الحالة وحرص الموقف . ذلك حين يطلع الزوج على فعلة زوجته ؛ وليس له من شاهد إلا نفسه . فعندئذ يحلف أربع مرات بالله إنه لصادق في دعواه عليها بالزنا ، ويحلف يميناً خامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين . وتسمى هذه شهادات لأنه الشاهد الوحيد . فإذا فعل أعطاها قدر مهرها ، وطلقت منه طليقة بائنة ، وحق عليها حد الزنا وهو الرجم .. ذلك إلا أن ترغب في درء الحد عنها فإنها عندئذ تحلف بالله أربع مرات أنه كاذب عليها فيما رماها به ؛ وتحلف يميناً خامسة بأن غضب الله عليها إن كان صادقاً وهي كاذبة .. بذلك يدرأ عنها الحد ، وتبين من زوجها بالملاعة ؛ ولا ينسب ولدها - إن كانت حاملاً - إليه بل إليها . ولا يقذف الولد ومن يقذفه يحد ..

وقد عقب على هذا التخفيف والتيسير ، ومراعاة الأحوال والظروف بقوله :

« ولولا فضل الله عليكم ورحمته ، وأن الله تواب حكيم » ..

ولم يبين ما الذي كان يكون لولا فضل الله ورحمته بمثل هذه التيسيرات ، وبالتوبة بعد مقارفة الذنوب .. لم يبينه ليرتكه مجملًا مرهوبًا ، يتقيه المتقون . والنص يوحى بأنه شر عظيم .

وقد وردت روايات صحيحة في سبب نزول هذا الحكم :

روى الامام أحمد - بإسناده - عن ابن عباس قال : لما نزلت : « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ، ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً » قال سعد بن عبادة وهو سيد الأنصار - رضي الله عنه - : أهكذا أنزلت يا رسول الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا معشر الأنصار ألا تسمعون ما يقول سيدكم ؟ » فقالوا : يا رسول الله لا تلمه ، فإنه رجل غيور . والله ما تزوج امرأة قط إلا بكرًا ، وما طلق امرأة قط فاجترأ رجل منا أن يتزوجها من شدة غيرة .. فقال سعد : والله يا رسول الله إني لأعلم أنها لحق ، وأنها من الله ؛ ولكني قد تعجبت أني لو وجدت لكاعاً قد تفخذها رجل لم يكن لي أن أهيجه ولا أحرکه حتى آتي بأربعة شهداء . فوالله إني لا آتي بهم حتى يقضي حاجته .. قال : فما لبثوا إلا يسيراً حتى جاء هلال بن أمية ، فجاء من أرضه عشاء ، فوجد عند أهله رجلاً ، فرأى بعينه ، وسمع بأذنيه ، فلم يهيجه حتى أصبح فغدا على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : يا رسول الله إني جئت على أهلي عشاء ، فوجدت عندها رجلاً ، فرأيت بعيني وسمعت بأذني .. ففكره رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما جاء به ؛ واشتد عليه ؛ واجتمعت عليه الأنصار وقالوا : قد ابتلينا بما قال سعد بن عبادة ، إلا أن يضرب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هلال بن أمية ، ويبطل شهادته في الناس . فقال هلال : والله إني لأرجو أن يجعل الله منها مخرجاً . وقال هلال : يا رسول الله إني قد أرى ما اشتد عليك مما جئت به ، والله يعلم إني لصادق .. فوالله إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يريد أن يأمر بضربه إذ أنزل الله على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الوحي . وكان إذا أنزل عليه الوحي عرفوا ذلك في تبرد وجهه . (يعني فأمسكوا عنه حتى فرغ من الوحي) فنزلت : « والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله ... الآية » فسرى عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : « أبشر يا هلال فقد جعل الله لك فرجاً ومخرجاً » .. فقال هلال : قد كنت أرجو ذلك من ربي عز وجل . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « أرسلوا إليها » فأرسلوا إليها فجاءت ؛ فتلاها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عليهما ، فذكرهما ، وأخبرهما أن

(١) وهو أحد الثلاثة الذين تحلفوا في غزوة تبوك .

عذاب الآخرة أشد من عذاب الدنيا . فقال هلال : والله يا رسول الله لقد صدقت عليها . فقالت : كذب . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « لاعتوا بينهما » .. فقيل لهلال : اشهد . فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين . فلما كانت الخامسة قيل له : يا هلال اتق الله ، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة ، وإن هذه الموجبة التي توجب عليك العذاب . فقال : والله لا يعذبني الله عليها كما لم يجلدني عليها . فشهد الخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين .. ثم قيل للمرأة . اشهدي أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين . وقيل لها عند الخامسة : اتقي الله فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة . وإن هذه الموجبة التي توجب عليك العذاب . فتلكأت ساعة وهمت بالاعتراف . ثم قالت : والله لا أفصح قومي . فشهدت في الخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين .. ففرق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بينهما ؛ وقضى أن لا يدعى ولدها لأب ؛ ولا يرمى ولدها ؛ ومن رمى ولدها فعليه الحد ؛ وقضى أن لا بيت لها عليه ، ولا قوت لها ، من أجل أنهما يفترقان من غير طلاق ولا متوفى عنها . وقال : « إن جاءت به ، أصيب^١ أريسخ^٢ حمش الساقين^٣ فهو لهلال .. وإن جاءت به أورك^٤ جعدا^٥ جمالياً^٦ خدلج الساقين^٧ ساينغ الأليتين^٨ فهو الذي رميت به » .. فجاءت به أورك جعداً جمالياً خدلج الساقين ساينغ الأليتين . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « لولا الأيمان لكان لي ولها شأن » ..

وهكذا جاء هذا التشريع لمواجهة حالة واقعة بالفعل ، وعلاج موقف صعب على صاحبه وعلى المسلمين ، قد اشتد على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولم يجد منه مخرجاً ، حتى طفق يقول لهلال بن أمية - كما ورد في رواية البخاري - « البينة أو حد في ظهرك » وهلال يقول : يا رسول الله إذا رأى أحدنا على امرأته رجلاً ينطلق يلتمس البينة ؟

ولقد يقول قائل : أليس الله - سبحانه - يعلم أن هذه الحالة قد تعترض التشريع العام للكذب ؛ فلماذا لم ينزل الله الاستثناء إلا بعد ذلك الموقف المحرج ؟

والجواب : بلى إنه سبحانه ليعلم . ولكن حكمته تقتضي أن ينزل التشريع عند الشعور بالحاجة إليه ، فتستقبله نفوس الناس باللهفة إليه ، وإدراك ما فيه من حكمة ورحمة . ومن ثم عقب عليه بقوله : « ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم » .

ونقف قليلاً أمام هذه الواقعة ، لنرى كيف صنع الإسلام ، وكيف صنعت تربية رسول الله - صلى الله عليه وسلم - للناس بهذا القرآن .. كيف صنع هذا بالنفس العربية الغيور الشديدة الانفعال ، المتحمسة التي لا تفكر

(١) أصيب: تصغير أصب وهو الذي في شعره حمرة .

(٢) أريسخ: تصغير أرسح وهو خفيف لحم الأليتين .

(٣) حمش الساقين: دقيقتها .

(٤) أورك: أسمر .

(٥) جعدا: شديد الأسر والخلق والذي شعره غير سبط وهما مدح . والقصير المتردد الخلق والبخيل وهما ذم .

(٦) الجمالي: الضخم الأعضاء التام الأوصال .

(٧) خدلج الساقين: عظيمهما .

(٨) ساينغ الأليتين: تامهما وعظيمهما .

طويلاً قبل الاندفاع . فهذا حكم ينزل بعقوبة القذف ، فيشق على هذه النفوس . يشق عليها حتى ليسأل سعد ابن عبادة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أهكذا أنزلت يا رسول الله ؟ يسأل هذا السؤال وهو مستيقن أنها هكذا أنزلت . ولكنه يعبر بهذا السؤال عن المشقة التي يجدها في نفسه من الخضوع لهذا الحكم في حالة معينة في فراشه . وهو يعبر عن مرارة هذا التصور بقوله : والله يا رسول الله إني لأعلم أنها لحق ، وأنها من الله ؛ ولكني قد تعجبت أي لو وجدت لكاعاً قد تفخذها رجل لم يكن لي أن أهيجه ولا أحركه حتى آتي بأربعة شهداء ؟ فوالله إني لا آتي بهم حتى يكون قد قضى حاجته !

وما يلبث هذا التصور المرير الذي لا يطيقه سعد بن عبادة في خياله .. ما يلبث أن يتحقق .. فهذا رجل يرى بعينه ويسمع بأذنيه ، ولكنه يجد نفسه محجوراً بحاجز القرآن ؛ فيغلب مشاعره ، ويغلب وراثاته ، ويغلب منطق البيئه العربية العنيف العميق ؛ ويكبح غليان دمه ، وفوران شعوره ، واندفاع أعصابه .. ويربط على هذا كله في انتظار حكم الله وحكم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو جهد شاق مرهق ؛ ولكن التربية الإسلامية أعدت النفوس لاحتماله كي لا يكون حكم إلا لله ، في ذات الأنفس وفي شؤون الحياة .

كيف أمكن أن يحدث هذا ؟ لقد حدث لأنهم كانوا يحسون أن الله معهم ، وأنهم في كنف الله ، وأن الله يرعاهم ، ولا يكلفهم عنثاً ولا رهقاً ، ولا يتركهم عندما يتجاوز الأمر طاقتهم ، ولا يظلمهم أبداً . كانوا يعيشون دائماً في ظل الله ، يتنفسون من روح الله ، ويتطلعون إليه دائماً كما يتطلع الأطفال إلى العائل الكافل الرحيم .. فما هوذا هلال بن أمية يرى بعينه ويسمع بأذنيه ، وهو وحده ؛ فيشكو إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلا يجد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مناصاً من تنفيذ حد الله ، وهو يقول له : « البينة . أو حد في ظهرك » ولكن هلال بن أمية لا يتصور أن الله تاركة للحد ، وهو صادق في دعواه . فإذا الله ينزل ذلك الاستثناء في حالة الأزواج ؛ فيبشر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هلالاً به ؛ فإذا هو يقول قولة الواثق المطمئن : قد كنت أرجو ذلك من ربي عز وجل .. فهو الاطمئنان إلى رحمة الله ورعايته وعدله . والاطمئنان أكثر إلى أنه معهم ، وأنهم ليسوا متروكين لأنفسهم ؛ إنما هم في حضرته ، وفي كفالته .. وهذا هو الإيمان الذي راضهم على الطاعة والتسليم والرضى بحكم الله .

* * *

وبعد الانتهاء من بيان حكم القذف يورد نموذجاً من القذف ، يكشف عن شناعة الجرم وبشاعته ؛ وهو يتناول بيت النبوة الطاهر الكريم ، وعرض رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أكرم إنسان على الله ، وعرض صديقه الصديق أبي بكر - رضي الله عنه - أكرم إنسان على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعرض رجل من الصحابة - صفوان بن المعطل رضي الله عنه - يشهد رسول الله أنه لم يعرف عليه إلا خيراً .. وهو يشغل المسلمين في المدينة شهراً من الزمان ..

ذلك هو حديث الإفك الذي تطاول إلى ذلك المرتقى السامي الرفيع :

« إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم . لا تحسبوه شراً لكم ، بل هو خير لكم . لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم ، والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم . لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً ، وقالوا : هذا إفك مبين . لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء ! فإذا لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون . ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم . إذ تلقونه بألسنتكم ، وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم ؛ وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم . ولولا إذ سمعتموه قلم : ما يكون

لنا أن نتكلم بهذا . سبحانك ! هذا بهتان عظيم . يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين . ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم . إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون . ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رؤوف رحيم . يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ، ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكا منكم من أحد أبداً ؛ ولكن الله يزكي من يشاء والله سميع عليم . ولا يأكل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله . وليعفوا وليصفحوا . ألا تحبون أن يغفر الله لكم . والله غفور رحيم . إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ، ولهم عذاب عظيم . يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون . يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ، ويعلمون أن الله هو الحق المبين . الخبيثات للخبيثين ، والخبيثون للخبيثات ، والطيبات للطيبين ، والطيبون للطيبات ، أولئك مبرأون مما يقولون ، لهم مغفرة ورزق كريم ..

هذا الحادث . حادث الإفك . قد كلف أطهر النفوس في تاريخ البشرية كلها آلاماً لا تطاق ؛ وكلف الأمة المسلمة كلها تجربة من أشق التجارب في تاريخها الطويل ؛ وعلق قلب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقلب زوجه عائشة التي يحبها ، وقلب أبي بكر الصديق وزوجه ، وقلب صفوان بن المعطل .. شهراً كاملاً . علقها بحبال الشك والقلق والألم الذي لا يطاق .

فلندع عائشة - رضي الله عنها - تروي قصة هذا الألم ، وتكشف عن سر هذه الآيات :

عن الزهري عن عروة وغيره عن عائشة - رضي الله عنها - قالت :

كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه ، فأتيهن خرج سهمها خرج بها معه ؛ وإنه أقرع بيننا في غزاة فخرج سهمي ، فخرجت معه بعد ما أنزل الحجاب ، وأنا أحمل في هودج ، وأنزل فيه . فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من غزوته تلك ، وقفل ، ودنونا من المدينة آذن ليلة بالرحيل ؛ فقممت حين آذنوا بالرحيل ، حتى جاوزت الجيش . فلما قضيت من شأني أقبلت إلى الرحل ، فلمست صدري ، فإذا عقد لي من جزع أظفار قد انقطع ، فرجعت فالتمسته فحسبني ابتغاؤه ؛ وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلونني ، فاحتملوا هودجي ، فرحلوه على بعيري ، وهم يحسبون أنني فيه ؛ وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يتقلهن اللحم ؛ وإنما ناكل العلقمة من الطعام ؛ فلم يستنكر القوم حين رفعوه خفة الهودج ، فحملوه ؛ وكنت جارية حديثة السن ؛ فبعثوا الحمل وساروا ، فوجدت عقدي ، بعدما استمر الجيش ، فجثت منزهم ، وليس فيه أحد منهم ، فتميمت منزلي الذي كنت فيه ، وظننت أنهم سيفقدوني فيرجعون إلي ؛ فبينما أنا جالسة غلبتني عيني فمتمت . وكان صفوان بن المعطل السلمي . ثم الذكواني . قد عرس وراء الجيش ، فأدلج ، فأصبح عند منزلي ؛ فرأى سواد إنسان نائم ، فأتاني فعرفني حين رأني . وكان يراني قبل الحجاب . فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني ، فخمرت وجهي بجلبابي ؛ والله ما يكلمني بكلمة ، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه ؛ وهوى حتى أناخ راحلته ، فوطئ على يديها ، فركبتها ، فانطلق يقود بي الراحلة ، حتى أتينا الجيش ، بعد ما نزلوا معرسين . قالت : فهلك في شأني من هلك . وكان الذي تولى كبر

(١) غزوة بني المصطلق في السنة الخامسة الهجرية على الأرجح .

الإثم عبد الله بن أبي بن سلول ؛ فقدمنا المدينة ، فاشتكت بها شهراً ؛ والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك ولا أشعر . وهو يريني في وجعي أي لا أرى من النبي صلى الله عليه وسلم اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي ، إنما يدخل فيسلم ثم يقول : كيف تبيكم ؟ ثم ينصرف . فذلك الذي يريني منه ، ولا أشعر بالشر حتى نقهت ، فخرجت أنا وأم مسطح قبل المناصع وهو متبرزنا وكنا لا نخرج إلا ليلاً إلى ليل وذلك قبل أن نتخذ الكنف ، وأمرنا أمر العرب الأول في التبرز قبل الغائط . فأقبلت أنا وأم مسطح - وهي ابنة أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف وأمه بنت صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وابنها مسطح بن أثانة بن عباد بن المطلب - حين فرغنا من شأننا نمشي . فعثرت أم مسطح في مرطها فقالت : تعس مسطح ! فقلت لها : بشما قلت . أتسيين رجلاً شهد بدرًا؟ فقالت : يا هنتاه أم تسمعي ما قال ؟ فقلت : وما قال ؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك ، فازددت مرضاً إلى مرضي . فلما رجعت إلى بيتي دخل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : كيف تبيكم ؟ فقلت : ائذن لي أن آتي أبوي . وأنا حينئذ أريد أن أستيقن الخبر من قبلهما . فأذن لي ، فأتيت أبوي ، فقلت لأمي : يا أمته ماذا يتحدث الناس به ؟ فقالت يا بنية هوني على نفسك الشأن ، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيفة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها . فقلت : سبحان الله ! ولقد تحدث الناس بهذا ؟ قالت : أبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم . ثم أصبحت أبكي . فدعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد - رضي الله عنهما - حين استلبت الوحي يستشيرهما في فراق أهله . قالت : فأما أسامة فأشار عليه بما يعلم من براءة أهله ، وبالذي يعلم في نفسه من الود لهم . فقال أسامة : هم أهلك يا رسول الله ، ولا نعلم والله إلا خيراً . وأما علي بن أبي طالب فقال : يا رسول الله لم يضيق الله عليك ، والنساء سواها كثير ، وسل الجارية تحبك . قالت : فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بريرة^١ فقال لها : أي بريرة . هل رأيت فيها شيئاً يريبك ؟ فقالت : لا والذي بعثك بالحق نبياً إن رأيت منها أمراً أغمصه^٢ عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها ، فتأتي الداجن^٣ فتأكله . قالت : فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من يومه ، واستعذر من عبد الله بن أبي بن سلول . فقال وهو على المنبر : من يعذرني من رجل بلغني أذاه في أهلي ؟ فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً . ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً ، وما كان يدخل على أهلي إلا معي . قالت : فقام سعد بن معاذ^٤ - رضي الله عنه - فقال : يا رسول الله أنا والله أعذرک منه . إن كان من الأوس ضربنا عنقه ، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا فيه أمرک . فقام سعد بن عبادة - رضي الله عنه - وهو سيد الخزرج ، وكان رجلاً صالحاً ولكن أخذته الحمية . فقال لسعد بن معاذ : كذبت لعمر الله ، لا تقتله ولا تقدر على ذلك . فقام أسيد بن حضير رضي الله عنه وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عبادة : كذبت - لعمر الله - لنقتلنه ، فإنك منافق تجادل عن المنافقين . فثار الحيان - الأوس

(١) حقق الإمام شمس الدين أبو عبد الله بن قيم الجوزية أن الجارية التي سئلت لم تكن هي بريرة لأن بريرة إنما كتبت وعتقت بعد هذا بمدة طويلة . إنما قال الإمام علي كرم الله وجهه : فسل الجارية تحبك فظن بعض الرواة أنها بريرة فسأها .

(٢) أغمصه : أعيبه

(٣) الداجن : الشاة في البيت .

(٤) في رواية ابن اسحق أن الذي قال هذا وذلك هو أسيد بن حضير . وحقق الإمام ابن قيم الجوزية في زاد المعاد أن سعد بن معاذ كان قد توفي بعد غزوة بني قريظة قبل حديث الإفك وأن الذي قال ما قيل هو أسيد بن حضير وكذلك قال الإمام ابن حزم مستشهداً برواية عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن عائشة وليس فيها ذكر سعد بن معاذ .

والخزرج - حتى هموا أن يقتلوا، ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - على المنبر ، فلم يزل يخفضهم حتى سكتوا ونزل . وبكيت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع ، ولا أكتحل بنوم . ثم بكيت ليلتي المقبلة لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم . فأصبح أبواي عندي ، وقد بكيت ليلتين ويوماً ، حتى أظن أن البكاء فالتق كبدتي . فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي إذ استأذنت امرأة من الأنصار ، فأذنت لها ، فجلست تبكي معي . فبينما نحن كذلك إذ دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم جلس ، ولم يجلس عندي من يوم قيل في ما قيل قبلها ، وقد مكث شهراً لا يوحى إليه في شأني بشيء ، فتشهد حين جلس ، ثم قال : « أما بعد فإنه بلغني عنك كذا وكذا . فإن كنت بريئة فسيبرئك الله تعالى ، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله تعالى وتوبتي إليه ، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله تعالى عليه . » فلما قضى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه بقطرة . فقلت لأبي : أجب عني رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيما قال . قال : والله ما أدري ما أقول لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقلت لأمي : أجيبي عني رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال . قالت : والله ما أدري ما أقول لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - . قالت : وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن . فقلت : إني والله أعلم أنكم سمعتم حديثاً تحدث الناس به ، واستقر في نفوسكم ، وصدقتم به . فلئن قلت لكم : إني بريئة لا تصدقوني بذلك . ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أني منه بريئة ، لتصدقني . فوالله ما أجد لي ولكم مثلاً إلا أبا يوسف إذ قال : « فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون » . ثم تحولت فاضطجعت على فراشي ، وأنا والله حينئذ أعلم أني بريئة ، وأن الله تعالى مبرئي براءتي . ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل الله تعالى في شأني وحياً يتلى ؛ ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله تعالى في أمر يتلى ؛ ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في النوم رؤيا يبرئني الله تعالى بها . فوالله ما رام مجلسه ، ولا خرج أحد من أهل البيت ، حتى أنزل الله تعالى على نبيه - صلى الله عليه وسلم - فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء ، فسري عنه ، وهو يضحك ، فكان أول كلمة تكلم بها أن قال لي : يا عائشة أحمدي الله تعالى فإنه قد برأك . فقالت لي أُمي : قومي إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقلت : والله لا أقوم إليه ، ولا أحمد إلا الله تعالى ، هو الذي أنزل براءتي . فأنزل الله تعالى : « إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم ... العشر الآيات » فلما أنزل الله تعالى هذا في براءتي قال أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره : والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد ما قال لعائشة - رضي الله عنها - فأنزل الله تعالى : « ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة .. » إلى قوله : « والله غفور رحيم » فقال أبو بكر - رضي الله عنه - بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي ، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان يجري عليه ، وقال : والله لا أنزعها منه أبداً . قالت عائشة رضي الله عنها : وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سأل زينب بنت جحش عن أمري ، فقالت : « يا زينب . ما علمت وما رأيت ؟ » فقالت : يا رسول الله أحمي سمعي وبصري ، والله ما علمت عليها إلا خيراً . وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي - صلى الله عليه وسلم - فعصمها الله تعالى بالورع . قالت : فطفقت أختها حمنة تحارب لها ، فهلكت فيمن هلك من أصحاب الإفك^١ .

(١) قال ابن شهاب : فهذا ما انتهى إلينا من أمر هؤلاء الرهط . أخرجه البخاري ومسلم في صحيحهما من حديث الزهري وهكذا رواه ابن اسحاق عن الزهري كذلك باختلاف يسير .

وهكذا عاش رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأهل بيته . وعاش أبو بكر - رضي الله عنه - وأهل بيته . وعاش صفوان بن العطل . وعاش المسلمون جميعاً هذا الشهر كله في مثل هذا الجو الخائق ، وفي ظل تلك الآلام الهائلة ، بسبب حديث الإفك الذي نزلت فيه تلك الآيات .

وإن الإنسان ليقف متملماً أمام هذه الصورة الفظيعة لتلك الفترة الأليمة في حياة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأمام تلك الآلام العميقة اللاذعة لعائشة زوجة المقربة . وهي فتاة صغيرة في نحو السادسة عشرة . تلك السن المليئة بالحساسية المرهفة والرفرفة الشفيفة .

فها هي ذي عائشة الطيبة الطاهرة . ها هي ذي في براءتها ووضاءة ضميرها ، ونظافة تصوراتها ، ها هي ذي ترمى في أعز ما تعتز به . ترمى في شرفها . وهي ابنة الصديق الناشئة في العش الطاهر الرفيع . وترمي في أماتها . وهي زوج محمد بن عبد الله من ذروة بني هاشم . وترمي في وفائها . وهي الحبيبة المدللة القريبة من ذلك القلب الكبير .. ثم ترمى في إيمانها . وهي المسلمة الناشئة في حجر الإسلام ، من أول يوم فتحت عينها فيه على الحياة . وهي زوج رسول الله - صلى الله عليه وسلم .

ها هي ذي ترمى ، وهي بريئة غارة غافلة ، لا تحتاط لشيء ، ولا تتوقع شيئاً ؛ فلا تجد ما يبرئها إلا أن ترجو في جناب الله ، وتترقب أن يرى رسول الله رؤيا ، تبرئها مما رميت به . ولكن الوحي يتلبث ، لحكمة يريد بها الله ، شهراً كاملاً ؛ وهي في مثل هذا العذاب .

ويا لله لها وهي تفاجأ بالنبا من أم مسطح . وهي مهدودة من المرض ، فتعاودها الحمى ؛ وهي تقول لأماها في أسى : سبحان الله ! وقد تحدث الناس بهذا ؟ وفي رواية أخرى تسأل : وقد علم به أبي ؟ فتجيب أماها : نعم ! فتقول : ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - ؟ فتجيبها أماها كذلك : نعم !

ويا لله لها ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - نبيها الذي تؤمن به ورجلها الذي تحبه ، يقول لها : « أما بعد فإنه بلغني عنك كذا وكذا ؛ فإن كنت بريئة فسبيرك الله تعالى ، وإن كنت ألمت بذنب فاستغفري الله تعالى وتوبي إليه ، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه » .. فتعلم أنه شاك فيها ، لا يستيقن من طهارتها ، ولا يقضي في تهمتها . ورب لم يخبره بعد ، ولم يكشف له عن براءتها التي تعلمها ولكن لا تملك إثباتها ؛ فتمسي وتصبح وهي متهمة في ذلك القلب الكبير الذي أحبها ، وأحلها في سويدائه !

وها هو ذا أبو بكر الصديق - في وقاره وحساسيته وطيب نفسه - يلذعه الألم ، وهو يرمى في عرضه . في ابنته زوج محمد - صاحبه الذي يحبه ويطمئن إليه ، ونبيه الذي يؤمن به ويصدق تصديق القلب المتصل ، لا يطلب دليلاً من خارجه .. وإذا الألم يفيض على لسانه ، وهو الصابر المحتسب القوي على الألم ، فيقول : والله ما رمينا بهذا في جاهلية . أفترضى به في الإسلام ؟ وهي كلمة تحمل من المرارة ما تحمل . حتى إذا قالت له ابنته المريضة المعذبة : أجب عني رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال في مرارة هامة : والله ما أدري ما أقول لرسول الله - صلى الله عليه وسلم !

وأم رومان - زوج الصديق رضي الله عنهما - وهي تماسك أمام ابنتها المفجوعة في كل شيء . المريضة التي تبكي حتى تظن أن البكاء فالتق كبدها . فتقول لها : يا بنية هوني على نفسك الشأن ، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها .. ولكن هذا التماسك يترايل وعائشة تقول لها : أجيبي عني رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فتقول كما قال زوجها من قبل : والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم !

والرجل المسلم الطيب الطاهر المجاهد في سبيل الله صفوان بن المعطل . وهو يرمى بخيانة نبيه في زوجه . فيرمى بذلك في إسلامه ، وفي أمانته ، وفي شرفه ، وفي حميته . وفي كل ما يعتز به صحابي ، وهو من ذلك كله بريء . وهو يفتاحاً بالاتهام الظالم وقلبه بريء من تصوره ، فيقول : سبحان الله ! والله ما كشفت كتف أنثى قط . ويعلم أن حسان بن ثابت يروج لهذا الإفك عنه ، فلا يملك نفسه أن يضربه بالسيف على رأسه ضربة تكاد تودي به . ودافعه إلى رفع سيفه على امرئ مسلم ، وهو منهي عنه ، أن الألم قد تجاوز طاقته ، فلم يملك زمام نفسه الجريح !

ثم ها هو ذا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو رسول الله ، وهو في الذروة من بني هاشم .. ها هو ذا يرمى في بيته . وفي من ؟ في عائشة التي حلت من قلبه في مكان الابنة والزوجة والحبيبة . وها هو ذا يرمى في طهارة فراشه ، وهو الطاهر الذي تفيض منه الطهارة . وها هو ذا يرمى في صيانة حرمة ، وهو القائم على الحرمات في أمته . وها هو ذا يرمى في حيطة ربه له ، وهو الرسول المعصوم من كل سوء .

ها هو ذا - صلى الله عليه وسلم - يرمى في كل شيء حين يرمى في عائشة - رضي الله عنها - يرمى في فراشه وعرضه ، وقلبه ورسالته . يرمى في كل ما يعتز به عربي ، وكل ما يعتز به نبي .. ها هو ذا يرمى في هذا كله ؛ ويتحدث الناس به في المدينة شهراً كاملاً ، فلا يملك أن يضع لهذا كله حداً . والله يريد لحكمة يراها أن يدع هذا الأمر شهراً كاملاً لا يبين فيه بياناً . ومحمد الإنسان يعاني ما يعانيه الإنسان في هذا الموقف الأليم . يعاني من العار ، ويعاني فجعة القلب ؛ ويعاني فوق ذلك الوحشة المؤرقة . الوحشة من نور الله الذي اعتاد أن ينير له الطريق .. والشك يعمل في قلبه - مع وجود القرائن الكثيرة على براءة أهله ، ولكنه لا يطمئن نهائياً إلى هذه القرائن - والفرية تفوح في المدينة ، وقلبه الإنساني المحب لزوج الصغيرة يتعذب بالشك ؛ فلا يملك أن يطرد الشك . لأنه في النهاية بشر ، ينفعل في هذا انفعالات البشر . وزوج لا يطبق أن يمس فراشه . ورجل تتضخم بذرة الشك في قلبه متى استقرت ، ويصعب عليه اقتلاعها دون دليل حاسم .

وها هو ذا يتحمل عليه العبء وحده ، فيبعث إلى أسامة بن زيد . حبه القريب إلى قلبه .. ويبعث إلى علي ابن أبي طالب . ابن عمه وسنده . يستشيرهما في خاصة أمره . فأما علي فهو من عصب محمد ، وهو شديد الحساسية بالموقف لهذا السبب . ثم هو شديد الحساسية بالألم والقلق اللذين يعتصران قلب محمد ، ابن عمه وكافله . فهو يشير بأن الله لم يضيئ عليه . ويشير مع هذا بالثبوت من الجارية ليطمئن قلب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ويستقر على قرار . وأما أسامة فيدرك ما بقلب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الود لأهله ، والتعب لحاظر الفراق ، فيشير بما يعلمه من طهارة أم المؤمنين ، وكذب المقترين الأفاكين .

ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - في لفة الإنسان ، وفي قلق الإنسان ، يستمد من حديث أسامة ، ومن شهادة الجارية مدداً وقوة يواجه بهما القوم في المسجد ، فيستعذر ممن نالوا عرضه ، ورموا أهله ، ورموا رجلاً من فضلاء المسلمين لا يعلم أحد عليه من سوء .. فيقع بين الأوس والخزرج ما يقع من تناور - وهم في مسجد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وفي حضرة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وبدل هذا على الجو الذي كان يظلل الجماعة المسلمة في هذه الفترة الغريبة ، وقد تحدثت قداسة القيادة ، ويحز هذا في نفس الرسول - صلى الله عليه وسلم - والنور الذي اعتاد أن يسعفه لا ينير له الطريق ! فإذا هو يذهب إلى عائشة نفسها يصارحها بما يقول الناس ؛ ويطلب منها هي البيان الشافي المريح !

وعندما تصل الآلام إلى ذروتها على هذا النحو يتعطف عليه ربه ، فيتنزل القرآن ببراءة عائشة الصديقة

الطاهرة ؛ وبراءة بيت النبوة الطيب الرفيع ؛ ويكشف المنافقين الذين حاكوا هذا الإفك ، ويرسم الطريق المستقيم للجماعة المسلمة في مواجهة مثل هذا الشأن العظيم .

ولقد قالت عائشة عن هذا القرآن الذي تنزل : « وأنا والله أعلم حينئذ أني بريئة ، وأن الله تعالى ميراثي ببراءة تي . ولكني والله ما كنت أظن أن ينزل الله تعالى في شأني وحياً يتلى . ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيّ بأمر يتلى . ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في النوم رؤيا يرثني الله تعالى بها » ..

ولكن الأمر - كما يبدو من ذلك الاستعراض - لم يكن أمر عائشة - رضي الله عنها - ولا قاصراً على شخصها . فلقد تجاوزها إلى شخص الرسول - صلى الله عليه وسلم - ووظيفته في الجماعة يومها . بل تجاوزه إلى صلته بربه ورسالته كلها . وما كان حديث الإفك رمية لعائشة وحدها ، إنما كان رمية للعقيدة في شخص نبيا وبانيها .. من أجل ذلك أنزل الله القرآن ليفصل في القضية المتبدعة ، ويرد المكيدة المدبرة ، ويتولى المعركة الدائرة ضد الإسلام ورسول الإسلام ؛ ويكشف عن الحكمة العليا وراء ذلك كله ؛ وما يعلمها إلا الله :

« إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم . لا تحسبوه شراً لكم ، بل هو خير لكم . لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم . والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم » .

فهم ليسوا فرداً ولا أفراداً ؛ إنما هم « عصبة » متجمعة ذات هدف واحد . ولم يكن عبد الله بن أبي بن سلول وحده هو الذي أطلق ذلك الإفك . إنما هو الذي تولى معظمه . وهو يمثل عصبة اليهود أو المنافقين ، الذين عجزوا عن حرب الإسلام جهرة ؛ فتواروا وراء ستار الإسلام ليكيدوا للإسلام خفية . وكان حديث الإفك إحدى مكائدهم القاتلة . ثم خدع فيها المسلمون فخاض منهم من خاض في حديث الإفك كحمنة بنت جحش ؛ وحسان بن ثابت ، ومسطح بن أثانة . أما أصل التدبير فكان عند تلك العصبة ، وعلى رأسها ابن سلول ، الحذر الماكر ، الذي لم يظهر بشخصه في المعركة . ولم يقل علانية ما يؤخذ به ، فيقاد إلى الحد . إنما كان يمس به بين ملته الذين يطمئن إليهم ، ولا يشهدون عليه . وكان التدبير من المهارة والخبث بحيث أمكن أن ترجف به المدينة شهراً كاملاً ، وأن تتداوله الألسنة في أظھر بيثة وأتقاها !

وقد بدأ السياق ببيان تلك الحقيقة ليكشف عن ضخامة الحادث ، وعمق جذوره ، وما وراءه من عصبة تكيد للإسلام والمسلمين هذا الكيد الدقيق العميق اللثيم .

ثم سارع بتطمين المسلمين من عاقبة هذا الكيد :

« لا تحسبوه شراً لكم ؛ بل هو خير لكم » ..

خير . فهو يكشف عن الكائدين للإسلام في شخص رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأهل بيته . وهو يكشف للجماعة المسلمة عن ضرورة تحريم القذف وأخذ القاذفين بالحد الذي فرضه الله ؛ ويبين مدى الأخطار التي تحيق بالجماعة لو أطلقت فيها الألسنة تقذف المحصنات الغافلات المؤمنات . فهي عندئذ لا تقف عند حد . إنما تمضي صعداً إلى أشرف المقامات ، وتتطاول إلى أعلى الهامات ، وتعدم الجماعة كل وقاية وكل تحرج وكل حياة .

وهو خير أن يكشف الله للجماعة المسلمة - بهذه المناسبة - عن المنهج القويم في مواجهة مثل هذا الأمر العظيم .

أما الآلام التي عاناها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأهل بيته ، والجماعة المسلمة كلها ، فهي ثمن

التجربة ، وضريبة الابتلاء ، الواجبة الأداء !

أما الذين خاضوا في الإفك ، فلكل منهم بقدر نصيبه من تلك الخطيئة : « لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم » .. ولكل منهم نصيبه من سوء العاقبة عند الله . وبئس ما اكتسبوه ، فهو إثم يعاقبون عليه في حياتهم الدنيا وحياتهم الأخرى : « والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم » يناسب نصيبه من ذلك الجرم العظيم .

والذي تولى كبره ، وقاد حملته ، واضطلع منه بالنصيب الأوفى ، كان هو عبد الله بن أبي بن سلول . رأس النفاق ، وحامل لواء الكيد . ولقد عرف كيف يختار مقتلاً ، لولا أن الله كان من ورائه محيطاً ، وكان لدينه حافظاً ، ولرسوله عاصماً ، وللجماعة المسلمة راعياً .. ولقد روي أنه لما مر صفوان بن المعطل يهودج أم المؤمنين وابن سلول في ملأ من قومه قال : من هذه ؟ فقالوا : عائشة رضي الله عنها .. فقال : والله ما نجت منه ولا نجا منها . وقال : امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت ؛ ثم جاء يقودها !

وهي قولة خبيثة راح يذيعها - عن طريق عصبة النفاق - بوسائل ملتوية . بلغ من خبثها أن تموج المدينة بالفرية التي لا تصدق ، والتي تكذبها القرائن كلها . وأن تلوكها السنة المسلمين غير متخرجين . وأن تصبح موضوع أحاديثهم شهراً كاملاً . وهي الفرية الجديرة بأن تنفى وتستبعد للوهلة الأولى .

وإن الإنسان ليدهش - حتى اليوم - كيف أمكن أن تروج فرية ساقطة كهذه في جو الجماعة المسلمة حينذاك . وأن تحدث هذه الآثار الضخمة في جسم الجماعة ، وتسبب هذه الآلام القاسية لأطهر النفوس وأكبرها على الإطلاق .

لقد كانت معركة خاضها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وخاضتها الجماعة المسلمة يومذاك . وخاضها الإسلام . معركة ضخمة لعلها أضخم المعارك التي خاضها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وخرج منها منتصراً كاطماً لآلامه الكبار ، محتفظاً بوقار نفسه وعظمة قلبه وجميل صبره . فلم تؤثر عنه كلمة واحدة تدل على نفاد صبره وضعف احتماله . والآلام التي تناوشه لعلها أعظم الآلام التي مرت به في حياته . والخطر على الإسلام من تلك الفرية من أشد الأخطار التي تعرض لها في تاريخه .

ولو استشار كل مسلم قلبه يومها لأفتاه ؛ ولو عاد إلى منطق الفطرة لهده . والقرآن الكريم يوجه المسلمين إلى هذا المنهج في مواجهة الأمور ، بوصفه أول خطوة في الحكم عليها :

« لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً ، وقالوا : هذا إفك مبين » ..

نعم كان هذا هو الأولى .. أن يظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً . وأن يستبعدوا سقوط أنفسهم في مثل هذه الحمأة .. وامرأة نبيهم الطاهرة وأخوهم الصحابي المجاهد هما من أنفسهم . فظن الخير بهما أولى . فإن ما لا يليق بهم لا يليق بزواج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولا يليق بصاحبه الذي لم يعلم عنه إلا خيراً .. كذلك فعل أبو أيوب خالد بن زيد الأنصاري وامرأته - رضي الله عنهما - كما روى الإمام محمد ابن اسحاق : أن أبا أيوب قالت له امرأته أم أيوب : يا أبا أيوب أما تسمع ما يقول الناس في عائشة - رضي الله عنها ؟ - قال : نعم . وذلك الكذب . أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب ؟ قالت : لا والله ما كنت لأفعله . قال : فعائشة والله خير منك .. ونقل الإمام محمود بن عمر الزمخشري في تفسيره : « الكشاف » أن أبا أيوب الأنصاري قال لأم أيوب : ألا ترين ما يقال ؟ فقالت : لو كنت بدل صفوان أكنت تظن بحرمة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سوءاً ؟ قال : لا . قالت : ولو كنت أنا بدل عائشة - رضي الله عنها -

ما خنت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فعائشة خير مني ، وصفوان خير منك ..

وكلتا الروايتين تدلان على أن بعض المسلمين رجع إلى نفسه واستفتى قلبه ، فاستبعد أن يقع ما نسب إلى عائشة ، وما نسب إلى رجل من المسلمين : من معصية الله وخيانة لرسوله ، وارتكاس في حماة الفاحشة ، لمجرد شبهة لا تقف للمناقشة !

هذه هي الخطوة الأولى في المنهج الذي يفرضه القرآن لمواجهة الأمور . خطوة الدليل الباطني الوجداني . فأما الخطوة الثانية فهي طلب الدليل الخارجي والبرهان الواقعي :

« لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء ! فإذا لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون » .. وهذه الفرية الضخمة التي تتناول أعلى المقامات ، وأطهر الأعراض ، ما كان ينبغي أن تمر هكذا سهلة هينة ؛ وأن تشيع هكذا دون تثبت ولا بينة ؛ وأن تتقاذفها الألسنة وتلوكها الأفواه دون شاهد ولا دليل : « لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء ! » وهم لم يفعلوا فهم كاذبون إذن . كاذبون عند الله الذي لا يبدل القول لديه ، والذي لا يتغير حكمه ، ولا يتبدل قراره . فهي الوصمة الثابتة الصادقة الدائمة التي لا براءة لهم منها ، ولا نجاة لهم من عقابها .

هاتان الخطوتان : خطوة عرض الأمر على القلب واستفتاء الضمير . وخطوة التثبت بالبينه والدليل .. غفل عنهما المؤمنون في حادث الإفك ؛ وتركوا الخائضين يخوضون في عرض رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو أمر عظيم لولا لطف الله لمس الجماعة كلها البلاء العظيم . فالله يحذرهم أن يعودوا لمثله أبداً بعد هذا الدرس الأليم :

« ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم » ..

لقد احتسبها الله للجماعة المسلمة الناشئة درساً قاسياً . فأدركهم بفضلهم ورحمته ولم يمسه بعقابهم وعذابه . فهي فعلة تستحق العذاب العظيم . العذاب الذي يتناسب مع العذاب الذي سبوه للرسول - صلى الله عليه وسلم - وزوجه وصديقه وصاحبه الذي لا يعلم عليه إلا خيراً . والعذاب الذي يتناسب مع الشر الذي ذاع في الجماعة المسلمة وشاع ؛ ومس كل المقدسات التي تقوم عليها حياة الجماعة . والعذاب الذي يناسب خبث الكيد الذي كادته عصابة المنافقين للعقيدة لتقتلعها من جذورها حين ترزلق ثقة المؤمنين برهم ونيهم وأنفسهم طوال شهر كامل ، حافل بالقلق والقلقلة والحيرة بلا يقين ! ولكن فضل الله تدارك الجماعة الناشئة ، ورحمته شملت المخطئين ، بعد الدرس الأليم .

والقرآن يرسم صورة لتلك الفترة التي أفلت فيها الزمام ؛ واختلت فيها المقاييس ، واضطربت فيها القيم ، وضاعت فيها الأصول :

« إذ تلقونه بألسنتكم ، وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم ، وتحسبونه هيناً ، وهو عند الله عظيم » .. وهي صورة فيها الخفة والاستهتار وقلة التحرج ، وتناول أعظم الأمور وأخطرها بلا مبالاة ولا اهتمام :

« إذ تلقونه بألسنتكم » .. لسان يتلقى عن لسان ، بلا تدبر ولا ترو ولا فحص ولا إنعام نظر . حتى لكأن القول لا يمر على الآذان ، ولا تملاه الرؤوس ، ولا تدبره القلوب ! « وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم » .. بأفواهكم لا بوعيككم ولا بعقلكم ولا بقلبيكم . إنما هي كلمات تقذف بها الأفواه ، قبل أن تستقر في المدارك ، وقبل أن تتلقاها العقول .. « وتحسبونه هيناً » أن تقذفوا عرض رسول الله ، وأن تدعوا الألم

يعصر قلبه وقلب زوجته وأهله ؛ وأن تلوثوا بيت الصديق الذي لم يرم في الجاهلية ؛ وأن تهموا صحابياً مجاهداً في سبيل الله . وأن تمسوا عصمة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وصلته بربه ، ورعاية الله له .. « وتحسبونه هيناً » .. « وهو عند الله عظيم » .. وما يعظم عند الله إلا الجليل الضخم الذي تزلزل له الرواسي ، وتضج منه الأرض والسماء .

ولقد كان ينبغي أن تحفل القلوب من مجرد سماعه ، وأن تتخرج من مجرد النطق به ، وأن تنكر أن يكون هذا موضوعاً للحديث ؛ وأن تتوجه إلى الله تترهه عن أن يدع نبيه لمثل هذا ؛ وأن تقذف بهذا الإفك بعيداً عن ذلك الجو الطاهر الكريم :

« ولولا إذ سمعتموه قلمت : ما يكون لنا أن نتكلم بهذا . سبحانك ! هذا بهتان عظيم » ..

وعندما تصل هذه اللمسة إلى أعماق القلوب فتهزها هزاً ؛ وهي تطلعها على ضخامة ما جنت وبشاعة ما عملت .. عندئذ يجيء التحذير من العودة إلى مثل هذا الأمر العظيم :

« يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين » ..

« يعظكم » .. في أسلوب التربية المؤثر . في أنسب الظروف للسمع والطاعة والاعتبار . مع تضمين اللفظ معنى التحذير من العودة إلى مثل ما كان : « يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً » .. ومع تعليق إيمانهم على الانتفاع بتلك العظة : « إن كنتم مؤمنين » .. فالؤمنون لا يمكن أن يكشف لهم عن بشاعة عمل كهذا الكشف ، وأن يحذروا منه مثل هذا التحذير ، ثم يعودوا إليه وهم مؤمنون :

« ويبين الله لكم الآيات » .. على مثال ما بين في حديث الإفك ، وكشف عما وراءه من كيد ؛ وما وقع فيه من خطايا وأخطاء : « والله عليم حكيم » يعلم البواعث والنوايا والغايات والأهداف ؛ ويعلم مداخل القلوب ، ومسارب النفوس . وهو حكيم في علاجها ، وتدبير أمرها ، ووضع النظم والحدود التي تصلح بها ..

* * *

ثم يمضي في التعقيب على حديث الإفك ؛ وما تحلف عنه من آثار ؛ مكرراً التحذير من مثله ، مذكراً بفضل الله ورحمته ، متوعداً من يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات بعذاب الله في الآخرة . ذلك مع تنقية النفوس من آثار المعركة ؛ وإطلاقها من ملابس الأرض ، وإعادة الصفاء إليها والإشراق .. كما تتمثل في موقف أبي بكر - رضي الله عنه - من قريبه مسطح بن أثانة الذي خاض في حديث الإفك مع من خاض : « إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون » ..

والذين يرمون المحصنات - وبخاصة أولئك الذين تجرأوا على رمي بيت النبوة الكريم - إنما يعملون على زعزعة ثقة الجماعة المؤمنة بالخير والعفة والنظافة ؛ وعلى إزالة التحرج من ارتكاب الفاحشة ، وذلك عن طريق الإيحاء بأن الفاحشة شائعة فيها .. بذلك تشيع الفاحشة في النفوس ، لتشيع بعد ذلك في الواقع . من أجل هذا وصف الذين يرمون المحصنات بأنهم يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا ، وتوعدهم بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة .

وذلك جانب من منهج التربية ، وإجراء من إجراءات الوقاية . يقوم على خبرة بالنفس البشرية ، ومعرفة بطريقة تكيف مشاعرها واتجاهاتها .. ومن ثم يعقب بقوله : « والله يعلم وأنتم لا تعلمون » .. ومن ذا الذي

يعلم أمر هذه النفس إلا الذي خلقها ؟ ومن ذا الذي يدبر أمر هذه الإنسانية إلا الذي برأها ؟ ومن ذا الذي يرى الظاهر والباطن ، ولا يخفى على علمه شيء إلا العليم الخبير ؟
ومرة أخرى يذكر المؤمنين بفضل الله عليهم ورحمته :
« ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رؤوف رحيم » ..

إن الحدث لعظيم ، وإن الخطأ لجسيم ، وإن الشر الكامن فيه لخلق أن يصيب الجماعة المسلمة كلها بالسوء . ولكن فضل الله ورحمته ، ورأفته وراعيته .. ذلك ما وقاهم السوء .. ومن ثم يذكرهم به المرة بعد المرة ؛ وهو يريد بهم بهذه التجربة الضخمة التي شملت حياة المسلمين .

فإذا تمثلوا أن ذلك الشر العظيم كان وشيكاً أن يصيبهم جميعاً ، لولا فضل الله ورحمته ، صور لهم عملهم بأنه اتباع لخطوات الشيطان . وما كان لهم أن يتبعوا خطوات عدوهم وعدو أبيهم من قديم . وحذرهم ما يقودهم الشيطان إليه من مثل هذا الشر المستطير :

« يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ؛ ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر . ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكا منكم من أحد أبداً ؛ ولكن الله يزكي من يشاء ، والله سميع عليم » ..
وإنها صورة مستنكرة أن يخطو الشيطان فيتبع المؤمنون خطاه ، وهم أجدر الناس أن ينفروا من الشيطان وأن يسلكوا طريقاً غير طريقه المشؤوم ! صورة مستنكرة ينفّر منها طبع المؤمن ، ويرتجف لها وجدانه ، ويقشعر لها خياله ! ورسم هذه الصورة ومواجهة المؤمنين بها يثير في نفوسهم اليقظة والحذر والحساسية :
« ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر » .. وحديث الإفك تمّوذج من هذا المنكر الذي قاد إليه المؤمنين الذين خاضوا فيه . وهو تمّوذج منفر شنيع .

وإن الإنسان لضعيف ، معرض للزعات ، عرضة للتلوث . إلا أن يدركه فضل الله ورحمته . حين يتجه إلى الله ، ويسير على نهجه .

« ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكا منكم من أحد أبداً . ولكن الله يزكي من يشاء » ..

فنور الله الذي يشرق في القلب يطهره ويزكّيه . ولولا فضل الله ورحمته لم يزك من أحد ولم يتطهر . والله يسمع ويعلم ، فيزكي من يستحق التزكية ، ويطهر من يعلم فيه الخير والاستعداد « والله سميع عليم » ..
وعلى ذكر التزكية والطهارة تجيء الدعوة إلى الصفح والمغفرة بين بعض المؤمنين وبعض - كما يرجون غفران الله لما يرتكبونه من أخطاء وذنوب - :

« ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله ؛ وليعفوا وليصْفَحُوا . ألا تحبون أن يغفر الله لكم ؟ والله غفور رحيم » ..

نزلت في أبي بكر - رضي الله عنه - بعد نزول القرآن براءة الصديقة . وقد عرف أن مسطح بن أثاثة كان ممن خاضوا فيه . وهو قريبه . وهو من فقراء المهاجرين . وكان أبو بكر - رضي الله عنه - ينفق عليه . فألى على نفسه لا ينفق مسطحاً بنافعة أبداً .

نزلت هذه الآية تذكر أبا بكر ، وتذكر المؤمنين ، بأنهم هم يخطئون ثم يحبون من الله أن يغفر لهم . فليأخذوا أنفسهم - بعضهم مع بعض - بهذا الذي يحبونه ، ولا يحلفوا أن يمتنعوا البر عن مستحقيه ، إن كانوا قد أخطأوا وأساءوا ..

وهنا نطلع على أفق عال من آفاق النفوس الزكية ، التي تطهرت بنور الله . أفق يشرق في نفس أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - أبي بكر الذي مسه حديث الإفك في أعماق قلبه ، والذي احتمل مرارة الاتهام لبيته وعرضه . فما يكاد يسمع دعوة ربه إلى العفو ؛ وما يكاد يلمس وجدانه ذلك السؤال الموحى : « ألا تحبون أن يغفر الله لكم ؟ » حتى يرتفع على الآلام ، ويرتفع على مشاعر الإنسان ، ويرتفع على منطق البيئة . وحتى تشف روحه وترف وتشرق بنور الله . فإذا هو يلي داعي الله في طمأنينة وصدق يقول : بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي . ويعيد إلى مسطح التفقة التي كان يفتق عليه ، ويحلف : والله لا أنزعها منه أبداً . ذلك في مقابل ما حلف : والله لا أنفعه بنافعة أبداً .

بذلك يمسح الله على آلام ذلك القلب الكبير ، ويغسله من أوضار المعركة ، ليبقى أبداً نظيفاً طاهراً زكياً مشرقاً بالنور ..

* * *

ذلك الغفران الذي يذكر الله المؤمنين به . إنما هو لمن تاب عن خطيئة رمي المحصنات وإشاعة الفاحشة في الذين آمنوا . فأما الذين يرمون المحصنات عن خبث وعن إصرار ، كأمثال ابن أبي فلا سماحة ولا عفو . ولو أفلتوا من الحد في الدنيا ، لأن الشهود لم يشهدوا فإن عذاب الله ينتظرهم في الآخرة . ويومذاك لن يحتاج الأمر إلى شهود :

« إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ، ولهم عذاب عظيم . يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون . يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ، ويعلمون أن الله هو الحق المبين » ..

ويجسم التعبير جريمة هؤلاء ويشعها ؛ وهو بصورها رمياً للمحصنات المؤمنات وهن غافلات غارّات ، غير آخذات حذرهن من الرمية . وهن يرثات الطوايا مطمئنات لا يحذرن شيئاً ، لأنهن لم يأتين شيئاً يحذرهن ! فهي جريمة تتمثل فيها الإشاعة كما تتمثل فيها الخسة . ومن ثم يعاجل مقترفها باللعنة . لعنة الله لهم ، وطردهم من رحمته في الدنيا والآخرة . ثم يرسم ذلك المشهد الأخاذ : « يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم » .. فإذا بعضهم يتهم بعضاً بالحق ، إذ كانوا يتهمون المحصنات الغافلات المؤمنات بالإفك ! وهي مقابلة في المشهد مؤثرة ، على طريقة التناسق الفني في التصوير القرآني .

« يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق » .. ويجزيهم جزاءهم العدل ، ويؤدي لهم حسابهم الدقيق . ويومئذ يستيقنون مما كانوا يستريبون : « ويعلمون أن الله هو الحق المبين » ..

* * *

ويحتم الحديث عن حادث الإفك ببيان عدل الله في اختياره الذي ركبه في الفطرة ، وحققه في واقع الناس . وهو أن تلتئم النفس الخبيثة بالنفس الخبيثة ، وأن تمتزج النفس الطيبة بالنفس الطيبة . وعلى هذا تقوم العلاقات بين الأزواج . وما كان يمكن أن تكون عاتشة - رضي الله عنها - كما رموها ، وهي مقسومة لأطيب نفس على ظهر هذه الأرض :

« الخبيثات للخبيثين ، والخبيثون للخبيثات . والطيبات للطيبين ، والطيبون للطيبات . أولئك مبرأون مما يقولون ، لهم مغفرة ورزق كريم » ..

ولقد أحبت نفس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عاتشة حباً عظيماً . فما كان يمكن أن يحبها الله لنيته

المعصوم ، إن لم تكن طاهرة تستحق هذا الحب العظيم .

أولئك الطيبون والطيبات « مبرأون مما يقولون » بفرطهم وطبيعتهم ، لا يلتبس بهم شيء مما قيل .
« لهم مغفرة ورزق كريم » .. مغفرة عما يقع منهم من أخطاء . ورزق كريم . دلالة على كرامتهم عند ربهم الكريم .

بذلك ينتهي حديث الإفك . ذلك الحادث الذي تعرضت فيه الجماعة المسلمة لأكبر محنة . إذ كانت محنة الثقة في طهارة بيت الرسول ، وفي عصمة الله لنبيه أن يجعل في بيته إلا العنصر الطاهر الكريم . وقد جعلها الله معرضاً لتربية الجماعة المسلمة ، حتى تشف وترف ؛ وترتفع إلى آفاق النور .. في سورة النور ..

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَاسْأَلُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ آرْجِعُوا فَآرْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾

قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنْ أَلَّ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾

وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَسِعُ عِلْمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَغْفِرِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَاكْتُبُوهُمُ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَاكُمْ وَلَا تُكْرَهُوا فَتَيَاتِكُمْ

عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أُرِدْنَ مُحْصَنًا لِيَتَّبِعُوا عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٣﴾

وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكَ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾

إن الإسلام - كما أسلفنا - لا يعتمد على العقوبة في إنشاء مجتمعه النظيف ، إنما يعتمد قبل كل شيء على الوقاية . وهو لا يحارب الدوافع الفطرية . ولكن ينظمها ويضمن لها الجو النظيف الخالي من المثيرات المصطنعة . والفكرة السائدة في منهج التربية الإسلامية في هذه الناحية ، هي تضييق فرص الغواية ، وإبعاد عوامل الفتنة ، وأخذ الطريق على أسباب التهييج والإثارة . مع إزالة العوائق دون الإشباع الطبيعي بوسائله النظيفة المشروعة ..

ومن هنا يجعل للبيوت حرمة لا يجوز المساس بها ؛ فلا يفاجأ الناس في بيوتهم بدخول الغرباء عليهم إلا بعد استئذانهم وسماحهم بالدخول ، خيفة أن تطلع الأعين على خفايا البيوت ، وعلى عورات أهلها وهم غافلون.. ذلك مع غض البصر من الرجال والنساء ، وعدم التبرج بالزينة لإثارة الشهوات . ومن هنا كذلك ييسر الزواج للفقراء من الرجال والنساء . فالإحصان هو الضمان الحقيقي للاكتفاء .. وينهى عن تعريض الرقيق للبعاء كي لا تكون الفعلة سهلة ميسرة ، فتغري بيسرها وسهولتها بالفحشاء . فلننظر نظرة تفصيلية في تلك الضمانات الوقائية التي يأخذ بها الإسلام .

* * *

« يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ، ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون . فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم . وإن قيل لكم : ارجعوا فارجعوا هو أذكى لكم ، والله بما تعملون عليم . ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة فيها متاع لكم . والله يعلم ما تبدون وما تكتمون » ..

لقد جعل الله البيوت سكناً ، يفىء إليها الناس ؛ فتسكن أرواحهم ؛ وتطمئن نفوسهم ؛ ويأمنون على عوراتهم وحرمتهم ، ويلقون أعباء الحذر والحرص المرهقة للأعصاب ! والبيوت لا تكون كذلك إلا حين تكون حرماً آمناً لا يستبيحه أحد إلا بعلم أهله وإذنه . وفي الوقت الذي يريدون ، وعلى الحالة التي يحبون أن يلقوا عليها الناس .

ذلك إلى أن استباحة حرمة البيت من الداخلين دون استئذان ، يجعل أعينهم تقع على عورات ؛ وتلتقي بمفاتيح تثير الشهوات ؛ وتهيئ الفرصة للغواية ، الناشئة من اللقاءات العابرة والنظرات الطائرة ، التي قد تنكرر فتتحول إلى نظرات قاصدة ، تحركها الميول التي أبقظتها اللقاءات الأولى على غير قصد ولا انتظار ؛ وتحولها إلى علاقات آتمة بعد بضع خطوات أو إلى شهوات محرومة تنشأ عنها العقد النفسية والانحرافات .

ولقد كانوا في الجاهلية يهجمون هجوماً . فيدخل الزائر البيت ، ثم يقول : لقد دخلت ! وكان يقع أن يكون صاحب الدار مع أهله في الحالة التي لا يجوز أن يراها عليها أحد . وكان يقع أن تكون المرأة عارية

أو مكشوفة العورة ، هي أو الرجل . وكان ذلك يؤدي ويجرح ، ويحرم البيوت أمنها وسكينتها ؛ كما يعرض النفوس من هنا ومن هناك للفتنة ، حين تقع العين على ما يثير .

من أجل هذا وذلك أدب الله المسلمين بهذا الأدب العالي . أدب الاستئذان على البيوت ، والسلام على أهلها لإيناسهم ، وإزالة الوحشة من نفوسهم ، قبل الدخول :

« يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها » ..

ويعبر عن الاستئذان بالاستئناس - وهو تعبير يوحي بلطف الاستئذان ، ولطف الطريقة التي يجيء بها الطارق ، فتحدث في نفوس أهل البيت أنساً به ، واستعداداً لاستقباله . وهي لفظة دقيقة لطيفة ، لرعاية أحوال النفوس ، ولتقدير ظروف الناس في بيوتهم ، وما يلبسها من ضرورات لا يجوز أن يشقى بها أهلها ويحرجوا أمام الطارقين في ليل أو نهار .

وبعد الاستئذان إما أن يكون في البيوت أحد من أهلها أو لا يكون . فإن لم يكن فيها أحد فلا يجوز اقتحامها بعد الاستئذان ، لأنه لا دخول بغير إذن :

« فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم » ..

وإن كان فيها أحد من أهلها فإن مجرد الاستئذان لا يبيح الدخول ؛ فإنما هو طلب للإذن . فإن لم يأذن أهل البيت فلا دخول كذلك . ويجب الانصراف دون تلكؤ ولا انتظار :

« وإن قيل لكم : ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم » ..

ارجعوا دون أن تجدوا في أنفسكم غضاضة ، ودون أن تستشعروا من أهل البيت الإساءة إليكم ، أو النفرة منكم . فللناس أسرارهم وأعدارهم . ويجب أن يترك لهم وحدهم تقدير ظروفهم وملابساتهم في كل حين .

« والله بما تعملون عليم » .. فهو المطلع على خفايا القلوب ؛ وعلى ما فيها من دوافع ومثيرات .

فأما البيوت العامة كالفنادق والمثاوى والبيوت المعدة للضيافة منفصلة عن السكن ، فلا حرج في الدخول إليها بغير استئذان ، دفعاً للمشقة ما دامت علة الاستئذان منتفية :

« ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة فيها متاع لكم » ..

« والله يعلم ما تبدون وما تكتمون » .. فالأمر معلق باطلاع الله على ظاهرهم وخافيتهم ؛ ورقابته لكم في سرهم وعلايتكم . وفي هذه الرقابة ضمان لطاعة القلوب ، وامثالها لذلك الأدب العالي ، الذي يأخذها الله به في كتابه ، الذي يرسم للبشرية نهجها الكامل في كل اتجاه .

إن القرآن منهاج حياة . فهو يحتفل بهذه الجزئية من الحياة الاجتماعية ، ويمنحها هذه العناية ، لأنه يعالج الحياة كلياً وجزئياً ، لينسق بين أجزائها وبين فكرتها الكلية العليا بهذا العلاج . فالاستئذان على البيوت يحقق للبيوت حرمتها التي تجعل منها مثابة وسكناً . ويوفر على أهلها الحرج من المفاجأة ، والضيق بالمباغثة ، والتأذي بانكشاف العورات .. وهي عورات كثيرة . تعني غير ما يتبادر إلى الذهن عند ذكر هذه اللفظة .. إنها ليست عورات البدن وحدها . إنما تضاف إليها عورات الطعام ، وعورات اللباس ، وعورات الأثاث ، التي قد لا يحب أهلها أن يفاجئهم عليها الناس دون تهيؤ وتجميل وإعداد . وهي عورات المشاعر والحالات النفسية ،

فكم منا يحب أن يراه الناس وهو في حالة ضعف يبكي لانفعال مؤثر ، أو يغضب لشأن مثير ، أو يتوجع
لألم يخفيه عن الغرباء ؟!

وكل هذه الدقائق يرعاها المنهج القرآني بهذا الأدب الرفيع ، أدب الاستئذان ؛ ويرعى معها تقليل فرص
النظرات السانحة والالتقاءات العابرة ، التي طالما أيقظت في النفوس كامن الشهوات والرغبات ؛ وطالما نشأت
عنها علاقات ولقاءات ، يدبرها الشيطان ، ويوجهها في غفلة عن العيون الراحية ، والقلوب الناصحة ، هنا
أو هناك !

ولقد وعاهها الذين آمنوا يوم خوطبوا بها أول مرة عند نزول هذه الآيات . وبدأ بها رسول الله - عليه
الصلاة والسلام .

أخرج أبو داود والنسائي من حديث أبي عمر الأوزاعي - بإسناده - عن قيس بن سعد هو ابن عبادة
قال : زارنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في منزلنا فقال : « السلام عليكم ورحمة الله » فرد سعد رداً
خفياً . قال قيس : فقلت : ألا تأذن لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - ؟ فقال : دعه يكثر علينا من السلام .
فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « السلام عليكم ورحمة الله » . فرد سعد رداً خفياً . ثم قال رسول
الله - صلى الله عليه وسلم - : « السلام عليكم ورحمة الله » . ثم رجع رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
وأتبعه سعد فقال : يا رسول الله إني كنت أسمع تسليمك وأرد عليك رداً خفياً لتكثر علينا من السلام - فقال :
فانصرف معه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأمر له سعد بغسل فاعتسل ؛ ثم ناوله خميصة مصبوغة
بزعفران أو ورس ، فاشتمل بها ، ثم رفع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يديه ، وهو يقول : « اللهم
اجعل صلاتك ورحمتك على آل سعد بن عبادة » ... الخ الحديث .

وأخرج أبو داود - بإسناده - عن عبد الله بن بشر قال : كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا
أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ؛ ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر ، ويقول : « السلام عليكم .
السلام عليكم » . ذلك أن الدور لم يكن يومئذ عليها ستور .

وروى أبو داود كذلك - بإسناده - عن هذيل قال : جاء رجل - قال عثمان : سعد - فوقف على باب
النبي - صلى الله عليه وسلم - يستأذن . فقام على الباب - قال عثمان : مستقبل الباب - فقال له النبي - صلى الله
عليه وسلم - : « هكذا عنك - أو هكذا - وإنما الاستئذان من النظر » .

وفي الصحيحين عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « لو أن امرأاً اطلع عليك بغير إذن ،
فحذفت بحصاة ففقت عينه ما كان عليك من جناح » .

وروى أبو داود - بإسناده - عن ربيعي قال : أتى رجل من بني عامر استأذن على رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - وهو في بيته فقال : أألج ؟ فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - لخادمه : « اخرج إلى هذا
فعلمه الاستئذان ، فقل له : قل : السلام عليكم . أأدخل ؟ » فسمعها الرجل فقال : السلام عليكم . أأدخل ؟
فأذن له النبي - صلى الله عليه وسلم - فدخل .

وقال هشيم : قال مغيرة : قال مجاهد : جاء ابن عمر من حاجة ، وقد آذاه الرمضاء ؛ فأتى فسطاط امرأة

(١) الخميصة : ثوب خز أو صوف معلم .

من قريش ، فقال : السلام عليكم . أأدخل ؟ قالت : ادخل بسلام . فأعاد . فأعادت . وهو يراوح بين قدميه . قال : قولي : ادخل . قالت : ادخل . فدخل !

وروى عطاء بن رباح عن ابن عباس - رضي الله عنهما ، قال : قلت لأستاذن على أخواتي أيتام في حجري معي في بيت واحد ؟ قال : نعم . فرددت عليه ليرخص لي فأبى ، فقال : تحب أن تراها عريانة ؟ قلت : لا . قال : فاستأذن . قال : فراجعته أيضاً . فقال : أتحب أن تطيع الله ؟ قال : قلت : نعم . قال : فاستأذن . وجاء في الصحيح عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه نهى أن يطرق الرجل أهله طروقاً .. وفي رواية : ليلاً يتخونهم .

وفي حديث آخر أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قدم المدينة نهراً ، فأناخ بظاهرها وقال : « انتظروا حتى ندخل عشاء - يعني آخر النهار - حتى تمتشط الشعثة ، وتستحد المغيبة » .

إلى هذا الحد من اللطف والدقة بلغ حس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وصحابته ، بما علمهم الله من ذلك الأدب الرفيع الوضيء ، المشرق بنور الله .

ونحن اليوم مسلمون ، ولكن حساسيتنا بمثل هذه الدقائق قد تبلدت وغلظت . وإن الرجل ليهجم على أخيه في بيته ، في أية لحظة من لحظات الليل والنهار ، يطرقه ويطرقة فلا ينصرف أبداً حتى يزعم أهل البيت فيفتحوا له . وقد يكون في البيت هاتف « تليفون » يملك أن يستأذن عن طريقه ، قبل أن يجيء ، ليؤذن له أو يعلم أن الموعد لا يناسب ، ولكنه يهمل هذا الطريق ليهجم في غير أوان ، وعلى غير موعد . ثم لا يقبل العرف أن يرد عن البيت - وقد جاء - مهما كره أهل البيت تلك المفاجأة بلا إخطار ولا انتظار ! ونحن اليوم مسلمون ، ولكننا نطرق إخواننا في أية لحظة في موعد الطعام . فإن لم يقدم لنا الطعام وجدنا في أنفسنا من ذلك شيئاً ! ونطرقهم في الليل المتأخر ، فإن لم يدعونا إلى المبيت عندهم وجدنا في أنفسنا من ذلك شيئاً ! دون أن نقدر أعدارهم في هذا وذاك !

ذلك أننا لا نتأدب بأدب الإسلام ، ولا نجعل هواننا تبعاً لما جاء به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إنما نحن عبيد لعرف خاطئ ، ما أنزل الله به من سلطان !

ونرى غيرنا ممن لم يعتنقوا الإسلام ، يحافظون على تقاليد في سلوكهم تشبه ما جاء به ديننا ليكون أدباً لنا في النفس ، وتقليداً من تقاليدنا في السلوك . فيعجبنا ما نراهم عليه أحياناً ، وتندر به أحياناً . ولا نحاول أن نعرف ديننا الأصيل ، فنفيء إليه مطمئنين .

* * *

وبعد الانتهاء من أدب الاستئذان على البيوت - وهو إجراء وقائي في طريق تطهير المشاعر واتقاء أسباب الفتنة العابرة - يأخذ على الفتنة الطريق كي لا تتطلق من عقابها ، بدافع النظر لمواضع الفتنة المثيرة ، وبدافع الحركة المعبرة ، الداعية إلى الغواية :

« قل للمؤمنين : يغضوا من أبصارهم ، ويحفظوا فروجهم ، ذلك أزكى لهم . إن الله خبير بما يصنعون .

وقل للمؤمنات : يغضضن من أبصارهن ، ويحفظن فروجهن ، ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ؛ وليضربن بخمرهن على جيوبهن ، ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن ، أو آبائهن ، أو أبناءهن ، أو أخواتهن ، أو بني إخوانهن ، أو بنو إخوانهن ، أو نساءهن ، أو ما ملكت أيمانهن ، أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال ، أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء . ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن . وتوبوا إلى الله جميعاً - أيها المؤمنون - لعلكم تفلحون » ..

إن الإسلام يهدف إلى إقامة مجتمع نظيف ، لا تهاج فيه الشهوات في كل لحظة ، ولا تستثار فيه دفعات اللحم والدم في كل حين . فعمليات الاستثارة المستمرة تنتهي إلى سعار شهواني لا ينطفئ ولا يرتوي . والنظرة الخائنة ، والحركة المثيرة ، والزينة المتبرجة ، والجسم العاري ... كلها لا تصنع شيئاً إلا أن تهيج ذلك السعار الحيواني المجنون ! وإلا أن يفلت زمام الأعصاب والإرادة . فإما الإفشاء الفوضوي الذي لا يتقيد بقيد وإما الأمراض العصبية والعقد النفسية الناشئة من الكبح بعد الإثارة ! وهي تكاد أن تكون عملية تعذيب !!! وإحدى وسائل الإسلام إلى إنشاء مجتمع نظيف هي الحيلولة دون هذه الاستثارة ، وإبقاء الدافع الفطري العميق بين الجنسين ، سليماً ، وبقوته الطبيعية ، دون استثارة مصطنعة ، وتصريفه في موضعه المأمون النظيف . ولقد شاع في وقت من الأوقات أن النظرة المباحة ، والحديث الطليق ، والاختلاط الميسور ، والدعابة المرحية بين الجنسين ، والاطلاع على مواضع الفتنة المخيوة .. شاع أن كل هذا تنفيس وترويح ، وإطلاق للرغبات الحبيسة ، ووقاية من الكبت ، ومن العقد النفسية ، وتخفيف من حدة الضغط الجنسي ، وما وراءه من اندفاع غير مأمون ... الخ .

شاع هذا على إثر انتشار بعض النظريات المادية القائمة على تجريد الإنسان من خصائصه التي تفرقه من الحيوان ، والرجوع به إلى القاعدة الحيوانية الغارقة في الطين ! - وبخاصة نظرية فرويد - ولكن هذا لم يكن سوى فروض نظرية ، رأيت بعيني في أشد البلاد إباحية وتفلتا من جميع القيود الاجتماعية والأخلاقية والدينية والإنسانية ، ما يكذبها وينقضها من الأساس .

نعم . شاهدت في البلاد التي ليس فيها قيد واحد على الكشف الجسدي ، والاختلاط الجنسي ، بكل صورته وأشكاله ، أن هذا كله لم ينته بتهديب الدوافع الجنسية وترويضها . إنما انتهى إلى سعار مجنون لا يرتوي ولا يهدأ إلا ريثما يعود إلى الظمأ والاندفاع ! وشاهدت الأمراض النفسية والعقد التي كان مفهوماً أنها لا تنشأ إلا من الحرمان ، وإلا من التلهف على الجنس الآخر المحجوب ، شاهدتها بوفرة ومعها الشذوذ الجنسي بكل أنواعه .. ثمرة مباشرة للاختلاط الكامل الذي لا يقيد ولا يقف عند حد ؛ وللصداقات بين الجنسين تلك التي يباح معها كل شيء ! وللأجسام العارية في الطريق ، وللحركات المثيرة والنظرات الجاهرة ، واللففات الموقظة . وليس هنا مجال التفصيل وعرض الحوادث والشواهد . مما يدل بوضوح على ضرورة إعادة النظر في تلك النظريات التي كذبها الواقع المشهود .

إن الميل الفطري بين الرجل والمرأة ميل عميق في التكوين الحيوي ؛ لأن الله قد ناط به امتداد الحياة على هذه الأرض ؛ وتحقيق الخلافة لهذا الإنسان فيها . فهو ميل دائم يسكن فترة ثم يعود . وإثارته في كل حين تزيد من عرامته ؛ وتدفع به إلى الإفشاء المادي للحصول على الراحة . فإذا لم يتم هذا تعبت الأعصاب المستثارة .

(١) تراجع بتوسع فصل « المشكلة الجنسية » في كتاب : « الإنسان بين المادية والإسلام » لمحمد قطب . « دار الشروق »

وكان هذا بمثابة عملية تعذيب مستمرة ! والنظرة تثير . والحركة تثير . والضحكة تثير . والدعابة تثير . والنبرة المعبرة عن هذا الميل تثير . والطريق المأمون هو تقليل هذه المثيرات بحيث يبقى هذا الميل في حدوده الطبيعية ، ثم يلبي تلبية طبيعية .. وهذا هو المنهج الذي يختاره الإسلام . مع تهذيب الطبع ، وشغل الطاقة البشرية بهوم أخرى في الحياة ، غير تلبية دافع اللحم والدم ، فلا تكون هذه التلبية هي المنفذ الوحيد !

وفي الآيتين المعروضتين هنا نماذج من تقليل فرص الاستثارة والغواية والفتنة من الجانبين :

« قل للمؤمنين : يغضوا من أبصارهم ، ويحفظوا فروجهم . ذلك أزكى لهم . إن الله خبير بما يصنعون » .. وغض البصر من جانب الرجال أدب نفسي ، ومحاولة للاستعلاء على الرغبة في الاطلاع على المحاسن والمفاتن في الوجوه والأجسام . كما أن فيه إغلاقاً للنافذة الأولى من نوافذ الفتنة والغواية . ومحاولة عملية للحيلولة دون وصول السهم المسموم !

وحفظ الفرج هو الثمرة الطبيعية لغض البصر . أو هو الخطوة التالية لتحكيم الإرادة ، ويقظة الرقابة ، والاستعلاء على الرغبة في مراحلها الأولى . ومن ثم يجمع بينهما في آية واحدة ؛ بوصفهما سبباً ونتيجة ؛ أو باعتبارهما خطوتين متواليتين في عالم الضمير وعالم الواقع . كلتاهما قريب من قريب .

« ذلك أزكى لهم » .. فهو أظهر لمشاعرهم ؛ وأضمن لعدم تلوثها بالانفعالات الشهوية في غير موضعها المشروع النظيف ، وعدم ارتكاسها إلى الدرك الحيواني الهابط . وهو أظهر للجماعة وأصون لحرمتها وأعراضها ، وجوها الذي تنتفس فيه .

والله هو الذي يأخذهم بهذه الوقاية ؛ وهو العليم بتركيبهم النفسي وتكوينهم الفطري ، الخبير بحركات نفوسهم وحركات جوارحهم : « إن الله خبير بما يصنعون » ..

« وقل للمؤمنات : يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن » ..

فلا يرسلن بنظراتهن الجائعة المتلصصة ، أو الهاتفة المثيرة ، تستثير كوامن الفتنة في صدور الرجال . ولا يحسن فروجهن إلا في حلال طيب ، يلبي داعي الفطرة في جو نظيف ، لا ينجس الأطفال الذين يجيئون عن طريقه عن مواجهة المجتمع والحياة !

« ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها » ..

والزينة حلال للمرأة ، تلبية لفطرتها . فكل أنثى مولعة بأن تكون جميلة ، وأن تبدو جميلة . والزينة تختلف من عصر إلى عصر ؛ ولكن أساسها في الفطرة واحد ، هو الرغبة في تحصيل الجمال أو استكمالها ، وتجليته للرجال .

والإسلام لا يقاوم هذه الرغبة الفطرية ؛ ولكنه ينظمها ويضبطها ، ويجعلها تتبلور في الاتجاه بها إلى رجل واحد - هو شريك الحياة - يطلع منها على ما لا يطلع أحد سواه . ويشترك معه في الاطلاع على بعضها ، المحارم والمذكورون في الآية بعد ، ممن لا يثير شهواتهم ذلك الاطلاع .

فأما ما ظهر من الزينة في الوجه واليدين ، فيجوز كشفه . لأن كشف الوجه واليدين مباح لقوله - صلى الله عليه وسلم - لأسماء بنت أبي بكر : « يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض ، لم يصلح أن يرى منها إلا هذا^١ -

(١) رواه أبو داود في سننه وقال : إنه مرسل .

وأشار إلى وجهه وكفيه .

« وليضربن بخمرهن على جيوبهن » ..

والجيب فتحة الصدر في الثوب . والخمار غطاء الرأس والنحر والصدر . ليداري مفاتهن ، فلا يعرضها للعيون الجائعة ؛ ولا حتى لنظرة الفجاءة ، التي يتقي المتقون أن يطيلوها أو يعاودوها ، ولكنها قد ترك كميناً في أطوائهم بعد وقوعها على تلك المفاتن لو تركت مكشوفة !

إن الله لا يريد أن يعرض القلوب للتجربة والابتلاء في هذا النوع من البلاء !

والمؤمنات اللواتي تلقين هذا النهي . وقلوبهن مشرقة بنور الله ، لم يتلكن في الطاعة ، على الرغم من رغبتهن الفطرية في الظهور بالزينة والجمال . وقد كانت المرأة في الجاهلية - كما هي اليوم في الجاهلية الحديثة! - تمر بين الرجال مسفحة بصدرها لا يواريه شيء . وربما أظهرت عنقها وذوائب شعرها ، وأقرطة أذنيها . فلما أمر الله النساء أن يضربن بخمرهن على جيوبهن ، ولا يبدين زيتنهن إلا ما ظهر منها ، كن كما قالت عائشة رضي الله عنها - : « يرحم الله نساء المهاجرات الأول . لما أنزل الله : « وليضربن بخمرهن على جيوبهن » شققن مروطن فاختمرن بها^١ .. » وعن صفية - بنت شيبه قالت : بينا نحن عند عائشة . قالت : فذكرن نساء قريش وفضلهن . فقالت عائشة - رضي الله عنها - إن لنساء قريش لفضلاً . وإني والله ما رأيت أفضل من نساء الأنصار ، أشد تصديقاً لكتاب الله ، ولا إيماناً بالتنزيل . لما نزلت في سورة النور : « وليضربن بخمرهن على جيوبهن » انقلب رجالهن إلبين يتلون عليهن ما أنزل الله إليهم فيها ؛ ويتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته ، وعلى كل ذي قرابته . فما منهن امرأة إلا قامت إلى مرطها المرهل ، فاعتجرت به تصديقاً وإيماناً بما أنزل الله من كتابه . فأصبحن وراء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - معتجرات كأن على رؤوسهن الغربان^٢ .

لقد رفع الإسلام ذوق المجتمع الإسلامي ، وظهر إحساسه بالجمال ؛ فلم يعد الطابع الحيواني للجمال هو المستحب ، بل الطابع الإنساني المهدب .. وجمال الكشف الجسدي جمال حيواني يهفو إليه الإنسان بحس الحيوان ؛ مهما يكن من التناسق والاكتمال . فأما جمال الحشمة فهو الجمال التظيف ، الذي يرفع الذوق الجمالي ، ويجعله لا تقياً بالإنسان ، ويحيطه بالنظافة والطهارة في الحس والخيال .

وكذلك يصنع الإسلام اليوم في صفوف المؤمنات . على الرغم من هبوط الذوق العام ، وغلبة الطابع الحيواني عليه ؛ والجنوح به إلى التكشف والعري والتتري كما تتتري البهيمة ! فإذا هن يحجبن مفاتن أجسامهن طائعات ، في مجتمع يتكشف ويتبرج ، وتهتف الأنثى فيه للذكور حيثما كانت هتاف الحيوان للحيوان !

هذا التحشم وسيلة من الوسائل الوقائية للفرد والجماعة .. ومن ثم يبيح القرآن تركه عندما يأمن الفتنة . فيستني المحارم الذين لا توجه ميولهم عادة ولا تثار شهواتهم وهم :

الآباء والأبناء ، وآباء الأزواج وأبنائهم ، والإخوة وأبناء الإخوة ، وأبناء الأخوات .. كما يستني النساء المؤمنات : « أو نساھن » فأما غير المسلمات فلا . لأنهن قد يصفن لأزواجهن وإخوتهن ، وأبناء ملتهن مفاتن نساء المسلمين وعوراتهن لو اطلعن عليها . وفي الصحيحين : « لا تباشر المرأة المرأة تنعها لزوجها كأنه يراها » .. أما المسلمات فهن أمينات ، يمنعهن دينهن أن يصفن لرجالهن جسم امرأة مسلمة وزينتها .. ويستني

(١) أخرجه البخاري .

(٢) أخرجه أبو داود .

كذلك « ما ملكت أيمانهن » قيل من الإناث فقط ، وقيل : ومن الذكور كذلك . لأن الرقيق لا تمتد شهوته إلى سيده . والأول أولى ، لأن الرقيق إنسان تهيج فيه شهوة الإنسان ، مهما يكن له من وضع خاص ؛ في فترة من الزمان .. ويستثني « التابعين غير أولي الإربة من الرجال » .. وهم الذين لا يشتبهون النساء لسبب من الأسباب كالجلب والعنة والبلاهة والجنون .. وسائر ما يمنع الرجل أن تشتبه نفسه المرأة . لأنه لا فتنة هنا ولا إغراء .. ويستثني « الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء » .. وهم الأطفال الذين لا يثير جسم المرأة فيهم الشعور بالجنس . فإذا ميزوا ، وثار فيهم هذا الشعور – ولو كانوا دون البلوغ – فهم غير داخلين في هذا الاستثناء .

وهؤلاء كلهم – عدا الأزواج – ليس عليهم ولا على المرأة جناح أن يروا منها ، إلا ما تحت السرة إلى تحت الركبة . لانتفاء الفتنة التي من أجلها كان السر والغطاء . فأما الزوج فله رؤية كل جسدها بلا استثناء . ولما كانت الوقاية هي المقصودة بهذا الإجراء ، فقد مضت الآية تنهى المؤمنات عن الحركات التي تعلن عن الزينة المستورة ، وتهيج الشهوات الكامنة ، وتوقظ المشاعر النائمة . ولو لم يكشفن فعلاً عن الزينة :

« ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن » ..

وإنها لمعرفة عميقة بتركيب النفس البشرية وانفعالاتها واستجاباتها . فإن الخيال ليكون أحياناً أقوى في إثارة الشهوات من العيان . وكثيرون تثير شهواتهم رؤية حذاء المرأة أو ثوبها ، أو حليها ، أكثر مما تثيرها رؤية جسد المرأة ذاته . كما أن كثيرين يثيرهم طيف المرأة يخطر في خيالهم ، أكثر مما يثيرهم شخص المرأة بين أيديهم – وهي حالات معروفة عند علماء الأمراض النفسية اليوم – وسماع وسوسة الحل أو شممام شذى العطر من بعيد ، قد يثير حواس رجال كثيرين ، ويهيج أعصابهم ، ويفتنهم فتنة جارفة لا يملكون لها رداً . والقرآن يأخذ الطريق على هذا كله . لأن منزله هو الذي خلق ، وهو الذي يعلم من خلق . وهو اللطيف الخبير .

وفي النهاية يرد القلوب كلها إلى الله ؛ ويفتح لها باب التوبة مما ألت به قبل نزول هذا القرآن :

« وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون » .

بذلك يثير الحساسية برقابة الله ، وعطفه ورعايته ، وعونه للبشر في ضعفهم أمام ذلك الميل الفطري العميق ، الذي لا يضبطه مثل الشعور بالله ، وبتقواه ..

* * *

وإلى هنا كان علاج المسألة علاجاً نفسياً وقائياً . ولكن ذلك الميل حقيقة واقعة ، لا بد من مواجهتها بحلول واقعية إيجابية .. هذه الحلول الواقعة هي تيسير الزواج ، والمعاونة عليه ؛ مع تصعيب السبل الأخرى للمباشرة الجنسية أو إغلاقها نهائياً :

« وأنكحوا الأيامى منكم ، والصالحين من عبادكم وإمائكم . إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله . والله واسع عليم . وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنهم الله من فضله . والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاوتهم – إن علمتم فيهم خيراً – وآتوهم من مال الله الذي آتاكم ؛ ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء – إن أردن تحصناً – لتبتغوا عرض الحياة الدنيا . ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم » ..

إن الزواج هو الطريق الطبيعي لمواجهة الميول الجنسية الفطرية . وهو الغاية النظيفة لهذه الميول العميقة .

فيجب أن تزول العقبات من طريق الزواج ، لتجري الحياة على طبيعتها وبساطتها . والعقبة المالية هي العقبة الأولى في طريق بناء البيوت ، وتحصين النفوس . والإسلام نظام متكامل ، فهو لا يفرض العفة إلا وقد هيا لها أسبابها ، وجعلها ميسورة للأفراد الأسوياء . فلا يلجأ إلى الفاحشة حينئذ إلا الذي يعدل عن الطريق النظيف الميسور عامداً غير مضطر .

لذلك يأمر الله الجماعة المسلمة أن تعين من يقف المال في طريقهم إلى النكاح الحلال :
 « وأنكحوا الأيامى منكم ، والصالحين من عبادكم وإمائكم . إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله » ..
 والأيامى هم الذين لا أزواج لهم من الجسنيين .. والمقصود هنا الأحرار . وقد أفرد الرقيق بالذكر بعد ذلك : « والصالحين من عبادكم وإمائكم » .

وكلهم ينقضهم المال كما يفهم من قوله بعد ذلك : « إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله » .. وهذا أمر للجماعة بتزويجهم . والجمهور على أن الأمر هنا للندب . ودليلهم أنه قد وجد أيامى على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لم يزوجوا . ولو كان الأمر للوجوب لزوجههم . ونحن نرى أن الأمر للوجوب ، لا بمعنى أن يجبر الإمام الأيامى على الزواج ؛ ولكن بمعنى أنه يتعين إعانة الراغبين منهم في الزواج ، وتمكينهم من الإحصان ، بوصفه وسيلة من وسائل الوقاية العملية ، وتطهير المجتمع الإسلامي من الفاحشة . وهو واجب . ووسيلة الواجب واجبة .

وينبغي أن نضع في حسابنا - مع هذا - أن الإسلام - بوصفه نظاماً متكاملًا - يعالج الأوضاع الاقتصادية علاجاً أساسياً ؛ فيجعل الأفراد الأسوياء قادرين على الكسب ، وتحصيل الرزق ، وعدم الحاجة إلى مساعدة بيت المال . ولكنه في الأحوال الاستثنائية يلزم بيت المال ببعض الإعانات .. فالأصل في النظام الاقتصادي الإسلامي أن يستغني كل فرد بدخله . وهو يجعل تيسير العمل وكفاية الأجر حقاً على الدولة واجباً للأفراد . أما الإعانة من بيت المال فهي حالة استثنائية لا يقوم عليها النظام الاقتصادي في الإسلام .

فإذا وجد في المجتمع الإسلامي - بعد ذلك - أيامى فقراء وفقيرات ، تعجز مواردهم الخاصة عن الزواج ، فعلى الجماعة أن تزوجهم . وكذلك العبيد والإماء . غير أن هؤلاء يلتزم أولياؤهم بأمرهم ما داموا قادرين . ولا يجوز أن يقوم الفقير عائقاً عن التزويج - متى كانوا صالحين للزواج راغبين فيه رجالاً ونساء - فالرزق بيد الله . وقد تكفل الله بإغنائهم ، إن هم اختاروا طريق العفة النظيف : « إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله » . وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « ثلاثة حق على الله عونهم : المجاهد في سبيل الله ، والمكاتب الذي يريد الأداء ، والناكح الذي يريد العفاف »¹ .

وفي انتظار قيام الجماعة بتزويج الأيامى يأمرهم بالاستعفاف حتى يغنيهم الله بالزواج : « وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله » .. « والله واسع عليم » .. لا يضيق على من يتبغى العفة ، وهو يعلم نيته وصلاحه .

وهكذا يواجه الإسلام المشكلة مواجهة عملية ؛ فيهيئ لكل فرد صالح للزواج أن يتزوج ؛ ولو كان عاجزاً من ناحية المال . والمال هو العقبة الكؤود غالباً في طريق الإحصان .

ولما كان وجود الرقيق في الجماعة من شأنه أن يساعد على هبوط المستوى الخلقي ، وأن يعين على الترخص

(1) أخرجه الترمذي والنسائي .

والإباحية بحكم ضعف حساسية الرقيق بالكرامة الإنسانية . وكان وجود الرقيق ضرورة إذ ذاك لمقابلة أعداء الإسلام بمثل ما يعاملون به أسرى المسلمين . لما كان الأمر كذلك عمل الإسلام على التخلص من الأرقاء كلما واتت الفرصة . حتى تهيأ الأحوال العالمية لإلغاء نظام الرق كله ، فأوجب إجابة الرقيق إلى طلب المكاتبه على حريته . وذلك في مقابل مبلغ من المال يؤديه فينال حريته :

« والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم . إن علمتم فيهم خيراً .. »

وآراء الفقهاء مختلفة في هذا الوجوب . ونحن نراه الأولى ؛ فهو يتمشى مع خط الإسلام الرئيسي في الحرية وفي كرامة الإنسانية . ومنذ المكاتبه يصبح مال الرقيق له ، وأجر عمله له ، ليوفي منه ما كاتب عليه ؛ ويجب له نصيب في الزكاة : « وآتوهم من مال الله الذي آتاكم » . ذلك على شرط أن يعلم المولى في الرقيق خيراً . والخير هو الإسلام أولاً . ثم هو القدرة على الكسب . فلا يتركه كلاً على الناس بعد تحرره . وقد يلجأ إلى أحط الوسائل ليعيش ، ويكسب ما يقيم أوده . والإسلام نظام تكافل . وهو كذلك نظام واقع . فليس المهم أن يقال : إن الرقيق قد تحرر . وليست العنوانات هي التي تهمة . إنما تهمة الحقيقة الواقعة . ولن يتحرر الرقيق حقاً إلا إذا قدر على الكسب بعد عتقه ؛ فلم يكن كلاً على الناس ؛ ولم يلجأ إلى وسيلة قذرة يعيش منها ، ويبيع فيها ما هو أئمن من الحرية الشكلية وأعلى ، وهو أعتقه لتنظيف المجتمع لا لتلويثه من جديد ؛ بما هو أشد وأنكى .

وأخطر من وجود الرقيق في الجماعة ، احتراف بعض الرقيق للبعاء . وكان أهل الجاهلية إذا كان لأحدهم أمة أرسلها تزني ؛ وجعل عليها ضريبة يأخذها منها . وهذا هو البغاء في صورته التي ما تزال معروفة حتى اليوم - فلما أراد الإسلام تطهير البيئة الإسلامية حرم الزنا بصفة عامة ؛ وخص هذه الحالة بنص خاص :

« ولا تکرهوا فتياتکم على البغاء . إن أردن تحصناً . لتبتغوا عرض الحياة الدنيا . ومن يکرههن فإن الله من بعد إکراههن غفور رحيم » .

فنهى الذين يكرهون فتياتهم على هذا المنكر ، ووجههم على ابتغاء عرض الحياة الدنيا من هذا الوجه الخبيث . ووعده المكروهات بالمغفرة والرحمة ، بعد الإكراه الذي لا يد لهن فيه .

قال السدي : أنزلت هذه الآية الكريمة في عبد الله بن أبي بن سلول ، رأس المنافقين ، وكانت له جارية تدعى معاذة . وكان إذا نزل به ضيف أرسلها إليه ليواقعها ، إرادة الثواب منه ، والكرامة له . فأقبلت الجارية إلى أبي بكر - رضي الله عنه - فشكت إليه ذلك ؛ فذكره أبو بكر للنبي - صلى الله عليه وسلم - فأمره بقبضها . فصاح عبد الله بن أبي : من يعذرننا من محمد؟ يغلبنا على مملوكتنا ! فأنزل الله فيهم هذا .

هذا النهي عن إكراه الفتيات على البغاء - وهن يردن العفة - ابتغاء المال الرخيص كان جزءاً من خطة القرآن في تطهير البيئة الإسلامية ، وإغلاق السبل القذرة للتصريف الجنسي . ذلك أن وجود البغاء يغري الكثيرين لسهولته ؛ ولو لم يجوده لانصرفوا إلى طلب هذه المتعة في محلها الكريم النظيف .

ولا عبرة بما يقال من أن البغاء صمام أمن ، يحمي البيوت الشريفة ؛ لأنه لا سبيل لمواجهة الحاجة الفطرية إلا بهذا العلاج القذر عند تعذر الزواج . أو تهجم الذئاب المسعورة على الأعراض المصونة ، إن لم تجد هذا الكلاً المباح !

(١) انتهى نظام الرق كله بمجرد وجود معاهدات عالمية تحرم استرقاق أسرى الحرب . فنظام الرق كان مؤقتاً في الإسلام مقيداً بمبدأ المعاملة بالمثل.

إن في التفكير على هذا النحو قلباً للأسباب والنتائج . فالليل الجنسي يجب أن يظل نظيفاً بريئاً موجهاً إلى إمداد الحياة بالأجيال الجديدة . وعلى الجماعات أن تصلح نظمها الاقتصادية بحيث يكون كل فرد فيها في مستوى يسمح له بالحياة المعقولة وبالزواج . فإن وجدت بعد ذلك حالات شاذة عولجت هذه الحالات علاجاً خاصاً .. وبذلك لا تحتاج إلى البغاء ، وإلى إقامة مقاذر إنسانية ، يمر بها كل من يريد أن يتخفف من أعباء الجنس ، فيلقي فيها بالفضلات ، تحت سمع الجماعة وبصرها !

إن النظم الاقتصادية هي التي يجب أن تعالج ، بحيث لا تخرج مثل هذا التن . ولا يكون فسادها حجة على ضرورة وجود المقاذر العامة ، في صور آدمية ذليلة .

وهذا ما يصنعه الإسلام بنظامه المتكامل النظيف العفيف ، الذي يصل الأرض بالسما ، ويرفع البشرية إلى الأفق المشرق الوضيء المستمد من نور الله .

* * *

ويعقب على هذا الشوط بصفة القرآن التي تناسب موضوعه وجوه :

« ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ، ومثلاً من الذين خلوا من قبلكم ، وموعظة للمتقين » ..

فهو آيات مبينات ، لا تدع مجالاً للغموض والتأويل ، والانحراف عن النهج القويم .

وهو عرض لمصائر الغابرين الذين انصرفوا عن نهج الله فكان مصيرهم النكال .

وهو موعظة للمتقين الذين تستشعر قلوبهم رقابة الله فتحشى وتستقيم .

والأحكام التي تضمنها هذا الشوط تتناسق مع هذا التعقيب ، الذي يربط القلوب بالله ، الذي نزل هذا

القرآن ..

* اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ ۚ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۚ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۚ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ ۖ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلٰى نُورٍ ۗ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ ۗ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ ۚ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيَذَكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيََهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ ۖ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ ۖ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدُهُ لَمْ يَكَدْ

يُرِيدُهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴿٤٠﴾

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْخِرُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَّتِ كُلُّ قَدَعِمٍ صَلَاتُهُ وَتَسْبِيحُهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ سَخَابًا تَمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقُهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ ﴿٤٣﴾

يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾

وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾

في الدرسين الماضيين من السورة عالج السياق أغلظ ما في الكيان البشري . ليرققه ويطهره ويرتفع به إلى آفاق النور . عالج عرامة اللحم والدم ، وشهوة العين والفرج ، ورغبة التجريح والشهير ، ودفعة الغضب والغيط . وعالج الفاحشة أن تشيع في النفس وأن تشيع في الحياة ، وأن تشيع في القول . عالجها بتشديد حد الزنا وحد القذف . وعالجها بعرض نموذج شنيع فطيع من رمي المحصنات الغافلات المؤمنات . وعالجها بالوسائل الواقية : بالاستئذان على البيوت وغطس البصر وإخفاء الزينة ، والنهي عن مشيرات الفتنة ، وموقفات الشهوة . ثم بالإحصان ، ومنع البغاء ، وتحرير الرقيق .. كل أولئك ليأخذ الطريق على دفعات اللحم والدم ، ويهيئ للنفس وسائل العفة والاستعلاء والشفافية والإشراق .

وفي أعقاب حديث الإفك عالج ما تخلف عنه من غضب وغيط ، ومن اضطراب في المقاييس ، وقلق في النفوس . فإذا نفس محمد - رسول الله صلى الله عليه وسلم - مطمئنة هادئة . وإذا نفس عائشة - رضي الله عنها - قريرة راضية . وإذا نفس أبي بكر - رضي الله عنه - سمحة صافية . وإذا نفس صفوان بن المعطل - رضي الله عنه - قانعة بشهادة الله وتبرئته . وإذا نفوس المسلمين آية تائبة . وقد تكشف لها ما كانت تحبظ فيه من التيه . فتابت إلى ربها شاكرة فضله ورحمته وهدايته ..

بهذا التعليم . وهذا التهذيب . وهذا التوجيه . عالج الكيان البشري ، حتى أشرق بالنور ؛ وتطلع إلى الأفق الوضيء ؛ واستشرف النور الكبير في آفاق السماوات والأرض ، وهو على استعداد لتلقي الفيض الشامل الغامر في عالم كله إشراق ، وكله نور :

« الله نور السماوات والأرض » ..

وما يكاد النص العجيب يتجلى حتى يفيض النور الهادئ الوضيء ، فيغمر الكون كله ، ويفيض على المشاعر والجوارح ، وينسكب في الحنايا والجوانح ؛ وحتى يسبح الكون كله في فيض النور الباهر ؛ وحتى تعانقه

وترشفه العيون والبصائر ؛ وحتى تنزاح الحجب . وتشف القلوب . وترف الأرواح . ويسبح كل شيء في الفيض الغامر ، ويتطهر كل شيء في بحر النور ، ويتجرد كل شيء من كثافته وثقله ، فإذا هو انطلاق ورفرفة ، ولقاء ومعرفة ، وامتزاج وألفة ، وفرح وحبور . وإذا الكون كله بما فيه ومن فيه نور طليق من القيود والحدود ، تتصل فيه السماوات بالأرض ، والأحياء بالجماد ، والبعيد بالقرب ، وتلتقي فيه الشعاب والدروب ، والطوايا والظواهر ، والحواس والقلوب ..

« الله نور السماوات والأرض » ..

النور الذي منه قوامها ومنه نظامها .. فهو الذي يهبها جوهر وجودها ، ويودعها ناموسها .. ولقد استطاع البشر أخيراً أن يدركوا بعلمهم طرفاً من هذه الحقيقة الكبرى ، عندما استحال في أيديهم ما كان يسمى بالمادة - بعد تحطيم الذرة - إلى إشعاعات منطلقة لا قوام لها إلا النور ! ولا « مادة » لها إلا النور ! فذرة المادة مؤلفة من كهارب وإلكترونات ، تنطلق - عند تحطيمها - في هيئة إشعاع قوامه هو النور ! فأما القلب البشري فكان يدرك الحقيقة الكبرى قبل العلم بقرون وقرون . كان يدركها كلما شف ورف ، وانطلق إلى آفاق النور . ولقد أدركها كاملة شاملة قلب محمد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ففاض بها وهو عائد من الطائف ، نافض كفيه من الناس ، عائد بوجه ربه يقول : « أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة » . وفاض بها في رحلة الإسراء والمعراج . فلما سألته عائشة : هل رأيت ربك ؟ قال . « نور : أنى أراه » .

ولكن الكيان البشري لا يقوى طويلاً على تلقي ذلك الفيض الغامر دائماً ، ولا يستشرف طويلاً ذلك الأفق البعيد . فبعد أن جلا النص هذا الأفق المترامي ، عاد يقارب مداه ، ويقربه إلى الإدراك البشري المحدود ، في مثل قريب محسوس :

« مثل نوره كمشكاة فيها مصباح . المصباح في زجاجة . الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية ، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار . نور على نور » ..

وهو مثل يقرب للإدراك المحدود صورة غير المحدود ؛ ويرسم النموذج المصغر الذي يتأمله الحس ، حين يقصر عن تملي الأصل . وهو مثل يقرب للإدراك طبيعة النور حين يعجز عن تتبع مداه وآفاقه المترامية وراء الإدراك البشري الحسير .

ومن عرض السماوات والأرض إلى المشكاة . وهي الكوة الصغيرة في الجدار غير النافذة ، يوضع فيها المصباح ، فتحصر نوره وتجمعه ، فيبدو قوياً متألقاً : « كمشكاة فيها مصباح » .. « المصباح في زجاجة » .. تقيه الريح ، وتصفى نوره ، فيتألق ويزداد .. « الزجاجة كأنها كوكب دري » .. فهي بذاتها شفاقة رائقة سنية منيرة .. هنا يصل بين المثل والحقيقة . بين النموذج والأصل . حين يرتقي من الزجاجة الصغيرة إلى الكوكب الكبير ، كي لا ينحصر التأمل في النموذج الصغير ، الذي ما جعل إلا لتقريب الأصل الكبير .. وبعد هذه اللقطة يعود إلى النموذج . إلى المصباح :

« يوقد من شجرة مباركة زيتونة » ونور زيت الزيتون كان أصفى نور يعرفه المخاطبون . ولكن ليس لهذا وحده كان اختيار هذا المثل . إنما هو كذلك الظلال المقدسة التي تلقها الشجرة المباركة . ظلال الوادي المقدس في الطور ، وهو أقرب منابت الزيتون لجزيرة العرب . وفي القرآن إشارة لها وظلال حولها : « وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للأكلين » . وهي شجرة معمرة ، وكل ما فيها مما ينفع الناس . زيتها وخشبها

وروقها وثمرها .. ومرة أخرى يلتفت من النموذج الصغير ليذكر بالأصل الكبير . فهذه الشجرة ليست شجرة بعينها وليست متحيزة إلى مكان أو جهة . إنما هي مثل مجرد للتقريب : « لا شرقية ولا غربية » .. وزيتها ليس زيتاً من هذا المشهود المحدود ، إنما هو زيت آخر عجيب : « يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسه نار » .. فهو من الشفافية بذاته ، ومن الإشراق بذاته ، حتى ليكاد يضيء بغير احتراق ؛ « ولو لم تمسه نار » .. « نور على نور » .. وبذلك نعود إلى النور العميق الطليق في نهاية المطاف !

إنه نور الله الذي أشرقت به الظلمات في السماوات والأرض . النور الذي لا ندرك كنهه ولا مداه . إنما هي محاولة لوصل القلوب به ، والتطلع إلى رؤياه : « يهدي الله لنوره من يشاء » .. ممن يفتحون قلوبهم للنور فقراه . فهو شائع في السماوات والأرض ، فائض في السماوات والأرض . دائم في السماوات والأرض . لا ينقطع ، ولا يحتبس ، ولا يخبو . فحيثما توجه إليه القلب رآه . وحيثما تطلع إليه الحائر هداه . وحيثما اتصل به وجد الله .

إنما المثل الذي ضربه الله لنوره وسيلة لتقريبه إلى المدارك ، وهو العليم بطاقة البشر :

« ويضرب الله الأمثال للناس ، والله بكل شيء عليم » ..

ذلك النور الطليق ، الشائع في السماوات والأرض ، الفائض في السماوات والأرض ، يتجلى ويتبلور في بيوت الله التي تتصل فيها القلوب بالله ، تنطلع إليه وتذكره وتحشاه ، وتتجرد له وتؤثره على كل مغريات الحياة :

« في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة . يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار . ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله ، والله يرزق من يشاء بغير حساب » ..

وهناك صلة تصويرية بين مشهد المشكاة هناك ومشهد البيوت هنا ، على طريقة التناسق القرآنية في عرض المشاهد ذات الشكل المتشابه أو المتقارب . وهناك صلة مثلها بين المصباح المشرق بالنور في المشكاة ، والقلوب المشرقة بالنور في بيوت الله .

تلك البيوت « أذن الله أن ترفع » - وإذن الله هو أمر للنفاذ - فهي مرفوعة قائمة ، وهي مطهرة رفيعة . يتناسق مشهدها المرفوع مع النور المتألق في السماوات والأرض . وتتناسق طبيعتها الرفيعة مع طبيعة النور السني الوضيء . وتتهياً بالرفعة والارتفاع لأن يذكر فيها اسم الله : « ويذكر فيها اسمه » . وتتسق معها القلوب الوضيئة الطاهرة ، المسبحة الواجفة ، المصلية الواهبة . قلوب الرجال الذين « لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة » .. والتجارة والبيع لتحصيل الكسب والثراء . ولكنهم مع شغلهم بهما لا يغفلون عن أداء حق الله في الصلاة ، وأداء حق العباد في الزكاة : « يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار » .. تتقلب فلا تثبت على شيء من الهول والكرب والاضطراب . وهم يخافون ذلك اليوم فلا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله .

وهم مع هذا الخوف يعلقون رجاءهم بثواب الله :

« ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ، ويزيدهم من فضله » ..

ورجاؤهم لن يخيب في فضل الله : « والله يرزق من يشاء بغير حساب » من فضله الذي لا حدود له ولا

قيود .

في مقابل ذلك النور المتجلي في السماوات والأرض ، المتبلور في بيوت الله ، المشرق في قلوب أهل الإيمان .. يعرض السياق مجالاً آخر . مجالاً مظلماً لا نور فيه . مخيفاً لا أمن فيه . ضائعاً لا خير فيه . ذلك هو مجال الكفر الذي يعيش فيه الكفار :

«والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة ، يحسبه الظمآن ماء ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ، ووجد الله عنده فوفاه حسابه . والله سريع الحساب . أو كظلمات في بحر لحي ، يغشاها موج من فوقه موج ، من فوقه سحب . ظلمات بعضها فوق بعض ، إذا أخرج يده لم يكد يراها . ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ..» .
والتعبير يرسم لحال الكافرين ومآلهم مشهدين عجيبيين ، حافلين بالحركة والحياة .

في المشهد الأول يرسم أعمالهم كسراب في أرض مكشوفة مبسوطة ، يلتهم التامعاً كاذباً ، فيتبعه صاحبه الظامئ ، وهو يتوقع الري غافلاً عما ينتظره هناك .. وفجأة يتحرك المشهد حركة عنيفة . فهذا السائر وراء السراب ، الظامئ الذي يتوقع الشراب ، الغافل عما ينتظره هناك .. يصل . فلا يجد ماء يرويه ، إنما يجد المفاجأة المذهلة التي لم تخطر له ببال ، المرعبة التي تقطع الأوصال ، وتورث الخبال : « ووجد الله عنده » !
الله الذي كفر به وجحدته ، وخاصمه وعاداه . وجده هنالك ينتظره ! ولو وجد في هذه المفاجأة خصماً له من بني البشر لرؤعه ، وهو ذاهل غافل على غير استعداد . فكيف وهو يجد الله القوي المنتقم الجبار ؟
« فوفاه حسابه » .. هكذا في سرعة عاجلة تتناسق مع البغته والفتنة ، « والله سريع الحساب » .. تعقيب يتناسق مع المشهد الخاطف المرتاع !

وفي المشهد الثاني تطبق الظلمة بعد الالتماع الكاذب ؛ ويتمثل الهول في ظلمات البحر اللجج . موج من فوقه موج . من فوقه سحب . وتتراكم الظلمات بعضها فوق بعض ، حتى ليخرج يده أمام بصره فلا يراها لشدة الرعب والظلام !

إنه الكفر ظلمة منقطعة عن نور الله الفاضل في الكون . وضلال لا يرى فيه القلب أقرب علامات الهدى . ومخافة لا أمن فيها ولا قرار .. « ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور » .. ونور الله هدى في القلب ؛ وتفتح في البصيرة ؛ واتصال في الفطرة بنواميس الله في السماوات والأرض ؛ والتقاء بها على الله نور السماوات والأرض . فمن لم يتصل بهذا النور فهو في ظلمة لا انكشاف لها ، وفي مخالفة لا أمن فيها ، وفي ضلال لا رجعة منه . ونهاية العمل سراب ضائع يقود إلى الهلاك والعذاب ؛ لأنه لا عمل بغير عقيدة ، ولا صلاح بغير إيمان . إن هدى الله هو الهدى . وإن نور الله هو النور .

* * *

ذلك مشهد الكفر والضللال والظلام في عالم الناس ، يتبعه مشهد الإيمان والهدى والنور في الكون الفسيح . مشهد يتمثل فيه الوجود كله ، بمن فيه وما فيه ، شاخصاً يسبح لله : إنسه وجته ، أملاكه وأفلاكه ، أحيائه وجماده .. وإذا الوجود كله تتجاوب بالتسبيح أرجاؤه ، في مشهد يرتعش له الوجدان حين يتملاه :

« ألم تر أن الله يسبح له من في السماوات والأرض ، والطير صافات . كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون » ..

إن الإنسان ليس مفرداً في هذا الكون الفسيح ؛ فإن من حوله ، وعن يمينه وعن شماله ، ومن فوقه ومن تحته ؛ وحيثما امتد به النظر أو طاف به الخيال .. إخوان له من خلق الله ، لهم طبائع شتى ، وصور شتى ،

وأشكال شتى . ولكنهم بعد ذلك كله يلتقون في الله ، ويتوجهون إليه ، ويسبحون بحمده : « والله علم بما يفعلون » ..

والقرآن يوجه الإنسان إلى النظر فيما حوله من صنع الله ، وإلى من حوله من خلق الله في السماوات والأرض ، وهم يسبحون بحمده وتقواه ؛ ويوجه بصره وقلبه خاصة إلى مشهد في كل يوم يراه ، فلا يثير انتباهه ولا يحرك قلبه لطول ما يراه . ذلك مشهد الطير صافات أرجلها وهي طائرة في الفضاء تسبح بحمد الله : « كل قد علم صلاته وتسيحه » .. والإنسان وحده هو الذي يغفل عن تسيح ربه ؛ وهو أجدر خلق الله بالإيمان والتسيح والصلاة .

وإن الكون ليبدو في هذا المشهد الخاشع متجهماً كله إلى خالقه ، مسبحاً بحمده ، قائماً بصلاته ؛ وإنه كذلك في فطرته ، وفي طاعته لمشيئة خالقه الممثلة في نواميسه . وإن الإنسان ليدرك - حين يشف - هذا المشهد ممثلاً في حسه كأنه يراه ؛ وإنه ليسمع دقائق هذا الكون وإيقاعاته تسابيح لله . وإنه ليشارك كل كائن في هذا الوجود صلاته ونجواه .. كذلك كان محمد بن عبد الله - صلاة الله وسلامه عليه - إذا مشى سمع تسيح الحصى تحت قدميه . وكذلك كان داود - عليه السلام - يرتل مزاميره فتؤوب الجبال معه والطير .

« والله ملك السماوات والأرض ، وإلى الله المصير » ..

فلا اتجاه إلا إليه ، ولا ملجأ من دونه ، ولا مفر من لقائه ، ولا عاصم من عقابه ، وإلى الله المصير .

* * *

ومشهد آخر من مشاهد هذا الكون التي يمر عليها الناس غافلين ؛ وفيها متعة للنظر ، وعبرة للقلب ، ومجال للتأمل في صنع الله وآياته ، وفي دلائل النور والهدى والإيمان :

« ألم تر أن الله يزجي سحاباً ، ثم يؤلف بينه ، ثم يجعله ركاماً ، فترى الودق يخرج من خلاله . وينزل من السماء من جبال فيها من برد ، فيصيب به من يشاء ، ويصرفه عن من يشاء ، يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار » .. والمشهد يعرض على مهل وفي إطالة ، وترك أجزاءه للتأمل قبل أن تلتقي وتتجمع . كل أولئك لتؤدي الغرض من عرضها في لمس القلب وإيقاظه ، وبعثه إلى التأمل والعبرة ، وتدبر ما وراءها من صنع الله .

إن يد الله تزجي السحاب وتدفعه من مكان إلى مكان . ثم تؤلف بينه وتجمعه ، فإذا هو ركام بعضه فوق بعض . فإذا ثقل خرج منه الماء ، والوبل الهاطل ، وهو في هيئة الجبال الضخمة الكثيفة ، فيها قطع البرد الثلجية الصغيرة .. ومشهد السحب كالجبال لا يبدو كما يبدو لراكب الطائرة وهي تعلو فوق السحب أو تسير بينها ، فإذا المشهد مشهد الجبال حقاً ، بضخامتها ، ومساقطها ، وارتفاعاتها وانخفاضاتها . وإنه لتعبير مصور للحقيقة التي لم يرها الناس ، إلا بعد ما ركبوا الطائرات .

وهذه الجبال مسخرة بأمر الله ، وفق ناموسه الذي يحكم الكون ؛ ووفق هذا الناموس يصيب الله بالمطر من يشاء ، ويصرفه عن من يشاء .. وتكلمة المشهد الضخم : « يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار » ذلك ليم التناسق مع جو النور الكبير في الكون العريض ، على طريقة التناسق في التصوير .

* * *

ثم مشهد كوني ثالث : مشهد الليل والنهار :

« يقبل الله الليل والنهار . إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار » ..

والتأمل في تقلب الليل والنهار بهذا النظام الذي لا يخل ولا يفتر يوقظ في القلب الحساسية وتدبر الناموس الذي يصرف هذا الكون والتأمل في صنع الله . والقرآن يوجه القلب إلى هذه المشاهد التي ذهبت الألفة بوقعها المثير ؛ ليواجه القلب هذا الكون دائماً بحس جديد ، وانفعال جديد . فعجبية الليل والنهار كم شاق قلب البشري ، وهو يتأملها أول مرة . وهي لم تتغير ؛ ولم تفقد جمالها وروعها . إنما القلب البشري هو الذي صدى وهمد ، فلم يعد يخفق لها . وكم ذا نفقد من حياتنا ، وكم ذا نخسر من جمال هذا الوجود ، حين نمر غافلين بهذه الظواهر التي شاققت حسناً وهي جديدة . أو وحسناً هو الجديد !

والقرآن يجدد حسناً الخامد ، ويوقظ حواسنا الملول . ويلمس قلبنا البارد . ويشير وجداننا الكليل ؛ ليرتاد هذا الكون دائماً كما ارتدناه أول مرة . نقف أمام كل ظاهرة نتأملها ، ونسألها عما وراءها من سر دفين ، ومن سحر مكنون . ونرقب يد الله تفعل فعلها في كل شيء من حولنا ، وتدبر حكمته في صنعته ، ونعتبر بآياته المبتوثة في تضاعيف الوجود .

إن الله - سبحانه - يريد أن يمن علينا ، بأن يهبنا الوجود مرة كلما نظرنا إلى إحدى ظواهره ؛ فاستعدنا نعمة الإحساس بها كأننا نراها أول مرة . فنظّل نجد الكون مرات لا تحصى . وكأننا في كل مرة نوهبه من جديد ؛ ونستمتع به من جديد .

وإن هذا الوجود لجميل وباهر ورائع . وإن فطرتنا لتوافقة مع فطرته ، مستمدة من النبع الذي يستمد منه ، قائمة على ذات الناموس الذي يقوم عليه . فالاتصال بضمير هذا الوجود يهبنا أنساً وطمأنينة ، وصلة ومعرفة ، وفرحة كفرحة اللقاء بالقرب الغائب أو المحجوب !

وإننا لنجد نور الله هناك . فأنه نور السماوات والأرض .. نجده في الآفاق وفي أنفسنا في ذات اللحظة التي نشهد فيها هذا الوجود بالحس البصير ، والقلب المفتوح ، والتأمل الواصل إلى حقيقة التدبير .

لهذا يوقظنا القرآن المرة بعد المرة ، ويوجه حسنا وروحنا إلى شتى مشاهد الوجود الباهرة ، كي لا نمر عليها غافلين مغمضي الأعين ، فنخرج من رحلة الحياة على ظهر هذه الأرض بغير رصيد . أو برصيد قليل هزيل ..

* * *

ويمضي السياق في عرض مشاهد الكون ، واستثارة تطلعتنا إليها ؛ فيعرض نشأة الحياة ، من أصل واحد ، وطبيعة واحدة ، ثم تنوعها ، مع وحدة النشأة والطبيعة :

« والله خلق كل دابة من ماء . فمنهم من يمشي على بطنه ، ومنهم من يمشي على رجلين ، ومنهم من يمشي على أربع . يخلق الله ما يشاء . إن الله على كل شيء قدير .. »

وهذه الحقيقة الضخمة التي يعرضها القرآن بهذه البساطة ، حقيقة أن كل دابة خلقت من ماء ، قد تعني وحدة العنصر الأساسي في تركيب الأحياء جميعاً ، وهو الماء ، وقد تعني ما يحاول العلم الحديث أن يثبت من أن الحياة خرجت من البحر ونشأت أصلاً في الماء . ثم تنوعت الأنواع ، وتفرعت الأجناس ..

ولكننا نحن على طريقتنا في عدم تعليق الحقائق القرآنية الثابتة على النظريات العلمية القابلة للتعديل والتبديل .. لا نزيد على هذه الإشارة شيئاً . مكتفين بإثبات الحقيقة القرآنية . وهي أن الله خلق الأحياء كلها من الماء . فهي ذات أصل واحد . ثم هي - كما ترى العين - متنوعة الأشكال . منها الزواحف تمشي على بطنها ، ومنها الإنسان والطير يمشي على قدمين . ومنها الحيوان يدب على أربع . كل أولئك وفق سنة الله ومشيئته ، لا عن فلنة ولا مصادفة : « يخلق الله ما يشاء » غير مقيد بشكل ولا هيئة . فالنواميس والسنن التي تعمل في الكون

قد اقتضتها مشيئته الطليقة وارتضتها : « إن الله على كل شيء قدير » .

وإن تملي الأحياء . وهي بهذا التنوع في الأشكال والأحجام ، والأصول والأنواع ، والشيات والألوان . وهي خارجة من أصل واحد ، ليوحي بالتدبير المقصود ، والمشية العائدة . وينفي فكرة الفلته والمصادفة . وإلا فأى فلته تلك التي تتضمن كل هذا التدبير ؛ وأية مصادفة تلك التي تتضمن كل هذا التقدير ؟ إنما هو صنع الله العزيز الحكيم الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ..

لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾

إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾

* وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَنْ أُحْرَجُوا لِيُخْرِجُنَا قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تحسبنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ مِنَ النَّارِ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾

بعد تلك الجولة الضخمة في مجالي النور ، في مشاهد الكون الكبير .. يعود سياق السورة إلى موضوعها

الأصيل . موضوع الآداب التي يربي عليها القرآن الجماعة المسلمة ، لتطهر قلوبها وتشرق ، وتتصل بنور الله في السماوات والأرض .

ولقد تناول في الدرس الماضي حديث الرجال الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة . وحديث الذين كفروا وأعمالهم ومآلهم ، وما هم فيه من ظلمات بعضها فوق بعض .

فالآن في هذا الدرس يتحدث عن المنافقين ، الذين لا ينتفعون بآيات الله المبينات ولا يهتدون . فهم يظهرون الإسلام ، ولكنهم لا يتأدبون بأدب المؤمنين في طاعة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وفي الرضى بحكمه ، والطمأنينة إليه . ويوازن بينهم وبين المؤمنين الصادقين في إيمانهم . أولئك الذين وعدهم الله الاستخلاف في الأرض ، والتمكين في الدين ، والأمن في المقام ، جزاء لهم على أدبهم مع الله ورسوله . وطاعتهم لله ورسوله . وذلك على الرغم من عداء الكافرين . وما الذين كفروا بمعجزين في الأرض ومأواهم النار وبئس المصير ..

* * *

« لقد أنزلنا آيات مبينات . والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » ..

فآيات الله مبينة كاشفة ؛ تجلو نور الله ، وتكشف عن ينابيع هداة . وتحدد الخير والشر ، والطيب والخبيث . وتبين منهج الإسلام في الحياة كاملاً دقيقاً لا لبس فيه ولا غموض ؛ وتحدد أحكام الله في الأرض بلا شبهة ولا إبهام . فإذا تحاكم الناس إليها فإنما يتحاكمون إلى شريعة واضحة مضبوطة ، لا يخشى منها صاحب حق على حقه ؛ ولا يلتبس فيها حق بباطل ، ولا حلال بحرام .

« والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » .. والمشيئة مطلقة لا يقيدتها قيد . غير أن الله سبحانه قد جعل للهدى طريقاً ، من وجه نفسه إليه وجد فيه هدى الله ونوره ، فاتصل به ، وسار على الدرب ، حتى يصل - بمشيئة الله - ومن حاد عنه وأعرض فقد النور الهادي ولج في طريق الضلال . حسب مشيئة الله في الهدى والضلال .

ومع هذه الآيات المبينات يوجد ذلك الفريق من الناس . فريق المنافقين ، الذين كانوا يظهرون الإسلام ولا يتأدبون بأدب الإسلام :

« ويقولون : آمنا بالله وبالرسول وأطعنا . ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك . وما أولئك بالمؤمنين . وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون . وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين . أفي قلوبهم مرض ؟ أم ارتابوا ؟ أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ؟ بل أولئك هم الظالمون » ..

إن الإيمان الصحيح متى استقر في القلب ظهرت آثاره في السلوك . والإسلام عقيدة متحركة ، لا تطبيق السلبية . فهي بمجرد تحققها في عالم الشعور تتحرك لتحقيق مدلولها في الخارج ؛ ولترجم نفسها إلى حركة وإلى عمل في عالم الواقع . ومنهج الإسلام الواضح في التربية يقوم على أساس تحويل الشعور الباطن بالعقيدة وآدابها إلى حركة سلوكية واقعية ؛ وتحويل هذه الحركة إلى عادة ثابتة أو قانون . مع استحياء الدافع الشعوري الأول في كل حركة ، لتبقى حية متصلة بالينبوع الأصيل .

وهؤلاء كانوا يقولون : « آمنا بالله وبالرسول وأطعنا » .. يقولونها بأفواههم ، ولكن مدلولها لا يتحقق في سلوكهم . فيقولون ناكصين ؛ يكذبون بالأعمال ما قالوه باللسان : « وما أولئك بالمؤمنين » فالمؤمنون تصدق أفعالهم أقوالهم . والإيمان ليس لعبة يتلهى بها صاحبها ؛ ثم يدعها ويمضي . إنما هو تكيف في النفس ، وانطباع في القلب ، وعمل في الواقع ، ثم لا تملك النفس الرجوع عنه متى استقرت حقيقته في الضمير ..

ولقد كان هؤلاء الذين يدعون الإيمان يخالفون مدلوله حين يدعون ليتحاكموا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على شريعة الله التي جاء بها :

« وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون . وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين » ..

فلقد كانوا يعلمون أن حكم الله ورسوله لا يحيد عن الحق ، ولا ينحرف مع الهوى ، ولا يتأثر بالمودة والشنان . وهذا الفريق من الناس لا يريد الحق ولا يطبق العدل . ومن ثم كانوا يعرضون عن التحاكم إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ويأبون أن يجيئوا إليه . فأما إذا كانوا أصحاب حق في قضية فهم يسارعون إلى تحكيم رسول الله ، راضين خاضعين ، لأنهم واثقون أنه سيقضي لهم بحقهم ، وفق شريعة الله ، التي لا تظلم ولا تبخس الحقوق .

هذا الفريق الذي كان يدعي الإيمان ، ثم يسلك هذا السلوك الملتوي ، إنما هو نموذج للمنافقين في كل زمان ومكان . المنافقين الذي لا يجروون على الجهر بكلمة الكفر ، فيتظاهرون بالإسلام . ولكنهم لا يرضون أن تقضي بينهم شريعة الله ، ولا أن يحكم فيهم قانونه ، فإذا دعوا إلى حكم الله ورسوله أبوا وأعرضوا وانتحلوا المعاذير « وما أولئك بالمؤمنين » فاستقيم الإيمان وإباء حكم الله ورسوله . إلا أن تكون لهم مصلحة في أن يتحاكموا إلى شريعة الله أو يحكموا قانونه !

إن الرضى بحكم الله ورسوله هو دليل الإيمان الحق . وهو المظهر الذي ينبئ عن استقرار حقيقة الإيمان في القلب . وهو الأدب الواجب مع الله ومع رسول الله . وما يرفض حكم الله وحكم رسوله إلا سيئ الأدب معتم ، لم يتأدب بأدب الإسلام ، ولم يشرق قلبه بنور الإيمان .

ومن ثم يعقب على فعلتهم هذه بأسئلة تثبت مرض قلوبهم ، وتتعجب من ربيتهم ، وتستنكر تصرفهم الغريب :

« أفي قلوبهم مرض ؟ أم ارتابوا ؟ أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ؟ » ..

والسؤال الأول للإثبات . فرض القلب جدير بأن ينشئ مثل هذا الأثر . وما ينحرف الإنسان هذا الانحراف وهو سليم الفطرة . إنما هو المرض الذي تختل به فطرته عن استقامتها ، فلا تتذوق حقيقة الإيمان ، ولا تسير على نهجه القويم .

والسؤال الثاني للتعجب . فهل هم يشكون في حكم الله وهم يزعمون الإيمان ؟ هل هم يشكون في مجيئه من عند الله ؟ أو هم يشكون في صلاحيته لإقامة العدل ؟ على كلتا الحالتين فهذا ليس طريق المؤمنين !

والسؤال الثالث للاستنكار والتعجب من أمرهم الغريب . فهل هم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ؟ وإنه لعجيب أن يقوم مثل هذا الخوف في نفس إنسان . فالله خالق الجميع ورب الجميع . فكيف يحيف في حكمه على أحد من خلقه لحساب أحد من خلقه ؟

إن حكم الله هو الحكم الوحيد المبرأ من مظنة الحيف . لأن الله هو العادل الذي لا يظلم أحداً . وكل خلقه أمامه سواء ، فلا يظلم أحداً منهم لمصلحة أحد . وكل حكم غير حكمه هو مظنة الحيف . فالبشر لا يملكون أنفسهم وهم يشرعون ويحكمون أن يميلوا إلى مصالحهم . أفراداً كانوا أم طبقة أم دولة .

وحين يشرع فرد ويحكم فلا بد أن يلحظ في التشريع حماية نفسه وحماية مصالحه . وكذلك حين تشرع طبقة لطبقة ، وحين تشرع دولة لدولة . أو كتلة من الدول لكتلة .. فأما حين يشرع الله فلا حماية ولا مصلحة .

إنما هي العدالة المطلقة ، التي لا يطبقها تشريع غير تشريع الله ، ولا يحققها حكم غير حكمه .
من أجل ذلك كان الذين لا يرتضون حكم الله ورسوله هم الظالمون ، الذين لا يريدون للعدالة أن تستقر ؛
ولا يحبون للحق أن يسود . فهم لا يخشون في حكم الله حيفاً ، ولا يرتابون في عدالته أصلاً « بل أولئك
هم الظالمون » ..

فأما المؤمنون حقاً فلهم أدب غير هذا مع الله ورسوله . ولهم قول آخر إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم ؛
هو القول الذي يليق بالمؤمنين ؛ وينبئ عن إشراق قلوبهم بالنور :

« إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا : سمعنا وأطعنا . وأولئك هم
المفلحون » ..

فهو السمع والطاعة بلا تردد ولا جدال ولا انحراف . السمع والطاعة المستمدان من الثقة المطلقة في أن حكم
الله ورسوله هو الحكم وما عداه الهوى ؛ النابعان من التسليم المطلق لله ، واهب الحياة ، المتصرف فيها كيف
يشاء ؛ ومن الاطمئنان إلى أن ما يشاؤه الله للناس خير مما يشاءونه لأنفسهم . فالله الذي خلق أعلم بمن خلق ..

« وأولئك هم المفلحون » .. المفلحون لأن الله هو الذي يدبر أمورهم ، وينظم علاقاتهم ، ويحكم بينهم
بعلمه وعدله ؛ فلا بد أن يكونوا خيراً ممن يدبر أمورهم ، وينظم علاقاتهم ، ويحكم بينهم بشر مثلهم ،
قاصرون لم يؤتوا من العلم إلا قليلاً .. والمفلحون لأنهم مستقيمون على منهج واحد ، لا عوج فيه ولا التواء ،
مطمئنون إلى هذا المنهج ، ماضون فيه لا يتخبطون ، فلا تتوزع طاقاتهم ، ولا يمزقهم الهوى كل ممزق ، ولا
تقودهم الشهوات والأهواء . والنهج الإلهي أمامهم واضح مستقيم .

« ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون » ..

وقد كان الحديث في الآية السابقة عن الطاعة والتسليم في الأحكام . فالآن يتحدث عن الطاعة كافة في
كل أمر أو نهى ، مصحوبة هذه الطاعة بخشية الله وتقواه . والتقوى أعم من الخشية ، فهي مراقبة الله والشعور
به عند الصغيرة والكبيرة ؛ والتحرج من إتيان ما يكره توقيراً لذاته سبحانه ، وإجلالاً له ، وحياء منه ، إلى
جانب الخوف والخشية .

ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون ، الناجون في دنياهم وأخراهم . وعد الله
ولن يخلف الله وعده . وهم للفوز أهل ، ولديهم أسبابه من واقع حياتهم . فالطاعة لله ورسوله تقتضي السير
على النهج القويم الذي رسمه الله للبشرية عن علم وحكمة ، وهو بطبيعته يؤدي إلى الفوز في الدنيا والآخرة .
وخشية الله وتقواه هي الحارس الذي يكفل الاستقامة على النهج ، وإغفال المغريات التي تهتف بهم على جانبيه ،
فلا ينحرفون ولا يلتفتون .

وأدب الطاعة لله ورسوله ، مع خشية الله وتقواه ، أدب رفيع ، ينبئ عن مدى إشراق القلب بنور الله ،
واتصاله به ، وشعوره بهيبته . كما ينبئ عن عزة القلب المؤمن واستعلائه . فكل طاعة لا ترتكن على طاعة
الله ورسوله ، ولا تستمد منها ، هي ذلة يأبأها الكريم ، وينفر منها طبع المؤمن ، ويستعلي عليها ضميره .
فالؤمن الحق لا يحيي رأسه إلا الله الواحد القهار .

وبعد هذه المقابلة بين حسن أدب المؤمنين ، وسوء أدب المنافقين الذين يدعون الإيمان ، وما هم بمؤمنين ، بعد
هذه المقابلة يعود إلى استكمال الحديث عن هؤلاء المنافقين :

« وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن أمرتهم ليخرجن : قل : لا تقسموا . طاعة معروفة . إن الله خير بما تعملون . قل : أطيعوا الله وأطيعوا الرسول . فإن تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم . وإن تطيعوه تهتدوا . وما على الرسول إلا البلاغ المبين » ..

ولقد كان المنافقون يقسمون لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - لئن أمرهم بالخروج إلى القتال ليخرجن . والله يعلم إنهم لكاذبون . فهو يرد عليهم متكباً ، ساخراً من أيمانهم : « قل : لا تقسموا . طاعة معروفة » .. لا تحلفوا فإن طاعتكم معروف أمرها ، مفروغ منها ، لا تحتاج إلى حلف أو توكيد ! كما تقول لمن تعلم عليه الكذب وهو مشهور به : لا تحلف لي على صدقك . فهو مؤكد ثابت لا يحتاج إلى دليل . ويعقب على التهكم الساخر بقوله : « إن الله خير بما تعملون » .. فلا يحتاج إلى قسم ولا توكيد ، وقد علم أنكم لا تطيعون ولا تخرجون !

لهذا يعود فيأمرهم بالطاعة . الطاعة الحقيقية . لا طاعتهم تلك المعروفة المفهومة !

« قل : أطيعوا الله وأطيعوا الرسول » ..

« فإن تولوا » وتعرضوا ، أو تنافقوا ولا تنفذوا « فإنما عليه ما حمل » من تبليغ الرسالة وقد قام به وأداء « وعليكم ما حملتم » وهو أن تطيعوا وتخلصوا . وقد نكصتم عنه ولم تؤدوه : « وإن تطيعوه تهتدوا » إلى المنهج القويم المؤدي إلى الفوز والصلاح . « وما على الرسول إلا البلاغ المبين » فليس مسؤولاً عن إيمانكم ، وليس مقصراً إذا أتم توليتم . إنما أتم المسؤولون المعاقبون بما توليتم وبما عصيتم وبما خالفتم عن أمر الله وأمر الرسول .

* * *

وبعد استعراض أمر المنافقين ، والانهاء منه على هذا النحو .. يدعهم السياق وشأنهم ، ويلتفت عنهم إلى المؤمنين المطيعين ، يبين جزاء الطاعة المخلصة ، والإيمان العامل ، في هذه الأرض قبل يوم الحساب الأخير : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ؛ وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ؛ وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً . يعبدونني لا يشركون بي شيئاً . ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » ..

ذلك وعد الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات من أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - أن يستخلفهم في الأرض . وأن يمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم . وأن يبدلهم من بعد خوفهم أمناً .. ذلك وعد الله . ووعد الله حق . ووعد الله واقع . ولن يخلف الله وعده .. فما حقيقة ذلك الإيمان ؟ وما حقيقة هذا الاستخلاف ؟ إن حقيقة الإيمان التي يتحقق بها وعد الله حقيقة ضخمة تستغرق النشاط الإنساني كله ؛ وتوجه النشاط الإنساني كله . فما تكاد تستقر في القلب حتى تعلن عن نفسها في صورة عمل ونشاط وبناء وإنشاء موجه كله إلى الله ؛ لا يبتغي به صاحبه إلا وجه الله ؛ وهي طاعة لله واستسلام لأمره في الصغيرة والكبيرة ، لا يبقى معها هوى في النفس ، ولا شهوة في القلب ، ولا ميل في الفطرة إلا وهو تبع لما جاء به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من عند الله .

فهو الإيمان الذي يستغرق الإنسان كله ، بخواطر نفسه ، وخلجات قلبه . وأشواق روحه ، وميول فطرته ، وحركات جسمه ، ولفاتات جوارحه ، وسلوكه مع ربه في أهله ومع الناس جميعاً .. يتوجه بهذا كله إلى الله .. يتمثل هذا في قول الله سبحانه في الآية نفسها تعليلاً للاستخلاف والتمكين والأمن : « يعبدونني لا يشركون بي شيئاً » والشرك مداخل وألوان ، والتوجه إلى غير الله بعمل أو شعور هو لون من ألوان الشرك بالله .

ذلك الإيمان منهج حياة كامل ، يتضمن كل ما أمر الله به ، ويدخل فيها أمر الله به توفير الأسباب ، وإعداد العدة ، والأخذ بالوسائل ، والتهيؤ لحمل الأمانة الكبرى في الأرض .. أمانة الاستخلاف ..
فما حقيقة الاستخلاف في الأرض ؟

إنها ليست مجرد الملك والقهر والغلبة والحكم .. إنما هي هذا كله على شرط استخدامه في الإصلاح والتعمير والبناء ؛ وتحقيق المنهج الذي رسمه الله للبشرية كي تسير عليه ؛ وتصل عن طريقه إلى مستوى الكمال المقدر لها في الأرض ، اللائق بحليقة أكرمها الله .

إن الاستخلاف في الأرض قدرة على العمارة والإصلاح ، لا على الهدم والإفساد . وقدرة على تحقيق العدل والطمأنينة ، لا على الظلم والقهر . وقدرة على الارتفاع بالنفس البشرية والنظام البشري ، لا على الانحدار بالفرد والجماعة إلى مدارج الحيوان !

وهذا الاستخلاف هو الذي وعده الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات .. وعدهم الله أن يستخلفهم في الأرض - كما استخلف المؤمنين الصالحين قبلهم - ليحققوا النهج الذي أراده الله ؛ ويقرروا العدل الذي أراده الله ؛ ويسيروا بالبشرية خطوات في طريق الكمال المقدر لها يوم أنشأها الله .. فأما الذين يملكون فيفسدون في الأرض ، وينشرون فيها البغي والجور ، وينحدرون بها إلى مدارج الحيوان .. فهؤلاء ليسوا مستخلفين في الأرض . إنما هم مبتلون بما هم فيه ، أو مبتلى بهم غيرهم ، ممن يسلطون عليهم لحكمة يقدرها الله .

آية هذا الفهم لحقيقة الاستخلاف قوله تعالى بعده : « وليمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم » .. وتمكين الدين يتم بتمكينه في القلوب ، كما يتم بتمكينه في تصريف الحياة وتديرها . فقد وعدهم الله إذن أن يستخلفهم في الأرض ، وأن يجعل دينهم الذي ارتضى لهم هو الذي يهيمن على الأرض . ودينهم يأمر بالإصلاح ، ويأمر بالعدل ، ويأمر بالاستعلاء على شهوات الأرض . ويأمر بعمارة هذه الأرض ، والانتفاع بكل ما أودعها الله من ثروة ، ومن رصيد ، ومن طاقة ، مع التوجه بكل نشاط فيها إلى الله .

« وليبدلهم من بعد خوفهم أمناً » .. ولقد كانوا خائفين ، لا يأمنون ، ولا يضعون سلاحهم أبداً حتى بعد هجرة الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى قاعدة الإسلام الأولى بالمدينة .

قال الربيع بن أنس عن أبي العالية في هذه الآية : كان النبي - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه بمكة نحواً من عشر سنين يدعون إلى الله وحده ، وإلى عبادته وحده بلا شريك له ، سرّاً وهم خائفون لا يؤمرون بالقتال ؛ حتى أمروا بعد الهجرة إلى المدينة ، فقدموها ، فأمرهم الله بالقتال ، فكانوا بها خائفين ، يمسون في السلاح ويصبجون في السلاح ؛ فصبروا على ذلك ما شاء الله . ثم إن رجلاً من الصحابة قال : يا رسول الله أهدر الدهر نحن خائفون هكذا ؟ أما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع عنا السلاح ؟ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « لن تصبروا إلا يسيراً حتى يجلس الرجل منكم في الملاء العظيم ليست فيه حديدة » . وأنزل الله هذه الآية ، فأظهر الله نبيه على جزيرة العرب ، فأمنوا ووضعوا السلاح . ثم إن الله قبض نبيه - صلى الله عليه وسلم - فكانوا كذلك آمنين في إمارة أبي بكر وعمر وعثمان . حتى وقعوا فيها وقعوا فيه ، فأدخل الله عليهم الخوف ؛ فاتخذوا الحجة والشرط ، وغيروا فغير بهم ..

« ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » .. الخارجون على شرط الله . ووعد الله . وعهد الله ..

لقد تحقق وعد الله مرة . وظل متحققاً وواقعاً ما قام المسلمون على شرط الله : « يعبدوني لا يشركون بي شيئاً » .. لا من الآلهة ولا من الشهوات . ويؤمنون - من الإيمان - ويعملون صالحاً . ووعد الله مذخور

لكل من يقوم على الشرط من هذه الأمة إلى يوم القيامة . إنما يبطئ النصر والاستخلاف والتمكين والأمن ، لتخلف شرط الله في جانب من جوانبه الفسيحة ؛ أو في تكليف من تكاليفه الضخمة ؛ حتى إذا انتفعت الأمة بالبلاء ، وجازت الابتلاء ، وخافت فطلبت الأمن ، وذلت فطلبت العزة ، وتخلفت فطلبت الاستخلاف .. كل ذلك بوسائله التي أرادها الله ، وبشروطه التي قررها الله .. تحقق وعد الله الذي لا يتخلف ، ولا تقف في طريقه قوة من قوى الأرض جميعاً .

لذلك يعقب على هذا الوعد بالأمر بالصلاة والزكاة والطاعة ؛ وبألا يحسب الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأمته حساباً لقوة الكافرين الذين يحاربونهم ويحاربون دينهم الذي ارتضى لهم :

« وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون . لا تحسن الذين كفروا معجزين في الأرض . وما أوهام النار ولبئس المصير » ..

فهذه هي العدة .. الاتصال بالله ، وتقويم القلب بإقامة الصلاة . والاستعلاء على الشح ، وتطهير النفس والجماعة بإيتاء الزكاة . وطاعة الرسول والرضى بحكمه ، وتنفيذ شريعة الله في الصغيرة والكبيرة ، وتحقيق النهج الذي أراده للحياة : « لعلكم ترحمون » في الأرض من الفساد والانحدار والخوف والقلق والضلال ، وفي الآخرة من الغضب والعذاب والنكال .

فإذا استقمتم على النهج ، فلا عليكم من قوة الكافرين . فما هم بمعجزين في الأرض ، وقوتهم الظاهرة لن تقف لكم في طريق . وأنتم أقوياء بإيمانكم ، أقوياء بنظامكم ، أقوياء بعدتكم التي تستطيعون . وقد لا تكونون في مثل عدتهم من الناحية المادية . ولكن القلوب المؤمنة التي تجاهد تصنع الخوارق والأعاجيب .

إن الإسلام حقيقة ضخمة لا بد أن يتملاها من يريد الوصول إلى حقيقة وعد الله في تلك الآيات . ولا بد أن يبحث عن مصداقها في تاريخ الحياة البشرية ، وهو يدرك شروطها على حقيقتها ، قبل أن يتشكك فيها أو يرتاب ، أو يستبطئ وقوعها في حالة من الحالات .

إنه ما من مرة سارت هذه الأمة على نهج الله ، وحكمت هذا النهج في الحياة ، وارتضته في كل أمورها .. إلا تحقق وعد الله بالاستخلاف والتمكين والأمن . وما من مرة خالفت عن هذا النهج إلا تخلفت في ذيل القافلة ، وذلت ، وطردها من الهيمنة على البشرية ؛ واستبد بها الخوف ؛ وتخطفها الأعداء .

ألا وإن وعد الله قائم . ألا وإن شرط الله معروف . فمن شاء الوعد فليقم بالشرط . ومن أوفى بعهده من الله ؟

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَعِذْنَكَ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ؕ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوْفُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمْ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَعِذْنَوكَا ۖ اسْتَعِذَّ الَّذِينَ مِّن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ

وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠﴾

لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ بَنَاتِكُمْ فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَاسْلُمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَشِّرَةٌ بِطَيْبَةٍ كَذَلِكَ بَيَّنَّ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١﴾

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ء وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ ء إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ء فَإِذَا سَأَلْتَهُمْ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ اللَّهُ ء إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾

لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلُونَ مِنْكُمْ لَوْ آذَأَ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ء أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٣﴾

الْأَيُّهَا اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ رُجِعُونَ إِلَيْهِ ء فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا ء وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٤﴾

إن الإسلام منهاج حياة كامل ؛ فهو ينظم حياة الإنسان في كل أطوارها ومراحلها ، وفي كل علاقاتها وارتباطاتها ، وفي كل حركاتها وسكناتها . ومن ثم يتولى بيان الآداب اليومية الصغيرة ، كما يتولى بيان التكاليف العامة الكبيرة ؛ وينسق بينها جميعاً ، ويتجه بها إلى الله في النهاية .

وهذه السورة نموذج من ذلك التنسيق . لقد تضمنت بعض الحدود إلى جانب الاستئذان على البيوت . وإلى جانبها جولة ضخمة في مجالي الوجود . ثم عاد السياق يتحدث عن حسن أدب المسلمين في التحاكم إلى الله ورسوله وسوء أدب المنافقين . إلى جانب وعد الله الخق للمؤمنين بالاستخلاف والأمن والتمكين . وها هو ذا في هذا الدرس يعود إلى آداب الاستئذان في داخل البيوت ؛ إلى جانب الاستئذان من مجلس رسول الله - صلى

سورة النور

الله عليه وسلم - وينظم علاقة الزيارة والطعام بين الأقارب والأصدقاء ؛ إلى جانب الأدب الواجب في خطاب الرسول ودعائه ... فكلها آداب تأخذ بها الجماعة المسلمة وتنظم بها علاقاتها . والقرآن يربطها في مجالات الحياة الكبيرة والصغيرة على السواء .

* * *

« يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ، ثلاث مرات : من قبل صلاة الفجر ، وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ، ومن بعد صلاة العشاء . ثلاث عورات لكم . ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن . طوافون عليكم بعضكم على بعض . كذلك بين الله لكم الآيات والله عليم حكيم » ..

لقد سبقت في السورة أحكام الاستئذان على البيوت . وهنا يبين أحكام الاستئذان في داخل البيوت . فالخدم من الرقيق ، والأطفال المميزون الذين لم يبلغوا الحلم يدخلون بلا استئذان . إلا في ثلاثة أوقات تنكشف فيها العورات عادة ، فهم يستأذنون فيها . هذه الأوقات هي : الوقت قبل صلاة الفجر حيث يكون الناس في ثياب النوم عادة أو أنهم يغيرونها ويلبسون ثياب الخروج . ووقت الظهيرة عند القيلولة ، حيث يخلعون ملابسهم في العادة ويرتدون ثياب النوم للراحة . وبعد صلاة العشاء حين يخلعون ملابسهم كذلك ويرتدون ثياب الليل ..

وسماها « عورات » لانكشاف العورات فيها . وفي هذه الأوقات الثلاثة لا بد أن يستأذن الخدم ، وأن يستأذن الصغار المميزون الذين لم يبلغوا الحلم ، كي لا تقع أنظارهم على عورات أهلهم . وهو أدب يغفله الكثيرون في حياتهم المنزلية ، مستهينين بآثاره النفسية والعصبية والخلقية ، ظانين أن الخدم لا تمتد أعينهم إلى عورات السادة ! وأن الصغار قبل البلوغ لا ينتبهون لهذه المناظر . بينما يقرر النفسيون اليوم - بعد تقدم العلوم النفسية - أن بعض المشاهد التي تقع عليها أنظار الأطفال في صغرهم هي التي تؤثر في حياتهم كلها ؛ وقد تصيبهم بأمراض نفسية وعصبية يصعب شفاؤهم منها .

والعلم الخبير يؤدب المؤمنين بهذه الآداب ؛ وهو يريد أن يبني أمة سليمة الأعصاب ، سليمة الصدور ، مهذبة المشاعر ، طاهرة القلوب ، نظيفة التصورات .

ويخصص هذه الأوقات الثلاثة دون غيرها لأنها مظنة انكشاف العورات . ولا يجعل استئذان الخدم والصغار في كل حين منعاً للخرج . فهم كثيرون الدخول والخروج على أهلهم بحكم صغر سنهم أو قيامهم بالخدمة : « طوافون عليكم بعضكم على بعض » .. وبذلك يجمع بين الحرص على عدم انكشاف العورات ، وإزالة الحرج والمشقة لو حتم أن يستأذنا كما يستأذن الكبار .

فأما حين يدرك الصغار سن البلوغ ، فإنهم يدخلون في حكم الأجانب ، الذين يجب أن يستأذنا في كل وقت ، حسب النص العام ، الذي مضت به آية الاستئذان .

ويعقب على الآية بقوله : « والله عليم حكيم » لأن المقام مقام علم الله بنفوس البشر ، وما يصلحها من الآداب ؛ ومقام حكمته كذلك في علاج النفوس والقلوب .

* * *

ولقد سبق الأمر كذلك بإخفاء زينة النساء منعاً لإثارة الفتن والشهوات . فعاد هنا يستثنى من النساء القواعد

اللواتي فرغت نفوسهن من الرغبة في معايشة الرجال ؛ وفرغت أجسامهن من الفتنة المثيرة للشهوات :
« والقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحاً ؛ فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن - غير متبرجات بزينة -
وأن يستعفن خير لهن ؛ والله سميع عليم » ..

فهؤلاء القواعد لا حرج عليهن أن يخلعن ثيابهن الخارجية . على ألا تنكشف عوراتهن ولا يكشفن عن
زينة . وخير لهن أن يبقين كاسيات بثيابهن الخارجية الفضفاضة . وسمي هذا استعفافاً . أي طلباً للعفة وإيثاراً لها ،
لما بين التبرج والفتنة من صلة ؛ وبين التحجب والعفة من صلة .. وذلك حسب نظرية الإسلام في أن خير
سبل العفة تقليل فرص الغواية ، والحيلولة بين المثيرات وبين النفوس .

« والله سميع عليم » .. يسمع ويعلم ، ويطلع على ما يقوله اللسان ، وما يوسوس في الجنان . والأمر هنا
أمر نية وحساسية في الضمير .

* * *

ثم يمضي في تنظيم العلاقات والارتباطات بين الأقارب والأصدقاء :

« ليس على الأعمى حرج ، ولا على الأعرج حرج ، ولا على المريض حرج ؛ ولا على أنفسكم أن تأكلوا
من بيوتكم ، أو بيوت آبائكم ، أو بيوت أمهاتكم . أو بيوت إخوانكم ، أو بيوت أخواتكم ، أو بيوت
أعمامكم . أو بيوت عماتكم ، أو بيوت أخوالكم ، أو بيوت خالاتكم ؛ أو ما ملكتم مفاتحه ، أو صديقكم .
ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً . فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم . تحية من عند الله مباركة
طيبة . كذلك بين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون » ..

. روي أنهم كانوا يأكلون من هذه البيوت المذكورة - دون استئذان - ويستصحبون معهم العمى والعرج
والمريض ليطعموهم .. الفقراء منهم .. فتخرجوا أن يطعموا وتخرج هؤلاء أن يصحبوهم دون دعوة من
أصحاب البيوت أو إذن . ذلك حين نزلت : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » فقد كانت حساسيتهم
مرهفة . فكانوا يحذرون دائماً أن يقعوا فيما نهى الله عنه ، ويتحرجون أن يلموا بالمحظور ولو من بعيد .
فأنزل الله هذه الآية ، ترفع الحرج عن الأعمى والمريض والأعرج ، وعن القريب أن يأكل من بيت قريبه .
وأن يصحب معه أمثال هؤلاء المحاويج . وذلك محمول على أن صاحب البيت لا يكره هذا ولا يتضرر به .
استناداً إلى القواعد العامة في أنه « لا ضرر ولا ضرار » وإلى أنه « لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس » .

ولأن الآية آية تشريع ، فإننا نلاحظ فيها دقة الأداء اللفظي والترتيب الموضوعي ، والصياغة التي لا تدع
مجالاً للشك والغموض . كما نلمح فيها ترتيب القرابات . فهي تبدأ ببيوت الأبناء والأزواج ولا تذكرهم .
بل تقول الآية : « من بيوتكم » فيدخل فيها بيت الابن وبيت الزوج ، فيبت الابن بيت أبيه ، وبيت الزوج
بيت لزوجته ، وتليها بيوت الآباء ، فيبيوت الأمهات . فيبيوت الإخوة ، فيبيوت الأخوات . فيبيوت الأعمام ،
فيبيوت العمات ، فيبيوت الأخوال ، فيبيوت الخالات .. ويضاف إلى هذه القرابات الخازن على مال الرجل
فله أن يأكل مما يملك مفاتحه بالمعروف ولا يزيد على حاجة طعامه . ويلحق بها بيوت الأصدقاء . ليلحق صلتهم
بصلة القرابة . عند عدم التأذي والضرر . فقد يسر الأصدقاء أن يأكل أصدقائهم من طعامهم بدون استئذان .
فإذا انتهى من بيان البيوت التي يجوز الأكل منها ، بين الحالة التي يجوز عليها الأكل : « ليس عليكم جناح

(١) رواه الشافعي واستند إليه في أحد قوله عن مكاتبه الرقيق .

أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً» فقد كان من عادات بعضهم في الجاهلية ألا يأكل طعاماً على انفراد ، فإن لم يجد من يؤاكله عاف الطعام ! فرجع الله هذا الحرج المتكلف ، ورد الأمر إلى بساطته بلا تعقيد ، وأباح أن يأكلوا أفراداً أو جماعات .

فإذا انتهى من بيان الحالة التي يكون عليها الأكل ذكر آداب دخول البيوت التي يؤكل فيها : « فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة » .. وهو تعبير لطيف عن قوة الرابطة بين المذكورين في الآية . فالذي يسلم منهم على قريبه أو صديقه يسلم على نفسه . والتحية التي يلقيها عليه هي تحية من عند الله . تحمل ذلك الروح ، وتفوح بذلك العطر . وترتبط بينهم بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها ..

وهكذا ترتبط قلوب المؤمنين بربهم في الصغيرة والكبيرة :

« كذلك بين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون » .. وتدركون ما في المنهج الإلهي من حكمة ومن تقدير ..

* * *

وينتقل من تنظيم العلاقات بين الأقارب والأصدقاء ، إلى تنظيمها بين الأسرة الكبيرة .. أسرة المسلمين .. ورئيسها وقائدها محمد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وإلى آداب المسلمين في مجلس الرسول :

« إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله . وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه ؛ إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله . فإذا استأذنتك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم ، واستغفر لهم الله . إن الله غفور رحيم . لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً . قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لوأذاً . فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم . ألا إن لله ما في السماوات والأرض قدي يعلم ما أتم عليه ؛ ويوم يرجعون إليه فينبئهم بما عملوا ، والله بكل شيء عليم » ..

روى ابن اسحاق في سبب نزول هذه الآيات أنه لما كان تجمع قريش والأحزاب في غزوة الخندق . فلما سمع بهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وما أجمعوا له من الأمر ضرب الخندق على المدينة . فعمل فيه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ترغيباً للمسلمين في الأجر ، وعمل معه المسلمون فيه ، فدأب ودأبوا ، وأبأباً عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعن المسلمين في عملهم ذلك رجال من المنافقين ، وجعلوا يورون بالضعيف من العمل ، ويتسللون إلى أهلهم بغير علم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولا إذنه ؛ وجعل الرجل من المسلمين إذا نابه النائية من الحاجة التي لا بد منها يذكر ذلك لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - ويستأذنه في اللحوق بحاجته ، فيأذن له . فإذا قضى حاجته رجع إلى ما كان فيه من عمله ، ورغبة في الخير واحتساباً له . فأنزل الله تعالى في أولئك المؤمنين : « إنما المؤمنون ... الآية » ثم قال تعالى : يعني المنافقين الذين كانوا يتسللون من العمل ، ويذهبون بغير إذن من النبي - صلى الله عليه وسلم - : « لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم ... الآية » ..

وأياً ما كان سبب نزول هذه الآيات فهي تتضمن الآداب النفسية التنظيمية بين الجماعة وقائدها . هذه الآداب التي لا يستقيم أمر الجماعة إلا حين تنبع من مشاعرهما وعواطفهما وأعماق ضميرها . ثم تستقر في حياتها فتصبح تقليداً متبعاً وقانوناً نافذاً . وإلا فهي الفوضى التي لا حدود لها :

« إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله » .. لا الذين يقولون بأفواههم ثم لا يحققون مدلول قولهم ، ولا يطيعون الله ورسوله .

« وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنه » .. والأمر الجامع الأمر الهام الذي يقتضي اشتراك الجماعة فيه ، لرأي أو حرب أو عمل من الأعمال العامة . فلا يذهب المؤمنون حتى يستأذنوا إمامهم . كي لا يصبح الأمر فوضى بلا وقار ولا نظام .

وهؤلاء الذين يؤمنون هذا الإيمان ، ويلتزمون هذا الأدب ، لا يستأذنون إلا وهم مضطرون ؛ فلهم من إيمانهم ومن أديهم عاصم ألا يتخلوا عن الأمر الجامع الذي يشغل بال الجماعة ، ويستدعي تجمعها له .. ومع هذا فالقرآن يدع الرأي في الإذن أو عدمه للرسول - صلى الله عليه وسلم - رئيس الجماعة . بعد أن يبيح له حرية الإذن : « فإذا استأذنتوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم » .. (وكان قد عاتبه على الإذن للمنافقين من قبل فقال : « عفا الله عنك ! لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين ») .. يدع له الرأي فإن شاء أذن ، وإن شاء لم يأذن ، فيرفع الحرج عن عدم الإذن ، وقد تكون هناك ضرورة ملحة . ويستتقي حرية التقدير لقائد الجماعة ليوازن بين المصلحة في البقاء والمصلحة في الانصراف . ويترك له الكلمة الأخيرة في هذه المسألة التنظيمية يدبرها بما يراه .

ومع هذا يشير إلى أن مغالبة الضرورة ، وعدم الانصراف هو الأولى ؛ وأن الاستئذان والذهاب فيهما تقصير أو قصور يقتضي استغفار النبي - صلى الله عليه وسلم - للمعتذرين : « واستغفر لهم الله . إن الله غفور رحيم » .. وبذلك يقيد ضمير المؤمن . فلا يستأذن وله مندوحة لقهر العذر الذي يدفع به إلى الاستئذان . ويلتفت إلى ضرورة توقيف الرسول - صلى الله عليه وسلم - عند الاستئذان ، وفي كل الأحوال . فلا يدعى باسمه : يا محمد . أو كنيته : يا أبا القاسم . كما يدعو المسلمون بعضهم بعضاً . إنما يدعى بتشريف الله له وتكريمه : يا نبي الله . يا رسول الله :

« لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً » ..

فلا بد من امتلاء القلوب بالتوقير لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى تستشعر توقيف كل كلمة منه وكل توجيه . وهي لفظة ضرورية . فلا بد للمربي من وقار ، ولا بد للقائد من هيبة . وفرق بين أن يكون هو متواضعاً هيناً ليناً ؛ وأن ينسوا هم أنه مريهم فيدعوه دعاء بعضهم لبعض .. يجب أن تبقى للمربي منزلة في نفوس من يربهم يرتفع بها عليهم في قرارة شعورهم ، ويستحيون هم أن يتجاوزوا معها حدود التبجيل والتوقير .

ثم يحذر المنافقين الذين يتسللون ويذهبون بدون إذن ، يلوذ بعضهم ببعض ، ويتدارى بعضهم ببعض .. فعين الله عليهم ، وإن كانت عين الرسول لا تراهم : « قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لوأذاً » .. وهو تعبير يصور حركة التخلي والتسلل بحذر من المجلس ؛ ويمثل فيها الجبن عن المواجهة ، وحقارة الحركة والشعور المصاحب لها في النفوس .

« فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم » ..

وإنه لتحذير مرهوب ، وتهديد رعيب .. فليحذر الذين يخالفون عن أمره ، ويتبعون نهجاً غير نهجه ، ويتسللون من الصف ابتغاء منفعة أو اتقاء مضرة . ليحذروا أن تصيبهم فتنة تضطرب فيها المقاييس ، وتختل فيها الموازين ، وينتكث فيها النظام ، فيختلط الحق بالباطل ، والطيب بالخبيث ، وتفسد أمور الجماعة وحياتها ؛ فلا يأمن على نفسه أحد ، ولا يقف عند حده أحد ، ولا يتميز فيها خير من شر .. وهي فترة شقاء للجميع :

سورة النور

« أو يصيبهم عذاب أليم » في الدنيا أو في الآخرة . جزاء المخالفة عن أمر الله ، ونهجه الذي ارتضاه للحياة . ويختم هذا التحذير ، ويختم معه السورة كلها بإشعار القلوب المؤمنة والمنحرفة بأن الله مطلع عليها ، رقيب على عملها ، عالم بما تنطوي عليه وتخفيه .

« ألا إن لله ما في السماوات والأرض . قد يعلم ما أنتم عليه . ويوم يرجعون إليه فينبئهم بما عملوا . والله بكل شيء عليم » .

* * *

وهكذا تختم السورة بتعليق القلوب والأبصار بالله ؛ وتذكيرها بنخشيته وتقواه . فهذا هو الضمان الأخير . وهذا هو الحارس لتلك الأوامر والنواهي ، وهذه الأخلاق والآداب ، التي فرضها الله في هذه السورة وجعلها كلها سواء ..

* * *

انتهى الجزء الثامن عشر
ويليه الجزء التاسع عشر
مبدوءاً بسورة الفرقان*

* ينتهي هذا الجزء بالربع الأول من سورة الفرقان . ولكن لأن الفرقان وحدة ذات موضوع واحد آثرت الوقوف بالجزء الثامن عشر هنا ،
لتعرض الفرقان كاملة في الجزء التاسع عشر بإذن الله ..

اتهى المجلد الرابع
ويليه المجلد الخامس
متضمناً الأجزاء من التاسع عشر
إلى الخامس والعشرين

تَمَّ بِعَوْنِ اللَّهِ طَبْعَ هَذَا الْكِتَابِ
فِي مَطْبَاعِ الشُّرُوقِ - بَيْرُوتِ
ص.ب : ٨٠٦٤ - تليفون : ٣١٥٨٥٩